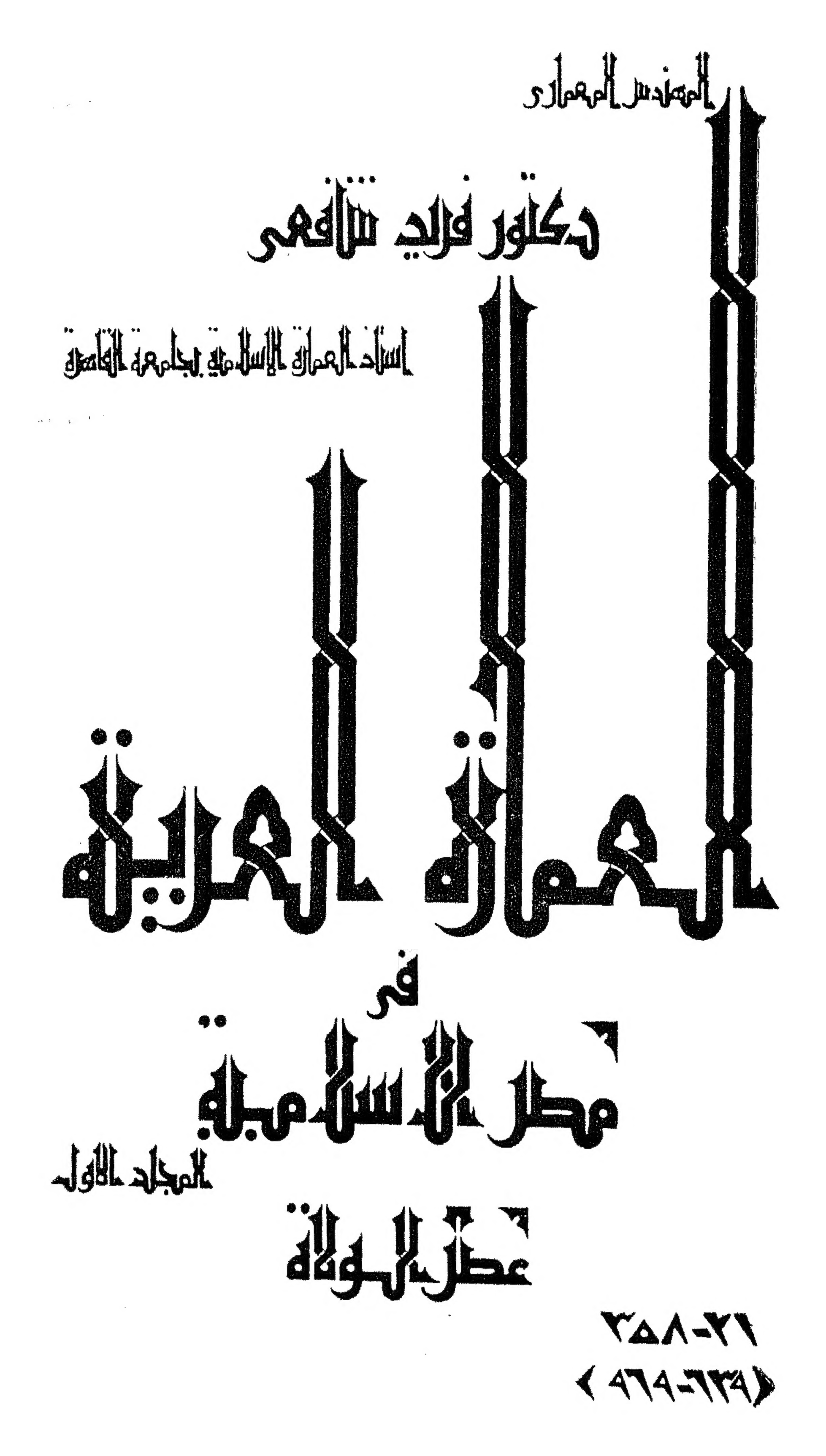

المهندس المعماري
دكتور فريد شافعي
استاذ العمارة الاسلامية بجامعة القاهرة
العمارة العربية
في
مصر الإسلامية
المجلد الأول
عصر الولاة
٢١-٣٥٨
(٦٣٩-٩٦٩)



الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
١٩٧٠



الإهداء

إلى زوجتي خيرية

اعترافاً بفضلها وعونها

محتويات الكتاب

صفحات

القسم الأول

دراسات تمهيدية

صفحات: ٣٣– ٢٩٢

الفصل الأول :

الفصل الثانى :

الفصل الثالث :

القسم الثانى

عمارة عصر الولاة
من الفتح العربى الى الفتح الفاطمى

صفحات ٢٩٣ – ٦٥٢

فهرس الأشكال والصور

الفصل الأول

رقم الشكل　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　رقم الصفحة

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

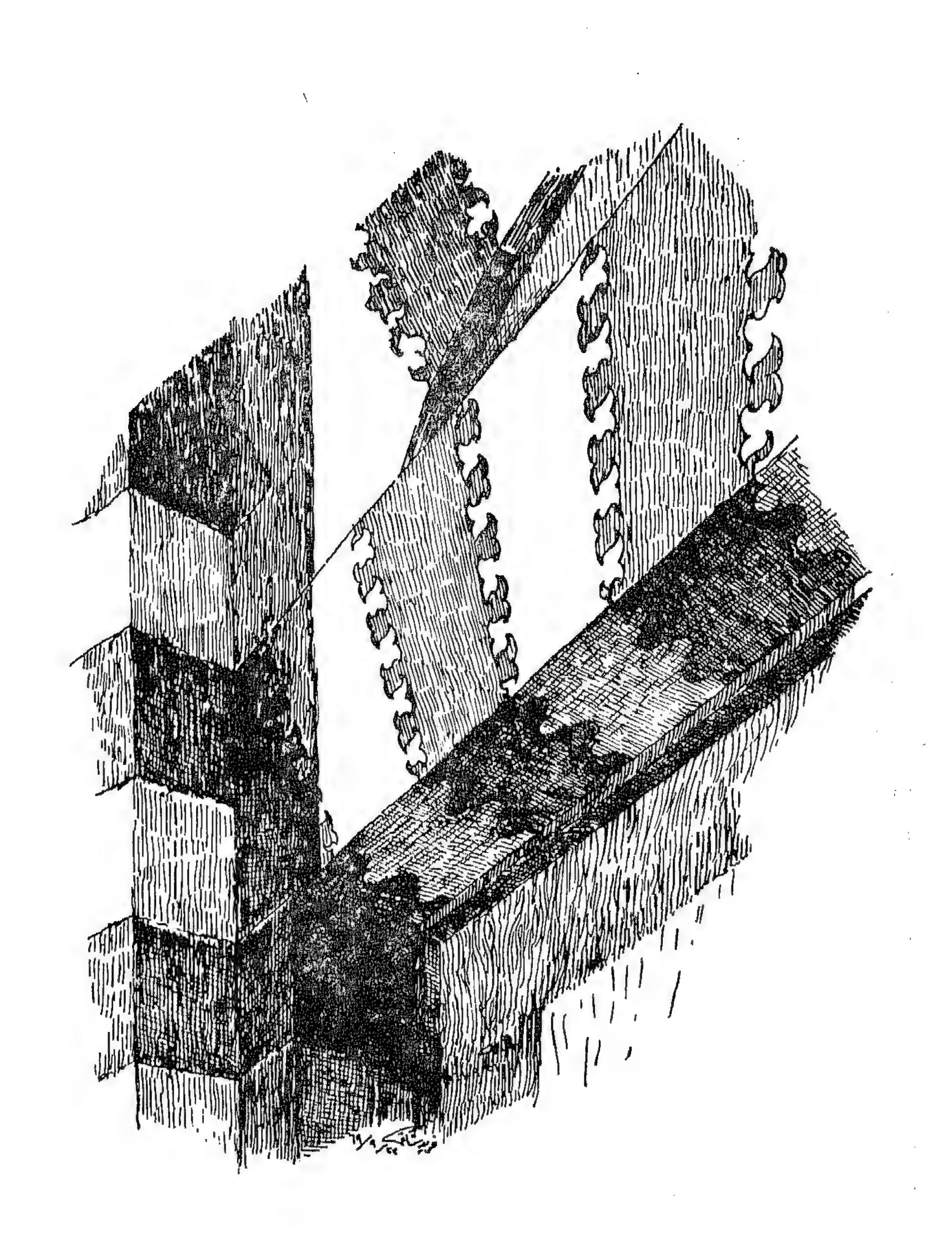
الفصل السادس

رقم الشكل رقم الصفحة

رقم الشكل | رقم الصفحة

الفصل السابع

رقم الشكل		رقم الصفحة
٣٥٦ – اسوان	: المقبرة رقم (٢٨) تحمل قبتها مثلثات هرمية مزينة بدخلات فى الواجهة	٥٤٤
٣٥٧ – اسوان	: مقبرة رقم (٣٠) مستطيلة المسقط ومفتوحة من الجوانب الثلاثة ...	٥٤٤
٣٥٨ – اسوان	: مقبرة رقم (٣٠) تحمل قبتها أركان من مثلثات هرمية	٥٤٤
٣٥٩ – اسوان	: مقبرة رقم (٤٢) مربعة المسقط ومفتوحة من ثلاث جوانب ...	٥٤٦
٣٦٠ – اسوان	: مقبرة رقم (٤٢) ، المثلثات الكروية التى تحمل القبة	٥٤٦
٣٦١ – اسوان	: مقبرة رقم (٥٤) مربعة المسقط وكانت مفتوحة من الجوانب	٥٤٨
٣٦٢ – اسوان	: مقبرة رقم (٥٣) مربعة المسقط ومسدودة الجوانب	٥٤٨
٣٦٣ – اسوان	: المقبرتان رقم (٥٤و٥٣)	٥٤٨
٣٦٤ – اسوان	: الحنية المخروطية الحاملة لقبة المقبرة رقم (٥٣)	٥٥٠
٣٦٥ – اسوان	: الحنية المخروطية الحاملة لقبة المقبرة رقم (٥٤)	٥٥٠
٣٦٦ – اسوان	: مقبرة رقم (١٧) مربعة المسقط ومفتوحة من الجوانب الاربعة ...	٥٥٢
٣٦٧ – اسوان	: مقبرة رقم (١٧) ، الحنية المخروطية التى تحمل القبة	٥٥٢
٣٦٨ – اسوان	: مقبرة رقم (٢٠) مربعة المسقط ومفتوحة من جانبين	٥٥٤
٣٦٩ – اسوان	: مقبرة رقم (٢٠) تغطيها قبة على مقرنصات اسلامية	٥٥٤
٣٧٠ – اسوان	: مقبرة رقم (٢٤) مربعة المسقط مفتوحة من الجوانب الثلاثة ...	٥٥٦
٣٧١ – اسوان	: قطاع رأسى فى المقبرة رقم (٢٣)	٥٥٦
٣٧٢ – اسوان	: المقرنصات الحاملة لقبة المقبرة رقم (٢٣)	٥٥٧
٣٧٣ – اسوان	: واجهة المقبرة رقم (٢٣)	٥٥٧
٣٧٤ – اسوان	: المقبرة رقم (١٤) ، المقرنصات الركنية الاسلامية	٥٥٨
٣٧٥ – اسوان	: واجهة المقبرة رقم (١٤)	٥٥٨
٣٧٦ – اسوان	: المقبرة رقم (٤٦) مربعة المسقط ومفتوحة من الجوانب الثلاثة ...	٥٦٠
٣٧٧ – اسوان	: المقرنصات الاسلامية فى المقبرة رقم (٤٦)	٥٦٠
٣٧٨ – اسوان	: مقبرة رقم (٤) مستطيلة المسقط ويتقدمها فناء مستطيل	٥٦٢
٣٧٩ – اسوان	: واجهة المقبرة رقم (٤)	٥٦٢
٣٨٠ – اسوان	: رسم لركن مسطح مستقيم الحافات	٥٦٤
٣٨١ – حوران	: رسم لركن مسطح مستقيم الحافات	٥٦٤
٣٨٢ – اسوان	: رسم لركن مسطح مستدير الحافة	٥٦٤
٣٨٣ – عمان	: رسم لركن مسطح مستدير الحافة	٥٦٤
٣٨٤ – العراق، الاخضر	: حنية نصف مخروطية	٥٦٦
٣٨٥ – قصر الاخيصر	: ركن مسطح ومستدير الحافة	٥٦٦
٣٨٦ – اللاذقية	: منظور لمثلثات هرمية	٥٦٨
٣٨٧ – اللاذقية	: مسقط للمثلثات الهرمية	٥٦٨
٣٨٨ – القيروان	: القبة فوق مربع محراب المسجد الجامع	٥٦٨
٣٨٩ – سوهاج	: جوسق فى الدير الابيض	٥٧٠
٣٩٠ – اسوان	: المقبرة رقم (٥) ويظهر فى واجهتها المقرنصات وبينها حنيات ...	٥٧٠
٣٩١ – اسوان	: المقبرة رقم (٥) ، المسقط	٥٧١
٣٩٢ – اسوان	: منظور داخلى للمقرنصات والحنيات بينها فى المقبرة رقم (٥) ...	٥٧١
٣٩٣ – القاهرة الفاطمية	: مقرنصات على حطتين	٥٧٢
٣٩٤ – اسوان	: مقرنصات على حطتين	٥٧٢



المقدمة

تعود بى الذاكرة وأنا أكتب مقدمة كتابى هذا الى ما يقرب من نصف قرن فى بعض المواضع والى أكثر من ذلك فى بعض آخر ٠

تعود بى الى عام ١٩٢٢ أيام السنة الثانية من المرحلة الثانوية ، عندما تعرفت لأول مرة على كلمة «أرابسك» ، أى الزخارف والعناصر العربية ٠

حدث ذلك عن طريق كراسة كانت ضمن ما كان يوزع علينا ، وتحتوى على بعض من تلك العناصر والزخارف ٠ وكان يطلب منا اعادة رسمها وتكوين موضوعات زخرفية منها (١)٠ واستهوتنى تلك الرسوم حتى كنت أقضى أوقات فراغى فى التنويع من أشكالها وابتكار تكوينات وموضوعات منها ٠ واستمرت هوايةحتى اخترت العمارة تخصصا بمدرسة الهندسة (الملكية) أيامها ، وكلية الهندسة بجامعة القاهرة بعدها٠

نمت تلك الهواية وتعمقت جذورها بفضل اتساع المجال للبحث والدراسة ، وتوفر المراجع الثمينة النادرة ، ومحاضرات وتوجيه الأساتذة ٠ ولازلت أذكر رحلاتنا وجولاتنا بصحبة أستاذنا المرحوم المهندس على لبيب جبر بين العمائر العربية الاسلامية ، لرسم الكتل والتفاصيل والزخارف ، ثم ما كنا نكلف بتصميمه من مشروعات معمارية على الطراز العربى ٠

وأخيرا جاء التطبيق العملى لكل ذلك عندما عينت فى عام١٩٢٩ مهندسا بمصلحة المبانى الأميرية بقسم العمارة والتصميمات ٠ فقد حدث أن قرر أعضاء مجلس النواب فى سنة ١٩٣٢ بناء مسجد للمجلس فى الفناء الخارجى على الشارع الرئيسى، وكلف بتصميمه رئيسى فى ذلك الوقت ، وكان يكرر على مسمعى كثيرا أنه من القلائل الذين على علم بذلك الطراز الصعب المعقد ٠ وشاء الحظ أن يقوم فى عطلته السنوية قبل أن يبدأ فيه ، وأن يشرف مؤقتا على قسمه رئيس آخر ، فلم يرغب وهو منتدب أن يتدخل فى التصميم ، ظنا منه أنى مكلف به ٠ وهكذا شاءت الظروف أن تجعل هذا الأمر من نصيبى ٠ وكانت فرصة نادرة لمن يعد حديث التخرج مثلى أن يضطلع بهذا المشروع من ناحية ، ثم انها قد أتاحت لى من ناحية أخرى أن أضع هوايتى موضع التجربة العملية ٠ وتم لى اعداد التصميم الابتدائى وعرضه والحصول على الموافقة عليه قبل أن يعود رئيسى الأصلى من عطلته ٠ وحدث ما هو منتظر من مناقشات انتهت بنقلى مع مشروعى من قسمه الى قسم الرئيس الثانى الذى أتاح لى الحرية الكاملة فى بلورة كل ما يعن لى من أفكار فى التكوينات المعمارية والزخرفية ، ثم ختم فضله بأن شهد لى فى تقريره السنوى عنى بأننى قمت وحدى باعداد المشروع كله ٠ وها هو المسجد يقوم بجانب مجلس الامة منذ سنة ١٩٣٤ مثلا مجسما أنتجته تلك الهواية ٠ وليس هنا مجال لتفصيل ما تلى ذلك من انتاج فى ميدان العمارة العربية فى أثناء عملى فى قسم التصميمات الى عام ١٩٣٩ بمصلحة المبانى الاميرية أو منتدبا بهندسة القصور الملكية حتى فبراير عام ١٩٥٢ ٠

---

(١) Marlow (F.) : Marlow's Arabesque Drawing Book, London.

ثم جاءت نقطة التحول الفاصلة عندما سمعت فى سنة ١٩٣٩ بوجود معهد للآثار الاسلامية بكلية الآداب بالجيزة يقوم أساسا على دراسة العمارة والفنون ٠ وبالتحاقى بهذا المعهد انبسط أمامى ميدان فسيح أتاح لى أن أغترف منه ما يشبع شغفى بذلك الطراز الذى كنت أشعر كأنه يجرى فى دمى منذ طفولتى التى قضيت منها شطرا أنظر فيه على الدنيا من خلال فراغات المشربيات فى بيت قديم للعائلة ، راح أغلبه فى مشروع توسيع ما حول جامع ابن طولون ٠

وهكذا اتخذت دراستى لذلك الطراز طابع العمق والمتعة ، وصار له « طعم » جديد ، وأصبحت أدرس آثاره فى تعمق ولذة تفوقان كل ما درسته من قبل من العلوم حتى أيام دراسة تاريخ العمارة فى «مدرسة» الهندسة « الملكية » بالجيزة وكلية الهندسة الآن ٠

ولم تقتصر متعة الدراسة على الآثار الاسلامية فحسب بل مست الطرز الاخرى مما سبقت الاسلام وعاصرت تكوين وتطور عمارته وفنونه ، ومنها الهلينية ـ أى الاغريقية ـ والرومانية والبيزنطية والساسانية وغيرها ٠ وكلها طرز لم تكن دراستها جديدة على ٠

ولكن الجديد الطلى فى كل ذلك أن دراستى للآثار الاسلامية قد جعلتنى على مقدرة من تفهم وتطور حياة تلك الشعوب والاقوام المختلفة من خلال دراسة آثار فنونهم التى خلفوها من عمارة وتصوير ونحت وفنون تطبيقية الى غير ذلك ٠

ومن ذلك الوقت قامت فى خيالى لوحة تعرض شريطا من صور متتابعة تسرع حينا وتبطىء آخر ، ويتضح بعضها ويخيم على البعض ستار من غموض خفيف أو كثيف ، وهى فى جملتها تتضافر وتتشابك لتروى قصصا وحلقات من حياة الشعوب العربية والمسلمين ، أى تروى حضارة المجموعات من الناس الذين ربطت بينهم أكثر من رابطة من روابط البيئة الجغرافية والدين الاسلامى واللغة والتقاليد العربية وغيرها ٠ وهى الحضارة التى تميزت بخصائص متشعبة النواحى مترامية الاطراف مختلفة الابعاد متفاوتة الالوان والظلال ٠

تتوالى تلك الصور بينما تتوسطها دائما وتشغل المركز الرئيسى ، من وجهة نظرى بطبيعة الحال ، أنواع العمائر وألوان الفنون التى تتمثل فيها خصائص تلك الحضارة والتى أخرجها وبلورها أصحابها من مجموعات الناس بطبقاتهم المختلفة ٠ غير أن تلك الصور لم تكن لتتكامل وتدب فيها الحياة الا بأولئك الناس وهم ينتشرون بين تلك الديار والعمائر ، يشيدونها ويقيمون فيها ويحيطون بها ويجوسون خلالها ويملأونها حيوية وحركة ، ثم يذهبون ويأتى غيرهم ٠ وتلك سنة الله فى خلقه ٠ تقوم الحضارة وتحيا ثم تفنى ، ثم يأتى غيرها فوق البقعة نفسها أو فيما حولها ، وتنمو عليها حياة القوم وتزدهر ، ثم تنحدر وتتحلل ، ويبقى بعض من ديارهم ومخلفاتهم ، ويصبح بعض آخر أنقاضا خربة أو يختفى فى باطن الارض ٠

تتجسم تلك الصور ويتضح لى ما ترويه من قصص الحضارة العربية الاسلامية وذلك لأنى قد عشت وما زلت أحيا فى الجو الذى خلقته تلك الحضارة والذى لا يزال يعيش فيها أكثر من مائة مليون من العرب والمسلمين ، ظلوا منذ أربعة عشر قرنا

وسيظلون تجمعهم رابطة أو أكثر من روابط اللغة العربية أو الجنس العربي الذى اختلطت دماؤه بدماء الشعوب التى اعتنقت الاسلام أو دخلت ضمن الدولة العربية ، مما جعل بينهم روابط وثيقة لم تنفصم عراها فى أى وقت من تلك الحقبة الطويلة على الرغم من تفكك الروابط السياسية ، بل وعلى الرغم من قيام المنازعات بينها فى بعض الاحيان •

وأخيرا تجمعت أو اجتمعت تلك العوامل على لتدفعنى الى أن أجعل تلك الصور من حضارة العرب والمسلمين على هيئة كلمات ورسوم حاولت بها أن أنقل الى غيرى نتائج دراساتى لطراز شغفنى حبا وأخذ من حياتى حقبة طويلة لم يفتر فيها ميلى اليه لحظة واحدة ، على الرغم مما لاقيته من صعاب ، مثلى فى ذلك مثل كل بشر حى يعيش على أرضنا هذه • ولم يخرج بى احترافى لدراسته عن هوايتى له •

ومما هو جدير بالذكر فى هذه المناسبة أن اجتماع تلك الهواية وذلك الاحتراف قد رشحنى أولا وأعاننى ثانيا لان أضع تصميم ضريح أغاخان الثالث فى جملته وتفاصيله ، وأن أخرجه الى الوجود على تلك الربوة العالية على الضفة الغربية من النيل فى مدينة أسوان وجمعت فيه بين ما أمكننى تحصيله من النظريات ومن التجارب الخاصة بالتكوين المعمارى ومن العلوم الهندسية ، وبين الفهم العميق لأسس ومميزات العمارة الاسلامية العربية الاصيلة •

كما يسعدنى أن أنوه هنا بما لمسته بنفسى من الروح الفنية المتأصلة فى أعماق من عمل معى فيه من الفنانين والصناع من العرب المسلمين فى مصر ومهاراتهم ونبوغهم فى صناعاتهم المختلفة ، مما أهلهم لان يقوموا وحدهم وبغير أن يشترك معهم فرد واحد من خارج القطر فى اخراج ذلك الاثر العربى الاسلامى النقى فى النصف الثانى من القرن الحالى • ولست أشك أن ذلك يرجع الى ما يزال يجرى فى دمائهم من احساس عميق بالروح الاصيلة لعمارتهم وفنونهم وزخارفهم ، ذلك الاحساس الذى كان له أكبر الأثر فى بعث واحياء تلك الروح التى ربما غلب على الظن خطأ أنها قد ضاعت واندثرت ، وها هى تبدو واضحة بل يكاد يلمسها كل زائر للضريح ، الغربى منهم قبل الشرقى •

ولكن مما يدعو للأسى أن أولئك الفنانين والصناع ، الذين لن أكون مبالغا اذا قلت أنه لا يوجد فى العالم بأسره من يباريهم فى دقتهم ومهارتهم وموهبتهم ، قد تفرقوا وتفككت مجموعتهم ، وذهب أفرادها كل فى طريق ، ورضى أغلبهم أو جميعهم بأن يضع موهبته مع عدده وآلاته الدقيقة فى ركن متوار ، وقنع بأى عمل آلى يقتات منه مع عياله • ولا زلت أصادف بعضا منهم فأجده يكتنز ذكرياته عن عمله فى ذلك الضريح ، ويعتز بمشاركته بفنه وصنعته فيه • وسيبقى ذلك الأثر شاهدا على صدق ايمانى ببقاء الروح الفنية العريقة حية فى دمائنا لا تفنى ، وستبقى كذلك تتحين الفرص كى تطفو من الاعماق وتتجلى للعالم وتبهر الناس وتذكرهم بما فى العمارة والفنون العربية الاسلامية من حلاوة وطلاوة وسحر وجاذبية ، كانت وما تزال تمتاز بها بين فنون العالم قديما وحديثا •

وهذه المميزات والخصائص هى التى استرعت أنظار الناس من غير العرب وغير المسلمين منذ ما يقرب من ألف سنة ، وبخاصة أولئك الغربيين الذين خضعوا لتأثيرها

عندما أخذت أفواجهم تتابع على بلاد العرب والمسلمين ، وهم يلبسون ثياب المدافعين عن بقاع مقدسة عند المسيحيين . واستمرت تشد أبصارهم وتستهوى أفئدتهم طوال تلك الحقبة الى وقتنا هذا . وكان ذلك حافزا لان تتخذ الدراسات العلمية عن العمارة والفنون العربية الاسلامية طريقا جديا منذ أوائل القرن التاسع عشر ، وأخذ العلماء الغربيون يتعمقون ويتخصصون فى دراسة فروعهـــا المختلفة ، وهو أمر يجعل لهم فضل السبق فى تعريف الناس بها وبمميزاتها .

غير أن فئة من هؤلاء العلمـــاء لم تلتزم بالمنهـج العلمى الخالص فاتجهت الى تخصيص جانب من جهـودهم لحجب أى فضـــل للعرب والمسلمين فى اخراج عمارتهم وفنونهم الى عالم الوجود . ويبدو أن تلك المحاولات لم تبذل نتيجة لما يتمتع به الفن الاسلامى من جاذبية وسحر فحسب ، بل أيضا لما بلغه من قـوة ونفوذ فى القرون الوسطى حتى وقعت عمارة أوروبا وفنونها فى تلك القرون تحت تأثيرات كثيرة واضحة منه ، وهى تأثيرات حاول بعض العلماء الغربيين المشتغلين بتاريخهما انكارها فى أول الامر ، ولما وجدوا الامر واضحا لا ابهام فيه أخذوا يحاولون الاقلال من شأنها . ثم انتقلوا الى مرحلة أخيرة ، عندما لم يجدوا مفرا من التسليم بها ، فاتجهوا الى تلمس كل ما يساعدهم على سلب العرب والمسلمين من فضـــل خلق عمــــارتهم وفنونهم ، وحاولوا جهدهم اسناد وضع الاحجار الاساسية فى صرح بنائها والارتفاع به فى العصر الاسلامى المبكر الى شعوب غير عربية مثـــل الفرس والروم والمصريين القبط ، والى الفنانين منهم الذين يدينون بالوثنية او المسيحية .

وقد أوقع هذا الاتجاه البعيد عن الروح العلمية تلك الفئة من العلماء فى كثير من الاخطاء ، من ناحية وضع نظريات لا تقوم على أساس علمى ، ومن خلق افتراضات تتصف بالافتعال . مع أن من أولئك العلماء ــ والحق يقال ــ من أضاف الى دراسات العمارة والفنون العربية الاسلامية بحـــوثا قيمة ستظل تعد مراجـــع هامة فى ذلك الميدان ، وكان جديرا بها أن لا يعيبها أمثال تلك المآخذ والطعنات الظاهرة والخفية التى صوبوها الى العرب والمسلمين فى مختلف الاقطار، حتى لقد ذهبوا الى آخر الحدود فى تجريد العرب فى منطقة نزول الوحى من أية معرفة بالعمارة والفنون ، أو بقيام أى نوع من أنواع الحضارة ، مستندين فى ذلك على أدلة هى أو من خيوط العنكبوت كما سيتضح من مناقشاتنا لها فى مواضعها من الكتاب . ولكن مما هو جدير بالتنبيه اليه أنهم كانوا يلبسونها ثوب البحث العلمى فى كثير من الاحيان باعتمادهم على أقوال مؤرخين قدماء ، معظمهم من العرب المسلمين ، وقلة من غيرهم . ويهتمون بصفة خاصة بما كان من تلك الاقوال ما يتفق مع أهدافهم ومراميهم ، فيأخذونها على أنها غير قابلة للشك أو يغلب عليها الصدق ، وينبذون ما يخالفها ويحيطونه بالريبة ويبذلون الجهد فى اثبـــات عدم صدقه أو ضعفه على الاقـــل . بل كانوا يجزئـــون الرواية أحيانا ، يستشهدون بشطر منها ويهملون الباقى أو يتشككون فيه اذا عارض رأيهم . وفى أحيان أخرى كانوا يضيفون الى أقوال المؤرخين العرب ما لم يقولوه ، كما حدث فى موضوع الاخوة المهندسين الذين قيل أنهم جاءوا من مدينة الرها لبناء أبواب حصن القاهرة أيام بدر الجمالى ، واعتقد بعض العلماء الغربيين على غير أساس بأنهم لا بد وأن يكونوا مســـيحيين ، مـــع أن مدينة الرها كان يســـكنها المسلمون وبعض من

المسيحيين • كذلك كان العلماء الغربيون يأخذون أحيانا رأيا شخصيا لمؤرخ عربى عن فئة من العرب فيجعلونه حكما عاما ، مثل قول ابن خلدون فى مقدمته عن بعد العرب عن الصناعات والحرف ، وكان يقصد بذلك البدو منهم فحسب ، (بعده ص : ٣٤٢) • ومثل الرأى القائل بأن المحراب المجوف من علامات المسيحية (بعده ص : ٦٠٠) • الى غير ذلك من الأمثلة التى سنقابل عددا منها فى أثناء الحديث •

ويتضح فى كل ذلك البعد عن توخى الدقة العلمية الصحيحة • فلو فحصت روايات الكتاب العرب المسلمين بمزيد من التمعن والعناية لتبين أنهم كانوا يسيرون وفق منهج متشابه فى أغلب العصور هو أن ينقلوا عن ما كان يصل الى أيديهم من أخبار مكتوبة ، ويدونون ما كان يصل الى أسماعهم من روايات ، حتى ولو كانت الروايات والاخبار تتضارب مع بعضها فى الكتاب الواحد ، وكل ذلك بغير فحص أو تحقيق الا فيما ندر ، وبخاصة تلك الروايات والاخبار التى تمس النواحى المعمارية والفنية والصنعية وتتصل بأصحاب الفنون والحرف • ولهم عذرهم فى ذلك لأنهم ما كانوا سوى أدباء ومؤرخين وجغرافيين ورحالة يصعب عليهم أن يتعمقوا فى تلك النواحى وأن تكون لهم دراية كافية بتقييم أخبارها • وكان من اليسير والحالة هذه أن ينقلوا أو تدس عليهم عدة روايات ، منها ما كان من مصادر غير عربية وغير اسلامية توجهها مؤثرات دينية أو طائفية • من ذلك مثل الاخوة المهندسين من الرها الذين أشرنا اليهم ، ومنها خبر المهندس النصرانى الذى كان قد سجنه أحمد بن طولون بعد أن بنى قناطره ثم أفرج عنه ليبنى له جامعه (بعده ص ٢٩ — ٢١) ، وهى أسطورة مدسوسة يقصد بها اثبات فضل المسيحيين على العمارة الاسلامية من ناحية ، ثم ما كان يصيبهم من أذى واضطهاد من المسلمين بعد ما يؤدونه لهم من خدمات من ناحية أخرى • ومن جهة ثالثة ما كان يلجأ اليه الحكام المسلمون من انتهاك حرمات الكنائس بهدمها للاستيلاء على الاعمدة الرخامية فيها ، كما سنشرحه بالتفصيل فيما بعد • ومن أمثلة التهمة الاخيرة ما ألصقه مؤرخ مسيحى هو ساويرس بن المقفع بالخليفة المعتصم العباسى بأن ذكر عنه خبر الرسل الذين اوفدهم الى مصر والاسكندرية لهدم الكنائس والاديرة واحضار الاعمدة الرخامية لعمائر مدينة سامرا ، وهى فرية لا تمت للصدق بصلة الى غير ذلك من أمثلة كثيرة سيأتى ذكرها فيما بعد •

وهذه المفتريات والاخبار المدسوسة ليست بغريبة على تاريخ الحضارة العربية الاسلامية الذى يشتمل على أمثلة لا حصر لعددها لمحاولات تهدف الى ما يشوه ظاهرها وباطنها • ونشير هنا الى مثل من أهم أمثلتها وهو البدع التى دخلت الدين الاسلامى عن طريق بعض أهالى البلاد التى فتحها المسلمون ، وكان من أولئك من بقى على دينه أو تظاهر باعتناق الاسلام • ومن أهمها أيضا ما نسب الى الرسول الكريم من أحاديث صيغت كأنها صدرت عنه وتناقلها رواة الحديث ، مع أنها بعيدة كل البعد عن روح الاسلام وعن منطقه وعقائده ، مما دعا الفقهاء وعلماء الدين المسلمين الى التنبيه الى ما فيها من خطورة على أسس الدين وقواعده ، ومن هؤلاء العلماء من انقطع الى فحص الاحاديث النبوية ودراستها فى دقة وأناة ، وانتهى الى اقرار صحة ما اتفق منها مع تعاليم القرآن ومنطق الاسلام وجاء على لسان الثقاة من رواة الاحاديث الذين عرفوا بالصدق والامانة ، والى نبذ ما شابه الشك أو كان واضح الزيف •

ويمكن القول اذن بأن محاولات النيل من العرب المسلمين وحضارتهم تعود الى العصور المبكرة من العصر الاسلامى ، وأن العلماء الغربيين المحدثين الذين اتجهوا الى نفس الهدف قد وجدوا الطريق ممهدا من قبل ، غير أنهم وضعوا محاولاتهم فى قالب يبدو عليه لأول وهلة مسحة البحث العلمى الحديث ، ولكن من السهل كشفها اذا ما عرضناها لضوء الحقائق المجردة البعيدة عن أى تأثير ·

ويمكن أن نرى مثلا يعد من أبسط أمثلة التحامل على العربفى العصر الاسلامى فى الاتجاه الى تسمية حضارتهم وعمارتهم وفنونهم «بالاسلامية» على أساس أن شعوبا مختلفة غير عربية مثل الفرس والروم والمصريين قد اشتركوا فى وضع أسسها فى أقطار الدولة الاسلامية ، ثم ساهموا بعد ذلك فى تطويرها · وهو قول بينه وبين الحق والواقع بون شاسع كما سيتضح من المناقشات التفصيلية فيما بعد · ومهما يكن من أمر فانه ليس من المنطق العلمى أو الانصاف أن يتجه العلماء الغربيون الى حرمان العرب من أن تسمى حضارتهم وعمارتهم وفنونهم بالعربية نسبة الى دولتهم التى بسطت نفوذها على عدة أقطار اسلامية تسكنها شعوب عربية أو غير عربية بينما لم يحرم الرومان والبيزنطيون والساسانيون من أن تنسب حضارتهم وفنونهم وعمارتهم اليهم ، مع أن هذه الدول كانت تتكون من أجناس وشعوب مختلفة ، ومع أن علماء الفنون والآثار هم أدرى الناس بأن كل طراز فنى من تلك الطرز قد قام على أسس من فنون أخرى معاصرة له أو سابقة عليه · بل كان الفضل فى نشأته وتكوينه يرجع فى معظم الاحيان الى جهود فنانين والى تقاليد من بلاد دخلت ضمن الدولة التى سمى الفن باسمها · ولعل أبرز مثل لذلك ما فعله الرومان عندما أخذوا معظم تخطيطات المساقط والتكوينات المعمارية لأنواع عمائرهم من بلاد الاغريق بعد أن حاربوها وأخضعوها لحكمهم · بل نقلوا الى ايطاليا الفنانين والصناع من تلك البلاد ليشيدوا لهم عمائرهم ويؤسسوا لهم طرازهم الذى انتشر فى مستعمراتهم ·

وقد حدث ما يشبه ذلك بل أكثر منه فى العصر البيزنطى ، وذلك عندما أخذ البيزنطيون كثيرا من التقاليد والتخطيطات والأساليب الرومانية الوثنية كما هى فى أول الامر ، مع تعديل طفيف لا يكاد يذكر ، واستخدموها لعمائرهم وبخاصة الدينية منها ، ثم طوروا تلك الاسس فيما بعد الى تقاليد خاصة بالعمارة والفنون البيزنطية ، تماما كما حدث فى جميع العصور السابقة واللاحقة · هذا ولم يكن للبيزنطيين وحدهم فضل انتاج تلك التقاليد بل ساهم فى ذلك العرب الشاميون والعرب العراقيون والاغريق الذين كانوا قد استوطنوا آسيا الصغرى وبيزنطة من قبل عصر الاسكندر المقدونى ·

وكذلك قام الطراز الساسانى على أسس من مزيج من التقاليد العراقية القديمة والهلينستية التى أدخلها الاسكندر الى بلاد الشرق الاوسط ومن التقاليد الاخامينية التى تعد مرحلة من مراحل تطور الفنون العراقية القديمة · وقامت تلك التقاليد الساسانية على أكتاف العرب فى منطقة العراق من اللخميين وغيرهم · وسنعود الى نشرح هذا كله فى اسهاب فى صفحات تالية ·

وحتى ولو سلمنا جدلا بأن انتاج العمارة والفنون فى العصر العربى الاسلامى قد اشترك فيه فنانون وصناع من البلاد التى خضعت للعرب فى ذلك الوقت المبكر،

فانهم لم ينقلوا الى الطراز العربى الاسلامى الا عناصر ووحدات وحسب ، وكانوا بمثابة الايدى والادوات التى تقوم بالعمل التنفيذى بتوجيه من الرأس الذى يفكر ويخطط ويمزج ويكون ويفرض مطالبه حسب التقاليد الجديدة للحضارة العربية الاسلامية التى أخذت تسود العالم ، ومع تعاليم الدين الذى نزل أول ما نزل على العرب فى ديارهم ، وكانوا أول أمة آمنت به وتفانت فى نشر الدعوة له ، فكان ذلك الرأس اذن عربيا خالصا • وقد بلغ من قوة ووضوح شخصيته أن فرض اللغة العربية والتقاليد الاسلامية على جميع البلاد التى هيمن عليها وبسط سلطته عليها • وتتضح قوة تلك الشخصية فيما حدث فى بلاد فارس ، فانها على الرغم من احتفاظها بلغتها المحلية ، فقد اقتبست الحروف العربية وأساليب كتابتها لتلك اللغة حتى وقتنا الحاضر • كما حدث نفس الشىء فيما بعد فى العصر العثمانى • ولم يقتبس الاتراك الحروف اللاتينية الا فى العصر الحديث • اضف الى ذلك أنه قد ظهر بين العلماء العرب القدماء نخبة لا تزال آثارهم العلمية تتخذ أساسا للدراسات الدينيه واللغوية، نذكر منهم على سبيل المثال : البخارى والترمذى والتبريزى وغيرهم • ولا تدل أسماؤهم الا وهى مقترنة بالصفة العربية دون غيرها ، على الرغم من اصلهم الفارسى •

كل ذلك جعلنا نؤمن بأن التسمية الصحيحة لدراسات العمارة والحضارة والفنون يجب أن تتضمن تأييدا لفضل العرب واسهامهم الذى يستحق التقدير فى تصوير البشرية • فاليهم يرجع الفضل فى نشر الدعوة الاسلاميه، وفى فرض التقاليد الخاصة بها ، وفى توجيه الفنانين على اختلاف مشاربهم نحو هدف عربى ذاتى خالص • مما أنتج لنا تلك التحف الرائعة من العمائر والفنون التى يجب أن تنسب الى الشعوب العربية ، فتصبح التسمية الواجبة هى : العمارة والفنون العربية فى العصر الاسلامى فى : العراق ، أو الشام ، أو مصر أو فى شمال افريقية ، أو الاندلس • وذلك حتى يزول الايحاء بنسبة الفضل فى وضع أسس تقاليد العمارة والفنون الاسلامية الى غير العرب أولا ، والى غير المسلمين ثانيا •

ومن أخطر صور التحامل تلك التوجيهات التى أوحت الى كثير من المثقفين العرب فى الأقطار المختلفة بتركيز القسط الأكبر من اهتمامهم داخل دائرة مقفلة تقتصر على الآثار التى تعود الى العصور القديمة فى كل قطر منها ، ثم منح ما بقى من ذلك الاهتمام للآثار العربية فى العصر الاسلامى هناك • وقدبدأت تلك التوجيهات منذ أن وفد الاستعمار الى البلاد العربية وترسبت تأثيراتها فيها حتى يومنا هذا •

يتضح ذلك مثلا فيما كانت عليه مناهج الدراسة فى قسم الآثار بجامعة بغداد عندما كانت ذات طبيعة عامة تجمع بين آثار العصور العراقية القديمة وآثار العصر الاسلامى ، وكانت الصدارة فيها لدراسة الآثار واللغات القديمة ، بينما تتوارى دراسة الآثار العربية فى العصر الاسلامى فى المستوى الخلفى • ومازال الامر كذلك حتى وجه اليها بعض الاهتمام على أيدى علماء الآثار العربية الاسلامية من المصريين الذين انتدبوا للعمل بالعراق فى حوالى عام ١٩٥٣(١) • ولكن على الرغم من ذلك

---

(١) كان المرحوم زكى محمد حسن اول عالم أثرى مصرى ينتدب لجامعة بغداد وهو الذى وضع اسس دراسات الآثار الاسلامية فيها •

فاننا قد لمسنا فى زيارة للعراق فى مايو سنة ١٩٦٤ أن آثار العصور القديمة لاتزال تحظى بالقسط الاكبر من الاهتمام ، وذلك من حيث الدراسة والعنـــاية والصيانة والجهود المادية والمعنوية • ويكفى أن نضرب مثلا على ذلك بالاشارة الى الجهود العظيمة التى تبذل فى ترميم وتجديد المعابد القديمة فى مناطق الموصل والحضر وبابل وغيرها، بينما يترك مثــــلا مبنى خان مرجان – وهو من الاثار العربيه ذات القيمه المعمارية الكبيرة فى بغداد – وماء الرشح يرتفع فوق أرضيته ، بحيث يضطر الزائر له أن ينتقل من بابه وهو يقفز من حجر الى حجر فى وسط الماء ليصل الى السلم الى حجرات الطابق العلوى منه ، وهى تستخدم كمتحف لعرض بعض تحف العصر الاسلامى •

ولمسنا مثل ذلك بل أكثر منه فى زيارات لسوريا • فليس فى جامعاتها مناهج لدراسة الاثار مطلقا • واكثر المختصين فيها قد درسوا مناهج الاثار والتاريخ فى الجامعات الغربية التى لايوجد بها أساتذة متخصصون فى علم الاثار العربيه الاسلاميه الا فيما ندر • بينما يكثر فيها علماء الاثار الشرقيه القديمه • ومن ثم فان اثار سوريا القديمه تتمتع بنفس الاهتمام الذى يبذل فى العراق • فقد راينا لذلك مثلا صادفنا هناك فى عام ١٩٦١ عندما كان يجرى توسيع طريق يسير بين صف من الاعمدة الباقية بين معبد رومانى وبين المدرسة النوريه بدمشق التى شيدها السلطان نور الدين زنكى قبل عام ٥٦٧ هـ (١١٧٢م) لتدريس المذهب الحنفى • فانه مما يدعو للاسى العميق أن ذلك التوسيع قد روعى فيه الابقاء على الاثار الرومانية المتخربه وعدم المساس بها، بينما هدم الايوان الوحيد الذى كان مخصصا للتدريس فى المدرسة النورية • وهو يعد من الامثله المبكرة النادرة من مراحل تخطيط المدارس السنيه فى العالم الاسلامى كله •

ولن يقتصر حديثنا هنا على توجيه الأنظار الى ما هو قائم فى العراق وسوريا من شدة العناية بالآثار فى العصور القـديمة وضعفهـا من ناحية الاثار العربيه فى العصر الاسلامى ، فان الحال فى الجمهورية العربية المتــحدة كان وما يزال مماثلا للاحوال السائدة فى القطرين الشقيقين ، بل وفى الاقطار العربية الاسلاميه كلها •

ولا نظن أننـا فى حاجة الى ضرب الامثلة بمـا هو حادث فى بلادنا من الدعاية الرائعة التى تبذل فى دوام تغذية اشتعال الاهتـمام العـــالمى بالآثار الفرعونية ، وبخاصة ما هو معرض منها للغرق فى مياه السد العالى ، وما صرف على انقاذ الكثير منها من ملايين الجنيهات ، بينما لم يبذل قرش واحد لانقــاذ مقبرة متواضعة من العصر الاسلامى ، تتمثل فيها حلقة من سلسلة تطور نوع من العمائر الاسلامية قد تملأ احدى فجوات التطور للامثلة الباقية فى أسوان وفى القـاهرة بل وفى الاقطار العربية الاسلامية الاخرى •

كذلك يستوقف نظرنا اهتمام اليونسكو والمسـئولين عنـدنا بانشـــاء مركز لتسجيل الآثار يقوم على خدمة الآثار الفرعونية بكل ما فيه من أجهزة بشرية وعلمية ومادية • فقد كنا نتمنى أن لايخصص لتلك الآثار الفرعونية فحسب بسبب الظروف الحالية التى تتطلب تركيز الاهتمام فى هذه الفترة بالذات على الآثار المعرضة للغرق وراء السد العالى ، ولا زلنا نطمع أن تحظى الآثار العربية فى العصر الاسلامى بقسط من الاهتمام ، ونرجو أن لا نتهم بالغلو فيه اذا قدرناه بجزء من مائة ممـا يبذل فى

سبيل الآثار الفرعونية • بحيث يخصص للآثار العربية ركن ولو صغير فى مبنى التسجيل ، وأن يمنح المشتغلون فيه الفرصة لاستخدام ما به من الاجهزة العلمية فى الاوقات التى لا تحتاج اليها العناية بالآثار الفرعونية •

ونرجو أن يكون واضحا للقراء أننا لا نرمى الىصرف الاهتمام عن الآثار القديمة فى الاقطار العربية أو الاقلال من شأنها ، فهو أمر لم يجل فى خاطرنا • وكل مانرمى اليه أن نلفت الانظار الى زيادة الاهتمام بتراث حضارة عريقة ناضجة لا زلنا نعيش فيها ، وعلى نفس الاراضى والبلدان التى سادتها منذ أربعة عشر قرنا ، وربطت بينها بصلات مادية وروحية قوية بقيت قائمة فى تلك الحقبة الطويلة ، ولم يتطرق اليها الضعف أو الوهن على الرغم مما حدث من تفكك الروابط السياسية والاقتصادية وغيرها •

كما أننا نهدف الى أن تمنح الآثار العربية من العصور الاسلامية القسط الذى تستحقة من الاعزاز والاعتزاز بالنسبة لما يمنح لآثار العصور القديمة • فكلها مجتمعة تعد وثائق تسجل وتصور مراحل متتابعة متصلة لحضارة القطر كله • وفى رأينا أن من يزيد اعتزازه بآثار العصور القديمة فى منطقته على حساب الآثار العربية من العصر الاسلامى فيها كمثل من يقتصر على رى أرضه من بئر عميقة داخل منطقته ، ولا يريد أن ينتفع بماء يجرى فى نهر طويل يخترق أرضه وأرض جيرانه ويربط بين الجميع • مع أنه لو كان منصفا فى حق نفسه ، حريصا على أرضه ، لجمع بين ماء البئر وماء النهر ، حتى تزدهر أرضه وتطيب تربتها ويحسن ثمارها وتزداد قيمتها ، حيث تجتمع فيهما مزايا المنبعين •

***

ويهمنا أيضا فى هذه المقدمة أن نذكر كلمة موجزة لزملائنا المعماريين المحدثين عن هدف من الاهداف الرئيسية لدراستنا هذه عن العمارة العربية الاسلامية ، هو أن نشرح بقدر ما وسعنا الجهد أسسها وخصائصها ومميزاتها البارزة التى تبلورت فى العالم العربى الاسلامى بوجه عام وفى مصر بوجه خاص ، وكيف أنها قد احتفظت بأصالتها ونقاوتها وقوة شخصيتها فى جميع مراحل تطوراتها خلال حقبة طويلة تبلغ نحو عشرة قرون ، أى منذ أول العصر الاسلامى الى أن أخذ الضعف يتطرق الى تلك الاسس، وأخذت تذوى أصالتها وتتحلل نقاوتها منذ بدء تكوين امبراطورية العثمانيين وفتح القسطنطينية •

وسيتناول هـذا الشرح ما تعرضت وخضعت له تلك الاسس والخصائص والمميزات عند بدء ظهورها وفى أثناء تكوينها وتطوراتها من عوامل وظروف ومؤثرات دينية وسياسية واقتصادية وجغرافية واجتماعية وغير ذلك •

وكل ذلك لنصل الى أن نضع تحت أنظار الزملاء ما يمكن أن يلمسوا معه مقدار ما فى العمارة العربية فى مصر وفى غيرها من بساطة فى التفكير ، وعدم تعقيد فى التعبير ، ومرونة فى التخطيط والتصميم وفى التفاصيل والعناصر والزخارف • وهى الاسس والخصائص والمميزات التى ساعدت فى تلك الحقبة الطويلة على سد جميع حاجات العرب والمسلمين بل وغير المسلمين • فقد كانت توفر للعمائر الدينية

جو الوقار والخشوع مع اتاحة الفرص لسهولة اجتماع المسلمين والتقائهم ببعضهم للتداول فى شئونهم ، وتهيئة الاماكن لعقد حلقات الدراسة والعلم والتعليم • كما كانت تلك الخصائص والمميزات توفر للعمائر المدنية كل الفرص للانتفاع الكامل بالاغراض التى شيدت من أجلها • وقد كانت توفر للعمائر السكنية جو الطمأنينة والهدوء والترابط العائلى والاجتماعى ويسر المعيشة •

وفى اعتقادنا أن تلك البساطة والمرونة وغيرهما من المميزات لا يزال من اليسير الانتفاع بها فى بلادنا فى الوقت الحاضر ، وذلك على الرغم مما حدث من تطورات فى النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ومما ظهر من مواد جديدة للبناء مثل الحديد والخرسانة المسلحة والزجاج والمطاط والمدائن ، ومن مبتكرات صناعية مثل تكييف الهواء والمصاعد وغيرها ، وما صحب كل ذلك من الطرق التكنية وأساليب تطبيقها واستخدامها • وكل هذا يجعل العمارة العربية الاسلامية تبدو وكأنها ذهبت فى ذمه التاريخ • وهو ظن ليس بصحيح فى واقع الامر • ذلك أننا لو تمعنا فى العوامل المؤثرة على تطور العمارة العربية بخاصه فى مصر ، لوجدنا من بينها ما ظل باقيا دون تغيير أو تبديل البتة ، مثل العامل الجغرافى الذى لم يتطرق اليه ، و لذلك لا ينتظر أن يحدث فيه ، أى تغيير • ومن تلك العوامل ما يلوح عليه أنه قد تطرق اليه بعض التغيير مثل العامل الدينى وعامل التقاليد الاجتماعيه • ولكن هذا التغيير فى رأينا ليس الا ظاهرة سطحية يكاد يقتصر انتشارها بين بعض الخاصه من الناس• أما من ناحية الجوهر فان أسس المعتقدات الدينية والتقاليد الاجتماعية الاسلامية قد بقيت سليمة مزدهرة فى أعماق نفوس الكتله الغالبة من العرب المسلمين • وهذه العوامل الجغرافية والدينية والاجتماعية التى بقيت سليمة أو بغير تغيير جوهرى ، هى التى كان لها من قبل معظم الفضل فى خلق وتطوير العمارة العربية الاسلامية الخالصه •

أو بمعنى آخر فانه يمكن القول بأن معظم أسس وتقاليد العمارة العربية الاسلامية من حيث التخطيطات والتكوينات والعناصر لا تزال صالحة لان تفى بحاجات طبقات الناس فى مصر بل وفى العالم الاسلامى فى الحاضر والمستقبل • ولو توفرت العناية بدراستها وتوفر الفهم الصحيح لأسسها والعوامل التى أنتجتها لساعد ذلك على تطويرها بما يلائم مختلف الطبقات والعصور ، ولأمكن صياغة أنواع العمائر فى القالب العربى الاسلامى الذى يتخيله أى معمارى ، وبأية مواد وأساليب بنائية ، تقليدية كانت أم حديثة ، يود استخدامها لاخراج البناء فى القالب الذى يختاره •

ويوجد من الادلة على امكان ذلك ما يضيق المجال عن سردها ، ونكتفى من تلك الادلة بأن نأخذ مثلا واحدا هنا هو خاصية رئيسية تتميز بها مساقط العمائر العربية الاسلامية على اختلاف أنواعها ، وهى وضع صحن أو فناء مكشوف يتوسط كتلة المبنى وتلتف حوله بقية الوحدات المعمارية ، الرئيسية منها والثانوية ، كى تستمد منه معظم حاجتها من الانارة والتهوية ، ثم تستمد القليل الباقى من الطرق والشوارع الخارجية • والملاحظ أن ذلك الصحن أو الفناء كان هو الوحدة الهامة أو بالاحرى كان هو نواة تصميم مساقط جميع العمائر على اختلاف أنواعها : سواء كان المبنى

مسجدا أو فندقا أو قيسارية أو مارستانا أو قصرا أو دارا أو مدرسة أو وكالة أو ربعا أو لسكن العامة من الشعب ·

كان ذلك الفناء أو الصحن يؤدى لجميع تلك العمائر عدة وظائف بالغة الاهمية، منها : تلطيف حدة الضوء الذى يشتد كثيرا فى الاقطار الاسلامية والعربية كلها من الأندلس حتى شمال الهند · ومنها أيضا أنه كان بمثابة مرشـــح للهواء الذى كثيرا ما يحمل الغبـــار والاتربة فى معظم أوقات السنة ، وبخاصة فى المناطق المحـــاطة بالصحارى مثل الديار المصرية وغيرها · كذلك كان الفناء يساعد على تخفيف ضوضاء الشوارع والطرق · وكان يختزن الدفء فى الشـــتاء اذا أغلقت الابواب والفتحات الخارجية لتمنع مرور تيارات الهواء · وكان يحدث عكس ذلك فى الصيف فيساعد على تلطيف شدة القيظ اذا تركت لتيارات الهواء الحرية فى الانطلاق من خلال الفناء وفتحات المنزل · ويزيد من نفعه لهذا الغرض اذا ما زرعت فيه أشـــجار وزهور أو توسطته نافورة أو حوض ماء · كما أنه كان يخدم غرضا دينيا اجتماعيا للخـــاصة من الناس هو حجب النساء ، وحتى لا يتعرض أهل البيت لاعين الغرباء من الزوار والجيران والمارين فى الطرق والشوارع الخارجية ·

غير أن ذلك الحجاب كان مخففا فى العمـــائر التى يشـــترك فى سكناها عدة مجموعات وعائلات من عامة الشعب والتى كانت تسمى « بالوكالات » جمع وكالة و « بالر‌بوع » جمع ربع ·

ولا نظن هناك شكا فى أن هذا الصحن أو الفناء ما يزال أصلح ما يمكن لتوفير معظم تلك الاغراض والمزايا التى لا نزال فى حاجة اليها فى وقتنا الحاضرة · ولذلك فانه من المفيد أن يطبق استعماله مثلا فى مشروعات الاسكان الشـــعبى التى ينفذ المئات منها عندنا الآن ، بحيث تزود كتل تلك المساكن بتلك الافنية الداخلية العظيمة الفائدة من الناحية المعمارية ، كما سيكون لعملها آثار اجتماعية مفيدة أكبر مماتتيحه الآن تلك العمائر المتراصة المنفصلة ·

وتوجد كذلك فرص متوفرة لنجاح محاولات استخدام الفنـــاء الداخلى لأنواع أخرى عديدة من العمائر ، وذلك على الرغم مما يقابل بعضها من صعوبات اقتصادية، وبخاصة فى المناطق التجارية المزدحمة التى ترتفع فيها كثيرا أسعار الاراضى · ولكننا نعتقد أن فى وسع المعمـــاريين العرب أن يتغلبوا على معظم تلك الصعاب فى سبيل استعمال الافنية وغيرها من مميزات العمارة العربية الاسلامية اذا آمنوا واقتنعوا بما فيها من مرونة وما تمنحه لهم من حرية التصرف فى توزيع الوحدات وربطها ببعضها تبعا لما يتطلبه الموضوع المعمارى · وهى مميزات لا تتعارض بأى حال من الاحوال مع نظم الحياة الراهنة ومع الاتجاهات الاقتصادية والمبتكرات الحديثة فى مواد وأساليب البناء ·

ومما هو جدير بالذكر أن يظل الفناء يســـتخدم فى بعض الدور الخاصة فى أسبانيا فى العصر الحاضر ، ويسمونه هناك Patio · وهو لا يزال يؤدى بعضا من تلك الوظائف التى أشرنا اليها · هذا بالاضافة الى ما يشيعه فيهـــا من الاناقة والبهجة ، اذ يزود عادة بشجيرات وزهور وحوض ماء أو نافورة · وقد يفتح منه ضلع

أو أكثر • ويحدث ذلك هناك بينما أخذنا نستغنى عن استخدامه فى بلادنا منذ القرن الماضى ، أى منذ أن فتحت أبواب مصر على مصراعيها للمهندسين الاجانب من فرنسيين وايطاليين وغيرهم من أيام محمد على •

وكنا نود لو عددنا أمثلة أخرى لما يمكن أن تشكل به أسس ومميزات العمارة العربية من ناحية التخطيطات بحيث تتفق مع المطالب والاتجاهات والتطورات الحديثة، مع المحافظة على طابعها الأصيل • غير أننا نجد مجال ذلك واسعا يصعب وضع حدود له ، ولو تماديبنا فيه لخرجنا عن موضوعنا الاصلى الى موضوع آخر بل الى عدة موضوعات •

أما من ناحية التفاصيل فانه يمكن القول أيضا فى ايجاز أن مميزات عمارتنا من ناحية التفاصيل يمكن استخدامها فى العصر الحديث مع استعمال المواد الجديدة• ونضرب مثلا لذلك بأشكال الاقبية والقباب وامكانيات تشكيلها وصياغتها بتلك المواد الحديثة ، لما فى أشكالها الكثيرة القديمة من مرونة كبيرة تساعد على ذلك • ويسرنا أن ننوه برسالة وضعها أحد أبنائنا المعماريين(١) ونال بها درجة الدكتوراه من جامعة زيوريخ ، وتتضمن بحثا مستفيضا عن أنواع وأشكال الاسقف والتغطيات ذات القطاعات المقوسة والكروية والتى تشكل بالمواد الحديثة • وعلى الرغم مما طرأ على تلك الاشكال من تطورات مستحدثة فى تصميمها وأسلوب بنائها فان بعضها يجتذب النظر بما يبدو عليه من مسحة هندسية تذكر بالطابع العربى الاسلامى • وقد انتفع صاحب الرسالة بدراسته للعمارة العربية فى معهد الآثار الاسلامية • كما انتفع بها زميل له آخر من أبنائنا (١) حصل أيضا على الدكتوراه من جامعة زيوريخ برسالة عن مراكز التسويق Shopping Centers وكانت قد اختارها موضوعا للدكتوراه من جامعة القاهرة ويبدو أنه قد حوله الى العصر الحديث •

ومما هو جدير بالذكر ان هذين الزميلين قد تخرجا من قسم العمارة بكلية الهندسة بجامعة القاهرة ، ثم تخرجا فى السنوات الأخيرة من حياة معهد الآثار الاسلامية الذى كان يتبع كلية الآداب بجامعة القاهرة ، والذى يبلغ عدد من تخرج منه من المعماريين والفنانين نحو العشرين •

ومما لاشك فيه أن الغاء ذلك المعهد فى عام ١٩٥٤ كان خسارة كبيرة أصابت الدراسات الأكاديمية للآثار الاسلامية فى نواحى العمارة والفنون ، والتى لا تقوم تلك الدراسات الا عليها • فقد أغلقت أبوابها فى أوجه المتخصصين من المعماريين والفنانين •

ولسنا نظن أبدا انه يوجد شخص واحد يعتقد فى قرارة نفسه أن غير هؤلاء المتخصصين يمكنهم أن يستفيدوا من المناهج للدراسة بالقسم الوحيد للآثار بجامعات الجمهورية العربية المتحدة والذى يتبع كلية الآداب بجامعة القاهرة ، أو أن تصبح لديهم القدرة على أن ينفعوا أحدا بها •

***

(١) هو الدكتور عصام بدر الاستاذ المساعد بقسم العمارة بكلية الهندسة بجامعة القاهرة .

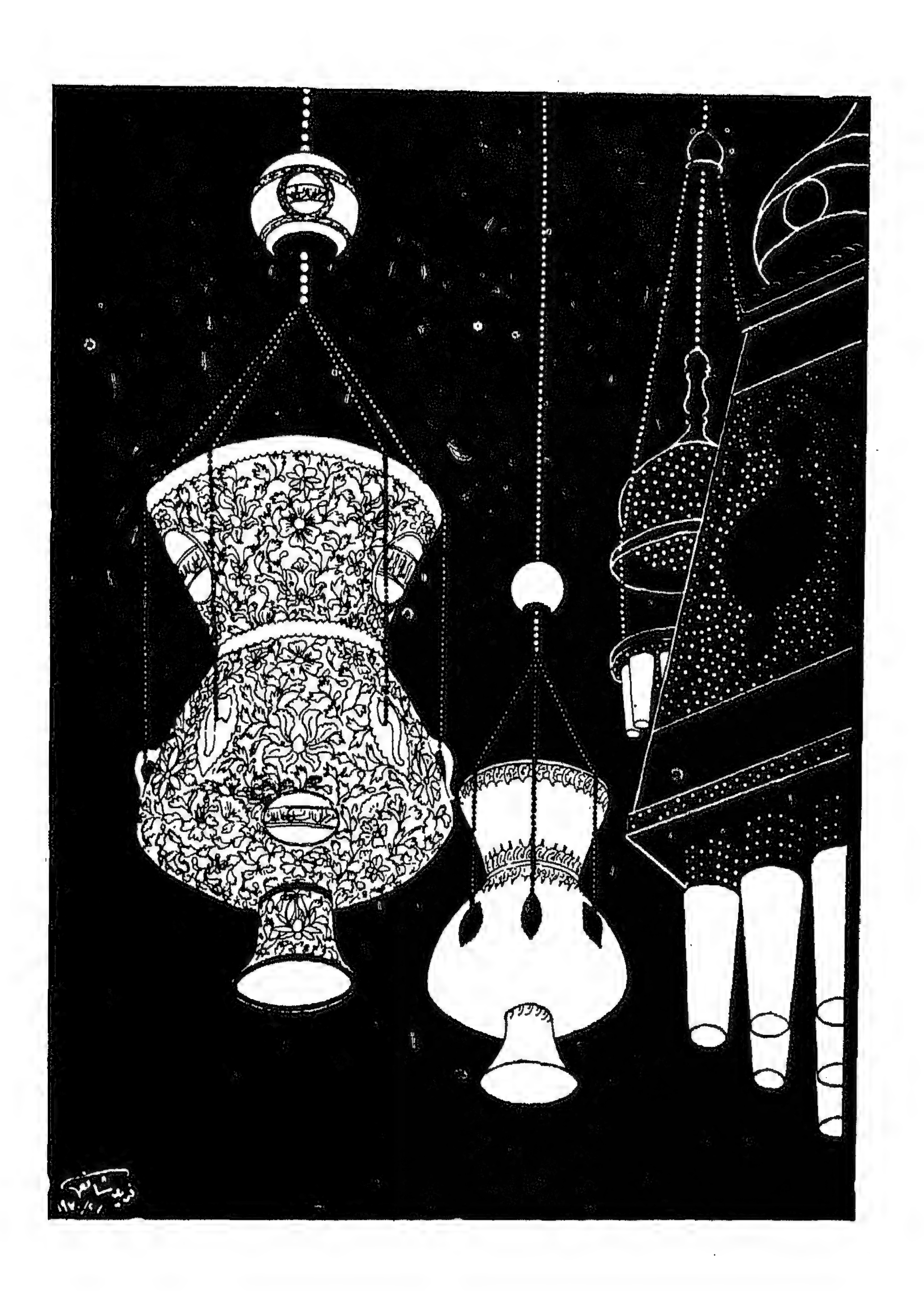
(٢) هو الدكتور احمد كمال عبد الفتاح الاستاذ المساعد بقسم العمارة بكلية الهندسة بجامعة عين شمس •

وكان فى نيتنا أن نضمن كتابنا هذا معجما للالفاظ الفنية والمصطلحات المتصلة بالعمارة والشائعة التداول ومرادفاتها • غير أننا وجدنا الامر يتطلب اعداد مجلد خاص بها فشرعنا فيه ونرجو أن نتمكن من اتمامه فى وقت قريب • ومن ثم فقد اكتفينا هنا بذكر معانى المصطلحات الكثيرة التداول اما فى المتن أو فى الحواشى • فمن الطبيعى أن يمتلىء حديث عن العمارة ، مثل الذى نحن بصدده ، بكثير من تلك الالفاظ والمصطلحات التى حاولنا أن نأتى بها عربية كلها • وقد عانينا فى اختيارنا لها مصاعب مختلفة وقامت أمامنا مشاكل عدة • اذ لم يعن حتى الآن باخراج معجم لتلك الالفاظ يجتمع على اعداده جملة من المتخصصين ، وما ظهر حتى الآن لا يعدوا أن يكون مجهودات فردية متناثرة ، ورد فيها أكثر من لفظ للمعنى الواحد • فقد اقتبس بعضها من مراجع عربية قديمة وضعها مؤلفون معظمهم ، ان لم يكونوا جميعهم، من الأدباء والمؤرخين والجغرافيين والرحالة • وهم لم يتفقوا الا على قليل منها واختلفوا فى الباقى • ويلوح لنا أن كثيرا مما ذكروه كان اجتهادا منهم من ناحية ، أو سمعوه من غيرهم من ناحية أخرى ، بغير أن يتبينوا المعنى المقصود منه تماما • أضف الى ذلك أن كثيرا مما ورد فى المراجع العربية فى شرق العالم الاسلامى كان يستخدم له مرادفات أخرى فى مراجع الغرب الاسلامى • بل ان هذا الاختلاف والتباين قد امتد الى عصرنا الحاضر ، ولم يزل قائما بين الالفاظ المستعملة فى الاوساط الفنية والمعمارية والصناعية فى الاقطار العربية ، فيختص كل قطر منها بمجموعة من الالفاظ تختلف عما فى قطر آخر •

وكان من الطبيعى اذن أن يختلط الامر فى ما ظهر من محاولات للكتابة عن العمارة الاسلامية باللغة العربية • وزاده بلبلة ما عمد اليه المؤلفون الغربيون الذين تعرضوا لدراستها من اقتباس بعض من تلك الالفاظ من المراجع العربية القديمة المتباينة بغير فهم دقيق لها أحيانا ، أو بغير ضبط نطقها وهجائها أحيانا أخرى ، ثم كتبوها بنطقها العربى بالحروف اللاتينية لتؤدى معنى الفاظ معروفة أجنبية • ثم تفاقم الامر مرة أخرى عندما أعيد استعمالها فى اقتباسات عربية من تلك المؤلفات الغربية بغير تحقيق أو تدقيق • هذا بالاضافة الى محاولات ترجمة الالفاظ والمصطلحات الغربية التى ليس لها مقابل معروف بالعربية ، وقد نتج بعض الاختلاف والتناقض فى اختيارها •

كل هذه المصاعب والمشاكل وضعناها نصب أعيننا ونحن نختار الالفاظ والمصطلحات التى يتضمنها كتابنا هذا والمعجم الذى نحن بصدد اعداده •

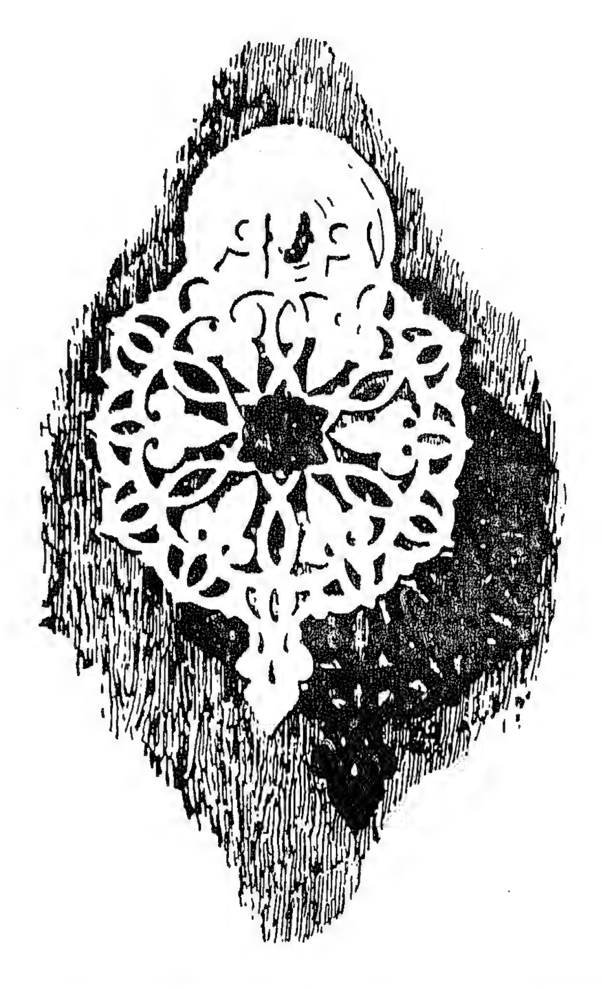
القسم الأول - "دراسات تمهيدية"



القسم الأول

الفصل الأول

عمارة وحضارة الحجاز
في مغرب الجاهلية وفجر الإسلام



اشادة المستشرقين بابن خلدون ورأيه ضد العرب • العمـارة والفن والحضارة فى مهبط الوحى • ادلة واهية مفتعلة على خلو الحجاز من العمارة والفن والحضارة • يجهل المستشرقون المعنى العلمى للفن والعمارة ويتحدثون عنهما• اعتبار قبة الصخرة بناء شاميا صرفا • الفول بتأخر العرب لابقـائهم على نظم الادارة والســكة • منهج لدراسة العمارة الاســلامية ذو شطر دقيق وآخر واه • تفنيد آراء المستشرقين عن العمارة العربية المبكرة • العمارة ليست فخـامة ولا ضخامة ولا زخرفة • دراسات خرافية عن اعداد العرب وعقـدهم النفسية • عدم فهم المعـانى الحقيقية لأحاديث الرسول • وصف الرسول مرة بكراهيته للتأنق ومرة بحبه للعظمة • التنقيب هو السبيل العلمى الى حقائق العمارة والحضارة فى الحجاز • رأى المستشرقين يتعارض مع منطق تطور البشرية • اتصال عرب الحجاز الدائم بالحضارات القديمة • نظام تطور الفنون سارت عليه حضارات العالم كله • اغفال المستشرقين للاثار الظاهرة لحضارات عربيه قديمة • امتياز بقاع فى الحجاز بمقومات الحضارة حتى عصر الرسول • وجود الغابات وأثار السدود ومنشئات المياه • آثار العمران فى بقاع من الحجاز • بقاع دخلها الاسلام وبها معادن وميـاه ومزروعات • ملخص البراهين على وجود حضارات

قديمة بالحجاز • حضارات ناضجة بيثرب من قبل الاسلام • عرب الجاهلية نقشوا الصور وشكلوا التماثيل • الاسلام يشجع على الزينة والزخرف فى غير اسراف • عمارة الحصون فى المدينة • سيطرة الاسلام على نشأة العمارة والفنون وتطورها • وضوح التقاليد المعمارية منذ أيام الرسول • مسجد الرسول أول وأهم لبنة فى صرح عمارة العرب فى الاسلام • أهم مرحلة لتطور المسجد أيام عثمان • أول مسجد فى القيروان •

أول مسجد فى قرطبة • الظلات حول الكعبة ومزاعم المستشرقين •

أثر الحضارة العربية الاسلامية فى تاريخ البشرية • دعوة محمد لم تكن استعمارا بل هداية قبة الصخرة مثل وحيد لا يؤخذ أساسا لحكم عام • قبة الصخرة بناها معماريون عرب مسلمون • بقاء النظم الادارية تصرف حكيم من العرب الفاتحين العالم القديم كله يتعامل بالدينار الذهب البيزنطى والدرهم الفضى الساسانى • ممنوع على غير الدولة البيزنطية ضرب سكة ذهبية •

***

الحمد لله الذى قضى بأن لا يدرى العلامة والمؤرخ والفيلسوف العربى ابن خلدون بأن ما كتبه فى مقدمته قد أتاح فرصة ذهبية لفئة من العلماء الغربيين الذين مالوا الى دراسة علوم العرب لأن يتخذوا من أقواله عن العرب حجة يدمغونهم بواسطتها بالتخلف فى نواح من حضارتهم ، وبخاصة فيما يتصل بدرايتهم بالحرف والصنائع • وبينما أشادوا بعلمه ومؤلفاته ووضعه فى المقدمة مع الكتاب والفلاسفة والمؤرخين العرب الكبار القدماء فانهم استغلوا ما أسبغوه عليه من هذا التكريم والتقدير لينالوا من العرب وليحطوا من قدرهم فى تلك النواحى من حضارتهم التى تهمنا هنا بوجه خاص • ومن الأسف أن من الكتاب العرب المحدثين من تبع أولئك المستشرقين فى هذا التفسير لأقوال ابن خلدون ، مع أنه ما كان يقصد العرب جميعا بالمعنى الذى فسروه به ، بل قصد به البدو الرحل منهم الذين ما يكادون ينزلون بموضع حتى ينتقلوا منه اذا ما قل المرعى فيه الى مكان آخر تتوفر فيه سبل الاقامة حتى ينضب آخر معينها وهكذا • وكان عدم استقرارهم هذا سببا طبيعيا فى عدم تمرسهم على اتقان الحرف والصنائع وعدم شغفهم بمزاولتها • الأمر الذى لم يكن ليحدث لغيرهم من أهل المدن والحضر •

كذلك فان تلك الفئة من العلماء المتحاملين المحدثين ، ولم نجد لهم أبسط من هذه الصفة سواء كانوا مسيحيين أو يهود أو غيرهم ، قد أستغلوا هذا المعنى وركزوا مضمونه الذى هدفوا اليه بوجه خاص على عرب الحجاز الذين نزل الاسلام بينهم ،

ثم انتشر بعده فى العالم الكبير الذى فتحوه ونشروا فيه الدعوة الاسلامية ، وأصبحوا هم وأهل تلك الأقطار أمة واحدة تصطبغ بالصبغة والأخلاق والصفات العربية وتدين بالاسلام • ومن عجب أن يضرب أولئك العلماء صفحا وأن يسكتوا سكوتا غريبا عن عرب شمال الجزيرة الذى كانوا يسكنون العراق والشام وما بينهما ، ولم يشيروا اشارة واحدة الى ما لا بد من أن يكون قد حدث من هجرات جماعات صغيرة وكبيرة من أولئك العرب عبر صحراء سيناء الى مصر ليستوطنوها ، وما نتج عن ذلك من دخول الدم العربى وصفات الجنس العربى الخالص الى مصر وانتشاره فيها من قبل الاسلام • ومن عجب أيضا أنهم لم يكونوا يتحدثون عن عرب شمال الجزيرة الا وهم ينسبوهم الى الدين الذى يعتنقونه أو الى الدولة التى كانت تحكمهم ، فكانوا يسمونهم أحيانا بالفرس أو المجوس وبالمسيحيين أو الروم أو البيزنطيين • وبذلك ركزوا المعنى الذى استخلصوه من قول ابن خلدون على عرب الحجاز وحدهم ثم على من انتشر منهم فى أقطار العالم الاسلامى بعد ذلك • أما العرب فى غير تلك البقعة المقدسة فقد جردوهم من جنسهم العربى ، حتى لا يتطرق الشك الى شهادة ابن خلدون •

وتلك نقاط أساسية تمس صميم موضوع عمارة العرب وحضارتهم منذ العصر الاسلامى المبكر بوجه عام ، وفى مصر التى افردنا لها مجلدات هذا الكتاب بوجه خاص • فأردنا أن ننبه الأذهان مبدئيا اليها فى مستهل القسم الأول من هذا المجلد وهو القسم الذى خصصناه لدراسات تمهيدية تتسع النظرة فيها لتشمل العالم العربى كله فى عصره المبكر ، وهو العالم الذى كانت مصر جزءا منه بل عضوا هاما فيه ، تاركين الاسهاب والتفصيل فى تفنيد هذا الرأى وما يجرى مجراه الى المواضع التى تستحق ذلك من الكتاب• ذلك أن الحديث عن بقعة من بقاع العالم العربى والاسلامى ما يكاد أن يبدأ حتى يمتد الى بقية ذلك العالم الكبير كله الذى تحتل حضارته مكانا مرموقا بين حضارات الأمم • والحديث عن الديار المصرية وعن حضارتها وفنونها بوجه عام وعن عمارتها بوجه خاص فى العصر الاسلامى ، لا يمكن أن يستقيم وينكامل الا بالقاء نظرات شاملة تمتد الى آفاق الحضارة والعمارة والفنون العربية فى العالم الاسلامى كله ، فى الشرق والغرب • فانه منذ الوقت الذى لاحت فيه الخيوط المضيئة الأولى لشمس الحضارة الاسلامية التى بزغت وأخذت تنير العالم ، واستمرت تضيئه منذ فجر الاسلام حتى اللحظات التى نعيشها الآن ، كانت مصر منذ ذلك الوقت تقوم بمهمة خطيرة فى العالم العربى والاسلامى ، هى ربط الأقطار التى قامت

فيها الحضارة الاسلامية فى الشرق بشقيقاتها فى الغرب • كما كانت فسطاط مصر ، عاصمة هذه الديار ، تشغل من ذلك العالم الكبير مكان القلب النابض ، وقت أن كانت دمشق بمثابة انراس المهيمنة عليه أيام الخلافة الاموية ، ثم بعد ان خلفتها بغداد اثر قيام الدولة العباسية •

ولم تتأثر مكانة مصر وأهميتها عندما أستقلت بنفسها لفترة قصيرة نسبيا أيام الدولة الطولونية ، ثم لفترة طويلة تزيد على خمسة قرون ونصف ، منذ الفتح الفاطمى فى سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) حتى الفتح العثمانى فى سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) • بل انها بقيت تؤدى دورها البارز الخطير فى تاريخ الحضرة العربية الاسلامية منذ ذلك الوقت حتى يومنا هذا • وذلك على الرغم مما تعرضت له من ضغط واستغلال منذ الفتح العثمانى حتى خروج الاستعمار البريطانى من أرضها • وتدل كل الدلائل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية على آنها ستظل تقوم بهذا الدور أجيالا عديدة قادمة •

***

ومن الطبيعى أن تتجه الأنظار أول ما تتجه فى موضوع العمارة والفنون العربية الى شبه الجزيرة ، وبخاصة الى تلك البقعة المباركة التى انبثق منها الدين الاسلامى الحنيف ، وفاض على بلاد العالم المعروف فى ذلك الوقت ، وخلق فيها حضارة جديدة بها من القوة والأصالة ما جعلها تحتل مكانا مرموقا بين حضارات البشرية •

غير أن بعض العلماء الغربيين ـ كما سبق القول ـ أخذوا يبذلون الجهود فى تأكيد وصفهم لعرب تلك المناطق بالتخلف والبداوة • ومن ذلك تقول جرترود بل Gertrude Bell « كان الغزاة المحمديون ، مجرد بدو رحل ، » « سكنهم الخيمة السوداء وقبرهم رمال الصحراء • وكان سكان الواحات النادرة » « فى غرب ووسط البلاد العربية مثل ما هم عليه اليوم ، يقنعون بنوع قبيح من » « العمارة من اللبن وجذوع النخل ، لا يزينه أى نقش معقد من وحى الخيال » « ولا يصلح الا لأبسط الحاجات » (١) •

ويقول الاب لامنس Lammen : « يبدو أن أغنى أصحاب الأموال من »

(١) K.A.C. Creswell : Early Muslim Architecture, vol. I, p. 7 ; Bell (G.) : Palace and Mosque at Ukhaidir, Oxford, 1914, p. VII.

« قريش ، وعلى الأقل فى الفترة السابقة على الاسلام ، كانوا يعيشون فى مساكن »
« فقيرة • ويتحدث الشعراء البدويون عن اتساع وارتفاع قدور أصحاب الجود »
« المكيين ، ولكن لا يجد المرء قط من يذكر ترف مساكنهم • ولا حتى مهابة »
« منظرهم • ولا ينطقون أبدا كلمة قصر • ولم تكن بمكة عمارة • ولما كان الأمر »
« يحتاج بين حين وآخر الى تجديد عمارة المبنى الصغير للكعبة ، فان الأهالى كانوا »
« يضطرون الى الالتجاء لعمال أجانب » [١] •

وقام الأستاذ كريسول بجمع هذه الأقوال وأمثالها وانتهى منها الى خلاصة تتضمن رأى علماء الفنون والآثار الغربيين بأن العرب أيام الجاهلية التى سبقت نزول الوحى على الرسول وفى الأيام التى تلت ذلك وفى المنطقة التى أشرق منها نور الاسلام ، أولئك لم يكن لديهم من العمارة أو الفنون شىء ، وسنورد ترجمة حرفية لتلك الخلاصة بعد قليل •

كذلك من الملاحظ أن من المشتغلين بالعمارة والفنون العربية من العرب المحدثين من تبع ـ وهو مغمض العينين ـ هذا الرأى الذى يجانب الصواب ، ولا يزيد على أن يكون افتراضا لا يقوم على أساس وتسرعا فى الحكم لا يتفقان مع المنطق العلمى والحقائق المعروفة عن تطور العمارة والفنون ، أضف الى ذلك ما يتضح من ضعف المنهج العلمى فى المحاولات التى تهدف الى اثبات ذلك المعنى وتأكيده • وسنصادف فيما بعد أمثلة من ذلك فى عدة مواضع من حديثنا •

ويبدو أن الأستاذ كريسول قد وقع تحت تأثير تلك الآراء عندما كتب خلاصة الفصلين الأول والثانى الخاصين بالاسلام البدائى Primitive Islam ، تلك الخلاصة التى تتضمن رأيه ورأى غيره من أولئك العلماء الغربيين ، والتى تأتى فيمايلى بترجمة حرفية لها [٢] :

« انه ليبدو أن عرب ما قبل الاسلام لم يكن لديهم الا أخشن الأفكار عن »
« البناء ، ولم يكن معبدهم الرئيسى (يقصد الكعبة) شيئا أكثر من مساحة صغيرة »
« مسورة بأربعة جدران بارتفاع قامة الانسان • ولم يحملوا فى الأيام المبكرة الى »
« الأقطار التى فتحوها شيئا معماريا يتجاوز ما يخدم حاجاتهم العقائدية البسيطة »
« فحسب• وقد أحسن ريتشموند فى التعبير عن ذلك بقوله : (ان مدى الامكانيات »

(١) E.M.A., I, p. 7, ft. n. 7 ; p. 164, ft. 4 ; Lammens : Taif à la veille de l'hégire, Mélanges de l'Université St.-Joseph, Beyrouth, VIII, p. 183 ; Idem., La Syrie, I, p. 88.

(٢) E.M.A., I, pp. 40-41.

« المعمارية الاسلامية قبل قيام العرب بفتوحاتهم كانت لا تكاد تكفى الا لتعبر عن »
« حاجاتهم بطريقة غشيمة الى أقصى درجة) [1] • وينطبق هذا القول على العرب »
« المستقرين • ولكن العرب الرحل فى ذلك الوقت كان يتكون منهم تسعة أعشار »
« سكان بلاد العرب • وكانت الخيمة المصنوعة من الوبر هى أجمل عمارتهم • ولم »
« يكن البدوى الأصيل ليتقبل راضيا أن ينام بين أربعة جدران ويعلو سقف فوق »
« رأسه اذ يشعر كما ولو كان قد وقع فى فخ ، ويمكن القول بأن البدوى منهم »
« كان يعانى من رعب متأصل موروث من الأماكن المقفلة Contingent Claustro-Phobia »

« فمن الواضح اذن أن بلاد العرب كانت تحتوى على فراغ معمارى يكاد »
« يكون تاما • وأن الصفة العربية يجب ألا تستخدم لتعريف عمارة العصر »
« الاسلامى • وقد رأينا من قبل أن محمدا كان يكره العمارة ــ فان ما وصلنا من »
« أوصاف تفصيلية لأول مسجد جامع فى العصر الاسلامى ــ وهو فناء دار محمد »
« بالمدينة ــ يوضح أنه كان بدائيا الى أقصى درجة • وكذلك كانت الجوامع »
« فى كل مناطق الحير الكبيرة ، وهى المعسكرات نصف البدوية التى كانت تنشا »
« مع الفتوحات الاسلاميه ، مثل : البصرة والكوفة والفسطاط • وكانت الجوامع »
« المبكرة فى سوريا كنائس حولت كلها او بعضها الى مساجد • وليس هناك من »
« سبب يدعو الى الاعتقاد بانه قد شيد اى بناء من اول الامر ليكون جامعا قبل ايام »
« الوليد ، وربما عبد الملك • وظل الامر على هذا الحال فترة جيلين • وبقى »
« العرب بعيدين عن ان يداخلهم اى شعور بطموح معمارى حتى انهم لم يظهروا »
« ايه رغبه فى الانتفاع بالمواهب المعماريه الناضجه التى كان يتمتع بها اهالى البلاد »
« المفتوحه • وهناك كل الاسباب التى تجعلنا نعتقد مع فرجوسون [2] : (انه لو »
« كان الاسلام قد بقى قاصرا على المواطن الذى نزل فيها فمن المحتمل انه ما كان »
« قد شيد أبدا ما يستحق ان يسمى بمسجد) • وعندما بدا العرب فى الاحساس »
« بذلك الطموح فان حوافزهم فى ذلك كانت سياسية • فاتجهوا حينئذ الى »
« المعماريين الفرس فى منطقة العراق والى المعماريين الشاميين فى منطقة الشام • »
« وسنرى فى الفصل التالى (يقصد الفصل الخاص بقبة الصخرة فى القدس) »
« العظمة التى يجب أن ينسب فضلها الى الشام » •

ثم تابع الأستاذ كريسول تأكيد هذا المعنى بأن اتخذ من عمارة قبة الصخرة

(1) Richmond : Moslem Architecture, p. 9.
(2) Fergusson : History of Architecture, 3rd ed., II, p. 514.

وتحليل أصولها المعمارية سنداً لذلك . وفى نبذة وضعها فى نهـاية الفصـل الطويل الذى كتبه عن تلك القبة [1] وجعل لها عنوانا هو : التأثير السطحى للفتح العربى ، تطرق الى نظام الحكم ونظام السكة ـ أى العملة النقدية ـ فقال [2] .

« ان ما وصلنا اليه من نتـائج فيما يخص الأصول المعمارية لقبـة الصخرة ، »
« وهى أنها بناء سـورى تماما مع زخارف بيزنطية من الفسيفساء ، لما يتفق تمام »
« الاتفاق مع ما يوجد فى الميادين الأخرى من النشاط البشرى ، أى فى نظم الحكم »
« ونظم السكة » .

« نظام الحكم : لما كان العـرب لم يحضروا معهم جهــازا اداريا من بلاد »
« العرب ، ولما لم يكن لديهم شىء يشبهه ، فانهم لم يملكوا الا أن يُسروا باستخدام »
« النظم الادارية التى وجدوها فى الشام وفارس . وهكذا نتج من ذلك أن بقى »
« موظفو الدواوين فى سوريا من السوريين وفى العراق وفارس من الفرس . »
« ويقول البلاذرى أن لغة ديوان الخراج فى العراق كانت بالفارسية الى أن قرر »
« الحجاج أن تســـتعمل العـربية بدلا منهـا ، ونفـذ قراره على الرغم من كل »
« المعارضات [3] . أما فى ســوريا ، حيث كانت تستخدم اللغـة الاغريقية ، فلم »
« يحدث الا فى عام ٨١ (٧٠٠م) أن أمر الخليفـة عبد الملك باستخدام العـربية ، »
« مما سبب غما لوزير ماليته سرجون (سرجيوس) . وفى مصر لم يحـدث الا »
« فى عام ٨٧ (٧٠٦ م) ان امر الوالى عبد الله بن عبدالملك ان تكتب جميع الوثائق »
« الادارية بالعربية بدلا من الاغريقية » .

« نظام العملة : لم يكن لدى العرب ، قبل الاسلام وفى أثناء حياة مؤسسه »
« سكة خاصة بهم ، وكانت جميع النقود المتداولة فى بلادهم اما دنانير بيزنطية أو »
« دراهم سـاسانية كانت تجلب من ســوريا والعـراق بواسطة التجارة الرابحة »
« للقوافل » .

« ولما أصبح العرب سادة سوريا والعراق وفارس ، ظلوا لفترة سنين قليلة »
« يستخدمون النقود التى كانت مألوفة لديهم ، ثم لم يحدثوا بعد ذلك الا تعديلات »
« غاية فى البساطة » .

« كانت العملة المعتمـدة فى فارس هى الدرهم السـاسانى الذى يحمل على »
« وجه منه الرسـم الجانبى لرأس الملك وهو يلبس التـاج الفارسى ، وعلى الوجه »

(1) E.M.A., I, pp. 42-94.
(2) Ibid., I, pp. 94-96.
(3) البلاذرى : فتوح البلدان (المطبعة المصرية بالازهر ـ ١٣٥٠ هـ/١٩٣٠م) ـ ص ٢٩٨ .

« الآخر يقف شخصان على جانبى مذبح للنار ويشرفان عليه • وفى الحافة »
« الخارجية ، حول ثلاث حلقات من حبيبات صغيرة ، رسم هلال ونجمة يتكرر »
« ثلاث أو أربع مرات • واستخدم العرب الفاتحون هذه العملة تاركين كل شيء »
« كما هو بما فى ذلك المكان والتاريخ باللغة البهلوية • وأقنعوا أنفسهم بمجرد »
« درهما يحيط به الشك ويحتمل تأريخه فى سنة ٢٠ هـ ، فلدينا أمثلة من هذا »
« اضافة البسملة بالخط الكوفى ، واستعمال الحساب الهجرى للتاريخ • واذا تجاهلنا »
« النموذج مؤرخة فى السنوات من ٢٥ الى ٢٨ و ٣٠ » •

« ومن بعد سنة ٣٢ هـ نجد أن الرأس من نموذج خسرو الثانى قد استبدل »
« بأخرى من نموذج يزدجرد ، ولعل ذلك كان بسبب أن الاخير كان خصمهم »
« الفعلى (؟) • ولدينا من هذا النموذج سلسلة كاملة من العملة مؤرخة فى سنوات »
« ٣٢ ، ٣٧ ، ٣٩ [١] ••• الخ •••• ومع ذلك فان هناك عملة ذات اهمية خاصة »
« ظهرت فى القسطنطينية عام ١٨٦٠• وقد ارخت بالبصرة سنة ٤٠ هـ ، ولا تحمل »
« الا فقرات من القران بحروف كوفيه وقد احاط بها الشك فى أول الامر ، غير »
« انها قد قبلت الان على انها اصيله ، ويبين تاريخها انها قد سكت فى اثناء خلافه »
« على وفى نفس السنه التى لاقى فيها حتفه • ثم تستمر سلسلة العمله الساسانية »
« لا تنقطع الا فى خمس سنوات حتى اصلاح العملة الذى قام به عبد الملك »
« فى سنه ٧٣ (٦٩٢/٣ م) او سنه ٧٤ (٦٩٣/٤م) • بل حدث بعد هذا ان ظلت »
« عدة دور للضرب فى فارس تسك عمله على النموذج الساسانى ، كان اخرها »
« دار بيزا التى يبدو أنها بقيت حتى ٨٣ هـ (٧٠٢/٣ م) » •

« أما فى الشام فان النقود الأولى التى سكها العرب قد ضربت فى دمشق »
« سنة ١٧ (٦٣٨ م) • وتوجد قطعة محفوظة بالمكتبة الأهلية (بباريس) عليها »
« شكل لهرقل فى وضع واقف كامل الوجه مع كل رموز المسيحية : من صليب »
« يعلوه الصولجان ، وصليب طويل تسنده اليد اليمنى وكرة تحمل الصليب فى »
« اليد اليسرى • والى اليسار نسر فوق دعامة على شكل حرف T ، والى اليمين »
« حروف اغريقية • وعلى الوجه الخلفى الحرف... وضعت فوقه الحروف الرمزية »
« للمسيح • وبدلا من التقويم الأغريقى نجد التاريخ قد كتب بالتقويم الهجرى »
« بالحروف الأغريقية X • وأخذت البسملة تدخل بالتدريج ويختفى الصليب »
« من الصولجان والكرة • ثم ضرب معاوية بعد ذلك ــ حسب قول المقريزى ــ »

(١) E.M.A., I, p. 95, Fig. 52.

« دنانير تحمل صورته وهو متمنطق حساما • وعلى الرغم من أن هذه العملة غير »
« معروفة فى الوقت الحاضر فانه قد بقى عدد من عملة مشابهة تحمل اسم الخليفة
« عبد الملك ، صور فيها الخليفة واقفا كامل الوجه ، وشعره مفروق من الوسط »
« ممسكا سيفا فى يده اليمنى • ثم جاء اصلاح السكة ، وضرب لأول مرة فى »
« سنة ٦٩٢ ميلادية نموذج جديد عربى خالص » •

« وفى شمال افريقية ، وحيث أمكن التخلص من الحكم العربى أكثر من »
« مرة ، فانه يبدو أن الفاتحين لم يضربوا سكة حتى نهاية القرن السابع ، وكانت »
« الكتابة عليها باللاتينية •• ولم يحدث الا فى سنة ٩٧ (٧١٥/٦ م) أن أصبحت »
« عملة شمال افريقية ذات لغتين ، ثم أصبحت بعد ثلاث سنوات (١٠٠ هـ) »
« عربية خالصة » •

ويتضح من مجموعة الآراء التى سردناها ومما سيأتى ذكره فيما بعد أن أكثر أولئك العلماء الغربيين قد اتجهوا وجهة مشتركة هى بحث أصول الحضارة العربية الاسلامية بوجه عام ، وبالتالى أصول العمارة العربية الاسلامية ، بطريقة يهدفون منها الى نسبة تلك الأصول الى مصادر غير عربية وغير اسلامية •

ويهمنا من أولئك العلماء بصفة خاصة الاستاذ كريسول الذى تتلمذنا عليه ، لأنه قد وضع كثيرا من الأبحاث والدراسات فى العمارة الاسلامية [1] ، منها أربعة مجلدات ضخام تعد من أمهات المراجع فى ذلك الميدان • ويمكن القول بأن معظم تلك الدراسات ـ او كلها فى الواقع ـ ينقسم منهج البحث فيها الى قسمين : الاول منهما يتضمن حرصا شديدا على تسجيل الاثار المعمارية بالوصف والرسم والتصوير ، مع جمع كل ما كتب عنها فى جميع المراجع القديمة والحديثة ، ولم تصل الى علمه شاردة او واردة عنها الا سجلها • ويميز هذا القسم ، والحق يقال ، باكثر ما يمكن من الدقة والامانة العلمية •

اما فى القسم الثانى ، الذى يتضمن دراسة أصول ومصادر العمارة الاسلامية ، فان حرص الاستاذ كريسول الشديد ودقته قد تخليا عنه فى أغلب الحالات • ذلك أن خضوعه لتأثير ذلك الاتجاه الذى رسمته تلك الفئة العلماء الغربيين من قبل قد جعله يتلمس وينبش عن أى شبه مهما كان ضعيفا بين ما وجد فى العمارة العربية

(1) يتضح ذلك بوجه خاص فى كتابيه الكبيرين اللذين يتكون كل منهما من جزئين ، والكتابان هما :

(أ) Early Muslim Architecture, vol. I : Umayyada, Oxford 1932 and vol II : Early Abbasids and Tulunids, Oxford 1940.

(ب) The Muslim Architecture of Egypt, vol. I : Ikhshids and Fatimids, Oxford 1952 and vol. II : Ayyubids and Early Baharite Mamluks, Oxford 1960.

الاسلامية من عناصر ووحدات وظواهر معمارية وزخرفية وبين ما وجد فى عصور سابقة ، حتى ولو كانت فواصل الزمن تصل الى مئات أو ألوف الأعوام ، وفواصل المكان تصل الى مئات أو ألوف الأميال ، بل حتى ولو لم تكن هناك أية احتمالات لوجود صلات أو علاقات .

ويؤيد من خطورة هذا الاتجاه أن الأستاذ كريسول يتمتع بتقدير عظيم فى الأوساط العلمية الدولية بوصفه أنه أكثر من كتب عن العمارة الاسلامية دراية بها ، ودراسة لها . ومما يستوقف نظرنا أنه فى الوقت الذى خرج فيه عن حرصه فى مناقشة أصول العمارة الاسلامية ، وفيما ينعكس من ذلك على حضارة العصر الاسلامى ، فأننا نجد فى الوقت الحاضر من علماء العمارة والفنون من الغربيين من أخذ يتخلى عن روح التحامل ضد العرب والاسلام ويشيد بعمارة وفنون العرب والمسلمين وبتأثيرها المحسوس على العمارة والفنون فى العصر البيزنطى وفى العصور الوسيطة الأوربية (1) .

ويمكننا أن نلخص ردنا على تلك الآراء فيما يلى :

أولا : أنه يتضح لنا من طريقة تناول أولئك العلماء لمناقشة عمارة العرب فى شبه الجزيرة أن تعريف لفظ « العمارة » نفسه ليس واضحا فى أذهانهم . ذلك أنه يكاد ينحصر مفهومها عندهم بأن العمارة ما هى الا تفاصيل وزخارف ، وأناقة البناء وعظمته ، وهو فهم خاطىء الى حد كبير . ذلك لأن المسلم به ومن المتفق عليه فى جميع الأوساط المعمارية العلمية فى العالم كله بغير استثناء أن جوهر العمارة يتمثل أولا وقبل كل شىء فى التخطيط العام للمبنى ، وفى توزيع وحداته الرئيسية التى يتكون منها ذلك التخطيط ، أما التفاصيل والعناصر والزخارف فهى بمثابة المظهر الخارجى الذى ينعكس عليه تفاوت درجات الأناقة والثراء .

والحق أن بعض محاولات تعريف « العمارة » قد اصطبغت بالتعقيد والتعمق فى النواحى الفلسفية فيها حتى اختلط الأمر فى تعريفها وأصبح غير واضح ، مع أن تعريف العمارة بسيط فى حد ذاته ويمكن تلخيصه فى ان العمارة هى نتيجة كل محاولة قام بها الانسان وهدف بها الى أن يوفر لنفسه فى معيشته ثلاثة مطالب ، كلها أو بعضها ، وهى : (أ) الراحة ،

(1) Rice (T.) : Byzantine Art, (1951), pp. 161, 194, 199-201 ; Hamlin : History of Ornament (1916) ; Arnold (Th.) : The Legacy of Islam, (1931).

(ب) الأمن ، (ج) الجمال • وسواء كانت نتيجة تلك المحاولات ناجحة أو فاشلة ، وسواء كان مستوى قالبها بدائيا أو ناضجا ، فانها تعد من صميم العمارة ، ما دام الانسان قد خلقها وابتكرها وتابعها بالتطوير والتغيير •

يؤيد هذا أن جميع المراجع التى وضعت عن تاريخ العمارة تبدأ دائما بعمارة عصور ما قبل التاريخ وعمارة الأقوام البدائية اذا ما كان لها مخلفات باقية • فهى توضح ملكة الانسان فى الخلق والابتكار وما تبع ذلك من تطوير وتهذيب • أما مستويات النجاح والفشل فى محاولات التطوير والتهذيب ومستويات النضج ، فأنه يجب أن لا يغيب عن أذهاننا أن مقاييسها بطبيعة الحال لا بد أن تتفاوت حسب العصور وطرق التفكير وظروف البيئات •

ولنأخذ لذلك مثلا من حياة الانسان الأول عندما كان يكتفى بالالتجاء الى الكهوف ليعيش فيها بغير أن يمس أى شىء فيها بتعديل أو اضافة • ثم بدأت أول مرحلة من العمارة مع باكورة محاولاته لتمهيد أرضية الكهف ، أو تسوية وجه جدار فيه ، أو توسيعه لكى يصبح مريحا ، أو وضع حجر يسد فوهته لكى يوفر لنفسه الأمن وهو بداخله ، ثم بتعليق جلد حيوان أو فرع شجرة أو غير ذلك ليخلق به شيئا من البهجة • وبذلك توفر ، فى صورة بدائية ، ركن أو أكثر من أركان العمارة • وكذلك وجدت العمارة فى أول صورها أيضا عندما بدأ الانسان الأول فى مناطق أخرى فى بناء ملجأ له من فروع الأشجار أو من الطين أو من الحجر ، الى غير ذلك من المواد التى تتوفر فى كل منها •

وكانت العمارة تتطور مع تقدم الحضارات وتتبلور تقاليدها على ضوء التجارب والمشاهدات والدراسات المتصلة بالعلوم والفنون التى تشترك فى اخراج القطع المعمارية والتى حصل عليها الناس مع مرور الوقت ، ثم كون كل جماعة منهم طرازا معماريا خاصا بهم يتميز بمميزات فنية وعلمية تختلف عن مميزات الطراز الأخرى ، حيث كان كل طراز منها يتأثر فى نشأته وتطوره بعوامل البيئة التى تعيش فيها تلك الجماعات ، وهى العوامل المختلفة التى تأتى من ناحية الدين والسياسة والحالة المالية وغير ذلك ، كما يتأثر فى الوقت نفسه بالطبيعة الجغرافية من حيث المناخ السائد فى المنطقة من اعتدال الطقس أو حرارته أو برودته ، وبالطبيعة الجيولوجية من حيث

أنواع المواد وطرق البناء ، الى غير ذلك من العوامل [1] .

ثانيا : أن ما ذكره المستشرق كايتانى Caetani [2] من تقسيم سكان منطقة الحجاز الى بدو رحل قدر نسبتهم بتسعة أعشار مجموع عدد سكانها ، والى حضر يبلغ عددهم العشر الباقي ، كل ذلك لا ندرى من أين جاء به كايتـانى ؟ وعلى أى أساس علمى أمكنه أن يضع تقديره ؟ وكيف حصل على احصـاء لعدد أولئك وهؤلاء من فئات العرب فى أيام الرسـول وأيام الجاهلية التى التى سبقت الدعوة الى الاسلام ؟ وهى أسئلة لا نظن كايتانى أو غيره يمكنه أن يجيب عنها . فهو أمر يكاد يكون متعذرا فى الوقت الحاضر ، فكيف به فى تلك الأيام ؟ واذن فلا مفر من القول بأن ذلك الرأى لا يعدو وأن يكون حدسا وتخمينا وضربا فى مجاهل البحث على غير هدى .

ثالثا : أننا لا ندرى كيف أمكن الوصول الى اكتشاف عقدة الرعب المتأصل الموروث من الأماكن المقفلة Contingent Claustro-Phobia عند عرب البادية فى أيام الجاهلية وبعدها ؟ ان الاشارة الى تلك العقدة قد خلت من ذكر المراجع التى تناولت عرب تلك الأيام بتحليل أغوار نفسياتهم ومعتقداتهم والغرائز التى كانت تسيطر عليهم . ولسنا نظن أبدا أن هناك مراجع علمية يعتد بها فى هذا الشأن . وكل ذلك يجعلنا مرة أخرى نعد الحديث عن تلك العقدة لغـوا ومثلا آخر للحدس والتخمين .

رابعا : أما الاشارة الى كراهية الرسول الكريم للبناء ، فان لها أهمية خاصة لدينا ونحن ندرس العمارة العربية فى العصر الاسـلامى ، وهى تستحق وقفـة لبحثها وتحقيقها من حيث استعراض الظروف التى قال فيها الرسول حديثه واحتمال تضمنه لمعنى تلك الكراهية اذا كان قد قاله . فعلى الرغم من نشر

---

(١) من الحقائق المعروفة من فن العمارة ان انتاج القطعة المعمارية يشترك فيه كل من العلم والفن . ويدخل تحت العلم فروعه المختلفة : من رياضة وطبيعة وكيمياء ، بل ومن علوم الحيوان والنبات وغيرها .، ثم يدخل تحت باب الفن أنواع مختلفة من الفنون التشكيلية والتطبيقية . وذلك ليوفر العلم من جيته ركنى المتانة والامان ، ونصيب من ركن الراحة البدنية . ويوفر الفن من ناحيته الجزء الباقى من ركن الراحة البدنية ، ثم ركن البهجة أو الراحة الحسية .

ويزيد نصيب كل من العلم والفن أو ينقص تبعا للهدف من بناء القطعة المعمارية . ولذلك فقد اصبح من الممكن فى العصر الحديث أن يعد بناء الباخرة والطائرة والسيارة من ضمن العمارة .. فانه على الرغم مما يبدو لاول وهلة من سيطرة الجانب الصناعى والتكنولوجى على انتاج كل منهما بما يوفر المتانة والامان ويحقق نصيبا كبيرا من الراحة البدنية، فان الاهتمام بالنواحى الفنية قد اخذ فى الازدياد ،، وذلك لتوفير قدر اكبر من الراحة البدنية الحسية ،،

(٢) Caetani (L.) : Annali dell'Islam, I, pp. 442-444.

ترجمة كاملة للنص المكتوب فى طبقات ابن سعد [١] ، فقد أغفلت المعانى والدلالات العميقة التى تتمثل فى ذلك النص ، واقتصر الفهم على المعنى السطحى الظاهر للحديث فحسب [٢] . ونورد فيما يلى هذا النص :

« أخبرنا ... عن عبد الله بن يزيد قال : رأيت بيوت أزواج النبى عليه »
« السلام حين هدمها عمر بن العزيز ، كانت بيوتا باللبن ولها حجر من جريد »
« مطرورة بالطين عددت تسعة أبيات بحجرها ، وهى ما بين بيت عائشة الى الباب »
« الذى يلى باب النبى عليه السلام الى منزل أسماء بنت حسن ... ورأيت بيت »
« ام سلمة وحجرتها من لبن ، فسألت ابن ابنها فقال : لما غزا رسول الله صلى الله »
« عليه وسلم غزوة دومة (الجندل) ، بنت ام سلمة حجرتها بلبن ، فلما قدم »
« رسول الله (ص) ، نظر الى اللبن فدخل عليها أول نسائه فقال : ما هذا البناء ؟ »
« فقالت : أردت يا رسول الله أن أكف أبصار الناس . فقال : يا أم سلمة ان شر »
« ما ذهب فيه مال المسلمين البنيان . قال محمد ابن عمر .. أدركت حجر أزواج »
« رسول الله (ص) من جريد النخل ، على أبوابها المسوح من شعر أسود . »
« فحضرت كتاب الوليد بن عبد الملك يقرأ ، يأمر بادخال حجر أزواج النبى (ص) »
« فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فما رأيت أكثر من ذلك باكيا من »
« ذلك اليوم . قال عطاء فسمعت سعيد ابن المثيب يقول : يومئذ والله لوددت أنهم »
« تركوها على حالها ، ينشأ ناشىء من أهل المدينة ويقدم القادم من الأفق فيرى »
« ما اكتفى به رسول الله (ص) فى حياته ، فسيكون ذلك مما يزهد الناس فى التكاثر »
« والتفاخر . قال معاذ ... كان منها أربعة أبيات بلبن لها حجر من جريد ، »
« وكانت خمسة أبيات من جريد مطينة لا حجر لها ، على أبوابها مسوح شعر ، »
« ذرعت الستر فوجدته ثلاث أذرع ، والعظم أدنى من العظم ، فأما ما ذكرت من »
« البكاء يومئذ فلقد رأيتنى فى مجلس فيه نفر من أبناء أصحاب رسول الله (ص) ، »
« منهم أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف .. (وغيرهم) .. وانهم ليبكون حتى »
« أخضل لحاهم الدمع ، وقال يومئذ أبو أمامة ليتها تركت فلم تهدم حتى يقصر »
« الناس عن البناء ويرون ما رضى الله لنبيه عليه السلام ومفاتيح خزائن الدنيا »
« بيده ... » ثم قال : « أخبرنا محمد بن مقاتل المروزى ... سمعت الحسن »
« يقول : وكنت أدخل بيوت أزواج النبى عليه السلام فى خلافة عثمان بن عفان ، »
« فأتناول سقفها بيدى . » » .

---

(١) ابن سعد : طبقات ، ج : ١ ص : ١٨٠ ، ١٨٠ — ١٨٢ .

(٢) E.M.A., I, p. 4.

والحق أننا لو تأملنا الرواية التى سبقت الحديث النبوى بامعان ، وكذلك ما جاء بعده ، لتبين لنا فى وضوح أن من تلك الحجرات التسع ما كان مشيدا باللبن من قبل أن تبنى أم سلمة حجرتها باللبن ، ومن ناحيـة أخـرى فان بنـاءها لها لم يكن الا لضرورة تهم أم سلمة وتعلم تمام العلم أن الرسول نفسه يهتم لها ، وهى أن تستر حجرتها من أن تكشفها أنظار الناس • ويضاف الى ذلك أيضا أن الرسول قد اشترك منذ أول لحظة فى بناء داره هذه ، التى صـارت بعد ذلك مسجدا ، وبنى الجـدران باللبن • اذ يقول ابن هشام : « ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبى أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه ، فعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرغب المسلمين فى العمل فيه » ••• ثم قال : « فدخل عمار بن ياسر وقد أثقلوه باللبن » [1] •

وتدل تلك الروايات اذن على أن الرسول لم ينه عن البناء أو يظهر كراهية له• كما أن الحديث الذى وجهه الى أم سلمة لا يتضمن معنى النهى أو الكراهية ، وانما يدل على التنبيه بعـدم الاسراف فيه • وكان من السـهل على أولئك المستشرقين أن يصلوا الى ذلك المعنى لو توفرت الروح العلمية المنصفة المحـايدة • ذلك أن الحض أو التنبيه على عدم الاسراف كان أمراً طبيعيا فى المراحـل الأولى التى كانت الظروف فيها تتطلب التركيز الشديد على نشر الدعوة الى اعتناق الدين الجديد ، والالحاح على تخصيص كل امكانيات المسلمين فى هذا السـبيل ، وتأجيل ما عـدا ذلك من نواحى النشاط الأخرى من مدنية ومعمارية ، وبخاصة ما يتصف منها بالتأنق أو المغالاة فى الزخرفة ، وذلك الى الوقت الذى يطمئن المسلمون فيه الى سير الدعوة فى الطريق المطلوب • وهو ما حدث فعلا بعد اتمام فتوحاتهم واستقرار قواعد الاسلام فى الأقطار التى دخلت تحت لوائه • ولو كان الرسول محبا للعظمة هو وخلفاؤه الى الدرجة التى جعلتهم يتخذون من المنبر والعصا رمزين للعرش والصولجان ، كما ذكر بكر Becker فى دراسته لأصل المنبر (بعده ص : ٦٢٧ ـ ٦٢٨) [2] ، فأنهم ما كانوا يقاومون البذخ والتأنق فى البناء ، وهما من أكبر مظاهر العظمة التى يميل اليها الحكام عادة ويحيطون أنفسهم بها• ولا ندرى اذن كيف نوفق بين القولين المتناقضين اللذين جاءا فى موضعين من كتاب واحد لا يفصل بينهما الا بضع صفحات ، جاء فى أحدهما أن الرسول كان يكره البنيان ، وفى الثانى أنه كان يحب العظمة ؟

---

(١) ابن هشام : سيرة النبى (ص) ، نشر محمد محى الدين عبد الحميد (١٣٥٦ ـ ١٩٣٧): ج ٢ ، صفحة ١١٤ .

(٢) E.M.A., I, p. 9, ft. n. 6 ; Becker : Die Kanzel in Kultus des Alten Islam, (in Orientalische Studien Theodor Nöldeke), I, pp. 333-51.

ان هذا التناقض لا شك يهدم القوتين من أساسهما ، ويجعلنا نجزم بأن العمارة فى وقت الرسول كانت موجودة معروفة ، ولكن يغلب عليها البساطة والتقشف لما كانت تتطلبه الظروف فى تلك الأوقات .

ويعزز هذا الظن ما وضحناه من تعريف بالعمارة ، وأنه لا يمكن أن ينسب الى العرب فى وقت نزول الوحى ، بل فى ما سبقه من أزمان ، الجهل التام بالعمارة والفنون ، وهم الذين صوروا باللفظ المنثور والمنظوم روائع اللوحات عن الجمال بأنواعه ، وترنموا به شدوا وغناء ، ولا بد أنه كانت عندهم ، الى جانب ذلك ، أنواع خاصة من العمارة والفنون ما زلنا نفتقر الى ما يهدينا الى خصائصها ومظاهرها ، وذلك بسبب عدم العثور على مخلفات أثرية منها ترجع الى عصور الجاهلية صدر الاسلام . وهو سبب لا يمكن أن يؤخذ دليلا على أن العرب هناك لم ينتجوا شيئا منها. فالمعروف أن شبه الجزيرة بوجه عام والمنطقة التى نبع فيها الاسلام بوجه خاص ، بقيت منيعة على محاولات القيام بحفائر أثرية على نظم علمية فى أرضها ، وبالتنقيب عما تحتويه فى جوفها من مخلفات الحضارات فى العصور المختلفة ، وذلك نظرا لأن ظروف التخلف التى كانت قائمة هناك حتى وقت قريب ، بل والتى لعل بعضها لم يزل قائما فيها حتى وقتنا هذا ، لم تسمح بالقيام بمثل تلك المحاولات ، خاصة وأن العلماء الأجانب هم الذين يهيمنون على دراسات الآثار وحفرياتها . وكان الناس فى أرض الحجاز ينظرون الى الغرباء وخاصة من الأوربيين الذين يدينون بغير الاسلام نظرات ملؤها الشك والريبة . وكان الأفراد والجماعات منهم يمنعون من القيام بأعمال الحفر والتنقيب ، بل ان الأفراد الذين نجحوا فى التسرب الى هناك كانوا يتنكرون فى ثياب الأعراب أو الحجاج المسلمين . غير أن الأمور قد بدأت تتطور مع انتشار الثقافة فى تلك البلاد مما يجعلنا نتوقع أن تتخذ محاولات الحفر والتنقيب صفة الجدية على أيدى الأثريين من العرب ومن أهل تلك البلاد . ومما يبشر بقرب اتخاذ الخطوات العملية فى هذا السبيل أنه قد تخرج فى قسم الآثار الاسلامية بجامعة القاهرة منذ عهد قريب شابان سعوديان وفدا لدراسة الآثار الاسلامية على منحة من الجمهورية العربية المتحدة ، فوجهتهما نحو القيام فى العطلة الصيفية بالتعرف على المواقع الأثرية فى بلادهما . وعثرا بالفعل على بعض الآثار من كتابات كوفية وجدران السدود ظاهرة على وجه الأرض . الأمر الذى نرجو أن يشجعهما على المضى فى هذا الاتجاه ، وأن تصبح محاولتهما بداية سلسلة من الجهود الصادقة للكشف عن آثار شبه الجزيرة العربية فى الحاضر والمستقبل بما يوضح دراية تلك المناطق بالعمارة والفنون منذ

أيام الجاهلية حتى أيام الرسول وانتشار الاسلام ، ويبين المستويات الحقيقية التى وصلت اليها جهودهم فيها فى مختلف العصور .

ومهما يكن من أمر فان منطق تطور الحضارات البشرية ، منذ فجر وجود الانسان على ظهر الأرض ، لا يترك مجالا للشك فى أن العرب فى تلك الحقبة كانت عندهم احساسات فنية لا بد أن تكون قد أثرت بطريقة ما فى تطور الفن العربى فى البلاد الاسلامية منذ أن بدأ العرب فتوحاتهم ، ونجحوا فى تكوين امبراطورية عظيمة من تلك الأقطار التى كانت معروفة لهم فى تلك الأوقات . فمن الملاحظ أن العمارة والفنون العربية قد أخذت تتكون ولها طابع خاص واضح منذ اللحظات الأولى من العصر الاسلامى فى بلاد العرب والأقطار التى دخلوها ونشروا فيها الاسلام ، وسارت فى طريق التطور الذى اختطته لنفسها مثل غيرها من الطرز .

وكان ذلك الحكم الجائر الذى يتضمن معنى عدم وجود عمارة أو فنون عند العرب حافزا لنا لأن نحاول التعرف على ما كتب عن شبه الجزيرة العربية وحضارة أهلها عند نزول الوحى ، وفيما سبق ذلك وما لحق به من عصور ، لكى تتبين ما كانت عليه بيئة البلاد الطبيعية وبيئات ساكنيها الذين كانوا من فئتين : جماعة الحضر الذين يسكنون المدن ، وجماعة الوبر أو البدو الذين يسكنون الخيام المصنوعة من جلود الحيوانات .

فالحضر من عرب شبه الجزيرة والحجاز ، بفرض قلة عددهم ، كانت لهم دون شك بيوت ودور يسكنونها وتخضع فى تكوينها لطريقة خاصة بهم فى معيشتهم . أى كانت لهم نظم معمارية خاصة لها قيمتها الفنية التى تهم علماء الآثار والعمارة مهما بلغت من البساطة والبداوة . وينطبق ذلك القول أيضا على الفنون الزخرفية عند الحضر والبدو على السواء . فقد كانوا يستخدمون دون ريب أدوات لمعيشتهم ، مثل أوانى الشرب والأكل والطهى ومعدات نسج الأقمشة للثياب والأغطية وفرش الأرض والستر (جمع ستار) أو الخمر (جمع خمار) ، التى كانت تسدل على أبواب المساكن عند الحضر لمن لم يكن فى استطاعته عمل أبواب من الخشب ، وكذلك التى كانت تسدل على جيوب أو فتحات الخيام عند البدو . ومن المرجح أنه كان عند أهل الحضر وسائل للاضاءة الضرورية لفترة قصيرة من الليل .

ومما لا ريب فيه أن ذوى اليسار منهم كان فى وسعهم جلب بعض تلك الأشياء من الأقطار الأخرى فى الشمال كالشام والعراق وفارس ، أو من اليمن فى الجنوب ،

فى رحلات الشتاء والصيف التى ورد ذكرها فى القرآن • فان أغلب أهل الحضر والبدو كانوا يتحايلون بشتى الطرق للحصول على ما ينفعهم منها ومما لا يستغنون عنه فى معيشتهم • ومن المرجح أنهم قاموا بصناعة بعضها من المواد المحلية التى كانت فى متناول أيديهم ، مع احتمال تأثرهم الى حد ما ببعض ما كان يرد من الشمال والجنوب ، يقتبسون منه ويصيغونه بما يتفق مع أذواقهم وحاجاتهم التى تفرضها بيئاتهم المحيطة بهم • ومن البديهى أن الميل البشرى للزينة والزخرف قد تدخل فى أشكال تلك الأدوات والمعدات ، وأخذ ذلك العامل يوحى بابتكار عناصر ووحدات زخرفية جديدة ، ثم بدأ الطابع المحلى يتبلور وتتضح شخصيته •

ومهما يكن من أمر فانه ليس يضير العرب والمسلمين أن يقتبسوا من الحضارات والفنون السابقة والمعاصرة لهم ما يلائم الظروف التى كانت تحيط بهم أيام الجاهلية ومنذ نزول الوحى على محمد ، وما تبع ذلك من فتوح لتوسيع نطاق الدعوة الاسلامية ، حتى يدخلها أكثر عدد ممكن من بنى الانسان •

فمن المعروف فى تاريخ الفنون أنها تنشأ وتتكون وتتطور وهى تصاحب فى ذلك مراحل تطور الحضارات • والمشاهد دائما أن كل فن ناشىء يلجأ فى طوره الأول الى استعارة بعض العناصر والأساليب من فنون سابقة أو معاصرة كانت موجودة فى المناطق التى قام فيها ، وفى مناطق أخرى كانت على صلة بها • ثم يأخذ فى صياغتها وصهرها مع تقاليد جديدة تتطلبها الحضارة الناشئة • ويخضع الفن فى تلك المراحل لعدة عوامل تؤثر فيه وتوجهه فى مراحل تطوره ، ويميزه فى مجموعه عن غيره من الفنون السابقة والمعاصرة واللاحقة • ولهذا فان دراسات تاريخ الفنون تتطلب التعرف على المؤثرات والعوامل التى يتعرض لها كل طراز منها ، والتى يعد بعضها عوامل معنوية وروحية ، ويعد بعض آخر مادى • وسنعرض فى صفحات تالية تلك العوامل الرئيسية وتأثيرها على تطور العمارة والفنون بوجه عام ، وعلى العربية الاسلامية منها بوجه خاص •

ولم يخرج الطراز العربى فى العصر الاسلامى عن هذا التسلسل الطبيعى فى تطوره ، ولم يكن فى اقتباسه بعض العناصر والظواهر المعمارية والفنية التى تلائم الأذواق العربية الاسلامية الجديدة خارجا على قواعد تطور الفنون ، بحيث يؤاخذ على اقتباسه هذا ، أو يعد عيبا فى العرب ، وهو الأمر الذى تبذل فيه الجهود الكبيرة ليدمغ بطابع عدم الاصالة ، وليثبت فقر العرب من ناحية التراث الفنى من قبل الاسلام ، بل وجهلهم التام بكل ما يتصل بالعمارة ؛ وبالتالى بالفنون بوجه عام ؛ مما كان

يضطرهم الى الاعتماد الكلى على الفنون الأخرى فى الأقطار التى أخضعوها لحكمهم ، فى تكوين فن لهم فى العصر الاسلامى ، وتدفعهم حاجتهم فى ذلك الى الاستعانة بالفنانين والصناع من الأجناس الأخرى الذين كانوا يعيشون فى تلك الأقطار .

ولو افترضنا صحة ذلك الزعم ، وهو ليس بصحيح كما سنرى فى سياق الحديث التالى ، فانه لمما يذكر بالفخر على أقل تقدير للعرب المسلمين انهم قد صهروا كل ما اقتبسوه من حضارات وتقاليد العمارة والفنون للأقوام ذوى المشارب والديانات المختلفة فى الأقطار المتفرقة التى جمعها الاسلام واعتنقه معظم أهلها ، وأخرجوا من ذلك المزيج طرازا معماريا وفنيا ذا طابع موحد يضم تحت لوائه جميع المدارس المعمارية والفنية فى تلك الأقطار شرقا وغربا . ولكن مما هو جدير بالذكر أنه على الرغم من وضوح ذلك الطابع العام ، ووجود تلك الوحدة الصريحة الواضحة ، فان كل مدرسة منها كانت تتميز بطابع خاص بها ، وشخصية يسهل التعرف عليها والاحساس بها .

ويتضح تجنى أولئك العلماء على العرب من ناحية فى أنهم لم يعنوا أبدا بدراسة بيئات العرب فى منطقة ظهور الاسلام وما حولها فى العصور السابقة عليه . مع أن هناك من المعلومات الكثيرة ما يدل على أن العرب فى الجاهلية وفى صدر الاسلام كانوا يعيشون فى تلك المناطق فى ظروف تساعد على قيام حضارة أو حضارات لها معالم وخصائص يمكن أن تحددها مخلفات العمارة والفنون لو أمكن العثور عليها والكشف عنها . وهو أمر لا شك سيحدث فى وقت من الأوقات ، ولعله يكن قريبا .

من ذلك أنه قد بقيت آثار بعض الأودية وبقايا عاديات وخرائب ومخلفات السكنى فى بعض بقاع شبه الجزيرة العربية ، وكلها لم تدرس بعد ـ وكذلك آثار الترسيبات التى تمثل قيعان الأنهار . ويتضح من ذلك أن هذه الأودية كانت فى الحقيقة انهارا فى يوم من الايام ينبض فيها عرق الحياة ، وأنها كانت تستضيف عددا كبيرا من الأحياء [1] . ويؤيد هذا الاستنتاج ما ورد فى كتب الاغريق والرومان من وجود أنهار طويلة فى بلاد العرب كالذى ذكره هيرودوتس من أمر نهر سماه كورس ، وقال عنه انه من الأنهر العظيمة وانه كان يصب فى بحر الأريترية [2] ، ويقصد به البحر الأحمر طبعا ، وأن العرب يقولون أن ملكهم عمل على جلب المياه من ذلك النهر العظيم ، واستخدم لهذا الغرض ثلاثة أنابيب صنعت من جلود الثيران وغيرها

(١) جواد على : اسم المرجع ، جـ : ١ : ، صفحة : ٩٧ .
(٢) المرجع السابق ، جـ : ١ ، صفحة : ٩٧ .

من الحيوانات تمتد الى الصحراء على مسيرة اثنى عشرة يوما من النهر ، فتصب فى مواضع منقورة تستعمل لخزن المياه [1] .

وهناك موضع على مقربة من ساحل البحر الأحمر اسمه « قرح » على مسافة ٤٣ كيلومترا من « الحجر » ، كان يمر به خط السكة الحديد الحجازى القديم عند منطقة صحراوية . وكان فى الأزمنة السابقة من المحلات المزروعة وبه بساتين عدة تعرف ببساتين « قرح » [2] .

ويوجد واد اسمه « وادى الحمض » يصب فى البحر الأحمر عند موضع فى جنوب قرية « الوجه » . وتوجد عند هذا المصب بقايا قرية اغريقية قديمة وبقايا معبد يعرف عند الأهلين باسم « قصر كريم » ، وهو من بقايا المستعمرات الاغريقية القديمة التى كان الملاحون والتجار الاغريق قد أقاموها على ساحل البحر الأحمر لحماية سفنهم من القرصان والاتجار مع الأعراب ، ولتموين رجال القوافل البحرية بما يحتاجون اليه من مال وزاد [3] . ومن الواضح أن هذا الزاد على الأقل كان كله أو معظمه من انتاج المناطق القريبة من المستعمرات الاغريقية . كما كانت تستخدم كمرفأ لسفن مصر المتجهة الى المدينة ثم أفل نجمها وهجرت . وفى حوالى سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٨ م) كانت مهجورة بينما ظلت آثارها باقية [4] .

وتتخلل الحجاز أودية متعددة . منها وادى « أضم » الذى ورد ذكره فى أشعار الجاهلية وفى أخبار سرايا الرسول [5] . ووادى « نخال » ويصب فى « الصفراء » بين مكة والمدينة . والصفراء واد من ناحية المدينة كثير النخل والزرع ويقع فى طريق الحجاج ، سلكه الرسول غير مرة ، وعليه قرية الصفراء ، وماؤها عيون تجرى الى ينبع . وهناك واد آخر يتميز بأهمية خاصة وهو « وادى القرى » ، يقع بين العلا والمدينة ، ويمر به طريق القوافل القديم الذى كان شريانا من شرايين الحركة التجارية فى العالم العربى القديم ، والتى كان أحد مظاهرها رحلتى الشتاء والصيف التى أشار اليها القرآن . وكان ذلك الوادى كثير العمران ، به مياه غزيرة ، وتشاهد فيه اليوم آثار المدن والقرى . وكان بين سبأ والشام قرى متصلة ، فكان أفراد القوافل لا يحتاجون الى زاد يحملونه من وادى سبأ الى الشام [6] .

(١) جواد على : المرجع السابق ، جـ : ١ ، صفحة : ٩٧ .
(٢) المرجع السابق ، جـ : ١ ، صفحة : ٩٨ .
(٣) المرجع السابق ، جـ : ١ ، صفحة : ١٠٠ .
(٤) المرجع السابق ، جـ : ١ ، ص : ١٣٢ : اليعقوبى : كتاب البلدان ، جـ : ٣ ، ص : ٣٥٩ .
(٥) المرجع السابق ، جـ : ١ ، ص : ١٣٢ ، اليعقوبى : جـ : ١ ، ص : ٢٨١ .
(٦) لسان العرب ، جـ : ١٩ ، ص : ٣٨ .

وقد عثر هناك على كتابات كثيرة لحيانية ومعينية وسبئية وغيرها [١] • وهناك مدن ذكرها الكتاب الاغريق والرومان ولكن لم يبق لها أثر • وقد عثر بعض السياح على كتابات فى عدة مواضع صحراوية •

وكانت جبال الطائف تمد مكة بالأخشاب الصالحة للبناء والوقود • وكذلك المنطقة الواقعة بين مكة وعرفة كانت حتى القرن العاشر الهجرى (١٦ الميلادى) مغطاة بالأشجار والعوسج والسلم • حتى أن اللصوص وقطاعى الطرق كانوا يتخذون فيها مخابىء يهاجمون منها القوافل [٢] •

وعلى مسافة ثمانية كيلومترات من مكة جبل يقال له جبل « النورة » ، حيث تحرق الحجارة الكلسية لاستخراج النورة ـ أى الجير ـ لكى تستخدم فى البناء • وهناك أماكن أخرى تكونت من هذا النوع من الأحجار ، يشاهدها المارون من جدة الى « مهد الذهب » الذى تستغل مناجمه الآن لاستخراج الذهب ويقع الى الشمال من المدينة [٣] •

وتقع يثرب فى أرض بركانية بين حرتين ، وقد اشتهرت بالخصب والنماء • وفى شمالها جبل « أحد » • ومن الأماكن التابعة لها « قباء » وهى من القرى المعروفة فى الجاهلية ، وجعل فيها الرسول مسجدا جامعا كان يصلى فيه بالمسلمين ، وكان قد صلى فيه قبل أن يدخل المدينة عند هجرته اليها • ومنها وادى « العقيق » وهو من أودية المدينة وفيه قصور ومنازل وقرى •

كذلك وادى « بطحان » من أودية يثرب وسكنه بنو النضير وتصب فيه مياه عذبة • ومنها أيضا « قناة » وهو ثالث أودية يثرب تصل اليه مياه غزيرة عذبة من «الحرات» [٤] ، وهى فوهات البراكين وكأنها بحيرات تتجمع فيها مياه الأمطار لتكون بمثابة منابع للماء العذب يخرج منها الى الأودية المنخفضة •

واشتهرت بعض مناطق الحرار بالخصب وكثرة المياه فيها ، ولا سيما حرار المدينة التى استغلت استغلالا جيدا ، ومنها « خيبر » ، فكثر سكان يثرب وميزت على سائر القرى فقيل عنها : « خير قرية عربية » [٥] • واستفاد الجاهليون من الحرار أيضا

---

(١) جواد على ، ج : ١ ، ص : ١٢٩ •
(٢) المرجع السابق ، ج : ١ ، ص : ١٠٥ •
(٣) المرجع السابق ، ج : ١ ، ص : ١٠٨ •
(٤) المرجع السابق ، ج : ١ ، ص : ١٣٢ •
(٥) المرجع السابق ، ج : ١ ، ص : ٢٧ ، ابن سعد : طبقات ، ج : ١ ، ص : ٥١٠ •

باستخراج الأحجار لاستعمالها للرحى . وحصلوا على المعادن منها ، وكانت موطنا من مواطن التعدين [1] .

وتعد الطائف مصيف مكة ، وتقع على بعد نحو ١٠٠ كيلومتر الى الجنوب الشرقى منها ، وعلى ارتفاع نحو ١٦٠٠ متر من سطح البحر على جبل غزوان ، وهى من المدن الجاهلية القديمة وقد عثر فى أراضيها على كتابات ثمودية . وتحف بالطائف أودية كثيرة تجرى فيها المياه فى موسم الأمطار ، وحولها عيون مياه وبها آبار كثيرة . ويظهر أن جبالها كانت مكسوة بالأشجار ، وكانت ذات زرع وافر وتصدر الأخشاب. وسكانها كانوا على جانب كبير من النشاط .

وتدل آثار السدود ومنشئات الماء التى ترجع الى ما قبل الاسلام على دراية العرب الواسعة بتنظيم أمور الرى والاستفادة من مياه الامطار والسيول والانهار . وتدل كثرة المصطلحات فى اللهجات العربية الشمالية والجنوبية على معرفة القوم بانواع الآبار والسدود وغيرها . وقد عثر رجال شركة آرامكو منذ عهد قريب على صهاريج أرضية متصلة بأنفاق وعليها فتحات فى مواضع عديدة لاستخراج الماء منها ، وعثروا عليها فى القطيف والاحساء وفى الفلج وأواسط نجد وأماكن اخرى أصبحت اليوم صحراوية . كما وجدوا على مقربة منها آثار قرى كانت عامرة ومزارع واسعة . ولم يكن معروفا من قبل أن أواسط شبه الجزيرة والأقسام الشرقية منها كان أهلها على دراية بهذه الأنواع من نظم الرى مثلما كان سكان الشام والأقسام الشمالية من العراق [2] .

وقد نشر فيلبى وبعض رجال شركة آرامكو صورا فوتوغرافية لكتابات ونقوش عثروا عليها فى موضع يقال له « قرية الفأو » على الطريق الموصل الى نجران . كما وجدوا آثار أبنية ضخمة يظهر أنها بقايا قصور كبيرة . ووجدوا كهفا منحوتا فى الصخر مزداناً بالكتابات والتصاوير يدعوه الناس هنالك « سرداباً » . وعند هذا الموضع عين ماء وآبار قديمة ، وكتب اسم الصنم « ود » بحروف بارزة [3] . وتدل كل الدلائل على أن هذا الموضع الذى تغلبت عليه الطبيعة الصحراوية الآن كان مدينة ذات شأن . ويرجح « جواد على » أن هذا الموضع هو « القرية » أو قرية بنى سدوس ابن ذهل بن تغلبة كما سميت فى الكتب العربية ، فهو على قرن جبل وفيه قصر مبنى بصخر منحوت ، وعلى مقربة منه آبار وعين ماء ، وهو على الطريق الذى يصل الى

(١) جواد على ، ج : ١ ، ص : ٨٨ ، هامش ، تاج العروس : ج : ٣ ، ص : ١٣٥.
(٢) المرجع السابق ، ج : ١ ، ص : ١٠٠ — ١٠١ .
(٣) المرجع السابق ، ج : ١ ، الصورة أمام صفحة : ١٤٣ .

« العروض » و « نجد » بمنطقة « نجران » [1] . والكتابات التى عثر عليها فى القرية ذات أهمية خاصة ، لأنها أول كتابات باللهجات العربية الجنوبية عثر عليها فى هذه الأماكن وتعود الى ما قبل الميلاد ، وعثر على مقابر وأدوات وقطع فخارية ظهر من فحصها أنها تعود الى القرن الثانى قبل الميلاد [2] .

وصوّر فيلبى بعض هذه الكتابات ، وصور بعضا آخر رجال شركة آرامكو الذين وصلوا الى هذه المواضع فى أثناء بحثهم عن البترول . وبما أن مثل هذه الكنوز الأثرية قد عثر عليها ظاهرة على وجه الأرض ، كما أن الكهوف لم تفحص فحصا علميا دقيقا ولم تنظف من الأتربة والرمال التى فى داخلها ، فان هناك أملا كبيرا فى العثور على مخلفات أثرية ثمينة توضح جانبا من حضارة العرب فى العصر الجاهلى [3] .

ووجد فيلبى كهوفا ومقابر فى مواضع أخرى من « وادى الفأو » ورأى جدران بعض الكهوف مكسوة بالكتابات والرسوم والتصاوير المحفورة . ويظهر أنه كان فى تلك الجهات أبنية ضخمة . كما عثر رجال شركة آرامكو على رأس منحوت من الحجر فى « القرية » عليها كتابة بالخط المسند .

كذلك وجد دفتى Doughty فى بعض مواضع فى وادى القرى وخرائبه عددا كبيرا من الحجارة المكتوبة بالخط المسند ، وقد اتخذها السكان أحجارا للبناء . وعثر فى « الخريبة » على كتابات بهذا القلم ، وعلى آثار أبنية ومواطن حضارة وعلى ألواح من الحجر يظن أن الصيارفة كانوا يستعملونها لصف نقودهم عليها ، أو كانت تستخدم لذبح القرابين . كما شاهد موضعا يقال له « اصطبل عنتر » على قمة جبل شاهق يشرف على الوادى ، ولعله بقايا معبد أحد الأصنام التى كانت تعبد هناك [4] .

ويحدثنا التاريخ عن اعتداء طيطس Titus الامبراطور الرومانى على القدس وتشتيت شمل من كان هناك من سكانها من اليهود ، وأنهم سلكوا الطريق التجارى القديم الذى كان معروفا ويتجه من هناك حتى اليمن ، وسكن أناس منهم عند خيبر ومكة . وكان لسلالتهم شأن مع الرسول عن قيامه بالدعوة والكفاح من أجل رسالته . كما استوطن بعضهم اليمن [5] .

وكانت هناك بطن من عبد القيس من العدنانية تعرف « بجذيمة بن عوف »

---

(1) جواد على ، ج : 1 ، صفحات : ١٤٢ — ١٤٣ .
(2) المرجع السابق ، ج : 1 ، ص : ١٤٤ .
(3) المرجع السابق ، ج : 1 ، ص : ١٩٦ .
(4) المرجع السابق ، ج : 1 ، ص : ١٣٠ .
(5) المرجع السابق ، ج : 1 ، ص : ٦٧ .

لهم منازل بيضاء بناحية الخط من البحرين وقطيف . وبعث النبى اليهم خالد بن الوليد سنة ٨ هـ (٦٢٨ م) ومعه بعضا من المهاجرين والأنصار داعين الى الاسلام.. « قال ما أنتم قالوا : نحن مسلمون قد صلينا وصدقنا بمحمد وبنينا المساجد فى ساحتنا » [١] .

كذلك كانت تقطن « اليمامة » قبيلة عظيمة من قيس بن عيلان من العدنانية تسمى « باهلة » ، وفى بلادهم معدن للفضة يقال له « عوسجة » [٢] .

ونزلت قبيلة جهينة عند هضبة فيها ماء يقال له « مشجر » ، على مسيرة أيام من مكة ، وليلة من المدينة ، وانتشروا فى أودية تلك المنطقة وشعابها وعراميها « .. وفيها العيون والنخل والزيتون والبان والياسمين والعسل وضروب من الأشجار والنبات وأسهلوا الى بطن « اضم » وأعراضه ، وهو واد عظيم تدفع فيه أودية ويفرغ فى البحر .. » [٣] . ولم تزل جهينة فى تلك البلاد الى أن قام الاسلام .

كذلك يجب أن لا نغفل عما كشفت عنه الحفائر القليلة التى تمت فى اليمن منذ عهد قريب عن وجود مخلفات العمائر ذات طراز محلى خاص له مميزات معمارية ناضجة ترجع الى عصور ما قبل الاسلام . ولعل أعمال الحفائر الأثرية فى المستقبل تكشف عن مدى امتداد تلك التقاليد المعمارية نحو الشمال ومدى صلتها بما كان يعاصرها من خصائص العمارة فى أرض الحجاز .

وكانت أراضى الحجاز طريقا يوصل بين بلاد العراق والشام فى الشمال وبين اليمن فى الجنوب ، وسار فيه الفرس فى حملتهم على اليمن حين احتلوها فترة من الزمن قبيل الاسلام ، وكان أحد ولاتها من الفرس رجل يدعى «باذان» ، اعتنق بعض جنده أو سلالاتهم الاسلام فى أوائل ظهوره ، واشتركوا مع عمرو بن العاص فى حملته على مصر ، واقتطعت لهم خطط خاصة بهم فى الفسطاط [٤] .

***

ويمكن أن نستخلص من كل ماسبق ذكره ـ وهو قليل من كثير يتناثر بعضه فى كتب التاريخ القديمة والحديثة المعروفة ، وبعض آخر لا زال مبعثرا على سطح الأرض أو مدفونا فى باطنها ، أن أرض تلك البلاد كانت تحوى أنواعا من

---

(١) رضا كحالة : معجم قبائل العرب ، ص : ١٧١ ، شرح المواهب اللدنية : جـ : ٣ ، صفحات : ٢ ـ ٥ .

(٢) رضا كحالة ، ص : ٦٠ .

(٣) معجم استعجم ، ص : ٣٦ ـ ٣٨ .

(٤) ابن دقماق : الانتصار ، جـ : ٤ ، ص : ٤ .

المعادن مثل الذهب والفضة ومواد البناء من أحجار وطمى وأخشاب . وكان أهلها على دراية بطرق حرق الحجر لاستخراج الجير والجص ، وكلها امكانيات لاشك أنها قد ساعدت على قيام فنون وصناعات فى بقاع كثيرة منها ، وبالتالى على ظهور اتجاهات فنية بين أهلها ، وخاصة وأن العرب الجاهليين فى الحجاز وفى المنطقة التى نشأ فيها الرسول حيث بدأت دعوته وفى البقاع التى حولها ، كان أولئك العرب ، الى وقت قيام الدعوة الى الاسلام ، على صلات وثيقة بحضارات الأمم والقبائل العربية الأخرى مثل المناذرة فى العراق والغساسنة فى الشام ، ثم القحطانيين والعدنانيين وكذلك الأجناس غير العربية مثل الأعاجم والاغريق والرومان والبيزنطيين والحبش ، وهم الأقوام الذين كانوا يسكنون الأقطار التى تحيط ببقاع الحجاز وأواسط الجزيرة من شمالها فى الشام ، ومن شمالها الشرقى فى العراق ، وما وراءها من بلاد فارس ، ومن جنوبها فى اليمن ذات الحضارة العريقة التى تمتد الى ما قبل أيام الملك سليمان . وكان تبادل الاتصالات مع بلاد الحبشة يتم عبر البحر الأحمر مباشرة أحيانا وعن طريق بلاد اليمن أحيانا أخرى. وتتمثل تلك الصلات فى المعاملات التجارية الدائمة ، وفى الحروب الكبيرة والصغيرة ، وفى الهجرات عبر الأراضى وعبر البحار شمالا وجنوبا وشرقا وغربا ، وكانت لهؤلاء العرب الجاهليين تقاليد دينية تقوم على عبادة الأصنام . كما كانت لهم تقاليد اجتماعية تتمثل فى كثير من أشعارهم . أو بمعنى آخر كانت تقوم هناك كل أو معظم العوامل المعنوية من سياسية واقتصادية ودينية واجتماعية ، بالاضافة الى عوامل البيئة الجغرافية والجولوجية ، والتى لا ريب فى أنها عملت كلها مجتمعة على تكوين حضارة أو حضارات متفرقة خاصة بأولئك العرب فى الجاهلية . كذلك ليس هناك من شك فى أن الكشف عن مخلفاتها الأثرية سيحدد ماهيتها ويعين خصائصها ، ولدينا من الأدلة ما يؤكد أنه كان ببلاد الحجاز فى وقت نزول الرسالة ثلاث بقاع على الأقل الآقل آهلة بالسكان وذات موارد اما طبيعية واما مادية ، أو منهما مجتمعة ، ساعدت على قيام مجتمعات متحضرة بل متقدمة فى الحضارة ، أولها : مكة التى كانت بمثابة المركز التجارى الذى تخرج منه القوافل الى الشمال والجنوب ، فأثرت قريش من التجارة اثراء فاحشا ، وظهر فيها كثيرون من الأثرياء كأبى سفيان والوليد بن مغيرة وغيرهما . وكان القرشيون بمثابة الوسطاء بين أقاليم البحر الأبيض المتوسط فى الشمال ، حيث الشام وآسيا الصغرى ومصر ، وبين اليمن الذى تكثر به الخيرات المعروفة من توابل ومحاصيل أخرى هامة [1] .

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ، ص : ٧٩ — ٨٠ .

والبقعة الثانية هى مدينة يثرب أو المدينة المنورة ، وكانت تقع على الطريق التجارى بين الشمال والجنوب أيضا ، وكانت ذات أهمية حضارية وتجارية . يدل على ذلك كثرة وجود اليهود العرب فيها من بنى النضير وبنى قينقاع وبنى قريظة . كما كانت هناك مستعمرات أخرى لهم فى تيماء وفى فدك وفى خيبر وفى وادى القرى [1] . ويقول « نلدكة » Nöldeke أن هؤلاء اليهود هم من أهالى البلاد العربية الذين اعتنقوا اليهودية [2] .

كانت يثرب اذن من القواعد الهامة لعرب الحجاز ، وكان أهلها عونا للرسول عندما هدده كفار مكة ، فهاجر اليهم لاجئا فنصروه ونصروا معه الدعوة الى الاسلام ، وأعانوه بالرجال والمال حتى عاد الى مكة فاتحا . مما يدل على ما كان بالمدينة المنورة من الموارد البشرية والمدية ما يجعلها مركزا حضاريا هاما .

وثالثة تلك البقاع مدينة الطائف التى جاء ذكرها فى الحديث السابق عن بلاد العرب ، وعما كانت تتمتع به من رخاء ، ومقومات حضارية من زرع وثروات ، مما جعل أهلها يحيطونها بالأسوار ويحصنونها بالقلاع .

كل ذلك كان قائما قبيل ظهور الاسلام . كما أنه من المرجح وجود بقاع غيرها فى تلك البلاد لم يزد ذكرها تفصيلا فى كتب المؤرخين ، ولعل الأيام والجهود تكشف لنا عن آثار منها تثبت وجودها وتوضح سمات حضاراتها .

وكانت أكثر معالم تلك الحضارة قائمة أيام الرسول الكريم قبل نزول الرسالة وبعدها ، وقد حرم الاسلام أشياء من الجاهلية وأقر أشياء أخرى ورد ذكرها فى القرآن والسنة . ولم يرد فى الاسلام ما يحرم كتابات ولغات الجاهلية ، أو كلا من الشعر والنثر الجاهليين ، ولم يصل الى علمنا أنه أمر بهدم المبانى الجاهلية فيما خلا الأصنام ، أو أنه أمر بحرق كتابات الجاهليين [3] . ولكن على الرغم من أنه لم يعثر على بقايا تلك الأصنام ، التى كان يبلغ عددها ٣٦ صنما حول الكعبة تمثل جميع الآلهة التى كان العرب يعبدونها [4] أو على نماذج لها ، وذلك بسبب تحطيمها تحطيما كاملا عند قيام الاسلام ، والتى لعلها لا تزال بقاياها مطمورة فى الأرض . وعلى الرغم من أن أوصافا محددة لها لم تصلنا ، ولم يعن المؤرخون بتدوين تلك الأوصاف بالدقة التى تساعدنا على تصور أشكالها التى كانت

(١) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، ص : ٨خ .

(٢) المرجع السابق ، ص : ٨٧ .

(٣) جواد على ، جـ : ١ ، ص : ٦٤ .

(٤) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ، ص : ٤ .

عليها ، على الرغم من ذلك كله فليس هناك من شك بأن كل صنم منها كانت له هيئة وتكوين خاصين به يميزانه عن غيره من الأصنام • ويمكننا أن نستنتج مثلا من الأوصاف القليلة التي وصلتنا أن صنم « السجة » ـ ومعناه الخيل ـ كان على هيئة الحصـان [1] • وأن « هبل » صنم كان في جوف الكعبـة أو حولها ، وهو من العقيق الأحمر على صورة الانسان مكسور اليـد اليمنى ، أدركته قريش كذلك فجعلوا له يداً من ذهب [2] • الى غير ذلك من الأمثـلة التي تدل على أن العـرب في الجاهلية كانوا على دراية بفن النحت وصناعة التماثيل •

ورُوى أنه كان في جوف الكعبة صور منقوشة على الجدران وعلى الدعامات الست الوسطى بداخل الكعبة تمثل الأنبياء والأشجار والملائكة ، وقد أمر الرسول بازالتها كلها وغسلها بماء زمزم بعد أن تم له فتح مكة . ولكن يقـال أنه وضع يديه فوق صورة تمثل مريم وهي تحمل عيسى طفلا على ركبتيها ، وأمر بالابقاء على هذه الصورة وعدم ازالتها [3] • وظلت باقية حتى دمَّرها الحـريق الذي حدث في أيام ابن الزبير في سـنة ٦٤ هـ ، واختفت منذ أن أعاد بنـاء الكعبـة في سنة ٦٥هـ (٦٨٥ م) [4] • وهو دليل أيضا على دراية عرب الجاهلية بفنون التصوير والنقش •

ولا نظن أن هناك شكا في أن مكة كانت عامرة بالدور والمنازل المشيدة بالحجر والخشب • وكانت تتراوح درجة الأناقة فيها تبعا لمرتبة أصحابها في مدارج الثراء، وكانت مؤثثـة بالفرش والوسـائد [5] • الى غير ذلك من مظاهر الرفاهيـة والترف والتأنق التي كانت تتوفر في حياة أولئك الذين وصموا بما يدخلهم في زمرة الهمج الذين لا يحسون بالجمال ، ولا يستطيعون التعبير عنه •

وهناك أحاديث نبوية وآيات قرآنية تدل دلالة لا ابهام فيها على أن الزينـة والتزين والزخرف كان أمرهما معروفا بل منتشرا في أواخر عصر الجاهلية وفي صدر الاسلام •

من ذلك حديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ذات مرة وعليـه

(١) أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي : كتاب الاصنام (بتحقيق أحمد زكي باشا، مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٣ هـ ـ ١٩٢٤ م) ، ص ٤٥ •

(٢) المرجع السابق ، ص : ٢٧ ، ٢٨ •

(٣) الازرقي (أبو الوليد محمد بن عبد الله أحمد) : اخبـار مكة وماجاء فيهـا من آثار (تصحيح وتعليق رشدي الصالح ملحس ـ المطبعة الماجدية بمكة المكرمة ـ سنة ١٣٥٢ هـ) ج : ١ ، ص : ١١٠ ـ ١١١ •

(٤) المرجع السابق ، ج : ١ ، ص : ١٣٢ ، ١٣٣ •

(٥) محمود تيمور : التصوير عند العرب (أخرجه وعلق عليه الدكتور زكي محمـد حسن ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٤٢) ، ص : ١٦ •

مرط مرحل ، أى ثوب عليه صور الرحال وهى الابل بأكوارها . وفى حديث السيدة عائشة عن نساء الأنصار : « فقامت كل واحدة الى مِرطها المرحَّل » . ومنه الحديث « كان يصلى وعليه من هذه المرحلات » [١] .

وكان التصوير على الستور معروفا ، يدل عليه ما جاء فى حديث السيدة عائشة ، قالت « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر وقد سترت سهوة لى (أى رفا أو طاقا) بقرام (أى ستر) فيه تماثيل ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تلون وجهه ، وقال : « يا عائشة أشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله » ، قالت : « فقطّعناه فجعلنا منه وسادة أو وسادتين » [٢]. ومعنى هذا أنه عليه السلام لم يكن يكره التصاوير والزخرف فى أثاث البيت .

واذا كان من تلك الثياب والستور ما جلب من خارج الحجاز فى ذلك الوقت، فانه مما لا يتطرق اليه الشك أن العرب فى بلاد الحجاز كانوا ينسجون لأنفسهم البسط والستور ، ولا بد أنه كان يدخلها صور وزخارف من نوع ما ، وقد يكون بعضها مقتبسا من طرز أخرى أو تقليدا لعناصرها ، ولكن لا بد أن يكون بعض آخر ابتكارا من عندهم أو تحويرا من عناصر أخرى ، فتلك هى طبيعة الانسان حيث كان : فى القطبين أو فى مجاهل الصحارى والغابات وفيما بينها .

وهناك من الآيات القرآنية ما يدل دلالة واضحة على أن الاسلام لم يحرم الزينة بل كان يسمح بها بل ويحض عليها ، ولكنه يكره الاسراف فيها .

من تلك الآيات قول الله تعالى : « قل من حرَّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » (الأعراف/٣٢) .

ومنها قوله تعالى : « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين » (الأعراف/٣١) .

ومنها يخاطب نساء النبى فيقول تعالى : « وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ، انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » (الأحزاب / ٣٣) .

ومنها : « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا

(١) محمود تيمور : المرجع السابق ، ص : ١٢ .
(٢) المرجع السابق ، ص : ١٦ .

لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بنى اخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » (النور / ٣١) .

أما من ناحية العمارة وصناعة البناء فمما هو جدير بالذكر كذلك ما جاء فى سيرة الرسول عن وجود حصون بالمدينة كانت السيدة عائشة أم المؤمنين بأحدها يوم الخندق (١) . ومنها حصن يدعى « فارع » لحسان بن ثابت شاعر الرسول . ثم ما قام من معارك بين النبى وبين اليهود من بنى النضير وبنى قينقاع وبنى قريظة عندما تبين منهم روح الغدر (٢) . فهاجمهم جماعة بعد أخرى فى حصونهم المنيعة بالمدينة (٣) وفى خيبر ، وأخرجهم منها (٤) . كذلك كانت الطائف مدينة محصنة بالأسوار ، وكان لها دار مثل الدار التى بناها الرسول بالمدينة وأصبحت مسجداً . وكان لدار الطائف برج فى أحد أركانها للدفاع (٥) .

واذن كان العرب يعرفون الحصون ويشيدونها ويحتمون بها عندما تبدو فى أفقهم نذر الحرب ، وكان بعضها ملكا لليهود الذين يبدو أنهم كانوا يخشون ثورات الناس عليهم منذ العصور القديمة ، ولكنهم لم يكونوا فى أى وقت من الأوقات أصحاب طرز معمارية وفنية خاصة بهم تساعدهم على بناء حصونهم التى كانوا يحتمون بها عندما تنفجر كراهية الناس لهم ، ويستشعرون الخطر على أنفسهم . ومن المرجح ، بل ومن المنتظر ، أنهم كانوا يستعينون على البناء بالصناع المحليين فى المناطق التى كانوا يختارون الاقامة بها ، مثل خيبر والمدينة . وكان من الطبيعى أن يستخدم هؤلاء الصناع فى البناء الأساليب والمواد المعروفة فى ذلك الوقت . وأغلب الظن كذلك أنه كانت هناك أساليب مشابهة فى المناطق الأخرى من تلك البلاد مثل الطائف وغيرها .

***

تلك كانت الصور التى يمكن تخيلها لحضارة العرب فى شبه الجزيرة . وفى

(١) سيرة ابن هشام ، ج : ٣ ، ص : ٢٤٣ .
(٢) المرجع السابق ، ج : ٣ ، ص : ٢٤٧ .
(٣) المرجع السابق ، ج : ٣ ، ص : ١٩٢ ، ٢٣٦ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ .
(٤) المرجع السابق ، ج : ٣ ، ص : ٣٨١ — ٣٩٠ .
(٥) E.M.A., I, p. 7, ft. n. 10 ; Lammens : Taif à la veille de l'hégire (Mélanges de l'Université St.-Joseph, Beyrouth, VII, pp. 183-185 ; Kowalski : Der Diwan des Kais ibn al-Hatim, pp. XV-XX.

داخل اطار تلك الصورة برز محمد رسول الله ليضيف اليها تكوينات وأبعادا جديدة لمجتمع فتى ناشىء ، أخذ ينتشر فى مناطق شاسعة من العالم تجاوزت حدودها اطار الصورة لبلاد العرب ، وترامت أطرافها شمالا وجنوبا وشرقا ، وهو المجتمع الذى قام على أساس ثابت الأركان من الدين الاسلامى الحنيف ، وكلف محمد بنشر الدعوة اليه بين العالمين • غير أن استغراق الرسول فى آداء رسالته ، وانهماك أصحابه والخلفاء الراشدين من بعده فى اكمال تلك المهمة بكل ما وسعهم الجهد لم يتح لهم اضافة كثير الى حضارة تلك البلاد من ناحية العمارة والفنون الا فى حدود ضيقة وفى تلك الفترة القصيرة من الزمن نظرا لتركيز جميع امكانيات المسلمين وقدراتهم الذهنية والاقتصادية فى سبيل نشر الدعوة الى الاسلام ، سواء كان ذلك عن طريق ارسال بعثات الدعاة للاقناع بالحسنى ، أو عن طريق تجهيز الحملات لفتح البلاد التى قاومت نشر الدعوة وأنكرت صحتها • وكان ذلك التركيز الكبير على نشر الدين الاسلامى سببا فى ميل المسلمين الأوائل ، بل واضطرارهم، الى التقشف فى حياتهم ، والبعد عن الرفاهية والزخرف والتأنق فى معيشتهم ، وبالتالى فى عمائرهم وفنونهم وصناعاتهم • ولم يكن ذلك عن جهل وعدم دراية بها ، ولكن اخلاصا للدعوة التى كرسوا أنفسهم لها •

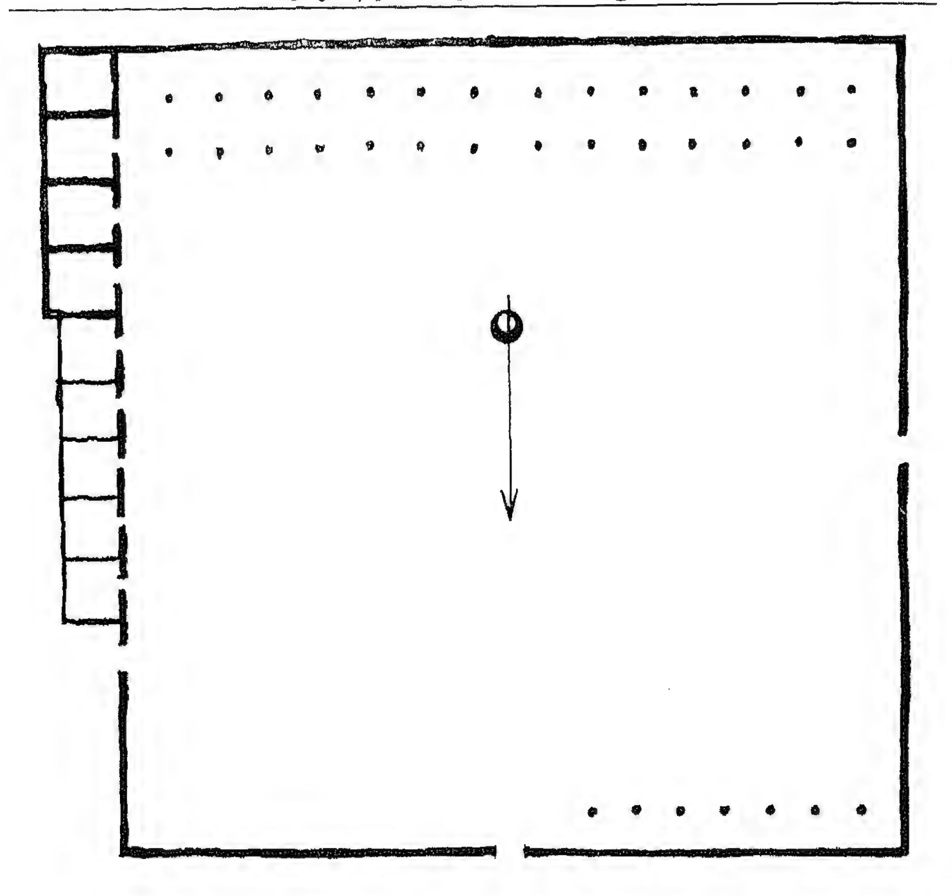
ولكن على الرغم من ذلك فان الدين الاسلامى قد شق مجرى جديدا فى تاريخ حضارة البشرية ، وكان لا بد لأجهزة الحضارة أن تقوم بسد حاجة ذلك الدين من النواحى المختلفة ، ولذلك فان الفترة التى بدأت بهجرة رسول الله واستمرت أيام حكم الخلفاء الراشدين ، ثم الى قيام الدولة الأموية وانتقال مركز الخلافة الاسلامية من مكة الى دمشق فى سنة ٤١هـ (٦٦١ م) ، قد امتازت بوقوع حدث معمارى اسلامى ، بدأ فى أول أمره بسيط السمات ، ولكنه فى حقيقته جليل الخطر ، ترتبت عليه فيما بعد نتائج وتطورات هامة فى تاريخ العمارة العربية الاسلامية •

بدأت بشائر ذلك الحدث فى السنة الأولى من الهجرة النبوية ، بعد أن نجح الرسول وأصحابه فى الوصول الى يثرب التى أطلق عليها اسم « المدينة المنورة » ليتخلص من اضطهاد قريش له ، فنصره أهلها واتخذ منها قاعدة لنشر دعوته على أوسع نطاق ، ولتجميع قوى المسلمين واعدادهم للوقوف أمام كفار قريش •

ظهر ذلك الحدث المعمارى عندما خطط الرسول دارا لنفسه ولآل بيته [١] ،

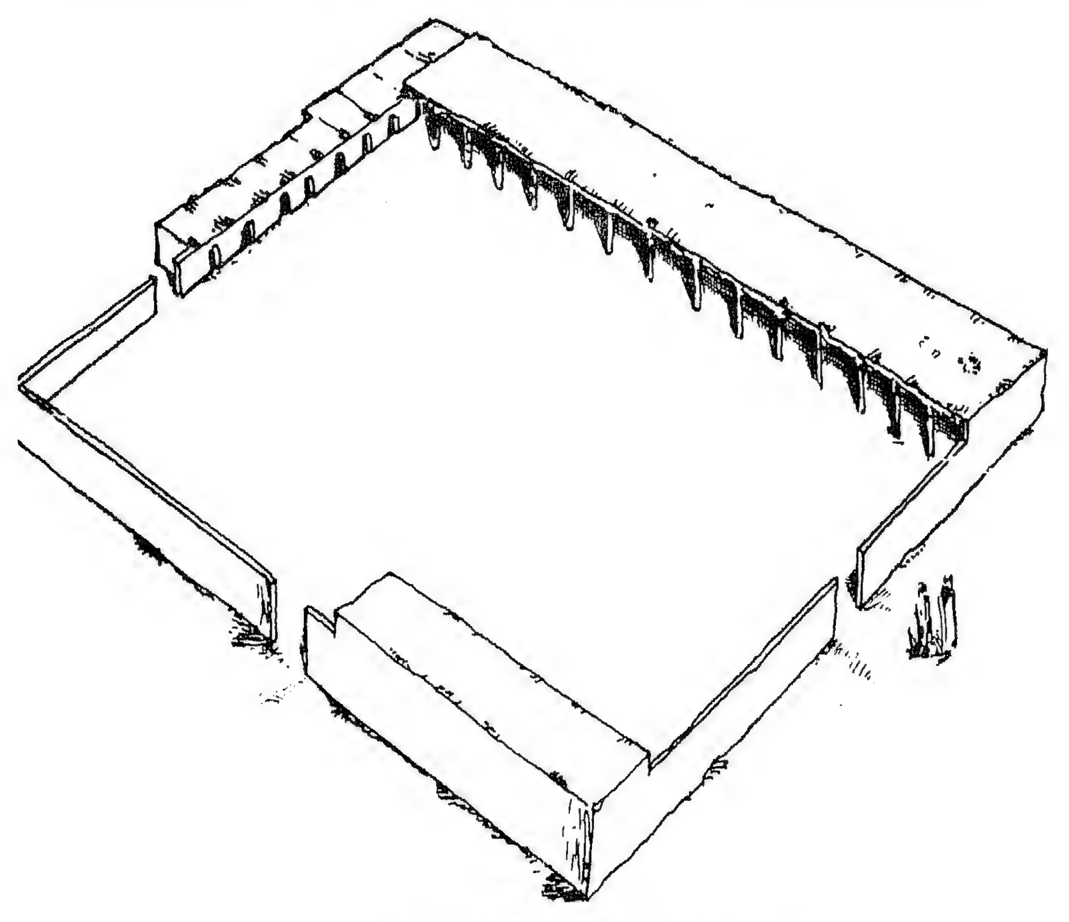
---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص : ٢٠ — ٢٢ ، سيرة ابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ١٤٤ — ١٦٦ ، طبقات ابن سعد ، ج : ١ ، ص : ١٨٠ — ١٨٢ ، E.M.A., I, pp. 2-9, Fig. 1.



ش : ١ ـ مسجد المدينة أيام الرسول (مسقط) .

وجعل عددا من الحجرات يتقدمها فناء واسع أحاطه بجدران لا تكاد تعلو على قامة رجل ، وجعل فى الركن الشمالى الغــربى من الفناء صُفَّة أو ظلة يحتمى بهـا الفقراء من أصحابه ، وكان يجلس فيها الرسول ليجتمع بالمسلمين ويتدارس معهم شئونهم وما يتصل بالدعوة الى الدين الاسـلامى ، وكان يصلى بهم أحيـانا فى هذه الدار فى الأوقات الخمسة اليومية . ومن ثم أخـذت الدار صفة المسجد . أما الصلاة الجامعة فكانوا يؤدونها فى مسجد قباء خارج المدينة . وكان أسلوب بنـاء جدران مسجد المدينة وظلته وحجـرات النساء وتسقيفها بسـيطا لا تأنق فيه ، استخدمت فيه جذوع النخل للأعمدة والدعامات، وفروعه وسعفه للأسقف، واللبن للجدران . ثم دخل التخطيط فى طور جديد بعد أن تلقى الرسول فى النصف من شعبان من السنة الثانية للهجرة الأمر من ربه باتخاذ الكعبـة قبلة يتجه اليها هو والمسلمون فى صلاتهم . فأضاف الرسول ظلة ثانية جهة الجنوب وجعل فى وسط



ش : ٢ ــ مسجد المدينة أيام الرسول (منظور) .

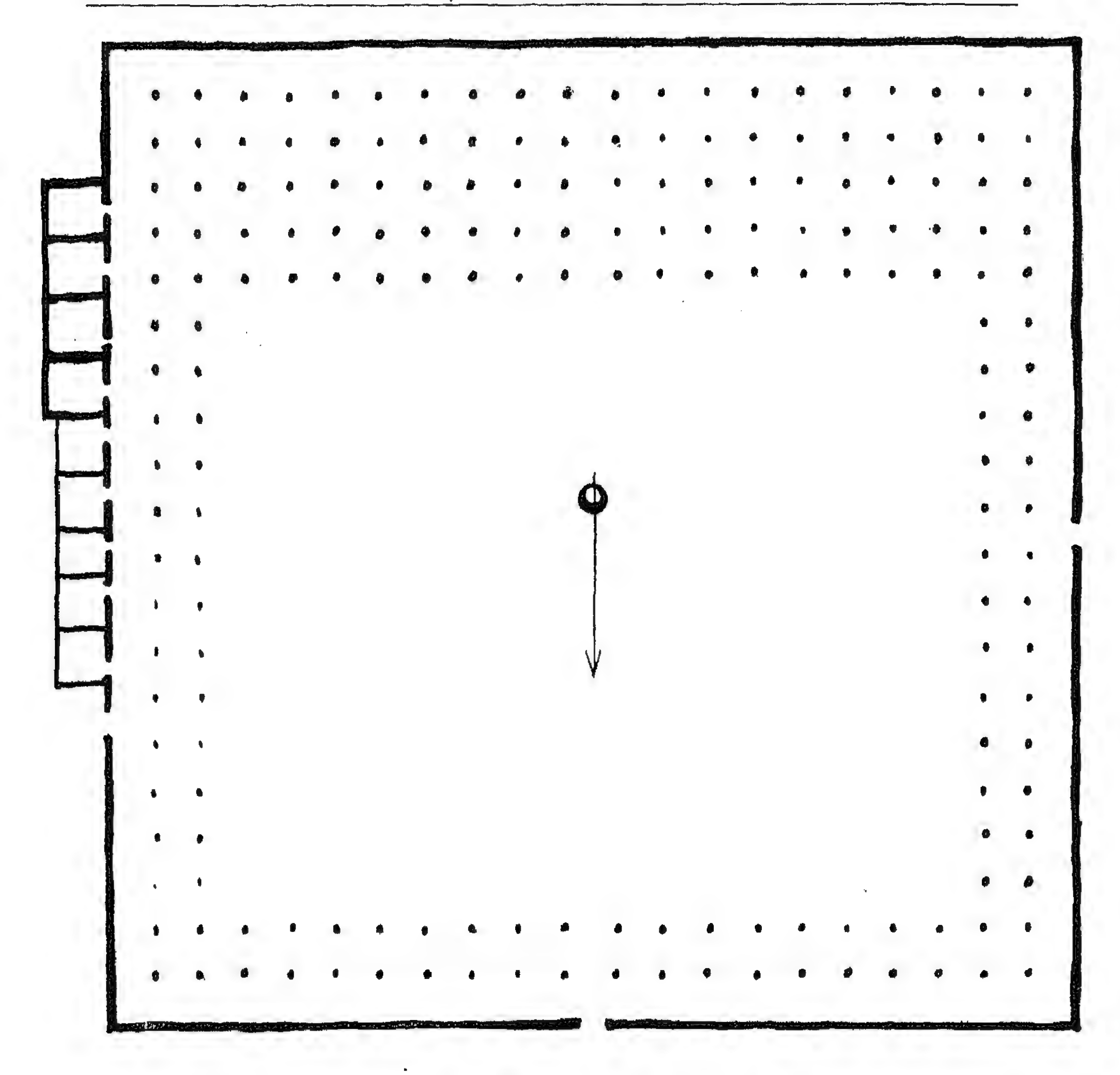
جدارها الجنوبى علامة تعين القبلة (ش : ١ ، ٢ [١] . وصار المسجد يستعمل للصلاة فى أغلب الأوقات ، بالاضافة الى الاجتماعات التى كان يعقدها الرسول ويلتقى فيها بالمسلمين. ولما انتقل الى جوار ربه ، دفنه أصحابه فى احدى الحجرات التى كانت مشيدة ملاصقة للمسجد ، وهى حجرة عائشة ، وجعلوا قبره مسنما فوق سطح الأرض [٢] .

ثم زاد عمر بن الخطاب فى مساحة المسجد فى سنة ١٧ هـ (٦٣٧ م) [٣] . ويغلب على ظننا أنه قد انتهز فرصة هذه العمارة ليزيد من عمق ظلة القبلة ، ولعله أضاف أيضا ظلات أخرى فى الجوانب الثلاثة الباقية من الفناء أو الصحن ، وقد

(١) E.M.A., I, Fig. 1.

(٢) كتاب الفقه على المذاهب الاربعة .

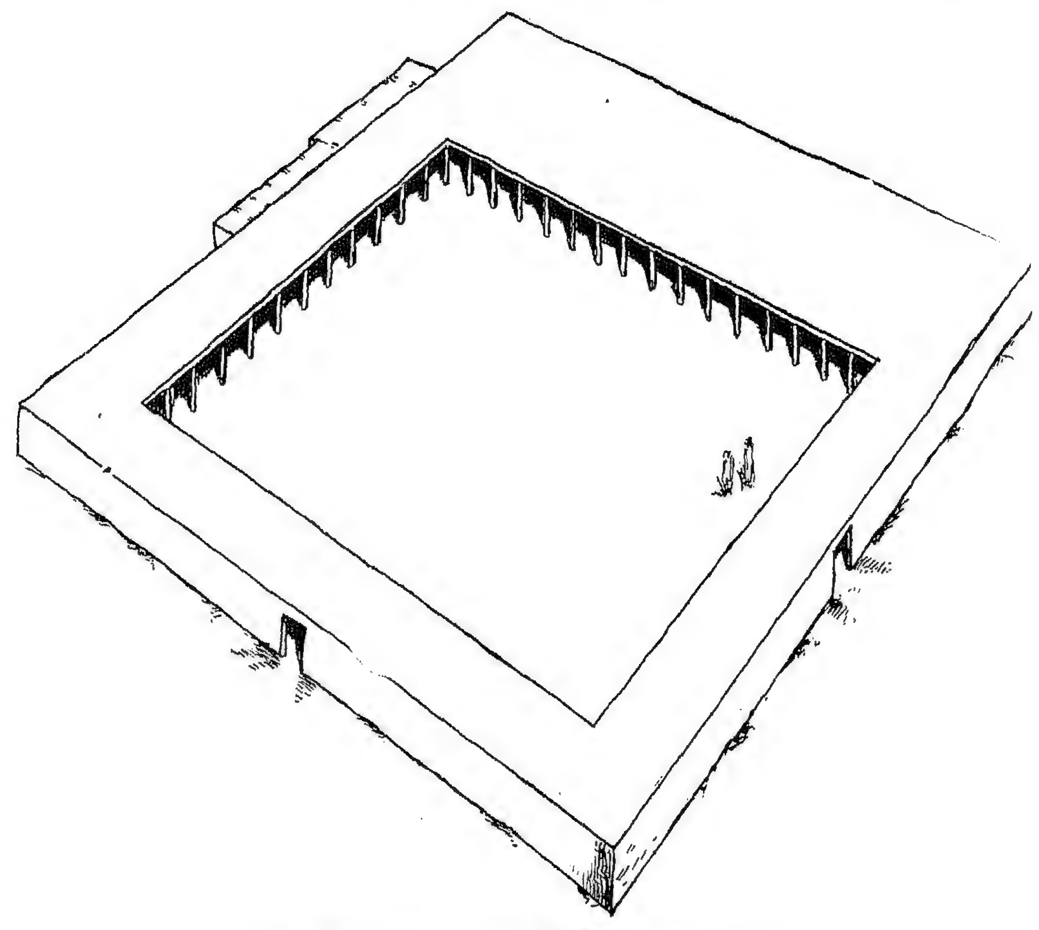
(٣) طبقات ابن سعد ، جـ: ٣ ، ص : ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، البلاذري ، ص : ٢٠ ، EM.A., I, p. 20.



ش : ٣ ـ مسجد المدينة أيام عثمان بن عفان (مسقط) .

نتج عن هذه الزيادة أنه لم يبق من الجدران الأصلية التى شيدت فى عهد الرسول سوى الجدار الشرقى الذى كانت تلتصق به حجرات آل الرسول . ومن المحتمل أن تكون تلك الظلات الثلاث قد جددت أو أضيفت كلها أو بعضها فى العمارة التى بدأها عثمان بن عفان لتوسيع المسجد للمرة الثانية فى عام ٢٤ من الهجرة [١] (٦٤٤ م) ، (ش ٣ ، ٤) . وبذلك تكامل الشكل النهائى لتخطيط أول مسجد

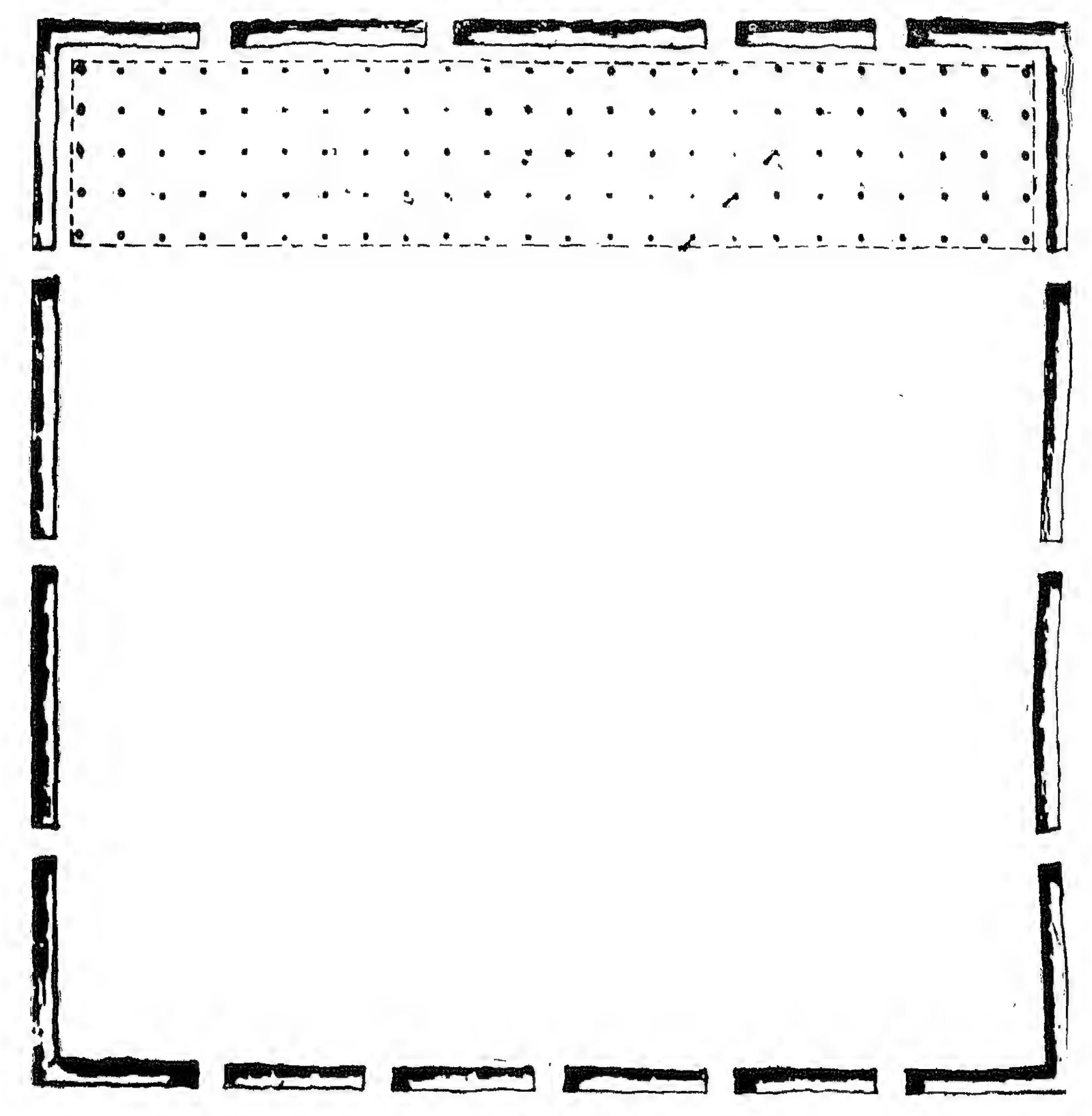
(١) السمهودى : الخلاصة ، ص : ١٣٤ ـ ١٣٧ ، اليعقوبى : كتاب البلدان ، ج : ٢ ، ص : ١٩١ ، الطبرى : تاريخ ، ج : ١ ، ص : ٢٨٥٣ ، ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج : ٢ ، ص : ٧٣٨ ، ج : ٣ ، ص : ٧٩ .



ش : ٤ مسجد المدينة أيام عثمان بن عفان (منظور) .

بالمدينة ، ومن ثم فقد صار نموذجا اهتدى به المسلمون وساروا عليه فى تخطيط المساجد فى العالم الاسلامى كله من المشرق الى المغرب ، ومنذ هجرة الرسول حتى العصور الأخيرة ، ولا زالت تبنى عليه بعض المساجد فى العصر الحديث مع بعض التغيير فى نسب وأحجام الظلات وطرق التسقيف وأساليب البناء ، ولكن مع الاحتفاظ بالفكرة الرئيسية للتخطيط بحيث كان يتكون مسقط المسجد دائما من صحن أوسط مكشوف وظلات حوله فى الجوانب الأربعة أكبرها ظلة القبلة . وقد يستغنى فى بعض الأحيان عن الظلة فى الجهة المقابلة لظلة القبلة ، وكذلك عن الظلتين الجانبيتين ، ويكتفى فيها بظلة القبلة فقط . فقد حدث ذلك فى تخطيط مساجد البصرة والكوفة الأولى (ش : ٥) [١] ، ثم فى تخطيط مسجد القيروان

(١) البلاذرى ، ص : ٢٧٥ ، ابن الفقيه ، ص : ١٦٣ ، وابن الاثير ، ج : ٢ ، ص : ٤١٢ ، الطبرى ، ج : ١ ، ص : ٢٤٨٩ ، E.M.A., I, pp. 16-19, Fig. 6.



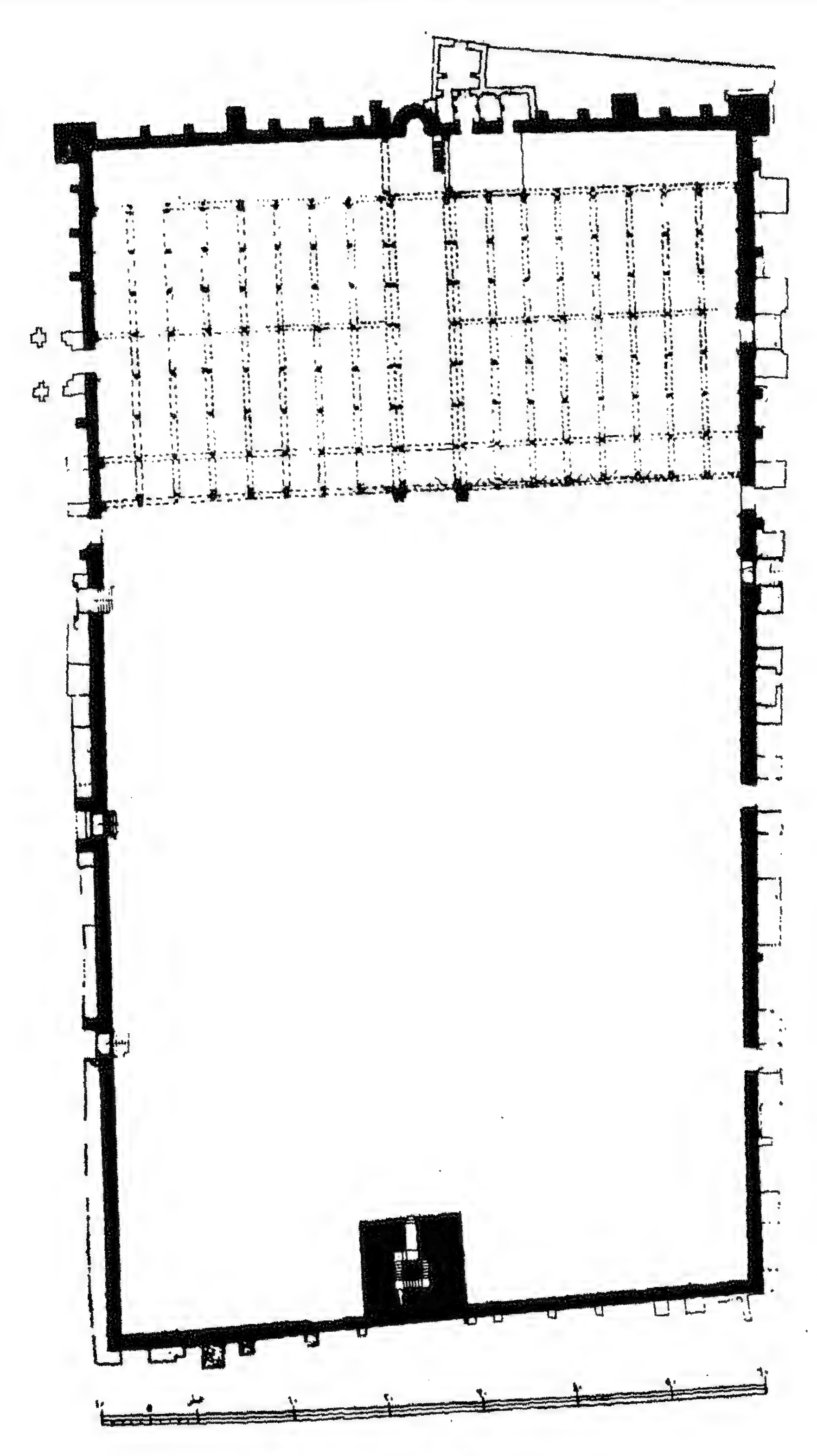
ش : ٥ ـ الكوفة : المسجد الاول (مسقط)

فى أول أمره (ش : ٦) [١] وكذلك مسجد قرطبة الذى بناه عبد الرحمن الداخل (ش : ٧) • الى غير ذلك من الأمثلة •

ومما هو جدير بأن يذكر فى سياق الحديث عن مسجد الرسول بالمدينة أنه قد علّق بسقفه قناديل الزيت لاضاءته ليلا منذ السنة التاسعة من الهجرة (٦٣٠م)• وكانت صلاة المغرب والعشاء قبل ذلك تؤدى على ضوء نار من جذوع النخل [٢] •

(١) E.M.A., I, pp. 138-161, Fig. 147.

(٢) Ibid., I, p 6



ش : ٦ ـ القيروان : المسجد الجامع

وذلك دليل على دراية العرب بأساليب الاضاءة بتعليق القناديل وأساليب صناعتها ، وبالتالى بأساليب صناعات الخزف والزجاج وغيرها وهى فروع هامة من الفنون التطبيقية • مما يدعم اعتقادنا بأن العرب فى وقت قيام الدعوة للاسلام كانوا على دراية بأنواع وأساليب أخرى من العمارة والفنون •

ويتضح تأثير تخطيط مسجد الرسول بالمدينة وما وضع فيه من ظلات حول الصحن فيما فعله عمر بن الخطاب فى مكة ، عندما وجد الدور والمنازل قد زحفت حتى كادت تلتصق بالكعبة وتعوق الناس عن الطواف حولها • فأمر بازالة العمائر فى منطقة واسعة تحيط بالكعبة لتترك حولها فضاءً كبيراً أحاطه بسور دون قامة الرجل كانت تعلق عليه المصابيح ، وجعل فيه أبوابا عدة [١] • ثم جاء عثمان بن عفان فأمر ببناء ظلات فى الجوانب الأربعة من تلك المنطقة، وتحيط بالفضاء الذى تتوسطه الكعبة ، وكان ذلك فى عام ٢٤ هـ أو ٢٦ هـ (٦٤٤ م أو ٦٤٨ م) [٢] • وتكامل بذلك الشكل النهائى للحرم المكى الذى ظلت فكرة تخطيطه قائمة حتى وقتنا الحاضر على الرغم من تتابع أعمال التجديد والتعمير والاضافة والتوسع فى العصور المختلفة•

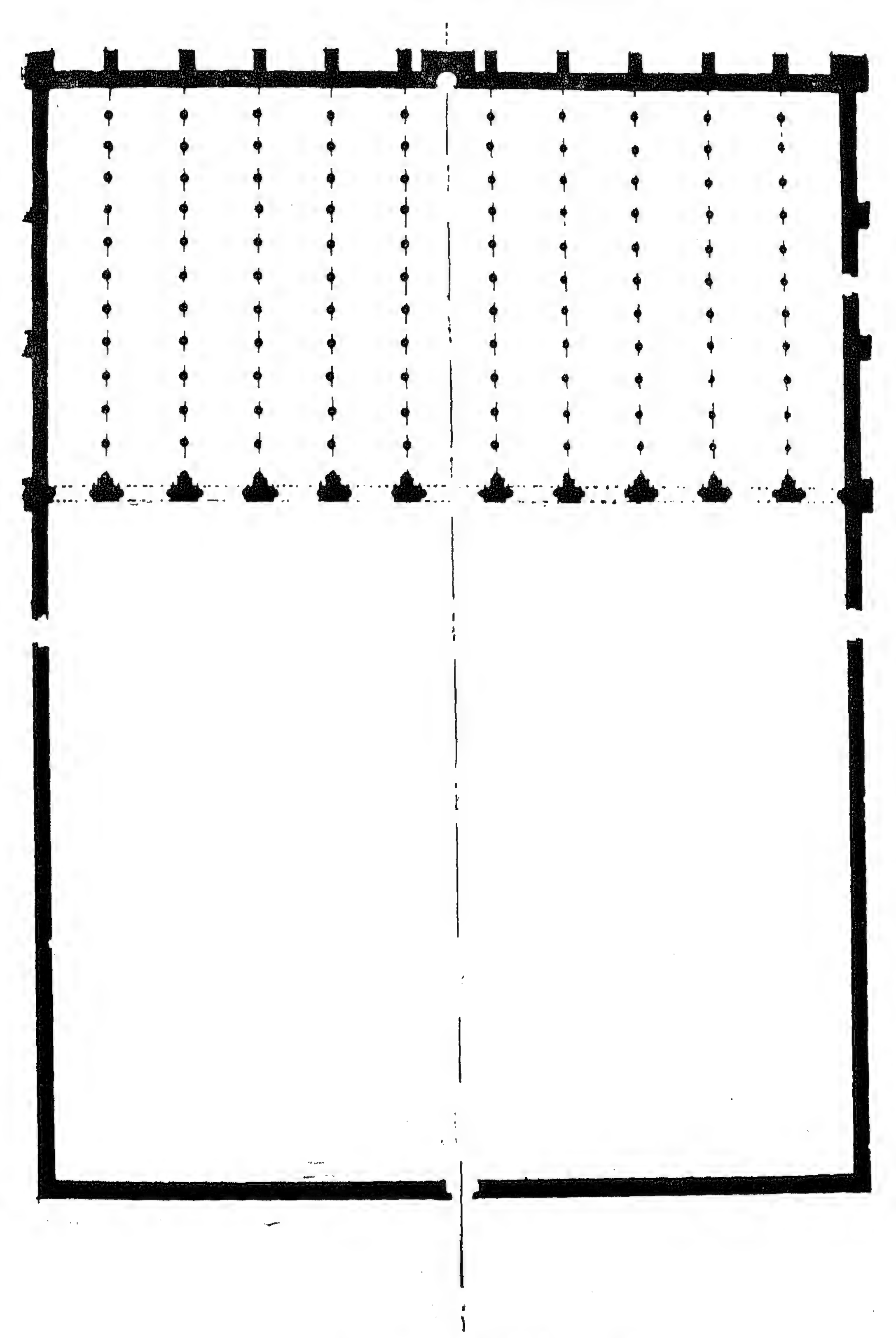
وقد حاول كل من لين بول Lane-Poole وديتز Diez [٣] أن ينسب عمل الظلات حول الفضاء الذى تتوسطه الكعبة الى عصر يسبق عصر الرسول ، وأن يُرجع تلك الفكرة الى تخطيط معابد الأجناس السامية الذى يشاهد فى الخرائب الفينيقية وغيرها • وكل ذلك ليصل الى القول بأن فكرة الظلات التى ظهرت فى مسجد المدينة كانت مقتبسة مما عمل فى الحرم المكّى قبل الاسلام ، وبالتالى فان تخطيط المسجد ذى الصحن والظلات يجب أن ينسب فى رأيهما الى غير المسلمين من الساميين مثل الفينيقيين وغيرهم ، وأن المسلمين مدينون به لهم ، اذ أنه يوافق المناخ المحيط بهم ويساعدهم على أداء طقوس الدين الاسلامى• وواضح أن لين بول وديتز قد فشلا فى محاولتهما هذه لأنهما لم يتنبها الى أن الظلات لم

---

(١) الازرقى ، جـ : ٢ ، ص : ٥٤ ــ ٥٥ ، البلاذرى، ص : ٥٨ ، : EM.A. I, p. 19.Caetani Annali, III, pp. 961-964.

(٢) الازرقى ، جـ : ٢ ، ص : ٥٥ ، البلاذرى ، ص : ٥٨ ــ ٥٩ ، تاريخ اليعقوبى ، جـ : ٢ ، ص : ١٨٩ ــ ١٩٠ ، تاريخ الطبرى ، جـ : ١ ، ص : ٢٨١١ ، ابن الاثير ، جـ : ٣ ، ص : ٦٧ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ : ١ ، ص : ٩٤ ، E.M.A., I, p. 31, ft. nos. 6, 7 ; Wüsetenfeld : Geschichte der Stadt Mekka, p. 122 ; Muir : Caliphate, p. 222 ; Caetani : Annale, VII, pp. 169-70 ; Creswell : The Ka'ba in A.D.608, (in Archaeologia, vol. XCIV), p. 97; Lane-Poole: Art of the Saracens in Egypt, p. 52 ; Diez: Die K. der Isl. Völker, p. 28.

(٣) Creswell : The Ka'ba in A.D. 608, (in Archaeologia, vol. XCIV, p. 97) ; Lane-Poole: Art of the Saracens in Egypt, p. 52 ; Diez: Die Kunst der Islamischne Völker, p. 28.



ش : ٧ ـ قرطبة : المسجد الاول (مسقط) .

تشيد حول الكعبة الا فى سنة ٢٦ هـ كما سبق القول ، أى بعد اضافة الظلة الثانية فى مسجد الرسول بالمدينة بأربع وعشرين سنة .

***

ونخلص من ذلك الى أنه من الجلى أن عـــرب الحجاز قد بدأوا فتوحاتهم الأولى فى عصر الخلفاء الراشدين وقد تبلورت فى أذهانهم أهداف وأركان الدين الاسلامى الذى آمنوا به ، واتضحت أمامهم المطالب والاحتياجات الروحية والمادية اللازمة له ، ومن ثم فقد أخذوا يبتكرون ويقتبسون كل ما يمكنهم من الوسـائل التى تساعدهم على تلبية كل ذلك . وهم فى هذا لم يخرجوا على ما فعلته جميـع الحضارات فى كل العصور منذ فجر حياة الانسان ووجوده على ظهر الأرض ، من مصرية وعراقية قديمة وفاسية وافريقيـة ورومانية وبيزنطية وغيرها ، كما سـارت على هذا المنوال حضارات أوروبا فى العصور الوسيطة وعصر النهضة ، الى غـير ذلك من الأمثلة التى لا يمكن انكارها .

ومهما يكن من أمر فان أشد الناس تعصبا لا يمكنه الاقلال من شأن النتائج الحضارية الخطيرة التى حدثت فى تاريخ البشرية ، وترتبت على ظهور محمـد النبى العربى وعلى قيامه ببث الدعوة الى الدين الاسلامى وعلى انتشار هذا الدين فى منطقة كبيرة من العـالم . فان ما أحـدثه محمد بما أتى به من عقيـــدة وتعاليم يدعو بها الناس الى عبادة رب واحد عظيم ، والى خلق قويم ، وترشدهم الى مافيه صلاحهم وصلاح البشرية ، كل ذلك لا شك يعـــد نقطة تحول هامة فى مجرى حضارات العالم .

ولا يمكن مقارنة هذا الحدث بأى حـــدث آخر فى تاريخ البشرية . ولا يقترب منه من بعيد سوى قيام الاسكندر المقدونى بحملته الكبيرة وما ترتب عليها من نشر أفكار وثقافات وتقاليد حضارية نبعت من بلاد الاغريق ، وانتشرت فى رقعة كبيرة من غرب آسيا والشمال الشرقى من أفريقيا ، وبذلك تشابهت بعض نتائج حمـلة الاسكندر بما أسفرت عنه دعوة محمد ، غير أن الظروف التى أحاطت بكل منهما فى نشأته ، وكذلك الحوافز التى دفعته فى طـــريقه ، كانت مختلفة فى كل من الحالتين كل الاختلاف .

فلقد ولد الاسكندر وليا للعهد فى بلاد كانت تتمتع بحضارة عريقة ناضـجة مرموقة ، وتتوفر فيها سـبل الحيـاة . وكان تاج الملك ينتظره ، فتقلده وهو شـاب يافع ، ودفعه حماس الشباب وحب الانتقام الى أن يقوم بحملته العسكرية الكبـيرة

كي يثأر للاغريق من الفرس الذين اقتحموا بلادهم من قبل ونكلوا بهم في عقر ديارهم • واصطحب الاسكندر في حملته عددا كبيرا من الفنانين والعلماء من اهل بلده بغرض نشر الحضارة الاغريقية الهلينية في الاقطار التي أخذ يفتحها الواحد بعد الآخر ، ويقطع كلا منها لقائد من قواده يتوارثه اولاده من بعده ، الى ان انقرض حكمهم بعد فترات من الوقت طالت وقصرت حسب الظروف • وكان هدف الاسكندر من ذلك أن يصبغ تلك الأقطار بصبغة اغريقية تجعلها خاضعة أبدا للنفوذ الأغريقي • غير أن جزءا كبيرا من الثقافة والفنون التي جاءت الى تلك الأقطار وهي الثقافة والفنون التي يطلق عليها علماء الحضارات كلمة « الهلينستية » ، قد ذاب مع الوقت في الحضارات المحلية التي أخذت تعود اليها بعض الملامح الأصيلة التي كانت سائدة في كل قطر منها من قبل ، وبدأت تتبلور منها حضارات جديدة تتميز كل منها بطابق وذوق محليين مع بقاء بعض الرواسب من الحضارة الهلينستية في مجرى الحضارات الجديدة ، وكانت تتضح تلك الرواسب أحيانا وتختفي أحيانا أخرى • فقامت الحضارة البوذية الاغريقية في الهند ، وقامت الحضارة الفارسية ومن بعدها الساسانية في العراق وفارس ، وبقيت الحضارة الهلينستية في الشام الى أن انتشرت المسيحية هناك وقامت الحضارة البيزنطية • وقامت الحضارة البطلمية في مصر ومن بعدها الرومانية ثم البيزنطية المسيحية المعروفة بالقبطية • وقد احتكت الحضارة الاسلامية في بادىء الأمر بتلك الحضارات المتعددة كما سيأتي شرحه •

أما محمد العربي فقد ولد يتيما فقيرا لا جاه ولا مال الا ما منحه من كفله من أقاربه • وكانت نشأته متواضعة وسط مجموعات من القبائل تقيم في بقاع تقرب أو تبتعد عن بعضها تبعا للبيئة التي تجدها القبيلة منها صالحة لها •

وكلف محمد بالدعوة الى الدين الاسلامي بعد أن بلغ مرحلة الرجولة الناضجة • فقام يهدي الناس الى ما فيه خيرهم وخير الانسانية • وبدأ دعوته باللين والترغيب والتسامح حتى بادأه أعداؤه بالكيد والعدوان • فلم يجد مناصا من دفع الأذى عن المسلمين وعن نفسه حتى انتصر وانتصرت دعوته معه • وتابع خلفاؤه نشر الدعوة ، وتوسعوا في سبيل ذلك بالحرب حينا وبالسلم أحيانا ، حتى دخلت تحت لواء الاسلام معظم الأقطار التي كان الاسكندر المقدوني قد أخضعها من قبل• وأضاف المسلمون اليها أقطارا أخرى • وتغلغل الاسلام في تلك الرقعة العظيمة من الأرض ، وانتشرت فيها جذوره • ولكن على عكس ما حدث للحضارة الهلينستية التي ذاب أكثرها في الحضارات المحلية للمناطق المختلفة كما أشرنا من قبل ، فان

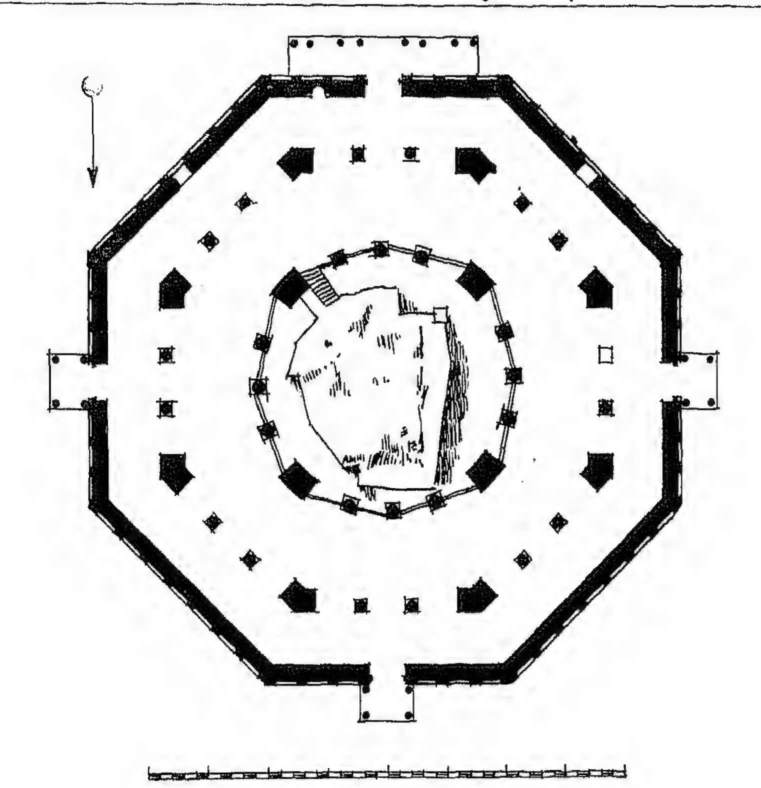
الاسلام هو الذى أذاب كثيرا من تلك الحضارات وصهرها فى بوتقته ، ومن ثم فقد نشأت على أيدى العرب حضارة اسلامية قوية نقية فى جميع الاقطار ، وباشراف وبتوجيه من الأجناس العربية ، وأخذت تزداد نضجا وازدهارا كلما تعاقبت العصور وظلت متماسكة مترابطة فى العالم الاسلامى كله على الرغم مما أصاب أقطاره من تفكك الروابط السياسية بينها ، واستقلال الكثير منها بنفسه ، وعلى الرغم مما مر به معظم تلك البلاد من أزمات وحروب وأوقات عصيبة .

ذلك ردنا على ما نسب الى عرب الجاهلية بوجه عام، وعلى عرب منطقة الحجاز بوجه خاص ، وذلك فى الوقت الذى سبق الدعوة الاسلامية مباشرة ، ثم فى وقت نزول الوحى وصدر الاسلام . وهو الحكم الذى يهدف الى تصويرهم فى هيئة الهمج البدائيين الذين لم يكونوا على شىء من الحضارة والمدنية ، وهو حكم جزافى لا يقوم على أى أساس منطقى أو علمى بل انه ليتعارض تماما مع الحقائق والمناهج العلمية للبحث كما رأينا فى ما سردناه من تحليل ومناقشة ومن أدلة وبراهين .

ويهمنا أن نلفت الأنظار الى ملاحظتين هامتين تتصلان بالخلاصة التى كتبت عن الاسلام البدائى .

الملاحظة الأولى : أن مبنى قبة الصخرة ليس الا مثل وحيد فى تاريخ العمارة العربية الاسلامية ، وذلك من هجرة الرسول وحتى اللحظة التى تكتب فيها هذه الكلمات . وليس من الانصاف أن يتخذ باحث من مثل وحيد فى أربعة عشر قرنا دليلا يصدر على أساسه حكما عاما يدمغ العرب والمسلمين الأوائل جميعهم بعدم الأصالة فى النواحى الحضارية ثم يحاول أن يدعمه بالاشارة الى نظم الحكم الذى سارت عليها الدولة العربية الاسلامية ، والى أنها كانت تقوم على النظم البيزنطية فى الشام ومصر ، وعلى الفارسية فى العراق وفارس . ثم يعززه بالاشارة الى نظم السكة « أى نظم النقد المتداول » والتجاء العرب المسلمين فى ذلك الوقت الى استخدام الدنانير البيزنطية الذهبية والدراهم الساسانية الفضية ، كما سبق أن ذكرناه فى الترجمة التى أتينا بها لتلك الخلاصة . وسنعود الى مناقشة كل هذا بعد قليل .

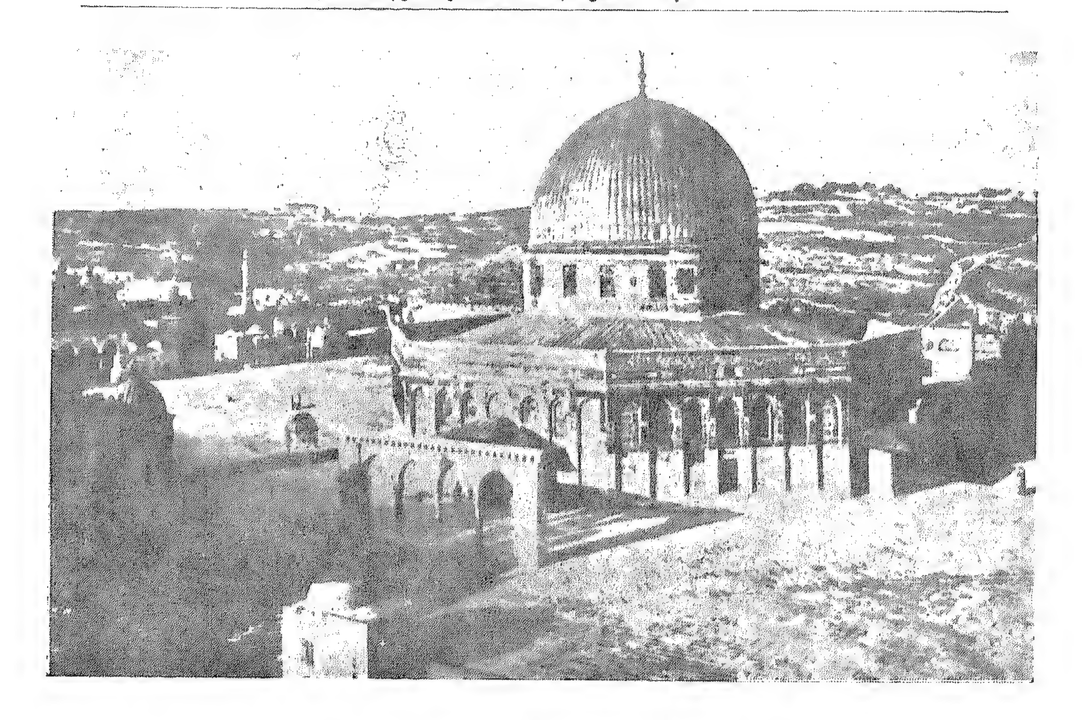
والملاحظة الثانية : أنه لم يحدث فى مناقشة أصول العمارة والفنون الاسلامية أن أشار أحد الباحثين ولو اشارة عابرة الى الأجناس والأقوام التى كانت تسكن بلاد الشام والى أنه كان منهم ، ان لم يكن كلهم أو معظمهم ، قبائل عربية صميمة أشهرهم الغساسنة . وكانت الدولة البيزنطية تعتمد عليهم فى حماية منطقة الشام



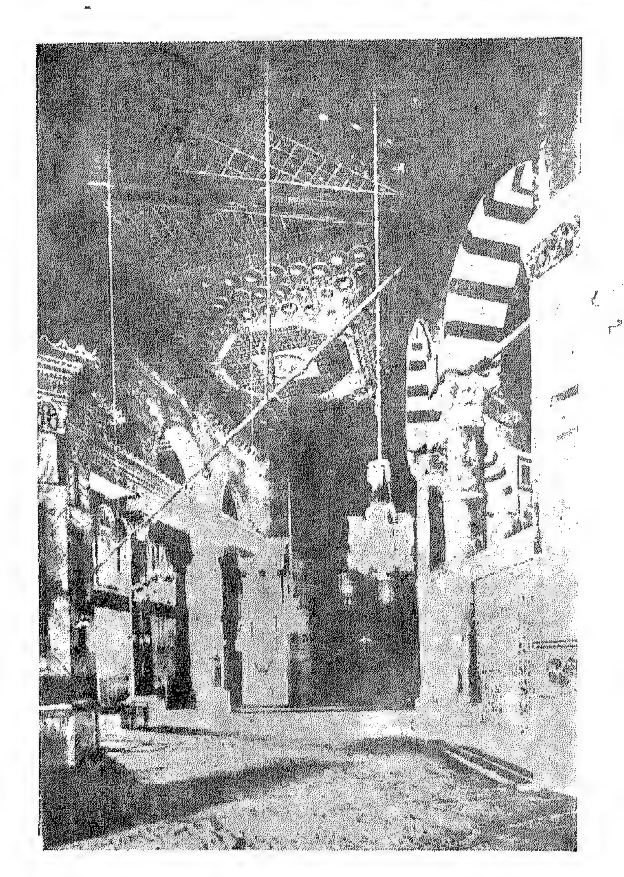
شكل : ٨ ـ قبة الصخرة ، مسقط .

والأطراف الشرقية للدولة ضد الساسانيين وحلفائهم المناذرة العرب المقيمين فى منطقة العراق . أى أن نسبة ال ٥٥٪ التى منحت المتأثيرات الشامية على بناء قبة الصخرة [1] يعود الفضل للعرب فى الايحاء بها أو بقسط كبير منها على الأقل . أما ديانة هؤلاء العرب فقد كانت المسيحية هى الدين السائد فى منطقة الشام حتى الفتح العربى الاسلامى ، أى عندما استولى العرب المسلمون على القدس فى سنة ١٧هـ (٦٣٨ م) . فاذا علمنا أن تاريخ بناء قبة الصخرة هو سنة ٧٢ هـ (٦٩١ م) ، فمعنى هذا هو أنه قد انقضى نحو ٥٥ عاما منذ أن صارت منطقة الشام ومدينة القدس عربية اسلامية . ولا نظن أن هناك شكاً كبيرا فى تزايد عدد العرب المسلمين فى تلك المناطق ، اما بالهجرة أو باعتناق الاسلام ، بل ان هذا أمر مسلم به لا يحتاج الى تدعيم . أو بمعنى آخر فان الشاميين الذين تولوا بناء قبة الصخرة كان معظمهم من العرب أولا ، وكان كثير منهم من المسلمين ثانيا . وسنشرح ذلك بالتفصيل عند الحديث عن المحراب وأصله (ص : ـ) .

(1) E.M.A., I, p. 90.



ش : ٩ ـ القدس : قبة الصخرة (واجهة)



ش : ١٠ ـ القدس :
قبة الصخرة (من الداخل)

واذا ألقينا نظرة سريعة على تخطيط مسقط قبة الصخرة (ش : ٨) لوجدنا أنه لا يطابق أى تخطيط لنماذج العمائر البيزنطية فى منطقة الشام أو فى غيرها (ش : ٧٠ ـ ٨٣) . بل هو تحوير واقتباس منها ليتفق مع الغرض الذى شيد من أجله البناء وهو أن يحيط بالصخرة ، وهى البقعة المباركة التى عرج منها محمد الى السماء حين أسرى به ربه من مكة اليها . ولذا فقد روعى فى التخطيط أن يوفر غرض تعيين تلك البقعة ، ثم غرض الطواف حولها للتبرك بها . وهو أمر يختلف تمام الاختلاف عن الغرض الذى شيدت من أجله تلك العمائر الدينية البيزنطية ذات التخطيطات المشابهة [١] . ومهما يكن من أمر ، فان تخطيطات تلك العمائر الدينية البيزنطية ليست ابتكارات بيزنطية أو سورية ، بل كانت فى الأصل تخطيطات رومانية دينية سابقة ، أخذت بدورها من أصول اغريقية .

***

ثم نعود الى المحاولات الأخرى التى أشرنا اليها من قبل ، والتى تتجه الى تأكيد اتهام العرب المسلمين منذ أول الاسلام حتى العصر الأموى بأنهم كانوا يفتقرون الى تنظيمهم لشئون الحكومة الاسلامية والى نظم للسكة ، مما جعلهم يعتمدون على عملة النظم القائم فى البلاد التى فتحوها من بيزنطية وساسانية [٢] . وهى محاولات فاشلة أيضا .

ذلك أنه لم يحدث فى التاريخ أن فتح قوم قطرا أو أقطارا وغيروا من نظام الحكومة فيها بين يوم وليلة ، سيما وأن تلك النظم كانت عند الفتح العربى فى حالة مستقرة فى كل من البلاد التابعة للدولة البيزنطية والتابعة للدولة الساسانية لفترة لا تقل عن ثلاثة قرون وقد تزيد . كذلك لم تكن الدولة العربية الاسلامية قد استكملت فتوحاتها وتكاملت وحدتها ، ولم يحدث هذا الا فى عهد الوليد بن عبد الملك . ومن ناحية أخرى فان تعدد الأقطار التى تكونت منها الدولة العربية الاسلامية لا شك يدعو الى التريث والتمهل فى تعديل النظم الحكومية ودواوينها فى مختلف تلك الأقطار ذات اللغات والمشارب المتباينة . ونعتقد أنه كان من الانصاف والمنطق السليم أن يوصف ذلك التريث والتمهل بالكياسة وحسن السياسة . ولا شك أن الوقت الذى انقضى حتى تم تعريب دواوين الحكومة، وهو

---

(١) E.M.A., I, pp. 70-78, Figs. 26, 29, 30.

(٢) Ibid., I, pp. 94-96.

لا يتجاوز نصف قرن على الأكثر بين تأسيس الدولة الأموية واتمام ذلك التعريب، لم يضع سدى ، بل كان فترة ترقب ودراسة ووضع أسس سليمة لذلك التعريب . وهو أمر يشهد للعــرب وللمسلمين بأنهم كانوا رجال سياسة وحصافة الى جانب قدراتهم العسكرية .

أما من جهة النظم المالية وسك النقود والتجاء العرب المسلمين الى اســتخدام العملة البيزنطية الذهبية من الدنانير والعملة الساسانية من الدراهم الفضية ، فان ذلك ليس مأخذا على العرب ، وليس من الانصاف أن يعد كذلك ، فالوقائع التاريخيــة المعروفة عن تلك العملات فى بلاد العــالم فى ذلك الوقت تفسر فى وضــوح تام أسباب استخدام العرب لها ، بما يفند التهمة التى وجهها اليهم المستشرقون .

فمن المعروف أن الدولة البيزنطية كانت أقوى دول العــالم فى الوقت الذى سبق ظهور الاسلام وبعده ، وكان لها نفوذ اقتصادى وسياسى كبير ، كما كانت ذات ثراء عظيم . وذلك لما كانت تملكه من مستعمرات تستغل خيراتها وتمتص جهــود أهلها . كذلك كانت صاحبة أكبر أسطول بحرى فى العالم ، ولديها أغنى مناجم الذهب فى ذلك الوقت .

لهذا كله كانت الدولة البيزنطيــة تفــرض على بلاد العالم دنانيرها الذهبيــة ، وكانت أشبه بعملة دولية امتد التعــامل بها الى بلاد المحيطات الشرقية ، مثل جزيرة سيلان وغيرها . وكان أهم تلك العملة «السوليدوس» Solidus و « النومزما » Nomisma وكل منهما يعادل دينارا من الذهب [1] . بل ان الساسانيين عندما كانوا يستعملون الفضة لدراهمهم فانهــم كانوا فى نفس الوقت يعتمـــدون على الدنانير الذهبية البيزنطية فى التعــامل أيضــا لافتقارهم الى الذهب [2] . بل وصل الأمر الى أن تملى الدولة البيزنطيــة على الســاسانيين فى معــاهدة عقــدوها بينهم بأن يضرب الساسانيــون نقودا من الفضـــة فقط ، وأن لا يتخذوا سكة ذهبية ســـوى السكة البيزنطية من الدنانير الجارية فى التعامل [3] .

ولم يقتصر أمر نفوذ البيزنطيون على الساسانيين فحسب بل ان أباطرة الدولة البيزنطية لم يســمحوا لأحــد غيرهم أن يضرب ســـكة ذهبيــة على أى طراز غير

---

(١) عبد الرحمن فهمى : مجموعة النقود العربية وعلم النميات ، الجزء الاول : فجر السكة العربية (مطبعة دار الكتب بالقاهرة ــ ١٩٦٥) ، ص : ٣٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص : ٣٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص : ٣٤ ــ ٣٥ .

طرازهم ، حتى ان جسـنيان الأول قد استنكر ما فعله ملك الفرنجـة حين ضرب سكة ذهبية باسمه وصورته ، وهو أمر لم يكن ليجرؤ عليه ملك الفرس نفسه الذى كانت له الحرية المطلقة فى ضرب السكة الفضـية ، ولم يكن يقدر على أن يضرب سكة ذهبية تحمل صـورته ، فهذا الحق محـرم عليـه كما هو محـرم على جميع البرابرة (؟) ، وحتى اذا ضرب (أى ملك الفـرس) مثـل هذه السـكة فلن تقبلها منه الشعوب التى يتاجر معها، ولو كانوا من رعاياه أو غرباء عن الامبراطورية الرومانية » [1] •

ثم ان مالية الدولة الساسانية كانت تعتمد اعتمادا كبيرا للحصول على الدنانير الذهبية اللازمة لهم على عبور التجارة (الترانسيت) الخاصـة بالأقمشـة الحـريرية الصادرة الى بيزنطة • وقد اهتزت مالية الساسانيين هزة شديدة منذ القرن السادس عندما أدخلت بيزنطة دودة القز فى أمبراطوريتها • وفى أوائل القرن السابع تخلصت من نفوذ الفرس والعراقيين ، وأصبحت هى بدورها مصدرة للحرير [2] • مما أوقع الساسانيين فى ضيق مالى •

تلك كانت الحالة الدولية للتعامل النقدى فى العالم فى أواخـر العصر الجاهلى المتأخر وفى صدر الاسـلام • فكانت العملة السـائدة هى الدنانير الذهبيـة البيزنطية والدراهم الساسانية الفضية• ولم يكن أمام العرب فى الجاهلية وفى صـدر الاسـلام مناصا ، مثل غيرهم ، من التعامل بها فى صفقاتهم التجارية مع الشام والبيزنطيين وبلاد الساسانيين ، فهم لم يكونوا بأقوى من تلك البلاد التى كانت تتعامل بها • هذا فضلا أن جميع البلاد تقريبا التى تكونت منها الدولة العربية الاسلامية كانت تتعامل بتلك الأنواع من السكة منذ قرون عدة ، ولم يكن من الحكمة تغييرها الا فى خطوات تدريجية لا تؤثر على الشئون الاقتصادية للدولة من حيث جبـاية الجـزية والخراج وغيرها •

وهكذا كانت الدولة البيزنطية ذات السطو والحول والطول ، وصاحبة النفوذ الدولى الكبير التى أخـذ العـرب المسـلمون يقطعون أوصالها ويقصـون ريشها ويقلمـون أظافرها • وينتزعون منها جميع مسـتعمراتها التى كانت تتعامل بعملتهـا كما استحوذوا على الدولة الساسانية بكل مقوماتها • ولم يكن من السهل على العرب

---

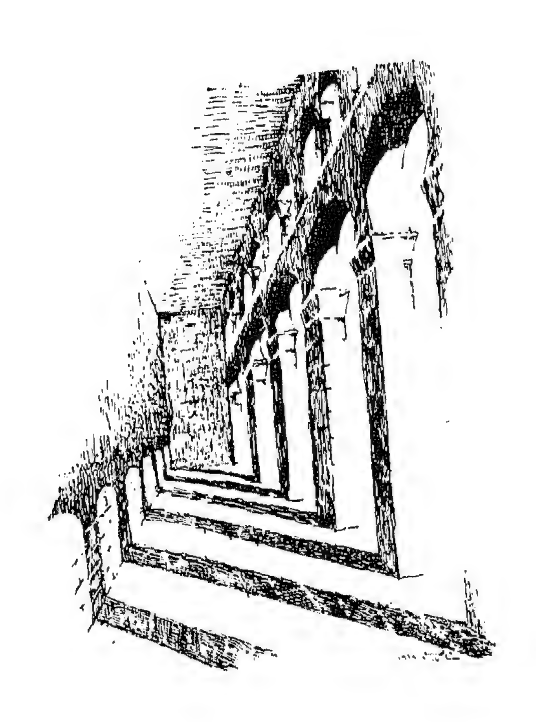
(١) عبد الرحمن فهمى ، ص : ٣٤ — ٣٥ •
(٢) عبد الرحمن فهمى ، ص : ٣٣ •

المسلمين ولا على غيرهم أن يبدلوا كل النظم الحكومية والمالية فى تلك الأقطار فى وقت قصير . ولا شك أنهم لو أسرعوا فى تعريب كل تلك النظم فى ذلك العالم الكبير الذى تكونت منه الدولة العربية الاسلامية لأحدثت السرعة هزات ومشاكل لا يعرف مداها . وكل ذلك قد دعا العرب المسلمون الى التمهل والأناة ، وهو أمر يستحقون عليه كل تقدير ، لا أن ينسب اليهم التخلف والعجز .

***

الفصل الثانى

الطرز السابقة
وعمارة العرب فى الإسلام



مشتملات الفصل الثانى :

التحامل على العرب فى دراسة طرازهم ، لم يقتبس العرب المسلمون سوى عناصر وتفاصيل العمارة والحضارة فى الشرق الاوسط قبل الاسلام ــ الطراز الاغريقى وسليله الهلينستى ، التخطيطات الهندسية المنتظمة الاغريقية ، الاعمدة الاغريقية ، الحمليات ، والزخارف الاغريقية ، الزخارف النخيلية الاغريقية، زخارف الخطوط المتكسرة الاغريقية، الطراز الهلينستى فى الشرق الاوسط ــ الطراز الرومانى ، البازيليكا الرومانية ، التخطيطات الهندسية المنتظمة الرومانية ، الحمامات الرومانية ، الحمامات فى القصيرين الأمويين بالشام ، العمائر الرومانية والتذكارية والسكنية وقناطر المياه ، الأعمدة الرومانية ، العناصر والتفاصيل الرومانية، التيجان المركبة الرومانية ، العقود والاعمدة، القباب ومناطق الانتقال الحاملة لها ، الاقبية الطولية والمتقاطعة ، الحليات المعمارية ، والزخارف الرومانية ــ الرومامن والمسيحية ، الكنائس البازيليكية فى ايطاليا ، الكنائس البازيليكية فى الشام ، مميزات الكنيسة البازيليكية، تأثير بيزنطة على المساجد العثمانية ، طرق تسقيف الكنائس المبكرة ثم البيزنطية ، بيزنطة تصبح عاصمة الدولة الرومانية الشرقية ، جامع (كنيسة) ايا صوفيا ، المساقط الهندسية المنتظمة للكنائس البيزنطية والعمائر الاخرى ، المسقط الصليبى والعقد المدبب ، القباب والمثلثات الكروية، اقدم مثلث كروى حقيقى يوجد بالشام ، أقدم مثلث كروى اسلامى يوجد بالشام ، المقرنصات الاسلامية الحاملة للقباب فى العمائر الدينية المسيحية ، المقرنصات الاسلامية فى سامرا ، عنصر السقاطة شامى الاصل ، العقد حدوة الفرس عراقى الاصل ، التاج

الهرمى البيزنطى ، زخرف المشبكات ، الاتجاه الهندسى فى التكوينات الزخرفية النباتية، اسراف البيزنطيين فى استعمال المواد الغالية كزخارف ، سطو البيزنطيين على العمائر الدينية القديمة وهرمها ، تحويل لمعابد الرومانية الى كنائس ــ الطراز الساسانى ، طاق كسرى ، الآثار الساسانية فى العراق ، وفى فارس ، دور العراق دائما فى الطليعــة وتتبعه فارس ، مميزات العمارة الساسانية ، طرق التسقيف الساسانية ، بناء الأقبية بغير قالب من الخشب ، طرق تسقيف ساسانية فى قصير عمره وحمام الصرخ ، القباب والمقرنصات الركنية الساسانية ، الحشوات الغائرة فى الواجهات ، العقود الساسانية، عناصر معمارية ساسانية الأعمدة الساسانية وتيجانها الهرمية المقلوبة، اعمدة النواصى، الحليات المعمارية الساسانية والزخارف ، عنصر الفصوص ، عنصر الشرافات المسننة ــ ماذا اقتبس الطراز العربى الاسلامى من غيره ؟ التخطيط الهندسى المنتظم ، التفاصيل والعناصر ، الوحدات السكنية ، الباشورة أو المدخل المنكسر ، السقاطة ، الصنجات المزررة ، شقوق الارضيات والابواب المنزلقة راسيا ، عناصر دفاعية ، تغطيات الاسقف، الاقبية الطولية والمتقاطعة ، القباب ، المثلثات الكروية والمقرنصات ، انواع العقود ، العقد لمدبب ، الصنجات المزررة ، العقود المفصصة ، صنجات الابلق تيجان الاعمدة ، الشمسيات ، الشرافات المسننة وزخرف المفروكة ، الصليب المعكوف ، الاطباق النجمية، الزخارف النباتية ، الاشكال اللوتسية ، عناصر من الثمار ، خلاصة ما اقتبسه الطراز العربى الاسلامى •

***

جرت العادة فى معظم ما كتبه المستشرقون عن العمارة الاسلامية أن يتجهوا الى تخصيص مكان عند وصف الأثر المعمارى وشرح مميزاته يتضمن مقارنة وحـدات أو عناصر معمارية فيه بأشباه لها وجدت فى طرز سـابقة لـكى يصلوا من ذلك الى اعتبارها أصول ومصادر اشتقاق لتلك الوحدات والعناصر الاسلامية ، حتى ولو لم تكن هناك علاقة تصل بين تلك الوحدات والعناصر الاسلامية وبين ما تسمى بأصولها ومصادر اشـتقاقها ، لا من الناحيـة الزمانيـة ولا من الناحيـة المـكانية فى كثير من الأحيان • وقد استوقف نظرنا أن النتيجة التى يخرج بها القارىء عادة فى النهـاية هى أن الأثر الاسلامى منها اما أن يكون كثير منه قد أخرجته أيد غير عربيـة وغير اسلامية ، أو أنه اعتمد فى اخراجه على تقاليد ليس للعرب والمسلمين فضل فيها وهى نتيجة أو ايحاء لا يتنبه اليها القارىء فى أغلب الأحيان • ثم تتراكم عوامل الايحاء مع تعدد الأمثلة فى مواضع متقطعة حتى ينتهى القارىء الى الاقتناع بتلك النتيجة ويصبح أسيرا للخيوط التى نسجها من حوله نهج الدراسة هذا ، سواء كان ذلك هـــدفا مقصودا أو غير مقصود •

واذا كان هناك من المستشرقين من يميل للسير على هذا الدرب لدافع أو لغيره ، فاننا لا نجد تفسيراً لما انساق اليه بعض العرب المحدثين من خضوع لذلك المنهج المتحامل بغير أن يتنبهوا لما ينطوى عليه من هدم لأسس حضارة العرب والمسلمين وتشكيك فى قدراتهم وفى المستويات التى وصلوا اليها بكدهم وامكانياتهم وقوة أذهانهم التى كان لها كل الفضل ، وليس لغيرها ، فيما وصلوا اليه من حضارة ومدنية مرموقة •

لذلك كله فاننا قد اتجهنا هنا الى اتباع طريقة أخرى هى جمع أكثر الوحدات والتفاصيل والعناصر أهمية فى موضوع الأصول ومصادر التأثيرات التى قيل ان عمارة العرب فى العصر الاسلامى قد أخذت عنها أو خضعت لها ، ثم تحليلها ومقارنتها للوصول الى مدى علاقتها بنشأة وتطور العمارة العربية الاسلامية ، وحتى يتضح ـ وهى معروضة مجمعة مع بعضها ـ مقدار ما فى النتائج التى يوصل اليها المنهج الذى أشرنا اليه من ضعف أحيانا ، وافتعال أحيانا أخرى •

ويهمنا أن نلفت الأنظار الى أننا قد بدأنا بالوحدات والعناصر التى ترجع الى طرز العمارة الكلاسيكية والتى نبتت فى أوروبا منذ أيام الاغريق ، ثم زحفت نحو الشرق الأوسط مع الفتوح ومحاولات استعمار أقطاره ، وامتزجت بالفنون القديمة التى كانت قائمة فى أعرق وأقدم بلاد تلك المنطقة ، مؤثرة فيها ومتأثرة بها • فى حين أننا ضربنا صفحا عن ذكر تلك الطرز القديمة على الرغم من عراقتها وأصالتها وهى : عمارة مصر الفرعونية وعمارة الحيثيين فى شمال الشام وآسيا الصغرى ، والعمارة العراقية القديمة فى بلاد ما بين النهرين وفارس •

ونفسر ذلك بأن الفترة التى استغرقها نفوذ التقاليد الاغريقية وما تلاها من رومانية وبيزنطية فى مصر والشام ، ثم ما عاصر ذلك من رواسب هلينستية من سلوقية وفارثية وساسانية فى العراق وفارس ، تلك الفترة التى استغرقت ما يقرب من عشرة قرون حتى ظهور الاسلام وانتشاره قدأ حدثت فاصلاً بين العصور القديمة وبين العصر الاسلامى ، وقطعت كل صلة واضحة بينها ، فلم يصل من تأثيرات التقاليد الفنية والمعمارية القديمة الى العصر الاسلامى سوى ندرة من رذاذ لا يكاد يبين الا بعد جهد وعناء فى محاولة العثور عليه وهو تائه مختنق فى خضم التقاليد الاسلامية التى صهرت كل ما جاء فى طريقها من تأثيرات قريبة منها نسبيا فى الزمان ، فكيف اذن بما كانت بعيدة عنها كل ذلك البعد الزمنى السحيق •

ثم اتسع مجال الاحتكاك بين عرب الحجاز والحضارات المذكورة منذ أن جد المسلمون فى فتوحاتهم فى عهد خليفة رسول الله عمر بن الخطاب • وتولى

عثمان بن عفان الخلافة من بعده والعرب المسلمون قد أتموا فتح مناطق هامة فى شمال شرق الجزيرة العربية وفى الشمال والشمال الغربى منها ، فاستولوا على فارس والعراق من جهة ، وعلى الشام ومصر من جهة أخرى . وليس من شك فى أنهم بذلك قد أصبحوا متصلين عن كثب بالطرز الرئيسية للعمارة والفنون التى كانت مزدهرة فى تلك البلاد فى ذلك الوقت .

بادر هؤلاء العرب المسلمون بمجرد اتمام الفتوح بتخطيط الأمصار وتشييد المساجد الجامعة وثكنات الجنود ودور الامارة ومساكن الأهالى ، كما حدث فى البصرة والكوفة والفسطاط وغيرها . وكان من الطبيعى أن أصحاب الحرف والفنون من أهل البلاد الذين كان معظمهم من أصل عربى ، واعتنق الاسلام الكثير منهم ، كل أولئك قد دخلوا فى مضمار الحياة التى أصبح يهيمن عليها العرب المسلمون وكان على هؤلاء الصناع والفنانين أن يلبوا مطالب الدين الاسلامى ، ويوفوا بحاجة المسلمين حسب تقاليد ومعتقدات ذلك الدين .

ومن جهة أخرى فان خضوع تلك الأقطار المختلفة لسيطرة حاكم عربى مسلم واحد كان سببا فى امكان نقل الفنانين والصناع من قطر الى آخر ، اذا دعت الحاجة الى الاستعانة بعدد كبير منهم فى بناء عمارة ضخمة أو عدد من العمائر فى وقت واحد ، واذا ما قصر عدد الفنانين المحليين عن القيام به . فكان يشترك فى العمل الواحد عدة مجموعات منهم من جملة بقاع عربية واسلامية . ومن ثم فقد أخذت أساليب وأذواق مختلفة تتلاقى وتمتزج ببعضها . وقد حدث هذا التلاقى والتقارب فى الوقت الذى بدأت تتضح فيه معالم الفن العربى الاسلامى ويأخذ مكانه بين الفنون المعروفة . ولكن مما يجدر ذكره أن هذا الفن الجديد الذى جاء مع بداية الدعوة الى الاسلام قد ولد وجوهره تتدفق فيه دماء عربية اسلامية خالصة ، وأنه أخذ ينمو بها وينضج بفضل رسوخ تعاليم الاسلام وتقاليده ووضوح أهدافه ومراميه . وكل ذلك قد ساعد على تبلور مطالبه من ناحية العمارة والفنون ، ومن ثم فقد وضعت أسسها على قواعد اسلامية عربية خالصة ، ولم تتأثر بالعمارة والفنون الأخرى التى كانت سائدة فى تلك المنطقة الا بما وافق طبيعة التقاليد العربية الاسلامية الجديدة ، فلم يأخذ الفن الاسلامى الا العناصر والوحدات المعمارية والزخرفية التى تصلح لأغراضه ، ولكنه مع ذلك لم يأخذها كما هى الا فى أحوال قليلة ، أما معظمها فان الفنانين العرب والمسلمين كانوا يعالجونها اما بطريقة خاصة جعلت لها ملامح عربية اسلامية ، أو يدخلونها مع عناصر ووحدات أخرى ضمن تكوينات صيغت فى قالب وذوق عربيين اسلاميين ، ثم أخذت جميع تلك العناصر والوحدات تتطور مع الوقت ،

وتكتسب الطابع الاسلامى النقى ، الذى أخذ يبعدها عن المصادر الأصلية التى جاءت منها حتى ضاعت الصلة بينها ، وبخاصة بعد أن اندمجت مع العناصر والوحدات التى ابتكرها الفنانون العرب والمسلمون مع مرور الوقت •

ومن الممكن أن نتتبع هذه التفاعلات بتحليل الآثار الباقية من العصر الأموى وقت أن كانت دمشق حاضرة الدولة العربية الاسلامية العظمى • وتبدأ سلسلتها المعروفة بقبة الصخرة فى مدينة القدس والجامع الأموى بدمشق • وتأتى بعد ذلك مجموعة من العمائر المبكرة من القصور والحصون فى شمال الشام وفى شرق الأردن وسوريا نذكر منها : قصير عمره ، وحمام الصرخ ، وقصر هشام بخربة المفجر ، وقصر المشتى ، وقصر الطوبة ، وقصرى الحير الشرقى والغربى ، ومسجد حرّان ، الى غير ذلك من الآثار المعمارية •

يتضح فى تلك الآثار مزيج من العناصر والوحدات المعمارية والزخرفية التى أدخلها الفن العربى الاسلامى فى نسيج ثوبه الخارجى ، وانتقاها من مصدرين رئيسيين هما : الطراز الساسانى والطراز البيزنطى واللذين وُلدا بدورهما من طُرز سابقة كانت قائمة فى منطقة الشرق الأوسط ، فكأنهما مدينان اذن بكثير من كيانهما وتفاصيلهما لتلك الطُرز السابقة عليهما •

وقد بقيت الملامح الأصلية لتلك العناصر والوحدات والتفاصيل واضحة طوال العصر الأموى ، وفترة تقرب من قرن من الزمان بعد بداية العصر العباسى وبعد أن انتقلت حاضرة الدولة العربية الاسلامية العظمى من دمشق الى بغداد • ولكنها أخذت فى التطور التدريجى البطىء منذ أواخر القرن الثانى الهجرى (٨ م) ، ثم انطلقت عجلة التطور فى سرعة فجائية متزايدة تسببت فى نقلها الى المرحلة العربية الاسلامية الخالصة فى فترة نصف قرن أو أكثر قليلا ، وقد حدث ذلك منذ البدء فى انشاء مدينة سامرا الى وقت هجرانها وعودة الخليفة العباسى الى سكنى بغداد مرة ثانية بصفة نهائية •

ونجد من الواجب علينا ، ونحن بصدد تحليل العمارة العربية الاسلامية المبكرة ، أن نتعرف على المعالم الرئيسية لهذين الطرازين : الساسانى والبيزنطى ، مع التركيز على النواحى التى تتصل بالطراز العربى الاسلامى ، والتى اقتبس منها ما وافقه من عناصرها وتفاصيلها ، لنتبين مدى تأثيرهما عليه ، ذلك التأثير الذى بالغ علماء تاريخ العمارة والفنون فيه مبالغة لا تتفق مع الحقيقة والواقع ، كما سنرى فى الصفحات التالية • ولكن مما يجب التنويه به والتنبيه اليه أننا لا نهدف من ذلك الى دراسة كل طراز منها وما يتميز به من خصائص ، بل كل ما نقصده هو توضيح الظواهر

البارزة فى كل منها التى وأثرت فيما جاء بعده من طرز ، ثم وبخاصة ما انتقل منها الى الطراز العربى الاسلامى أو كانت له به صلة مباشرة أو غير مباشرة .

***

واذا استعرضنا تاريخ العمارة والحضارة فى الشرق الأوسط فى العصور السابقة على ظهور الاسلام ، لرأينا أن الاتصالات ذات النتائج المحسوسة والاحتكاكات المباشرة بين الحضارات القديمة هناك ، وبخاصة فى مناطق شبه الجزيرة العربية وما حولها ، وبين الحضارات الأوروبية التى كانت قائمة فى بلاد الاغريق ، نقول ان تلك الاتصالات ترجع الى أواخر القرن السادس قبل الميلاد .

وبدأ ذلك عندما امتدت موجة توسع الأخامينيين التى خرجت من بلاد فارس متجهة نحو الغرب ، فاكتسحت بلاد العراق ، وخضعت المستعمرات الاغريقية فى آسيا الصغرى لحكم الأخامينيين ، ثم خضعت لهم الشام ومصر الفرعونية . ولكن الأخامينيين ، مع كل ما بذلوه من جهد ، لم ينجحوا فى محاولاتهم فى فتح بلاد الاغريق نفسها ، وذلك على الرغم من الحروب الطاحنة التى قامت بين الطرفين فى البر والبحر .

واكتفى الأخامينيون بما أصبحت عليه دولتهم فى تلك المناطق الغربية من بلادهم، وانصرفوا الى تثبيت أقدامهم فى مستعمراتهم والمحافظة عليها واخماد ثورات أهلها ، وبخاصة ما كانت تقوم بها الجاليات الاغريقية فى آسيا الصغرى .

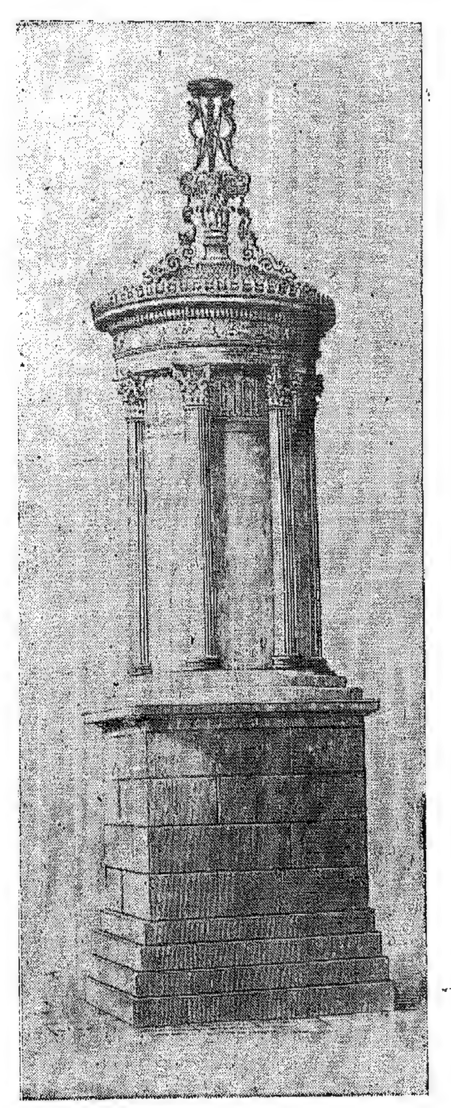
جاء رد الاغريق على تلك الموجة بأخرى ثأرية بعد قرنين من الزمان ، وذلك عندما خرج الاسكندر بحملته الكبيرة من بلاده متجها نحو الشرق ، فاتحا جميع ما كان الأخامينيون الفرس قد كوّنوا منه امبراطوريتهم من قبل ، وهى بلاد آسيا الصغرى والشام ومصر . ثم استولى على العراق ومن بعدها فارس ، ووصل مد الموجة الى شمال الهند وأطراف الصين .

وبقضاء الاسكندر على الأخامينيين انتهت سطوة بلاد فارس التى لم تستمر أكثر من قرنين ، كان مركز الحضارة ومقر الحكم قد تحول فيهما من العراق الى فارس ، ثم عاد الى بلاد العراق مرة أخرى بعد القضاء على الأسرة الحاكمة الفارسية . واستعاد العراق مركزه الحضارى الكبير الذى يرجع الى آلاف السنين . فقامت فيه عاصمة السلوقيين ، خلفاء الاسكندر ، ثم الفارثيين والساسانيين من بعدهم . وكانت حضارة العصرين الأخيرين بوجه خاص عربية عراقية كما سيأتى شرحه .

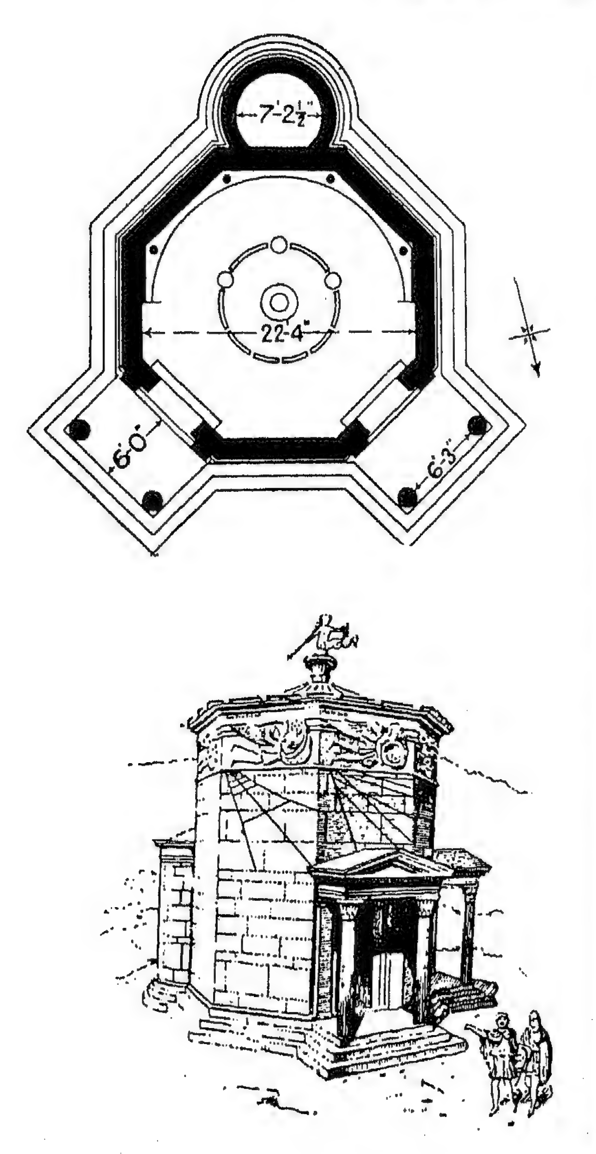
وهكذا كانت فتوح الاسكندر عاملا هاما على احتكاك العمارة والحضارة الاغريقية الأوروبية بما كان قائماً فى البقاع والمناطق المختلفة التى أخضعها الاسكندر ثم

أقطعها لخلفائه • ويعنينا منها بصفة خاصة منطقة العراق وما يتبعها من بلاد فارس ، ثم مناطق الشام ومصر • وهى البلاد والمناطق التى دخلت بعد فتوح الاسكندر بنحو عشرة قرون فى نطاق الدولة العربية الاسلامية •

ومما هو جدير بالذكر أنه قد اصطلح على تسمية الحضارة الاغريقية فى الفترة ما بين القرن السابع الى القرن الرابع قبل الميلاد فى بلاد الاغريق « بالهلينية » . وهى تعد أهم مرحلة فى تلك الفترة ، نضجت فيها تقاليد العمارة والفنون الهلينية وبلغت أوجها فى عصر المقدونيين وبخاصة فى وقت الاسكندر •



ش : ١١ ــ اثينا : مبنى ليسبكراتس





ش : ١٢ ، ١٣ ــ اثينا : برج الرياح

الطراز الاغريقى :

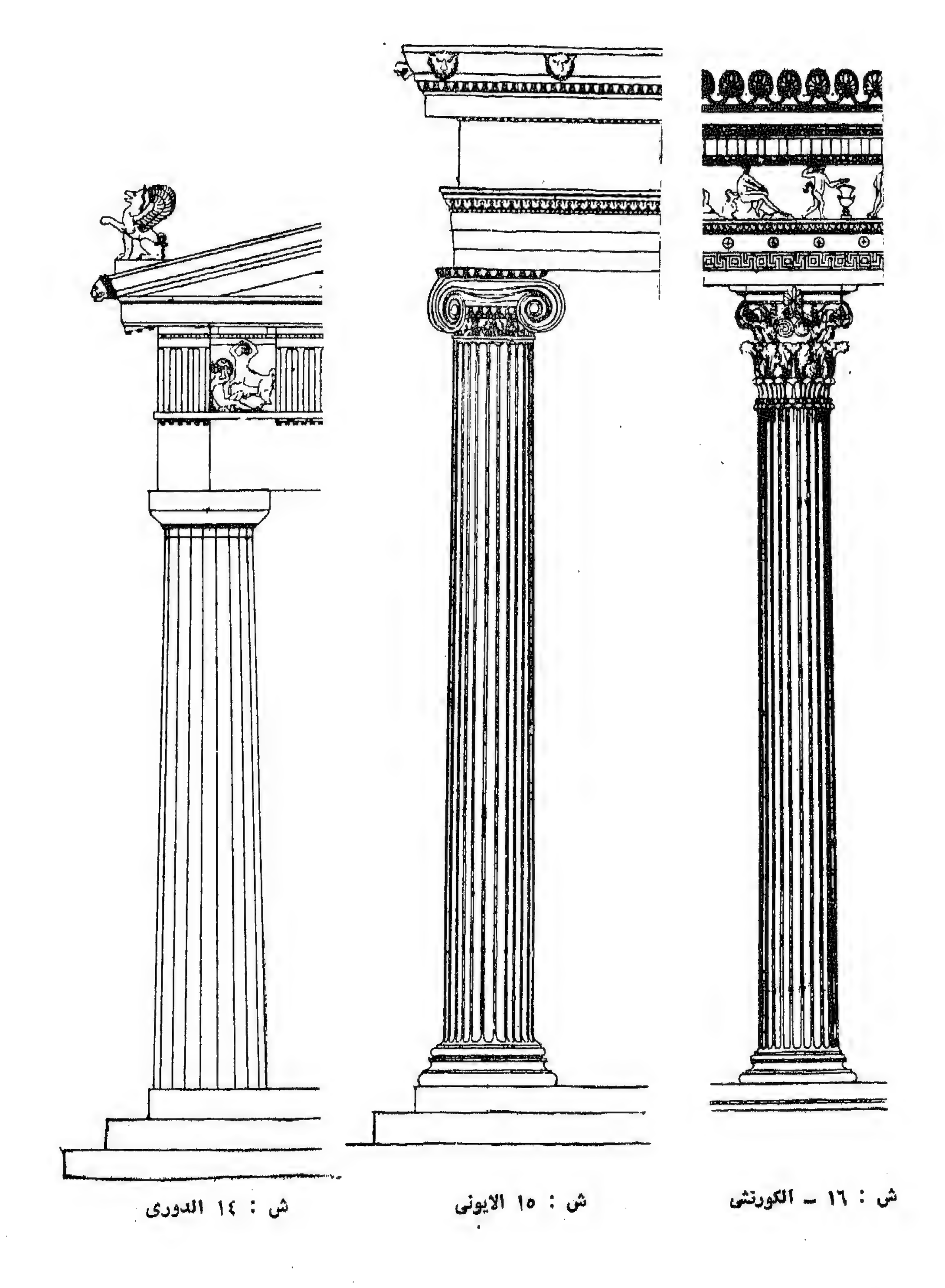
وجاء فن بلاد الاغريق من أصول لا زالت غامضة على علماء تاريخ الفنون حتى الآن ، فانه على الرغم من محاولة البعض منهم أن يربط بين ذلك الفن وبين فنون جزائر بحر ايجه ـ التى يؤرخها العلماء فيما بين سنة ٣٠٠٠ و سنة ١١٠٠ ق٠م ٠ ـ فان هناك فجوة تبلغ أكثر من أربعة قرون تفصل ما بين تلك الفنون وبين الحلقات الأولى من الفن الاغريقى ، وهى الفترة الغامضة التى عرفت « بالعصور المظلمة »[١] ٠

وليس هناك من شك فى أن أصول الفن الاغريقى كانت موجودة فى تلك العصور اما فى بلاد الاغريق نفسها أو فى ما حولها من مناطق ، وكانت هى المصادر التى أخذ منها الفن الاغريقى ملامحه وعناصره ووحداته الأولى ٠ ولعل الزمن يكشف عن تلك الأصول حتى يزول الغموض ويُسد الفراغ الحالى فى تسلسل مراحل نشأة وتكوين الفن الاغريقى ، وهو فراغ لا يتفق وجوده مع القواعد المألوفة فى تاريخ تطور الفنون منذ العصور الأولى من حضارات البشرية ٠

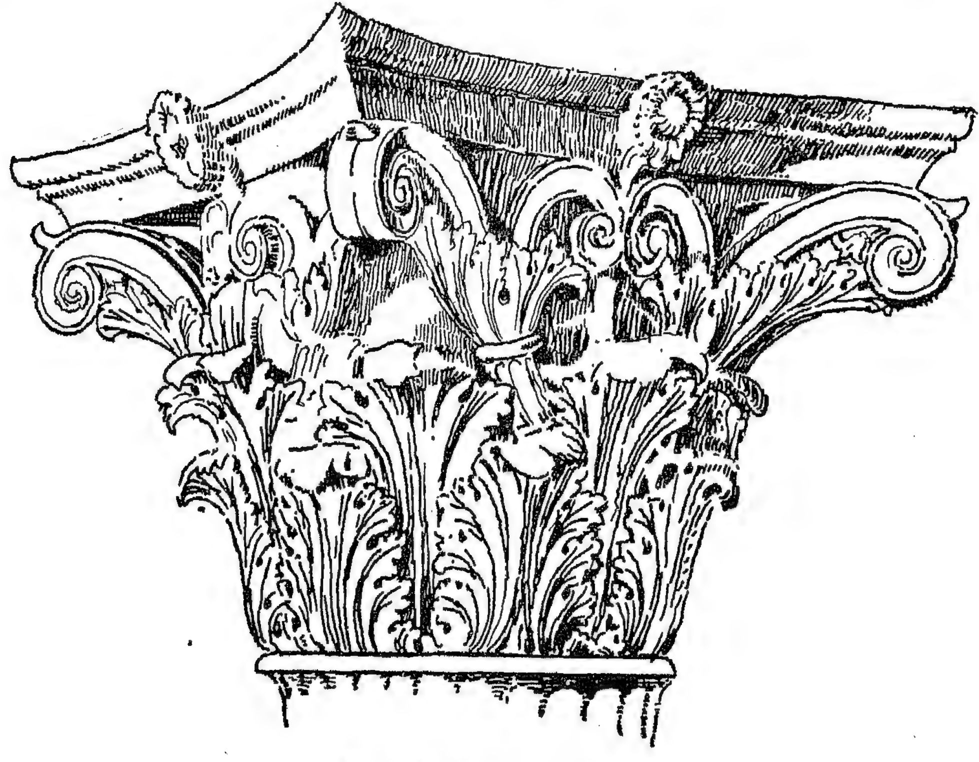
والعمائر الهلينية الباقية يتكون أكثرها من عدد كبير من المعابد توضح حلقات تطور المعبد[٢] ٠ وبقيت عدة أمثلة من المسارح التى كان يهتم بها الاغريق[٣] ٠ كما شيدوا أيضا العمائر التى يجتمع فيها النواب والشيوخ ومجالس المجموعات المختلفة من الشعب[٤]٠ وكانوا يهتمون بانشاء الملاعب وساحات الرياضة والسباق[٥] ، وبناء المقابر العظيمة ، وكان منها قبر تحدث عنه المؤرخون أعد للملك « موزولوس » Mausolos [٦] ٠ وبلغ من عظمة هذا القبر أن عرفت المدافن والقبور فى اللغات الأوروبية بكلمة Mausoleum أو ما يشابهها نسبة الى اسم ذلك الملك ٠ ولم يبق من المساكن الاغريقية الا أمثلة نادرة لا توضح تطور المسكن الاغريقى بصورة جلية[٧] ٠

ويهمنا من العمائر الاغريقية بنوع خاص ما خطط منها على هيئة دائرة مثل مبنى لسيكراتس Lysicrates التذكارى (ش : ١١) فى أثينا[٨] ، ويؤرخ فى

(١) Fletcher : History of Architecture, (1961), p. 93.
(٢) Ibid., pp. 102, 142.
(٣) Ibid., pp. 143-47.
(٤) Ibid., pp. 146-48.
(٥) Ibid., pp. 146, 148.
(٦) Ibid., pp. 148-151.
(٧) Ibid., pp. 151-52.
(٨) Ibid., pp. 139, 141 A-E.



ش : ١٤ الدورى ش : ١٥ الايونى ش : ١٦ ـ الكورنثى



س : ١٧ ـ تاج العمود الكورنثى

القرن الرابع ق. م. ومبنى برج الرياح فى أثينـــا (ش : ١٢ ، ١٣) ، ويؤرخ فى القرن الأول قبل الميلاد[١] .

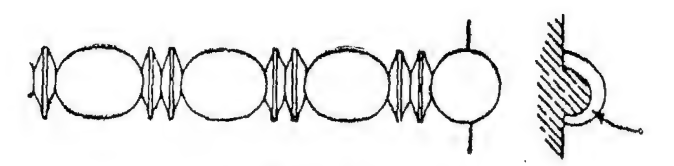
ومن أهم التفاصيل المعمارية التى يرجع الفضل الى الفن الاغريقى فى ابتكارها هو العمود الكامل Order بتاجه Capital ، وقاعدته Base، تتويجته Entablature، ويعد العمود عضوا رئيسيا فى الفن الاغريقى . فقـــد حظى بعناية كبيرة من حيث محاولات اعطائه نسـبا معمارية جميلة ، ومن حيث التنويع فى اشـكاله[٢] ، فمنها العمود الدورى Doric (ش : ١٤) ، والأيونى Ionic (ش : ١٥) ، والكورنثى Corinthrian (ش : ١٦ و١٧) ، وهو الذى تطور منه العمود الكورنثى الرومانى ، واقتبسه الفن البيزنطى ، وتطـــور من تاجه شكل كأسى انتشر فى الفن الاســلامى وأصبح من مميزاته الرئيسية كما سنرى فيما بعد . ولعبت ورقة الأكانثاس Acanthus (ش : ١٧) [٣] التى زين بهـا التـاج الكورنثى الاغريقى[٤] دورا هاما فى الفن

(١) Ibid., pp. 140, 141 F-H.

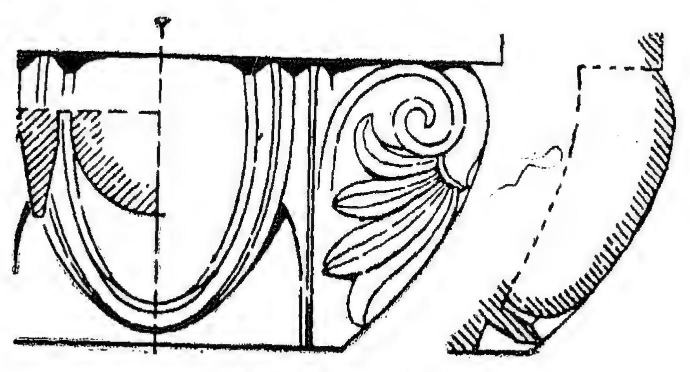
(٢) Ibid., p. 160. Esquié (P.) : Traité Elémentaire d Architecture, Pls. 46, 48, 50.

(٣) Fletcher : p. 138 D.

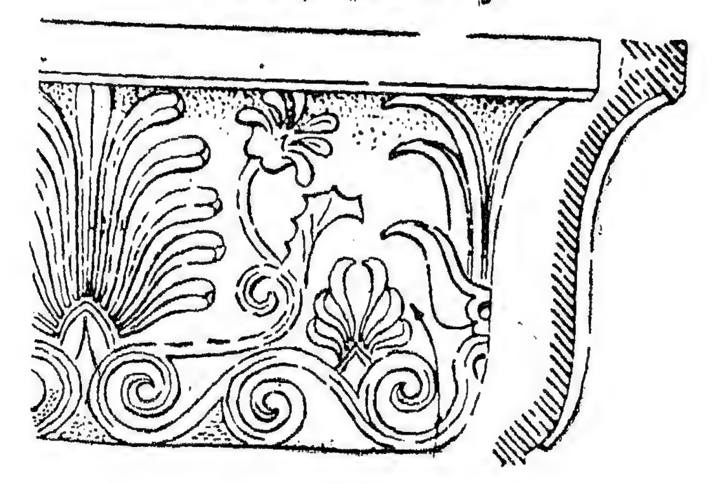
(٤) Traité, Pl. 51 ; Springer (A.) : Kunssgeschichte, vol. I, p. 147, Figs. 310-2 Woermann : Geschichte der Kunst, vol. I, p. 278, Figs. 301-3 ; Fletcher, p. 141, B-L, P. 162 A ; Seaby : Art in the Life of Mankind, vol. III, Figs. 46, 47.



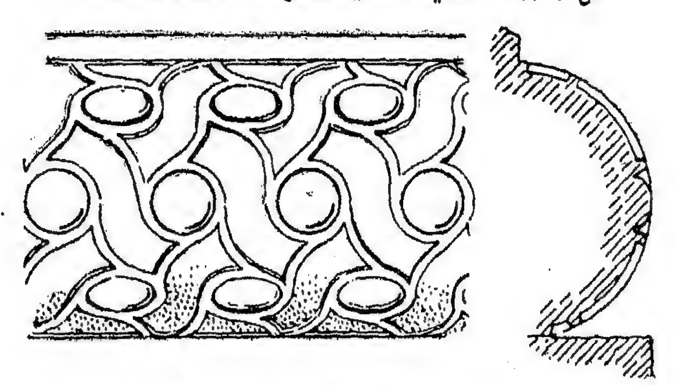
ش : ١٨ ـ حلية السبحة والاقراص



ش : ١٩ ـ حلية البيضة والسهم



ش : ٢٠ ـ الحلية الكاسية وزخرف الانثيمون والنخيل



ش : ٢١ ـ حلية الخلخال والجدائل

الرومانى ، وانتشرت فيه على أشكال مختلفة ، وانتقلت منه الى الفن البيزنطى ، والى الفن الساسانى ، ثم انتقلت الى الفن العربى الاسلامى لتلعب دوراً ليس بالقليل بين زخارفه النباتية ، سيأتى ذكرها وشرح تطوراتها فى المكان المخصص للزخارف العربية فى العصر الاسلامى .

ولم يستخدم الاغريق لتغطية فتحات البناء سوى الأعتاب والأسقف المستقيمة ، ولم يستعملوا العقود المقوسة أو الدائرية .

وتفنن الاغريق فى ابتكار وتنويع الحليات المعمارية Mouldings وزخرفتها [٤] ، ويهمنا بعضها بوجه خاص نظرا لما تطورت اليه فى العمارة الرومانية وما انتقل اليه منها فى الطراز البيزنطى وفى عمارة أوروبا فى العصور الوسطى . وقد جئنا بأمثلة منها (ش : ١٨ – ٢١) [٢] حتى يتضح الفارق الكبير بين هذه الأشكال الاغريقية والرومانية (ش : ٥٤ – ٥٧) وبين حليات العمارة الاسلامية .

واتخذ الفنانون الاغريق من مثلث جمالون السقف عضوا معماريا يزيد من جمال واجهات المعابد والعمائر المختلفة . وتفننوا فى زخرفة اطارات تلك القمم المثلثة وفى ملء حشوائها بالنحوت البارزة التى تمثل القصص والأساطير الاغريقية [٣] .

واتجه الفنانون الاغريق فى الزخارف النباتية الى اقتباس عناصر من الطبيعة ووضعها فى قالب زخرفى . فبالاضافة الى ورقة الأكانثاس التى استخدموها فى تاج العمود الكورنثى فانهم قد أكثروا من المراوح النخيلية Palmettes وأنصافها Split-Palmettes (ش : ٢٠ ، ٢٢ – ٢٤) وهى تسمى أحيانا « بالأنتيمون » Anthemion . (ش : ٢٤) ، واستخدموا أيضا فى الزخارف ورق اللبلاب وأوراق الزيتون وثمار أوراق العنب .

هذا الى جانب الزخارف الهندسية المتنوعة ، أهمها الأشرطة الزخرفية من الخطوط المتكسرة Frets (ش : ٢٥ – ٢٧) [٤] ، ومنها شكل الصليب المعكوف Swastika (شكل ٢٧) ، ومنها الزخارف الهندسية من الدوائر المتشابكة على هيئة جدائل Guilloche (ش : ٢١) ، الى غير ذلك من الأنواع .

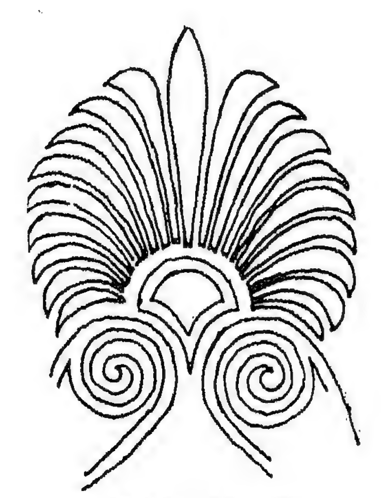
---

(١) Fletcher : p. 164, B, F, G, L.

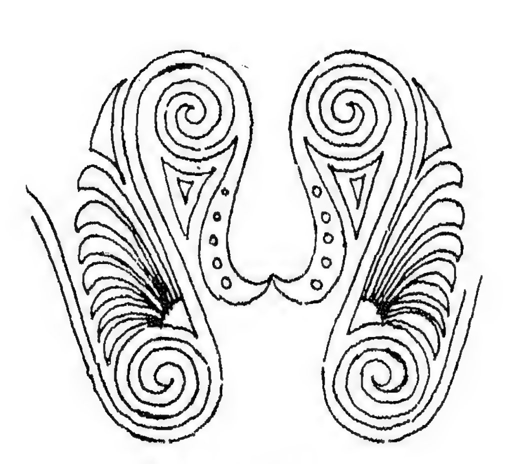
(٢) D Espouy : Fragments d'architecture antique, Pl. 29.

(٣) Woermann, I, p. 250, Fig. 270, p. 350, Fig. 374 ; Springer, I p. 298, Figs. 568, 570, Pl. VI-2, p. 405, Fig. 794 ; Seaby, vol. III, Pls. XII-XIV ; Speltz, Pl. 27/2, 4, 20, etc.

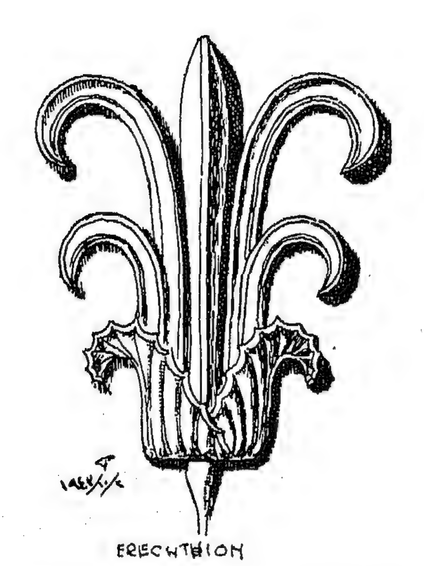
(٤) Fletcher : pp. 117 C, 118 A, 122 B and D, 130 A, etc. ; Woermann, I, Pl. 56 ; Springer, I, p. 223, Figs. 448-9.



ش : ٢٢ ـ زخرف
الورقة النخيلية الاغريقية



ش : ٢٣ ـ زخرف نصف
الورقة النخيلية الاغريقية



ش : ٢٤ ـ زخرف الانثيمون الاغريقية

ومما هو جدير بالذكر عن الفن الاغريقى أن تقاليد العمارة والفنون الهلينية قد وصلت الى مستوى من النضج عُدَّت معه منتهى ما يمكن أن يصل اليه الفكر الانسانى • ومن ثم فقد اتخذت فى العصور المتأخرة والحديثة بمثابة قواعد ومقاييس توزن على أساسها وتقارن بها طرز العمارة الأخرى فى العالم كله • وفى هذا بعض التطرف ، فانه ميزان لا يترك الحرية كاملة ليتذوق الطلاوة التى يتميز بها كل طراز منها ويعوق الوصول الى أعماق الفكر الانسانى التى تباين وتختلف تبعاً للبيئات والظروف ، فهو ذلك الفكر الذى أنتج كل طراز وأنضجه على أسس من مفاهيمه وفلسفته ومقاييسه الخاصة به •

***

وقد عثر فى مدينة برجامه Pergamum قرب الساحل الغربى من آسيا الصغرى على آثار معمارية وقطع من النحت البارز تعد من أروع ما أنتجته يد الانسان وقريحته[1] •

ووجد الفن الهلينى فى منطقة الشام القديمة حقلا عظيما خصبا تمتد فيه جذوره، وقام فيها ينمو ويزدهر فترة زمنية طويلة ، وأخذ يكتسب فيها وفى البلاد التى انتشر فيها طابعا محليا جعله يسمى « بالهلينستى » نسبة الى أصله « الهلينى » • ثم عزز أصوله الهلينستية احتلال الرومان لمنطقة الشام وانتشار الفن الرومانى فيها ، وهو الذى يعده بعض علماء تاريخ الفنون مدرسة من مدارس الفن الهلينستى • اذ قام الطراز الرومانى على أساس تقاليد الفن الهلينى ، وذلك عند ما بلغ الرومان مرحلة من القوة جعلتهم يسيطرون على جزء كبير من بلاد الاغريق ، ثم يحلون محلهم فى المستعمرات التى كانت تتكون منها امبراطورية الاسكندر •

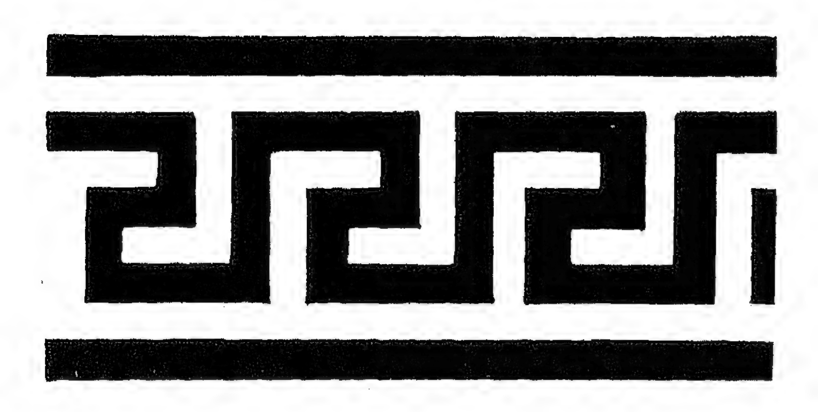
ولم يجد الفن الهلينستى فى مصر تلك الفرصة التى وجدها فى الشام • فقد وجد تقاليد عريقة تمتد جذورها الى عصور سابقة تصل الى آلاف السنين ، فاندمج ما أحضره الاسكندر معه من فنون فى تلك التقاليد العريقة ، ونتج منها ما عرف بالفنون البطلمية نسبة الى البطالمة خلفاء الاسكندر الذين تركهم ليحكموا مصر بعد خروجه منها ليكمل فتوحاته فى العراق وفارس ماراً بالشام مرة ثانية •

***

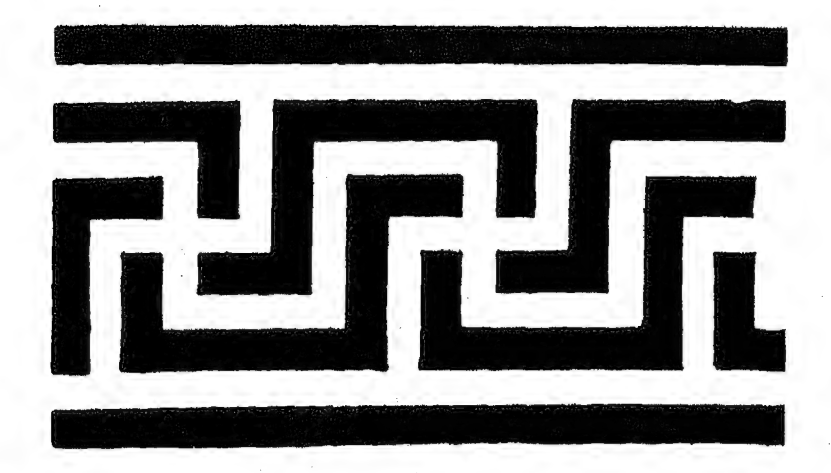
(1) Seaby, III, pp. 50-51, Fig. 43 ; Woermann, I, Pls. 67-8 ; Springer, I, pp. 373, 403, Figs. 794-7.



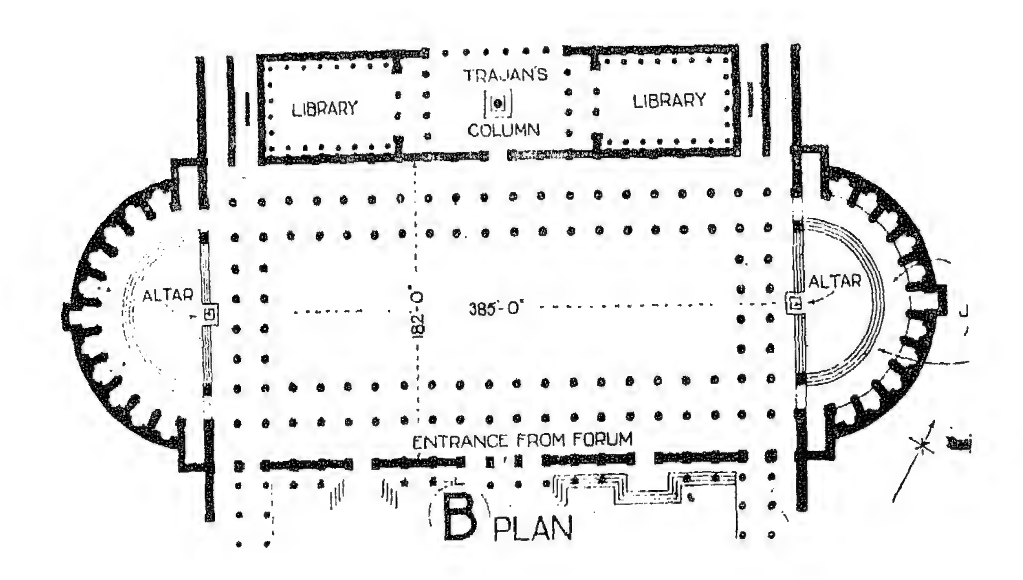
ش : ٢٥ ـ زخرف الخطوط المتكسرة



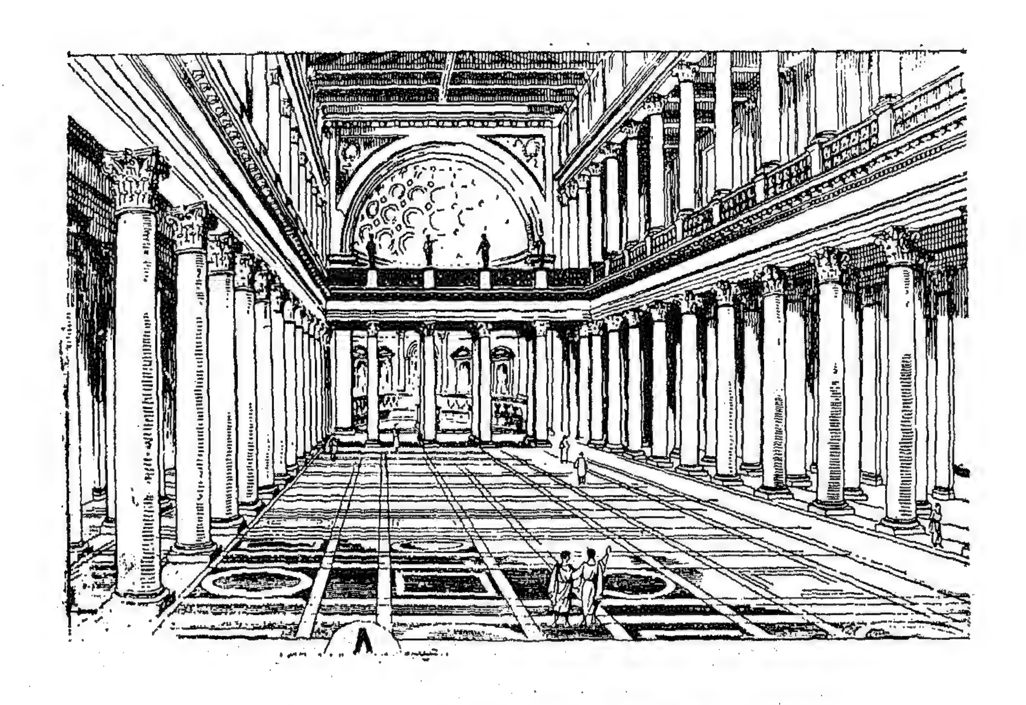
ش : ٢٦ ـ زخرف الخطوط المتكسرة



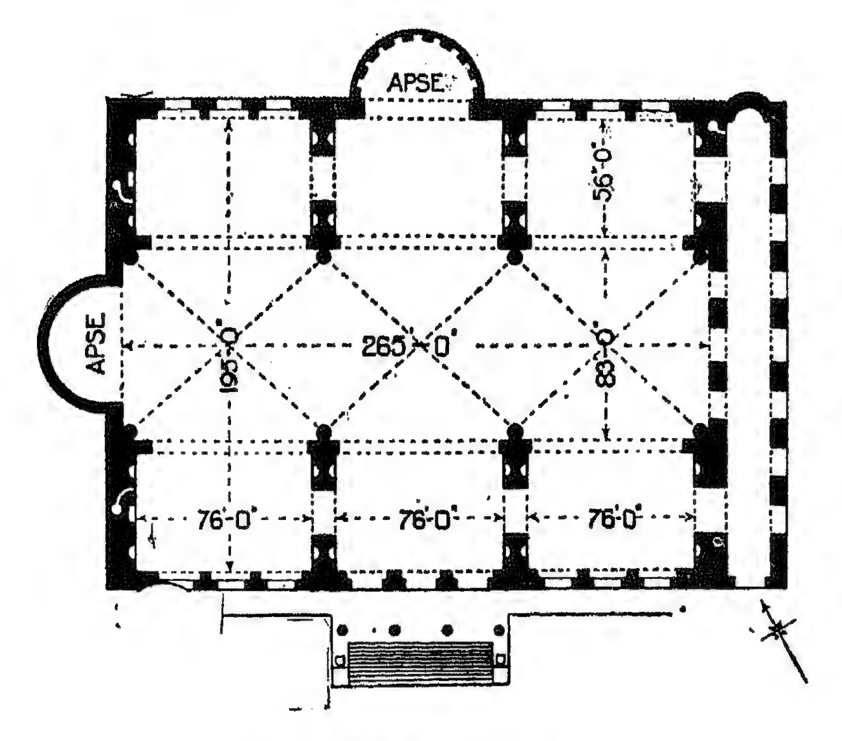
ش : ٢٧ ـ زخرف الصليب المعكوف



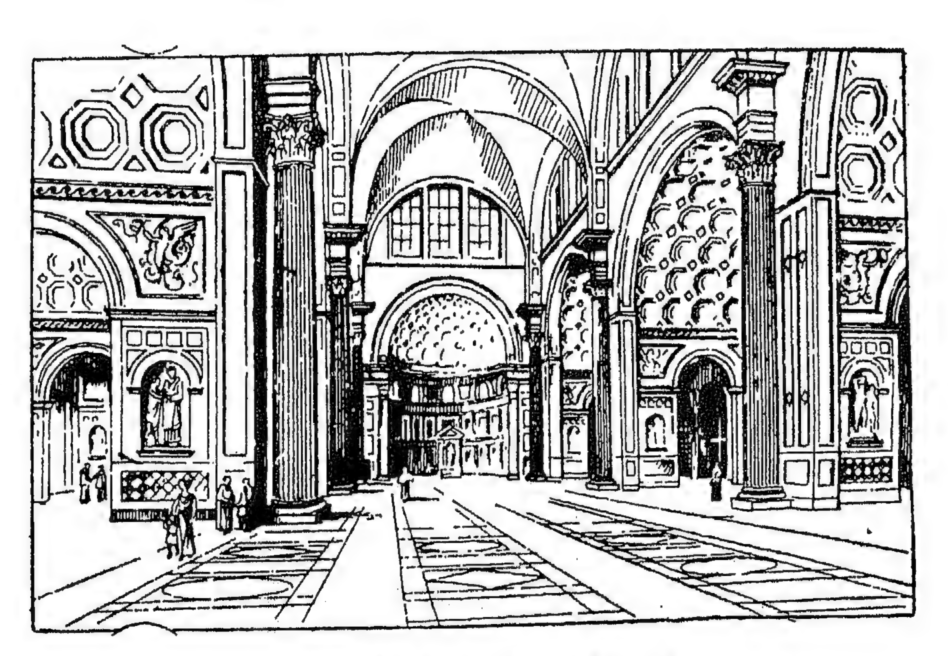
ش : ٢٨ ـ روما : بازيليكا تراجان (مسقط)



ش : ٢٩ ـ روما : بازيليكا تراجان (منظور داخلى)



ش : ٣٠ ـ روما : بازيليكا قسطنطين
(مسقط)



ش : ٣١ ـ روما : بازيليكا قسطنطين
(منظور داخلي)

الطراز الرومانى :

ولم يقتبس الطراز العربى الاسلامى وحدات أو عناصر أو تفاصيل معمارية أو زخرفية من التقاليد الهلينستية أو الرومانية بطريقة مباشرة ، بل كان الوسيط بينها هو الطراز البيزنطي الذى يمكن اعتباره قد ولد من الطراز الرومانى ، وقام على كثير من تقاليده وأخذ أغلب عناصره ووحداته منه بعد أن أدخل عليها أذواقا شرقيـــة • وكان هذا الطراز الرومانى بدوره لا يخرج ، كمـا ســبق القول ، عن أن يـكون مدرسة من أكبر مدارس الطراز الهلينى التى انتشرت فى المستعمرات الرومانية فى أوروبا وآسيا وافريقية • فقد وجدت عدة آثار منه فى انجلترا وفرنســا واسبانيا ، وفى آسيا الصغرى والشام ، وفى مصر وشمال افريقية كله حتى الأطلنطى •

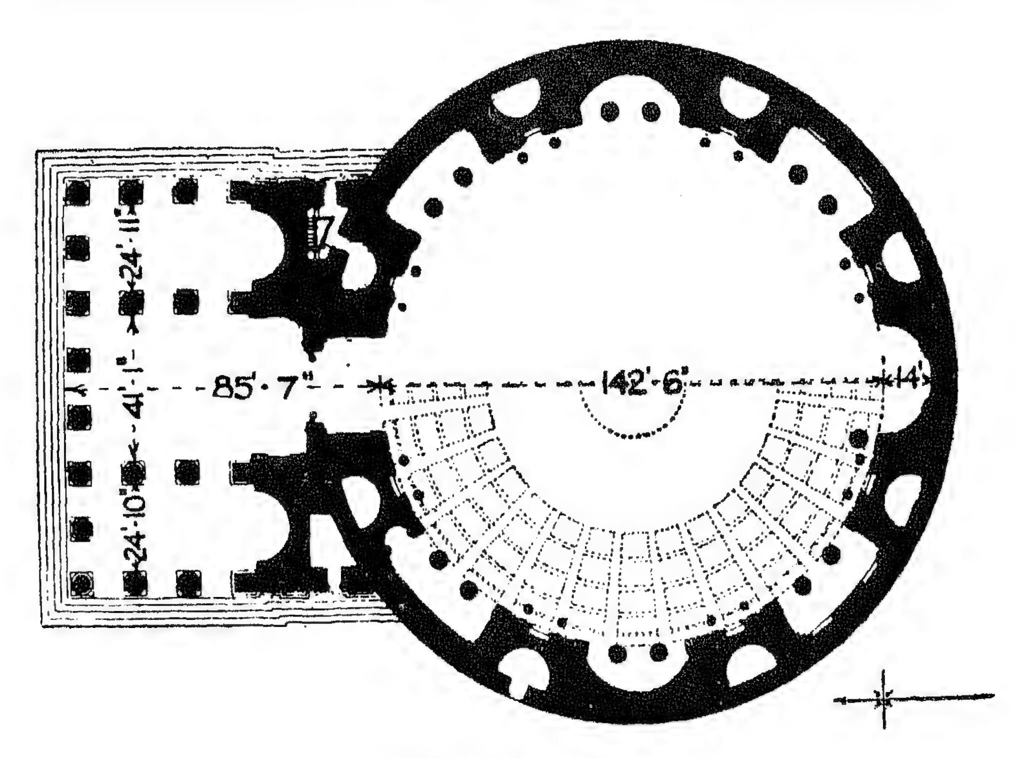
فلقد قامت المدرسة الرومانية عندما اتصل الرومان بالفنون الهلينية فى بلاد الاغريق نفسها بعد أن أغاروا على مقدونيا وفتحوها فى عام ١٦٨ ق•م• وتوغلوا فى فتوحاتهم، وأخذوا فى التهام بقية بلاد الاغريق ابتداء من عام ١٤٦ ق•م• ثم ساروا على سياسة نقل الفنانين والصناع الاغريق ومعهم تقاليدهم العريقة التى وصلت الى قمة نضـجها فى بلادهم الى البلاد الايطاليـة • ومن جهـة أخرى فقـد اتخـذ الرومان من بلاد الاغريق قاعدة للزحف على أقطار الشرق التى كانت ضمن امبراطورية الاسكندر من قبل ، وأدخلوا كثيرا منها تحت حكمهم • فاسـتولوا على آسـيا الصـغرى وعلى بلاد الشام ، ولـكنهم لم يتمكنوا من الاســتيلاء على العــراق وفارس فوقف امتــداد امبراطوريتهم عند حدود العراق • ومن جهة ثالثة تم لهم اخضاع شـمال افريقيـة كله من مصر الى الأطلنطى ، وأصبح البحر الأبيض المتوسط منذ القرن الأول قبـل الميلاد بحيرة رومانية تحيط به أراضيها وممتلكاتها من جميع الجهات[1] •

واعتمد الرومان على تخطيط أنواع العمائر الهلينية كالمعبد والمسرح وحلبـات السباق • ولا تكاد هذه الأنواع تختلف كثيرا فى العصر الرومانى عنها فى العصر الاغريقى الهلينى الا فى القليل من التفاصيل والعناصر •

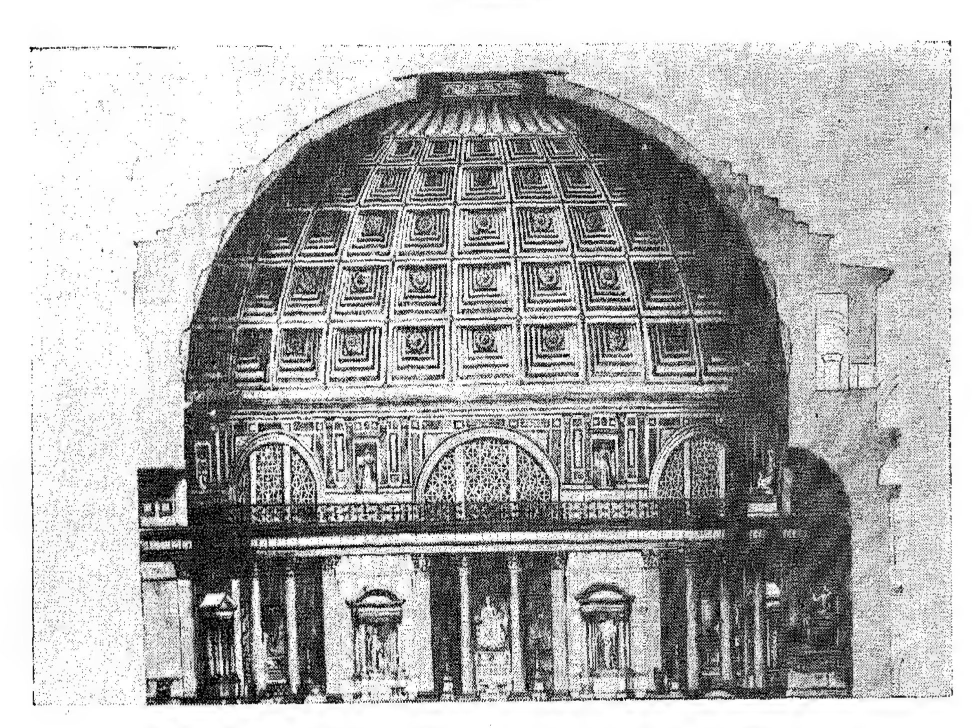
ولـكنهم أضافوا أنواعا من العمائر لم تكن معروفة أيام الاغريق أوحت بهـا نظم الحياة الاجتماعية والسياسية عندهم بعد نضج الدولة ورسـوخ أقدامها • ومن

---

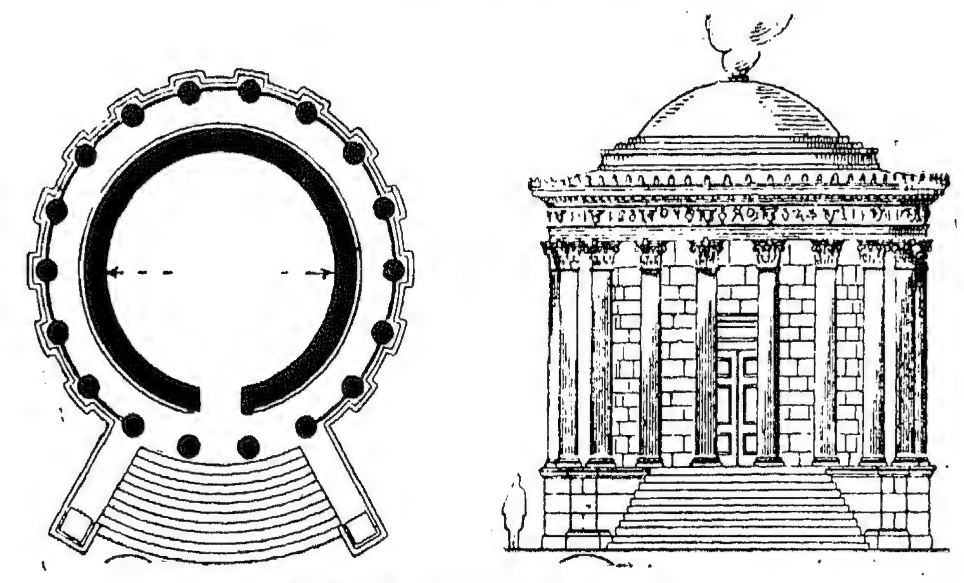
(1) Fletcher, pp. 173-174 ; Seaby, III, pp. 23-24.



ش : ٣٢ ـ روما : معبد البانثيون
(مسقط)



ش : ٣٣ ـ روما : معبد البانثيون



ش : ٣٤ ، ٣٥ ــ روما : معبد فيستا

ذلك نوع « البازيليكا » ، وهو يتكون من قاعة عظيمة تعقد فيها المحاكمات وتتم عقود التجارة والاتفاقات المالية بين جدرانها (ش : ٢٨ ــ ٣١) . ونوع البازيليكا هذا له أهمية خاصة من ناحية أن تخطيطه قد اتخذ للكنائس المسيحية فى أول الأمر بغير تعديل يذكر كما سيأتى شرحه .

واقتبس الرومان من الاغريق التخطيط الدائرى والمضلع لبعض معابدهم ومقابرهم مثل معبد الباشيون Pantheon فى روما (ش : ٣٢ ، ٣٣) [٢] ، ومعبد فستا Vesta فى روما (ش : ٣٤ ، ٣٥) [٣] وفى تيفولى (ش : ٣٦ ، ٣٧) [٤] . وكذلك معبد فينوس فى بعلبك ، الذى يؤرخ فى حوالى عام ٢٧٣ من الميلاد (ش : ٣٨ ، ٣٩) [٥] .

وهذا النوع من التخطيط الهندسى المنتظم هو النموذج الذى تطور منه تخطيط الكنائس والعمائر الدينية المسيحية والبيزنطية ذات المسقط المستدير أو المضلع من الأشكال الهندسية المنتظمة كما سيأتى ذكره .

---

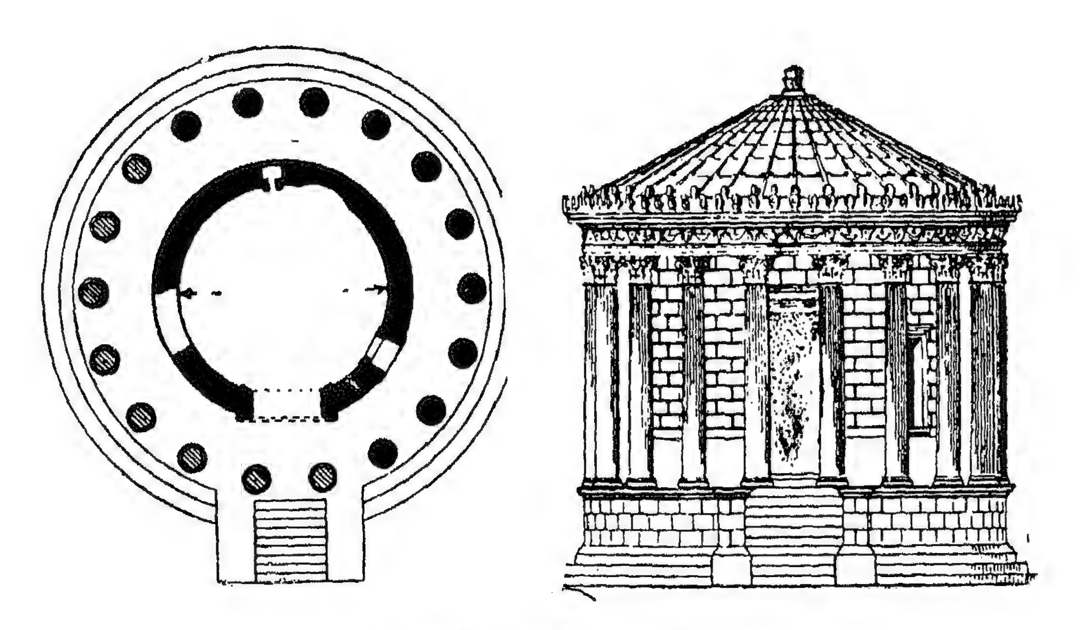
(٢) Fletcher, pp. 200-202 ; Springer, I, p.. 488, Fig. 950 ; Woermann, I, p. 479, Figf. 515.

(١) Fletcher, pp. 196-199 ; Springer, I, p. 493, Figs. 957-8 ; oWermann, I, p. 475, Fig. 511, Pl. 72.

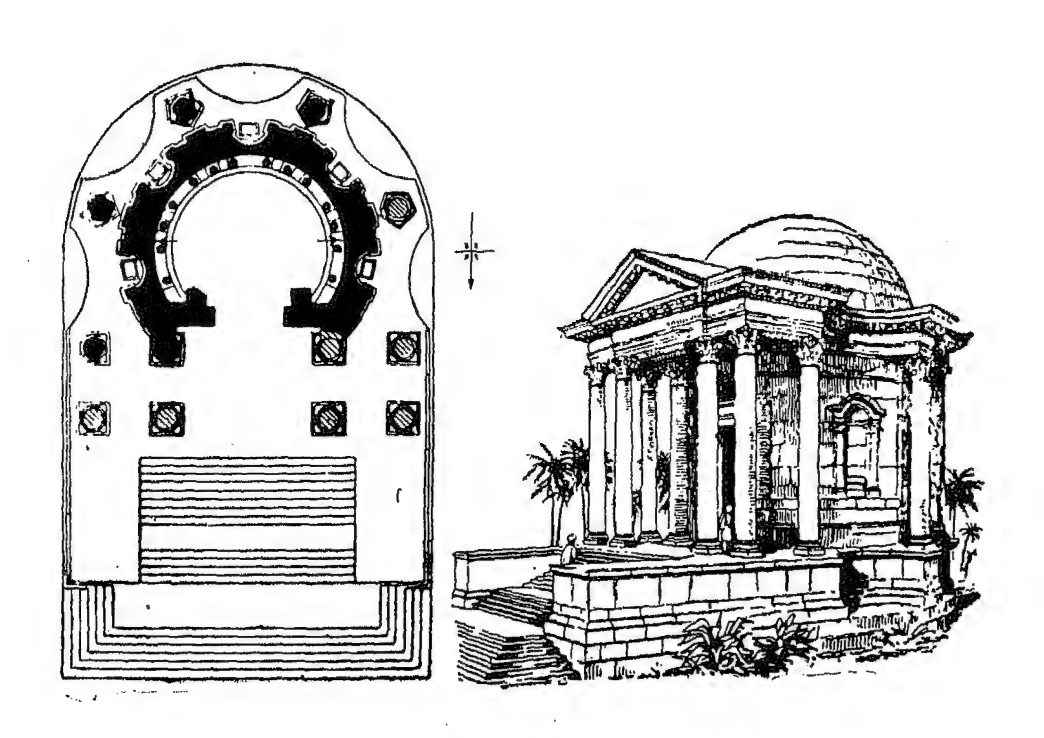
(٢) Fletcher, pp. 195, A and C.

(٣) Ibid., p. 195 D, F ; Woermann, I, p. 448, Fig. 488.

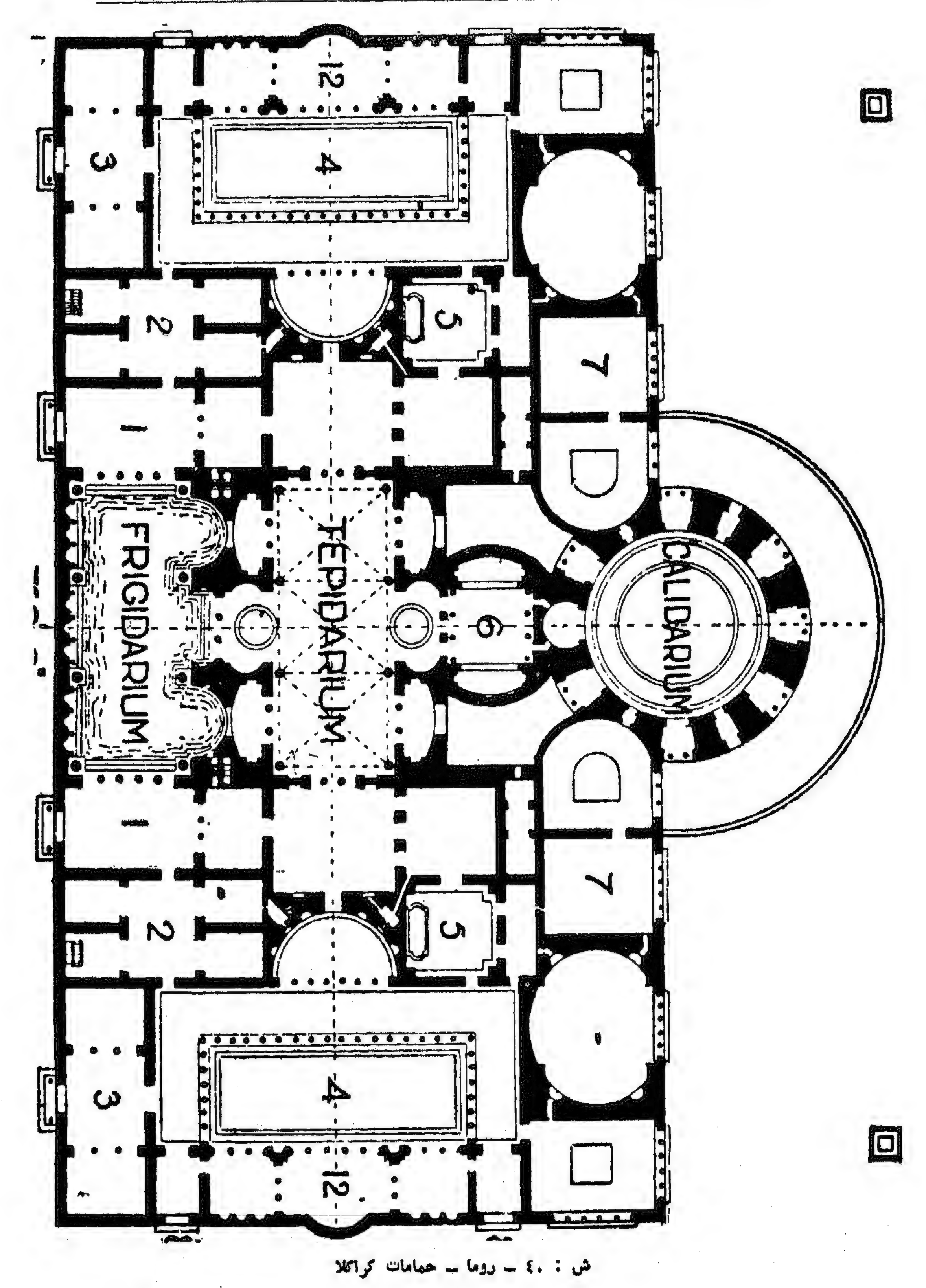
(٤) Fletcher, p. 195 G, H ; Springer, I, p. 525, Figs. 1015-6 ; oWermann, I, pp. 483-4, Figs. 519-520.



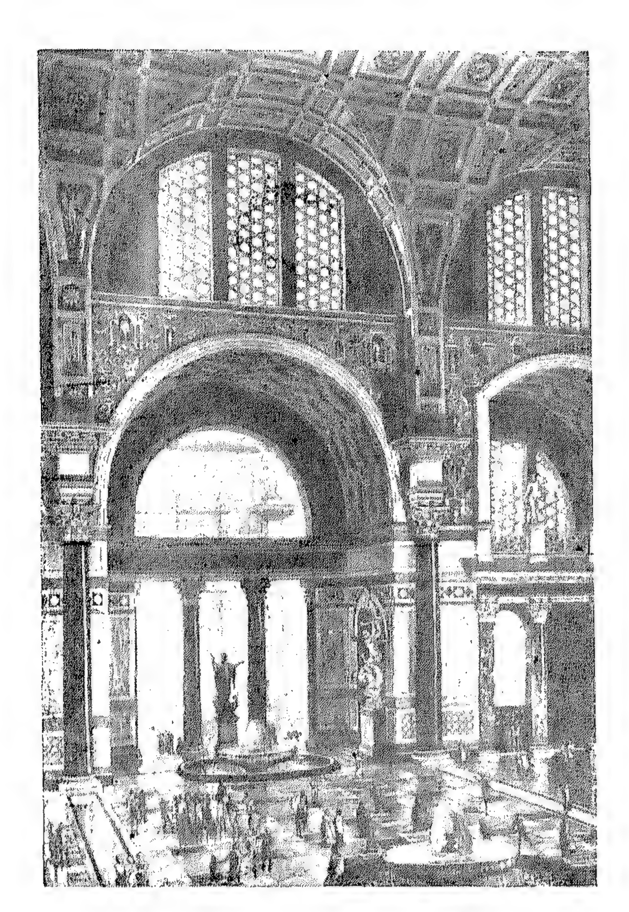
ش : ٣٦ ، ٣٧ ـ تيفولى : معبد فيستا
(مسقط وواجهة)



ش : ٣٨ ، ٣٩ ـ بعلبك : معبد فينوس
(مسقط وواجهة)



ش : ٤٠ ـ روما ـ حمامات كراكلا



ش : ٤١ ـ روما : حمامات كراكلا
(منظور داخلي)

وشيد الرومان الحمامات العامة ، ومن أمثلتها حمامات كراكلا فى روما (ش : ٤٠ ، ٤١) (١) • وكانت تخضع لنموذج مشترك فى التخطيط ، نواته ثلاث وحدات رئيسية هى : القاعدة الباردة أى ذات الجو العادى ، وتسمى بالانجليزية Apoditarium أو Frigidarium ثم القاعة الدافئة Tepidarium ، والثالثة هى القاعة الساخنة Calidarium • وكانت توزع فى سائر أنحاء المبنى الباقية وحدات أخرى لخلع الملابس وللرياضة والندوات تحيط بتلك القاعات الرئيسية ، فتتكون من الجميع كتلة بنائية كبيرة ، تغطى فيها وحداتها الأقبية الطولية والمتقاطعة • ويحيط بالبناء فضاء واسع من جهاته ، ثم يحيط بالجميع سور عظيم قد يلحق به وحدات معمارية ثانوية أخرى •

وعلى الرغم من أن الحمامات قد ظهرت فى العمارة العربية المبكرة ، واقتبست فيها فكرة الوحدات الثلاث وطريقة اتصالها ببعضها ، الا أنها قد خضعت للتقاليد الاسلامية الجديدة ، ويتضح ذلك فى قصير عمره (ش : ٤٢) (٢) وفى حمام الصرخ (ش : ٤٣) (٣) • وهما قصران صغيران فى بادية الأردن ينسبان الى العصر الأموى • وتبين من مقارنتهما بالحمامات الرومانية الفارق الكبير بين التصميم الاسلامى وما سبقه من أمثلة فى العصر الرومانى • أما الأمثلة المشابهة الموجودة فى الشام وتنسب الى ما قبل الاسلام فانها كانت تقوم بذاتها منفصلة بغير أن تلحق بمسكن مثلما حدث فى العصر الاسلامى • أضف الى ذلك أن نسبتها الى العصر البيزنطى لا تدعمها أدلة قوية (٤) •

***

وظهر نوع جديد من العمائر فى العصر الرومانى هو الملعب أو الأمفتياترو Amphitheatre الذى يختلف عن المسرح فى أنه كان يستخدم لحفلات المصارعة والمبارزة بين الرجال بعضهم البعض ، أو بينهم وبين الوحوش الضارية • وكان يرمى الى تلك الوحوش بمن أراد الأباطرة البطش بهم لعصيانهم أو لارتكابهم بعض الجرائم أو لاعتناقهم الدين المسيحى فى القرون الأولى من الميلاد • ومن أشهر أمثلته مبنى الكولوسيوم فى روما (٥) •

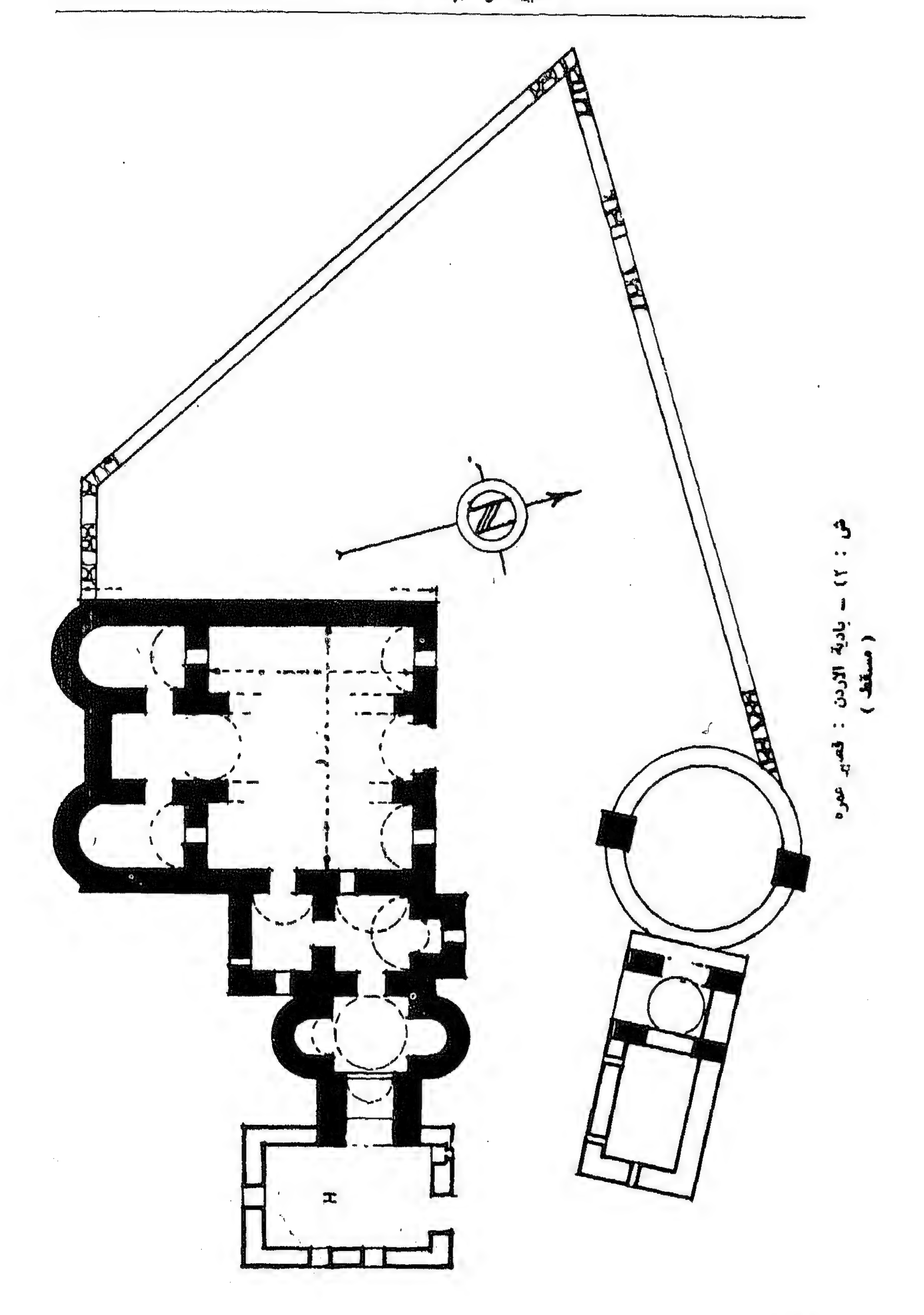
(١) Fletcher, pp. 203-206 ; Woermann, I, p. 477, Fig. 513 ; Springer, I, pp. 605-6, Figs. 979-8 ; Seaby, IV, Fig. 36.

(٢) E.M.A., I, pp. 253-267, Fig. 313.

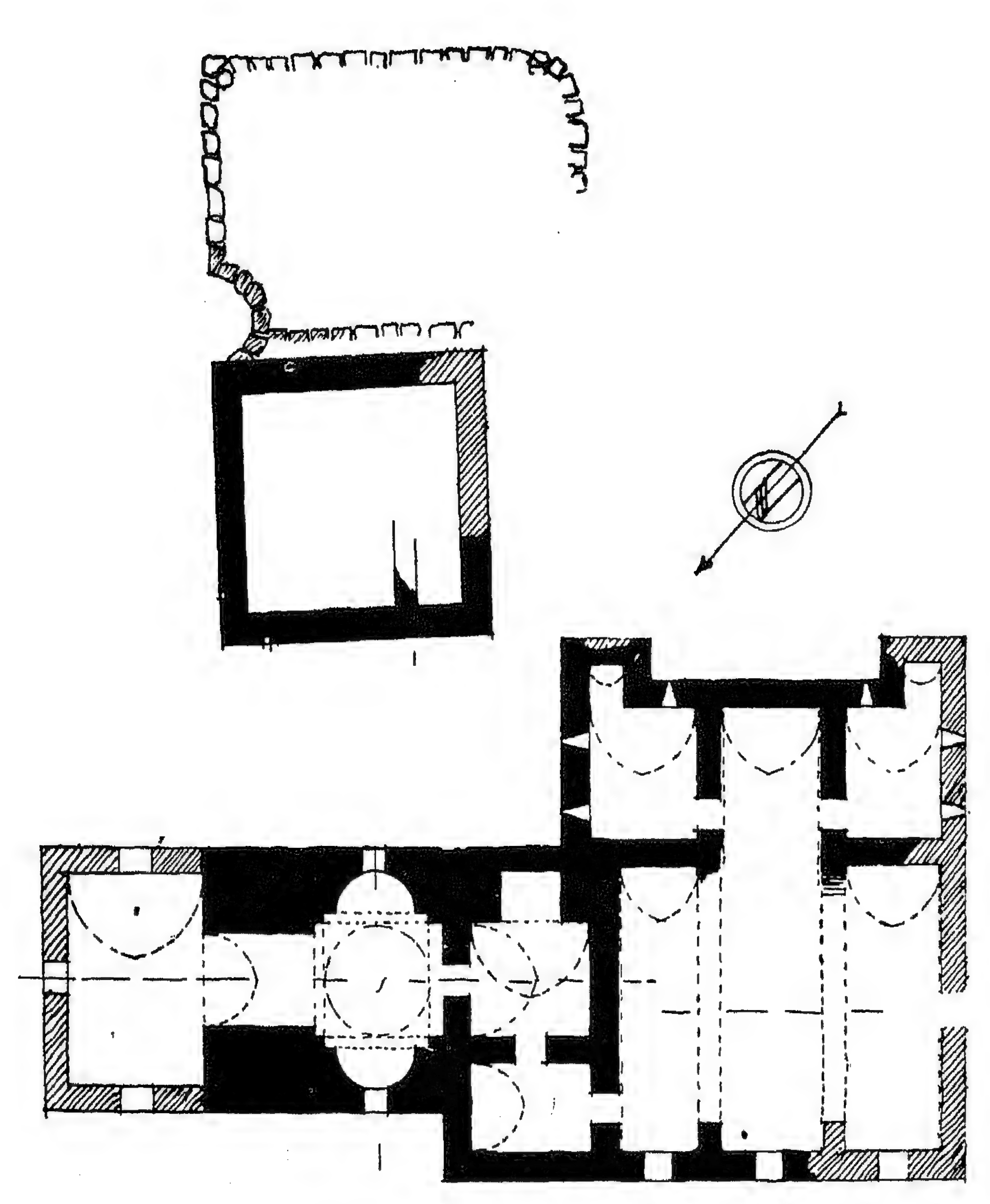
(٣) Ibid., pp. 271-76, Fig. 319.

(٤) Ibid., pp. 276-77, Figs. 321-22.

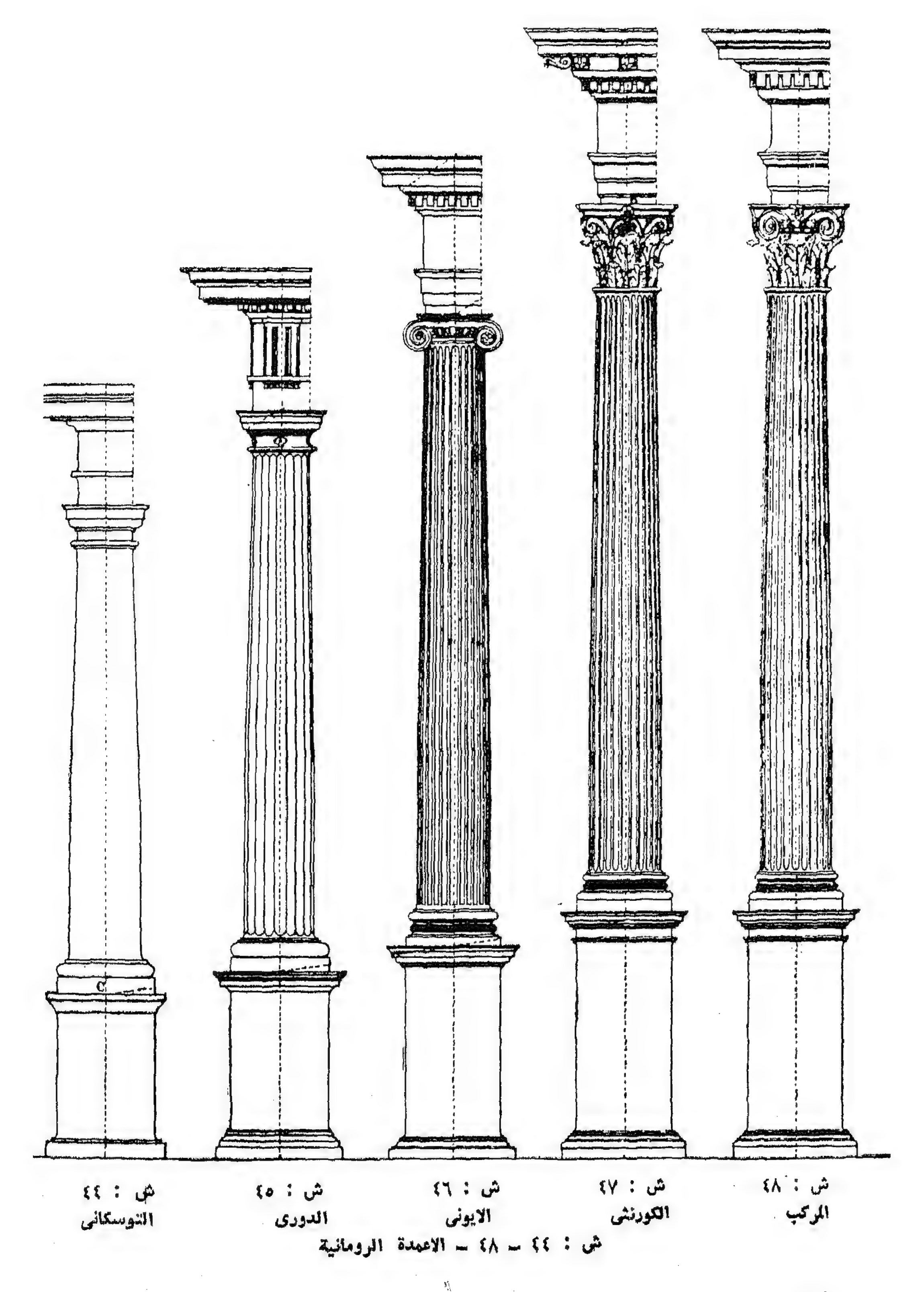
(٥) Fletcher, pp. 210, 214 ; Woermann, I, Pl. 71 a.



ش : ٢) ـ بادية الاردن : قصير عمره
(مسقط)



ش : ٤٣ ـ بادية الاردن : حمام الصرخ



ش : ٤٨ المركب — ش : ٤٧ الكورنثى — ش : ٤٦ الايونى — ش : ٤٥ الدورى — ش : ٤٤ التوسكانى

ش : ٤٤ – ٤٨ – الاعمدة الرومانية

وزادت عناية الرومان بحلبات السباق ، فأصبحت ذات اتساع كبير وفخامة أكثر مما كانت عليه أيام الاغريق نظرا لشغف الرومان بحفلات سباق المركبات وغيرها من مختلف أنواع الألعاب والسباق [1] ٠

وكثر تشييد النصب التذكارية على هيئة أقواس النصر من كتل بنائية ضخمة ، وذلك تخليدا لذكرى الأباطرة ورجال الدولة والقواد العظام والمناسبات السياسية أو غيرها[2] ٠ كما شيدوا لذلك الغرض التذكارى أيضا أبراجاً عالية عظيمة على هيئة أعمدة من الأنواع التى استخدمت فى العصر الرومانى ٠ وكان بداخل العمود منها سلم حلزونى يصعد الى سطحه حيث يرتفع تمثال من شيد له النصب[3] ، وغالباً ما يكون امبراطورا ٠ويوجد منها مثل بالاسكندرية هو المعروف بعمود السوارى ٠

وكانت تلك الأعمدة توضع فى أغلب الأحيان فى الساحات أو الميادين المفتوحة Forums المحاطة بصفوف الأعمدة والبائكات[4] ٠

وتغالى الرومان أيضا فى بناء القصور الفخمة التى كانت تضم كل ما تصوره المعماريون والفنانون فى ذلك العصر من أنواع الترف والزينة التى عثر على أمثلة منها فى المنازل الرومانية بعد الكشف عن آثار مدينة بومبايى Pompeii التى كانت قد اختفت تحت الأتربة والمواد المنصهرة والصخور التى قذفها بركان فيزوف فى سنة ٧٩ ميلادية ، ونرى منها نموذجا فى منزل فتى Vitii وغيره[5] ٠ وهو يختلف فى تخطيطه عن تخطيط المنازل فى العصر الاسلامى ٠

ومن أهم المبتكرات الرومانية بناء قناطر عالية لنقل المياه من مكان الى آخر على ارتفاع من الأرض ٠ ولا زالت توجد بقايا كثيرة منها ، فى ايطاليا وفرنسا [6] والأندلس[7] وأقطار شمال افريقية وغير افريقية وغير ذلك من الأماكن التى خضعت لحكم الرومان ٠ وشيدوا كذلك قناطر العبور فوق الأنهار والأودية ، وكان لهم فى ذلك

(١) Fletcher, p. 216 D.

(٢) Ibid., pp. 221-226 ; Woermann, I, Pls. 76, 79 ; Springer, I, p. 533, Fig. 1026 Seaby, IV, p. 33, Fig. 29.

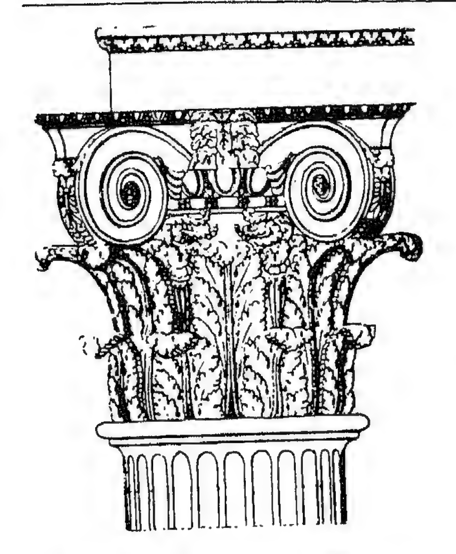
(٣) Fletcher, p. 228 ; Woermann, I, pp. 480, 510, Figs. 516, 542 ; Springer, I, pp.. 537, 518, 513, Figs. 1035, 1002, 989.

(٤) Fletcher, pp. 171-2, 181-5, 190.

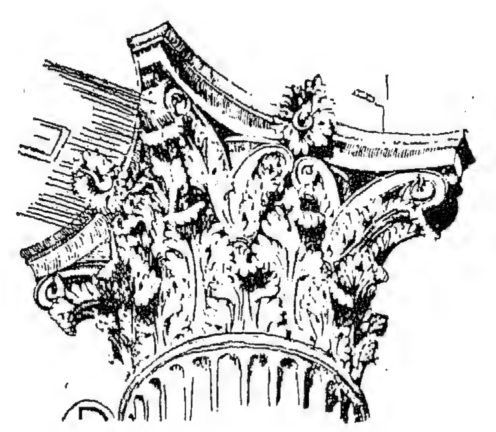
(٥) Ibid., pp. 230-235 ; Springer, I, 446-8, 452, Figs. 880-1, 884-6, 932, 934-40, 942, Pls. X-XI ; Woermann, I, Figs. 492, 494, Pls. 74-75.

(٦) letcher, p. 242 B ; Springer, I, p. 462, Figs. 902, 931.

(٧) Fletcher, p. 241 B.



ش : ٥٠ ـ تاج العمود الرومانى المركب



شكل : ٤٩ ـ تاج العمود الكورنثى الرومانى



ش : ٥١ ـ تاج العمود الرومانى ذو الاشكال الحية (تفصيل)

باع كبير[1] • ولعل العرب المسلمون قد اقتبسوا فكرة بناء قناطر المياه من بقايا القناطر الرومانية ، وبقى منها مثلان أو ثلاثة من العصر الاسلامى فى مصر •

كما بنى الرومان الحصون والقلاع ، ولا زالت توجد بقايا منها ومن أبراجها فى جهات من الشام •

***

العناصر والتفاصيل :

أما من ناحية العناصر والتفاصيل فقد أخذ الرومان كثيرا منها من الفنون الاغريقية ثم أدخلوا عليها أنواعا من التحوير والتصرف يتراوح مداها بين القلة والكثرة ، ولكنهم أضافوا عدة عناصر وتفاصيل أخرى استقوها من طرز العمارة فى الشرق الأوسط مثل الشام والعراق وفارس •

فقد اعتمد الرومان على طرز الأعمدة الاغريقية مع بعض التصرف فى نسبها وتفاصيل تتويجاتها Entablatures وحلياتها ، وفى زخارف وتفاصيل التيجان والقواعد ، الى غير ذلك ، وجعلوا لها طابعاً رومانيا[2] وهى : العمود الدورى (ش : ٤٥) والعمود الأيونى (ش : ٤٦) ، والعمود الكورنثى (ش : ٤٧ ، ٤٩)[3] ، ثم أضافوا اليها نوعين جديدين أحدهما « التوسكانى » (ش : ٤٤) ، وهو اشتقاق مبسط من العمود الدورى• وثانيهما العمود المركب Composite (ش: ٤٨ ، ٥٠) [4] ويجمع تاجه وقاعدته بين العناصر الرئيسية فى كل من الأيونى والكورنثى ، فأخذ من الأول حلزوناته الكبيرة وحلية البيضة والسهم أو البيضة واللسان التى كانت توضع بين الحلزونات ، ووضع كل ذلك فوق صفوف أوراق الأكانثاس التى يمتاز بها العمود الكورنثى • وامتد التصرف فى بعض الأحيان الى استبدال الحلزونات الكبيرة بعناصر من الكائنات الحية مثل الطيور أو الحيوانات أو أجزاء منها (ش : ٥١) [5] • وابتكر الرومان عنصرا جديدا بمثابة « كرسى » Pedestal مرتفع ترتكز عليه قاعدة العمود (ش : ٤٤ — ٤٨) •

---

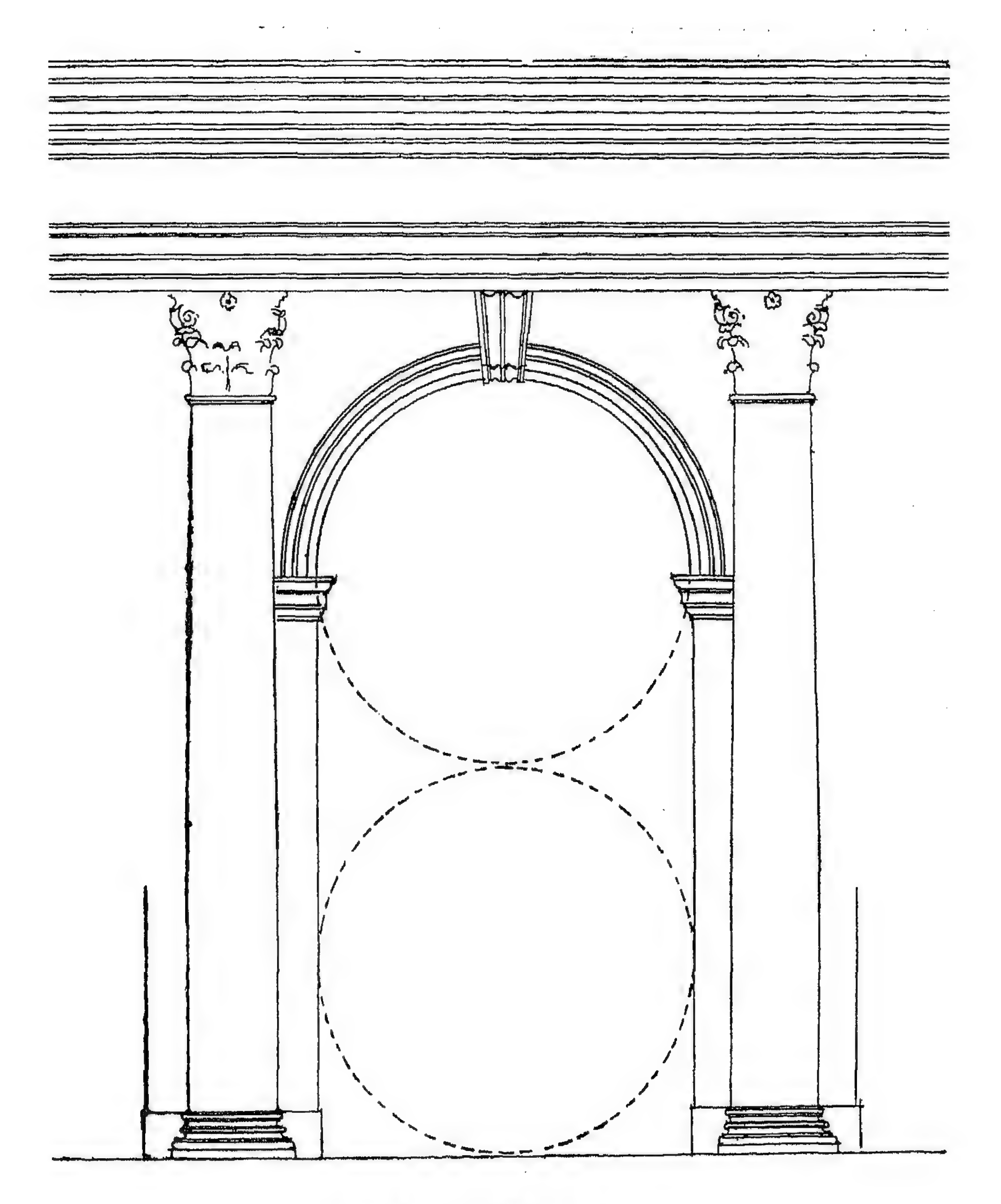
(١) Fletcher, pp. 238 B and C, 239, 241 E, 245 B and C.

(٢) Esquié, Pl. I ; Fletcher, pp. 160, etc...

(٣) Fletcher, pp. 191 D, 192 H, 195 B and E, 246 A and D ; Woermann, I, Figs 485-6 ; Traité, Pl. 30 ; Speltz, Pls. 35/9, 10, 36/3, 7 ; Springer, I, Fig. 959.

(٤) Fletcher, pp. 192 F, 223 G, 224 G ; Woermann, I, Fig. 487 ; Traité, Pl. 38 Speltz, Pl. 36/1.

(٥) Fletcher, p. 246 C ; Woermann, I, Fig. 514 ; D'Espouy, Pl. 89.



ش : ٥٢ ـ العقود الرومانية والاعمدة

وعلى عكس الاغريق الذين لم يستخدموا العقود للفتحات والأقبية للحجرات والقاعات فان الرومان قد أكثروا من استعمال العقود والأقبية الطولية والمتقاطعة • وكانت كلها من النوع ذى الشكل نصف الدائرى •

وكان التقليد السائد فى استعمال العقود أن تحملها أكتاف متعامدة الأسطح ، تتقدمها فى بعض الأحيان أعمدة ملتصقة أو منفصلة ، ترتفع بتيجانها عن قمة العقد لتتلقى التوتيجة التى تعلو الجميع (ش : ٥٤)[١] • ولم توضع العقود فوق الأعمدة مباشرة الا فى حالات قليلة تأتى أغلب أمثلتها من خارج ايطاليا ، ومنها مثل فى قصر ديوكليش فى مدينة سبالاتو[٢] • وكان يراعى دائما أن تفصل التوتيجة بين رجل العقد وبين تاج العمود • وبينما كان هذا الأسلوب قليل الانتشار فى حالات العقود فانه كان مألوفا فى حالات الأقبية المتقاطعة وتوجد منه عدة أمثلة فى روما ، منها : بازيليكا قسطنطين[٣] (ش : ٣١) والبانثيون (ش : ٣٣) ، وحمامات كراكلا (ش : ٤١) ، وحمامات ديوكليشن Diocletian[٤] • ويهمنا هذا الأسلوب بوجه خاص لأنه هو الذى انتشر فى الطراز البيزنطى ، ولكنه تميز عنه بوضع رجل العقد فى كثير من الأحيان فوق « وسادة » من كتلة بنائية تعلو تاج العمود ، فاحتلت « الوسادة » مكان التوتيجة (ش : ٩٤) ، ثم انتقل بعد ذلك الى الطراز العربى الاسلامى المبكر • ثم تطور الأمر الى اختزال الوسادة الكبيرة الى وسادة من الخشب قليلة السمك ، سنرى أقدم مثل منها فى مصر فى جامع عمرو بن العاص (ش : ٢٠٧)•

وكان يراعى فى العقود الرومانية أن يكون الارتفاع الى باطن العقد ضعف عرضه ، مما يعطى للفتحة والعقد الذى يعلوها نسبة معمارية رشيقة (ش : ٥٢) •

***

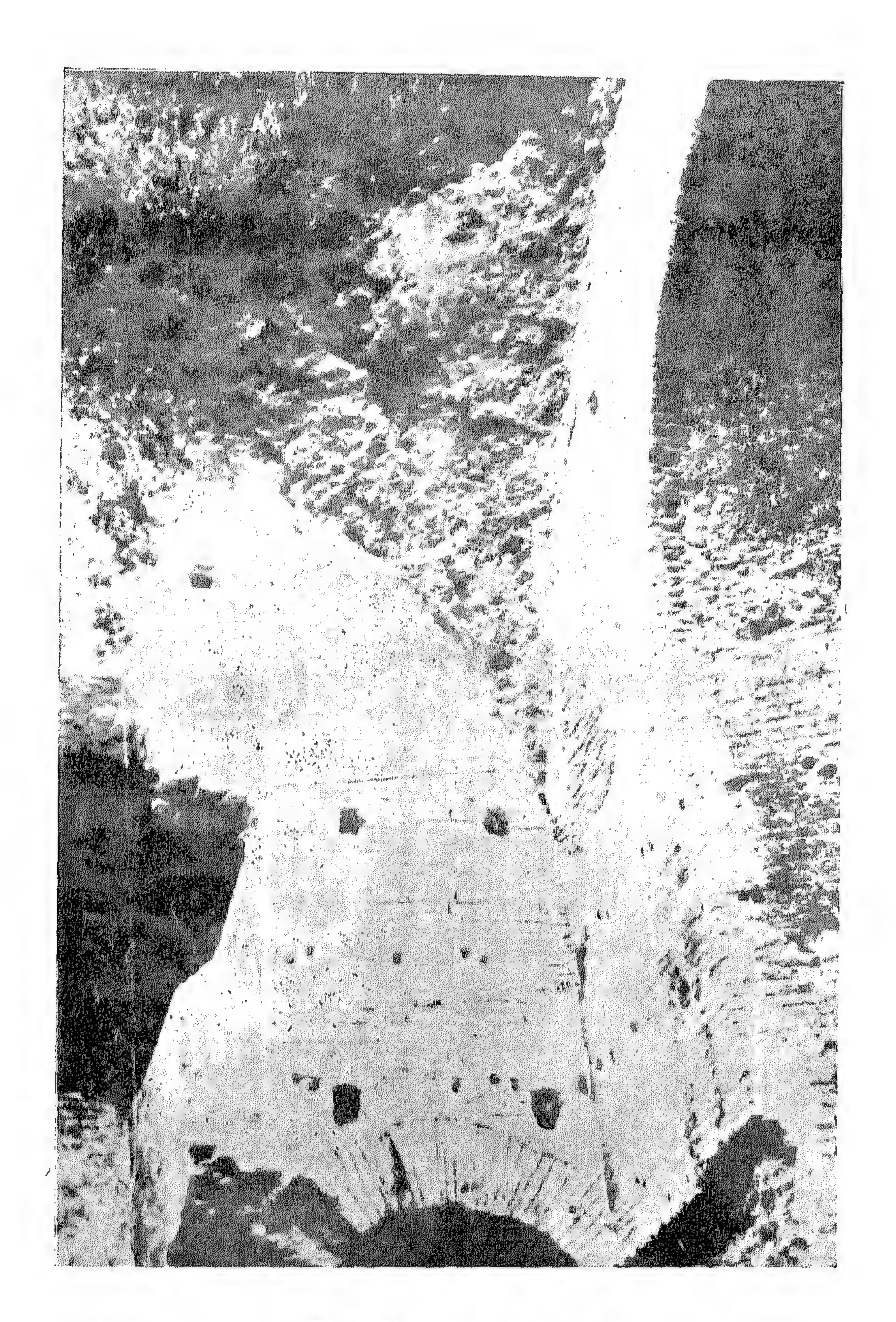
واستخدم الرومان القباب لتغطية المساحات الواسعة بالبناء بدلا من الخشب • ولكن كان يراعى أن تكون تلك المساحات ذات مسقط دائرى أو كثير الأضلاع مثل معبد البانثيون فى روما (ش : ٣٢ ، ٣٣) ، وذلك هربا من الأركان المثلثة التى تتخلف من وضع قبة فوق مكان مربع المسقط • والأمثلة القليلة الباقية من النوع الأخير يلاحظ فيها أن أضلاع المربعات كانت صغيرة بحيث يمكن ملء المثلثات المحصورة بكتل

(١) Traité, Pls. 19-20, 25, etc. ; Springer ,I, Fig. 882.

(٢) Fletcher, p. 231 A ; E.M.A., I, Fig. 418 (facing p. 344).

(٣) Fletcher, p. 200 C.

(٤) Fletcher, p. 207 A and H.



ش : ٥٣ ـ روما : مينيرفا ميديكا
منطقة انتقال مكونة من مثلث ركنى من الخرسانة

خرسانية (ش : ٥٣) [١] ، ولا يمكن والحالة هـذه اعتبارها مثلثات كروية بالمعنى الصحيح ، فلم يكن المهندسون قد توصلوا بعد الى الاهتداء اليها ، ولم يحدث ذلك الا بعد ميلاد المسيح ببضعة قرون • اذ يرجع أقدم أمثلتها (ش : ٨٧ ، ص : ١٤١) الى أواخر العصر الرومانى وأوائل المسيحى فى الشام[٢] ، حيث بلغ المعماريون الشاميون شأوا بعيدا فى طرق البناء بالحجر ، وتفننوا فى أساليب صناعته •

وكذلك انتشر فى العصر الرومانى اسـتخدام الأقبيـة الطولية والمتقاطعـة (ش : ٣١ ، ٤١) وتمتاز الأخيرة بمظهر رشيق متناسب ، ولذلك فقد زاد الاقبـال على استخدامها •

وكانت أغلب طرق التغطية السابقة معروفة فى الطرز المعمارية فى عصور الشرق القديم ، ولعل الرومان قد تأثروا بها ثم توسعوا فى استعمالها وفى تهذيبها ، وأنتجوا منها أمثلة متنوعة تمتاز بالرشاقة والقوة •

وفى أحيان كثيرة كانت تزين بواطن العقود والأقبية والقباب بحشوات غائرة من أشكال مربعة أو مثمنة (ش : ٣١ ، ٣٣) ، وتسمى فى الاصطلاح المعمارى الدارج « قُصع » ، جمع « قصعة » Coffer ، وقد ظهرت فى مصر منذ العصر الأيوبى فكرة زخرفة بواطن الأسقف الخشبية بالقُصع المثمنة والمسدسة • ولكن من المتعذر ايجاد أى صلة بين الفكرة الرومانية والأسلوب العربى الاسلامى فى مصر •

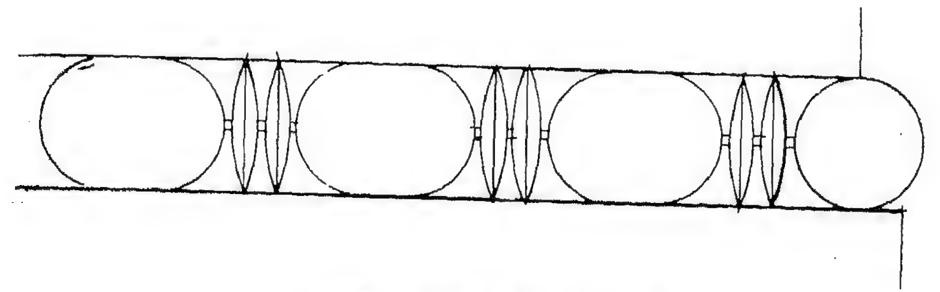
***

وقد انتقلت أغلب تقاليد الطراز الرومانى الى عمارة مستعمرات الدولة الرومانية فى الشرق الأوسط • غير أنه يمكن القول بأن منطقة الشام الكبيرة التاريخية ـ التى انقسمت الى أقاليم صغيرة هى : سوريا ولبنان والأردن وفلسطين ـ هى أكثر مناطق الشرق التى احتفظت بعدد كبير من الآثار الرومانية العظيمة ، وتوجد أمثلتها فى تدمر وبعلبك ودمشق وحوران وبُصرى والقدس وغيرها • ولازال الكثير منها قائما بفضل جودة أنواع الأحجار التى شيدت بها ، وبفضل مهارة الصناع الشاميين فى قطع الحجر وتسويته وبنائه • غير أننا نلاحظ فيها وضوح انعكاسات وأذواق واتجاهات فنية محلية خاصة بتلك البـلاد ، ويتجلى ذلك فيما تصرف فيه الفنـانون المحليون من التخطيطات والتفاصيل والعناصر •

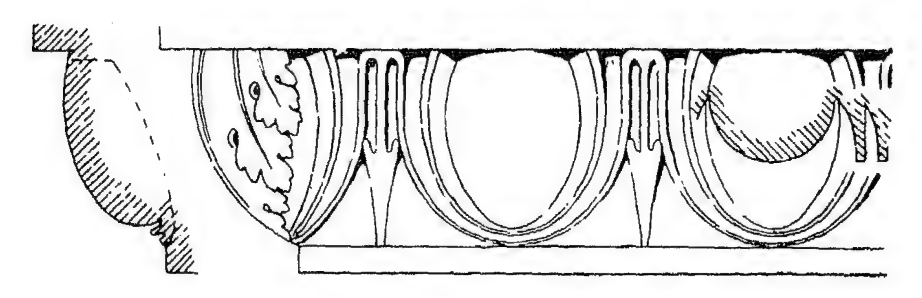
***

(١) Rivoira : Moslem Architecture, p. 237, Fig. 210.

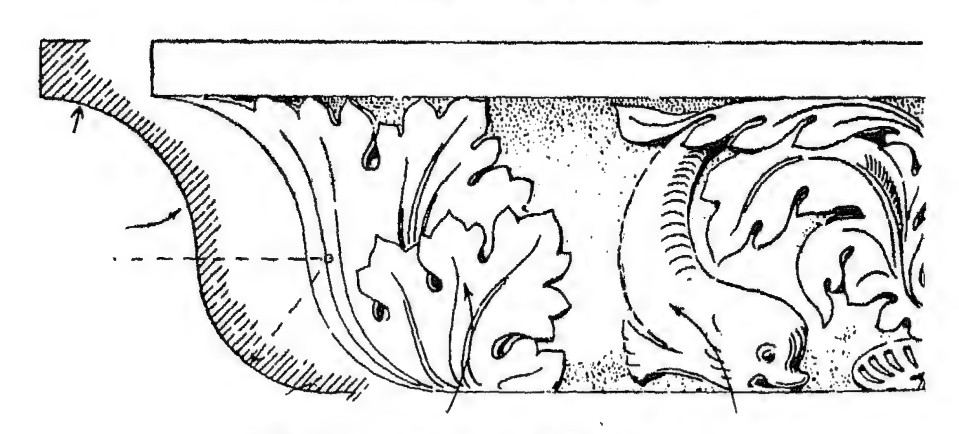
(٢) E.M.A., I, pp. 304-312, Figs. 372-80.



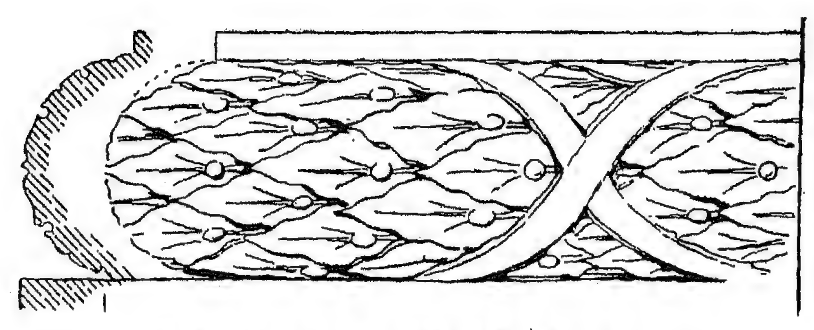
ش : ٥٤ ـ السبحة من خرز وأقراص



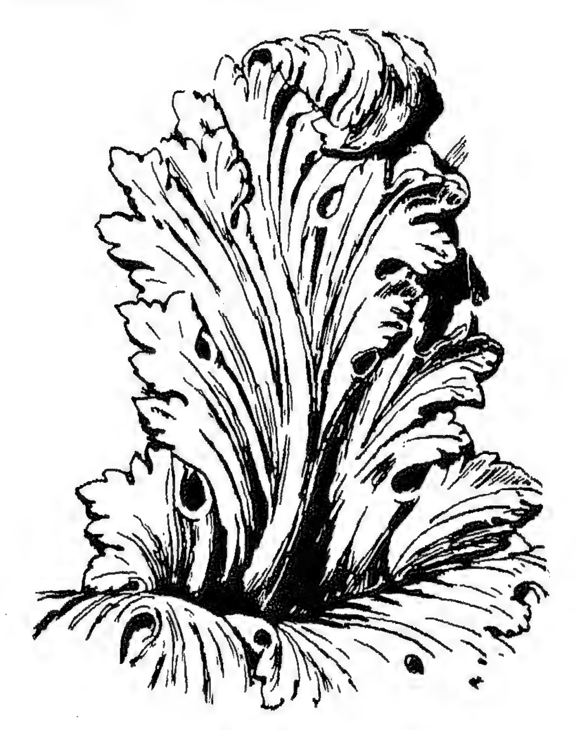
ش : ٥٥ ـ حلية البيضة والسهم



ش : ٥٦ ـ الحلية الكأسية والاكانثاس والدولفين



ش : ٥٧ ـ حلية الخلخال وزخرف الزيتون واوراقه



ش : ٥٨ ــ ورقة الاكانثاس

واستمر الفنانون الرومان يستخدمون عناصر كثيرة من الزخارف الاغريقيــة بأنواعهــا من معمــارية (ش : ٥٤ ــ ٥٧) [١] ، وكائنات حيــة وهندســية وبنائية ، ولكنهم أدخلوا عليها تحويرا وتصرفا فى أشكالها بطريقتهم الخاصة • ثم أضافوا اليها من عندهم عناصر أخرى • اذ نشاهد فى العناصر النباتية فى الطراز الرومانى فى البلاد المختلفة وفى الشام بوجه خاص أن سجل عناصرها قد ازداد عدده باضافة أنواع الثمار والفاكهة المختلفة كالرمان والصنوبر وسنابل القمح وأوراق العنب وعناقيدها الى غير ذلك [٢] •

ولعب عنصر الأكانثاس دوراً رئيسياً هاماً بين تلك العناصر (ش : ٥٦ ، ٥٨) [٣] ، اذ انتشر استعماله بشكل واسع وتدخل فى أغلب الزخارف ، واشتقت منــه ومن جزئياته عناصر زخرفية متعددة مثل الكؤوس والعروق المتموجة وغيرها [٤] •

(١) Fletcher, p. 164 B, F, G. L.

(٢) Seaby,(IV, Pl. V ; Springer, I, Figs. 987, 945.

(٣) Fletcher, pp. 138 B-E ; 246, etc., Seaby, IV, Fig. 24 ; Woermann, I, Fig. 547 ; Springer, I, 916-7 ; Speltz, Pl. 38/6-7 ; D'Espouy, p. 123.

(٤) E.M.A., I, Figs. 122-130 (pp. 180-1).

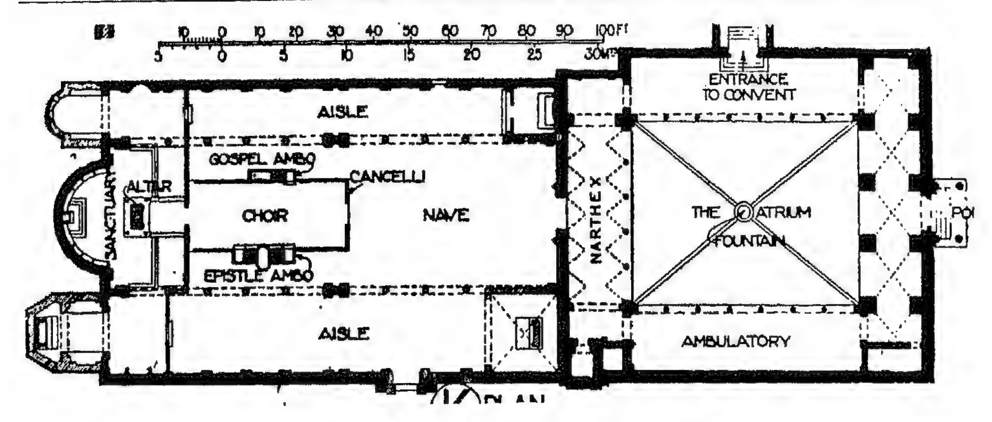
الطراز المسيحى والبيزنطى :

على الرغم من ميلاد المسيح ثم قيامه بنشر الدعوة الى المسيحية ، وانتقال دعوته من الشرق الى ايطاليا نفسها عن طريق رسله وعن طريق الرومان الذين كانوا يستعمرون الشرق فى ذلك الوقت ، على الرغم من ذلك فان العمارة والفنون الرومانية لم تتأثر بتلك الدعوة طوال القرون الأربعة الأولى من الميلاد فقد بقيت جميع تلك التقاليد الرومانية مزدهرة الى القرن الرابع الميلادى تقريبا ، ثم بدأت تتأثر بظهور المسيحية فى خطوات بطيئة • غير أنه لم يتضح هذا التأثير الا بعد قرنين آخرين • وكان لشعوب الشرق الأوسط أكبر الفضل فى انتاج الطراز البيزنطى فى مستعمرات الدولة الرومانية الشرقية ، حتى وصل من قوة ازدهاره أن زحف الى الدولة الرومانية الغربية التى بقيت فى ايطاليا •

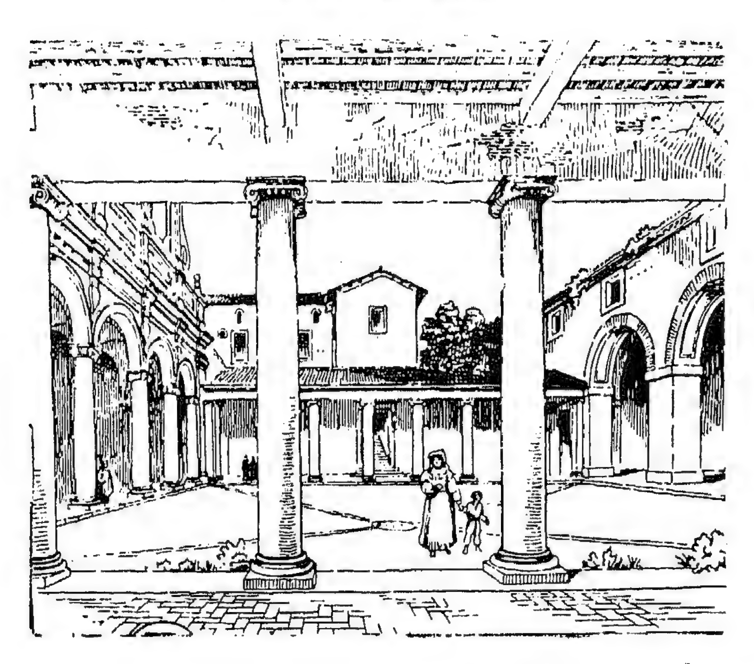
غير أن المسيحيين عانوا فى أول الأمر ألوانا من الاضطهاد والعذاب والضغط أكثر من ثلاثة قرون من ميلاد المسيح حتى عام ٣١٣ ، حين أعلن تصريح مدينة ميلانو بالاعتراف بالمسيحية دينا ، له من الحقوق مثل ما لغيره من الأديان ، ثم زاده تدعيما أن أعلن الامبراطور قسطنطين فى عام ٣٢٦ أن المسيحية هى الدين الرسمى للدولة الرومانية • وبذلك أصبح فى مقدور المسيحيين أن يسفروا عن أنفسهم وأن يتخذوا طريقهم نحو تكوين حضارة لهم ، بعد أن كانوا يقومون بطقوسهم الدينية ويعقدون اجتماعاتهم فى الخفاء والتستر ، خوفا من بطش الرومان الوثنيين وتنكيلهم بهم ، بينما كانوا يعيشون فى حياتهم العادية طوال تلك القرون وهم محاطون بنفس الظروف التى كانت تسود المجتمع الرومانى فى البلاد الايطالية وفى مستعمراتها خارج تلك البلاد [١] •

كان من نتائج ذلك أن اعتمد المسيحيون كل الاعتماد على التقاليد الرومانية فى العمارة من حيث التخطيط والتفاصيل ، أى من حيث الجوهر والمظهر معا • فاتخذت تخطيطات الكنائس المسيحية الأولى من نماذج البازليكا الرومانية كما هى بغير تغيير كبير ، سواء كان ذلك فى البلاد الايطالية أو فى خارجها ، ولهذا أمثلة كثيرة منها : كنيسة سانت كليمانت فى روما التى أعيد بناؤها فيما بين عامى ١٠٩٩ ، ١١٠٨م على التخطيط القديم الذى كانت قد شيدت عليه فى الوقت المبكر من ظهور المسيحية

(1) Fletcher : A History of Architecture on the Comparative Method, pp. 252-302, (London, 1961) ; Seaby : Art in the Life of Mankind, vol. IV, pp. 67-89, (London, 1931) ; Rice (T.) : Byzantine Art (1954) ; Speltz and Spiers : The Styles of Ornament (1910), pp. 114-136 ; Hamilton (J.A.) : Byzantine Architecture and Decoration (1933) ; Dalton (O.M.) : East Christian Art (1925).



ش : ٥٩ ، ٦٠ — روما : كنيسة سانت كليمانت
(مسقط ومنظور جهة الفناء)

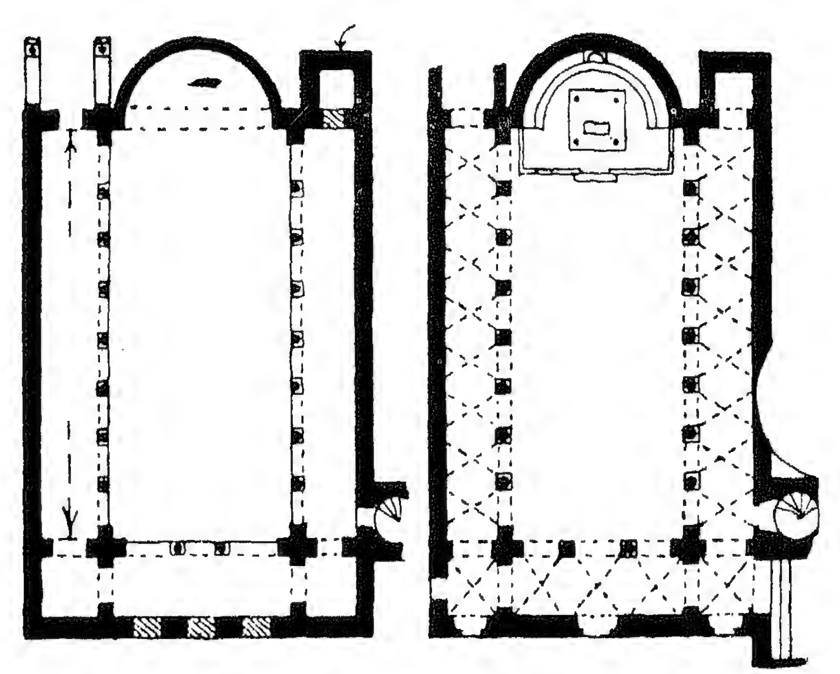


(ش : ٥٩) [1] • ومثل كنيســة القــديسة ماريا ماجيورى S. Maria Maggiore فى روما (٤٣٢ م) التى بناها البابا سكستوس الثالث ، وهناك من الأدلة ما يوضح انها كانت فى الأصل بازيليكاوثنية [2] • ومنها كنيسة سـانت انيزى خارج السـور فى روما S. Agnese fuori la mura (٦٢٥ — ٦٢٨ م) التى كان قد أسسها قسطنطين فى عام (٣٢٤ م) فوق قبر سانت أنيزى (ش : ٦١ — ٦٣) [3] ، ومنها كنيسة سانت

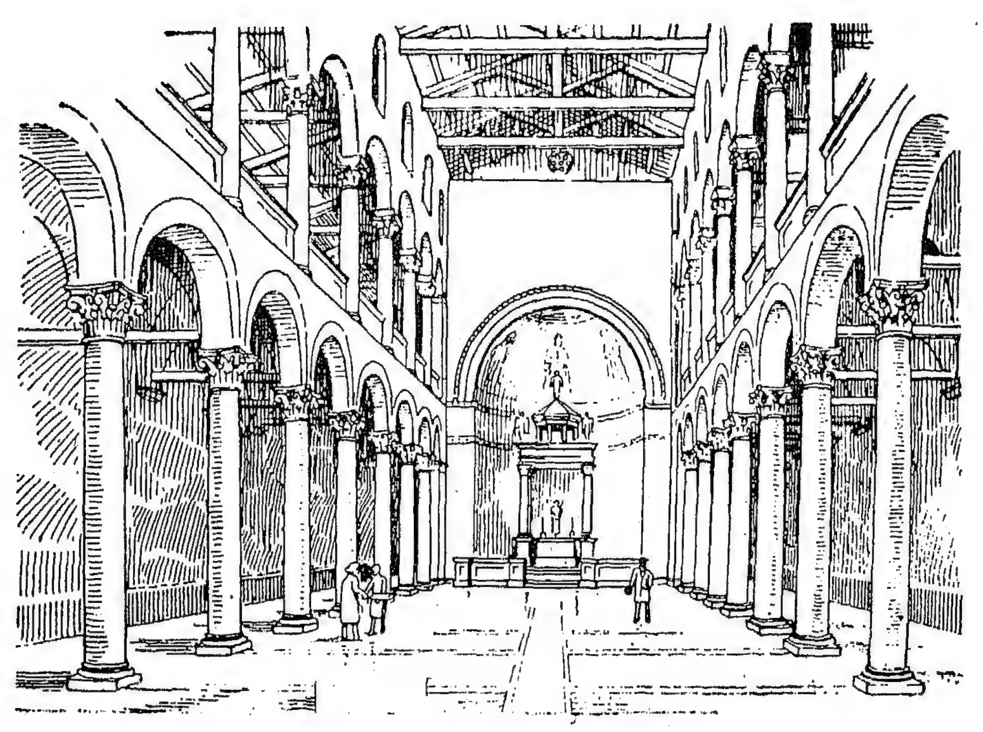
(1) Fletcher, pp. 255 J-K, 256 A, 258, 261 ; Seaby, pp. 70-71, Pl. X ; Springer, II, pp. 23, 24, Figs. 27-28 ; Woermann, vol. 3, p. 42.

(2) Seaby, IV, pp. 69-70 ; Dalton, pp. 233, 271-2 ; Woermann, III, Pl. 10 a ; Springer, II, pp. 22, 28 ; Fletcher, pp. 256 B, 261, 267 B.

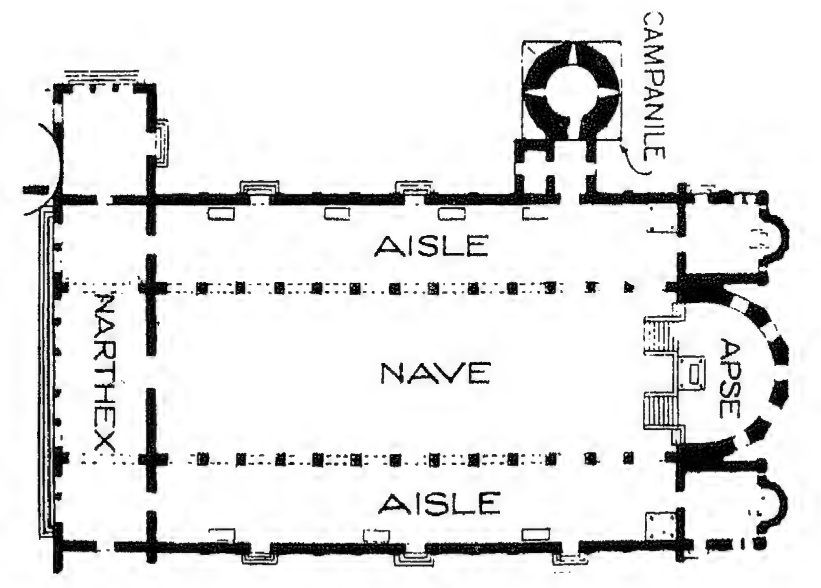
(3) Seaby, IV, p. 69 ; Springer, II, p. 29, Pl. I ; Woermann, 3, pp. 28, 43 ; Fletcher, pp. 261, 261, 264 A and E, 267 A ; Hamilton, 44-5.



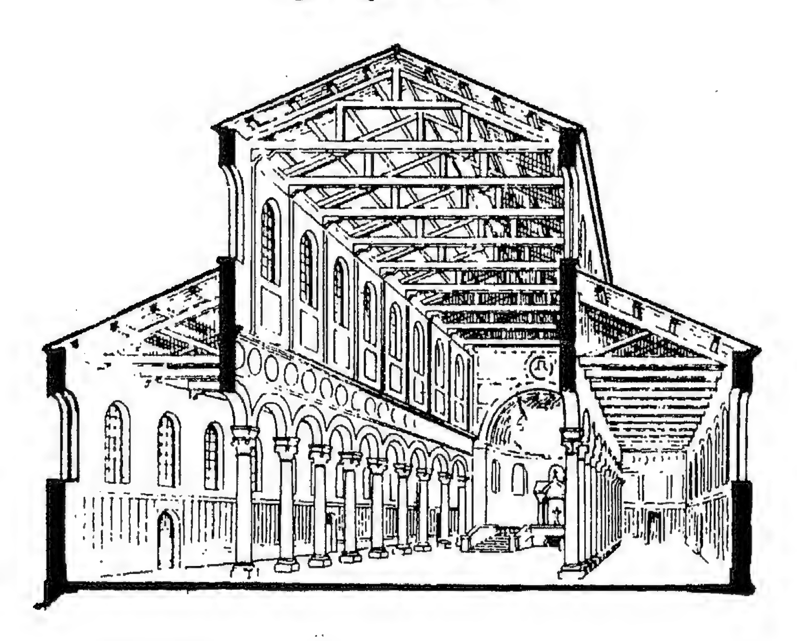
ش : ٦١ ، ٦٢ ـ روما : كنيسة سانت انييزى
(الدور الارضى والدور العلوى)



ش : ٦٣ ـ روما : كنيسة سانت انييزى
(منظور داخلى)

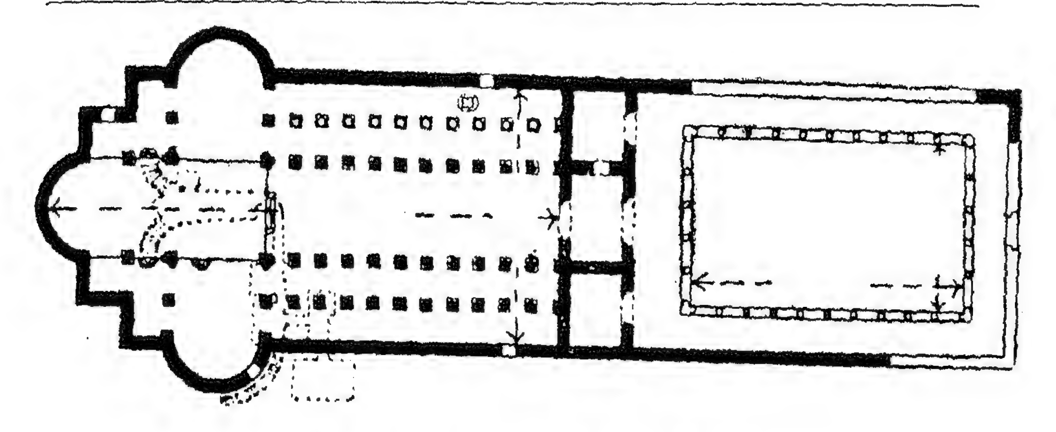


ش : ٦٤ ، ٦٥ ــ رافنا : كنيسة القديس ابو ليناري .
(مسقط ومنظور داخلى)

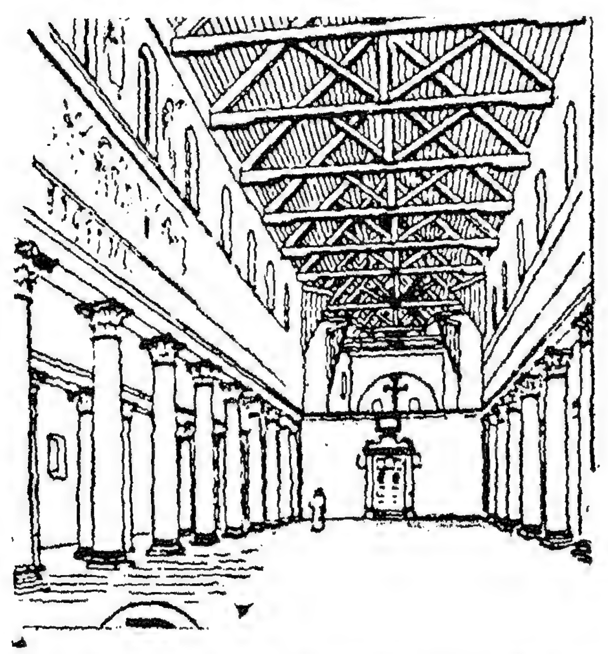


أبوليناري فى مدينة رافنا S. Appolinare in Classe (٥٣٤ ــ ٥٣٩ م) (ش : ٦٤ ، ٦٥) [١] ، الى غير ذلك من الأمثلة .

(١) Seaby, IV, p. 71, Pl. XI ; Dalton, pp. 277-78 ; Woermann, 3, p. 46, Figs. 32, 50 ; Springer, II, pp. 43, 51, 55, Fig. 50 ; Fletcher, 252, 262, 264 F and K, 267 E, H and J ; Hamilton, pp. 42-43, Pls. XXIV, XXVI.



ش : ٦٦ - بيت لحم : كنيسة الميلاد (مسقط)



ش : ٦٧ - بيت لحم : كنيسة الميلاد (منظور داخلى)

كما يوجد أمثلة منها فى الشام مثل كنيسة الميلاد Nativity فى بيت لحم، كان أسسها قسطنطين فى سنة ٣٣٠ م فى الموضع الذى ولد فيه المسيح ، وأعيد بناؤها بين عامى ٥٢٧ - ٥٦٥ م (ش : ٦٦ ، ٦٧) [1] ، وهى احدى الأمثلة الكثيرة من الكنائس البازيليكية فى منطقة الشام شيدت بين القرنين الرابع والسابع ، ومنها أيضا كنيسة قلب لوزه ، وشيدت فى القرن السادس[2] .

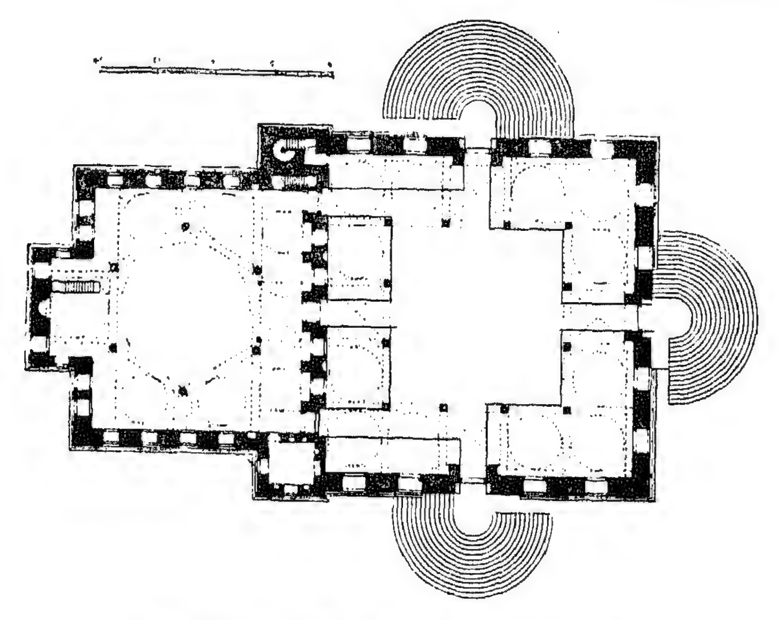
(1) Dalton, p. 132, ft. n. 4 ; Woermann, vol. 3, p. 27, Taf. 13 b ; Springer, II, p. 85 ; Fletcher, pp. 260 A-D, 262 ; Hamilton, p. 78 ; Rivoira, pp. 16, 49, 54, 104, 107, 109, 278, Fig. 35.

(2) Dalton, p. 131 ; Springer, II, Fig. 36 ; Woermann, vol. 3, p. 33 ; Fletcher, pp. 260 H-N, 265.

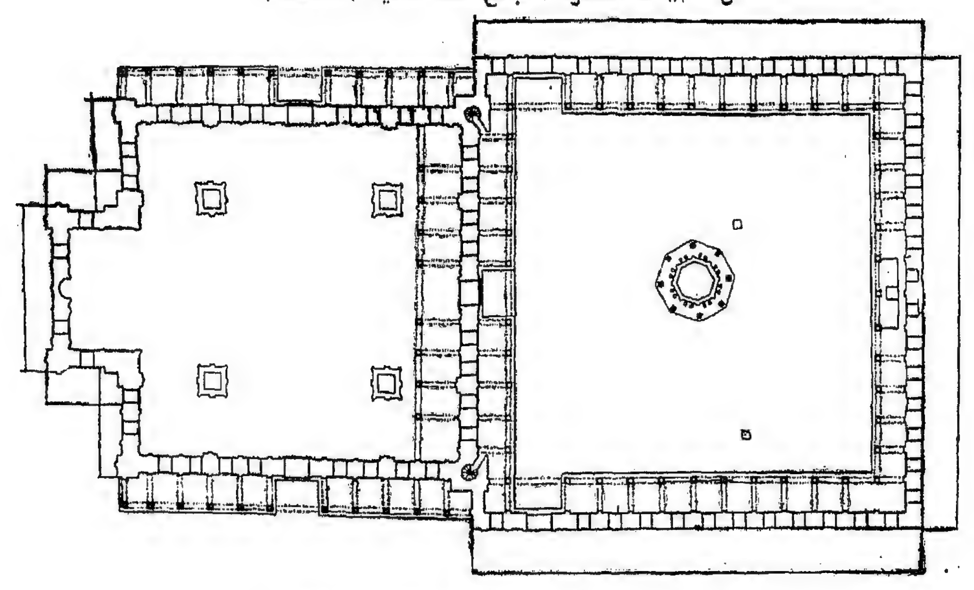
وتشترك أغلب الكنائس البازيليكية فى العصر المسيحى المبكر فى كل من ايطاليا والشام بأن تخطيطها يتكون من مستطيل يتوسطه مجاز عريض بطوله ، وينتهى فى صدره بحنية كبيرة ، ويكتنفه فى كل جانب رواق أو رواقان كل منهما أضيق فى العرض من المجاز الأوسط وأقل منه فى الارتفاع ، مما يسمح بفتح نوافذ عليا على جانبى المجاز الأوسط . وفى كثير من الأحيان كان يتقدم الكنيسة فناء مكشوف Atrium تحيط به سقيفة فى كل جانب من جوانبه الأربعة وتفتح عليه من خلال بائكة (ش : ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٦ ، ٧٠) . وفى أحيان أخرى تتقدم الكنيسة سقيفة مدخل مستعرضة Narthex (ش : ٧٠) . وفى جميع الحالات تقريبا كان يشيد برج للنواقيس فى ركن أو جانب من الكنيسة ، وأحيانا كان يشيد لها برجان كما هو واضح فى بعض الأمثلة السابقة .

ويهمنا أن نلفت الأنظار الى ذلك النموذج من تخطيط الكنائس المسيحية المبكرة والبيزنطية ، والذى يوجد فيه فناء Atrium يتقدم الكنيسة نفسها ، وتتصل به من خلال أبواب صغيرة وتطل عليه من خلال نوافذ وضعت فى الجدار الذى يفصل الفناء عن الكنيسة ، فان هذا التخطيط الذى ظهر قبل قرنين أو ثلاثة من ظهور الاسلام لم يكن له أى تأثير على تخطيط المساجد فى العصر الاسلامى منذ أول حلقة فى تطورها حتى القرن السادس عشر الميلادى ، أى طوال عشرة قرون ، وهو التخطيط الذى يتكون من الصحن الأوسط المحصور داخل الظلات المحيطة به ، وفى أحوال قليلة كانت توضع حواجز خشبية من المشربيات أو أبواب خشبية كبيرة تملأ عقود البائكات التى تفصل ظلات القبلة عن الأفنية ، وبخاصة فى الأقطار الاسلامية التى يميل جوها الى البرودة الشديدة فى أثناء الشتاء .

ولم يؤثر ذلك النموذج من تخطيط الكنائس فى العصر المسيحى المبكر والعصر البيزنطى على المساجد الا فى العصر العثمانى ومنذ فتح القسطنطينية . ذلك أن تخطيط المساجد العثمانية قد أصبح يخصص فيه مكان الصلاة على هيئة مساحة مربعة كبيرة يتوسطها مضلع أو مربع ، تعلوه قبة فى الوسط تماما . واستبدلت البائكة المفتوحة التى كانت تطل على الصحن بجدار سميك لا يوجد به سوى أبواب ونوافذ صغيرة ، مثلما كان الحال فى الكنائس المسيحية المبكرة والبيزنطية . ونذكر لهذا النموذج من المساجد مثلين من العصر العثمانى فى القاهرة : أحدهما جامع الملكة صفية



ش : ٦٨ ـ القاهرة : جامع الملكة صفية (مسقط)



ش : ٦٩ ـ القاهرة : جامع محمد على (مسقط)

(ش : ٦٨) [1] وكمل بناؤه فى عام ١٠١٩ هـ (١٦١٠ م) ، وجامع محمد على بالقلعة (ش : ٦٩) [2] ، ويؤرخ فى ١٢٦٥ هى (١٨٤٨ م) . كما توجد أمثلة من نفس النموذج فى القسطنطينية منها : جامع السلطان بايزيد الثانى (٨٩٤ ـ ٩٠٢ هـ/

(١) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الاثرية ـ جـ١ /ص ، جـ ٢/
Hautecoeur et Wiet : Les Mosquées du Caire, II, Pls. 229-231.

(٢) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الاثرية ـ جـ ١/ص ، جـ ٢/
H. et W., Mosquées, II, Pls. 243-247, Fig. 31.

١٤٩٧ م) [١] ، وجامع السلطان سليمان (٩٥٧ ـ ٩٦٣ هـ / ١٥٥٠ ـ ١٥٥٦م) [٢] وجامع السلطان أحمد (١٠١٧ ـ ١٠٢٥ هـ / ١٦٠٨ ـ ١٦١٦ م) [٣] .

ومن عجب أن لا تتأثر تخطيطات العمارة الاسلامية وخاصة الدينية منها بالنماذج المسيحية المبكرة والبيزنطية طوال عشرة قرون ، ثم تخضع بعد تلك المدة الطويلة لتلك التأثيرات . ويبدو أن العثمانيين قد وقعوا تحت تأثير الجو البيزنطى والأذواق البيزنطية التى كانت تهيمن على مدينة القسطنطينية بوجه خاص ، أى خضع العثمانيون لجو المدينة التى أخضعوها . فكأن التقاليد الاسلامية التى تبلورت فى عشرة قرون قد عادت القهقرى لتبدأ الطريق من أوله ،تقودها وتهيمن عليها هذه المرة فعلا أذواق غير عربية ، وبخاصة فى منطقة آسيا الصغرى وجنوب أوروبا ، ونرجو أن يكون لنا عودة الى استعراض ذلك بالتفصيل .

***

وتشترك الكنائس فى العصر المسيحى المبكر فى أنها قد غطيت بجمالونات من الخشب فيما عدا الحنيات التى غطيت بأنصاف القباب من الداخل (ش: ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٧). وسار الأسلوب المسيحى من هذه الناحية أيضا وهو يتبع التقاليد الرومانية فى تغطيات الأسقف ، وهو نظام يختلف فيه الطراز المسيحى المبكر عن الطراز البيزنطى الذى تغلبت فيه التغطيات بالقباب وأنصافها وبالأقبية ، وذلك بتأثير التقاليد والأساليب المعمارية التى كانت منتشرة فى العمارة العراقية .

وفى عام ٣٣٠ م نقل قسطنطين عاصمة الدولة الرومانية العظمى الى مدينة بيزنطة التى كان الاغريق قد أسسوها مستعمرة لهم فى نحو عام ٦٦٠ ق. م. ، وكانت هناك عوامل مختلفة جعلت قسطنطين ينقل سرير الملك الى بيزنطة . فمنها غارات القبائل البدائية التى سموها « بالبربر » على روما ، ومنها أن موقع مدينة روما فى وسط شبه جزيرة ايطاليا وقرب الساحل الغربى لها لم يكن ملائما بالنسبة لاتساع الامبراطورية ، بينما كانت بيزنطة ذات مركز تجارى طبيعى ، كما كان يسهل منها مراقبة المقاطعات الشرقية[٤] .

وأطلق قسطنطين على العاصمة الجديدة اسم « روما الجديدة » ، وأراد أن

(١) Rivoira, p. 185, Fig. 160.

(٢) Glück und Diez : Die Kunst des Islam, p. 109, Fig. 19, pp. 249-251, 543, Pl. X ; Rivoira, pp. 184, 185, Fig. 161.

(٣) G. und D., Fig. 17 (p. 108), pp. 257, 270, etc., Pl. XI ; Roivoira, pp. 184, 186, Fig. 162.

(٤) Seaby, IV, p. 5.

يجعلها كذلك ، فبنى القصور لنفسه ولقواده على نمط روما ، ولكنه استحضر التماثيل من أثينا وأنطاكيا أيضا . ثم غلب على العاصمة الجديدة اسم قسطنطين فنسبت اليه ، وأخيراً غير العثمانيون اسمها عند استيلائهم عليها فى عام ١٥٤٣ الى استانبول [١] .

ونتج عن انتقال العاصمة الى بيزنطة أن أصبح القيصر البيزنطى وبلاطه على صلة مباشرة بالفخامة والعظمة التى يمتاز بها الشرق ، وبما كان يتمتع به القصر الملكى وتوابعه هناك من رهبة تقرب من التقديس . وبدأ عاملا الزمان والمكان يساعدان على اضعاف التقاليد الرومانية التى نقلها قسطنطين معه . وأخذ يكثر عدد الصناع الشرقيين من القبط والفرس ومن الاغريق المستوطنين هناك ، فأصبح الصناع الرومانيون أقلية[٢] . أى أن أغلبية الصناع كانت غير بيزنطية ، ولكن على الرغم من ذلك فقد سمى الطراز هناك بالبيزنطى ، بينما حرم العرب من أن تنسب اليهم طرزهم الفنية سواء فى الجاهلية أو الاسلام حتى لا ينسب اليهم فضل القيام بأى دور حضارى فى تاريخ العالم .

وفى عام ٣٩٥م انقسمت الامبراطورية الرومانية الكبيرة الى دولتين : شرقية وبقيت عاصمتها مدينة بيزنطة أو القسطنطينية ، وغربية وصارت روما عاصمة لها ، ثم انتقلت منها الى مدينة رافنا على الشاطىء الشرقى لايطاليا ، مما جعلها على قرب من الدولة البيزنطية وعلى اتصال دائم بها ، فجعلها ذلك تتلقى تأثيرات كثيرة تأتى اليها منها ، فشيدت فيها كنائس وعمائر دينية على الطراز البيزنطى . مثلها فى ذلك مثل مستعمرات الدولة البيزنطية[٢] . بل ان نفوذ الشرق قد وصل الى روما نفسها ، فقد سكنها عدد كبير من اغريق بيزنطة ومن الشاميين والأرمن ، وتولى كرسى البابوية فيها نحو ١٣ من البابوات من سنة ٦٠٦ الى ٧٤١ م كانوا من أصل أغريقى أو شامى[٣] .

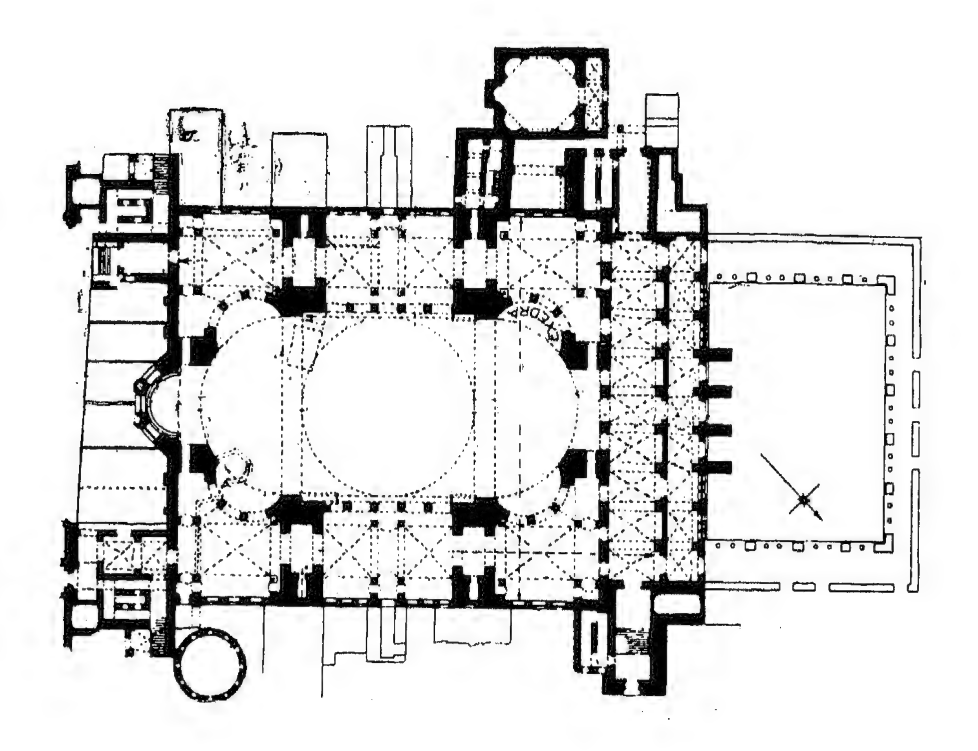
ويرجع الفضل الى بيزنطة فى انتشار الدين المسيحى فى أوروبا وحمايته فيها ، ولكنها فشلت فى ذلك من جهة الشرق ، اذ قام الساسانيون ومن بعدهم العرب المسلمون فحدوا من قوة الدين المسيحى ، وتضاءلت سلطة الكنيسة الى جانب قوة الاسلام . وبينما كان الفن الاسلامى يزدهر ويتقدم فى مراحل تطوره فى آسيا ومصر واسبانيا ، كان فن العمارة يتدهور فى أوروبا بسبب غارات البرابرة التوتونيين الذين راحوا يحطمون المدن التى بناها الرومان [٤] .

(١) Seaby, p. 71.

(٢) Fletcher, p. 275.

(٣) Hamilton, p. 44.

(٤) Seaby, IV, pp. 6, 70, 71.

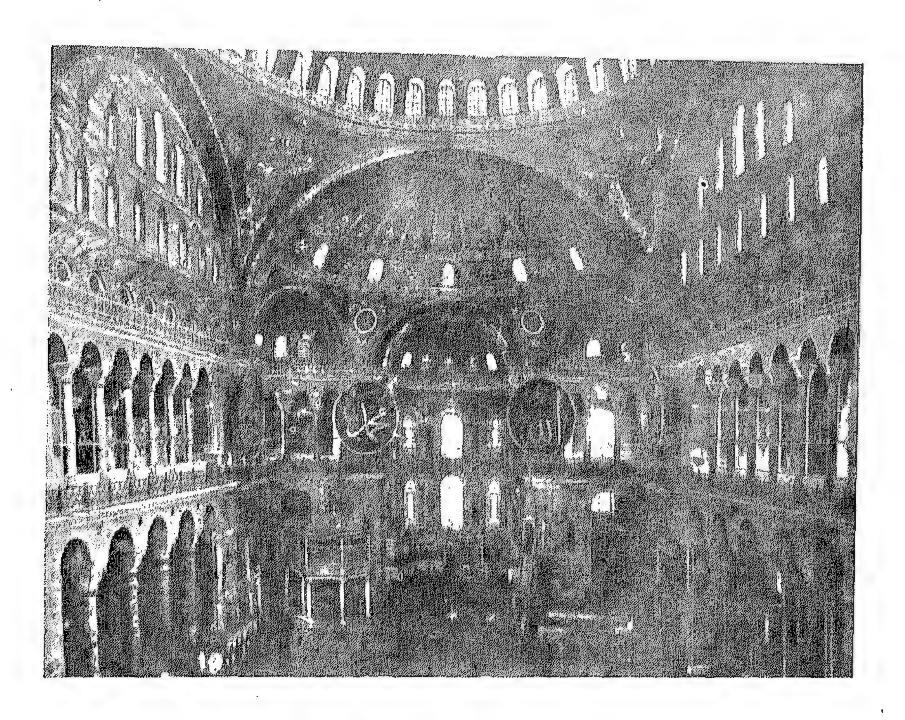


ش : ٧٠ ـ القسطنطينية ـ جامع ايا صوفيا
(مسقط)

ومهما يكن من أمر فان تخطيط العمائر البيزنطية ـ وخاصة فى القرون الأولى من حياة الدولة البيزنطية ـ لم يكن يختلف فيها وفى مستعمراتها عنه فى بلاد ايطاليا ومستعمراتها فى العصر المسيحى المبكر ، فقد بقى تخطيط البازيليكا مستخدما لبناء الكنائس البيزنطية منذ القرن الخامس . وأشهر مثل لها هو كنيسة أيا صوفيا بالقسطنطينية ، التى شيدت فيما بين عامى ٥٣٢ ، ٥٣٧ (ش : ٧٠ ـ ٧٢) ، وحولت الى مسجد بعد الفتح العثمانى[1] .

وبالاضافة الى نموذج البازيليكا ذى الشكل المستطيل فانه قد انتشر استعمال المساقط المربعة والمضلعة والمستديرة ذات الأصل الرومانى فى العصر البيزنطى ،

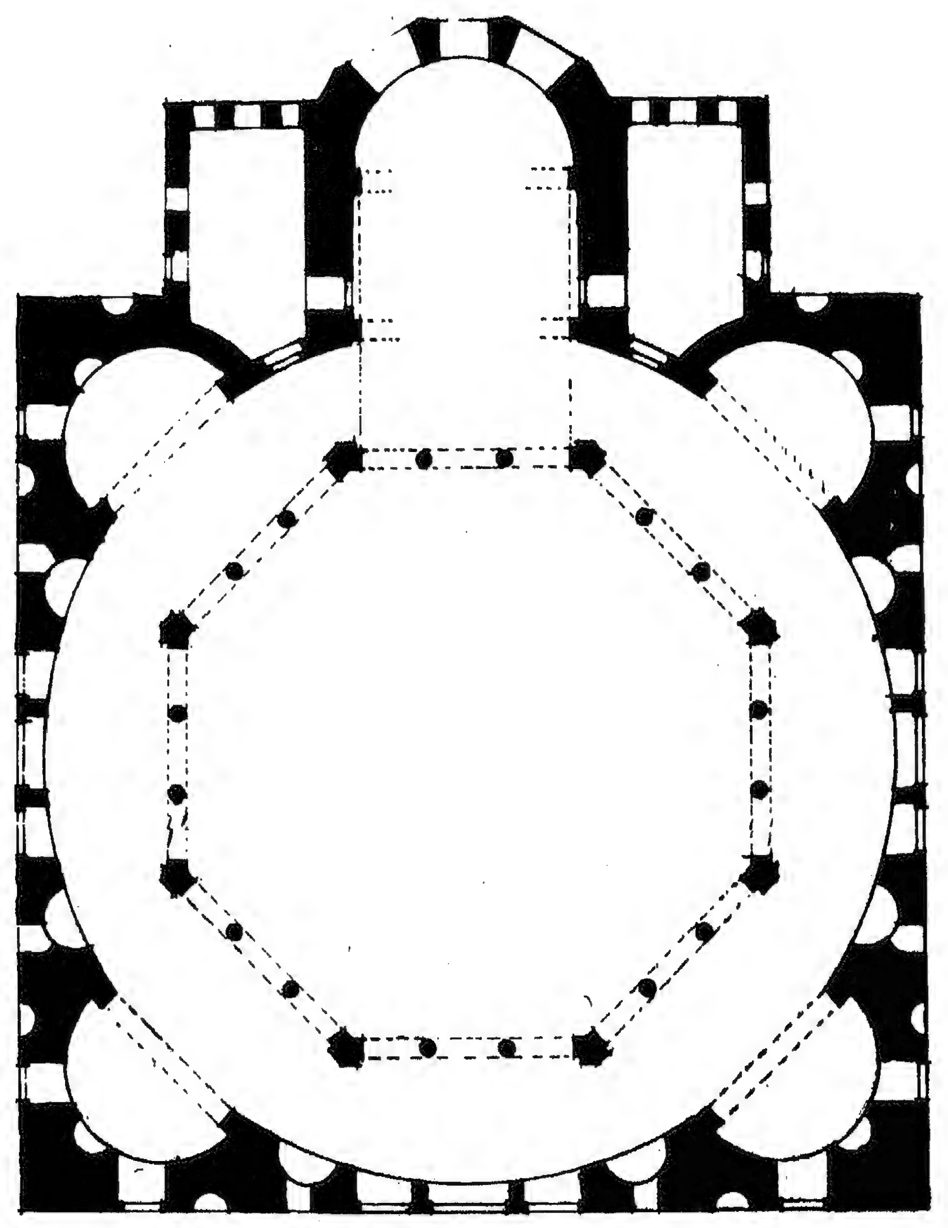
(1) Fletcher, pp. 280-284, 273, 274, 281 ; Hamilton, pp. 29-34, Fig. 12, Pls. I, XII-XIV ; Woermann, vol. 3, pp. 39-40, Figs. 27-29 ; Springer, II, pp. 44-46, 54, 68, Figs. 53-55 ; Dalton, pp. 74, 91-93, 106, Pls. I, III, XXIII ; Rivoira, pp. 184, 189, 190, 210, 322, 323, Figs. 299-300.



ش : ٧١ ـ القسطنطينية ـ جامع أيا صوفيا (منظور داخلى)



ش : ٧٢ ـ القسطنطينية ـ جامع أيا صوفيا (منظور داخلى)



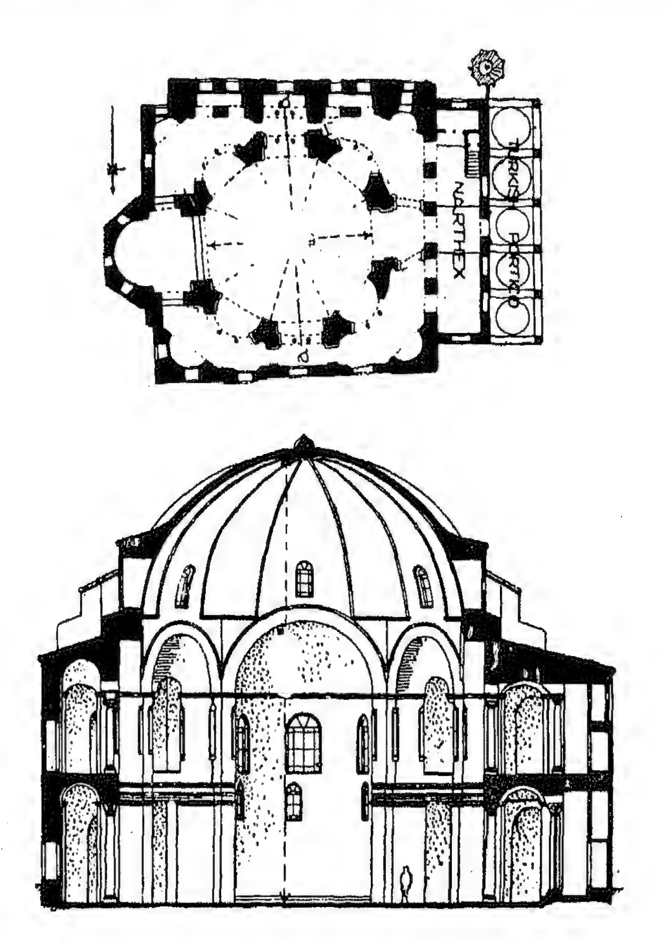
ش : ٧٣ – بصرى : الكنيسة (مسقط)

وخاصة فى القسطنطينية وآسيا الصغرى وأقاليم الشام • ومن أمثلتها : كنيسة بصرى (ش : ٧٣) [١] التى شيدت فى حوالى سنة ٥١٣ م ، وكنيسة عزرا بالشام [٢] ، ولعل مسقطهما كان هو النموذج الذى شيدت عليه كنيسة القديسين سرجيوس وباكوس

(١) E.M.A., I, pp. 72-74, Figs. 24-26 ; Halmilton, pp. 78-79, Fig. 25.

(٢) Hamilton, pp. 15-16, Figs. 4, 24 ; Dalton, p. 96.

بالقسطنطينية ، وشيدت فى حوالى سـنة ٥٢٧ م (ش : ٧٤ ، ٧٥) [١] . وامتد استخدام هذه النماذج من المساقط ذات الأشكال الهندسية المنتظمة الى روما [٢] ، والى مدينة رافنا حيث توجد كنيسة سان فيتالى (ش : ٧٦) [٣] . ووصل أيضا الى فرنسا حيث شيدت عليه الكنيسة الجامعة فى مدينة اكس لاشابيل Aix-La-Chapelle [٤].



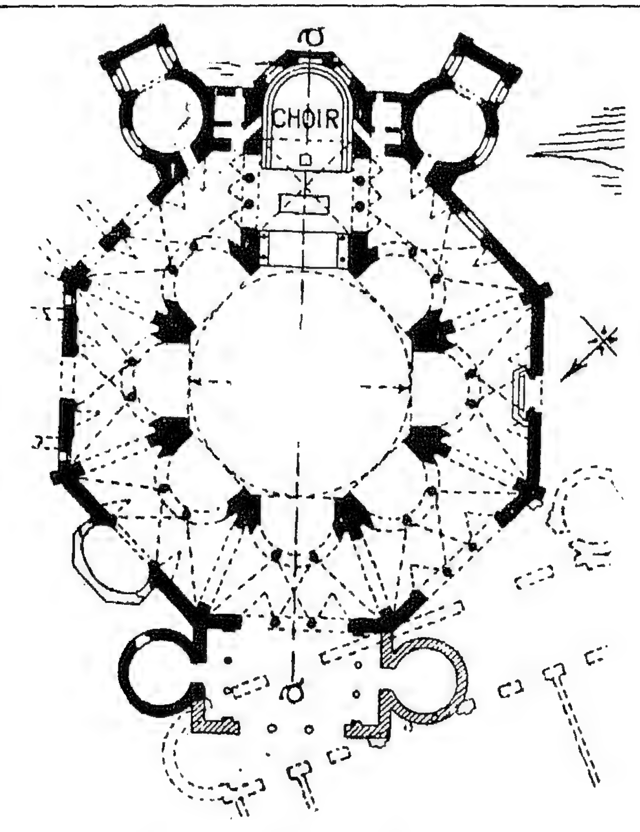
ش : ٧٤ ، ٧٥ ـ القسطنطينية : جامع خوجة كاليسى (مسقط وقطاع)
(أصله كنيسة القديسين سرجيوس وباكوس)

(١) Fletcher, pp. 278 A, B and C, 280, 286, C, 290 ; Hamilton, pp. 34-35, Fig. 13, Pls. XV, XVII ; Rivoira, pp. 121, 190, 321, 323, Fig. 298 ; Dalton, pp. 96, 156 ; Woermann, vol. 3, p. 39, Figs. 25, 26 ; Springer, II, pp. 44, 54.

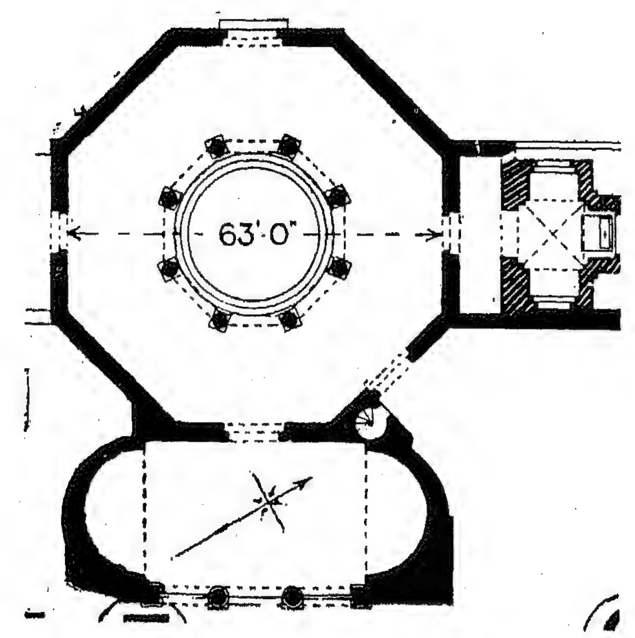
(٢) Fletcher, pp. 177 N, 285 A and B, 206, 209, 280, 298 ; Hamilton, p. 26, Pl. VI ; Rivoira, pp. 122, 209, Fig. 181 ; Dalton, p. 156.

(٣) Rivoira, pp. 33, 121, 124, 125, 157, 164, 226, 239, 286, 287, 318, 320, 323, Figs. 109, 295, 297 ; Fletcher, pp. 280, 285, C and D ; Seaby, IV, pp. 73-5, Pl. XIV ; Dalton, pp. 87-8, 96, 99, 155-6, 276-7 ; Hamilton, pp. 17, 35, 38, 39, 41-2, 145, Fig. 16, Fig. 16, Pls. IV, IX, XXI-XXIV ; Springer, II, pp. 43, 53-6, 103, Figs. 65, 66.

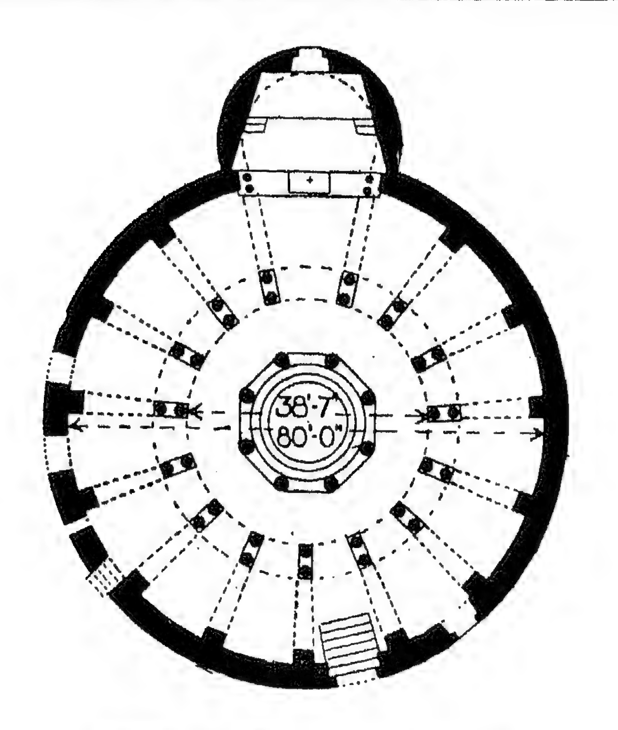
(٤) Fletcher, pp. 280, 285 E, F and G, 351 K, 357.



ش : ٧٦ ــ رافنا : كنيسة سان فيتالى
(مسقط)



ش : ٧٧ ــ روما : معمدانية قسطنطين
(مسقط)



ش : ٧٨ ــ نوشيرا : المعمدانية (مسقط)

كما استخدمت هذه النماذج للعمائر الدينية المعروفة بالمعمدانيات Baptesteries وتوجد منها عدة أمثلة فى روما حيث توجد معمدانية قسطنطين (ش : ٧٧) ، وتؤرخ فى حوالى عام ٤٣٠ الى ٤٤٠ م [١] ، وفى رافنا وفى مدينة نوشيرا Nocera فى مقاطعة سالرنو فى جنوب ايطاليا (ش : ٧٨) [٢] . واستخدمت أيضا للمقابر[٣]. ووجدت أمثلة لتلك النماذج فى بلاد الشام منها كنيسة بصرى التى أشرنا اليها من قبل (ش : ٧٣) وكنيسة الصعود (ش : ٧٩) ، وشيدت قبل سنة ٣٧٨ ميلادية[٤] ، وقبر السيدة مريم (ش : ٨٠) [٥] .

وظهر نموذج ثالث لمساقط الكنائس هو التخطيط الصليبى الشكل الذى يتكون من مستطيلين متقاطعين متساويين فى العرض دائما ، وفى الطول فى أكثر الأحيان . وينتج من تقاطعها مربع أوسط يغطى دائما بقبة ، وأحيانا ترتفع قبة فوق

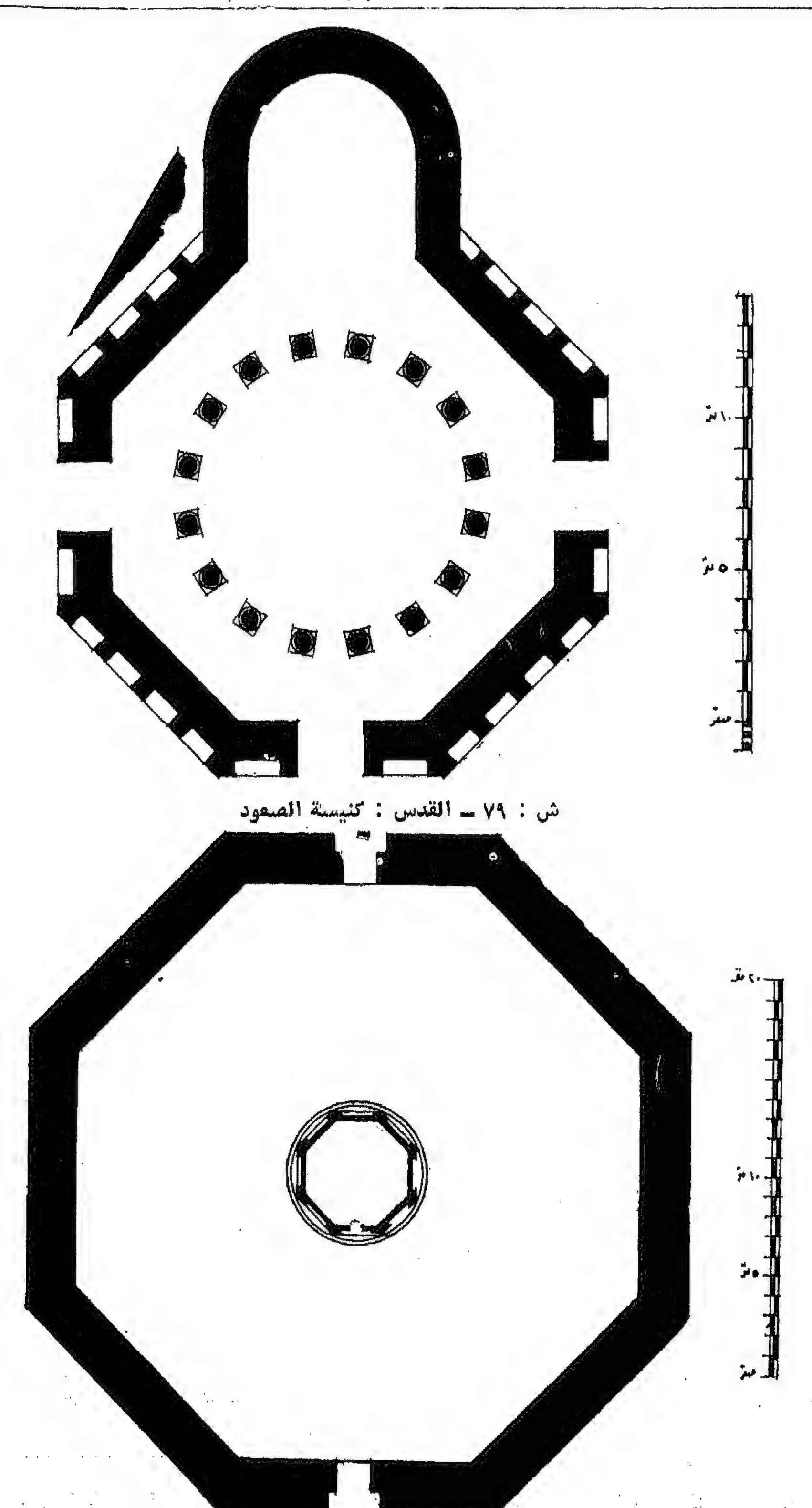
(١) Ibid., pp. 293, 295 A-G.

(٢) Fletcher, pp. 293, 295 H and J.

(٣) Ibid., pp. 293, 296 A-E and K-M, 297, 299 C ; Dalton, pp. 95, 96, 155, 157 ;

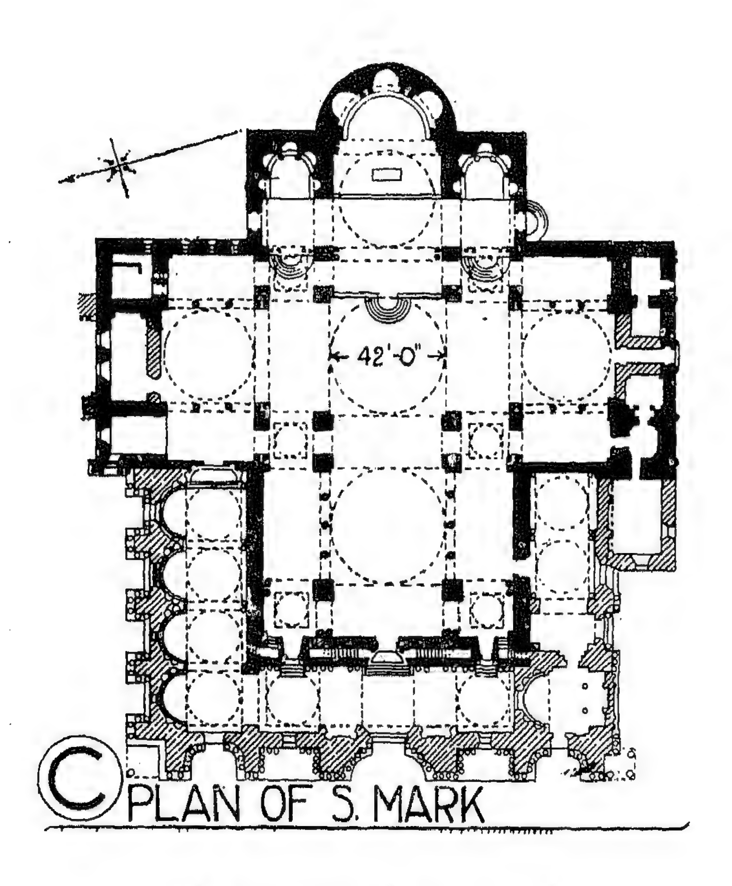
(٤) E.M.A., I, p. 75, Fig. 28 ; Woermann, vol. 3, p. 26, Figs. 11, 12 ; Springer, II, Fig. 62.

(٥) E.M.A., I, pp. 75-6, Fig. 29.



ش : ٧٩ ـ القدس : كنيسة الصعود

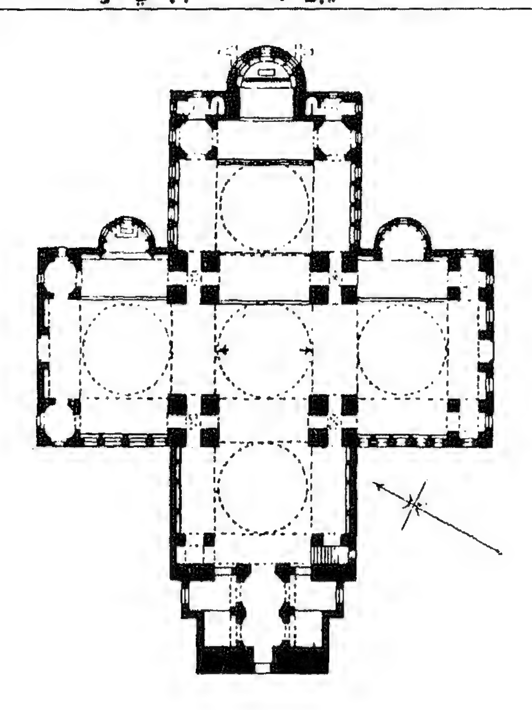
ش : ٨٠ ـ القدس : قبر السيدة مريم



ش : ٨١ ـ البندقية : كنيسة سان مارك
(مسقط)

كل ذراع فيصبح عدد القباب خمس ، وذلك فى حالة ما اذا كانت الأذرع قريبة من الشكل المربع فى مسقطها • ومن أشهر أمثلة النموذج الصليبى كنيسة سان مارك بمدينة البندقية (ش : ٨١) ، وشيدت فيما بين عامى ١٠٤٢ ، ١٠٨٥ م [١] • ويهمنا فى هذه الكنيسة أنه استخدمت فيها العقود المدببة التى كانت قد أصبحت أهم مميزات العمارة العربية الاسلامية منذ القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) ، أى قبل بناء كنيسة سان مارك هذه بنحو أربعة قرون • وقد وصل المسقط الصليبى البيزنطى الى فرنسا ، حيث شيدت به كنيسة سان فرون فى مدينة بيرجيو ،

(1) Fletcher, pp. 288 A-C, 289 ; Hamilton, pp. 4, 8, 147-8, Fig. 44, Pls. IX, X, LXVIII ; Woermann, vol. 3, pp. 175, Fig. 139, Pl. 28 ; Springer, II, pp. 477-8, Figs. 643-4.

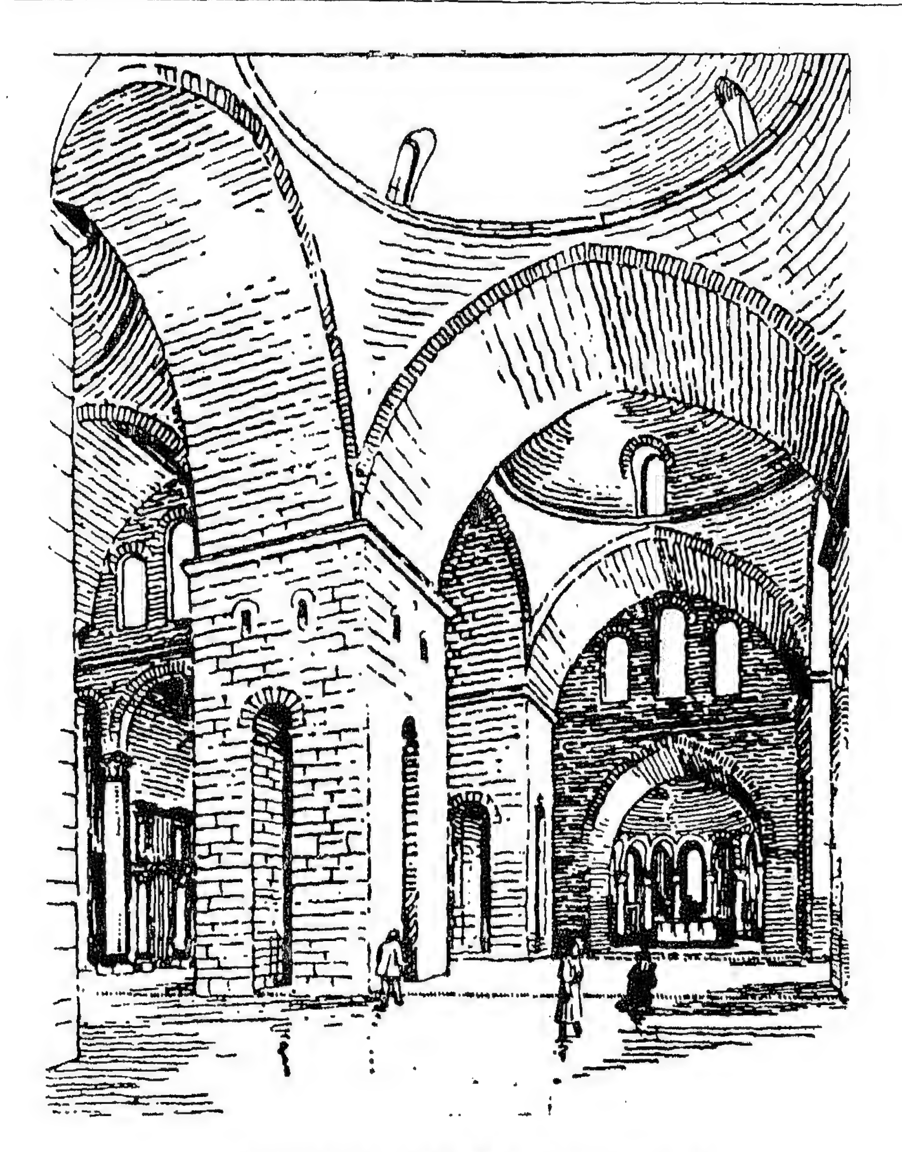


ش : ٨٢ - بيريجيو (فرنسا) : كنيسة سان فرون

S. Front, Périgieux ، التى شيدت فى حوالى ١١٢٠ م (ش : ٨٢ ، ٨٣) [١] ، وتقع هذه المدينة فى وسط القطاع الجنوبى من فرنسا ، ولكنها أقرب الى خليج بسكاى منها الى البحر الأبيض المتوسط ، ومع ذلك فانه يستوقف نظرنا فى هذه الكنيسة انتشار استعمال العقود من النوع المدبب أيضا ، مما يؤكد وصول التأثيرات العربية الاسلامية الى بلاد فرنسا من الشرق الاسلامى وليس من الأندلس التى يندر فيها وجود العقد المدبب ، اذ كان النوع السائد فى عمارتها هو العقد نصف الدائرى من نوع حدوة الفرس Round Horse-Shoe • وبلاد فرنسا - كما يذكر التاريخ - كانت من البلاد التى خرجت منها الحملات الصليبية الأولى تبغى الاغارة على بلاد العرب والمسلمين بحجة الدفاع عن البقاع المقدسة عند المسيحيين ، وهى الحروب الصليبية التى كان لها أكبر الأثر على حضارة وفنون أوروبا فى العصور الوسطى •

***

(١) Fletcher, pp. 288 D-G, 290 ; Springer, II, pp. 189, 190, 192-3, Figs. 256-7 ; Woermann, vol. 3, pp. 217-8, Fig. 171.



ش : ٨٣ – بيريجيو (فرنسا) : كنيسة سان فرون
منظور داخلى يبين العقود المدببة الاسلامية فى سنة ١١٢٠ م

ولم يبق من العمارة المدنية البيزنطية شىء كثير . فمن القليل الذى بقى قناطر المياه التى بناها الامبراطور جستنيان قرب القسطنطينية[١] . وهى لا تختلف كثيراً عن قناطر المياه الرومانية . كذلك اهتم البيزنطيون ببناء صهاريج لخزن المياه تحت الأرض[٢] .

(١) Dalton, p. 115, Pl. XVIII.
(٢) Ibid., p. 115, Pls. V, XVII.

ومن أهم ما تتميز به العمارة البيزنطية : استخدام القباب وأنصافها ، والأقبية الطولية والمتقاطعة . وفى كل الأحوال تقريبا كانت توضع قبة رئيسية فوق الجزء الأوسط من المسقط ، سواء كان مكونا من مستطيل أو صليب أو من شكل مضلع هندسى منتظم . وكانت تحاط تلك القبة بقباب ثانوية أو بأنصاف قباب توضع فوق وحدات أخرى من المسقط تحيط بالجزء الأوسط الذى تتركز عليه الأهمية فى المسقط والواجهات (ش : ٧٠ - ٧٢ ، ٧٤ - ٧٦ ، ٨١ - ٨٣) [1] .

وزادت أهمية الحنيات أو الشرقيات Apses ، وكبرت أحجام بعضها الى درجة ملحوظة وغطيت بأنصاف القباب(ش: ٥٩ ، ٦١ - ٦٢ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨١ - ٨٣).

وتبدو القباب من الخارج على هيئة « قصع » ضحلة ، حتى ما كان منها نصف كرة كاملة من الداخل ، اذ تحاط القبة من الخارج بنطاق دائرى عمودى قليل الارتفاع ينتهى من أعلاه بطنف بارز ، فكان ذلك النطاق الأسطوانى القليل الارتفاع بمثابة رقبة كاذبة بها شبابيك للانارة يعلوها الجزء الباقى الظاهر من القبة (ش : ٧٢) .

وفى أحيان أخرى كانت تغطى القباب من الخارج بجمالونات هرمية تجعلها غير ظاهرة بهيئتها الكروية الا من الداخل فقط .

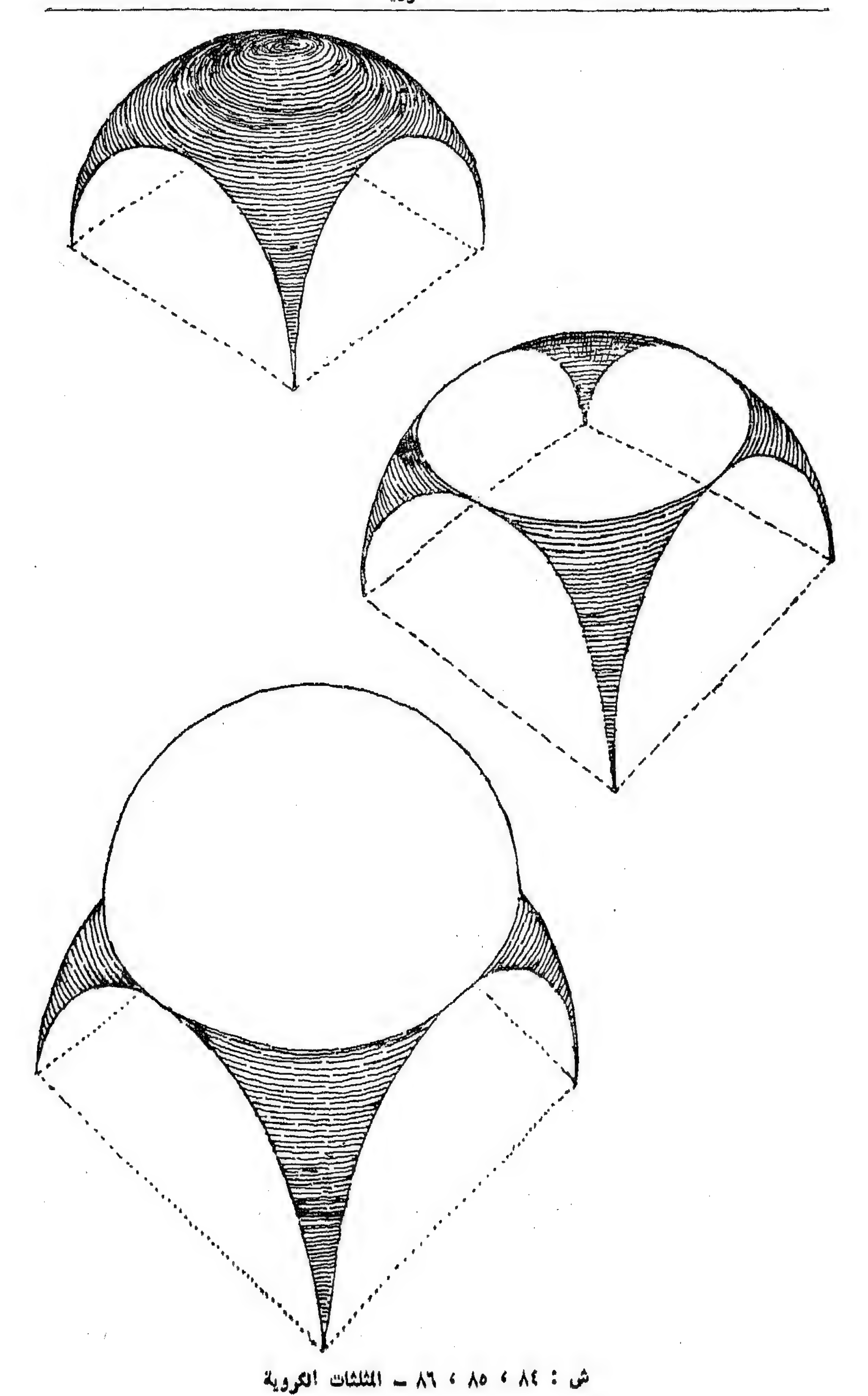
وانتشر استخدام المثلثات الكروية الحقيقية Spherical Triangle Pendentives تبعا للتوسع فى استعمال القباب وأنصافها وهى المثلثات التى يرجع الفضل فى ابتكارها وانضاجها الى العرب الشاميين فى بلادهم منذ القرن الرابع الميلادى ، اذ استعملوها للانتقال بالمساحات المربعة الى مناطق مستديرة ترتكز عليها الحافات السفلى للقباب (ش : ٨٤ - ٨٧) [2] . ثم خرجت من بلاد الشام لينتشر استعمالها فى مستعمرات الدولة البيزنطية وفى بلاد ايطاليا وغيرها .

والمثلثات اما أن تكون أقطارها الكروية هى نفسها الأقطار الكروية للقباب التى تحملها ، وفى هذه الحالة تبدو المثلثات كأنها جزء من القبة (ش : ٨٤) ، كما يبدو الجزء الكامل من القبة فوق المثلثات على هيئة « قصعة » كبيرة أو قطعة كروية ضحلة.

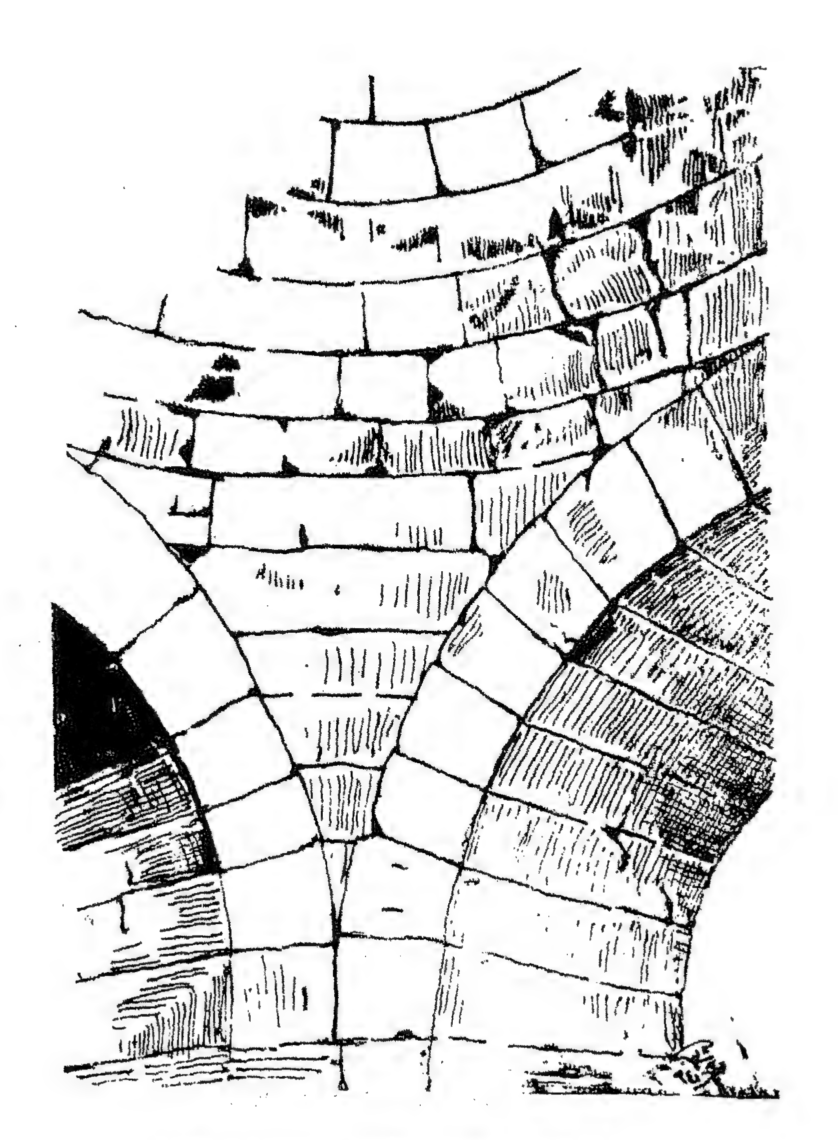
---

(1) Fletcher, pp. 273-4, 277-8, 285-8, etc.

(2) Ibid., pp. 277 C and M ; E.M.A., I, pp. 304-323, Figs. 357-397.



ش : ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ـ المثلثات الكروية



ش : ٨٧ ـ عمان : قصر النويجيس ، مثلث كروى حقيقى .



ش : ٨٨ ـ بادية الاردن : حمام الصرخ
(مثلث كروى فى حجرة الحمام الساخنة)

وفى حالة أخرى يختلف القطر الكروى للمثلثات عنه للقبة ، وذلك حتى يمكن عمل القبة من نصف كرة تماما أو أكثر قليلا منه (ش : ٨٦) . ويوجد مثل اسلامى مبكر لها فى الحجرة الساخنة فى كل من قصير عمره وحمام الصرخ (ش : ٨٨) [1] .

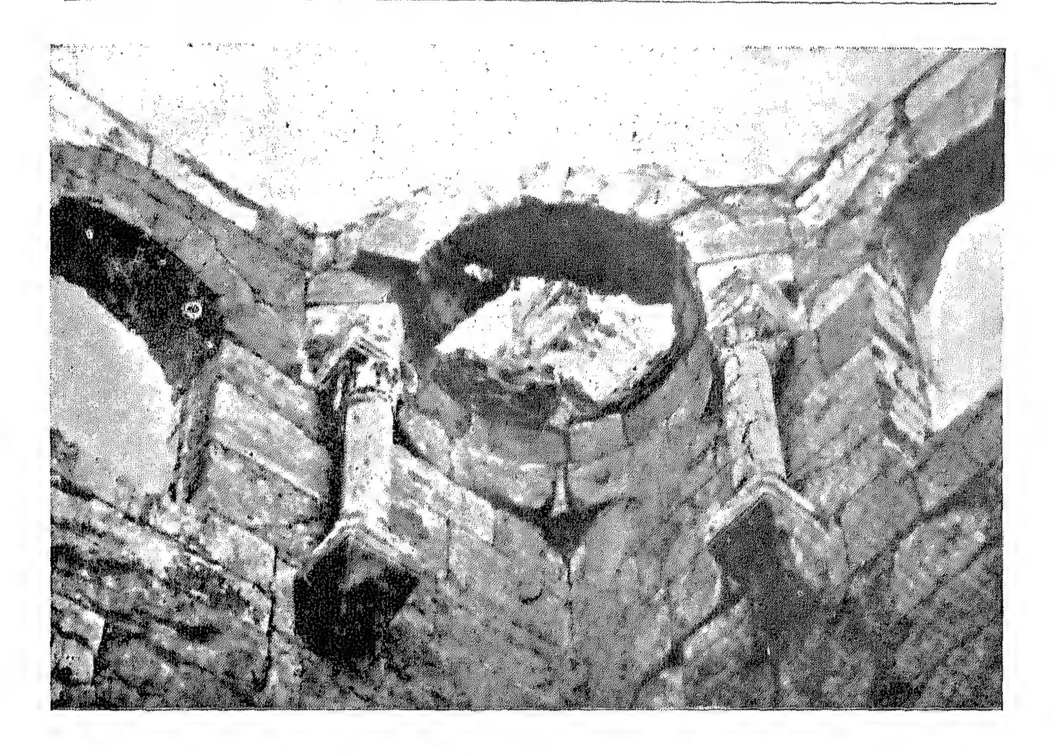
(1) E.M.A., I, pp. 254, 262, 273-6, Figs. 313-5, 319, 320, Pls. 485, 50 C, 51, 52.



ش : ٨٩ ـ سوهاج : الدير الابيض ـ مقرنصة نصف مخروطية

وكما تدين العمارة البيزنطية بالفضل للعرب الشاميين فى ابتكار المثلثات الكروية فى مناطق الانتقال ، وهى المثلثات التى انتشرت فى الطراز البيزنطى تبعا لانتشار استخدام القباب لتغطية الأماكن والمساحات المربعة ، فانها تدين أيضا بالفضل من ناحية أخرى للعرب العراقيين فى تزويدها بالابتكار الثانى لمنطقة الانتقال ، وهو حنية الأركان Squinch بشكله الذى يرجح ظهوره فى العصر الساسانى . وهو على هيئة نصيف قمع أو مخروط تبلغ زاوية رأسه ٩٠° ووضع على جنبه بحيث ينطبق كل من جانبيه المستقيمين على ضلعى زاوية مربع المنطقة التى ستغطى بقبة (ش : ٨٩) [1] . وسنشرحه بتفصيل مسهب فيما بعد عند الحديث عن العمارة الساسانية .

(1) Survey, vol. I, pp. 501-4, Figs. 130-1, 133-5, 152, 159 ; vol. IV, Pls. 146, 148. E.M.A., II, pp. 101-118, Figs. 83-117 ; Hamilton, pp. 14-20, Figs. 1-8, Pls. VI-VII.



ش : ٩٠ ـ مقرنصة بطاقية من نصف قبة على أعمدة وكوابيل

وانتقل الى العمارة البيزنطية شكل اسلامى لحنيات ركنية فضلنا تسميتها بالمقرنصة وهى على هيئة حنية مجوفة Niche ، ذات رأس من قبة نصف دائرية فى مسقطها وواجهتها ، ويحملها أحيانا عمودان (ش : ٩٠) [١] • وهى ظاهرة اسلامية عراقية ظهر أول مثل لها فى تاريخ مؤكد مع بناء مدينة سامرا ، وحنيته لها طاقية مدببة الرأس (ش : ٩١) [٢] ، ويوجد فى باب العامة وهو المدخل الكبير الرئيسى لقصر المعتصم الذى سمى « بالجوسق الخاقانى » ، وسيأتى ذكره فيما بعد •

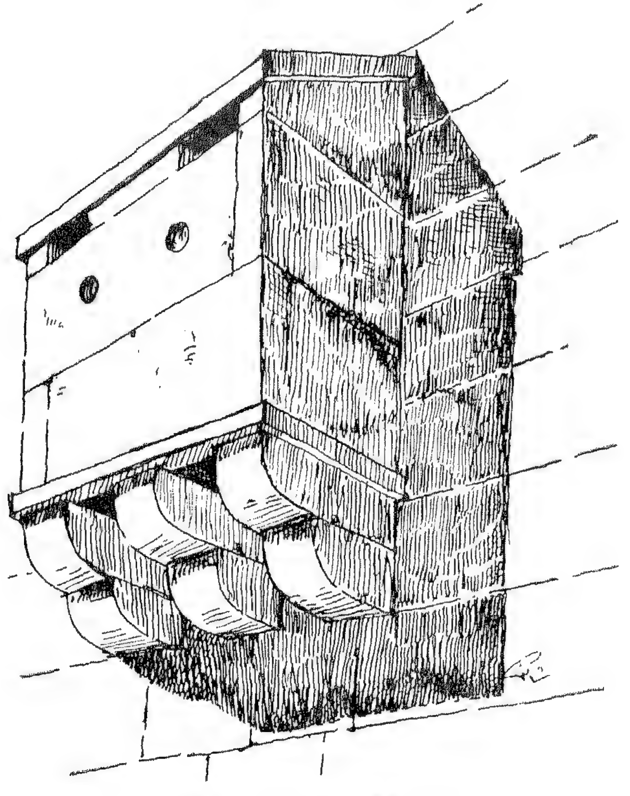
وتوجد أمثلة من الشكلين ٨٨ ، ٩٠ فى بعض العمائر الدينية التى تنسب الى العصر البيزنطى المبكر • ولكن يبدو أن محاولات تأريخها فى العصر المبكر ما هى الا ظنون لعلها ان صدقت على بعض أجزاء قديمة من تلك العمائر فانها لا تصح على أجزاء أخرى ، وبخاصة ما يوجد منها فى الأطراف العليا من تلك العمائر ، وهى التى تتعرض أكثر من غيرها للانهيار والسقوط بفعل الزلازل أو الحرائق أو بعوامل أخرى ، ومن ثم يعاد بناؤها وترميمها فى عصور تالية ، بل قد يعاد بناء العمارة كلها كما حدث مثلا فى كنيسة سان مارك بمدينة البندقية (ص ١٣٦) وفى غيرها من الأمثلة •

(١) E.M.A., II, Figs. 99, 101, 103.

(٢) Ibid., pp. 109-111, 232-4, Figs. 98-102, 181-2, Pl. 51 a-d, Pl. 20 a-b ; Survey, vol. I, p. 503, Fig. 132 a-b.



ش : ٩١ ـ سامراء : الحنية الركنية فى باب العامة
فى قصر الجوسق الخاقانى



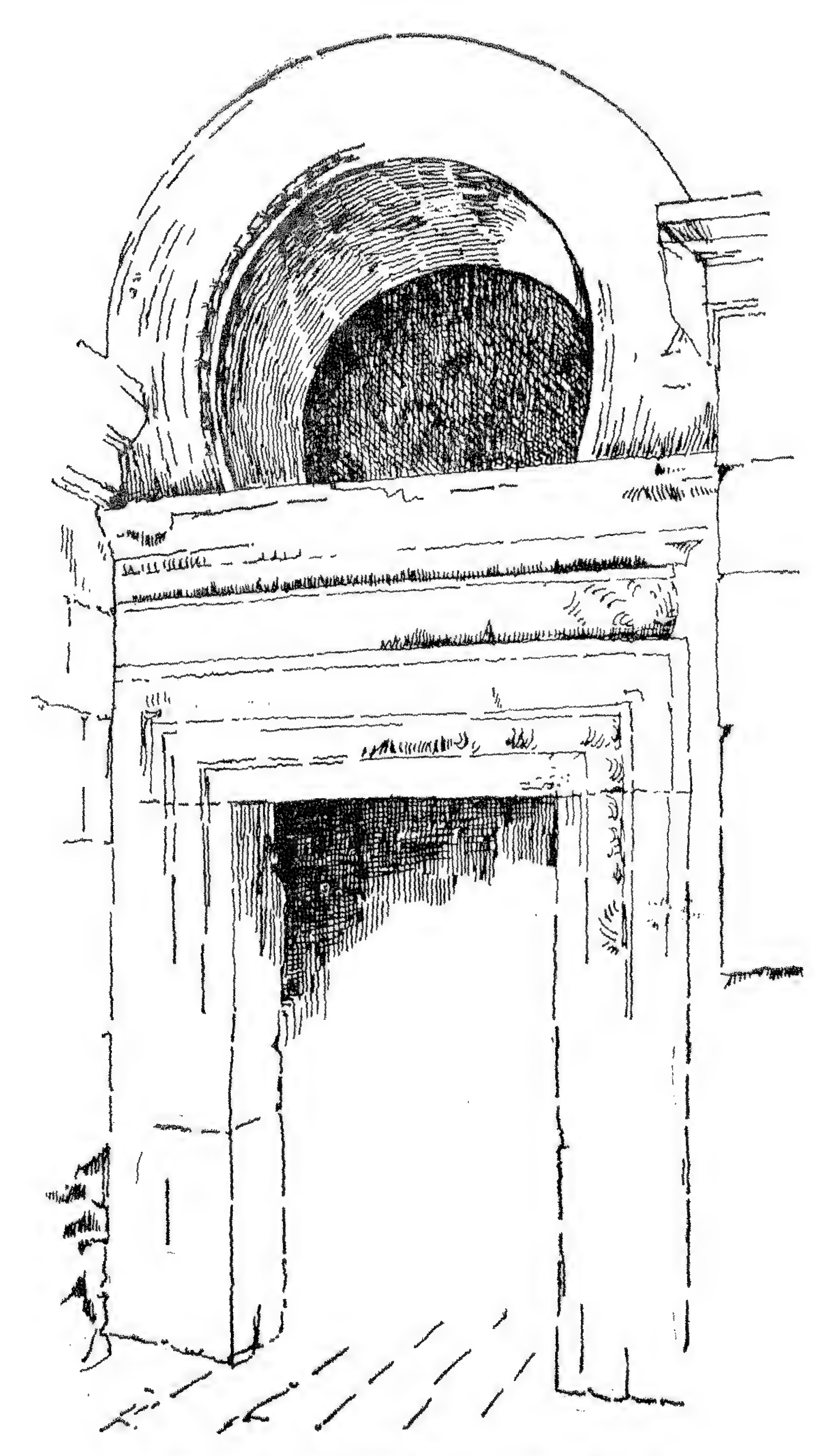
ش : ٩٢ ــ الشام : سقاطة

وقد بقيت من الحصــون والقــلاع امثلة ليست بالكثيرة ، والحق أن العمــارة الحربية تتشابه فى كثير من عناصرها فى عدة طرز • فان الغــرض متشــابه فى معظم العصور ، ولذا فاننا نجد عناصر مشتركة بينها من ناحية التخطيط والتوزيع • ولكنها تختلف من ناحية التفاصيل الصغيرة والزخارف •

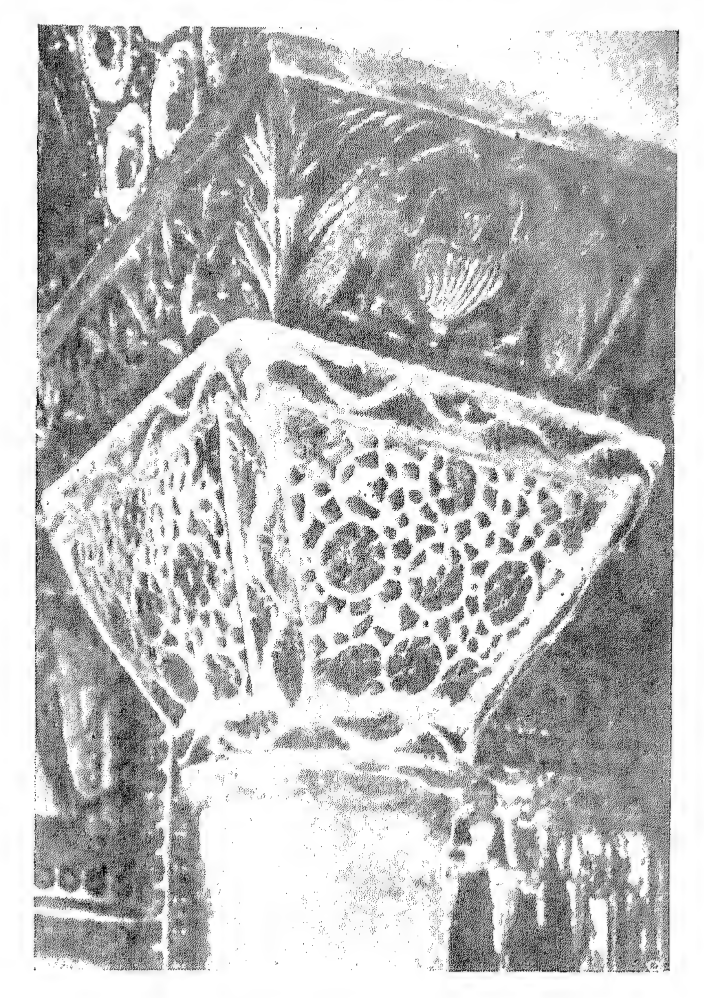
ومن أهم العنــاصر الدفاعيــة « السـقاطات » • والسـقاطة Machicoulis منها عبارة عن شرفة تبرز عن وجه جدران الأسوار ، وتحاط بالبناء أو البلاطات ، وتحملها كوابيل بارزة (ش : ٩٢) [١] • وأرضية الشرفة مفـرغة بحيث يســهل على المدافعين أن يشرفوا على المهاجمين الذين يحاولون اقتحام الباب أسفل السقاطة ، فيسقطون على رؤوسهم الأحجار والزيت المغلى والسهام • ويظن أنه فى بعض الأحيان تستخدم هذه السقاطات كمراحيض ، وذلك عند وضعها فى أماكن ليس فيها أبواب تدافع عنها •

---

(1) E.M.A., II, pp. 345-7, Figs. 425-8.



ش : ٩٣ ـ نصيبين : العقد حدوة الفرس في مار يعقوب



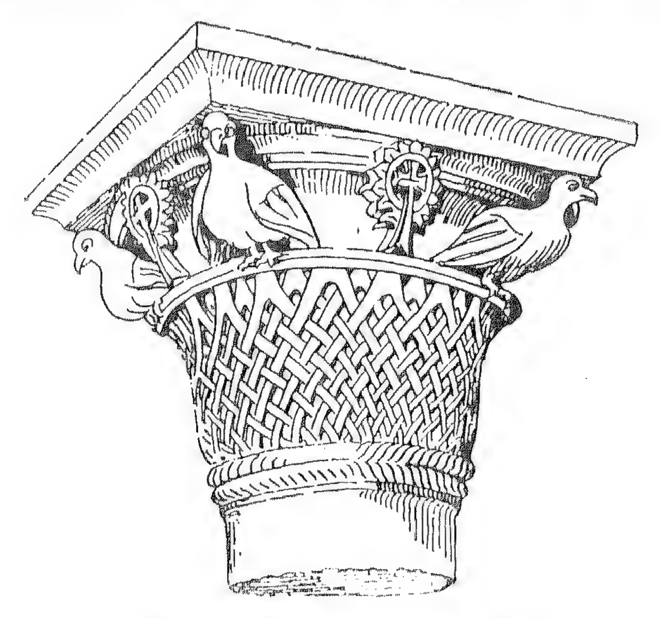
ش : ٩٤ ــ رافنا : تاج مخروطي مقلوب ووسادة فوقه .

أما من جهة العناصر والتفاصيل المعمارية فان النوع الرئيسي من العقود البيزنطية كان هو النوع نصف الدائري . ولكن وجدت أقدم أمثلة عقد شكل حدوة الفرس في العصر المسيحي في الشام وآسيا الصغرى ، ولكن يسبقها مثل ظهر في العصر الساساني في العراق (ش : ٩٣) [١] .

وانتشر في العصر البيزنطي أسلوب رأيناه من قبل في العصر المسيحي هو وضع أرجل العقود فوق الأعمدة مباشرة [٢] . وأحيانا توضع وسادة أو كتلة بنائية

(١) E.M.A., I, pp. 137-9, Figs. 75-8 ; Rivoira, pp. 110-19 and 133-7.

(٢) Woermann, vol. 3, pp. 37, 107, Figs. 24, 86, Pls. 12 c, 13 a, etc. ; Flatcher, p. 282 A and B ; Hamilton, Pls. I, A and B, X, XII, XIV ; Speltz, p. 126/1 and 6.



ش : ٩٥ – تاج بيزنطى نوع السلة وبه عنصر الحمام

بين رجل العقد وتاج العمود (ش : ٩٤) [١] • وبذلك ألغيت تتويجه العمود التى كانت توضع بينه وبين رجل العقد فى الطراز الرومانى (ص : ١١٥) •

ومن مميزات العمارة البيزنطية قلة استعمال الحليات Mouldings التى كانت منتشرة فى العمارة الرومانية • كذلك لم تعد تستعمل فى اطارات العقود [٢] كما كان متبعا فى العصر الرومانى (ش : ٥٢) •

واشتق البيزنطيون من تيجان الأعمدة الرومانية وقواعدها أنواعا أخرى • فقد زادوا من التصرف فى زخارف الأكانثاس فى تيجان الأعمـدة [٣] ، واختزلوا عدد صفوفها [٤] ، وأخرجوا بعضها على هيئة تنحنى مع هبوب الريح [٥] Wind-Swept وتطورت من التاج الكورنثى أنواع أخرى بعضها مبسط (ش : ٩٦ ، ٩٧) [٦] ، وبعضها مركب [٧] • وأضيفت الطيور الى التيجان وخاصة اليمام أو الحمـام لصلتهما

(١) Woermann, vol. 3, p. 44, Figs. 31, 34, Pls. 15 b, 18 b ; Fletcher, pp. 286 B, 300 B-E ; Hamilton, Pls. IX C and D, XVIII, XXII, XXIII, XXV ; Speltz, p. 120/3, 4, 5.

(٢) Hamilton, Pls. XVIII b, XLVII.

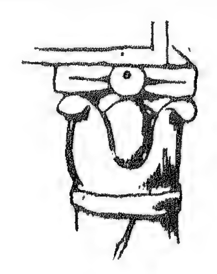
(٣) Fletcher, pp. 267 J, 300 B; Woermann, vol. 3, Pl. 14 ; Springer, Fig. 50.

(٤) Fletcher, p. 267 D.

(٥) Fletcher, p. 300 D ; Seaby, IV, Pl. XII ; Dalton, Pl. XXXIII ; Hamilton, Pl. IX B.

(٦) Dalton, Pls. XXVI, XXIX, XXXI ; Butler : Islamic Pottery, Pl. XXIX B ; Pierce and Tyler : L Art Byzantin, II, Pl. 34 ; Riegel : Stilfragen, Fig. 143.

(٧) Woermann, vol. 3, Figs. 105, 110, 86 ; Dalton, Pl. LXV ; Hamilton, Pl. X B.




ش : ٩٦ ، ٩٧ ـ بيزنطة ـ تاج ناقوسى مبسط

الرمزية بالمسيح (ش : ٩٥) (١) ، ويشاهد فى الشكل الأخير نوع جديد من التيجان هو هيئة السلة المكونة من عصابات متشابكة •

ويهمنا من تيجان الأعمدة الكورنثية فى العمارة البيزنطية ذلك التطور الذى آلت اليه بعض أشكالها • اذ نال التاج الكورنثى الرومانى تحوير كبير حتى اقتصر الأمر فى بعض الأمثلة على صف واحد من الأوراق • ثم ضاق قطر التاج من أعلى ، فنتج من ذلك أن أصبح الشكل العام كالكأس ، ولا يتضح الشكل الكأسى تماما الا اذا جردنا التاج من أوراق الأكانثاس • وهو يختلف عن الشكل الناقوسى للتاج الكورنثى الرومانى • ثم أوصل المعماريون العرب المسلمون ذلك الشكل الكأسى الى آخر مرحلة من مراحل تطوره (ش : ٣٠٣ ـ ٣٠٥) ، وذلك منذ القرن الثالث الهجرى (٩ م) (٢) •

أما أبدان الأعمدة ، فبالاضافة الى القنوات الرأسية التى كانت تزين أبدان الأعمدة الاغريقية (ش : ١٤ ـ ١٧) ، والأعمدة فى العصر الرومانى (ش : ٤٥ ـ ٥٠) ، فقد زخرفت فى العصر البيزنطى بقنوات غائرة وضلوع محدبة تلتف حلزونيا حول البدن (٣) • واستعملت فى القرون الأولى من العصر العربى الاسلامى (٤) (ش : ١٤٧ ، ١٤٨ ، ٢٥٠ ، ٤٠٣ ، ٤١١) ولكنها لم تستمر طويلا •

ومن تيجان الأعمدة التى انتشرت فى العصر البيزنطى نوع له شكل مخروطى ناقص مقلوب (ش : ٩٤) (٥) ، اذ تأتى القاعدة الكبيرة ومسقطها مربع أحيانا

---

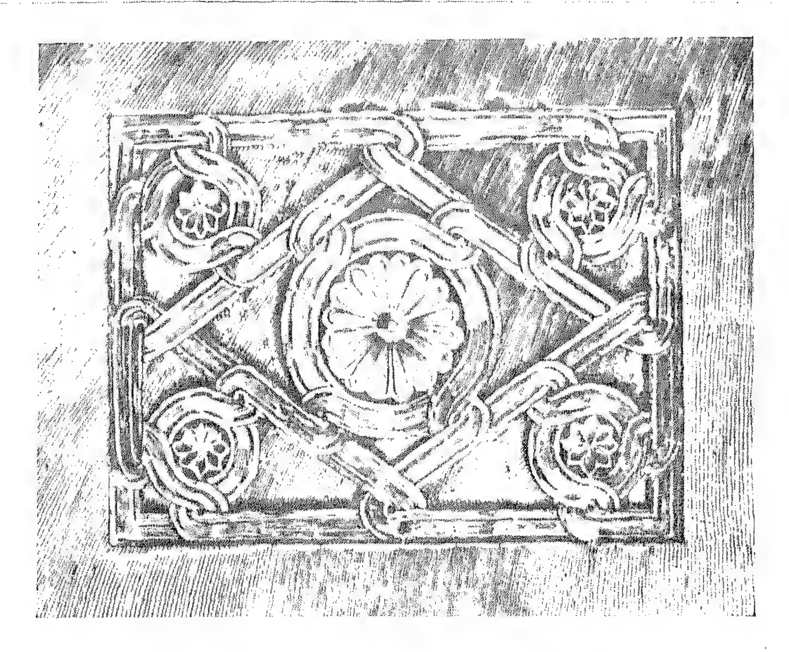
(١) Fletcher, p. 300 ; Dalton, Pl. XXXIII ; Hamilton, Pl. IX D ; Speltz, p. 127/7.

(٢) Farid Shafei : Simple Calyx Ornament in Islamic Art pp. 185-188, Figs. 79-81.

(٣) Dalton, Pls. XXXV, XXIX ; Woermann, vol. 3, Pls. 8, 9 a-b ; Springer, II, Figs. 14, 116.

(٤) E.M.A., II, Pl. 74 c.

(٥) Woermann, vol. 3, Figs. 110, 24, 29, 34, 86 c ; Hamilton, Pls. IX c, X a, XXII ; Springer, II, Figs. 51, 52 ; Speltz, pp. 120/3 and 4, 126/1, 127/4-6, etc.



ش : ٩٨ ـ البندقية : كنيسة سان مارك ـ زخرف المشبكات

ومستدير أحيانا أخرى فى أعلى التـــاج • أما القاعدة الصغرى ومسـقطها مستدير دائما فتوضع فى أســفل التاج أى عند التقائه بالبــدن • وهو مشتق من الأعمـدة الساسانية (ش ١١٤ ، ص : ١٧٦) •

وزاد من فخامة الكنائس والعمائر فى العصر المسيحى والبيزنطى التوسـع فى تزيين الجدران من الداخل وبواطن الأسقف بالزخارف والصور الملونة على الملاط أو المرسومة بالفسيفساء ، وخاصة المصنوعة من المكعبات الصغيرة من الزجاج الملون والمذهب[1] • وهو أسلوب زاد الاقبال عليه فى العصر المسيحى البيزنطى بعد التمهيد له فى العصر الرومانى حيث كان الرومان يستعملون قطعا من الحجر والرخام [2] •

أما الزخارف البيزنطية فأكثرها قد تطور من الزخارف الرومانية الاغريقية أو من الســاسانية ، أو من مزيج من الاثنين ، يزيد فيه تأثير أحدهمـا على الآخـر وقد يخفيه تماما أو قد يتساوى الاثنان •

وانتشرت الزخارف الهندسية فى الطــراز البيزنطى • ومن أهمها الأشـكال المكونة من دوائر ومضلعات منتظمة ، وتتصل فى بعض التكوينات ببعضها بواسطة عقد أو أنشـوطات متشـابكة Interlacings (ش : ٩٨) [3] • وقد أوصل العـرب

(١) Woermann, vol. 3, Pl. 16 ; Springer, II, Figs. 32-33, 68-70, etc. ; Dalton, pp. 266-298, Pls. XLVI-LII.

(٢) Fletcher, pp. 179, 241 F.

(٣) Ibid., p. 255 G ; Hamilton, p. III, Figs. 35-37 ; Speltz, 116/1-8, 117/1-6, 120/3 and 6, 126/4 and 5, 127/4.

المسلمون هذه الزخارف الى قمة نضجها وطبعوها بطابع عربي اسلامي خالص .

كذلك تدخلت الأفكار الهندسية في التكوين الزخرفي للموضوعات النباتية . اذ اتجه الفنانون في العصر البيزنطي نحو اخضاع الزخارف النباتية لتوزيعات هندسية[١] . وقد بز المسلمون العرب المزخرفين البيزنطيين في هذا المضمار ، اذ صالوا وجالوا وتغالوا فيه حتى أخرجوا منه أنواعا وتكوينات مختلفة أصبحت من مميزات الزخارف الاسلامية لا تضارعها فيه أية زخارف من الطرز الأخرى . غير أنه تجب الاشارة الى أن ذلك الاتجاه الهندسي لم يكن ابتكارا من البيزنطيين ، فقد جاءت الفكرة الأساسية من تماثل الزخارف ووضعها على جانبي محور أوسط بتأثير من الفنون الشرقية وخاصة الساسانية ، وكان من أهمها عنصر شجرة الحياة Homa [٢] ، ويتكون من ساق نباتي يوضع في جانب منه موضوع زخرفي يكرر في الجانب الآخر بطريقة عكسية . هذا بالاضافة الى أفكار هلينستية قديمة ، منها وضع آنية أو زهرية Vase تخرج منها عروق وحلزونات تنتشر فتمتلىء بها المساحة المطلوب زخرفتها[٣] .

وتطورت أوراق الاكانثاس وتحولت فصوصها في بعض الأحيان الى أصابع رفيعة مسننة حتى صارت قريبة في شكلها من أوراق النخيل ، مما يجعل الأمر يختلط بينهما في بعض الأحيان ، فيصبح من الصعب التفرقة بين الأكانثاس والبالمت وأوراق العنب [٤] . ولهما يكن من أمر فانها عناصر قد تطورت من أصول هلينستية . كذلك ضمت اليها عناصر كيزان الصنوبر ذات الحبيبات أو العناصر المحورة منها [٥] .

وانتشر استخدام عناصر الكائنات الحية بين العناصر الزخرفية مثل الحمام (ش : ٩٧) ، والطاووس والسمك وأنواع الحيوانات[٦] . ذلك أن بعضها كان يؤدي غرضين : أحدهما زخرفي والآخر رمزي ، فقد كانت لها قدسية عند المسيحيين لاتصالها باسم المسيح .

ومما يلاحظ في الزخارف المحفورة في الأفاريز والحشوات الحائطية أنه قد بعد الاتجاه عن التجسيم في حفر العناصر Modelling ، من تحدب وتقعر بالطريقة

---

(١) Speltz, pp. 129/1-4, 131/1 ; Fletcher, p. 300 G and H.

(٢) Sarre : Die Kunst des Alten Persien, pp. 90, 92, 93 ; Speltz, p. 120/4.

(٣) Speltz, pp. 129/1 and 3, 130/3.

(٤) Ibid., pp. 124, 129/1-4, 131/1 ; Dalton, Pls. XXVIII, LXV, LXVI,

(٥) Springer, II, Figs. 74, 75 ; Dalton, Pl. LXVI.

(٦) Dalton, Pls. LXVI, LXVIII ; Springer, II, Figs. 75, 76.

المألوفة فى الفنين الهلينستى والرومانى ، فقلت مستويات الحفر حتى وصل عددها غالبا الى مستويين فقط ، أحدهما منخفض هو الأرضية الغائرة ، والثانى مرتفع هو سطح الزخارف الموزعة فوق الأرضية[1] • وأغلب الظن أنها قد جاءت بتأثير من الفن الساسانى •

ومن أهم ما يلاحظ فى الطراز البيزنطى أن فنانيه قد اعتمدوا فى أحيان كثيرة على التغالى فى التكوينات المعمارية والزخرفية ، من حيث الأحجام والزينة والألوان واستعمال المواد الغالية ، والاسراف فى التذهيب ، أكثر من اعتمادهم على القيم والنسب الفنية المثلى ، وهى التى كان يهتم بها الفنانون فى العصور الهلينية والهلينستية والرومانية من قبل ويضعونها فى المرتبة الأولى ثم يليها كل ما عدا ذلك •

ومما يستحق الذكر فى مجال الحديث عن الطراز البيزنطى ، أن تقاليده قد انتشرت فى جميع مستعمرات الدولة البيزنطية من الشام الى مصر الى شمال افريقية كله • ويطلق عليه فى مصر « الطراز القبطى » مع أنه لا يختلف الا فى النادر القليل عنه فى العالم البيزنطى كله ، ويتمثل هذا الاختلاف فى بعض الرذاذ من رواسب فرعونية لا تتحمل المبالغة فى قيمتها أو مميزاتها • فان التقاليد الهلينستية والرومانية قد أضعفت التأثير الفرعونى الى حد كبير ، حتى كاد أن يختفى تماما • بل يمكن القول بأن التأثير الساسانى فى مصر فى العصر القبطى كان أقوى من التأثير الفرعونى ، اذ وصل اليها بعضه عن طريق غير مباشر عبر الشام ، بينما وصل بعضه الآخر بطريقة مباشرة عند فتح الساسانيين لمصر فى القرن السادس الميلادى •

كذلك لا يقتصر الاتصال بين الطرازين الاسلامى والبيزنطى على تلك الفترة المبكرة من العصر الاسلامى ، فانهما قد عادا الى الاتصال ببعضهما عندما فتح العثمانيون مدينة القسطنطينية فى عام ١٤٥٣م ، وتأثروا بالتقاليد البيزنطية التى ظلت مختزنة فى تلك المدينة ، وأخذوا بعضها ليدخلوها مرة أخرى ضمن تقاليد الفن الاسلامى ، وبخاصة فى تخطيط المساجد كما ذكرنا من قبل (ص : ١٢٥ ـ ١٢٧) •

***

وقبل أن نترك الطراز البيزنطى الى الطراز الساسانى ، نجد أنه مما يجدر ذكره عن العمارة فى العصر البيزنطى ما لجأ اليه البيزنطيون من هدم المعابد والعمائر الاغريقية والرومانية لاستخدام موادها من أحجار ورخام وأعمدة فى بناء كنائسهم

(1) Dalton, Pls. XXIX, LXV, LXVIII.

وعمائرهم . وذكر مؤرخو الفنون المسرحيـة أمثلة لذلك السطو . فقد بادر أهـل البندقية مثلا بالاستيلاء على كنوز من خارج مدينتهم عنـدما تضاءل نفوذ بيزنطة ، فأخذوا لكنيسة سان مارك مئات الأعمـدة من مبان اغريقيـة قديمة . كذلك الخيـول الأربعة التى رفعت فوق مدخل كنيسة سان مارك ، كانت فى الأصل ترتفع فوق قوس نصر رومانى ، ثم نقلت الى القسطنطينية مع تماثيل أخرى ، ثم دخلت ضمن الأسلاب التى أخذتها البندقية ، ثم أخذها نابليون الى باريس ، وعادت مرة ثانية الى البندقية بعد سقوطه . كذلك توجد على جدران سـان مارك حشـوات من زخارف متشـابكة (ش : ٩٨) [١] أخذت هى والأعمدة المربعة من كنيسة القديس يوحنا فى مدينة عكا St. Jean D'Acre . وأوقع الامبراطور جستنيان النهب والسـلب فى امبراطوريتهم ليجلب منها المواد يزين بها كنيسة « أيا صوفيا » التى بناها فى القسطنطينية [٢] . كما سطى الامبراطور شارلمان فى القرن الثامن الميلادى على مدينة رافنا وانتزع الفسيفساء من عمائرها ليزين بها كنيسة قصره فى مدينة اكس لاشابل Aix-la-Chapelle [٣].

ويوجد بكنيسة سانت انييزى فى روما سـتة عشر عمـودا أخذت من عمـائر قديمة [٤] .

وبنيت كنيسة المتروبوليتان فى أثينا سـنة ١٢٥٠ م ـ وتعد أصغر كندرائية فى العالم ـ من مواد قديمة . اذ يشاهد فيها عمود ذو قنوات داخـل الجدار ، وأجزاء أخرى أخذت من معبد قديم [٥] .

واستخدم البيزنطيون تيجان وأبدان أعمدة رومانية الأصل فى صهاريج لخزن الماء فى القسطنطينية ، ويتضح من ذلك اختـلاف زخارف التيجان وتفاوت أحجام بعضها بالنسبة لأبدان الأعمدة التى تحملها [٦] .

ويوجد بالمتحف اليونانى الرومانى بمدينة الاسكندرية عدد كبير من شـواهد القبور القبطية والبيزنطية ، أصلها أعمدة من الحجر والجرانيت ، وانتزعت من معابد مصرية قديمـة لينقش عليها نصـوص جنـائزية مسيحيـة [٧] . الى غير ذلك من الأمثلة .

---

(١) Seaby, IV, p. 78, Pl. XII ; Lethaby (W.R.) : Architecture, p. 178.
(٢) Seaby, IV, p. 73.
(٣) E.M.A., I, p. 157.
(٤) Fletcher, pp. 261-2.
(٥) Seaby, IV, p. 79.
(٦) Dalton, Pls. V, XVIII.
(٧) المتحف اليونانى الرومانى بالاسكندرية

وكان المسيحيون يستولون على المعابد الرومانية ويحولونها كلها أو بعضها الى كنائس • ومثل ذلك ما حدث عندما شيدت كنيسة القديس يوحنا داخل المعبد الرومانى القديم فى دمشق ، والذى حول مرة ثانية الى المسجد الجامع هناك (١) • وحدث نفس الشيء عندما أخذ المسيحيون معبدا رومانيا فى مدينة حماة فى الشام وحولوه الى كنيسة ، ثم أصبح المسجد الأموى هناك (٢) •

ولم يكن رجال الكنيسة يهتمون بالتوزيع المعمارى التجانس المنتظم • فكانت البائكة الواحدة من العقود تحمل على مجموعة من الأعمدة التى تختلف أحجامها ونماذج تيجانها مثل ما هو موجود فى كنيسة سان لورنزو خارج الأسوار فى روما (٣). وكانت الأعمدة تؤخذ من المعابد الرومانية القديمة (٤) • الأمر الذى يشبه ما حدث فى بعض المساجد فى العاصمة الأثرية لمصر ، والذى يهتم المؤرخون والكتاب والأثريون الغربيون بالاشارة اليه والمبالغة فى لفت الأنظار اليه ، وينسون أن الرومان (٥) والبيزنطيين قد سبقوا العرب المسلمين الى هذا التصرف • بل انهم فاقوا الحدود فى ذلك ، فلقد عانت مدن بلاد الاغريق من ذلك كثيرا أيام الرومان والصليبيين. ومن أمثلة ذلك أن فرسان القديس يوحنا أحرقوا مقبرة الملك موزولوس فى هاليكارناسوس التى جاء ذكرها فى الحديث عن العمارة الهلينية ، وذلك ليستخرجوا الجير من أحجارها • وأذاب الرومان معظم التماثيل الاغريقية المصنوعة من البرونز واستعملوا بعضها أربطة لأحجار البناء Dowels (٦) ، وغير ذلك كثير •

***

(١) E.M.A., I, pp. 12-15, 100-135.

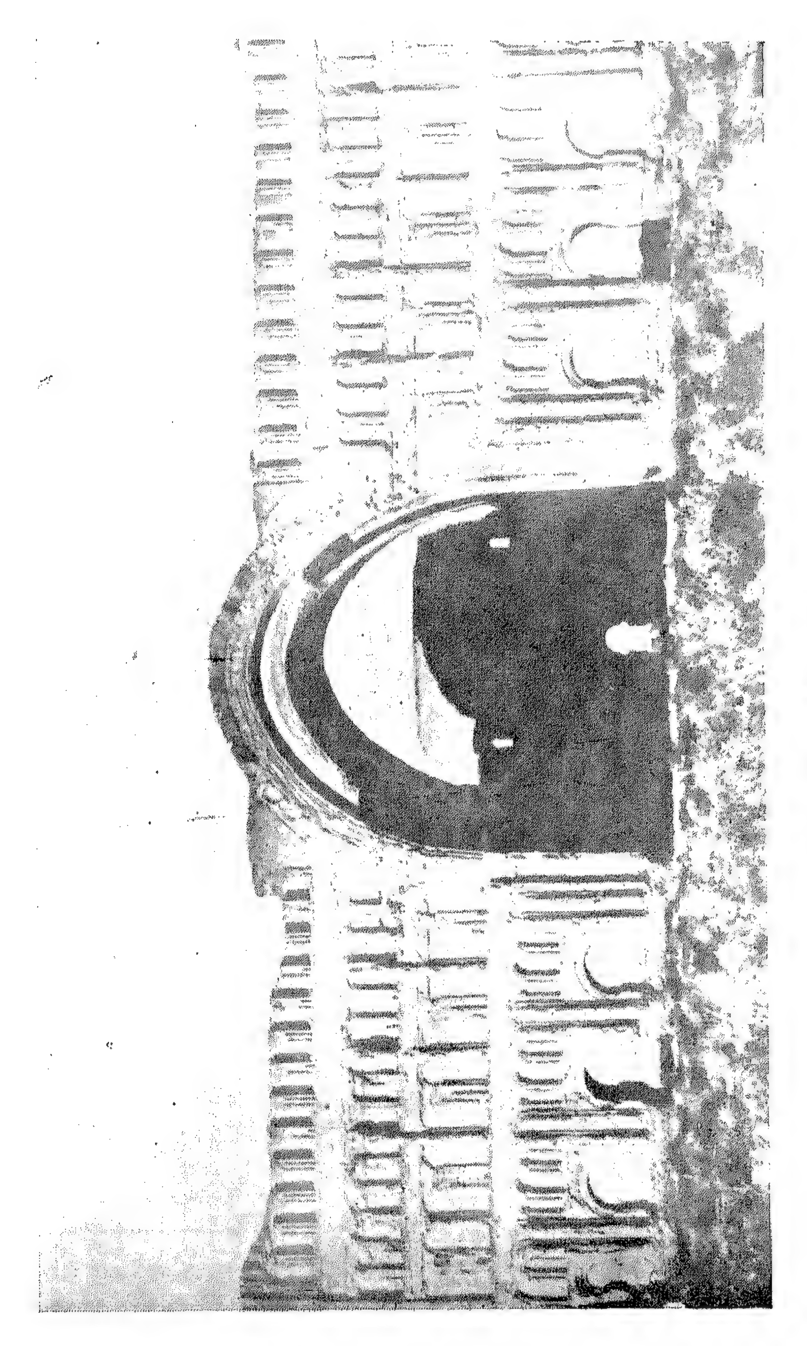
(٢) E.M.A., I, pp. 12-15, Fig. 2.

(٣) Dalton, Pls. IX-XI, XIX ; Hamlin : History of Ornament, p. 193, Fig .207.

(٤) Hamlin, p. 193.

(٥) Seaby, IV, p. 23.

(٦) Ibid., III, pp. 10-11.



ش : ٩٩ — المدائن : طاق كسرى
(الواجهة الامامية قبل خراب النصف الايمن)

الطراز الساسانى :

أما طرز العمارة والفنون فى الشمال الشرقى من شبه الجزيرة العربية فانها قد اتصلت بالفن الاغريقى عنـــدما سار الاسكندر المقدونى بحملتـه نحو الشرق فاحتل منطقة العراق ثم فارس ، وزحف الى ماوراء ذلك ، فاستولى على شمال الهند ، ودخلت معه تقاليد الفن الهلينى الى كل تلك المناطق ، ثم طغت على الفنون المحلية التى كانت قائمة فى ذلك الوقت فى العــراق وفارس فى العصر الأخامينى الذى جاء بعد العصر الأشورى وأخذ عنه الكثير من تقاليده •

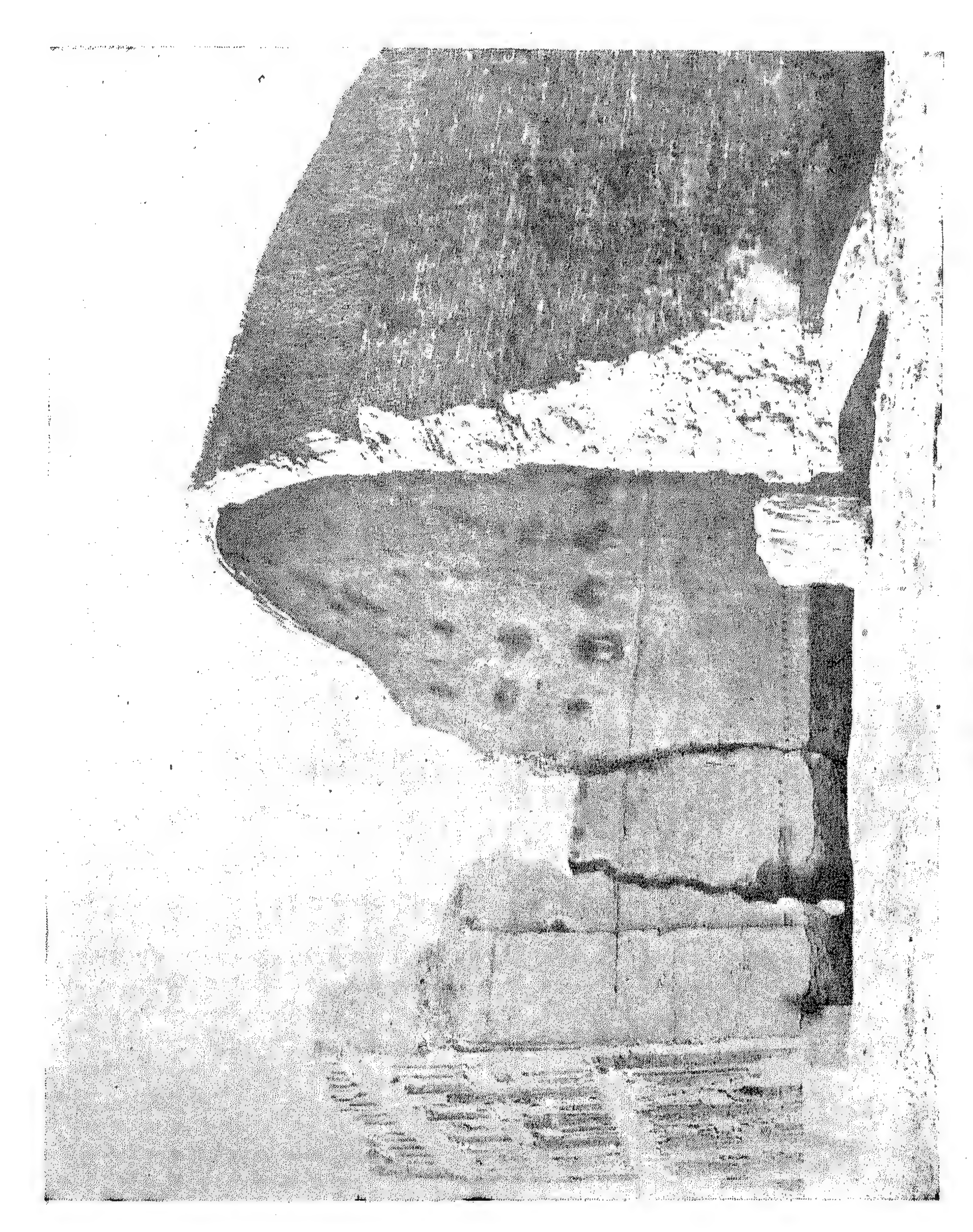
وتوفى الاسكندر فى تلك المنطقة ، فخلفه فى حكمها أحد قواده الاغريق ، هو رأس أسرة السلوقيين الذين بدأ حكمهم فى عام ٣١٢ ق •م• وانتهى حين بدأ العصر الفارثى فى عام ٢٤٨ ق•م•

ساد الفن الهليستى ــ سليل الهلينى ــ فترة من الزمن فى تلك البقاع ، ثم أخذ الطابع المحلى بعدها يشتد ويقوى منذ أواخر عهد السلوقيين، ويصبغ التقاليد الهلينستية بالصبغة المحلية • ويتضح ذلك فى آثار العصر الفارثى التى لا زالت قائمة فى خرائب مدينة الحَضَر HATRA التى تقع على بعد نحو ٩٠ كيلو مترا الى الجنوب الغربى من الموصل • وتؤرخ تلك الآثار فى القرن الأول الميلادى (١) ، وفيها من المميزات ما يمكن القول معها بأنه على الرغم من وضوح بقايا التفاصيل والعناصر المعمــارية والزخرفية ذات الملامح الهلينستية فان تكوين الكتل المعمارية والتصميم العام ، بل وتجميع تلك العناصر والتفاصيل ، كل ذلك قد خضع لطريقة تفكير وأذواق محلية تختلف عما كانت عليه فى العصور الهلينستية الأصلية ، وجعلت لها فى مجموعهـا طابعا عراقيا محليا جليا • وينطبق القول نفسه على بقية الآثار الفارثية فى منطقة وارقا ومنطقة أشور القديمة المعروفة الآن باسم « قلعة شرقة » والتى تقــع على نهر دجلة وعلى بعد نحو ١١٠ كيلو مترا الى الجنوب من مدينة الموصل ، وعلى نفس البعد تقريبا الى الشرق من مدينة كركوك (٢) •

ومنذ انتهاء العصر الفارثى فى العراق عام ٢٢٦ م ســار الفن الســاسانى حثيثا فى طريق التطور نحو طابع وطنى واضح المعـــالم والمميـزات ، وذلك على الرغم من بقاء بعض الرواسب الهلينستية التى أخذت تضعف وتفقد ملامحها الأصلية كلما بعد بهـــا الوقت ، حتى كادت تختفى فى بعض الأحيـــان • أما ما بقى فان الفنانين الساسانيين قد عالجوه بطريقة شرقية ومزاج عراقى واضحين •

(١) Sarre : Die Kunst des Alten Persien, pp. 24-31, 73, Pls. 58-65 ; Survey, vol. I, pp. 71-73, 406-48, Figs. 92-116, Pls. 128-132.

(٢) Survey, I, pp. 411-23, Figs. 93-6, 98-101, vol. IV, Pls. 128-29.



ش : ١٠٠ — المدائن : طاق كسرى

وكما رأينا ان العرب ومنهم الغساسنة قد ساهموا فى انتاج الطراز البيزنطى فى الشام فان المناذرة وغيرهم من العرب قد ساهموا فى انتاج الطراز الساسانى وتكوينه وتشكيله ، وبخاصة فى منطقة العراق . وكانت عاصمة الدولة الساسانية هى اكتسيفون Ctesiphon التى يسميها العرب « المدائن » ، وبقيت منها آثار قصر الملك شابور الأول (٢٤٢ - ٢٧٢م) [١] ، وهو القصر المعروف « بطاق كسرى » ، ويسميه العراقيون قصر « سلمان باك » ، وينسبه البعض الى الملك خسرو الأول ، (٥٣١ - ٥٧٩ م) [٢] . وتقع خرائب القصر الذى كان مشيدا بالآجر على بعد نحو ٣٠ كيلومترا الى الجنوب الشرقى من بغداد . وأهم ما فى القصر هو الايوان الكبير الذى يبلغ عرضه اكثر من ٢٥ مترا غطى بقبو هائل ذى قطاع نصف بيضى Parabolic ويرتفع الى ما يقرب من ٣٧ مترا (ش : ٩٩ ، ١٠٠) ، فيتجاوز بذلك أى قبو رومانى شيد بالحجر ، سواء فى العرض أو الارتفاع .

واذا استعرضنا مواضع الآثار الساسانية فى كل من العراق وفارس فاننا نجد أنه بالاضافة الى وجود المدائن على بعد نحو ٢٠ كيلومترا الى الجنوب من بغداد ، والى ما تحتوى عليه منطقتها من آثار عمائر ساسانية غير طاق كسرى [٣] ، فان هناك مناطق أخرى كثيرة توجد داخل حدود العراق وبها آثار ساسانية عديدة . ومن تلك المناطق موضع معروف باسم بايكولى Paikuli ، ويوجد به مبنى تذكارى ينسب الى الملك نارسى Narsé ويؤرخ بين سنتى ٢٩٤ و ٣٠١م [٤] (ش : ١١٥) .

كذلك توجد المنطقة التى تعرف اليوم باسم « الأُحَيْمِر » أوكيش KISH ، وتقع الى الجنوب تماما من موقع المدائن أو « سلمان باك » ، وعلى بعد ٦٠ مترا منها ، تؤرخ فى العصر الساسانى ، ووجدت بين أطلالها أمثلة رائعة من الزخارف المحفورة فى الجص [٥] .

كما توجد آثار ساسانية فى منطقة الحيرة [٦] ، وفى « دستجرد » التى

---

(١) Sarre, p. 38, Pl. 68 ; Sarre and Herzfeld : Archaologische Reise im Eufrat-und-Tigris Gebiet, II, pp. 58-76, Figs. 167-173 ; III, Pls. XXXVII-XLIV ; IV, Pls. CXXIV-CXXVII ; Survey, vol. I, pp. 493-4, 543-5, Fig. 155 ; vol. IV, Pls. 149-152 ; E.M.A., II, Fig. 72, p. 86.

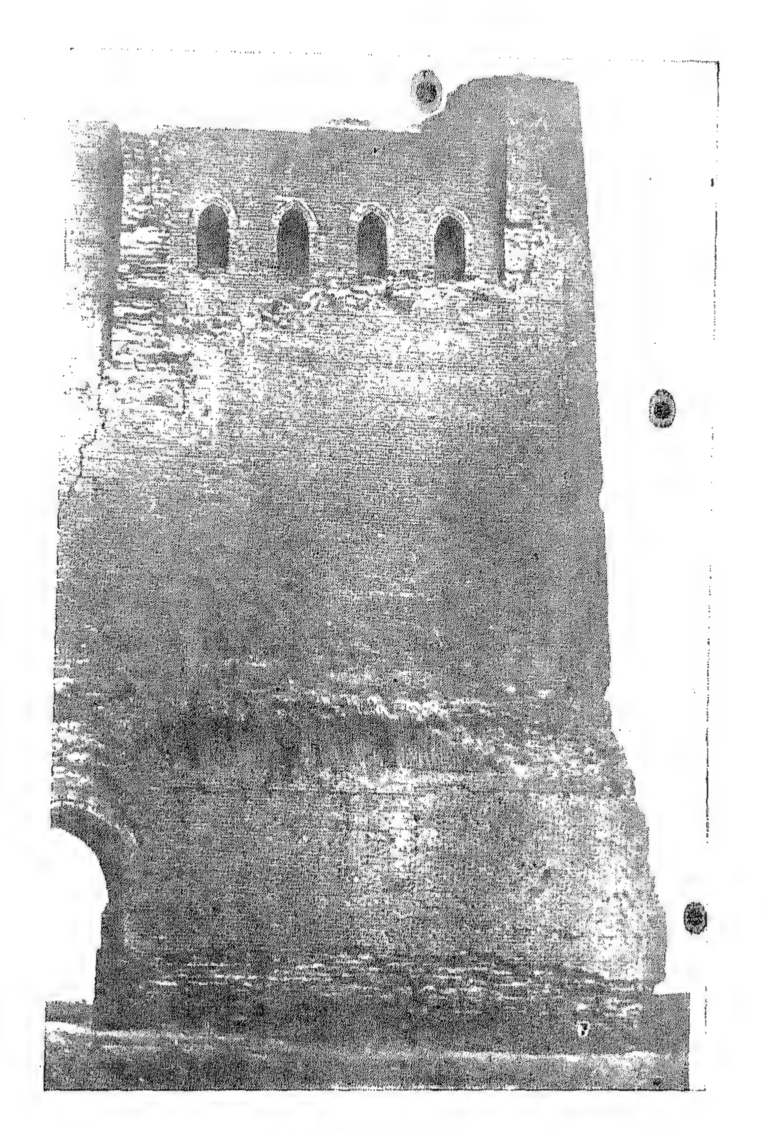
(٢) Survey, vol. I, pp. 493-4, 515-7.

(٣) Survey, vol. I, pp. 560-2, Fig. 160 ; E.M.A., II, p.

(٤) Ibid., pp. 568-9, Fig. 164.

(٥) Ibid., pp. 594, 495, 538-9, 545, 584-92, Figs. 147-8, 169-197, 211-14.

(٦) Ibid., pp. 552-4, 560, 565 etc., Fig. 162 C.



ش : ١.١ ـ المدائن : طاق كسرى
(الواجهة الخلفية حاليا)

تسمى الآن « زندان » (١) • وكل تلك الآثار قد نشرت عنها معلومات على هيئة تقارير مبدئية أو أبحاث • غير أنه توجد مواقع أخرى كثيرة بها آثار ساسانية فى منطقة العراق لم يتم نشر معلومات كافية عنها •

وهناك عدة آثار ساسانية فى منطقة قصر شيرين • ما بين قصور وقلاع وغيرها (٢) • وهى تقع على بعد نحو ١٨٠ كيلومترا الى الشمال الشرقى من بغداد قرب الحدود بين العراق وفارس • كما توجد آثار أخرى فى مناطق : طاق غرّا ، وحوش كرَى (٣) ، وطاق بستان (٤) • وتقع هذه المناطق على الطريق القديم المؤدى من العراق مخترقا ممرات زاجروس ـ أو غرّا ـ ليتجه الى كرمانشاه ويتجاوزها الى همدان (٥) •

وتحتوى منطقة خوزستان القريبة من الحدود العراقية ، وهى منطقة سوسة القديمة ، على عدة آثار ساسانية ، منها ايوان كرخا أو طاق ايوان (ش : ١٠٣) (٦) ، ومنها ما يوجد فى شُسْتَر وديزفول (٧) •

أما بقية المواضع داخل فارس فتوجد فى الجنوب والجنوب الغربى منها ، مثل فيروزاباد (٨) وسرفستان (٩) ، وبها قصور وعمائر ونقوش منحوتة فى الصخر ، وفى منطقة شابور (١٠) • كما توجد نقوش أخرى مثل نقش رُستم ونقش رجب (١١) • وقد أظهرت الحفائر آثارا ساسانية فى منطقة دَمْغان قرب بحر قزوين (١٢) ، وفى أقصى شمال بلاد فارس •

---

(١) Survey, p. 573 ; Sarre and Herzfeld : Ar. A., vol. II, 89-93, Figs. 175-7 ; vol. IV, Pls. CXXVII, CXXVIII.

(٢) Survey, vol. I, pp. 495, 498, 500-1, 504, 506, 519, 539, 540, 541, 573, etc., Figs. 153, 154, 158-9, etc. ; Bell (G.) : Palace and Mosque at Ukhaidir, pp. 44-50, Pls. 51-73 ; E.M.A., II, 107, Fig. 95.

(٣) Survey, I, pp. 495, 509-10, 570, etc., Fig. 5 ; S. H. : Ar. R., I, p. 150, II, p. 77 ; E.M.A.,I, p. 139.

(٤) Survey, I, pp. 496, 499, 510, 521, 528-30 ; Glück and Diez, D.K.d. Islam, p. 130.

(٥) Survey, I, pp. 495-6.

(٦) Ibid., pp. 495, 506-8, Fig. 135 ; Glück and Diez, p. 137 ; S. and H. : Ar. R., II, pp. 195-6 ; E.M.A., I, pp. 282-3, Figs. 326-329.

(٧) Survey, I, pp. 495, 499, 571 ; vol. IV, Pl. 261.

(٨) Ibid., pp. 493-4, 497-8, 500-1, 503, 505, 510, 533-6, Figs. 127, 150 ; vol. IV, Pls. 146-7 ; E.M.A., II, pp. 101-107, Figs. 83-8, 91-2 ; Glück and DieZ, pp. 128-9.

(٩) E.M.A., II, pp. 101-107, Figs. 89-90, 93, 75 ; Survey, I, pp. 494-5, 500, 508, 518, 536-7, Figs. 133-4, 142, 151-2.

(١٠) Survey, I, pp. 494, 593-600 ; vol. IV, Pls.

(١١) Ibid., pp. 593-600, Pls. ; G. and D., p. 120.

(١٢) Survey, I, pp. 494, 500, 504, 518, 579-83, Figs. 166-8.

ونخلص من الحديث السابق الى النتائج الهامة التالية وهى :

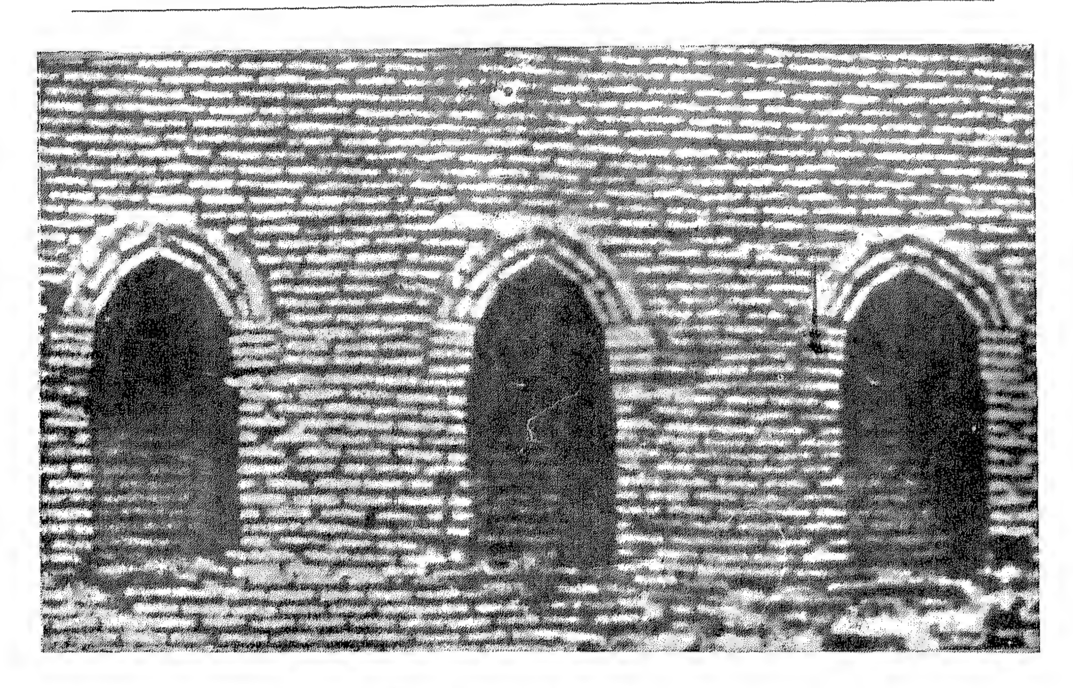
أولا : أن العمارة الأخامينية التى تسبق العصر الفارثى ، والتى وجدت أمثلتها فى منطقة فارس ، كانت أصولها مشتقة من التقاليد والأساليب فى أشورية القديمة التى كان موطنها العراق •

ثانيا : أن العمارة الفارثية لم يعثر منها على أمثلة خارج أراضى العراق الا فى النادر القليل المتناثر فى الأجزاء الغربية من بلاد فارس المتاخمة للعراق •

ثالثا : ان الآثار الباقية من العمارة الساسانية تتركز بصفة خاصة فى منطقة العراق ، بينما يوجد القليل منها فى فارس ، بل ان معظم هذا القليل يقع فى مناطق قريبة من حدود العراق •

وهى نتائج تدل على أن الحضارات الأصيلة القديمة كان موطنها العراق ، وأنه كان يحتل مكان القيادة فى جميع العصور التاريخية أى منذ ٣٠ قرنا من قبل الميلاد الى نهاية العصر الساسانى • ولم تمكث فارس فى مكان القيادة الا أكثر قليلا من قرنين فى العصر الأخامينى (٥٥٠ ـ ٣٣١ ق٠م٠) ، ثم عادت بلاد العراق بعد تلك الفترة الى مكانتها القيادية السابقة ، وذلك منذ بداية العصر السلوقى •

أو بمعنى آخر فان عمارة العراق فى العصور السابقة على الساسانى كانت هى الأصل بينما كانت العمارة فى فارس هى الفرع ، وليس العكس بصحيح • واذا أضفنا الى ذلك أن أمثلة العمارة الساسانية توجد فى كل من العراق وفارس، بل لعل العراقية منها أكثر وأقيم ، فان الأمر لا شك يدعو الى الاهتمام باعداد دراسات عميقة لتلك الظواهر ، نرجو أن يقوم بها الباحثون من العرب ، حتى يمكن الوصول الى معرفة مدى تأثير عرب العراق والأجناس العربية التى كانت تحيط به ، على نشأة وتطور حضارة تلك البلاد التى تسبق العصر الاسلامى ، والتى يضعها المستشرقون دائما داخل الاطار الفارسى ، وينسبونها الى انتاج الحضارة الفارسية سواء ما كان منها على أرض فارس ، أو على أرض العراق • وهو الاتجاه الذى يحرم الأجناس العربية من أى فضل على تطور الفنون ، أو من دراية بها حتى فى عصور ما قبل الاسلام وحتى لو كانت فى بقاع أخرى غير أرض الحجاز ، وهو ما يؤدى فى آخر الأمر الى نسبة العمارة والفنون العربية الاسلامية فى العصر العباسى المبكر الى جهود الفنانين الفرس فى منطقة العراق • وهى صورة أخرى تضاف الى صور التحامل العديدة على العرب والمسلمين•



ش : ١٠٢ – المدائن : طاق كسرى
(تفصيل الجزء العلوى من ش : ١٠١)

ولعب العامل الجيولوجى دورا هاما فى تكوين طابع العمارة الساسانية فى كل من العراق ، مقر الأكاسرة الساسانيين ، وتابعته فارس التى كانت مستعمرة عراقية .

فلقد تسببت ندرة الاحجار واشجار البناء ، ثم وفرة الطمى فى العراق فى أن يسود أسلوب البناء بالاجر أو اللبن فى معظم انحائه ، بينما وجد هو واسلوب البناء بالحجر فى فارس ، وذلك حسب وفرة كل منهما فى مناطق تلك البلاد .

ولكن على الرغم من أن كثيرا من العمائر فى مناطق فارس قد شيدت بالحجر ، الا أن أسلوب بنائها ليس متقنا ، ولا يدل على أن البنائين فى العصر الساسانى كانت درايتهم بالبناء بالحجر ترتفع الى مستوى زملائهم فى الشام الذين تشهد لهم آثار عمائرهم المشيدة بالحجر فى العصور المختلفة بالبراعة الفائقة والتمكن التام من تلك الصناعة وذلك من حيث قطع الأحجار ثم العناية بتسويتها ثم بنائها . أما البناؤون فى العصر الساسانى فى منطقة فارس ، فكانوا يعتمدون اعتمادا كبيرا على مونة الجص القوية ، لتتماسك بها الأحجار التى سويت بغير عناية كبيرة ، ولم يراع النظام والاتقان فى بنائها فى مواضعها . كما اعتمدوا على اخفاء تلك العيوب بتغطية أوجه الجدران بطبقة من الملاط ومن الجص ، وعمل زخارف من نفس المادة توضع فى الأماكن المراد زخرفتها .

ولكن الآجر ، أى الطوب المحروق ، كان واسع الانتشار فى مناطق خوزستان والعراق ، ووضع أحيانا فى الأساسات بطريقة مدماك من طوب فى وضع رأسى وآخر فى وضع أفقى بالتبادل • وهى طريقة معروفة فى العراق فى العصر الفارثى فى أشور [١] • كما استخدمت فى بعض العمائر فى العصر الاسلامى المبكر مثل أعمدة الأثر المعروف بتاريك خانة ، وهو مسجد فارسى من القرن ٢ هـ (٨م) [٢]• واستخدمت طريقة تشبهها فى بناء بعض المنازل فى فسطاط مصر لعلها ترجع الى العصرين العباسى والفاطمى • ومن العجيب أنها لا تزال تستعمل فى الجدران فى بلاد صعيد مصر حتى وقتنا الحاضر •

ويشترك أغلب العمائر الساسانية فى طريقة تسقيفها • اذ كانت تغطى بالأقبية ، سواء منها ما كان مشيدا بالحجر أو بالآجر ، وبعضها شيد بواسطة « عبوة » أى قالب من الخشب وقطاعه نصف دائرى ، وبعض آخر بدون عبوة (ش : ١٠٤) [٣] • وغالبا ما يكون الأخير له قطاع نصف بيضى Parabolic ، وتعمل أرجل الأقبية بارزة قليلا عن الجدار بواسطة Offset [٤] • وانتقل كثير من تلك الظواهر المعمارية الى العمارة الاسلامية المبكرة فى العراق والشام ، اذ نشاهدها فى قصر المشتى [٥] ، وقصر الطوبة [٦] ، وفى حمام الصرخ [٧] ، ثم فى قصر الأخيضر فى بادية العراق [٨] •

وكانت تغطى البحور الواسعة ــ أى المسافات بين جدران القاعات ــ بطريقتين: الأولى : بأقبية تمتد بطول القاعة أو الايوان • ويعمل القبو فى هذه الحالة عادة من النوع نصف البيضى • وأهم مثل له ايوان طاق كسرى فى المدائن جنوبى بغداد أو سلمان باك (ش : ٩٩ ــ ١٠١) الذى أشرنا اليه • أما الطريقة الثانية فهى أن تشيد عقود عرضية متساوية توضع بعرض القاعة أو الايوان ، وتتوالى وراء بعضها فى الاتجاه الطولى ويملأ ما بين كل عقدين بقبو عرضى يسير بين الجدارين الجانبيين ويرتفع مركز نصف دائرته فوق قمتى العقدين اللذين يحصرانه • فكأن القاعة قد غطيت بقبو طولى كبير ينقسم الى جملة عقود متوالية تفصل بينها أقبية عرضية •

(١) E.M.A., II, pp. 422-3, Fig. 99 a-b.

(٢) Ibid., II, pp. 98-100, Figs. 81-82, Pl. 24 a and b.

(٣) Survey, I, pp. 499-501, Fig. 129.

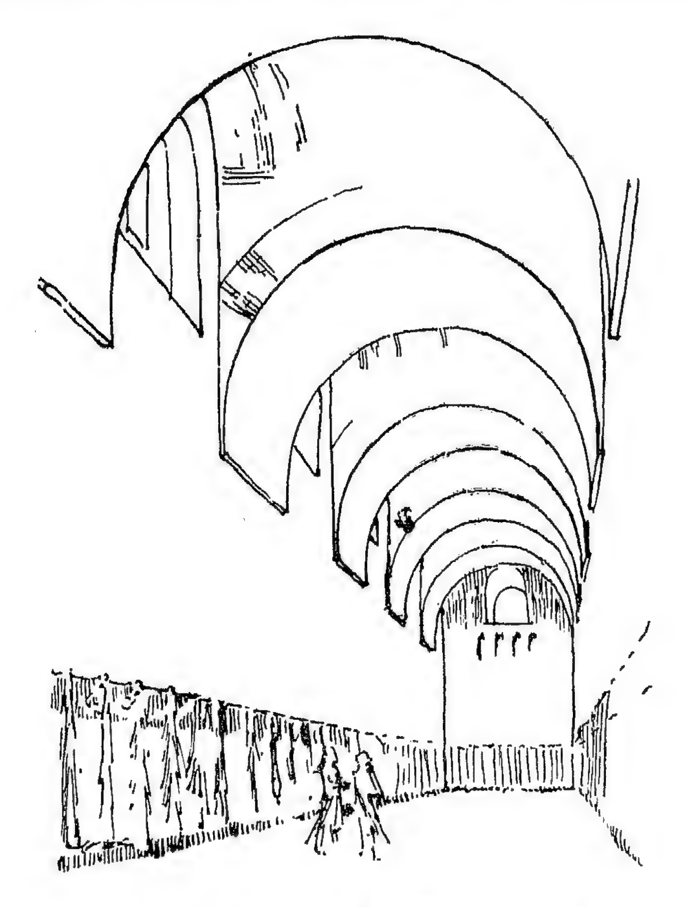
(٤) Ibid., Fig. 135 ; E.M.A., I, Figs. 328-30.

(٥) E.M.A., I, Fig. 447, Pls. 61 c, 62 a-c.

(٦) Ibid., Fig. 463, Pl. 80.

(٧) Ibid., Fig. 320, Pl. 52.

(٨) E.M.A., II, Figs. 38, 41, 48-50, 60, 62, 65, 76.



ش : ١٠٣ ـ الكرخ : طاق ايوان (منظور داخلي)

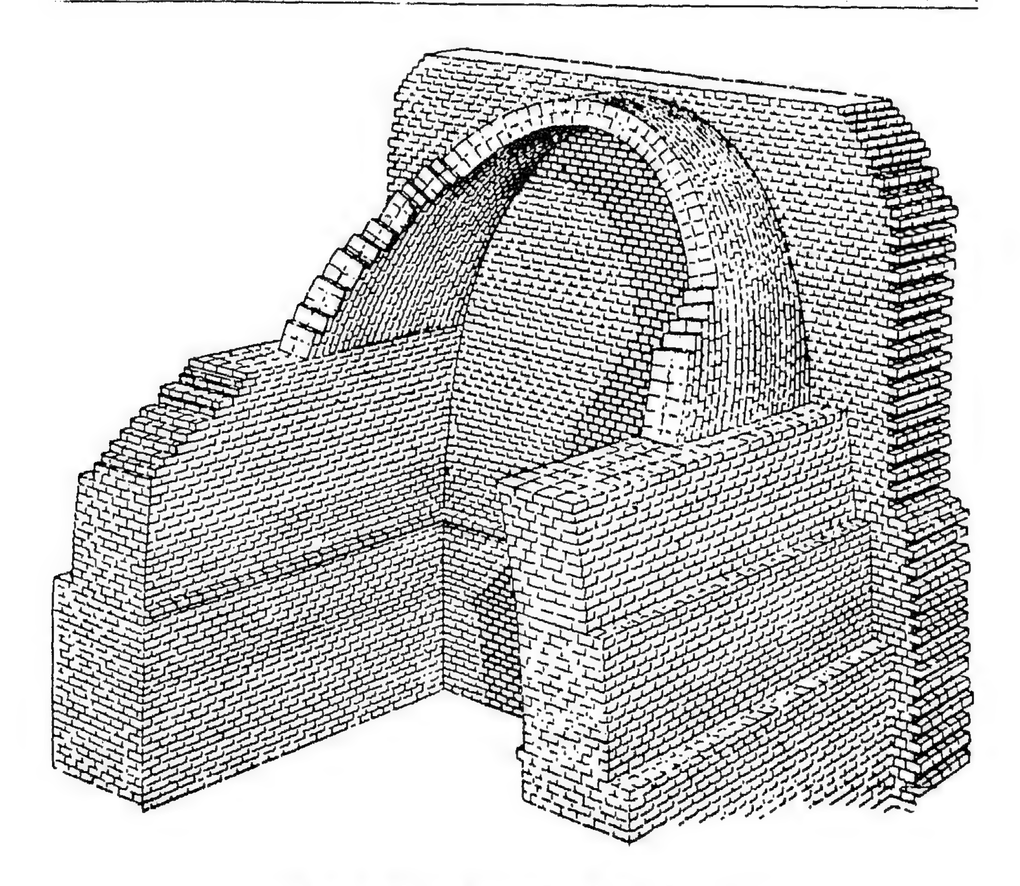
ويوجد مثل لهذه الطريقة في مبنى يعرف « بطاق ايوان » أو « ايوان كرخا » (ش : ١٠٣) في مدينة الكرخ التي أسسها شابور الثاني (٣٠٩ ـ ٣٧٩ م) [١] • وقطاع الأقبية نصف دائري ، سواء ما كان منها في الوضع الطولي أو في الوضع العرضي •

ومما يستوقف النظر أن الطريقة الثانية ـ بصرف النظر عن قطاع الأقبية ـ قد استخدمت في عمائر من العصر الأموي في بادية الأردن مثل قصير عمره (ش : ١٠٥ ـ ١٠٦) [٢] ، وحمام الصرخ (ش : ١٠٧) [٣] ، بينما لم يعثر على أمثلة لها في العراق من العصر العباسي الأول •

(١) Survey, I, Fig. 100 ; E.M.A., I, Fig. 448.

(٢) E.M.A., I, Fig. 314.

(٣) Ibid., Fig. 320.



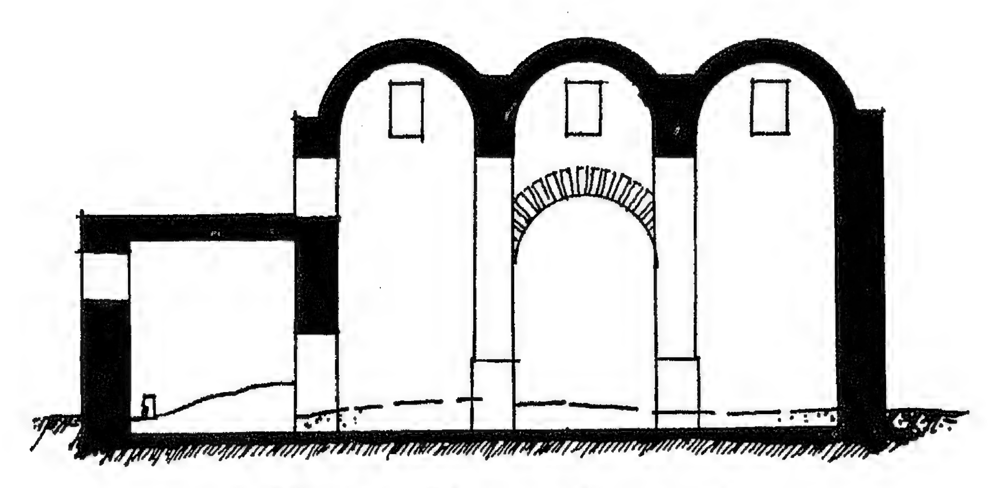
ش : ١٠٤ ـ الطريقة الساسانية لبناء الاقبية بغير قالب

ومن الملاحظ ان هذه الطريقة تختلف تماما عن فكرة الاقبيـة المتقاطعة التى انتشرت فى العمارة الرومانية ثم فى سليلتها البيزنطية ، ولذلك فانه يستلفت النظر ان تستخدم تلك الطريقـة الساسانية فى الشـام ، فى القصرين اللذين أشرنا اليهما ، مما يدل مرة أخرى على الصلة الوثيقة التى كانت قائمة بين العراق والشام وبخاصة منذ انضوائهما تحت لواء الاسلام .

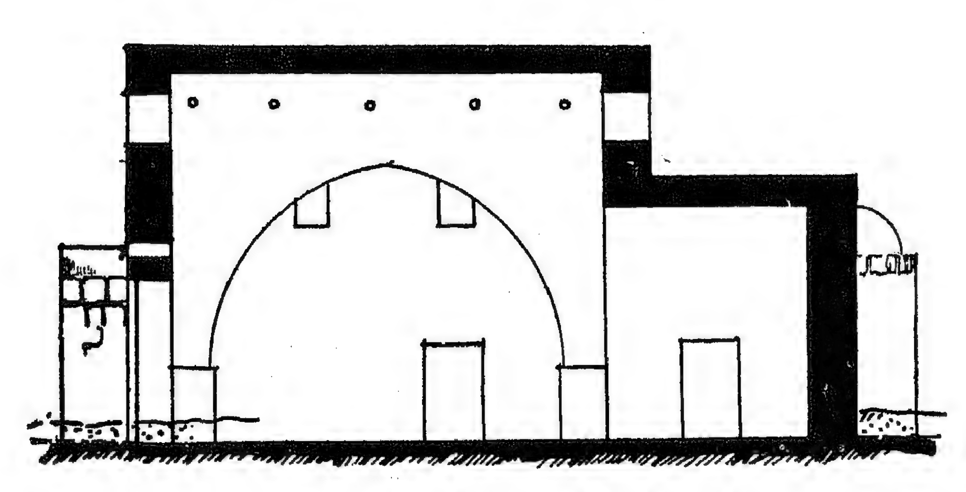
وعرفت القباب منذ أقدم العصور فى العراق ، ثم انتقلت منه الى فارس ، بل ويغلب على الظن ان فكرتها قد انتقلت الى الطراز الرومانى الذى عرفها بعد أن ورث الرومان الامبراطورية الاغريقية ومستعمراتها فى الشرق .

هذا وتتميز القباب الساسانية بان كثيرا منها قطاعه نصف بيضى (ش : ١٠٨) [1].

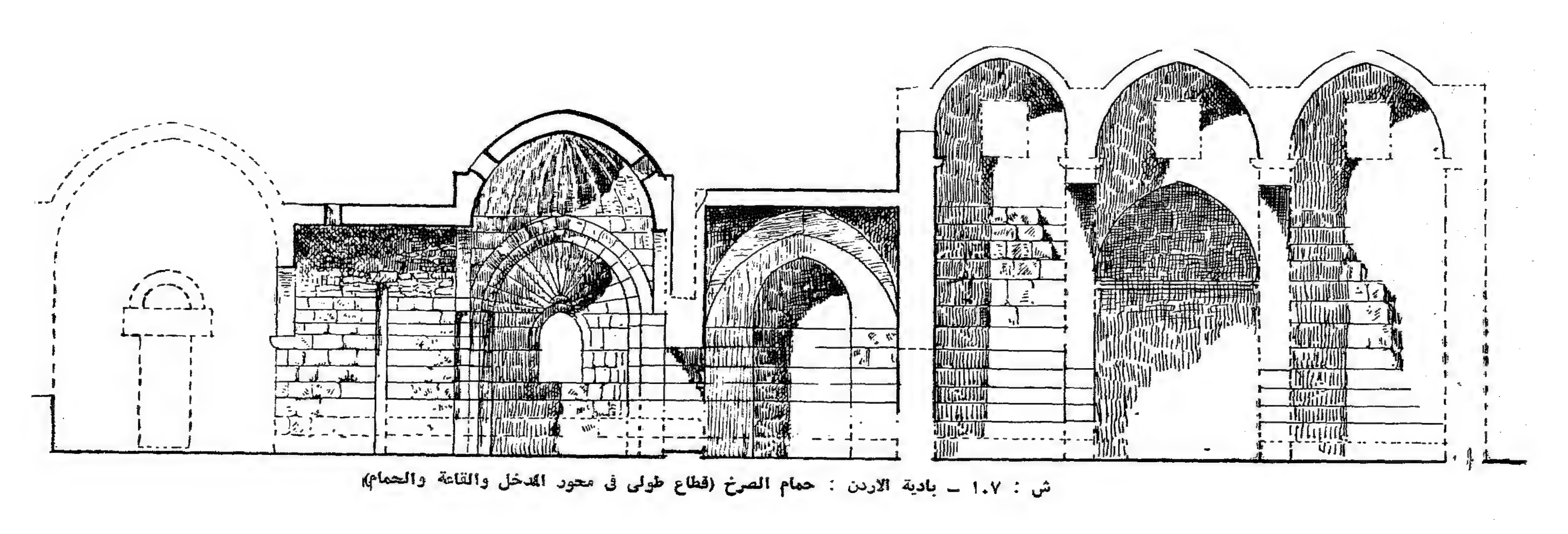
(1) Survey, I, Figs. 131, 152 ; vol. IV, Pl. 148 ; E.M.A., II, Figs. 84, 90.



ش : ١٠٥ ــ قصير عمره : قطاع عرض فى القاعة والحمام



ش : ١٠٦ ــ قصير عمره : قطاع طولى فى محور المدخل



ش : ١٠٧ ـ بادية الاردن : حمام الصرخ (قطاع طولى فى محور المدخل والقاعة والحمام)

وابتكر الساسانيون طريقة خاصة بهم للانتقال من زوايا ركن المربع الى دائرة القبة • وهى تختلف عن طريقة المثلثات الكروية التى انتشرت فى العمائر الشامية فى القرون المبكرة من الميلاد • اذ تتكون الطريقة الساسانية من وضع حنية فى كل ركن على هيئة قبو نصف دائرى أو نصف بيضى يتضاءل قطره كلما قرب من ركن المربع ، أو هو بمعنى آخر أشبه بنصف مخروط وضع محوره أفقيا بحيث ينصّف هذا المحور زاوية الركن القائمة ، أى أن قاعدته النصف بيضية أو نصف الدائرية قد وضعت فى مستوى رأسى ، ووضع ضلعا نصف المخروط فى مستوى أفقى بحيث ينطبقان على ضلعى زاوية ركن المربع (ش : ١٠٩ ، ١١٠) [١] • ولكن مما يستوقف النظر أن هذه الطريقة كانت تحوّل المربع الى دائرة ، وليس الى مثمن كما حدث عندما استخدمت أشباه تلك الحنيات فى العصر العربى الاسلامى كما سيأتى شرحه •

واستخدم الساسانيون أنصاف القباب لتغطية الحشوات الغائرة Recesses المتعامدة الجوانب ، كما فى قصر سرفستان [٢] • وظهرت هذه الفكرة فى العمارة العربية الاسلامية ، ويوجد أقدم مثل باق منها فى قصر الأخيضر فى بهو المدخل الكبير ، ثم فى الفناء الأوسط الرئيسى (ش : ١١٢) [٣] ، وظهرت فى مصر فى الدخلات التى تزين جانبى كتلة المدخل البارز لجامع الحاكم بأمر الله [٤] • غير أن أنصاف القباب هذه فى الأمثلة العربية الاسلامية تبدأ حافاتها السفلى فوق بلاطات مثلثة مسطحة (ش : ١١٢) •

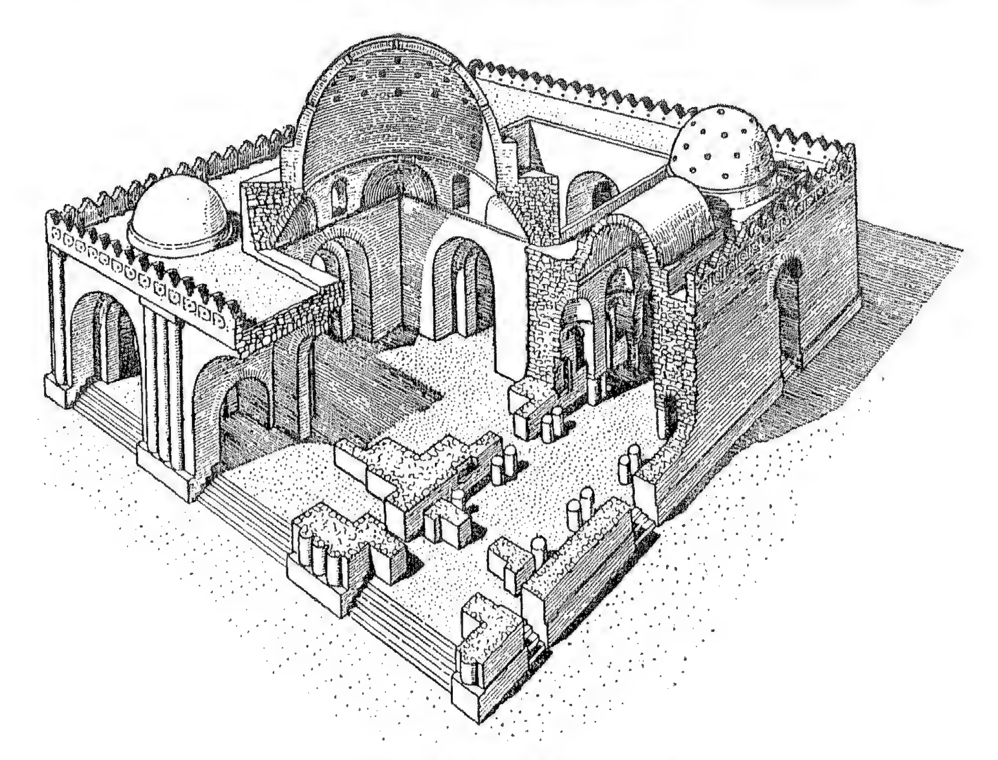
ومن الظواهر المعمارية التى يمتاز بها الفن الساسانى كثرة استعمال الحشوات أو الدخلات فى الواجهات مرصوصة بجوار بعضها وتوج أغلبها بالعقود فى صفوف تعلو بعضها • وكان الغرض من تلك الحشوات زخرفيا أكثر منه انشائيا • ومن أمثلة ذلك ما يوجد فى واجهة طاق كسرى (ش : ٩٩ ، ١٠٠) وقصر فيروزاباد [٥] ، وغير ذلك • وهى تذكرنا بفكرة مشابهة فى واجهات العمائر العربية الاسلامية ، وبخاصة فى مصر ، وبدأت فى الظهور فيها فى أثناء العصر الفاطمى ثم انتشرت فى العصر الأيوبى وزادت انتشارا فى العصر المملوكى وفى العصر العثمانى • ولكننا لا نرى أية علاقة

(١) Survey, I, Figs. 130-1, 133, 152, etc. ; E.M.A., II, Figs. 84-5, 90-95.

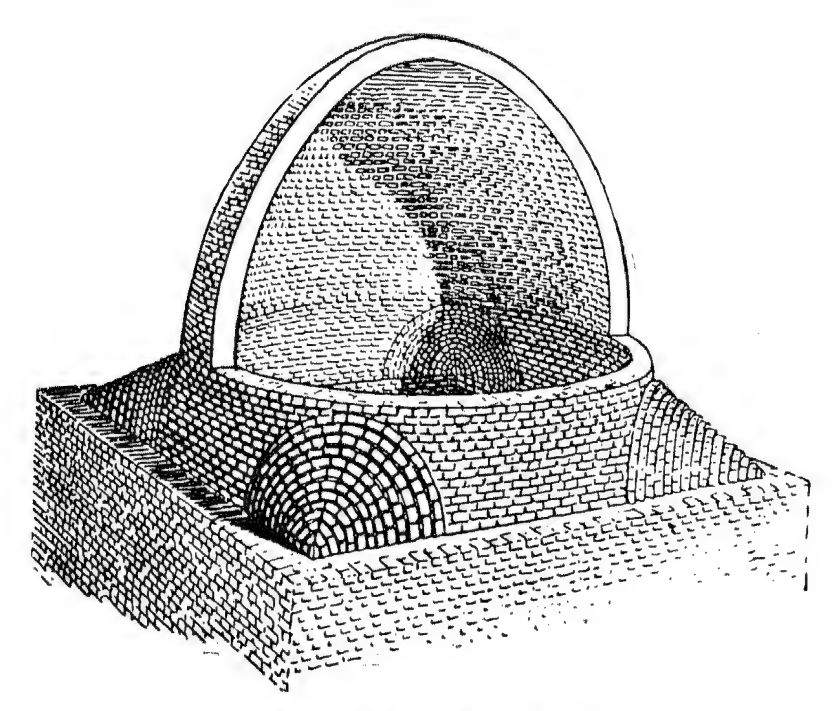
(٢) E.M.A., II, Fig. 75 ; Survey, I, Fig. 134 ; vol. IV, Pl. 148 B .

(٣) E.M.A., II, Figs. 41, 44, 45, 49-50, 59, 60, etc., Pls. 10 c-d, 11 a, 12-14, etc.

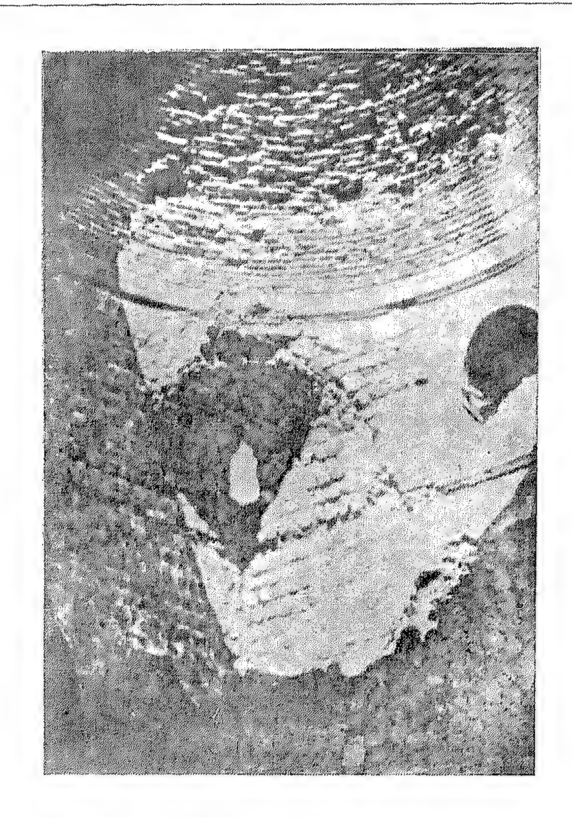
(٤) Creswell : Muslim Architecture of Egypt, vol. I, Pl. 17.



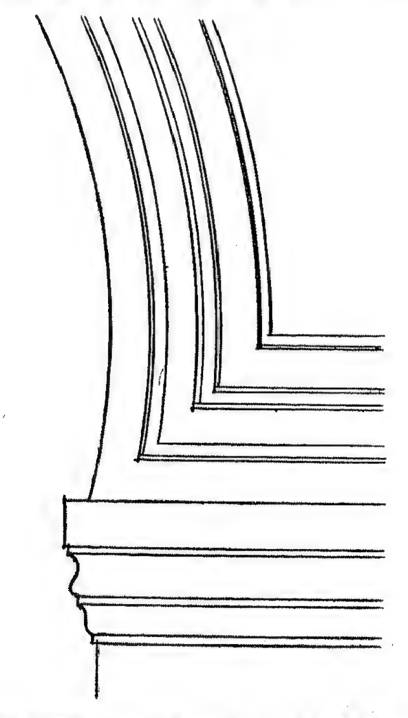
ش ١٠٨ ـ سرفستان ، منظور القصر



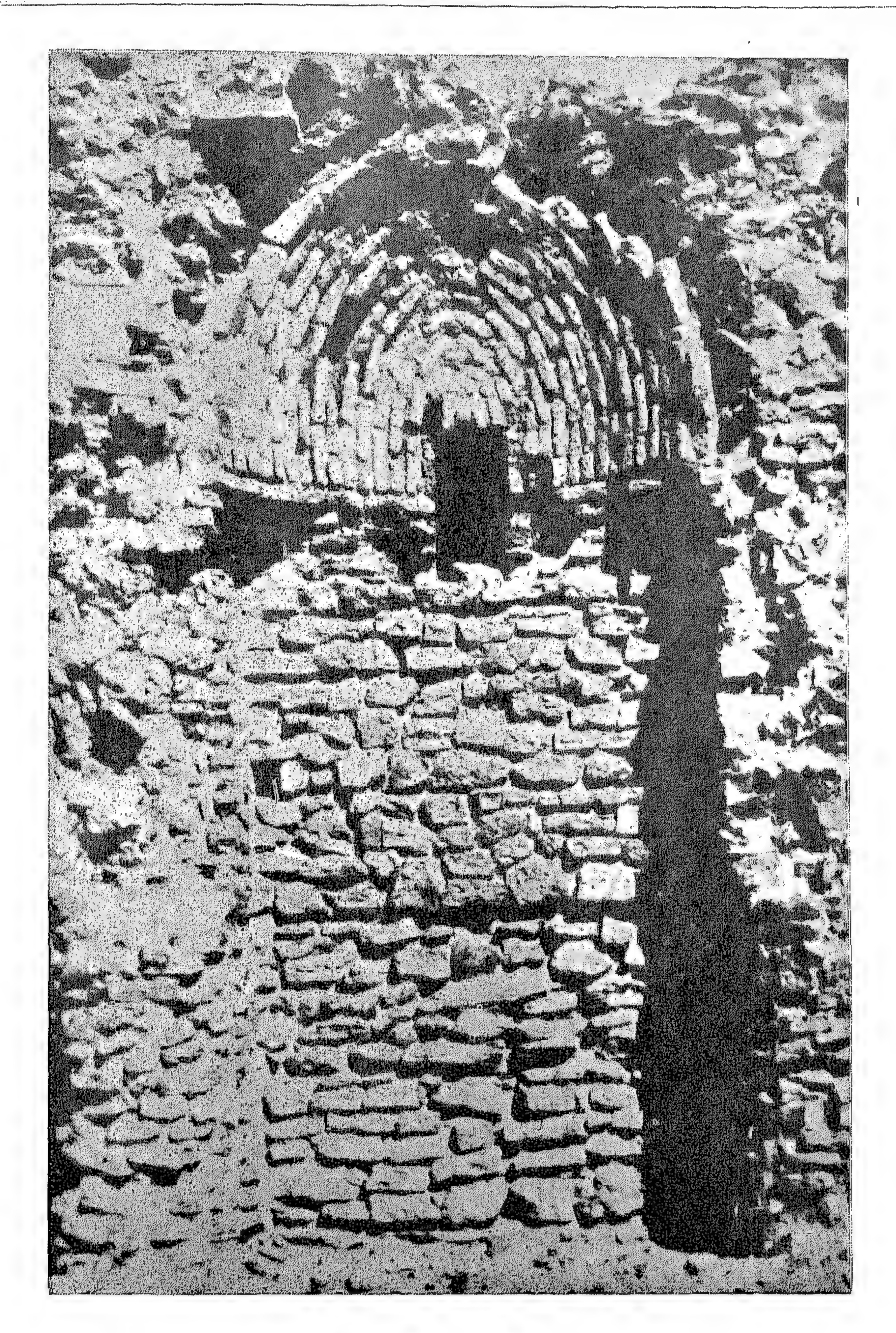
ش : ١٠٩ ـ سرفستان : مقرنصات مخروطية



ش : ١١٠ ـ فيروزاباد : مقرنصة مخروطية



ش ١١١ ـ طاق قرا : عقد حدوة الفرس والحلية الناقوسية



ش : ١١٢ ـ الاخيضر : طاقية دخلة جدارية

بين وجودها فى العمارة الاسلامية وبين استعمالها فى العصر الساسانى • فالحشـوات فى العصر الاسلامى فى مصر ترتفع الواحدة منها ابتداء من فوق سفل الواجهات الى قرب الطنف العلوى الذى يتوج الواجهات • فهى والحالة هذه كانت أعضاء رئيسية

فى التكوين المعمارى للواجهات ، بينما كانت الحشوات فى العصر الساسانى مجرد زخارف ثانوية .

واستخدم الساسانيون أنواعا قليلة من العقود كان أكثرها العقد نصف الدائرى، كما عرفوا العقد شكل حدوة الفرس ، فنرى مثلا له فى « المعارض » عند « المدائن » [١] ، وفى طاق غرّا (ش : ١١١) [٢] . ونشاهده فى واجهات بعض العمائر المرسومة على الأوانى المعدنية الساسانية . وينسب الى العصر الساسانى أقدم مثل مرجح التاريخ للعقد حدوة الفرس ويوجد فى معمدانية مار يعقوب فى مدينة نصيبين ، ويؤرخ فى عام ٣٥٩ م (ش : ٩٢) [٣] .

ويستلفت نظرنا فى قصر طاق كسرى أنه يوجد به عنصر من أهم العناصر المعمارية التى تتصل اتصالا وثيقا بالطراز الاسلامى ، وهو العقد المدبب من المميزات الرئيسية للعمارة العربية الاسلامية بل علم من أعلام عناصرها . استخدم العقد المدبب فى هذا القصر ليتوج تسعة شبابيك كاذبة وضعت فى صف واحد فى الطرف العلوى للواجهة الخلفية من النصف الباقى من جدار الواجهة الرئيسية وهو يحف بالايوان الكبير (ش : ١٠١ - ١٠٢) .

ويتضح جليا فى الشكلين السابقين أن الهيئة المدببة للعقود لم تأت عفوا أو نتيجة لعدم دقة فى طريقة البناء ، بل كان عملها مقصودا . ذلك أن العقود كلها قد شيدت بطريقة واحدة استخدمت فيها « عبوة » من الخشب ، اذ لا يمكن بناء الجنزير الأسفل المكون من بلاطات الآجر الموضوعة على « بطنها » بغير تلك العبوة . ولكن على الرغم من ذلك الوضوح فان معظم مؤرخى الفنون من الغربيين ما زالوا يعارضون فكرة وجود العقد المدبب فى العراق فى العصر الساسانى ، ولا يزال الاتجاه قائما نحو اعتبار المثل الموجود فى كنيسة قصر ابن وردان بالشام ، والذى يؤرخ بين سنتى ٥٦١ و ٥٦٤ م ، أنه هو أقدم أمثلة العقود المدببة ، وأنه السابقة التى اقتبس منها العقد المدبب فى العصر الاسلامى [٤] ، والذى يعود أقدم مثل منه الى أيام الوليد بن عبدالملك، حيث يوجد فى المسجد الأموى بدمشق ويؤرخ بناؤه فى عام ٩٦ هـ (٧١٤ هـ) .

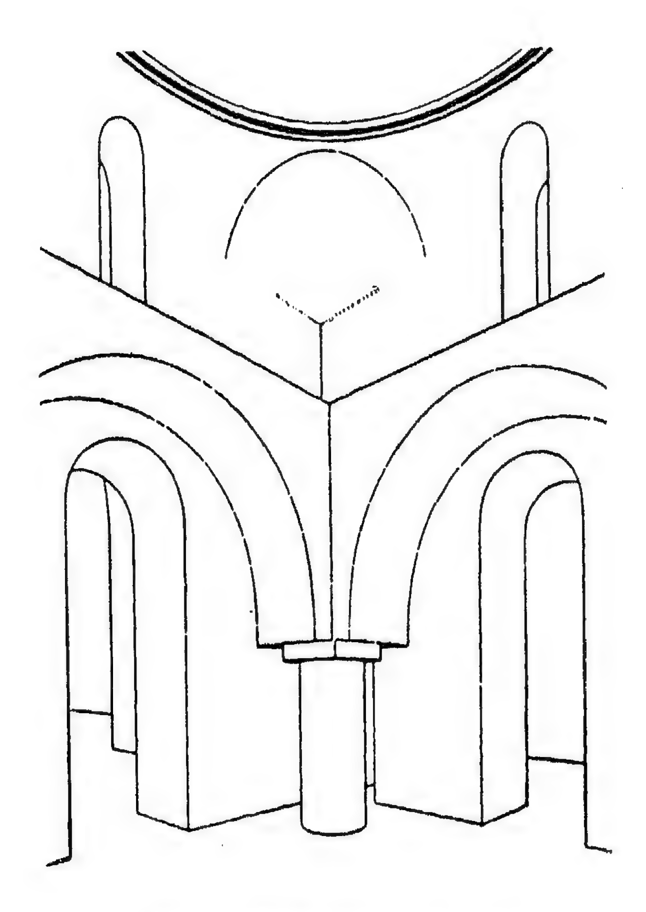
---

(١) Survey, I, Fig. 137.

(٢) Ibid., Figs. 138-9 ; vol. IV, Pl. 237.

(٣) E.M.A., I, pp. 137-9, Fig. 77.

(٤) Ibid., I, pp. 278-80.



ش : ١١٣ ـ اعمدة قصيرة تحمل العقود

وعلى أساس تلك العقود المدببة فى طاق كسرى يمكننا القول بأن أقدم مثل للعقد المدبب يوجد فى العمارة العراقية فى العصر الساسانى ، وأنه يؤرخ اما فى عصر الملك شابور الأول (٢٤٢ ـ ٢٧٢م) ، وهو مايرجحه أغلب المؤرخين ، أو فى عصر الملك خسرو الأول (٥٣١ ـ ٥٧٩ م) [١] . وهو فى الحالة الأولى يسبق المثل الموجود فى كنيسة قصر ابن وردان ، وفى الحالة الثانية يعاصره . هذا مع العلم بأن تأريخ كنيسة قصر فى القرن السادس الميلادى أى فى فترة تسبق ظهور الاسلام وانتشار الفتوح الاسلامية أمر يحوطه الكثير من الشك .

وللساسانيين طريقة خاصة فى بناء العقود والأقبيــة بالآجر • وتتلخص فى بناء حلقات الطوب التى تسمى فى الاصـــطلاح الدارج « بالجنازير » جمع « جنزير » بحيث يبدأ الجنزير الأول بوضع قوالب الآجر المربعة وأوجهها توازى سطح الجدار الذى وضع فيه العقد ، أو الجدار الذى يتعامد عليه القبو ، وقد يبنى الجنزير الذى يحيط به بنفس الوضع ، ثم تأتى الجنازير التالية بحيث يتعامد السطح المربع للطوب على واجهة الجدار ، ويتجه نحو مركز القبو ، أو كما نســميه فى الوقت الحاضر « طوب على سيفه » (ش : ١٠٤) [١] •

وبالاضافة الى الفكرة التى كانت شائعة فى العمارة الهلينســتية والرومانية من وضع العقود فوق أعمدة يبلغ ارتفاعها نحو ثلاثة أضــعاف نصف قطر العقد ، فان الساسانيين قد استخدموا أعمدة قصيرة يكاد ارتفاعها يساوى نصف قطر العقد ، بل ينقص عنه أحيانا (ش : ١١٣) [٢] • ومما يستوقف النظر أن نجـد أشـباه هذه الظاهرة المعمارية قد انتشرت فى العمارة الاسلامية فى شمال افريقية والأندلس حتى أصبحت من المميزات المعمارية هناك •

وانتشرت فى العمارة الساسانية ظاهرة وضع رجل العقد فوق العمود مباشرة • ومن المرجح أن يكون الساسانيون قد سبقوا البيزنطيين الى هذه الفكرة • فقـد عثر على بعض التحف المصنوعة من الصلصال المحروق (التراكوتا) رسم عليها بالنقش البارز عقود وضعت فوق الأعمدة مباشرة وتنسب الى أواخر العصر الفارثى أو أوائل العصر الســاسانى ، أى فى القرن ٣ م [٣] • ولذلك فاننا نميل الى القــول بأن هذه الظاهرة ساسانية الأصل ، وأنها انتقلت مع ما انتقل من الظواهر الساسانية الى الطراز البيزنطى •

وابتكر الساسانيون نموذجا جــديدا من تيجان الأعمــدة يجمع بين الهـرم والمخروط الناقص فى وضع مقلوب (ش : ١١٤) [٤] • اذ يبدأ التـاج فوق البدن مباشرة ومقطعه مستدير تماما كاستدارة البدن • ثم يزيد قطر التاج كلما ارتفع مع تحـول محيطه الدائرى الى شــكل يجمع بين الدائرة والمربع • أو بمعنى آخـر يتحول المحيط الى مربع مستدير الأركان ، وتقــل استدارته كلما زاد حجـم التاج

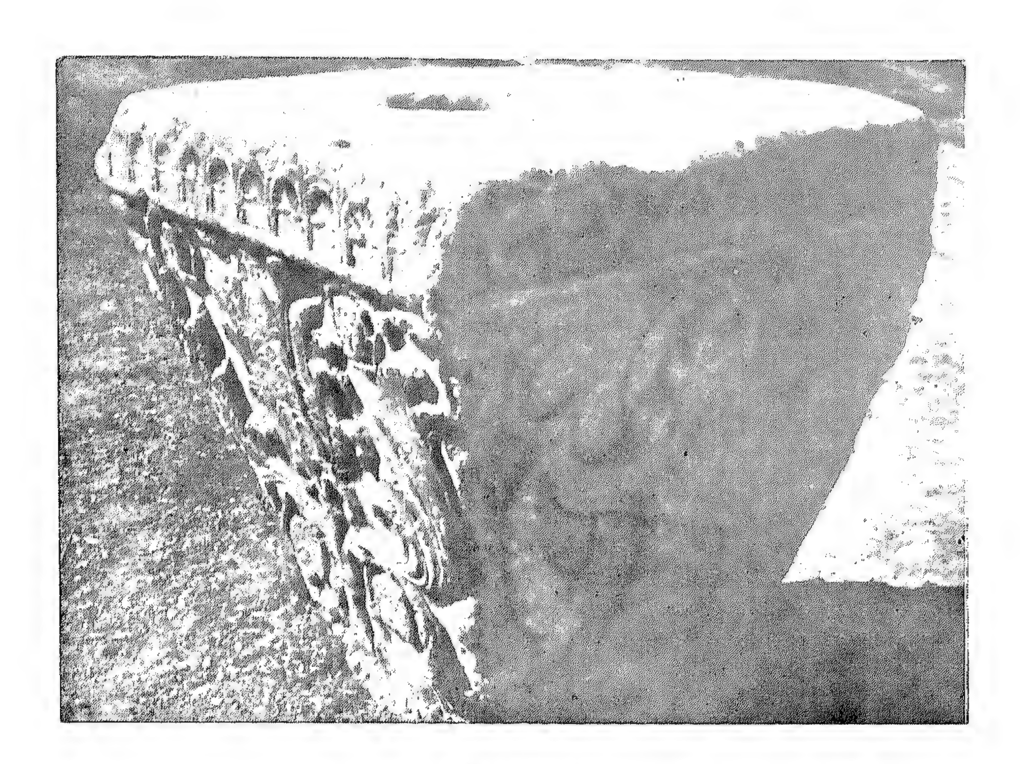
---

(١) Survey, I, Fig. 100 ; E.M.A., I, Fig. 448.

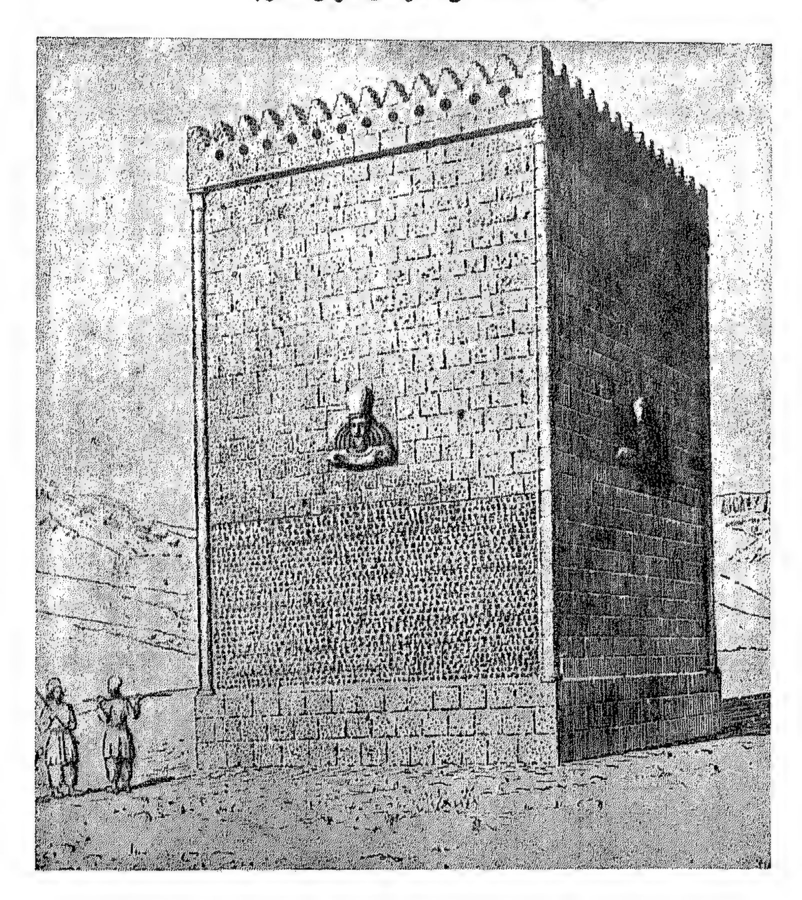
(٢) Survey, I, Figs. 133-4 ; vol. IV, Pl. 148 ; Fletcher, p. 80 K.

(٣) Survey, vol. IV, Pl. 145 B and D.

(٤) Sarre, pp. 92, 93, Figs. 12, 13 ; Survey, IV, Pls. 153 A and B, 168.



ش : ١١٤ ـ تاج مخروطي هرمي مقلوب



ش : ١١٥ ـ الاثر المعروف باسم نارسي

وارتفع الى أن ينتهى الى مربع كامل قائم الزوايا فى سطحه العلوى • وأشرنا من قبل الى أن هذا النموذج قد اقتبسه البيزنطيون وأصبح أحد نماذج أعمدتهم (ص : ١٥٠ – ١٥١ ش : ٩٤) •

أما التاج الكأسى الذى أشار اليه هرتزفلد وقال عنه أنه عثر عليه فى المبنى الذى أطلق عليه اسم « نارسى » فى بايكولى (ش : ١١٥) ، فاننا فى شك كبير من ناحيته ، اذ ليس لدينا صورة فوتوغرافية واقعية له ، أما التى نشرت فهى رسم يدوى تصورى [١] ، لا يعول عليه فى مثل هذه الموضوعات ذات الأهمية الخاصة ، والتى تتطلب أدلة قوية حاسمة للبت فيها •

ولكن يوضح لنا ذلك الرسم من جهة أخرى – اذا توفرت فيه الدقة المطلوبة – مثلا قديما يمكن أن يعد مصدرا للفكرة التى انتشرت فى العمارة الاسلامية منذ العصر العباسى ، وتتمثل فى وضع أعمدة ملتصقة بنواصى البدنات أو الدعامات البنائية أو نواصى الشبابيك • وتوجد أقدم أمثلة لها فى مصر فى شبابيك وحنيات جدران جامع عمرو بن العاص (ش : ٢١١ – ٢١٤) ، وفى قصر الأخيضر • ولكن تسبقها الأمثلة فى باب بغداد فى الرقة (ش : ٢٢٢) ، وكانت موجودة فى نواصى البدنات المربعة التى وضعت فوقها سقوف الظلات فى مسجد سامرا الكبير (ش : ٢٣٤) [٣] ، وفى جامع ابن طولون (ش : ٢٣٥ ، ٢٩٩ – ٣٠٠ ، ٣٠٣ – ٣٠٥) ، وفى كثير من واجهات العمائر وبخاصة منذ العصر المملوكى •

واستخدم المعماريون فى العصر الساسانى الحليات المعمارية Mouldings واقتبسوا بعضها من أصول هلينستية ، ولكنهم طوروها بطريقتهم الخاصة وأكسبوها طابعا محليا • ويهمنا منها حلية « الكأس » البصلية (ش : ١١١) ، والتى تطورت من حلية الكأس الاغريقية والرومانية Cyma (ش : ٢٠ ، ٥٦) ، فقد صارت حلية الكأس البصلية هى الشكل الرئيسى لحليات العمائر الاسلامية فى أكثر العصور منذ البداية الى النهاية ، وخاصة للطنف التى تتوج واجهات العمائر ، ولكن بعد أن اكتسبت شكلا اسلاميا خالصا •

ومن زخارف الحليات زخرفة الخرز والأقراص Bead and Fillet ، ومنها حليات السبحة العادية المثقوبة (ش : ١١٦ – ١١٨) [٤] • ومنها أيضاً الاطارات

(١) E.M.A., II, p. 265 ft. n. I ; Survey, I, Fig. 164.

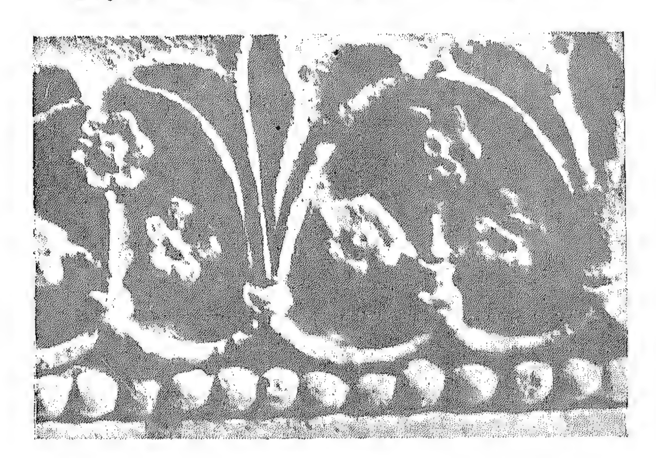
(٢) E.M.A., II, Fig. 33, Pl. 4 d.

(٣) E.M.A., II, pp. 257-8, Fig. 203.

(٤) Survey, I, Figs. 175, 188 c ; vol. IV, Pls. 171, E and F and G, 173 A and C.



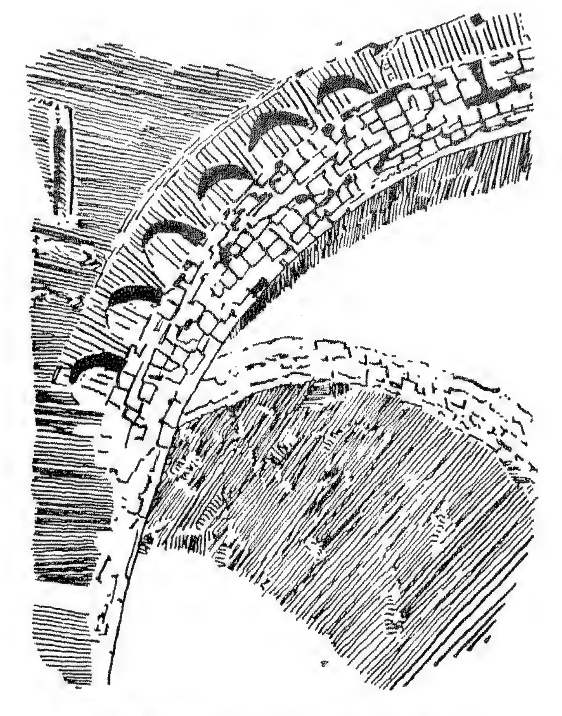
ش : ١١٦ ـ زخرف الخرز الاسطوانى والاقراص



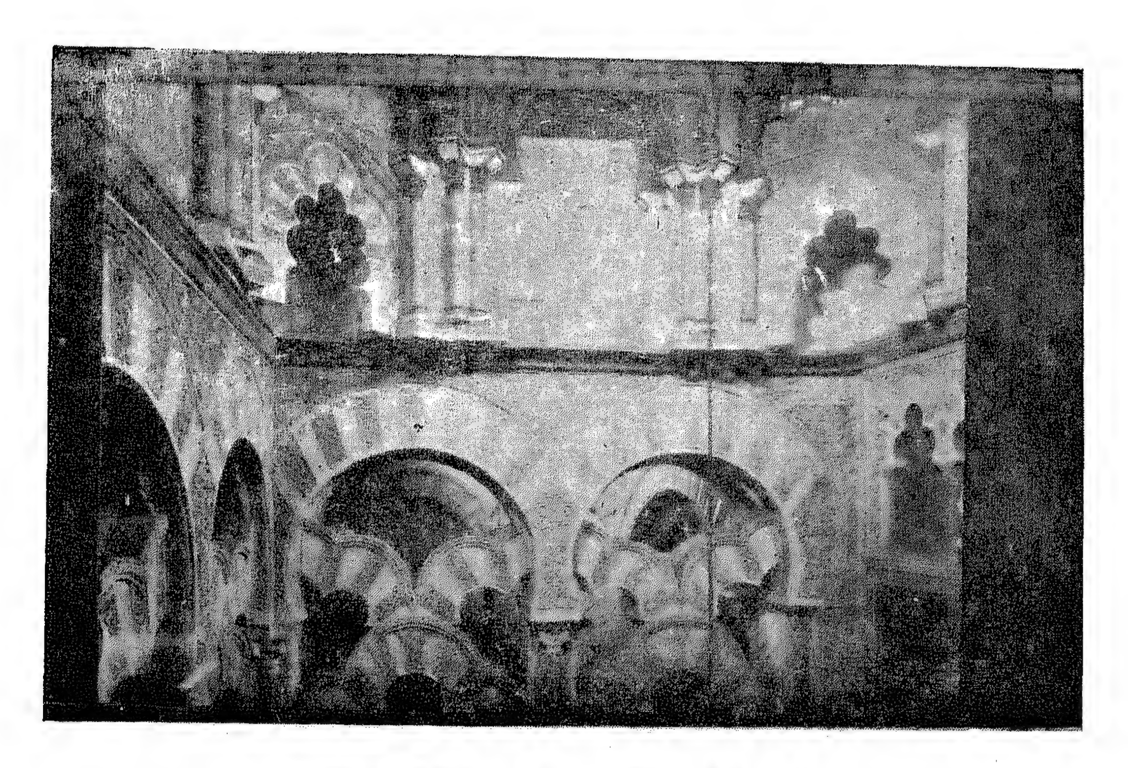
ش : ١١٧ ـ زخرف الحبيبات



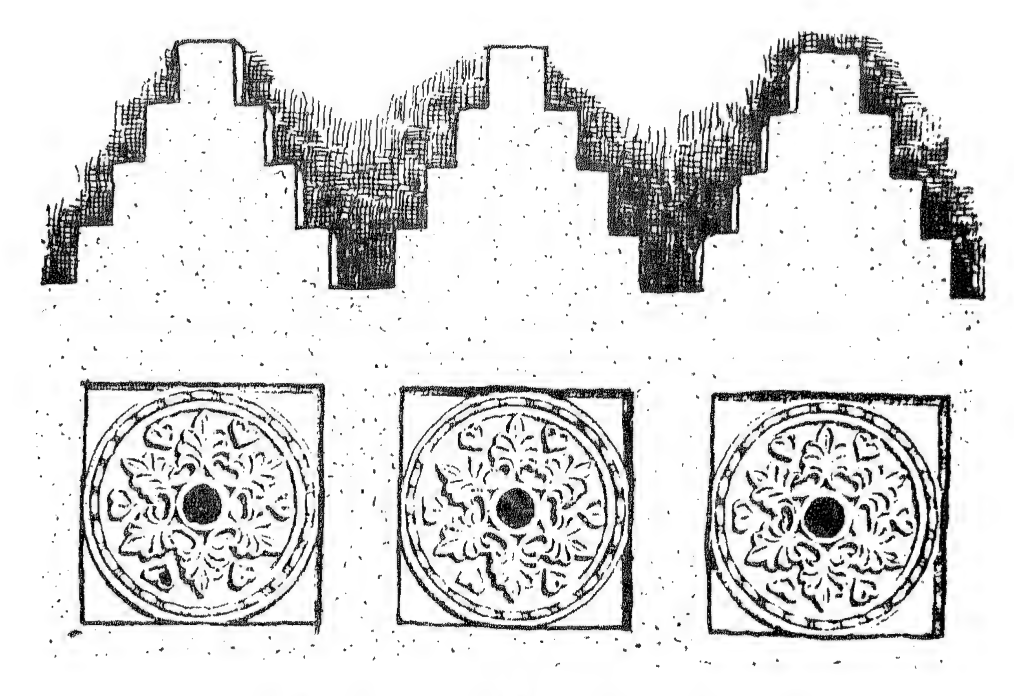
ش : ١١٨ ـ عنصر الاقراص المثقوبة



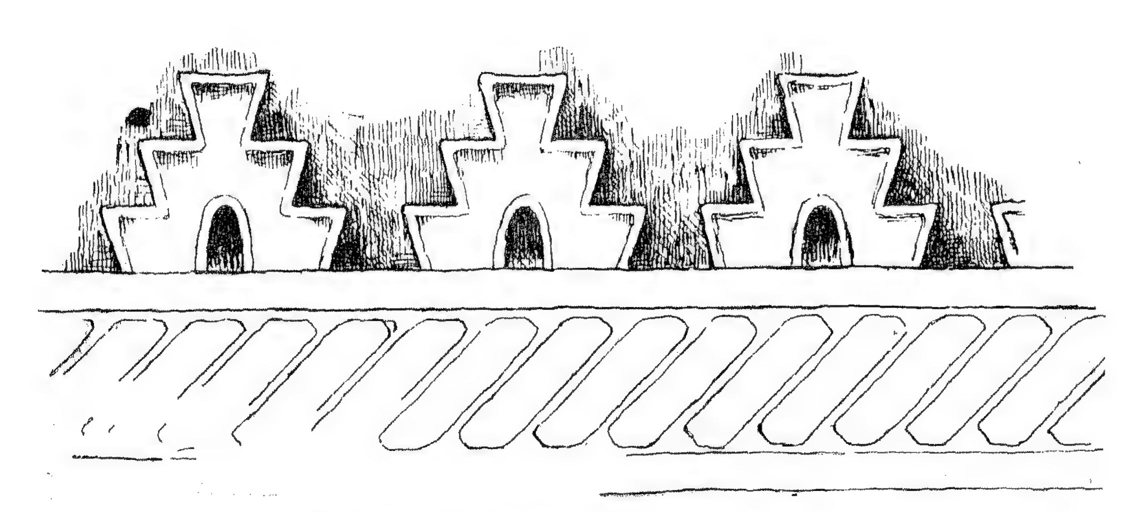
ش : ١١٩ ــ طاق كسرى : عنصر الفصوص



ش : ١٢٠ ــ قرطبة : العقود ذوات الاطارات المفصصة في المسجد الجامع



ش : ١٢١ ـ الشرافات ذات الاسنان الرأسية



ش : ١٢٢ ـ الشرافات ذات الاسنان المائلة

المكونة من عقود صغيرة متلاصقة تسمى « فصوص » Lobes (ش : ١١٩) [١] . واقتبسها المسلمون فى العصر العباسى وطوروها وعددوا من أشكالها [٢] ، فأصبحت من العناصر المميزة للزخارف الاسلامية المعمارية ، وبخاصة فى المغرب الاسلامى ، أى شمال افريقية والأندلس ، اذ أخرج منها الفنانون هناك أنواعا ونماذج غاية فى الروعة والبهاء (ش : ١٢٠) [٣] .

ومن الزخارف الساسانية المعمارية التى انتقلت الى الفن العربى الاسلامى عنصر الشرافات المسننة المعروفة منذ العصور القديمة فى فارس والعراق وأواسط آسيا [٤]. وانتشر استعمالها فى الفن الساسانى فى الأطراف العليا للعمائر (ش : ١١٥ ، ١٢١ ، ١٢٢) وكذلك كزخارف فى تيجان القياصرة الساسانيين (ش : ١٢٣) [٥] . وجوانب بعض هذه الأسنان رأسية ، وبعضها مائلة . كما ظهرت فى العمارة الرومانية الشامية ، فقد عثر على بقايا منها فى خرائب المعبد الكبير فى مدينة تدمر (ش : ١٢٤) [٦] .

ومن الأساليب الهامة التى برع فيها الساسانيون طلاء الجدران بالجص ، مما أتاح لهم أن يخلقوا فيه زخارف وعناصر منوعة ، بعضها من أصول هلينستية وبعضها من أصول محلية [٧] ، أو من مزيج منهما . وتبع ذلك تمكنهم من صناعة الزخارف الجصية وصبها فى قوالب لاستخراج عدة نسخ من أصل واحد لتغطية مساحات واسعة بالزخارف .

* * *

(١) Sarre and Herzfeld : Ar. R., II, p. 68, Fig. 172 ; E.M.A., vol. II, Fig. 78.

(٢) E.M.A., II, Figs. 41, 44, 59, Pls. 12 b-c, 19 b, 38 a, 66 d.

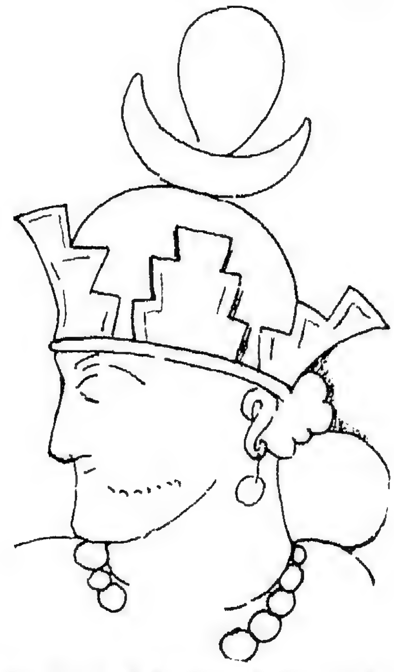
(٣) Glück and Diez, pp. 196-8, 214-6.

(٤) Survey, I, Figs. 144 a-c, 145 ; vol. IV, Pl. 237 ; E.M.A., II, Fig. 193.

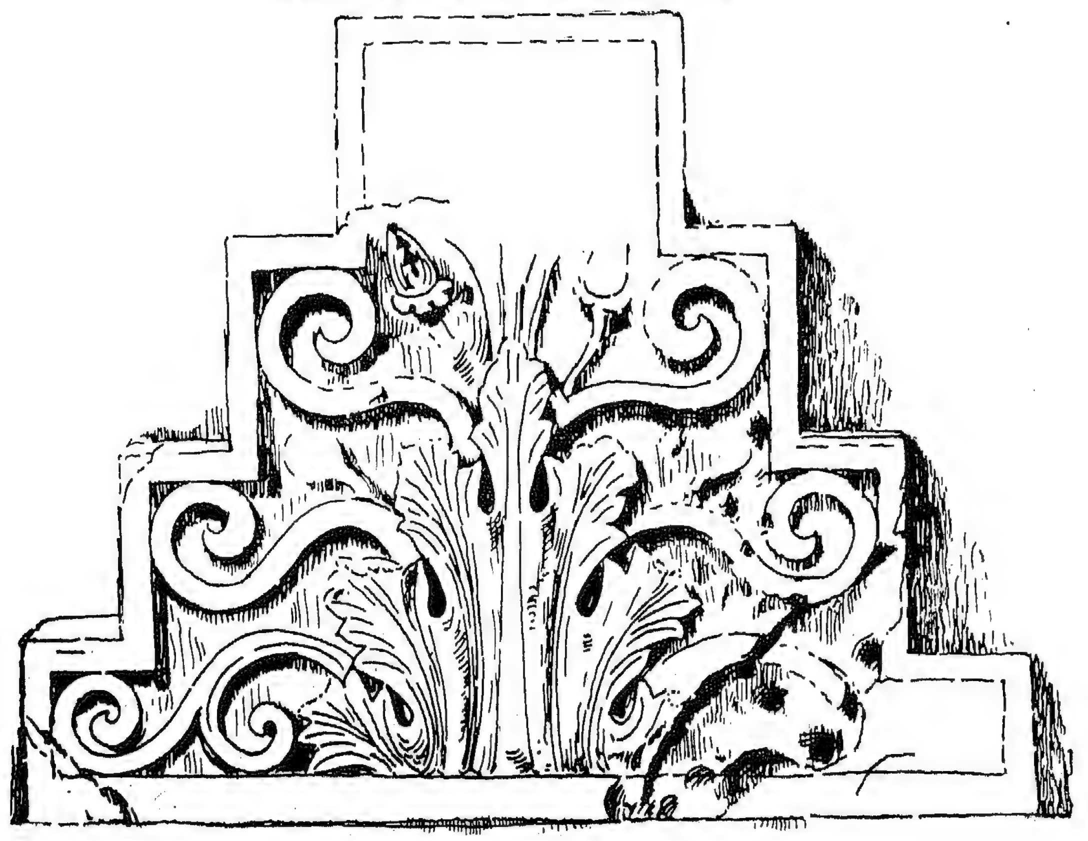
(٥) Survey, IV, Pls. 208 B, 210-211, 213, etc.

(٦) E.M.A., II, Fig. 148 (facing p. 272).

(٧) Survey, I, Figgs. 147-8, 169-197, 211-14.



ش : ١٢٣ ـ الشرافات المسننة فى تاج أحد القياصرة



ش : ١٢٤ ـ تدمر ، المعبد الرومانى : شرافة ذات أسنان رأسية

ماذا اقتبس الطراز العربي الاسلامي من غيره ؟

نعود لنذكر مرة أخرى بأننا قصدنا من الحديث عن الطرز السابقة للاسلام أن نوضح أهم مميزاتها وعناصرها وبخاصة ما يحتمل أن يكون قد انتقل منها الى الطراز العربي الاسلامي اما على حالته الأصلية أو على هيئة متطورة ، ثم نحاول أن نفسر صلته وتأثيره على هذا الطراز ، ولذا فاننا نجمل فيما يلي احصاء مفصلا لتلك الظواهر والعناصر المعمارية والزخرفية البارزة منها .

ونبدأ منها بما يتصل بالتخطيطات العامة ، أي بالصميم والجوهر :

● روى المؤرخون عن مدينة بغداد التي بناها المنصور العباسي وتم بناؤها في حوالى سنة ١٤٩هـ (٧٧٦م) انها كانت مدوّرة [١] . ومن المحتمل ان فكرة بناء المدن المستديرة كانت معروفة منذ خمسة عشر قرنا ، كما تشير الى ذلك بعض الآثار الباقية ، كما يمكن أن نستدل من أقوال المؤرخين على أنها كانت موجودة في آسيا الصغرى والشام والعراق وفارس . غير أن أقرب مصدر للايحاء بذلك الشكل هو المدن المستديرة في كل من الحضر وسلمان باك وهرقلة التي ترجع الى العصر الفارثي . وكلها أماكن توجد في العراق ، مما يعزز نسبة المصدر الى بلاد ما بين النهرين ، وليس الى فارس ، كما جرت عادة المؤرخين الغربيين [٢] .

ومهما يكن من أمر ، فاننا اذا نظرنا الى ما يكمل التخطيط المستدير من تفاصيل رئيسية مثل الأسوار والتوزيع الداخلي للمناطق وتخطيط الطرق وغير ذلك نجد أنه لا يمكننا الاهتداء الى معرفته نظرا لاختفاء المدينة القديمة كلها بجميع ما كان فيها من تفاصيل كبيرة وصغيرة وعناصر ووحدات ، وكل محاولة للادلاء برأى فيها لا تعدو أن تكون ظنا وتخمينا .

وهذا التخطيط المستدير ليس له الا ذلك المثل الوحيد في بغداد ، ولم يتكرر مرة أخرى في العصر الاسلامي كله ، فلم يذكر المؤرخون سوى بغداد مدينة مستديرة ، ولم يبق منها أو من غيرها أثر ما .

● وفيما يتعلق بنماذج العمائر فيبدو أنه لم يقتبس منها في العصر الأموي سوى نموذج واحد هو مسقط قبة الصخرة (ش : ٨) التي بناها عبد الملك في سنة

(١) Sarre and Herzfeld : Ar. R., II, pp. 106-133, Figs. 130-3 ; E.M.A., II, pp. 4-18, Figs. 2-5.

(٢) E.M.A., II, pp. 18-22, Figs. 6-12.

٧٢هـ (٦٩١م) وقد رأينا من قبل أن مساقط العمائر من الأشكال الهندسية المنتظمة بدأ ظهورها في تخطيط العمائر التذكارية من العصر الهلينستى فى بلاد الاغريق (ص : ٩٠ ، ٩١ ، ٩٣ ، ش : ١١ ــ ١٢) ، ثم انتقلت الى العمائر الرومانية (ص : ١٠٣ ، ١٠٤ ، ش: ٣٢ ــ ٣٩). واستخدمت بعد ذلك للعمائر الدينية المسيحية والبيزنطية فى كل من ايطاليا والمستعمرات الشرقية (ص: ١٢٩ ، ١٣١ ــ ١٣٤ ، ش : ٧٣-٨٠)٠

ومهما يكن من أمر فان نموذج تخطيط قبة الصخرة لم يتكرر بعد ذلك لا هو ولا ما يشبهه فى أى قطر من العالم العربى الاسلامى فى مدى ثلاثة عشر قرنا •

● وقد اتجهت بعض المحاولات نحو ارجاع تخطيط الجامع الأموى بدمشق، أو على الأقل تخطيط ظلة القبلة فيه (ش : ١٦٥) ، الى اقتباس من الكنائس ذات التخطيط البازيليكى المكون من ثلاثة أروقة • بل ذهب البعض الى القول بأن ظلة القبلة هى الكنيسة التى كانت بداخل المعبد الوثنى الرومانى [1] • وهو ظن بعيد عن الحقيقة لعدة أسباب من أهمها :

أولا : أن المجاز القاطع الذى يقسم البائكتين اللتين تسيران من الشرق الى الغرب ، والذى يقع محوره على المحراب ، هو ظاهرة جديدة لم توجد فى الكنائس من قبل •

ثانيا : أن الأروقة كلها فى ظلة القبلة متساوية فى العرض ، بينما يمتاز الرواق الأوسط دائما فى الكنائس بأنه أعرض كثيرا من الأروقة الجانبية ، وذلك فى جميع أمثلة الكنائس بغير استثناء •

ثالثا : أنه لم يحدث أن شيدت كنيسة يصل حجمها كله الى ما يقرب من مساحة ظلة القبلة فى مسجد دمشق •

ويضاف الى ذلك وجود عدة أدلة معمارية تثبت فشل تلك المحاولات ، وتدل على أن تخطيط مسجد دمشق اسلامى لا شك فيه •

***

ونخلص من ذلك الى أن الطراز المسيحى المبكر ثم الطراز البيزنطى كان كل منهما صورة تكاد تكون طبق الأصل من الطراز الرومانى من حيث التخطيطات والتفاصيل والعناصر المعمارية والزخرفية ، بينما لم يتأثر تخطيط عمائر الطراز العربى الاسلامى الا برذاذ نادر من الطراز السابقة سرعان ما اختفى ولم يبق له أثر •

---

(1) E.M.A., I, pp. 123-135.

أما من ناحية التفاصيل فهى اما على هيئة وحدات صغيرة يتكون منها التخطيط العام ، او على هيئة عناصر معمارية أو زخرفية يتكون منها الثوب الخارجى وهى :

● كان هناك ظن بأن القاعة الرئيسية فى كل من قصير عمره (ش : ٤٢) ويؤرخ فى نحو سنة ٩٥ هـ (٧١٥ م) وحمام الصرخ (ش : ٤٣) ويؤرخ فى نحو ١١٥ هـ (٧٢٨ م) قد تأثر تخطيطها بمسقط الكنيسة البازيليكية التى يتكون من ثلاثة أروقة متوازية [١] (ش : ٥٩ ، ٦١ ، ٦٤ ، ٦٦) • وهو رأى لا أساس له من الصحة ، ذلك أن أروقة البازيليكا يفصلها عن بعضها بائكات تتكون الواحدة منها من جملة عقود يحملها صف من الأعمدة ، فتجعل كل رواق واضح المعالم يكاد يكون قائما بذاته • هذا من ناحيـــة ، ومن ناحية أخرى فان هنــاك قاعدة لهذا التخطيط البازيليكى لا استثناء لها ، وأشرنا اليها منذ قليل ، وهى أن الرواق الأوسط فى جميع الحالات أعرض كثيرا من الرواقين الجانبيين • وكل ذلك لا يترك مجالا للقول بأن هناك صلة ما بين هذا التخطيط وبين تخطيط القاعة فى كل من قصير عمره وحمام الصرخ ، فالقاعة فيهما وحدة واحدة غير مجزأة فى مسقطها ، وسقفها فقط هو المجزأ الى ثلاثة بحور صغيرة ، وهى فكرة قصد بها التحايل على عمل السقف بالبناء فى تلك البادية التى شيد فيها القصيران ، حيث يصعب الحصـــول على الخشب بل تصعب المحافظة عليه ، اذ يغرى بُعد تلك المناطق عن العمران على السطو على الخشب اذا ادخل فى البناء • ونرى أمثلة واضحة لذلك السطو فى خرائب قصر المشتى وقصر الطوبة •

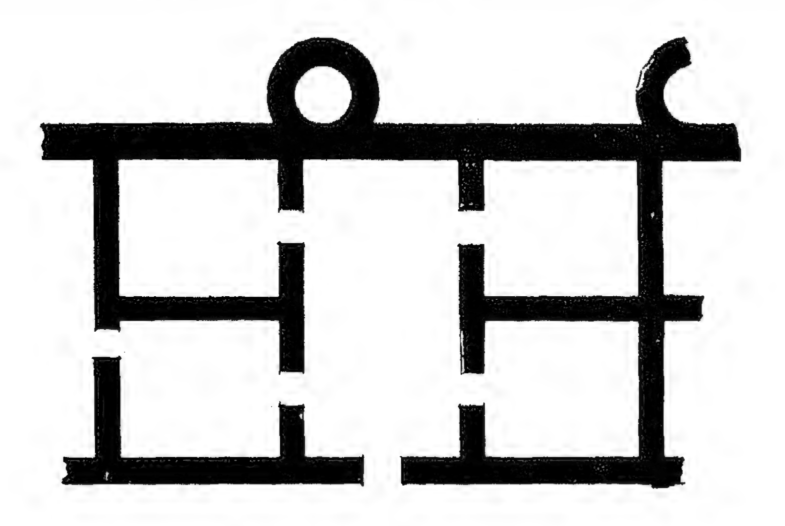
● ولكن هناك احتمالا كبيرا فى أن فكرة الحمام بوحداته الثلاثة الملحقة بكل من قصير عمره وحمام الصرخ قد جاءت من حمامات عثر على بقاياها فى الشام وتؤرخ فى عصر سابق للاسلام [٢] • وكلها صـور مصغرة للحمـامات الرومانية التى أشرنا اليها من قبل ، وتتكون من ثلاث قاعات البـاردة والدافئة والساخنة (ص : ١٠٧ ، ش : ٤٠) •

ولكن الجديد فى العصر الاسلامى أن الحمام فى كل من القصيرين أصبح جزءا عضويا من البناء وليس قائما بذاته • ونتج من ذلك نموذج جديد للتخطيط ليس له شبيه فيما سبق من عصور •

---

(١) E.M.A., I, p. 278.

(٢) Ibid., I, pp. 276-8, Figs. 321-2.



ش : ١٢٥ ـ بادية الشام : القسطل
نموذج مسكن

وعلى كل حال فان هذا النموذج من التخطيط لم يعثر على أمثلة أخرى له بعد هذين القصيرين •

• واستخدمت فى قصر المشتى ، ويؤرخ فى نحو ١٢٥ هـ (٧٤٣ م) ، وحدة لقاعة الاستقبال تتكون من ثلاث حنيات كبيرة : وحدة فى الصدر وواحدة فى كل من الجانبين (ش : ١٧٣) • وقد وجد هذا التوزيع قبل الاسلام فى كثير من العمائر الدينية البيزنطية ، ويسبقها أمثلة من قصور رومانية [١] •

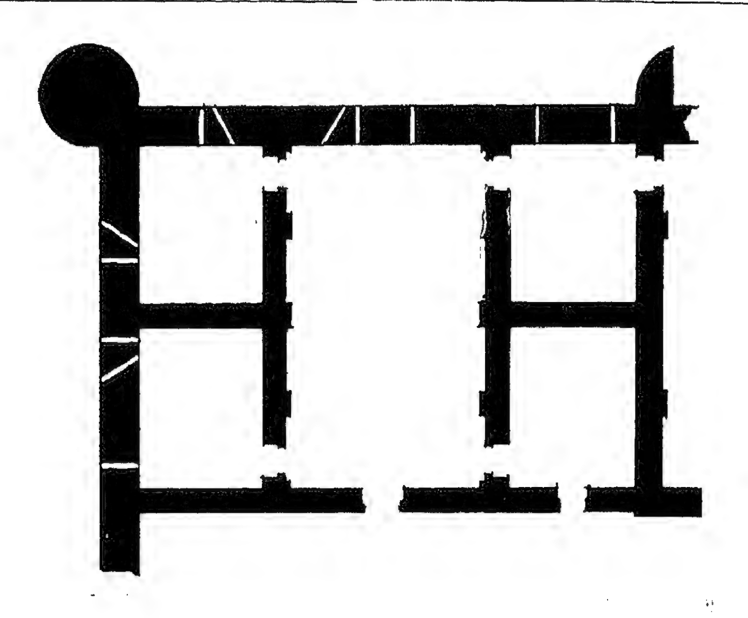
ومهما يكن من أمر فان وحدة الثلاث حنيات هذه لم يبق منها الا ذلك المثل الوحيد من العصر الاسلامى هو الموجود فى قصر المشتى •

• كذلك توجد فى قصر المشتى وحدة سكنية استخدمت لكل من البيوت الأربعة على جانبى وحدة الاستقبال السابق ذكرها ، وتشبه هذه الوحدة السكنية (ش : ١٢٨ ، ١٧٣) الوحدات الأربعة فى كل من المربعين اللذين يتكون منهما قصر الطوبة (ش : ١٢٧ ، ١٧٤) ، والذى يرجح أنه معاصر لقصر المشتى ، ويوجد منها مثل فى قصر المنيا الذى شيده الوليد على بحيرة طبرية [٢] •

وهناك رأى بأن هذه الوحدة السكنية مقتبسة من شبيهة لها توجد فى قصر يسمى « القسطل » (ش : ١٢٥) يوجد على بعد ستة كيلومترات الى الغرب من

(١) E.M.A., I, pp. 382-6, Figs. 464-74.

(٢) Creswell : A Short Account of E.M.A., pp. 147-8, Fig. 28.



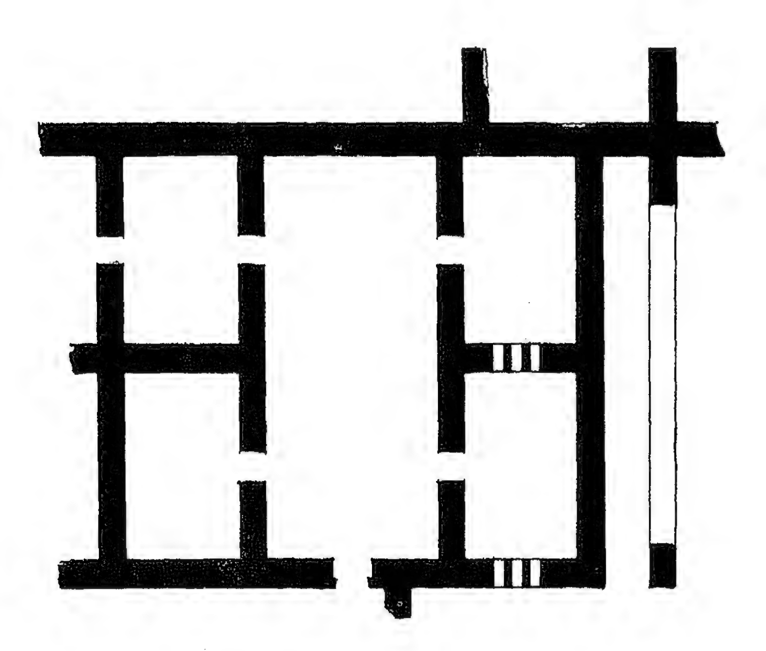
ش : ١٢٦ ــ بادية الشام : قصر حرانة
نموذج مسكن

قصر المشتى • وينسب بناء « القسطل » الى زعيم من زعماء الغساسنة العرب الذين آلت اليهم مهمة حراسة حدود الدولة البيزنطية فى القرن السادس الميلادى• ويوجد أيضا مثل شبيه آخر فى قصر « حرانة » • ويظن أيضا أن تاريخه يسبق ظهور الاسلام (ش : ١٢٦) • والحق أن محاولات تاريخ كل من « القسطل » وقصر « حرانة » فى عصر سابق للاسلام يتضح فيها الضعف الشديد ، ولا يدعم ذلك الظن أى دليل معمارى أو تاريخى ، مما يترك المجال مفتوحا لنسبتها الى العصر الأموى [١] ، وبخاصة أن قصر حرانة يحتوى على أربع وحدات سكنية ، وهى ظاهرة أخذت كدليل لنسبة قصر الطوبة وقصر المشتى الى العصر الأموى •

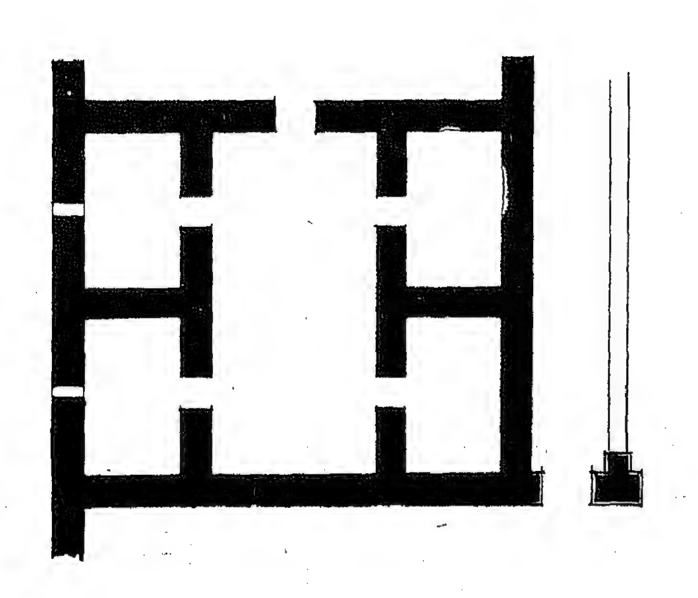
ولذا فان تخطيط تلك الوحدة السكنية يحيط بنسبته الى ما قبل الاسلام شك كبير ، وليس من المستبعد أن ينسب الى العصر الاسلامى المبكر ، وأن ينسب الفضل فى ابتكاره الى العرب المسلمين •

---

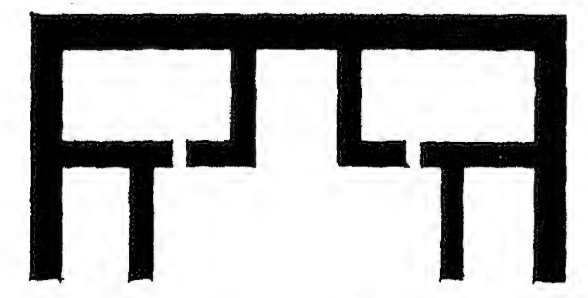
(1) E.M.A., I, pp. 387-8, Fig. 475.



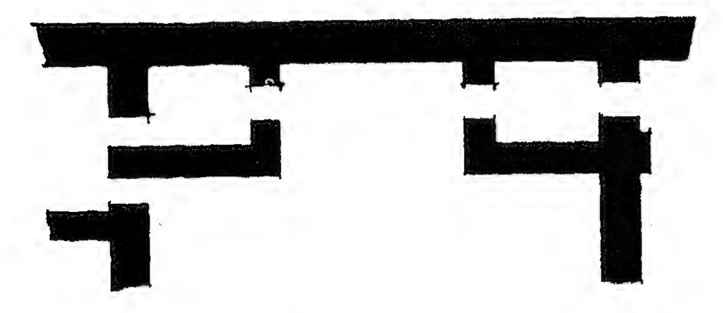
ش : ١٢٧ ـ بادية الاردن : قصر الطوبة
نموذج مسكن



ش : ١٢٨ ـ بادية الاردن : قصر المشتى
نموذج مسكن



ش : ١٢٩ ـ قصر فيروزاباد : نموذج وحدة للسكن

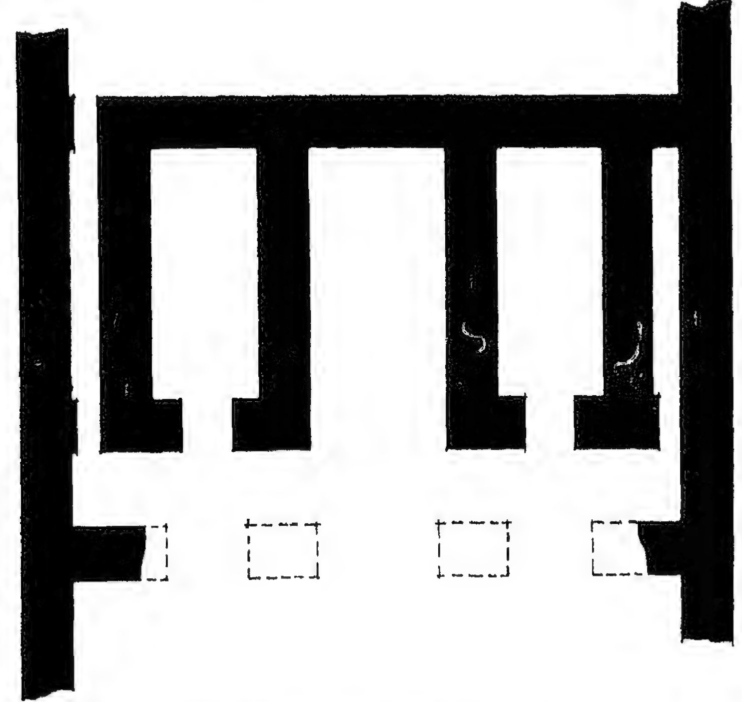


ش : ١٣٠ ـ قصر سرفستان : نموذج وحدة للسكن

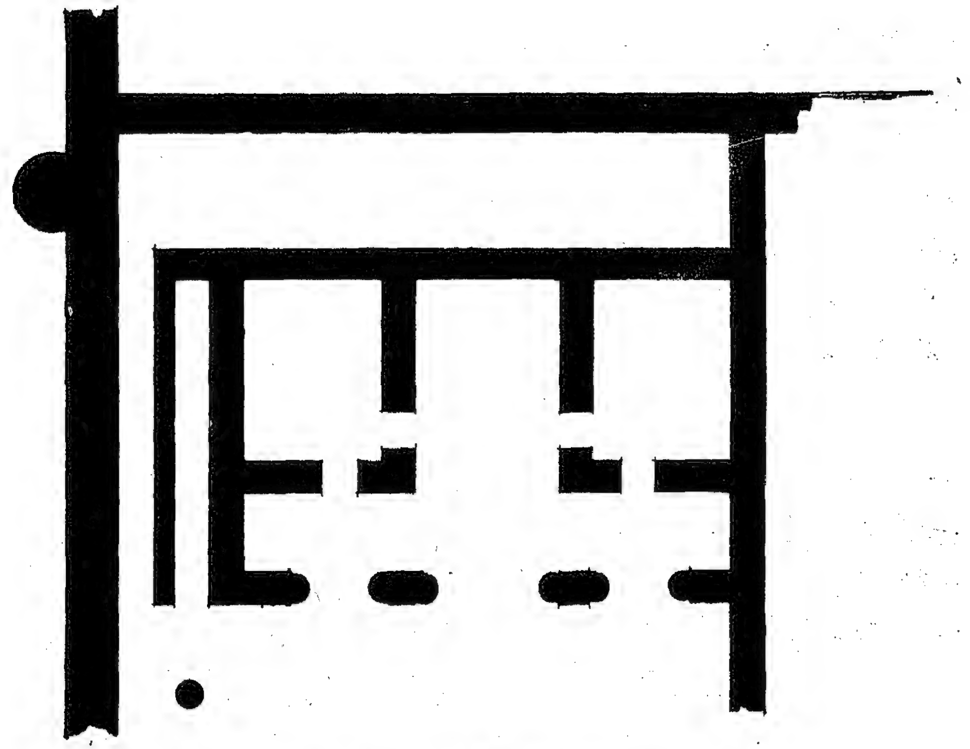
ثم أنه لم يعثر على أمثلة أخرى لتلك الوحدة السكنية فى قصر الأخيضر (ش : ١٣٢ ، ١٧٦) الذى شيد فى بادية العراق فى حوالى سنة ١٦٣ هـ (٧٨٠م) • ومن المرجح أن تكون أشباه ذلك النموذج قد استخدمت فى القصور والمساكن فى مدينة سامرا [١] • وهناك ظن بأن المصادر التى اقتبست منها تلك النماذج الاسلامية تعود الى العصر الساسانى وتوجد فى آثار قصر شيرين وقصور فيروزاباد وسرفستان (ش : ١٢٩ ، ١٣٠) • غير أن تأريخ تلك القصور فى العصر الساسانى لا زال بدوره يفتقر الى أدلة معمارية وتاريخية تدعمه • ولا زالت تتضارب الآراء حول تأريخها ، بل اننا نميل الى تأريخ قصر شيرين فى وقت معاصر لقصر الأخيضر، غير أنه لا يتسع المجال هنا لمناقشة هذا التأريخ •

ويهمنا هذا النموذج من الوحدات السكنية بوجه خاص لأنه انتقل الى مصر وبقى منه عدة أمثلة ترجع الى العصر الطولونى (ص : ٤٢٦ ـ ٤٤٣) ، ومن المرجح أنه انتشر فى العصر الفاطمى حيث بقيت بعض خصائصه واضحة (ص : ٤٥٩ ـ ٤٦١ ، ش : ٢٨٩) • فهو اذن من الوحدات التى رسخت أقدامها فى العمارة العربية ٨٥٩ م بعد أن أغار عليها المعتصم العباسى وخربها فى سنة ٨٣٨ م [٢] •

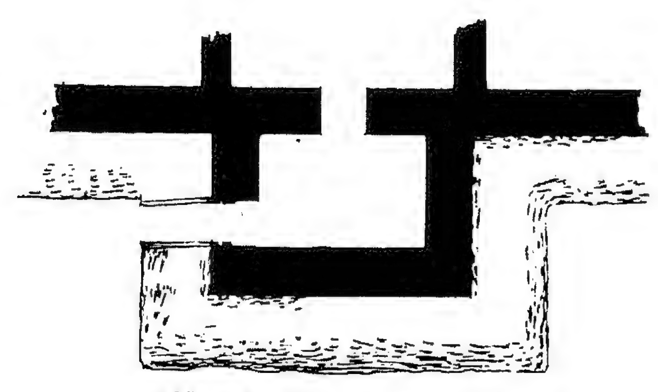
(1) E.M.A., I, pp. 386-7, Fig. 475 ; II, Fig. 194.



ش : ١٢١ ـ قصر شيرين ، وحدة سكنية



ش : ١٢٢ ـ قصر الاخيضر ، وحدة سكنية



ش : ١٣٣ ـ بغداد : الباشورة (مسقط)

● المدخل المنكسر أو ما يسميه المؤرخون العرب : « بالباشورة » وبالانجليزية: Bent Entrance فقد قيل ان مدينة بغداد المدورة كان لها أربعة أبواب من هذا النموذج اختفت آثارها مع المدينة • واذا اعتمدنا على وصف المؤرخين القدماء فقد يكون ذلك النموذج أقدم مثل فى العصر الاسلامى (ش : ١٣٣ ـ ١٣٤) (١) •

ومهما يكن من أمر فانه لم يعثر على أمثلة له أو على ما يدل على وجوده قبل العصر الأتابكى والأيوبى فى الشام ومصر ، أى فى حوالى القرن السادس الهجرى (١٢ م) (٢) • أى أنه اختفى نحو أربعة قرون فى العصر الاسلامى • ولكن يستوقف نظرنا أن البيزنطيين قد استخدموه عندما أعادوا تحصين مدينة أنقرة فى سنة ٨٥٩ م بعد أن أغار عليها المعتصم العباسى خربها فى سنة ٨٣٨ م (٣) •

ولا يوجد مصدر صريح لهذا النوع من مداخل الحصون يمكن القول بأن العرب المسلمين قد تأثروا به بطريقة مباشرة أو غير مباشرة عندما شيدوا مدينة المنصور المدورة • ذلك أن أقدم مثل صحيح للباشورة يوجد فى شونة الزبيب ويرجع الى العصر الفرعونى ويؤرخ بين سنتى ٢٦٢٥ و ١٧٨٨ قبل الميلاد (٤) • أى أنه يوجد فاصل زمنى يصل الى نحو ٢٥٠٠ سنة وفاصل مكانى بين الموضعين كبير ، مما لا يترك مجالا للظن بأن هناك أية علاقة أو صلة بينهما • ولكننا ما زلنا لا نملك ما يساعدنا على القول اما بأن الفكرة ابتكار اسلامى لا شك فيها ، أو أنها غير اسلامية.

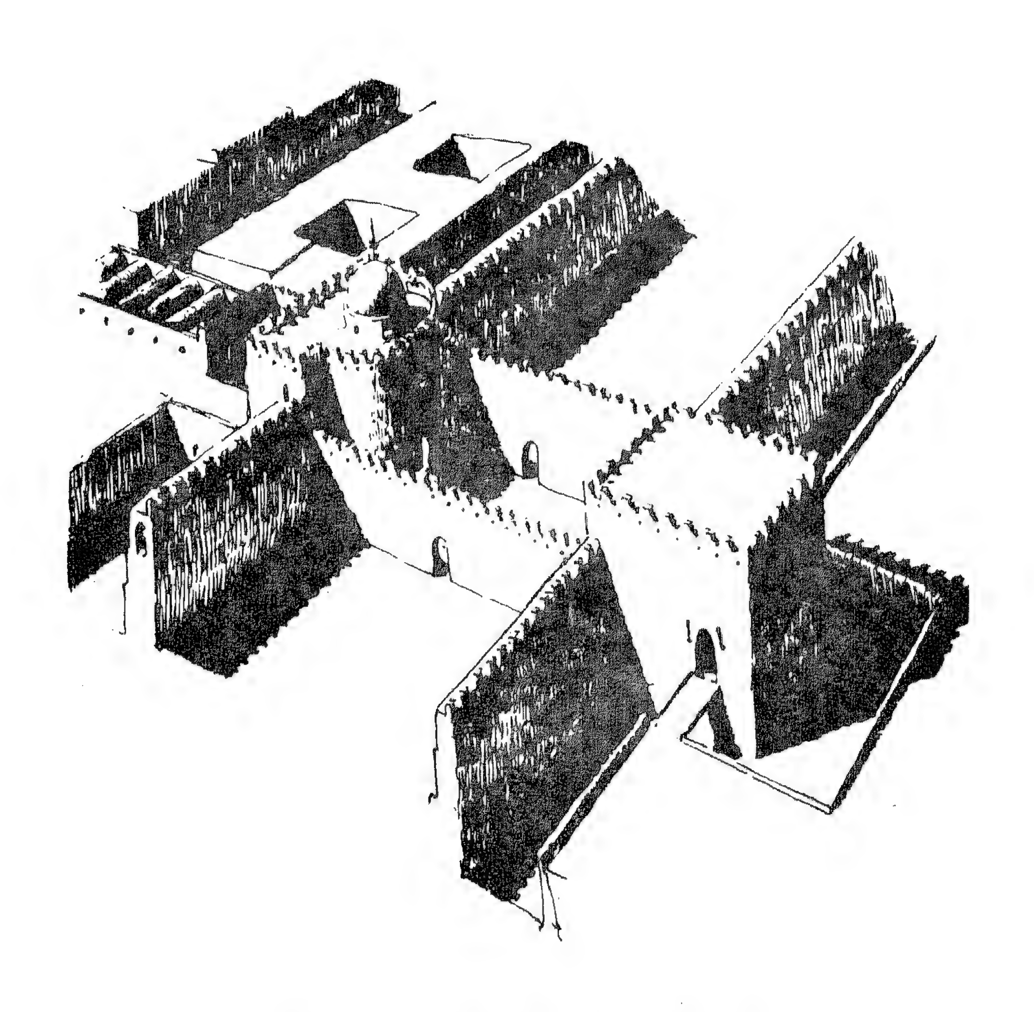
★★★

(١) E.M.A., II, pp. 12-14, Figs. 3, 4.

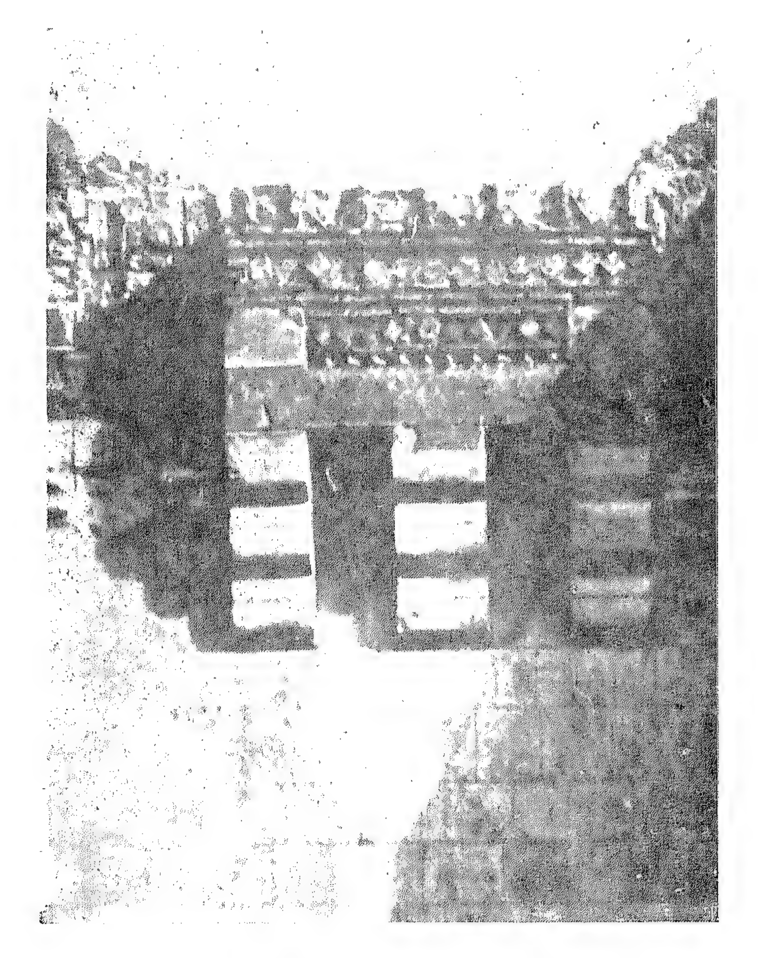
(٢) Ibid., II, pp. 15-16, 18-20, 45-47, 57-58, Figs. 6, 8, 21, 28.

(٣) Ibid., II, pp. 28-29, Fig. 23.

(٤) Ibid., pp. 24-25, Fig. 17.



ش : ١٣٤ ـ بغداد : أسوار مدينة المنصور المدورة
والمدخل المنكسر (الباشورة)



ش : ١٣٥ ـ بادية الشام : قصر الحير الشرقى ، سقاطة .

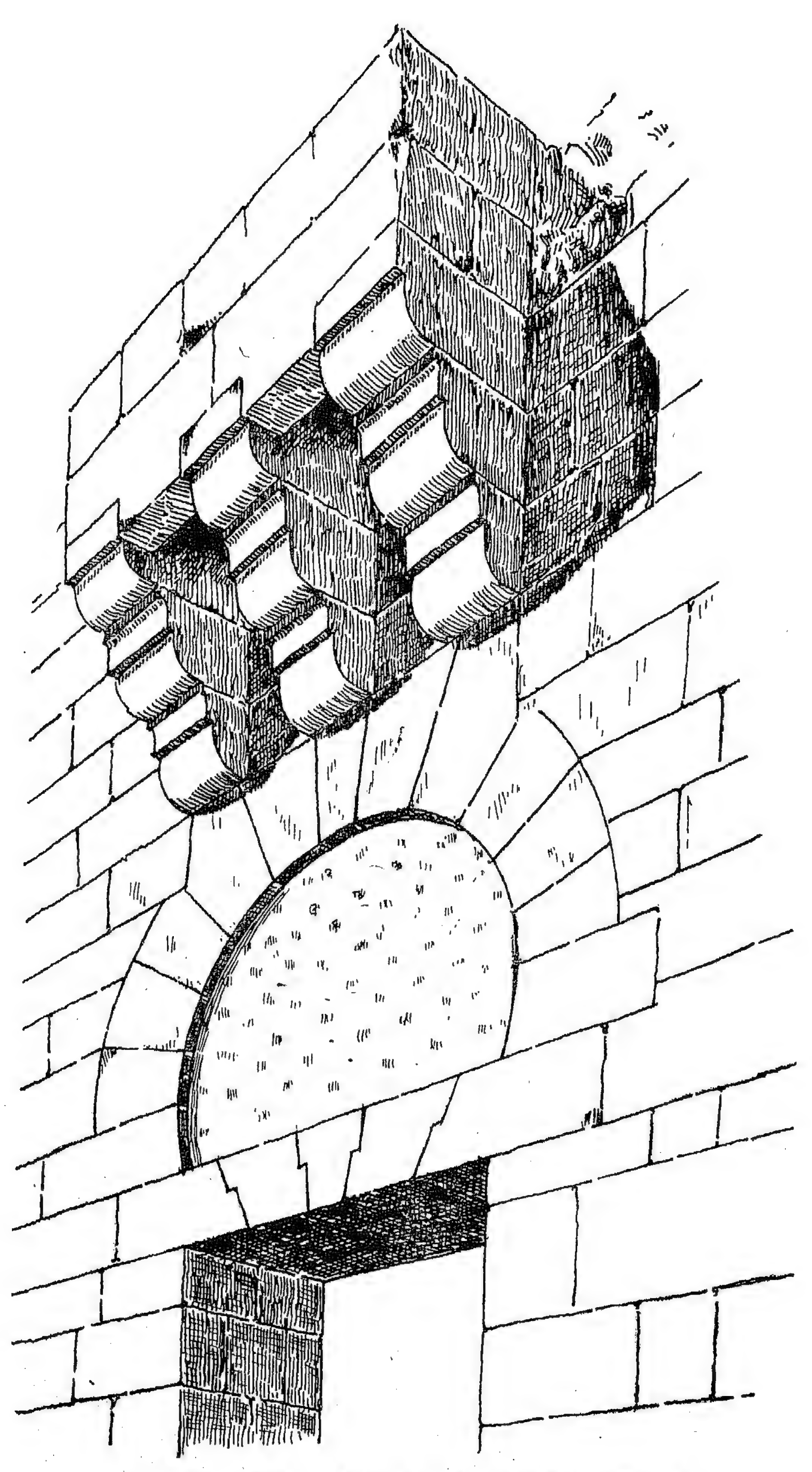
وتوجد من التفاصيل والعناصر المعمارية للتحصينات الظواهر الآتية :

● عنصر السقاطة Machicoulis والذى يوجد أقدم مثل باق منه فى العصر العربى الاسلامى فى قصر الحير الشرقى فى بادية الشام على بعد نحو ١٠٠ كيلومتر الى الشمال الشرقى من تدمر ونحو ٦٥ كيلومترا الى الجنوب من الرصافة . ويؤرخ ذلك الأثر فى ١١٠هـ (٧٢٩م) وينسب الى الخليفة هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى (ش : ١٣٥ ـ ١٣٦) [١] .

وهناك احتمال كبير بأن ذلك العنصر كان موجودا أيضا فى قصر الأخيضر فى بادية العراق [٢] .

(١) E.M.A., II, p. 336, Pls. 54 c, 56 a-b.

(٢) Ibid., Fig. 39.



ش : ١٣٦ ـ بادية الشام : قصر الحير الشرقى ، سقاطة وصنجات مزررة

ويوجد من هذا العنصر عشرة أمثلة سابقة على العصر الاسلامى ، وتوجد كلها فى شمال الشام (ش : ٩٢) ، وتؤرخ فى ما بين القرن الخامس والسادس من الميلاد ، وليس من بينها سوى ثلاثة تصلح حقيقة لغرض الدفاع، أى لرمى المقذوفات والأحجار والسهام فوق رءوس المهاجمين الذين يحاولون اقتحام أبواب حصن أو قصر وضعت تحت السقاطات مباشرة . أما باقى الأمثلة فلا يوجد تحتها أبواب ، مما يترك فرصة للظن بأنها لم تكن سقاطات للدفاع بل كانت تستخدم كمراحيض (١) .

وهكذا نقابل عنصرا ثانيا من عناصر العمارة الحربية التى ظهرت فى العصر المبكر ثم توارت فترة من الوقت ، عادت بعدها الى الظهور لتزود بها أبراج الحصون فى العصر الأتابكى والعصر الأيوبى (٢) عندما ثارت زوابع الحروب الصليبية فى شمال شبه الجزيرة العربية وزحفت أعاصيرها لتهب على الديار المصرية ، وسنرى تطوراتها فيما بعد . ومما هو جدير بالذكر أن السقاطات لم تعرف فى أوروبا قبل القرن الرابع عشر الميلادى ، ومن الطبيعى أن يكون ذلك بتأثير العمارة العربية الاسلامية عن طريق الصليبيين .

● وتوجد ظاهرة أخرى تؤدى وظيفة قريبة مما تؤديه السقاطات ، وهى الشقوق التى توجد فى سقف باب أو مدخل وتصل الى أرضية السطح العلوى فوق الباب أو المدخل ، بحيث يتمكن المدافعون من قذف المهاجمين بالسهام والحراب ورمى القذائف من أحجار وزيت مغلى وغيرها فوق رءوس الأعداء .

وأحيانا توجد مثل هذه الشقوق فى أرضيات الأنفاق التى توضع فى جوف الأسوار ولم يصلنا من أمثلة هذه الشقوق الا ما يوجد فى قصر الأخيضر العباسى فى العراق . فقد زودت بها المداخل الأربعة للقصر ، وتوجد أيضا فى أرضية النفق فى جوف الأسوار المحيطة بالقصر كله من الخارج (٤) .

وعلى الرغم من عدم وجود أية أمثلة لهذه الظاهرة ترجع الى ما قبل الاسلام فانها قد نسبت الى تأثير ساسانى ، على أساس أنه يوجد بالقصر عدة تأثيرات ساسانية وهو منطق ضعيف متهالك (٥) .

---

(١) E.M.A., I, pp. 345-7, Figs. 425-8.

(٢) M.A.Eg., I, pp. 170, 172, 173, 175, 183, 184, 185, Fig. 83, Pls. 56 c, 57 a-c, 58 c, 124 d, 125 b ;vol. II, pp. 13, 24.

(٣) E.M.A., II, pp. 60-62.

(٤) Ibid., II, pp. 57-61, Figs. 36, 38, 60 (Torweg I), 61 (bel.)

(٥) Ibid., II, p. 86.

ولم يعثر على أمثلة أخرى لهذه الظاهرة لا قبل الاسلام ولا فى العصر الاسلامى بعد قصر الأخيضر العباسى الا فى أبواب حصن القاهرة التى شيدت فى وزارة بدر الجمالى ، أى فى باب الفتوح وباب النصر وباب زويلة ، ويرجع تأريخهم الى ما بين سنتى ٤٨٠ و ٤٨٥ هـ (١٠٨٧ و ١٠٩٢ م) [١] . ووجدت أيضا بعد ذلك فى العصر الأيوبى [٢] ، أى أنه انقضى أكثر من ثلاثمائة سنة لم يظهر فيها ذلك العنصر الدفاعى • ومما هو جدير بالذكر أنه بدأ فى الظهور فى أوروبا فى القرن الرابع عشر الميلادى [٣] ، ولا شك أن ظهوره فيها كان أيضا بتأثير من العمارة الاسلامية التى انتشرت تقاليدها وتأثيراتها هناك عن طريق الصليبيين •

● ومن العناصر الدفاعية : الباب الحديدى المنزلق رأسيا Portcullis وفكرته تتلخص فى عمل باب من أسياخ قوية من الحديد تتقاطع مع بعضها لتصنع شبكة ثقيلة توضع خارج الباب السميك الخشبى لمدخل الحصن ، ويفتح الباب الحديدى برفعه الى أعلا بواسطة حبال قوية تلتف حول بكرة بوابة المدخل ، وترتفع شبكة الباب الحديدية بحيث ينزلق طرفاها الجانبيان فى مجريين رأسيين تركا فى البناء • وعند التهديد بالخطر يفك رباط الحبال للشبكة فتسقط بثقلها الكبير لتسد المدخل ، ويحتاج الأمر فى رفعها الى أعلا بغير الحبال الى جهد عدد كبير من الرجال المهاجمين ، والى وقت ليس بالقليل يتعرضون فيه للرمى بالسهام والحراب واسقاط المقذوفات والزيت المغلى فوق رءوسهم من السقاطات البارزة فوق المدخل ، أو من الشقوق الأرضية فوقه •

ولم يصلنا لا مثل واحد له فى الأخيضر ، اذ تدل بقايا المجارى الرأسية فى جوانب البناء على وجود تلك الأبواب فى المداخل الأربعة [٤] • وبقدر علمنا فانه لا يوجد له مثل آخر فى العالم الاسلامى كله •

ويقال انه كان معروفا عند الرومان ، اذ يوجد منه مثل فى مدينة بومبايى ، وفى قصر الشمع بمصر القديمة [٥] • وعلى ذلك فان مصدر الفكرة التى وجدت فى الأخيضر لا يزال غامضا ، فليس هناك ما يصل الأمثلة الرومانية بالمثل الموجود

---

(١) M.A.Eg., I, pp. 170-1, 174, 178, 200, Figs. 81, 83, 84, 86, 88, 96, 97, Pls. 52, 67, 75.

(٢) Ibid., II, pp. 33-5, 46-7, Figs. 15, 21.

(٣) E.M.A., II, p. 86.

(٤) Ibid., II, pp. 57-61, Figs. 36, 38, 60.

(٥) Ibid., II, p. 85.

بالأخيضر ، كذلك ليس هناك ما يبرهن على أن الرومان هم أصحاب الفكرة ، فضلا عن أنه لم تنشر صور أو رسوم صريحة واضحة تعزز ذلك •

● كذلك يوجد فى الأخيضر نموذج خاص لرءوس شقوق السهام [١] • ويتميز بأنه ليست له أية فائدة دفاعية ، ولم يقصد به سوى الزخرفة فحسب •

ومما يستوقف النظر أن مصدره قد نسب الى تأثير ساسانى على أساس وجود شبيه له فى بقايا أثر معمارى افترض أنه ساسانى بغير تحقيق أو دراسة [٢] • كما وجد مثل آخر فى قصر حرّانة الذى نسب جزافا الى ما قبل العصر الاسلامى • مع أن فيه مجموعة الأربعة مساكن التى اتخذت دليلا قويا من الأدلة التى أرخ على أساسها كل من قصر المشتى وقصر الطوبة وقصر الأخيضر ، كما أشرنا الى ذلك من قبل (ص : ١٨٧) •

وتأتى بعد أمثلة الأخيضر أشباه لها ظهرت فى العراق فى مآذن تنسب الى القرن السادس الهجرى (١٢م) مثل مئذنة أبى هريرة ، ومآذن فى الرقة ، مثل منارة المنيطر ومئذنة المسجد الجامع [٣] • فهو اذن من العناصر التى ظهرت فى العصر العربى الاسلامى المبكر ثم توارت ثم عادت للظهور بعد أربعة قرون تقريبا •

● ووجدت فى العصر الاسلامى المبكر عدة أنواع لتغطية الأسقف ، منها : الأسقف الخشبية المسطحة والجمالونات : واستعملت لتغطية المناطق المحصورة بين المثمن الخارجى فى قبة الصخرة والمثمن الأوسط فيها ، ثم بين المثمن الأخير والدائرة الوسطى التى تحيط بالصخرة [٤] • كما استخدمت لتغطية الأروقة والمداخل فى المسجد الأموى بدمشق وفى عدة مساجد من العصر الأموى •

وهذه الطريقة معروفة منذ العصور القديمة ، فقد استخدمت فى العصر الاغريقى وفى العصرين الرومانى والمسيحى المبكر فى ايطاليا وفى الأقطار الشرقية ، أو بمعنى آخر فى البلاد التى يتوفر فيها الخشب أو التى يسهل الحصول عليه فيها •

● وظهرت الأقبية الطولية والمتقاطعة فى العمارة الاسلامية المبكرة فى قصير

---

(١) E.M.A., II, p. 85.

(٢) Ibid., II, pp. 85-6, Fig. 71 ; Hoag (J.) : L'Architecture Islamique (1962), pp. 13, 14, Pl. 13, 14.

(٣) E.M.A., II, p. 86.

(٤) E.M.A., I, pp. 61-63, Figs. 10, 19.

عمره وحمام الصرخ ، وهى مشيدة بالحجر (ش : ١٠٥ ، ١٠٧) [١] • كذلك وجدت فى المشتى وقصر الطوبة ، ولكنها شيدت بالآجر [٢] • كما وجدت فى قصر الأخيضر العباسى ، الذى شيدت فيه الأقبية الصغيرة بالحجر ، والكبيرة بالآجر [٣] •

وكانت الأقبية الطولية معروفة منذ عصور موغلة فى القدم • فقد وجد منها مثل فى الرمسيوم فى مدينة طيبة الفرعونية ، وينسب الى عصر رمسيس الثانى ، أى بين سنتى ١٢٩٢ و ١٢٢٥ ق • م • كما يوجد مثل آخر فى آثار خورساباد قرب مدينة الموصل ، وينسب الى عصر الملك سرجون ، أى بين سنتى ٧٢٢ و ٧٠٥ ق•م [٤] • غير أن هذه الأقبية كانت تبنى باللبن • واستمر استخدامها فى العصور السلوقية والفارثية ثم الساسانية (ش : ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٤) •

وكان بناء الأقبية فى العصر الرومانى يعتمد على الخرسانة التى اهتدى اليها الرومان ، فساعدتهم كثيرا فى حل مشكلاتهم البنائية التى قابلوها فى عمل الأقبية الطولية والمتقاطعة ، وكان باطنها يبنى أحيانا ببلاطات بحجم قوالب الطوب ثم تصب الخرسانة فوقها ، وأحيانا كانت تصب الخرسانة بغيرها على العبوات مباشرة ثم تكسى أوجهها الظاهرة بالملاط [٥] •

أما بناء الأقبية بالحجر المنحوت فيرجع الفضل فيه الى الفنانين والصناع الشاميين، اذ كانوا يمتازون بالمهارة والدقة والاتقان منذ زمن طويل فى قطع الأحجار ونحتها وبنائها كما سبق القول •

● وعلى الرغم من وجود الأقبية المتقاطعة فى كل من قصير عمره وحمام الصرخ ، وهى من الظواهر التى يرجح انتشارها بتأثير العمارة الرومانية ، فان نظام تغطية القاعة الرئيسية فى كل منهما قد جاء بتأثير العمارة الساسانية ، حيث قسم سقف القاعة ، الى ثلاث مناطق ، غطيت كل منها بقبو طولى ، ويفصل الأقبية عن بعضها عقود كبيرة تسير فى اتجاه يتعامد على قطاع الأقبية (ش : ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧) • وهذا الأسلوب معروف فى العمارة الساسانية ويوجد منه مثل فى الأثر المعروف بايوان كرخا (ش : ١٠٣) ، أو طاق ايوان •

● ويوجد أسلوب لبناء الأقبية الطولية بغير عمل « عبوة » أو قالب من الخشب،

(١) E.M.A., I, pp. 261-2, 273-6, Figs. 313, 314, 319, 320, Pl. 50 a.

(٢) Ibid., I, p. 360, Figs. 447, 463, Pls. 61 c, 62 a-c, 79 a-b, 80 b-e.

(٣) Ibid., II, Figs. 36, 38, 47-50, 52-54, 57, 58, 60, etc.

(٤) Ibid., I, p. 349, Fig. 429.

(٥) Fletcher, pp. 176-8.

وذلك ببناء جنازير القبو من قوالب اللبن أو الآجر مائلة مستندة على جدار يقام أولا ويمثل نهاية القبـــو (ش : ١٠٤) • وقد شـــيدت به أقبية بقصر المشــتى وقصر الطوبة ، وبقصر الأخيضر العباسى التى أشرنا اليها فى الصفحة السابقة •

ويبدو أن هذا الأسلوب كان معروفا منذ الأزمنة القديمة • فمن ذلك المثـلان السابق ذكرهما ، وأحدهما فى الرمسيوم فى مدينة طيبة الفـــرعونية ، والثانى فى خورساباد قرب الموصل •

وبقى ذلك الأسلوب معـروفا وبخاصة فى المنـاطق التى يقل فيها الخشب فقد شيد به الايوان العظيم فى طاق كسرى بالمدائن • ومما يستلفت الانتباه أنه اســتخدم أيضا فى العصر البيزنطى ، فيوجد منه أمثلة فى كنيسة أيا صوفيا (٥٣٥ م) ، وفى قصر ابن وردان (٥٦٤ م) وفى القسطنطينية ويؤرخ فى ٥٨٧ م [١] •

● وهناك احتمال بأن القبة الأصلية فوق الصخرة فى مبنى قبة الصخرة كانت من الخشب مثلما هى اليــوم [٢] • ويقــال فى بعض المراجع التــاريخيــة أن بعض العمائر الدينية المسيحية فى الشام كانت قبابها من الخشب [٣] ، ولكن ليس هناك من الأدلة المعمارية ما يؤيد ذلك الاحتمال بصفة يعول عليها •

ويمكن القول بأن القباب الخشبية نادرة فى العمارة العربية الاسلامية ندرتهـا فى بقية الطرز المعمارية السابقة على الاسلام والمعاصرة له •

ولدينا فى القاهرة مثل نادر هو قبة الامام الشافعى الحالية [٤] • ولكننا لا نعتقد أنها هى القبة الأصلية التى شيدت مع البناء فى سنة ٦٠٨هـ (١٢١١م) ، وذلك لأن الجدران التى تحملها يصل سمكها الى نحو ٢٫٥٠ مترا ، الأمر الذى يجعلنا نرجح أن تكون القبة الأصلية قد شيدت بالآجر حسب أسلوب البناء الذى كان سائدا فى العصر الفاطمى والأيوبى وأول المملوكى •

أما القباب المشيدة بالحجر والتى توجد فى الحجرات الساخنة فى حمامى قصير عمره وحمام الصرخ [٥] فهى شـامية الأسلوب ، فان اســتعمال الحجر لبناء القبــاب يرجع الفضل فيه الى الفنانين والصناع الشاميين الذين مهروا فى استعمال الحجـر المنحوت للبناء •

(١) E.M.A., I, p. 349.
(٢) Ibid., I, pp. 63-67, Figs. 10, 21.
(٣) Ibid., I, pp. 83-87.
(٤) M.A.Eg., II, pp. 71-73, Figs. 31, 33.
(٥) E.M.A., I, pp. 254, 262, 273-6, Figs. 313-15, 319, 320, Pls. 48 b, 50 c, 51, 52.

● وكذلك المثلثات الكروية التى توجد فى قصير عمره وحمام الصرخ (ش : ٨٨) ، وتقوم بوظيفة تحويل المسقط المربع الى دائرة ترتكز عليها الحافة السفلى الدائرية للقبة ، فان الفضل فى ابتكارها أو فى الوصول بها الى مرحلتها الناضجة الأخيرة فى التطور يرجع أيضا الى الفنانين والصناع الشاميين ، وذلك فى أواخر حكم الرومان (ش : ٨٤ - ٨٧ ؛ ص : ١٣٩ - ١٤٣) .

ولكن مما هو جدير بالذكر أن ظاهرة المثلثات الكروية التى بدأ استخدامها فى العصر الاسلامى المبكر لم يستمر استخدامها لا فى ذلك العصر ولا فى العصور التالية الا قليلا . وتتناثر أمثلتها القليلة فى عصور وأقطار اسلامية مختلفة . نذكر منها على سبيل المثال ما يوجد فى باب الفتوح وباب النصر وباب زويلة ، أى أبواب حصن القاهرة ، فى الأجزاء التى شيدها بدر الجمالى . وكان ذلك بتأثير من العمارة الشامية وليس من العمارة الأرمينية ، كما حاول البعض اثباته . فان العمارة الأرمينية ما هى الا خليط من تقاليد شامية وبيزنطية بل ومن اسلامية أيضا . وسنتناول مناقشة ذلك بالتفصيل فى مكان الحديث عن أبواب بدر الجمالى الفاطمية فى الجزء الثانى .

ويمكن القول بأن الاقلال من استعمال ظاهرة المثلثات الكروية كان سببه ابتكار المقرنصة الاسلامية ، وانتشار استعمالها . ويرجع أقدم مثل مؤكد التاريخ منها الى وقت الخليفة المعتصم عندما بنى قصره الذى عرف بالجوسق الخاقانى ويؤرخ فى سنة ٢٢١ هـ (٨٣٦ م) ، اذ يوجد نموذج تلك المقرنصة (ش : ٩١ ، ٢٣٣) فى باب العامة [١] ، وهو المدخل العظيم الرئيسى لقصر المعتصم دجلة على نهر مدينة سامرا .

● ومن المرجح كذلك أن تكون فكرة هذه المقرنصة الاسلامية قد تسلسل من فكرة الحنيّات الركنية المخروطية (ص : ١٦٩ ، ش : ١٠٩ ، ١١٠) وهى التى يرجع أقدم أمثلتها الى العصر الساسانى المبكر ، وتنتشر فى منطقة واسعة وأقطار عديدة تمتد من أواسط آسيا نحو الشرق وتشمل بلاد فارس والعراق [٢] . ومن المرجح أنها انتقلت الى العمارة البيزنطية فى الشرق بتأثير العمارة الساسانية ، بل وصلت أمثلتها الى العمارة البيزنطية فى ايطاليا .

أما شكل المقرنصة الاسلامية الذى توجد له أمثلة فى العمارة البيزنطية (ش : ٩٠) فانه من المستبعد جدا أن يكون قد ظهر فيها الا بعد القرن التاسع الميلادى على الأقل . فان هذا النموذج لم توجد له أية أمثلة فى العمارة الساسانية . ولذلك نرجح أن يكون قد ظهر فى العمارة البيزنطية بتأثير من العمارة العربية الاسلامية .

(١) E.M.A., II, pp. 232-34, Figs. 181-82, Pl. 51 a-d.

(٢) Ibid., II, pp. 101, 118, Figs. 83, 117.

ومن النماذج الرئيسية للعقود التى ظهرت فى العصر الاسلامى المبكر :

● النوع نصف البيضى Parabolic ، وقد استخدم فى مسجد صغير ينسب الى القرن الثالث الهجرى (٩ م) ويوجد فى دامغان فى جنوب بحر قزوين[١] الذى استعمل فيه نوعان من العقود : الشكل نصف البيضى ، والشكل المدبب •

وهذا الشكل معروف منذ العصور القديمة • اذ يوجد منه قبو فى الرمسيوم فى مدينة طيبة الفرعونية وينسب الى عصر رمسيس الثانى أى بين سنتى ١٢٩٢ ، ١٢٢٥ م (ص : ١٩٨ ، ١٩٩) ، وشيد هذا القبور من اللبن وقطاعه نصف بيضى تماما.

أما الأمثلة التى تعد مصادر اقتباس هذا النوع فى العصر الاسلامى فتوجد فى الآثار الساسانية ، وأشهرها قبو طاق كسرى فى المدائن (أشكال ٩٩ ، ١٠٠) •

ولم يعثر على أمثلة أخرى لهذا النوع من العقود فى العمارة الاسلامية غير ذلك المثل الوحيد الموجود فى دمغان •

● العقد المستقيم (ش : ١٣٦) ويوجد فى قصر الحير الشرقى وينسب الى سنة ١١٠ هـ (٧٣٠ م) [٢] وهو مشيد فى معظم الحالات بصنجات من الحجر ، وندر أن يبنى باللبن أو الآجر • ولذلك فانه يكثر فى عمائر المناطق التى يستخدم الحجر فيها للبناء ، فقد ظهر فى العصر الرومانى ، والعصر البيزنطى (ش : ١٤٥) وخاصة فى الشام [٣] •

ولم يظهر فى مصر الا فى العصر الفاطمى عندما استخدم الحجر فى بناء الجدران الخارجية للمساجد • وتوجد أمثلة للعقد المستقيم فى المداخل الثانوية فى جامع الحاكم بأمر الله [٤] فى الواجهة الشمالية الغربية •

● العقد نصف الدائرى : انتشر هذا العقد فى العمارة العربية الاسلامية فى جميع العصور والأقطار ، كما كان منتشرا فى جميع الطرز المعمارية فى العالم القديم والوسيط والحديث ، وفى الشرق والغرب • وليس من السهل الوصول لا الى أول من ابتكره ولا أول عصر ابتكر فيه ولا الى أنه قد سبق العقد نصف البيضى أو أن العكس قد حدث •

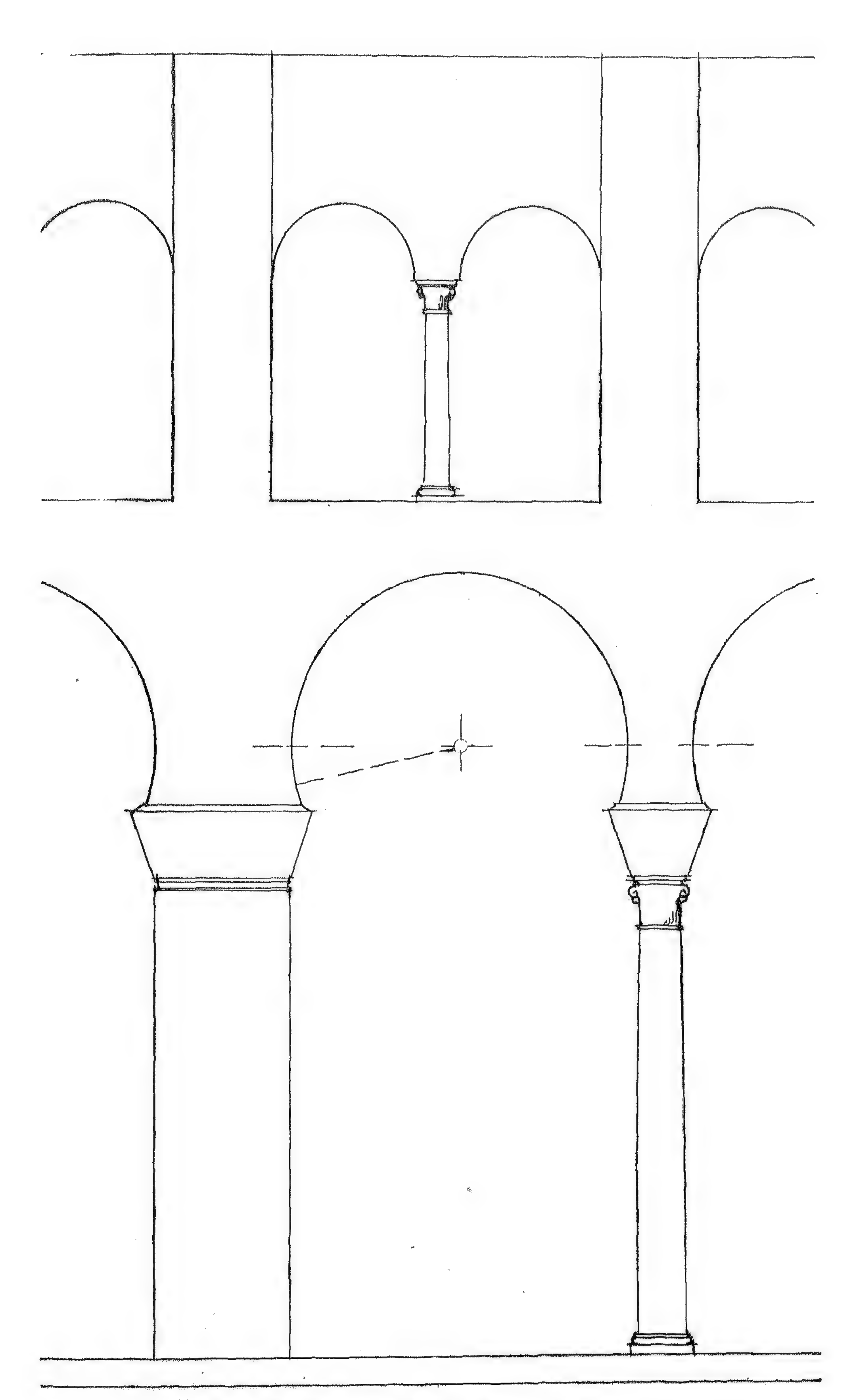
---

(١) E.M.A., II, pp. 98-100, Fig. 82, Pl. 24.

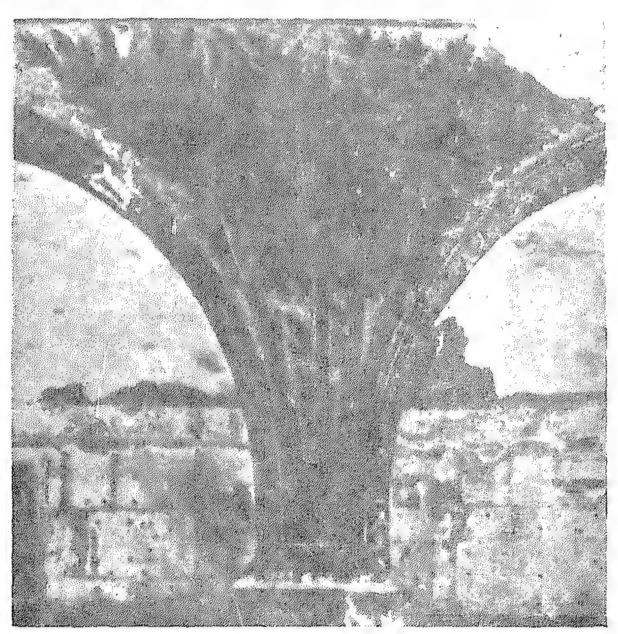
(٢) Ibid., II, pp. 333-337, Pls. 54 b, 55 c, 56 a-b.

(٣) Ibid., II, pp. 343-45, Figs. 418, 421.

(٤) M.A.Eg., I, Fig. 26, Pls. 15 a and c, 16 a.



ش : ١٣٧ ـ دمشق : المسجد الأموى ، عقد حدوة الفرس



ش : ١٣٨ ـ دمشق : المسجد الأموى ، عقد حدوة الفرس

ويوجد أقدم مثل للعقد نصف الدائرى فى أقدم أثر عربى اسلامى قائم فى العالم وهو قبة الصخرة[1] ، ثم تتتابع أمثلته بغير انقطاع بعد ذلك . غير أن استعماله قد أخذ فى القلة مع ازدياد الاقبال على الأنواع الأخرى التى انتشرت فى العمارة العربية الاسلامية فى الشرق والغرب .

● ثم ظهر عقد حدوة الفرس فى ثانى أثر معمارى يوجد فى العالم الاسلامى وهو المسجد الأموى بدمشق . وذلك لعقود البائكات المحيطة بالصحن والشبابيك التى تعلو تلك العقود (ش : ١٣٧ ، ١٣٨)[2] .

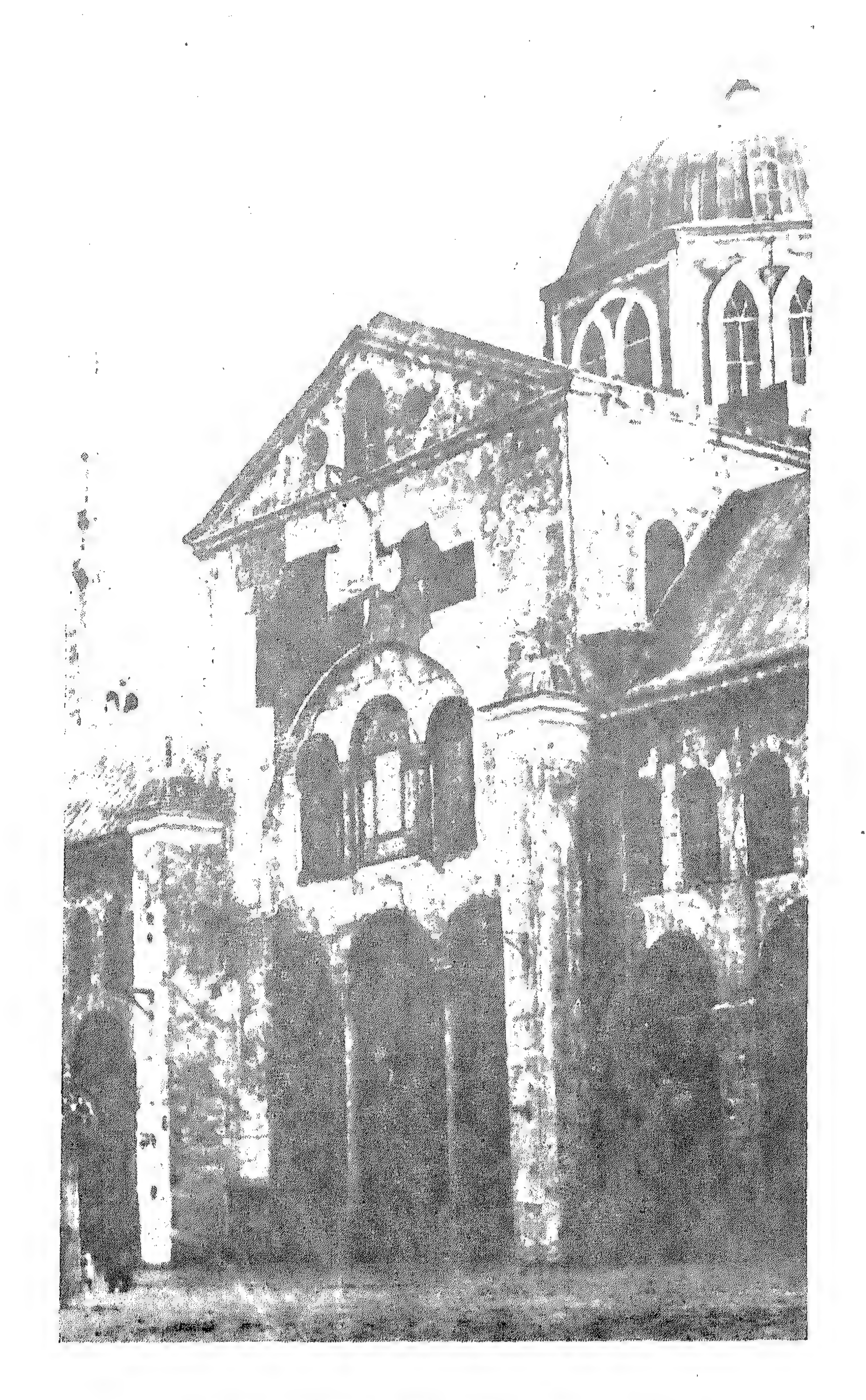
ومما يستوقف النظر أن هذا النوع لم ينتشر فى العمارة العربية فى الشرق الاسلامى مثلما انتشر فى الغرب الاسلامى الذى يمكن القول بأنه هاجر اليه منذ العصر الاسلامى المبكر ، وأصبح من أشهر مميزات العناصر المعمارية هناك .

وتعود الحلقات السابقة للعصر الاسلامى الى العمارة فى شمال الجزيرة العربية فى كل من العصر الساسانى والعصر البيزنطى . ذلك أن أقدم مثل مؤرخ من عقد حدوة الفرس يوجد فى معمدانية مار يعقوب بمدينة نصيبين (ش : ٩٣) ، ثم تأتى الحلقات التالية من الشام وآسيا الصغرى[3] .

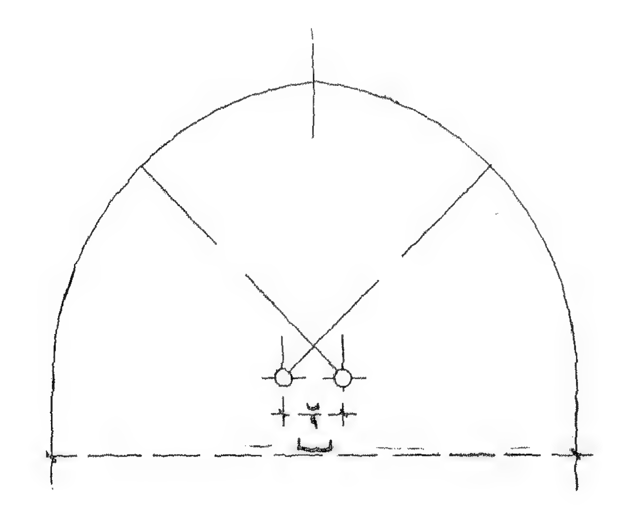
(١) E.M.A., I, Pls. 1, 2, 5-20, 28, etc.

(٢) Ibid., Fig. 67, Pls. 34 d, 35 a.

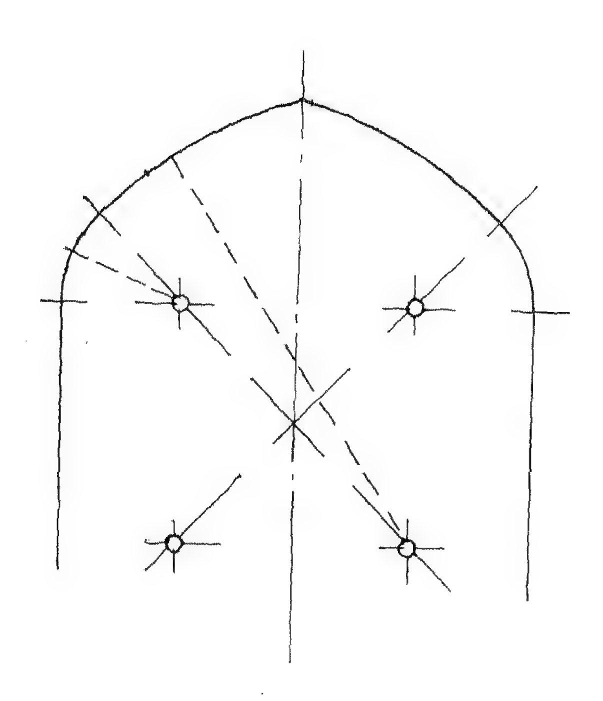
(٣) Ibid., pp. 137-38, Figs. 75-78.



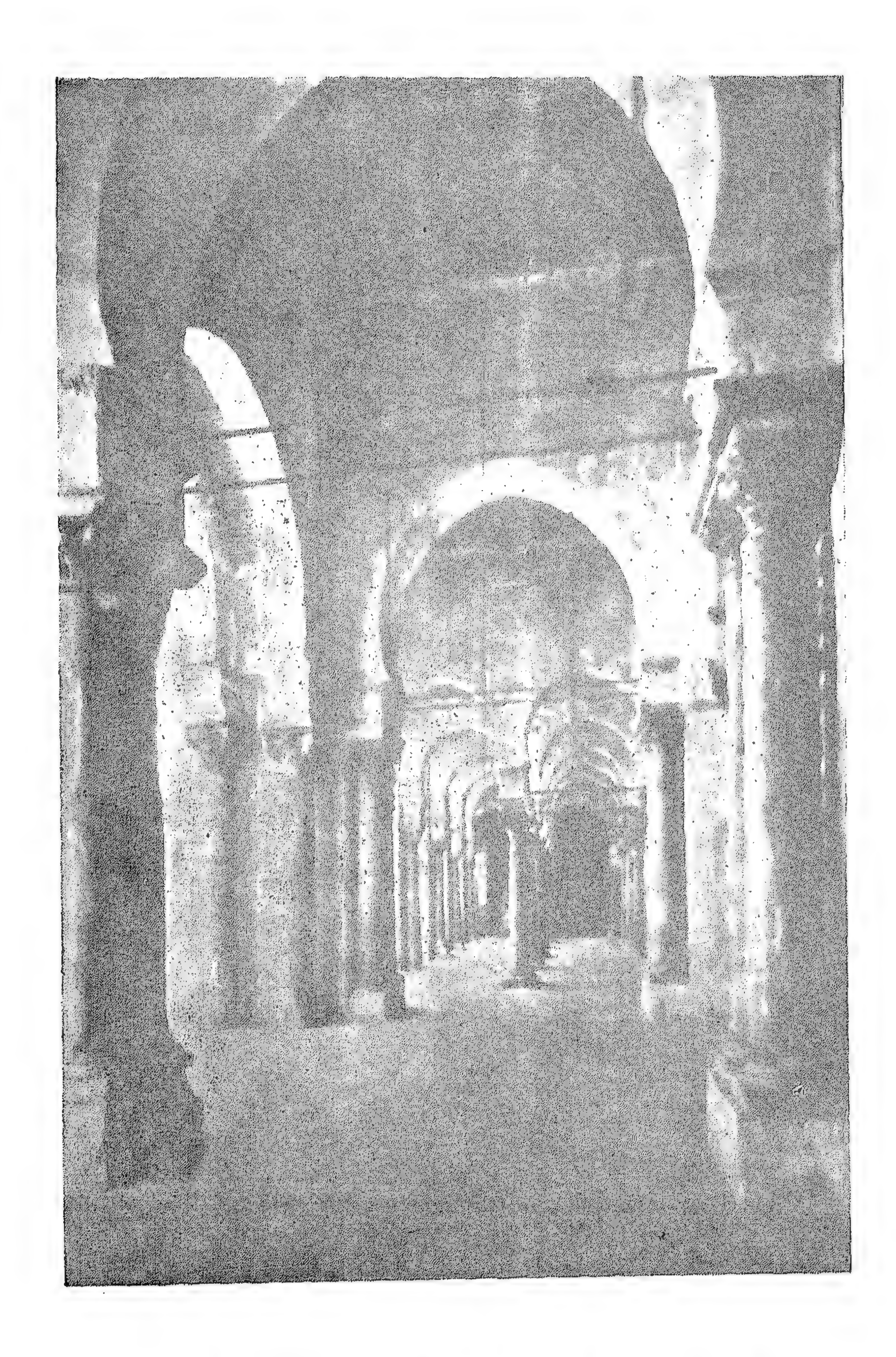
ش : ١٣٩ ـ دمشق : المسجد الجامع ـ عقد مدبب ذو مركزين



ش : ١٤٠ ـ دمشق : المسجد الجامع ، عقد مدبب ذو مركزين



ش : ١٤١ ـ الرقة : باب بغداد ـ عقد ذو أربعة مراكز



ش : ١٤٢ ـ القيروان : المسجد الجامع ـ عقد مدبب حدوة الفرس

● ويهمنا بوجه خاص النوع المدبب من العقود لأنه انتشر انتشارا كبيرا فى العمارة العربية الاسلامية وأصبح من مميزاتها البارزة ، وتفنن المعماريون العرب المسلمون فى ابتكار أشكال منه وصل مجموعها الى نحو ثلاثة أشكال رئيسية ، أولها : العقد المدبب الذى يتكون من قوسين رسما من مركزين (ش : ١٤٠) • والثانى : العقد المدبب المكون من أربعة أقواس رسمت من أربعة مراكز (ش : ١٤١ ، ٢٢٢)• والثالث : العقد الفاطمى الذى يطلق عليه خطأ اسم العقد الفارسى ، ويطلق عليه بالانجليزية Keel Arch • ويتكون من قوسين رسما من مركزين ، ويمس كل قوس منهما مستقيم يلتقى مع المستقيم الآخر فى قمة العقد المدببة ، وسنتحدث عنه فى موضعه •

ويهمنا هنا النوع الأول المكون من قوسين (ش : ١٤٠) والذى يوجد أقدم مثل له فى المسجد الأيوبى بدمشق فى واجهة المجاز القاطع المطلة على الصحن (ش : ١٣٩) [١] •

وقيل ان هذا النوع قد ظهر قبل الاسلام فى قصر ابن وردان الذى يؤرخ بين سنتى ٥٦٠ و٥٦٤ م [٢] ويستوقف نظرنا أنه مثل وحيد لا ثانى له فى منطقة الشام ، هذا فضلا عن الشك المحيط بتاريخ عمائر قصر ابن وردان ، مما يجعل نسبة العقد المدبب للشام فى العصر البيزنطى فيها كثير من الريبة •

وقد شرحنا فى موضع سابق (ص : ١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٧٣ ، ١٧٤) ترجيحنا لوجود العقد المدبب فى الأثر الساسانى المشهور بطاق كسرى فى سلمان ، وذلك على الرغم من الرأى الذى ينفى وجوده فى العمارة الساسانية ، وهو رأى لا يتفق مع الواقع •

أما بقية أشكال العقود المدببة التى شرحناها فكلها ابتكارات اسلامية ما فى ذلك من شك • وسنتناول الحديث عنها باسهاب وتفصيل فى الأماكن المخصصة لها فى الأبواب الأخرى •

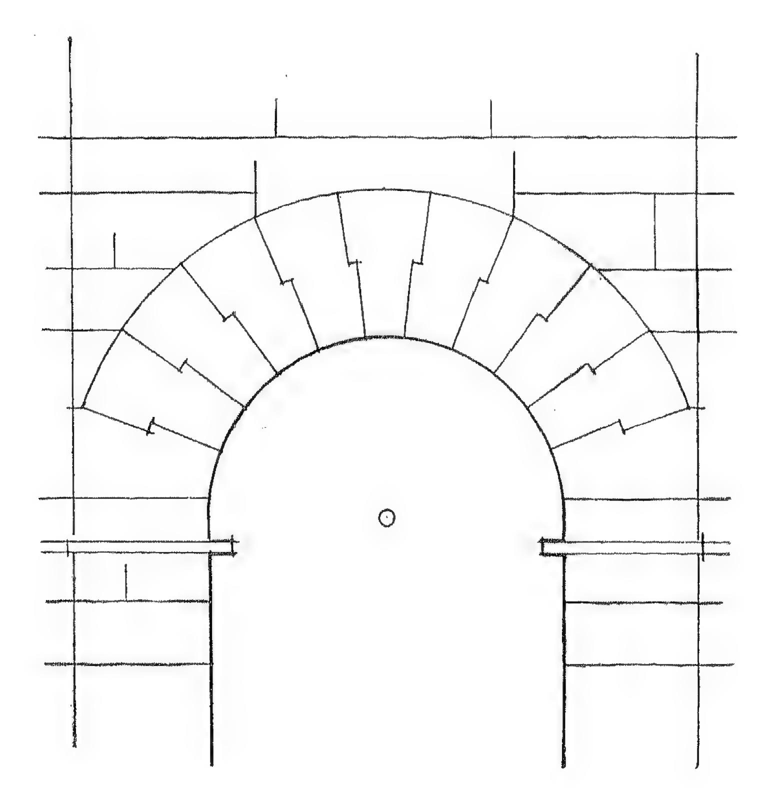
● وهناك نوع من العقود يجمع بين النوع المدبب ذى القوسين وشكل حدوة الفرس (ش : ١٤٢) • وتوجد أمثلته فى جامع القيروان فى الجزء الذى يؤرخ فى سنة ٢٢١ هـ (٨٣٦ م) [٣] ، وفى جامع ابن طولون ويؤرخ فى ٢٦٣ – ٢٦٥ هـ (٨٧٦ – ٨٧٩ م) [٤] وهذا النوع من العقود اسلامى لاشك فيه •

(١) E.M.A., I, Pl. 38 b-c.

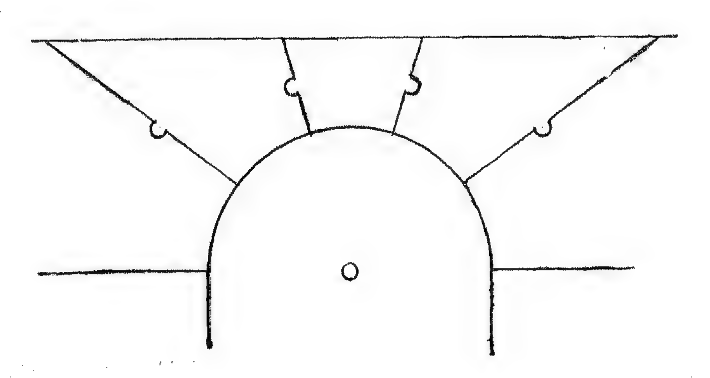
(٢) Ibid., I, pp. 278-280.

(٣) Ibid., II, p. 220, Pl. 83 a.

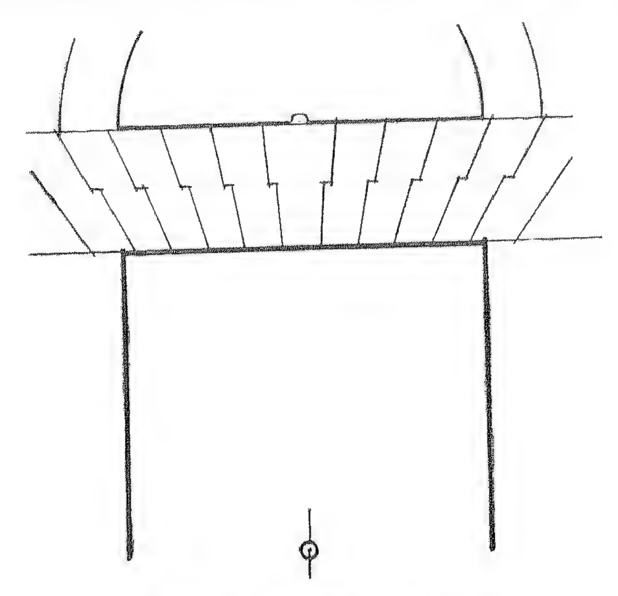
(٤) Ibid., II, p. 343, Pl. 100 a, etc.



ش : ١٤٣ ـ الصنجات المزررة الرومانية



ش : ١٤٤ ـ الصنجات المزررة



ش : ١٤٥ ـ الصنجات المزررة البيزنطية

● وتوجد أمثلة من العقود المفصصة فى العصر العباسى المبكر • من ذلك نموذج فى شبابيك وهمية فى واجهة باب بغداد فى مدينـــة الرقة (ش : ٢٢٢) ، ويؤرخ فى ١٥٥ هـ (٧٧٢ م) [١] • وتوجد نماذج أخرى فى قصر الأخيضر [٢] • ومنها نموذج فى جامع سامرا [٣] ويؤرخ بين سنتى ٢٣٤ و ٢٣٧ هـ (٨٤٨ و ٨٥٠م)• وغير ذلك كثير من الأمثلة •

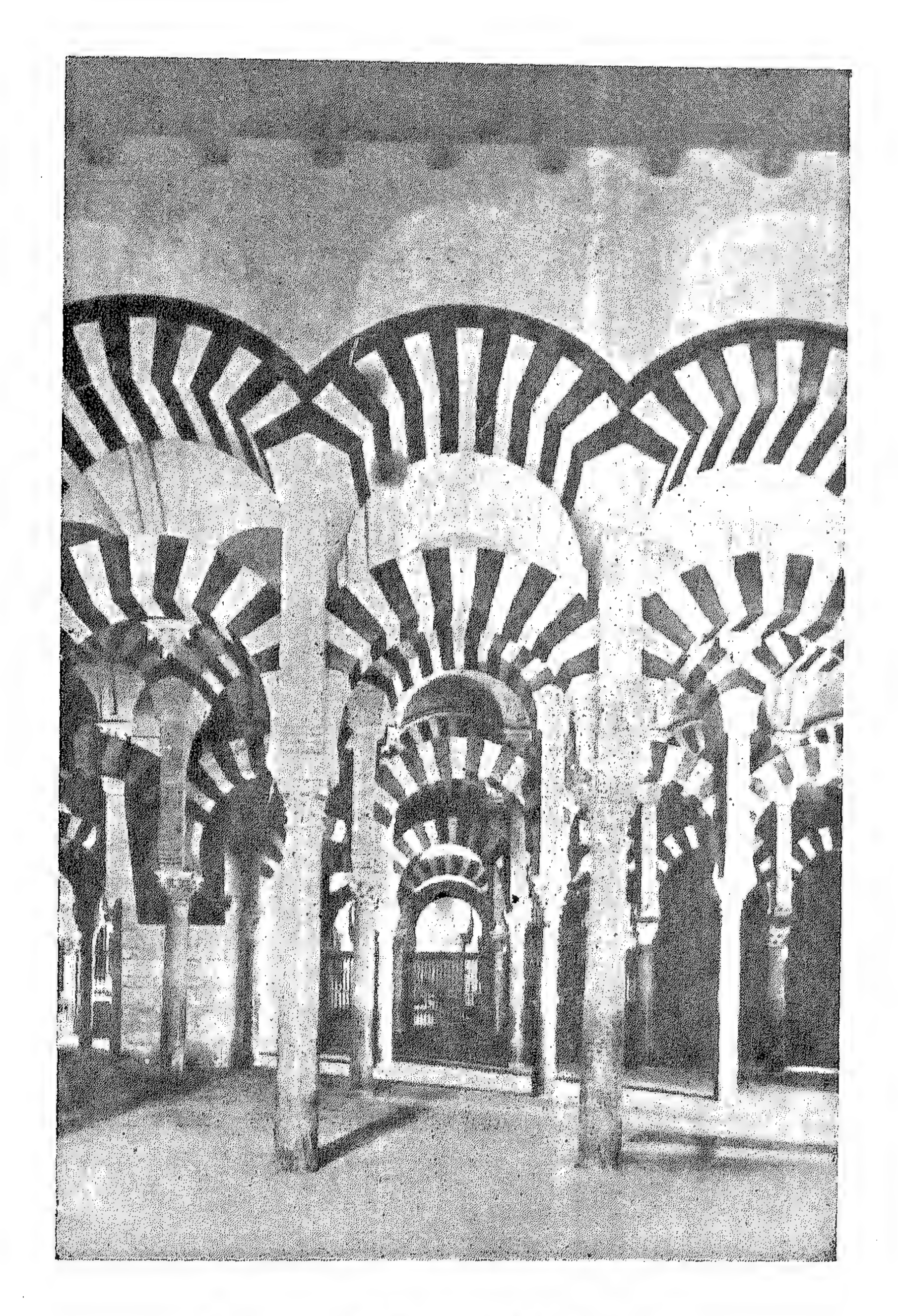
وتشـاهد فكرة فصـوص العقود في طاق كسرى الســاسانى (ص : ١٧٩ ، ش : ١١٩) •

● وانتقلت الى العمارة العربية الاسلامية ظاهرة الصنجات المزررة Joggled Voussoirs (ش : ١٤٣ ـ ١٤٥) ومن الطبيعى أن تتطلب هـذه الظـاهرة عمل الصنجـات من الحجر أو الرخام • ووجـد أقدم مثـل لهـا فى قصر الحـير الشرقى (ش : ١٣٦) ، وهو أبسط أشـكال هـذه الظاهرة التى كان يقصد من ابتكارها نفع بنائى ، فبالاضافة الى تماسك الصنجات نتيجة لشكل « الوتد » الذى نحتت عليه كل صنجة ، أى عمـل طرفها العلوى عريضا وطرفها الأسـفل ضيقا ، فان الشـكل « المزرَّر » ، يزيد من ترابطها ، حيث يرتكز الجزء البارز من كل صنجة منها على الجزء الداخل من التالية لها وهكذا •

(١) E.M.A., II, Fig. 32, Pl. 39 a.

(٢) Ibid., II, Figs. 41, 44, 59, 60.

(٣) Ibid., II, Fig. 203, Pl.



ش : ١٤٦ ـ قرطبة ، المسجد الجامع : صنجات الابلق

وترجع أقدم أمثلة هذه الظاهرة الى العمارة الرومانية (شكل ١٤٣) ، ثم ظهرت فى العمارة البيزنطية (ش : ١٤٥) [١] . وتوجد أمثلة من هذه الظاهرة فى أبواب حصون القاهرة الفاطمية التى تنسب الى أعمال بدر الجمالى[٢] .

وتطورت تلك الأشكال البسيطة الى أنواع عديدة رائعة اختصت بها العمارة الاسلامية . وسنرى منها أمثلة فى صنجات العقود المملوكية ، انتقلت فيها من الأشكال البسيطة الى أشكال معقدة غاية فى الروعة ، بحيث يصعب على المرء أن يتصور كيف أمكن للفنان أن يصل الى عمل هذه الصنجات المزورة ببعضها بواسطة حليات فى كل من الصنجات وفى باطنها فى نفس الوقت ، الأمر الذى يجعل منها ألغازاً يحتاج حلها الى كثير من التفكير العميق والمران والخبرة (ص : ١٨) .

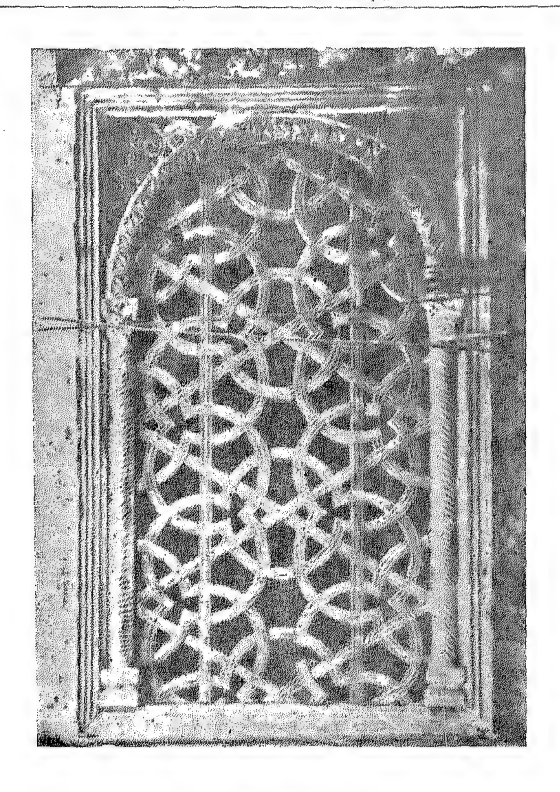
● وتوجد فى جامع قرطبة الذى شيده عبد الرحمن الداخل فى سنة ١٧٠ هـ (٧٧٦م) ظاهرة بناء العقود فى ظلة القبلة من صنجة من الحجر الابيض تليها مجموعة من أربعة مداميك من قوالب الآجر المبنية على سيفها ، ثم صنجة من الحجر الأبيض وهكذا بالتبادل (ش : ١٤٦) [٣] . وهى فكرة انتشرت بعد ذلك لبناء جدران العمائر ، وسماها المؤرخون العرب « الأبلق » حيث كان يستخدم الحجر الفاتح اللون فى مدماك والحجر الداكن أو البازلت فى المدماك التالى بالتبادل . وانتشر هذا الأسلوب فى العمارة العربية فى الشام حيث يتوفر الحجر الجيرى وحجر البازلت .

ويقال أن أسلوب البناء بمدماك من الحجر ومدماك من مجموعة من قوالب الآجر بالتبادل كان معروفا فى العصر البيزنطى فى الشام فى قصر ابن وردان ـ ذى التاريخ البيزنطى المشكوك فيه ـ وفى أندرين ، وفى قصر الشمع فى حى مصر القديمة من العاصمة القاهرة[٤] .

غير أن استخدام تلك الفكرة لصنجات العقود بعد ابتكارا عربيا اسلاميا لا شك فيه .

---

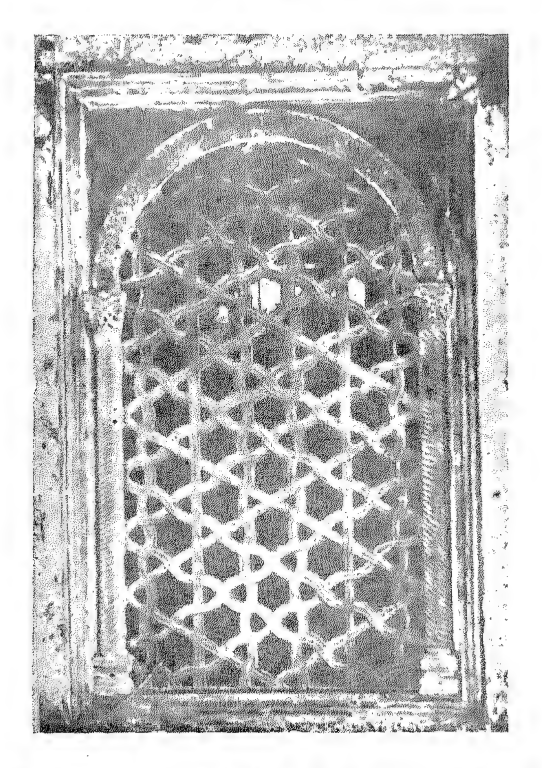
(١) E.M.A., I, pp. 343-45, Figs. 417, 418-424.
(٢) M.A.E., I, Pls. 50, 51 c., 63, 64, 65 b, 73, 74 a.
(٣) E.M.A., II, pp. 148, etc., Fig. 144, Pls. 31-32.
(٤) Ibid., II, p. 157.



ش : ١٤٧ ـ دمشق المسجد الجامع : شمسية من الرخام

● من التفاصيل والعناصر الزخرفية أسلوب استخدام الأعمدة المنقولة من العمارة السابقة على اعلصر الاسلامى من الطرازين الرومانى والبيزنطى فى العمائر العربية الاسلامية وبخاصة فى ظلات المساجد الجامعة . وقد سبقهم الى هذا التصرف البيزنطيون ومن قبلهم الرومان (ص : ١٥٣ ، ١٥٤) ، فلم يكن العرب المسلمون وحدهم اذن مبتدعى ذلك المبدأ كما يحاول المستشرقون أن يؤكدوه دائما وأن يحيطوه بهالة من الأهمية تضفى عليهم صفة المغتصبين ضد الأديان الأخرى ، ثم صفة القاصرين عن ابتداع ما يغنيهم عن السلب والنهب . وما لجأوا الى ذلك فى رأينا الا لصعوبة الحصول على المادة الرئيسية لعمل الأعمدة وهى الرخام .

وعلى الرغم من تعدد أشكال تيجان وقواعد الأعمدة التى نقلت الى العمائر الاسلامية وبخاصة فى الشام ومصر ، فان الفنانين العرب لم يقتبسوا منها سوى أبسط أشكال العمود الكورنثى بعد اختزال أوراق وعدد صفوف الأكانثاس فيه ، والذى يوجد أحسن مثل له فى الجزء الرومانى من المسجد الأموى بدمشق (ش : ١٤٧ ،



ش : ١٤٨ ــ دمشق ، المسجد الجامع : شمسية من الرخام

١٤٨) [١] ، وأخرجوا منه نوعا اسلاميا اختصت به العمارة العربية ، وذلك بعد أن جردوه من أوراق الاكانثاس ، وظهر على هيئة كأسية وبدا كأنه لا صلة له بأصله . وتوجد أقدم أمثلة له فى سامرا (ش : ٢٥٠ ، ٤١١) ، وفى مصر فى مقياس الروضة واستخدم لقاعدة العمود وليس لتاجه (ش : ٢٢٧) ، وفى شاهد قبر[٢] .

وهناك رأى يقول بأن هـذا النموذج الكأسى قد وجـد فى العصر الساسانى (ص : ١٧٧) . ولكن هذا الرأى تنقصه أدلة قوية تدعمه . وعلى كل حال فمن رأينا أنه قد تطور من التاج الكورنثى المبسط كما سبق القول .

***

● ومن تلك الظواهر زخرفة الواجهات بتقسيمها الى حشـوات غائرة بينها أكتاف أو أعمدة ملتصقة بالجدران ، ويتكون منها صف أفقى أو أكثر . وتتوج تلك الحشوات فى أغلب الأحيان عقود متتالية ومن أمثلته ما يوجد فى باب بغداد بالرقة ،

(١) E.M.A., I, Pl. 46.

(٢) Stéles Fune, II, Pl. XXVI.

(ش : ٢٢٢) [١] ، وفى الجدران المحيطة بالفناء الأوسط بقصر الأخيضر (ش : ١١١) [٢] .

ويبدو أن هذه الفكرة قد اقتبست من العمارة الساسانية ، اذ توجد أمثلة لها فى واجهة طاق كسرى (ش : ٩٩ ، ١٠٠) ، وفى قصرى فيروزابادى وسرفستان وغير ذلك .

واختفت هذه الظاهرة فترة من الوقت ثم عادت الى الظهور بعد أن اكتسبت طابعا عربيا وسلاميا ناضجا وذلك فى بعض العمائر الفاطمية ، ثم انتشرت فى العصر الأيوبى وزاد انتشارها فى العصر المملوكى ، ولكن ليس من الضرورى أن يكون ظهورها فى مصر استمرارا لوجودها فى العصر العباسى الأول فى العراق .

● ومن زخارف العمائر الشرافات المسننة . ويرجع أقدم أمثلتها الاسلامية الى العصر الأموى ، اذ توجد فى قصر الحير الشرقى الذى بناه هشام ابن عبد الملك سنة ١٠٩ هـ (٧٢٧ م) ، والذى نقلت واجهة بوابته [٣] الى متحف دمشق . كما وجدت فى مدينة سامرا ، فقد عثر على بقاياها تتوج جزءا من الجدار الجنوبى للفناء الكبير فى قصر المعتصم المعروف بالجوسق الخاقانى (٢٢١ هـ/٨٣٦ م) (ش : ١٤٩) [٤] .

وتوجد أمثلة لهذه الشرافات المسننة فى العمارة الساسانية كما فى طاق كسرى الذى يؤرخ فيما بين سنة ٥٩٠ ، ٦٢٨ م . وأسنان هذه الشرافات عمودية[٥] (ش : ١٢١) . ويوجد مثل آخر أسنانه مائلة مثل ما فى سامرا ، ويوجد فى طبق ساسانى من المعدن (ش : ١٢٢ و ١٢٣) .

● ومن الظواهر الزخرفية التى انتشرت فى العمارة العربية الاسلامية وصارت من مميزاتها البارزة : « الشمسيات » . وهى ألواح من الحجر أو الرخام أو الجص وضعت فى الشبابيك وزخرفت بتفريغ الزخارف فيها ، وكانت من فئة الزخارف الهندسية فى أول الأمر ، ثم دخلتها الأنواع الأخرى من الزخارف مثل النباتية والكتابية . وبعد أن كانت تلك الألواح مفرغة تماما ، زاد عليها مع التطور وضع قطع من الزجاج الملون سدت بها الأجزاء المفرغة ، فأبرزت زخارفها وجمال تكويناتها . ويبدو كل ذلك فى وضوح اذا شوهدت من داخل الأماكن التى وضعت فى جدرانها

(١) E.M.A., II, Fig. 32, Pl. 3 a.

(٢) Ibid., II, Figs. 44, 45, 60.

(٣) Schlumberger : Syria, XX, pp. 195-238, 324-73.

(٤) E.M.A., II, Fig. 193.

(٥) Ibid., I, Figs. 433, 439-43, 455-7, 459, Pls. 63-72.

ويخيم عليها الضوء الخافت • وقد حدث ذلك التطـــور فى مصر فى أواخر العصر الفاطمى •

ويوجد أقدم أمثلة صريحة لهذه الشمسيات فى أربعة شبابيك فى جدار يرجع الى العصر الرومانى فى الجامع الأموى بدمشق (ش : ١٤٧ ، ١٤٨) ، وهى من الرخام المفرغ •

ولا يوجد من أمثلة الشمسيات فى العمارة العربية الاسلامية فى مصر ما يسبق الشمسيات الجصية المفرغة بغير زجاج فى جامع ابن طولون (ش : ٣٠٢ ــ ٣٠٥)•

● ولم يستخدم العرب فى العصر الاســـلامى المبكر الا النادر من الحليـات Mouldings • ولعل قصر المشتى هو أحسن مثل باق اســـتخدمت فيــه حليات كثيرة نحتت فى الحجر (ش : ١٥٦) • وتوجد فى الواجهـة الرئيسـية على جانبى المدخل ، وهى محفوظة الآن بمتحف برلين • وكذلك وجـدت بين الأنقاض بداخل القصر أجزاء من واجهة القاعة الرئيسية على الصحن تدل على أنه كان بهـا اطارات وطنف من حليات مختلفة [١] ، كما توجد أمثلة أموية أخرى فى قصر الحير الشرقى[٢] وجامع حران • أى بمعنى آخر فى العمائر أو أجزائها التى شيدت بالحجر المنحوت[٣]• كما كانت الحليات قليلة فى العمائر أو أجزائها المشيدة باللبن أو الآجر ، فتعمل لها حليات قليلة فى الجص الذى يكسو واجهات تلك العمائر •

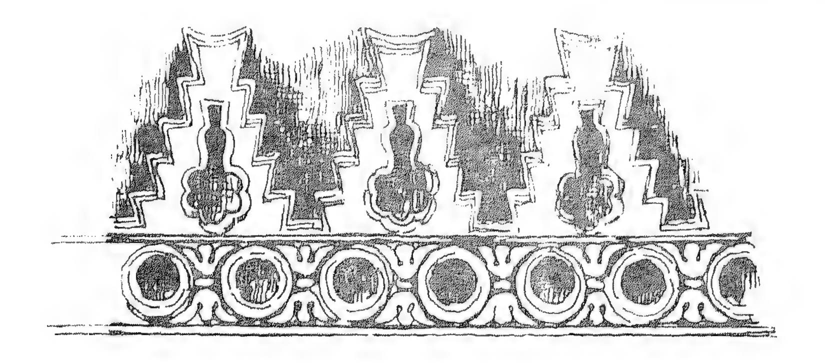
وقد رأينا أن الاغريق قد ابتكروا حليات كثيرة انتقل معظمها مع بعض التعديل الى الطراز الرومانى (ش : ١٨ ، ٢١ ، ؛ ش : ٥٤ ــ ٥٧) • وكان الســاسانيون يستخدمون أنواعاً من الحليات فى الكسوات الجصية ويهمنا منها الحلية البصلية (ش : ١١١) التى انتشرت فى العصر الاسلامى ، وكانت هى الحلية الرئيسية فيه فى جميع العصـــور تقريباً • ويشـــاهد أقدم مثـل منهـا فى العصر الأموى فى قصر الحير الشرقى[٢] •

● ومن أساليب الزخرفة التى ظهرت فى العصر الأموى كســوة الجدران بالفسيفساء الزجاجية المكونة من مكعبات صغيرة من الزجاج المعلون والمذهب ومن الصـــدف ومن أحجار أو رخام ملون بألوان مختلفة • وتلصق هذه المكعبات بجانب بعضها بحيث يتكون منها موضوعات زخرفية أو تصويرية تمثل بعض المناظر الطبيعية الى غير ذلك •

(١) E.M.A., I, Figs. 433, 349-43, 455-7, 459, Pls. 63-72.

(٢) Ibid., I, Figs. 406-8, Pls. 54-55.

(٣) Ibid., I, Fig. 490, Pl. 81.



ش : ١٤٩ ـ سامرا ، الجوسق الخاقانى : شرافات مسننة



ش : ١٥٠ ـ الفسطاط : زخرف الصليب المعكوف (المفروكة)

وتوجد أمثلة رائعة للزخارف من هذا الأسلوب فى قبة الصخرة ، وهى تغطى الأجزاء العليا من الجدران الداخلية بأوجــه البائكات وبواطن العقود[1] . ويذكر المؤرخون العرب أن الواجهات الخارجية كانت مكسوة بذلك الأسلوب . وتدل بقايا الفسيفساء التى كشف ولا زال يكشف عنها فوق الجدران القديمة التى غطيت بالملاط فى الجامع الأموى بدمشق على أن أوجه الجدران والبائكات فى الظلات وواجهاتها على الصحن كانت كلها مغطاة بالزخارف والمناظر من الفسيفساء[2] .

ويذكر المؤرخون أن مســـجد الرسول بالمدينة قد أعيد بناؤه فى عصر الوليد ابن عبد الملك على يدى عمر بن عبد العزيز واليه على الحجاز ، وأن جدرانه قد زينت بالفسيفساء[3] فى سنة ٩٠ هـ (٧٠٩ م) .

ويبدو أن الفسيفساء الزجاجية ابتكار بيزنطى ظهـــر فى بيزنطة والشام أول ما ظهر . أما الرومان فانهم لم يستخدموا سوى الفسيفساء من قطع الرخام والأحجار المختلفة الألوان . ومهما يكن من أمر فان صناعة الزخرفة بالفسيفساء كانت معروفة منذ العصور العراقية القديمة ولم يبتكرها الرومان .

***

• ومن ناحية العناصر الزخرفية فانه لم ينتقل من الطرز السابقــة الى الطراز الاسلامى العربى من العناصر الهندسية ذات المميزات الخاصة سوى عدد قليل مثــل الصليب المعــكوف الاغريقى (ش : ٢٧) ، والذى انتقل الى الطراز الرومانى والى الطراز الساسانى ، وتظهر أمثلة فى العصر الاسلامى المبكر فى قطع من الجص عثر عليهــا فى الفســطاط ش : ١٥٠ ، ٢٧٩) [4] ، وتســمى « بالمفروكة » فى الاصطلاح المعمارى الدارج .

ومن العناصر الهندسية أيضا زخرفة الجدائل . وهى معروفة منـــذ العصور القديمة فى العراق وفى مصر الفرعونية (ش : ١٥٣ ـ ١٥٥) [4] ولعلها هى مصدر الايحاء بالجدائل الاغريقية (ش : ٢١) ، وعناصر الأنشــوطة والمشبكات البيزنطية (ش : ٩٨) .

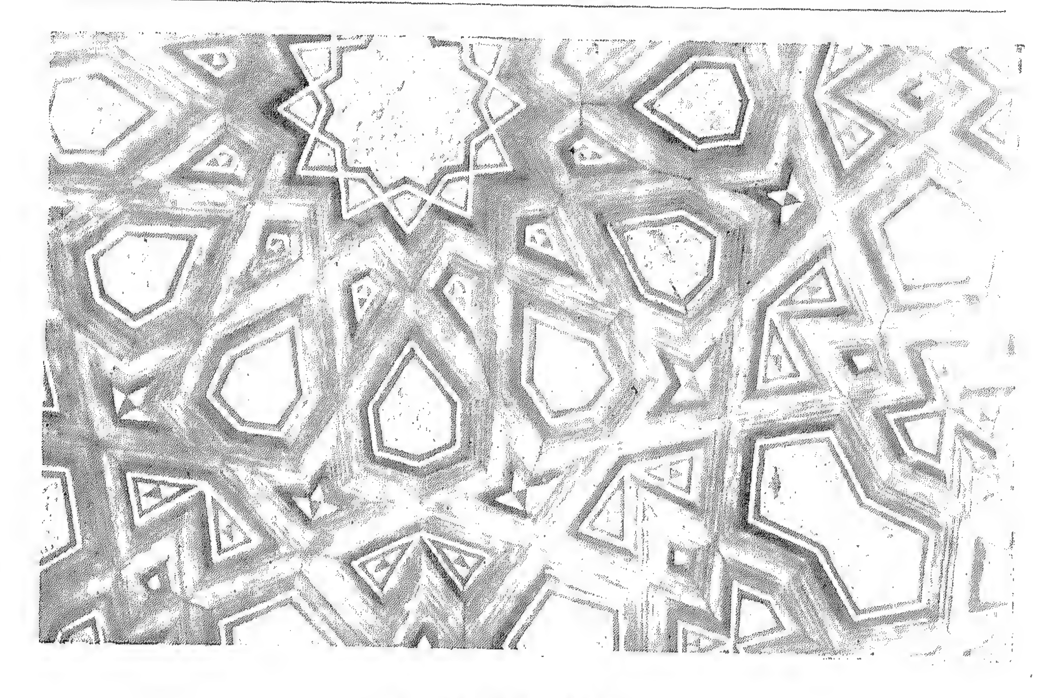
أما الزخارف من الأشكال الهندسية المنتظمة مثل الدوائر المتشابكة والأشــكال

(١) E.M.A., I,

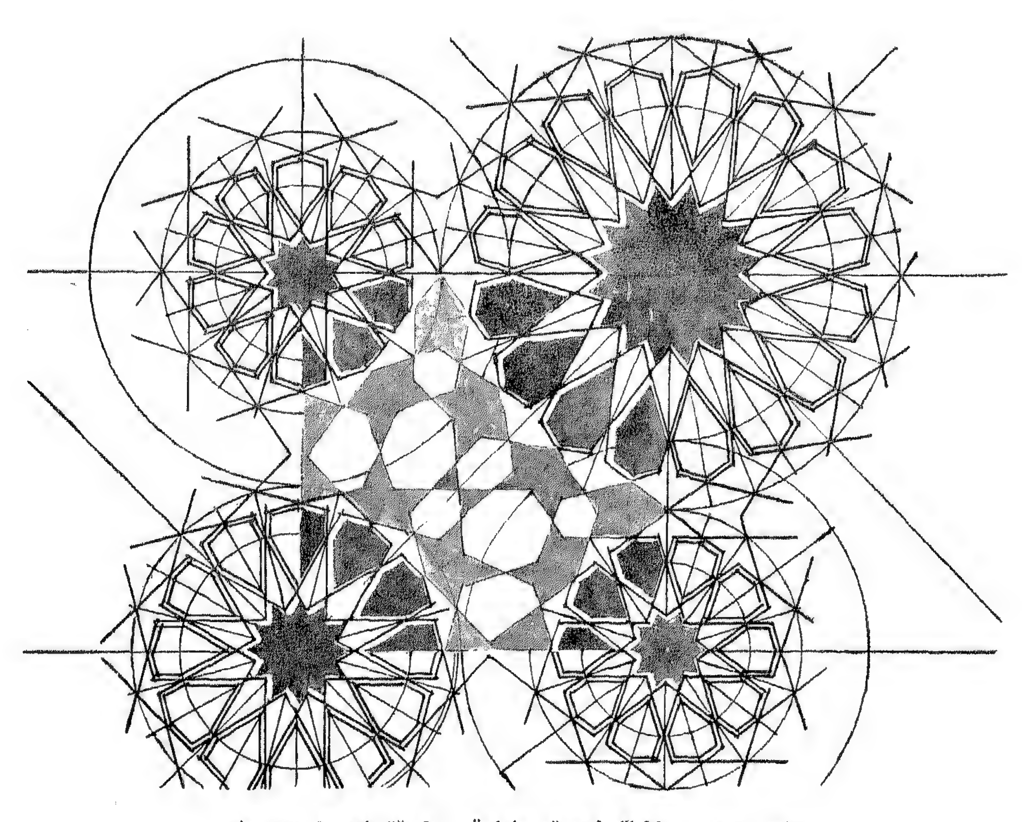
(٢) Ibid., I, pp. 97-98.

(٣) Ibid., I, pp. 230-252, Pls. 34 b, 36-7, 40, 41, 43-45.

(٤) Woermann, I, p. 114, Fig. 112 ; Surevy, IV, Pl. 69 d ; Petrie : Egyptian Decorative Art, p. 41, Fig. 66.



ش : ١٥١ ـ القاهرة : طبق نجمى فى منبر



ش : ١٥٢ ـ اطباق نجمية مملوكية : طريقة تكوينها ورسمها

المضلعة والمفصصة فليس لها طابع خاص تتميز به فى طراز معين دون الآخر. ونرى أمثلة لتلك الاشكال فى الشمسيات الرخامية فى المسجد الأموى بدمشق وترجع الى العصر الرومانى (ش : ١٤٧ ، ١٤٨) •

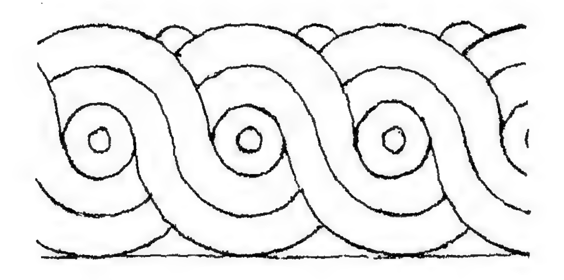
ويعد الفن الاسلامي هو الوحيد الذى اختص بنوع من الزخارف الهندسية هى ما اصطلحنا على تسميتها « بالاطباق النجمية » Star Pattern • وبدأت بشائرها فى القرن السادس الهجرى (١٢ م) • وليس هنا مجال الحديث عن نشأتها وتطوراتها وتكويناتها فهو أمر يستحق اعداد مجلد خاص له بالاضافة الى ما كتب عنه • وكل ما يمكن قوله أن هذه الزخارف لا فضل لأحد فى ابتكارها وتطويرها سوى الفنانين العرب المسلمين ، وأنه ليس هناك أى طراز من طرز الفنون التاريخية قد وصلت فيه أساليب الزخارف الهندسية الى القمة مثل ما وصلت اليه فى الطراز العربى الاسلامى (ش : ١٥١ ، ١٥٢) •

● أما زخارف الكائنات الحية فهى التى تحتوى على العناصر الآدمية أو الحيوانات أو الطيور أو الأسماك أو أجزاء منها على هيئتها الطبيعية أو محورة عنها أو العناصر المركبة التى تمتزج فيها أعضاء من أنواع مختلفة تتخذ فيها أوضاعا زخرفية أو تشترك مع عناصر هندسية أو نباتية لاخراج موضوع زخرفى ، ولا يسمى أى منها بزخرف اذا كان القصد منه تصويريا يوضح قصة أو أسطورة أو موضوعا •

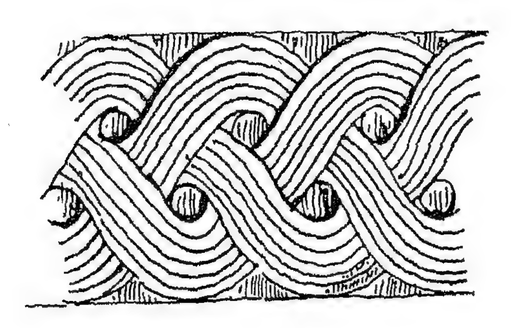
وتحتوى الواجهة الحجرية الزخرفية لقصر المشتى ، والتى نقلت الى متحف برلين ، وتوجد به الى الآن[1] على كل ما ذكرناه من عناصر الكائنات الحية من آدمية الى أشكال مركبة ، ولا يكاد مثلث من مثلثات تلك الواجهة يخلو من أكثر من عنصر منها وسط الزخارف النباتية التى تغطى مساحة كبيرة من تلك الواجهة (ش : ١٥٦) •

ولسنا نبالغ اذا قلنا أن هذه هذه الزخارف فى أسلوب توزيعها وسط التكوينات الزخرفية وأسلوب نحتها تعد من أروع ما أنتجته قريحة الفنانين وأيديهم فى العصور المختلفة • ولا يوجد فى الطراز الساسانى ولا فى البيزنطى ولا فى القبطى ، كما يسميه بعض العلماء ، بل ولا فى الرومانى ما ينافس تلك الزخارف ، وذلك على الرغم من تعدد المصادر التى جاءت منها تلك العناصر • فمنها عناصر ساسانية خالصة مثل العنقاء Griffon وهو عنصر مركب من أعضاء من طيور أو حيوانات ، فله وجه نسر وأجنحته مع جسم حيوان أو العكس • ومنها حيوانات وطيور طبيعية يمكن معرفة نوعها أو حورت لدرجة يصعب معرفة نوعها ، ويغلب عليها الطابع البيزنطى •

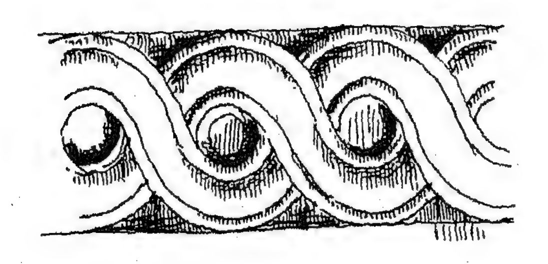
(1) E.M.A., I, Pls. 63-72.



ش : ١٥٣ ـ زخرف الجدائل في مصر الفرعونية



ش : ١٥٤ ـ زخرف الجدائل فى العراق القديم



ش : ١٥٥ ـ زخرف الجدائل فى العراق القديم

ويمكن القول بأن اجتماع تلك العناصر والأساليب فى بقعة واحدة يرجع الفضل فيه الى الحضارة العربية الاسلامية التى أتاحت اخراجها على تلك الدرجة من الروعة .

ومن أمثلة هذه الزخارف فى العصر الأموى أيضا ما عثر عليه فى قصر هشام فى خربة المفجر مرسوما بالفسيفساء [١] .

ومهما يكن من أمر فان هذا النوع من الزخارف لم ينقطع استخدام عناصره من آدميين وحيوانات وطيور طوال العصر العربى الاسلامى . غير أن بعض تلك العناصر قد نالها تحوير كبير عن أصولها وبعضها بقى محتفظا بها . ويمكن القول كذلك بأن الفنانين لم يسرفوا فى استخدام هذه العناصر بأنواعها فى العصر العربى الاسلامى .

ومن ناحية الزخارف النباتية فان هناك عناصر كثيرة قد دخلت فى نسيج الثوب الخارجى للفن العربى الاسلامى فى أول مراحل نشأته ، ومن أهمها عنصر الأكانثاس الذى كانت له الصدارة فى العصر الأموى سواء فى الفسيفساء أو النحوت على الحجر أو الجص ، وسواء كانت هيئاتها مقتبسة من الطراز البيزنطى أو الطراز الساسانى . واستمرت مشتقات الأكانثاس واضحة بين الزخارف العربية الاسلامية الى نهاية حياتها ، أى الى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى (١٩ م) .

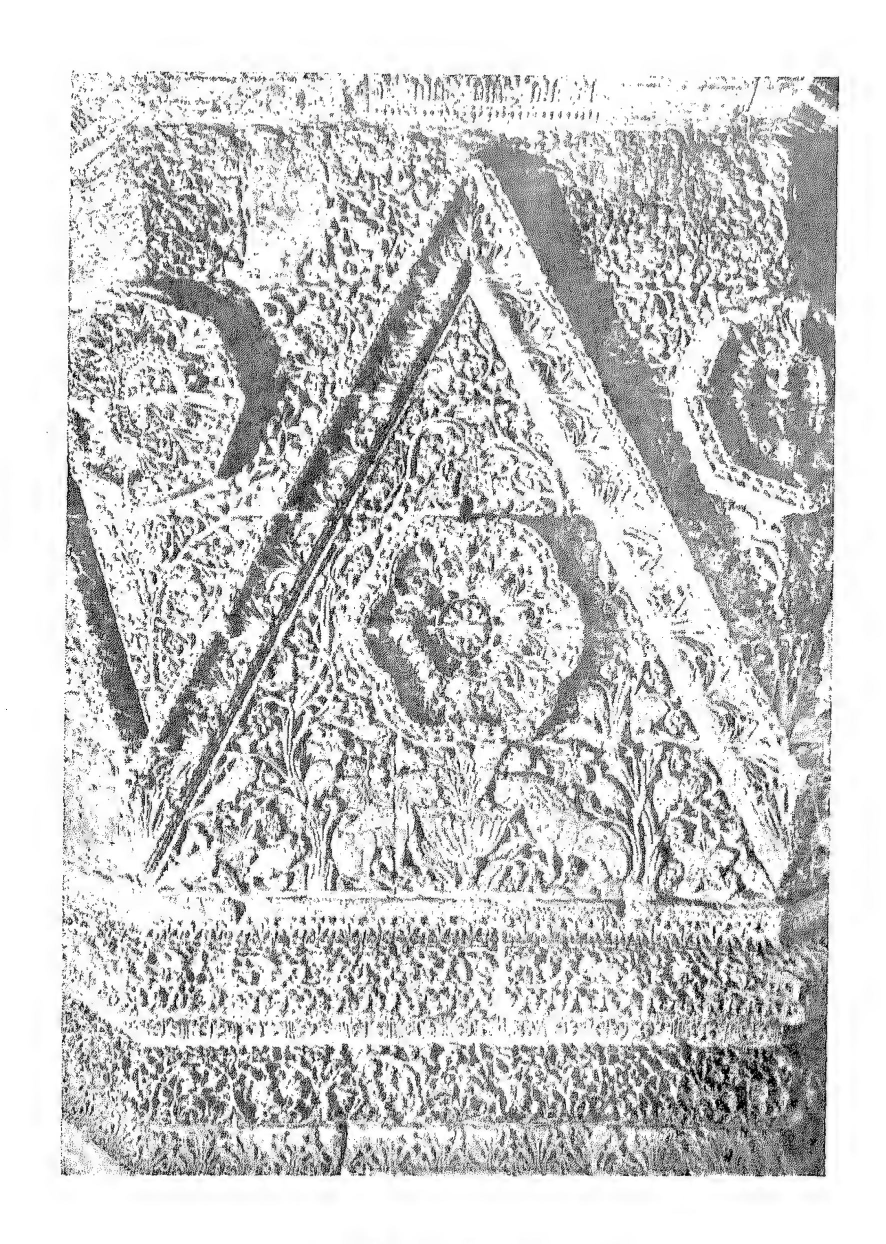
ومن تلك العناصر أيضا المراوح النخيلية وأوراق العنب التى انتقلت من العصر الهلينستى الى الطراز الرومانى الى الساسانى الى البيزنطى وأخيرا الى العربى لاسلامى.

غير أن ما دخل على العناصر الثلاثة السابقة من تجريد وتحوير قد جعلها فى بعض الأحيان تتخذ هيئات متشابهة يختلط الأمر فيها فلا يمكن تحديد أصل هذه الهيئة أو تلك . ويمكن أن نضرب مثلا لذلك فى زخارف واجهة قصر المشتى نفسها. فتوجد أشكال صريحة من الأكانثاس والمراوح النخيلية وأوراق العنب البسيطة والمركبة ، والى جانبها توجد أشكال أخرى تمت بصلة لكل هذه العناصر مجتمعة .

ونشاهد بين زخارف الفسيفساء فى قبة الصخرة والزخارف المحفورة فى الحجر فى واجهة قصر المشتى وقصر الطوبة عناصر لوتسية (ش : ١٥٧ ــ ١٥٨) من النموذج الفرعونى [٢] . ونقصد بالشكل الفرعونى ما كانت بتلاته Petals موزعة بطريقة زخرفية فى صفوف وراء بعضها ، فالصف الأول توجد فيه عادة ثلاث بتلات

(١) Hamilton : Khirbat al-Mifjar (Oxf. 1959).

(٢) E.M.A., I, Figs. 252 (Pl. 7 a), 260 (Pl. 18 a).



ش ١٥٦ ـ بادية الاردن ، قصر المشتى :

مثلث من الواجهة الحجرية

ظاهرة كلهـا ، ووراءه صف ثان وضعت فيه البتلات بحيث تطل الواحـدة منها من بين اثنتين من الصف الأول ، ثم يأتى صف ثالث تظهر فيه أطراف البتلات من بين أطراف بتلات الصفين الأول والثانى وهكذا، مما يذكرنا باللوتس الفرعونية الزخرفية (ش : ١٥٩) •

ولا تقابلنا أمثلة أخرى لهذا العنصر فى الزخارف الاسلامية بعد ذلك ، اللهم الا أشباه لها نادرة لا مجال هنا لبحث علاقتها بها •

والعناصر اللوتسية فى قبة الصخرة تتصل بعلاقة وثيقة بعناصر ساسانية وجدت فى قلعة كُهنة فى فارس وفى طاق بستان (ش : ١٦٠ ، ١٦١) [١] •

كذلك تشاهد بين زخارف الفسيفساء فى قبة الصخرة عناصر كثيرة من الثمار مثل التمر[٢] والرمان[٣] والعنب[٤] وعناصر تشبه الـكمثرى[٥] واللوز[٦] والبندق[٧] وكيزان الصنوبر [٨] • وقد اختفى أكثرها بعد ذلك ولم يظهر بعد ذلك فى الزخارف العربية الاسلامية ، بينما ظهرت عناصر أخرى فى العصر العثمانى وبخاصة فى الشام وآسيا الصغرى مثل القشدة والخشاش وغيرها •

وفكرة اقتباس العناصر النباتية للزخارف قديمة منذ العصور الفرعونية والأشورية والـكلدية ، ثم وجدت فى العصر الهلينى وبخاصة فى الفنون الهلينستية فى الشرق ، مثل الزيتون والعنب • وأضاف الشاميون الى هـذا السـجل بعضا آخر مثل الرمان وكيزان الصنوبر وسنابل القمح • ويوجد منها أمثـلة فى العمـائر الرومانية فى تدمر وبعلبك •

***

ونتخلص من العرض الموجز للطرز السابقة على الاسلام ومن الاحصاء المجمل للظواهر البارزة التى انتقلت الى العمارة العربية الاسلامية الى توضيح ثلاثة نقاط لها أهمية خاصة فى دراسة نشأن العمارة الاسلامية فى العصور المبكرة ، وهذه النقاط هى :

(١) E.M.A., I, Figs. 253-59.

(٢) Ibid., I, Figs. 146-49 (Pls. 9 b, 10 b and c, 12 c).

(٣) Ibid., I, Figs. 153-56 (Pls. 21 a and c, 24 d, 23 b).

(٤) Ibid., I, Figs. 172-75 (Pls. 22 b, 23 c and f, 24 d).

(٥) Ibid., I, Figs. 155, 161, 165 (Pls. 24 d and f, etc.).

(٦) Ibid., I, Fig. 158 (Pl. 24 c), etc.

(٧) Ibid., I, Figs. 160 (Pl. 24 c), 166 (Pl. 30 b).

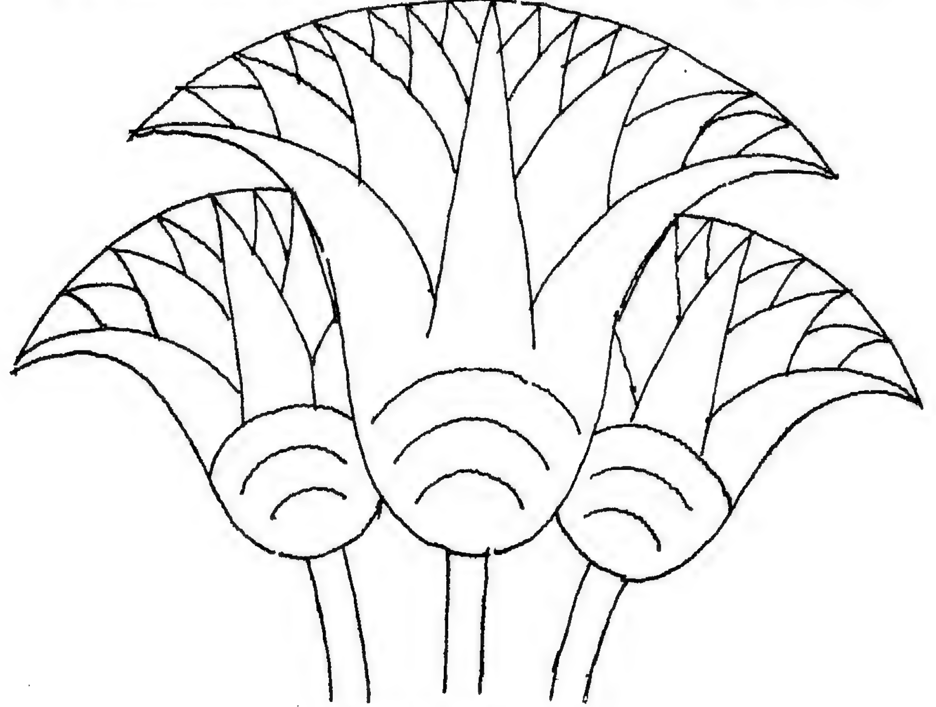
(٨) Ibid., I, Fig. 237 (Pl. 26 b), Fig. 228 (Pl. 80 a).



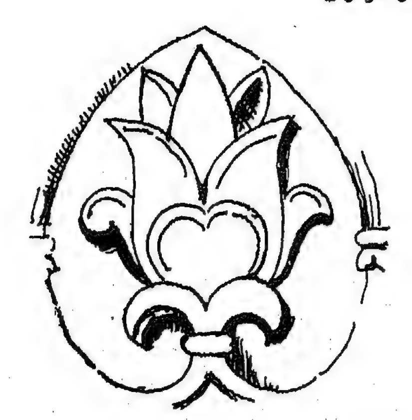
ش : ١٥٨ ـ قصر الطوبة ، عنصر لوتسى



ش : ١٥٧ ـ قبة الصخرة ، عنصر لوتسى



ش : ١٥٩ ـ لوتس فرعونى



ش : ١٦٠ ، ١٦١ ـ عناصر لوتسية ساساتية

أولا : ان الطرازين الساسانى والبيزنطى اللذين قيل عنهما بالذات أن جل أسس وأصول العمارة والفنون الاسلامية قد أخذت منهما لم ينبتا فى أول أمرهما تلقائياً أو فجائياً ، بل قام كل منهما على أسس من طرز سابقة ، أخذا منها نماذج للتخطيطات العامة والعناصر والتفاصيل ، ثم تطور الطراز منهما وهو يخضع لعوامل خاصة بالمناطق التى انتشر فيها • أى أنهما سارا على نفس السنة التى تبعتها جميع الطرز فى العصور كلها بغير استثناء •

ثانيا : ان هذين الطرازين الساسانى والبيزنطى بوجه خاص ، ومن قبلهما الطراز الهلينستى والطراز الرومانى فى شمال الجزيرة العربية ، قد تم الكثير من حلقات تطوراتهما على أيدى شعوب عربية كانت تسكن مناطق العراق والشام وما بينهما وما فى جنوبهما ، أى المناطق التى وضحت فيها المعالم الأولى للعمارة العربية فى العصر الاسلامى • أما تأثير عرب الحجاز عليها فانه لن يتضح بجلاء الا بعد الكشف عن مناطق كافية فى وسط وجنوب شبه الجزيرة العربية والقيام بعمل حفائر علمية فى تلك المناطق لمعرفة ماهية آثار العصور السابقة للعصر الاسلامى •

ثالثا : أن العمارة العربية فى العصر الاسلامى ، فى حدود معلوماتنا عن نشأتها فى الفترة المبكرة منه ، لم تقتبس من نماذج التخطيطات السابقة الا مثلين اختفى أحدهما ولم يصلنا الا وصفه ، هو الشكل الخارجى لمدينة بغداد المدورة ، والمثل الثانى هو تخطيط قبة الصخرة ، وهو مثل وحيد لم يتكرر مرة أخرى فى العصر الاسلامى • وفيما عدا هذين المثلين النادرين من نماذج التخطيط فان جل ما اقتبسته العمارة الاسلامية من الطرز السابقة ، وبخاصة من الطرازين الساسانى والبيزنطى ، لا يتجاوز ظواهر من عناصر وتفاصيل وزخارف وضعت ضمن تكوينات خاصة بالعمارة العربية الناشئة •

ويمكن أن نقسم هذه الظواهر والتفاصيل والزخارف الى أربع مجموعات حسب ظهورها فى العمارة الاسلامية :

المجموعة الأولى : وتشمل ما ظهر منها فى العصر الاسلامى العربى المبكر ثم اختفى تماما بعد حقبة قصيرة لا تتجاوز القرن الأول الهجرى أو القرن الثانى على الأكثر •

المجموعة الثانية : وتشمل ما ظهر فى ذلك العصر المبكر ثم اختفى استعماله ، أو اختفت أمثلته ، ثم عاد الى الظهور مرة أخرى بعد حقبة من الوقت حسب

الظروف • ومن الطبيعى أن يكون قد تطرق اليـــه بعد عودته تطورات تغـــير من خصائصه وملامحه تغيرا كبيرا أو قليلا ، تبعا للتأثيرات أو العوامل •

المجموعة الثالثة : وتشمل ما ظهر منها فى العصر العربى الاسـلامى المبكر ، ثم دخل فى نسيج عمارته واستمر حياً فترة طويلة محتفظا ببعض الملامح القديمة على الرغم مما تطرق اليها من تطور •

المجموعة الرابعة : وتشمل ما ظهر منها فى العصور المبكرة ، ثم تطور فاكتسب طابعا عربيا اسلاميا جليا ، توارت معه ملامحه القديمة ، أو اختفت تماما • ومن ثم فقد أصبح لا أثر له بين العناصر العربية الاسلامية الخالصة •

***

ومهما يكن من أمر فانه لا يجب أن لا يغيب عن الأذهان أبدا أن ما يبدو لنا أن العمارة العربية الاسلامية اقتبسته من الطرز السابقة لا يزال الشك يحيط ببعضه من ناحية التاريخ ومن ناحية نسبته الى طراز منها بالذات • ذلك أنه لم يســتقر رأى العلماء بعد على تأريخ عدد ليس بالقليـــل من العمائر الساسانية والبيزنطية • فهناك فرق يصل مثلا الى ثلاثة قرون بين تاريخ طاق كسرى بالمدائن فى رأى بعض العلماء وبينه فى رأى بعض آخر[1] • وقـــد يصل الفرق بين آراء علماء فى تاريخ عمائر بيزنطية الى أكثر من قرن • كذلك يميل بعض العلمـــاء الى نسبة بعض العمـــائر التاريخية الى أحد الطرازين الســاسانى والبيزنطى بينما يميـــل علماء آخرون الى نسبتها الى العصر الاسلامى المبكر • مثل قصر شيرين وقصر حرانه[2] •

أضف الى ذلك أن بعض العمائر الدينية البيزنطية كانت تتوالى عليهـــا أعمال التجديد والتعمير واصلاح ما يتلف أو يتخرب من أجزاء منها فى عصور متوالية • وتهمنا هذه النقطة بالذات لعلاقتها بعنصر المقرنصات فى مناطق الانتقال التى تحمـــل القباب فى العمائر الدينية البيزنطية • فهذه المقرنصات توجد فى الأطـراف العليا من العمائر التى تتعرض للسقوط بفعل الزلازل أو ضعف الجدران ، ولذلك فان تأريخ العمارة منها ان صدق على الأجزاء السفلى من البناء فانه ليس من الضرورى أن يسرى على الأجزاء العليا ، والا كانت تلك المقـرنصات تعد المصـــدر البيزنطى السابق فى

(١) Survey, I, pp. 493-4, 515-7, 543-5 ; E.M.A., II, p. 86.

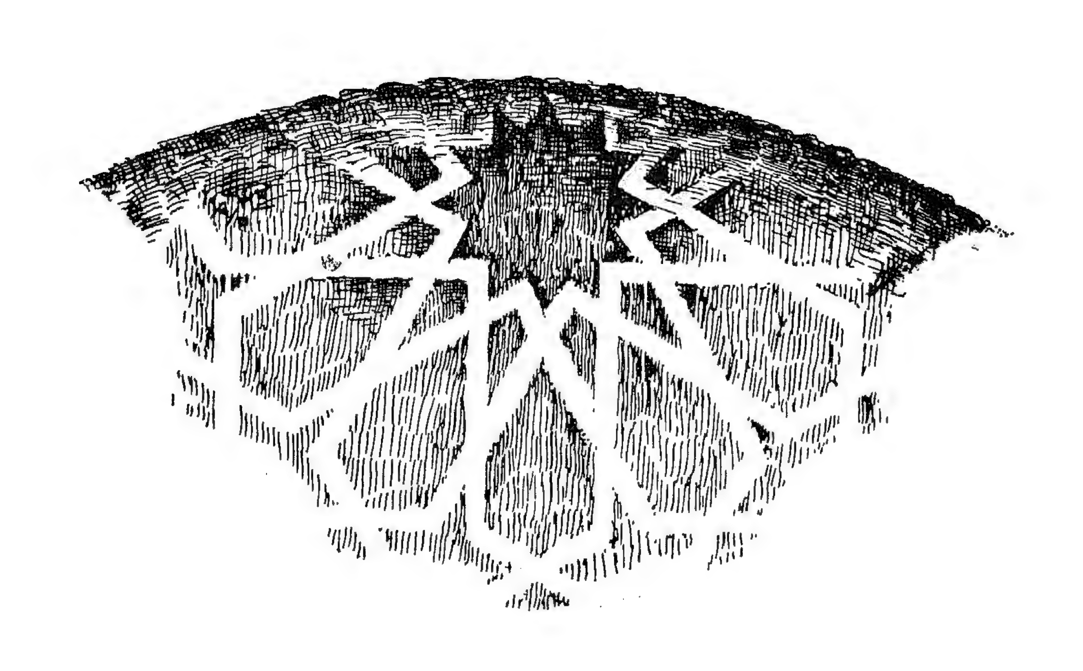
(٢) Hoag (J.) : L'Architecture Islamique (1962), pp. 13, 14, Pl. 13 ,14.

التاريخ والذى أخذت منه المقرنصات الاسلامية ، مع أن العكس هو الصحيح بغير أى شك •

***

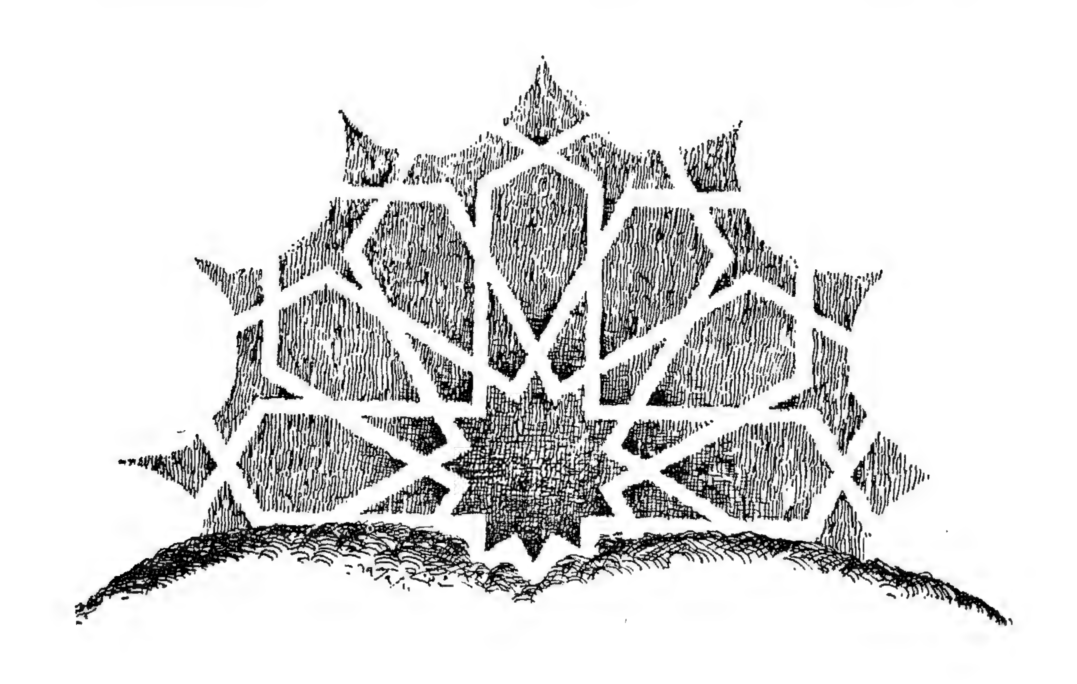
ويتضح مما سبق شرحه أن كل الجهود الجبارة والمحاولات اليائسة الهادفة الى اثبات أن أسس الطراز العربى الاسلامى ترجع معظمها الى طرز سابقة ، وان الفضل فى تكوينه يرجع الى أجناس غير عربية وغير اسلامية ، نقول انه اتضح من التحليل والفحص العلمى الجاد انها كانت مغرضة لا تتسم بالروح العلمية وبخاصة ان اعتبار العناصر المعمارية والزخرفية هى فن العمارة يجعل أصحابه يتصفون بعدم فهم معنى العمارة ، ومن ثم فان نتائج تلك الجهود تصبح مفتعلة لا أساس لها • واذن لم يحدث للعمارة الاسلامية ما حدث للعمارة البيزنطية من قيامها على أسس من الطراز الرومانى الوثنى ، سواء فى التخطيطات أو العناصر المعمارية والزخرفية ، ولم يصل الى تكوين بعض مميزاته الخاصة الا بعد نحو ستة قرون من ظهور المسيح ، وبعد ثلاثة قرون من الاعتراف الرسمى بها ، بل ان الطابع الرومانى ظل واضحا نحو خمسة قرون أخرى ، أى الى حدود القرون الوسطى ، بل الى ما بعدها •

أو بمعنى أوضح فان جوهر العمارة العربية الاسلامية ، أى عظامها وما يكسوها من لحم وما يجرى فيها من دماء وما دب فيها من روح ، كل ذلك كان عربيا اسلاميا خالصا • وأما مظهرها وثوبها الخارجى فقد دخل فى نسيجه بعض خيوط من طرز سابقة وانتشر فوق سطحه بعض الزخارف والعناصر والوحدات من تلك الطرز ، ولكنها سرعان ما كانت تخضع لأساليب خاصة بالفنانين العرب المسلمين الذين آخذوا ينتجون منها نسيجا يتميز بأنه عربى اســـلامى فى سدته ولحمته ووحداته وعناصره الزخرفية ، وذلك بعد نحو قرنين منذ أن بدأت الدعوة الى الدين الاسلامى •



الفصل الثالث

عمارة العرب وعوامل تطورها
في العالم الإسلامي



مشتملات الفصل الثالث :

العوامل المؤثرة على تطور الفنون : روحية ، معنوية ومادية ، العامل الدينى ، العوامل السياسية والاقتصادية والمناخية ، العاملان الجغرافى والجيولوجى ، مسـجد البصرة والكوفة ، تأثير الدين الاسلامى ، مسجد سامرا الكبيرا ، المسجد النبوى بالمدينة ، جامع احمد بن طولون ، التخطيط النبوى ذو الصحن والظلات فى مسجد المدينة ، المسجد الاموى بدمشق ، التخطيط النبوى ذو الصحن والظلات فى المساجد المبكرة ، جامع الرقة، المسجد الاقصى فى القدس ، جامع سوسة فى تونس ، التخطيط السنى ذو الصـحن والايوانات ، جامع ابن دلف فى سامرا ، التخطيط السنى ذو الصحن والايوانات فى خانقاه بيبرس الجاشنكير بالقاهرة ، التخطيط السنى ذو الصحن والايوانات بمدرسة الناصر محمد بالقاهرة ، بناء الاضرحة والمقابر فى العصر الاسلامى ، قصـور الامويين ببادية الشام، القصور والدور العربية الاسلامية، الميضأة، الاوقاف على المساجد والعمائر فى العصر الاسلامى ، الفنون التشكيلية فى العصر الاسلامى ، القصـور المبكرة ببادية العراق ، الاسلام والفنون التشكيلية ، الشيعة والسنية والفنـون التشـكيلية ، الصور الاسلامية للآدميين والحيوانات كثيرة متوفرة ، الاسلام والزخارف النباتية المعروفة

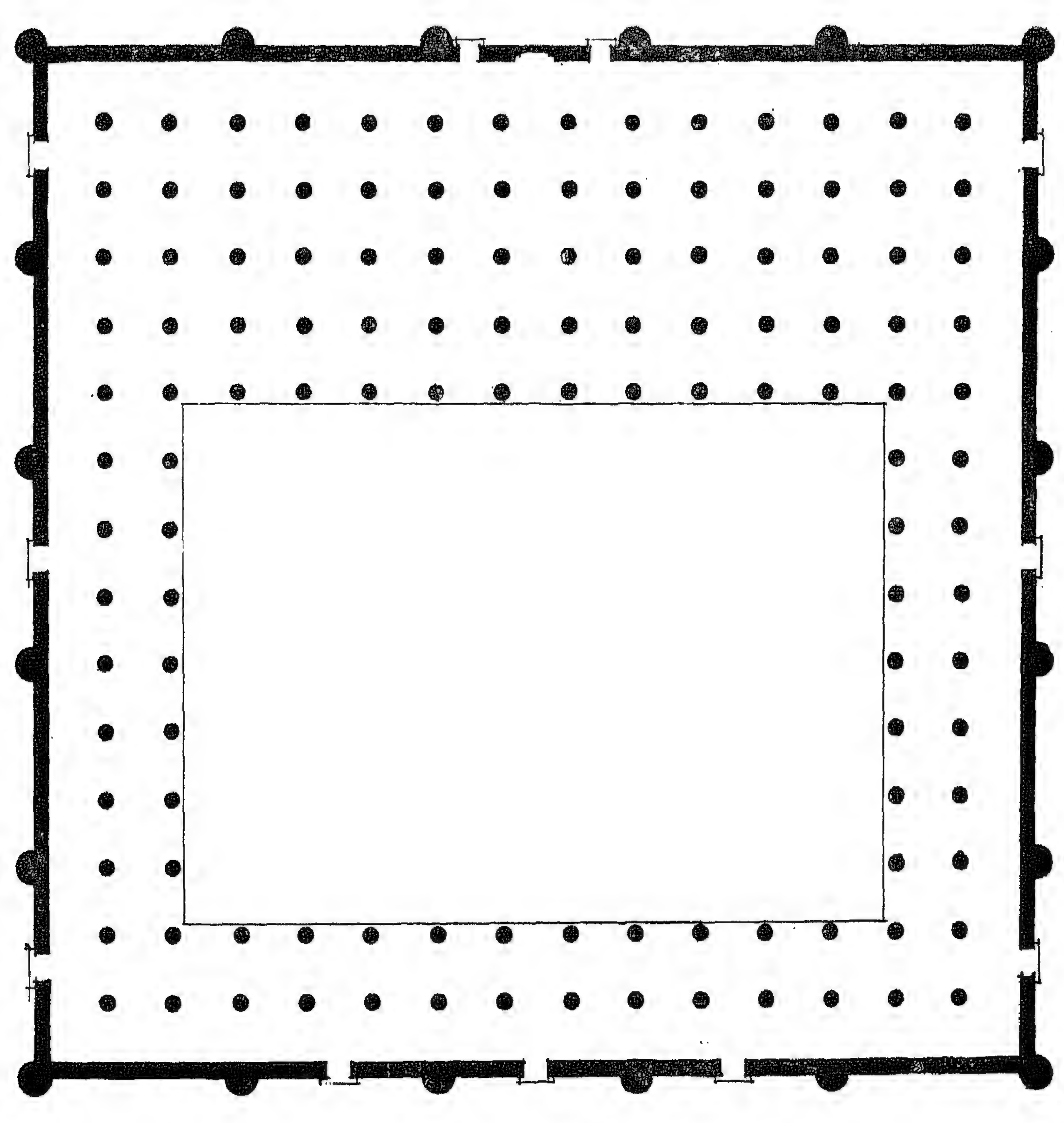
بالارابسك، محاكاة الارابسك فى الفنون الاوروبية حتى عصر النهضة، الاسلام والفنون الزخرفية والتطبيقية ، الطراز العربى الاسلامى والعاملان الاجتماعى والسياسى ، الطراز العربى الاسلامى والعامل السياسى ، العامل السياسى وانتقال عناصر عربية اسلامية الى أوروبا ، الباشورة فى الباب الجديد فى السور الشرقى لحصن القاهرة ، الزخارف النباتية العربية الاسلامية وتأثير على الزخارف الاوروبية ، تأثير الشمسيات العربية الاسلامية ، العقود المدببة فى أوربا ، الاقبية المدببة الطولية والمتقاطعة والمروحية وتأثيرها فى أوروبا ، السقاطات فى أوروبا والابواب المنزلقة راسيا ، تقليد المشكاوات العربية الاسلامية فى البندقية ، تقليد الطنافس والمنسوجات العربية الاسلامية فى أوروبا ، عواصف المغول والطراز العربى الاسلامى ، تأثيرات صينية على الطراز العربى الاسلامى، قيام علاقات ودية بين مصر وأسبانيا المسيحية، تأثيرات أندلسية أيام المماليك البحرية ، الطراز العربى الاسلامى والعامل الجغرافى ، تأثيرات اندلسية فى ضريح الامام الشافعى ، تأثيرات اندلسية فى مئذنة الباب الاخضر لمشهد الحسين بالقاهرة ، تأثيرات فارسية فى مئذنتى جامع الناصر محمد بقلعة الجبل ، رحلات وهجرات من الغرب الاسلامى نحو مصر والشرق ، مركز مصر الجغرافى يجعلها تصدر وتتلقى اشعاعات من الشرق والغرب والشمال ، الطراز العربى الاسلامى والعامل المناخى ، المقعد فى الدار العربية الاسلامية ، المشربيات فى المساكن العربية الاسلامية ، الطراز العربى الاسلامى والعامل الجيولوجى .

***

من الحقائق المعروفة فى تاريخ العمارة والفنون أن الطرز المختلفة تتشابه كلها فى مراحل تطوراتها من حيث الخضوع لعدد من العوامل العامة التى يتأثر بها كل طراز بطريقته الخاصة ، فتوجهه وتؤثر عليه عند نشأته وفى أثناء خطوات تطوره ، وتساعد على خلق شخصيته وطابعه وملامحه .

ومن تلك العوامل ما هو روحى ومنها ما هو معنوى ومنها ما هو مادى .

ويأتى فى المقام الأول حافز الدين والمعتقدات الروحية الذى يؤدى عمله الخطير فى نوع الانتاج المعمارى وكمياته . وذلك أن التقاليد والطقوس الدينية تتطلب أشكالا وأنواعا خاصة من العمارة والفنون التشكيلية والتطبيقية تلائم أهدافها وتحقق أغراضها . بل أن الدين قد يستخدم العمارة والفنون للتأثير على الناس ، أو قد يستخدمه هؤلاء للتعبير عن شعورهم نحو دينهم .



ش : ١٦٢ ـ البصرة والكوفة : المسجد الجامع
(عمارة زياد بن ابيه سنة ٥٠ هـ)

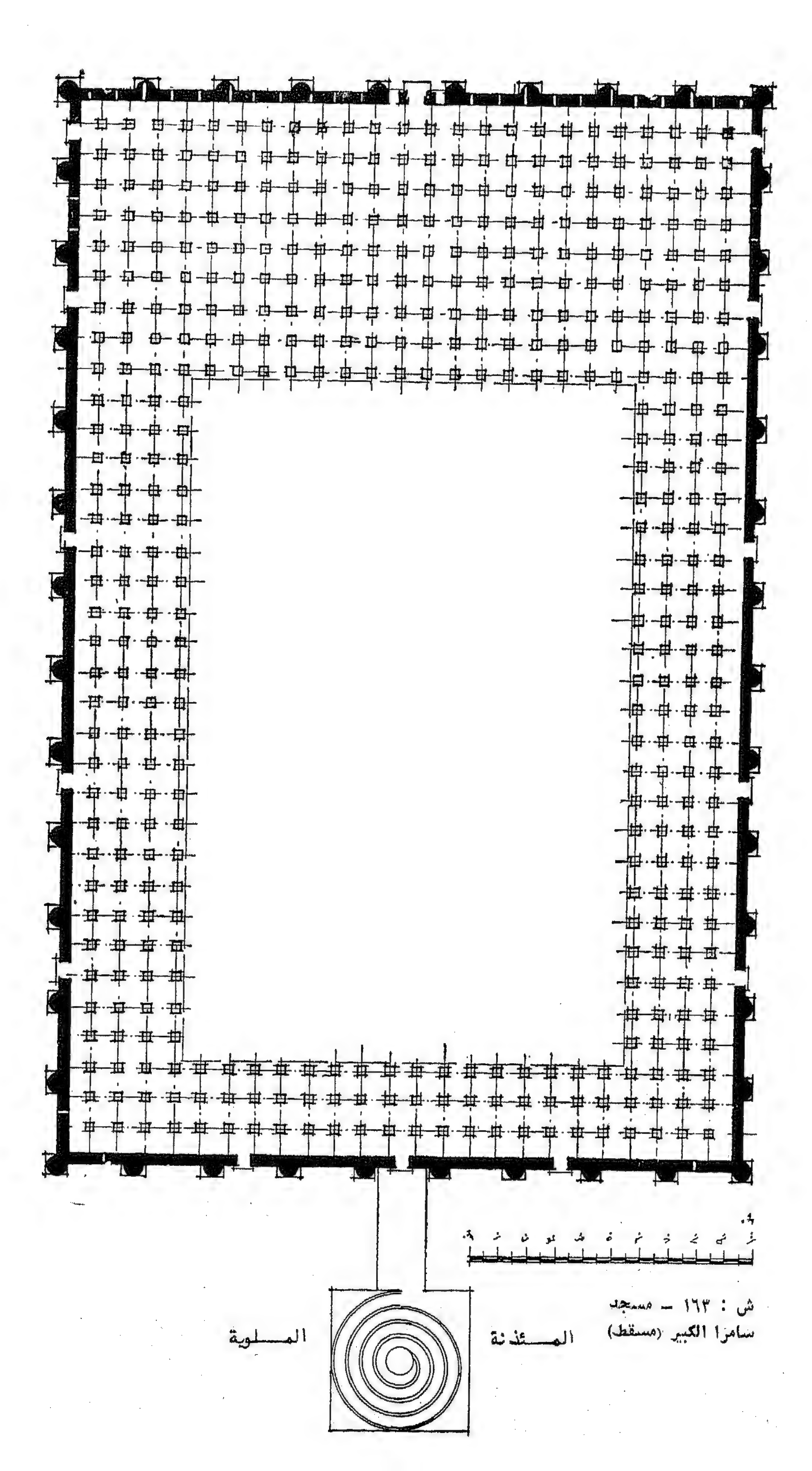
ومن تلك العوامل ، النظم السياسية التي تسود كل أمة وما يتبعها من سلام واستقرار أو حروب وقلاقل • اذ يترتب على الهدوء والاستقرار ان تتجه العمارة والفنون نحو خدمة الأغراض المدنية العامة والخاصة • وتسفر العلاقات السياسية الوديه بين الأمم وتبادل السفارات عن انتقال تأثيرات فنية عن طريق الاهداء والتجارة• أما فى أوقات الحروب والتهديد بها ، فان العمارة والفنون تخضع للاتجاه نحو خدمة الأغراض الحربية • كما يتسبب عن قيام الحروب وجود الجنود الأسرى فى بلاد غير بلادهم ، ويتبع ذلك بطبيعة الحال تبادل نقل الأساليب الفنية من قطر الى آخر ، بالاضافة الى ما يحدث عادة من تأثر الغزاة بفنون البلاد التى يسيطرون عليها فى أغلب الأحيان •

وللحالة الاقتصادية تأثيرها على توجيه الفن فى مراحل تطوره • فان للرخاء أو الفقر أثراً كبيراً فى حجم الانتاج الفنى وأنواعه وقيمه • ومن جهة أخرى فان نظم توزيع الثروة على طبقات الأمة تترك أثرها على منتجات العمارة والفنون ، وتوضح المستويات المختلفة لمعيشة كل طبقة من تلك الطبقات •

وتشترك مع العوامل السابقة — التى يغلب عليها الطابع الروحى والمعنوى — مؤثرات أخرى ذات طابع مادى خالص ، لا يقل خطرها عن تلك العوامل المعنوية ، ومن أهمها : البيئة المناخية والطبيعة الجغرافية والتكوينات الجيولوجية للمنطقة التى ينبت فيها ويتطور •

فيؤثر المناخ بردا ودفئا وحرارة على أشكال العمائر وتكوينها من حيث الكتل الرئيسية والتفاصيل ، وما يتطلبه من اعدادها لمقاومة البرد أو الأمطار أو الثلوج أو الحرارة الشديدة أو الرطوبة ، أو لملاءمتها لاعتدال الطقس • وينعكس ذلك كله مثلا على أشكال الأسطح العليا للعمائر ، فتعمل مثلا ذات انحدار قليل فى حالة كثرة الأمطار ، ويزيد الانحدار فى المناطق التى يسقط فيها الجليد • أو تعمل مستوية فى المناطق ذات الأمطار والمناخ المعتدلين ، وكذلك فى الأقطار الدافئة والحارة • كما يراعى أن ينخفض ارتفاع الغرف فى المناطق الباردة للمساعدة على الاحتفاظ بالدفء داخلها ، على حين يزاد ارتفاعها فى المناطق المعتدلة والحارة • ويؤثر المناخ كذلك فى أشكال واتساعات الفتحات ، فتكون كبيرة الاتساع فى الجهات المقابلة للشمس فى المناطق الباردة ، والمواجهة لهبوب نسمات الهواء البارد فى المناطق الحارة ، كما تقل مساحاتها اذا كانت معرضة لهبوب الرياح الباردة أو للشمس فى المناطق الحارة •

وللطبيعة الجغرافية أهمية كبيرة فى التأثير على نشأة العمارة وتكوين الفنون • ذلك أن توفر الماء ووجود الأنهار وكثرة الغابات ووجود الوديان وخصوبة الأراضى



ش : ١٦٣ – مسجد سامرا الكبير (مسقط)

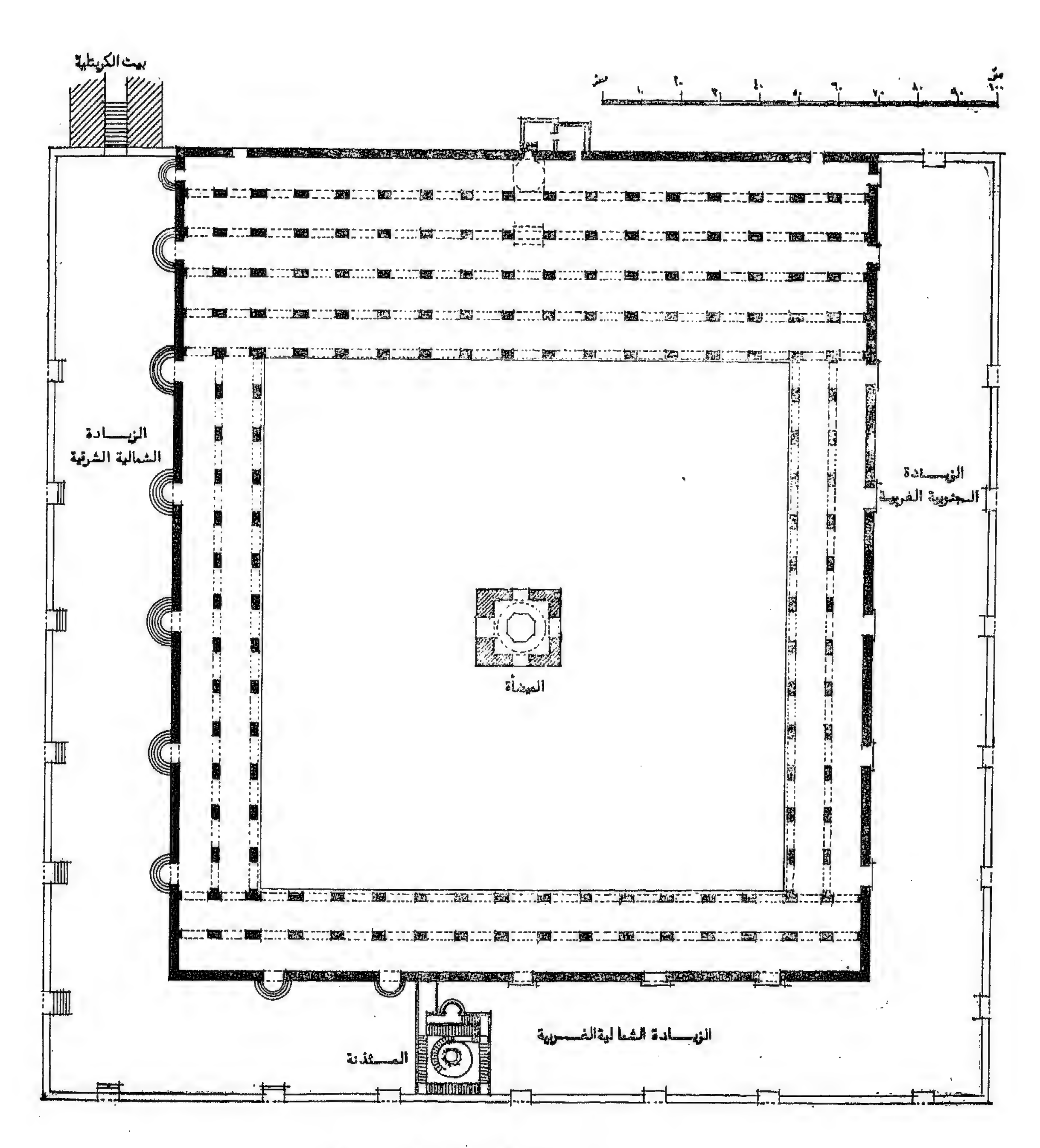
كل ذلك يساعد على سرعة قيام المدن وازدهار المدنيات وانضاج الفنون والحضارات فى وقت قصير ، أما فى المواضع الصحراوية والمناطق الجبلية ، فان قلة الماء ومشقة الحصول على القوت تصبح من العوامل التى تؤخر خطوات انتشار وتطور المدنيات والفنون .

أما التكوين الجيولوجى فذو أهمية عظيمة فى توجيه وتكوين مميزات العمارة والفنون عند نشاتها وأثناء تطوراتها . ذلك أنه يجعلها تكتسب ملامح خاصة فى المناطق الوديان والغابات والأنهار ، أو تقع على سواحل البحار . فحيث تكثر الصخور التى تكثر فيها الجبال والصحارى تختلف عن ما يقابلها فى المناطق التى تنتشر فيها ويسهل الحصول على الأحجار ، يتخذها السكان مادة لبناء جدران عمائرهم وسقوفها أحيانا . أما فى مناطق الغابات فان الخشب يصبح هو مادة البناء الرئيسية . وقد تجتمع مادتان أو أكثر اذا كانت مواردها قريبة . ويشيد الناس عمائرهم أحيانا من الرخام أو الجرانيت ، اذا كان من السهل قطع الكتل منها ونقلها . بينما يستورد آخرون كميات قليلة منها ليجعلوها أجزاء زخرفية فى عمائرهم ، اذا صعب النقل وبعدت المسافات ، فيرتفع سعرها ويقل الاقبال على استعمالها .

ويتخذ سكان الوديان لبيوتهم اللبن أى الطوب النيء أو الآجر أى الطوب المحروق يشيدون به الجدران والأسقف أحيانا اذا لم يتوفر الخشب .

وتخضع الفنون التطبيقية كذلك فى تطور منتجاتها لتلك العوامل ، ومن حيث الايحاء بأشكال خاصة لأدوات المعيشة وطرق صناعتها من المواد المحلية : من خشب ومعادن وأصواف ونباتات تصلح للنسيج ، وتوفر العناصر التى يصنع منها الزجاج ، الى غير ذلك من المواد . غير أن سهولة نقل مثل تلك التحف والمصنوعات من مكان الى آخر تجعلها أكثر تأثرا بالتقاليد الخارجية التى تأتى من أقطار أخرى عن طريق انتقال منتجاتها الفنية . الأمر الذى لا يتوفر فى حالة العمائر ، اذ يتوقف وصول التأثيرات المعمارية على انتقالها مع الأشخاص المشتغلين بالعمارة ، ومع الذين على دراية كافية بأساليبها .

وقد خضعت العمارة العربية الاسلامية لهذه العوامل فى نشأتها وتطوراتها . ونتتبع فيما يلى تأثيرها عليها فى العالم الاسلامى بوجه عام وفى مصر الاسلامية بوجه خاص ، وهى القطر الذى كان بمثابة حلقة اتصال قوية بين شرق العالم العربى الاسلامى وغربه . ذلك الغرب الذى لم يكن مترابطا من قبل ببعضه البعض ذلك الترابط الوثيق الذى أقامه العرب المسلمون ، ثم أصبحت بين أقاليمه صلات لا تنقطع بمصر وجزيرة صقلية وشبه جزيرة الأندلس .



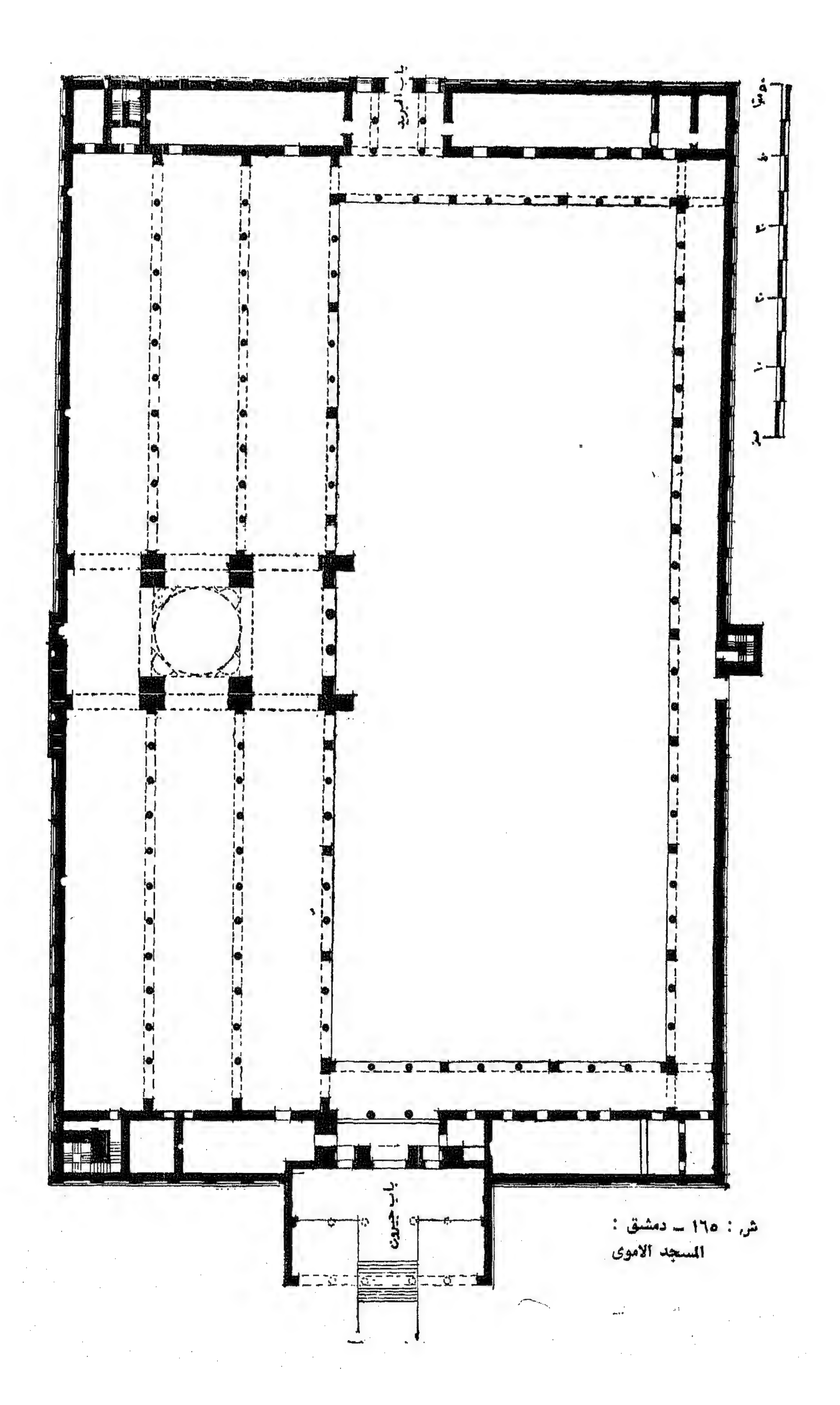
ش : ١٦٤ ــ القاهرة : جامع احمد بن طولون

العامل الدينى :

كان للاسلام أكبر الأثر فى توجيه الفن العربى ، وبدا تأثيره مع اشراقة أول شعاع منه على العالم كله ، فقد كان له الفضل الأول والأخير فى انتاج شكل محدد مميز لمكان العبادة الاسلامى ، الذى بدأ داراً للرسول وآل بيته فى المدينة ، ثم تحول الى مسجد تحت حاجة المسلمين وظروفهم بعد هجرتهم مع النبى الى المدينة .

وكانت البساطة فى أداء فرائض الاسلام عاملا أساسيا فى وضع تخطيط سهل لا تعقيد فيه ولا تكلف فى توزيع وحداته أو فى أسلوب بنائه . وكان ذلك المسجد النبوى الأول نواة المساجد فى جميع البلاد وفى كافة العصور ، ولم يلجأ المسلمون فيه الى اقتباس أفكار لتخطيط مساجدهم من معابد الوثنيين أو كنائس المسيحيين أو معابد اليهود كما فعل الرومان من قبل ، وما فعله المسيحيون عندما اتخذوا لكنائسهم تخطيط البازيليكا الرومانية الوثنية (ش : ٢٨ ، ٣٠) والذى ظلت الكنائس محتفظة به قرونا طويلة ، بل الى عهد قريب .

ولم يتطلب الدين الحنيف أكثر من جدران تقام بأية من المواد البنائية ، تحدد محيط المسجد وتحفظ حرمته ، ومن سقيفة أو ظلة أو أكثر يحتمى بها المسلمون فى أثناء صلاتهم ، وفى أثناء الاجتماعات التى يعقدونها للتدارس فى شئون الدين وأحوال شعوب المسلمين ، وهو التخطيط الذى بدأ ظهوره فى المسجد النبوى بالمدينة ووضعت خطوطه الأولى فى أول سنة من الهجرة ، وانتقل الى الخطوة التالية فى السنة الثانية بعد الهجرة (ش : ١ ، ٢) . وأكبر ظننا أنه قد أصبح متكاملا فى وقت بعد سنة ٢٤ من الهجرة (٦٤٥ م) بقليل ، وذلك عندما تمت الزيادة التى أضافها عثمان بن عفان لتوسيع المسجد ، ومن المحتمل أن يكون قد أضاف أيضا ظلات أخرى الى جوانب الفناء الأوسط المكشوف ، الذى عرف فيما بعد « بالصحن (ش : ٣ ، ٤) » . وأصبح ذلك التخطيط المتكامل النموذج الرئيسى الذى شيدت عليه المساجد الجامعة فى بلاد المسلمين ، والذى ندعوه بالتخطيط ذى الصحن والظلات ، والظلات هى المساحات المسقوفة التى تتكون كل منها من مجموعة من الأروقة ، أى المسافات المتوازية التى تنقسم اليها الظلات وتمتد بطول الواحدة منها ، ويفصل كل رواق عن الآخر صف من الأعمدة المستدير أى الأساطين ، جمع أسطون أو اسطوانة ، أو من البدنات ، وهى الاكتاف المتعامدة الأضلاع المشيدة بالبناء . وكانت هذه الأساطين والبدنات تحمل دائما ، الا فى أحوال نادرة ، عقودا أو قناطر متتالية تتكون منها بائكات يوضع فوقها السقف ، أما فى تلك الأحوال النادرة فكان يوضع السقف فوق كمرات تحملها الأساطين أو البدنات .



شر : ١٦٥ ـ دمشق :
المسجد الاموى

ونلمس هذه البساطة فى الدين الاسلامى وفى طـــريقة تفكير العرب الذين أسسوا البصرة والكوفة عند فتحهم للعراق فى سنة ١٦ هـ (٦٣٧ م) بقيادة سـعد ابن أبى وقاص ، وذلك عندما خططوا أول مسجد جامع بكل من المدينتين فى حوالى سنة ١٧هـ (٦٣٨م) ، فقد اكتفوا بظلة واحدة جهة القبلة (ش : ٥) • وقد ترددت قصة تروى أنهم عينوا حدود المسجد الخارجية بأن أوقفوا رجلا فى وسط البقعـة التى وقع عليها اختيارهم لبناء المسجد ، ورمى الرجل سهما فى كل جهة من الجهـات الأربع الى أقصى ما تصل اليه قوته ثم حددوا موضع سقوط الســهم ، وخططوا كل ضلع عند تلك المواضع بحفر قناة صغيرة بطول الضلع ، وجعلوا فى تلك الخطـوط فجوات بغير حفر لاستعمالها للمرور كأنها أبواب تؤدى الى داخل منطقة المسجد ، وذلك من الجهات الشرقية والشمالية والغربية • ولكنهم شـيدوا ظلة واحدة جهة القبلة تتكون من خمسة أروقة ، تفصلها عن بعضها صفوف من الأعمدة ، أخذ بعضها من قصور بعض الأمراء اللخميين العرب فى مدينة الحيرة • وهى قصة لا تخرج فى رأينا عن أن تكون أسطورة من الأساطير التى كان يرويها المؤرخون العرب بغـير تحقيق[1] أو تنبه الى ما فيها من دلالة على اتهام العرب المسلمين بعدم الدراية بطرق التخطيط المعمارى السليم ، وبخاصة أن من دل العرب الفاتحين على موقع للمسـجد كان نصرانيا •

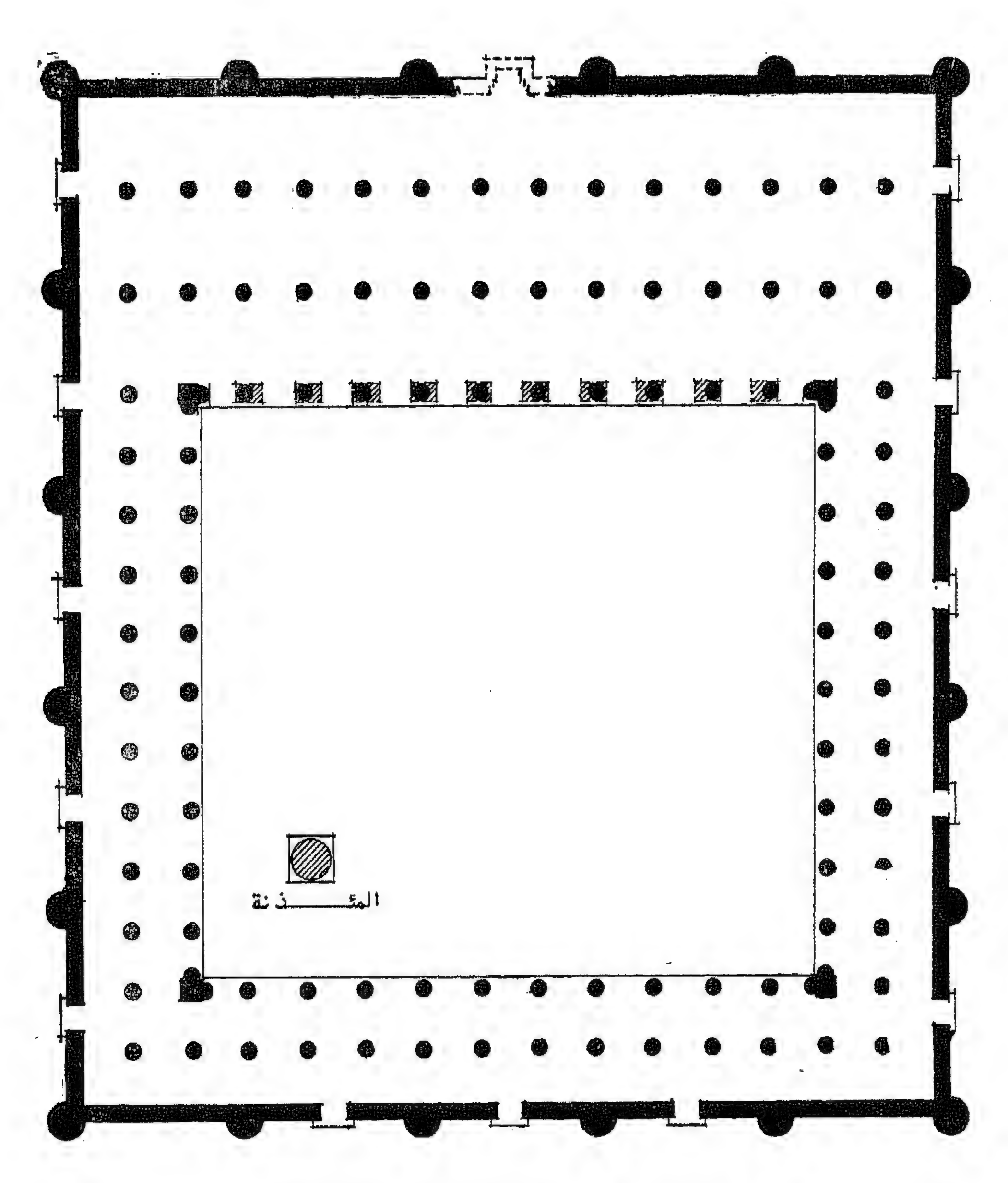
ومهما يكن من أمر فاننا نرى علاقة كبيرة واضحة بين هذا التخطيط فى العراق وبين تخطيط الرسول لمسجده فى المدينة ، وذلك من ناحية وجود ظلة جهة القبلة• أما الصُّفة التى كانت فى الركن الشمالى الغربى من مسجد المدينة فان وصفها يدل على أنها كانت صغيرة ولـكنها سميت مع ذلك ظلة (ش : ١) [2] •

ولما ازداد عدد الأهالى الذين اعتنقـوا الاسلام وكثر عـدد المصلين فى تلك الأمصار ، اضطر زياد بن أبيه والى العراق الى اعادة بناء مسجد البصرة وتوسيعه فى سنة ٤٥ هـ (٦٦٥م) ، ثم مسجد الكوفة فى سنة ٥٠ هـ (٦٧٠م) • وفى هذه المرة

---

(١) يقول البلاذرى : «ثم أن عبد المسيح بن بقيلة أتى سعدا (ابن ابى وقاص) وقال له : ادلك على أرض انحدرت عن الفلاة وارتفعت عن المـسباق • فدله على موضع الكوفة اليوم • وكان يقال لها سروستان • فلما انتهى الى موضع مسجدها أمر رجلا فعلا بسهم قبل مهب القبلة ، فاعلم على موقعه ، ثم علا بسهم قبل مهب المصب فأعلم على موقعه ، ثم وضع مسجدها ودار اماراتها فى مقام العالى وما حوله ••» (ص ٢٣٥) •• هذا ويستوقف نظرنا ذكر اسم عبد المسـيح الذى تطوع لارشاد العـرب الفاتحين الى موضع المدينة ، ولانستبعد آن يكون له صلة باسطورة تعيين حدود المسجد بطريقة رمى السهام ، أو تكون قد أنتقلت رواية هذه القصة عنه الى مؤرخ مسيحى ومنه الى البلاذرى وغيره •
E.M.A., I, pp. 35-36, Fig. 8.

(٢) السمهودى : الخلاصة ، ص : ١٢٦ •



ش : ١٦٦ ــ الرقة : المسجد الجامع .

تكامل شكل المسجد وانتقل الى الطور الأخير من هذا النموذج بصفة مؤكدة • فأصبح له أربع ظلات تحيط بالصحن من جميع جهاته • كما شيدت له جدران خارجية من الآجر ، أى الطوب الأحمر أو المحروق ، وشيدت له أعمدة مستديرة ، أو أساطين ، من الحجر فى الظلات • وكانت ظلة القبلة تتكون من خمسة أروقة ، وتتكون كل من الظلات الثلاث الباقيات من رواقين فقط (ش : ١٦٢) [١] •

وظل هذا النموذج النبوى متبعا لبناء المساجد فى شرق العالم الاسلامى وغربه مع بعض الاختلاف فى التفاصيل من ناحية عدد الظلات ، وكبر المساحة التى يشغلها المسجد أو صغرها تبعا لتعداد أهالى المنطقة التى شيد لها المسجد • وكانت تضاف اليه فى بعض الأحيان زيادات حول جدرانه الخارجية عدا ما وراء جدار القبلة ، كما حدث فى مسجد سامرا الكبير (ش : ١٦٣) [٢] الذى شيده الخليفة المتوكل فى سنة ٢٣٧ هـ (٨٥٠ م) • وكذلك جامع أحمد بن طولون الذى شيده بالقطائع فى فسطاط مصر (ش : ١٦٤) [٣] ، ويؤرخ فى سنة ٢٦٥ هـ (٨٧٩ م) • وكان الشكل الخارجى يتراوح بين المربع والمستطيل كما هو واضح فى الشكلين السابقين والأشكال الأخرى •

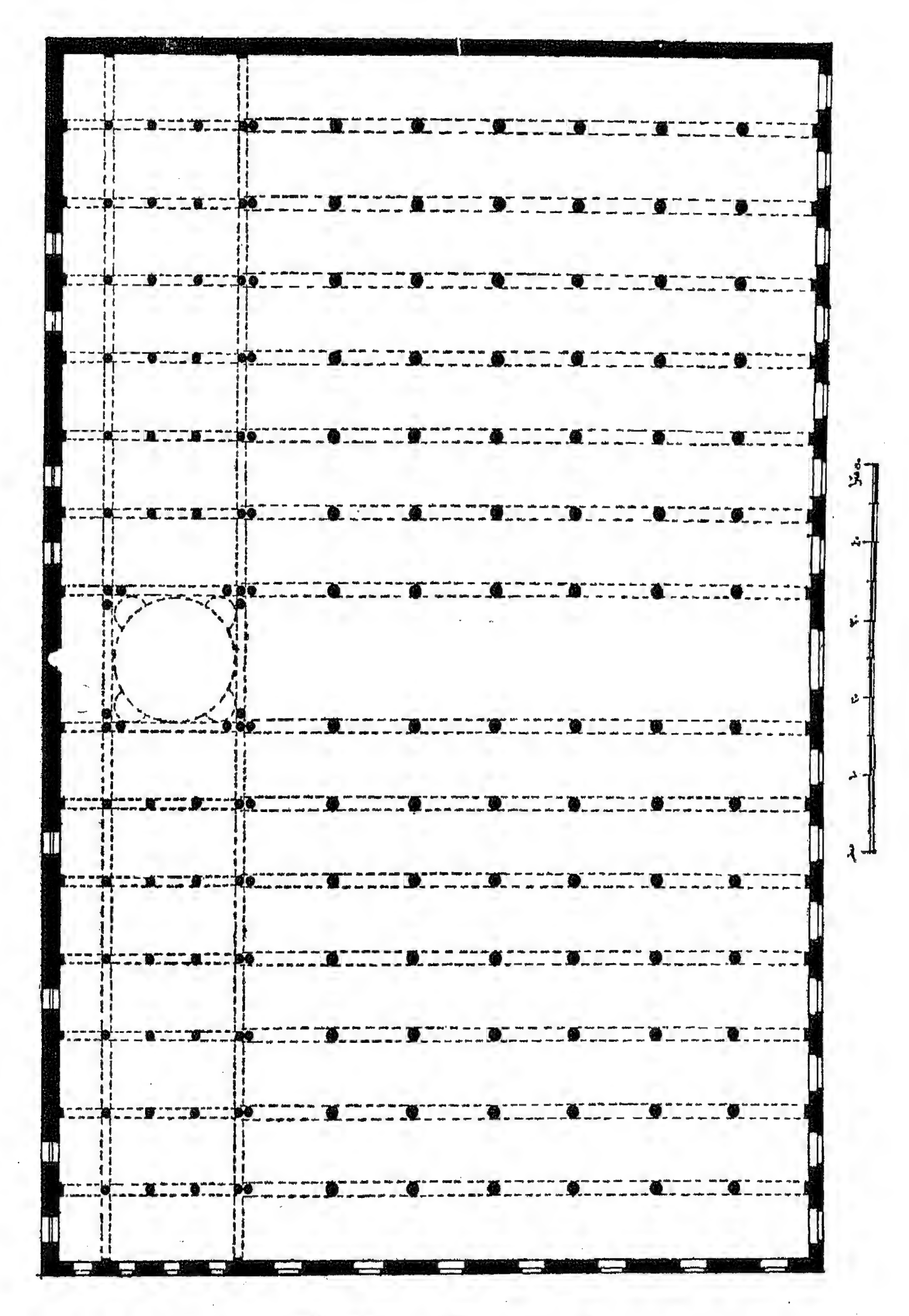
كذلك كان عدد الأروقة يختلف فى ظلة القبلة وفى الظلات الأخرى على جوانب الصحن الباقية ، كما كان يختلف اتجاه صفوف الأعمدة أو البائكات التى تفصل بين الأروقة •أو بمعنى آخر فان كل مسجد كان يتفق مع المساجد الأخرى

(١) • يروى البلاذرى عن جامع البصرة ان جانب المسجد الشمالى كان مزويا بسبب وجود دار لنافع ابن الحارث بن كلدة وابى ولده ببيعها • فلما ولى معاوية عبيد الله بن زياد البصرة (سنة ٥٥هـ/٦٧٤م) انتهز فرصة غياب نافع بن الحارث عن دار فبعث الفعلة فهدموا من تلك الدار ما سوى بهتربيع المسجد (ص٣٤٣) •

أما مسجد الكوفة فان احسن وصف وصلنا عنه قد جاء به الرحالة ابن جبير (٥٨١ هـ/١١٨٤ م)، اذ يقول : « والجامع العتيق آخرها (أى المدينة) مما يلى شرقى البلدة ولا عمارة تتصل به من جهة الشرق وهو جامع كبير فى الجانب القبلى منه خمسة أبلطة ، وفى سائر الجوانب بلاطان ، وهذه البلاطات على أعمدة من السوارى الموضوعة من صم الحجارة المنحوته قطعة على قطعة مفرغة بالرصاص : ولا قصى (صحتها فى اى عقود) عليها على الصفة التى ذكرناها فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم • وهى فى نهاية الطول متصلة بسقف المسجد •• » (ص١٨٩ — طبعة القاهرة سنة ١٩٠٨) ، انظر أيضا البلاذرى — ص ٢٧٥ ، ابن قتيبه : كتاب المعارف ٢٨٠ —نشر وستنقلد ، الطبرى : تاريخ — جـ١/ص٢٤٩٢ ، المقدسى : ص ١١٦ —١١٧ ، ابن جبير — نشردى جويه — ص : ٢١١ ، E.M.A., I, p. 36, Fig. 8.

(٢) E.M.A., II, pp. 254-265, Figs. 202-212, Pls. 63-66 ; Short Account, pp. 274-280, Fig. 57, Pls. 55-56.

(٣) E.M.A., II, 332-359, Figs. 245-257, Pls. 96-114 ; Short Account, pp. 302-317, Figs. 61-63, Pls. 66-72.



ش : ١٦٧ ـ القدس : المسجد الاقصى

فى المميزات الرئيسية والتخطيط العام ويختلف فى التفاصيل ، فكان كل مسجد منها يتميز بشخصية قائمة بذاتها ٠

مثال ذلك أن أروقة ظلة القبلة فى المسجد الأموى بدمشق كان عددها ثلاثة فقط ، وتتجه بائكاتها موازية لجدار القبلة (ش : ١٦٥) [١] ، وذلك عندما بناه الوليد بن عبد الملك فى عام ٩٦ هـ (٧١٤ م) ٠ ولكن يقطعها رواق عريض يتعامد اتجاهه عليها فى وسط الظلة ، أى يقع على المحور الرئيسى الذى يمر بالمحراب الأوسط ، ويطلق على ذلك الرواق العمودى اسم « المجاز » أو المجاز القاطع Transept ٠ أما ظلات الصحن الأخرى فى الجوانب الثلاثة الباقية من الصحن فكانت تتكون كل منها من رواق واحد ٠

كذلك كان المسجد الأول فى مدينة الرقة الذى بناه الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور فى عام ١٥٥ هـ (٧٧٢ م) ٠ اذ كانت ظلة القبلة فيه تتكون من ثلاثة أروقة توازى جدار القبلة ولكن بغير مجاز قاطع ٠ أما الظلات الأخرى فكانت كل منها مكونة من رواقين (ش : ١٦٦) [٢] ٠

أما المسجد الأقصى الذى شيده الخليفة المهدى العباسى فى عام ١٦٣ هـ (٧٨٠ م) فكانت ظلة قبلته عميقة الى حد كبير ، ولكننا لانعلم ما اذا كان هناك فى الاصل فناء يتقدم ظلة القبلة أم لا ٠ ولكن يمكن الوصول الى معرفة أن أروقة ظلة القبلة كان عددها خمسة عشر رواقا تتجه كلها مع البائكات التى تفصلها عن بعضها فى اتجاه عمودى على جدار القبلة ٠ وكان الرواق الأوسط عريضا يبلغ ضعف عرض الأروقة على الجانبين منه ٠ غير أنه كانت هناك بائكتان مستعرضتان تسيران قرب جدار القبلة وتوازيانه (ش : ١٦٧) ٠ وقد أعاد الظاهر الفاطمى بناء هذا المسجد فى عام ٤٢٦ هـ (١٠٣٥ م) على أساس تخطيطه أيام المهدى العباسى[٣] ٠

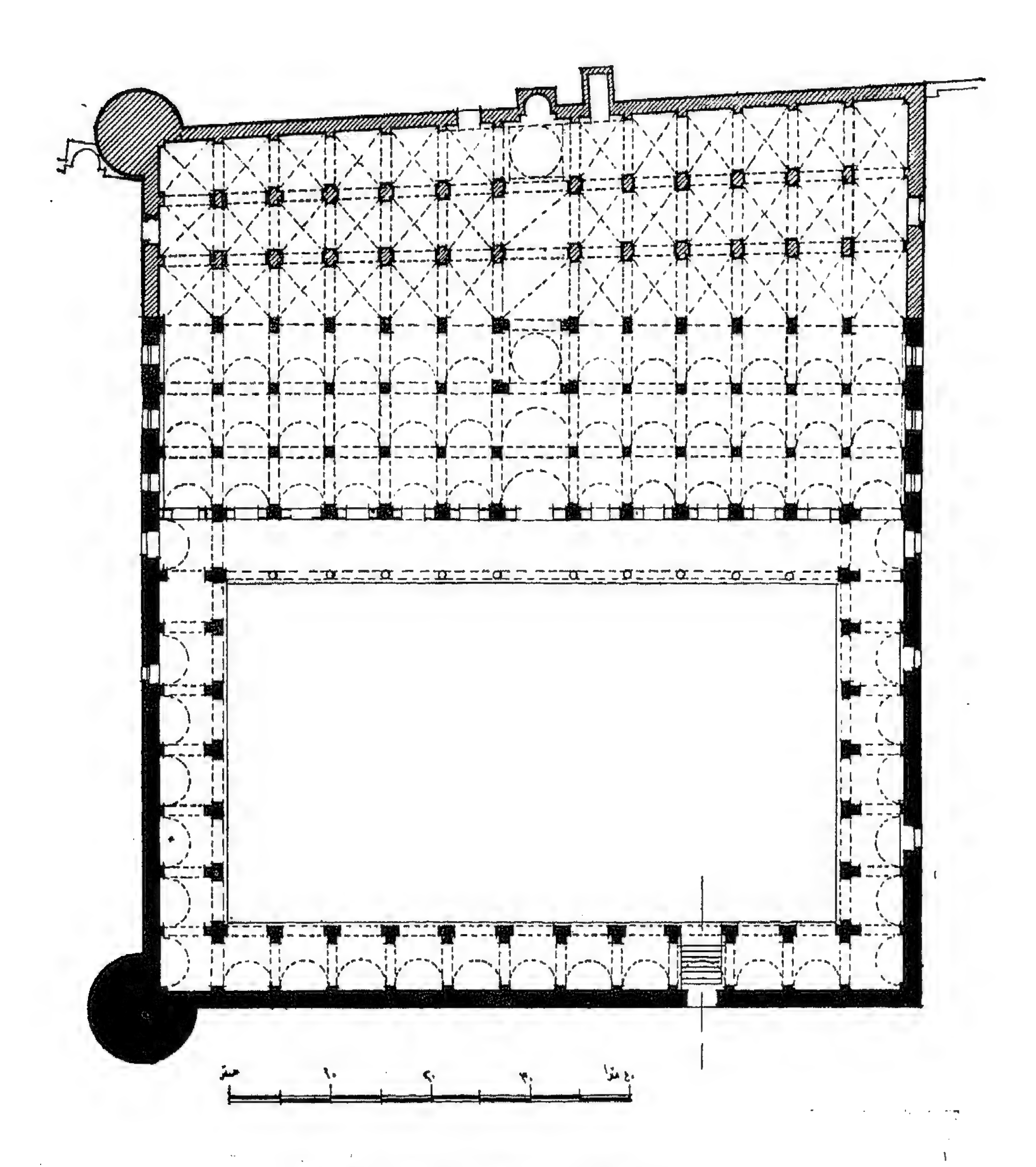
وهناك مثل يشبه المسجد الأقصى الى حد كبير وهو المسجد الجامع بمدينة قرطبة بالأندلس (ش : ٧) [٤] ، الذى شيده عبد الرحمن الداخل الأموى فى عام ١٧٠ هـ (٧٨٦ م) ٠ فقد كانت ظلة قبلة المسجد الأول عندما شيده عبد الرحمن الداخل

(١) E.M.A., II, pp. 100-146, Figs. 57-89, Pls. 33-46 ; Short Account, pp. 44-81, Figs. 8-15, Pls. 11-20.

(٢) E.M.A., II, pp. 45-48, Figs. 33-34, Pl. 4 ; Short Account, pp. 187-190, Fig. 36.

(٣) E.M.A., II, pp. 119-126, Figs. 119-122, Pls. 25-27 ; Short Account, pp. 204-213, Figs. 39-41, Pl. 24.

(٤) E.M.A., II, pp. 132-161, Figs. 143-150, Pls. 28-32 ; Short Account, pp. 213-228, Figs 42-44, 47.



ش : ١٦٨ ـ سوسة : المسجد الجامع

تتكون س أحد عشر رواقا تسير كلها ببائكاتها فى اتجاه عمودى على جدار القبلة ، وكان الرواق الأوســـط كذلك أعرض بكثير عن الاروقة الجانبية ، ولكن لم تكن هناك بائكات مستعرضة مثل التى كانت فى المسجد الاقصى • أما الظلات الاخرى حول جوانب الصحن فانها لم تشيد الا قبيل عام ٣٤٠ هـ (٩٥١ م) [١] •

كذلك كان جامع القيروان (ش : ٦) [٢] عندما أعيـــد بناؤه فى عام ٢٢١ هـ (٨٣٦ م) • غير أن بائكاته فى ظلة القبلة التى تتجه عمودية على جدر القبلة كانت تقف عند بائكة مستعرضة تتقدم ذلك الجدار • وكانت هناك أيضا بائكتان مستعرضتان تسير احداهما وراء واجهة ظلة القبلة على الصحن وتسير الثانية فى وسط المســـافة بين البائكتين المستعرضتين الســـابقتين • أما الظلات الأخرى حول جوانب الصحن فاغلب الظن أنها أضيفت فيما بعد ضمن أعمال التجديد والاضـــافة التى تتابعت على المسجد •

ويكاد المسجد الجامع بمدينة سوسة الذى شيد فى عام ٢٣٦ هـ (٨٥١ م) يكون المثل الوحيد الذى تتكون ظلة قبلته من أروقة متقـــاطعة (ش : ١٦٨) [٣] ، ثلاثة موازية لجدار القبلة ، وثلاثة عشر تتجه عمودية عليه • ويتميز الرواق الأوسط منها بأنه أعرض من الأروقة الأخرى ، وتغطيها كلها أقبية تتجه عموديا على جدر القبلة • ووضعت قبة فوق منطقة مربعة تتقدم المحراب الأول ، الذى كان يوجد بجدار القبلة القديم قبل هدمه لتوسيع الظلة باضافة جزء جديد مساو للقديم فى العصر الفاطمى • أما الظلات الثلاث الأخرى حول الصحن فقد شيدت مع ظلة القبلة القديمة وكانت كل منها تتكون من رواق واحد •

ويتميز جامع أبى دلف فى شمال ســـامرا (ش : ١٦٩) [٤] والذى شيـــده الخليفة المتوكل فى عام ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) بأن جميع أروقته ، سواء كانت فى ظلة القبلة أو فى الظلات الثلاث الأخرى ، تتجه كلها عمودية على جدار القبلة • باستثناء بائكتين تسيران موازيتين لجدار القبلة وتتقدمانه بحيث منعت احداهما بائكات الأروقة من أن تلتقى بجدار القبلة •

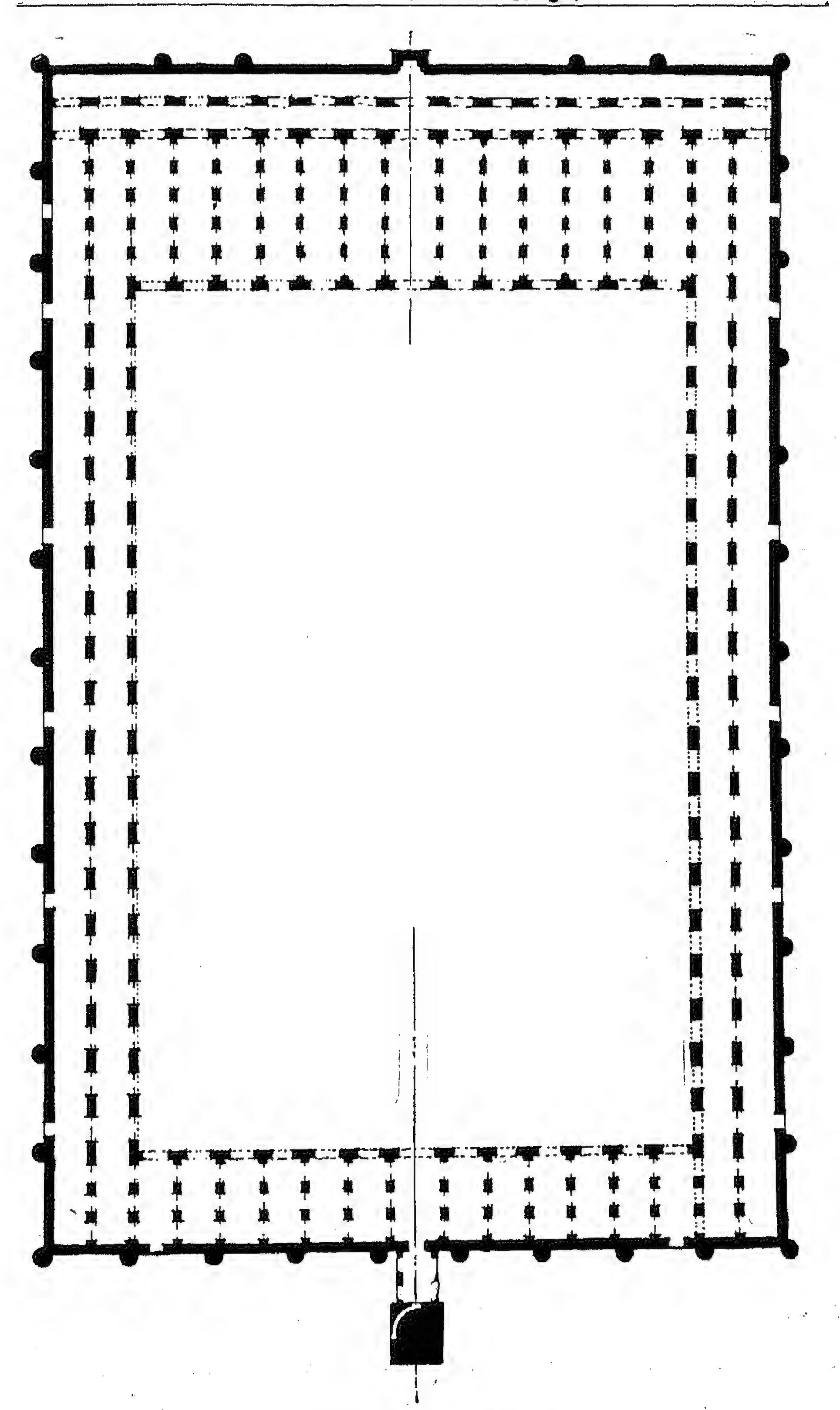
***

(١) E.M.A., II, pp. 154-5, Figs 146 ; Short Account, Fig. 44.

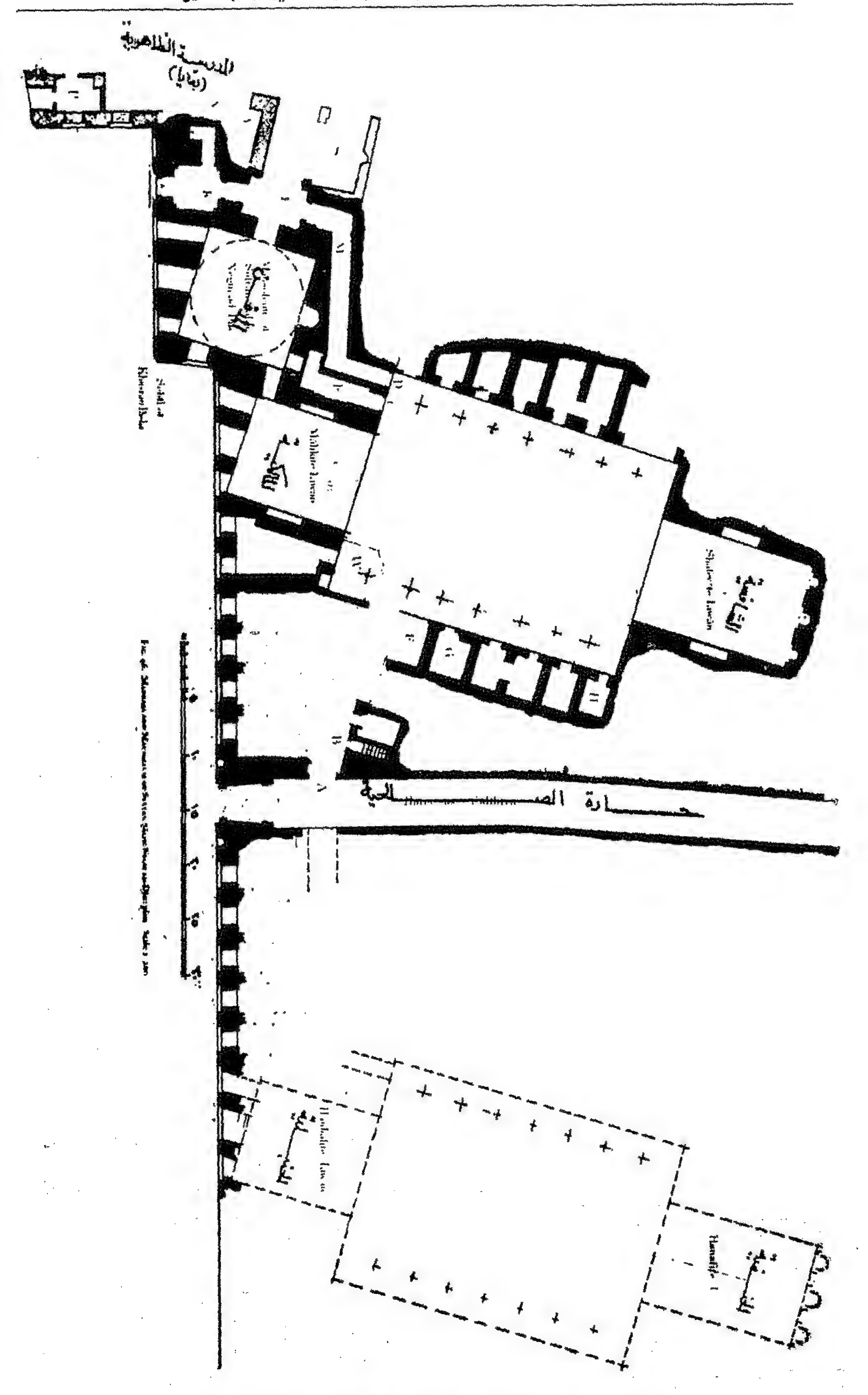
(٢) E.M.A., II, pp. 208-226, Figs. 175-180, pp. 308-320, Figs. 232-40, Pls. 45 f-50 ; Short Account, pp. 249-258, Fig. 50, pp. 296-299, Pls. 47-50, 61-64.

(٣) E.M.A., II, pp. 248-253, Figs. 197-201, Pls. 59-62 ; Short Account, pp. 269-273, Fig. 56, Pls. 53-54.

(٤) E.M.A., II, pp. 278-282, Figs. 222-224, Pls. 70 b, 72 a ; Short Account,, pp. 280-284, Fig. 58.



ش : ١٦٩ ـ جامع أبى دلف



شكل : ١٧٠ ـ القاهرة : مدرسة الصالح نجم الدين أيوب

ويتضح تأثير العامل الدينى مرة أخرى عندما أنتج الخلاف بين المذهب السنى والمذهب الشيعى نوعاً جديداً ، يعرف بالتخطيط ذى الأيونات ، واستخدم للعمائر الدينية من أنواع المدرسة والخانقاه ، وكانتا مخصصتين لتدريس علوم الحديث والشريعة والفقه والتفسير من وجهة نظر المذاهب السنية الأربعة : وهى المذهب الشافعى والمذهب المالكى والمذهب الحنفى والمذهب الحنبلى . وكانت تدرس فيها أحيانا علوم أخرى مثل الطب والكيميا وغيرها .

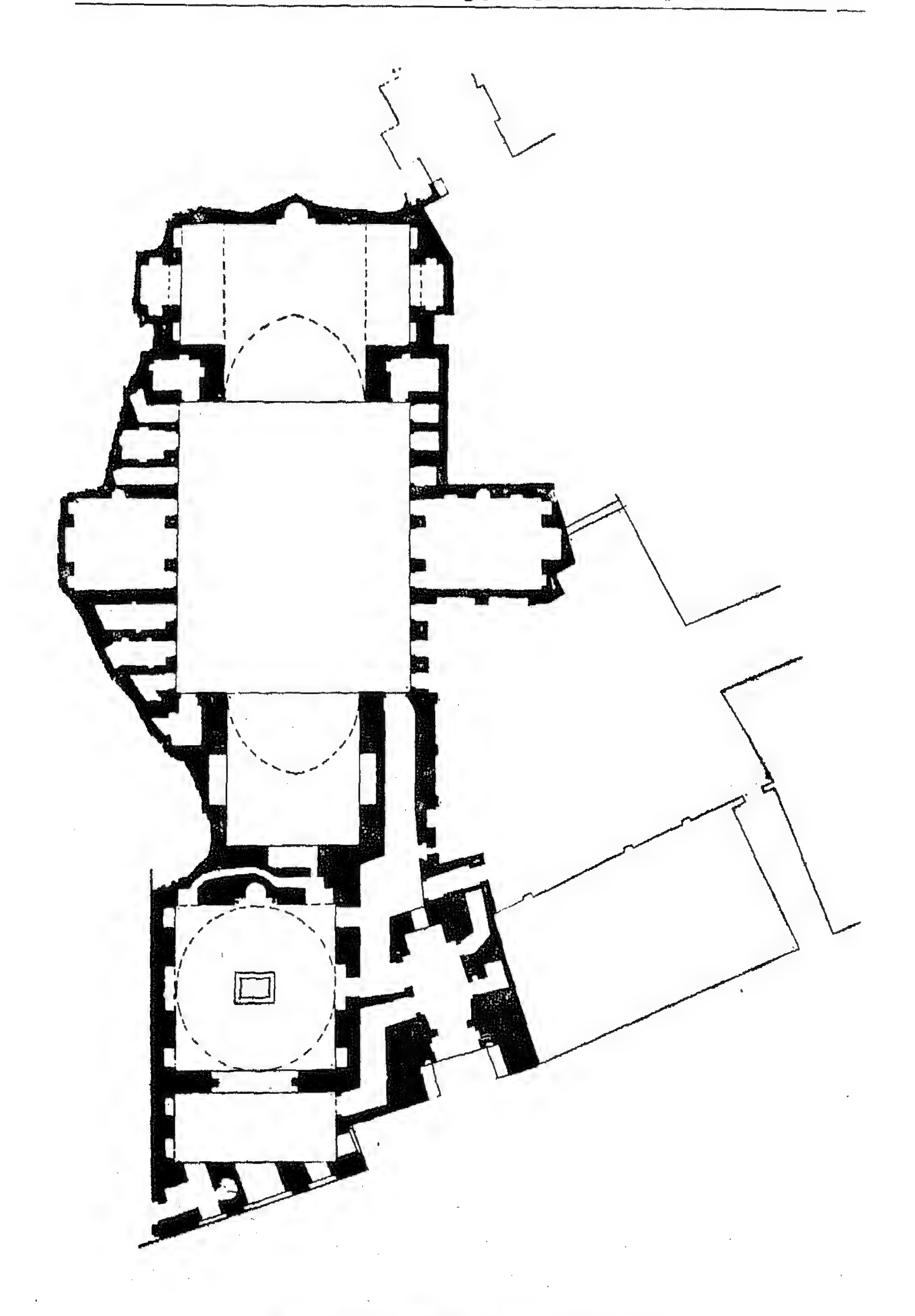
وبدأ هذا التخطيط السنى الجديد وهو يتكون من ايوانين وضعا على ضلعين متقابلين من صحن أوسط مكشوف مسقطه مستطيل أو مربع ، أو يتكون من أربعة ايوانات وضعت على جوانب الصحن الأوسط . والايوان عبارة عن قاعة لها ثلاثة جدران : اثنان يحفان بها من الجانبين والجدار الثالث فى صدرها . أما الجدار الرابع فيفتح بكامل عرضه على الصحن (ش : ١٧٠) [١] .

ويشغل الصحن والأيوانات الجزء الأوسط من المسقط ، وتوضع فى الأركان والأجزاء الباقية المحصورة بين الأيوانات والجدران الخارجية حجرات وحواصل ، أى مخازن ، وخلوات أو حجرات لتصبح المدرسة مقراً للأساتذة والطلاب ، تلقى فى ايواناتها الدروس ، وتتخذ الحجرات سكنا دائما طوال مدة الدراسة .

وكانت قد انتشرت فكرة بناء المدارس السنية على نظام الايوانات أيام السلاجقة فى فارس والعراق ، مثل مدرسة نيشابور ، التى أنشأها الوزير العظيم نظام الملك فى عصر السلطان طغرل بج ، ورآها الرحالة ناصر خسرو فى سنة ٤٣٧ هـ (١٠٤٦م) ، وهى فى دور البناء[٢] . كما بنى ذلك الوزير عدة مدارس فى بغداد وطوس والبصرة وأصفهان وغيرها . وبنى الأتابكة مدارس أخرى فى الموصل والرها واربل ونصيبين . وبنى السلطان نور الدين الأتابكى عدة مدارس فى حلب وحماه وحمص ودمشق وغيرها[٣] .

وأقبل صلاح الدين على نشر فكرة المدارس السنية على أوسع نطاق ممكن بعد أن تولى السلطة على مصر . ولم يكن العامل الدينى وحده هو الذى دفعه الى ذلك فحسب ، بل اشترك معه العامل السياسى فى ذلك ، اذ كان فى حاجة ملحة الى مقاومة نفوذ المذهب الشيعى والى القضاء على بقاياه وعلى أنصاره بعد أن خلع العاضد آخر الخلفاء الفاطميين وقضى على الخلافة الفاطمية الشيعية . فأنشئت فى عهد صلاح

(١) M.A.Eg., II, Fig.
(٢) M.A.Eg., II, p. 105.
(٣) M.A.Eg., II, p. 105.



ش : ١٧١ ـ القاهرة : خانقاه بيبرس الجاشنكير

الدين وحده نحو ثلاثة عشر مدرسة ، كان بعضها فى الأصل دورا ومنازل حولت الى مدارس بدافع من اللهفة الشديدة الى ايجاد ذلك النوع من التعليم على أسس المذهب السنى فى أقصر وقت ممكن ، وشيد البعض الآخر خصيصا لذلك الغرض[1] ، كما سيأتى شرحه فى موضعه •

وقد أدخل صلاح الدين أيضا ، ولنفس الهدفين الدينى والسياسى ، نظام الخانقاوات ، فحول أيضا بعض الدور الفاطمية لاستخدامهما لهذا الغرض • ومنها خانقاه سعيد السعداء[2] التى يظن أن بعض بقاياها مازالت موجودة • كما شيدت العمائر خاصة للخانقاوات ، وذلك لتكون مقرا لمن أراد التخصص والتعمق فى دراسة الدين والتفقه فيه وهداية الناس ووعظهم • ولم يكن أولئك جميعا من الذين ينقطعون للدراسة ، بل كان بعضهم ممن يزاولون الأعمال العادية كغيرهم من الناس يتعيشون منها ويخصصون جزءا من وقتهم لتلك الدراسة • غير أن العثمانيين قد غيروا من أهداف تلك المنشئات فأدخلوا عليها بدعاً لم تكن فيها ، فقد سميت الخانقاوات « بالتكايا » فى العصر العثمانى وسمى أهلها بالدراويش ، يؤدون فيها طقوسا دينية لا تمت للاسلام بصلة ، ويتمرغون فى خيرات الأوقاف التى حبست عليهم • وكل ذلك بتأثير الرهبانية التى كانت منتشرة فى أوروبا ، أخذها العثمانيون من البلاد التى احتلوها فى جنوب أوروبا لينشروها فى البلاد العربية الاسلامية •

ولم تصلنا أمثلة من الخانقاوات من قبل العصر المملوكى فى مصر والشام التى شيدت على نظام الصحن والايوانات مثل المدارس تماما • بينما بقيت بعض الأمثلة من العصر الأيوبى فى الشام ، مثل خانقاه الفرافرة فى حلب التى شيدت فى عام ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) [3] ، وقد شيدت على نظام المدارس الخاص بمنطقة الشام وهو يختلف قليلا عن النظام الخاص بمصر ، والذى يوجد فيها أقدم مثل قائم منها وهو خانقاه بيبرس الجاشنكير (ش : ١٧١) التى شيدت بين عامى ٦٠٦ ، ٦٠٩ هـ (١٣٠٧ — ١٣١٠ م) [4] •

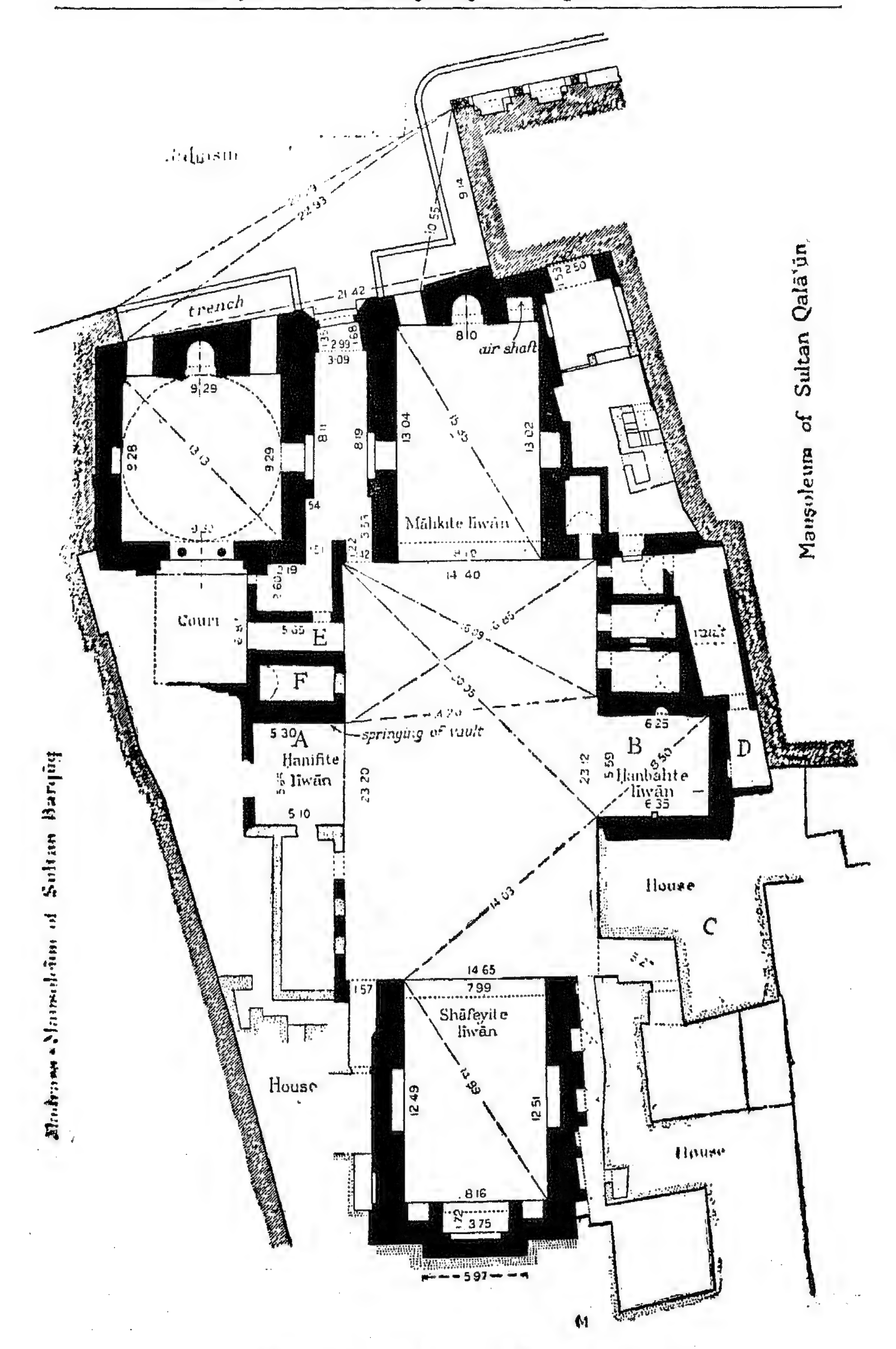
وهكذا كان العامل الدينى مرة أخرى سببا فى ابتكار التخطيط ذى الأيوانات وانتشاره • غير أنه تطور فى مصر بالذات بطريقة محلية خاصة بها جعلته يختلف فى وحداته وفى نسبها وأحجامها وفى طريقة توزيعها عما يقابله فى البلاد الاسلامية

(١) المقريزى : جـ٢/ص ٢٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٤٢ ، ٨٣ ، ٢٣٣ ، ٢٤٣ ، ٣٦٣ — ٣٦٦ ، على مبارك : الخطط الجديدة : جـ٢/ص ٢٣ ، جـ٢/ص ١١٦ ، جـ٦/ص ٨ ، ١٢ ، ١٥ •

(٢) خطط المقريزى : جـ٢/٤١٥ •

(٣) طلس (محمد اسعد) : الآثار الاسلامية والتاريخية فى حلب — ص ٨٨ — ٩٠ •

(٤) M.A.E., II, pp. 249-253, Fig. 142, Pls. 95-98 a-b.



ش : ١٧٢ ــ القاهرة : مدرسة الناصر محمد بالنحاسين

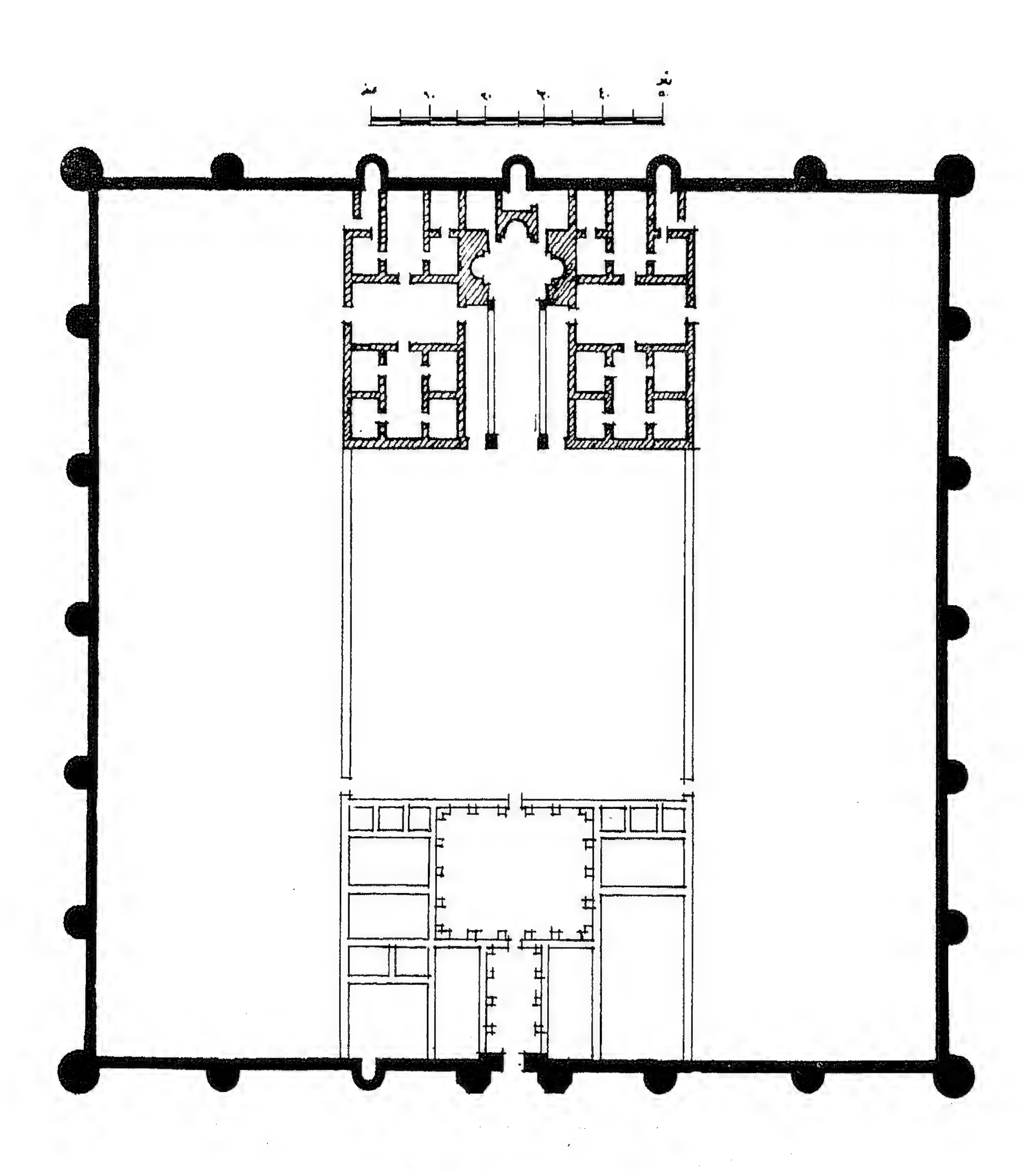
الأخرى • ذلك أن المدارس قد نشـأت فى مصر فى أول الأمر ـ أى فى العصر الأيوبى ـ على نظام ايوانين فقط يتوسطهما صحن • وقـد كان ذلك هو التخطيط المتبع فى بعض قاعات المنازل والدور الطولونية والفاطمية التى حولت الى مدارس فى العصر الأيوبى • الا أن ذلك النظـام قد تطور فى العصر المملوكى مرة أخـرى الى صحن وأربعة أيوانات فى أضلاعه الأربعة (ش : ١٧٢) [1] •

وكان الوازع الدينى أيضا سببا فى ابتكار نوع من العمائر لم يكن موجودا قبل الاسلام وهو نوع « المارستان » ، الذى نعرفه فى الوقت الحاضر باسم « المستشفى » • فقد كان بعض الحكام والسـلاطين يحاولون التقرب الى الله عن طريق عمل ماينفع الناس ، وكان البعض الآخر يفعل ذلك تكفيراً عما اقترفه من مظالم وآثام ، وذلك الى جانب ما كانوا يشيدونه من مساجد ومدارس وخانقاوات • فشيد بعضهم المارستانات يعالج فيها المرضى على اختلاف أنواع أمراضهم ، فكان منهم المصابون بالحمى والأمراض الباطنية والعقلية وأمراض العيون ، وتجرى فيه العمليات الجراحية لمن يحتاج اليها • وكان المرضى يتمتعون بالدواء والغـذاء والكساء مجانا حتى يتماثلون للشـفاء ويمكننا أن نستنتج من البقايا المعمارية ومن أقوال المؤرخين أن تخطيط المارستانات فى العصر المملوكى قد اتبع فيه أيضا نظام الصحن والايوانات •

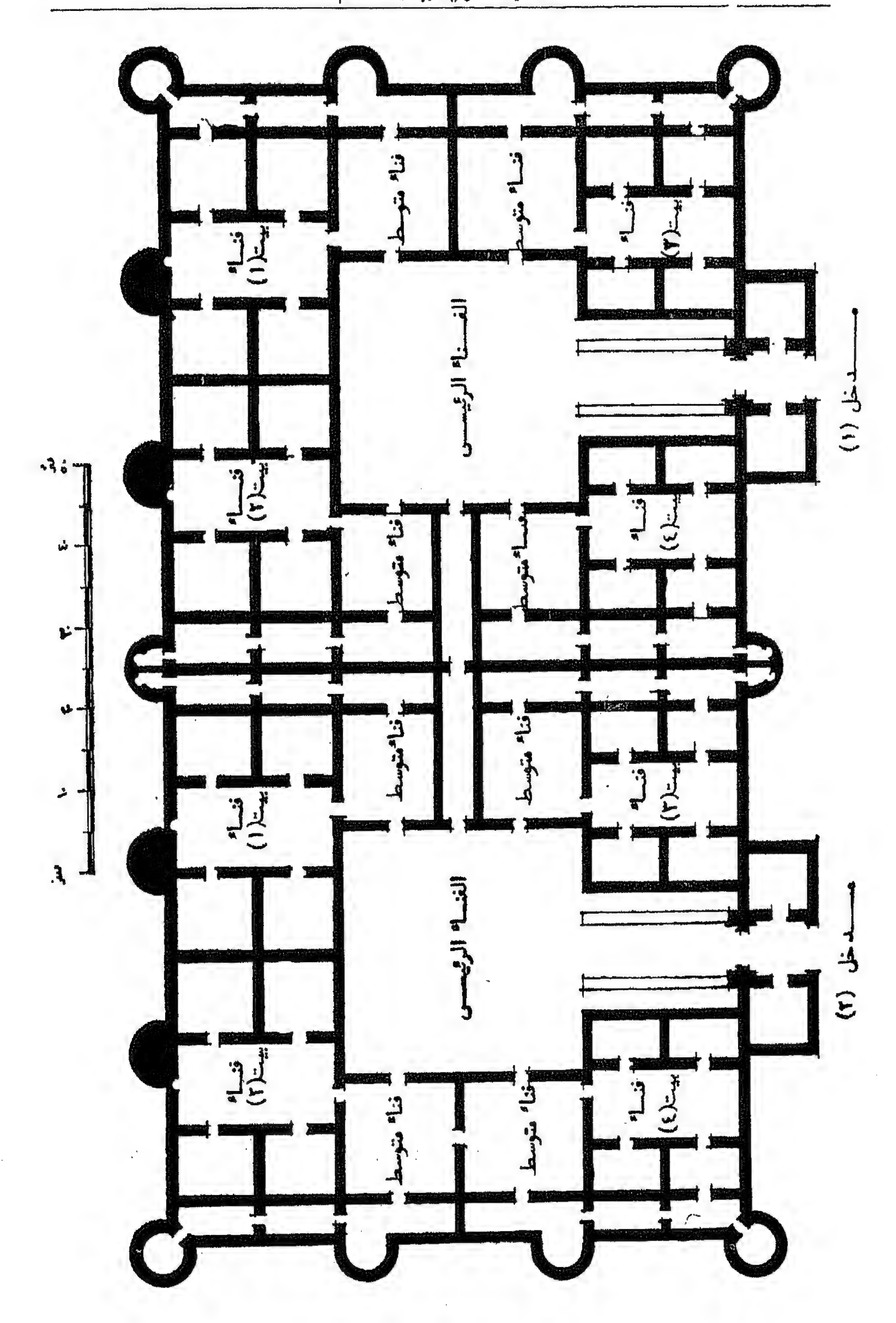
وقد كان نفس الوازع الدينى سبباً فى عمل الأسبلة لشرب الناس المـارين فى الطرق والأحواض لشرب البهائم والحيوانات • وانتشر أسلوب تخصيص ركن لتلك الأسبلة فى العمائر من مساجد ومدارس وخانقاوات فى العصر المملوكى • فلا يكاد مبنى من هذه الأنواع يخلو من سبيل لارواء عطش المـارة من الناس ويعلوه عادة مكتب لتعليم الصبية من أيتام وفقراء المسلمين القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم •

وجدير بالذكر أن المستشرقين والأثريين الأجانب قد جروا على اطلاق تعبير « التخطيط الصليبى » Cruciform Plan على ذلك النمـوذج ذى الايوانات الأربعة • وهو فى رأينا تعبير مضلل قد يؤدى الى فكرة خاطئة عن مصدر اشتقاقه • اذ يحتمل أن يوحى بأنه مشتق من المسقط الذى على شكل الصليب الاغريقى للكنائس المسيحية• بينما يوجد فارقا كبيرا بين التخطيطين (ش : ٨١ ، ٨٢ ، ١٧١ ، ١٧٢) [1] لايجعل هناك صلة ما بينهما ، حيث لايوجد البتة شكل الصليب فى المسقط الاسلامى ، لأن عروض الايونات ـ كما هو واضح فى الرسم ـ ليست مساوية فى جميع الحالات ـ الا فيما ندر ـ لأضلاع الصحن الذى تفتح عليه ، بخلاف شكل الصليب الموجود

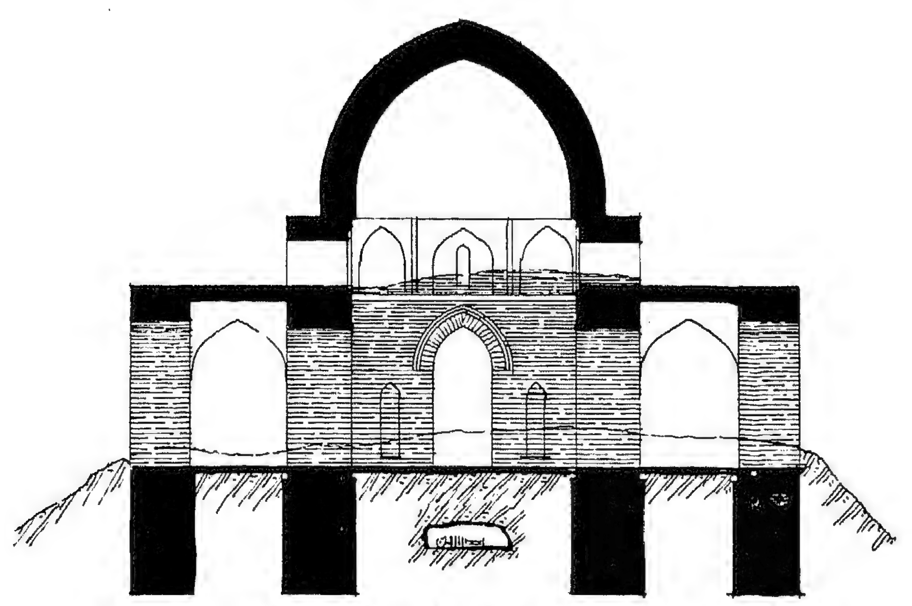
(1) M.A.E., II, pp. 234-240, Fig. 137, Pls. 85-88.



ش : ١٧٣ ـ بادية الاردن : قصر المشتى



ش : ١٧٤ ـ بادية الاردن : قصر الطوبة



ش : ١٧٥ ـ سامرا : قبة الصليبية (قطاع)

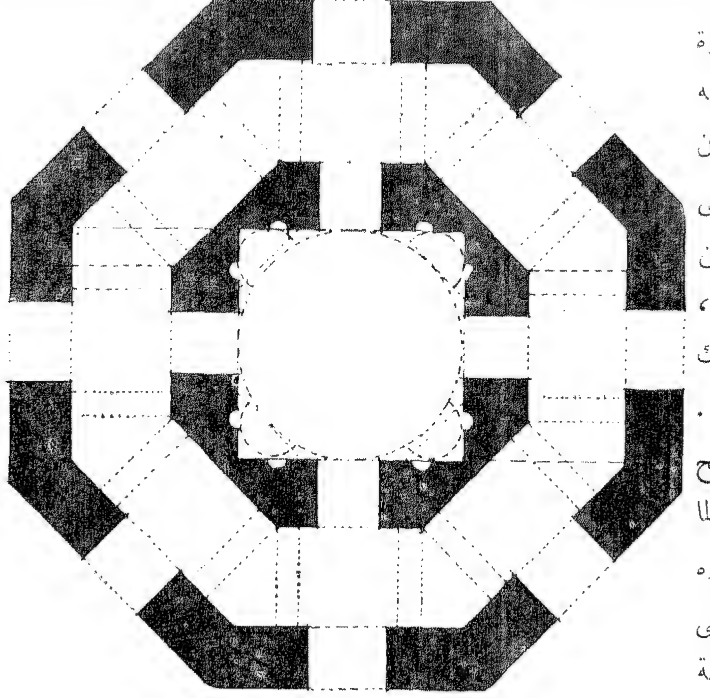
فى مسقط الكنائس من هذا النوع • فضلا عن أن التخطيط الاسلامى نابع من أصول اسلامية سابقة لا علاقة لها بتاتا بتخطيط الكنائس من النموذج الصليبى •

وأصبح التخطيط ذو الايوانات نموذجا رئيسيا ثانيا بنيت عليه الجوامع أيضا الى جانب النموذج النبوى المكون من الصحن الأوسط والظلات حوله ، والذى رأيناه فى مسجد الرسول فى المدينة • وسار النموذجان جنبا الى جنب فى العالم الاسلامى وخاصة فى مصر منذ أواخر القرن السادس الهجرى (١٢م) الى القرن العاشر الهجرى (١٦م) •

***

أما تأثير العامل الدينى على بناء المدافن والأضرحة فان القرآن يخلو من أى معنى يتضمن كراهية الاسلام لبنائها • ولكن هناك اعتقادا سائدا بأن فى أحاديث الرسول ما يدل على ذلك • ولا يدخل فى مجال اختصاصنا أن نناقش صحة تلك الأحاديث أو عدم صحتها • ولكننا نجد من الواجب أن نضع تحت أنظار رجال الدين المختصين ملاحظة هامة تتصل بهذا الموضوع وهى : أن الرسول الكريم قد دفن فى حجرة عائشة ، وكان لها سقف وجدران[١] • وهو أمر يدعو للتساؤل عن مبلغ تلك الكراهية التى نسبت الى النبى من الصحة ، وعن أنه لو كان متشددا فى ذلك حقا لأوصى أصحابه وأنصاره بذلك عند احساسه بدنو أجله ، ولألح عليهم أن يتجنبوا

(٢) سيرة ابن هشام (طبعة حجازى) : جـ ٤ ، ص : ٣٣٣ ـ ٣٤٤ •



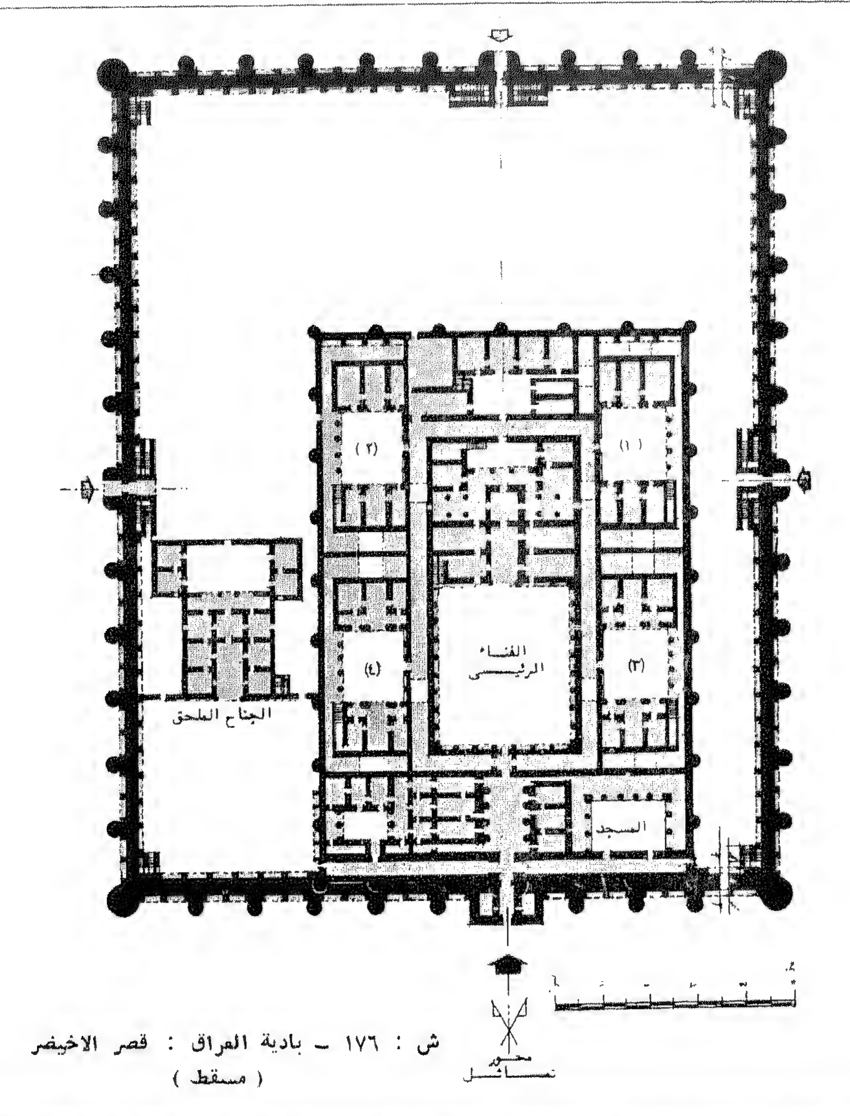
دفنه ـ وهو قدوة المسلمين فى حياته وموته ـ فى مكان عليه بناء ، حتى لا يلتبس الأمر من بعده على المسلمين ، ويتخذون من ذلك سنة يسيرون عليها . وحتى لو لم يلح الرسول فى ذلك لما غفل أصحابه وأنصاره عن دلالة دفنه فى فى حجرة عائشة ومخالفتها لما أوصى به الرسول ، لو كان ذلك صحيحا . وهى ملاحظة تترك المجال للتشكك فى صحة الحديث الذى نسب الى الرسول ، لما يوجد من تضارب بينه وبين الدليل المادى على عدم كراهية الدفن فى مكان مشيد ، ويدعو رجال الدين الى اعادة النظر فيما ورد فى كتاب الفقه على المذاهب الأربعة عن هذا الموضوع (1) ، وفى غيره من الكتب .

ويفسر بعض المؤرخين خلو آثار الأمويين من القبور والأضرحة ، بأن ذلك لا يرجع الى كراهية الاسلام لبنائها بل يرجع الى اتجاه العباسيين نحو تخريب وهدم ذلك النوع من العمائر بعد أن انتزعوا الخلافة من بنى أمية وقضوا عليهم وعمدوا الى محو ذكراهم بازالة أضرحتهم ونبش قبورهم ودفن عظامهم فى مواضع غير معروفة . ولعل خشية العباسيين من أن يفعل بقبورهم مثل ما فعلوه بقبور الأمويين قد دفعتهم الى اخفاء قبورهم وتضليل الناس عن مواضعها الحقيقية ، وذلك بحفر عدة قبور للشخص الواحد فى جهات متعددة وباخفاء معالمها (2) . ولم يعثر من العصر العباسى الأول فى العراق الا على ضريح واحد يعرف باسم « قبة الصليبية » قرب سامرا (ش : ١٧٥) (3) .

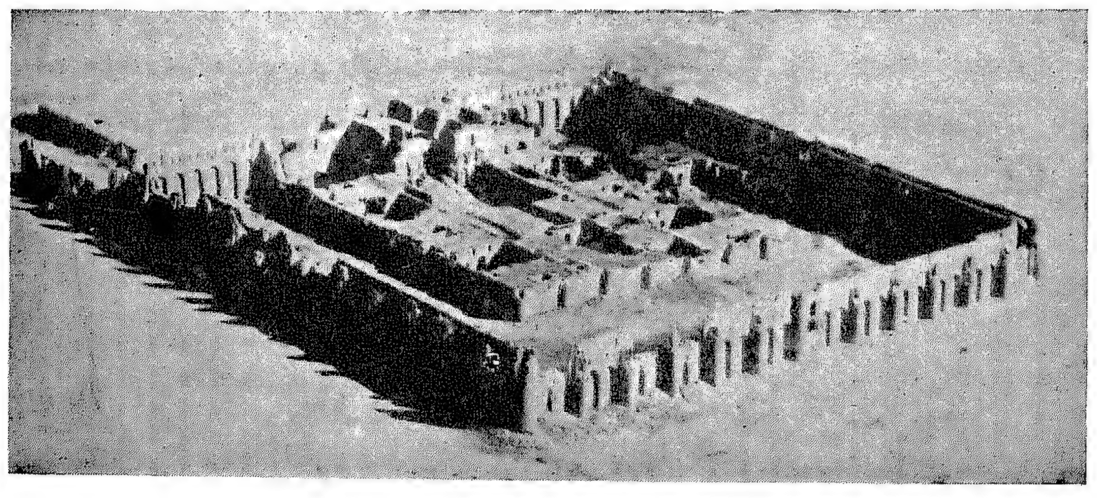
(1) ۱۰ وزارة الاوقاف : كتاب الفقه على المذاهب الاربعة .

(2) لمامات ابو جعفر المنصور حفر له مائة قبر (ابن الاثير) ، ج : ٦ ، ص : ١٣ .
E.M.A., II, p. 285, ftu. n. 2.

(3) E.M.A., II, pp. 283-6, Figs. 225-6, Pl. 79 a ; Short Account, pp. 287-9, Fig. 59 ; Archaeol. Reise, I, pp. 83-6, Fig. 33, III, Pl. 18.



ش : ١٧٦ ـ بادية العراق : قصر الاخيضر
(مسقط)



ش : ١٧٧ ـ بادية العراق : قصر الاخيضر ، منظور البقايا من الجو

وكان سماح الشرع الاسلامي للمقتدرين بالزواج من أربعة عونا على تأريخ بعض القصور التى عثر عليها فى البادية فى الشام والعراق ، وأمكن نسبتها الى خلفاء وأمراء من العصرين الأموى والعباسى ، ذلك لما يحتويه القصر منها على أربعة مساكن تتمتع بأسلوب متعادل فى التصميم والبناء ، ويكاد كل منها يستقل بنفسه عن الآخرين • وقد اتخذ هذا التوزيع دليلا تؤرخ به تلك القصور فى العصر الاسلامى ، مثل قصر المشتى وقصر الطوبة ببادية الشام (ش : ١٧٣ ، ش : ١٧٤) [١]• وينسبان الى عصر الوليد الثانى ، فى حوالى عام ١٢٦هـ (٧٤٤م) • ومثل قصر الأخيضر ببادية العراق فى الجنوب الشرقى من مدينة الكوفة (ش: ١٧٦ ـ ١٧٧)[٢] ، وينسب الى عصر المنصور ، حين شيد القصر عيسى بن موسى ابن عم المنصور ليبتعد عن البلاط العباسى ، ويعتزل فى ذلك القصر الذى شيده فى حوالى عام ١٦١هـ (٧٧٨م) •

ومن جهة أخرى فان تصميمات القصور ومنازل المقتدرين ومتوسطى الثراء من الشعب قد تأثرت بالعامل الدينى من ناحية حجاب النساء • اذ كان يراعى فيها تخصيص أجزاء منها لقاعات وحجرات النساء وأهل البيت لحجبهم عن أنظار الغرباء من زوار وجيران • وكان للزائرين من الرجال قاعات مقفلة تستعمل أيام الشتاء ، ولهم ايوانات تسمى بالمقاعد ، مفتوحة على أفنية مكشوفة تستقبل منها الهواء الملطف فى الصيف كما سيجىء ذكره فى مكانه • ولم يكن هذا الأمر سهلا بالنسبة للحجاب فى العمائر السكنية المخصصة لطبقات الشعب الفقيرة وهى المساكن المسماة « بالربوع » جمع « ربع » • اذ كانت هناك دورات مياه مشتركة لمجموعات من الحجرات تسكن عائلة واحدة فى حجرة منها أو أكثر •

***

ويتضمن القرآن فى مواضع كثيرة منه الأمر بالنظافة الدائمة والتطهر بالاغتسال مما جعل المسلمين يهتمون ببناء الحمامات للخاصة من الناس داخل القصور ومنازل القادرين ، وبتشييد عمائر للحمامات العامة ، يؤمها الشعب على اختلاف طبقاته • وكان لهذه الحمامات العامة شأن فى الحياة الاجتماعية فى العصور الاسلامية المزدهرة • اذ كان يخصص للنساء يوم أو أكثر من أيام الأسبوع ، يلتقين فيها للاستجمام والترويح• وكانت تبنى حمامات مخصصة لهن لا يدخلها الرجال •

ومن مستلزمات الاسلام التى تتبع فرائض الصلاة فريضة الوضوء • وكانت

(١) E.M.A., I, pp. 350-389, Figs. 430-487, Pls. 57-80.

(٢) Ibid., II, pp. 50-100, Figs. 35-69, Pls. 5-21.

تزود المســاجد الأولى بمضيــأة من خوض ، وأحيانا بنوع ما من الأنابيب أو القنوات تحمل الماء الى المصلين ليقوموا بفريضة الوضوء • ولم تصلنا بقايا من تلك الأنواع ترجع الى القرون الأولى من الاسلام ، ويبدو أنها لم تكن تحظى بعناية فى التصميم أو البناء ، فسرعان ما كان يتطرق اليها الخراب بسبب جريان الماء فيها وتسرب الرطوبة اليها ، ويفهم من أقوال المؤرخين أن تلك الوحدات كانت توضع فى مكان يلحق بالمسجد أو المدرسة • وبقى الأمر كذلك الى القرن السابع الهجرى (١٣ م) عندما عنى بالميضأة ـ وخاصة فى مصر ـ فوضع بعضها فى وسط الصحن المكشوف ، واكتسبت أهمية معمارية وزخرفية ، وذلك عندما زادت عناية المعماريون بتصميمها وزخرفتها (ش : ٣١١ ـ ٣١٣) •

***

ومن أهم نتائج تأثير العامل الدينى فى العصر لاسلامى ظهور نظام الأحبـاس المعروفة اليوم بالأوقاف • فقد كان الوازع الدينى هو الذى دفع بالخلفاء والسلاطين والأمراء والمقتدرين من الناس الى بناء دور العبادة والعمائر الدينية المختلفة التى شيدت لخير الناس ونفعهم ، مثل المدارس والمساجد والخانقــاوات والمارســتانات والأسبلة والكتـاتيب وغـيرها . وكان هذا الوازع نفسه سببا فى اتباع نظام حبس العقـارات والأراضى حتى ينتفع بغلتها فى الصرف على صيانة تلك العمائر وعلى معاش من يقوم على خدمتها وصيانتها • مما كان له أكبر الأثر فى الاحتفاظ بعدد كبير من آثارها • ولا زال بعضها فى حالة جيدة من الحفظ •

***

وقد يبدو لأول وهلة أن تأثير الاسلام على الفنون التشكيلية من التصوير والنحت لم يكن له علاقة واضحة بالعمارة فى العصر الاسلامى مثلما كان الحال فى جميــع العصور الأخرى التى كان الناس يهتمون فيها بالنحت والتصوير ، ويتيحون لمنتجاتها الفرصة للاسهام فى اخراج القطعة المعمارية ، سواء كانت من النوع الدينى أو غيره • بل كانوا فى أغلب الأحيان يستخدمون الصور والتماثيل فى المعابد لادخال الرهبة والخشوع فى قلوب الناس ، وكوسيلة لحثهم على التفانى فى الدين والخضوع لتعاليمه• وهو أمر لم يحدث أبدا فى العصر الاسلامى •

ولكن الواقع أن الدين الاسلامى كان ذا تأثير كبير مباشر على الفنون التشكيلية من ناحية ، كما كان ذا تأثير غير مباشر على علاقتها بالعمارة العربية الاسلامية من ناحية أخرى •

ذلك أنه منذ عصور الاسلام الأولى ساد الاعتقاد فى كراهية الدين الاسلامى لمحاكاة ما أبدعه الخالق عز وجل من الكائنات الحية • وأصبح هذا الموضوع ميدانا يجول فيه ويصول رجال الدين وعلماء الآثار ، يسهم كل منهم فى بحثه ، ويدلى فيه بما يعن له من تفسير وأفكار • فمن بعض هؤلاء الباحثين من يميل الى الاعتقاد بأن حملة الكراهية هذه قد قامت اثر انتشار الاسلام مباشرة ، وذلك لمنع الناس من أن يعودوا الى تكريم الصور والتماثيل ، مما قد يؤدى بهم الى عبادة الأوثان مرة أخرى، ويستشهدون بما روى من أن الرسول عند فتح مكة ، أمر بتحطيم الأصنام التى كانت بالكعبة وازالة الصور التى كانت مرسومة على جدرانها من الداخل ، وعلى الدعامات التى تحمل سقفها[1] •

كما يستشهدون أيضا بأحاديث رويت عن الرسول تتضمن النهى عن محاكاة خلقة الله ، والوعيد لمن تجرأ من المصورين على عمل ذلك •

ويذهب بعض آخر من أولئك العلماء الى أن الرسول الكريم بينما لم يهدف الا الى أن يزيل كل ما يتعلق بعبادة الأصنام والأوثان وصور فانه لم يكن متشددا فى ازالة ما عدا ذلك ، بدليل أنه أمر بألا تزال صورة السيدة العذراء والسيد المسيح ، كما ورد فى بقية الرواية السابقة ، وهى صور كانت مرسومة على الدعامات بداخل الكعبة • وبناء على ذلك فان مذهب تحريم الصور والتماثيل بصفة مطلقة لم يبدأ فى رأيهم الا بعد عصر الرسول، ومن المحتمل أن يكون ذلك قد حدث فى العصر العباسى • ويستند أصحاب هذا الرأى الى أن القرآن قد خلا من نص صريح يدل على كراهية التصوير أو تحريمه • أما الأحاديث النبوية التى تشير الى تلك الكراهية فانها قد تكون من قبيل الأحاديث التى ظهرت عندما بدىء بتدوين أحاديث الرسول بعد قيام الدولة العباسية بقليل ، أى فى حوالى بداية القرن ٣ هـ (٩ م) • ثم أضافوا الى ذلك أن بعض تلك الأحاديث تتضمن معنى السماح باستعمال ما كان منقوشا بالصور اذا لم يوضع فى مكان يحظى فيه بتشريف أو احترام ، كأن يكون معلقا على جدار أو غير ذلك[2] •

ومهما يكن من أمر فانه يمكننا أن نخلص من مجموعة تلك الآراء بأنه لا خلاف

---

(١) الازرقى : أخبار مكه ، جـ : ؟ ، ص : ؟ .

(٢) كتب المرحوم الدكتور زكى محمد حسن عن هذا الموضوع باسهاب فى كتاب التصوير عند العرب لاحمد تيمور (صفحات ١١٩ ـ ١٣٩) ، واستعرض معظم الآراء والمناقشات التى دارت حول هذا الموضوع ، ثم أدلى بدلوه فيه وذكر رأيه الذى استخلصه من هذا العرض ، وتناول الدكتور حسن الباشا هذا الموضوع أيضا فى كتابه : التصوير الاسلامى (صفحات ٩ ـ ٢٠) : Arnold (Th.) Painting in Islam, pp. 7 etc., E.M.A., I, pp. 269-71, etc.

على وجود تلك الكراهية ، ولكن الخلاف ينحصر فى نقطة واحدة هى : تعيين الوقت الذى بدأت فيه تلك الكراهية وذلك النهى عن تصوير ما خلقه الله من كائنات حية • وسواء كان وقت قيام الحملة ضد التصوير فى بداية الدعوة الاسلامية أو بعدها بنحو قرنين من الزمان ، فان وجود الاعتقاد بتلك الكراهية كانت له نتيجة واضحة هى احاطة الفنانين المسلمين بجو من عدم التشجيع على تصوير الكائنات الحية بأية طريقة من الطرق • وهو أمر قد سلبهم حرية كان يتمتع بها الفنانون فى الطرز الأخرى السابقة على الاسلام والمعاصرة له ، مثل الفنون الاغريقية والرومانية والهندية والصينية والمسيحية والساسانية وفنون العصور الوسطى فى أوروبا وعصر النهضة فيها •

لكن من الملاحظ أنه على الرغم من كراهية الاسلام للتصوير والفتور فى تشجيع الفنون التشكيلية فى العصر الاسلامى فان ذلك لم يؤثر على الانتاج الفنى من الناحية العددية اى على كميات التحف ، بقدر تأثيره على الطابع والأسلوب • ذلك أنه قد وصلتنا تحف ومنتجات فنية كثيرة من الأقاليم الاسلامية المختلفة عليها صور مرسومة او محفورة • ولكن اذا فحصناها على ضوء المقاييس التى وضعت فى العصور الحديثة وأسست على نظريات الفنون الأوروبية الكلاسيكية من يونانية ورومانية ، ثم فى عصر النهضة ـ وهى مقاييس تختلف كثيرا عن وجهات نظر الفنون الشرقية ـ فان مستواها الفنى قد يعد ضعيفا من حيث البعد عن احترام الطبيعة فى النسب والتشريح والخلو من صدق التعبير عن الحيوية والحركة ، وعن الموضوع والعاطفة ، اذ لا يخرج الموضوع التصويرى الاسلامى عن أن يكون تسجيلا لقصة أو صورة فى أسلوب اصطلاحى ، وبطريقة تجريدية رمزية متوارثة لم يصبها تطور يذكر مع مرور الزمن • بل هو أقرب الى موضوع زخرفى منه الى محاولة تصويرية •

ولكن يجب أن لا ننسب هذا الطابع التجريدى كله الى عامل كراهية الدين الاسلامى للتصوير فحسب • فهناك حقيقة معروفة فى تاريخ الفنون لا يصح اغفالها ، وهى : أن أساليب التصوير فى بلاد الشرق القديم كانت منذ عصورها التاريخية تميل دائما الى الأسلوب الرمزى أو الاصطلاحى فى الأوضاع والملامح وتكوين المنظور وتوزيع مستوياته • ولكن لم تهمل الجانب التشريحى والنسب الطبيعية الى الحد الذى وصل اليه فى الفن العربى الاسلامى ، اللهم الا فى الفن البيزنطى وفى بعض منتجات الفن الساسانى • وتتضح مميزات الأسلوب الشرقى القديم فى الصور والتماثيل والنحوت من العصور الفرعونية والأشورية والصينية • بل ان الفن الهلينستى نفسه ـ وكان أساسه كما قلنا هو الفن الاغريقى الذى جلبه الاسكندر معه الى الشرق ـ

قد أصبح من مميزاته الخضوع للروح الاصطلاحية السائدة فى الشرق ، كما خضع لها من بعده الفن الساسانى والفن البيزنطى • فلا غرو اذن أن يكون الفن العربى الاسلامى قد سار فى نفس الطريق ، ثم ساعدت كراهية الاسلام للتصوير على ابراز ذلك الاتجاه التجريدى الى حد كبير ، فقد زاد الفنانون المسلمون فى تحوير أشكال الكائنات الحية حتى أخذ التصوير العربى الاسلامى طابعا واضحا لا فى التكوين العام والاوضاع فحسب بل وفى جميع نواحيه الأخرى من تفاصيل وملامح الى غير ذلك• وبقيت للتصوير العربى الاسلامى خصائصه هذه طوال المراحل التى مر بها فى أثناء تطوره فى جميع الأقطار الاسلامية •

ويمكن القول اذن بأن كراهية الدين الاسلامى للتصوير – أو على الأقل الفتور فى تشجيع الفنون التشكيلية العربية الاسلامية – لم تضعف من مستواها الفنى ، ولكنه عاقها عن التدرج الطبيعى فى مراحل التطور المعتادة الذى كان يصل بها الى آفاق جديدة لو كان الفنانون قد لاقوا حرية وتشجيعا ، مثلما حدث فى فنون أخرى •

وهناك وجهة نظر ثانية فى مدى تأثير كراهية الاسلام للفنون التشكيلية ونتائجها عليها ، هى وجود احتمال بأن عدداً كبيرا من الصور والتماثيل – التى تم عمل الكثير منها على الرغم من تلك الكراهية – قد دمرت أو أتلفت على ايدى المتطرفين الى درجة الهوس الدينى ، والمؤمنين بحرفية التقاليد والمعتقدات الموروثة التى تنادى بتلك الكراهية أو ذلك التحريم • فلقد وصلتنا عدة صور أصاب وجوه الاشخاص فيها تشويه متعمد واتلاف مقصود ، مما يجعلنا نظن أن المخلفات الأثرية التى وصلتنا من الصور المرسومة والملونة ما هى الا جانب من مجموعات كبيرة اختفى كثير منها بتدميرها أو باخفائها عن عمد •

ومن الملاحظ أيضا أنه لم يعثر بين الآثار والمخلفات من الفنون التشكيلية العربية الاسلامية الا على عدد نادر من التماثيل الصريحة التى يمكن تسميتها بتماثيل • ووصلنا بعضها على هيئات حيوانات وطيور مصنوعة من النحاس أو البرونز ، ومنها ما اقتناه الأوروبيون ، ثم آل أمره الى الكنائس منذ العصور الوسطى لاستعماله كأوان للماء المقدس ، والتى عرف باسم « أكوامانيل » • وينسب عدد منها الى العصر الفاطمى والى الغرب الاسلامى[١] • كما عثر على بعض قطع من التماثيل الخزفية النادرة تنسب الى العصر السلجوقى[٢] • وندرة التماثيل ، وخاصة ما كان منها على هيئة آدميين ، قد ترجع الى أن الفنانين المسلمين قد تحاشوا الاندفاع فى عمل التماثيل

(١) زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين
(٢) Survey of Persian Art, vol. IV, Pls.

الآدمية ، أو أن يكونوا قد قاموا بعمل كثير منها ــ قياسا على العدد الكبير من التصاوير والرسوم التى وصلتنا ــ ثم أتلفها أو دمرها المتطرفون من المتدينين المسلمين ، مثلما حدث فى الصور المرسومة والملونة .

وهناك اعتقاد بأن الفنانين الشيعيين أو الذين كانوا يعملون فى أقطار يعتنق بعض أهلها المذهب الشيعى ، مثل فارس والعراق ومصر فى العصر الفاطمى ، كانوا متحررين من الخضوع لفكرة تحريم أو كراهية الاسلام للتصوير ، وذلك على عكس زملائهم السنيين . وجاء هذا الاعتقاد بسبب ما وصلنا من أعداد كبيرة من صور الآدميين والحيوانات المرسومة على الورق والحوائط والخزف والمنحوتة فى الحجر والجص والخشب ، والمنسوجة فى القماش ، وأنتجها الفنانون فى تلك البلاد المعروفة بانتشار المذهب الشيعى .

والحق أن هذا الاعتقاد ليس له سند مادى قوى . فقد وصلنا من العصر الأموى عدد لا بأس به من صور الآدميين والحيوانات المرسومة بالخطوط والألوان على الجدران والمنحوتة فى الحجر ومرسومة بالفسيفساء [(١)] . كما وصلنا عدد آخر من العصر العباسى [(٢)] . وقد ذكر المؤرخون كثيرا من الروايات عن البذخ والاسراف فى الترف وكثرة الصور التى كانت تزين القصور والدور فى عصر ابن طولون وابنه خمارويه ومن جاء بعدهما من الولاة والحكام قبل فتح الفاطميين لمصر [(٣)] . أما قلة ما وصلنا من الصور الآدمية والحيوانية من العصرين الأيوبى والمملوكى بالنسبة لكثرة ما تخلف من العصر الفاطمى فانه لا يعد وحده دليلا على أن الأيوبيين والمماليك كانوا أكثر تقشفا ، فان لدينا من الأدلة المادية ومن أقوال المؤرخين ما يثبت تغالى المماليك بوجه خاص فى استعمل الذهب والفضة والحلى والجواهر ولبس الحرير بأنواعه والأخذ بضروب الترف الى درجة لا تقل ، ان لم تزد ، عما فعله الفاطميون وغيرهم من قبل . ومما هو جدير بالذكر أنه قد وصلت الينا مخطوطات مزوقة بالتصاوير من العصر المملوكى [(٤)] ، كما وصلت الينا منه مجموعة من ورق اللعب عليها صور تشبه ما يستعمل فى ورق اللعب فى العصر الحديث [(٥)] .

---

(١) انظر : حسن الباشا : التصوير الاسلامى ، ص : ٢١ ــ ٦١ ، الصور الموجودة فى قصر عمره ، والمنحوته فى الحجر فى واجهة قصر المشتى والمحفوظة الآن في متحف برلين والمرسومة بالفسيفساء فى قصر هشام تجربة الفجر ونشر كل ذلك وغيره فى المراجع الآتية: E.M.A., I, pp. 258-62, 289-303; Figs. 341-350, 354-356, Pls. 48-51, 63-74; Hamilton (R.W.) : Khirbat al-Mifjar, (Oxford, 1959).

(٢) Herzfeld (E.) : Die Malereien von Samarra, (Berlin, 1927).

(٣) القريزى ، ج : ١ ، ص : ٣١٦ ــ ٣١٧ ، ٣١٩ .

(٤) حسن الباشا : التصوير الاسلامى ، ص : ١٦٥ ــ ١٧٧ .

(٥) Mayer (L.A.) : Mamluk Playing Cards, (B.I.F.A.O.) 1939), pp. 90-107.

كذلك انتشر تصوير الآدميين والحيوانات انتشارا واسعا فى جميع المنتجات الفنية من العصر السلجوقى فى فارس والعراق وآسيا الصغرى [1] • مع أن السلاجقة كانوا سنيين متشددين فى التعصب لمذهبهم وفى مقاومة المذهب الشيعى بكل الطرق الممكنة ، ومع ذلك فان الفنانين فى عصرهم لم يتحرجوا من الاكثار فى انتاج الصور فى مختلف أنواع المواد وبأساليب متعددة من الرسم والنقش والدهان والحفر البارز والغائر وبالتكفيت فى النحاس وفى نسيج الأقمشة الى غير ذلك • كما أن مثل ذلك قد حدث فى شمال افريقية والأندلس حيث كان المذهب السنى هو السائد هناك •

ومن جهة أخرى فان هناك فكرة شائعة عن المذهب الشيعى بأنه كان المذهب الرسمى للدولة فى فارس ، والحقيقة أنه لم يصبح كذلك الا فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى • بل ان علماء المسلمين من شيعة وسنيين لم يختلفوا فى موضوع كراهية الدين للتصوير • وقد ورد ما يدل على ذلك فى كتب الحديث عند المذهبين [2] •

***

وتتمثل أخطر نتائج كراهية الاسلام للتصوير فى أن العدد الأكبر من الفنانين المسلمين قد انصرف الى ميادين أخرى من الفنون تخلو من القيود ويجدون فيها حرية لاشباع غرائزهم الفنية واظهار مهاراتهم ومواهبهم • وتجلى كل ذلك فى ميادين الزخرفة بأنواعها المختلفة • فقد صال الفنانون العرب المسلمون فيها وجالوا وابتكروا وطوّروا فى الموضوعات والمجموعات والوحدات والعناصر الزخرفية ، مما جعل للفن العربى الاسلامى ذلك الطابع الزخرفى الأخاذ ، الذى تميز به عن سائر الفنون كلها• بل اننا نعتبره حجر الزاوية فى تلك الوحدة الشاملة التى تضم فى نطاق اطارها الكبير جميع المدارس الفنية التى قامت فى كل عصر من العصور فى تلك السلسلة المترابطة حلقاتها من الأقطار العربية والاسلامية فى المشرق والمغرب •

لقد جعل الفنانون العرب المسلمون من الخط العربى بأنواعه المختلفة من كوفى الى نسخى الى غير ذلك ميدانا من الميادين الرئيسية للزخارف • فأخرجوا من الحروف وأطرافها أشكالا وعناصر من الزخرفة تتجمع فى كلمات وعبارات لينتج منها كلها موضوعات زخرفية ذات ايقاع فنى متناغم ، وتبرزها وتؤكدها فى أحيان كثيرة عناصر

(1) Survey of Persian Art, vols. V-VI.

(٢) أحمد تيمور : التصوير عند العرب ، ص : ١٣٢ ، زكى محمد حسن : التصوير الفارسى ، ص : ١٨ ـ ٢٠ •

نباتية وهندسية وضعت فى مستوى خلفى منها لتزيد من حسنها وجمالها ، وزيّنوا بها منتجات الفنون من عمارة وتحف زخرفية •

كما ابتكروا من الأشكال الهندسية ألوانا وأنواعا جديدة ألفوا بينها وأنتجوا منها اعدادا لا حصر لها من الوحدات والتكوينات الزخرفية التى تسيطر على المشاعر وتبعث النشور والارتياح • وقد أشرنا من قبل الى ما اختص به الفن الاسلامى من نوع من الزخارف الهندسية هو الأطباق النجمية (ش : ١٥١ ، ١٥٢) •

وانتجوا سجلا حافلا من العناصر النباتية من أوراق وزهور وثمار فى أشكال تجريدية محورة ذات طابع عربى اسلامى فريد ، جعلوها تتهادى وتتثنى وتتشابك مع بعضها ومع الكتابات الكوفية والوحدات الهندسية لتخرج من مجموعاتها روائع تبهر الابصار • ولقد بلغ من روعة تلك الابتكارات الزخرفية أن أطلق الفنانون الأوربيون كلمة « آرابسك » Arabesque على أية تكوينات زخرفية تتشابك فيها العناصر حتى ولو كانت غير اسلامية بحيث ينتج منها ما يشبه ما أبدعه الفنانون العرب المسلمون • ولا شك أن نسبة ذلك الى العرب ينطوى على أكبر تقدير لما وصلوا اليه من أصالة فى زخارفهم واعترافا بفضلهم فى هذا المضمار الذى لم يبزهم فيه غيرهم •

ونظرا لأهمية تلك الكلمة وانتشارها الكبير فاننا نقتبس مما كتبه العالم الأثرى الألمانى هرتزفلد عن كلمة «أرابسك» مايلى : « هذا اللفظ أوروبى أطلق فى اللغات »
« الانجليزية والألمانية والفرنسية على زخارف الفن الاسلامى بوجه عام والنباتية منها »
« بوجه خاص • بل لقد أطلقها البعض على زخارف فن النهضة الأوروبية لما حدث »
« من مزج بين معنى هذه التسمية وبين زخارف فن النهضة التى كانت تتميز بالغرابة »
« واطلق عليها لفظ Grotesque ، نسبة الى الزخارف الكلاسيكية التى اكتشفت »
« فى وحدات حمامات تيتس Titus فى روما ، والتى ظهرت بالأقبية التى تغطيها »
« على هيئة كهوف سميت بالايطالية Grottos ، وأطلق على الصور والزخارف »
« المكتشفة فيها لفظ Grotesca • أضف الى ذلك أن زخارف فنون النهضة وخاصة »
« فى النسيج والخزف والمعادن وزخارف الكتب والمخطوطات تحتوى على عدة »
« عناصر من زخارف الفن الاسلامى ، كما توجد أيضا عناصر منها فى زخارف »
« كنائس مدن ايطاليا مثل كنيسة القديس ميخائيل فى بافيا Pavia وكنيسة »
« القديس فرنسيس فى أسيسى Assisi ، وكنيسة القديس دومنيكو S. Domenico »
« فى بولونيا • وكل ذلك جعل من السهل أن تنتقل كلمة « أرابسك » الى زخارف »
« طراز النهضة نفسها وبالذات للنوع المسمى Grotesca الذى أشرنا اليه • ويبرز »
« تأثير الأرابسك الاسلامى بوجه خاص على طراز النهضة وهو فى أوج ازدهاره »

« وفي عصره الأخير وهو يرجع الى محاكاة مقصودة لنماذج شرقية • ويتضح ذلك »
« فى طراز النهضة الفرنسى فى عصر هنرى الثانى وبالذات فى زخارف الكتب » »
« وكذلك فى ألمانيا وخاصة فى الأعمال الزخرفية لبيتر فلوتنر Peter Flötner »
« وفيرجيل سوليس Virgil Solis فى مدينة نورنبرج » •

« أما المعنى الحقيقى الذى أصبح متفقا عليه بين علماء تاريخ الفنون لهـذا »
« الاسم الغربى أى «الأرابسك» فهو يعبر عن فنون الأقطار الاسلامية بوجه عام • »
« ومن الحق أن يطلق بالذات على الزخارف النباتية ، ولو أنه يصعب فصلها عن »
« باقى الزخارف الأخرى مثل أشرطة الجدائل والعناصر الكتابية وأشكال الكائنات »
« الحية مما يمكن معه أن يمتد المعنى حتى يشمل أمثال هذه العناصر والأشكال • »
« وهو المعنى الشائع فى وقتنا الحاضر • »

« وظهرت كلمة أخرى تتوازى مع «أرابسك» هى «مورسك» Mauresque »
« لتطلق على زخارف الفنون الاسلامية فى الغرب الاسلامى لتمييزها عن زخارف »
« المشرق الاسلامى • ولكن كلمة «أرابسك» لا زالت تشمل الزخارف الاسلامية »
« النباتية كلها بوجه عام فى المشرق والمغرب ، بينما أصبحت كلمة « مورسك » »
« تستخدم فى اللغات الأوروبية للفنون الاسـلامية فى المغرب الاسلامى بصفة »
« عامة • »

وانتقل هرتزفلد بعد هذا الشرح والتعريف عن كلمة « أرابسك » الى تتبع الأصول التى اشتقت منها الزخارف النباتية الاسلامية • فحصر تلك الأصول ــ كما هى عادة المستشرقين ــ فى داخل نطـاق الزخارف الكلاسيكية ، أى الاغـريقية والرومانية [1] •

ومن الواضح أن هرتزفلد قد ضيق من هذا النطاق الى حد كبير ، فضلا عن أن هذه الزخارف الكلاسيكية تفصلها فترة زمنية طويلة عن العصر الاسلامى ، وتملأ هذه الفترة الزمنية فنون أخرى ذات طابع شرقى واضح تمتزج فيه رواسب من تلك الفنون الكلاسيكية مع عناصرها وأساليب وأذواق أصـيلة فى أقطار الشرق ، وهى الفنون الساسانية والهلينستية •

وقد ورث الأخيرة أو تولد عنها الفن المسيحى الشرقى المعروف بالبيزنطى • اذ رأينا مدرسة متأخرة من مدارس الفنون الهلينشية • فقد قام ذلك الفن المسيحى

(1) Herzfeld : Arabesque, (Encycl. of Islam, (1910), vol. I, pp. 363-67 ; Kühnel (E.) : Die Aeabeske, (1949) ; Riegel (Al.) : Stilfragen, (Berlin 1893).

على أساس متين من الفنون الهلينستية ولم يغير منها أو يضيف اليها الكثير ، وبخاصة فى المراحل المبكرة من نشأته وتطوره (اعلا • ص : ١٢٠ •• الخ ••) •

تلك الفنون الشرقية هى التى اختار الفنانون العرب المسلمون منها ما وافق مزاجهم وأذواقهم من عناصر وتقاليد زخرفية ثم صهروها بطريقتهم الخاصة بعد أن أضافوا اليها عناصر ابتكروها ، وأخرجوا من ذلك كله زخارف اسلامية خالصة ، ثم نوعوا فيها وطوروها ، حتى أضفت على الفن الاسلامى من جميع نواحيه ذلك السحر الشرقى الأخاذ والمظهر الطلى الجذاب الذى جعل الغربيين يقعون تحت تأثير سحره وجاذبيته ويقلدون عناصره ووحداته وتوزيعاته الزخرفية ، بل قد وصل الأمر ــ كما رأينا ــ الى أن يطلق اسم « أرابسك » على الزخارف الأوروبية التى يوجد فيها مسحة من طلاوة الزخارف الاسلامية ، خاصة فى عصر النهضة فى أوج ازدهاره وفى ازهى مراحله •

***

ولا نجد بأسا من أن نشير الى ناحية من نواحى تأثير الدين الاسلامى على الفنون الزخرفية • تتضح فى ظهور نوع من طلاء القطع الزخرفية وزخرفتها له بريق وألوان تشبه لمعان المعادن من ذهب وفضة ونحاس ، ويعرف لذلك بالبريق المعدنى• وهناك رأى بأن الفنانين العرب المسلمين قد ابتكروه للاستعاضة به عن استعمال الاوانى والتحف من المعادن الثمينة ، التى قد تعد ترفا لا يتفق مع ميل الدين الاسلامى الى البساطة وعدم التغالى فى المظاهر الدنيوية [١] • ولكن يبدو أن ذلك الاتجاه الدينى ان كان قد رضخ له عامة الشعوب فان الخلفاء والأمراء والسلاطين والأثرياء من العرب المسلمين لم يلقوا اليه بالا •

ومن أمثلة ذلك التحايل أنه قد استخدمت بلاطات زخرفية ذات زخارف من البريق المعــدنى فى تزيين الجدار حول محــراب جامع القيروان فى عام ٢٤٨ هـ (٨٦٣م) [٢] (ش : ٤٠٨) •

***

العامل الاجتماعى :

لم تختلف نتائج تأثير هذا العامل على تطور العمارة العربية الاسلامية كثيراً عن نتائج تأثير العامل الدينى ، الذى تدخل فى أغلب نواحى حياة المسلمين ومنها الأوضاع الاجتماعية •

(١) زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ، ص : ١٠٠ ــ ١٠٨ •

(٢) E.M.A., II, pp.. 309-13, Figs. 232-4, Pls. 86, 86 a ; Marçais (G.) : Coupoles et plafonds de la Grande Mosquée de Kairawan.

وتكاد الطبقات الاجتماعية أن تكون متطابقة فى ترتيبها فى جميع الأقطار الاسلامية بالنسبة للأوضاع والنظم • أى من حيث وجود الطبقة الحاكمة سواء كان على رأسها خليفة أو سلطان أو أمير أو وال يعينه الخليفة ليحكم القطر نيابة عنه ، ثم تأتى بعدها طبقة الوزراء ورجال الدولة والتجار والموسرين• وكان لهاتين الطبقتين النفوذ الأول فى توجيه الانتاج الفنى من حيث الكم والكيف • أما الطبقة المتوسطة فكانت فلة ليس لها أثر محسوس على تطور الفن العربى الاسلامى • وكان الحال كذلك مع طبقة العامة من الشعب • وتوضح البقايا الأثرية من العمارة والفنون التطبيقية مقدار التفاوت الكبير بين العناية العظيمة بمنتجات الطبقات الموسرة وبين ضعف الاهتمام بمنتجات الطبقات الشعبية ، المتوسطة منها والفقيرة • فبقى الكثير من العمائر والمنتجات الخاصة بالطبقات الموسرة ، بينما اختفت مساكن الطبقات الشعبية والعمائر الخاصة بها • فلم يبق من الربوع والوكالات والخانات التى كانت مخصصة للعامة من الشعب سوى قلة مما بناه السلاطين وأوقفوا ريعها للصرف على عمائرهم الدينية من مساجد ومدارس وخانقاوات وغيرها •

* * *

العامل السياسى :

لقد أثر هذا العامل على الطراز الاسلامى وتطوره من جملة نواح• فمما لا شك فيه أن استقرار الأمور واستتباب السلام فى البلاد كانا يساعدان على توجيه النشاط الفنى نحو الانتاج المدنى الخاص بالحياة العادية • وعلى العكس من ذلك فان قيام الحروب أو وجود أخطار تهدد أمن الناس والبلاد كان يتطلب الاستعداد لمواجهة الحرب أو التهديد بها ، ومن ثم فقد كان النشاط الفنى وخاصة المعمارى ، يتجه نحو بناء الحصون وتعزيز الاستحكامات مما ينتج عنه قلة الانتاج فى النواحى المدنية الأخرى •

وليس من السهل أن نضرب أمثلة لذلك أو نتتبع فى وضوح تأثير العامل السياسى على النشاط الفنى فى العصر الأموى لقلة المخلفات التى وصلتنا منه • ولكن يمكن الاشارة الى أن أكثر القصور العربية الاسلامية الأولى التى عثر عليها فى بادية الشام تتميز بجدران قوية مدعمة بالأبراج ومزودة بوسائل للدفاع مثل قصر المشتى (ش : ١٧٣) ، وقصر الطوبة (ش : ١٧٤)وقصر الحير الشرقى [١] والغربى [٢] •

---

(١) E.M.A., I, pp. 330-349, Figs. 403-429, Pls. 54-56.

(٢) سليم عادل عبد الحق : اعادة تشييد جناح قصر الحير الغربى فى متحف دمشق (مجلة الحوليات السورية ، ١٩٥١ — ص ٥٦٠ — ٥٦٥) ، Schlumberger (D.) : Les Fouilles de Qasr al-Hair el-Gharbi (1936-38), Syria, vol. XX, pp. 195-238, Pls. XXVII- XXXIX, and II ill. ; pp. 324-373, Pls. XLIV-XLVII, and 18 ill.

وذلك بسبب وجودها فى مناطق بعيدة عن العمران وتأمينا لسلامة الخليفة والأمراء الذين كانوا يقيمون فيها ٠

وقد كفت تحصينات مدينة دمشق القديمة العرب المسلمين مشقة بناء عاصمة حصينة جديدة ٠ وقامت حصون الاسكندرية بمهمة تأمين سلامة شواطىء مصر ضد غزو البيزنطيين من البحر ٠ وقامت مدينة بلبيس الحصينة بتلك المهمة فى البر ، ومن ثم فقد أسست الفسطاط على هيئة مدينة مفتوحة غير محصنة ٠

واضطر العباسيون لبناء قاعدة حصينة لخلافتهم ببغداد ، وزودوها بكل الوسائل الدفاعية المنيعة ٠ ولما استتب الأمر لهم كان من السهل على الخليفة المعتصم أن يشيد مدينة سامرا مفتوحة بغير تحصينات ، وأمكن بذلك أن تمتد رقعتها على مساحات شاسعة من الأرض وأن يتجه النشاط الفنى نحو بناء القصور والدور وتزيينها وانتاج معدات الحياة العادية ٠

وبادر بجوهر بمجرد دخوله مصر بناء حصن القاهرة الفاطمى ليحمى مدينة مصر أو الفسطاط ، وهى عاصمة الديار المصرية ، من خطر القرامطة الذين كانوا يعدون العدة لفتحها والاستيلاء عليها ، وسبقهم جوهر الى ذلك ٠

ولم يبدأ النشاط الفنى فى مصر يأخذ طريقه العادى فى العصر الفاطمى الا بعد أن تم بناء ذلك الحصن الذى سماه المعز لدين الله بالقاهرة ٠ ثم عاد الاتجاه نحو النشاط الحربى مرة أخرى عندما حدثت المجاعات وقامت القلاقل وانتشرت الفتن أيام الخليفة المستنصر بالله فى أثناء الشدة العظمى ، التى دامت سبع سنوات من سنة ٤٥٧ الى ٤٦٤هـ (١٠٦٥ - ١٠٧٢م) ، واضطر أمير جيوشه ووزيره بدر الجمالى الى تعزيز أسوار حصن القاهرة مرة ثانية ٠ وكان من نتائج تلك الهزة الكبيرة أن تأثر النشاط الفنى المدنى ، ولم يعد الى سابق سيره العادى قبل تلك الهزة ، وظل كذلك فى الفترة الباقية من العصر الفاطمى التى قام فيها الصراع على السلطة بين الوزراء ، بل حتى بعد أن قامت الدولة الأيوبية التى واجهت عواصف الصليبيين وهى فى أوجها ، تلك العواصف التى قامت تهدد الشام منذ أيام الأتابكة ، ثم زحفت الى مصر فى أواخر الدولة الفاطمية ، واستمرت تهدد القطرين طوال العصر الأيوبى وفترة من المملوكى ٠ وكان من نتائج ذلك كله أن زاد النشاط فى العمارة الحربية ، فأعاد صلاح الدين تحصين قلعة القاهرة الفاطمية للمرة الثالثة زمن وزارته للعاضد ، ثم شرع بعد أن قضى على الخلافة الفاطمية ونصب نفسه سلطانا على مصر والشام فى تشييد قلعة الجبل ، وفى احاطة العاصمة كلها بسور قوى من الحجر ، وذلك حول الأحياء التى كانت تتكون منها العاصمة فى ذلك الوقت وهى : القاهرة ، التى

أصبحت حيا من تلك الأحياء ، ومن الفسطاط والعسكر والقطائع وما بينهما من مناطق أهلت بالسكان مع مرور الوقت واتسعت رقعتها حتى ضفة النيل الشرقية كما سيأتى ذكره فى موضعه •

***

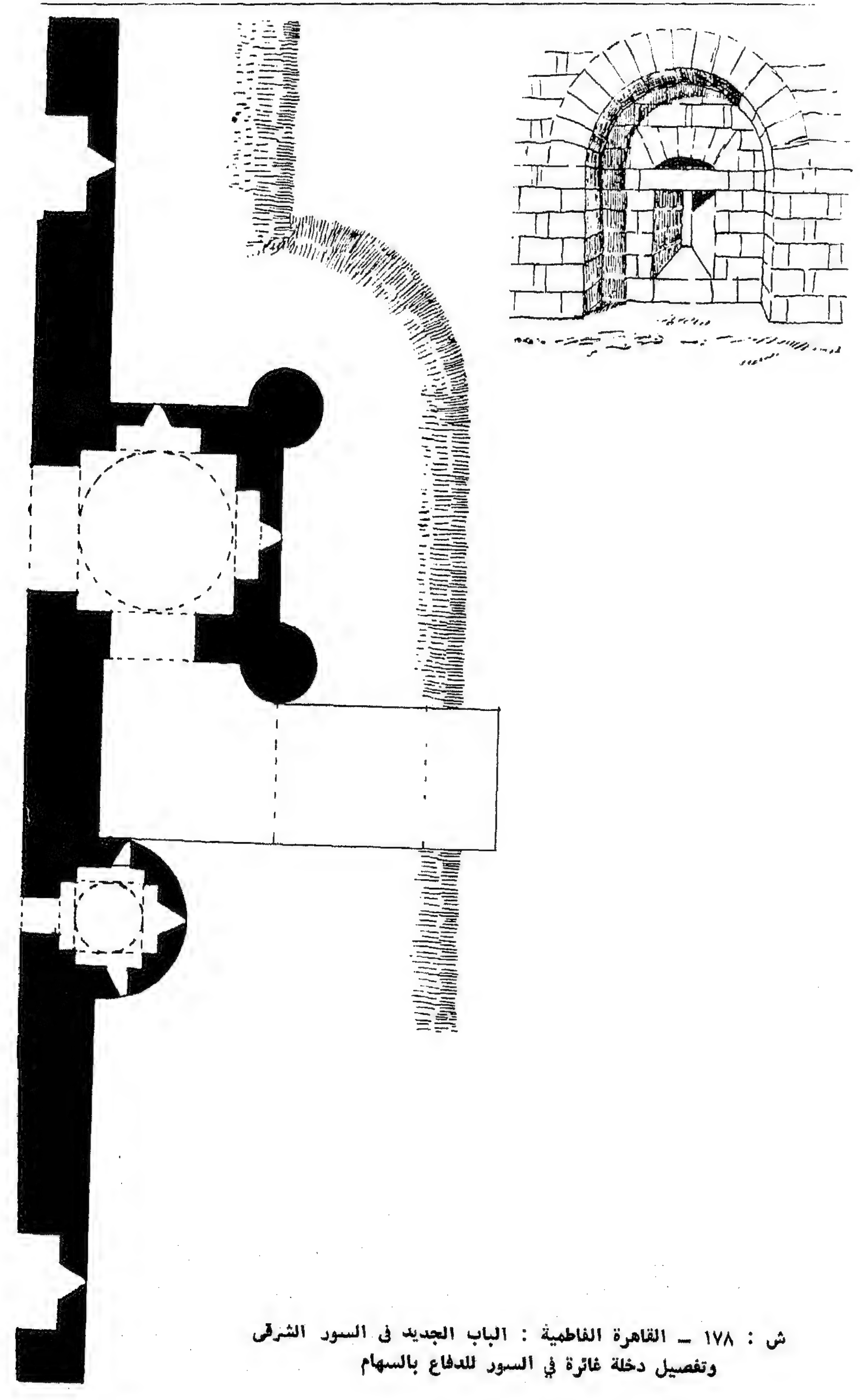
وكان من أهم نتائج الحروب الصليبية أن انتقلت تأثيرات هامة من العمارة والفنون العربية الاسلامية الى أقطار أوروبا بواسطة الجنود أصحاب الحرف ، والصناع الذين كانوا ضمن تلك الحملات الصليبية ، والتى كانت تأتى الواحدة منها تلو الأخرى ، ويعود منها من بقى على قيد الحياة الى موطنه ليزاول فيه مهنته وحرفته متأثرا بما رآه وانطبع فى ذهنه من تقاليد فنية عربية اسلامية • وظهر أثر ذلك جليا فى فنون العصور الوسطى فى أوروبا • ولم يكن هذا هو الطريق الوحيد لدخول التأثيرات الاسلامية الى أوروبا ، بل كان هناك طريقان هامان آخران : هما جزيرة صقلية ، وشبه جزيرة الأندلس • فقد كان من السهل أن تعبر المنتجات والتأثيرات العربية الاسلامية عن طريقهما الى بلاد أوروبا كلها • أضف الى ذلك الطريق البحرى التجارى الذى يصل موانى الأقطار العربية الاسلامية على البحر الأبيض المتوسط بالثغور الأوروبية على نفس البحر ، ومن أهمها مدينة البندقية [1] •

فالعمارة الرومانسكية والقوطية التى سادت بلاد أوروبا كلها فترة خمسة قرون طوال ، من القرن الحادى عشر حتى القرن السادس عشر الميلادى، مدينة الى حد كبير للطراز العربية الاسلامية ، وبخاصة لأساليبها التى كانت قائمة فى مصر والشام ، وبكثير من التفاصيل والظواهر المعمارية التى تميزت بها تلك العمارة الاوروبية الوسيطة • هذا فضلا عن الروح والذوق من الشرق العربى الاسلامى الذين يتجليان فى تلك الطرز الأوروبية • ولا يملك كل زائر شرقى لمدينة البندقية مثلا من أن يحس عند تجوله فى أحيائها القديمة التى تتخللها القنوات أنه محاط بجو ليس غريبا عليه •

وقد بقى ذلك التأثير واضحا الى أن اتجه الفنانون الأوروبيون نحو احياء الفنون

(١) تناول موضوع تأثيرات الفنون الاسلامية على فنون أوروبا فى العصر الوسيط عدة مؤلفين من عرب وغربيين ، منهم زكى محمد حسن : فنون الاسلام ، ص : ٦٥٥ — ٦٦٥ ، حسن الهوارى : أثر الفن الاسلامى فى الحضارة العالمية (مجلة الهندسة ، ج ١٤ : ص : ٧٨ — ٩٠) ، زكى محمد حسن : تراث الاسلام ، وهو ترجمة للكتاب الذى أعده عدة علماء غربيون هم Arnold, Christie :
and Briggs : The Legacy of Islam Fletcher (B.) : A History ofArchitecture , pp. 304, 311-3, 319, 328, 329, 334, etc. ; Lethaby (R.L.) : Architecture, pp. 145, 164-8, 171-3, 177-8, 190-2, 196, 207- 8, etc. ; Devonshire, (Mrs. R.L.) : Quelques influences islamiques sur les arts de l'Europe, (1935).

والحق أن هذا الموضوع شيق الى حد كبير لاتكفى فيه مقالة واحدة أو نبذة قصيرة ، ونرجو أن نعود اليه ونتوسع فى الحديث عنه فى بحث خاص به .



ش : ١٧٨ ـ القاهرة الفاطمية : الباب الجديد في السور الشرقي
وتفصيل دخلة غائرة في السور للدفاع بالسهام

الكلاسيكية القديمة في عصر النهضة ، وعني بعضهم بالزخارف النباتية بوجه خاص متأثرين في ذلك بالروح العربية الاسلامية ، كما ذكرنا من قبل عن الارابسك •

ومن أهم الظواهر العربية الاسلامية التي اقتبست في طرز العصور الوسطى في أوروبا فكرة ملء الشبابيك والفتحات بألواح زخرفية من الزجاج الملون المجمع على بعضه بضلوع من الرصاص ، وهي فكرة مقتبسة من الشمسيات العربية الاسلامية ، أي من الالواح الجص المفرغ فيها وحدات زخرفية ملئت بقطع من الزجاج الملون ، تفصل بينها وتجمعها ضلوع من الرصاص بدلا من الجص ، وأضافوا رسوما وألوانا الى قطع الزجاج ليخرجوا منها لوحات تصور القصص المسيحية والمناظر المختلفة •

ومن الظواهر العربية الاسلامية التي تتضح في عمارة العصور الوسطى في أوروبا أنواع العقود المدببة التي ابتكرها الشرق العربي الاسلامي ، كما حدث مثلا في كنيسة سان فرون في مدينة بيريجيو في فرنسا (ص : ١٣٦ ــ ١١٨ ؛ ش : ٨٣)، ثم العقود ذات شكل حدوة الفرس [١] ، والعقود ذات الدوائر المفصصة والمتشابكة[٢]، وهي عناصر معمارية كانت منتشرة في عمارة الغرب العربي الاسلامي • واقتبست أنواع الأقبية المدببة الطولية والمتقاطعة والمروحية فتطورت منها تلك الأمثلة الرشيقة التي انتشرت في عمارة الكنائس والقصور القوطية في أوروبا والجزر البريطانية •

واقتبست عدة عناصر وأساليب دفاعية اسلامية للحصون والقلاع الأوروبية • فمنها الأبواب المنكسرة التي سماها المؤرخون العرب « بالباشورة » ، وهي التي ينعطف فيها الداخل يمينا ويسارا مرة أو عدة مرات وذلك لعرقلة هجوم من يحاول اقتحام الحصن أو القلعة وتجعل العدو هدفا سهلا للمدافعين • وأقدم أمثلة الباشورة الصريحة في العالم القديم ظهرت في أبواب مدينة بغداد المدورة (ش : ١٣٣، ١٣٤) التي بناها المنصور في سنة ١٤٧ هـ (٧٦٥ م) [٣] • ولم يفلح المستشرقون برغم محاولاتهم أن ينسبوها الى فن من فنون العمارة القديمة السابقة للاسلام [٤] • وتختفي أمثلتها بعد بغداد فترة من الزمن لتظهر بعدها في العصر الأتابكي في الشام أيام الحروب الصليبية ، واستخدمها صلاح الدين للباب الجديد (ش : ١٧٨ ــ ١٨٠) [٥] ، وهو أحد أبواب حصن القاهرة الفاطمية أيام وزارته للعاضد الفاطمية أيام وزارته

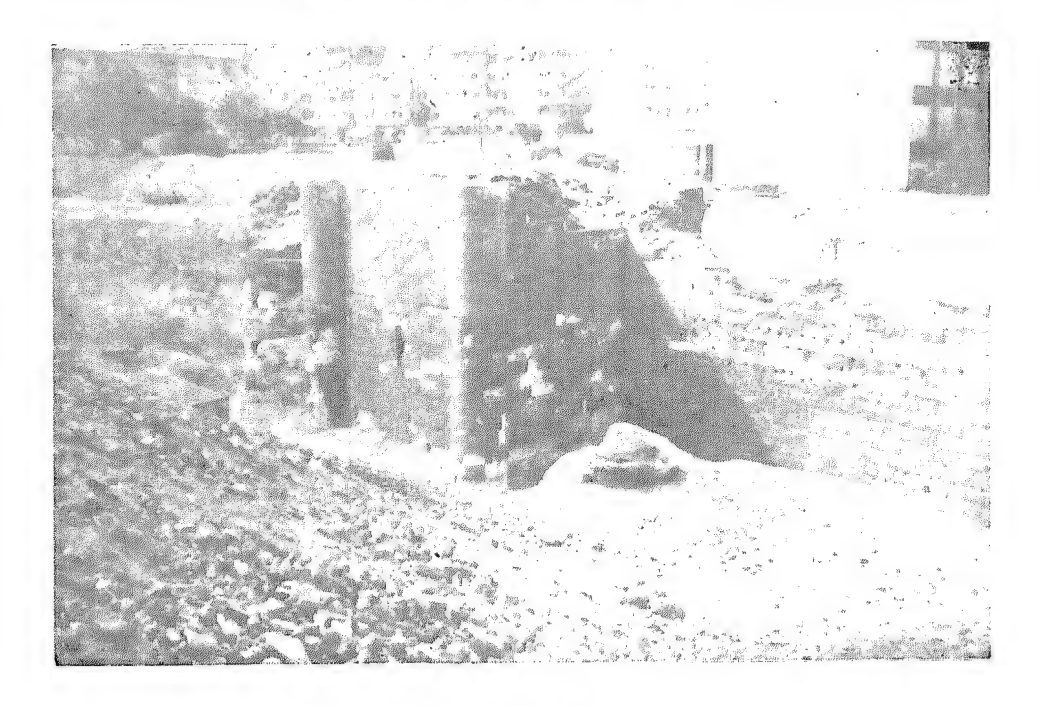
(١) Lethabv : Architecture, p. 164.

(٢) Ibid., pp. 145, 164, etc.

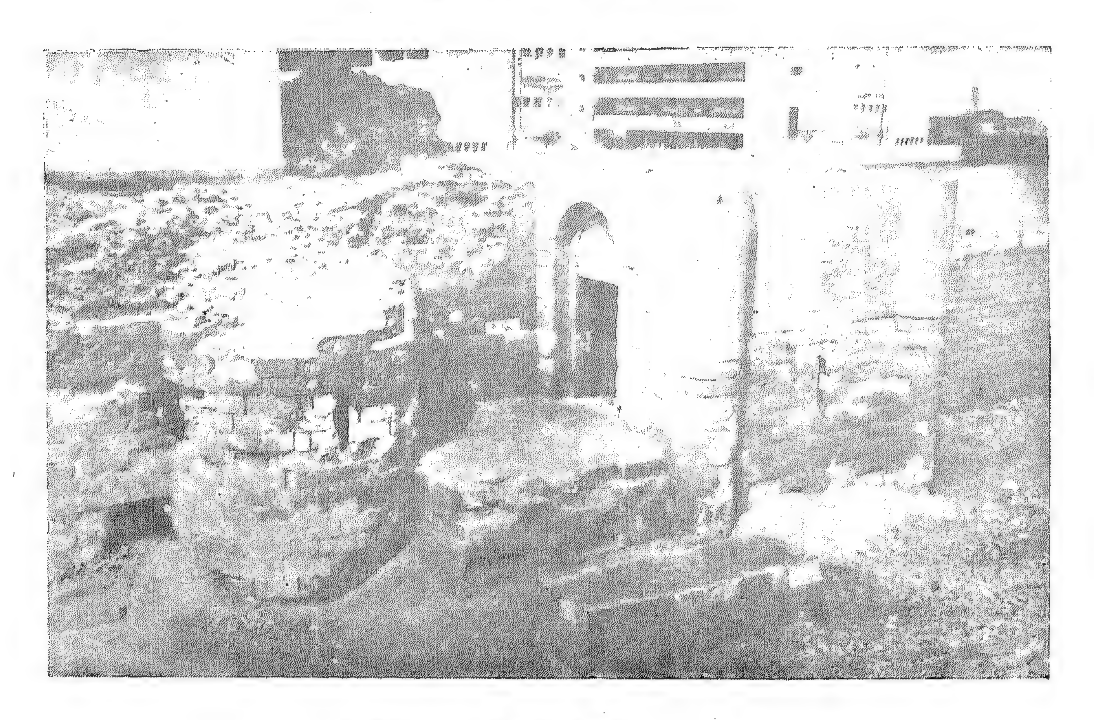
(٣) Archaelogische Reise, II, pp. 106-133, Figs. 180-183 ; E.M.A., II, p. 11, Figs. 3, 5.

(٤) E.M.A., II, pp. 23-29, Figs. 14-23.

(٥) M.A.Eg., II, pp. 42-3, Figs. 16, 21, Pls. 14 b, 16.



ش : ١٧٩ ــ القاهرة الفاطمية : الباب الجديد
(منظور من الشمال الشرقى)



ش : ١٨٠ ــ القاهرة الفاطمية : الباب الجديد
(منظور من الجنوب الشرقى)

للعاضد الفاطمى بين سنتى ٥٦٤ ـ ٥٦٧ (١١٦٩ ـ ١١٧٢م) ، ثم استعملها فى العصر الأيوبى للأبواب فى أسوار العاصمة مصر ، وأبواب قلعة الجبل [١] التى شيدها سنة ٥٧٢هـ (١١٧٦م) .

ومنها عنصر السقاطات Machicoulis ، وهى كما سبق القول شرفات بارزة لها جدران من البناء توضع فى الأسوار ، وبخاصة فوق الأبواب ، وذلك لاسقاط الأحجار والسوائل الملتهبة ولرمى السهام والحراب من الفتحات الموجودة فى أرضياتها البارزة على المهاجمين . وكانت السقاطات معروفة فى الشام العربى قبل الاسلام (ش : ٩٢) ، وانتشر استعمالها فى العصرين الأموى (ش : ١٣٥ ، ١٣٦) [٢] والعباسى [٣] (ص : ١٩٣) .

وكذلك فكرة القناطر المتحركة التى تصل بين الأبواب وبين ضفاف الخنادق والقنات المحيطة بالحصون بحيث ترفع تلك القناطر عند التهديد بالهجوم . ويوجد أقدم مثل اسلامى منها فى السور الشرقى لحصن القاهرة الذى شيده صلاح الدين عندما كان وزيرا فاطميا (ش : ١٧٨ ـ ١٨٠) .

واقتبس الأوروبيون لحصونهم من أساليب الدفاع العربية الاسلامية فكرة الأبواب المصنوعة من القضبان الحديدية القوية المتشابكة وتنتهى من أسفلها بسنان حادة كالحراب وتنزلق بثقلها الكبير رأسيا وتسمى بالافرنجية Portcullis ولا يمكن رفعها الا بواسطة الحبال والبكرات من داخل الحجرات المعدة لذلك فوق الأبواب . وتوجد قنوات رأسية فى أبواب قصر الأخيضر العباسى (١٥٩هـ / ٧٧٦م) تنبىء عن أن أبوابا حديدية من ذلك النوع كانت مستعملة فيه [٤] (ص: ١٩٦-١٩٧).

وتمتاز مدينة البندقية بمظهر شرقى عربى اسلامى جذاب اكتسبته نتيجة للصلات التجارية والحربية التى كانت قائمة بينها وبين اقليمى مصر والشام ، بالاضافة الى صلة تلك المدينة بالغرب العربى الاسلامى . ولقد قامت عدة مصانع فى البندقية وفى غيرها من مراكز الصناعة فى شمال ايطاليا وجنوبها بتقليد التحف والمنتجات الاسلامية التى كان يقبل كثير من الأوروبيين على اقتنائها ، مثل المنسوجات والطنافس والتحف الزجاجية ، وخاصة من النوع المموه بالمينا الذى اشتهر به العصر المملوكى . ولا زالت

(١) M.A.Eg., II, pp. 14-16, 18-20, 33-35, Figs. 1, 6, 8, 15, Pls. 5 d-c, 6 a, e, 7.

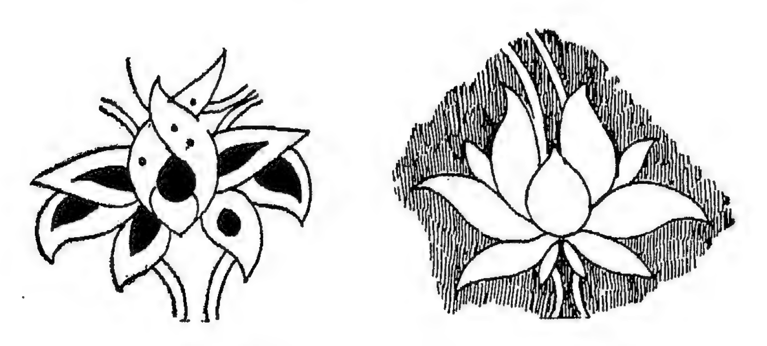
(٢) E.M.A., I, Fig. 427 ; M.A.Eg., I, pp. 185, 194-195, Fig. I, Pls. 55-59 ; Ibid., II, pp. 13, 24, 60-62, Pls. 6, 8, 9 a-b, 10 a, 13.

(٣) E.M.A., II, pp. 58-61, Fig. 39 ; Ibid., I, pp. 334, 336, 345-347, 410, Figs. 409, 425-428, Pls. 54, 56.

(٤) E.M.A., II, pp. 57-61, Figs. 48, 60, 61, 64.

تظهر منه حتى الآن تحف مقلدة تتراوح درجة الاتقان فى تزييفها ، وقد وصل بعضها درجة من الدقة يلتبس معها الأمر على المختصين .

وقد واجه المماليك فى بدء نشأة دولتهم عاصفة المغول الهوجاء التى اكتسحت فارس والعراق ، ونجح المماليك فى القضاء على تلك العاصفة وردوا المغول وألزموهم بالتراجع عن حدود الشام . ومن ثم فقد اتجه النشاط الفنى فى مصر والشام بعد هدوء تلك الحروب نحو الانتاج المدنى على نطاق واسع ، ووصلنا من العصر المملوكى عدد عظيم من أنواع العمائر والتحف الزخرفية . وكانت عاصفة المغول من ناحية أخرى سببا فى هجرة خلق كثير من فارس والعراق نحو الشام ومصر ، وكان من بينهم فنانون نقلوا معهم أساليبهم الفنية والصناعية من فارس والعراق ، مثل التكفيت فى المعادن ، أى التطعم بالفضة والذهب ، والزجاج المموه بالمينـاء ، ونسج الحرير وغير ذلك . وعندما توثقت العلاقات السياسية بعد ذلك بين المماليك والمغول ظهرت تأثيرات صينية جديدة على أساليب الصناعة فى مصر ، كما ظهرت عناصر نباتية جذابة جديدة بين الزخارف العربية الاسلامية كان على رأسها زهرة اللوتس الأسيوية التى تطورت الى أشكال عربية اسلامية غاية فى الابداع (ش : ١٨١ ، ١٨٢) [١] .



ش : ١٨١ ، ١٨٢ — اللوتس الاسلامية

وقامت علاقات ودية أخرى بين سلاطين المماليك وعلى الأخص بين الناصر محمد بن قلاوون فى مصر وبين ملك أوريجون المسيحى فى الأندلس ، وفتحت بذلك أبواب التبادل التجارى على نطاق واسع . ويدل على ذلك ماعثر عليه فى أكوام المخلفات فى الفسطاط من كميات وفيرة من شقف الخزف من نوع من البريق المعدنى يتميز بأسلوب صناعى وزخرفى ذى طابع أندلسى واضح [٢] .

(1) Farid Shafei : Simple Calyx Ornaments, Figs.

(٢) متحف الفن الاسلامى .

العامل الجغرافى :

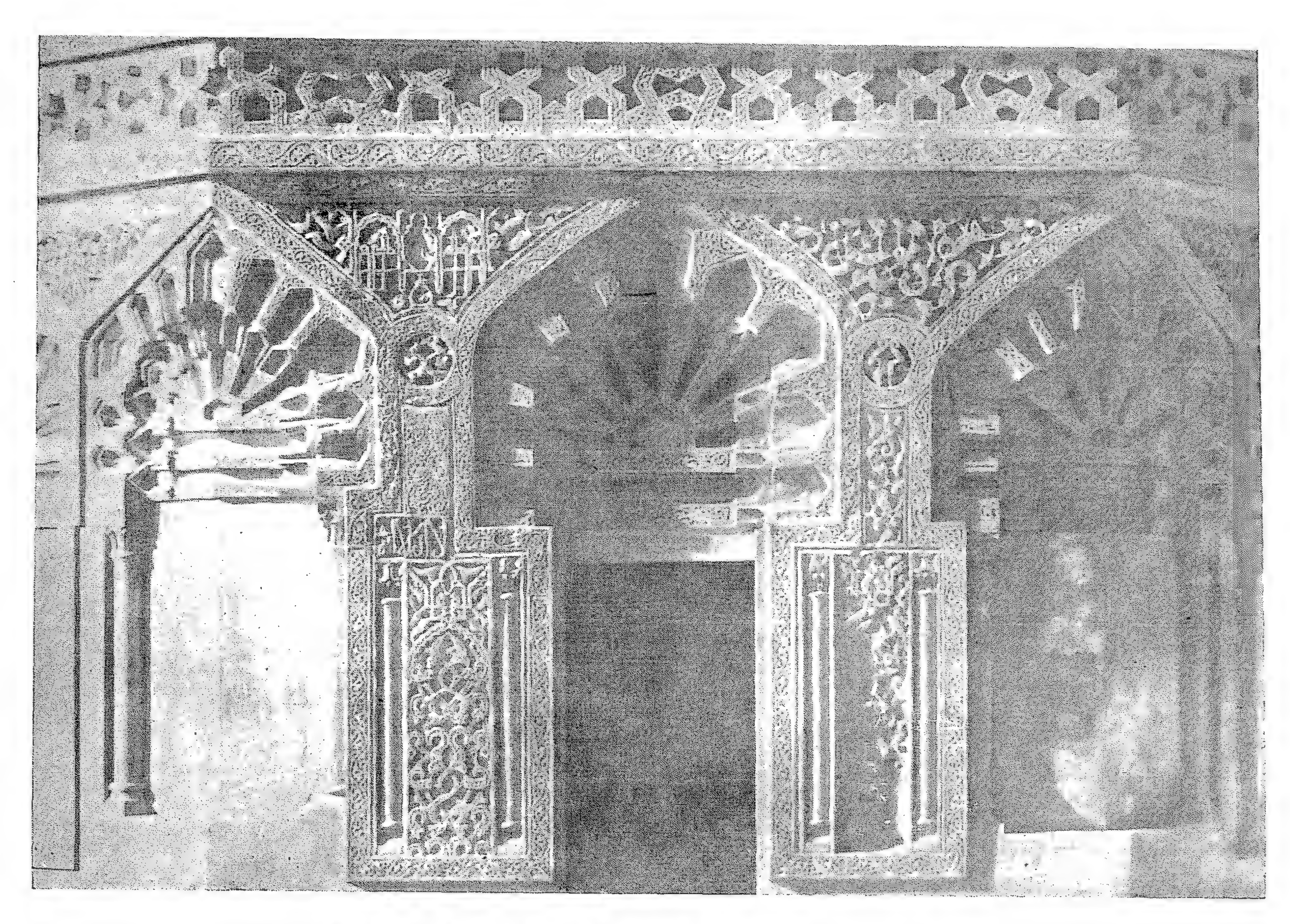
يشمل هذا العامل فى حقيقة أمره عدة نواح :

فمنها الموقع الجغرافى للأقطار العربية الاسلامية بالنسبة لبعضها ولبقية أقطار العالم الأخرى المعروفة ؛ ومنها حالة المناخ ؛ ثم التكوينات الجولوجية فى كل منها . وكان لكل ناحية منها أثرها على تطور العمارة العربية الاسلامية .

فمن حيث الموقع الجغرافى كانت أقطار الشرق العربى الاسلامى أقرب اتصالا ببعضها ، فكانت تنتقل التقاليد المعمارية بينها فى سرعة وسهولة نسبيتين ، جعلت لها فى مجموعها طابعا يتميز فى الطابع العام عما كان يعاصرها فى أقطار غرب العالم العربى الاسلامى . ولا شك أن ذلك يعود الى الصحراء الغربية للقطر المصرى والتى كانت تفصل بينها وبين اقليم برقة ، المعروف اليوم بليبيا ، والذى لم يكن أكثره معمورا مثلما هو الآن ، حتى قرب حدود اقليم افريقية ، المعروف اليوم بتونس .

ولم تكن قسوة تلك الصحراء فى أول الأمر لتقف أمام اصرار العرب فى العصر المبكر على نشر الدعوة الاسلامية فى شمال القارة الافريقية ، ولم تكن لتمنع تلك القوى العربية المتجمعة الهائلة من أن تعبر الفيافى والقفار فى موجات متلاحقة ، وتطوى الصحراوات مهما بلغت من القسوة ، هادفة الى اتمام الغزوات والفتوح طوال ما يقرب من قرنين . ونجح ذلك الاخلاص والاصرار فى تثبيت أركان الدعوة الاسلامية . ومن ثم فقد أقبل أهالى تلك الأقطار على اعتناق الاسلام ، وربطتهم بالفاتحين العرب روابط المصاهرة والتزاوج . فجمعت الدماء العربية الاسلامية بين الناس فى جميع الأقطار التى دانت للاسلام فى الشرق والغرب .

ولكن ما أن ركن الخلفاء العباسيون الى الدعة والأخذ بأسباب الترف حتى أخذت نفوس ولاتهم فى أنحاء الدولة تحدثهم بالاستقلال بالبلاد التى أسند اليهم حكمها . وكان بعضهم ينجح فى ذلك فترة من الزمن تطول أو تقصر حسب الظروف لتعود تلك الأقطار مرة أخرى الى أحضان الخلافة ، الى أن يقوم حاكم آخر بمحاولة جديدة ، وهكذا دواليك . وكانت النتيجة الطبيعية المنتظرة لتلك المحاولات والظروف أن تطرق التفكك الى تلك القوى الأولى التى كانت تكتسح الصعاب والعراقيل بتجمعاتها المترابطة . ومن ثم عادت الصحراء العربية الى فرض هيبتها والوقوف بقسوتها أمام التجمعات التى تحاول عبورها الى الغرب . والحق أن ضعف الخلافة العباسية الذى وضحت معالمه فى القرن الثالث الهجرى لم يكن يسمح بايفاد حملات يخشى خطرها كما كان يحدث فى الزمن السابق .



ش : ١٨٣ – الفسطاط : ضريح الامام الشافعى – الركن الشرقى لقاعدة القبة

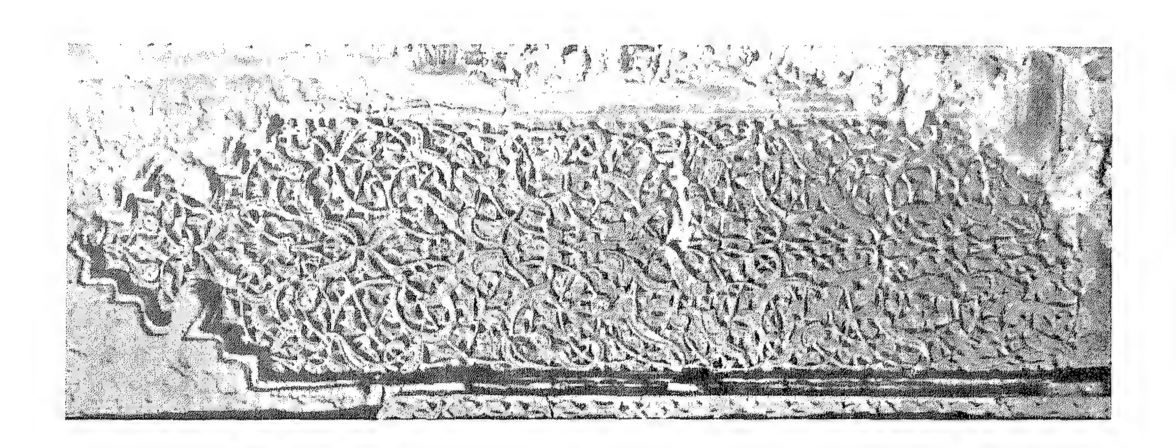
ولكن لا يجب أن يتبادر الى الذهن بأنه قامت عزلة بين شرق العالم العربى الاسلامى من ناحية وغربه من ناحية أخرى نتيجة لضعف الروابط السياسية ، فان الروابط الدينية والثقافية والحضارية كانت قد توطدت الى الحد الذى لم يكن ليضعفها أى عامل مهما بلغ من القوة • فبقيت أواصر القربى والدم العربى والدين واللغة والتقاليد الاسلامية التى انتقلت من قبل مع الموجات الأولى الى الغرب تجمع بين المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، وبقيت الصلات بينهما قائمة لا تنفصم والزيارات والرحلات لا تنقطع ، وبخاصة من الغرب الى الشرق ، حيث كان يعبر الأفراد والجماعات الصحراء او البحر الى مصر ، وذلك بقصد الحج الى اراضى الحجاز المقدسة، أو بقصد الهجرة فرارا من ضغط حاكم أو من ضعف رزق أو طلبا لعلم •

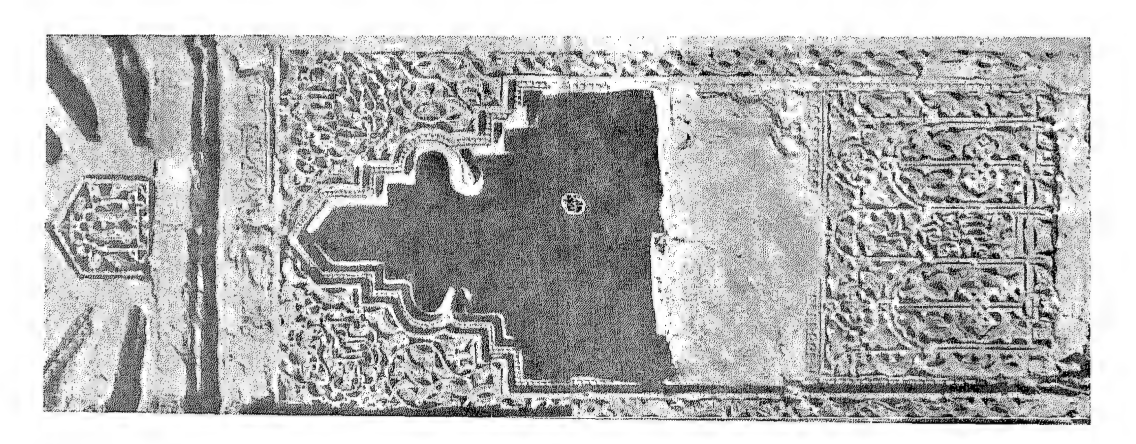
وقد حدث نفس الشيء مع تقاليد العمارة والفنون العربية • فان الموجات الأولى التى كانت تتوالى على الغرب الاسلامى آتية من الشرق قد حملت معها التقاليد المعمارية التى فرضها الدين الاسلامى والمجتمع العربى منذ البشائر الاولى للحضارة العربية الاسلامية الى أقطار الغرب الاسلامى ، وذلك من حيث التخطيطات الجديدة للعمائر الاسلامية بأنواعها ، مصحوبة بالوحدات والعناصر والزخارف التى اقتبسها الفنانون العرب من الطرز البيزنطية والساسانية وأخضعوها للطابع الاسلامى ثم التى ابتكروها•

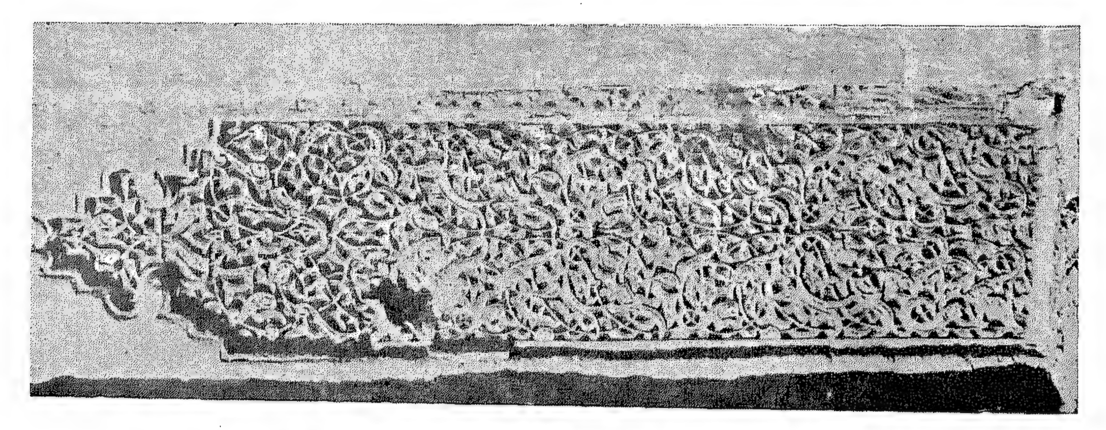
لا غرو اذن فى ان يبقى ذلك الطابع الاسلامى يجمع بين العمارة والفنون فى الأقطار الشرقية وبينها فى الاقطار الأفريقية والاندلس نتيجة لوحدة الأسس والتقاليد • غير أن الصحراء الغربية قد جعلت مصر وأقطار الشرق مثل الشام والعراق وفارس أكثر تقاربا من ناحية مراحل تطور العمارة فيها ، وجعلت الأقطار الغربية فى شمال أفريقية متقاربة من جهة أخرى فى تلك النواحى •

مثال ذلك أن القفزة الكبيرة التى قطعتها الزخارف وأساليبها العربية الاسلامية فى أثناء بناء مدينة سامرا فى شمال بغداد قد أحست بها جميع أقطار الشرق الاسلامى وتأثرت بها المدارس الفنية المحلية فى كل منها الى درجة كبيرة • بينما قصرت موجات تأثير تلك الزخارف عن أن تصل الى أقطار الغرب الا رذاذا لم تلبث التيارات المحلية هناك أن جرفته وكأن رمال الصحراء الغربية قد ابتلعته ، كما ابتلعت غيره من التأثيرات التى يحتمل أن يكون قد قدر لها الانتقال الى الغرب •

كذلك لم تكن صعوبة المواصلات وقسوة الصحراء لتقف أمام العرب المسلمين الافريقيين والأندلسيين فى الانتقال الى الشرق للاتصال بمركز اشعاع الدين والثقافة الاسلامية فيه ، حيث توجد البقاع المقدسة عند المسلمين ، وحيث يوجد أئمة الدين الذين طبقت شهرتهم الخافقين •







ش : ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ـ القاهرة : مئذنة الباب الاخضر ، حشوات من الزخارف الجصية

وتحدثنا كتب التاريخ والرحلات والجغرافيا والعلوم الدينية والدنيوية عن زيارات وهجرات قام بها أفراد وجماعات من العرب المسلمين من افريقية والأندلس الى مصر والأقطار الاسلامية في الشرق . كذلك يوجد فى القاهرة عدد كبير من العمائر تحدثنا تفاصيل وزخارف فيها عن زيارات وهجرات ورحلات قام بها فنانون من العرب المسلمين من أقطار الغرب ومرّوا بمصر أو استوطنوا بها . وقد أفردنا من قبل مقالة طويلة عن أعمالهم فيها [١] ، ونذكر منها على سبيل المثال الزخارف الجصية فى واجهة قاعدة قبة الامام الشافعى (ش : ١٨٣) ، وزخارف قاعدة مئذنة البـاب الأخضر (ش : ١٨٤ – ١٨٦) .

ومن جهة أخرى فان خصوبة مصر ورغد العيش فيها ثم بعدها عن أخطار المغول الذين قامت عواصفهم من وسط آسيا تكتسح الأقطار وتلتهم الناس ، قد جعلت من الديار المصرية خير ملجأ يتوفر فيه الأمن والعيش . فهاجر اليها كثير من مسلمى الفرس وعرب العراق والشام فى القرن السابع الهجرى (١٣م) ، مما جعل تأثيرات معمارية وزخرفية تظهر فى مصر فى ذلك القرن والذى يليه . ونضرب لذلك مثلا بالنهايات العليا من النوع البصلى لمئذنتى جامع الناصر محمد بالقلعة (ش : ١٨٧ ، ١٨٨) [٢] ، ويؤرخ فى سنة ٧٣٥ هـ (١٣٣٥ م) ، وهو الشكل الذى نراه فى بعض القباب التى شيدت فى ذلك العهد مثل قبتى التربة السلطانية (ش : ١٨٩) [٣] ، وتؤرخ فى القرن الثامن الهجرى (١٤م) ، الى غير ذلك من الأمثلة .

ولا نظن أن مركز مصر الجغرافى يخاف على أحد ، أو أن الدور الخطير الذى قامت به مصر بسبب ذلك الموقع فى حضارة العالم منـذ أقدم العصـور وخاصة فى العصور الاسلامية المختلفة يحتاج الى شرح طويل أو توضيح ، فان أهمية مصر لم تقتصر على الدور الذى أدته فى فجر الاسلام من حيث اتخاذها معبرا الى أقطار شمال افريقيا والأندلس لفتحها ونشر العروبة والاسلام فيها ، بل عظمت وزادت بعد تقلص نفوذ الخلافة العباسية ، وأخذت الأقاليم الاسلامية يستقل الواحد منها بعد الآخر . فقامت فى مصر خلافة قوية مستقلة ، وأصبحت مركزا مرموقا تتلاقى عنده وتشع منه تيارات الحضارة العربية الاسلامية التى ربطت وستظل تربط الشرق الاسلامى وغربه بعضهما ببعض .

---

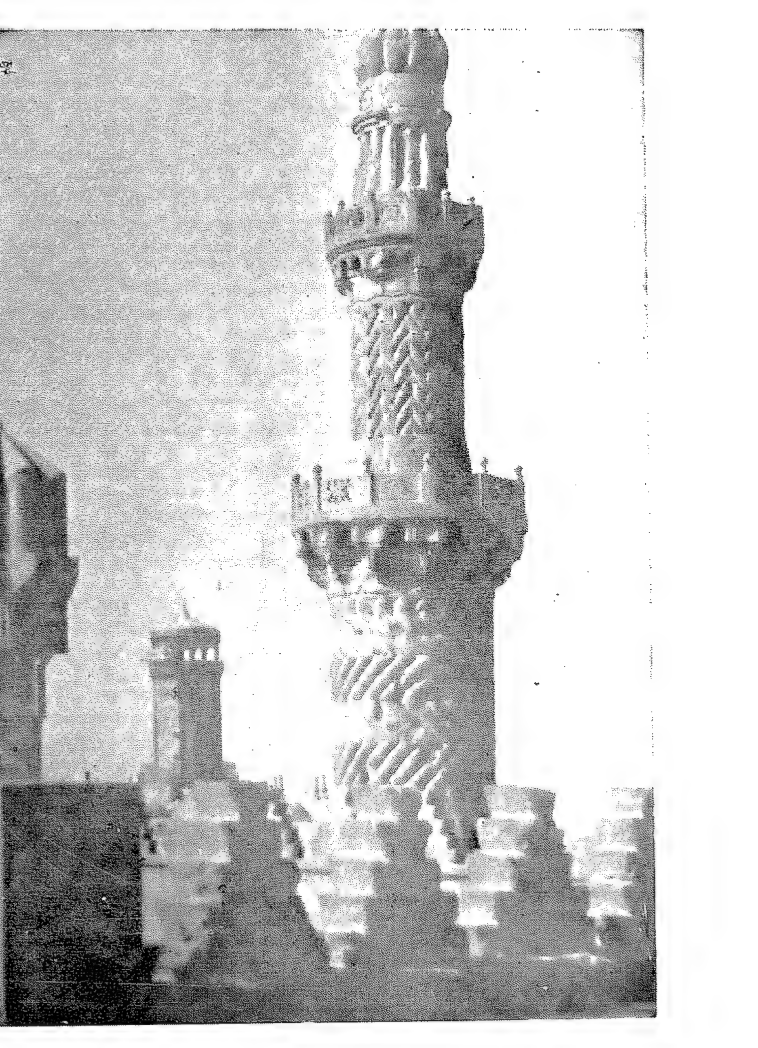
(١) Farid Shafei : West Islamic Influences on Architecture in Egypt (Before the Turkish Period), Bull. of the Faculty of Arts, Cairo University, vol. XVI, Pt. II (Dec. 1954), pp. 1-49, Figs. 1-41, Pls. 1-17.

(٢) Hautecoeur and Wiet : Les Mosquées du Caire, vol. II, Pls. 90.

(٣) Ibid., II, Pl. 117.



ش : ١٨٧ ـ المئذنة الشمالية الشرقية



ش : ١٨٨ ـ المئذنة الجنوبية الغربية

القاهرة : قلعة صلاح الدين ـ مئذنتا جامع الناصر محمد

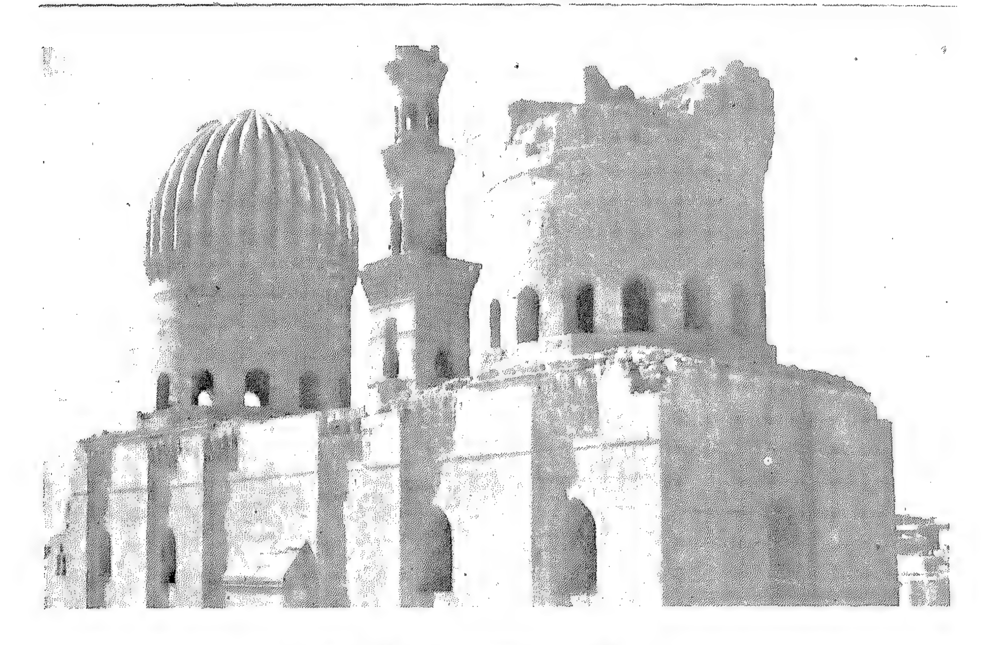
كما أتاح ذلك المركز الجغرافى لمصر أن تصبح أيضا حلقة الاتصال الرئيسية بين تجارة الشرق الأقصى ومنتجاته ، وبين بلاد اوروبا التى كانت تتلهف منذ وقت طويل على الحصول على تلك المنتجات من أنواع التحف والبهارات والعطارة • فكانت أما أن تُحمل بالسفن الى موانىء مصر على بحر القلزم ـ البحر الأحمر ـ ثم تعبر برا الى البحر الأبيض المتوسط ، أو تحملها القوافل عبر أراضى آسيا الوسطى وفارس والعراق الى الشام ومصر •

وكان من الطبيعى أن تتأثر منطقة فارس والعراق بما كان يصل اليها ويمر بها من منتجات الصين والشرق الأقصى ، فوجد بعضها سوقا رائجة هناك ، وتأثرت به أنواع الفنون ، وظهر تأثيرها فى بعض أنواع الخزف (1) • كما كان يستمر البعض الآخر نحو الشام ومصر ، ليجد أسواقا أخرى فيهما أو يعبر من موانيها الى اقطار أوروبا •

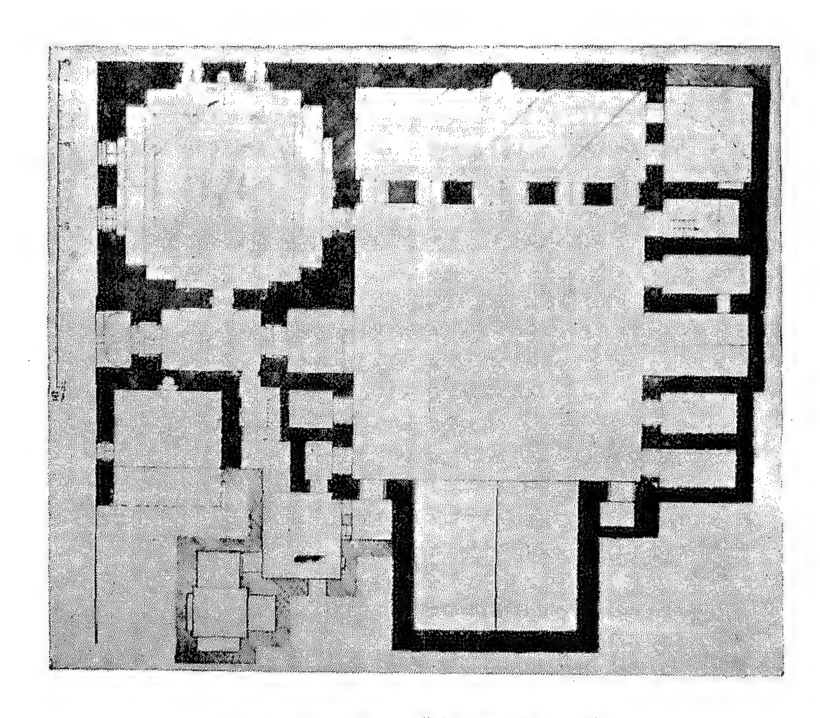
ولا شك أن معرفة الأوروبيين بالشرق ومنتجاته وما فيه من محصولات قد جذبت انظارهم وجعلتهم يسعون الى الحصول عليها بكل الطرق • وكانت تلك احدى النتائج غير المباشرة للحروب الصليبية التى جعلت الأوروبيين يطلعون على ما فى الشرق الأوسط من حضارة وما فى الشرق الأقصى من خيرات • وتفتحت اذهانهم عن المكاسب التى يمكن الحصول عليها من التجارة فيهما ، مما جعل حجم التجارة يزداد بين بلاد أوربا وبين البلاد العربية الاسلامية وخاصة مصر والشام • وقد زاد ذلك من ثروة المماليك فقد أصبحت موانى مصر على بحر القلزم فى عهدهم ، ، أى البحر الأحمر ، ترد اليها منتجات الشرق الأقصى مباشرة عن طريق البحر ، والى ميناء عيذاب بوجه خاص ، ومنها الى قوص أو أسوان ، ثم تتخذ طريقها صاعدة فى النيل نحو الشمال ، أو تعبر الأراضى المصرية الى موانيها على البحر الأبيض • واستغل سلاطين المماليك تلك الفرصة ، وغالوا فى استخلاص أكثر ما يمكن من الربح منها• ولعل هذا ما حدا بالأوروبيين الى محاولة الاتصال المباشر بأقطار الشرق الأقصى عن طريق الأسفار التى قام بها الرحالة والمستكشفون من الأوربيين • وقد نجحوا فى محاولاتهم وعقدوا الصفقات التجارية معها ، ونقلوا بضاعتها عن طريق رأس الرجاء الصالح بعد اكتشافه ، وبذلك تم القضاء على مورد كبير للمماليك وللديار المصرية • وحدثت تلك الكارثة الاقتصادية مع الكارثة السياسية التى وقعت بمصر اثر اكتساح

---

(1) زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ، زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ـ صفحات ١٧٥ ، ١٨٥ ، ١٦٥ ـ ١٧٢ ، زكى محمد حسن : أطلس الفنون الاسلامية ـ صفحات ٢ ، ٣٥ ، زكى محمد حسن : فنون الاسلام ـ صفحات ٢٦٩ ـ ٢٧٠ ، ٣٢٠ ، Hobson : A Guide Book of the Islamic Pottery of the Near East, pp. 61, 72-3.



ش : ١٨٩ ـ القاهرة : التربة السلطانية



ش : ١٩٠ ـ دمشق : مدرسة نور الدين

العثمانيين لها وفتحهم اياها ، وأصبحت تابعةبعد أن كانت متبوعة ، وذاقت من الذل على أيدى العثمانيين ما لم تره فى تاريخها الطويل منذ العصور الفرعونية ، اللهم الا أيام استعمار الرومان لها ، ومن جاء بعدهم من البيزنطيين •

وكل ذلك يفسر الدور الكبير التى قامت به مصر من حيث نقل التأثيرات المعمارية الاسلامية الى بلاد أوروبا فى العصور الوسيطة • فلم يكن ذلك قاصرا على أيام الحروب الصليبية ، بل كان موقعها على الطريق التجارى الى البلاد الأوروبية طريقا آخر لايصال تلك التيارات المعمارية اليها •

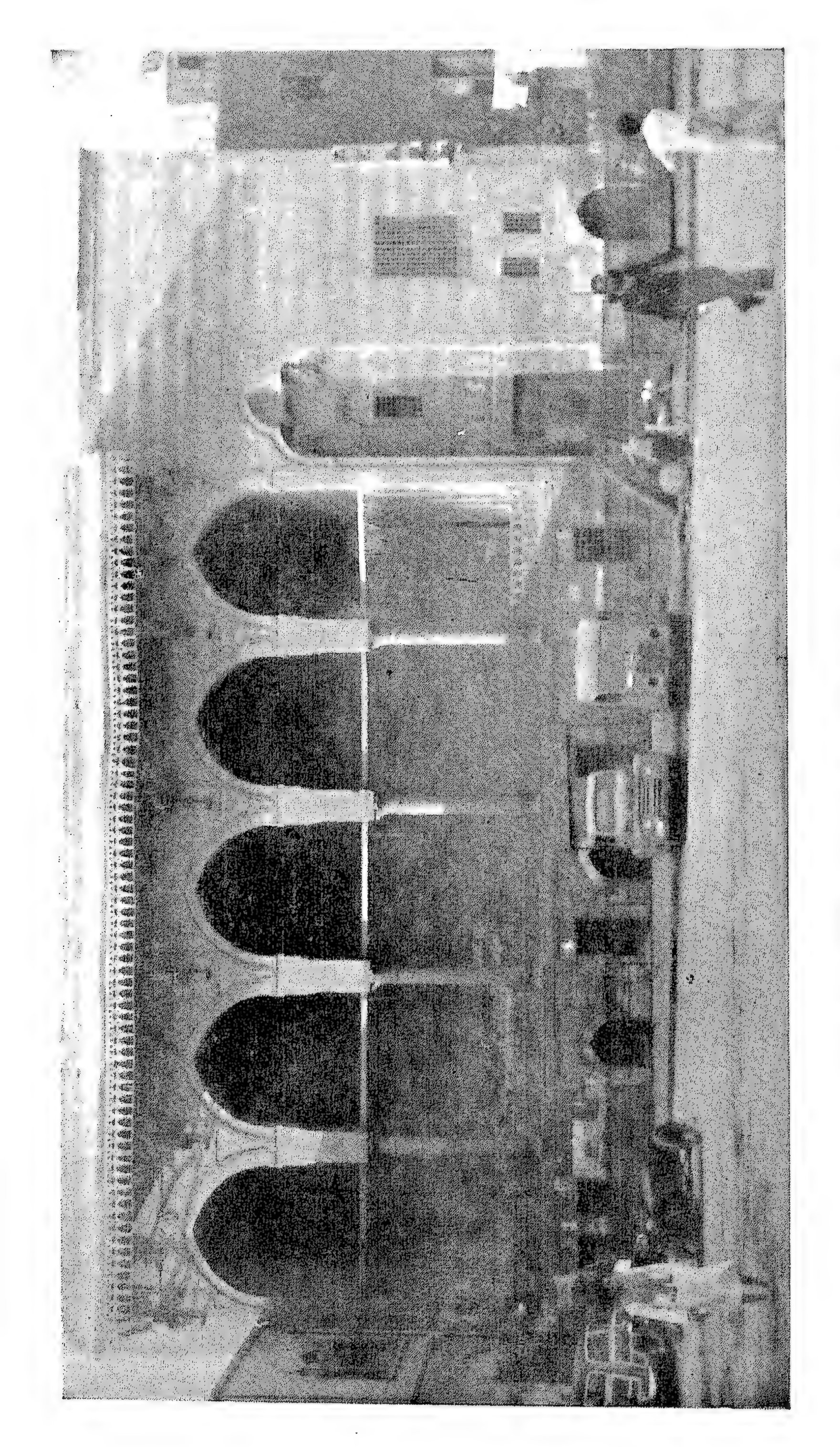
***

ومن أهم نتائج تأثير العامل الجغرافى اتجاه الناس الى التجمع فى السهول والوديان وعلى ضفاف الانهار وحول موارد المياه العذبة التى تساعد على يسر المعيشة• ونجد أصدق أمثلة لذلك فى مصر وبلاد العراق • اذ بقيت فى كل منهما اثار توضح قيام حضارات عريقة فى القدم يصل تاريخها الى نحو أربعه الاف سنة ، بل الى عصور ما قبل التاريخ • وكانت تلك الحضارات ذات نضج وقوة وسطوة خضعت لها الامم والمناطق التى كانت تحيط بها أو كانت قريبة منها • ولكن ما يكاد القوم فى تلك المناطق السهلة يركنون الى الترف والدعة حتى يصبحوا هدفا لأقوام آخرين يعانون من قسوة الطبيعة الجغرافية فى موطنهم ، فما يجدون فرصة فى بقاع تشتهر بالغنى وتكثر فيها الثروات بحيث توفر عيشا أيسر الا ويحاولون الاستيلاء عليها مرة أخرى الى أن تضعف أمامهم وتقع فى قبضتهم •

نرى لذلك مثلا فيما حدث من قيام الفاطميين فى افريقية ، تونس اليوم • وما أعدوه من حملات متتابعة لفتح مصر ، الى أن نجحت الحملة التى أوفدها المعز لدين الله • ثم استمر الفاطميين يتمتعون برغد العيش وطيب الاقامة مع بعض الشدة والعسر فى بعض الأحيان حتى بلغ ضعف الخلافة منتهاه ، فكان ذلك ايذانا بزوالها وقيام دولة الأيوبيين ، وهكذا دواليك •

ومن الواضح أن مثل تلك الأحداث فى أى قطر من الأقطار كان لها أثرها على النشاط المعمارى من حيث أنواع العمائر وطابع الطراز نفسه •

كذلك يتحايل الناس فى المناطق التى تصعب فيها الحياة على تيسيرها بقدر ماوسعهم الجهد • وتأتى مشكلة الحصول على المياه فى مقدمة المشاكل التى تشغل بالهم ، فيعملون على توفيرها بشتى الطرق • فمنهم من يقيم السدود لحجز مياه السيول التى تنتج من الأمطار • ومنهم من يختزنها فى صهاريج تحت الأرض مثلما كان يحدث



ش : ١٩١ – القاهرة الفاطمية : مقعد قصر ماماى السيفى (المعروف ببيت القاضى)

فى الشام ، وبقى منها أثر اسلامى معروف بصهريج الرملة ويؤرخ فى ١٧٢ هـ (٧٨٩ م) ، ويمتاز بأهمية معمارية خاصة بسبب ما فيه من خصائص من العمارة الاسلامية تتمثل فى التكوين [١] المعمارى ، وذلك من ناحية تقسيم المسقط الى عدة مناطق بواسطة أكتاف شيدت بالحجر على عكس ما كان يفعله البيزنطيون من استخدام الأعمدة المنتزعة من المعابد الرومانية والاغريقية (ص : ١٥٣ — ١٥٤) . كذلك يمتاز صهريج الرملة بنظام خاص فى تغطيته بأقبية طولية تقطعها بائكات عرضية . ومما يستوقف النظر أن هذا النظام قد اتبع فى أثر اسلامى آخر ولكنه شيد فوق ظهر الأرض ويوجد فى مدينة سوسة فى تونس هو جامع بوفتاتا الذى يؤرخ فى سنة ٢٢٣ — ٢٢٦ هـ (٨٣٨ — ٨٤١ م) [٢] .

وكان هناك نوع آخر من الصهاريج لخزن المياه فوق سطح الأرض على هيئة أحواض مختلفة الأحجام والأشكال . ومنها صهاريج القيروان التى تؤرخ فى ٢٤٦ — ٢٤٨ هـ (٨٦٠ — ٨٦٢م) [٣] .

ومن الناس من كان يتحايل على جذب الماء الى المواضع البعيدة عن موارده بواسطة قناطر تشيد لتحمل فوق ظهرها مجرى ينقله مسافات طويلة . وكان الرومان أكثر الناس اقبالا على بناء تلك القناطر ، واقتبسها منهم البيزنطيون ، ثم انتقلت الى العصر الاسلامى . وبقيت آثار منها فى مصر ، منها قناطر أحمد بن طولون (ص : ٥٠١ — ٥١٠) وقناطر الناصر محمد بن قلاوون .

* * *

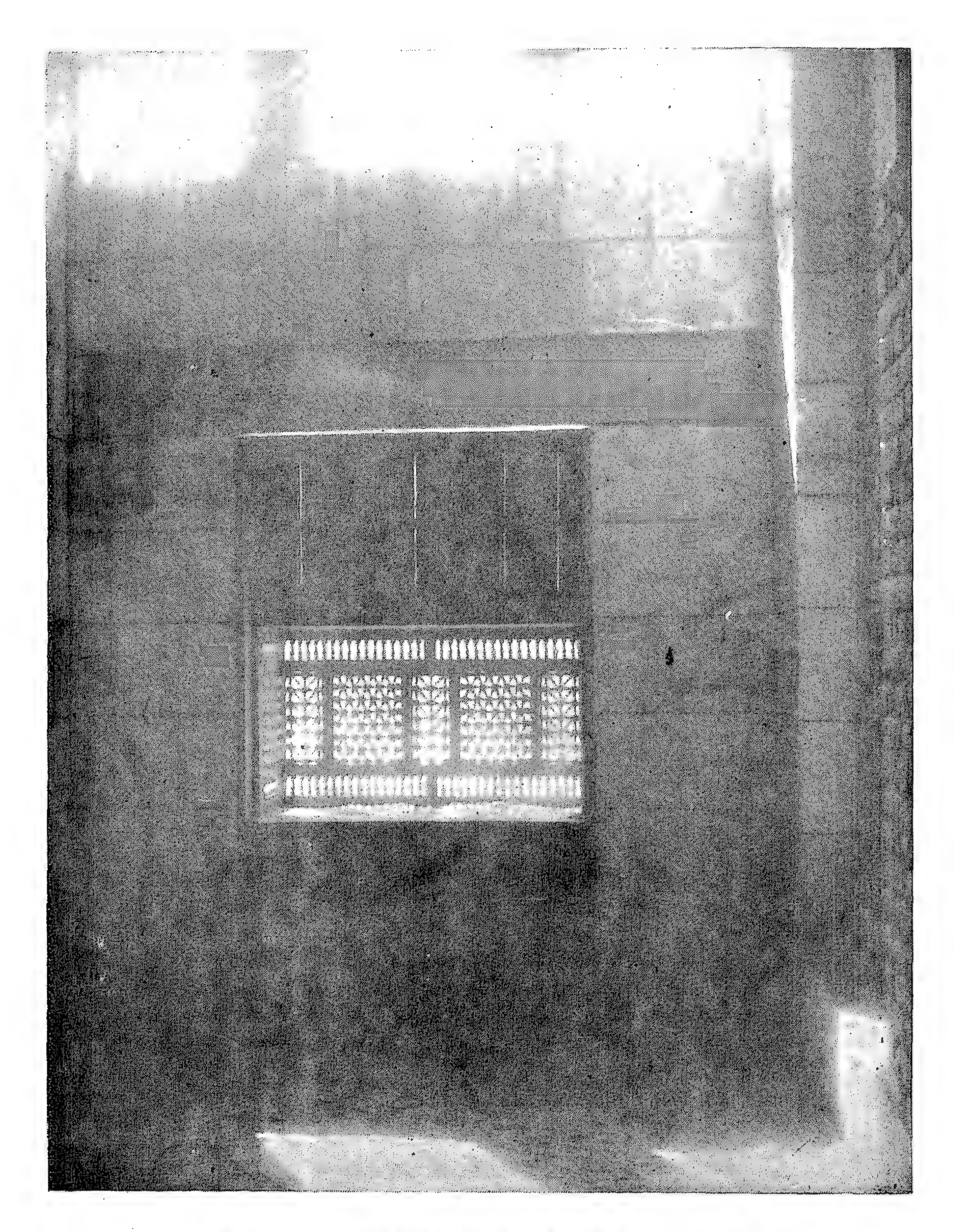
الظروف المناخية :

كان لها أثرها على تطور العمارة الاسلامية ، فان الأقاليم الاسلامية كانت ولا تزال تتشابه الى حد كبير فى اعتدال جوها شتاء وميله الى الحرارة فى الصيف ، فيما عدا الشام وآسيا الصغرى والأندلس . اذ تزيد فيها البرودةوتكثر الأمطار فى فصل الشتاء نسبيا ، مما تطلب عمل معظم الأسطح العليا مائلة على هيئة جمالونات ويسميها المؤرخون العرب « جِمالا » ، وقد ساعد على عملها من الخشب وفرة الأشجار فى مناطق واسعة من تلك البلاد . أما العراق فان جوه القارى قد استلزم عمل سراديب أرضية فى العمائر السكنية يحتمى بها الأهلون من شدة حرارة النهار فى الصيف ، بينما يستعملون أسطح المنازل العليا للاقامة والنوم ليلا ، وظل هذا تقليداً

(١) Short Account, pp. 227-230, Fig. 45.

(٢) Ibid., pp. 267, 268, Fig. 55.

(٣) Ibid., pp. 291-292, Fig. 59 a, b.



ش : ١٩٢ ـ القاهرة الفاطمية : مشربية فى وكالة قايتباى بجوار باب النصر

سائداً هناك حتى بدأت تنتشر الوسائل الآلية لتلطيف الجو مثل أجهزة تكييف الهواء ، فاستغنى الموسرون بها عن عمل السراديب •

وكانت وحدات العمائر الدينية تعمل مفتوحة فى البلاد الحارة ، ولكنها فى البلاد الباردة كانت تبنى بحيث يمكن حجز البرودة عنها • فكانت ظلة القبلة فى الجوامع وقاعات الصلاة فى المدارس فى مناطق الشام والعراق وآسيا الصغرى والأندلس لها فتحات من أبواب وشبابيك بحيث يمكن قفلها وفتحها صيفا (ش : ١٩٠) [١] • وكانت توضع وحدات خاصة فى القصور والدور فى مصر مثل المقاعد المفتوحة (ش: ١٩١) [٢] مواجهة للاتجاه البحرى ، أى الشمالى ، لتلقى الهواء الملطف من الأفنية المكشوفة فى وسطها والتى كانت تؤدى وظيفة مرشح للهواء والأتربة ، وتكسر من حدة الضوء القوى ، كما تحتفظ بالدفء فى الشتاء • كذلك ابتكرت فكرة الملاقف ويسمى المؤرخون الواحد منها « باذهنج » ، فوق الأسطح لتتلقى الهواء الملطف ، وتسقطه من فتحات فى السقف الى القاعات والايوانات ، وكأنه نوع من طرق تكييف الهواء [٣] •

***

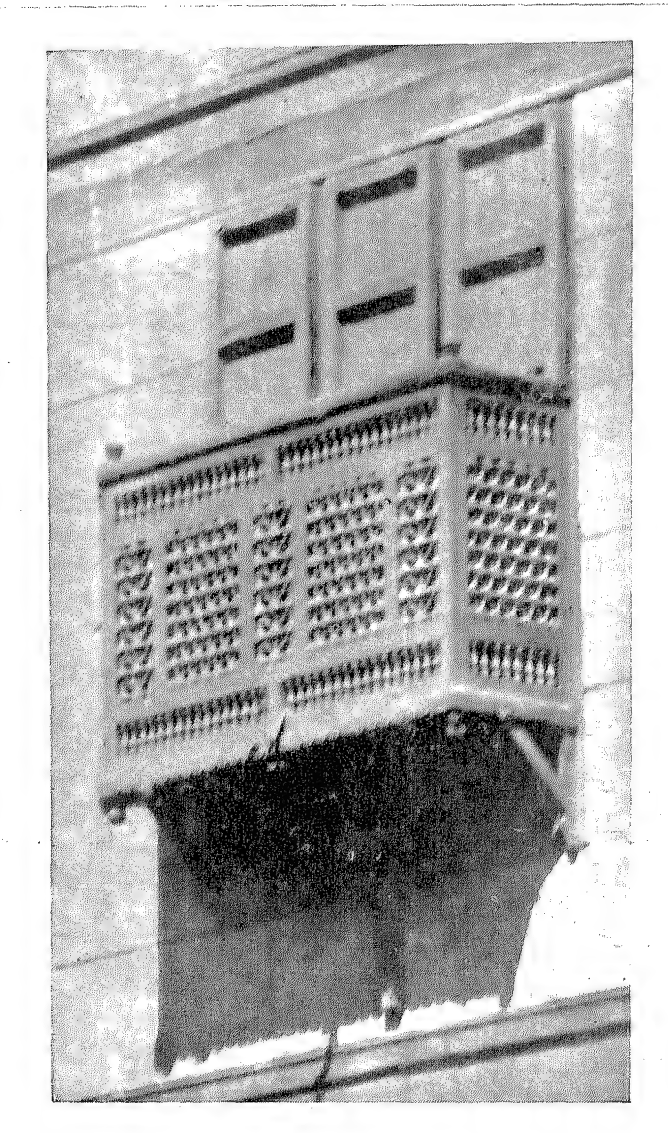
ومن الطرائف التى يرويها المؤرخون ، أن انتقاء المواقع الصالحة لتشييد المدن كان يتم أحيانا باجراء تجربة لاختبار مناخه بتعليق لحوم حيوانات مذبوحة فى جملة بقاع ، وأصلحها ما فسد فيه اللحم بعد غيره • ويقال ان صلاح الدين الأيوبى قد تبع هذه الطريقة عند بحثه عن موضع يصلح لقلعته التى عرفت بقلعة الجبل على هضبة من تلال المقطم التى تشرف على فسطاط مصر •

وقد اشترك العاملان الدينى والمناخى فى الايحاء بابتكار أسلوب فنى تمتاز به العمارة الاسلامية ، وأنتج الفنانون منه تحفا رائعة منه ، هو أسلوب الخشب المخروط المجمَّع من قطع خشبية ذات أشكال هندسية مختلفة • وهو الأسلوب المعروف « بالمشربيات » • وكانت تصنع منه الشرفات والأحجبة التى تغطى الفتحات والنوافذ ،

(١) M.A.Eg., II, Figs. 54-66.

(٢) يوجد له مثل من العصر المملوكى هو مقعد ماماى السيفى الذى بقى من قصره ، وهو المقعد المعروف ببيت القاضى (أثر رقم ٥١) (ش : ١٩١) ، ومقعد قايتباى بسكة المارداني (أثر رقم ٢٢٨) • ويوجد مثل فى بيت متكامل بقى من العصر العثمانى هو بيت الكريتلية ــ أنظر : محمود الحديدى : بيت الكريتلية •

(٣) يوجد أقدم مثل من هذا العنصر فى جامع الصالح طلائع بن رزيق ، كما توجد أمثلة له فى المدرسة الكاملية من العصر الايوبى وفى خانقاه بيبرس الجاشنكير •



ش : ١٩٣ ـ المشربية فى وكالة قايتباى بجوار باب النصر
تفصيل للمشربية فى الصورة السابقة فى الواجهة من الخارج

حتى تحفظ حرمة أهل البيت من أنظار الغرباء ، وتسمح فى الوقت نفسه بمرور الهواء والضوء • وكان يوضع فى تلك الشرفات أوانى شرب الماء حتى يبرد من تيار الهواء ، ولعل ذلك هو الذى أعطاها اسم « المشربيات » (ش : ١٩٢ ـ ١٩٤) •

وهناك علاقة كبيرة بين المناخ وبين أنواع الأشجار والأزهار والثمار التى تنبت فى بعض المناطق ، مما يجعل كلا منها يختص بأنواع من زخارفها تميزها عن غيرها•

ومن ثم فان الزخارف العثمانية مثلا تتميز بوجود عناصر خاصة بها ، مثل أزهار القرنفل [1] وثمار الخشخاش [2] وفاكهة القشدة . كما لعبت اللوتس الأسيوية (ش : ١٨١ ــ ١٨٢) دورا هاماً بين الزخارف الاسلامية فى العمائر والفنون التطبيقية منذ العصر المغولى فى فارس والعراق، ثم انتقلت الى الشام ومصر فىالعصر المملوكى. وكثرت معها الزخارف المقتبسة من زهور المارجريت ، ثم امتزجت بها أوراق النباتات المختلفة الأنواع ، خاصة تلك التى تشبه منها أوراق الاكانثاس المشرشرة الحافات ونتج من مزج بعضها عناصر مركبة ذات طرافة وجدة [4] .

***

التكوينات الجيولوجية :

كان لها أيضا أثرها الكبير على انتاج عناصر ووحدات معمارية وأساليب انشائية خاصة ببعض المناطق الاسلامية ، وبأنواع من التحف وأساليب صناعتها .

فقد اختصت العراق بتوفر مادة الطمى وقلة الصخور والأحجار فى الجزء الجنوبى ، بينما كانت تتوفر الأحجار فى المناطق الشمالية منها . ومن ثم فقد كانت مادة البناء الرئيسية فى أكثر مناطق العراق ، من شمال بغداد حتى البصرة جنوبا ، هى اما : قوالب اللبن ، أى الطوب النىء ، أو الطوب المحروق المعروف هناك باسم «الطابوق» . وكان يستعمل للجدران والأسقف على هيئة أقبية وقباب لقلة الأخشاب التى يمكن استعمالها فى البناء . أما النخيل المتوفر هناك فقد كان عزيزا على أهلها لما يدره عليهم من محصول ثمين من التمر ، ويعد موردا من أهم موارد الدخل منذ العصور القديمة ، فكانوا يضنون به أن يستخدم فى البناء . وكان الحجر يستعمل فى شمال العراق فى منطقة مدينة الموصل وما حولها لسهولة الحصول عليه من المحاجر القريبة ، وكان يستخدم معه الآجر أحيانا .

أما فارس فان بعض مناطقها كان يتوفر فيه الطمى ، وبعضها يتوفر فيه الحجر ، والبعض يتوفر فيه الاثنان . كذلك كانت بعض المناطق يتوفر فيها الخشب الذى يقطع من أشجار الغابات ، فكان يستخدم فى البناء فى تلك المناطق .

وبينما تفتقر منطقة الشام الى الطمى لعمل الطوب اللبن والمحروق فانها كانت

---

(١) Prisse d'Avennes : L'Art Arabe, voll. II, Pl. 112.

(٢) Ibid., II, Pls. 127, 129 ; Migeon : Orient Musulman, Céramique, Pls. 36. p. ,

(٣) Prisse d'Avennes, vol. II, Pls. 129.

(٤) Idem : La Décoration Arabe, Pls. 51, etc.

وما تزال غنيـة جـداً بأنواع الحجـر الصلب والرخـام الجيـد ، ولذلك فان النحاتين والبنائين فى تلك المنطقة قد برعوا فى قطعه ونحته وزخرفته وبنائه ، وبلغوا فى ذلك شأوا بعيدا فى جميع العصور الاسلامية وما قبلها • ونرى أمثلة رائعة من أعمالهم فى زخارف واجهة قصر المشتى وقصر الطوبة من العصر الأموى (ش : ١٥٦) • كما تتوفر الأخشاب فى أجزاء من الشام ، خاصة فى الشمال حيث تكثر الغابات ، لذا لم تكن هناك حاجة لاستيرادها كما كان الحال فى العراق ومصر •

ويتوفر فى مصر الطمى والحجر الجيرى ، فكنت العمائر تشيد بالطوب اللبن أو المحروق أو بالأحجار أو بالأخيرين معاء بينما كانت تفتقر أرض مصر الى أخشاب البناء فكانت تستوردها من الشام • ومما هو جدير بالذكر أنه يوجد فى أرض مصر مناطق غنية جدا بأنواع الجرانيت والرخام كما فى شبه جزيرة سيناء ، ولم يبدأ العمل فى استخراجها على نطاق واسع، مع أن من أنواعها ما لا يوجد فىبقاع أخرى منالعالم تشتهر بالرخام • وفى منطقة ادفو فى الصعيد أنواع من الرخام التى لا يتطرق الى الذهن أنها توجد فيها أو توجد فى غيرها ، هذا فضلا عن أنواع جرانيت منطقة أسوان المعروفة • ويبدو أن ذلك لم يكن معروفا فى العصور الاسلامية ، فكانت مصر تستورد الرخام فى تلك العصور لتغشية الجدران بالبلاطات وفرش الأرضيات به ، وعمـل الأعمدة منه لتحمل البائكات والأسقف • ولكن لم تقم حتى الآن دراسات تبحث عن مصادر استخراج الأنواع المختلفة وخاصة النادرة منها ، والتى كانت مصر تستورد منها حاجتها ، مع أن مثل هـذه الدراسات قد تهدينا الى معـلومات ذات قيمة علمية واقتصادية ، وتوضح العلاقات التجارية بين الأقاليم الاسلامية وبعضها ، أو بينها وبين أقاليم أجنبية أخرى •

وتوجد مادتا الحجر والطمى فى الأندلس وفى بعض بقـاع العالم الاسلامى الغربى • ووجد فيها أيضا أنواع من الصلصال الجيد الذى يصنع منه القرميد ، أى الألواح وأنصاف القنوات الفخارية ، التى تكسى بها الأسطح العليـا للجمالونات • ونرى أمثلة كثير منها فى شمال افريقية والأندلس •

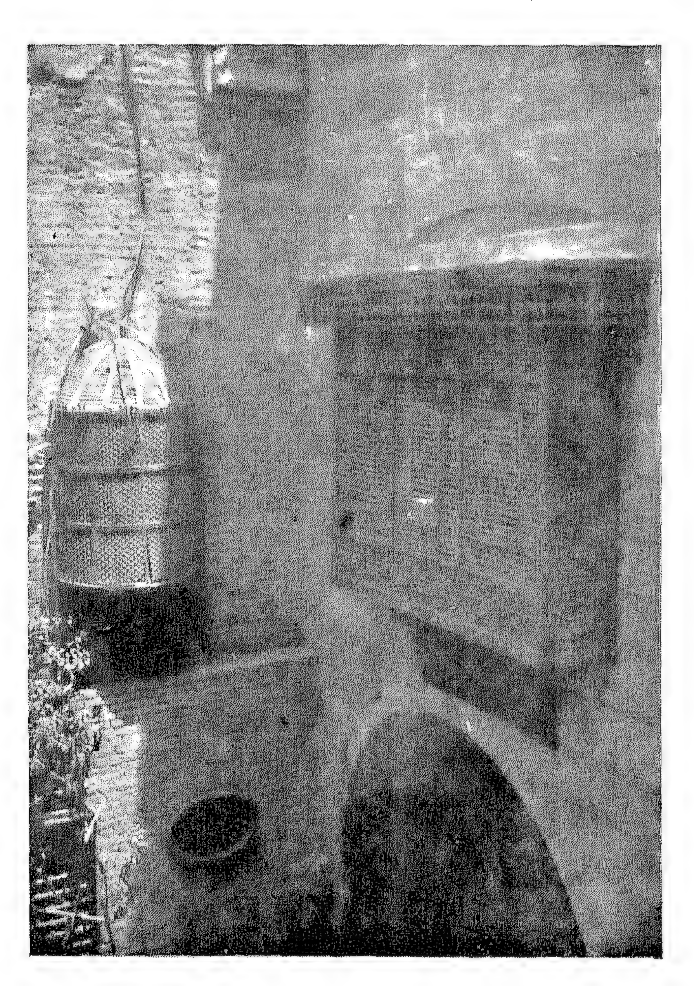
***

وهكذا نرى من الصفحات السـابقة أن العـوامل المختلفة التى تؤثر على تطور الطرز الفنية كانت متشـابهة فى معظم اقطار العـالم العربى الاسـلامى ، مما زاد فى الروابط التى تربطها ببعضها توثيقا ، وجعل للطراز العربى الاسـلامى تلك الوحدة

الواضحة على الرغم من احتفاظ كل مدرسة منه فى القطر الواحـد بطابع مميز لها خاص بها •

ومما يستلفت النظر أن تلك السلسـلة الطويلة التى تنتظم فيها أقطـار العـالم العربى الاسلامى كانت كل حلقة من حلقاتها على صلة وثيقة بباقى الحلقات مهما كان البعد بينها ومهما تفككت عرى الروابط السياسية وتعارضت الآراء والمصالح •

هذا وتميزت الديار المصرية بفضـل موقعها الجغرافى بالقيـام بدور بارز خطير فى تاريخ الحضارة العربية الاسلامية • فبالاضافة الى أنها كانت مركزا لاشعاع تيارات حضارية لها خطرها فانهـا كانت فى نفس الوقت مركزا لتلاقى اشـعاعات أخرى من جميع أقطار العـالم العـربى الاسـلامى كانت تنصهر مع بعضها البعض ، وتخلق من السبيكة الناتجة حلقة تنتظم فى عقد الحضارة العربية الاسلامية •

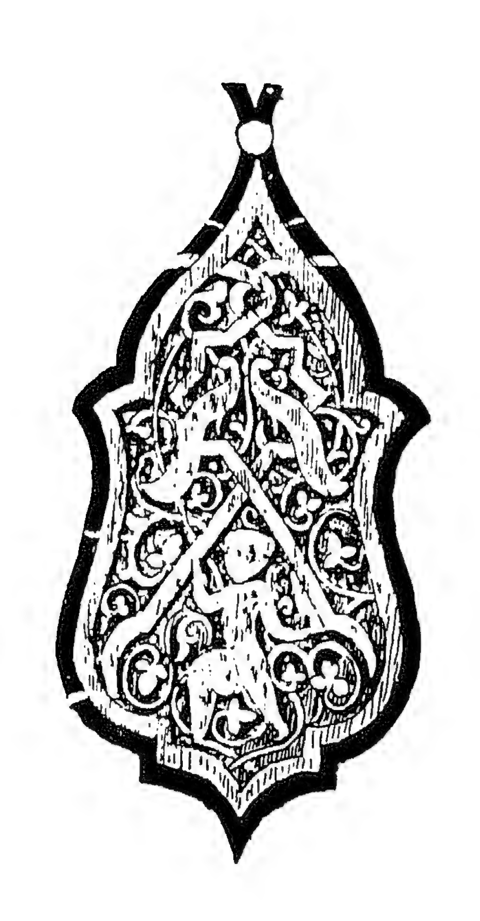


ش : ١٩٤ ـ القطائع : مشربية فى بيت الكريتلية بجوار جامع بن طولون

القسم الثانى

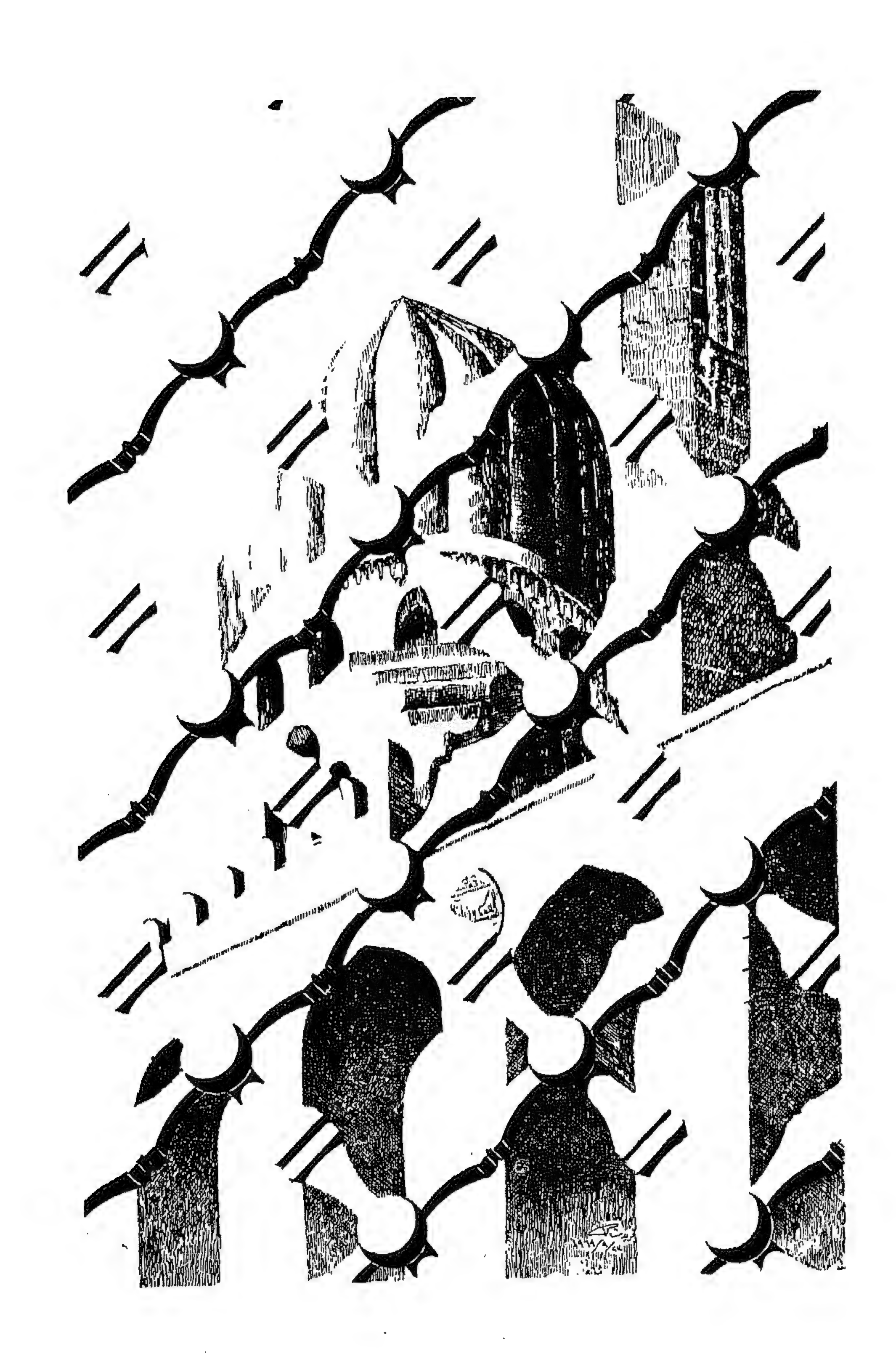
عمارة عصر الولاة

من الفتح العربى إلى الفتح الفاطمى



الفصل الرابع

عرض عام
لآثار مصر العربية



مشتملات الفصل الرابع :

المؤرخون ومؤلفو الخطط من العرب المسلمين ، المبالغات فى كتب المؤرخين والرحالة ، مؤرخون مسيحيون فى العصر العربى الاسلامى ، الوصف اللفظى للأثر غير كاف لتخيله ، الطريقة العلمية للوصف تقوم على الرسوم الهندسية والصور الفوتوغرافية مقرنصا سقيفة مدخل مسجد السلطان حسن ، مقرنصات شرفة مئذنة مسجد المؤيد ، اعداد التصميمات والرسوم للعمائر فى العصر العربى الاسلامى اتقان المعماريين العرب المسلمين لعلم الهندسة الوصفية ، مقرنصات قبة دركاه المدخل لمسجد السلطان حسن ، توزيع العمل فى بناء العمائر الكبيرة على جملة « معلمين » ، لقب « مهندس » ومعناه فى العصر العربى الاسلامى ، حجج الأوقاف ووصف العمائر ، كراسات « لجنة حفظ الأثار العربية » ، المسكوكات من وثائق دراسة الأثار ، شواهد القبور من وثائق دراسة الأثار ، صعوبة القيام بحفائر علمية بالمواقع القديمة ، غنى الديار المصرية بالعمائر العربية الاسلامية ، قاهرة المعز كانت حصنا لا مدينة أو عاصمة ، خريطة العاصمة منذ صلاح الدين حتى دخول الفرنسيين، العاصمة الحقيقية أيام الفاطميين كانت « فسطاط مصر » أو مصر ، أسوار الحصن الفاطمى المسمى بالقاهرة ، سميت العاصمة بالقاهرة بالافرنجية منذ الحملة الفرنسية، حدود الحصن الفاطمى المسمى بالقاهرة ، حدود العاصمة مصر منذ صلاح الدين حتى دخول الفرنسيين ، خطط واحياء مصر حتى أيام الحملة الفرنسية ، الأثار الباقية فى مصر العاصمة ، الأثار العربية الاسلامية فى الاسكندرية ورشيد ودمياط ، الأثار العربية الاسلامية فى الوجه القبلى ، الأثار العربية الاسلامية فى المتحف القبطى والأديرة والكنائس ، المقابر العربية الاسلامية التى تركت لتغمرها مياه السد العالى .

***

لقد خصصنا هذا الفصل لنعرض فيه آثار مصر فى العصر العربى الاسلامى من العمائر وغيرها عرضا يعطى فكرة عامة شاملة تساعد على تتبع فصول الكتاب التالية فى هذا المجلد وما بعده . فلقد وجدنا غالبية كبيرة من الناس تظن ان الآثار المعمارية فى مصر من ذلك العصر تتركز كلها فى القاهرة العاصمة . ومن ناحية أخرى فانه يطرق اسماع الكثيرين أو تمر تحت أبصارهم اسماء مؤرخين ورحالة وجغرافيين من عرب وغيرهم وتتصل اعمالهم بتلك الآثار ، ولكن بغير ان يكون فكرة واضحة عن تلك الاسماء وعن اعمال اصحابها وقيمها العلمية وقدر الفوائد التى نجنيها منها فى دراسة تلك الآثار . والحق الذى لا مناص من الاعتراف به اننا لا نجد فى دراسة الآثار العربية الاسلامية فى مصر ، بل وفى العالم الاسلامى كله ، العون الكبير المنتظر فيما كتبه عنها كثير من الجغرافيين والرحالة المؤرخين والأدباء القدماء من العرب . فقد كان يأتى ذكر تلك الآثار فى سياق سرد تاريخى ، أو عند تسجيل أحداث ووقائع تاريخية ، أو فى أثناء وصف رحلة ، أو فى خلال قصيدة من الشعر أو قطعة من الأدب .

أما من حاول منهم لتوسع فى الكتابة عن الخطط والآثار ، وعن العمائر والتحف ، فقد اقتصر على وصف مواضع الحارات والطرق وأحياء المدن وما فيها من عمائر هامة ، وعلى أسمائها وأنواعها • ثم اتجه اهتمامه نحو سير الخلفاء والحكام والولاة والأمراء والمقتدرين وأصحاب الوظائف الذين قاموا ببناء تلك العمائر وبانتاج التحف أو من كانت لهم بها صلة • وقد أسهب الكتاب فى ذكر أخبارهم وذكر الوقائع التاريخية التى تتعلق بحياتهم أو التى حدثت فى عصرهم ، وقصر اهتمامهم بتلك النواحى أن يمتد الى وصف واضح مفصل للآثار نفسها •

يأتى فى مقدمة المؤلفين المصريين الذين وصلتنا مؤلفاتهم « ابراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى » الشهير « بابن دقماق » • غير أن مؤلفه الذى سماه « كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار » لم يصل الينا كاملا ، ولم يتجاوز ما وصلنا منه الجزءين الرابع والخامس • ولعل ابن دقماق هذا هو أكثر المؤلفين وضوحا فى كتابته عن «طبوغرافية» العاصمة القديمة التى كان يدعوها دائما اما « بالفسطاط » أو « بمصر الفسطاط » • واستغرق حديثه عنها وعن جزيرة الروضة نحو ١٢٥ صفحة من ١٣٦ ، يتكون منها الجزء الرابع • بينما استغرق حديثه عن « حى » القاهرة ، الذى كان الحصن الفاطمى ، أكثر قليلا من ثلاث صفحات من الجزء الخامس • وقد بدأ ابن دقماق كتابة مؤلفه هذا بعد عام ٧٩٣هـ (١٣٩٠م) ، وأتمه قبل موته فى عام ٨٠٩ هـ (١٤٠٦ م) [١] •

وعاصر ابن دقماق مؤلف آخر تفوق شهرته باقى المؤرخين وكتاب الخطط ، هو تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد الشهير « بالمقريزى » ، وقد وضع عدة مؤلفات يمس بعضها الآثار ، وفى مقدمتها من حيث الأهمية كتابه « المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » • وتأتى أهميته من أن المؤلف قد جمع فيه كثيرا من روايات المؤرخين الذين سبقوه وضاعت بعض مؤلفاتهم أو لا زالت فى طى الغيب لم تكشف بعد • وتتضمن كتابات المقريزى أحيانا أساطير وخرافات ومبالغات يصعب تصديقها ، كما تتضمن تضاربا فى أحيان أخرى • ولعل ذلك قد جاء بسبب سرده

---

(١) طبعة « المطبعة الكبرى الاميرية ببولاق مصر المحمية » سنة ١٣٠٩ هـ (١٨٩٢م) . يحتوى الجزء الرابع منه على ١٣٥ صفحة . أما الجزء الخامس فيه ١٢٦ صفحة . وفى نهاية المجلد الذى يضم الجزءين تصدير كتبه فوللرز (Vollers) يعرف بالمؤلف والمؤلف . وقد وضع لهذا المجلد مجلد آخر به فهرست لاسماء الاعلام التى وردت فى المجلد الاصلى ، جمعه ورتبه السيد محمد البيلاوى بمساعدة على صبحى . وطبع الفهرست سنة ١٣١٤ هـ (١٨٩٧ م) .

للمعلومات التى أخذها عن غيره بغير تمحيص أو تحقيق • وانتهى المقريزى من تسجيل الحوادث والأخبار التى وقعت حتى سنة ٨٣٠ هـ (١٤٢٥ م) [١] •

وعلى ذكر تلك المبالغات والأساطير نجد مؤلّفا كتبه رحّالة فارسى هو ناصر خسرو [٢] ، دوّن فيه بعض مشاهداته فى رحلته التى طاف فيها بكثير من بلاد العالم الاسلامى فى القرن الخامس الهجرى (١١م) ، بعد أن ترك وطنه فى وقت انتشرت فيه الاضطرابات • ويتضح من كتابته أن البؤس الذى كان يجده فى بلده رآه فى كل البلاد التى زارها ، الاّ فى مصر ، فقد شاهد فيها رخاء عظيما وأسواقا عامرة وأمنا مستتبا • وكان ذلك فى عهد الدولة الفاطمية الاسماعيلية المذهب • حتى ظن ناصر خسرو أن الفضل فى رخاء البلاد راجع الى المذهب الاسماعيلى ، وأن هذا المذهب كفيل بانقاذ العالم الاسلامى مما كان يعانيه من شدة وبؤس ، فلم يلبث أن اتصل ناصر خسرو ببعض رؤساء الشيعة الاسماعيلية فى مصر ، واعتنق مذهبهم • ويبدو أن الخليفة المستنصر بالله الفاطمى قد أحسن استقباله ، وكلفه بأن يدعو لمذهب الاسماعيلية فى خراسان [٣] •

ووصف ناصر خسرو القاهرة المعزية وصفا شائقا ، وأطنب فى وصف « الفسطاط » أو « مصر الفسطاط » عاصمة الديار المصرية ، فى الفترة التى مكث فيها هناك ، أى بين سنتى ٤٣٩ و ٤٤١ هـ (١٠٤٧ و ١٠٤٩ م) غير أنه تجاوز أحيانا حدود المبالغات والخيال ، حتى وصل الى حد الخرافة فى مواضع ليست بالقليلة من كتابته وأخباره عن مصر • وسنجد أمثلة كثيرة من ذلك فى سياق الحديث • ولعله قد وقع فى رفقة بعض الظرفاء من أهل مصر ، فوجدوا منه اعجابا كبيرا بل انبهارا

---

(١) طبع كتاب المقريزى عدة طبعات . وتعد طبعة بولاق سنة ١٢٧٠ هـ (١٨٥٥ م) فى مجلدين أكثر تلك الطبعات تحقيقا . وقام المستشرق بوريان (U. Bouriant) بترجمة جزء كبير من المجلد الاول من تلك الطبعة من الصفحة الاولى الى صفحة ٢٥٠ . ونشرت الترجمة فى العدد ١٧ من Mémoires de la Mission Archéologique Française au Caire. ، وذلك للسنوات ١٨٩٥ — ١٩٠٠ . ثم ترجم المستشرق كازانوفا Casanova قسما آخر من الجزء الاول من الطبعة العربية السابقة ، وبدأ من حيث انتهت الترجمة السابقة اى من صفحة ٢٥١ وانتهى بصفحة ٣٤٧ . ونشرت الترجمة فى العدد الثالث من Mémoires de l'Institut Français d'Archéologie Orientale au Caire, 1906. غير أن المستشرق جاستون فييت قد اهتم بالنص العربى لذلك الكتاب وأعاد نشر قسم كبير من الجزء الاول مع التحقيق والتعليق على كثير من محتوياته ، ونشر ذلك فى الدورية السابقة فى الاعداد ٣٠ ، ٣٣ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٥٣ . ووصل المسيو فييت فيما نشره الى صفحة ٣٢٢ ، اى الى نهاية الدولة الطولونية . واستغرق نشر هذا القدر من الجزء الاول من سنة ١٩١١ الى سنة ١٩٢٧ .

(٢) ناصر خسرو : سفرنامه . (ترجمة يحيى الخشاب — الطبعة الاولى — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٦٤ هـ (١٩٤٥ م) .

(٣) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين . صفحات ١٠ — ١٣ .

بما كان يراه في البلاد ، واستعدادا لتصديق ما يروى له ، ولعلهم وجدوا منه ميلا للمبالغة ، ومن ذلك أخذوا يزودونه بما يجد فيه الفرص لاشباع ميوله ، ولعله هو نفسه قد أضاف الى ما سمعه أشياء من عنده ، سواء فى الأوصاف أو الأرقام ، الى غير ذلك • ولا يشفع له أنه جاء الى مصر وهى فى أزهى أعوامها رخاء ويسرا ورفاهية • فان فى بعض ما قاله عنها وعن أهلها من كبيرهم الى صغيرهم يتجاوز حدود المنطق المعقول •

وأحدث كتب الخطط القديمة نسبيا كتاب « الخطط الجديدة » من وضع على مبارك الذى كان مهندسا أوفد فى بعثة الى باريس ودرس الهندسة هناك • ولكن يبدو أنه لم يكن متخصصا فى العمارة ، بل كان مهندسا مدنيا يلم بعلوم هندسية مختلفة ، وتقلب فى الوظائف الهندسية فى مصر ، حتى تولى وزارة الأشغال أيام الخديوى توفيق ، ومن ثم فقد سمى كتابه « الخطط التوفيقية الجديدة » • وعلى الرغم من أنه حاول أن ينهج فيه منهجا علميا ، الا أنه اعتمد على ما جاء فى خطط المؤلفين القدماء ، وأضاف اليها مشاهداته ومقارناته وتسجيلاته واحصاءاته التى جمعها بنفسه• ولكنه لم يتم عمله كما كان منتظرا من مهندس بأن يوضح كتاباته بالخرائط والرسوم، واكتفى بالوصف اللفظى • فكأنه لم يبعد الا قليلا عن منهج من سبقه من أصحاب الخطط القدماء [1] •

وهناك مؤرخ مسيحى لا بد من الاشارة اليه لصلة كتابته ببعض العمائر العربية فى مصر الاسلامية ، وهو أبو صالح الأرمينى الذى ألف كتابا فى حوالى عام ١٢٠٨م عنوانه « كنائس وأديرة مصر » [2] • ذلك ان بعض كتاباته كانت فرصة ذهبية لفئة من المستشرقين كانوا يتلهفون الى أى قول يشير ولو من بعيد الى قبطى من مصر أو مسيحى أو حتى مسلم جاء من خارجها ، يكون قد اتصل اسمه ببناء للمسلمين والعرب فى مصر • وكانت أقوال أبى صالح بمثابة الانجيل عند بعضهم من أمثال بتلر Butler ولين بول Lane-Poole وغيرهما • أما اذا أشار أحد المؤرخين العرب الى خبر من هذا القبيل ، حتى ولو كانت تفوح منه رائحة الأسطورة بشدة ، فان أولئك المستشرقين قد يتشككون فى كل كتاباته ما عدا أمثال ذلك الخبر الذى يضعونه فى مرتبة الأحاديث النبوية فى زعمهم ، أو فى قوة قصص القرآن أو هو أكثر قوة ، ما دام قد صادف من نفوسهم هوى • وسنرى أمثلة من ذلك فى سياق الحديث •

---

(١) على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة، ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة . طبعة المطبعة الكبرى الاميرية ببولاق سنة ١٣٠٦ هـ (١٨٩٠ م) • ويتكون الكتاب من ٢٠ جزءا .

(١) ابو صالح الارمينى : كنائس وأديرة مصر (طبعة وترجمة يفتس) Evetts

وقد أشرنا الى أكثر تلك الأسماء شهرة من أصحاب الخطط والمؤرخين والرحالة من الذين جاء كثير من أخبار الآثار والعمائر فى كتاباتهم ، ولكن هناك عددا كبيرا من المراجع العربية التى تضمنت أخبارا متناثرة عن الخطط والآثار يضيق المقام عن سرد أسماء أصحابها ، وعن شرح المنهج الذى سار عليه كل واحد منهم • وهى من غير شك ذات فائدة فى هذا الموضوع ، نذكر من هؤلاء الكتاب على سبيل المثال : ابن الأثير صاحب الكامل فى التاريخ ، وابن اياس ، وابن بطوطة ، وابن جبير ، وابن ميسَّر ، الى غير ذلك من الأسماء المعروفة •

ومهما يكن من أمر فان وصف الآثار من عمائر وتحف وصفا لفظيا لم يكن يصل فى كتب القدماء الى درجة من الوضوح تساعد القارىء على تكوين صورة صحيحة لما كانت عليه العمارة أو القطعة الأثرية ، وبخاصة اذا كان جزءا كبيرا منها قد تهدم أو اندثر كله ، مما يُزيد الغموض والابهام حوله • ويرجع عدم الوضوح هذا الى عاملين : أولهما : انصراف الكاتب عن العناية بالوصف الدقيق الى سرد الوقائع التاريخية • وثانيهما — وهو الأهم — عدم دراية الكاتب بالطريقة الصحيحة المنظمة لوصف القطع الأثرية • ذلك أن أكثر الكتاب كانوا من الأدباء ، ولم يكن من بينهم فرد واحد يمت للهندسة أو الفن أو الصناعة بصلة ما • بل ان أحدا منهم لم يعن الا فى النادر بذكر سيرة أو ترجمة لمهندس أو فنان أو صانع ماهر • وهو أمر يؤسف له حقا ، ويزيد من الأسف أن الأسماء التى وردت فى معرض الحديث عن بناء العمائر كانت لأفراد قاموا بالاشراف على البناء ومراقبة مراحله وأبواب الصرف عليه ، فكانوا اذن أقرب الى موظفين اداريين منهم الى فنيين • ولعل بعضهم قد اكتسب خبرة فى تلك النواحى فى أثناء عمله ، ولكن لم يذكر واحد منهم فى صراحة ووضوح ، الا فى حالات نادرة قليلة ، على أنه مهندس أو رئيس جماعة من الفنيين والصناع عهد اليهم بالقيام بأحد الأعمال الفنية •

ولعل أحسن فائدة أثرية يمكن استخلاصها من المراجع القديمة هى معرفة اسم صاحب العمارة أو التحفة وتاريخ عملها ، وبخاصة اذا خلا الأثر من كتابة تسجيلية عليه توضح ذلك • غير أنه قد يحدث أحيانا أن تتعارض التواريخ التى وردت فى الكتابة التسجيلية على الأثر والتى وردت فى المراجع • ولا شك أن الكتابة التسجيلية التى حفرت أو كتبت على الأثر نفسه وشيدت فى الجدران لا بد أن تكون أقرب الى الصحة من التى وردت فى المراجع استنادا على رواية لفظية أو مكتوبة نقلت من مرجع سابق ، أو عن أحد الرواة •

وعلى كل حال فان الدراسات التى تقوم على مخلفات العمائر والتحف لا يمكن أن تعتمد على الوصف اللفظى فقط مهما بذل الكاتب من جهد فى وصف قطعة معمارية وصفا لفظيا دقيقا ، حتى ولو كان خبيرا متمكنا من فنه بالاضافة الى تمكنه من اللغة ، وبخاصة اذا كانت تلك القطعة قد أصابها الزمن بالتلف والتحلل فضاعت واندثرت • ذلك أن طرق تصوُّر الآثار المندثرة تختلف باختلاف أذهان المهندسين والفنانين وعلماء الفنون ، وتبعا لاتجاهاتهم فى تفهم تلك الأوصاف المكتوبة • وكم تعددت أشكال احدى العمائر التاريخية القديمة عندما قام مهندسون متعددون وعلماء مختلفون متخصصون فى تاريخ العمارة بمحاولة عمل صورة تخيلية وهى على حالتها التى كانت عليها ، وذلك بناء على أوصاف لفظية لها • كما حدث مثلا فى قبر الملك موزلوس [١] ، الذى سبق أن جاء ذكره من قبل (ص ٧٠) ، وكان مشيدا فى مدينة هاليكارناسوس القديمة فى جنوب آسيا الصغرى قرب ساحل البحر الأبيض المتوسط • وقد أصابه الخراب ، ثم أكمل عليه الصليبيون من فرسان القديس يوحنا بحرق أحجاره لاستخراج الجير منها (ص : ١٥٥) •

ولا شك أن الطريقة العلمية الوحيدة لوصف الآثار وصفا دقيقا واضحا لاغموض فيه هى التى تقوم على أساس الرسوم التى تعد لها ، من حيث المخططات الهندسية من مساقط وقطاعات أفقية ورأسية ، ومن المنظور والرسوم اليدوية للعناصر والوحدات ، ومن الصور الفوتوغرافية للكتلة العامة وأجزائها الرئيسية والثانوية والتفاصيل • ثم تأتى الأوصاف اللفظية لتساعدها من بعض النواحى اذا كان قد أصاب بعض أجزاء من الأثر تعديل أو ازالة ، وكان الأمر يتطلب التحليل والمناقشة •

ويثير الحديث عن الرسوم والصور التساؤل عما كان يفعله المهندسون والفنيون القدماء عند تكليفهم بتشييد احدى العمائر منذ شروعهم فى الخطوات الأولى للبناء ، والتى تتطلب اعداد التصميم ودراسة مخططه وقطاعاته وواجهاته ، وعما اذا كان التصميم على هيئة رسوم هندسية على الرق أو الورق أو الحجر ، أو على أى مادة من المواد التى تصلح للكتابة والنقش •

والحق أنه لم يصلنا شىء من تلك الرسوم يمكن الاطمئنان الى تاريخه • ولكن على أى حال ، فانه من الممكن أن نستنتج من أقوال المؤرخين أن تخطيط رسوم العمائر الاسلامية كان معروفا منذ أقدم العصور • فقد جاء مثلا فى سياق حديث عابر فى خطط

---

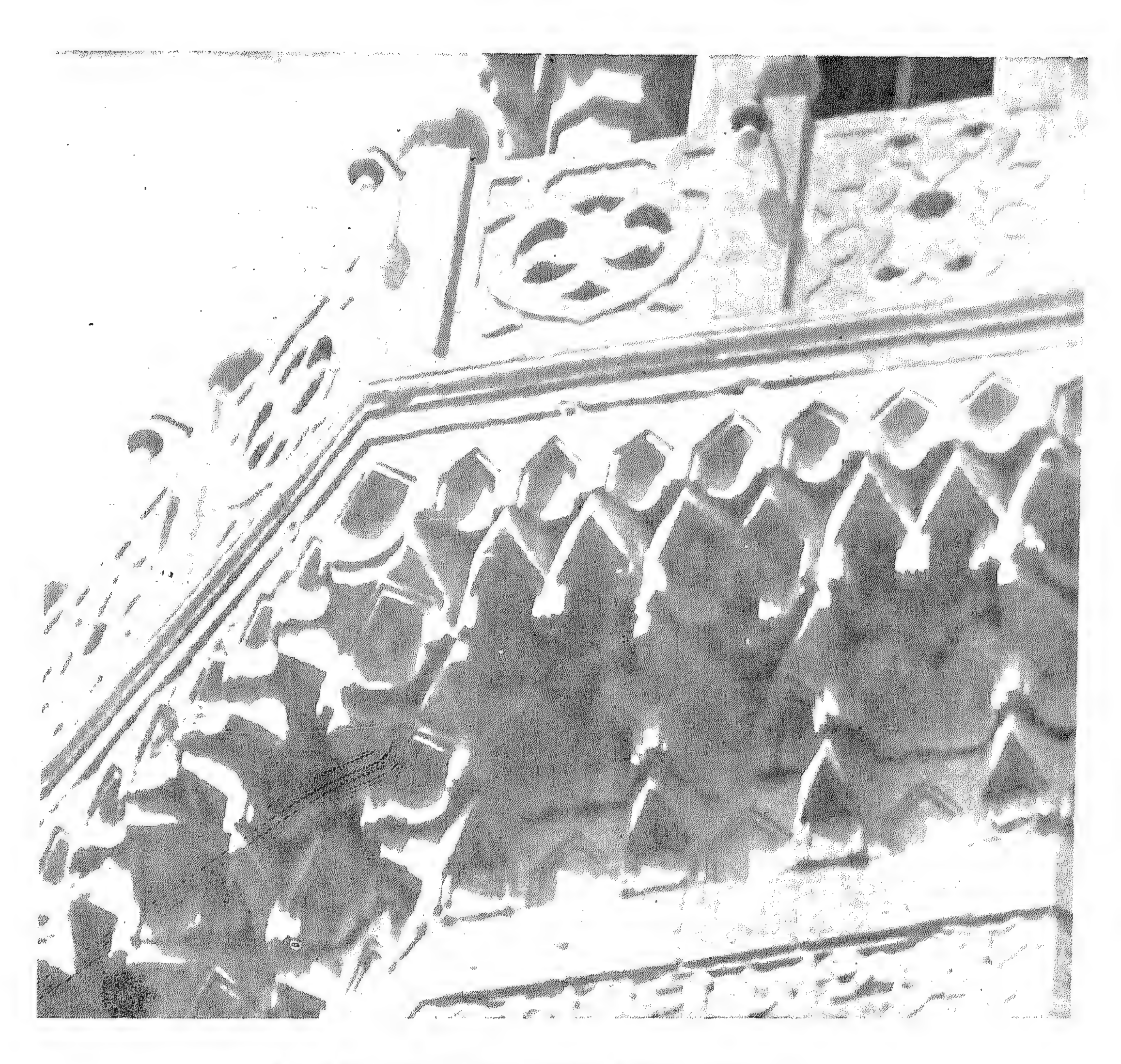
(١) نشرت سبع محاولات تمت فى سنوات مختلفة لعمل صورة تخيلية لما كان عليه هذا الأثر المعمارى فى الاصل • انظر : Fletcher (1963), pp. 148-150.

المقريزى عن بناء جامع ابن طولون ، أن المهندس الذى بنى قناطر ابن طولون جهة البساتين كان نصرانيا ، هو أمر مشكوك فيه الى حد كبير لأسباب سنذكرها فيما بعد (ص : ٤٧٣ ـ ٤٧٧) ، وأنه أعد تخطيطا للجامع على الرق أو الجلود ابتكر فيه ، على حد قول المقريزى ، فكرة عمل الدعامات التى تحمل سقف المسجد مشيدة بالآجر ـ أى الطوب الاحمر ـ وذلك بدلا من انتزاع الأعمدة الرخامية من الكنائس [1] . والرواية لا تخرج عن أن تكون قصة من قبيل الأساطير التى كانت تكثر فى المراجع القديمة ، وأغلب ظننا أن مثل هذه القصص كانت تدس على المؤرخين العرب فيثبتونها فى مؤلفاتهم بحسن نية وبغير تمحيص أو تنبه لما تحتوى عليه من دلالات ومعان . ومما يثبت بُعد هذه القصة عن الحقيقة أن فكرة الدعامات المبنية بالآجر لم تكن من ابتكار مهندس نصرانى فى مصر ، بل كانت فكرة اسلامية وجدت قبل عصر ابن طولون وشيدت بها الدعامات فى مساجد مدينة سامرا ، التى نشأ فيها أحمد بن طولون وترعرع ، وفى جامع الرقة الذى يسبقها فى التاريخ ، كما سنشرحه تفصيلاً فيما بعد .

ومهما يكن من أمر فان ما يهمنا من تلك القصة أو الأسطورة هو خبر المخطط الذى قيل انه أعد على الجلود ، والذى نستنتج منه أن المهندسين القدماء كانوا يقومون بعمل تخطيط مبدئى للمعائر قبل الشروع فى بنائها . ولكننا لا نميل الى الظن بأنها كانت ترسم بمقياس رسم خاص فى دقة وتنظيم ، كما يحدث فى العصر الحديث الذى تطورت فيه العدد الهندسية بحيث تساعد على اعداد الرسوم بالدرجة المطلوبة من الدقة والاتقان . ولكن على الرغم من ذلك فان المهندسين العرب المسلمين القدماء كانوا بلا شك على علم تام بالعدد الرئيسية لمزاولة الأعمال الهندسية وهى الزاوية والمسطرة والفرجار والمنقلة . أضاف الى ذلك أن هناك من الاعمال المعمارية ما يدل على معرفتهم التامة بعلم من أصعب العلوم الهندسية الأساسية وهو علم « الهندسة الوصفية » . فقد تركوا كثيراً من الأمثلة من معضلات ذلك العلم التى وفقوا فى حلها بطريقة صحيحة سليمة ما كانوا بالغيها الا اذا كانوا متمكنين تماما من نظريات الهندسة الوصفية المعقدة ، ثم بطرق تطبيقها وتنفيذها عمليا على الطبيعة . وتتجلى تلك القدرة فى المواضع التى تتلاقى فيها أسطح البناء المستوية والمنحنية والكروية ببعضها خاصة عند تغطية الجدران بأسقف من أقبية وقباب . ومن أمثلتها ما يوجد فى أسوار حصن القاهرة وأبوابه التى شيدها بدر الجمالى .

---

(1) المقريزى : ج ٢ ، ص : ٢٦٥ .

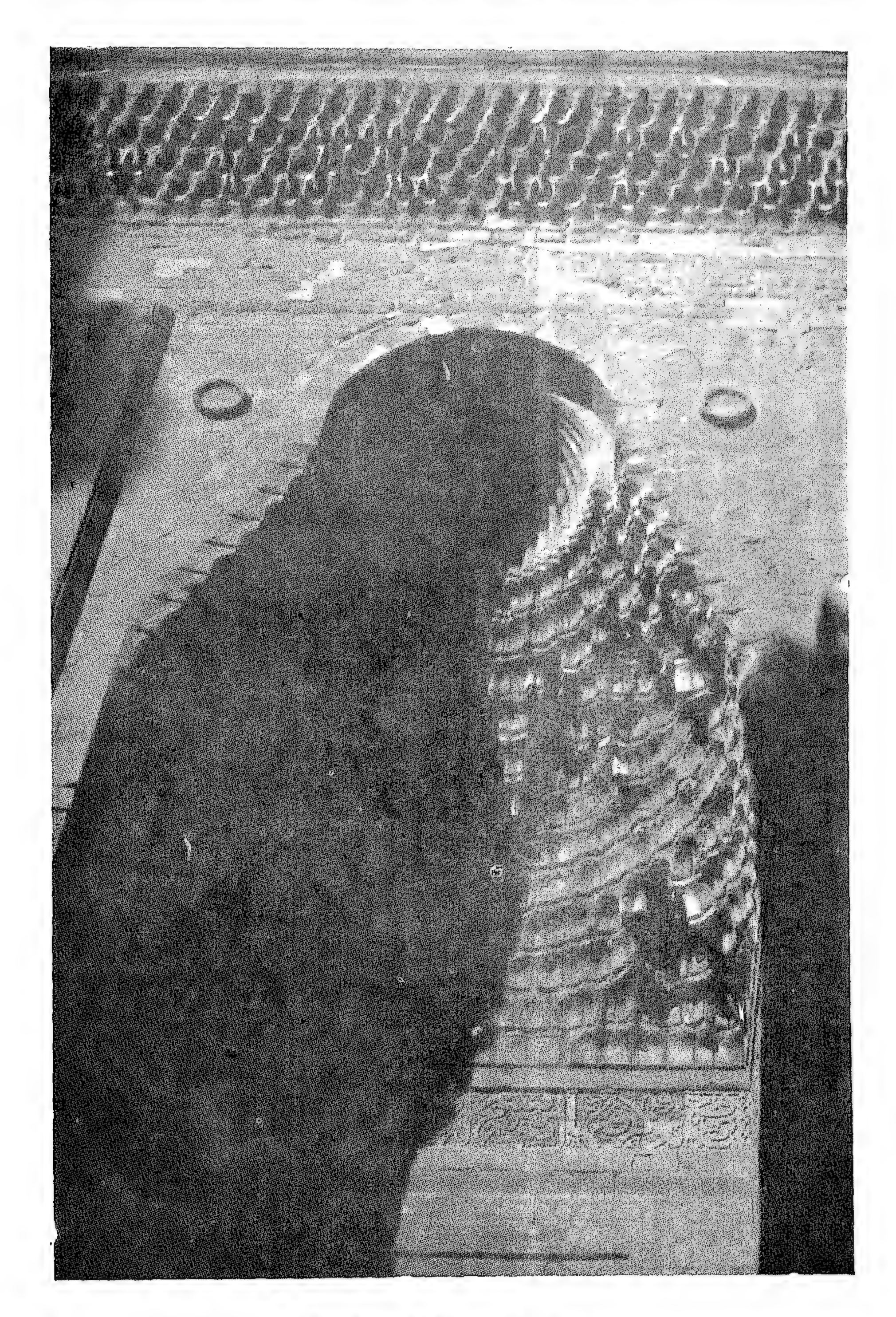


ش : ١٩٥ ـ القاهرة الفاطمية : جامع السلطان المؤيد شيخ
(مقرنصات الشرفة السفلى من المئذنة)

ومن أهم ما تتجلى فيه موهبة المعماريين العـــرب والمسلمين وبراعتهم فى حل مشاكل الهندسة الوصفية ، تلك المجموعات المنوعة الأشكال من صفوف المقرنصـات ذات الأحجام المختلفة التى يرجع الفضل فى ابتكارها وتطويرها الى أولئك الفنانين من المهندسين والنحاتين الذين جعلوا منها احـدى المميزات الرئيسـية ذات الروعـة الخاصة للعمارة العربية الاسلامية ، بحيث لا يكاد يخلو أى بناء اسـلامى منها سـواء فى واجهاته الخارجية أو الداخلية ، وسواء كانت تسـتعمل كعنصر زخـرفى بحت أو تجمع بين الفائدة البنائية والغرض الزخرفى معا •

لقد ترك الفنانون العرب والمسلمون القدماء أمثلة من تلك المقرنصات تتحـدى قدرة المهندسين فى العصر الحديث • اذ تجعل الواحد منهم يشعر بالارهاق الذهنى الشديد عندما يحاول تصور علاقة كل مقرنصة ، وهى تشبه محرابا صغيرا أو حنية دقيقة الحجم ، بما يعـلوها ويجاورها ويأتى تحتها من مقـرنصات متعددة الأنواع والأشكال ، وما يصحبها وما يتخللها من تجويفات وقصع ودلايات وغيرها (ش : ١٩٥ ـ ١٩٧) ، وكذلك عندما يحاول المهندس الحديث وضع رسوم هندسية لها من مساقط أفقية ورأسية • هذا فضلا عن الوقت الطويل الذى يبذله فى هذا السبيل • واذا كان هذا هو الحال مع المهندس الحديث الذى درس العلوم الهندسية على أحدث النظم ، فكيف بالمهندس القديم الذى تصورها ووضع تصميمها ثم قام على تنفيذها ؟ ان ذلك يدعونا الى الاعتقاد بأن مثل هذه المعضلات الهندسـية كانت تعد لها رسوم تفصيلية واضحة تساعد على تصورها وعلى تنفيذها ، اذ يكاد يكون من المستحيل عمل تلك المقرنصات بغير رسوم تعد لها وتصوّرها بطريقة ما •

ومما هو جدير بالذكر بهذه المناسبةوعلى سبيل الموازنة ، أن العمـارة المصرية القديمة على الرغم مما تمتاز به من دقة ومهارة فى قطع الأحجار وتسويتها فى أحجام ضخمة ، وكذلك البراعة والتحايل فى طرق نقلها ورفعها ووضعها فى أماكنها ، الا أنها تكاد تخلو من المعضلات العويصة للهندسة الوصفية التى تنشأ من تقابل الأسطح المستوية والمنحنية والكروية • فقـد كانت أسطح الجـدران والأسقف فى العمارة المصرية القديمة تميل دائما الى أن تكون مستوية ، وندر ما كان منهـا منحنيا • أما الأشكال الكروية فانها كادت تخلو منها تماما •



ش : ١٩٦ ـ القاهرة : جامع السلطان حسن
مقرنصات السقيفة الخارجية للمدخل

ولكن الى جانب تلك البراعة والدقة والدراية الهندسية من جانب المعماريين العرب والمسلمين فانه لا مناص من الاعتراف بأن بعض العمائر الاسلامية ، وبخاصة ما يمتاز منها بالضخامة واتساع المساحة ، تكشف طريقة تخطيطها وتنفيذها عن أنه لم يكن يشرف على الواحدة منها مهندس كبير مسئول واحد يقبض على زمام المشروع المعمارى كله من أوله الى آخره ، بحيث يضع المخطط العام ، ثم جميع التصميمات التى تتبعه الى أدق التفاصيل كما يحدث فى الوقت الحاضر • ويبدو لنا أن المخطط العام لم يكن أكثر من رسم مبدئى غير دقيق يشبه ما نطلق عليه الآن « كروكيا » ، يتخذ كدليل يهتدى به فى التخطيط الأخير بالحجم الطبيعى على الموقع نفسه ، كما حدث فى عدة أمثلة يذكرها لنا المؤرخون . فمنها أن أبا جعفر المنصور لما كلف المهندسين بناء مدينته الجديدة « بغداد » طلب أن يرى تخطيطها • فخططت له بالرماد ، وتنقل بين شوارعها ورحابها واعتمد الرسم وأمر بالتنفيذ على مقتضاه [1] • ومنها أن السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى خرج مع المهندسين لمعاينة الموقع الذى اختاره للجامع الذى أراد بناءه ، وعرضوا عليه مقاييسه ، وما يتعلق به ، ثم رسم بين يديه شكل الجامع [2] •

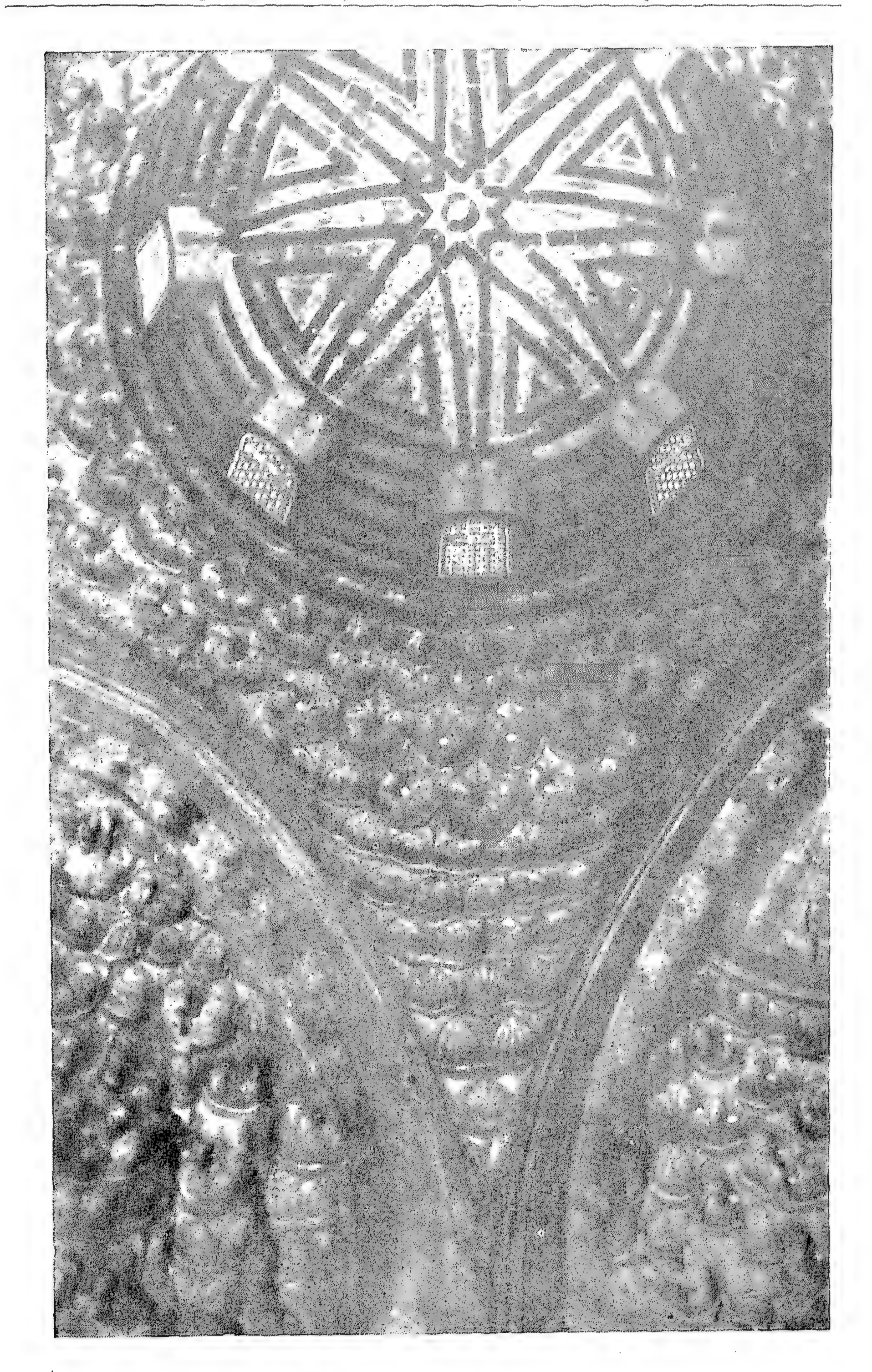
ويبدو أن عمل النماذج المجسمة للعمائر كان معروفا من قديم • ويقال ان أقدم نموذج منها هو قبة السلسلة بجوار قبة الصخرة • اذ شيدت فى أول أمرها ، وقبل تجديدها ، كأنموذج بنيت على نمطه قبة الصخرة التى أراد عبد الملك بن مروان بناءها ، ووصف للمهندسين والصناع ما تخيله من شكلها وتكوينها • فبنوا له قبة السلسلة ، فأعجبته وأمر ببناء قبة الصخرة على هيئتها [3] • ولكن ذلك كان نموذجا مجسما يتجاوز فى حجمه ما هو معروف فى مثل هذه الأحوال • أما النماذج التى عملت بالذهب والفضة وأحيانا بالحلوى [3] ، فلا نظن أنها عملت بقصد تصوير بناء يراد انشاؤه ، بل أعدت لتكون تحفا Bibelots ، تمثل عمائر قائمة تشتهر بالجمال ، أو تتميز بأهمية خاصة •

---

(١) الطبرى : (طبعة القاهرة ــ ١٩٣٩) ، ج : ٦، ص : ٢٣٧، اليعقوبى (طبعةلايدن)؛ البغدادى، (طبعة القاهرة ــ ١٩٣١) : ج/ص ٦٦ ومابعدها ، حسن عبد الوهاب : الرسومات الهندسية للعمارة الاسلامية ، ص : ٧٦ ــ ٧٧ (مقال بمجلة سومر ، العدد ١٤ سنة ١٩٥٨ ، صفحات ٧٦ ــ ٨٧)

(٢) المقريزى ، ج : ٢ ، ص : ٣٠٠ •

(٣) حسن عبد الوهاب : المقال السابق ، ص : ٨٥ •



ش : ١٩٧ ـ القاهرة : جامع السلطان حسن
مقرنصات قبة دركاه المدخل

ومهما يكن من أمر فان العمل فى مشروع معمارى كان ينتقل بعد الخطوة الأولى من تخطيطه على الموقع الى توزيع العمل على جملة مهندسين أو بنائين كبار من مستوى « المعلمين » أو رؤساء الصناع ، بحيث يختص كل منهم بجزء من المبنى حسب قدرته ، ثم يوزع هو العمل فيه الى ما هم دونه من النحاتين والبنائين والصناع وهكذا • وكان يترك لبعضهم شيء من حرية التصرف فى التفاصيل • ويمكن أن نرى مثلا لذلك اذا ما دققنا النظر فى الزوايا الأربع للفناء الأوسط أو الصحن فى جامع السلطان حسن المشهور ، اذ نرى اختلافا فى الحليات والعناصر حول أبواب المدارس الأربع التى وضعت بين الأيوانات الرئيسية ، كما سيأتى بالتفصيل فيما بعد ، ولا ينتج هذا الا من بعض الحرية التى منحت لكل من عمل فى باب من تلك الأبواب •

ويتضح ذلك أيضا فى السور الشمالى لحصن القاهرة الذى بناه بدر الجمالى ، اذ يلاحظ عند بعض مواضع التقاء البوابات أو الأبراج بالأسوار أن لحامات المداميك الأفقية لا تسير فى خطوط واحدة عند تلك المواضع ، فضلا عن اختلاف التفاصيل المعمارية فى بعض القطاعات عن الأخرى ، مثل أشكال فتحات السهام وفتحات التهوية والانارة ، ومثل اختلاف أحجام الأبراج وتصميم الحجرات بداخلها ، وتنوع طرق تغطيتها ، وكذلك فى عدم وجود الجدران على استقامة واحدة، الى غير ذلك من الملاحظات.

ويبدو أن لقب مهندس لم يكن يؤدى نفس المعنى المعروف فى الوقت الحاضر بل كان معناه أحيانا أقرب الى صانع فنى • اذ استوقف نظرنا ما أوصى به السلطان الغورى فى وقفيته على المدرسة والخانقاه والقبة والمكتب المعروفين باسمه فى أول شارع الغورية من جهة شارع الأزهر • ذلك انه جعل فيها مخصصات للنفقة على صيانتها من حيث مرتب لاثنين «مهندسين» ، واثنين «سباكين» ، واثنين «مرخمين» ، ونجار واحد [١] •

كذلك يبدو أن النظام الذى كان متبعا فى العصور العربية الاسلامية ، أن يكون المهندس هو المقاول الذى يخطط ثم يشرف على البناء بنفسه • ويتضح ذلك مما ذكره المقريزى مثلا عن بناء المدرسة الأقبغاوية فى الجامع الأزهر اذ قال : « المعلم ابن السيوفى رئيس المهندسين فى الأيام الناصرية ، بنى المدرسة الأقبغاوية فى الأزهر ومئذنتها وقبتها بالحجر ، وهى أول مئذنة عملت بديار مصر من الحجر بعد المنصورية ، وانما كانت قبل ذلك تبنى بالاجر • وهو الذى تولى بناء جامع الماردينى خارج باب زويلة وبنى مئذنته ايضا [٢] •

***

(١) على مبارك : الخطط الجديدة ، ج : ٥ ، ص : ٦٤ .
(٢) المقريزى : ج : ٢ ، ص : ٣٨٤ .

ومن أهم ما يتصل بدراسات العمائر الاسلامية حجج الأوقاف الخاصة بالعقارات التى عنى المقتدرون ببنائها أو شرائها ، مثل الوكالات والخانات والفنادق والربوع والحوانيت والطواحين والأفران والمخابز وغيرها ، بالاضافة الى الأطيان ، وذلك لتحبس غلتها وليصرف منها على العمائر الدينية التى شيدوها مثل المساجد والمدارس والخانقاوات ، ثم العمائر المدنية العامة مثل المارستانات والأسبلة والكتاتيب • وتفيد هذه الحجج دراسات تاريخ العمارة فائدة كبيرة لما تضمنته من أوصاف تفصيلية دقيقة لكثير من تلك العمائر ووحداتها وتفاصيلها • ولا شك أن من حرر تلك الوثائق قد استعان بفنيين متضلعين فى صناعة البناء وغيرها من الصناعات • فلقد جاء الوصف فى معظمها دقيقا يتضمن ألفاظا ومصطلحات فنية لا يعلمها الا أهل الخبرة والمختصون المتمرسون • وكان يسبق تلك الأوصاف ديباجة طويلة من نصوص معروفة مستخدمة فى تلك المناسبات ، مثل أسماء القاضى والشهود وصاحب الوقفية والجهات الموقوفة عليها ، وأوجه الصرف من صيانة ومرتبات الى غير ذلك • وكانت أغلب الحجج على هيئة ملفات طويلة من رق الغزال أو الورق ، يصل طولها أحيانا الى نحو خمسة وأربعين مترا ، مثل حجة قايتباى ، وكانت من الرق بعرض يقرب من ٤٠ سم [١] •

وترجع أقدم الحجج الباقية التى جاء فيها وصف العقارات وتفيد فى دراسات الآثار الى عام ٦٨٥ هـ (١٢٨٦ م) ، هى حجة المنصور قلاوون، ويبلغ طولها نحو ٢٠مترا، وهى من الرق ، وتخص مجموعة العمائر التى شيدها متلاصقة مكان القصر الفاطمى الغربى • وكانت تلك المجموعة تتكون من مدرسته ومدفنه اللذين بقيا حتى الآن ، ومن المارستان الذى كان متصلا بهما ولم تبق منه الا بعض الجدران وبعض وحدات وغرف ذات أسقف من أقبية •

ولم يصل الينا من الحجج ما يسبق حجة قلاوون • غير أن المقريزى قد أورد فى خططه جزءا من حجة وقف الحاكم بأمر الله الفاطمى على الجامع الأزهر • ولا يتضمن ذلك الجزء شيئاً هاما يستفاد منه فى دراسة الجامع من الناحية المعمارية والأثرية [٢] •

ويتضح من كتابات المؤرخين أن نظام الأحباس أو الأوقاف كان معروفا منذ أقدم العصور الاسلامية • واليه يرجع الفضل فى المحافظة على تراث أثرى ثمين

---

(١) معلومات مستقاة من الدكتور عبد اللطيف ابراهيم على الاستاذ المساعد بقسم الوثائق والمكتبات بكلية الآداب بجامعة القاهرة والذى تخصص فى دراسة هذه الحجج ونشر كثيرا منها مع تحقيق البعض •

(٢) المقريزى : ج : ٢ ، ص : ٢٧٣ ــ ٢٧٥ •

ما كان ليبقى لولا ما حبس عليه من نفقة لصيانته وحفظه . وتوجد كنوز من تلك الحجج فى محفوظات وزارة الأوقاف . وكانت توجد أعداد كبيرة أخرى فى المحكمة الشرعية القديمة وفى دار المحفوظات ، وهى الجهات الرسمية التى كانت تتعامل فى مثل تلك الوثائق . وهى كنوز تعتبر مراجع هامة فى الدراسات الأثرية ، وقد بدأت الأنظار تتجه اليها منذ عهد قريب ، ونرجو أن يزيد الاهتمام بها لاستخدام محتوياتها فيما يفيد الأبحاث الأثرية .

وأصبح لدينا الآن مجموعة من أهم الوثائق المعمارية والأثرية تتمثل فى مجموعة محاضر حفظ الآثار العربية التى كانت تقوم بالهيمنة على الآثار العربية وما يختص بها من دراسات أثرية وهندسية وأعمال ترميمها وصيانتها ، وكانت تشرف وتتعاون مع ادارة حفظ الآثار العربية التى كانت تتبع وزارة الأوقاف ، ثم ضمت الى مصلحة الآثار التى كانت تتبع وزارة المعارف ثم التربية والتعليم ، وأخيرا أصبحت احدى مصالح وزارة الثقافة والارشاد القومى ، ثم تبعت وزارة السياحة التى أنشئت منذ عهد قريب ، ثم تبعت وزارة الثقافة مرة أخرى .

كانت لجنة حفظ الآثار العربية تجمع أعضاء مختلفى الثقافات والجنسيات ، ولكنهم كانوا يلتقون بتأثير دافع مشترك هو الشغف بالتراث الأثرى العربى الاسلامى فى مصر ، ومحاولة الاحتفاظ به مصانا مكرما . فكان من أعضاء اللجنة مصريون من مهندسين ومؤرخين ، ومثلهم من الفرنسيين والألمان والانجليز والايطاليين ، كانوا يجتمعون لبحث شئون الآثار العربية الاسلامية ، ودراسة التقارير المقدمة من الأثريين المعينين بادارة حفظ الآثار العربية والتى تتضمن دراسات وافية عن الآثار وطرق اصلاحها والمحافظة عليها . وكانت تتضمن أيضا تلك التقارير بحوثا أثرية ذات قيمة علمية كبيرة ، لا زال لها وزنها وخطرها حتى الآن ، وبخاصة انها سجلت كثيرا من العمائر الأثرية بحالتها التى كانت عليها فى وقت كتابة التقارير عنها ، ثم طرأ بعض التعديل عليها والتجديد فيها أو أزيل بعضها عن اهمال أو عن عمد . وكانت تصحب تلك التقارير عادة احصائيات وميزانيات . كما كانت ادارة حفظ الآثار العربية تعنى بطبع تلك التقارير والمحاضر فى كراسات سنوية بلغ عددها نحو ٣٩ كراسة ، وبدأت أولها فى الظهور سنة ١٨٨٣ ، وتتابع طبعها ، عدا بعض فترات كانت منها فترة الحرب العالمية الأولى ، وهى على حالتها من العناية بالتقارير والدراسات حتى سنة ١٩٤٦ . وكانت تصدر طوال هذه الفترات التى بلغت ٦٤ سنة باللغة الفرنسية ، وكانت تصحبها طبعة بالعربية منذ سنة ١٨٨٣ حتى عام ١٩١٠ ، ثم أبطلت ، واستمرت الطبعات الفرنسية فى الصدور . غير أن العناية بتلك التقارير والأبحاث قد فترت منذ سنة ١٩٤٦ ،

وبخاصة عندما ضمت الى مصلحة الاثار التى كان يقوم على رئاستها مديرون أغلبهم من المشتغلين بالاثار المصرية القديمه الذين كانوا يبذلون اكثر جهدهم وعنايتهم للاثار التى تدخل ضمن اختصاصاتهم • ومن ثم فقد ندرت العنايه بالاثار العربية الاسلاميه، ولكنها استمرت تسير بتاثير قوة الدفعات الاولى أيام لجنة حفظ الاثار العربية ، واصبح الأثريون الذين يعملون فى ميدان الاثار الاسلامية اقرب الى موظفين اداريين منهم الى باحثين اثريين • ومما يزيد اسفنا على هذه الحال ان يحدث هذا فى الوقت الذى أصبح كل اولئك الاثريين من المصريين ، ومن ثم فقد صار الاعتماد الان على تلك البحوث والدراسات التى قام بها الاثريون الاجانب ايام لجنة وادارة حفظ الاثار العربية ، وحفظتها لنا تلك الكراسات التى أصبحت الان والحالة هذه من أهم مراجع البحوث عن العمارة الاسلامية • أما الكراسات التى تقوم الآن مصلحة الاثار بطبعها فلا تتضمن اكثر من بضع كلمات روتينية مكررة لا تمت للبحث العلمى بصلة، ولا يخرج القارىء منها باية فائدة علمية •

***

ومن أهم المخلفات المادية الهامة التى تساعد على تتبع تطور الحضارة الاسلامية والعمارة فى مصر ، نوعان من الوثائق الأثرية : أحدهما المسكوكات ، والثانى شواهد القبور •

وتشمل المسكوكات أنواع النقود من دنانير ذهبية ودراهم فضية وفلوس نحاسية وبرونزية ، ثم الأختام الرصاص • كما تشمل الصنج الزجاجية ، وهى المعايير والموازين التى كانت تضرب على أساسها تلك النقود والأختام • وتأتى أهمية المسكوكات والصنج من أنها تؤدى للدراسات الأثرية خدمات جليلة ، كما تؤدى ما يوازيها لعلوم التاريخ السياسى والاجتماعى والاقتصادى •

ولا تحتوى المسكوكات والصنج على عناصر زخرفية الا فيما ندر • ولكنها تكشف من جهات كثيرة عن تطور أساليب الصناعة من صب أو ضغط أو حفر أو غير ذلك • ثم عن أسماء وألقاب خلفاء وولاة وحكام ، وتواريخ تتعلق بهم وتتعلق بالصلات بين الأقطار المختلفة ، مما قد يصحح معلومات أو يسد فجوات فى وثائق أثرية أو تاريخية أخرى • كما يؤدى العثور على مثل تلك النقود والصنج الى تعيين تواريخ الأمكنة التى وجدت بها ، والتطورات والاحداث التى تتابعت على تلك الأمكنة [1] •

(١) ظهر كتاب جديد لعالم عربى متخصص هو الدكتور عبد الرحمن فهمى أمين قسم المسكوكات بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، عنوانه «مجموعة النقود العربية وعلم النميات» ــ الجزء الاول « فجر السكة العربية » (القاهرة ١٩٦٥) ، وهو الآن أستاذ مساعد بقسم الآثار بجامعة القاهرة .

وتقوم شواهد القبور بأداء مساعدات للدراسات الأثرية والحضارية ، تشبه ما تؤديه لها المسكوكات والصنج ، وتزيد عنها فى انه يمكن منها تتبع تطور عنصر هام من عناصر الحضارة والفنون الاسلاميه فى وضوح أكثر هو الكتابه العربية ، وذلك من ناحية النصوص واساليب الكتابة ، وما ينتج من ذلك من فائدة عند موازنتها بالكتابات الاثريه واساليب الصناعه التى توجد فى انواع العمائر والتحف الاثرية الاخرى • ويوجد الوف من شواهد القبور بمخازن مصلحة الاثار اخذ اغلبها من القرافات الاسلامية من مختلف بقاع القطر ، ولم يترك الا النادر القليل فى مكانه • ونشير بهذه المناسبة الى كارثة اثرية حدثت فى اسوان • فقد نزل مطر غزير غير عادى احدث سيلا عرما اكتسح جبانات أسوان فى عام ١٨٨٦م • وهو أمر يعتبر شاذا لم يحدث فى تاريخ تلك المدينه فيما يذكره الناس • وغرقت المقابر وذابت جدران كثير منها وسقطت • غير أن الكارثة الكبرى جاءت على أيدى الموظفين الانجليز والفرنسيين بعد ذلك عندما أصدروا أوامرهم بجمع شواهد القبور التى كانت مثبتة على الجدران أو فوق القبور ، وبذلك ضاعت الصلة تماما بين كل شاهد منها وبين القبر الذى كان يخصه ويعيّن تاريخه واسم صاحبه • وتحدث بدج Budge [1] عن هذه الكارثة ، فحمّل الموظفين المصريين فى ذلك الوقت كل الوزر فى حدوث تلك الكارثة الأثرية • ولكن مونيريه الايطالى Monneret de Villiard كان منصفا الى حد كبير حين أوضح فى كتابه عن جبانات أسوان بالايطالية [2] ، أن المسئول الأول عن ذلك هم الرؤساء الأجانب من انجليز وفرنسيين ، وهم الذين كانوا فى متحف بولاق فى ذلك الوقت ، اذ أظهروا غيرة فى غير محلها أضرت ضررا بالغا بتلك المقابر ، فقد أمروا بجمع الشواهد كلها بغير أن يسيروا على المنهج الأثرى العلمى السليم ، من حيث وضع علامة أو رقم على الشاهد ومثله على المكان الأصلى الذى كان به • ويقول مونيريه والحسرة تملأ قلبه : « ان من سوء حظ هذه المقابر أنها اسلامية ، وما كان ليحدث لها كل هذا الاهمال المعيب لو كانت فرعونية [3] » • وبذلك ضاعت أدلة علمية كان يمكن على أساسها كتابة تاريخ العمارة العربية الاسلامية فى اسوان ، وتاريخ جبانة من أقدم الجبانات فى العالم العربى الاسلامى كله •

ويقدر عدد الشواهد التى أرسلت من أسوان الى دار الآثار العربية ، أو متحف الفن الاسلامى حاليا ، نحو ٦٠٠ شاهد فى عام ١٨٨٨ ، وأرسل مرة أخرى فى سنة

---

(١) Budge : By Nile and Tigris, I, pp. 97-99, (1920).

(٢) Monneret de Villard : La Necropoli musulmani di Aswan (1930).

(٣) M.A.Eg., I, pp. 132-133.

١٨٩٦ نحو ٤٦١ شاهدا كاملا و ٦٤٣ شاهدا مكسورا ، وترك عدد كبير فى مدينة أسوان ، مكوّما فى مقبرة فرعونية ، وعرض قليل منها فى متحف جزيرة أسوان •

ومما هو جدير بالذكر ، أن مونيريه قد قام بفحص نحو ٦٠٠ منها ، فوجد أن ٤٦٩ شاهدا يقع تاريخها بين عامى ٢٠٠ و ٢٦٦ هـ (٨١٥و٨٧٨م) • أى فترة ٦٦ عاما تسبق اعلان أحمد بن طولون استقلاله عن الخلافة العباسية • ويقع تاريخ ١٢ شاهدا قبل ذلك • ثم يأتى تاريخ ٥١ شاهدا فى العصرين الاخشيدى والفاطمى المبكر، و ٣٨ شاهدا من العصر الفاطمى الوسيط ، وثلاثة شواهد فقط من العصر الفاطمى المتأخر • ويمكن بطريقة الموازنات أن نستخلص من تلك الشواهد نتائج حضارية لها قيمتها ، وسنتناول شرحها بالتفصيل فيما بعد (ص : ٥٣٩ ــ ٥٨٠) •

وقد حفظت تلك الأعداد الكبيرة من شواهد القبور ، بالاضافة الى الأعداد الأخرى التى جاءت من قبور العاصمة والبلاد الأخرى ، فى خانقاه فرج بن برقوق بقرافة المماليك الشمالية والمعروفة بقرافة « قبة الخفير » • وأخذت منها بضعة نماذج معروضة الآن فى متحف الفن الاسلامى [1] •

***

وتقوم أعمال الحفر عن الآثار المطمورة فى باطن الأرض بدور هام فى الكشف عن مخلفات مادية عظيمة القيمة فى دراسات الآثار • فهى أحيانا تكشف عن تحف متناثرة ، وأحيانا عن بقايا مدن كانت عامرة وأصابها الخراب وعفت عليها الأيام ، وربما نسيها الناس • وتلعب الصداقة أحيانا دورها فى الكشف عن البقايا الأثرية ، كما حدث مثلا مع آثار مدينة بومبايى الرومانية التى طمرتها الأتربة والمواد التى قذفها بركان فيزوف فى نابولى ودفن أهلها بعد احراقهم أحياء • وكشف معول أحد المزارعين عن أول خيط اهتدى به العلماء للسير بحفائر قادتهم الى كشف تلك المدينة الكبيرة التى ملأت آثارها فجوات هامة فى تاريخ الحضارة الرومانية •

وتختلف طبيعة الحفائر الاسلامية وخاصة فى مصر عنها فى المناطق الأخرى• ذلك أن ما أصاب الأحياء القديمة من مصر الفسطاط ، أى العاصمة القديمة ، من استعمالها مقالب عمومية ترمى بها المخلفات التى صارت أثرية بمرور الزمن ، أصبح

---

(١) نشرت دار الآثار العربية (متحف الفن الاسلامى حاليا) عدة مجلدات تتضمن نصوص وصور شواهد القبور هذه . جمع المجلد الاول منها حسن الهوارى وحسن راشد سنة ١٩٣٢ . ثم نشر جاستون فييت المجلد الثانى سنة ١٩٣٦ ، ونشر حسن الهوارى وحسين راشد المجلد الثالث سنة ١٩٣٩ ، واكمل فييت بقية المجلدات من الرابع الى العاشر بين سنتى ١٩٣٦ ، ١٩٤٢ .

لا يسمح بتطبيق نظم الحفائر العلمية عليها • فقد كانت المخلفات ترمى فوق بعضها حتى تكونت منها تلال عالية ، واحد بعد الآخر • اذ بعد أن يرتفع التل الأول يبدأ تكوين طبقات التـل التالى بمخلفات العصر الذى انتهى به التـــل السابق من أعلاه وهكذا •

كل ذلك قد جعل نظام الحفائر فى تلك المناطق يحتاج الى طرق خاصة فى ترتيب الآثار التى يعثر عليها فى الطبقات التى يكشف عنها من أنواع التحف المنقولة •

وتختلف الحفائر الخاصة بالعمائر الأثرية من تلك الناحية عن التحف المنقولة • فان العمائر الأثرية يأتى ترتيبها التاريخى فيما تكشف عنه الحفائر حسب تتابعها فوق بعضها ، مما يسهل أمر دراساتها وموازناتها •

وقد زودتنا الحفائر القليلة التى أجريت فى منطقة الفسطاط والعسكر ببعض المعلومات الأثرية عن معيشة الناس منذ عصر الولاة حتى أواخر العصر الفاطمى الذى حدث فيه ذلك الحريق التاريخى الكبير ، وأصاب معظم المنطقة بخراب شديد ، وكان قد أضرمه شاور أحد وزيرى العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، وجعل الناس يهجرون الجزء الأكبر منها ، ويستمرون فى سكنى الجزء الباقى حتى العصر المملوكى • ولكن مما يدعو الى الأسف أن تلك الحفائر ، التى قام بها المرحوم الأثرى على بهجت مع المهنـدس الفرنسى ألبير جابريل بين سـنتى ١٩١٢ و ١٩٢٠ [١] وفى منطقة ضـيقة من ذلك الخـراب الكبير ، لم تتكرر مرة أخـرى الا فى العسـكر وفى نطاق أضيق عثر فيها على بقـايا بيت يرجع الى العصر الطولونى وحمـام من العصر الفـاطمى ، وكشف ذلك فى سنة ١٩٣٤ باشراف المرحوم حسن الهوارى [٢] •

ومما يؤسف له أيضـــا أن منطقة العسكر والفســـطاط القديمة قد تعرضت لتخريب شديد فى العصور الحديثة • فقد فتحت المحاجر حولها وفى وسطها فنسف جزء كبير من المدينـة كان مردوما تحت الأرض [٣] • كما نبشت أنقـاض البيـوت لاستخراج الأجر منها • وتحولت تلال الردم التى علت فوق أنقاض المدينة الى سباخ

---

(١) على بهجت والبير جبرييل : حفريات الفسطاط (١٣٤٧ هـ ، ١٩٢٨) • وهى ترجمة قام بها على بهجت ومحمود عكوش للاصل الفرنسى الذى نشر سنة ١٩٢١ •

(٢) نشر حسن الهوارى بحثا عن البيت الطولونى باللغة الفرنسية Une maison de l'époque toulounnde, (Bull. de l'Institut d'Egypte, XV, (1932-33, pp. 79-87 ,10 plates.

(٣) ونشرت له ترجمة بالعربية فى مجلة الهندسة ، العدد ١٥ (١٩٣٥) ، صـفحات ٢٩٠ الى ٣١٥ • ومعها نفس اللوحات •

لتسميد الأراضى ، وأخذ المتعهدون فى رفع كميات كبيرة منه كان يظهر بينها مخلفات أثرية هامة لم يدخل دار الآثار العربية منها الا النادر ، وذلك عن طريق الشراء فيما بعد . كما أخذت من تلك التلال أتربة كثيرة لردم بعض منخفضات جزيرة الروضة فى سنة ١٩٠٥ دون أن يراعى ما عساه يظهر من تحف تحتوى عليها ، أو أن تصان أنقاض العمائر التى تكشف فى أثناء الحفر [١] . واضطر على بهجت وألبير جابرييل الى الاستفادة من عملية استخراج السباخ ، ووصلا بذلك الى كشف جانب من المدينة كان فيه جملة مبان تتفاوت أهميتها ، ولكنها تتشابه من حيث التخطيط وأساليب البناء، على ما بينها من مسافات متباعدة [٢] .

وقد عادت عمليات الحفريات على دار الآثار العربية بفوائد جمة ، اذ زودتها بتحف أثرية كثيرة ، منها خزف مدهون بالمينا عليه كتابات ورنوك أى شارات سلاطين مصر وأمرائها ، ثم قطع من الزجاج المموه بالمينا عليها زخارف ورسوم وكتابات وشارات ، وبقايا أثاث وقطع خشبية وأغلاق وضبب وسماعات أبواب ، وأدوات مطبخ ومباخر ولعب أطفال ، وأمشاط وأدوات زينة ، ووثائق من البردى ومخطوطات على الورق ، وتيجان أعمدة من الرخام والحجر وزخارف من الجص، الى غير ذلك من الآثار التى توضح معيشة الناس الذين أقاموا بتلك المناطق ، وهم من صميم عامة الشعب .

ولا زالت أغلب تلك المساحات الشاسعة من منطقة الفسطاط والعسكر تحوى، فى باطنها كنوزا أثرية تنتظر من يكشف عنها . وتقوم الآن بعثات أجنبية بعمل حفائر على نطاق ضيق فى بعض بقاع تلك المنطقة . أما مصلحة الآثار فانها تكتفى بوظيفة المراقبة والمشاهدة .

وتأتى أهمية ما تحتوى عليه منطقة العسكر والقطائع من أن الدور والمنازل التى كانت فيها وأصابها الخراب وطمرتها الأتربة والمخلفات ، يمكن أن تزودنا بقاياها بنظام تخطيط المساكن القديمة التى استمر العمران فيها فى باقى أنحاء العاصمة . ذلك أن بناء العمائر السكنية لم يكن أسلوبه قويا تبذل فيه العناية مثل التى كانت تبذل فى بناء العمائر الدينية والحربية والمدنية العامة . هـذا بالاضافة الى ما تتعرض له المساكن عادة من دوام استعمالها طوال الليل والنهار وما كانت تحتويه من دورات للمياه لم يكن يعنى بتصريف المياه منها ولا بصيانة جدرانها مما كان يتسرب اليها من

(١) حفريات الفسطاط ، ص : ٢ .
(٢) المرجع السابق ، ص : ٣ .

رطوبة • وهى عوامل كانت تتضافر على سرعة استهلاك مبانى العمائر السكنية ، الأمر الذى كان يترتب عليه هدمها وبناؤها من جديد فى عصور متعاقبة ، فينسخ الجديد منها القديم المندثر ، وهكذا لا يتبقى الا المساكن التى شيدت فى عصور متأخرة فى المناطق التى بقيت عامرة من العاصمة على مر القرون • وكل ذلك يجعلنا نتطلع الى المناطق التى لا زالت مطمورة فى الفسطاط والعسكر ، انتظارا لما تكشف عنه الحفائر هناك من حلقات مفقودة فى تطور العمارة السكنية الاسلامية فى مصر ، والتى نرجو أن يقوم بها الأثريون من العرب المصريين •

وقامت الصدفة من جانبها بالكشف بضع مرات عن أجزاء من أسوار حصن القاهرة الفاطمى التى شيدت ثلاث مرات : أولاها أيام جوهر الصقلى فاتح مصر ، وثانيتها أيام بدر الجمالى وزير المستنصر بالله الفاطمى ، وثالثتها أيام وزارة صلاح الدين الأيوبى للخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين • كما كشفت عن أجزاء من أسوار العاصمة الكبيرة التى تكونت من الأحياء المأهولة أيام سلطنة صلاح الدين يوسف مؤسس الدولة الأيوبية ، وأصبح حصن القاهرة الفاطمى واحدا من تلك الأحياء • ولكن كانت الأتربة تعود لتطمر أغلب ما ظهر من تلك الأجزاء ، مع ما له من قيمة أثرية كبيرة ، بغير أن يتم تسجيله بالطرق العلمية ، وبغير أن تنشر عنه أبحاث تستفيد منها دراسات الآثار •

***

وتعد الديار المصرية من أغنى بقاع العالم العربى الاسلامى بالعمائر الأثرية العربية وربما كان عددها فى القاهرة العاصمة وحدها يفوق كل ما فى قطر آخر • كما توجد آثار معمارية فى مدن أخرى من الجمهورية العربية ، ولكنها متناثرة هنا وهناك فى الوجهين البحرى والقبلى ، غير أن أغلبها قد جدد فى العصور الحديثة ، مما أضاع قيمتها المعمارية والأثرية •

وتنتشر الآثار الاسلامية العربية من العمائر القديمة فى أنحاء القاهرة العاصمة على هيئة مجموعات ، يكثر عددها أو يقل حسب المنطقة التى توجد بها تلك الآثار • وذلك من ناحية عدد السكان ، ومن ناحية قدم عمرانها وفترة بقائه فيها •

وبمناسبة ذكر العمائر الأثرية فى القاهرة العاصمة نود أن نلفت الأنظار الى ما يتصل بمدلول لفظ «القاهرة» القديم من معلومات خاطئة شاعت بين الناس على اختلاف ثقافاتهم حتى أصبحت وكأنها حقائق لا تقبل الشك أو المناقشة •

وتتلخص تلك المعلومات الخاطئة فيما يلى : ـ

أولا : أن «القاهرة» التى أمر المعز لدين الله الفاطمى قائده جوهر الصقلى بنائها بعد فتح مصر ، كانت مدينة بدأ تشييدها فى سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م) •

ثانيا : أن «القاهرة» هذه هى التى أصبحت عاصـــمة الديار المصرية منذ ذلك الحين •

ثالثا : أن « القاهرة » هذه اذن يبلغ عمرها نحو ١٠٢٧ عاما هجريا ، أو نحو ١٠٠٠ عاما ميلاديا •

وقد ساعد على انتشار هذه المعلومات الخاطئة وتصديقها كثرة ما تنافس الأثريون والمؤرخون المحدثون من عرب وأجانب على ترديده على صفحات الكتب والمجـلات العلمية والثقافية والجرائد والأحاديث الاذاعية من خلط فى أقوالهم بين « القاهرة » قلعة الفاطميين ، وبين عاصمة الديار المصرية التى أصبحت تعرف باسم « القاهرة » فى العصور الحديثة • ويبدو أن بعض هؤلاء الكتاب قد وقع فى تلك الأخطاء نتيجة لغموض الحقائق التاريخية عليه ، ووقع البعض الآخر فيها نتيجة لمحاولتهم التمشى مع الاتجاه الى الاحتفال بالعيد الألفى لتلك العاصمة ، ولو كان ذلك على حساب الحقائق التاريخية الصحيحة •

فمن ناحية ما يتصل بالاعتقاد بأن قاهرة المعز كانت مدينة أو عاصمة ، نجد أننا لو أمعنا النظر فيما جاء فى أقوال المؤرخين القـدماء عن القـاهرة المعـزية ، ثم حللنا ما ذكروه عنها تحليلا دقيقا ، لرأينا أنهم على الرغم من تسميتهم لها «بالمدينة» أحيانا ، فان وصفهم لوظيفتها فى العصر الفاطمى بعيد عن أن يوحى بأنها مدينة حقيقية أو عاصمة يسكنها الخاص والعام من الشعب مثلما كانوا يصفون الفسـطاط والعسكر ، وكما كان العرف سائدا فى جميع العصور بالنسـبة للمـدن والعواصم والتى لم يأت فى التعريف بها أن سكناها كانت قاصرة على الحاكم وعلى خاصته •

وقد ذكر هؤلاء المؤرخون فى كل المواضع تقريبا التى جاء بها ذكر « القاهرة » فى مؤلفاتهم ما يدل فى وضوح وجلاء تامين على أنها شيدت لغرض محدد هو أن تؤدى وظيفة القلعة أو الطابية فحسب ، بحيث يتحصن بها الخليفة الفاطمى وآل بيته وخاصته وقواد جيوشه وجنده ورجال دولته • ويمكنهم الدفاع منها عن العاصـــمة الحقيقيـــة التى كانت تتكون من الفساط والعســكر والقطائع ، وتســكنها الرعية من خاصة الناس وعامتهم • وهو أمر كان محرما عليهم بالنسبة لحصن القاهرة الفاطمى•

خريطة لفسطاط مصر

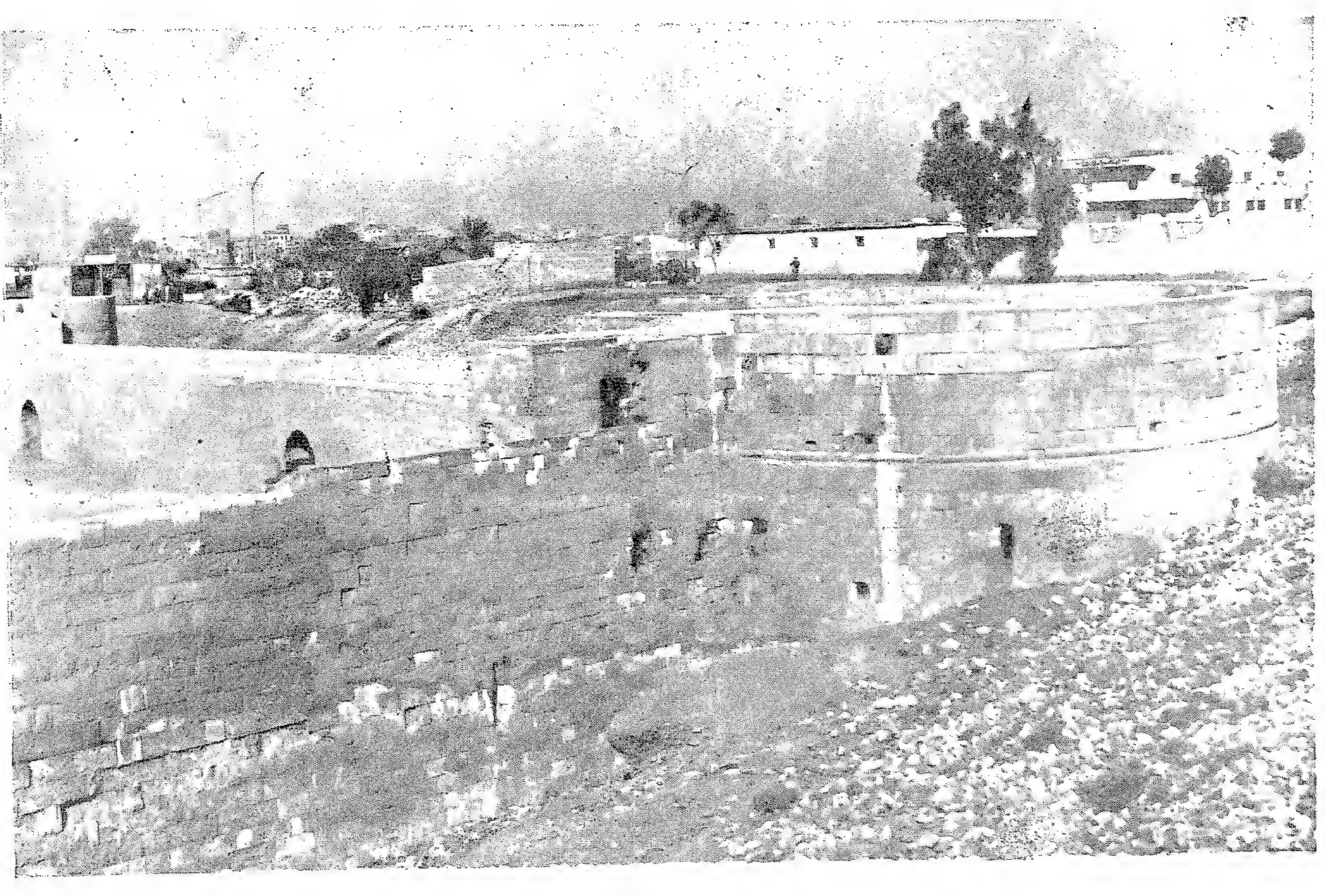
ش : ١٩٨ ـ خريطة العاصمة القديمة أيام صلاح الدين

وليس أصدق على صحة ذلك من أن جوهر الصقلى لم يتردد منذ أول لحظة فى أن يختار لحصن القاهرة موضعا يبعد عن العاصمة الحقيقية بنحو كيلومترين ، وكان يفصله عنها بركة الفيل الكبرى وبركة الفيل الصغرى • ولم يدخل هذا الحصن ضمن نطاق العاصمة الكبيرة الا بعد تأسيسه بمائتى عام تقريبا • وذلك بعد أن انتهت أيام الدولة الفاطمية وبدا عصر الأيوبيين بالسلطان صلاح الدين الأيوبى الذى فتح أبواب الحصن للخاصة والعامة من الشعب ، وسمح للجميع بأن يشيدوا بداخل المنطقة التى كان يشغلها الحصن ما شاءوا من الدور والمتاجر والعمائر الدينية على اختلاف أنواعها • ولم يحدث ذلك الا بعد أن شيد صلاح الدين لدولته الأيوبية الجديدة حصنا آخر يتمتع بميزات دفاعية كبيرة تجعله أكثر مناعة من حصن القاهرة • وسمى الحصن الجديد « بقلعة الجبل » ، ويعرف الآن « بقلعة صلاح الدين » والتى بقيت واضحة لأنظار من فى العاصمة كلها حتى حجبتها القلعة التى شيدها محمد على وتحتوى على جامعه وعلى قصره المسمى « بقصر الجوهرة » •

أما العاصمة الحقيقية ، فكانت حيث تسكن الرعية من عامة الشعب وخاصته فى منطقة الفسطاط والعسكر والقطائع • فقد ظل الناس يقيمون فى تلك البقاع حتى نهاية الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية بل الى ما بعد ذلك • ثم اتسعت رقعة العاصمة عندما ضم صلاح الدين الى تلك المناطق ما استجد من أحياء وخطط نبتت فى المنطقة التى كانت تشغل أغلبها بركتا الفيل الصغرى والكبرى ، وكانت كما سبق القول ، محصورة بين العاصمة القديمة وبين حصن القاهرة الفاطمى الذى أصبح حيا من أحياء العاصمة الكبيرة (ش : ١٩٨) [١] ، ثم أدار عليها جميعا أسوارا طويلة عظيمة من الحجر لا زالت تشاهد بقايا منها فى الشمال والشرق والجنوب ، وكانت تلتقى بأسوار حصن القاهرة الذى أصبح داخل العاصمة التى لم تتغير حدودها الا قليلا فى فترة طويلة تبلغ سبعة قرون ، أى من سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦م) الى حوالى منتصف القرن الماضى ، ثم أخذت منذ ذلك الوقت تتسع مساحتها فى قفزات واسعة ، حتى أصبحت المدينة العظيمة التى يشتهر صيتها فى العالم كله تحت اسم مدينة القاهرة• والتى يصل عدد سكانها فى الوقت الحاضر الى أربعة ملايين نسمة ، ولذلك فمن الواجب أن يؤرخ عمرها بأقدم منطقة فيها ، وهى الفسطاط التى أسسها عمرو بن العاص ومن صحبه من فرسان العرب المسلمين فى سنة ٢١هـ (٦٣٩م) • أى أن عمرها يبلغ نحو ١٣٦٨ سنة هجرية (ونحو ١٣٣٠ سنة ميلادية) ولا يقدر بحوالى

---

(١) خرط الحملة الفرنسية ومصلحة المساحة : ١/٥٠٠٠ ، ١/١٣٠٠٠ ، ١/١٥٠٠٠



ش : ١٩٩ ــ القاهرة الفاطمية : برج الظفر عند الناحية الشمالية الشرقية للحصن

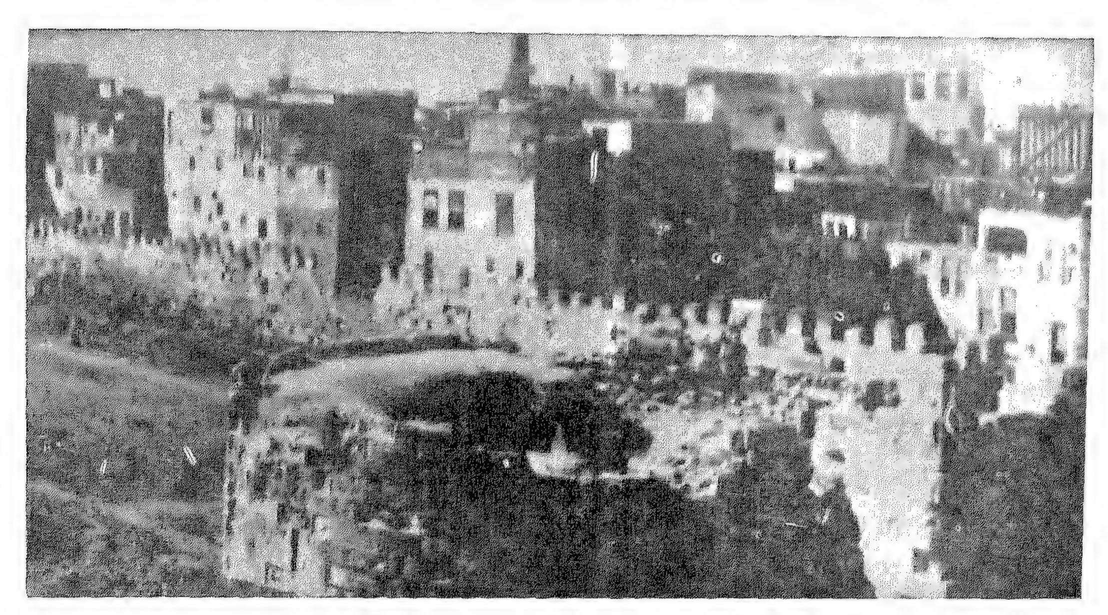
ألف عام فقط كما يحلو للبعض أن يقدروه ، ويخلطون بذلك بين حصن القـاهرة الفاطمى وبين القاهرة الحديثة عاصمة الجمهورية .

ولعل هـذا الخلط قد حدث بسبب اطلاق اسـم حصن الفاطميين الذى سـماه المعز لدين الله بالقاهرة على العاصمة كلها ، وبدأ ذلك منذ أيام الحملة الفرنسـية ، فأخذت منذ ذلك الوقت تشتهر به فى العالم الغربى فى أوربا ، ثم أخذ ينتشر فى العالم العربى وباقى أقطار العالم منذ أوائل القرن الحالى ، مع أن العاصمة الحقيقية كانت تعرف قبل ذلك عند المؤرخين القدماء « بالفسطاط » و « فسطاط مصر » و « مصر » ، ثم أصبحت تعرف منذ القرن الماضى « بمصر المحروسة » و « مصر القاهرة » و « مصر المحمية » كما أثبتتها مطبعة بولاق مثلا فى كتـاب ابن دقمـاق المذكور فى حاشية [1] ص : ٢٨٢ فى تاريخ ١٨٩٢ . . وتطور الأمر مع مرور الوقت فقل استعمال لفظ « مصر » للعاصمة ، وأصبح يطلق على القطر المصرى كله ، ومن ثم فقد اقتصر اسم العاصمة على « القاهرة » .

ويتضح اذن مما سبق خطأ الاعتقـاد بأن قاهرة المعز لدين الله كانت مدينـة أو عاصمة للديار المصرية أيام الفاطميين ، والصحيح انها شـيدت لتكون قلعـة أو حصنا خاصا بالحكومة الفاطمية بقى يؤدى وظيفته هذه حتى قيام الدولة الأيوبية . أى يرجع تاريخه الى الفتح الفاطمى لمصر فى سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) . أى الى نحو ١٠٣٢ سنة هجرية ونحو ١٠٠٠ سنة ميلادية والاحتفال بهذه الالفية اذن هو احتفال بقلعة وليس بعاصمة .

***

ولهذا فاننا نرجو أن يكون واضحا للقراء أننـا سنطلق اسم « حى القـاهرة » فى كتابنا هذا على تلك المنطقة التى كان يشغلها الحصن منذ أيام جوهر الصقلى حتى أيام السلطان صلاح الدين الأيوبى ، وهى المنطقة التى يحدها الآن من الشمال شارع البغالة الذى يبدأ من شارع بورسعيد الحالى، ويمتد نحو الشرق ويكشف جزءا كبيرا من السور الحجرى الكبير وبوابتيه العظيمتين : باب الفتوح وباب النصر . وكل ذلك من عمل بدر الجمالى أمير الجيوش ووزير المستنصر بالله الخليفة الفاطمى فى فترة بين ٤٨٠ و ٤٨٥هـ (١٠٨٧ – ١٠٩٢ م) .ويسير امتداد شارع البغالة بين السور وبين حى الحسينية ومقابر باب النصر حتى يلتقى بشارع المنصورية الذى يوصل بين حى الدراسة وحى العباسية . وتشاهد بقايا برج مستدير معروف ببرج الظفر (ش : ١٩٩) يقع على امتداد البصر نحو الشرق وقرب مقر قلم مرور القـاهرة ، ويعين هذا البرج الناصية الشمالية الشرقية لحصن القاهرة الفاطمى . وكان يمتد بين البرج وبين باب النصر



ش : ٢٠٠ ـ القاهرة الفاطمية : برج درب المحروق ،
عند الناصية الجنوبية الشرقية للحصن

سور من الحجر شيده صلاح الدين فى العصر الفاطمى فى فترة بين سنة ٥٦٧ هجرية (١١٧٢ و ١١٧٥ م) • وبقيت أجزاء من ذلك السور مختفية بين المقابر ، ويقف السور عند حد شارع المنصورية الغربى ولكنه يعود ثانية الى الظهور فى الجهة الشرقية من الشارع ويمتد حتى برج الظفر •

أما الحد الشرقى للحصن فتعينه تلك البقايا من السور الحجرى الذى بناه له صلاح الدين فى العصر الفاطمى فى هــذه الجهة ، وكان يمتد من برج الظفر نحو الجنوب حتى يلتقى ببرج مماثل لبرج الظفر ويقع قرب الدرب الأحمر ، ويعرف ذلك البرج ببرج درب المحروق (ش : ٢٠٠) ، وهو يعين الناصية الجنوبية الشرقية لحصن القاهرة الفاطمى •

وكان يعين الحد الجنوبى للحصن سور يسير بحذاء شارع تحت الربع من ابتدائه من ميـدان باب الخلق القديم (ميـدان أحمد ماهر الآن) ويمتد نحو الشرق ويقع عند وسطه تقريبا باب زويلة المعروف الآن ببوابة المتولى ، ثم يسير حتى يصل الى برج درب المحروق •

وكان هناك سور رابع من الحجر يعين ضلع الحصن من جهة الغرب ، وكان يمتد على الحافة الشرقية للخليج المصرى القديم الذى يحتل مكانه الآن شارع بور سعيد ، مبتدئا فى الشمال عند ميدان باب الشعرية ، ويتجه جنـوبا حتى ميدان باب الخلق •

***

أما أكثر مناطق العاصمة عمرانا بالناس فى العصور العربية الاسلامية القديمة والوسيطة وحتى منتصف القرن الماضى ، والتى كانت ولا تزال تزدحم بالعمائر الأثرية ، فهى المنطقة التى تمتد على هيئة شريط طويل يمتد من الشمال الى الجنوب، وهو غير منتظم الشكل ويقرب من شبه منحرف (ش : ١٩٨) . ويتراوح عرضه بين كيلومترين وثلاثة كيلومترات ، ويبلغ طوله حوالى سبعة كيلومترات . والذى يشغل حى القاهرة الفاطمى الركن الشمالى الشرقى منه .

يحد هذا الشريط من الشمال خط طوله نحو ثلاثة كيلومترات . ويبدأ طرفه الشرقى عند الناصية الشمالية الشرقية لحصن القاهرة والتى يعينها برج الظفر قرب قلم المرور ، وينتهى طرفه فى الغرب عند ميدان محطة مصر تقريبا . ويقسم شارع بورسعيد الحالى ذلك الحد الشمالى للشريط الى قسمين : يعين القسم الشرقى منهما سور الحصن الفاطمى الذى أشرنا اليه ويوجد به باب النصر وباب الفتوح ، ولا تزال بقاياه واضحة المعالم ، وتمتد بين برج الظفر قرب مبنى قلم المرور القديم وبين شارع بورسعيد الذى يشغل مكان الخليج المصرى القديم عند باب الشعرية . وقد ردم الخليج المصرى فى حوالى سنة ١٩٠٠ ، ليمر الترام فيه [١] .

أما النصف الغربى من الحد الشمالى ، فانه يمتد من ميدان باب الشعرية حتى شارع الجمهورية ، حيث كان يوجد شاطىء النيل الشرقى حتى أواخر عصر المماليك البحرية وقبل أن ينحسر ذلك الشاطىء نحو الغرب لتصبح المنطقة التى بها أحياء بولاق والسبتية وجزء من حى شبرا متصلة بالعاصمة ، وحدث ذلك فى عصر المماليك البرجية ، كما سنشرحه تفصيلا فى موضعه .

أما الضلع الشرقى للشريط ، فتعينه بقايا السور الذى شيد بعضه صلاح الدين الأيوبى لحصن القاهرة الفاطمى ، أيام وزارته للعاضد آخر خلفاء الدولة الفاطمية . وشيد بقيته صلاح الدين نفسه وعلى يد وزيره بهاء الدين قراقوش بعد أن خلع ذلك الخليفة وأصبح أول سلطان فى الدولة الأيوبية .

وقد أشرنا من قبل الى ذلك الضلع الشرقى الذى بناه صلاح الدين ، فى أيام وزارته لحصن القاهرة الفاطمى ، والذى كان يمتد من برج الظفر شمالا الى برج درب المحروق جنوبا ، والذى يقع عند تقابل الضلع الشرقى بالضلع الجنوبى على امتداد شارع الدرب الأحمر الحالى نحو الشرق . أما الجزء الذى أضافه صلاح

---

(1) M.A.E., I, p. 23.

الدين بعد توليه السلطنة فانه يمتد مسافة أكثر قليلا من كيلومتر ويتجه جنوبا من برج درب المحروق حتى يمس الضلع الغربى من قلعة الجبل ، والتى بناها صلاح الدين أيضا بعد توليه السلطنة ، ثم يمتد الجزء الباقى من السور الذى كان يحد العاصمة القديمة من الشرق مسافة تبلغ نحو أربعة كيلومترات ونصف ، من موضع قلعة صلاح الدين فى اتجاه الجنوب بانحراف نحو الغرب ، ويسير فى عدة خطوط متكسرة ومتعرجة حتى يلتقى بالحد الجنوبى لذلك الشريط ، الذى يبدأ على شاطىء النيل فى موضع بين حى مصر القديمة وبين منطقة دار السلام الحالية ، ويتجه شرقا بانحراف نحو الشمال .

وكان الحد الغربى لذلك الشريط يبدأ فى الشمال عند ميدان محطة مصر ، ويسير متجها الى الجنوب مارا بشارع رمسيس وشارع قصر العينى حتى ينتهى الى جنوب مصر القديمة ، أو بمعنى آخر ، فانه كان يمتد بحذاء شاطىء النيل القديم .

يضم ذلك الشريط الطويل أقدم أحياء مدينة القاهرة العاصمة ، التى بدأت معالمها الأولى مع تأسيس مدينة الفسطاط أيام عمرو بن العاص ، وأخذت رقعتها تتسع باضافة العسكر فى الأيام الأولى من عصر ولاة العباسيين فى سنة ١٣٣هـ (٧٥٠م) . وهى فى الحقيقة امتداد للفسطاط نحو الشمال بانحراف جهة الشرق (ش : ١٩٨). ثم امتدت العاصمة مرة أخرى فى نفس الاتجاه باضافة قطائع أحمد بن طولون فى سنة ٢٥٧ هـ (٨٧٠م) ، فوصلت حدودها الى سفح هضبة المقطم التى قامت على طرف منها فيما بعد قلعة صلاح الدين لتشرف على العاصمة .

واستمرت العاصمة تتكون من تلك المناطق ، أو الأحياء ـ الثلاث ، حتى جاء جوهر الصقلى موفدا من قبل مولاه الخليفة المعز لدين الله ، فاستولى على مصر وعلى عاصمتها الفسطاط فى عام ٣٥٨ هـ (٩٦٩م) . ولكنه لم ينزل بها ، واختار بقعة تقع على بعد نحو كيلومترين الى الشمال من القطائع ليشيد فيها حصنا يقوم بالدفاع عن العاصمة ويحتمى به الخليفة وأهله وخاصته ويدافع عنه حرسه وجنده . وهو الحصن الذى سماه جوهر الصقلى بالمنصورية ، ثم أطلق عليه المعز اسم « القاهرة » بعد بنائه بأربع سنوات . وأحيط الحصن بأسوار كان يصيبها التلف والدمار من حين الى آخر ، وأعيدت تقويتها ودعمت وأضيفت اليها أسوار جديدة عدة مرات ، كما سنذكره بالتفصيل فى المجلد الثانى من هذا الكتاب .

وكان الفضاء بين حصن القاهرة وبين القطائع والعاصـــمة تشغله بركتا الفيل الكبرى والصغرى • ثم أخذ العمران يقطع منهما جزءا بعد اخر حتى تولى صلاح الدين سلطنة مصر ، وبنى قلعة الجبل فى بقعه اكثر مناعة من موضع الحصن الفاطمى. ومن ثم فقد انتهت وظيفه حصن القاهرة الذى شيد من اجلها فى اول الامر ، وفتح صلاح الدين أبوابه للناس فاقبلوا عليه اقبالا شديدا حتى ازدحم بهم ، وصار منذ ذلك الوقت حيا من احياء العاصمه التى كبرت مساحتها وزحف العمران فيها حتى غطى المنطقة التى كانت تشغلها بركتا الفيل ، واخذ من جهة اخرى ينحسر شيئا فشيئا عن منطقة الفسطاط والعسكر ، وخاصة بعد أن دب اليها الخراب مرتين : كانت الاولى فى اثنـاء الشدة العظمى ، التى استمرت سبع سنوات من سنة ٤٤٧ حتى ٤٥٤هـ (١٠٥٥ ـ ١٠٦٢ م) ، فى خلافة المستنصر بالله ، وحدثت الثانية عندما أشعل شاور وزير الخليفة العاضد النار فيها ، فاحترق منها جزء كبير فى سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨م) •

وازداد انحسار العمران عن منطقة الفسطاط والعسكر فى العصر المملوكى ، بينما زادت العمارة فى منطقة القطائع وما فى شـــمالها حتى اتصلت بحي القاهرة ، وظهرت الأحياء المعروفة فى الوقت الحاضر بالصليبة وبركة الفيل والسيوفية والحلمية القديمة والجديدة والقلعة والتبانة وسوق السلاح والمغــربلين وباب الخلق وتحت الربع والدرب الاحمر وغيرها • وكلها مناطق تضم عددا وافرا من الآثار المملوكية والعثمانية • غير أن حصن القاهرة الفاطمى الذى أصبح حيا من أحياء العاصـمة منذ وقت صلاح الدين حظى بوجه خاص بشدة اقبال النـاس على تشييد العمـائر فيه ، مما أدى الى أن عدد الآثار داخل منطقته يكاد يتعـادل مع عـدد الآثار فى المناطق الأخرى الباقية داخل ذلك الشريط الطويل ، اذ يوجـد بداخل منطقة حى القـاهرة القديم وحدها نحو ١٣٠ أثرا •

ولا يقتصر وجود آثار العمائر الاسلامية على ذلك الشريط فحسب ، بل توجد مجموعات عظيمة هامة أخرى من الآثار فى مناطق القرافات خارج العاصمة ، وتقع كلها فى شرق ذلك الشريط جهة تلال المقطم ، وتمتد من شماله حتى جنوبه• فتوجد مساجد وخانقاوات ومقابر أثرية كثيرة فى القرافة الشمالية المعروفة اليوم بقبة الخفير، أو قرافة قايتباى ، وأغلبها يعود الى عصر المماليك البرجية (٧٨٤ ـ ٩٢٢هـ / ١٣٨٢ـ ١٥١٧ م) ، وتمتد نحو الجنوب حتى تشمل قرافة المجاورين ، ثم قرافة باب الوزير ، وتتناثر فيهما خانقاوات ومقابر من عصر المماليك البحرية (٦٤٨ ـ ٧٨٤هـ/١٢٥٠ـ ١٣٨٢م) ، ومن عصر المماليك البرجية أيضا •

وتوجد فى جنوب قلعة صلاح الدين قرافة المماليك القبلية ، المعروفة بقرافة سيدى جلال ، وتقع الى الجنوب من سجن مصر الذى تم هدمه فى أواخر سنة ١٩٦٦ والى يمين السائر فى طريق صلاح سالم الجديد الذى يبدأ الجزء الممهد منه فى الوقت الحاضر من عند نفق الملك الصالح ، تحت شريط سكة حديد حلوان ، ويتجه نحو القلعة والعباسية ومدينة نصر ومصر الجديدة • وتنسب أغلب آثار تلك القرافة الى عصر المماليك البحرية •

ثم تتناثر بعد ذلك آثار المقابر والمساجد والأضرحة فى قرافة السيد نفيسة القديمة داخل الشريط الذى ذكرناه من قبل والذى يضم أحياء العاصمة القديمة ، وكذلك فى قرافة الامام الشافعى فى جنوب الفسطاط خارج ذلك الشريط • ويرجع تاريخ تلك الآثار الى العصور الفاطمية والأيوبية والمملوكية والعثمانية • كما يتناثر بعض آخر عند سفح المقطم •

هذا وقد نشأت أحياء جديدة خارج ذلك الشريط مثل حى الظاهر وحى العباسية فى الشمال • كما قامت أحياء أخرى بداخله فى المنطقة التى كانت محصورة بين الخليج المصرى، شارع بورسعيد الآن ، فى الشرق وبين شاطىء النيل غربا ، والتى كانت تشغلها فى العصور الاسلامية القديمة والوسيطة البساتين والبرك ، وتشغلها الآن أحياء القصر العينى والمنيرة وجاردن سيتى وباب اللوق وعابدين والأزبكية وقنطرة الدكة وباب البحر • كما توجد بعض الآثار القليلة فى بولاق وجزيرة الروضة •

ويصل عدد آثار القاهرة المعمارية الى نحو خمسمائة وعشرة ، ما بين كامل ومتهدم ، جدّد بعضه أو ترك على حاله يتطرق اليه البلى شيئا فشيئا حتى يندثر • وتتراوح أنواعها بين أسوار ومنشئات حربية ، وبين عمائر دينية من مساجد ومدارس وخانقاوات وكتاتيب • وبين عمائر مدنية للخدمات العامة مثل المارستانات والأسواق والحمامات وقناطر المياه للناس وأسبلة الشرب وأحواض لشرب الدواب ، ومثل عمائر سكنية عامة وخاصة ، ومثل الفنادق والخانات والوكالات والربوع والقصور والمنازل وغيرها •

ومن تلك الآثار ما يؤرخ الواحد منها فى عصر بنائه وهو قليل والكثير منها جرت فيه أعمال متعددة من التجديد والتعديل من الاضافة والحذف فى عصور مختلفة • وكانت العمائر الدينية هى أكثر ما تعرض لذلك ، لما كانت تلقاه من عناية الحكام والمقتدرين تبركا بها وطلبا لثواب الله ، ومن جهة أخرى لما كان موقوفا عليها من عقار وأطيان للصرف من غلتها على صيانة تلك الآثار الدينية •

من بين ذلك العدد الذى ذكرناه من الآثار الاسلامية ينسب أثران فقط الى عصر الولاة بين الفتح الاسلامى فى سنة ٢١هـ (٦٤١ م) وبين ولاية ابن طولون فى سنة ٢٥٤هـ (٨٦٧ م) • وتنسب ثلاثة آثار الى فترة الطولونيين والاخشيديين (٢٥٤ - ٣٥٨هـ / ٨٦٧ - ٩٦٩ م) • ويرتفع عدد العمائر الباقية من العصر الفاطمى (٣٥٨- ٥٦٧ هـ / ٩٦٩ - ١١٧١ م) الى سبعة وعشرين أثرا • ويقل مرة أخرى الى ستة عشر أثرا من العصر الأيوبى (٥٦٧ - ٦٤٨ هـ / ١١٧١ - ١٢٥٠ م) • أما العصر المملوكى الأول ، أى فترة المماليك البحرية (٦٤٨ - ٧٨٤ هـ / ١٢٥٠ - ١٣٨٢م)، فيصل عدد العمائر الباقية منه الى مائة أثر وواحد • ويصل عدد الباقى من العصر المملوكى الأول، أى فترة المماليك البحرية(٦٤٨ - ٧٨٤ هـ / ١٢٥٠ - ١٣٨٢ م)، ١٥١٧ م) ، الى مائة وثلاثة وثلاثين أثرا ، وهى الفترة التى ينتهى بها ازدهار العمارة والفنون العربية والاسلامية الاصيله فى مصر ، وتبدأ بعدها فترة أخذت تفقد فيها أصالتها وتتدهور تقاليدها على أيدى ولاة العثمانيين والمماليك والأتراك ، أى منذ أن فتح العثمانيون مصر فى سنة ٩٢٢هـ (١٥١٧م) حتى دخول نابليون فى سنة ١٢١٣هـ (١٧٩٨م) • والى استيلاء محمد على على الحكم من سنة ١٢٢٠ الى ١٢٦٤هـ (١٨٠٥- ١٨٤٨م) • وهى الفترة التى فتحت أبواب مصر على مصاريعها للمهندسين الأجانب ، وتم انقضاء على ما بقى من رواسب العمارة والفنون العربية الاسلامية • وبقى من فترة الفتح العثمانى حتى نهاية حكم محمد على نحو مائتين وتسعة وعشرين أثرا •

* * *

أما الآثار العربية الاسلامية فى الاسكندرية فهى نادرة الى حد كبير [1] • فلم يبق منها الا طابية قايتباى من العصر المملوكى المتأخر • ولا يزال يوجد لوح يسجل بناء جامع العطارين أيام بدر الجمالى • وقد جدد المسجد فى عصور متتابعة ولم يبق به من العصر الفاطمى سوى ذلك اللوح ، حسب ما هو معروف الآن • ولكننا لانستبعد أن يكون تخطيط بائكاته الحالية وشكل عقودها قد تبعا النماذج الأصلية التى ترجع الى العصر الفاطمى ، هذا اذا لم يكن بعضها قديما يرجع الى ذلك العصر •

وتوجد طابية أخرى من عصر قايتباى فى مدينة رشيد ولكنها فى حالة متهدمة لا تقارن بحالة الطابية فى الاسكندرية • أما الآثار الأخرى فى رشيد فهى عدد كبير من المنازل التى تؤرخ فى العصر العثمانى•ومنها أيضا طاحونة للغلال لعلها المثل الوحيد لهذا النوع فى العصر العربى ، وتؤرخ أيضا فى الفترة العثمانية • وفيها أيضا

(1) Compte-rendu : Exercices 1898, pp. 62-65, 81-86, 147 ; 1900, pp. 67-70 ; 1908, pp. 107-109 ; 1912, pp. 121-124.

بضعة مساجد (٢) • ومهما يكن من أمر فان كثيرا منها قد جدد أو رمم فى عصور تالية •

كذلك توجد عدة مساجد عثمانية فى مدينة دمياط (١) • ولكن أسلوب بنائها لم يكن معنيا به ، فاحتاج الأمر أيضا الى تجديدها وترميمها ، ولم يبق من تفاصيلها القديمة الا القليل •

وتوجد بعض الآثار المعمارية متناثرة فى مدن الوجه القبلى مثل قوص ، حيث يوجد بها قبة فاطمية (٢) ، ومنبر المسجد الجامع ، ويرجع الى أيام طلائع بن رزيق (٣) الذى كان حاكما لاقليم الصعيد قبل أن يتولى الوزارة فى خلافة الفائز الفاطمى • كما يوجد بمسجد قوص أيضا محراب تحيط بطاقيته زخارف من العصر المملوكى (٤) •

وتوجد بمدينة الأقصر مئذنة جامع أبى الحجاج ، وقد شيدت باللبن فوق السطح العلوى لأعمدة معبد الأقصر الفرعونى • ومن المحتمل أن تكون المئذنة قد أمر ببنائها بدر الجمالى ، كذلك المئذنتان فى أسوان ، وهما : مئذنة الطابية ومئذنة المشهد البحرى، فقد كان يظن أيضا أنهما شيدتا بأمر بدر الجمالى ، ولكن ظهر رأى جديد ، ينسبهما الى العصر العباسى ، كما سيأتى شرحه فيما بعد (صفحة ٥٧٣ ـ ٣٨٠) • أما مئذنة مسجد اسنا فهى من عهد بدر الجمالى ، يدل على ذلك النص التسجيلى الذى كتب بالخط الكوفى على لوح من الرخام ، لا زال مثبتا فى جدار المسجد التى تقوم المئذنة فى ركن منه والتى بقيت على حالها بينما جدد الجامع فى عصور متتابعة حتى العصر الحديث . وعلى أساس الشبه الموجود بين هذه المئذنة ومئذنة المشهد القبلى جنوبى أسوان ، وذلك من حيث التكوين المعمارى والتفاصيل ، فان مئذنة أسوان يمكن أيضا نسبتها الى عصر بدر الجمالى (٥) •

وتعد مدينة أسوان من أغنى مدن الجمهورية ، بعد القاهرة العاصمة ، بالآثار المعمارية العربية الاسلامية على غير ما يظنه الناس • فانه يوجد بها عدد كبير من

---

(١) Loc. Cit., Exc. 1893, pp. 101-104 ; 1896, pp. 61-74 ; 1897, pp. 146-148 ; 1899, pp. 129-133 ; 1915, pp. 217-234 ; 1920-24, pp. 211-220 ; 1936-40, pp. 302-306.

(٢) Loc. cit., Exc. 1925-26, pp. 40-44 ; 1889, pp. 139-141 ; 1893, pp. 11-13 ; 1925-26, pp. 40-44, 1936-40, pp. 184-86.

(٣) M.A.Eg., I, pp. 236-238, Fig. 134, Pl. 85.

(٤) Flury : Die Kanzel von Qus. ; Lamm : Fatimid Woodwork, E.I.Eg., XVIII, pp. 59-91, with 12 plates) ; Pauty: Le Minbar de Qus,(Mélanges Maspero, III, pp. 41-48), with 6 plates and 1 figure, (1940), etc.

(٥) M.A.E., II, Pl. III a.

(٤٨٤) Ibid., I, pp. 146-155, Figs. 72-78, Pls. 45, 122-123 ; Hasan Moh. El Hawary : Trois Minarets fatimides à la frontière nubienne, (B.I.E., XVII, 1935, pp. 141- 145, Pls. I, III-V).

المقابر التى ترجع الى العصور المبكرة من الاســـلام ، أى الى عصر ولاة الامـويين والعباسيين ، والى عصر الخلفـاء الفـاطميين • وهى نمـاذج اذا ضمت الى الأضرحـة والمشاهد الفاطمية الباقية فى العاصمة فانها تكوّن سلسلة تكاد تتصل حلقاتها ، تفسر مراحل تطور عمارة الأضرحة والمدافن فى القطر المصرى • كما أنها توضح حلقات تطور عناصر معمارية رئيسية ، مثل انقباب ومناطق الانتقال التى تحمل القباب ، الى غير ذلك من العناصر [1] •

وبهذه المناسبة ، فاننا نشير الى مأساة توشك أن تقع ، أو لعلها ستكون قد وقعت فعلا عند خروج هذا البحث من المطبعة ، وهى أنه يوجد ، أو كان يوجد ، فى منطقة النوبة التى ستغرقها المياه وراء السد العالى بقايا مدافن عربية اسلامية (ش : ٢٠١ ، ٢٠٢) ، وهى على الرغم من مظهـرها المتواضـع ، فانه لا يمـكن انكار قيمتهـا من الناحيتين المعمارية والأثرية • وقد تركت كلها ولم يهتم أحـد بانقاذها أو انقاذ شىء منها ، بينما اشتعل الحماس لانقاذ الآثار الفرعونية والقبطية ، أما العربية الاسلامية فقد تركتها مصلحة الآثار لرب يحميها •

***

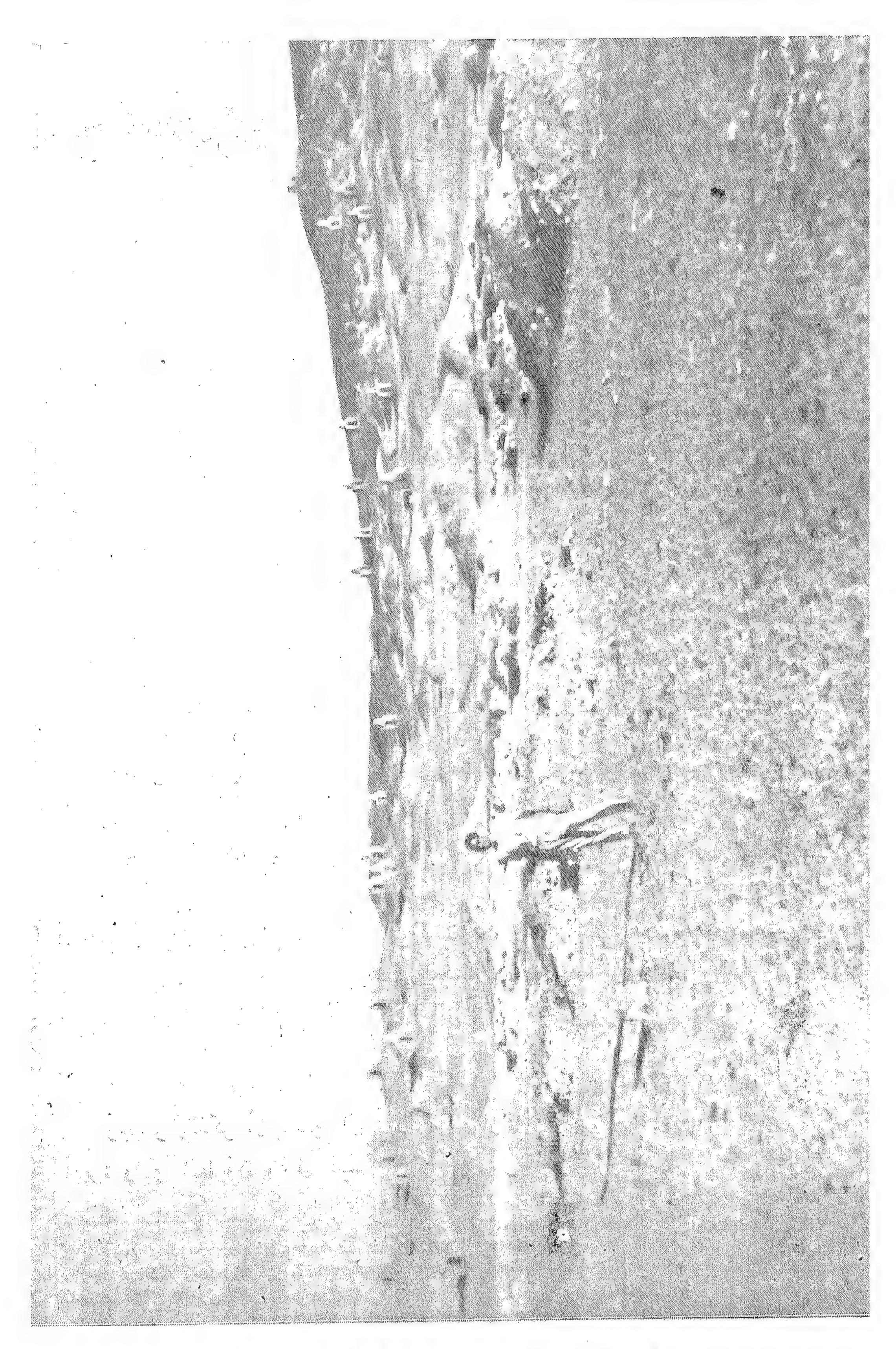
ويحتوى المتحف القبطى على عدد من تحف العصر الاسلامى يرجع أغلبها الى العصور الاسلامية الأولى ويمتزج فيها بقايا التقاليد المسيحية مع الاتجاهات والأذواق الاسلامية التى لم تكن قد اكتسبت مميزاتها الشخصية بعد • كما توجد بعض التحف القليلة من العصر الفاطمى ، وقطع نادرة من العصر المملوكى • وجاءت تلك القطع الفاطمية الطراز من بعض الكنـائس فى منطقة مصر القديمـة ، مثل كنيستى الست باربارا وأبى سيفين • ولا زال يوجد فى بعضها قطع فاطمية أخرى مثل الباب الكبير الموجود بكنيسة المعلقة [2] •

***

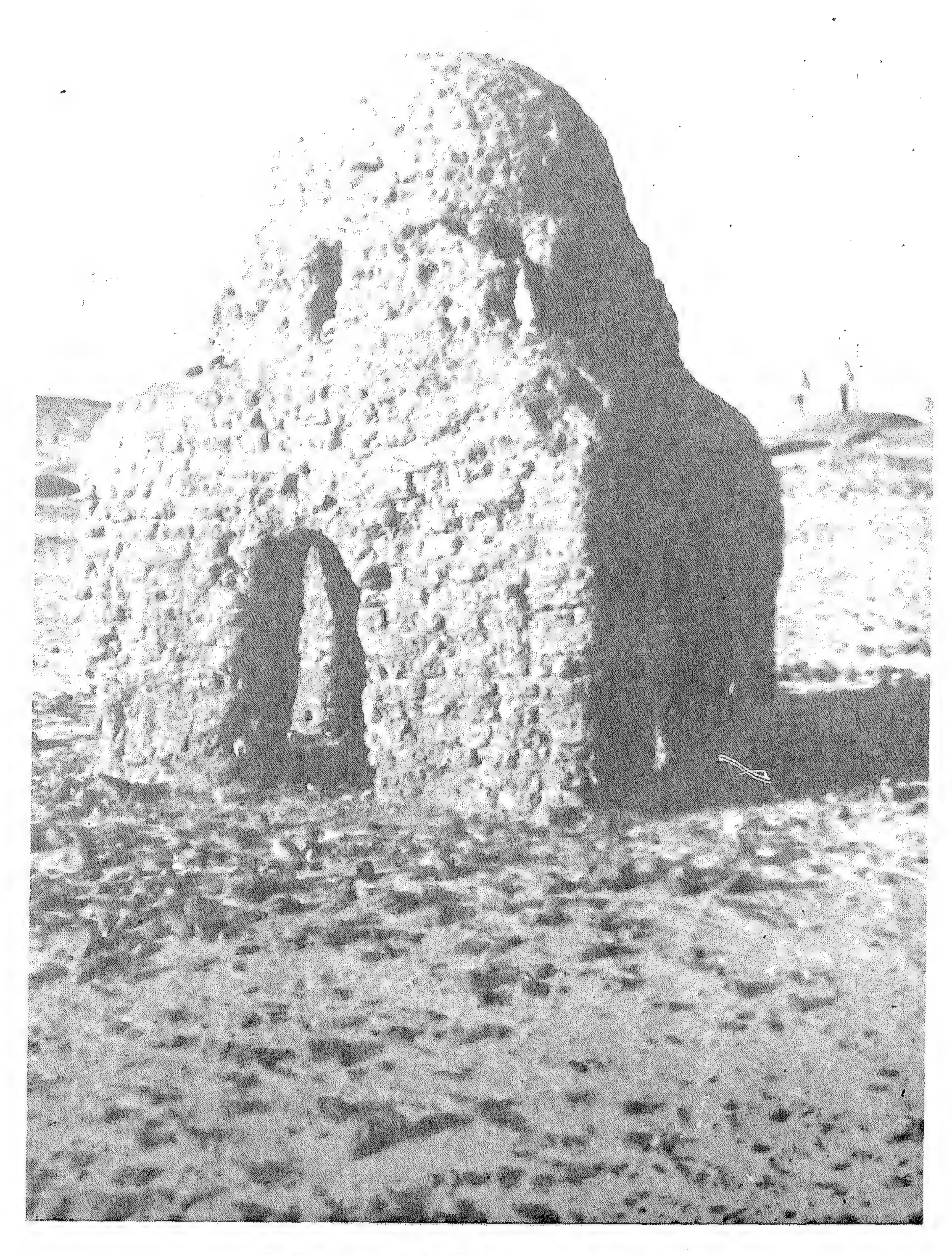
وجدير بالذكر أن نشـير الى آثار من الطراز العربى الاسلامى توجد ببعض أديرة وادى النطرون ، مثل كنيسة العذراء فى دير السريان ، التى زينت جدرانها

(1) Monneret de Villard (U.) : La necropoli musulmana di Aswan, (Cairo, 1930) ; Creswell (K.A.C.) : The Muslim Architecture of Egypt, vol. I, pp. 131-145, Figs. 64-71, Pls. 40-44.

(2) Pauty (Ed.) : Bois sculptés d'Eglises coptes, (époque fatimide), Cairo, 1930 ; Lamm (C.J.) : Fatimid Woodwork, (B.I.E.), XVIII, 1936, pp. 59-91, with 12 plates, etc.

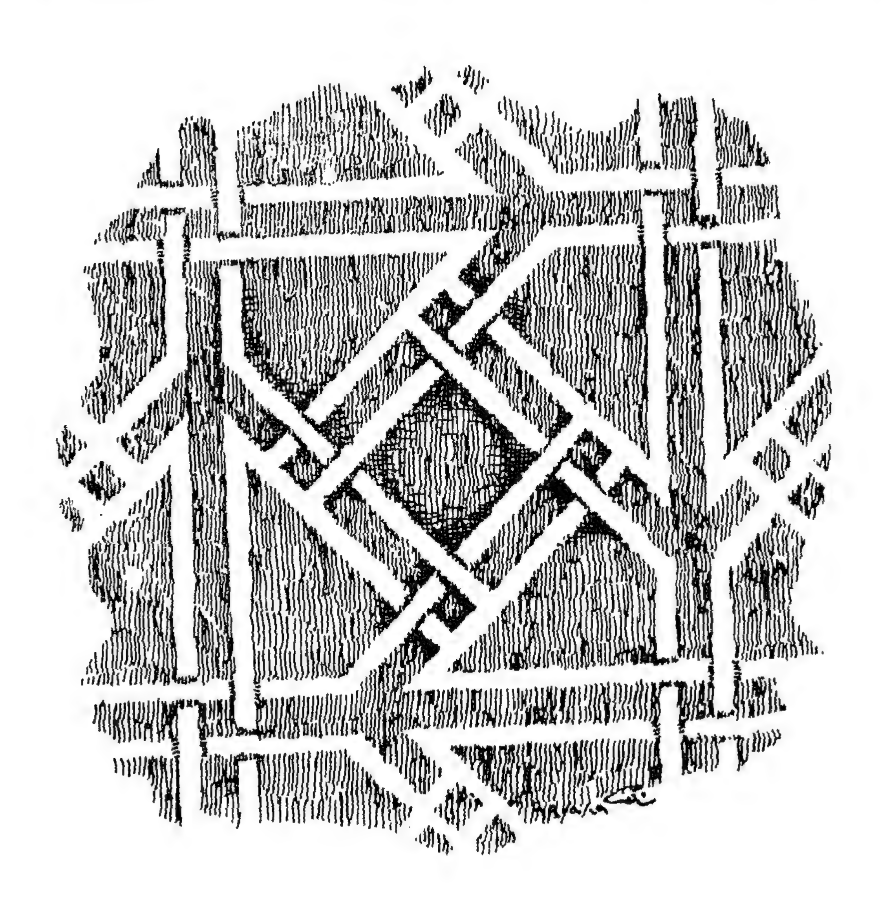


ش : ۲۰۱ ـ النوبة : المقابر التى غمرتها مياه السد العالي



ش : ٢.٢ ـ احدى المقابر التى غمرتها مياه السد العالى

بزخارف جصية من الطراز الطولونى • كما توجــد فى تلك الأديرة بعض التحف التى يكثر فى زخارفها العربية الاسـلامية شـارة الصليب [1] • ويوجد بدير سانت كاترين بشبه جزيرة سيناء جامع صــغير به منبر خشبى من طــراز فاطمى مبكر ، وكرسى خشب من الطراز نفسه • كما يوجــد باب خشبى للكنيســة فى الدير ، زخرفت حشواته بأسلوب فاطمى صريح من ناحيـة التكوين الهنـدسى والزخارف النباتية التى تحيط باشكال الملائكة والقديسين [2] • ويوجد منها أيضـا آثار معمارية فى الدير الأبيض فى ســوهاج ، وقد أشرنا الى المقرنصة الركنيـة الحاملة للقبـة (ص : ١٩٨) وسيأتى ذكر آثار أخرى فى فصول تالية فى هذا المجلد وما بعده •



(1) White (Ev.) : Monasteries of Wadi-n-Natrun, Pls. LXVI A-C, LXVIII A-B, LXXI B ; Monneret de Villard: Wâdien-Natrûn, Pls. 20-21, 23-27 ; Creswell : E.M.A., II, pp. 349, 356 ; Strzygowsky : Asiens Bildende Kunst, Abb. 463

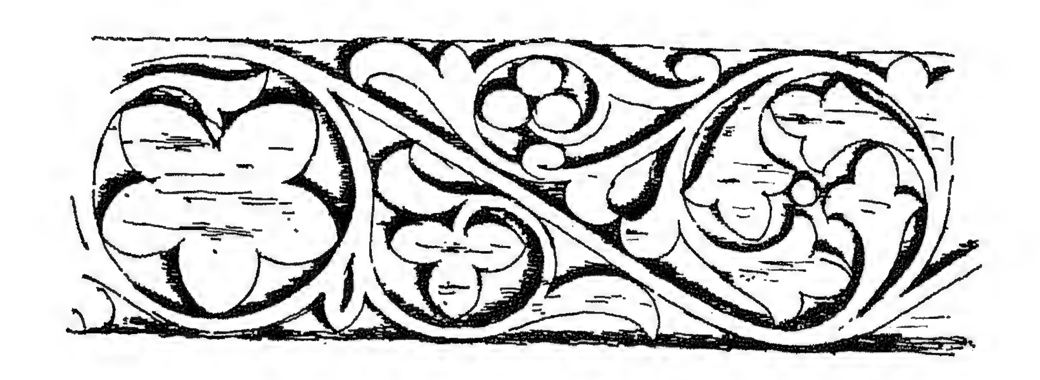
(٢) زكى محمد حسن : اطلس الفنون الاسلامية ، ص: ١١٦ ، Farid Shafei : Simple Calyx Ornament in slamic Art, (A Study in Arabesque), Pl. 55

الفصل الخامس

العـــمارة فى فسطاط مصر

قبل ابن طولون

٢١ - ٢٥٤ هـ — ٦٣٩ - ٨٦٧ م



مشتملات الفصل الخامس :

لم يقصد بالفسطاط أن تكون محصنة ، وجود محارس بالفسطاط لحفظ الأمن، كثرة عدد وتتابع الولاة وأثر ذلك على العمارة ، مميزات العمارة فى فترة الانتقال ، تأسيس الفسطاط ، قامت الفسطاط على أرض فضاء غير مسكونة ، بناة الفسطاط الأول كانوا هم الجند العرب المسلمين ، خريطة الفسطاط ، شكل الفسطاط فى بدايتها ، خطط الفسطاط ، الطرق ونماذج العمائر ، بقعة الحفائر فى الفسطاط ، عوامل فناء العمائر المبكرة ، اغفال بعثات الحفائر لتسجيل آثار الجدران القديمة ، تلمس معالم العمائر الأولى ، محاولة استنباط نماذج المساكن الأولى ، قصر عبد الله بن عمرو بن العاص ، تصور تخطيط قصر عبد الله بن عمرو ، « بين القصرين » اسم معروف منذ العصر المبكر فى الفسطاط ، مصادر المياه لسكان الفسطاط ، الحمامات والمارستانات المبكرة ، امتداد النقص فى الآثار المعمارية الى عصر ولاة العباسيين ، جامع عمرو بن العاص وتخطيطه أيام ولاة العباسيين ، جامع عمرو بن العاص أيام ولاة العباسيين ، الزخارف المبكرة فى جامع عمرو بن العاص ، تتابع التجديد والتوسيع فى الجامع ، عناصر باقية من الأيام الأولى لولاة العباسيين ، التخطيط الأصلى للجامع فى الأيام الأولى لولاة العباسين ، الدعامات الساندة للجدران ، تهدم الجدران بسبب « رفس » العقود ، تخطيط الجامع على نموذج التصميم النبوى ،

مميزات خاصة بتخطيط الجامع ، لأبواب القديمة فى الجامع ، توالى أعمال التعمير والبناء ، ذكر الجامع وما يتصل به فى المراجع القديمة ، المبالغات فى بعض ما يتصل بالجامع تأثر الجامع بحريق الفسطاط فى أواخر العصر الفاطمى ، باب بغداد بمدينة الرقة القديمة ، العناصر والظواهر المعمارية والزخرفية الأصيلة فى الجامع ، مكانة جامع عمرو الحضارية ، مقياس النيل بالروضة ، محاولات نسبة بناء المقياس الى غير العرب أو غير المسلمين ، منظر لقاع بئر المقياس ، مهندس المقياس ، منظر لفوهة بئر المقياس ، المهارة المعمارية والهندسية فى تصميم المقياس وبنائه ، دخلة فى جدار البئر ، المقياس فخر للمهندس العربى المسلم .

***

تم فتح مصر على يد عمرو بن العاص ومن كان معه من فرسان العرب المسلمين الذين لم يتجاوز عددهم بضعة آلاف فى سنة ٢١ هـ (٦٤٠ م) . واستقرت الأمور لهم بعد القضاء على مقاومة البيزنطيين فى حصن بابليون الذى كان مركز قوتهم فى داخل الديار المصرية ، ثم بالاستيلاء بعد ذلك على الاسكندرية حيث كانت تقيم بها حامية قوية من البيزنطيين الذين كان المدد يأتيهم ، من البحر ، ثم حل محلهم العرب المسلمون فى حصونها المنيعة وأمنوا بذلك ظهورهم من جهتها .

وبانتهاء تلك المراحل من الفتح الاسلامى انزاح كابوس المستعمرين البيزنطيين عن أنفاس المصريين وتقلص ظل الاستعمار البيزنطى ، ومن ثم فقد فتح المجال واسعا أمام الحضارة العربية الاسلامية لتنمو وتزدهر .

وعلى أرض مصر أخذت دعائم الحضارة العربية ترتكز على أسس ثابتة قوية ، كما أخذ صرح بنائها يرتفع شامخا بمرور الأيام وكلما ازداد عدد العرب المسلمين الذين أخذوا يتدفقون عليها ويمتزجون بأهلها ويصاهرونهم ويكتسبون مودتهم ؛ ذلك من ناحية ، ومن ناحية أخرى أخذ المصريون المسيحيون يتخلون عن المسيحية أفواجا ويعتنقون الدين الاسلامى . واذا كان هناك احتمال بأن بعضهم قد هدف من اعتناقه الاسلام الى التخلص من دفع الجزية التى كانت تفرض على من أراد البقاء على دينه من الذميين ، الا أنه مما لا شك فيه أن كثيرا منهم قد اعتنق الاسلام عن رغبة وايمان، وبخاصة بعد أن وضحت لهم سماحة الدين الاسلامى ، وماشاهدوه من تعاطف المسلمين وترابطهم وبعدهم عن الكبرياء والغطرسة وعن اهدار القيم الانسانية حتى بالنسبة لألد أعدائهم . كما رأوا ما كان المسلمون يعطونه لأهل البلاد من الذميين ومن العرب المسلمين على السواء من الحق فى حياة كريمة لا يفضل الشخص منهم فيها الآخر الا بالتقوى . وكلها صفات كان يفتقدها أهل مصر فى مستعمريهم من البيزنطيين ،

الذين ظلوا يعانون الأمرين من عنتهم وقسوتهم واستغلالهم قرونا طويلة مع أنهم كانوا يدينون بنفس دينهم ، غير أن اختلاف المذهب اليعقوبى الذى كان يعتنقه المصريون عن المذهب الملكانى الذى كان يتبعه السادة البيزنطيون كان سببا فى قيام المشاكل والكراهية بين أصحاب المذهبين ، بالاضافة الى غطرسة الحكام وجورهم وكراهية المحكومين لحكامهم .

كل ذلك جعل المصريين من المسيحيين يعقدون الموازنات بين هؤلاء الروم المسيحيين وبين العرب المسلمين مما حبب اليهم الاسلام ، فأقبلوا عليه يدخلون فيه أفواجا ، ومن ثم أخذت أعداد المسلمين تتزايد فى سرعة كبيرة .

كذلك كانت تلك الكراهية المتبادلة بين الحكام البيزنطيين والمحكومين من المصريين سببا فى أن يجد العرب المسلمون عونا كبيرا من أهل البلاد ، الذين قدموا للعرب كل المساعدات سرا وعلانية ، اذ كانوا نفرا قليلا ما كان يتم الفتح لمثل عددهم فى ذلك الوقت القصير الذى لم يتجاوز عامين ، أى من سنة ١٩ الى ٢١ هـ (٦٣٩ - ٦٤١ م) ، دون عون من داخل البلاد . ولو أن المصريين المسيحيين كانوا قد انضموا الى صفوف البيزنطيين يعاونونهم على محاربة العرب الفاتحين فى ذلك الوقت الحرج لتكبد أولئك العرب خسائر فادحة ولكابدوا صعوبات جمة ومشاق مضنية ولاستغرق الفتح أضعاف ما استغرق من وقت ، وهو ما حدث فى فتوح شمال افريقية [١] .

وهناك دلائل واضحة يمكن استنتاجها من الوقائع الحضارية وما يصحبها من ظواهر معمارية تثبت قيام الصفاء والمودة والتعاطف بين العرب المسلمين وبين المصريين المسيحيين منذ اللحظات الأولى بعد الفتح مباشرة . ذلك أن عمرو وصحبه لم يفكروا قط فى تحصين حاضرتهم الجديدة فى الفسطاط ، ولم يحاولوا بناء حصن لهم يعصمهم من أخطار تتهدد حكمهم من خارج البلاد أو من داخلها . فقد كان فى مدينة الاسكندرية الحصينة الكفاية للدفاع عن أهم جزء من شواطىء البلاد بالاضافة الى الحصون الأخرى على بقية شاطىء البحر الأبيض ، ومنها الفرما وكانت بلدة حصينة فى أيدى الروم ، فقاتلهم عمرو بن العاص وأخرجهم منها واستولى عليها ، وسار منها الى بلبيس ، وكانت من المعاقل الحصينة أيضا فاستولى عليها من الروم وبعدها حصن أم دنين بعد قتال شديد . ثم استولى على دمياط المدينة الحصينة بمساعدة ابن الهاموك خال المقوقس وكان يدعى « شطا » . وله أسطورة رددها بعض

(١) حسن ابراهيم : « تاريخ الاسلام السياسى » ، ص : ٣١٢ - ٣١٤ ، حسين مؤنس : تاريخ الحضارة المصرية ، جـ : ٢ ، ص : ٣٤١ وما بعدها .

المؤرخين وهى : « انه رأى النبى فى المنام وأسلم تلك الليلة أثناء حصار المدينة ودل »
« العرب على مسالك المدينة وقاتل معهم حتى قتل فى المعركة . ودفن خارج دمياط »
« وقبره يزار الى الآن » [1] . وهو دليل على تعلق أهل البلاد بالفاتحين العرب ، وعلى مدى رغبتهم فى تقديم المساعدات لهم ، وعلى اقبالهم على اعتناق الاسلام عن رغبة وصدق واخلاص .

أما فى داخل البلاد فمن الواضح أن العرب قد فضلوا ألا يقيموا بحصن بابليون بعد استيلائهم عليه بل اتجهوا الى تشييد خططهم بالفسطاط . ولو كان المسلمون يخشون على أنفسهم من المصريين لاتخذوا الحصون والقلاع داخل البلاد كما كان يفعل الرومان والبيزنطيون من قبل . ولم يشيد المسلمون حصنا قبل عصر ابن طولون الا ما أمر به عمر بن الخطاب عمرو بن العاص أن يشيده لطائفة من جيشه طاب لهم المقام بالجيزة [2] . ولم يشر المؤرخون الا اشارة عابرة الى خندق حول الفسطاط قام بعمله ابن جحدم عامل ابن الزبير على مصر فى سنة ٦٤ هـ (٦٨٢م) عندما زحف عليها عبد العزيز بن مروان ، ويقال انه حفره فى شهر واحد وقام بذلك ثلاثون ألف رجل . وهو الخندق الذى بقى بمقبرة الفسطاط الى أيام الكندى الذى توفى فى سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) [3] . وذكر المقريزى أن عمرو خرب بعضا من أسوار حصن للروم كان بجزيرة الروضة بعد أن هرب منه الروم ، وكانوا قد لجئوا اليه عند فتح العرب لحصن بابليون [4] .

وسارت الأمور طوال عصر الولاة والصلة طيبة بين العرب وبين المسلمين والمسيحيين من أهل البلاد بل كان مرور الوقت يزيدها توثيقا وترابطا وكلما تزايد عدد المسلمين بمن كان ينضم اليهم ممن يعتنق الاسلام من المسيحيين ، ويقابله من جهة أخرى تناقص الباقين على المسيحية ، ودام الحال على هذا المنوال الى نهاية عصر الولاة ، عندما قضى على بنى الاخشيد وفتحت مصر على أيدى جيوش الفاطميين .

ولكن مما يجدر ذكره أن ابن دقماق قد أشار الى محارس متفرقة بالفسطاط يحمل بعضها أسماء عربية ترجع الى العصر الأموى ، مثل محرس خُوى بن خُوى وغيره [5] ، كما سيأتى ذكره فيما بعد (ص : ٥١٧ ـ ٥١٩) .

(١) ابن اياس : تاريخ ، ج : ١ ، ص : ٢٣ .
(٢) ابن دقماق : الانتصار ، ج : ٤ ، ص : ١٢٥ ــ ١٢٦ .
(٣) الكندى : القضاة ، ص : ٤٢ ــ ٤٣ .
(٤) المقريزى ، ج : ، ص : ١٨٤ .
(٥) ابن دقماق ، ج : ٤ ، ص : ١٤ .

وظلت مصر طوال تلك الفترة التاريخية الطويلة التى تصل الى نحو ثلاثة قرون وثلث القرن وهى احدى الأقطار التى تضمها الامبراطورية الاسلامية الكبيرة التى يحكمها كلها خليفة عربى مسلم واحد ، سواء كانت قاعدة حكمه فى مكة أيام الخلفاء الراشدين ، أو فى دمشق أيام الدولة الأموية ، أو فى بغداد ثم فى سامرا ثم فى بغداد مرة أخرى أيام الدولة العباسية . وكان يحكم مصر فى تلك الفترة ولاة ينصبهم هؤلاء الخلفاء على أجهزة الحكم فيها كلها أو بعضها . اذ كان بعضهم يتولى الشئون الادارية والسياسية فحسب ، ومعه وال آخر للخراج هو الذى يتولى أمور القطر المالية ويتصل بالخليفة مباشرة ، كما كان بعض الولاة يجمع بين الناحيتين .

وقد ولى الحكم أيام الخلفاء الراشدين نحو ستة ولاة فى فترة ١٧ عاما من ٢١ الى ٣٨ هـ (٦٣٩ – ٦٥٦ م) وكانت أطول مدة حكمها أحد الولاة نحو خمس سنوات ، ويبلغ متوسط حكم الواحد من الآخرين نحو ثلاث سنوات [١] . واقتصر النشاط المعمارى فى تلك الفترة على بناء جامع عمرو بن العاص فوق مساحة صغيرة وعلى هيئة ساذجة بسيطة ، وعلى تخطيط مدينة الفسطاط وبناء منازل أصحاب عمرو بن العاص الذين شاركوا فى فتح مصر واستقروا بها هم ومن جاء بعدهم ومن اندمج فيهم من أهل البلاد ، ولم تصلنا أية بقايا اثرية من هذه الفترة .

ثم حكم مصر من قبل الأمويين نحو ٣٠ واليا فى فترة ٩٥ عاما ، بين سنتى ٣٨ و ١٣٣ هـ (٦٥٧ – ٧٥٠ م) . كان منها ثلاث عشرة سنة حكمها فيها مسلمة بن مخلد ، بين سنتى ٤٧ و ٦٠ هـ (٦٦٧ – ٦٧٩ م) . وتسع عشرة سنة حكمها فيها عبد العزيز بن مروان بن الحكم ، بين سنتى ٦٥ و ٨٤ هـ (٦٨٤ – ٧٠٣ م) . أما باقى الولاة فان متوسط فترة حكم الواحد منهم يبلغ نحو سنتين [٢] . واتجه النشاط المعمارى فى تلك الفترة الى تجديد جامع عمرو بن العاص ، وبناء العمائر والمنازل فى الفسطاط ، مما زاد فى رقعتها وفى نموها . ولكن لم يصلنا من آثار هذه الفترة ما يمكن نسبته اليها على وجه التحقيق أو الترجيح .

ثم ولى الحكم من بعدهم ولاة العباسيين ويبلغ عددهم نحو ٨٢ واليا فى فترة ١٢٠ عاما ، من ١٣٣ هـ الى ٢٥٤ هـ (٧٥٠ – ٨٦٧ م) ، أى الى ولاية أحمد بن طولون . ويبلغ متوسط فترة حكم الوالى منهم نحو سنة ونصف . ولم تزد أى فترة على خمس سنوات [٣] . ولكن على الرغم من ذلك فقد زاد النشاط المعمارى فى فترة

(١) زكى محمد حسن : معجم الانساب ، ج : ١ ، ص : ٣٨ .
(٢) المرجع السابق ، ج : ١ ، ص : ٣٨ – ٣٨ – ٣٩ .
(٣) المرجع السابق ، ج : ١ ، ص : ٣٩ – ٤٢ .

حكم هؤلاء الولاة ، بل يبدو ان الاتجاه نحو التأنق فيها قد ازداد الى درجة ملحوظة يمكن ان نحس بها فى الآثار القليلة الباقية منها ، وتظهر فى اجزاء من جدران جامع عمرو بن العاص ، وفى مقياس النيل بجزيرة الروضة • هذا وقد اضيفت رقعة كبيرة الى مدينة الفسطاط سميت بالعسكر ، فتضاعف بها حجم العاصمة وترامت أطرافها منذ قيام حكم ولاة العباسيين • وشيد مسجد جامع ثان فى وسطها مع بناء دار للامارة أصبحت مقرا للوالى الى ما بعد مجىء ابن طولون ، فأقام بها الى أن شيد قصره وداراً جديدة للامارة لصق جدار القبلة من جامعه العظيم الذى بناه فوق الربوة الصخرية المعروفة بجبل يشكر [1] •

وهناك أسباب كثيرة تجعلنا نميل الى تسمية الفترات السابقة ، أى من سنة ٢١هـ الى ٢٥٤ هـ (٦٤١ — ٨٦٧ م) بفترة الانتقال ، وذلك بالنسبة لتطور العمارة والفنون العربية الاسلامية ، فهى الفترة التى تدرجت فيها مراحل التطور ، وكانت تقتبس فى أثنائها بعض الجزيئات والتفاصيل والعناصر الزخرفية المتأثرة بتقاليد الفنون المعاصرة من هلينستية وساسانية وبيزنطية ممتزجة ببعضها ، ولكننا نعود فنكرر ما قلناه من قبل (صفحة ٢٢٧) ، بأن ظهور ذلك المزيج من الجزيئات والتفاصيل كان قاصرا على الناحية الزخرفية والمظهر الخارجى فقط • أما الاتجاهات التخطيطية والبنائية والتطبيقية التى تمثل جوهر العمارة والفنون وتمثل القالب الذى صيغت فيه ، فانها كانت كلها عربية اسلامية خالصة أوحت بها وفرضتها العوامل والظروف التى لازمت ظهور الدين الجديد ، وسيطر عليها الطابع العربى الذى نبع من الحضارة الناشئة للمسلمين ومن صميم البيئة العربية ، وذلك خلافا لما جرى عليه العلماء المتحاملون من تأكيده من ان الحضارة والعمارة والفنون الاسلامية قد صبت فى قالب صنعته ايد غير عربية وغير اسلامية ، وهى آراء فجة لم تقم لا على دراسة علمية سليمة محايدة ولا على فهم دقيق لروح الحضارة العربية الاسلامية ولا على فهم ادق للمعنى العلمى الصحيح لفن العمارة وكما سبق ان شرحناه ، وعلى الرغم من ملل فى تكراره فاننا لن نترك فرصة الا وذكرناه حتى نخفف من التأثير الخبيث الذى أوحى به تكرار تلك الآراء المتحاملة وما ترسب منه فى الاذهان طوال تلك الفترة التى بدأ فيها فى نشرها فى الأوساط الثقافية فى العالم العربى والغربى على السواء •

***

(١) ابن دقماق ، جـ : ٤ ، ص : ٤ — ٥ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، المقريزى ، جـ : ١ ، ص : ١٢٥— ٢٦٨ •

تخطيط وبناء العاصمة « الفسطاط » :

من الواضح أن العرب الفاتحين لم يبذلوا جهدا فى انتقاء موقع الفسطاط عندما استقر رأيهم على بناء عاصمة عربية للديار المصرية بعد الفتح الاسلامى . ذلك أن الموضع الذى كان يشغله حصن بابليون على شاطئ النيل وما حدث من حصارهم له فترة من الزمن قد جعلهم يقيمون معسكراتهم حوله وبقربه طوال تلك الفترة . وقد ساعدهم على الاستمرار والتشدد فى حصاره سهولة حصولهم على الماء والمؤن فى تلك المواضع . وما أن تم لهم فتح الحصن والاستيلاء عليه حتى كان قد تبين لهم ما توفره تلك المواضع من يسر فى الحصول على مطالب المعيشة ، وما تتمتع به من مميزات لم تترك لهم فرصة للتردد أو التفكير فى اختيار موضع آخر لمدينتهم الجديدة . ويمكن القول اذن بأن الظروف التى صاحبت الفتح العربى هى التى اختارت موقع المدينة فى حقيقة الأمر .

ويتضح هذا جليا فيما جاء فى كتب المؤرخين من فقرات منها : « أن موضع »
« الفسطاط الذى يقال له اليوم مدينة مصر كان فضاء ومزارع فيما بين النيل والجبل »
« الشرقى الذى يعرف بالجبل المقطم ليس فيه من البناء سوى حصن يعرف اليوم »
« بعضه بقصر الشمع وبالمعلقة [1] ... » ويؤيد هذا أيضا أن الفاتحين عند
« محاصرتهم لحصن بابليون قد نصبوا خيامهم أو فساطيطهم فى هذا الموضع الذى
يقول عنه المقريزى : « فلما أجمع المسلمون وعمرو بن العاص على حصار »
« الحصن ، نظر قسيبة بن كلثوم فرأى جنانا تقرب من الحصن فعرج اليها فى »
« أهله وعبيده فنزل فيها فسطاطه وأقام فيها طول حصارهم للحصن حتى فتحه »
« الله عليهم . ثم خرج قسيبة مع عمرو بن العاص الى الاسكندرية وخلف أهله »
« فيها (أى فى ذلك الموضع قرب الحصن) ثم فتح الله عليهم الاسكندرية ، وعاد »
« قسيبة الى منزله . واختط عمرو بن العاص داره مقابل تلك الجنان التى نزلها »
« قسيبة ، ، وتشاور المسلمون أين يكون المسجد الجامع ، فرأوا أن يكون منزل »
« قسيبة ، فسأله عمرو فيه وقال أنا اختط يا أبا عبد الرحمن حيث أحببت . فقال »
« قسيبة لقد علمتم يا معاشر المسلمين أنى حزت هذا المنزل وملكته ، وانى أتصدق »
« به على المسلمين وأرتحل ... » .

ولا نظن أن الجلاء والوضوح التى تتميز بهما أقوال المؤرخين يتركان فرصة للشك فى أن مكان الفسطاط فى الوقت الذى بدأ فيه بناء المدينة كان فضاء كبيرا وكان

(١) المقريزى ، ج : ١ ، ص : ٢٨٦ ، ابن دقماق ، ج : ٤ ، ص : ٦١ — ٦٢ .
(٢) المقريزى ، ج : ٢ ، ص : ٢٤٦ ، ابن دقماق ، ج : ٤ ، ص : ٦١ — ٦٢ .

فى بعضه بساتين ، ومن ثم فلم يكن هناك مجال للرأى الذى نشر منـــذ عهد قريب ويناقض تماما ذلك الجلاء والوضوح فى أقوال المؤرخين اذ يقول : « ان الفسطاط »
« قد ظهرت مدينة كاملة واضحة التخطيط مبنية البيوت ، وأنها نشأت على أساس »
« موضع كان مسكونا من قبل ، وأعاد العرب تخطيطه وتنظيمه بمعاونة أهل البلاد، »
« وأن العرب لم يكونوا بنائين [1] » •

وقد رأينا أن الشطر الأول من هذا الرأى ينقضه ما ذكره المؤرخون من أن موضع الفسطاط كان فضاء لا بنيان فيه ، وبالتالى فان المدينة لم تظهر فى الوجود الا بعد الفتح العربى • ولا نظن أن هناك مجالا بعد ذلك للظن بأن تكون المدينة قد ظهرت فجأة او فى وقت جد قصير على هيئة متكاملة ، فقد أخذ تطورها قرونا طويلة ليتكامل شكلها ، اذا صح هذا التعبير ، فلم يحدث ابدا فى العالم كله أن نشــأت مدينة كاملة فى لمح البصر •

أما الشطر الباقى من ذلك الرأى والخاص بأن العرب قد استعانوا بأهل البلاد لأن العرب لم يكونوا بنائين فهو راى للمؤرخ ابن خلدون [2] أســاء به اســاءة كبيرة الى جميع العرب على اختلاف طوائفهم ، وهــو قول خطير لصــدوره من فيلسوف ومؤرخ كبير يتمتع بالتقدير والاكبار فى مجال الفكر العربى والعالمى • غير انه يمكن أن ننتحل له ــ او نفتعل له بمعنى أصح ــ عذرا اذا فسرناه بأنه كان يقصد به البدو الرحالة الذين ما كانوا يستقرون بموضع الا بعض الوقت ، يرعون فيه ابلهم ودوابهم وأغنــامهم حتى يشــح المرعى فينتقلون الى غيره وهــكذا ، لم يكن ذلك يتيح لهم الفرصة للبناء والتمرس على أساليبه وعلى أساليب غيره من الفنون • وقد أتاح هــذا الرأى ــ الذى نعده خاطئا الى حد كبير ــ الفرصة للمستشرقين الممتلئين بالعداء نحو العرب عامة والمسلمين بخاصة أن يتخذوه حجة عدُّوها من أقوى الحجج لصدورها من عربى ، وتدمغهم جميعا بدوا وحضرا وفى جميع الأقطار بالافتقار الشديد الى خدمات أهل البلاد التى فتحوها من غير المسلمين وغير العرب لكى يضعوا لهم أسس وتقــاليد وحضارتهم وعمارتهم وفنونهم • ومما يؤسف له حقا ألا ينتبه المؤرخون العــرب الى ما فى ذلك من خطأ ومغالطة وألا يتناولوه بالفحص والتحليل كى يتبينــوا ما فيــه من أخطاء ، حتى لا يسيروا فى ركاب ابن خلدون وما استخلصه المستشرقون من رأيه ، وكأنه لا يقبل الجدل والمناقشة •

---

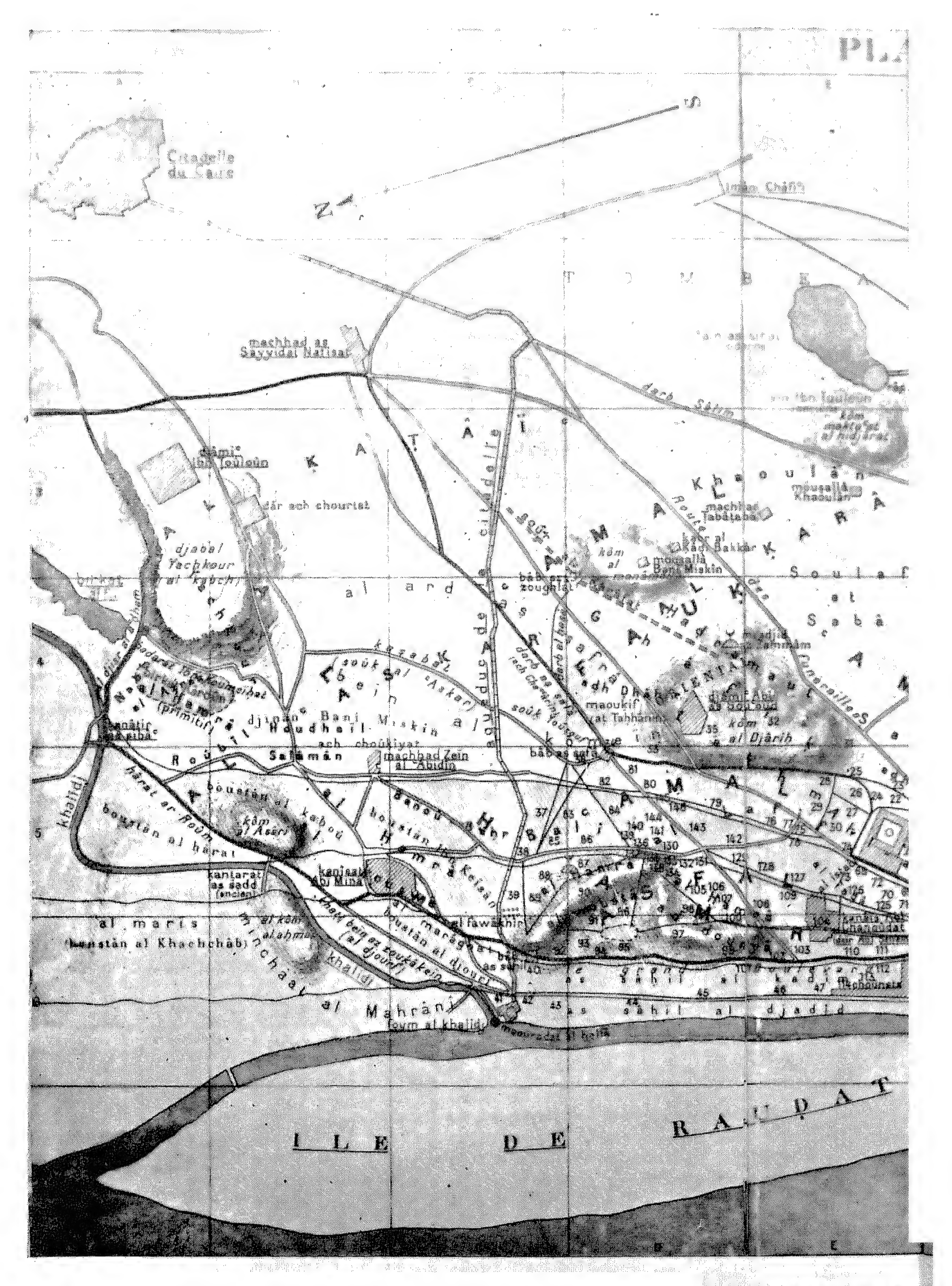
(١) حسين مؤنس في تاريخ الحضارة المصرية : ج : ٢ ، ص : ٣٧٦ ــ ٣٧٧ •
(٢) ابن خلدون : المقدمة (المطبعة البهية ــ بالقاهرة) ، ص : ٢٨٢ ــ ٢٨٤ •

وينقض هذا الرأى وما قام على أساسه من آراء ما جاء فى صفحات سابقة (٣٩ ـ ٤٤) من ان العرب فى المناطق المختلفة من بلادهم من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب ، بل وحتى فى المناطق الوسطى ومنها مهبط الوحى ، والتى يرجح الكثيرون انها كانت موغلة فى التأخر الحضارى والمعمارى والفنى ، هذه المناطق كلها تقوم فيها دلائل ليست بالقليلة على أن كان بها المقومات التى يمكن أن تنشأ على أساسها حضارات من نوع ما ، وانه لايمكن الحكم على تلك المناطق من حيث حضـــاراتها أو بداوتها الا بعد القيام بالكثير من الحفائر التى تنظم تنظيما علميا فيها ومن محـاولة العثـور على مخلفات قد تهدى الى معالم تلك الحضارات ومســتوياتها • أما محاولات الادلاء بأية آراء أو نظريات فى هذا الموضوع فى الوقت الحاضر فانها لا تقوم على أساس سليم ، وما هى الا من قبيل الرجم بالغيب والافتعال والتجنى •

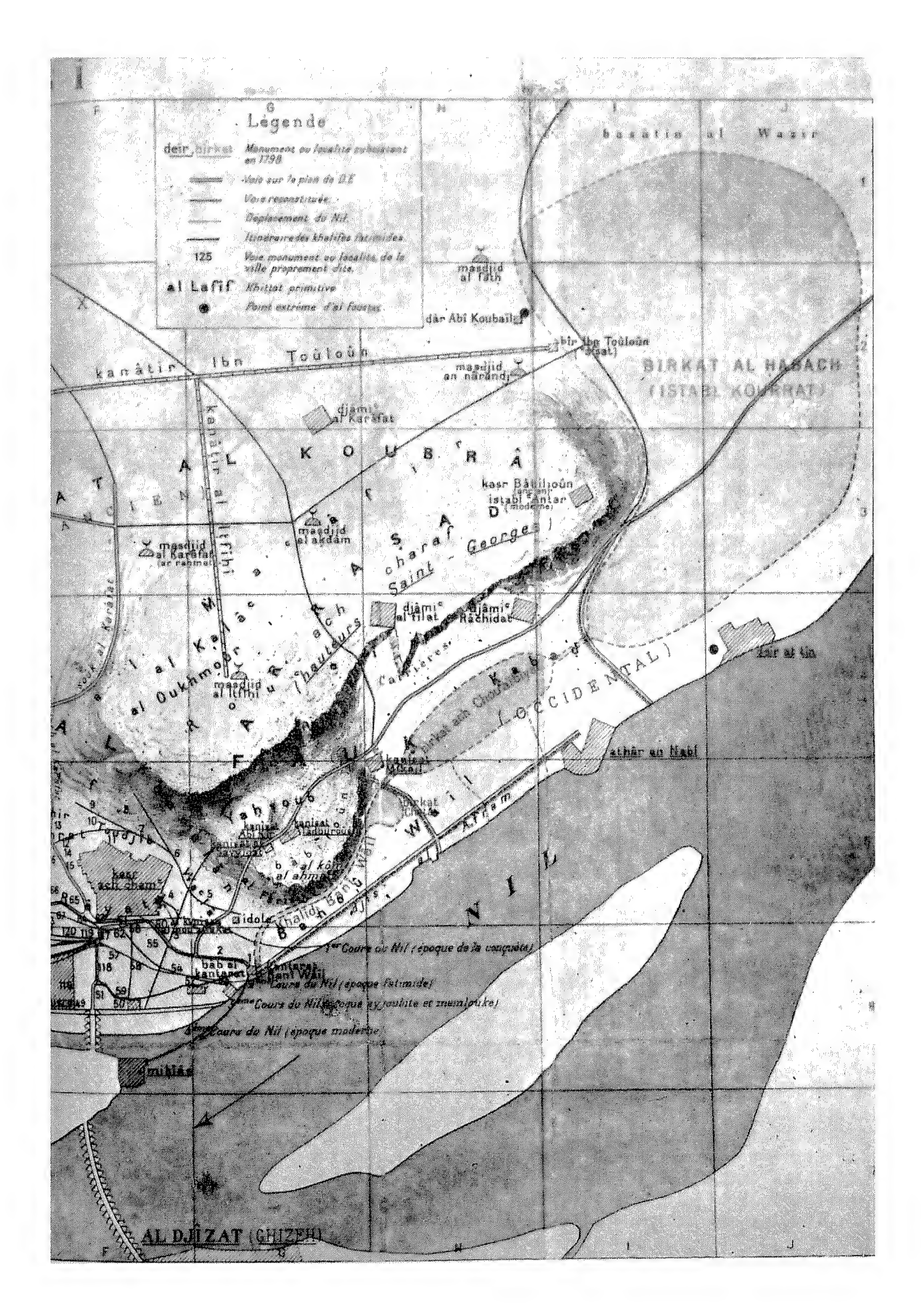
ومن ناحية اخرى فان ذلك الشطر الخاص بالفسطاط وبنائها ينقضه انه كان من بين الجند والذين رافقوا عمرو بن العاص فى حملته لفتح مصر جماعات من قبائل عربية مختلفة من الحجاز واليمن والعراق والشـــام ومن البـــلاد التى اقتطعت من الدولة البيزنطية ، أو بلاد الروم كما كان يسميها العرب • فعلى سبيل المثال كان من هؤلاء الجندمن ذوى المواطن المختلفة جماعات من قبـائل قريش وثقيف ولخم ومن الفرس من بقايا جند « باذان » عامل كسرى على اليمن قبل الاسلام وأسلموا بالشام • ومن قبائل يحصب من اليمن ومن أهل قيسارية من الشـام [١] ، ومن خراســان [٢] وغير ذلك كثيرون •

ومما لاشـــك فيه أن عزم هؤلاء الجند على الاســتقرار بمصر قد دفعهم الى أن يأخذوا فى تعمير المدينة وتخطيطها ، ثم بناء عمائرهم من الدور والفنادق والقيساريات والأسواق والحمامات ومطابخ السكر وغيرها ، والتى ذكر المؤرخ ابن دقماق أسماء كثير من تلك العمائر المختلفة • ثم ذكر ما خططت عليه المدينة الجديدة من الدروب والأزقة والرحاب والطرق التى يرجع الكثير منها الى الأيام الأولى من الفتح العربى لمصر [٣] • ولا نظن الصناع المحليين كانوا يستطيعون القيام ببناء كل العمائر ولكل تلك الأعــداد من الجنــد وأهلهم وللســكان الذين كانوا يتزايدون فى سرعة كبيرة وفى وقت قصير يسد حاجتهم • والأرجح أن تكون كل جماعة من الجند والعرب قد قامت بتشييد حاجتها من العمائر متأثرة الى حد ما بالنظام الذى تعودته فى موطنهـا

(١) ابن دقماق ، ج : ٤ ، ص : ٣ ـ ٥ •
(٢) المرجع السابق ، ج : ٤ ، ص : ١٠ •
(٣) المرجع السابق ، ج : ٤ ، ص : ٣٢ ، ٣٩ ـ ٤١ •



رطة كازانوف للفسطاط



Légende
deir birkat Monument ou localité subsistant en 1798
Voie sur le plan de D.E
Voie reconstituée
Déplacement du Nil
Itinéraire des khalifes fatimides
125 Voie monument ou localité de la ville proprement dite.
al Lafîf Khittat primitive
Point extrême d'al Foustat
busatin al Wazir
masdjid al fath
dâr Abî Koubaïl
kanâtir ibn Toûloûn
bir ibn Toûloûn
masdjid an nârandj
BIRKAT AL HABACH
(ISTABL KOURRAT)
djâmi' al Karâfat
AL KOUBRÂ
kasr Bâbiloûn
istabl 'Antar (moderne)
masdjid al akdâm
masdjid al Karâfat (ar rahmat)
charaf Saint Georges
djâmi' al filat
djâmi' Rachîdat
masdjid al Ifthi
al Oukhmour
Carrières
(OCCIDENTAL)
athâr an Nabi
kasr ach cham'
idole
bab al kantarat
1er Cours du Nil (époque de la conquête)
Cours du Nil (époque fatimide)
Cours du Nil (époque ayyoubite et mamlouke)
Cours du Nil (époque moderne)
mikîâs
NIL
AL DJÎZAT (GHIZEH)

الأصلى بعد اخضاعه لمطالب الدين الاسلامى الجديد ، فاجتمعت بذلك عدة نظم وتقاليد معمارية وفنية وفى مكان واحد أصبح نواة لعاصمة الديار المصرية • واجتماع تلك النظم والتقاليد وامتزاجها ببعضها من أهم ما يمتاز به الطراز العربى الاسلامى الذى صهرها كلها فى بوتقة واحدة فى مصر وفى سائر الاقطار العربية الاسلامية •

***

أما شكل الفسطاط نفسها فى مبدأ تكوينها فانه من الممكن استنتاجه مما جاء فى مرجعين رئيسيين من المراجع التاريخية القديمة التى وصلت الينا : أولهما كتاب الانتصار لابن دقماق والثانى كتاب الخطط للمقريزى • ويعد الأول أكثر تفصيلا فى حديثه عن الفسطاط وخططها من المقريزى الذى كان أكثر تفصيلا فى الحديث عن حصن القاهرة وعن أحياء العاصمة الكبيرة كلها •

وعنى المستشرق كازانوفا Casanova بتتبع ما كتب عن الفسطاط وخططها وجعلها موضوع دراسة وتحليل وصل فيها الى نتائج علمية قيمة فيما يتصل بتكوين الفسطاط وخططها وتطوراتها منذ عصر الفتح وخلال القرون التالية • ثم جمع ذلك فى خريطة توضح معالمها البارزة وتطور مراحلها الرئيسية (ش : ٢٠٣) [١] •

ويمكن أن نعطى فكرة عامة عن الفسطاط عندما ظهرت فى الوجود بأنها كانت تقع على ساحل النيل فى ذلك الوقت ، والذى كان يمتد فى خط يصل ما بين محطة مارجرجس على سكة حديد حلوان وبين ميدان السيدة زينب فى الوقت الحاضر ، أو بمعنى آخر كان يسير فى خط يمر بمحطة مارجرجس ثم يأخذ فى الابتعاد شيئا فشيئا نحو الشرق عن سكة حديد حلوان الى أن يبلغ البعد بينهما نحو نصف كيلومتر• وأخذت المدينة تتكون منعدة خطط أو أحياء وتنمو وتزدهر » من بعد الفتح بقليل وبعد استقرار الأمور • تبدأ من جنوب قصر الشمع أو حصن بابليون عند محطة مارجرجس ، والذى أصبح يتوسط خطة أو حيا من مدينة الفسطاط يسكنه العرب المسلمون والأقباط جنبا الى جنب ، وبه الكنائس والمساجد ، وامتدت المدينة نحو الشمال الشرقى بحذاء شاطىء النيل ثم زاد انحراف امتدادها نحو الشرق ليصل الى حدود الهضبة المعروفة بجبل يشكر والتى أقيم عليها جامع بن طولون فيما بعد ، وتقع تلك الهضبة الى الشمال الشرقى من ميدان السيدة زينب الحالى الذى كان يوجد عنده فم الخليج القديم وقت الفتح العربى ، وقبل أن يأخذ فى التنقل مع انحسار شاطىء النيل نحو الغرب على مر القرون ؟ أو بمعنى آخر أن شاطىء النيل اذن كان يبعد فى

(١) Casanova (P) : Essai de reconstitution topographique de la ville d'al Foustât ou Misr, Plan III.

المتوسط بنحو ٦٠٠ متر عن مواضعه الحالية ، غير أن هذه المسافة قد ضم منها ما يزيد على نصفها الى مساحة الفسطاط فى فترة القرون الثلاثة والنصف التى انقضت بين الفتح العربى والفتح الفاطمى •

وكانت الفسطاط اذن تضم منذ أول الأمر المنطقة التى شيدت عليها مدينة العسكر بعد الفتح العربى بأكثر من مائة سنة • وكانت تلك المنطقة تعرف فى العصر الأموى بالحمراء القصوى ، وبها خطط قبائل بنى الأزرق وبنى بيل وبنى يشكر بن جزيلة ، فاكتسبت الهضبة اسم جبل يشكر من تلك القبيلة [1] • وكان أكثر هؤلاء القبائل من عرب الشام ، وكانوا حمر الوجوه فسميت المنطقة لذلك بالحمراء القصوى• غير أن تلك المنطقة قد انحسر عنها العمران مع الوقت ، وصارت صحراء ، ثم أعيدت عمارتها ثانية بعد انتهاء العصر الأموى ومنذ بداية العصر العباسى ، وعمرها عسكر العباسيين فسميت من ذلك بالعسكر •

ويمكننا أن نستنتج من الاتساع الكبير الذى أصبحت عليه الفسطاط بعد وقت قصير من الفتح أن كثيرا من تلك الجماعات من المسلمين التى أشرنا اليها سواء من العرب أو من غير العرب كانت تتوالى هجراتها الى مصر ، ويقيم معظمها فى الفسطاط ، بالاضافة الى القبائل التى صاحب جند منها جيوش المسلمين الفاتحين ثم لحقت بهم عائلاتهم بعد استقرارهم فى مصر واختيارهم اياها موطنا لهم • كما نرجح أيضا أن الخطط التى أقطعت لكل مجموعة من تلك القبائل لم تكن متلاصقة بجوار بعضها ولم تصل الى تلك الدرجة من الازدحام الكبير الذى اخذ يتزايد بالقرب من شطىء النيل • بل انه ليغلب على ظننا انها كانت مترامية الاطراف فى أول امرها ثم اخذ العمران يتقلص من الاطراف الشمالية والشرقية ليزداد تركيزا فى المناطق الاكثر قربا من شاطىء النيل ، وبخاصة حول جامع عمرو بن العاص الذى لم يكن يبعد عن الساحل الا بخطوات قليلة ، أى لم يكن يتوسط المدينة كما كان الحال فى أغلب المدن والأمصار الاسلامية الأخرى فى الأقطار المختلفة •

كذلك يمكن القول بأن كل خطة من خطط الفسطاط كانت تحتوى على مرافقها الخاصة بصورة مصغرة أى من الأسواق ، وهى حوانيت مفتوحة على الطرق العامة ، ومن القيساريات أى الاسواق المقفلة ، ومن المطاحن والأفران والحمامات والمساجد والمطابخ ، أى المصانع التى يصنع فيها السكر والصابون ، الى غير ذلك [2] • وهذا

(١) ابن دقماق ، ج : ٤ ، ص : ٤ — ٥ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، المقريزى ، ج : ١ ، ص : ١٢٥ — ١٩٨ •

(٢) المرجع السابق ، ج : ٤ ، ص : ١٠٥ — ١٠٧ •

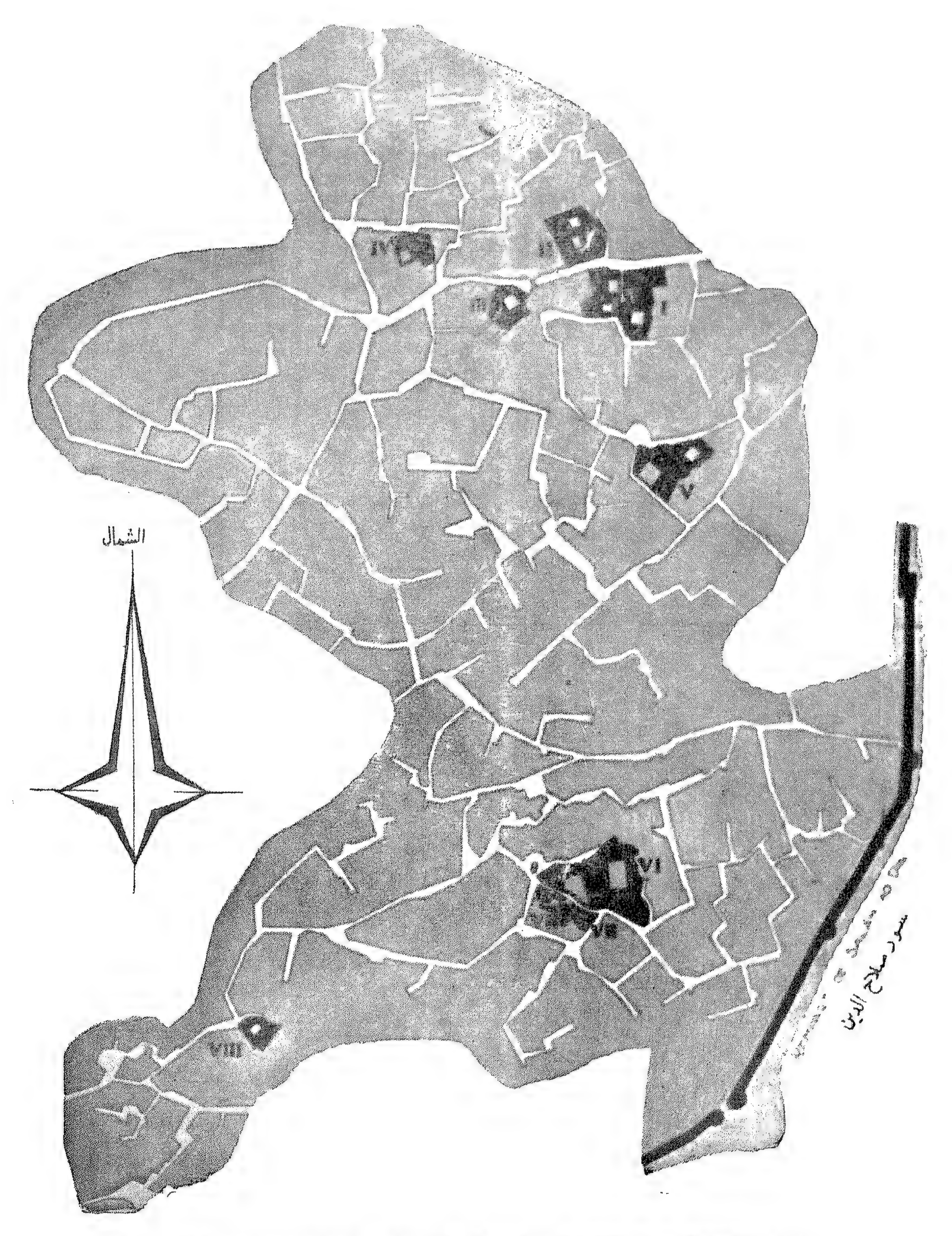
بالاضافة الى مرافق عامة من تلك الأنواع وعلى هيئة مكبرة، وكانت مراكز صناعية وتجارية رئيسية بل عالمية تتعامل بنوع أو أنواع من المنتجات والسلع • وقد ذكر لنا المؤرخون أسماء بعضها مثل : سوق السماكين وسوق العطارين وسوق القشاشين وسوق الغرابليين • ومنها قيسارية أبى مرة ، وترجع الى أيام عبد العزيز بن مروان، وقيسارية ابن أبى مسبح ، وترجع الى ما قبل أيام هشام بن عبد الملك [1] وغير ذلك كثير •

ويمكن تكوين فكرة عامة مقربة عن الطرق التى كانت تتخلل مدينة الفسطاط منذ أول وجودها مما كشفت عنه الحفريات التى أجريت فى جزء منها ، ويتضح منها أن الطرق كانت ضيقة وتتفرع من بعضها على غير نظام معين ، وفى تعرجات لا ضابط لها ، وكان بعضها ينتهى أحيانا بانسداد فى آخره ، فكأنها حارات غير نافذة • وكانت تنتشر بينها الدروب التى قد يصل عرض الواحد منها الى متر واحد ، وكان كثير منها يغلق ليلا من طرفيه لمقتضيات الامن • وكانت أغلب الشوارع والحارات مهما كانت هامة أو رئيسية غير منتظمة العرض ويتفاوت عرضها بين ثلاثة أو أربعة أمتار على الأكثر فى بعض مواضعه وبين أكثر قليلا من متر فى مواضع أخرى منه • واذا كان يرجح البعض نسبة ما كشفت عنه تلك الحفائر الى العصر الفاطمى أو الى العصر الطولونى على أبعد تقدير فان تخطيط المدينة فى عصر الولاة كله قبل الفتح الفاطمى لا بد وانه كان يسير على نفس النهج من حيث عدم الخضوع لتنظيم هندسى ، أو فكرة تخطيطية معينة ومن حيث الاوصاف التى ذكرناها (ش : ٢٠٤) [2] •

أما من ناحية تصميمات العمائر بأنواعها المختلفة من دينية ومدنية عامة وسكنية فانه لم يكشف حتى الان عن بقايا من أى منها يمكن الاطمئنان الى تاريخه فى زمن يسبق سنة ٢١٢هـ (٨٢٧ م) التى ينسب اليها أقدم أجزاء باقية من جامع عمرو بن العاص ، كما سنشرحه فيما بعد عند الحديث عن هذا الجامع وتطوره منذ أول تأسيسه•

وقد أشرنا من قبل الى أن المنازل والمساكن من الانواع المختلفة فى أغلب العصور ومنها العصر الاسلامى بوجه عام ، وفى الزمن المبكر بوجه خاص ، لم يكن يعنى بأسلوب بنائها أو صيانتها عناية كبيرة مثلما كان يبذل فى تشييد العمائر الدينية وصيانتها • وقد جاء ما يعزز هذا المعنى فى كتب المؤرخين ، فقد ذكر المقريزى مثلا أن منازل الفسطاط كانت مشيدة « بالطوب الأدكن والبوص والنخيل [3] • أضف

(١) ابن دقماق ، ج : ٤ ، ص : ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٧ — ٤٠ •
(٢) على بهجت والبير جبريل : حفريات الفسطاط ، شكل ٣ •
(٣) المقريزى ، ج : ١ ، ص : ٣٤٠ ، ٣٤١ •



: ٢.٤ ـ الفسطاط خريطة المنطقة التى جرت فيها حفائر على بهجت وجابرييل (من ١٩١٢ ـ ١٩٢٠)

الى ذلك أن نظم توزيع الماء فى المنازل وفى الأنواع الأخرى من العمائر التى كان لا بد من تزويدها بالماء ، كانت تستخدم فيها البرابخ ، أى الأنابيب المصنوعة من الفخار والتى ابتكرها المعماريون المسلمون ، وكشفت عنها حفائر الفسطاط ، مما يشهد لهم بالمقدرة الفنية فى حدود الامكانيات التى كانت فى تلك العصور • ولكن اذا أضفنا اليها وسائل التخلص من الفضلات بتصريفها فى خزانات تحت الأرض ، فان ذلك لم يكن يساعد على منع تسرب الماء والرطوبة الى الآساسات والجدران ، الأمر الذى كان يؤدى بطبيعة الحال الى استهلاك البناء فى وقت قصير ، وخاصة اذا لم يكن متينا • واذا ما استخدم فيه الجص كمادة للمونة التى تبنى بها الأحجار أو قوالب الطوب المحروق أو النىء ، وهى المادة التى كانت تستخدم كثيرا فى الفسطاط وكشفت عنها الحفائر هناك •

فلم تكن اذن تلك العوامل تسمح ببقاء الدور قائمة الا فترة تبلغ حوالى قرن أو قرنين فى المتوسط ولا تزيد عن ذلك الا فى أحوال قليلة ، وكانت فى اثنائها تحتاج الى مراحل متتابعة من الترميم الى ان تصل الى حالة لا ينفع فيها اصلاح أو تدعيم ، ومن ثم فقد كان اصحابها لا يجدون مفرا من هدمها واعادة بنائها من جديد • ومن الطبيعى ان يأتى البناء الجديد وفيه تعديل او اختلاف عن التخطيط القديم •

ويمكننا أن نشبه حالة تلك المنازل القديمة فى الفسطاط بما هو قائم الآن وما كان قائما الى عهد قريب فى منازل ذوى الدخول المتواضعة فى العواصم وفى قرى الريف ، وذلك قبل ان تنتشر مواد واساليب البناء الحديثه وبخاصة الحديد والخرسانة المسلحة والاسمنت فى البناء ، مما ضاعف من أعمار البناء عدة مرات • أضف الى ذلك ما حدث من تقدم كبير فى نظم توزيع المياه وصرف الفضلات فى العصور الحديثة بفضل استخدام الادوات والخامات التى لا تسمح بتسرب المياه وتحفظ الجدران والآساسات من التلف • ولكن على الرغم من ذلك فانه يكفى اهمال بسيط فى احكام رباط أو وصلة فى الأنابيب حتى تتسرب الرطوبة الى الجدران وتضعفها وتقصر من عمرها •

ويمكن القول اذن بأنه ليس من المنتظر بقاء آثار واضحة من دور الفسطاط التى ترجع الى عصر الخلفاء الراشدين أو عصر ولاة الأمويين ، اللهم الا اذا كانت هناك بقايا مطمورة تحت التراب فى مناطق هجر الناس سكناها قبل عصر ولاة العباسيين بسبب الحريق الذى أشعله مروان الثانى فى الفسطاط وهو يفر أمام جيوش العباسيين التى كانت تجد فى مطاردته وتعقبه حتى نجحت فى القبض عليه وقتله ، وقضى بذلك على حكم الأمويين •

غير انه ليس من المستبعد أن تكون آثار من عمائر لا تظل باقية من عصر الولاة ولم يتم الكشف عنها حتى الآن ، فلقد أجريت حفائر فى منطقة قريبة من مسجد أبى السعود فى شمال جامع عمرو وقامت بها بعثة أمريكية فى شتاء سنة ١٩٦٤ . وفى أثناء زيارتنا لها ولحفائر أخرى قريبة منها فى شتاء السنة التالية شاهدنا بقايا جدران قديمة تحت الجدر التى كشفت عنها أعمال الحفر ، وكنا فى شوق وترقب شديدين للاطلاع على تقارير البعثة الامريكية وما تضمنته من النتائج والاكتشافات التى اسفرت عنها حفرياتها فى تلك البقاع . غير انه لم يكن من السهل الحصول عليها من القاهرة واضطررنا الى الحصول عليها من المركز الرئيسى للبعثة فى امريكا . واخيرا وبعد الجهد أصبنا عند الاطلاع عليها بخيبة أمل كبيرة تعادل شدة لهفتنا وترقبنا لنتائجها . ذلك اننا لم نجد فيها الا بضعة معلومات اثرية وتاريخية معروفة جيدا لدى طلبة قسم الآثار الاسلامية بجامعة القاهرة ، وفى المراحل الاولى من دراساتهم . ولم تقف خيبة الرجاء عند هذا الحد بل امتدت الى الاحساس بوقوع ماساة معمارية اثرية تتمثل فى اغفال تلك التقارير لما يتعلق بالاثار الباقية من خطوط جدران قديمة كانت واضحة تحت الجدران التى عنيت البعثة بمجرد تسجيلها بغير بحث معمارى اثرى مفيد يصاحبها . بينما كان من الممكن الاهتداء من تلك الاثار التى اغفلت لو نالت قسطا من الاهتمام الى معلومات عن التخطيطات السابقه فى التاريخ ، والتى لعلها ترجع الى الفترة السابقه للعصر الطولونى ، والتى ما زلنا نفتقر الى ايه معلومات مادية يمكن الحصول عليها مهما كانت ضئيلة . ويمكن ان نتصور عظم الماساة اذا علمنا ان منطقة تلك الحفائر قد أصبحت مسرحا لنشاط معمارى لبناء مساكن شعبية حديثة فيه ، وضاعت بذلك فرصة جاد بها الزمن على غير انتظار وكان يمكن بها ملء فجوة فغرة فى تاريخ العمارة والحضارة العربية الاسلامية فى العصور المبكرة . كما انه ليس لدينا من شك فى أن امثال هذه المأساة ستتكرر فى مواضع ومناطق اخرى من العصر العربى الاسلامى بوجه خاص ما دامت بعثات الحفر والتنقيب فيها تخلو من أهم عناصر الابحاث الاثرية العلمية السليمة وتتمثل فى اشتراك اعضاء يجمعون بين كل من التضلع فى العلوم المعمارية ومن الدراية بالابحاث الاثرية .

ولكل ما سبق فاننا لا نجد مفرا من العودة الى الاعتماد على التحليل المنطقى نستعين به على الوصول الى معرفة ما كانت عليه التصميمات الاولى للعمائر المختلفة فى الفسطاط وبخاصة النوع السكنى منها .

يقودنا المنطق المعمارى الى أن نتوقع أن تكون تلك التصميمات قد خضعت خضوعا تاما لمطالب الدين الجديد ولم تدخلها الا عناصر ووحدات وتفاصيل من الفنون

السابقة كما سلف القول ، أما التكوين والطابع والجوهر والروح والذوق فكلها كانت عربية اسلامية خالصة .

وتعيننا نتف من أقوال وأوصاف وردت فى المراجع التاريخية على تصور ما كانت عليه الدور السكنية فى الفسطاط فى العصور الاولى بعد الفتح ، وذلك بالاضافة الى ما وصل الينا من بقايا أثرية فى مناطق عربية اسلامية أخرى وتنسب الى وقت يعاصر فترة حكم الولاة فى مصر .

ووردت اشارة عابرة فى كتاب فتوح مصر لابن عبد الحكم قال فيها : « ان عبدالله ابن عمرو بن العاص اختط هذه الدار الكبيرة التى عند المسجد ، وهو الذى بناها هذا البناء ، وبنى فيها قصرا على تربيع الكعبة الاولى .. » [1] ، كما جاء فى كتاب ابن دقماق نفس المعنى مع مزيد من الايضاح فقال : « (المكان المعروف بين القصرين بالفسطاط) هو ما بين دار عمرو الصغرى والموضع المقابل لخوخة الاسطبل ، وانما قيل لذلك بين القصرين ، ويعنى أحدهما قصر عبد الله بن عمرو بن العاص ، وذلك أنه بنى فى الدار الصغرى قصرا على تربيع الكعبة الاولى ، والقصر الآخر منهما قصر عمر بن مروان بن الحكم » .

كما روى ابن دقماق قصة لها أهميتها اذ قال : « وكان خارجة (ابن حذافة) أول من ابتنى غرفة بالفسطاط ، فكتب (عمرو بن العاص) بذلك الى عمر (ابن الخطاب) ، فكتب الى عمرو أن ادخل غرفة خارجة وانصب فيها سريرا (أى مقعدا) وأقم عليه رجلا ليس بالطويل ولا بالقصير فان اطلع من كواها فاهدمها ، ففعل ذلك عمرو فلم يبلغ الكوى فأقرها » [2] .

وعلى الرغم من اقتضاب العبارات السابقة وغيرها من الاقوال المشابهة وعدم تضمنها تفصيلا شافيا للدور الاولى فانه يمكننا مع ذلك أن نستخلص منها بضع دلالات معمارية وحضارية عن التقاليد والنظام العام لبناء تلك الدور ، منها :

أولا : أن الدور فى عصر عمرو بن العاص ، أى فى الفترة التى تلت الفتح مباشرة ، كان يميل تصميمها الى البساطة وعدم الاسراف ، اذ وصفت دار عمرو نفسه « بالدار الصغرى » ، وكان موضعها على بعد نحو ٧ أذرع (نحو ٤ أمتار) من المسجد الذى شيده وسمى باسمه ، وفى الجهة الشمالية الشرقية منه . ولذلك يمكننا أن نعدها بمثابة دار للامارة شيدت تبعا للتقليد الذى انتشر منذ العصر الاسلامى المبكر ، وهو

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ، ص : ٩٧ .
(٢) ابن دقماق ، ج : ٤ ، ص : ٩ .

يقضى ببناء دور للولاة بجوار المساجد الاولى فى العواصم والامصار الجديدة والمدن الرئيسية فى الاقاليم الاسلامية •

ونستنتج ايضا من تلك العبارات أن المسلمين منذ أول العصر الاسلامى كانوا حريصين غاية الحرص على المحافظة على حرمات الناس داخل بيوتهم ، وأن المنازل لم تكن لها منذ العصور المبكرة نوافذ أو شبابيك كبيرة تطل على الطرق والشوارع ، وأخيرا نصل من ذلك الى أن الدور كانت والحالة هذه تستمد الضوء وتتلقى الهواء بصفة رئيسية من خلال أفنية تتوسط الوحدات السكنية المختلفة التى تتكون منها الدار•

كذلك كانت المنازل تتكون فى أول الأمر من طابق أرضى فحسب ، ثم بدأت تتعدد الطوابق من بعد الفتح بفترة ليست بالطويلة وفى خلافة عمر بن الخطاب ، غير أن النوافذ فى الطوابق العليا كانت صغيرة ، وجلساتها ـ أى حافاتها السفلى ـ مرتفعة عن أرضية الطابق بأكثر من مترين حتى لا يتمكن شخص متوسط الطول من أن يطل منها على الجيران حتى ولو وقف فوق كرسى •

وكل ذلك يدل على أن بناء العمائر كان يخضع لقيود وشروط يفرض على الناس احترامها ، وذلك منذ اللحظات الاولى من العصر الاسلامى فى مصر ، وكان على الوالى أن يراعى تطبيقها ويلزم الناس باحترامها •

أما تصميم الدور نفسها فانه على أساس النقاط السابقة وبقايا المساكن المبكرة فى العالم الاسلامى يمكن القول بأنها كانت تبنى على نموذجين رئيسيين : أحدهما شامى ، والآخر عراقى •

فالنموذج الأول هو الذى يتمثل فى الوحدات السكنية فى كل من قصر المشتى وقصر الطوبة فى بادية الاردن حاليا وسبقت الاشارة اليهما من قبل (ص : ١٨٦ الخ) ، وهو يتكون من فناء مكشوف أوسط مستطيل وفى كل من جانبيه الطويلين حجرتان ملتصقتان ببعضهما (ش : ١٧٣ و ١٧٤) •

والنموذج الثانى مصدره منطقة العراق ، ويتمثل فى الوحدات السكنية بقصر الاخيضر فى البادية على بعد ٤٥ كيلومترا الى الجنوب الغربى من مدينة كربلاء ، ويتكون من فناء مكشوف يقرب شكله من المربع ، وفى كل من جانبين متقابلين منه مجموعة من ثلاث وحدات : الوسطى منها ايوان مفتوح على الفناء مباشرة أو على سقيفة تتقدمه مفتوحة على الفناء وعلى كل من جانبى الايوان حجرة (ش : ١٧٦) •

غير اننا نميل الى الظن بان النموذج الشامى كان هو السائد المتبع فى عصر ولاة الامويين بينما انتشر النموذج العراقى منذ قيام الدولة العباسية فى بغداد وقدوم

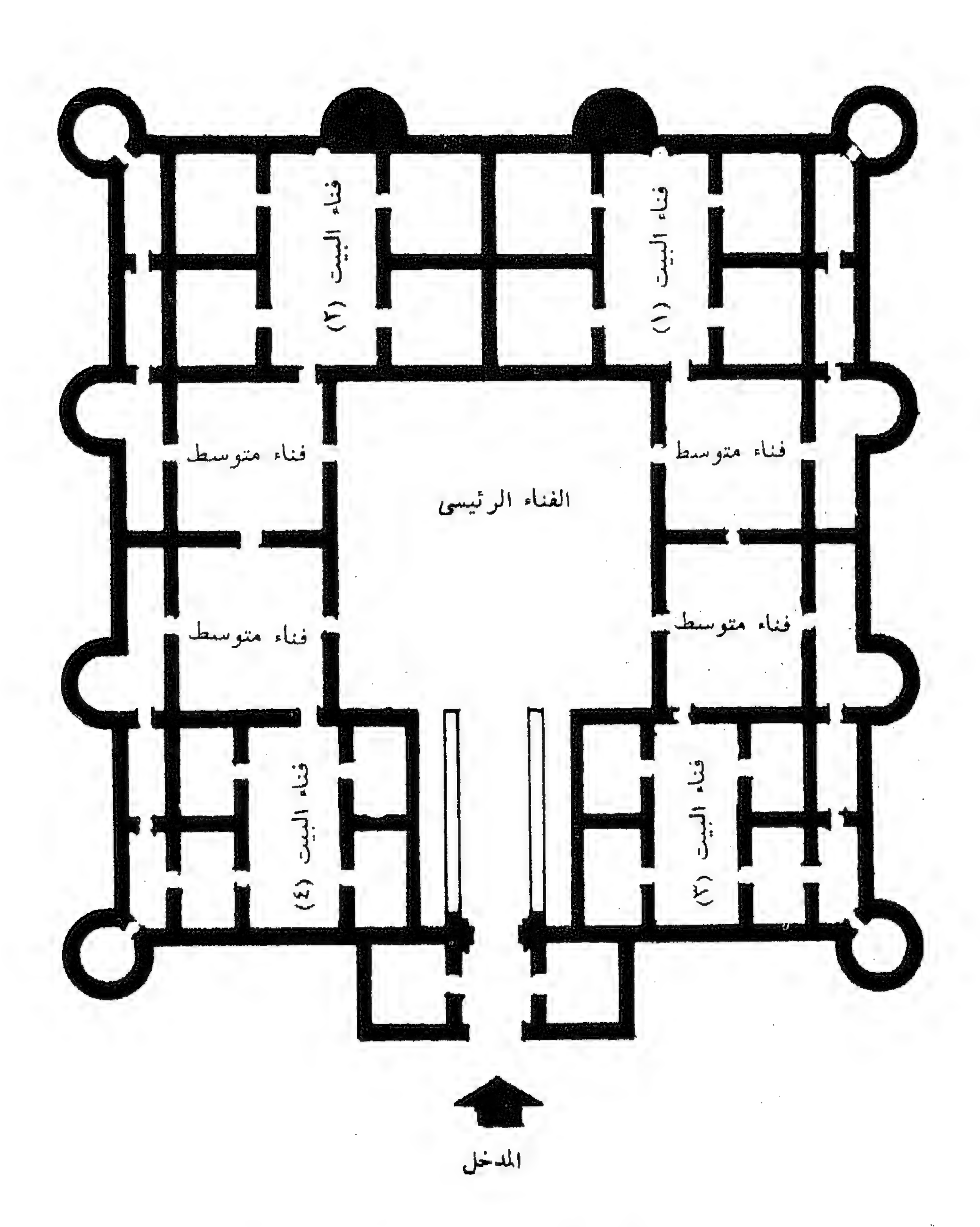
ولاة العباسيين الى مصر ، مما جعل النموذج الثانى يأخذ الصدارة من النموذج الشامى وجعله يتوارى شيئا فشيئا حتى اختفى مع مرور الزمن •

ثانيا : ان التقشف والبساطة اللذين كانا متبعين فى التصميم والبناء بعد الفتح مباشرة حتى للولاة وكبار القوم قد اعقبهما بنحو ربع قرن ميل الى الضخامة والفخامة• فان عبد الله بن عمرو بن العاص قد اضاف الى الدار الصغرى السابقة التى بناها أبوه ، أو بنى مكانها بمعنى اصح ، دارا كبيرة كانت تمتاز بتأنق واتساع فى أرجائها حتى سميت بالقصر • كما بنى عمر بن مروان بن الحكم قصرا آخر امتاز بصفات مشابهة من التأنق والاتساع •

ثالثا : وبالاضافة الى ذلك الميل الى التأنق والتوسع فان هناك احتمالا كبيرا بأن تكون جدرانه الخارجية قد زودت بأبراج على مسافات متساوية وفى النواصى وعلى جانبى المدخل الرئيسى ، وهو احتمال يوحى به ما يتضمنه لفظ « القصر » من معنى الحصن أو القلعة كما سيأتى شرحه فيما بعد (ص : ٥١٨) • غير أن هذا الاتجاه لم يأت لحاجة الى التحصن من اخطار تتهدد القوم بل كان على الارجح محاكاة للتصميم الاسلامى للقصور الاولى التى راح الخلفاء والامراء الامويون فى بنائها فى مدن الشام وباديته ، وبقى منها المشتى (ش : ١٧٣) وقصر الطوبة (ش : ١٧٤) •

رابعا : أما وصف قصر عبد الله بن عمرو بن العاص بانه كان على تربيع الكعبة الاولى فانه يوحى الى الذهن بانه شيد على هيئة بناء يرتفع وسط فناء مثلما تتوسط الكعبة صحن المسجد الحرام • غير أننا اذا تخلصنا من هذه الفكرة وما توحى به لاول وهلة لنبحث عن معنى أكثر منطقا لوجدنا تفسيراً آخر لتلك العبارة أقرب الى المنطق المعمارى لبناء الدور وتصميمها ، وهو أن « تربيع الكعبة » قد قصد به المسجد الحرام نفسه الذى يتكون من الصحن الاوسط المكشوف وما يحيط به من الظلات التى أضافها عثمان بن عفان فى الجوانب الاربعة من المنطقة التى كان عمر بن الخطاب قد أخلاها من الدور والعمائر التى كثر بناؤها وزحفت حتى حاصرت الكعبة وكادت أن تلتصق بها ، كما سلف الحديث عن ذلك من قبل (ص : ٧١) •

ومن كل ما سبق من تحليل واستنتاجات يمكننا أن نصل الى أن نتصور قصر عبد الله بن عمرو بن العاص كما هو مبين بالرسم (ش : ٢٠٥) ، أى على هيئة تقرب من تخطيط أحد القسمين اللذين يتكون من مجموعهما قصر الطوبة (ش : ١٧٤) •



ش : ٢٠٥ ـ الفسطاط : قصر عبد الله بن عمرو بن العاص

كذلك يرجح لدينا أن تكون الدور العادية قد خططت على نمط مشابه لتلك القصور ولكن على هيئة مصغرة ومبسطة سواء فى عدد وحداتها أو حجمها أو فى أسلوب بنائها •

ثم تستوقف نظرنا عبارة « بين القصرين » ، اذ يتضح منها أنها كانت معروفة من قبل الفتح الفاطمى بأكثر من ثلاثة قرون ، وأن بناء قصرين متقابلين على جانبى طريق يفصل بينهما لم تكن فكرة جديدة ابتكرت فى العصر الفاطمى ، ونتجت من بناء عبيد الله المهدى لقصره فى مدينة المهدية ثم جاء القاسم ابنه وأبو الخليفة المعز لدين الله فشيد قصرا آخر على حد الطريق فى الجهة المقابلة • ثم تكرر الوضع مرة ثالثة فى القلعة الفاطمية المعروفة بالقاهرة ، وذلك عندما بنى الخليفة العزيز بالله القصر الغربى الصغير لابنته ست الملك فى مقابل القصر الشرقى الكبير الذى كان بناه جوهر الصقلى لمولاه المعز ، ومن ثم سمى المكان بينهما « بين القصرين » • ولا زال اسمه يطلق على المكان الذى تقوم فيه الآن بقايا مجموعة قلاوون بالنحاسين ، ثم اشتهر منذ عهد قريب عندما جعله الكاتب نجيب محفوظ عنوانا لقصة صارت مسرحية ثم فيلما سينمائيا •

ويبدو لنا أن موضع بين القصرين فى الفسطاط كان يقع فى الجهة الشمالية الشرقية من جامع عمرو بن العاص ، وأن قصر عبد الله بن عمرو بن العاص كان والحالة هذه بمثابة دار الامارة التى جرت العادة والتقاليد الاسلامية المبكرة على بنائها للولاة بجوار المسجد الجامع فى كل عاصمة من عواصم الاقطار العربية الاسلامية المختلفة كما سلف القول •

★★★

وكانت الحاجة الى الحصول على الماء بأيسر طريقة من أهم الأسباب التى جعلت عمرو بن العاص وأصحابه يختارون موضع الحاضرة الجديدة على ساحل النيل • ولا تتضح لنا تماما الطرق التى كانت تستعمل فى أول الأمر أيام عمرو ومن بعده من ولاة الأمويين أو العباسيين لرفع الماء من النيل ، ولكننا لا نظن أنها كانت تبعد كثيرا عن الطريقة التى استعملت فيما بعد فى العصر الأيوبى والتى حدثنا عنها ابن سعيد المغربى ، وهى أن الماء كان يرفع بواسطة الأسطال والحبال والبكر التى وصل عددها

فى أيامه نحو ١٦٠٠٠ سطل [١] • ولا شك أن طريقة توصيل الماء فى جلود الحيوانات أو القدور من النحاس والفخار التى توضع على ظهور الحمالين أو تحملها الدواب كانت معروفة منذ تلك الأوقات المبكرة [٢] ، كما كان الحال فى القرى المصرية الى عهود ماضية • وكان الماء يحفظ فى الدور والعمائر والمساجد فى أزيار أو صهاريج تحت الأرض أو فوقها عندما كانت لا تزيد طوابق الدور عن طابق واحد ، ثم تطور الأمر الى رفع تلك الصهاريج الى مستويات أعلى عندما تعددت الطوابق ، وكانت تملأ بواسطة الأسطال والبكر [٣] ، ثم توزع بواسطة أنابيب من الرصاص والفخار تسير مع الجدران وتحت الأرضيات ، كما يتضح من بقاياها التى أظهرتها الحفائر • وبالاضافة الى الحصول على الماء من النيل مباشرة فقد لجأ البعض ممن كانت تبعد دورهم عن شاطىء النيل الى حفر الآبار التى كانت تتراوح أعماقها تبعا لبعد المكان عن النيل ، ولكن كان يحفر الى جانبها أو على بعد قريب منها آبار لصرف فضلات المنازل ، وكانت الحيوانات الميتة ترمى فى الشوارع أحيانا ، وفى النيل أحيانا أخرى ، كما كانت ترمى فضلات البيوت فيه ،وربما انقطع جريان الماءفى فرع النيل جهة الفسطاط ، فيشرب الناس الماء الراكد بما فيه من فضلات متعفنة ، مما كان يتسبب فى انتشار الأوبئة بشكل مخيف [٤] • ويبدو انه قد حدث شىء من هذا القبيل جعل اسم مدينة حلوان يظهر فى حضارة مصر العربية منذ سنة ٧٠ هـ (٦٨٩ م) وذلك عندما حدث الطاعون بمصر الفسطاط ، فخرج الوالى عبد العزيز بن مروان منها ونزل حلوان [٥] ، فاتخذها دارا سكنها هو وحاشيته وأعوانه ، وبنى بها الدور والمساجد وغرس نخلها وكرمها • وعمرت المدينة بجودة هوائها واتجهت اليها الأنظار لسكناها منذ ذلك الحين •

***

---

(١) المقريزى ، ج : ١ ، ص : ٢٣١ ، ٣٤٤ ، ابن دقماق ، ج : ٤ ، ص : ٧٨ •

(٢) يروى المقريزى فى خططه (ج : ١ ، ص : ٣٣١) عن ابن سعيد : « وفى الفسطاط دار تعرف بدار عبدالعزيز يصب فيها فى كل يوم اربعمائة راوية ماء» • ويروى في موضع آخر (ج: ١ ، ص:

(٣) عن ابن سعيد أيضا :«... فقاسيت من ازدحام الناس فيها(أى الفسطاط) بحوائج السوق والروايا التى على الجمال .. » •

(٤) روى المقريزى هذه الاخبار عن ابن رضوان طبيب الحاكم بأمر الله ، انظر الخطط ، ج : ١ ، ص : ٣٣٩ – ٣٤٠ • كما ذكر الطاعون الذى وقع بالفسطاط أيام عبد العزيز بن مروان ، أنظر الخطط ، ج : ١ ، ص : ٣٠٢ •

(٥) ابن اياس : باريخ ، ج : ١ ، ص : ٢٨ ، المقريزى ، ج : ١ ، ص : ٣٠٢ •

وتعود أقدم المعلومات التى لدينا عن الحمامات العامة التى شيدت فى عاصمة الديار المصرية فى العصر العربى الاسلامى الى ما ذكره ابن دقماق من أن عمرو بن العاص قد شيد حماما سمى « بحمام الفأر » ، وهو أول حمام بنى فى مصر الاسلامية ، وكان صغيرا بالنسبة للحمامات التى شيدها البيزنطيون ، ومن ثم فقد أطلق عليه ذلك الاسم لصغره . ويدل ما قيل أنه كان يتكون أيضا من ثلاث وحدات كالحمامات الرومانية والبيزنطية ، الوحدة الأولى هى الحجرة الباردة العادية التى يدخل منها الى التالية وهى الحجرة الدافئة ، ثم من بعدها الى الثالثة وهى الحجرة الساخنة . ويوجد من هذا النظام أقدم مثلين باقيين من العصر العربى الاسلامى فى بادية الشام هما الحمامان الملحقان بقصير عمره وحمام الصرخ اللذان يرجح أن يكون أولهما قد شيد فى حوالى سنة ٩٣ ـ ٩٦ هـ (٧١٢ ـ ٧١٥ م) ، والثانى شيد فى حوالى سنة ١٠٧ ـ ١١٢ هـ (٧٢٥ ـ ٧٣٠ م) (ش : ٤٢ ، ٤٣) ، وسبقت الحديث عنها (ص : ١٠٧).

وبالاضافة الى تلك الوحدات فقد كان هناك وحدت أخرى ، منها : المخلع والفساقى والفرن وغير ذلك . ولم يصلنا من عصر الولاة بقايا من تلك الحمامات تعيننا على تصور التكوين المعمارى العام لها من حيث المسقط أو أسلوب البناء للجدران أو التغطيات أو توزيع المياه فى الوحدات المختلفة وطرق تصريفها والتخلص منها . ويغلب على ظننا أنه لم يراع فيها عدم تسرب المياه الى الجدران ، مما جعل الخراب يسرع اليها ولا يترك لنا شيئا من آثارها .

***

ويبدو أن بناء المارستانات كان معروفا منذ أيام الدولة الأموية ، اذ يقال أن أول من بناها فى الاسلام هو الوليد بن عبد الملك فى سنة ٨٨ هـ (٧٠٧ م) [١] ، وقيل أنه كان بالفسطاط فى الدولة الأموية مارستان فى زقاق القناديل كان أصله دار أبى زبيد [٢] . ويستوقف نظرنا الاشارة الى دار أبى زبيد هذه ، ذلك أنها تنبهنا الى احتمال تأثر تخطيط المارستان بمسقط الدور والمنازل ، وهو الأمر الذى سيتضح لنا فيما بعد فى العصر المملوكى . ثم يلى ذلك المارستان فى دار أبى زبيد مارستان ثان شيده الفتح بن خاقان فى أيام أمير المؤمنين المتوكل على الله فى حوالى سنة ٢٤٢ هـ (٨٥٦ م) فى خطة المغافر التى كان موضعها ما بين العامر من مدينة الفسطاط وبين مصلى خولان بالقرافة ، وقد خرب ذلك المارستان [٣] .

(١) المقريزى ، جـ : ٢ ، ص : ٤٠٥ ، ابن دقماق ، جـ : ٤ ، ص : ٦ ـ ٧ .
(٢) ابن دقماق ، جـ : ٤ ، ص : ٤٠٥ .
(٣) المقريزى ، جـ : ٢ ، ص : ٤٠٦ .

وتعرضت مدينـــة الفســـطاط لأول حريق متعمد فى أواخر الدولة الأموية عند ما فر مروان بن محمد آخر الأمويين من الشام الى مصر ، تطارده جيوش العباسيين بقيادة صالح بن على وأبى عون عبد الملك بن يزيد • فعبر النيل عند الفسطاط بعد أن أحرق دار آل مروان المذهبة ، وأحرق الجسرين اللذين كانا يوصلان بين الفسطاط وجزيرة الروضة ، ثم بينها وبين الجيزة ، وهناك لحقه جند العباسيين فقتل وهو يحارب فى قرية بوصير [١] • وقد ارتبط اســم مروان بابريق من البرونز محفـوظ الآن بمتحف الفن الاســلامى بالقاهرة يقال انه عثر عليه هناك • ويمثل شكل الابريق وأسلوب زخرفته المراحل المتأخرة من تطور الفن الساسانى بعد أن خضع للروح العربية الاسلامية [٢] •

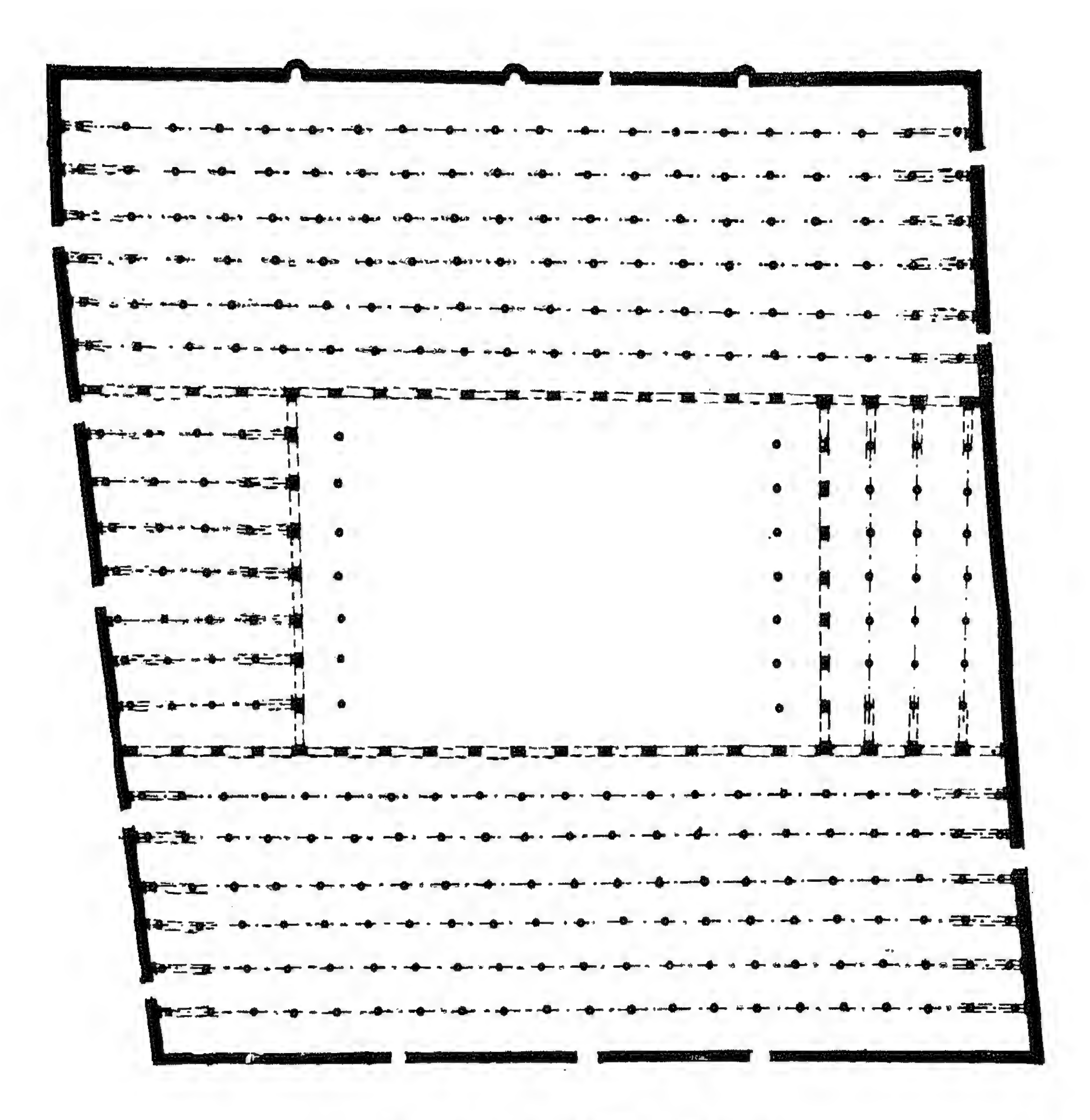
ثم دخلت حضارة مصر العربية فى طورها التـالى بالقضـاء على دولـة الأمويين ودخول جيوش الدولة العباسية الناشئة الفسطاط فى المحرم من سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ م) • ونزلوا بالمنطقة التى كانت تعرف بالحمراء القصوى ، وكانت تقع الى الشمال الشرقى من الفسطاط ،وهى التى نزل فيها من قبل قبائل بنى الأزرق وبنى روبيل وبنى يشكر ابن جزيلة ، ثم خربت خططهم وبقيت صحراء الى أن نزلها عسكر العباسيين ، وأمر أبو عون أصحابه بالبناء فيها فاتصل العمران بين الفســطاط وجبل يشــكر • وبنيت فى العسكر دار للامارة ومسجد جامع عرف بجامع العسكر ثم عرف بجامع ساحل الغلة [٣] ، وصارت مدينة ذات أسواق ودور عظيمـة • ويبـدو أن امتداد مدينـة الفسطاط نحو الشمال الشرقى بعرض يتراوح بين كيلومتر وكيلومتر ونصف كانت تحتمه طبيعة الأرض ذلك الوقت ، اذ كانت تقع فى شمالها عند موضع ميدان السيدة زينب الحالى بركة قارون التى كانت جزءا من بركة الفيل الكبرى • كما كانت توجد بركة عظيمة تسمى ببركة الحبش فى الجنوب من ذلك الشريط يدخل الماء اليها من النيل (ش : ١٩٨ ، ٢٠٣) •

غير أنه لا زالت تنقصنا الحلقات المبكرة من تطور العمارة والفنون العربية فى مصر الى ما بعد قيام العباسيين بأكثر من ثلاثة أرباع القرن ، حيث نجد أقدم بقايا معمارية وزخرفية من فترة الانتقال ممثلة فى قطاعات من الجدران الخارجية لجــامع عمرو بن العاص ، وبقايا عقود وشبابيك وحنيات ، وكلها تعود الى عمارة عبد الله بن طاهر الوالى العباسى للجامع فى عام ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) •

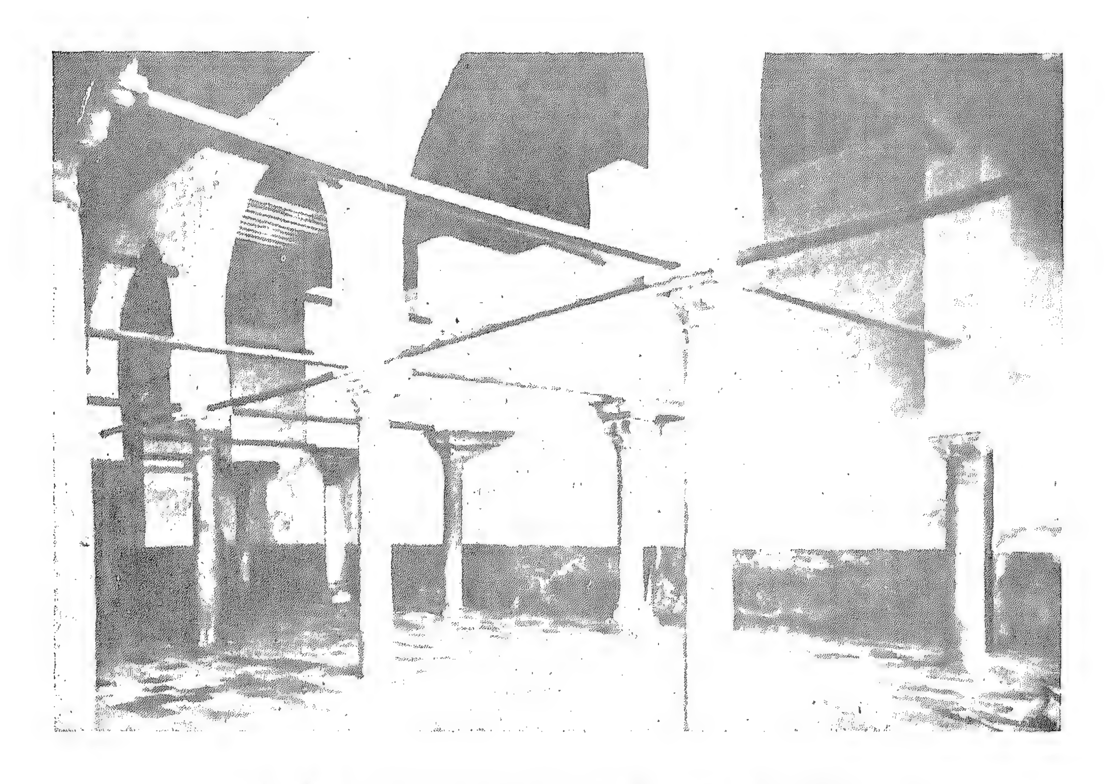
(١) المقريزى ، جـ : ١ ، ص : ٣٠٤ .

(٢) زكى محمد حسن : الفنون الايرانية (ط ٢) ، ص ٢٧٠ ــ ٢٧١ ، لوحات : ١٢٣ ــ ١٢٤ ، أطلس الفنون الاسلامية : شكل : ٤٤١٠ .

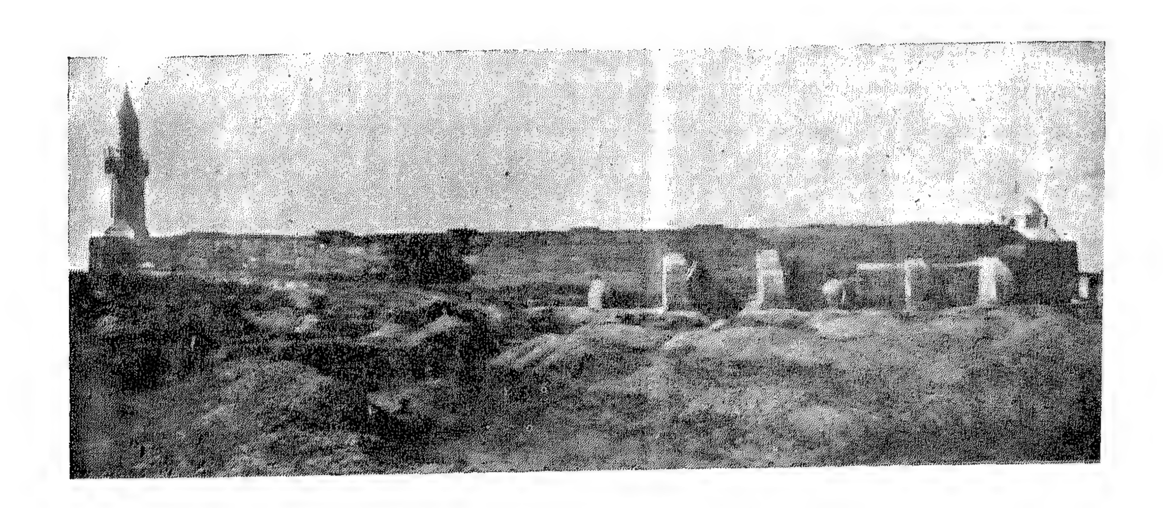
(٣) المقريزى ، جـ : ١ ، ص : ٣٠٤ ــ ٣٠٥ .



ش : ٢٠٦ ــ الفسطاط : جامع عمرو بن العاص
بعد التوسيع فى ٢١٢ هـ (٨٢٧ م)



ش : ٢٠٧ - جامع عمرو بن العاص : بقايا البائكات القديمة فى ظلة القبلة



ش : ٢٠٨ - جامع عمرو بن العاص : الدعامات فى الواجهة الجنوبية الشرقية

جامع عمرو بن العاص :

كان جامع عمرو بن العاص أول مااهتم العرب المسلمون بنائه فى العاصمة الجديدة كعادتهم فى غيرها من الأمصار ، وكما حدث فى البصرة والكوفة والقيروان وغيرها • بيد أن المسجد الذى شيده عمرو بن العاص كان صغيرا كما ذكرنا من قبل • وانه بنى بأسلوب ساذج بسيط • ويبدو أنه لم يكن به صحن يتوسطه فلا يشبه النظام الذى شيد عليه مسجد الرسول بالمدينة المنورة• فان كل ما وصلنا عنه أنه كان على شكل مستطيل ، يبلغ طول جدار القبلة فيه والجدار المقابل له نحو ٥٠ ذراعا وعمقه ٣٠ ذراعا (= ٢٥ × ١٥ متر) [٢] وهى مساحة صغيرة لا تكاد تتسع الا لألف من المسلمين على أكثر تقدير • كذلك يمكننا ان نستنتج أن هذه المساحة كانت كلها على هيئة ظلة واحدة تقوم فيها أعمدة من جذوع النخل أو من الحجر أو الآجر أو اللبن ، وأن السقف كان بسيطا يتكون من مدادات من الخشب وسعف النخيل ، كما أنه كان منخفضا [٣] • وقيل عن محرابه أنه اجتمع على اقامته ثمانون من صحابة رسول الله ، كان فيهم الزبير بن العوام وعبادة بن الصامت وغيرهما • وقيل أيضا أن عمرو بن العاص هو الذى وضع القبلة ولكنه انحرف بها نحو الشرق ، ثم صححها قرة بن شريك عندما بنى المسجد من جديد • وسيأتى ذكر المحراب ومصدر اشتقاقه فيما بعد (ص : ٥٨٤ ـ ٦١٣) •

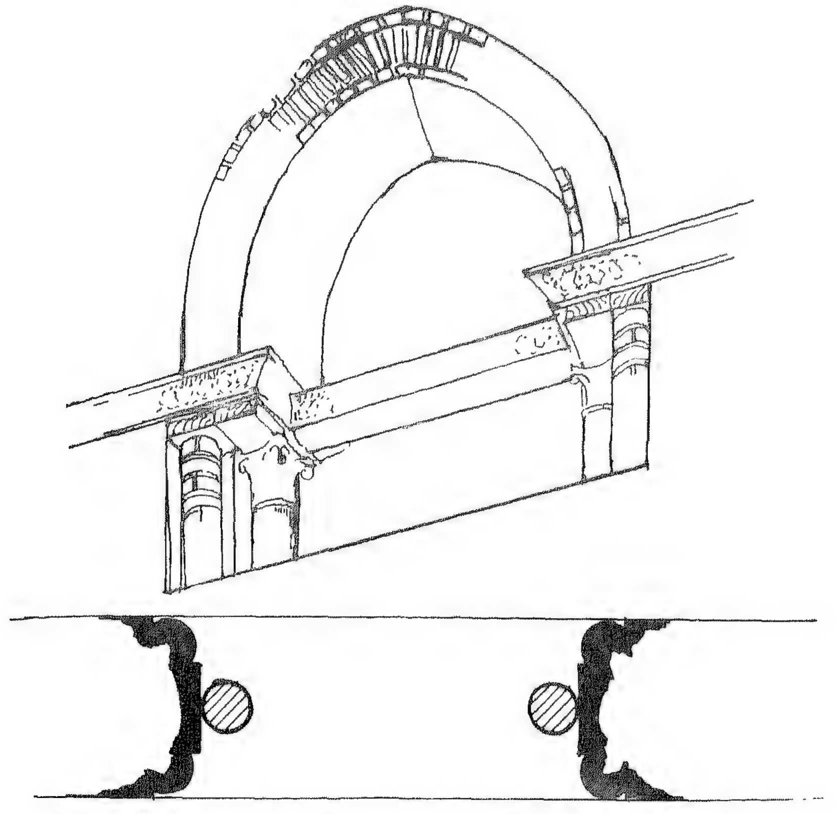
وكانت تحيط بالمسجد خطط الفسطاط ومساكنها منجهاته الثلاث : الشمالية الشرقية والجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية • أما الجهة الرابعة ـ أى الشمالية الغربية ـ فلم يكن يقوم فيها أى بناء ، لأن ضلع المسجد فى هذه الجهة كان قريبا من النيل فى ذلك الوقت (ش : ٢٠٣) •

---

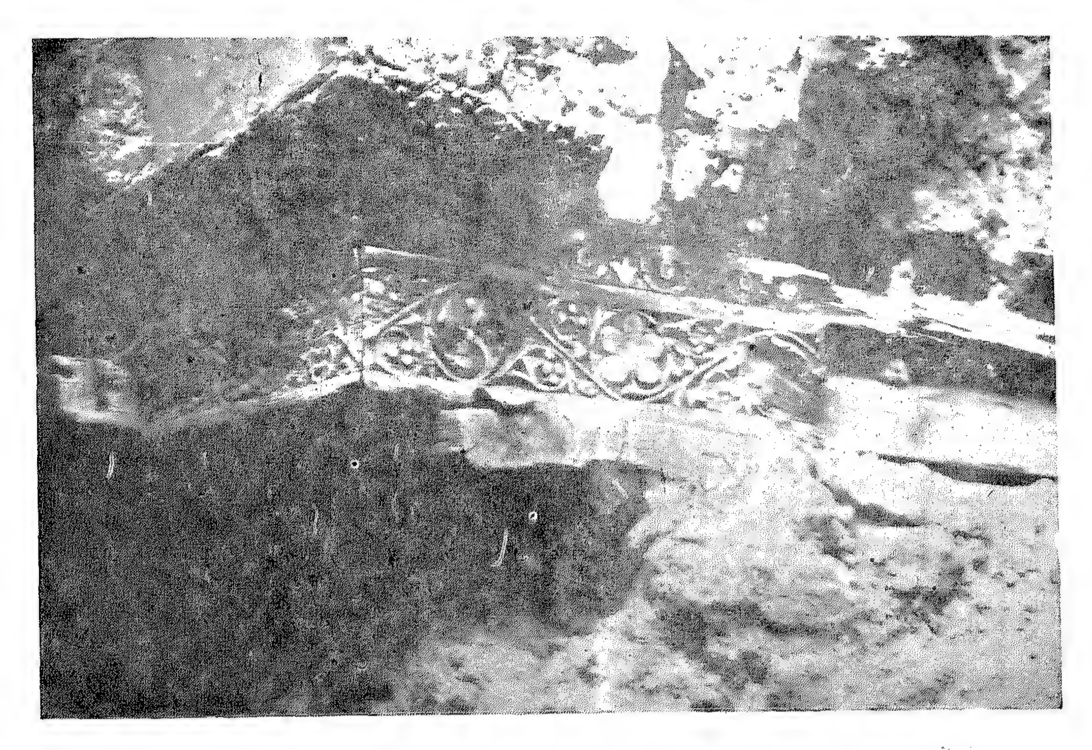
(١) ناصر خسرو : سفرنامه (ترجمة يحيى الخشاب) ، ص ، ٥٩ ، ابن دقماق : الانتصار ـ ج : ٤ ، ص : ٥٩ ـ ٧٤ ؛ المقريزى : الخطط ، ج : ١ ؛ ص : ٢٨٦ ، ٣٠١ ، ٣٠٤ ، ٣١١، ٣٤١، ج : ٢ ، ص : ٢٤٦ ـ ٢٥٦ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ـ ج : ١ ، ص : ٧٥ ـ ٧٩ ، محمود أحمد : جامع عمرو بن العاص (١٩٣٨) ، حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الاثرية ـ ج : ١ ، ص : ٢٣ ـ ٣١ ، ج : ٢ ، ص : ٧ ـ ٨ ، ١٠ ، E.M.A., I, pp. 28-29, 36-39, 96, 99, 100 ; II, pp. 2-3, 165, 171-196, Figs. 157-170, Pls. 37-44 ; Short Account, pp. 234-248, Figs. 48-49, Pls. 44-46.

(٢) ـ ابن دقماق : ج : ٤ ، ص : ٦٢ ، المقريزى ـ ج : ٢ ، ص : ٢٤٧ .

(٣) ـ ابن دقماق : ج : ٤ ، ص : ٦٢ ، المقريزى ـ ج : ٢ ، ص : ٢٤٧ .



ش : ٢٠٩ ـ جامع عمرو بن العاص : شباك وأعمدة ركنية فى نواصيه



ش : ٢١٠ ـ جامع عمرو بن العاص : أفاريز من الخشب مزخرفة بالحفر

ويبدو أن جامع عمرو قد بقي بظلته على حالها حتى قام الوالى مسلمة بن مخلد فى سنة ٥٣ هـ (٦٧٢ م) بهدم المسجد من أساسه وأعاد بنائه من جديد على مساحة تزيد على ضعف ما كان عليه فى الأصل • اذ أضاف اليه مساحة أخرى فى الجهة الشمالية الشرقية كما زاد فيه من الجهة الشمالية الغربية [١] ، مما يدل على أن شاطىء النيل قد انحسر عن قطعة من الأرض فى هذه الجهة • وقد شملت عمارة ابن مخلد هذه عمل صحن مكشوف يتقدم ظلة القبلة الجديدة • وقيل أن الخليفة معاوية أمره ببناء مآذن لجميع مساجد مصر • فجعل مسلمة لجامع عمرو أربع مآذن فى أركانه ، وقيل انه لم تكن به مآذن من قبل • وهو أول من فرشه بالحصر ، وكان مفروشا بالحصباء ــ أى بالحصى الصغير ــ قبل ذلك [٢] •

ثم عمره ووسعه الوالى عبد العزيز بن مروان فى سنة ٧٩ هـ (٦٩٨ م) [٣] •

وجاء الوالى قرة بن شريك ليهدمه من أساسه مرة أخرى ، ويشيده من جديد فى سنة ٩٣ هـ (٧١٠ م) [٤] ، فأصبحت مساحته ــ بعد اضافة أخرى زادها الوالى العباسى صالح بن على فى سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ م) ــ نصف مساحته التى هو عليها الآن • ومن المرجح أن تكون قد بقيت أجزاء من الأساسات والجدران التى شيدها قرة بن شريك وصالح بن على بالآجر • وكان قرة بن شريك قد جعل للجامع محرابا غائرا فى جدار القبلة وزوده بمنبر خشبى جديد ، وعمل له مقصور بجوار المحراب [٥] •

ونجد من الواجب أن نلفت الأنظار الى أن أقوال المؤرخين القدماء ، مثل ابن دقماق والمقريزى ، ليست صحيحة تماما وواضحة فى كثير من الحالات ، وبخاصة فيما يتصل بالعمائر المبكرة مثل جامع عمرو بن العاص وعناصره المعمارية • اذ تتضمن تلك الأقوال تضاربا أحيانا ، وعدم وضوح أحيانا أخرى • ونرى أمثلة لذلك فيما جاء به من روايات عن أول منبر لمسجد عمرو • فمرة ينسبانه الى وقت عمرو نفسه ، ومرة الى عبد العزيز بن مروان ، ثم يذكران أنه نقل اليه من كنيسة ، وفى رواية أخرى أنه كان هدية من ملك النوبة ، وأخيرا ينسبان ذلك المنبر الأول الى عمل قرة بن شريك عندما قام ببناء الجامع من جديد فى سنة ٩٣ هـ (٧١٠م) ، وسنعود الى بحث ذلك بالتفصيل فيما بعد (ص : ٦٢٩ ــ ٦٣٣) •

(١) ابن دقماق : جـ٤/ص ٦٢ ــ ٦٣ ، المقريزى : جـ٢/٢٤٧ ــ ٢٤٨ •
(٢) ابن دقماق : جـ ٤/ص ٦٢ ، المقريزى : جـ ٢/٢٤٨
(٣) ابن دقماق : جـ ٤/ص ٦٣ ، المقريزى : جـ ٢/٢٤٨
(٤) ابن دقماق : جـ ٤/ص ٦٣ ــ ٦٥ ، المقريزى : جـ ٢/٢٤٨ ــ ٢٤٩
(٥) ابن دقماق : جـ ٤/ص ٦٥ ، المقريزى : جـ ٢/٢٤٩

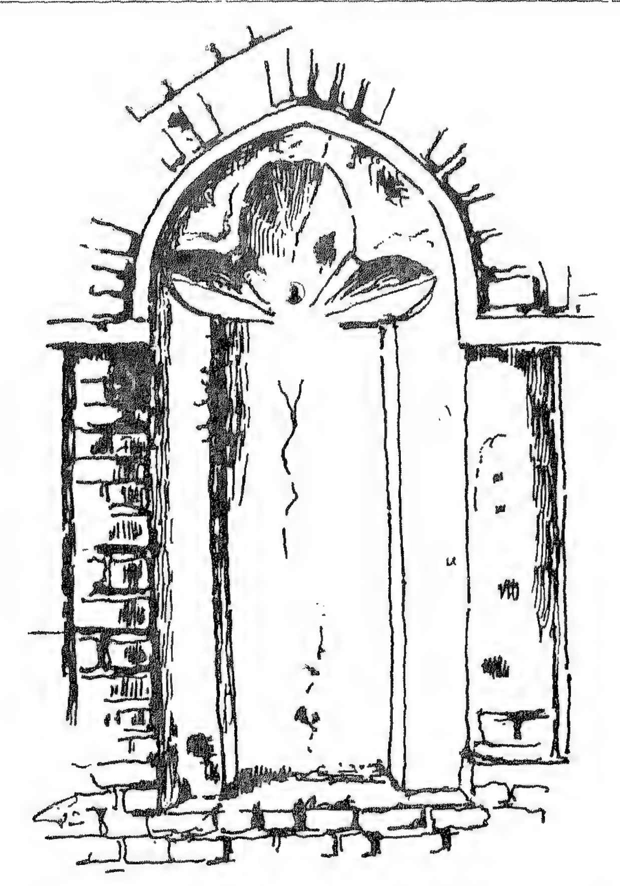


ش : ٢١١ ــ جامع عمرو : حنية ذات طاقية من فصوص مروحية في الواجهة

كذلك يحيط بحديثهم عن المآذن الأولى فى جامع عمرو وفى غيره من المساجد المبكرة غموض آخر يتسبب فيه ما يرويه هذان المؤرخان عنها ، مما ترك الفرصة لنسبة أصلها ــ كما حدث فى أصل المحراب والمنبر ــ الى مصادر غير اسلامية • وكلها محاولات لا تقوم فى رأينا على أساس سليم ، كما سيتضح من مناقشاتنا لتلك الآراء فى الفصل الأخير (صفحات ٥٨٤ ــ ٦٣٣) •

ولما ولى عبد الله بن طاهر أمور مصر من قبل المأمون العباسى ، أمر الخليفة بعمارة المسجد وتوسيعه [١] • فقام عبدالله بن طاهر فى سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) باضافة مساحة جديدة فى الجهة الجنوبية الغربية تعادل مساحته التى كان عليها بعد عمارة

(١) ــ ابن دقماق : ج ، ٤ : ص ، ٦٨ : المقريزى ، ج : ٢ ، ص ، ٢٤٩ ــ ٢٥٠ .



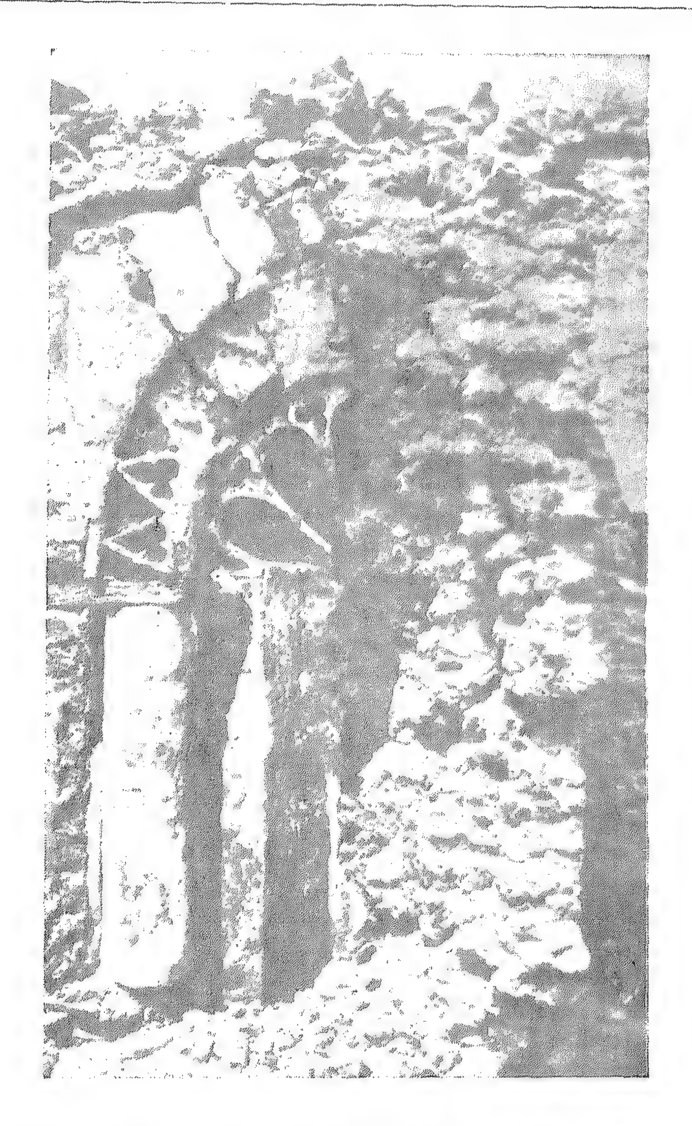
ش : ٢١٢ ـ جامع عمرو : حنية ذات طاقية من فصوص مروحية فى الواجهة (أنظر ش : ٢١١)

قرة بن شريك وصالح بن على ، فأصبحت مساحته على ما هو عليها الآن ، وتحددها الجدران الخارجية الموجودة حاليا • فصار طول جدار القبلة والجدار المقابل له أى الشمالى الغربى نحو ١٢٠ مترا ، وطول الجدارين الآخرين نحو ١٢٠ • غير أن جدرانه ليست متعامدة على بعضها تماما ، فشكل مسقطه الخارجى أقرب الى شبه منحرف منه الى مستطيل (ش : ٢٠٦) [١] •

وقد أعدت جملة دراسات وأبحاث ، وأجريت حفائر داخل الجامع للكشف عن اساسات البائكات التى كانت بداخله ، وأمكن بذلك الاهتداء الى معرفة عددها واتجاهاتها فى الظلات الأربع ، وبالتالى معرفة تخطيط المسجد وهو على هيئته الأخيرة التى أوصله اليها عبد الله بن طاهر • كما ساعد على ذلك بقاء الكثير من جدران المسجد الخارجية الأصلية المشيدة بالآجر ، وقد رمّم بعضها ، ودعم البعض الآخر بدعامات تحفظه من السقوط وضعت خارج الجدران فى بعض المواضع (ش : ٢٠٨) [٢] ،

(١) E.M.A., II, Fig. 170.

(٢) Ibid., II, Pls. 39 a, etc.



ش : ٢١٣ — جامع عمرو : حنية ذات طاقية من فصوص مروحية فى الواجهة

ومن داخل المسجد فى مواضع أخرى [١] . كما بقيت بضعة شبابيك فى الطرف الجنوبى الغربى لا تزال تحتفظ باطارات خشبية أصلية عليها زخارف محفورة من الطراز الأموى (ش : ٢٠٩ ، ٢١٠) [٢] ، اذ لم يكن طراز سامرا قد بدأ بعد فى العراق ، وبالتالى لم يكن له وجود فى مصر . وقد بقيت بعض الأعمدة الرخامية القصيرة ملتصقة بجوانب الشبابيك (ش : ٢٠٩ ، ٢١٠) . ولا زالت بعض حنيات غائرة باقية فى الجزء العلوى من الوجه الخارجى لذلك القطاع من الجدار ، وتغطى

(١) E.M.A., II, Pls. 40 a and b, etc.

(٢) Ibid., II, Pls. 42 d and e, 43 a-d, Figs. 161, 164 ; Short Account, Figs. 48, 49.



ش : ٢١٤ ـ جامع عمرو : حنية ذات طاقية من فصوص مروحية
(أنظر ش : ٢١٣)

تلك الحنيات طواقى ذات ضلوع وقنوات وفصوص تخرج من مركز الطاقية على هيئة مروحية (ش : ٢١١ ـ ٢١٤) [1] كذلك بقيت نهايات البائكات فى ظلة القبلة فى الجدارين الجنوبى الغربى (ش : ٢٠٧) والشمالى الشرقى لتعين اتجاه البائكات الأصلية التى كانت موازية لجدار القبلة قبل أن تهدم وتستبدل بها البائكات التى تتجه عمودية عليه وشيدت فى عصر مراد بك •

كل تلك البقايا المختفية والظاهرة قد ساعدت على تكوين فكرة تقرب كثيرا من الحقيقة عن تخطيط المسجد الأصلى وتكوينه المعمارى [٢] • ونجد أن محاولة

(١) E.M.A., II, Pl. 38 a-b, Figs. 161, 164.

(٢) قام المرحوم الاثرى محمود أحمد بعمل تخطيط للمسجد ، ويبدو أن المرحوم حسن عبد الوهاب قد اقتنع بهذا المشروع • وقام الدكتور أحمد فكرى بمحاولة أخرى ناقش فيها آراء الاستاذ كريسول والمرحوم الأثرى محمود أحمد ، وخلص من مناقشاته الى عمل مشروع آخر يكاد يطابق مشروع الأثرى المرحوم محمود أحمد • ولكن مما نلاحظه على المشروعين أن صاحبيهما قد أهملا تماما ما أسفرت عنه نتائج الكشف عن أساسات البائكات فى الظلة الجانبية الجنوبية الغربية • وجعلا

الأستاذ كريسول لعمل ذلك التخطيط الأصلى هى أقرب المحـــاولات الى الصحة • وخاصة بعد أن عُدل بحيث يتفق مع اتجاهات وعدد خطوط أساسات البائكات فى الظلات المختلفة ، والتى كشف عنها فى أثناء حفائر أجريت فى سنة ١٩٣٣ فى الجامع• ولكننا نلاحظ أن جميع تلك المحاولات بغير استثناء قد غفلت عن نظرية هندسية هامة معروفة وهى قوة « الرفس » عند أرجل العقود ـ أو ما يسمى بالانجليزية Thrust ـ وهى قوة تتسبب فى زحزحة رءوس الأعمدة أو الدعامات التى ترتكز عليها أرجل العقود ، وبالتالى فى وقوعها وسقوط العقود التى تحملهـــا ، وذلك اذا لم تكن تلك الدعامات ذات متانة كافية • ويبدو تأثير قوة الرفس هذه واضحا فى بعض الجدران الضعيفة اذا تعامدت عليها البائكات الداخلية فتجعلها منبعجـة الى الخارج ، وتحتاج الجدران فى هذه الحالة الى دعامات ساندة توضع ملاصقة لها من الخارج لتعينها على البقاء على حالتها • ويشاهد مثال لذلك فى الجـدارين الجـانبيين ، الشـمالى الشرقى والجنوبى الغربى ، فى جامع الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة (ش : ٢١٥) •

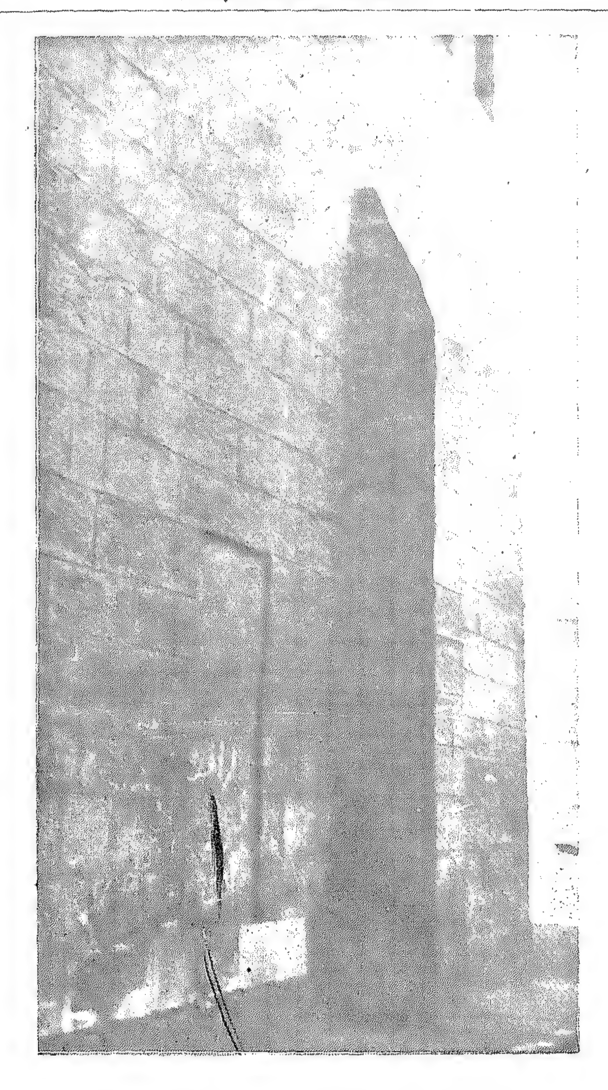
ويمكن تبسيط تعريف قوة الرفس هذه بأن كل عقد مقوس مشيد بقطـع من الأحجار أو قوالب الطوب به مرونة كبيرة تجعله يتجه دائمـــا الى أن يتخلص من الوضع المنحنى ليصبح فى وضع مستقيم أو منبسط ، وذلك بأن يحاول طرفاه ـ أو رجلاه حسب الاصطلاح المعمارى ـ الخروج من مكانيهما فى اتجـاه أفقى (ش : ٢١٦) ، مما يتسبب عنه تهدم الدعامات التى تحمل رجلى العقد اذا لم تكن قد روعى فيها المتانة الكافية لمقاومة الرفس •

ونشبه العقد المشيد بالبناء وما فيه من مرونة بالقوس الذى يستعمل لرمى السهام (شكل : ٢١٧) • فان شد الخيط أو الوتر يجعل القوس على هيئة منحنى ، واذا ترك

وصف ابن دقماق أصدق من البقايا المادية المجسمة للأساسات والتى كشفت عنها الحفائر . غير أن الدكتور فكرى لم يذهب فى افتراض الصدق فى حديث ابن دقماق الى النهاية ، فقد أضاف من عنده الى عدد الأعمدة التى ذكرها ذلك المؤرخ ثمانية أعمدة ، ثم وزعها فى مواضع غير مألوفة فى أصول التصميم المعمارى لا فى العصور القديمة ولا الحديثة ، ويقصر ذهن أى مهندس معمارى عن فهم الداعى اليها .

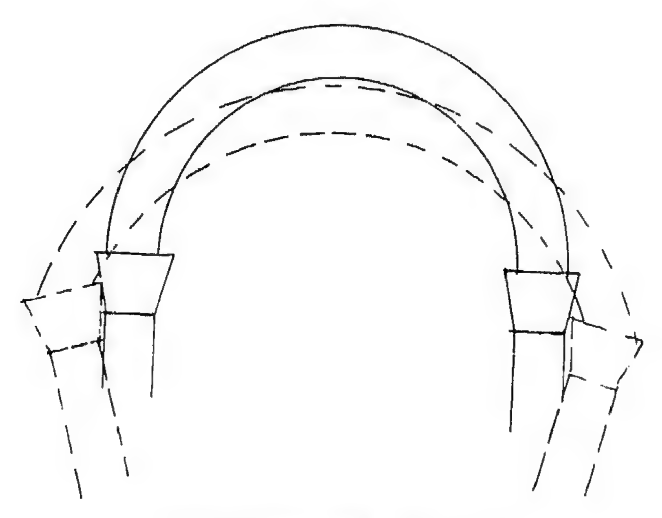
ومن الملاحظ أيضا أن الدكتور فكرى قد استخدم فى كتابه ثلاثة الفاظ « للرواق » هى :

(١)أسكوب ، (٢) بلاطـــة ، (٣) رواق . مع أن لفظ الرواق هو الذى كان يذكره دائما جميع المؤرخين العرب القدماء فى شرق العالم الاسلامى وغربه . غير أنه فى الغرب الاسلامى كان الكتاب والمؤرخون يستخدمون أيضا لفظ «بلاطة» أو «بلاط» للرواق . ويعنون بذلك المساحة الممتدة بين صفين من الاعمدة أو بين جدار وصف من الاعمدة . ولم يوفق الدكتور فكرى فى تعريف كل من تلك الالفاظ وشرح مدلولها وتوضيح الفروق بينها ، مما جعل كتاباته يختلط الامر فيها ببعضه الى حـد الابهام ويتعذر علينا فهم نظرياته وآرائه وتتبعها والانتفاع بمعلوماته . (انظر : محمود أحمد : جـامع عمرو بن العاص ـ لوحة ٢ ، ص ٥٠ ، حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الاثرية ـ جـ ١ : ص ، ٢٧ ، احمد فكرى : المدخل الى مساجد القاهرة ومدارسها ـ ص : ٩٥ ، شكل : ٣٢) .

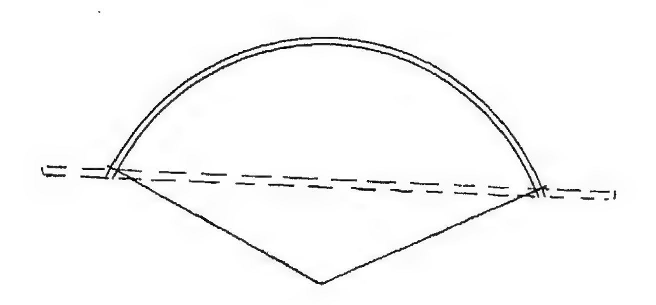


٢١٥ : قلعة صلاح الدين ــ جامع الناصر محمد
(انبعاج فى الجدار الشمالى الشرقى)

الوتر عاد القوس مستقيما ، أى الى وضعه الطبيعى • ويبدو أن المعماريين العـرب قد تنبهوا الى هذا التشابه فابتكروا الأوتار الخشبية التى تربط أرجــل العقود ببعضــها لاضعاف قوة الرفس ، غير أن هذه الأوتار لا تقوى على التخلص منها نهائيا ، وخاصة عند أطراف البائكات ، ولذلك يجب تقوية الأعمدة أو الدعامات الحاملة لأرجل العقود عند تلك الأطراف ، وذلك أنه فى حالة وجود صف من العقود المتتالية التى تتكون منها البائكة فان قوى رفس رجلى عقدين متجاورين تتعادل مع بعضها عند نقطة التقابل، ولا تتعرض الدعامات أو الأعمدة الحاملة لأرجلها الا للقوى الرأسية الناتجة من وزن العقود والأسقف التى تأتى من فوقها ، ويكفى فى تلك الحالات عمل عمـود منفرد



ش : ٢١٦ ـ العقد ومحاولته الانفراد



ش : ٢١٧ ـ قوس السهام

ليحمل كل ذلك . أما عند أطراف البائكات حيث لا توجد الا رجل واحدة للعقد الأخير ولا يوجد بالتالى ما يقاوم الرفس ، فانها تحتاج الى دعامات قوية والا فانها سرعان ما تتداعى ، وذلك على الرغم من وجود أوتار تربط ما بين أرجل العقود . ولذلك فانه لا يكفى وجود عمود واحد ، ولا بد من وجود عمودين على الأقل أو « بدنة » ضخمة ، أى دعامة مشيدة بالبناء .

وبسبب قوة الرفس هذه فاننا قد عدلنا من أشكال الدعامات التى تنتهى اليها أطراف البائكات التى تتعامد على بائكات أخرى ، وجعلنا الدعامات على الهيئة التى بيناها فى الرسم (ش : ٢٠٦) . وهو الشكل الذى نرجح أن الجامع الأصلى كان مشيدا عليه . أما أسباب تهدم البائكات ، على الرغم من ترجيحنا بأن الأعمدة التى جاءت فى المواضع المعرضة للرفس قد شيدت على هيئة بدنات ، فانها ترجع الى ضعف

أسلوب البناء نفسه فى البدنات والجدران الأصلية • وهــو أمر يتضح من اضــافة الدعامات الساندة بغرض حفظ الجدران القديمة الباقية من السقوط (ش : ٢٠٨) •

وأغلب الظن أن ابن دقماق والمقريزى ـ أو بالأحرى ابن المتوج المؤرخ الذى نقلا عنه أغلب كتــاباتهما عن الآثار والذى سـبق الأول بنحو ثلاثة أرباع القــرن وسبق الثانى بنحو قرن ـ أولئك قد أطلقوا لفظ الأعمدة على كل الأساطين المستديرة القطاع والبدنات المربعة أو المستطيلة القطاع [١] • كذلك فانهم قد أشاعوا الغموض فى موضوع الفسقية التى تحت بيت المال ومكانها فى المسجد • فان وصفهم لصفوف الأعمدة وأعدادها قد أوحى بوجود تلك الفسقية داخل الظلة الشمالية الشرقية ، وهو أمر لا يتفق بتاتا مع أصول التصميم المعمارى للمساجد القديمة ، ولم يحدث أبدا فى أى مسجد أن وضع بيت المال والفسقية التى تحته داخل الأروقة • بل وضع بيت المال أول الأمر فى دور الامارة ، ثم نقل بعد ذلك الى الصحن المكشوف الذى يتوسط المسـجد (بعده صفحات ٦٥١ ـ ٦٥٢) • ومما يثير الدهشــة أن الأثريين العـرب المحدثين قد آمنوا بتلك الفكرة الغريبة الشاذة ولم يحاولوا مناقشة وصف ابن دقماق، ووضعوها فى الرسم تبعا لأقواله [٢] •

لم يخرج ذلك التخطيط اذن عن أن يكون مثلا من أمثلة المساجد فى العــالم الاسلامى كله ، والتى تبعت جميعها النموذج التقليدى الذى ابتكره العرب المسلمون ، والذى يتكون من صحن مكشوف الى السماء تحيط به الظلات من جانب واحد أو الجوانب الأربعة • وهو تصميم المساجد الجامعة الذى كان سائدا فى العالم العربى الاسلامى فى المشرق والمغرب منذ بناء مسجد الرسول بالمدينة المنورة (ص : ٥٢ ـ ٥٤ ، ش : ١ ـ ٤) • وظل هذا النموذج مستعملا حتى بعــد ظهور المسـقط ذى الايوانات فى حوالى القرن ٦ هـ (١٢م) [٣] ، والذى استخدم فى أول الأمر للمدارس التى أخذت تشيد لنشر المذهب السنى فى مصر (ش : ١٧٠ ـ ١٧٢) •

(١) كان الرحالة والمؤرخ الاندلسى ابن جبير أكثر دقة فى وصــفه لمثل تلك العناصر المعمارية عند حديثه عن الجامع الاموى بدمشق (رحلة ابن جبير ـ ص ٢٤٢ ومابعدها) ، اذ قال عن الاعمدة أن بعضها كان «سوارى» ـ اى اسطوانات مستديرة القطاع ـ والبعض الآخــر «أرجل» ـ اى دعامات مشيدة ـ ومنها ماكان مغطى بالجص ، ومنها ماكان مرخما ، أى مكسوا بالرخام . وهو وصف يطابق الواقع تماما .

(٢) محمود أحمد : لوحة : ٢ ، حسن عبد الوهاب ـ جـ : ١ ، ص : ٢٧ ، أحمد فكرى ـ ش : ٣٢ .

(٣) سيأتى شرح هذا النوع الجديد من التخطيط الذى استخدم للعمائر الدينية والمدنية فى العصر الايوبى فى كتابنا الثانى ، وفى العصر المملوكى فى كتابنا الثالث بمشيئة الله تعالى .

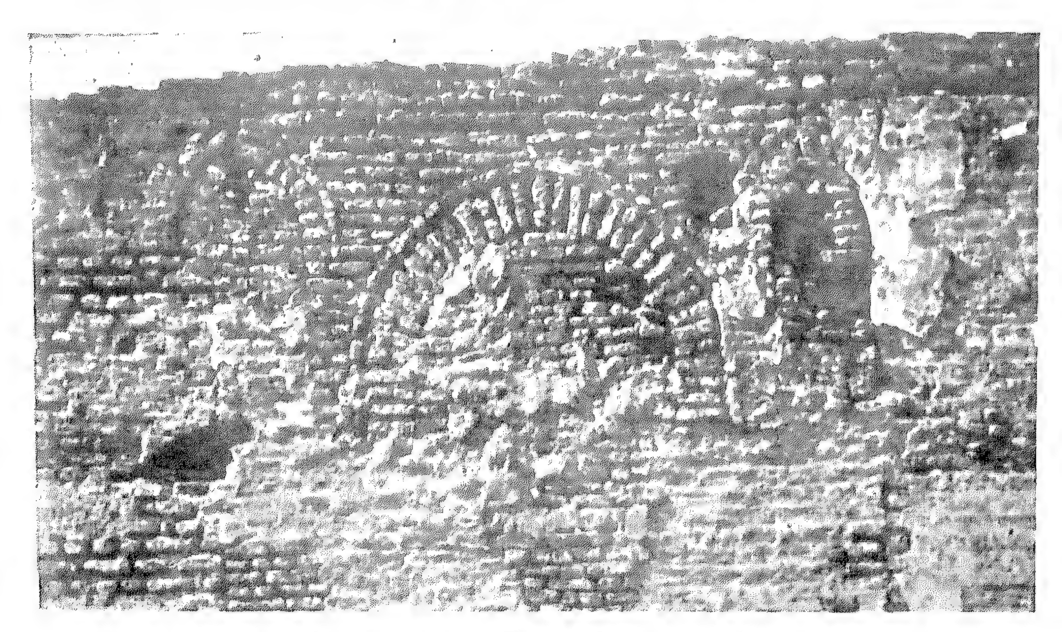
غير أن التخطيط الأخير لجامع عمـــرو يتميز بظواهر غـير مألوفة فى أى من المساجد الأخرى ، ذلك أن ظلاته كلها تتقارب فى عمقها ، فلا تزيد فيه ظلة القبـلة بشكل محسوس عن بقية لظلات الثلاث الأخرى (ش : ٢٠٦) ، كما هو الحال فى جميع المساجد تقريبا ، وكذلك ينفرد تخطيط المسجد بأن الظلتين اللتين وضعتا على جانبى الصحن يختلف اتجاه الأروقة والبائكات فى احداهما عنه فى الأخرى ، ففى الظلة الشمالية الشرقية تتجه الأروقة والبائكات موازية لجدار القبلة ، وبالتالى لجميع الأروقة والبائكات فى ظلة القبلة والظلة المقابلة لها ، بينما تتجه فى الظلة الجنـــوبية الغربية متعامدة على اتجاه جميع الأروقة والبائكات فى الظلات الثلاث الأخرى، وهو اختلاف لا يوجد فى أى مسجد آخر من المساجد الجامعة الباقية من العصور العربية الاسلامية الأخرى ، اذ تتفق الظلات الجانبية فى جميع الحـــالات من حيث اتجاه الأروقة وصفوف الأعمدة والبائكات التى تفصل الأروقة عن بعضها ،

كانت ظلة القبلة تحتوى على سبعة صفوف من بائكات تتكون الواحدة منها من تسعة عشر عقدا تحملها أعمدة رخامية مختلفة الأشكال من ناحية التيجان والأبدان والقواعد ، وتوازى البائكات جدار القبلة وتحصر بينها سبعة أروقة ، وكانت الظلة المقابلة تحتوى على نفس العـــدد من البائكات والأروقة ، أما الظلتان الجانبيتان فان الجنوبية الغربية منهما كانت بها أربع بائكات ، تتكون الواحدة منها من ثمانية عقود ، وتتجه عمودية تماما على بائكتى ظلة القبلة والمقابلة لها المطلتين على الصحن ، وكانت نتيجة هذا التعامد التام على الظلتين وانحراف الجدار الخارجى أن أصبحت الظلة تتكون من ثلاثة أروقة متساوية العرض ورواق رابع عريض عند طـرفه الشمالى الغربى وضيق عند طرفه الجنوبى الشرقى ، كما هو واضح فى رسم المسقط (ش : ٢٠٦)،

أما الظلة الأخرى على الجانب الشمالى الشرقى من الصحن فانهـــا تتكون من ثمانية أروقة توازى أروقة كل من ظلة القبلة والظلة المقابلة لها ، وتفصـــل هذه الأروقة عن بعضها سبع بائكات تتكون الواحدة منها من أربعة عقود ،

ثم أضاف الحاكم بأمر الله فى سنة ٤٠٦هـ (١٠١٥م) رواقا واحدا مسقوفا الى كل من الظلتين الجانبيتين جهة الصحن ،

ويختلف توزيع الشبابيك وأشكالها فى جدار القبلة عنه فى الجدارين الجانبيين، ففى جدار القبلة توجد مجموعات من الشبابيك كانت تقابل الواحدة منها عقـــدا من عقود البائكات الأصلية ، وتتكون كل مجموعة من ثلاثة شبابيك : واحد أوسط عريض معقود واثنان ضيقان على جانبيه ، وتسببت عمارة مراد بك للجامع فى عام ١٢١٢هـ (١٧٩٧م) فى أن كثيرا من تلك الشبابيك قد سد نتيجة لتقابل أرجل عقود البـائكات



ش : ٢١٨ ـ جامع عمرو : الشبابيك المسدودة فى جدران القبلة من الخارج

الجديدة (ش : ٢١٨ ، ٢١٩) التى شيدها مراد بك بحيث تتعامد على جدار القبلة بعد أن كانت فى الأصل موازية له • وشملت عمارة مراد بك بناء مئذنتين ، هما الباقيتان الى الآن •

وكان لجامع عمرو أيام عبد الله بن طاهر ١٣ بابا ، منها ثلاثة فى الجدار الشمالى الغربى المواجه للميدان ، وأربعة فى الجدار الجنوبى الغربى ، وفى الشمال الشرقى خمسة أبواب ، وباب واحد فى جدار القبلة لخطيب المسجد • وكثرة عدد الأبواب هذه ظاهرة كانت منتشرة فى جوامع بلاد العراق فى العصر العباسى الأول (ش : ١٦٢، ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٦٩) [1] ، وتختلف بذلك عن النظام الشامى الذى كان يوضع فيه ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٦٩) ، وتختلف بذلك عن النظام الشامى الذى كان يوضع فيه المقابلة لجدار القبلة وواحد فى كل من الواجهتين الجانبيتين (ش : ١٦٥) •

وذكر ابن دقماق أسماء ثمانية من أبواب جامع عمرو ، منها : باب الشرابيين وباب زاوية فاطمة وباب عمرو وباب الحلوانيين وباب الجنائز ، وكانت فى الجانب الشمالى الشرقى • ثم باب سوق الغزل باب الأكفانيين فى الجانب الجنوبى الغربى • وكان الباب الذى يدخل منه الخطيب فى جدار القبلة يدعى باب الزيزلختة (صحتها زنزلختة ، وهو اسم شجرة كانت بجواره) • ولكنه لم يذكر أسماء الأبواب فى الضلع الشمالى الغربى ولا بقية الابواب فى الاضلاع الاخرى •

(١) ـ ابن دقماق : جـ ، ٤ ، ص : ٥٩ ـ ٦٠ •



ش : ٢١٩ ـ جامع عمرو : الشبابيك المسدودة فى جدار القبلة من الداخل

وتعددت أعمال التجديد والتعمير من بعد عصر عبد الله بن طاهر فأضيفت حول الجامع عدة زيادات ، واشتعلت فيه الحرائق أكثر من مرة فى عصر ابن طولون وابنه خمارويه ، وأعيدت عمارته ، كما عمر مرات أخرى فى العصر الفاطمى ، فعملت له فوارة تحت قبة بيت المال لأول مرة ، وزاد حول القبة مساقف الخشب ، ونصب فى الفوارة حباب الرخام التى يخرج منها الماء ، ولا نعلم الوقت الذى زين فيه جامع عمرو بن العاص بالفسيفساء ، ولكن يذكر المقريزى أنها قلعت من أروقته وبيّض مواضعها [١] ، ويحدثنا المقدسى الذى زار الجامع فى سنة ٣٧٥ هـ (٩٨٥ م) أنه رأى رسوما بالفسيفساء على الجدران [٢] ، كذلك يذكر ياقوت أن جدران الجامع قد جدد طلاؤها فى سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) [٣] ، وأزيل كثير من الفسيفساء ، وهو ما يتفق مع رواية المقريزى .

***

(١) ـ المقريزى : ج ٢ ، ٢٥٠ .

(٢) ـ المقدسى : ص : ١٩٨ ـ ١٩٩ .

(٣) ـ ياقوت : معجم البلدان : ج ٧ : ص : ٨٠٩ .

وزوده الحاكم بأمر الله بتنور ، أى ثريا ، عظيم من فضة زنته ألف درهم ، وعلق بالجامع بعد ان اضطر الناس الى هدم عتب أحد الابواب ليدخل التنور منه ، وأعيد بناؤه مرة أخرى . وكان يوقد فيه ١٠٠ قنديل كل ليلة ، يزاد عددها الى ٧٠٠ قنديل فى ليالى المواسم والأعياد .

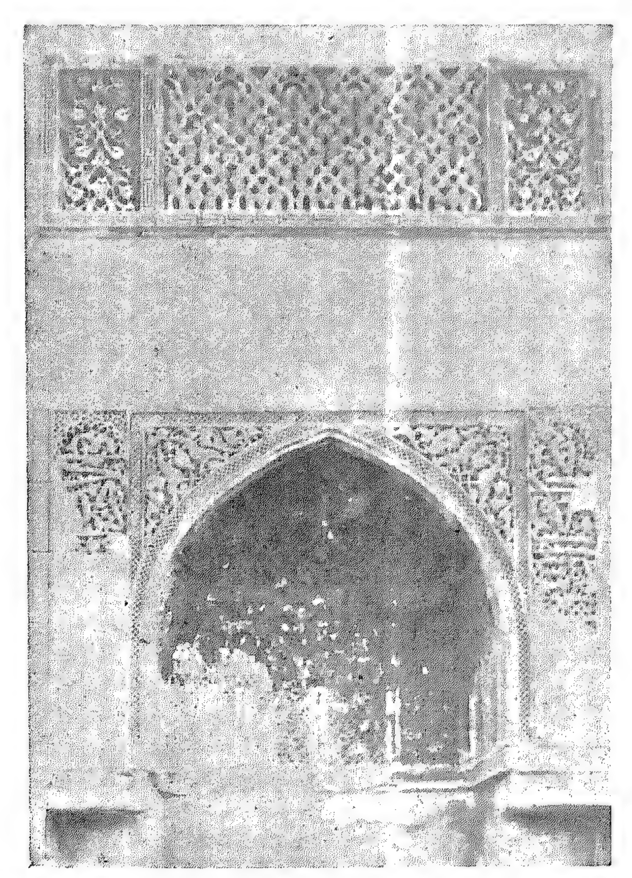
وعلى ذكر الثريا والقناديل التى كان يضاء بها الجامع ، نجد من الروايات الطريفه التى كان المؤرخون القدماء يأتون بها فى كتبهم وتنطوى على مبالغات تتجاوز حد المنطق والواقع ، ما ذكره الرحالة الفارسى ناصر خسرو عن جامع عمرو بن العاص وعن مشاهداته فيه ، اذ يقول (١) .. « وفى وسط سوق مصر جامع يسمى « باب « الجوامع (يقصد تاج الجوامع) (٢) . وهذا المسجد قائم على أربعمائة عمود من « الرخام . والجدار الذى عليه المحراب مغطى كله بالواح الرخام الابيض ، الذى « كتب القرآن عليها بخط جميل . ويحيط بالمسجد من جهاته الاربع الاسواق « وعليها تفتح أبوابه . ويقيم بهذا المسجد المدرسون والمقرئون. وهو مكان اجتماع « سكان المدينة الكبيرة . ولا يقل من فيه فى أى وقت عن خمسة الاف من طلاب « العلم والغرباء والكتاب الذين يحررون الصكوك والعقود وغيرها . وقد اشترى « الحاكم بأمر الله هذا المسجد من أبناء عمرو بن العاص ... بمائة ألف دينار ، « وأشهد على ذلك كل أهل مصر ، ثم أدخل عليه عمارات كثيرة وعجيبة ، منها « ثريا فضية لها ستة عشر جانبا ، كل جانب منها ذراع ، ونصف دائرتها أربعة « وعشرون ذراعا (؟) ويوقدون فى المواسم أكثر من سبعمائة قنديل . ويقال ان « وزن هذه الثريا خمسة وعشرون قنطار فضة (؟) .. ويقال انه حين تم صنعها « لم يتسع لها باب من أبواب المسجد لكبرها فخلعوا بابا وأدخلوها منه ثم ردوا « الباب مكانه . ويفرش هذا المسجد بعشر طبقات من الحصير الجميل الملون بعضها « فوق بعض ، ويضاء كل ليلة بأكثر من مائة قنديل » .

واستوقفت نظرنا تلك الأرقام الضخمة الخاصة بالثريا الفضية من حيث أبعادها ووزنها ، وأثارت حب الاستطلاع عندنا حتى اننا قمنا بتحويل أبعادها الى الأمتار والذراع لا يقل عن نصف متر ، فاتضح لنا أنه لو صح ما ذكره ناصر خسرو لكان قطرها ٢٤ مترا ، ولما كان أكبر عرض لأى رواق فى الجامع ، أى المسافة المحصورة بين بائكتين متوازيتين ، لا يزيد عن خمسة أمتار ، فان تعليق تلك الثريا كان يتطلب

---

(١) ــ ناصر خسرو : ص ، ٥٩ .

(٢) جاء فى كتاب ابن دقماق (ج : ٤ : ص ، ٥٠) : «المسجد العتيق بالراية المشهور بتاج الجوامع» . وجاء فى خطط المقريزى مثل ذلك تماما (ج : ٢ ، ص : ٢٤٦) .



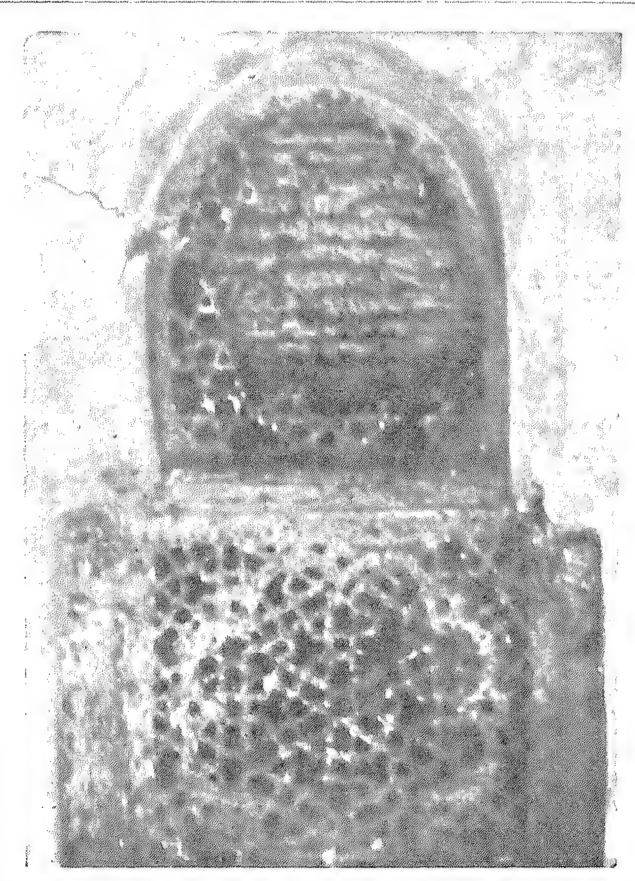
ش : ٢٢٠ — جامع عمرو بن العاص : محراب سلار فى واجهة الجدار الشمالى الغربى

هدم أربعة بائكات على الأقل للحصول على مكان يتسع لها طولا وعرضا . وهـذا الاتساع الكبير يخلق مشكلة معمارية عسرة الحل فى ذلك الوقت هى طريقة تسقيف هذا الاتساع الكبير ، ولا يمكن حلها الا بعمل قبة هائلة الحجم قطرها أكبر من قطر القبة التى تعلو مدفن السلطان حسن [1] ، والتى يبلغ قطرها نحو عشرين مترا. ومهما يكن من أمر فان تخطيط ظلات جامع عمرو بن العاص يجعل هذا الرقم غير مصدق بتاتا ، بل هو محض خيال .

ومن جهة أخرى فان مضلعا منتظما ذا ستة عشر جانبا طول الضلع الواحد ذراعا واحدا لا يتجاوز قطره نحو ٢٫٥٥ مترا ، واذا كان ضلعه ذراعا ونصف الذراع فان قطرها يبلغ نحو ٣٫٨٠ مترا ، وهى أبعاد تدخل فى حيز المنطق والمعقول فى الحالتين.

أما ما ذكره عن أن وزنها كان خمسة وعشرين قنطارا فانه أيضا محض خيال. فان السقف الذى كان يغطى أروقة المسجد لا يمكن أن يتحمل هذا الوزن الذى

(١) ماكس هرتز : جامع السلطان حسن .



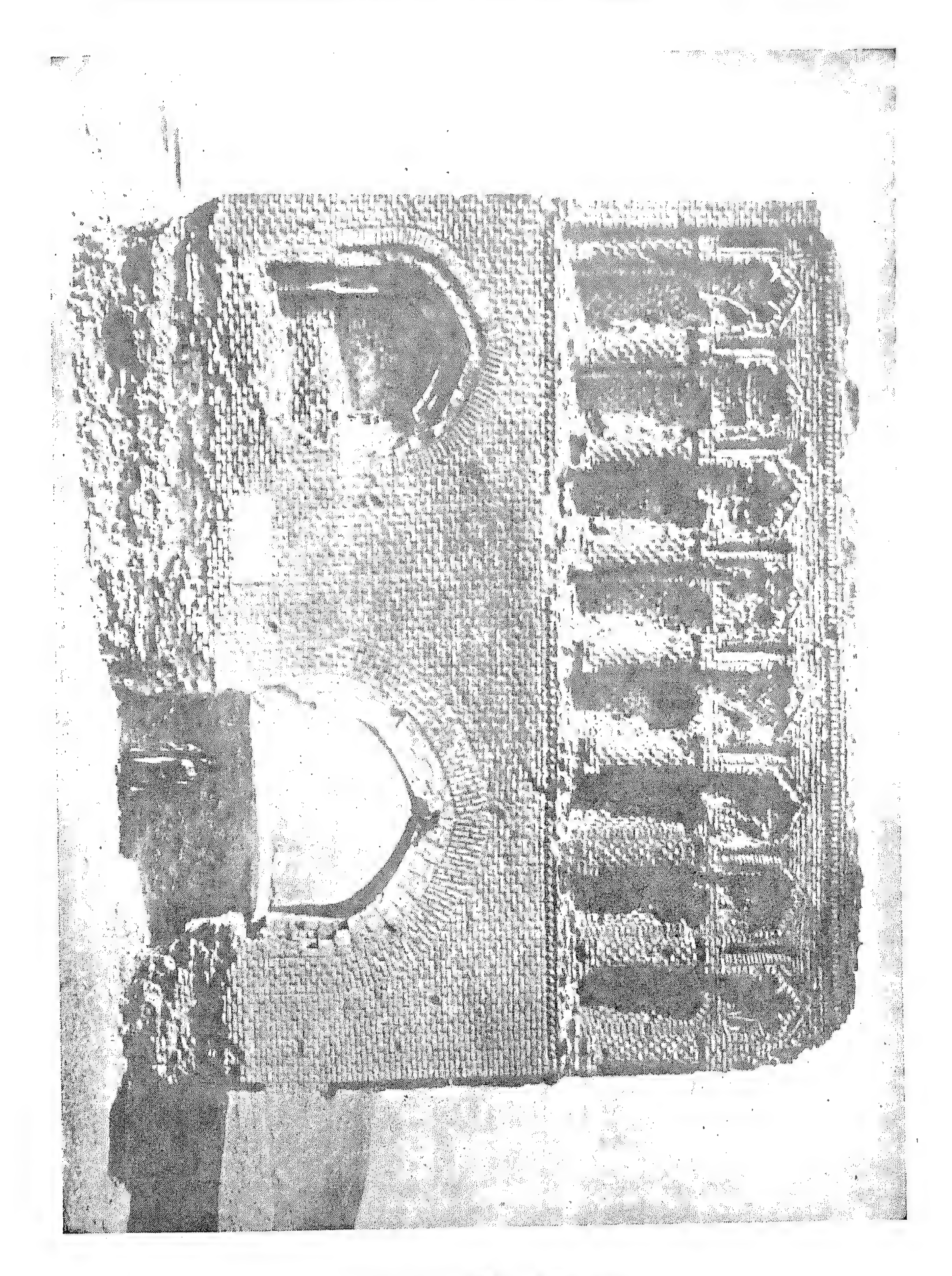
ش : ٢٢١ ـ جامع عمرو بن العاص : شباك من الجص فى الوجه الداخلى من الجدار الشمالى الغربى

يعادل أكثر من طن أو ١٠٠٠ كيلوجرام • وقد يتحمل جزءا من عشرة من الوزن الذى ذكره ناصر خسرو •

وقد آتينا بما سبق من أقوال ناصر خسرو ليتضح مدى ما كان يصل اليه المؤرخون القدماء من مبالغات تخرج عن حدود المنطق بغير تمييز • وسنقابل امثلة من هذه المبالغات فى مواضع أخرى • ولكن على الرغم من كل ذلك فان فيما ذكره فى تلك الفقرات معلومات توصلنا الى نتائج هامة لها قيمتها اذا تناولناها فى حرص شديد كما سيأتى شرحه (ص : ٣٨٣ ـ ٣٨٤) •

***

وتصدعت جدران جامع عمرو بن العاص نتيجة للحريق الذى أشعله شاور وزير الخليفة العاضد آخر الفاطميين فى مدينة الفسطاط ، حتى يمنع الصليبيين من احتلالها والاستيلاء عليها • وأصلحه صلاح الدين الأيوبى فى سنة ٥٦٨هـ (١١٧٢م)• ثم عمّره السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى فى سنة ٦٦٦هـ (١٢٦٨م) • وبقى من



ش : ٢٢٢ ــ الرقة : باب بغداد

عمارة أجراها فيه الأمير سلار فى سنه ٧٠٣هـ (١٣٠٣ م) [١] شبابيك جصية ومحراب من الجص فى واجهة الجدار الشمالى الغربى أى الواجهة الأمامية (ش : ٢٢٠ ، ٢٢١).

وكانت أسوأ مرحله من التعمير جرت فى الجامع تلك التى قام بها مراد بك فى سنه ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) [١] ، فقد تم فيها تعديل صدر الجامع ، أى ظلة القبلة ، بحيث هدمت بائكاتها وأعيد بناؤها مع تغيير اتجاهها الذى كان يوازى جدار القبلة فى الأصل ، وجعله يتعامد على ذلك الجدار ولم يراع فى ذلك وضع الشبابيك الأصلية فى جدار القبلة وتوزيعها • مما نتج عنه أن تقابلت عقـود بعض البائكات الجديدة بفتحات النوافذ فى جدار القبلة ، وتطلب الأمر سـد جميع النوافذ فى ذلك الجـدار بالبناء (ش : ٢١٨ ، ٢١٩) ، فامتنع وصول الضوء بطريقة مباشرة الى الأروقة القريبة من القبلة • كما سدت جميع النوافذ فى الجدران الجانبية بالبناء أيضا [٢] •

هذا وقد تهدمت بائكات الأروقة فى الظلات الثلاث الأخرى ، وأعيد بناء رواق واحد فى الجهة المقابلة لظلة القبلة • والجامع كله الآن على هيئة خربة لا تليق بأقدم أثر معمارى اسلامى وضع أساسه العرب على أرض مصر •

***

واذا استعرضنا ما بقى من ظواهر معمارية وزخرفية نجد أنه على الرغم من سبق أعمال عبد الله بن طاهر فى التاريخ على وصـول تأثيرات مدينـة سامرا التى نضجت فيها العمارة العربية الاسلامية فى كل من جوهرها وزخارفها ، فانه قد بقى فى الأجزاء التى ترجع الى عصره عناصر معمارية وزخرفية وأساليب بنائية يتضح فيهـا

(١) ــ الجبرتى : عجائب الآثار : جـ ، ٣ : ص : ١٧٠ .

(٢) روى مارسيل ــ الذى كان مصاحبا للحملة الفرنسية التى جاءت بعد عمارة مراد بك بوقت قصير فى كتاب الحملة الفرنسية ، أو وصف مصر : جـ ١ ص : ٢٤٨ ــ ٢٤٩ ــ قصة غريبة فحواها أن مراد بك ، كان قد فرض على اليهود ضريبة ثقيلة ، فعرضوا عليه فى مقابل الغاء هذا الامر أن يكشفوا عن خبر توارثوه فى عائلاتهم جيلا بعد جيل ، ويتضمن أن عمرا قد دفن كنزا تحت أساسات الجامع . وبناء على هذا الخبر بدأ مراد بك عمارة المسجد ليستر بها بحثه عن الكنز الذى اتضـح أنه علبة من الحديد تحتوى على مصحف كتب بالخط الكوفى . واشترى مارسيل من شيخ المسـجد بعضا من الاوراق التى قيل أنها كانت فى ذلك المصحف . ونشر مارسيل نموذجا من الكتابة التى فيها (المرجع السـابق ــ ص ٢٤٩) .

غـير أن كريسـول (E.M.A., II, p. 177, F. n. 1). يعتقد أن هذه الكتابة يجب أن تؤرخ بعد عصر عمرو بن العاص بقرنين من الزمن ، وذلك لما نبها من ظاهرة نقط الحروف التى لم تكن تستخدم قبل القرن الثالث الهجرى (٩ م) . ويعتقد كذلك أن هذه الحقيقة تضعف من تلك القصة وتجعل فيها كان ملامح الاسـاطير . ويضيف كريسول الى ذلك ان مؤلفـا آخر اسمه براون :: Browne (W.G.) Travels in Africa). كان فى القـاهرة (أى مصر العاصمة) بين سنتى ١٧٩٢ ــ ١٧٩٦ ، وانـه يذكر رواية مختلفة اذ يقول ان الكتب قد اكتشفت داخل صندوق من خشب الجميز فى حاصل ، أى

الطابع العربى الاسلامى الصريح • فمن ذلك طريقة بناء العقود بجنزير – أى حلقة – من صنجات من قوالب الآجر تتجه بطولها نحو مركز قوس العقد ، أو ما يسمى فى الاصطلاح المعمارى الدارج فى مصر « بجنزير من طوب على سيفه » محصور بين جنزيرين من « طوب على بطنه » (ش : ٢٠٩) [١] • وهو أسلوب يشبه ما فى عقود العمائر فى مدينة سامرا مثل العقود العاتقة فى جامع سامرا الكبير •

ومن تلك العناصر أيضا : العقد المدبب الذى أصبح من العناصر المميزة للعمارة العربية الاسلامية وخاصة فى الشرق • ويوجد ذلك العقد خاصة فى الشبابيك الصغيرة فى جدار القبلة (ش : ٢١٨ – ٢١٩) • كما استخدم للطواقى الزخرفية للحنيات التى وضعت بين الشبابيك فى أعلى الجدار فى الواجهة الجنوبية الغربية (ش : ٢١١– ٢١٤) ، ولكثير من الشبابيك (ش : ٢٠٩) • واذن فانه ليس بصحيح ان أقدم مثل للعقد المدبب فى مصر يوجد فى مقياس النيل بالروضة (ش : ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧) • الذى يؤرخ فى سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) • وذلك أن العقود المدببة فى جامع عمرو بن العاص تسبقه بخمس وثلاثين سنة •

ومن العناصر المعمارية العربية الاسلامية فى جامع عمرو ، على نواصى الحنيات على هيئة اعمدة ملتصقة ، قطاعها الافقى من ثلاثة أرباع دائرة (ش : ٢١١ – ٢١٤)• وهى ظاهرة معمارية استخدمت فيما بعد للأكتاف البنائية التى تحمل عقودا البائكات فى جامع ابن طولون (ص : ٤٦٩ الخ) ، (ش : ٢٣٥ ، ٢٩٥ الخ) ، وفى جامع الحاكم بأمر الله • ويوجد أقدم مثل قائم لها فى باب بغداد فى الرقة ويؤرخ فى سنة ١٥٥هـ (٨٧٢ م) – (ش : ٢٢٢) • أى فى عصر الخليفة المنصور العباسى •

ومن تلك العناصر أيضا الحنيات الغائرة فى النصف العلوى من الجدران الخارجية فى الواجهتين الشمالية الشرقية والجنوبية الغربية ، تتوج تلك الحنيات الطواقى الزخرفية التى أشرنا اليها من قبل ومحيطها الخارجى من فصوص متتابعة (ش : ٢١١ – ٢١٤) ، وهى ظاهرة وجدت ايضا فى باب بغداد من أبواب أسوار مدينة الرقة ، أى يرجع الى عصر الخليفة المنصور العباسى •

مخزن ، فى أثناء الكشف عن الاساسات ، وانه لم يذكر شيئا ما عن اليهود • ويضيف كريسول كذلك أن تلك الاوراق ظلت موجودة حتى سنة ١٨٠٩ ، اذ شاهد أحد الرحالة واسمه زيتسن Seetzen حجرة مظلمة صغيرة فى الجانب الشمالى من الجامع ترتفع فوق أرضيتها بمقدار قدم أوراق ضخمة من الرق مغطاة بكتابات كوفية ذات حجم كبير .(Seetzen : Reisen, III, pp. 389-390)

(١) E.M.A., II.

ونلاحظ فى بقايا الأشرطة الخشبية والأفاريز التى حفرت عليها زخارف نباتية أنها لا زالت تحتفظ ببعض الملامح الهلينستية (ش : ٢١٠) • ولكن من الواضح أنه قد تطرق اليها تحوير وتطور لم يكونا موجودين فى القرون السابقة ، ولم تكن تقاليد سامرا الزخرفية قد نمت وتطورت بعد •

***

ويحتل جامع عمرو مكانا بارزا فى حضارة مصر العربية فى العصر الاسلامى • ولم يبدأ فى فقدان مكانته وأهميته الا منذ أواخر العصر المملوكى وبعد الفتح العثمانى •

فجامع عمرو بن العاص هو أقدم الجوامع فى مصر التى كانت تعقد فيها حلقات الدروس للعامة من الشعب وللطلبة والمتخصصين فى أمور الدين من علوم الفقه والحديث والقرآن واللغة العربية • وكانت تلقى الدروس فيه فى حلقات للمذاهب السنية الأربعة • ودرّس محمد بن ادريس المعروف بالامام الشافعى فى الجامع عند قدومه الى مصر فى نهاية القرن الثانى الهجرى (٨م) [١] • ووصل عدد تلك الحلقات، التى كانت تسمى بالزوايا ، الى نحو ١١٠ حلقة لعلوم المذهب السنى أيام الخلافة الفاطمية نفسها [٢] • كما يدل على ذلك ما ذكره ناصر خسرو من أنه « يقيم بهذا المسجد المدرسون والمقرئون • هو مكان اجتماع سكان المدينة الكبيرة • ولا يقل من فيه فى أى وقت عن خمسة آلاف من طلاب العلم والغرباء والكتاب الذين يحررون الصكوك والعقود وغيرها [٣] •• »

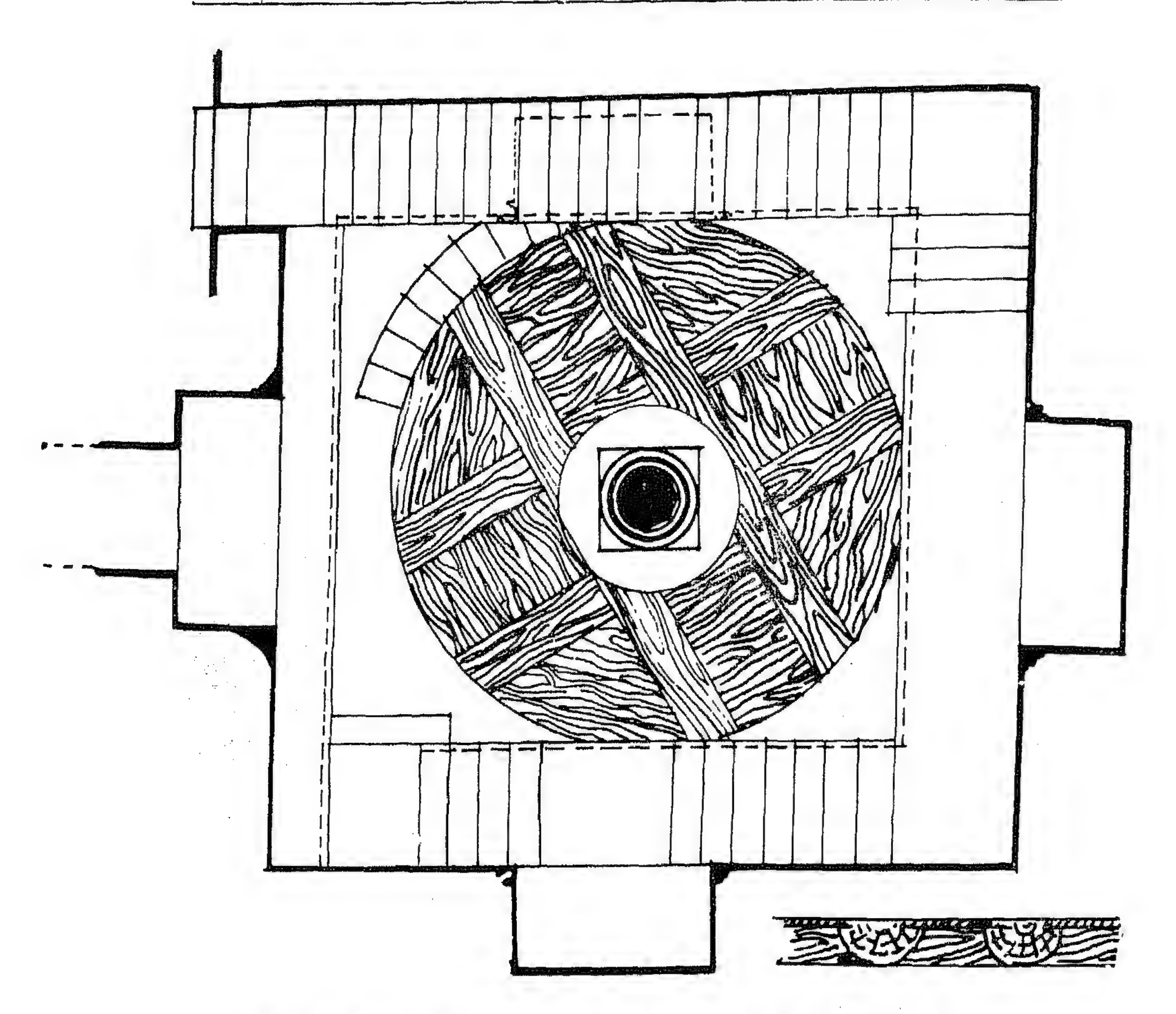
ويستوقف نظرنا هذا الاطناب فى وصف جامع عمرو بن العاص الذى صدر من شيعى متحمس للمذهب الشيعى وللخلافة الفاطمية ، ووصل تحمسه الى حد أنه ظن الفضل فى رخاء مصر راجع الى المذهب الاسماعيلى ، وأن هذا المذهب كفيل بانقاذ العالم الاسلامى [٤] » • بينما يقابل هذا الاطناب فى وصف جامع عمرو اغفال تام للجامع الأزهر الذى بناه الفاطميون ، فلم يذكر عنه شيئا سوى اسمه [٥] • واذا أضفنا الى ذلك ما قاله المؤرخون العرب المسلمون عن الجامع الأزهر وجامع عمرو ابن العاص [٦] ، فانه يمكن القول بأن جامع عمرو بن العاص كان فيه جامعة علمية

(١) ــ ابن دقماق : جـ ، ٤ : ص ــ ١٠٠ ــ ١٠١ •
(٢) ــ المقدسى : احسن التقاسيم : ص : ٢٠٥ •
(٣) ــ ناصر خسرو ، ص : ٥٩ •
(٤) ــ زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين : ص : ١١ •
(٥) ــ ناصر خسرو (ترجمة يحيى الخشاب) : ص ، ٥١ •
(٦) ــ ابن دقماق : جـ ، ٤ ، ص : ٥٩ ــ ٧٤ ، المقريزى ــ جـ : ٢ ص ، ٢٥٤ ــ ٢٥٦ •

تسبق ما كان فى الجامع الأزهر بنحو ستمائة عام . فان التدريس لم يبدأ فى الجامع الأزهر الا فى أوائل العصر المملوكى ، أى عصر السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى عندما عنى بعمارته وأعاد الخطبة فيه ، وكان صلاح الدين قد أبطلها منه بعد قضائه على الخلافة الفاطمية وقصرها على جامع الحاكم بأمر الله [1] . ولم تكن هناك دراسة فى الجامع الأزهر مثلما كانت فى جامع عمرو بن العاص طوال العصر الفاطمى والعصر الأيوبى . وكانت تلقى الدروس فى علوم الشيعة فى قصر الخليفة الفاطمى داخل حصن القاهرة وليس فى الجامع الأزهر [2] ، على غير ما هو معروف فى الوقت الحاضر ، وسنذكر ذلك بالتفصيل عند الحديث عن الجامع الأزهر وعن العصر الفاطمى.

---

(1) المقريزى : جـ ٢/ص ٢٧٥ – ٢٧٦ ، ٣٤١ .
(2) المقريزى : جـ ١/ص ٣٩٠ – ٣٩١ و جـ ٢/ص ٢٨٦ ، ٣٤١ – ٣٤٢ .

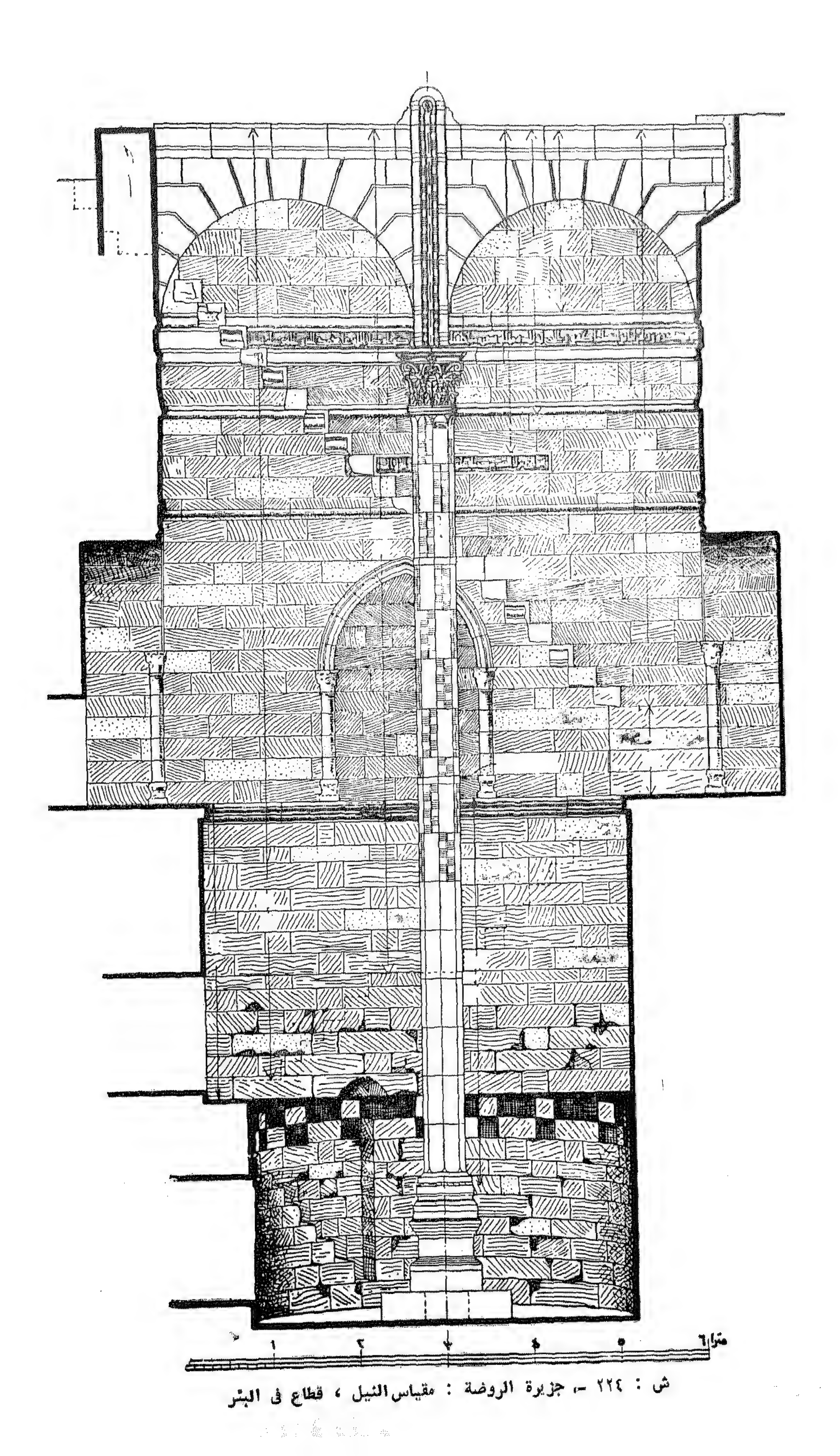


ش : ٢٢٣ ــ جزيرة الروضة : مقياس النيل ، مسقط البئر والطبلية وقطاع فيها

مقياس النيل بجزيرة الروضة :

من المنشئات المعمارية الوثيقة الصلة بحضارة مصر ما شيد منها لقياس مناسيب المياه فى نهر النيل ، وذلك لعلاقتها بمواسم الزراعة وجباية الخراج ، أى أموال الدولة [1] .

(١) المقريزى ، جـ : ١ ، ص : ٥٧ ، ٥٨ ؛ ابو المحاسن ، حـ : ١ ؛ ص : ٧٤٢ ؛ القلقشندى حـ : ٣ ، ص ٩٧ .



ش : ٢٢٤ -، جزيرة الروضة : مقياس النيل ، قطاع فى البئر



ش : ٢٢٥ ـ مقياس النيل بالروضة ، قاع البئر .

فقد كان بجوار حصن بابليون مقياس للنيل قبل أن يستولى عليه المسلمون • أما أول مقياس عمل فى العصر الاسلامى فقد أقامه فى جزيرة الروضة أسامة بن زيد عامل الخراج من قبل الوليد بن عبد الملك سنة ٩٦هـ (٧١٥م) ، ثم أعاد عمله فى السنة التالية فى خلافة سليمان بن عبد الملك •

ويعد المقياس الحالى بجزيرة الروضة ثانى الآثار الاسلامية قدما بعد البقايا التى لا تظل قائمة فى جامع عمرو بن العاص ، فهو ينسب أيضا الى العصر العباسى • وقد بقى المقياس كله فى حالة جيدة بفضل أعمال الاصلاح والصيانة التى قامت بها وزارة الأشغال فى سنة ١٩٢٧ [١] •

وأجمع المؤرخون على أن هذا المقياس قد بنى فى سنة ٢٤٧هـ (٨٦١م) بأمر المتوكل الخليفة العباسى • ونسبه البعض الى الخليفة المأمون • غير أن المؤرخ ابن خلكان صاحب « وفيات الأعيان » قد ذكر ما يؤكد أن اسم الخليفة المتوكل كان محفورا فى الحجر فى نص تسجيلى على شريط يحيط بفوهة البئر من أعلاه ومعه تاريخ بنائه فى رجب سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) ، وأن البئر قد بنى على يدى أحمد بن محمد الحاسب [٢] •

ومرة أخرى يتجلى لنا الميل الى نسبة الأعمال المعمارية أو البنائية الى غير المسلمين والى غير العرب • فعلى الرغم من أن المؤرخ ابن خلكان قد عنى عناية كبيرة باثبات النصوص الكتابية الأصلية التى كانت موجودة بالخط الكوفى على جدران البئر ، والتى قال عنها فى أكثر من موضع ان الذى كتبها هو بانى المقياس واسمه « أحمد بن محمد الحاسب » وذلك تبعا للأقوال التى نقلها عن أبى الرداد الذى كان قائما على ملاحظة المقياس من قبل ، فان المستشرقين من أمثال بتلر Butler [٣] Lane [٤] قد حاولوا تلمس تحريف فى اسمه فى أقوال المؤرخين ، ومنهم ابن الداية الذى ذكر أن من قام بعمل المقياس الجديد فى مصر هو « أحمد بن كثير الفرغانى » [٥] ، ومنهم ابن أبى أصيبعة [٦] وأبو المحاسن [٧] • وفوق ذلك فى أقوال أبى صالح الأرمينى

(١) ينطبق كثير من أوصاف المقياس فى الوقت الحاضر على ماذكره ابن دقماق عنه (حـ : ٤ ، ص ١١٤ — ١١٥) •

(٢) وفيات الاعيان (طبعة بولاق — ١٢٩٩ هـ) ، جـ ١/ص ٢٩٩ — ٣٤١ ،

(٣) ابو صالح الارمينى : كنائس وديورة مصر ترجمة ، ص ١١٤ — حاشية ٢

(٤) Lane (E.W.) : Cairo Fifty Years Ago ((1896), pp. 109, 133, 134-7, 152.

(٥) أبو جعفر أحمد بن يوسف الكاتب (المعروف بابن الداية) : المكافأة — نشر أمين عبد العزيز — ص ١١٠ •

(٦) جـ / ص ٢٠٧

(٧) أبو المحاسن : جـ ١/ص ٧٤٢

الذى ذكر أن مهندس المقيـاس كان اسمه « ابن كاتب الفـرغانى » ، وأنه دفن فى كنيسة القديس « كوليوتس» [1] Coluthus وخلصوا من ذلك الى القول بانه هو « ابن الكاتب الفرغانى » وأنه كان قبطيا .

وعارض الأستاذ كريسول هذا الرأى على أساس أنه لا يمكن أن ينتسب ذلك الرجل الى فرغانة وأن يكون قبطيا فى نفس الوقت . ولكن من ناحية أخرى كان من رأيه أن أحمد بن محمد الحاسب وأحمــد بن كثير الفرغانى شخص واحـد . فترك بذلك مجالا للظن بأن الرجل كان حقيقة من أهالى فرغانة التى كانت فى ذلك الوقت من أعمال بلاد فارس ، وهى الآن جزء من تركستان الروسـية [2] . أو بمعنى آخر أنه لم يكن عربيا من مصر أو مصرى الأصل ، بل كان فارسيا أو كان موطنه فارس.

هذا وهناك رواية أخرى ذكرها مؤرخ مسيحى آخر هو «أوتيخا» Eutychius فى كتاب وضعه عن تاريخ النيل فى سنة ٣٩٩ م ، أى بعد بناء المقياس بنحو ٧٨ سنة فقط ، فقال عن ذلك المهندس أنه كان من العراق واختاره محمد بن موسى الفلكى [3].

وقد ضاع النصان اللذان أشار اليهما ابن خلكان ، ولعل ذلك قد حدث عندما قام أحمد بن طولون باصلاحات فى المقياس فى سنة ٢٥٩هـ (٨٧٣م) ، واســتبدل الشريطين الكتابيين فى الجانبين الجنوبى- والغـربى القديمين بالشريطين الحاليين [4] . ويعد الشريطان المنقوشان بالحفر فى الجانبين الشمالى والشرقى أقدم نصوص كتابية فى حكم المؤرخة وتوجد على آثار معمارية على أرض مصر .

ومهما يكن من أمر فان اسم أحمد بن محمــد الحاسب لم يذكـر فى النص التسجيلى بما يمكن أن يفهم منه صراحة أنه كان مهندسا ، بل ذكر أن المقياس قـد شـيد على يدى « أحمد بن محمد الحاسب » وفى موضع آخر : « وكتبـه أحمـد بن محمد الحاسب » . مما يحتمل معه اما أنه كان مشرفا اداريا وماليا على العمل فحسب، أو كان مشرفا فنيا أيضا فى نفس الوقت ، أى كان مهندسا [5] .

***

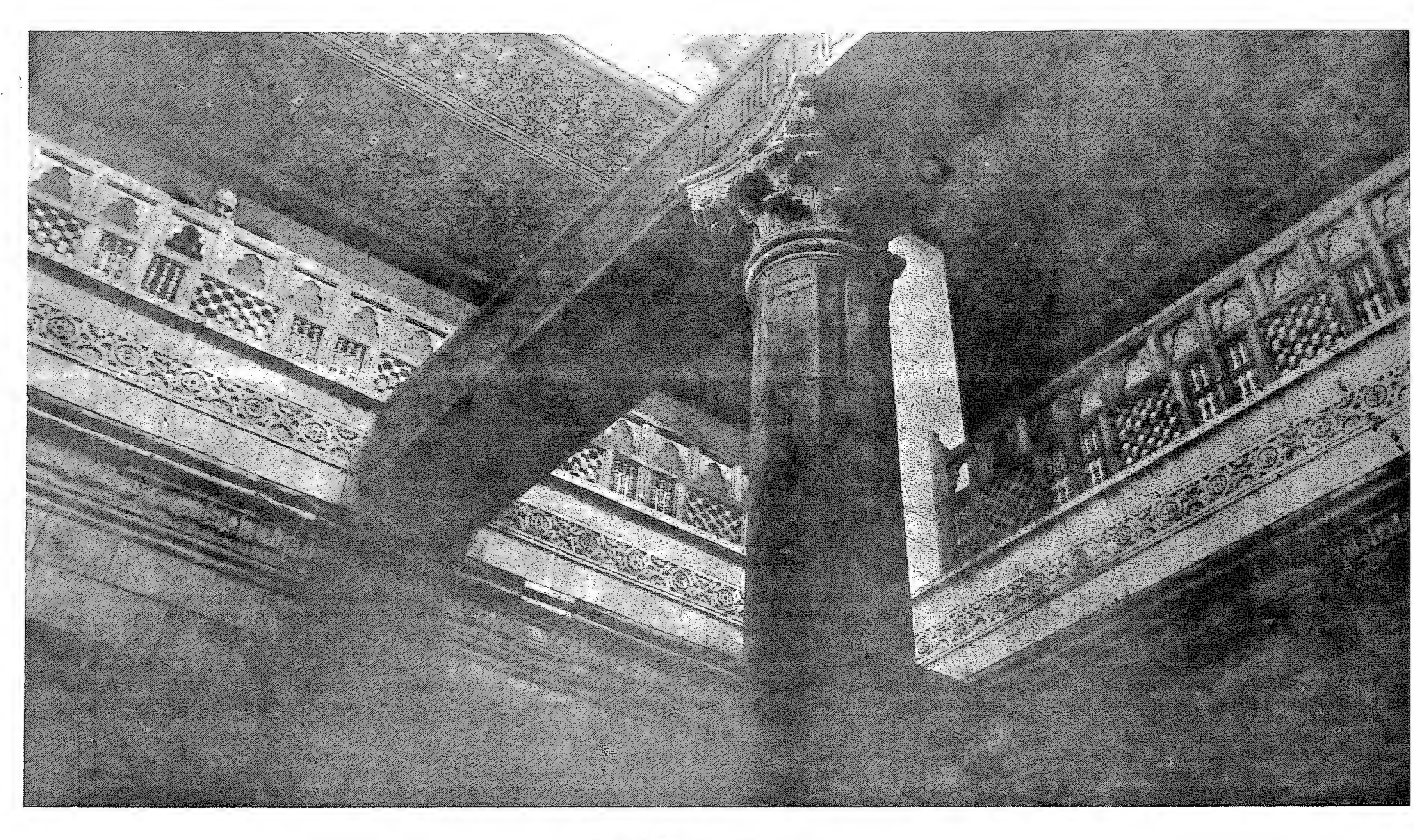
(١) أبو صالح الارمينى : ص ٤٣ – ٤٤ ، ترجمة : ص ١١٣ – ١١٤

(٢) E.M.A., II, pp. 303-304.

(٣) Tousson : Mémoire sur l'histoire du Nil, (M.I.E., IX), pp. 305, 351.

(٤) E.M.A., II, p. 299, Pl. 80 a.

(٥) أنظر «الحاسب» و «المهندس» فى كتاب الدكتور حسن الباشا : «الفنون الاسلامية على الآثار العربية» جـ ١/ص ٤٠٨ ، جـ ٣/ص ١١٥٧ – ١١٦٢ .



ش : ٢٢٦ ـ مقياس النيل بجزيرة الروضة

ويعد بناء المقياس فخرا هندسيا للمهندسين العرب المسلمين من عدة نواح : أولها أن جدران البئر التى شيدت بالحجر المنحوت المتقن قد صممت بحيث يزيد سمكها كلما ازداد عمقها فى الأرض • فعملت البئر على ثلاث حطات أو أدوار : السفلى منها على هيئة دائرة ، تعلوها حطة مربعة ضلعها أكبر من قطر الدائرة ، والمربع العلوى الاخير ضلعه أكبر من ضلع الحطة الوسطى • (ش : ٢٢٣ – ٢٢٧) [١] • وهذا التدرج فى سمك الجدار يدل على دراية ومعرفة بالنظرية الهندسية الخاصة بازدياد الضغط الأفقى للأتربة على الجدران كلما زاد عمقها • ومن جهة ثانية فان أسلوب نحت الأحجار يدل على عناية ودقة فائقين • والأهم من ذلك هو انتقاء نوع المونة التى استخدمت فى لصق الأحجار • فقد ظلت تقاوم التحلل بفعل الماء فترة تزيد على ألف سنة [٢] •

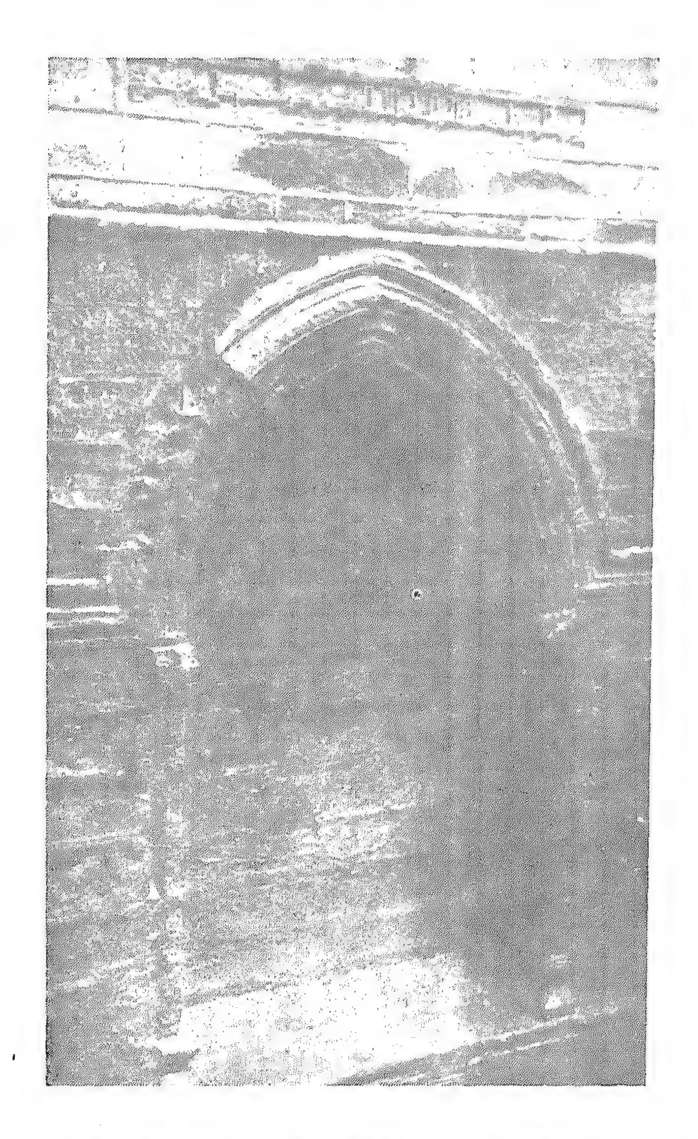
ومن جهة ثالثة – وهى أهمها – أن مراحل العمل قد وضع لها تنظيم وتوقيت دقيقان ، وذلك منذ البدء فى حفر البئر والأنفاق الموصلة اليه ، حتى انتهاء العمل تماما فى بناء البئر : جدرانها وأنفاقها والعمود الذى وضع فى محور البئر تماما •

كانت الحفرة التى عملت لبناء البئر داخلها مربعة لا يقل ضلعها عن عشرة أمتار ، ولا يقل ارتفاعها عن ١٢ مترا • فكان الأمر يستلزم حفر ١٢٠٠ متر مكعب على الأقل من الأتربة والطين اللزج ، والى ذلك العمق الكبير •

كذلك يستوقف النظر أن البناء قد وضع فوق « طبلية » من جذوع الشجر الضخمة (ش : ٢٢٣ – ٢٢٤) ثم ارتفع فى مداميك منتظمة وأحجار دقيقة النحت مع عمل النفق الأسفل فى الحطة المستديرة ليصل بينها وبين فرع النيل من جهة الفسطاط • ثم شيدت الحطة الثانية فوق الأسفل منها ، وترك فيها نفق آخر مشيد بالحجر المنحوت مثل السابق • وأخيرا بنيت الحطة الثالثة وفيها النفق العلوى الأخير• هذا مع ما كان يتخلل البناء من أشرطة من الكتابات الكوفية محفورة فى الحجر أو الرخام ، وما فى الجدران من دخلات غائرة ذات رءوس من عقود مدببة وحليات ، وأعمدة ركنية ملتصقة بنواصى الدخلات ذات تيجان مزخرفة وقواعد كأسية (ش : ٢٢٧) • ثم وضع العنصر الرئيسى فى المقياس وهو العمود الأوسط الرخامى الذى حفرت عليه علامات الأذرع والقراريط التى تعين مناسيب الماء (ش : ٢٢٤ – ٢٢٦)•

(١) E.M.A., II, Figs. 230, 231.

(٢) Ibid., Pl. 80.

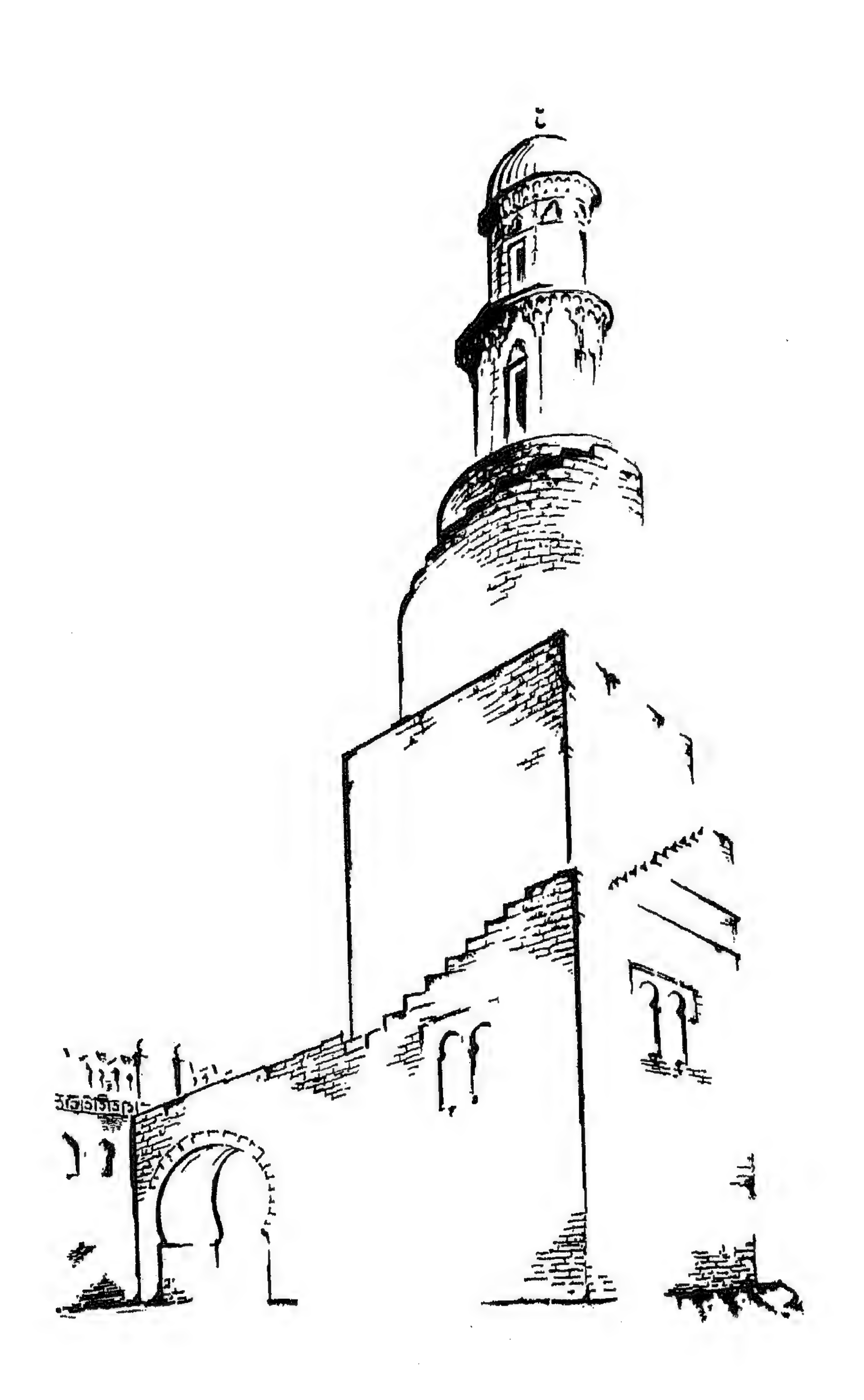


ش : ٢٢٧ ـ مقياس النيل بالروضة ، احدى الدخلات الجدارية فى البئر .

ووضع ذلك العمود ، الذى يبلغ ارتفاعه نحو عشرة أمتار ونصف فوق الطبلية الخشبية التى سبق ذكرها ، لا شك يتطلب حرصا شديدا ودقة فائقة فى جعله عموديا تماما . وكل تلك المراحل الهندسية المختلفة التى بدأت بالحفرة الكبيرة العميقة وانتهت بتثبيت العمود الأوسط ، كان لا بد من الانتهاء منها فى فترة ما بين هبوط النيل الى الحد الذى يكاد يجف فيه تماما فرع النيل بين الروضة والفسطاط ، وبين بدء فيضانه مرة أخرى أى ما يقرب من ستة أشهر فقط .

ومن أروع ما تفتق عنه ذهن المهندس تلك الطبلية من الخشب المعشق المتين التى وضعت فوق الرمل مباشرة كأساس ترتفع فوقه جدران البئر وهى تعمل فى نفس الوقت كقاعدة يرتكز عليها العمود الأوسط بحيث لا يتعرض للهبوط أو الزحزحة من مكانه اذا كان له أساس منفصل .

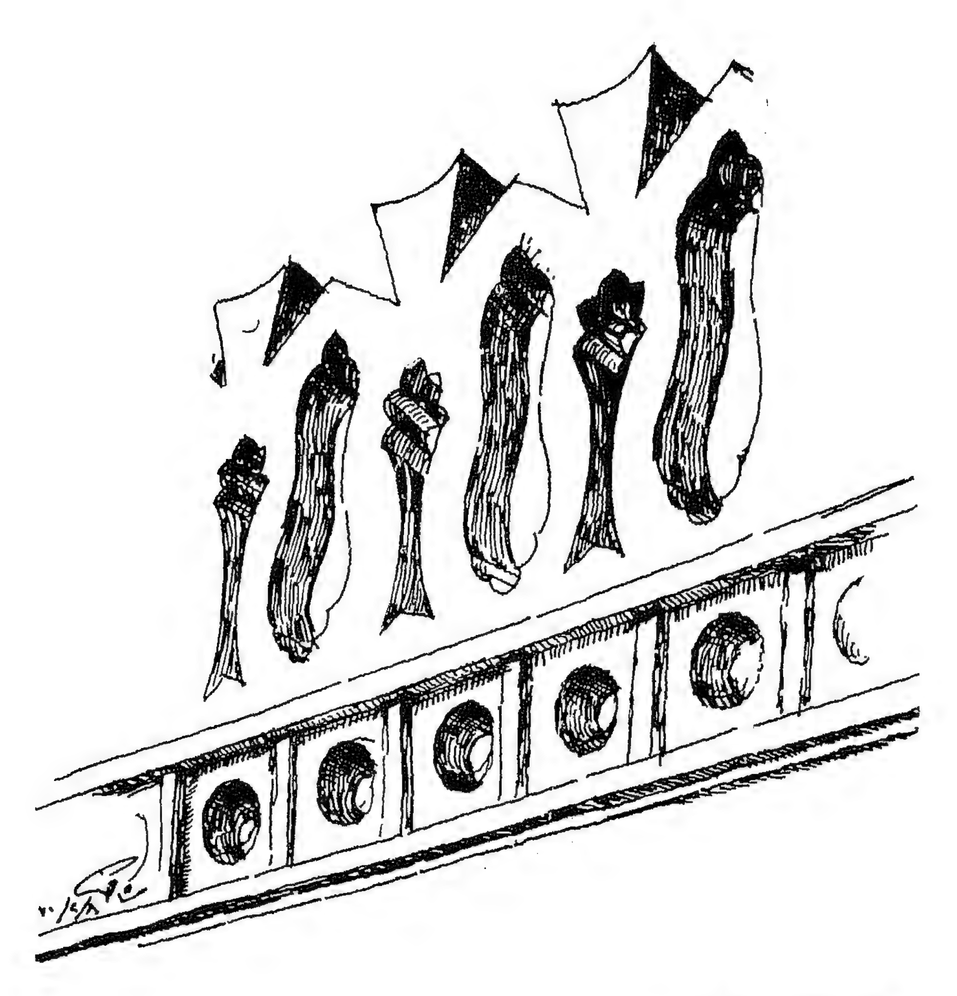
والى جانب ما يحتوى عليه مقياس النيل فى الروضة من أقدم مثل للكتابة التسجيلية على العمائر الاسلامية فى مصر فان به أيضا مثلين صريحين لعنصرين من أهم العناصر الاسلامية الخالصة وجدا فى مصر ولهما تاريخ مؤكد وهما : العقد المدبب ذو المركزين (ش : ٢٢٧) ، وهو يتوج الدخلات الغائرة الأربع فى جوانب الحطة العليا من البئر . والثانى هو قاعدة الأعمدة الركنية الملتصقة التى لها شكل كأسى أو ناقوسى ، وهو الشكل الذى صار النموذج السائد لتيجان وقواعد الأعمدة فى العصر الاسلامى فى أقطار المشرق ، ويوجد أقدم مثل له فى سامرا (ص : ٤١١ ، ش : ٢٣٩) .



الفصل السادس

العمارة في فسطاط مصر

من ولاية ابن طولون



مشتملات الفصل السادس :

خريطة امتداد مدينة سامرا على نهر دجلة، تأسيس مدينة سامرا، منظر بقاع من سامرا القديمة من الجو ، وضوح نظم التخطيط فى سامرا ، قصر المعتصم المعروف بالجوسق الخاقانى ، العناصر والظواهر المعمارية والزخرفية الجديدة فى سامرا ، « باب العامة » أو المدخل الرئيسى للجوسق الخاقانى ، اتهامات مغرضة للعرب المسلمين بتدمير المعابد المسيحية ، بناء البدنات بدلا من الأعمدة الاسطوانية ، ندرة الأعمدة فى جميع عمائر سامرا ، مئذنة جامع سامرا المعروفة بالملوية ، التاج الكأسى الاسلامى العربى ، الحنيات الحاملة للقباب أو المقرنصات ، الزخارف الجصية من طراز سامرا الأول ، العقود المدببة الاسلامية ، الزخارف الجصية من طراز سامرا الثانى ، الطرز الثلاثة للزخارف الجصية فى سامرا ، الزخارف الجصية من طراز سامرا الثالث ، انتشار أساليب سامرا فى مصر ، غرام ابن طولون بالبناء والتعمير ، بناء القطائع ، قصر ابن طولون أو قصر الميدان ، البيت الطولونى الأول ، زخارف من البيت الطولونى الثانى ، زخارف من البيت الطولونى الثانى وخرائب الفسطاط ، تخطيط البيت الطولونى الثانية ، الدار الاولى ومن حفريات الفسطاط ، عنصر المدخل المنكسر أو « الباشورة » الدار الثانية والثالثة من حفريات الفسطاط ، موازنة البيتين الطولونيين بالدور المكتشفة فى الفسطاط ، الدار السادسة من

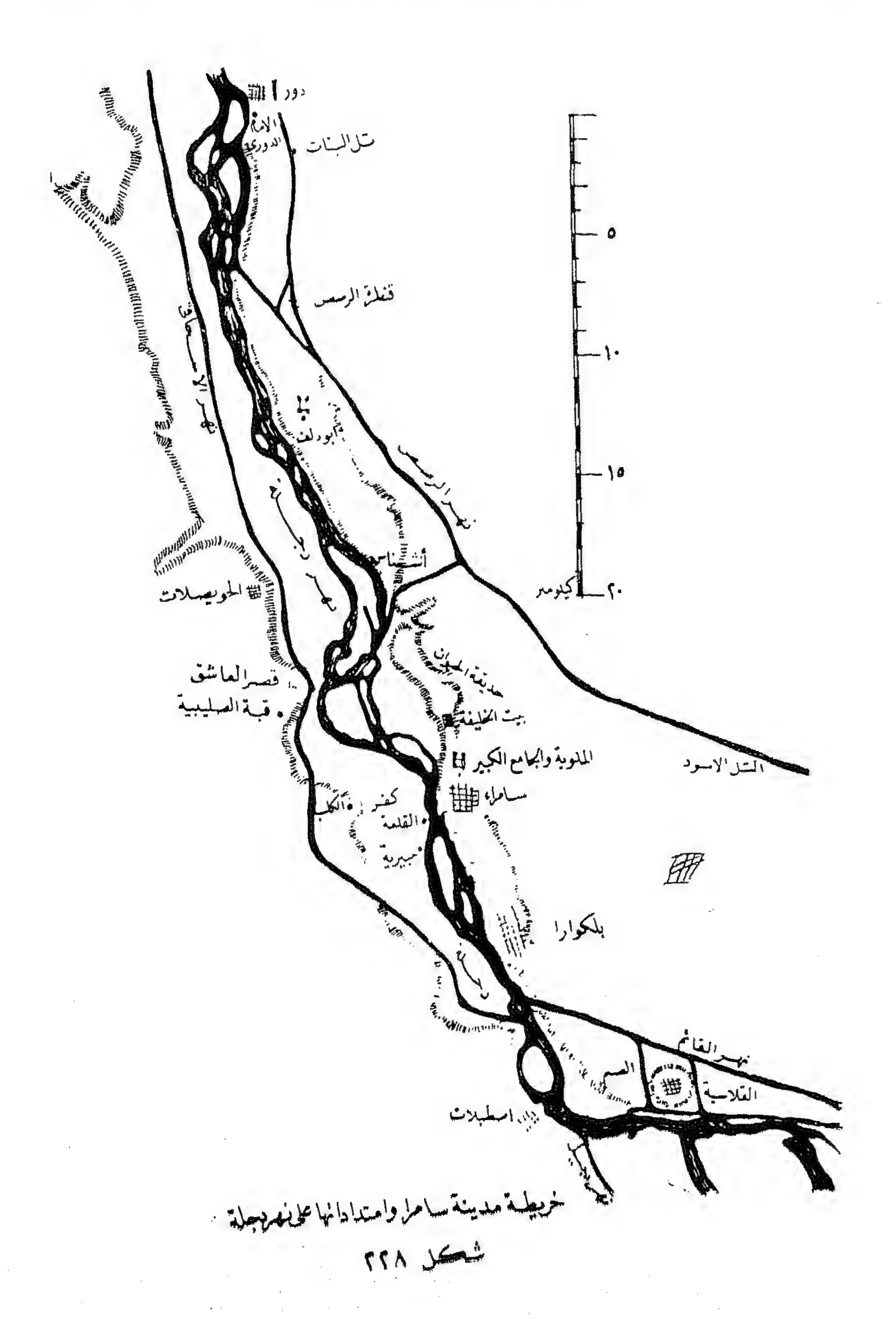
حفريات الفسطاط ، تحليل تخطيط الدور المكتشفة من قبل في الفسطاط ، لوحة مقارنة بين النواة المشتركة فى البيوت وتفاوت أحجامها واتجاهاتها بالنسبة للشمال ، الفواصل بين جدران البيوت ، زخرفة الجدران الداخلية فى البيوت ، الأدلة على تعدد الطوابق فى البيوت ، زخارف طولونية من البيوت المكتشفة من قبل ، صرف الفضلات ، ملحقات البيوت ، الشاذروانات والفساقى والزخارف الداخلية ، الاستعانة بالزخارف الجصية فى تاريخ البيوت المكتشفة من قبل ، بقايا القصر الفاطمى الغربى ، ثبوت تاريخ التخطيط ذى الايوانات الأربعة فى العصر الطولونى ، مسقط جامع ابن طولون ، جامع أحمد ابن طولون ، كان جامع ابن طولون يسمى بجامع الميدان ، تخطيط الجامع على النموذج النبوى ، زخارف واجهات الجامع من الخارج والداخل ، شمسيات أصلية فى الجامع ، الأساطير غير الصحيحة عن بناء الجامع ومهندسه القبطى ، زخارف فى الخشب من جامع ابن طولون زمن أسامرا ، لم يكن مهندس الجامع قبطيا أبدا ، كثير من عناصر جامع ابن طومون وجدت فى الفسطاط من قبل ، مئذنة الجامع ، الميضأة فى وسط الصحن ، تاريخ المئذنة ؛ القبة فوق المحراب ، الحجرة وراء المحراب ، منبر السلطان لاجين المملوكى فى الجامع ، محراب مسطح مملوكى فى الجامع ، محراب مسطح فاطمى ، محراب مسطح مملوكى تقليد للفاطمى ، محراب مسطح فاطمى ، دار الامارة بجوار الجامع ، تقدير تعداد سكان العاصمة أيام الطولونيين على أساس مساحات الجوامع ، خريطة امتداد قناطر مياه ابن طولون ، قناطر مياه ابن طولون ، مأخذ المياه ، أسطورة بناء القناطر ، الامتداد الأصلى لامتداد القناطر ، الدافع الحقيقى لبناء القناطر هو تزويد قصر الميدان والقطاع بالماء ، بناء القناطر يدل على منطق هندسى سليم ، المارستانات والأحباس فى العصر الطولونى ، كنيسة طولونية الطراز فى دير بوادى النطرون ، مغالاة خمارويه فى البذخ هز مالية الدولة ، القضاء على الدولة الطولونية ، مشهد طباطبا الاخشيدى عند عين الصيرة ، قلة وتناثر البنايا الأثرية من العصر الطولونى ، ابن طولون أول من بنى حصنا بمصر ، علاقة لفظ « القصر » بالتحصين ، حصن ابن طولون بجزيرة الروضة ، حصن ابن طولون ودار الصناعة فى جزيرة الروضة .

***

جاء أحمد بن طولون فى سنة ٢٥٤هـ (٨٦٧م) الى مصر ليتولى فى أول الأمر حكم الفسطاط فقط ثم امتد حكمه ليسود باقى الديار المصرية . وتعين تولية ابن طولون نقطة تحول هامة فى الاتجاه السياسى لولاة مصر ، فهو أول من حدثته نفسه بالاستقلال بمصر عن سلطة الخلافة ، وعمل على ذلك حتى تحقق له استقلال جزئى فترة اثنتى عشرة سنة (٢٥٤ - ٢٢٦هـ / ٨٦٧ - ٨٧٩م) . ثم أصبح مستقلا تماما فترة تقرب من خمس سنوات قبل موته فى سنة ٢٧٠ هـ (٨٨٣م) [١] ، وأسس بذلك أسرة الطولونيين .

---

(١) المقريزى : جـ /ص ٣٣٣ - ٣٣٦ ، جـ ٢/ص ٢٦٥ - ٢٦٩ ، زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر .. ص ١٣ - ١٥ ، حسين مؤنس (فى تاريخ الحضارة المصرية) : جـ ٢/ص ٣٨٨ - ٣٩٨ ، .. Lane-Poole (S.) : A History of Egypt, The Middle Ages, pp. 59-71.



خريطة مدينة سامرا وامتدادها على نهر دجلة

شكل ٢٢٨

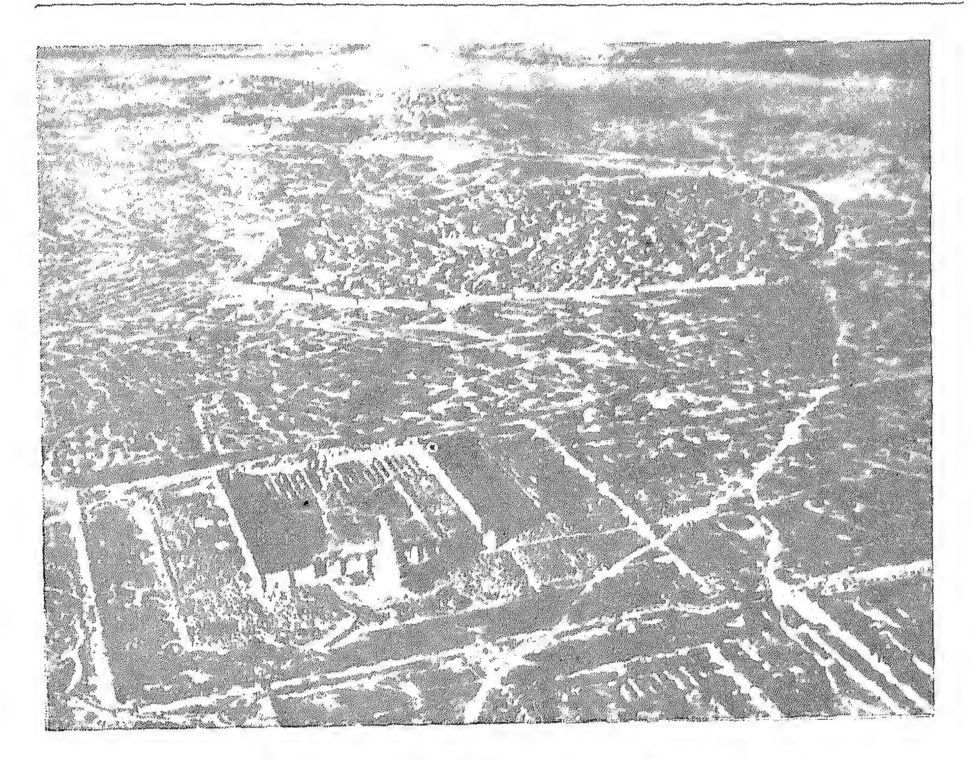
ولا تقتصر أهمية تولية أحمد بن طولون على الاتجاهات السياسية الجديدة فحسب ، بل صاحب توليته وضوح اتجاهات جديدة فى العمارة والفنون الاسلامية فى مصر كانت صدى للطفرة المعمارية والفنية التى حدثت فى العراق عندما أسست مدينة سامرا فى شمال بغداد كما سيأتى ذكره بالتفصيل فيما يلى من صفحات • ذلك أنه قد وضح تأثير تلك الطفرة على العمارة والفنون فى مصر فى جامع ابن طولون الذى بناه على جبل يشكر فى مدينة القطائع الجديدة ، وهى التى أضافها الى رقعة مصر الفسطاط عاصمة الديار المصرية • وكانت تلك الطفرة فى العراق وصداها فى مصر ايذانا بظهور شخصية العمارة والفنون العربية الاسلامية ، وبوصولها الى مرحلة تلاشت فيها كل صلة بأى طراز آخر ، حتى ولو كانت الصلة فى التفاصيل والجزيئات• واتضحت تلك الشخصية فى أقطار الشرق العربى الاسلامى كله ، ثم تدرجت بعد ذلك فى مراحل تطورها ووصلت الى آفاق عظيمة من النضج • وصار كل ما فيها عربيا اسلاميا خالصا ، سواء كان ذلك فى التخطيط والتصميم ، أو فى الجزئيات والتفاصيل والزخارف ، أو بمعنى أوضح ، أصبح كل من المظهر والجوهر اسلاميا خالصا واختفى كل ما يشتبه فى أنه قد جاء بتأثير أو من مصدر غير اسلامى •

كل ذلك يجعل من الواجب أن نلم المامة سريعة بتأسيس مدينة سامرا وعمرانها والعوامل التى أثرت على تطور العمارة والفنون فيها ، ثم بالنتائج التى ترتبت على ذلك كله ، وبخاصة ما كان له صلة وثيقة بما حدث فى مصر من تطورات فنية ومعمارية •

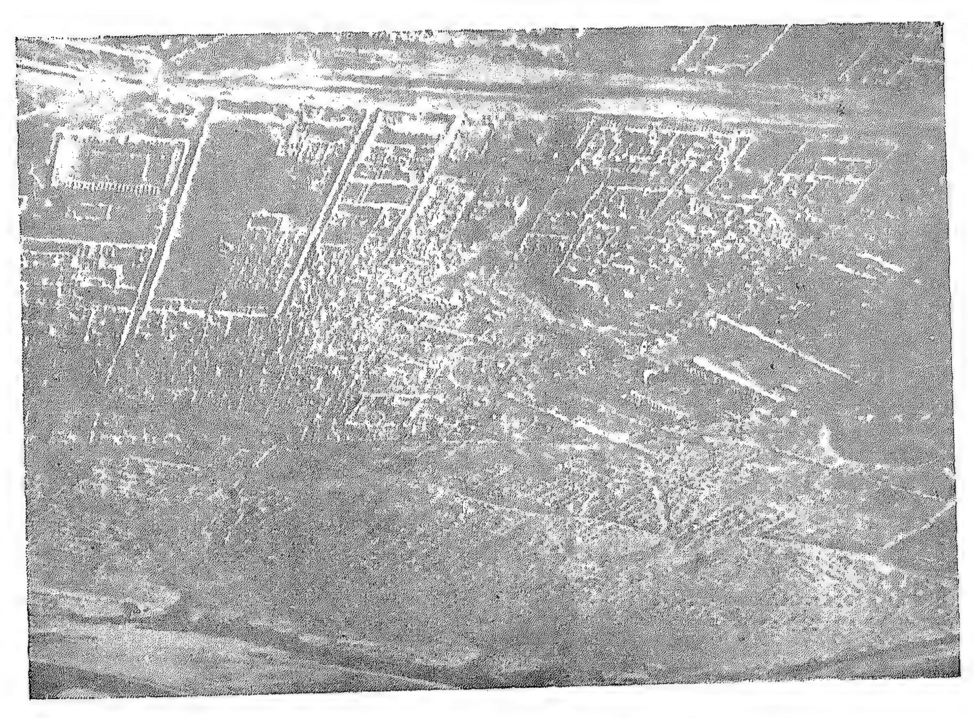
***

بدأ ظهور مدينة سامرا فى عالم الوجود عندما وقع اختيار الخليفة المعتصم العباسى على بقعة من الأرض على نهر دجلة تبعد نحو ١٠٠ كيلومتر الى الشمال من بغداد ليقيم عليها مدينة جديدة يسكنها هو وجنده وحاشيته وخواصه كى يحول دون تفاقم الفتن بين جنده الأتراك المجلوبين من أواسط آسيا من ناحية ، وبين أهالى بغداد من ناحية أخرى ، وحسما لما كان يقوم بين الجانبين من مصادمات ومعارك تراق فيها الدماء وتهدر من جرائها الأرواح [(١)] • وبدأ بناء مدينة سامرا عام ٢٢١ هـ (٨٣٦ م) وعمرت وتزايد اتساعها وترامت أطرافها فى سرعة غير عادية ، اذا امتد العمران فيها على مسافة تقرب من ٢٠ كيلومتر ، ووصل عرضها على ضفتى نهر دجلة نحو خمسة كيلومترات (ش : ٢٢٨) • وقد تم ذلك كله فى وقت قصير غير مألوف فى تاريخ تطور المدن وما يتبعه من تطور العمارة والفنون • اذ لا يكاد الزمن الذى انقضى بين البدء فى بنائها وبين توقفه بشكل فجائى يتجاوز خمسة وخمسين

(١) E.M.A., II, pp. 227-231.



ش ٢٢٩ : سامرا ـ البلدة والجامع من الجو



ش : ٢٣٠ ـ سامرا : الجعفرية وجامع ابى دلف (من الجو) .

عاما ، دب بعدها الاهمال الى المدينة وتطرق اليها الخراب عندما قرر الخليفة المعتمد هجرها والعودة الى بغداد فى نحو عام ٢٧٠ هـ (٨٨٣ م) [١] ، وذلك فى احدى الروايات ، أو عام ٢٧٨ هجرية (٨٩١ م) فى رواية أخرى [٢] •

وعلى الرغم من قصر الوقت الذى عمرت فيه تلك المدينة ، فان عمرانها قد أحدث ثورة أو فورة مفاجئة فى تطور الفن العربى الاسلامى وفى نواح متعددة منه ، من معمارية وزخرفية وصناعية • ولا يتسع المجال هنا لشرح المميزات التى نضجت فى تلك النواحى ، فقد وضعت من أجل ذلك عدة مجلدات كبيرة أبحاث ودراسات كثيرة [٣] ، ولا يزال المجال واسعا لوضع مزيد من تلك الأبحاث والدراسات عن هذه النواحى ، وذلك لأنه لم تتم بعد حلقات الكشف عن مخلفات تلك المدينة العظيمة المترامية الأطراف • وسنكتفى هنا من تلك المميزات بما له علاقة مباشرة وثيقة بالظواهر والأساليب والعناصر التى تأثرت بها فى مصر •

★★★

وأول ما يستلفت النظر فى سامرا أنها أقدم مدينة اسلامية بقيت آثارها واضحة ، وتبرهن بقاياها على أن تخطيطها قد خضع لنظم هندسية وتصميمات مدروسة لا تكاد تضارعها فى ذلك أية مدينة أخرى من المدن القديمة المعروفة • ويتضح ذلك من الصور التى أخذت من الجو لكثير من أجزائها المترامية الأطراف وعلى امتداد طولها الكبير وعرضها على نهر دجلة (ش : ٢٢٨ ـ ٢٣٠) [٤] ، وتبين لنا تلك الصور مقدار ما وصلت اليه شوارعها من انتظام خطوطها واستقامتها وتوازيها وتقاطعها ببعضها فى زوايا قائمة أو حادة أو منفرجة ، وما ينشأ عن ذلك من مستطيلات ومربعات

---

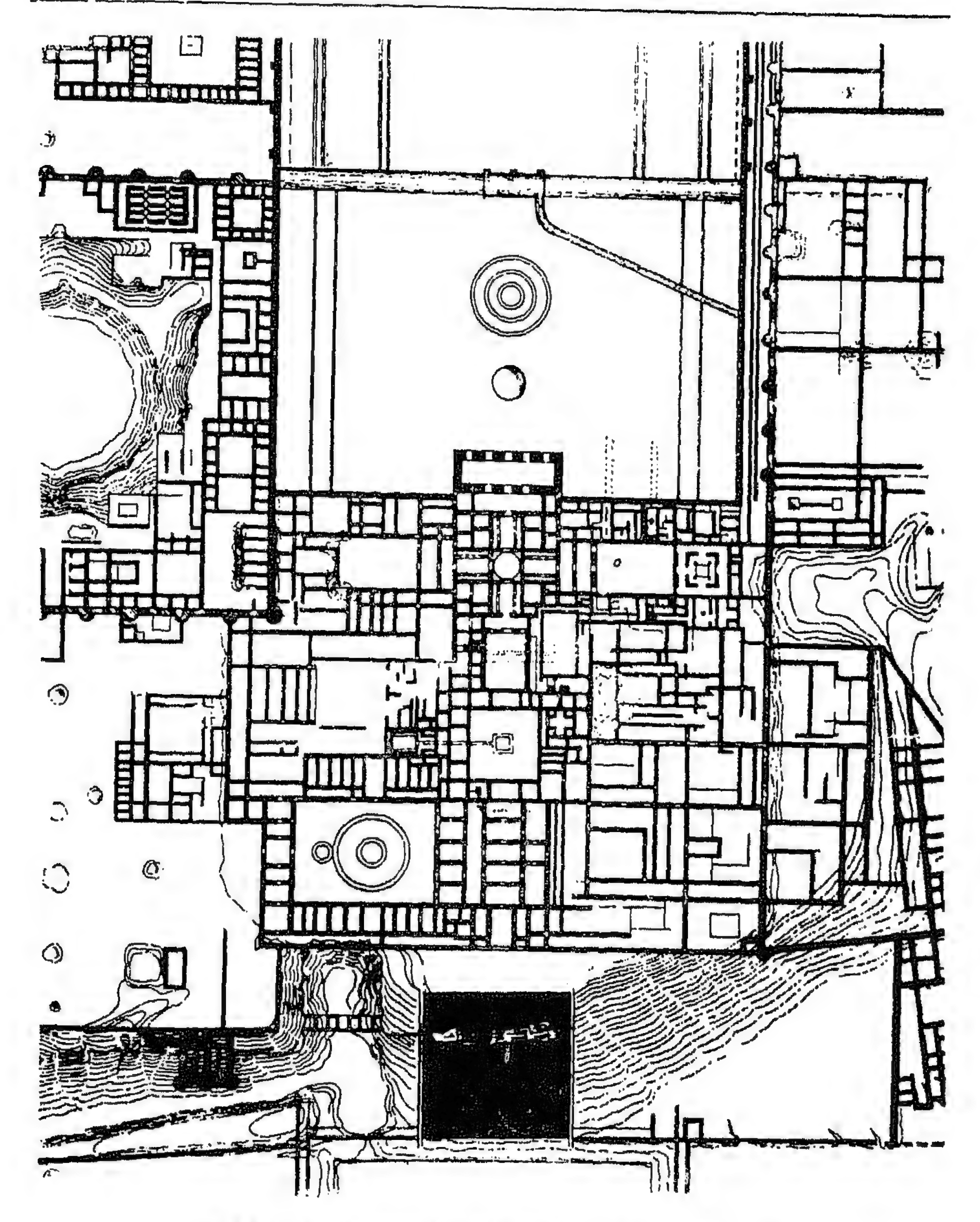
(١) زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ، ص ٢٥ .

(٢) E.M.A., II, p. 390.

(٣) زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر : ص ٢٤ ـ ٣٤ ، مديرية الآثار القديمة ببغداد : حفريات . سامرا : ج ١ : الريازة والزخارف ، ج ٢ : الآثار المنقولة (١٩٤٤) ، فريد شافعى : زخارف وطرز سامرا ١٠ (مجلة كلية الآداب ـ جامعة فؤاد الاول / المجلد ١٣ ـ ج ٢/ص ١ ـ ٣٩ ، مع ٣٥ شكلا و ١٣ لوحة) .

Flury (S.) : Samarra und die Ornamente von Ibn Tulun, (in Der Islam, IV, 1913, pp. 421-432, with 1 plate and 8 illustrations) ; Herzfeld (E.) : Die Genesis des Islamischen Kunst und das Mschatta Problem, (in Der Islam, I, 1910, pp. 27-63, with 4 plates and 19 figures, and pp. 105-114, with 1 plate and 4 figures ; Herzfeld : Der Wandschmuck den Bauten von Samarra, and seine Ornamentik, (1939) ; Herzfeld : Die Malereien von Samarra, (1927) ; Herzfeld : Geschichte der Stadt Samarra, (1948) ; Dimand (M.S.) : Studies in Islamic Ornament, II, The Origin of the Second Style of Samarra Decoration, (in Archaeologia Orientalia, in Memorium Ernest Herzfeld, pp. 62-68, (1952) ; Ettinghausen (R.) : The « Bevelled Style » in the Post-Samarra Period, (in Archaeol., in Mem. E.H., pp. 72-83) ; Creswell : E.M.A., II, pp. 228-231, 254-270, 277-288, Figs. 181-194, 202-216, 221-227, Pls. 51-58, 63-67, 70-78.

(٤) E.M.A., II, Figs. 213, Pls. 63 a, 70 a.



ش : ٢٣١ ـ سامرا : قصر المعتصم المسمى بالجوسق الخاقانى

ومثلثات تقوم فيها العمائر المختلفة أنواعا المقتنة بناء ، من قصـور ومنازل وأبنية عامة مثل المساجد الجامعة الكبيرة ، كان أعظمها جامع سامرا الكبير وجامع أبى دلف • ثم ثكنات الجنود وخزائن المال وحـدائق الحيوانات والحمامات والأسواق وغيرها • فكأنها مدينة خططت فى العصر الحديث على النظم الهندسية المعـروفة فى علم تخطيط المدن • وقد سـارت على نظامها مدينة الجعفرية التى بناها المتوكل الى الشمال منها ، والتى مد الشارع الأعظم اليها ليصل بينهما (ش : ٢٢٨) •

وتعطينا بقايا القصور الضخمة العظيمة التى بناها الخلفاء هناك عن مقدار الترف والأبهة التى كانت تحيط بهم • فقد كان يتقدم القصر منها أبواب ضخمة عالية وأفنية واسعة تتابع وراء بعضها ، وتأتى بعدها قاعات العرش والاستقبال وأجنحة الحريم وأهل البيت والأمراء • وتحيط بها دور المال وثكنات الحرس والجنود والاسطبلات وخزائن السلاح ومنازل الحاشية وقصور الوزراء والحمامات والأسواق الى غير ذلك مما يجعل القصر منها كأنه مدينة قائمة بذاتها •

ومن أهم أمثلة تلك القصور قصر الجوسق الخاقانى (ش ٢٣١ – ٢٣٣) [١] الذى بدأه المعتصم فى عام ٢٢١ هـ (٨٣٦ م) • وقصر بلكورا الذى بناه المعتز فى حوالى عام ٢٤٧هـ (٨٦١م) [٢]• وقصر العاشق الذى بناه المعتمد فيما بين عامى ٢٦٤ ، ٢٦٩هـ (٨٧٨ – ٨٨٢ م) [٣] • ولعله هو نفسه قصر المعشوق الذى تحدث عنه كل من الرحالة ابن جبير (١١٨٤ م) وابن بطوطة (١٣٢٧ م) [٤] •

ويهمنا من تلك القصور بوجه خاص أولها وأقدمها وهو قصر المعتصم الذى سمى بالجوسق الخاقانى ، ويعرف الآن ببيت الخليفة • فبالاضافة الى أفنيته الواسعة وقاعاته العظية وفساقيه والأبنية المحيطة به لأهل بيته وبلاطه وجنده ، فقد جعل له ساحة كبيرة يلعب فيها بالصوالج (البولو) وميدانا عظيما للسباق (ش : ٢٣١) •

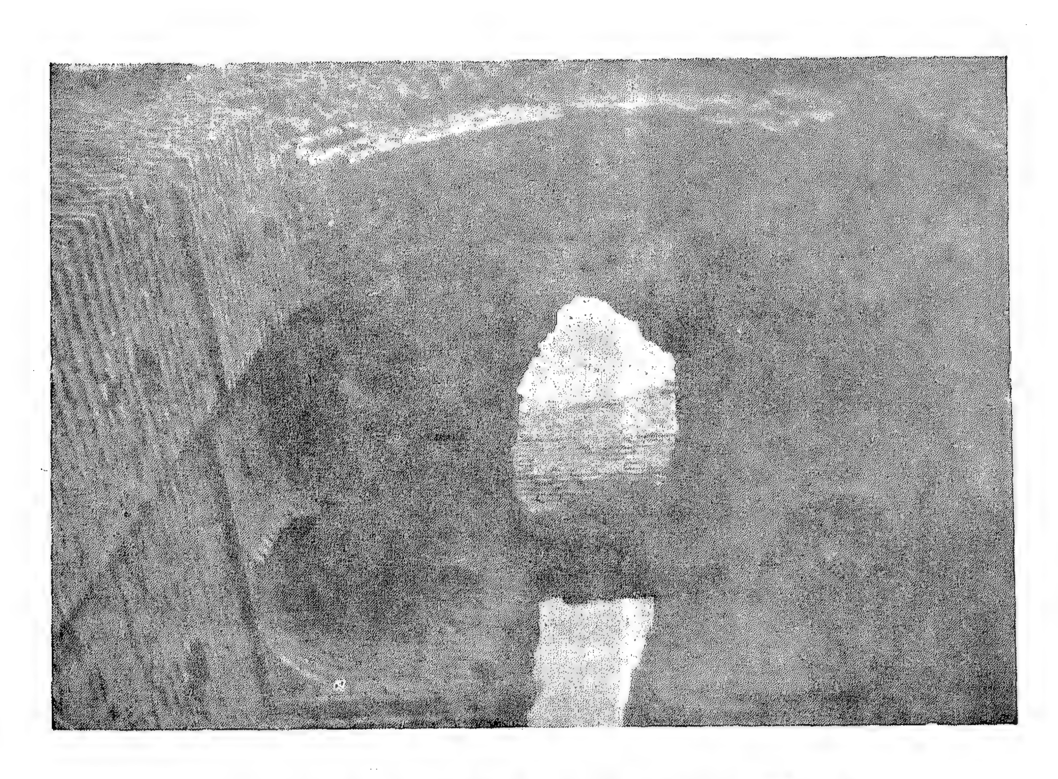
أما من حيث ظواهر العمارة الجديدة فى سامرا ، فقد وجدت فيها عدة منها تعد أقدم أمثلة لها فى العالم الاسلامى ، وهى تهمنا بوجه خاص لعلاقتها بتطور العمارة فى مصر وذلك منذ بداية العصر الطولونى ، فقد ظهر بعضها فى ذلك العصر وظهر بعضها الآخر فى العصر الفاطمى •

من تلك الظواهر عمل « البدنات » أى الدعامات التى يرتكز عليها السقف فى كل من جامع سامرا الكبير وجامع أبى دلف على هيئة أكتاف قطاعها الأفقى اما مربع (ش : ٢٣٤) أو مستطيل (ش : ٢٣٥) ، وشيدت بالبناء ، وذلك لتحمل السقف فى ظلات المساجد اما مباشرة بغير عقود كما فى جامع المعتصم ، أو لتحمل عقودا تتكون منها بائكات يوضع فوقها السقف كما فى جامع أبى دلف • وهذه البدنات المشيدة قد أغنت بطبيعة الحال عن استخدام الأعمدة الاسطوانية التى كان يؤخذ بعضها من عمائر قديمة ، وخاصة المصنوعة منها من الرخام أو الجرانيت لصعوبة

(١) E.M.A., II, pp. 232-242, Fig. 194.
(٢) Ibid., II, pp. 265-270, Figs. 214-21.
(٣) Ibid., III, pp. 361-364.
(٤) Ibid., II, p. 364.



ش : ٢٣٢ ـ سامرا : باب الجوسق الخاقاني المعروف بباب العامة



ش : ٢٣٣ ـ سامرا : باب الجوسق الخاقاني المعروف بباب العامة

استخراجها ونقلها وتشكيلها ، وهو أمر أغرم المؤرخون المسيحيون القدامى بترديده عن العرب المسلمين ، وزاد الغرام به فى العصر الحديث ، فما تركت فرصة الا وانتهزت لابراز وتأكيد تهمة سطو العرب المسلمين على أماكن العبادة المسيحية وانتزاع الاعمدة الرخامية منها • وحتى اذا صحت هذه التهمة ، وهى ليست كذلك [١] ، فانهم لم يكونوا أول من انتزع الاعمدة من العمائر القديمة ، فلقد سبقهم الى ذلك المسيحيون كما سبق القول (ص : ١٥٣ ، ١٥٤) عندما كانوا ينتزعون الأعمدة والاعتاب والاخشاب من العمائر الدينية الرومانية • وفعل الرومان مثل ذلك بالمعابد الاغريقية من قبل •

وقد تردد بهذه المناسبة ما ذكره المؤرخ المسيحى ساويرس بن المقفع من أن المعتصم لم يكتف بجمع الصناع واصحاب الحرف من جميع أنحاء الدولة الاسلامية فحسب ، بل جلب منها أيضا مواد البناء ، وأنه أرسل رجالا الى مصر وأمرهم أن يأخذوا الاعمدة والرخام من الكنائس فى كل مكان • وذكر أنهم نهبوا كنائس الاسكندرية وكنيسة مريوط ، وسلبوها رخامها الملون وأرضياتها التى لا تضارع ، ولم يكتف المعتصم بذلك بل هاجم مدينة عمورية واستولى عليها ونقل بوابتها الى سامرا [٢] •

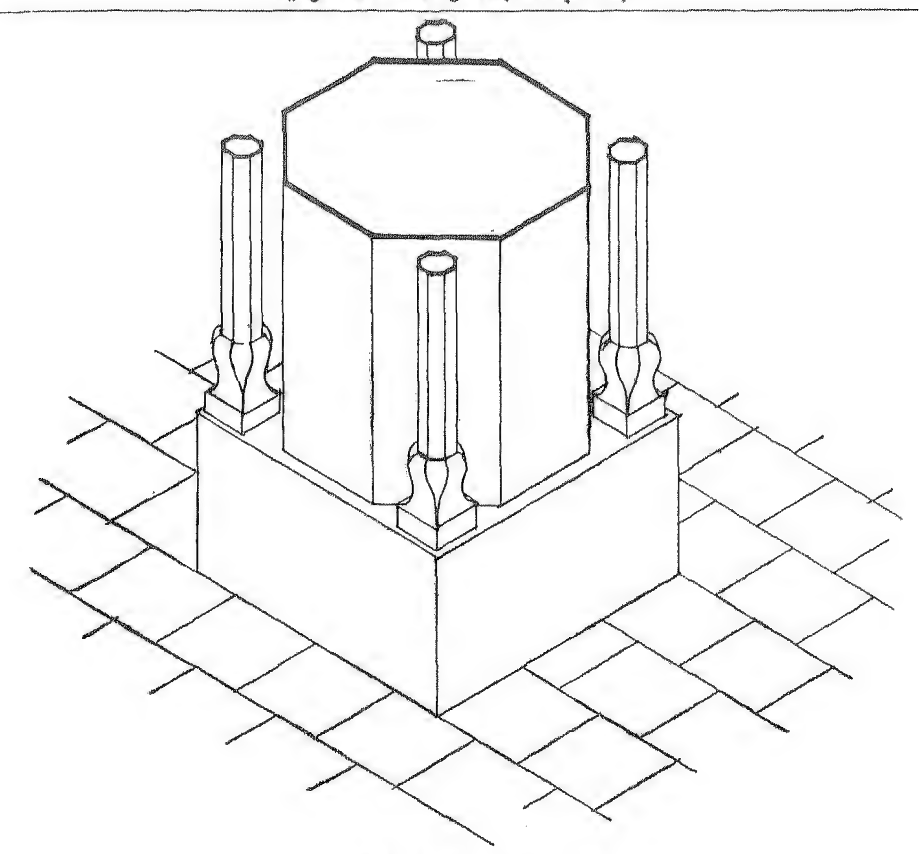
ومن عجب أن تؤخذ أقوال ابن المقفع هذه على علاتها بغير مناقشة ، فى الوقت الذى قوبل فيه قول المقريزى من أن مهندس جامع ابن طولون كان مسيحيا باعتراض شديد كما قوبل بالاعتراض ما قيل من انه ابتكر بناء البدنات فى الجامع بالآجر ليحول دون استيلاء ابن طولون على أعمدة الكنائس ليبنى بها جامعة [٣] • وكان الاولى أن يتطرق الشك الى أقوال ابن المقفع عن المعتصم ، وأن يؤخذ فى الحسبان أن المعتصم لو كان قد استخدم أعمدة من الرخام فى قصره الذى بلغت مساحة ما تشغله الحجرات والقاعات وحدها فيه نحو فدان ، هذا بالاضافة الى الافنية

---

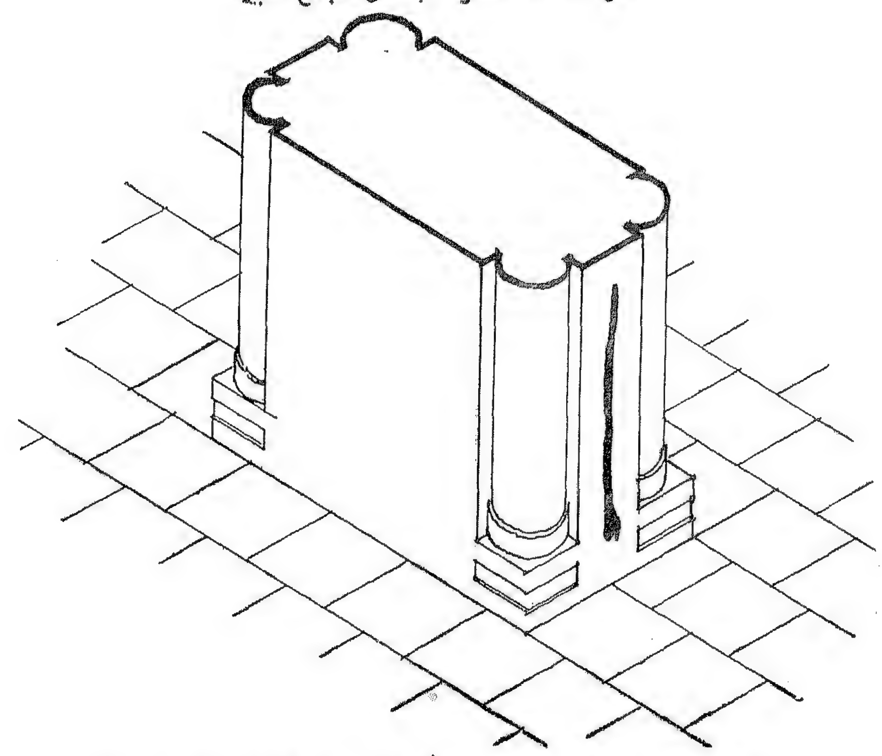
(١) يروى عدة مؤرخين عرب عن الكنيسة التى كانت بداخل المعبد الرومانى الذى أصبح الجامع الاموى بدمشق أن الوليد بن عبد الملك قد فاوض المسيحيين فى أمر التنازل عن الكنيسة وتعويضهم مكانا آخر تشيد فيه مع مال يكفى لبنائها من جديد • وهى روايات تدل على أن الخلفاء والحكام المسلمين لم يكونوا يلجئون الى العنف واغتصاب أماكن عبادة المسيحيين ، بل كانوا يعرضون شراءها بالمال وبالحسنى ، انظر : E.M.A., I, pp. 130-135.

(٢) يزيد كريسول على هذا بأن المعتصم تصرف فى هذا الامر بطريقة تتميز بكثير من الخبث والتهكم باختياره رجلا نصرانيا لهذا الغرض يتبع المذهب النسطورى لما هو معروف من الكراهية المتبادلة بين هذا المذهب ومذهب الاقباط فى مصر ، وهو أمر سيجعله فى منتهى القسوة مع الاقباط ومع مايملكونه من كنائس ، انظر : E.M.A., II, pp. 231, ft. n. 6, 232.

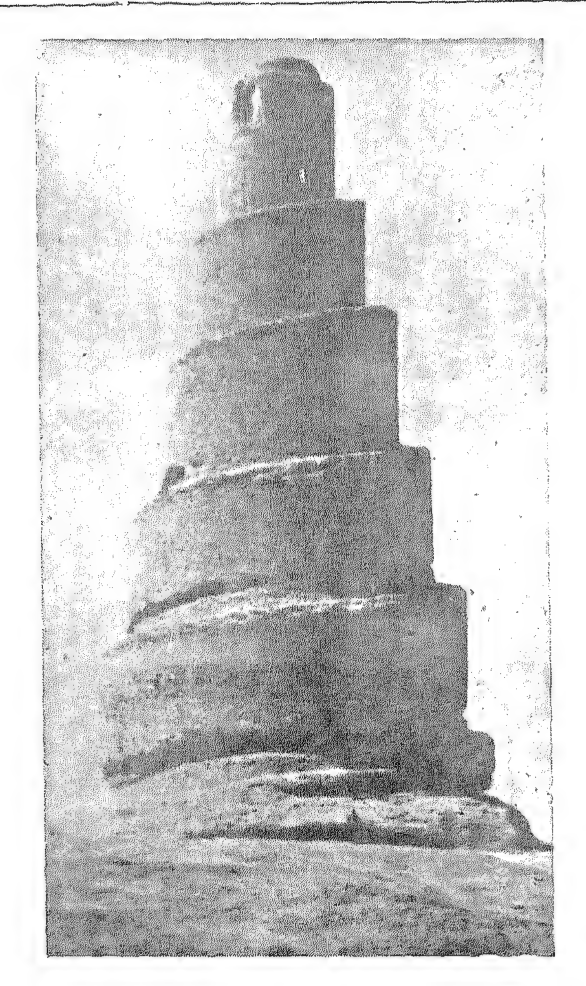
(٣) المقريزى ــ جـ : ٢ ، ص : ٢٦٥ ., E.M.A., II, p. 332, ft. n. 12, pp. 333, 335-336.



ش : ٢٣٤ ـ سامرا : بدنة فى الجامع الكبير



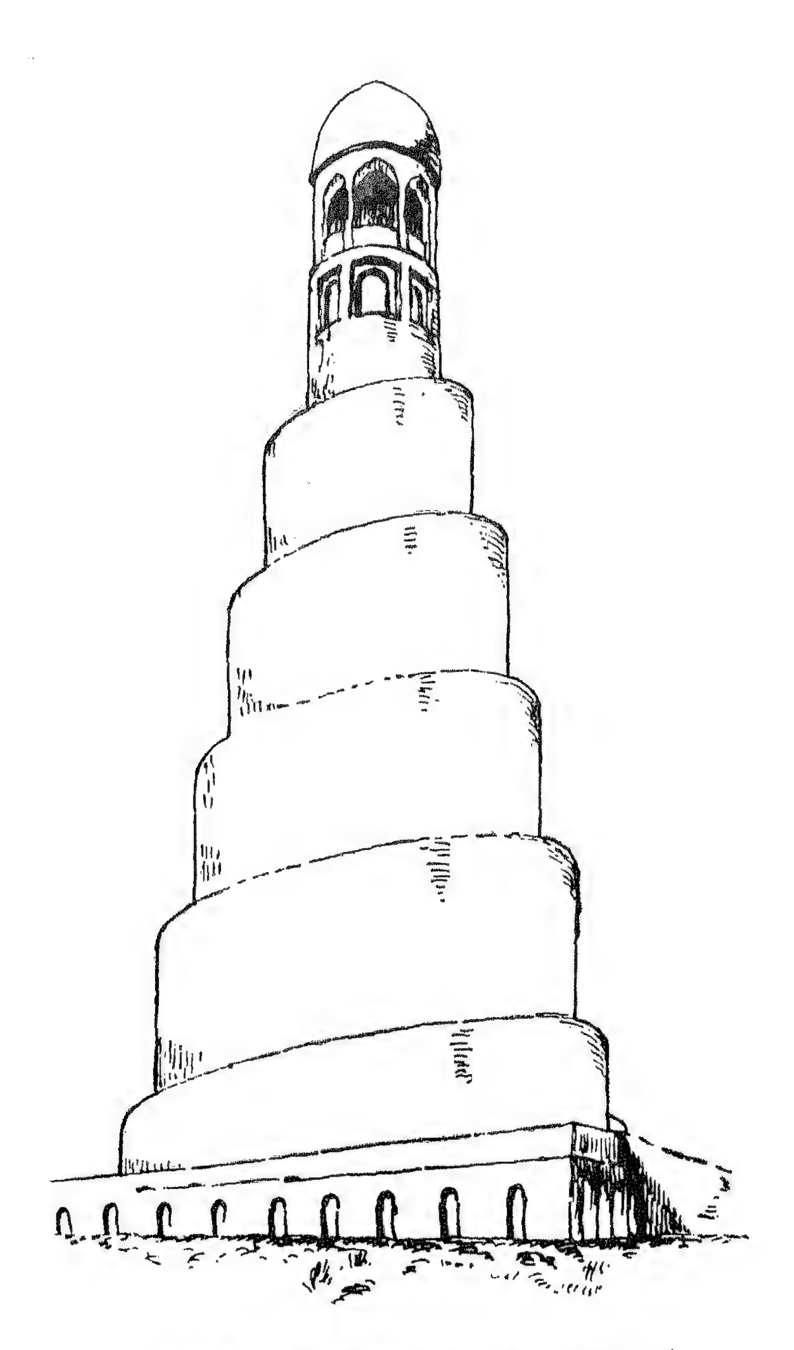
ش : ٢٣٥ ـ القطائع وسامرا : بدنة فى جامع ابن طولون وجامع ابى دلف



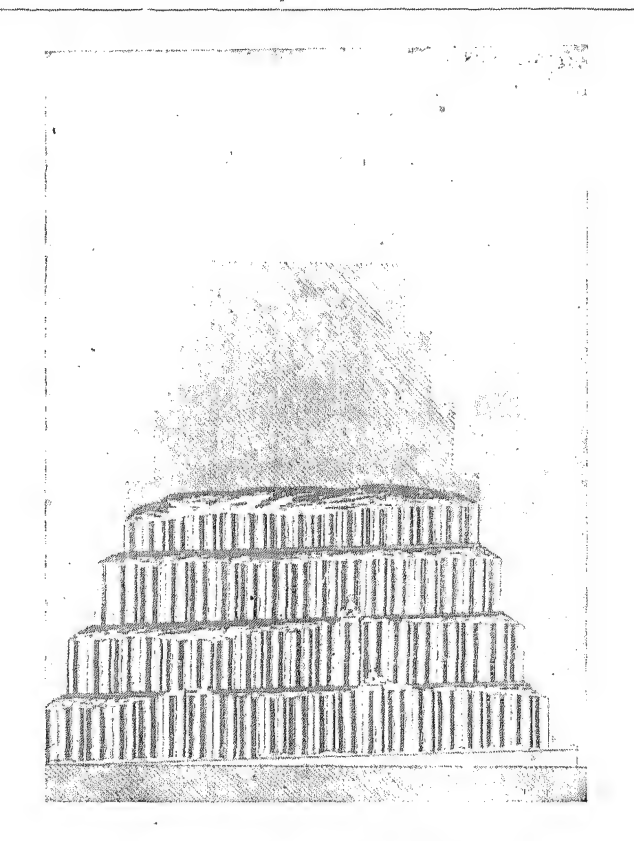
ش : ٢٣٦ ـ سامرا : ملوية الجامع الكبير فى الوقت الحالى .

والابهاء التى تصل فى مجموعها الى نحو ٢٠ فدانا ، ولو كان حدث ذلك حقيقة فان أعمدة الكنائس فى الشام ومصر كلها والمعابد الرومانية فيهما ما كانت تكفى لسد حاجته منها . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان بناء الاعمدة الاسطوانية بالحجر أو الآجر كان معروفا فى العراق منذ العصر الاسلامى المبكر . فقد شيدت أساطين مسجدى البصرة والكوفة بالحجر ايام زياد بن ابيه فى عامى ٤٥ و ٥٠ هـ (٦٦٥ و ٦٧٠ م) ، كما شيدت بالحجر وبالآجر اعمدة قطاعاتها مستديرة أو من أنصاف أو ثلاثة أرباع الدائرة ، ووضعت ملتصقة بالجدران فى قصر الأخيضر [١] ، وفى بوابة بغداد فى مدينة الرقة (ش : ٢٢٢) التى تنسب الى عام ١٥٥ هـ (٧٧٢ م) ، ومن جهة ثالثة فان المسقط الافقى لقصر المعتصم وجميع ملحقاته ، الذى قامت بعمل رسومه البعثة

(1) E.M.A., II, Figs 37, 44, 45, 52, 54, 58, etc.



ش : ٢٣٧ ـ سامرا : مئذنة الجامع الكبير المعروفة بالملوية



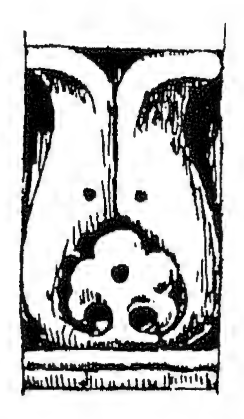
ش : ٢٢٨ ــ خورساباد : الزيقورات الاشورى

الألمانية برئاسة العالمين زاره Sarre وهرتزفلد Herzfeld (ش : ٢٣١) يبين بجلاء أن جدران وحداته كلها ليس فيها أو فى اساساتها علامات تنبىء عن آثار أعمدة رخامية الا فى النادر ، وربما لا يتجاوز عددها عشرات قليلة جدا . أضف الى ذلك ان تلك البعثة قد عثرت على تيجان أعمدة من النوع الكأسى الاسلامى فى خرائب مدينة سامرا [١] ، والتيجان مصنوعة من الجص ، مما يدل على أن أبدان الأعمدة المستديرة كانت مشيدة بقوالب الطوب ومكسوة أيضا بالجص . وقد نشر هرتزفلد بعضا من تلك التيجان ولم يعن أحد بالتعرف على دلالة وجود تلك التيجان والأعمدة قبل أن يستشهد بأقوال ابن المقفع ويأخذها على أنها حقائق بينما تؤكد هذه الأدلة المادية أن أقواله تعد من المفتريات التى يرويها الكتاب المسيحيون ليثبتوا اضطهاد المسلمين لهم ، والتى دأب المستشرقون على ترديدها بغير تحقيق أو تفكير .

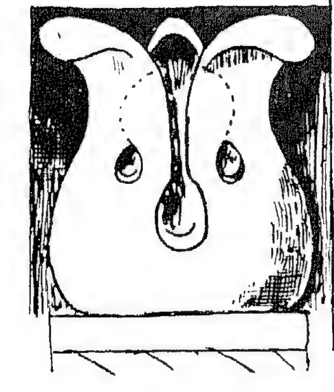
والظاهرة المعمارية الثانية التى تهمنا من عمائر سامرا بعد ظاهرة البدنات هى ابتكار المآذن الملوية (ش : ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧) [٢] فهى من أكثر العناصر

(١) E.M.A., II, Pl. 57 d.

(٢) E.M.A., II, Pl. 63, Fig. 207.



ش : ٢٤٠ ـ دير السريان : تاج ناقوسى



ش : ٢٣٩ ـ سامرا : تاج ناقوسى

الاسـلامية طرافة لا فى سـامرا فحسب بل وفى العالم الاسـلامى كله وغير الاسلامى • ذلك انها تختلف عن جميع المآذن والأبراج العالية بأن السلم الذى يصعد الى قمتها لم يوضع بداخل المئذنة كما هو مألوف ومتبع فى العالم كله ، بل يدور مرتفعا حول بدن المئذنة من الخارج حتى ينتهى الى الجوسق الرشيق الذى يتوجها ، مما أعطى لها تلك الهيئة الفريدة فى نوعها • ومن المرجح أن فكرة السلم الصاعد الذى يلتف من الخارج ويقتطع من جسم البناء ما يعادل عرضه قد أوحت بها فكرة مشابهة فى العراق نفسه فى المعبد الأشورى المسمى بالزيقورات (ش : ٢٣٨) ، وكانت بقايا منه لا زالت موجودة وكشف عنها منذ نحو ١٠٠ سنة فى منطقة خورسابادا القديمة التى تقع على بعد نحو ٢٥ كيلومتر الى الشمال من مدينة الموصل[١] • غير أن ذلك النوع من المعابد يتميز بأن له نسب ضخمة وأضلاع متعامدة تجعل انحدار السلم يسـير مستقيما حول الأضلاع • مما يترك للفنانين المسلمين الفضل فى اكساب الملوية ذلك الشكل الأسلامى الجذاب الجديد من حيث استدارتها ورشاقتها وطرافتها •

ولا يوجد من شكل الملوية فى الوقت الحاضر الا مئذنتان ، احداهما فى جامع سامرا الكبير الذى شيد فى سنة ٢٣٧ هـ (٨٥٢ م) [٢] والاخرى فى جامع أبى دلف فى شمال سامرا وشيد فى حـوالى سـنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) ، غير أن الأخيرة ليست متكاملة كملوية جامع سامرا • ويقال كذلك ان الخليفة المكتفى الذى تولى الخلافة من ٢٨٩ الى ٢٩٥ هـ (٩٠٢ ـ ٩٠٨ م) قد شيد ملوية فى بغداد ، كان يصعد سلمها وهو يمتطى ظهر حمار حتى يبلغ قمتها [٣] •

(١) E.M.A., II, pp. 261-265, Figs. 202-216.

(٢) Ibid., II, pp. 281-282, Figs. 223-224, Pl. 71.

(٣) E.M.A., II, p. 264, ft. n. 8 ; Le Strange : Baghdad during the Abbassid Caliphate, p. 254.

ويهمنا تصميم الملوية هذا لا من حيث طرافته فحسب ، بل أيضا من حيث أننا سنرى فى مئذنة جامع ابن طولون ، التى شيدت فى عام ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) ، أى بعد سامرا باربعة قرون (ش : ٢٩١ ، ٣٠٨ ، ٣١٠) ، مقدار تاثير الملوية العراقية عليها وذلك على الرغم من الفارق الزمنى الكبير بين العصرين .

ويوجد فى الجوسق الخاقانى ، أى قصر المعتصم فى سامرا الذى شيد فى عام ٢٢١ هـ (٨٣٦ م) ، أقدم مثل لتاج العمود الكأسى أو الناقوسى (ش: ٢٣٩) (١) ، وهو الذى صار النموذج الرئيسى لتيجان وقواعد الاعمدة العربية فى العصر الاسلامى فى الشرق ، والذى يرجع الفضل فى تطويره واخراجه فى ثوبه العربى الخالص الى الفنان العربى المسلم . وهناك رأى يرجع أصل ذلك الشكل الى الفن الساسانى (٢) ، ولكنه يرجع فى راينا الى أصل هلينستى ، يتكون من أوراق الأكنثاس ، ثم تطور فى العمارة العربية الاسلامية الى ذلك الشكل المبتكر(٣) .

ويوجد أقدم مثل مؤرخ فى مصر محفورا فى شاهد قبر من الرخام مؤرخ فى سنة ٢٤٥ هـ (٨٦٠ م) (٤) ، أى يأتى قبل عامين من المثل الموجود فى مقياس الروضة حيث استخدم لقواعد الأعمدة فى نواصى الحنيات الغائرة فى جوانب الجدران (ش : ٢٢٧) . وقد انتشر ذلك الشكل لجميع تيجان أعمدة النواصى فى جامع أحمد بن طولون (ش : ٢٩٤ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ - ٣٠٥ الخ ..) ، ثم فى كنيسة العذراء ذات الطراز الطولونى بدير السريان فى وادى النطرون (ش: ٢٤٠ ، ٤١٥ ، ٤١٦)، وتؤرخ فى حوالى عام ٣٠٢ هـ (٩١٤ م)(٥) .

وقد أصبح ذلك الشكل الكأسى علما من أعلام العناصر العربية فى عمارة الشرق الاسلامى . أما فى الغرب الاسلامى فكان وجوده نادرا ندرة واضحة ، ذلك أن فنانى الأقطار العربية فى الغرب قد ابتكروا شكلا خاصا لتيجان الأعمدة لم يحيدوا عنه طوال العصور . وسيأتى ذكره عند الحديث عن العمارة العربية فى العصر الأيوبى .

وهناك ظاهرة معمارية هامة أخرى هى مقرنصات الأركان التى توضع فى أعلى مكان مربع المسقط لتحويله الى مثمن أو الى دائرة لترتكز عليها الحافة السفلى للقبة

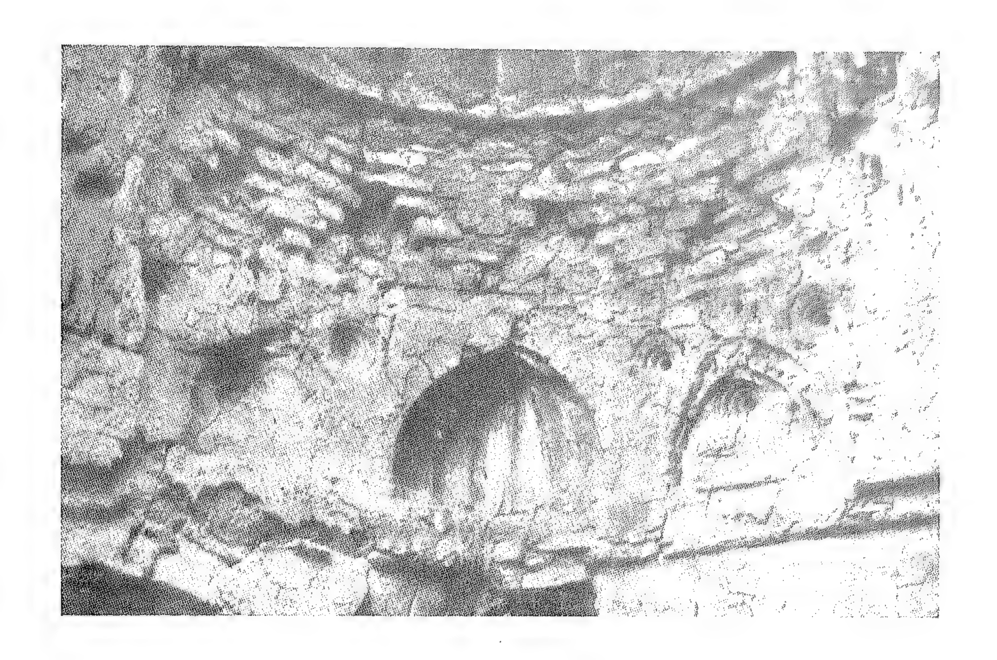
(١) E.M.A., II, Pls. 57 d, 74 c.

(٢) Ibid., II, p. 243.

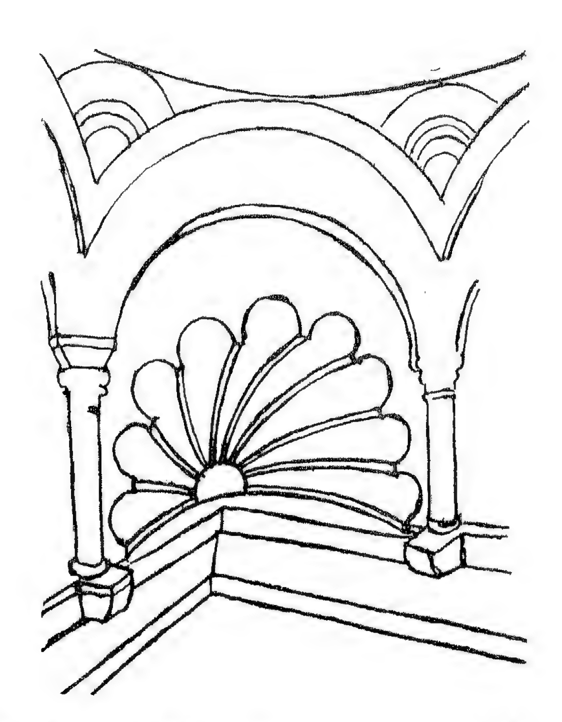
(٣) Farid Shafei : Simple Calyx Ornament, pp. 185-188, Figs. 78-81.

(٤) Stèle Funéraire, II, Pl. XXVI, (Mus. of Islamic Art, No. 2953(.

(٥) Farid Shafei : An Early Fatimid Mihrab in the Mosque of Ibn Tulun, (Bull. of the Faculty of Arts, Fouad I Univ., vol. XV (1955), p. 79, Fig. 23 ; Monneret de Villiard : Wadi en-Natrun, Pl. II.



ش : ٢٤١ ـ بادية العراق : قصر الاخيضر ، مقرنصة فى المسجد



ش : ٢٤٢ القيروان : المسجد الجامع ـ مقرنصة القبة فوق المحراب



ش : ٢٤٣ ـ سامرا : زخارف جصية من الطراز الاول

(ش : ٩١ ، ٢٣٣) [١] • ويوجد أقدم أمثلة لهذه الفكرة فى قصور ساسانية قديمة يقال انها ترجع الى القرنين الثالث والخامس من الميلاد (ش : ١٠٨ ـ ١١٠) ، كما وجدت أمثلة أخرى فى العمارة البيزنطية تأتى بعد الساسانية فى التاريخ (ص : ١٤٣ ـ ٤١٤) • وأقدم أمثلة المقرنصات فى العصر العربى الاسلامى وتجد فى قصر الأخيضر (ش : ٢٤١) [٢] الذى ينسب الى حوالى سنة ١٦٠ هـ (٧٧٧ م) والذى شيد فى بادية العراق فى الجنوب الغربى من مدينة كربلاء • غير أن المقرنصات فى قصر الأخيضر تشبه الأمثلة الساسانية أما مقرنصات باب العامة ، وهو الباب الرئيسى لقصر الجوسق الخاقانى ، فقد اتخذت شكلا عربيا اسلاميا خالصا ، وذلك من ناحية تجويفها نصف المستدير وطاقيتها التى على هيئة نصف قبة مدببة (ش : ٩١ ، ٢٣٣) • ولكن مما يستوقف النظر أن هذه المقرنصات العراقية لم تظهر فى العمارة الطولونية فى مصر كما هو منتظر ، بل يأتى أقدم أمثلتها من العصر الفاطمى • والأكثر من ذلك أن الأمثلة التالية فى التاريخ مباشرة للأمثلة العراقية توجد فى مدينة القيروان لتحمل القبة فوق المربع الذى يتقدم المحراب (ش : ٢٤٢ ، ٣٨٨) [٣] ، وتؤرخ فى سنة ٢٤٨ هـ (٨٦٣ م) •

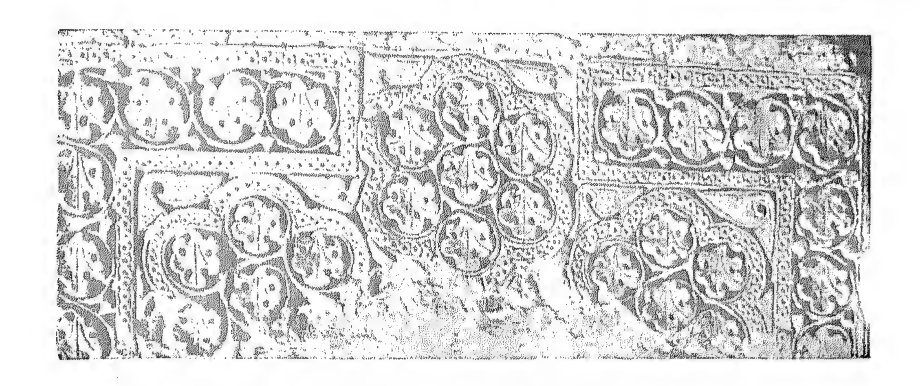
وانتشر فى عمائر سامرا العقد المدبب ذو المراكز الأربعة الذى يرجع أقدم أمثلته الى حوالى سنة ١٥٥هـ (٧٧٢م) ، اذ يوجد فى باب بغداد ، وهو أحد أبواب مدينة

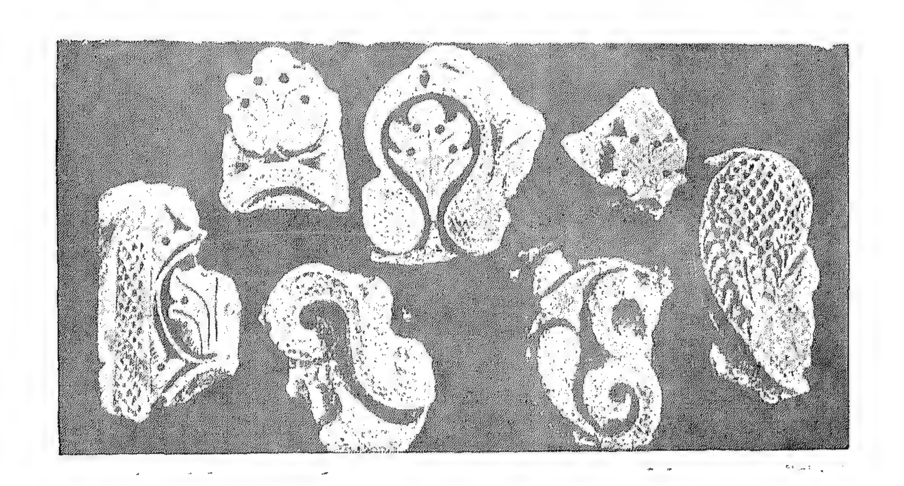
---

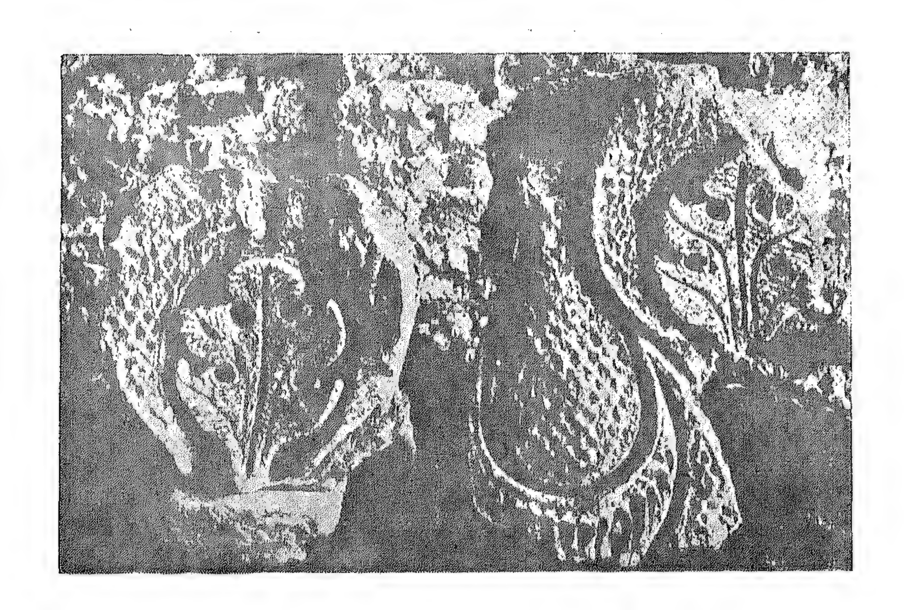
(١) E.M.A., II, Pl. 51, Fig. 181.

(٢) E.M.A., II, Figs. 57-58, Pls. 18 e, 19 a and c, 20 a-b.

(٣) Ibid., II, p. 315, Figs. 235-236, Pls. 83-84.







ش : ٢٤٤ ، ٢٤٦ ـ سامرا : زخارف الطراز الاول

الرقة ، وأشرنا اليه من قبل (ش : ٢٢٢) • وتوجد أمثلة ذلك العقد فى سامرا فى باب العامة من قصر الجوسق الخاقانى (ش : ٢٣٢) [١] • كما استخدم لجميع عقود البائكات فى جامع أبى دلف [٢] • وهو يتكون من أربعة أقواس ترسم من اربعة مراكز (ش : ١٤١) • ويختلط الأمر أحيانا بينه وبين نوع آخر يتكون من قوسين ومستقيمين مماسين للقوسين ويتقابلان عند قمة العقد ، وهو الذى نفضل تسميته بالعقد الفاطمى • والشبه بينهما كبير حتى لتصعب التفرقة بينهما ، وبخاصة اذا لم تبذل عناية كافية ببنائهما ، وذلك لأن القوسين فى العقد ذى المراكز الأربعة يتميزان بتقوس قليل يكاد يقرب من الاستقامة • ومما يستوقف النظر أن العقد ذا القوسين والمماسين قد أطلق عليه بالانجليزية Keel Arch ويسمى أحيانا « بالعقد الفارسى » ، مع أن فارس لا فضل لها فى ابتكاره ، فان أقدم أمثلته الصحيحة الباقية فى العالم الاسلامى توجد فى الجمع الازهر فى الجزء الذى يعود الى اول مراحل بنائه أى بين سنتى ٣٥٩ ، ٣٦١ هـ (٩٧٠ و ٩٧٢ م) [٣] ، والذى توجد له صورة فوتوغرافية أخذت قبل البدء فى أعمال التجديد التى أجريت فيه منذ عهد ليس ببعيد ، وهذا المثل الفاطمى الصريح يسبق أقدم الأمثلة المماثلة من هذا النوع من العقود فى فارس بنحو قرن من الزمان ، اذ يؤرخ المثل الموجود فى رباط مالك فى فارس فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى (١١ م) [٤] ، والأولى اذن والحالة هذه ، أن يطلق على هذا النوع اسم العقد الفاطمى لا الفارسى •

ولكن مما يجدر ذكره أن كلا من العنصرين : العقد ذى المراكز الأربعة ، والمقرنصة الركنية تحت القبة ، لم يظهر أى منهما فى بقايا عمائر العصر الطولونى كما هو منتظر ، بل اقتصر الأمر على استعمال العقد المدبب العادى ذى المركزين (ش : ١٤٠) • ولم يظهر هذان العنصران فى مصر الا فى العصر الفاطمى ، ولكنه على الرغم من ذلك ليس بدليل على أنهما قد ظهرا فى العصر الفاطمى بتأثير من العراق مباشرة ، بل لعلهما قد جاءا عن طريق الغرب العربى الاسلامى ، كما سنشرحه فيما بعد •

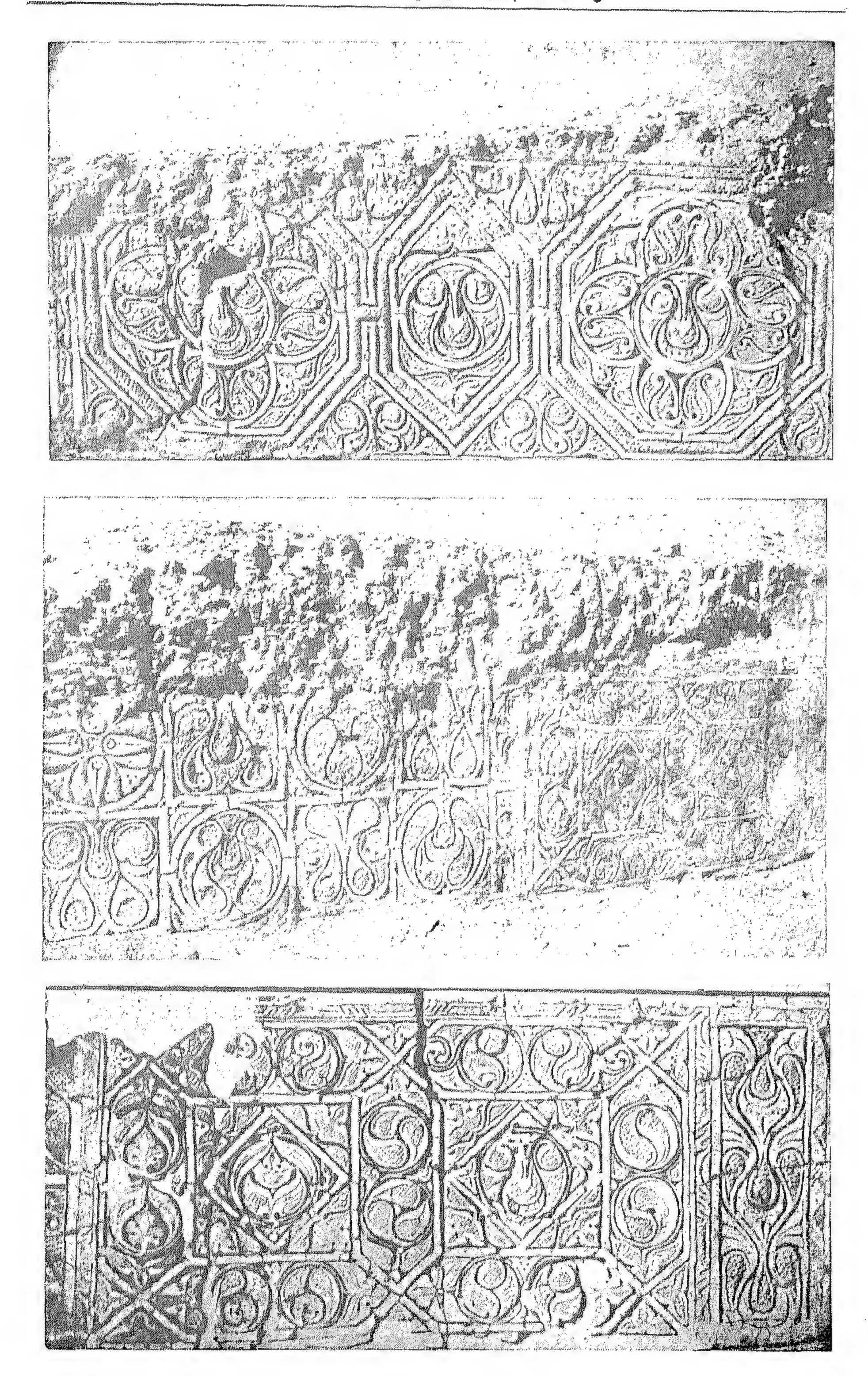
---

(١) E.M.A., II, pp. 232-234, Fi. 181, Pls. 51.

(٢) Ibid., p. 279, Pls. 70, 71.

(٣) M.A.Eg., I, Pl. 12 b.

(٤) Survey, II, IV, Pls. 271, 272 b. أما الامثلة الموجودة بالمسجد الجامع فى تاريخه فى حوالى سنة ٨٧٥ م ، فانها غير واضحة تماما خلافا لما تبادر الى ظننا من قبل ونشرناه فى مقالنا السابق عن المحراب الفاطمى المبكر فى جامع ابن طولون ،



ش : ٢٤٧ ـ ٢٤٩ ـ سامرا : زخارف الطراز الثانى

أما ظاهرة عمود الناصية الملتصق الذى كان يوجـــد فى نواصى دعامات جامع سامرا الكبير والذى وجد هرتزفلد بقاياه ، فانها ظهرت كما قلنا فى جامع عمرو بن العاص فى الحنايا الزخرفية فى الواجهـــات (ش : ٢١١ ــ ٢١٤) ، وتؤرخ تلك الظاهرة فى وقت توسيع جـامع عمـرو أيام الوالى عبد الله بن طاهر سـنة ٢١٢ هـ (٨٢٧م) •

***

وتزيد أهمية بناء مدينة سامرا بسبب ما نتج عنه من تحول خطير فى تطـور الزخارف المحفورة فى الجص فى العمائر ، وخاصة النباتية منها • فقد اعترف علماء الفنون بأن الزخارف النباتية الاسلامية ، التى عرفت فيما بعد « بالارابسك » ، نسبة الى العرب ، وقد ولدت فى سامرا • واطلاق كلمة « أرابسك » على تلك الزخارف تسليم صريح بفضل العرب فى ابتكارها وبعبقريتهم فى تطويرها (انظر ص : ٢٦٥) •

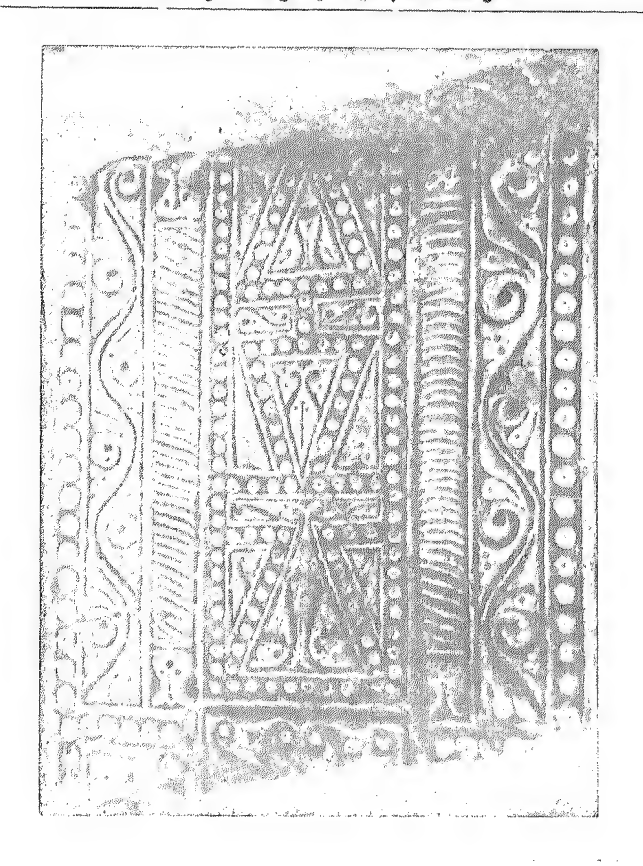
ابتدأت تلك الزخارف النباتية المحفورة على الجص بالظهـــور فى سامرا وهى تحتفظ فى مرحلتها الأولى برواسب هلينستية وساسانية ، وذلك من ناحية أشـــكال العناصر وأساليب حفرها (ش : ٢٤٣ ــ ٢٤٦) • ثم انتقلت الى مرحلة ثانية تضاءلت فيها تلك الرواسب ، سواء فى العناصر أو أساليب الصـــناعة حتى كادت أن تختفى (ش : ٢٤٧ ــ ٢٤٩) [١] ، وهو ما آلت اليه فى المرحلة الثالثة ، اذ اختفت تمـاما وظهرت عناصر وأسـاليب جـديدة (ش : ٢٥٠ ــ ٢٥١) [٢] لا تمت بصلة لما كان مستخدما فى المرحلة الأولى • ولكننا نجد من المستحسن أن نزيد قليلا من شرح تلك المراحل فى تبسيط واختصار حتى يتضح علاقتهما بما ظهر شبيها لها فى مصر • هذا ويحوى متحف الفن الاسلامى أمثلة من تلك المراحل الثلاثة جلبت اليه من سامرا •

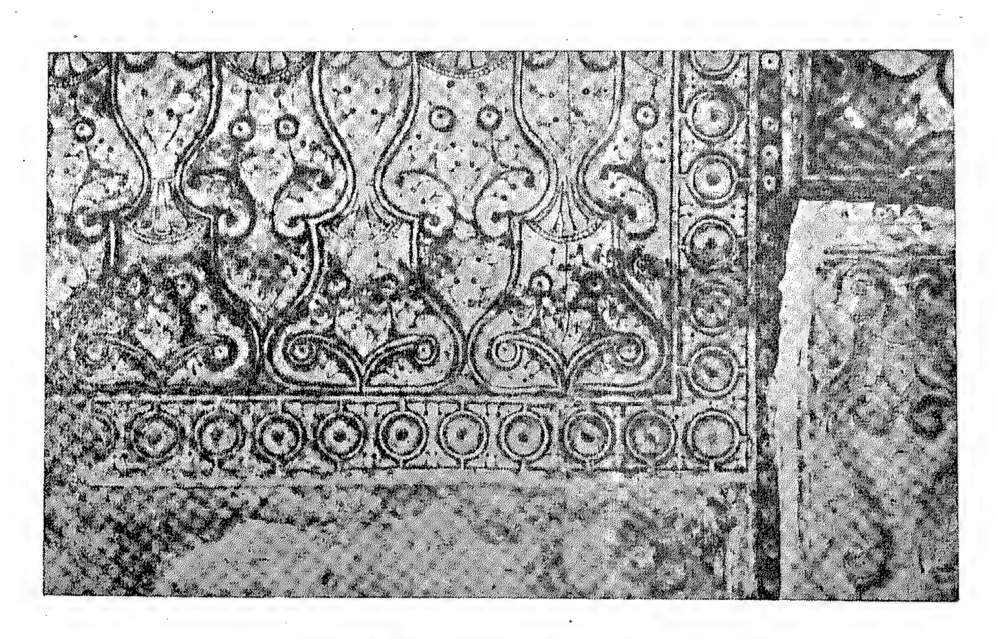
تمتاز المرحلة الأولى (ش ٢٤٣ ــ ٢٤٦) التى اتفق علماء الآثار على تسميتها بالطراز الأول بقرب عناصرها من أشكال هلينستية وساسانية ، فهى تخرج من عروق طويلة تمتد فى انحناءات وحلزونات ، ويتضح فى أسلوب حفرها اتساع الأرضـيات وتجسيم العناصر فى تقعر أو تحدب • ومن عناصرها السائدة ورقة العنب الخماسية ذات القطاع المقعَّر (ش : ٢٥٢) [٣] ، وعنصر الورقة الثـلاثية ، وعنقود العنب ذو

(١) E.M.A., II, Pl. 76 a.

(٢) Ibid., II, Pls. 72-74, 75 a.

(٣) فريد شافعى : زخارف وطرز سامرا (شكل ــ ١)





٢٥٠ ، ٢٥١ ـ سامرا : زخارف الطراز الثالث .

المحيط الذى يتكون من ثلاثة فصوص (ش : ٢٥٣) [١] ، وله قطاع محدب تملؤه حبيبات مثقوب وسطها ، ثم عناصر كأسية ذات قطاع محـــدب تملؤها معينات غائرة (ش : ٢٥٤) [٢] •

وفى الطراز الثانى (ش : ٢٤٧ ــ ٢٤٩) تضاءلت الأرضيات حتى صارت قنوات ضيقة تفصل ما بين العناصر التى كادت أن تفقد ما ألفناه من اتصـــال بعضها ببعض بواسطة العروق الطويلة ، بل قربت من أن يخرج الواحد منها من طرف الآخر • وتطورت العناصر الى وحدات كبيرة مسطحة لا تجسيم فيها ، وبحيث يتبع محيط كل عنصر منها الحدود الخارجية للعناصر الأخرى التى تحيط به ، وأصبح لا يفصلها عن بعضها الا تلك القنوات الضيقة (ش : ٢٥٥) [٣] • ونتج عن هذا الاتجاه الجـديد تحوير كبير فى أشكال العناصر وهيئاتها وأحجامها ، فقد زاد مقياسها عما كانت عليه فى الطراز الأول • وأغلب ظننا أن ابتكار هذه التصميمات والوحـدات ، يرجع الى الضرورة التى فرضت على الفنانين المسلمين فى سامرا أن ينتجوا أكبر ما يمكن من المسطحات الزخرفية لكسوة جدران العمائر فى أقصر وقت لكى يلبوا ازدياد الطلب على تشييد العمائر وتزيينها بالزخارف الجصية على الجدران • الأمر الذى لم يكن يتوفر لهم لو ظلوا يستخدمون الطراز الأول بعناصره وأساليبه التى كانت تستنفذ وقتا وجهدا كبيرين فضلا عن ارتفاع نفقة انتاجها •

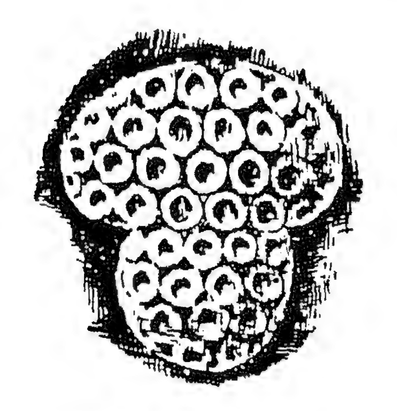
أما الطراز الثالث فهو المرحلة الأخيرة لتطور الطراز الثانى بفكرته وعناصره مع تعديل جديد فيها بحيث يصبح أكثر صلاحية لفكرة جديدة هى « الصب » فى قوالب واستخراج نسخ متعددة من التكوين الزخرفى الواحد • وهى طريقة لها طابع آلى يساعد على توفير الوقت والجهد والنفقة أكثر من طريقة الحفر المبسطة فى الطـراز الثانى • ويساعد على اتباع تلك الطريقة الآلية أسلوب حفر العناصر الزخرفية بطريقة الشطف للتخلص من الأرضيات العميقة ، فتلاصقت عناصر الطراز الثالث تماما بجوار بعضها ، وأصبح لهـا قطاع محـدب [٤] • والميزتان تسـاعدان كثيرا على استخلاص النسخ الزخرفية من القالب (ش : ٢٥٠ ــ ٢٥١) • ولكن ليس من الضرورى أن تكون طريقة القوالب قد اتبعت فى جميع الأحوال •

ويلاحظ أن العناصر التى تبدو جديدة فى الطرازين الثانى والثالث قد تطورت

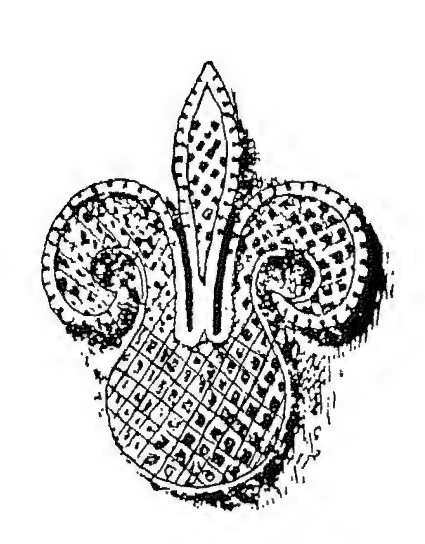
(١) زخارف وطراز سامرا شكل ــ ٢•
(٢) المرجع السابق شكل ــ ٤ •.
(٣) المرجع السابق (شكل ــ ٧)
(٤) المرجع السابق اشكال ١٢ ، ١٧ •



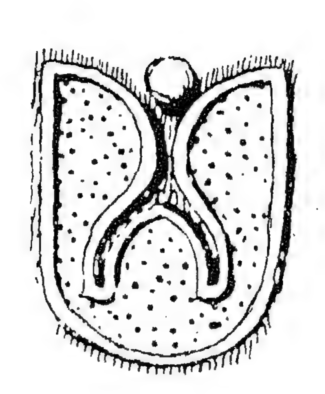
ش : ٢٥٢ ـ زخرف ورقة عنب خماسية



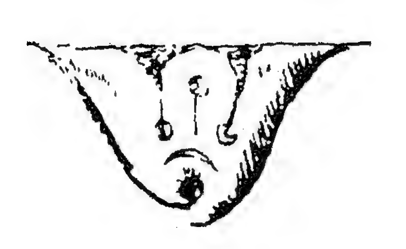
ش : ٢٥٣ ـ زخرف عنقود عنب



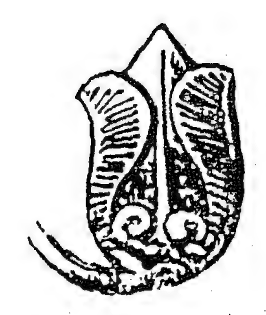
ش : ٢٥٤ ـ زخرف كأسى



ش : ٢٥٥ ـ زخرف كأسى



ش : ٢٥٦ ـ زخرف نصف كأسى



ش . ٢٥٧ ـ زخرف نصف كأسى ساسانى

من عناصر قديمة مختارة من الفنون الهلينستية والساسانية مثل المراوح النخيلية وأنصافها (ش : ٢٠ ، ٢٢ ـ ٢٤) • ولكن منها عناصر أخرى لا شك تعد من ابتكارات الفن العربى الاسلامى ، مثل الكؤوس (ش ٢٥٤ ، ٢٥٥) وأنصافها (ش: ٢٥٦) • فقد لاقينا صعوبة كبيرة فى البحث والتنقيب حتى عثرنا على أشباه نادرة لها ، يقال انها ترجع الى ما قبل العصر العربى الاسلامى (ش : ٢٥٧) [١] ، وهو تأريخ ليس بحاسم ولا تعززه أدلة يطمئن اليها •

ومن أهم المميزات الجديدة لزخارف الطرازين الثانى والثالث ، والتى أصبحت من مميزات الزخارف النباتية العربية الاسلامية هى ظاهرة خروج الأوراق النباتية من بعضها • بمعنى أن يمتد طرف العنصر منها حتى يصبح على هيئة عرق ينبت منه عنصر آخر وهكذا • ولكن الى جانب انتشار هذه الظاهرة فى الفن العربى الاسلامى فقد بقيت الظاهرة الطبيعية التى كانت مألوفة ، وهى خروج العناصر مباشرة من العروق الممتدة على هيئة منحنيات أو التواءات أو موجات •

وانتشر استعمال الطراز الثالث فى حفر الزخارف في الخشب والرخام وعثر على أمثلة كثيرة منها فى سامرا (ش : ٣٠٦) [٢] • أما زخارف الخزف ذى البريق المعدنى فقد تبع معظمها الطراز الثانى نظرا لملاءمته لطبيعة النقش على مسطحات مستوية ، كما زخرفت به ألواح من الخشب بنقشه بالألوان بغير حفر [٣] •

***

وجاء الكثير من كل تلك التطورات التى حدثت فى سامرا الى مصر مع أحمد ابن طولون ليستقر فيها ، وتسير فى مجراها الخاص بها • فتطورت العمارة والزخرفة واكتسبت طابعا محليا تظهر فيه قرابته للأساليب التى سبق ظهورها فى مدينة سامرا وانتشرت فى العالم الاسلامى فى الشرق • بيد أنها قصرت عن الوصول والانتشار فى الغرب ، فلم يظهر فيه سوى رذاذ ضعيف من تلك الأساليب سرعان ما تلاشى وضاع بمجرد وصوله ، فسارت خطوات تطور العمارة والفنون هناك بالسرعة العادية دون طفرات أو تحول سريع •

كما تردد صدى تلك المظاهر العظيمة من ترف وأبهة مدينة سامرا فى مصر عندما شرع ابن طولون فى بناء مدينته الجديدة • ولعلها كانت المرة الأولى التى يتجه

(١) زخارف وطرز سامرا شكل ١٦ •
(٢) المصدر السابق « ص ١٣١ •
(٣) تناولنا هذا الموضوع فى توسع وتحليل واف فى مقالنا السابق •

فيها الحكام فى مصر نحو التوسع والتغالى فى تلك المظاهر العمرانية ، بعد أن كانت للبساطة والاعتدال الغلبة فى عهود الحكام السابقين • ولعل شعور هؤلاء الولاة الأول بتبعيتهم المطلقة للخـــلافة القائمة بدمشق أيام الأمويين ، وببغـــداد منذ قيام الدولة العباسية ، وما كان يترتب على تلك التبعية من تعرضهم للعزل فى أى وقت وتعيـين غيرهم ، كان ذلك سببا فى تحرجهم من الاتجاه نحو الترف فى معيشتهم ومن التوسع فى بناء العمائر خشية أن يثيروا الشعور بالغيرة والحسد ضدهم فى نفوس رجال بلاط الخليفة ، فتحاك المؤامرات لعزلهم ولايقاع الأذى بهم • وهو الأمر الذى حدث فعلا لأحمد بن طولون •

نزل ابن طولون أول ما نزل بالعسكر ، وسكن بدار الامارة فيها فترة تبلغ نحو سنتين ، وسكن معه بالعسكر جنده وأتباعه حتى ضاقت بهم ، فتاقت نفسه الى بناء مدينة خاصة به • ولعل نشأته فى مدينة سامرا كانت سببا فى أن يتجه الى بناء مدينة خاصة به بالاضافة الى ما كان يجيش فى ذهنه من الطموح الى الاستقلال بحكم مصر ، ومن ثم فقد بدأ فى بناء القطائع فى عام ٢٥٦ هـ (٨٦٩ م) •

والحق أن الظروف التى بدأ فيها ابن طولون ولايته على مصر قد ساعدته وهيأت ذهنه وأثارت أطماعه نحو الاستقرار فى مصر والعمل ما وسعه الجهد وبكل الوسائل الممكنة من لين ومن عنف على تثبيت نفسه فوق كرسى الحكم فيها بل الى الاستقلال بها اذا ما سنحت له الفرصة • فقد وفد الى مصر ليتقلد حكم قصبتها فحسب (أى فسطاطها) نيابة عن باكباك زوج أمه الذى قد وليها من قبل المعتز العباسى وفضّل باكباك أن لا يترك بلا ط الخليفة فى بغداد فبقى فيها وكأنه سند قوى به ابن طولون فى مصر ، اذ ماكاد يدخل الفسطاط سنة ٢٥٤هـ (٨٦٧م) حتى ولى الاسكندرية وغيرها فى السنة التالية • وعلى الرغم من أن باكباك قد قتل ، فان حظ ابن طولون قد شاء أن يتولى حموه ماجور أمر مصر ، وفضل بدوره أن يبقى ببغداد ، فأقر ابن طولون على حكم مصر نيابة عنه ، ومن ثم فقد قبض على جميع السلطات من سياسية ومدنية ومالية بعد أن نجح فى تنحية والى الخراج الذى كان يقاسمه الحكم وينافسه به • وهنا تحركت أطماعه واتخذ من الخطوات ما يكفل تحقيقها • ولكنه كان يسير فى طريقه شديد الحذر تام اليقظة لكل الاحتمالات المنتظرة وما يترتب عليها من نتائج • وانتهت خطواته باستقلال مبدئى ، ثم باستيلائه على حكم مصر وبقاع هامة من الشام ، متحديا بذلك سلطة الخليفة العباسى ورجال بلاطة فى بغداد [1] •

---

(١) جمعنا هذه المعلومات التاريخية من المراجع المذكورة فى الحاشية ص : ٣٩٧ .

وكانت أولى خطواته العمرانية التى أراد أن يشبع بها طمـــوحه نحو الترف والأبهة بناء مدينة القطائع الجديدة يحاكى بها ما رآه فى مدينة سامرا . ومن ثم فقد جعلها خاصة به وبجنده وأتباعه وخدمه . واختار لها الفضاء الواسع الذى كان يقع الى الشمال الشرقى من العسكر وينتهى عند هضبة من المقطم أقام فوقها صلاح الدين الأيوبى قلعة الجبل فيما بعد . وبدأ ابن طولون فى سنة ٢٥٦هـ (٨٦٩م) بناء قصر منيف له ، لهج الشعراء والكتاب فى ذكر أوصافه ، وجعل أمامه ميدانا عظيما يلعب فيه بالصوالج (ش : ٣٢٣) [1] ، وهى المعروفة فى الوقت الحاضر بلعبة البولو ، وتقام فيه المسابقات فى فنون القتال بين الأمراء ورجال الجيش ويتدرب فيه الجند . واذن لأصحابه وغلمانه أن يختطوا لأنفسهم حوله فاتصلت العمارة بالعسكر والفسطاط ، وأقطع كل جماعة منهم قطيعـة سميت باسم من سكنها ، مثـــل قطيعة النوبة وقطيعة السودان وقطيعة الفراشين وغيرها [2] . وبنى قواده فى مواضع متفرقة منها وسميت لذلك بالقطائع [3] . وكان يخترق المدينة شارع كبير يصل بين قصره وجامعه الذى بناه على جبل يشكر سـمى بالشـارع الأعظم تشبيها له بالشـارع الأعظم الذى كان يخترق سامرا ويمتد عـدة كيلومترات الى قصر بلكورا وجامع أبى دلف فى شـمال سامرا .

وكانت مساحة القطائع نحـو ميل فى ميل [4] ، ويمكن القـول بأن حدودها بالتقريب هى : من جهة الشمال الشرقى : الهضبة التى تقوم عليها قلعة محمـــد على فى الوقت الحاضر ، ومن الشمال الغربى بشارع الصليبية الذى يمتد حاليا من ميدان القلعة حتى ميدان السيدة زينب وما وراءه من أرض حتى حدود بركة الفيل ، وتقوم فى وسط القطائع هضبة سميت بجبل يشكر شيد عليها ابن طولون جامعه الكبير . وكان يحد القطائع من الجنوب الغربى خط يتجه من الجنوب الى الغرب مارا بمسجد زين العابدين الى الشمال قليلا من مجرى العيون ، ومن الجنوب الشرقى بحى ابن طولون حتى قرافة السيدة نفيسة .

أما من حيث تخطيط مدينة القطائع فأغلب ظننا أنه لم يتأثر بالنظم الهندسية التى سـار عليها تخطيط مدينـة سـامرا ، بل سار على نفس النظام المتعرج على غير هدى الذى سار عليه من قبل تخطيط كل من الفسطاط والعسكر بأزقتهما ودروبهما ، اذ

(١) المقريزى : جـ ١/ص ٣١٩
(٢) ابن دقماق : جـ ٤/ص ١٢١
(٣) المقريزى : جـ ١/ص ٣١٥
(٤) ابن دقماق : جـ ٤/ص ١٢١ ــ ١٢٢

يقول المقريزى : « فعمرت القطائع عمارة حسنة وتفرقت فيها السكك والأزقة [1] » • ويستطرد المؤرخون فى ذكر كثرة عمران القطائع وما شيد فيها من دور وحمامات وطواحين وأفران وأسواق ، مثل سوق العيارين وكان يشمل العطارين والبزازين ، ومثل سوق الفاميين وكان يجمع الجزارين والبقالين والشوايين الى غير ذلك من أنواع التجارة ، حتى نافست القطائع ما كان فى الفسطاط من عمران • ومهما يكن من أمر القطائع فانها لم تكن محصنة أو ذات أسوار كما حدث عندما شيد جوهر الصقلى حصن القاهرة الفاطمى •

وبناء القطائع تكامل شكل واضح لرقعة العاصمة فى عصر الولاة التى استمرت سكنا للخاصة والعامة من الشعب الى ما بعد تنصيب صلاح الدين الأيوبى نفسه سلطانا على الديار المصرية والشامية • أى بقيت فترة خمسة قرون ونصف تقريبا وهى تعد عاصمة البلاد ، ولم تتأثر مكانتها ببناء قلعة الفاطميين التى عرفت « بالقاهرة » •

أصبحت العاصمة بعد بناء القطائع تمتد على هيئة شريط من الأرض يضم المواضع الثلاثة متداخلة فى بعضها وهى : فسطاط عمرو بن العاص ، وعسكر بنى العباس ، وقطائع أحمد بن طولون ، غير أن القطائع كانت مخصصة لجند الطولونيين وحاشيتهم وخواصهم • وكان ذلك الشريط يتجه من الجنوب الغربى نحو الشمال الشرقى ، أى يبدأ من عند ساحل النيل قبالة جزيرة الروضة ، وينتهى عند الهضبة التى شيدت عليها فيما بعد قلعة صلاح الدين ثم قلعة محمد على • وكانت تلك الهضبة تشرف على قصر ابن طولون وميدانه •

كان عرض الشريط يضيق أو يتسع تبعا لطبيعة الموقع الجغرافى • ولكن عرضه كان يبلغ فى المتوسط نحو كيلومتر ونصف كما كان طوله فى المتوسط نحو خمسة كيلومترات وكان الخليج المصرى ، الذى أعاد حفره عمرو بن العاص وسمى بخليج أمير المؤمنين ، يخرج من النيل من موضع يقع الى الشمال من جامع عمرو بنحو كيلومتر ونصف، وينحرف نحو الشمال الشرقى ثم يستقيم نحو الشمال (ش : ١٩٨) •

وكانت تقع الى الشمال من العاصمة مصر الفسطاط المنطقة المحصورة بين الخليج المصرى فى الغرب وبين تلال المقطم فى الشرق ، وكانت توجد بها بركة عظيمة تخرج منها أخرى صغيرة هما بركتا الفيل الكبرى والصغرى • وهى المنطقة التى يوجد بها الآن أحياء بركة الفيل ونور الظلام السيوفية والحلمية القديمة والمغربلين والسروجية • وظلت البركتان موجودتين حتى بعد أن شيدت قلعة القاهرة المعزية فى الشمال منهما •

(١) المقريزى ، ج : ١ ، ص : ٣١٥ •

أما قصر أحمد بن طولون الذى شيده أسفل هضبة المقطم عند ميدان صلاح الدين فقد اندثرت أثاره كلها ، ولم يبق منه حجر واحد . كما أن موضعه الذى اشرنا اليه (ش : ٣٢٣) غير مؤكد تماما وانما هو ظن بنيناه على أقوال المؤرخين الذين وصفوا القصر والميدان وأسهبوا فى الوصف ورووا القصائد والأشعار التى نظمها الأدباء فى المدح والتقريظ ولكن دون ما فائدة للدراسات الأثرية • وكل ما حصلنا عليه منهم فى هذا السبيل هو أن القصر كان له تسعة أبواب لكل منها اسم خاص • ويستلفت نظرنا منها باب سمى باب الصلاة ، لأنه كان يفتح على الشارع الأعظم ، وهو على الأرجح شارع الصليبة الحالى الذى يوصل ميدان صلاح الدين أسفل هضبة القلعة الى جامع ابن طولون • وعرف هذا الباب أيضا بباب السباع ، اذ كانت عليه صورة سبعين من الجبس • وبُنى فوقه مجلس ليشرف منه ابن طولون ليلة العيد على القطائع ، كما كان يعرض منه جيشه [1] • ويبدو أن المجلس كان مرتفعا الى درجة تجعل من السهل رؤية النيل منه وهو على بعد أربعة كيلومترات •

واذا وضعنا فى اعتبارنا تأثير سامرا على أحمد ابن طولون ، فانه يمكننا القول بأن قصره كان متأثرا فى تصميمه وزخرفته بالأساليب والتقاليد المعمارية التى شيد عليه الجوسق الخاقانى ، وهو قصر الخليفة المعتصم هناك ، وقصر بلكورا فى شمال سامراء وما كان فيهما من أبهاء وقاعات وأفنية وبساتين وأشجار وملاعب ، الى غير ذلك من أنواع الترف والأبهة •

ثم أقبل خمارويه بعد أبيه على قصر الميدان وزاد فيه ، وجعل الميدان بستانا انتشرت فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر والورد وكسا جذوع النخيل نحاسا مذهبا ، وجعل بين جذوعها وكسواتها أنابيب الرصاص فيخرج منها الماء ليتدفق فى الفساقى ومنها الى مجار تسقى أرض البستان وبنى فيها برجا من خشب الساج المفرغ بالزخارف ، ولعل المقصود بذلك نوع من المشربيات الواسعة ، ليكون قفصا لأصناف الطيور النادرة • وسرح الطواويس وغيرها فى البستان • وعمل فى داره مجلسا برواقه سماه بيت الذهب لما كان فيه من نقوش وزخرفة بالذهب على الحوائط ، ومن صور بارزة ملونة له لحظياته ومغنياته • وجعل على رؤوسهن الأكاليل من الذهب الخالص والحليات من الجواهر • وجعل أمام بيت الذهب فسقية مربعة ضلعها نحو ٢٥ مترا ملأها بالزئبق ، وعمل فراشا من جلد يملأ بالهواء ، وله حلق يشده الى جوانب البركة ليضطجع عليه خمارويه وهو يرتج على سطح الزئبق فيهوم عليه النعاس ويتغلب على

(١) المقريزى : ج ١/ص ٣١٥



ش : ٢٥٨ ــ العسكر : البيت الطولونى الاول .

الأرق الذى كان يشكو منه • وبنى أيضا فى القصر قبة عالية يشرف منها على جميع ما فى داره من البستان وغيره ، ويرى الصحراء والنيل والجبل وجميع أنحاء المدينة • ثم بنى ميدانا آخر أكبر من ميدان أبيه • وجعل فى داره أقفاصا للسباع وكان منها سبع مستأنس أطلق فى الدار فلا يؤذى أحدا •

وكانت نساء خمارويه يتنقلن فى الهـوادج التى يطلق عليها المقريزى اسـم « القباب » وتحملها البغال • وكانت أيام خمارويه حفلات صـيد وفروسية وأعياد مشحونة بالأبهة والترف الذى يفوق الخيال [1] •

كل ذلك أصبح أثرا بعد عين لم يبق منه شيء • فقد راح القائد محمد بن سليمان الكاتب الذى أوفده المعتضد بالله الخليفة العباسى فى سـنة ٢٩٢ هـ (٩٠٥ م) للقضـاء على الطولونيين يحطم ويدمر القصر وما حوله وقطائع أتباعه وحاشيته وجنده ، وجعل من ذلك كله خرائب طمرها الزمن ، حتى لم يبق من أعمال ابن طولون هناك الا جامعه على جبل يشكر ، وقد سلم من تخريب العباسيين تحرجا من أن يمس بيت شيد لعبادة الله [2] •

***

أما أقدم المساكن التى عثر على آثارها فى العاصمة القديمة ، أى الفسـطاط ، التى تعود الى العصر الطولونى ، فانها جـزء أو جناح من منزل كشف عنـه فى منطقة العسكر ويمكن تأكيد تأريخه ونسـبته الى العصر الطولونى أو حوالى سـنة ٢٨٥ هـ (٩٠٠ م) وذلك على أساس الزخارف الجصية التى وجدت على جدرانه (ش : ٢٥٩) ، ولولا أنها قد عثر عليها مثبتة على الجـدران لتبادر الى ذهننا أنها قد عملت فى سـامرا نفسها ، تبعا لآخر ما وصل اليه طرازها الثالث من نضج •

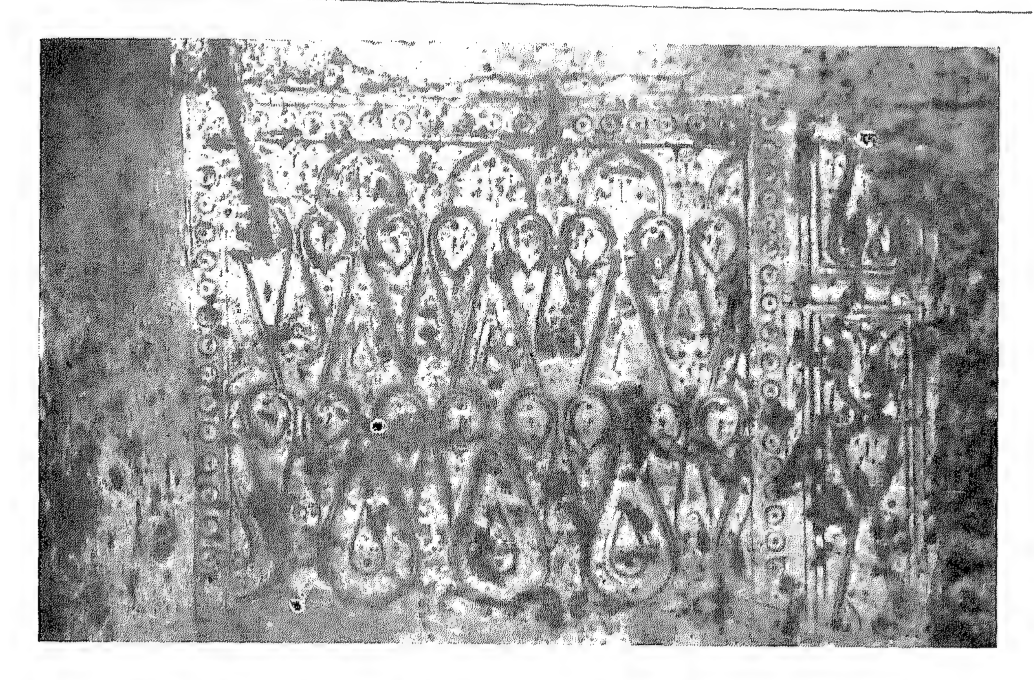
يتكون ذلك الجناح من ايوان أوسـط وحجرتين تكتنفانه من اليمين واليسـار وتتقدم الوحدات الثلاث سقيفة مستعرضة تفتح على فناء مكشوف من خلال ثلاث فتحات (ش : ٢٥٨) [3] •

وقد وجد هذا التصميم فى العراق فى العصر الاسلامى فى منزلين (ش : ١٣٢، ١٧٦) من الأربعة التى يضمها قصر الأخيضر فى بادية العراق والذى ينسب الى سنة

(١) المقريزى : جـ ١/ص ٣١٦ — ٣١٩

(٢) المقريزى : جـ ١/ص ٣٢٠

(٣) زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ، ص ٦١ — ٦٣ ، لوحات ١٣ — ١٦ ، E.M.A., II, pp. 365-366 ; Pl. 117 b-e; Hassan Mok. El-Hawwary: Une Maison de l'époque toulounide, (B.I.E., XV, pp. 79-87, Pls. I-X.



ش : ٢٥٩ ـ العسكر : البيت الطولونى الاول ـ زخارف من طراز سامرا الثالث (انظر أيضا ش : ٤١٨

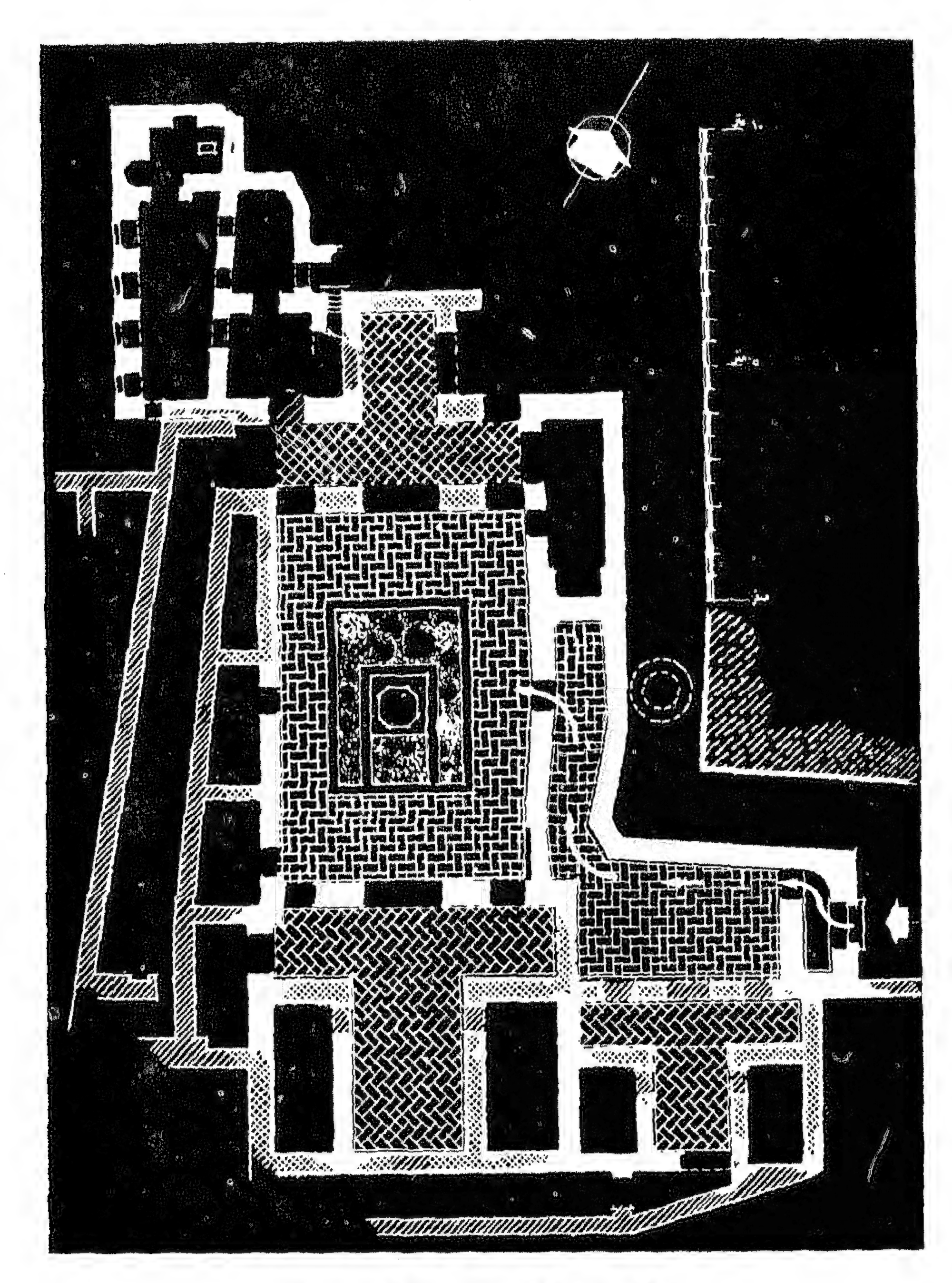
١٦٠هـ (٧٧٧م) • وكذلك فى منازل سامرا التى تنسب الى فترة بين ٢٢١ ، ٢٢٨ هـ (٨٣٧ ، ٨٩١ م) • ويظن بعض الأثريين أن تخطيط هـذه المجمـوعة من ايوان وحجرتين كان معروفا منذ العصر الساسانى فى بلاد العراق (ش : ١٢٩ ـ ١٣١) ، كما سلف القول (ص : ١٨٩) •

والأرجح لدينا أن تكون فكرة تلك المجموعة قد جاءت من العراق مع الولاة الموفدين من قبل الخلفاء العباسيين • وأنها ظلت تستخدم منذ العصر العبـاسى حتى العصر الفاطمى كما سنرى فيما بعد •

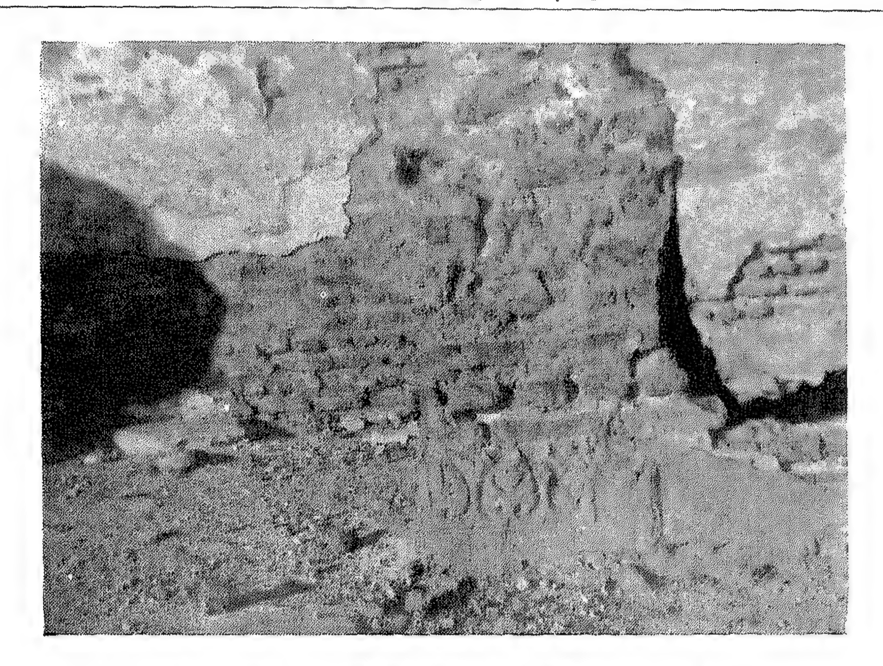
غير أن وجود ذلك الجناح منفردا فى البيت الطولونى هذا بغير وحدات معمارية أخرى توضح تخطيط بقية البيت لا يعطى فكرة ولو مقربة عن ذلك التخطيط ، الا أنه قد وصلنا لحسن الحظ بقـايا وآثار من دور أخـرى تسـاعد كثيرا على تكوين فكرة صحيحة عن النموذج أو النماذج الخاصة بتخطيط الدور فى العصر الطولونى وما بعده كما سيأتى فى مكانه •

ولقد ظل ذلك الجناح الاثر الوحيد الذى يمكن نسبته الى العصر الطولونى حتى كشف المهندس الدكتور عبـاس حلمى منذ فترة وجيزة وفى اثنـاء اعداده لرسـالته للدكتوراه تحت اشرافى [1] عن بيت يكاد يكون متكاملا لا ينقصه الا القليل من تخطيط

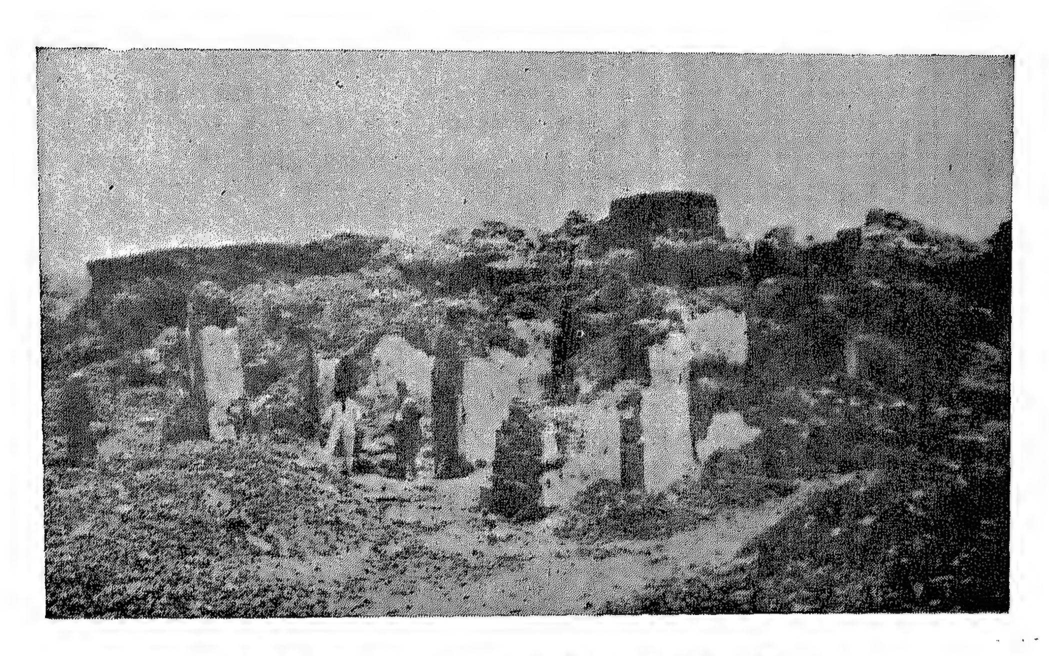
(١) كانت الرسالة عن : «تطور المسكن المصرى الاسـلامى من الفتح العـربى الى الفتح العثمانى » •



شـ : ٢٦٠ ـ الفسطاط : البيت الطولونى الثانى



ش : ٢٦١ ــ الفسطاط : البيت الطولونى الثانى ــ زخارف
من طراز سامرا الثالث ملتصقة بالجدار



ش : ٢٦٢ ــ الفسطاط : خرائب البيوت والدور بعد أن كشف عنها
فى حفريات على بهجت والبيرجابرييل

مسقطه (ش ٢٦٠) ، غير أن بقايا جـدرانه لا ترتفع أكثر مما ترتفع جدران البيت الطولونى الاول • ويمكن الاطمئنان الى تأريخ البيت الثانى فى العصر الطولونى أيضا وذلك على أساس الزخارف التى كانت ما زالت لاصقة بجـدرانه (ش : ٢٦١) ، والتى لا شك فى أنهـا من طراز سـامرا الثـالث النقى ، (أعـلاه : ص : ٤١٩) ، (ش : ٢٥٠ ، ٢٥١) ، ويسرنا أن نسجل لصاحب الرسالة توفيقه فى الكشف عن بقايا الزخارف الطولونية العالقة بالجدران ثم قيامه برفع تخطيط الدار من الخـرائب الباقية ، الامر الذى غفل على بهجت عن القيام به عندما أتى بوصف دور ثلاثة فى موقع شمال منطقة الحفائر التى قام بها من قبل ، وكان هذا البيت الطولونى الثـانى أحد الثلاثة ، كما عنى المرحـوم حسن الهـوارى بتسجيل رسم بيت ثان من الثلاثة ايضا ، ونشر على بهجت بحثا عنها [1] فى تاريخ تال لما نشره عن نتائج حفائره الأولى •

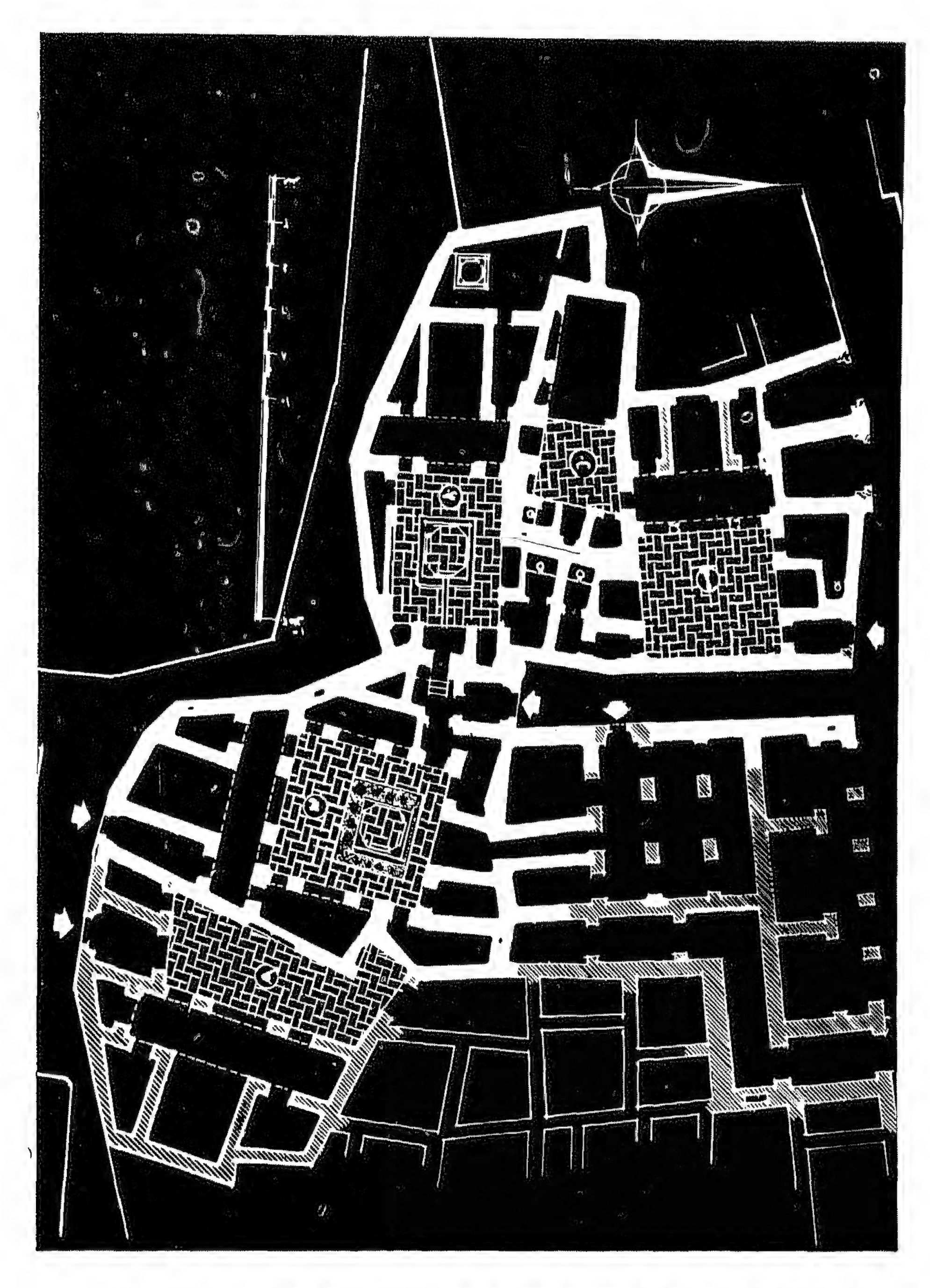
ويمتاز البيت بأهمية كبيرة من حيث أنه يبين فى جلاء ووضوح توزيع الوحدات الرئيسية والثانوية وملحقـاتها التى يتكون منهـا تخطيط الطابق الأرضى من المنزل العربى الاسلامى فى مصر ، وهو على الأرجح الطابق الذى كان يستعمل للاسـتقبال والمعيشة اليومية فى أثناء النهار •

يتوسط الدار الفناء الواسع التقليدى الذى تفتح عليه وحدات الدار كلها تقريبا، ويأتى على رأسها من حيث الأهمية الجناحان التقليديان اللذان يتكون كل منهما من ايوان أوسط ومن حجرتين تكتنفانه عن يمين ويسار ، وتتقدم الوحدات الثلاث هذه السقيفة المستعرضة التى تنفتح على الفناء من خلال الفتحات الثلاث ، أى على نفس النمط الذى رأيناه فى الجناح الباقى من الدار الطولونية • هذا ويواجه أحد الجناحين الدار الثانية الشمال ويواجه الآخر فى الجهة المقابلة الجنوب • كما يوجد جناح ثالث يشبه السابقين ولكن على صورة مصـغرة قليلا وضع الى يسـار الداخل من البـاب الرئيسى مباشرة ، أى عند بداية الدهليز الذى خطط على هيئـة زاوية قائمة بحيث يؤدى من الباب الخارجى على الطريق العام الى الباب الداخلى الذى ينفتح على الفناء الداخلى الأوسط الرئيسى السالف الذكر • وأغلب الظن أن هذا الجناح الأخير كان مخصصا لزوار مولى الدار من الغرباء ومن الذين لا يستحب خوضهم داخل الدار •

ثم يحيط بالفناء وبالاجنحة السابق شرحها وحدات وحجرات أخرى متفاوتة الحجم والاشكال كانت تسـتعمل لاغراض شتى ، فلعل بعضها كان للسـكن المؤقت

---

(1) Syria, vol. IX, pp.



ش : ٢٦٣ ـ الفسطاط ـ مجموعة من خمسة بيوت (يسميها على بهجت بالدار الاولى)

وبعضها لخدمة من فى الدار ، منها حجـرة فى الزاوية الشـمالية الشرقية نرجح أن تكون المطبخ الرئيسى للبيت وبها الفرن ، كما يستلفت نظرنا الممرات الطويلة الخلفية التى تصل بين كل من جناح الزوار بجوار المدخل والجناح الجنوبى وبين الوحدات الاخرى وبين المطبخ ، وهى ممرات تجعل من السهل على الخدم أن يقوموا بالتخديم على تلك الاجنحة والوحدات دون أن يمروا من خلال الفناء الاوسط الرئيسى •

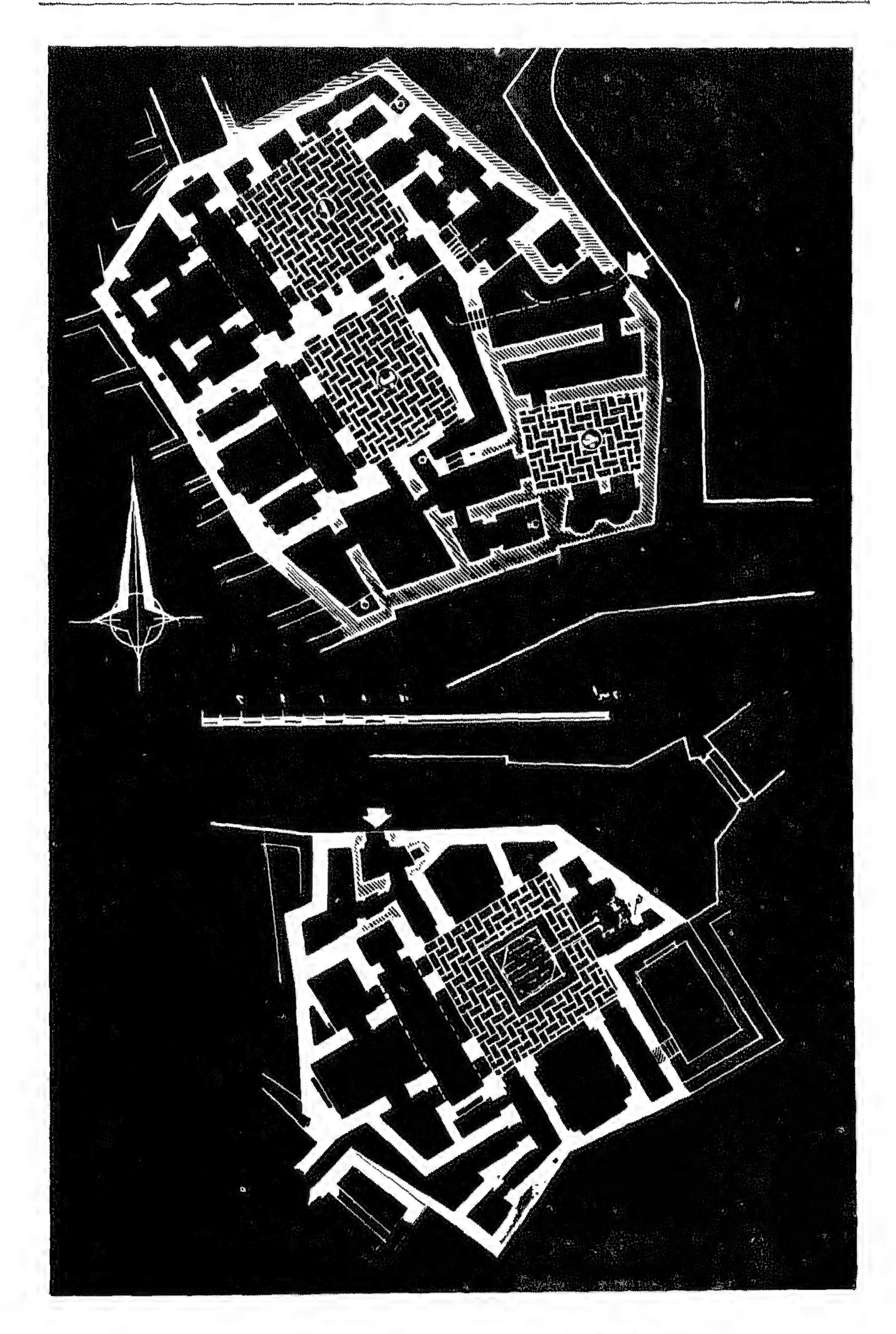
ومن الملاحظات الهـامة فى تخطيط هـذا البيت انه لا يحتوى الا على ايوانين فحسب فى الجهتين الشمالية والجنوبية للفناء ، وخلت الجهتان الاخريان من وجـود ايوان فى أى منهما أو حتى من دخلة غائرة تقـوم مقام ايوان ضحل غير عميق أو ترمز اليه ، وهو تقليد سائد فى كل ما كشف عنه فى دور الفسطاط الاخرى المتكاملة المسقط • مما يرجح لدينـا أن المهندس لم يدخل فى اعتبـاره عند تخطيطه له عمـل الايوانين الجانبيين أو دخلتين على الاقل ، اذ لو كان ذلك فى نيته لقام بزحزحة الباب المؤدى الى الفناء الرئيسى بحيث يقع الباب فى طرف من الفناء بدلا من منتصفه تماما كما هو الحال الآن ، وبذلك يمكن أن يقتطع من الممر المؤدى الى الفناء دخلة او ايوان حسب ما تسمح به المسافة يقابله آخر فى الجهة المقابلة أى فى مكان الحجرة الوسطى• وسنرى أمثلة لهذا التصرف عند الحديث عن دور الفسطاط المكتشفة الاخرى •

كذلك توجد بجوار المطبخ وخلف ايوان الجناح الشمالى بقايا درج سلم كان يصعد الى الطوابق العليا حيث الاجنحة المخصصة للحريم وحجرات النوم الى غير ذلك من الوحدات المكملة للبيت والتى اختفت كلها ولم يبق منها اثر لا فى هذا البيت ولا فى غيره ولا يزال أمرها غامضا حتى هذه اللحظات •

ثم نأتى الى عنصر من أهم العنـاصر التى يحتوى عليها هذا البيت وهو عنصر المدخل المنكسر الذى كان يطلق عليه المؤرخون العرب القدماء لفظ « الباشورة » •

يبدأ المدخل المنكسر فى هذا البيت بالباب الذى يفتح على الطريق العام مباشرة ثم ينعطف الداخل منه الى اليمين فى زاوية قائمة ويسير فى ممر قصير ، وينعطف عند نهايته مرة أخرى ليخرج من باب الى يساره فى زاوية قائمة ثالثة ليخرج الى الفنـاء الاول الصغير ، والذى يوجد فى ضلعه الجنوبى جناح من النموذج التقليدى والمكون من السقيفة والايوان والحجرتين اللتين تكتنفانه خصص لزوار الدار من الغرباء كما سلف القول •

ثم يخرج من هذا الفناء الاول من ركنه الشمالى الشرقى ممر ينعطف يمينـا ثم يسارا ليصب فى محور الضلع الطويل للفناء الرئيسى المستطيل أو هو ممر منكسر



ش : ٢٦٤ ـ الفسطاط ـ دار ذات بيتين (يسميها على بهجت بالدار الثانية)
ش : ٢٦٥ ـ الفسطاط ـ بيت ذو فناء وأربعة ايوانات (يسميه على بهجت بالدار الثالثة)

والعثور على هذا المدخل المنكسر أو الباشورة وبهذا الوضوح فى التخطيط له أهمية قصوى وكان يستحق ان يعنى بدراسته وبالتوسع فيها من حيث أنه يعد حتى الآن أقدم مثل قائم من نوعه ثابت التاريخ لا فى مصر وحسب بل وفى العالم العربى الاسلامى بأسره ، ولم يعـرف قبل ذلك الا فى ما ورد فى كتـاب الخطيب البغدادى المؤرخ العربى القديم عند وصف مدينة بغداد المدورة التى بناها ابو جعفر المنصـور قبل عصر ابن طولون بنحو قرن من الزمان (ص : ١٩١) ، وهى المدينة التى اندثرت آثارها تماما ولم يكتشف حتى الآن عن أى بقايا من جدرانها توضح شيئا من تخطيطها يعزز وصف المؤرخين لها •

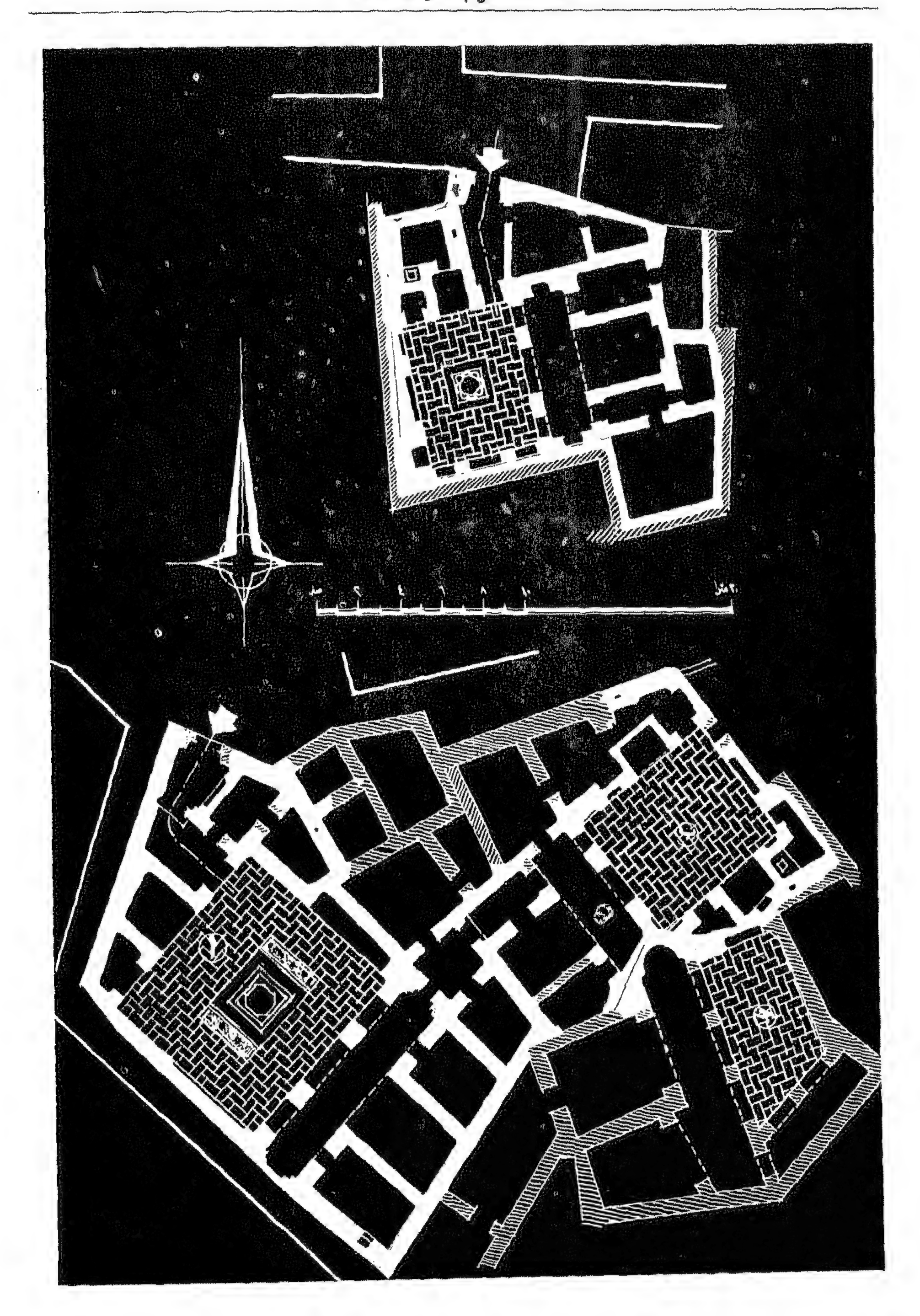
ويؤدى المدخل المنكسر غرضين هامين فى المنازل والقصور • أحدهما منع أنظار المارة فى الطريق من أن تكشف من بداخل الدار اذا ما فتح الباب الخارجى ، وهو أمر يؤكد انتشار الحجاب فى مصر بوجه خاص منذ أيام الولاة العباسيين على الاقل• أما الغرض الثانى فهو زيادة فرص الدفاع عن الدار اذا ما قامت قلاقل أو فتن داخلية أو خارجية •

ويسـتوقف نظرنا أن هذا النمـوذج من الباشورة قد انتشر اسـتعماله للبيوت والدور فى العاصمة مصر الفسطاط كما يتضح فى الأمثلة الأخرى التى كشفت عنها حفريات على بهجت وجابرييل ، ثم فى بقايا القصر الفاطمى الغربى الذى بناه العزيز بالله لابنته ست الملك ، كما سيأتى ذكره فى المجلد الثانى من هذا الكتاب •

هذا بينما لم ينتشر عنصر الباشورة فى أسوار القلاع والحصون الا فى القرن السادس الهجرى (١٢م) فى الشام عندما استعرت نيران الحروب الصليبية هنـاك فى شدة وعنف ، ثم ظهر فى أعمال صلاح الدين أيام أن كان وزيرا فاطميا للخليفـة العاضد لدين الله وعندما أعاد تحصين قلعة الفاطميين المعروفة باسم القاهرة ، وبقى من هذا العنصر مثل متكامل هو الباب الجديد الذى جاء ذكره فى موضع سابق (ص : ٢٧٢ ، ش : ١٧٨ — ١٨٠) • أما أبواب القاهرة التى شـيدت أيام بدر الجمـالى فلم تعمل على نظام الباشورة ، ولا ندرى كيف كانت أيام بناء جوهر الصقلى •

***

والحق أن اكتشاف هذا البيت المتكامل بالاضافة الى بقايا البيت الطولونى الاول قد فتح الباب من جديد لمناقشة وبحث الدور والبيوت التى سـبق أن كشفها الاثرى على بهجت والمهندس ألبير جابرييل فى أول حفريات أجريت فى منطقة الفسطاط ، ونشر الاثنان نتائج كشفهما على هيئة تقارير تتضمن مخططات وصور ووصف ، غير



ش : ٢٦٦ ـ الفسطاط : بيت صغير (يسميه على بهجت بالدار الرابعة)
ش : ٢٦٧ ـ الفسطاط : دار ذات ثلاث بيوت (يسميها على بهجت بالدار الخامسة)

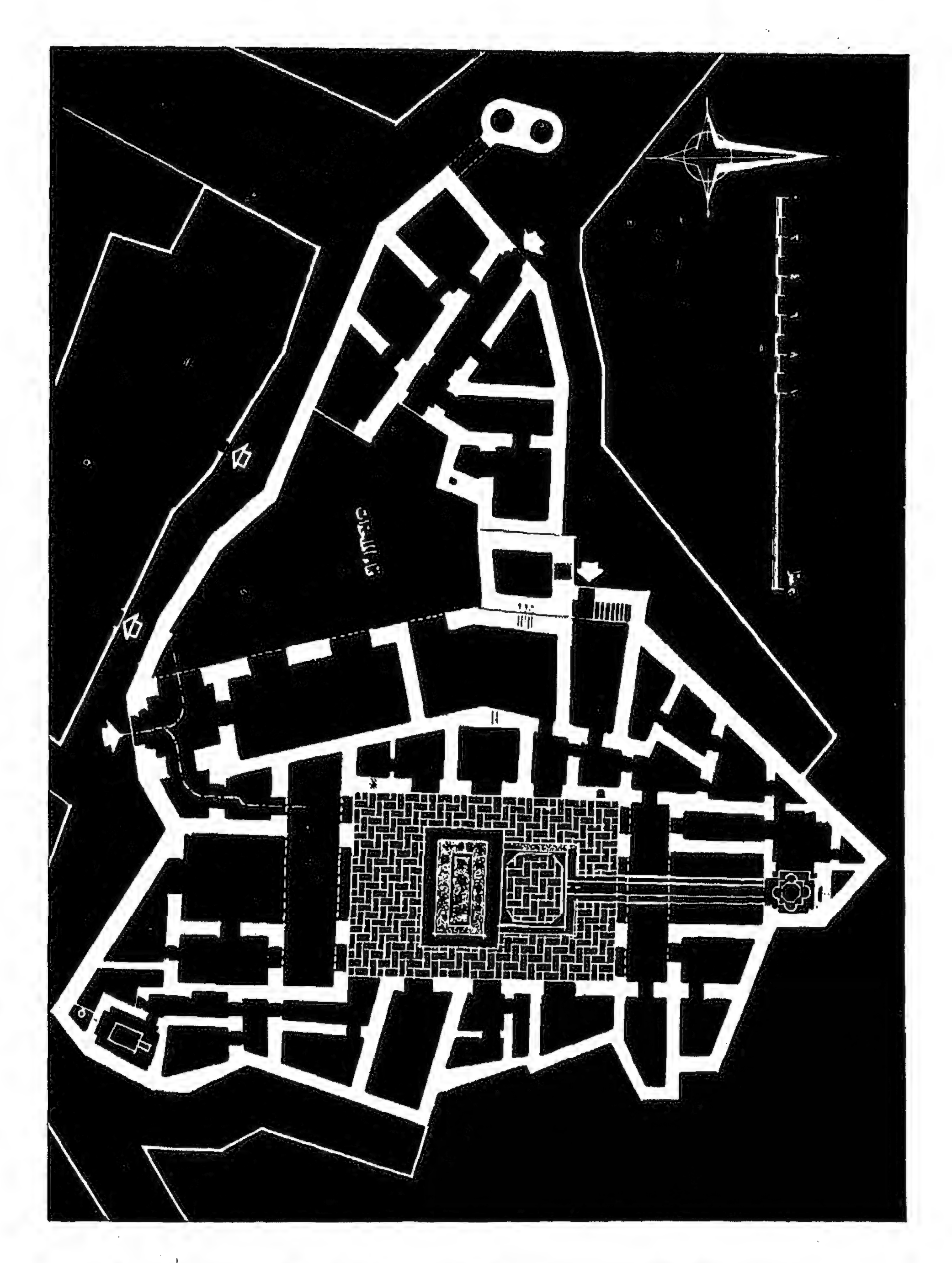
أنهما لم يسهبا فى التحليل والدراسة بما يوصل الى تأريخ تلك الدور والبيوت على وجه يمكن الاطمئنان اليه والاعتماد عليـه ، ولذلك فانهمـا خلصـا الى تاريخ جملة الدور فى فترة أربعة قرون تشـمل من القرن الثـالث حتى السـادس من الهجرة (٩ ـ ١٢ م) • ثم جعل الاستاذ كريسول من تلك الدور أحد الموضوعات التى تناولها فى كتابه عن العمارة الاسلامية فى مصر فى العصر الفاطمى ، وأرخها كلها فى النصف الاول من العصر الفاطمى [1] ، أى فى القـرن الخامس من الهجرة (١١ م) ، ولم يذكر دليلا واحدا أو تحليلا معماريا أو تاريخيا أو أثريا اتخذه أساسا لتأريخها ، بينما استند على بهجت وجابرييل فى تاريخهمـا لتلك الدور على ما عثرا عليـه فى أنقاضها من زخارف جصية وبقـايا مادية من الآثار الفنيـة والتطبيقية تحمل مميزات وخصائص ترجعها الى تلك الفترة التى أرخاها فيها ، فتركا بذلك الباب مفتوحا أمام احتمالات اكتشافات أخرى تحدد نسبة بعض تلك الدور الى تاريخ أكثر تحديدا مما ارتأياه • فكانا بذلك بعيدى النظر كما أثبته اكتشاف البيتين الطولونيين ، وبخاصـة البيت الثانى المتكامل • أما الأستاذ كريسـول فانه لم يكن موفقـا فى حصره لتـاريخ الدور كلها الى قرن واحد فحسب •

وقام الدكتور عباس حلمى فى رسالته بشـطر كبير من البحث مستعينا بالضـوء الجـديد الذى ظهر باكتشـافه للبيت الطولونى الثـانى ، غير انه انتهى من البحث والتحليل المستفيضين الى نسبة جميع تلك الدور التى كشفها على بهجت بغير استثناء الى العصر الطولونى ، أى الى نهاية القرن الثالث الهجرى (٩ م) ، أى الى اقل من نصف قـرن على أكثر تقـدير ، فأصبح بذلك أكثر تطرفا من الأسـتاذ كريسـول الذى جعل فترة تاريخها تمتد طوال القرن الخامس من الهجرة (١١ م) كما سلف القول •

وعلى ذلك فاننا نجد المجال ما يزال يتسع لمزيد من الآراء ويسمح لنا بأن ندلى بدلونا فى هذا الموضوع •

ونبدأ بملاحظة أنه قد أطلق على الدور المكتشـفة فى بقاع متفـرقة من منطقة الحفريات أرقام مسلسلة من الدار الأولى حتى الثامنة (ش : ٢٠٤) ، مع أن بعضـا منها يحتوى على مسـكن أو أكثر ، وهو اما قائم بذاته أو متصـل بمسكن آخر أو اكثر بواسطة ممرات داخلية ودهاليز ، ولذلك فاننا فضلنا منعا للبس أن نستخدم لكل

(1) M.A.Eg., vol. I, p. I.



ش : ٢٦٨ ـ الفسطاط : بيت كبير بملحقاته (يسميه على بهجت بالدار السادسة)

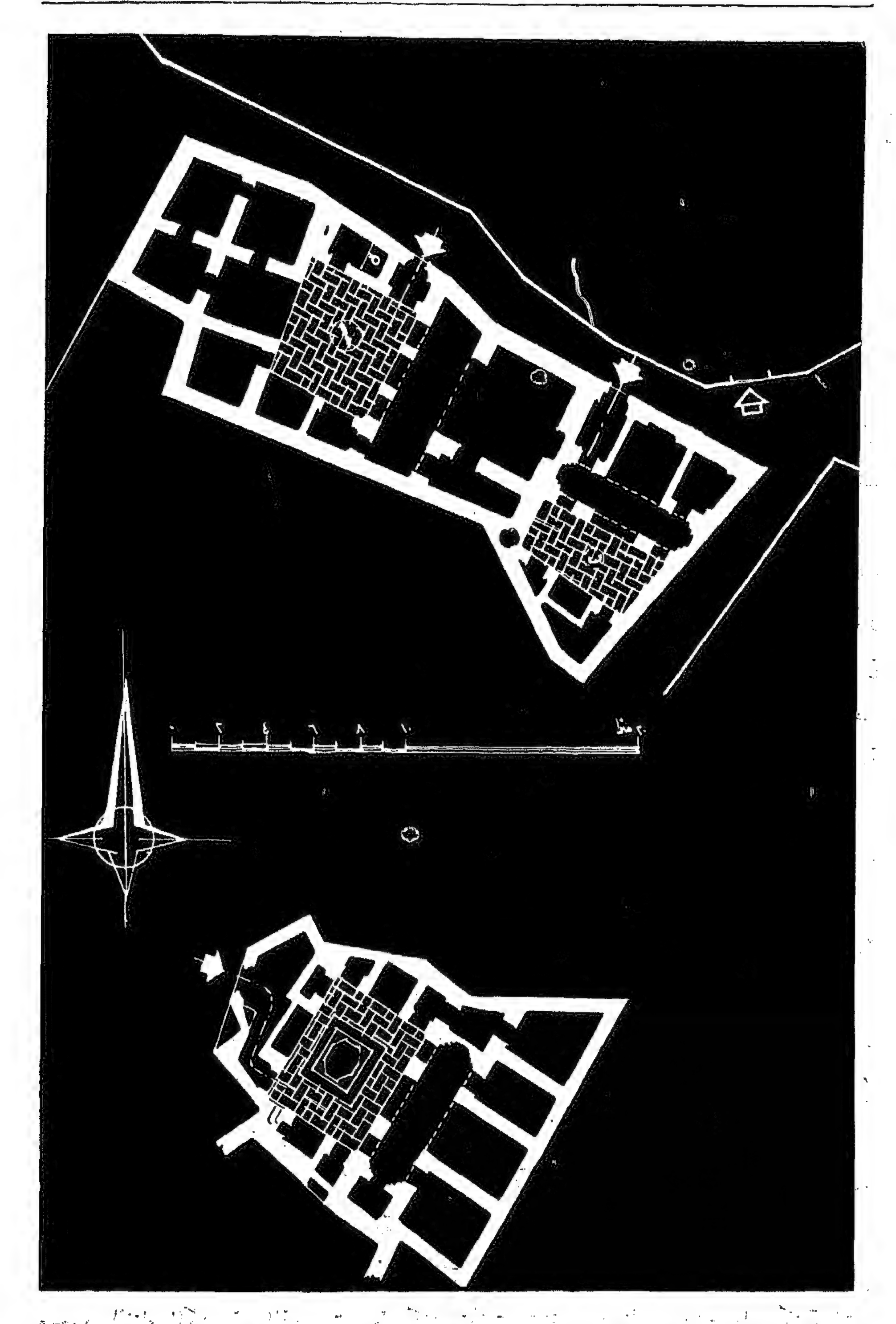
مسكن سواء استقل بنفسه أو اتصل بغيره لفظ « بيت » ، وذلك أسوة بالبيوت التى اصطلحنا على تسميتها بذلك فى القصور العربية الاسلامية فى بادية الشام والعراق التى تردد ذكرها فى عدة مواضع سابقة مثل قصر المشتى (ش : ١٢٨ و ١٧٣) وقصر الطوبة (ش : ١٢٧ و ١٧٤) وقصر الاخيضر (ش : ١٣٢ و ١٧٦) • كما سنطلق لفظ « دار » على كل ما يحتوى على بيتين فأكثر متصلين ببعضهما من داخل الدار ، وسواء كان لهما مدخل مشترك واحد ، أو كان لكل منهما مدخل خاص بالاضافة الى المدخل المشترك ، وسنطلق على البناء الذى يضم أكثر من دار أو بيت منفصل « مجموعة دور » •

وعلى أساس هذه الاصطلاحات فاننا نجد لدينا مجموعتين من الدور هى التى سماها على بهجت بالدار الأولى (ش : ٢٦٣) ، وهى تتكون من دارين بأحداهما بيتان (أ) و (ب) ، وبالثانية بيتان أيضا (ج) و (د) ، ولكل من الدارين مدخل واحد يؤدى الى البيتين فى كل منهما • ويلتصق بالدارين بيت مستقل له مدخله الخاص به• أى أن هذه المجموعة بها خمسة بيوت • أما المجموعة الثانية فهى التى سميت بالدار الخامسة (ش : ٢٦٧) ، وتحتوى على دار واحدة من بيتين (أ) و (ب) ، يتصلان ببعضهما من خلال ممر ، ولكل منهما أيضا مدخل منفصل ، ثم يلتصق بهما بيت (ج) منفصل تماما عنهما وله مدخله الخاص به • أى أن هذه المجموعة تحتوى على ثلاثة بيوت •

ثم نجد لدينا دارين أطلق على احداهما الدار الثانية (ش : ٢٦٤) ، وتتكون من بيتين (أ) و (ب) ولهما مدخل واحد يؤدى الى ممر يوصل الى فنائى البيتين • والدار الأخرى عرفت بالدار السابعة (ش : ٢٦٩) وتتكون من بيتين (أ) و (ب) منفصلين كل عن الآخر تماما ولكل مدخله الخاص به •

أما بقية الدور فكل منها يتكون من بيت واحد (ش : ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠) ولكل مدخل خاص به فيما عدا الدار التى سميت بالسادسة (ش : ٢٦٨) فان ملحقات البيت من وحدات وحجرات اضافية قد رصت حول فناء غير منتظم الشكل ، وللبيت وملحقاته مدخل مشترك بالاضافة الى مدخل للبيت وآخر للملحقات، مما يجعل للبيت هيئة دار مزدوجة •

ومن حيث مميزات البيوت فانها تتفق كلها فى الميزة المشتركة المعروفة وهى وجود الفناء المكشوف الذى يتوسط كلا منها ثم تلتف به الوحدات السكنية التى يتكون منها البيت الواحد • ويتراوح شكل الفناء بين المربع الصريح أو القريب من المربع وهو الشكل الأكثر انتشارا (ش : ٢٦٣ /أ/ب/د ، ٢٦٤ /أ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧/أ



ش : ٢٦٩ ـ الفسطاط : دار ذات بيتين مستقلين (يسميها على بهجت بالدار السابعة)

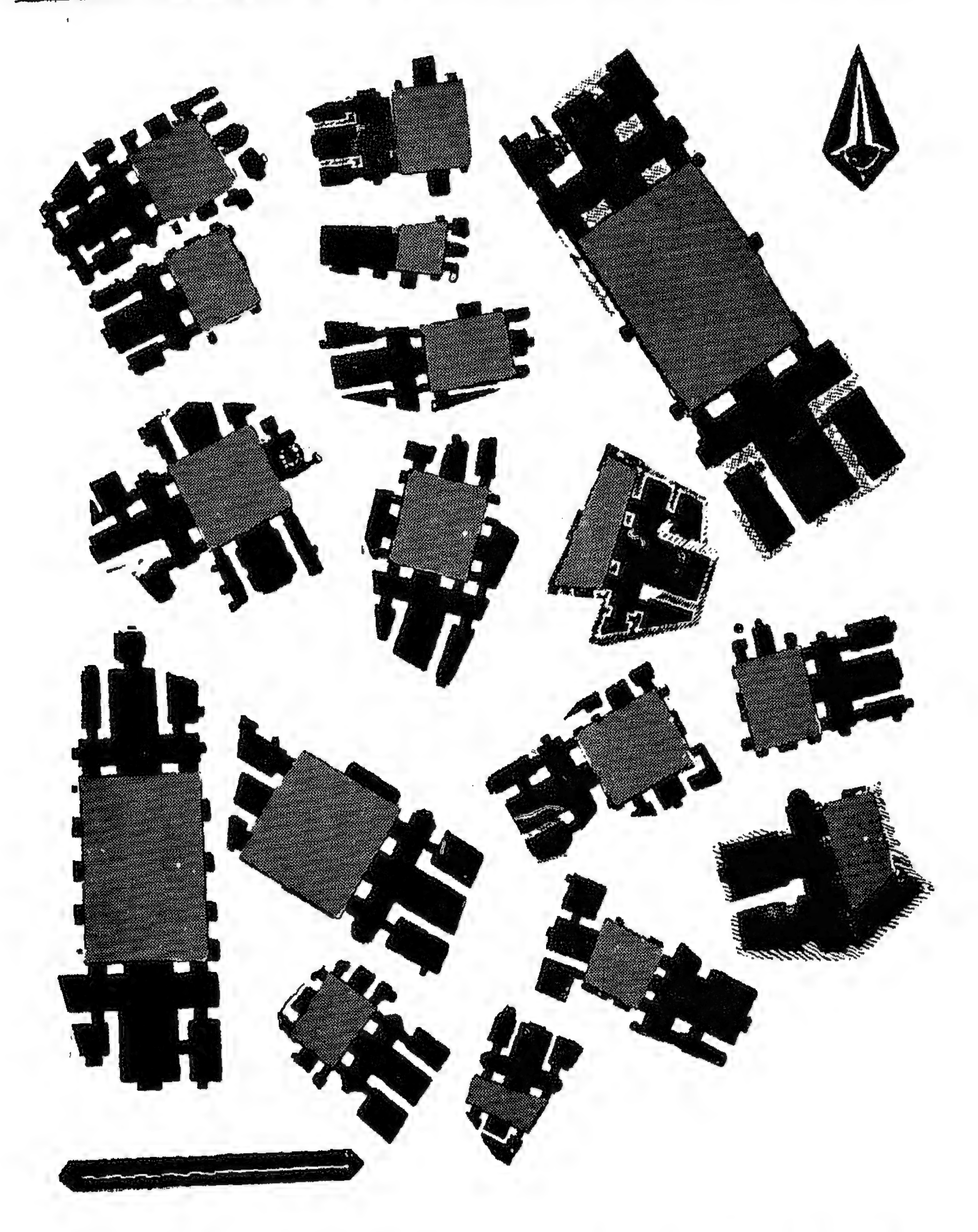
ش : ٢٧٠ ـ الفسطاط : بيت صغير (يسميه على بهجت بالدار الثامنة)

ب ، ٢٦٩/أ) ، وبين المستطيل الذى يوازى ضلعه الطويل محور الجناح الرئيسى (ش : ٢٦٣/ج ، ٢٦٧) ، أو مستطيل مستعرض يوازى محوره اتجاه السقيفة المستعرضة التى تتقدم الجناح الرئيسى (ش : ٢٦٤/ب ، ٢٦٣/هـ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩/ب ، ٢٧٠) •

أما توزيع العناصر الرئيسية حول الفناء فقد خضع لنموذج ساد فى تخطيط أربعة عشر بيتا من الستة عشر ، وهو الذى وضع فى جانب واحد من الفناء الأوسط منه الجناح التقليدى المكون من السقيفة والايوان والحجرتين على جانبيه ، أما الاضلاع الاخرى للفناء فقد وضع فى ضلع واحد أو أكثر ايوان عميق بغير سقيفة تتقدمه ، وأحيانا يستبدل الايوان بدخلة ضحلة كانها رمز لايوان ، الى غير ذلك من أنواع التصرف فى أشكال الايوانات والدخلات من حيث اتساعها وأعماقها ، تبعا لما تسمح به مساحة الارض والحدود الخارجية لها والتى شيد داخلها البيت بوحداته المختلفة•

غير أن لهذا النموذج بضعة أمثلة حدث فيها تصرف فى شكل الايوانات الجانبية ، اذ يوجد مثل (ش : ٢٦٧/ج) استبدل فيه أحد الايوانين الجانبين بسقيفة واحدة أحيانا ، أو استبدل الايوانان الجانبيان بسقيفتين (ش : ٢٦٣/د) • وحدث أيضا أن حذفت السقيفة والحجرتان اللتان تحفان بالايوان ، وبقى الايوان وحده ووضع ايوان آخر اصغر منه فى الجهة المقابلة له من الفناء • وكل ذلك يمكن تفسيره بأن مساحة وشكل الموقع قد تسببا فى مثل هذه التصرفات التى تعد خارجة عن المألوف •

وتقودنا الامثلة السابقة الى ملاحظة هامة جديرة بالذكر هى أن تخطيطات البيوت كلها بوحداتها الرئيسية والثانوية وملحقاتها كانت تخضع لشكل الموقع الذى أقيم عليه الدار سواء كانت بسيطة من بيت واحد أو مركبة من عدة بيوت • ومن المشاهد أن جميع المواقع ليس فيها مثل واحد منتظم الشكل أو تقرب حدوده من الانتظام ، فكل موقع منها تحدده خطوط متكسرة لا يتكون منها أى شكل هندسى • وهو أمر ليس غريبا بل منتظرا مع عدم انتظام الطرق والازقة والدروب التى كانت تؤدى الى تلك الدور والبيوت ، والذى أشرنا من قبل الى أن تخطيط المدينة نفسها لم يراع فيها أى نظام هندسى ، اذ تتلاقى حدود الطرقات فى زوايا منفرجة أحيانا وحادة أحيانا أخرى ، ونادرا ما تتلاقى فى زوايا قائمة • ولكن على الرغم من ذلك كله فان المهندسين الذين قاموا بعمل التخطيط قد نجحوا نجاحا كبيرا وفى كل الحالات تقريبا فى أن يجعلوا الافنية والايوانات ، وهى العناصر الرئيسية فى كل البيوت ، ذوات أشكال هندسية منتظمة تختلف بين المربع والمستطيل ، وبحيث تتلاقى



ش : ٢٧١ ـ موازنة تبين الخضوع التام لفكرة مشتركة فى جميع البيوت وهى تخطيط النواة الرئيسية فيها كلها من فناء أوسط وايوان فى ضلع منه أو أكثر ، ويتقدم احد الايوانات سقيفة مستعرضة ، وذلك على الرغم من التباين الكبير بين مساحات تلك النواة فى البيوت الكبيرة والمتوسطة والصغيرة . كما توضح الموازنة خطأ النظرية التى تقول باتباع نظام معين فى وضع السقيفة والايوان الرئيسيين بالنسبة للاتجاه الشمالى .

وتتعامد اضلاع كل منها فى زوايا قائمة ، وجعلوا الوحدات الثانوية الاخرى محصورة بين العناصر الرئيسية وبين الحدود الخارجية للمواقع غير المنتظمة •

كما نلاحظ ان تخطيط البيوت فى تلك الدور لم يراع فيها ان تواجه الاجنحة والايوانات المحيطة بالفناء الاوسط اتجاها جغرافيا معينا (ش : ٢٧١) ، وذلك على عكس أقوال الاثريين السابق ذكرهم والتى تذهب الى ان جناح الجلوس قد وضع بحيث يواجه الشمال او الاتجاه البحرى حسب الاصطلاح الدارج والذى يأتى منه النسيم الملطف فى الصيف ، اذ أننا نجد تلك الاجنحة قد وضع بعضها مواجها للشرق تماما فى بعض الاحيان والغرب تماما أحيانا أخرى أو بانحراف قليل ناحية الشمال أو الجنوب فى أمثلة أخرى • ولا يوجد الا مثلان فقط ، هما البيت الطولونى الثانى المكتشف حديثا ثم البيت فى الدار السادسة ، حيث يوجد فى كل منهما جناح يواجه الشمال تماما وآخر يواجه الجنوب تماما مما يجعلهما وثيقى الشبه ببعضهما من هذه الناحية •

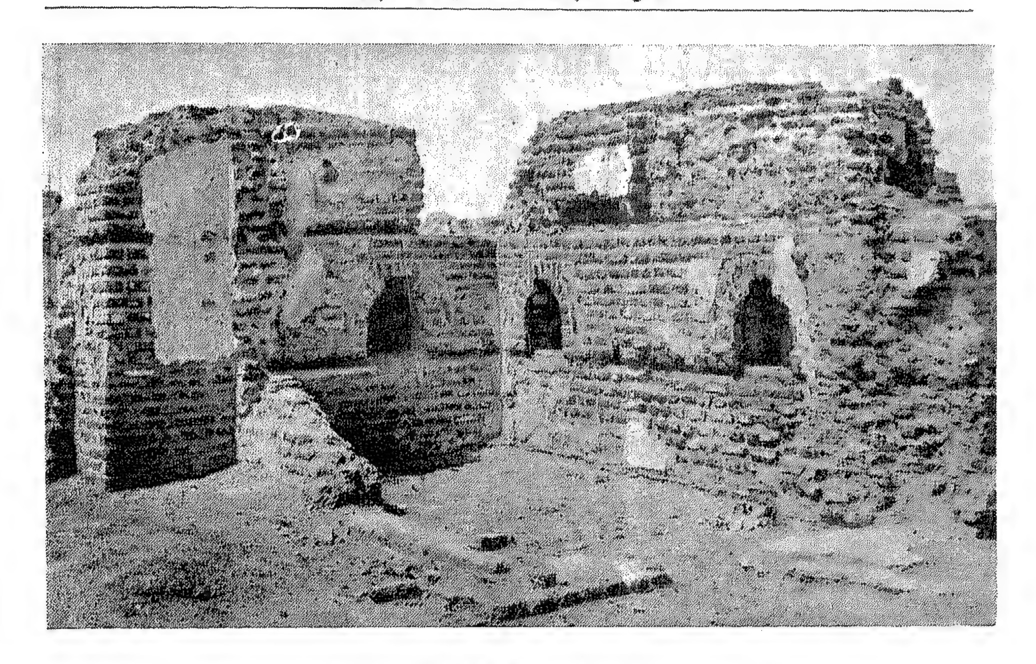
ونصل من ذلك كله الى أن تخطيط ووضع الايوانات والاجنحة والافنية كان يخضع دائما لما يسمح به شكل الارض التى يقام عليها البيت ، وهو الشكل الذى يفرضه تخطيط الحارات والازقة والدروب المتعرجة على غير نظام كما سلف القول وكما هو واضح فى الخريطة (ش : ٢٠٤) ، لا الى أى عامل آخر •

***

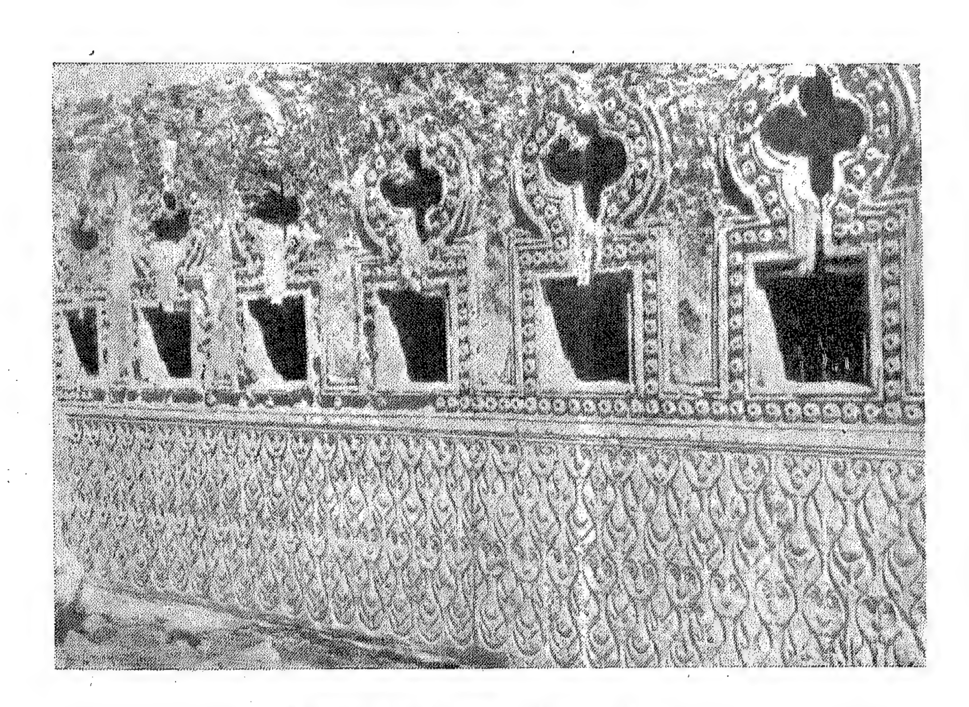
واستوقف نظرنا أن على بهجت والبير جابرييل قد عنيا باثبات فواصل بين جدران بعض اجزاء البيوت والدور المتلاصقة ، ووجود هذه الفواصل يفسر لنا أن البيت أو الدار قد شيدت فى فترات زمنية مختلفة • غير انه يمكن فى بعض الحالات الوصول الى ترجيح التسلسل الزمنى لبناء بعض تلك الاجزاء ، ومن ذلك ما نراه فى الدار الثانية (ش : ٢٦٤) فانه يرجح لدينا أن البيت الأصلى ذا الفناء المستطيل قد شيد أولا ثم تمكن مالك البيت فيما بعد من شراء قطعة الارض المجاورة ليبنى عليها وحدات أخرى حول فناء أوسط غير منتظم الشكل وجعلها ملحقات للبيت •

ولكن ليس من السهل التوصل الى معرفة التسلسل الزمنى فى كثير من الاحيان الاخرى ، لان الامر يتطلب عدة أدلة معمارية واضحة تساعد على ذلك •

ثم نأتى لبيت هو المعروف بالدار السادسة (ش : ٢٦٨) ينفرد بين الستة عشر بيتا بتخطيط كان يعد فريدا بينها الى أن اكتشف البيت الطولونى الثانى ، والذى يتفق



ش : ٢٧٢ ـ الفسطاط : جدران قاعة فى الدار الثانية (ش : ٢٦٤)



ش : ٢٧٣ ـ سامرا : جدران قاعة فى بيت الخليفة

معه تماما فى عدة نواح • اذ يتوسط البيت فناء مستطيل وضع فى كل ضلع من ضلعيه القصيرين المتقابلين جناح الجلوس والمعيشة الذى يتكون من سقيفة تتقدم ايوانا يتوسط حجرتين • أما الضلعان الآخران الطويلان فقد رصت وراء كل منهما حجرات ووحدات البيت الباقية ، وتتصل كلها ببعضها بواسطة ممرات ودهاليز ، أو بمعنى آخر فانه لم يراع فى التخطيط وضع ايوانات جانبية كالتى وضعت فى اغلب البيوت الاخرى والتى يبلغ عددها اربعة عشر بيتا •

أما المميزات والتفاصيل الاخرى المعمارية والزخرفية الاخرى التى تكاد تكون مشتركة بين الجميع فانه يأتى فى مقدمتها تساؤل عما اذا كانت لتلك المساكين طوابق علوية ، اذ انه لم يصلنا منها مثل واحد وأعلى ما بقى من الجدران بغير استثناء لا يزيد ارتفاعه عن ثلاثة امتار ، غير انه تساؤل لا تصعب الاجابة عنه اذ توجد عدة ادلة واضحة تبرهن على أن كثيرا من الدور والبيوت كانت تتكون من أكثر من طابق ، بل ويساعدنا بعض هذه الادلة على حساب عدد الطوابق الى درجة تقريبية •

تتمثل تلك الادلة والبراهين فى أربع ظواهر هى :

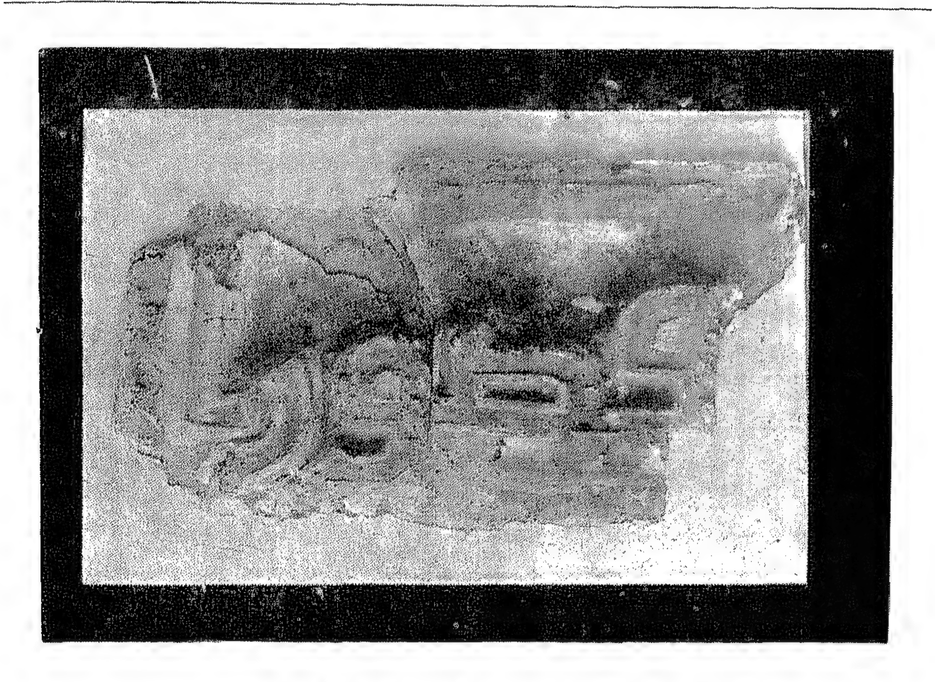
أولا : عرض أو سمك الجدران الرئيسية المشيدة بالآجر والذى يصل الى متر واحد فى أغلب الاحوال •

ثانيا : وجود قنوات رأسية قطاعها مربع أو مستطيل تركت داخل الجدران فى اثناء البناء وبخاصة قرب المراحيض أو فى جدرانها نفسها •

ثالثا : وجود درج سلالم صاعدة الى أعلى •

رابعا : وجود انابيب من الفخار قطاعها مستدير مدفونة داخل الجدران تدل نظافتها على انها كانت تستعمل للماء النقى •

ويعد الدليلان الأول والثانى من الادلة الحاسمة على أنه كان بالبيوت طوابق علوية ، فان عمل الجدران عريضة السمك تصل الى متر فى الطابق الأرضى وبناءها بالاجر بذلك السمك يجعلها تتحمل طوابق علوية تصل الى ثلاثة بل أربعة بخلاف الأرضى ، وحتى لو كانت الأسقف مشيدة بالبناء أيضا على هيئة اقبية ، فان عمل جدار سمكه ٤٠ سنتيمترا كان أكثر من كاف لطابق واحد اذا ما عمل سقفه من خشب من جذوع النخل أو من غيره من الأنواع ، وهو الراجح لدينا انه كان الاسلوب المتبع فى تسقيف الطوابق فيما عدا الطابق الارضى الذى كان به بعض الاقبية فى الايوانات أو القاعات أو الصهاريج الى غير ذلك من الوحدات • ولذلك فانه من المرجح ان استعمال الخشب كان من العوامل الهامة لسرعة خراب البيوت والعمائر مع مرور الزمن ، فهى قابلة للتلف بفعل الرطوبة والحشرات القارضة من



ش : ٢٧٤ ـ الفسطاط : كتابة كوفية محفورة فى قطعة من الجص
(من أنقاض الدور المكتشفة)

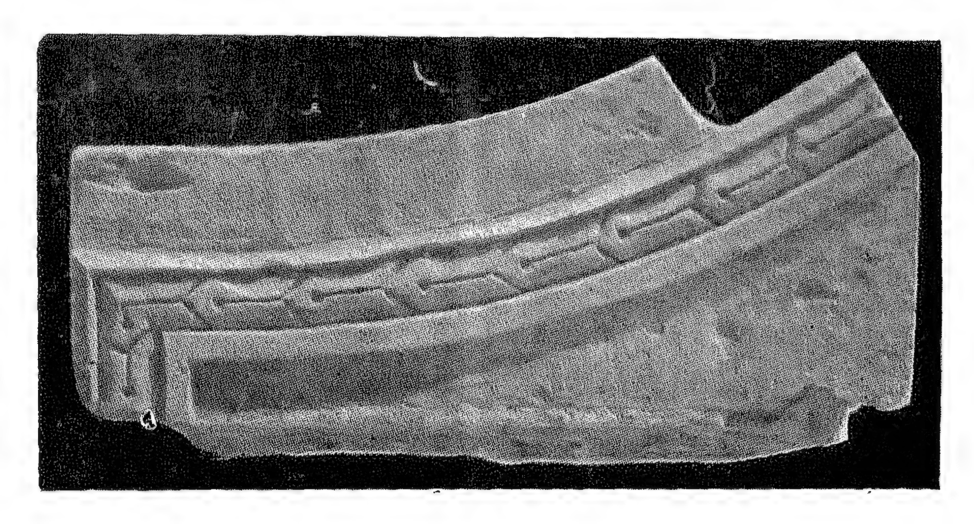


ش : ٢٧٥ ـ الفسطاط : زخارف من طراز سامرا الثالث محفورة فى الجص
(من أنقاض الدور المكتشفة)

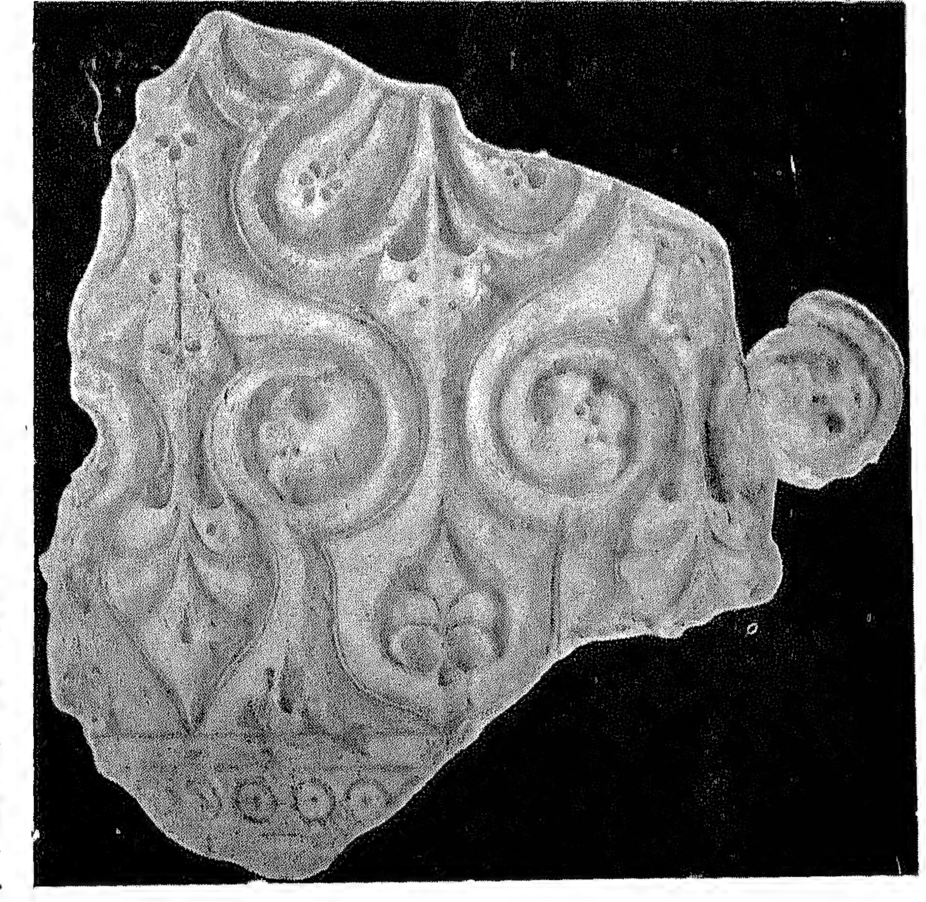
ناحية ، وهى سريعة الالتهاب اذا ما تعرضت للنيران من ناحية أخرى • ومن ناحية ثالثه فان البيوت او العمارة ما تكاد تبطل اسكنى فيها حتى تتناولها ايدى الناس بالسطو على مخلفاتها وبخاصه الاجزاء الخشبيه التى تبدا بالشبابيك والابواب لسهوله انتزاعها • ثم تنتهى باخشاب الاسقف بعد هدم الجدران طابقا بعد اخر • ونضرب مثلا لدلك بالاربطه الخشبيه التى نسميها بالاصطلاح الدارج بالميدات و دن من التقاليد المعمارية السائدة فى تلك العصور وضعها ممتدة على طول الجدران من الجهتين او بعرض الجدار منها وذلك بقصد تقويه الجدران بتوزيع الاحمال فوقها بقدر الامكان ، وما زالت امكنتها التى كانت تشغلها فى البناء وانتزعت منها ظاهرة واضحة فى بعض الخرائب (ش : ٢٧٢) • ولقد ذكر المقريزى ان بيوت الفسطاط كانت مبنية بالبوص والطين ، ولعله كان يقصد بالبوص الخشب ، وهو قول صحيح بالنسبة للخشب ولكنه لم يكن دقيقا فى تعميم البناء بالطين أو اللبن فان البيوت انطولونية التى تحدثنا عنها قد شيدت جدرانها بالآجر ، ومن الارجح انه كان هناك كثير اخر مشيدا باللبن فاسرع اليه الفناء واختفت اثاره •

أما الدليل الحاسم الثانى فهو وجود القنوات الراسية ذات القطاع المربع أو المستطيل التى تركت اثناء البناء فى جوف الجدران وبخاصة تلك التى بجوار أو بقرب المراحيض (ش : ٢٦٣ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩) ، فانه لا يوجد لها تفسير آخرى سوى ان يكون المقصود منها تصريف المياه والفضلات المتخلفة عن استعمال اهل البيت ، وذلك من الطوابق العليا حتى أسفل أرضية الطابق الأرضى ، حيث تسير بعدها فى قنوات تحت الأرض لتصب فى خزانات الصرف التى تسمى بالمجارير ، ولم تكن هناك حاجة لعمل تلك القنوات داخل الجدران اذا ما كان الهدف هو بناء طابق أرضى فحسب •

والدليلان السابقان يفسران ويعززان الدليلين الباقين وهما : الثالث الذى يتمثل فى وجود السلالم الصاعدة والتى ما زالت بقاياها واضحة فى بعض البيوت (ش : ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨) ؛ ثم الدليل الرابع وهو وجود الانابيب الفخارية الراسية فى الجدران (ش : ٢٦٨ الخ) ، وهى التى كانت تغذى دورات المياه فى الطوابق المختلفة ثم تغذية الشاذروانات والفساقى وأحواض المياه فى الايوانات وفى الافنية فى الطوابق الارضية (ش : ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠) • وكل ذلك يرجح أنه كان بالاسطح أنه كان بالاسطح أو بالطوابق العليا فى الدور والبيوت صهاريج لخزن المياه التى ترفع اليها بالبكر والأسطال من الآبار المحفورة خصيصا لكل منها أو لعدد منها أو من خزانات أرضية يجلب اليها الماء من النيل على ظهور الحمالين أو الدواب كما سلف القول فى الفصل السابق (ص : ٣٥٨) •



ش : ٢٧٧ – الفسطاط : قطعة من الجص لإيطار عقد
(من أنقاض الدار السادسة – ش ٠ ٢٦٨)



ش : ٢٧٦ – الفسطاط : قطعة من الجص محفور عليها زخارف نباتية من طراز سامرا الثالث
(من أنقاض الدور)

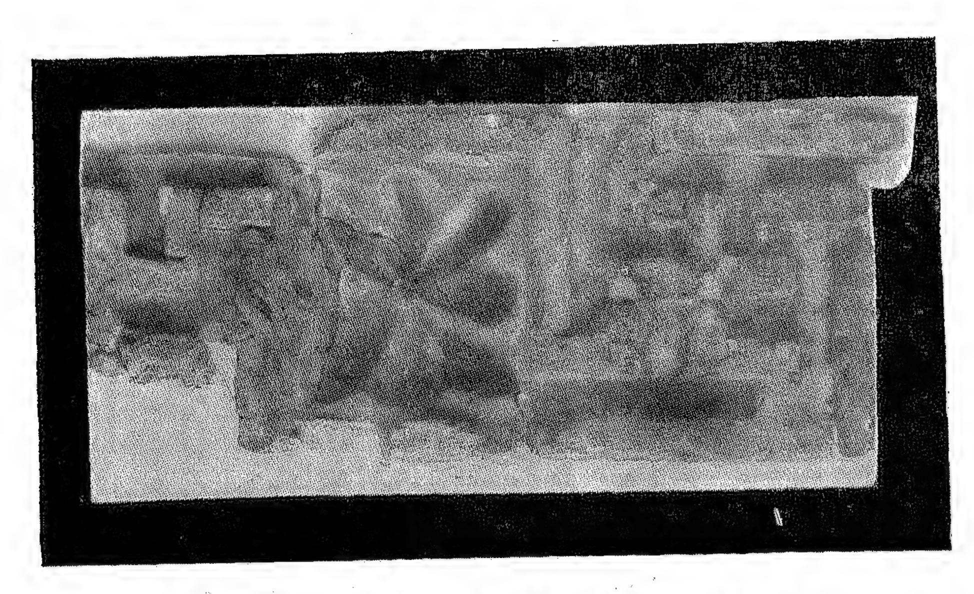
هذا ويغلب على ظننا أن الطوابق العليا من الدور والبيوت كانت مخصصة للحريم والنوم ، بينما كانت الايوانات وغيرها من الوحدات فى الدور الأرضى مخصصة للمعيشة اليومية أثناء النهار وللاستقبالات والضيافة • وهناك رأى للأثريين السابق ذكرهم بأن الدور التى تحتوى على بيتين كان أحدهما مخصصا للرجال والثانى للحريم ، أى ما كانا يسميان « بالسلاملك » و « الحراملك » ، وهو فى رأينا ليس مؤكدا ، فانه يوجد فى احدى تلك الدور ذات البيتين (ش : ٢٦٤) جناح مستقل بالاضافة اليهما وضع مباشرة بجوار المدخل الرئيسى مما يوضح وظيفته بانه كان معدا لاستقبال الرجال بغير أن يخوضوا من خلال الدهاليز والممرات حتى يصلوا الى الافنية والايوانات داخل البيوت •

أما دورات المياه فى البيوت فمن الملاحظ أنه كان يخصص للمراحيض أماكن معتكفة يوصل اليها فى أغلب الاحيان ممرات منكسرة بزوايا قائمة ، وكان يراعى بقدر الامكان وضع مرحاض قريب من جناح المعيشة النهارية والاستقبالات • ويبدو أن الحمامات كانت تزود بها الطوابق العليا من البيوت التى اندثرت ، اذ لم يبق من آثار الحمامات فى الطابق الارضى سوى مثل صريح واحد (ش : ٢٦٨) ، وهو يوجد فى الزاوية الجنوبية الشرقية بجوار المرحاض ، وهو حجرة ليس لها الا باب واحد توصل اليها ممرات منكسرة ، وهى مستطيلة الشكل أبعادها نحو ٣٫٠٠ × ٢٫٥٠ مترا ، وبها دخلتان متقابلتان فى الجانبين القصيرين ، وفى وسطها حوض • كما توجد آثار أنبوبة فى الجدار تصل بين المرحاض والحمام •

أما طريقة التخلص من فضلات هذه الدورات سواء كانت مياها سائلة أو مختلطة بمواد صلبة فانها ، كما أشرنا من قبل ، كانت تسير فى أنابيب تحت الارض تؤدى الى المجارير • غير أن الافكار لم تكن متنبهة فى ذلك الوقت الى البعد بالمجارير عن الآبار التى تؤخذ منها المياه للشرب وللاغراض المنزلية الاخرى ، فقد كانت المسافات بينها قريبة لا تمنع من تسرب المياه من الواحد الى الآخر من خلال مسام الارض وبخاصة اذا لم تكن صماء تماما ، وهى حالات نادرة الحدوث ، ومن ذلك مثل واضح (ش : ٢٦٨ ، ٢٦٩) ، اذ يوجد البئران ملتصقان ببعضهما تماما ، أحدهما لاستخراج المياه والآخر لصرف الفضلات • وكل ذلك كان يساعد الى حد كبير على تلوث مياه الشرب ، فيتفاقم البلاء اذا ما وفد الى البلاد مرض وبائى ، فينتشر فيها بشكل مخيف ، ويؤدى الى وفاة الالوف بل عشرات ومئات الالوف من الناس فى وقت قصير • وقد سبقت الاشارة الى أن نشأة مدينة حلوان كانت نتيجة لانتشار مرض الطاعون أثناء العصر الاموى (ص : ٣٥٨) •



ش : ٢٧٨ ـ الفسطاط : قطعة من الجص عليها زخارف هندسية
(من أنقاض الدور المكتشفة)



ش : ٢٧٩ ـ الفسطاط : قطعة من الجص عليها زخارف هندسية
(من انقاض الدور المكتشفة)

كذلك ليس هناك مجال للشك فى أن بعضا من الدور التى كان يملكها الاثرياء وذوو المقدرة من الناس بوجه خاص كانت تحتوى على وحدات أخرى بالاضافة الى ملحقات التخديم على الوحدات السكنية • ومن تلك الوحدات الاضافية اسطبلات للدواب التى كانت تستعمل فى تلك الايام لنقل الماء والمواد اللازمة للمعيشة لاهل الدار ، ثم لحمل أفرادها فى تنقلاتهم ورحلاتهم • وكان من تلك الدواب الخيول والحمير والبغال ثم الابل أيضا التى كانت توضع فوق ظهورها الهوادج لتنقلات النساء ، والتى يوجد لها صور محفورة فى الخشب الفاطمى المحفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة [1] • ولا ريب أن الهوادج كانت معروفة من قبل العصر الفاطمى بدليل ما ذكر عن رحلة قطر الندى بنت خمارويه من الفسطاط الى بغداد (ص : ٤٢٧) •

وكان من البديهى أن تحتوى قصور الاغنياء ودور القادرين على اسطبلات تأوى تلك الدواب ، كما تحتوى على « حواصل » ، أى مخازن ، لحفظ المؤن الخاصة بأكلها ، ثم على حجرات لمن يقوم على خدمتها • ومن المرجح لدينا انه يوجد لها مثال فى جزء من الدار الأولى (ش : ٢٦٣) ويقع فى الجهة الشمالية الشرقية يصلح تماما لذلك الغرض ، ولعله شيد خصيصا لذلك اذ يوصل اليه ممر داخلى من الايوان الشرقى من البيت « د » كما يوصل اليه باب آخر يفتح على الزقاق الخارجى مباشرة•

ويوجد فى شمال هذا البناء ثلاثة دكاكين تتقدمها سقيفة على الطريق العام • وهناك رأى بان هذا البناء كان المقصود منه ان يكون بمثابة « وكالة » من التى يوجد بطابقها الارضى المتاجر وبطوابقها العلوية مساكن لعامة الشعب [2] • والحق أنه لا توجد لدينا أدلة واضحة تدعم هذا الرأى •

وأغلب ظننا كذلك أن المبنى الملحق بالدار السادسة (ش : ٢٦٨) كان يحتوى على مثل تلك الوحدات من المخازن والاسطبلات وغيرها ، فان لمبنى الملحقات هذا مدخلين أحدهما متصل بالبيت الرئيسى والآخر بعيد عنه •

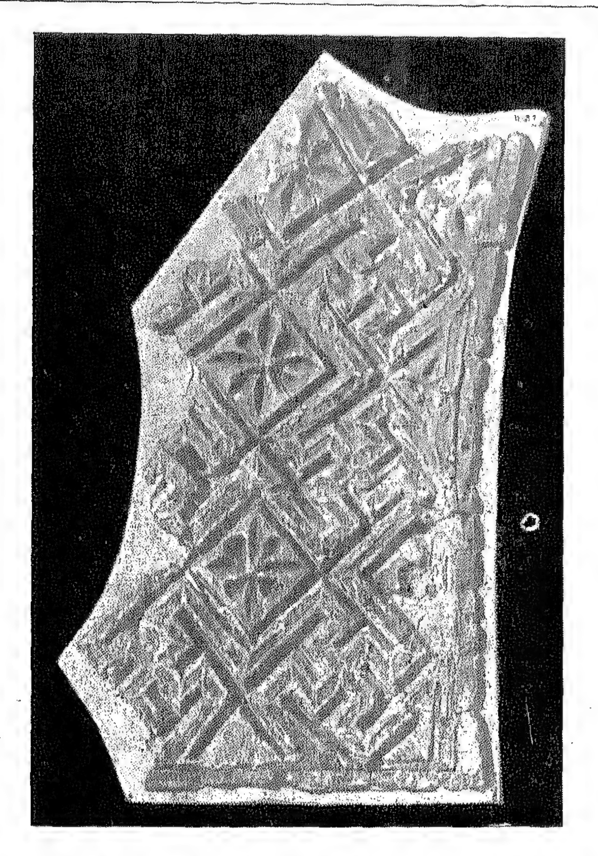
أما بقية البيوت والدور التى لم يتضح فيها آثار لملحقات من ذلك القبيل فان الراجح لدينا أن أصحابها كان بحوزتهم دابة تقف بجوار البيت اذا لم يكن لها مكان بداخله ، أو كانوا يلجئون الى كراء دواب النقل اذا ما احتاجوا اليها ، ومن البديهى أن يكون أمثال هؤلاء من متوسطى الحال •

وكانت الشاذروانات والفساقى وأحواض المياه المحاطة بأحواض الزهور من

---

(١) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ــ لوحات : Creswell : The Muslim Architecture of Egypt, vol. I, Pl. 38.

(٢) د. عباس حلمى : مخطوط الرسالة ، ص : ٥٠ ــ ٥٢ .



ش ٢٨٠ ـ الفسطاط زخارف هندسية من الجص حول عقد في الدار السادسة



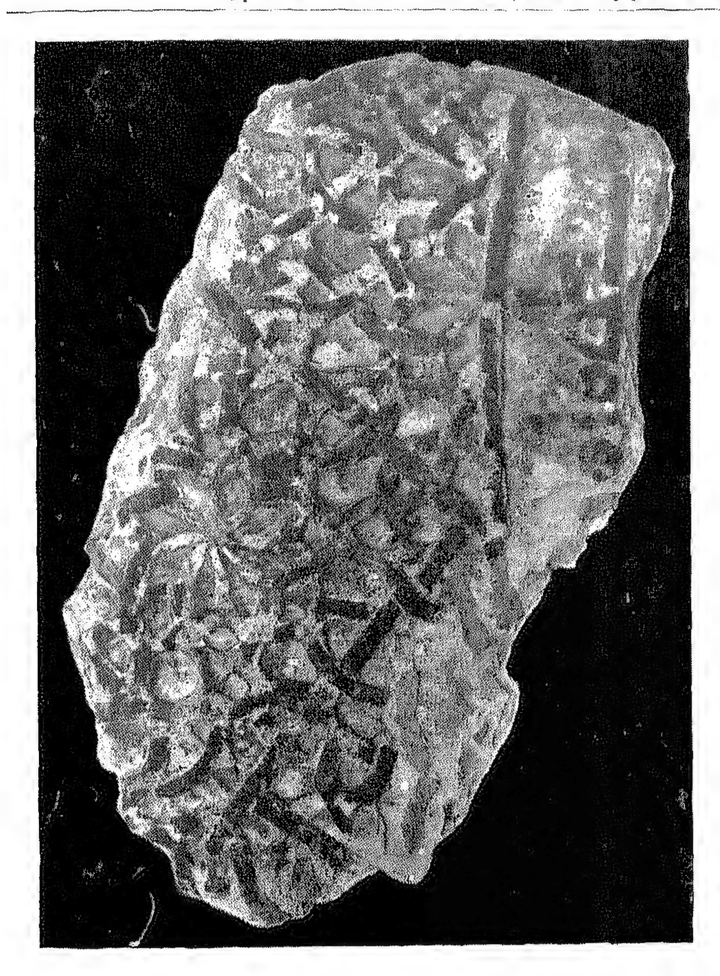
ش : ٢٨١ ـ الفسطاط : زخارف هندسية في الجص
(من أنقاض الدور المكتشفة)

العناصر ذات الأهمية الخاصة في الدور والبيوت لذوى المقدرة المالية • وهى عناصر ثلاثة كانت مترابطة مع بعضها فى أغلب الاحيان •

فالشاذروان بلاطة من حجر صلب أو من الرخام يحفر فى سطحها زخارف من أنواع مختلفة من هندسية ونباتية أو غيرها ، وينتج من حفرها قنوات غائرة متعرجة، وتوضع البلاطة منها فى صدر الايوان بحيث تميل على الجدار بزاوية تتراوح بين ١٥° و ٣٠° ، ويوضع عند حافتها العليا صنبور أو اكثر يأتى اليه الماء من صهريج خلف الجدار ، فيسيل الماء منه على سطح البلاطة وهو يسير متعرجا فى القنوات الدقيقة بين الزخارف مما يجعله يتمهل فى سيره لتزيد الفرصة لتبخره وبالتالى لتبريده فيلطف جو المكان فضلا عن خريره الهادىء ومنظره اللطيف وهو يسيل منحدرا متمهلا ، حتى ينتهى عند الطرف الاسفل من البلاطة ليسيل فى قناة تمتد على سطح أرضية الايوان وتصب فى حوض للماء ذى شكل هندسى منتظم وضع داخل الايوان (ش : ٢٦٥ ، ٢٦٨) أو فى وسط الفناء (ش : ٢٦٢ ، ٢٦٣/ جـ ، د ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧/أ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠) ، أو فى كل من الايوان والفناء • ويبدو أن بعض هذه الاحواض كان مزودا بنافورة فى وسطه ، اذ وجدت أنابيب للمياه وضعت رأسية فى جدر الافنية وتسير فى أرضيته حتى تتصل بالحوض وبأنابيب من الرصاص فى النافورة ليندفع منها الماء تحت ضغط ما فى الصهريج العلوى الذى أشرنا اليه من قبل• وكان الماء الفائض يصرف فى أنابيب أخرى حتى المجارير •

***

ومن ناحية الزخارف الداخلية فانه يبدو أن الاهتمام كان موجها بطبيعة الحال للعناصر الرئيسية من البيوت مثل الايوانات والقاعات التى تحف بها • من ذلك ماعثر عليه فى احدى قاعات البيت (ب) من الدار الثانية (ش : ٢٦٤ ، ٢٧٢) • فقد زينت بدخلات غائرة فى الجدران ، وتتوج تلك الدخلات عقود ذوات حليات قليلة أو كثيرة ، وهى تشبه فى ذلك ما عثر عليه فى بعض الجدران فى مدينة سامرا (ش : ٢٧٣) ، كما يغلب على ظننا ان بقية اسطح الجدران كانت مغطاة مثلما كان فى سامرا بزخارف محفورة أو مصبوبة من الجص ، غير أنه لم يعثر منها على أمثلة بها قطع ملتصقة بالجدران وقائمة فى مكانها سوى ما فى البيت الطولونى الأول (ش : ٢٥٩) وفى البيت الطولونى الثانى (ش : ٢٦١) • غير أنه عثر بين الانقاض فى أثناء الحفريات على قطع من الجص المحفور والمصبوب عليها زخارف من أنواع مختلفة ، منها قطعة عليها كلمة بالخط الكوفى الطولونى الصميم تقرأ « قصورا » (ش : ٢٧٤)، ولعلها كانت ضمن شريط من الكتابات الكوفية على هيئة ازار يتوج الجزء العلوى من



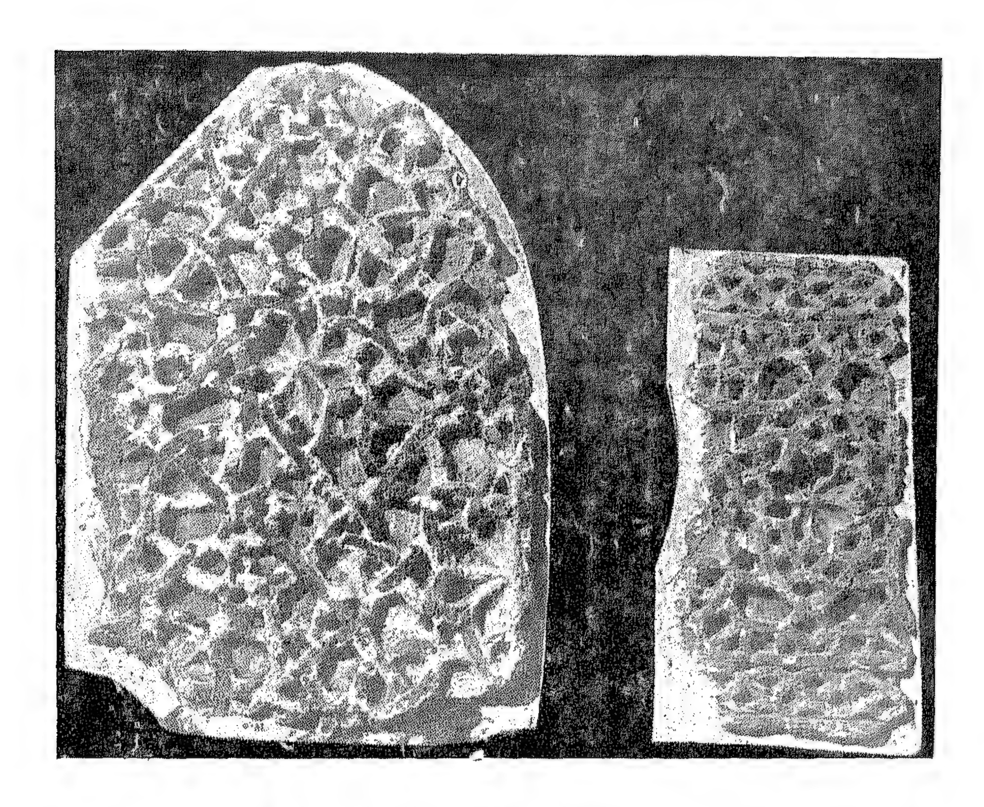
ش : ٢٨٢ ب الفسطاط : زخارف هندسية فى الجص حول عقد



ش : ٢٨٣ ب الفسطاط : زخارف هندسية فى الجص حول عقد (الدار الخامسة ـ ش : ٢٦٧)

القاعات والايوانات تحت السقف مباشرة ، ونرى له مثلا متكاملا فى جامع ابن طولون صنع من الخشب (ش : ٢٩٦) ، كما يغلب على ظننا أن تلك الكلمة المحفورة فى الجص كانت لفظا فى الآية التى جاء فيها ذكر الجنات وما فيها من قصور . كذلك عثر على قطع حفرت فيها زخارف نباتية من طراز سامرا الثالث النقى الصريح (ش : ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧) . كما وجدت أخرى كثيرة حفرت فيها زخارف هندسية (ش : ٢٧٨ ، ٢٨٨) ، ويسود تلك الزخارف الهندسية عنصر الخطوط المتكسرة على هيئة الصليب المعكوف الذى رأيناه من قبل فى الزخارف الاغريقية (ش : ٢٧)، والذى تطور منه الزخرف الاسلامى المعروف فى الاصطلاح الدارج « بالمفروكة ». غير أننا نلاحظ أن مجموعة من هذه القطع قد حفرت فيها الزخارف بطريقة تختلف عن تلك التى حضرت بها فى المجموعة الأخرى . أما الطريقة الأولى فان الأرضيات بين المستقيمات قد حفرت بطريقة الشطف الغائر ، مما يضع هذا الاسلوب ضمن الطراز الثالث السامرى (ش : ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨١) . والطريقة الثانية هى لصق قطع رفيعة طويلة كانها قوالب لبن أو آجر وضعت متعامدة ومتقابلة فوق أرضية مسطحة بحيث ينتج من تقابلها وتعامدها التكوين الهندسى الزخرفى المطلوب « ش : ٢٧٩ ، ٢٨٣ ، ٢٨٦) . ومن الاسلوب الأخير مجموعة من القطع الزخرفية التى قوام تكويناتها أقواس تتقاطع وتتشابك مع بعضها لينتج منها الاشكال الهندسية المطلوبة (ش : ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥) » ومما لا شك فيه أن بعضا من تلك القطع الجصية المزخرفة كانت تزين واجهات عقود وحشوات بينها (ش : ٢٧٧ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٨) ، ولعل بعضها كان يزين فتحات تطل على الفناء ، وكان بعض آخر يزين جدرانا داخلية. اما بقية القطع فكانت تغطى أسطح الجدران اما على هيئة أشرطة أو حشوات أو غير ذلك .

كذلك لا يداخلنا شك فى أن البيوت والدور كانت تزين وحداتها المعمارية بقطع من الخشب على هيئة أشرطة وايزارات وحشوات ، وكان بعضها مزخرفا بالحفر أو بالالوان والذهب أو بهما معا . فانه يوجد بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة قطع لا حصر لها زخرفت بزخارف نباتية من طراز سامرا الثالث النقى محفورة أو مدهونة بالالوان ، وأغلب الظن أنها من القطع التى سلمت من الفناء بسبب انتزاعها من أماكنها الاصلية ليعاد استعمالها فى عمائر أخرى فى عصور تالية للعصر الطولونى الذى صنعت فيه. ومن المرجح لدينا كذلك أن بعض القطع الجصية كانت زخارفها المحفورة مدهونة بالالوان المختلفة وبعضها مذهب ، فقد عثر على بقايا ألوان وذهب فى الاشرطة الكوفية فى أعلى بئر مقياس النيل بالروضة (ش : ٢٢٦ ، ٢٢٧) .



ش : ٢٨٤ ، ٢٨٥ ـ الفسطاط : زخارف هندسية فى الجص



وكانت النوافذ والشبابيك فى الحجرات والوحدات السكنية المختلفة تفتح بوجه عام على الأفنية الوسطى ، وكانت تزود غالبا بنوع من المشربيات الدقيقة الصناعة والغالية الثمن اذا ما صنعت من الخرط الواسع أو الضيق المعشق مع بعضه ، وذلك فى بيوت الأثرياء وذوى المقدرة المالية الكافية ، واما بنوع رخيص من المشربيات يتكون مما يسمى « بالخرازانات » أو العصى ذوات القطاعات نصف الدائرية وعرضها نحو سنتيمترين ، توضع بجوار بعضها على مسافات تبلغ نحو سنتيمترين آخرين وعلى زاوية ٤٥° فى الوجه الخارجى ومثلها فى الوجه الخلفى ، فيتكون من ذلك كله مايشبه المشربية ، وهى طريقة رخيصة الثمن نسبيا • ولا يزال يوجد لها أمثلة فى بعض الاثار الباقية من وكالات مملوكية وغيرها • هذا وكان يضاف الى تلك المشربيات ، وبخاصة فى حجرات النوم ، ضلف من الخشب بكل منها ثقب أو أكثر على شكل هندسى منتظم مثل نجمة أو مربع أو مثمن الخ •• ، وذلك لاتقاء البرد • ولا زال من ذلك أمثلة فى الارياف حتى الآن • وكذلك كانت الابواب التى يراد اغلاقها • ومن الطبيعى أن لا يعثر على شباك أو مشربية أو باب فى أثناء الحفريات للاسباب التى سبق ذكرها عند الحديث عن الأسقف الخشبية من أن الأشياء المصنوعة من الخشب كانت عرضة للزوال السريع قبل غيرها •

***

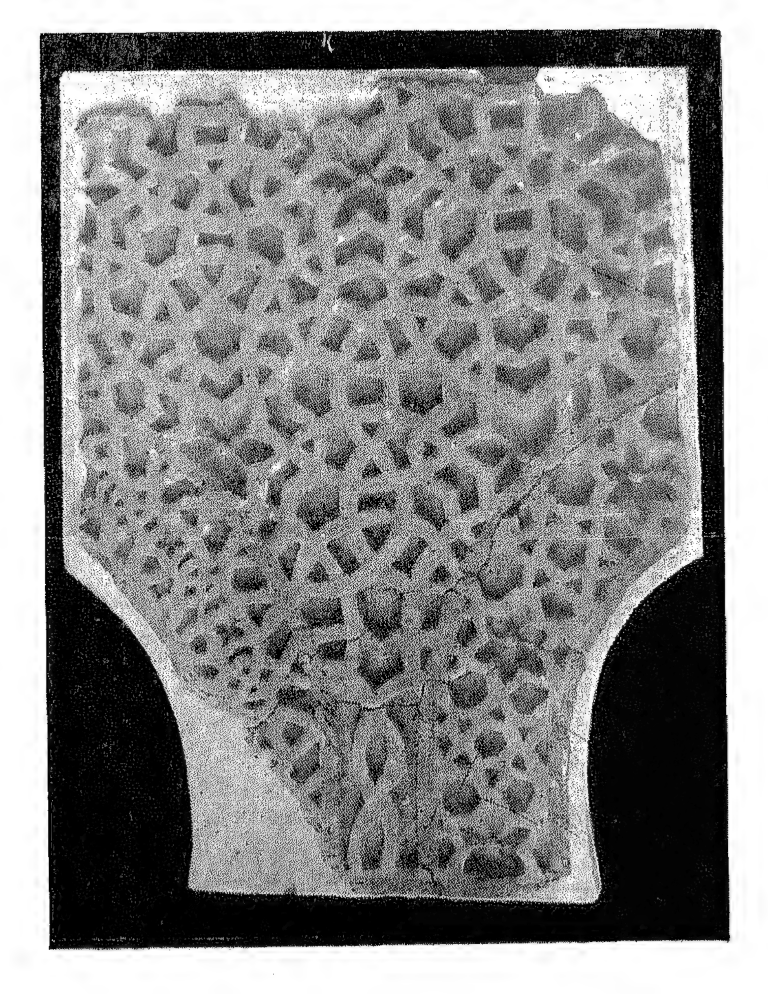
ونصل فى نهاية هذا الحديث عن بيوت دور الفسطاط الى موضوع تأريخها لما له من أهمية قصوى فى تاريخ وتطور العمارة العربية الاسلامية فى مصر فى العصور التالية للعصر الطولونى ، وهو الموضوع الذى ذكرنا من قبل أن على بهجت والبير جابرييل قد ذهبا فيه الى نسبة البيوت والدور الى فترة تشمل العصر الطولونى والفاطمى ، ثم حصر الاستاذ كريسول التاريخ فى القرن الخامس الهجرى (١١م) ، ثم نسبها الدكتور عباس حلمى كلها الى العصر الطولونى •

ومن البديهى أن مناقشة تاريخ البيوت والدور سيكون الاعتماد فيه على تخطيط المساقط الافقية أولا ثم على ما عثر عليه من آثار معمارية وزخرفية فيها •

فمن ناحية تخطيط المساقط الافقية فقد أشرنا من قبل الى أن هناك نموذجين رئيسيين لها : أحدهما هو الذى يوجد فيه جناحان رئيسيان يتكون الواحد منهما من السقيفة التى تتقدم ايوانا أوسط وعلى جانبيه حجرتان ، ووضع كل جناح منهما فى الجانب القصير من الفناء المستطيل الذى يتوسط البيت ، (ش : ٢٦٠ ، ٢٦٨) • أما الاضلاع الطويلة للافنية فقد رصت عليها وحدات البيت الاخرى من حجرات وملحقات • والنموذج الثانى يوجد فيه جناح واحد ذو سقيفة فى أحد أضلاع الفناء



ش : ٢٨٧ ــ الفسطاط :
زخارف هندسية فى الجص

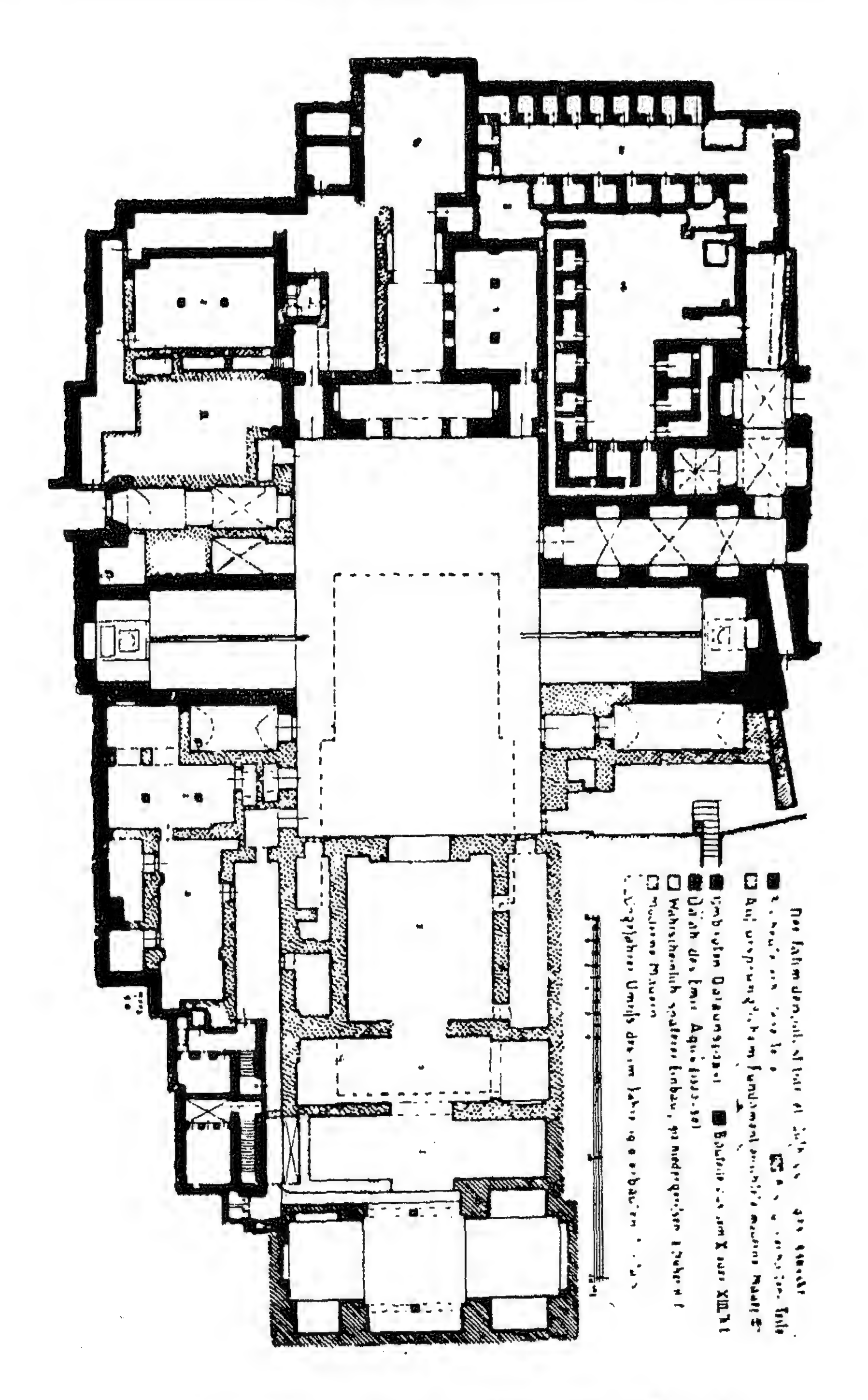


ش : ٢٨٨ ــ
الفسطاط :
زخارف هندسية فى
الجص حول عقدين
وحشوة بينهما

ووضع في الاضلاع الباقية ايوانات عميقة أو ضحلة على هيئـة دخلات غائرة حسب ما تسمح به مساحة الارض التي شيد عليها البناء ، مما يمكن معه تسـميته بالنموذج ذى الايوانات الاربعة لانتشـاره فى أغلب الدور والبيوت (ش : ٢٦٣ ـ ٢٦٩) • وتختلف البيوت الباقية فى عدد الايوانات وأشكالها وطريقة توزيعها •

وقد أصبح تاريخ النموذج الاول ذى الجناحين فحسب من الامور السهلة وذلك بفضل اكتشاف الزخارف الطولونية الملتصقة بجدار احد امثلته وهو البيت الطولونى الثانى ، وعلى أساسه يمكن تاريخ المثل الثانى منه وهو الموجود فى الدار السـادسـة (ش : ٢٦٨) ونسبته أيضا الى العصر الطولونى • وتلك خطوة هامة فى سبيل تاريخ باقى الدور التى تبدو لاول وهلة صعبة التاريخ غامضة ، لانه لم يعثر فى أى منها على قطع زخرفية ثابتة فى مكانها مثلما حدث فى البيت الطولونى الاول والثانى • غير أن العثور على تلك الزخارف بين الانقاض يمكن أن يستغل للاهتداء الى تاريخها أيضـا بالاضافة الى تأريخ البيت فى الدار الثـانية الذى يمثل همـزة الوصل بين النمـوذج الطولونى الاول وبين النموذج الثانى الذى بنيت عليه بقية البيوت ، ذلك ان على بهجت والبير جابرييل قد فاتهما أن يسجلا الأماكن التى عثرا فيها على القطع الجصية المحفور فيها الزخارف الا ما عثرا عليه فى البيت فى الدار السادسة والدار الخامسـة ، وكلها فيما عدا قطعة واحدة ، تحتوى على زخارف هندسية وهى جزء من اطار عقد يحتوى على زخرف كؤوس متلاصقة ، ويتضح فيه علاقته الوثيقة بطراز سـامرا الثالث من حيث تلاصق الكؤوس وخروجها من بعضها ، فضلا عن طريقة الحفر المشطوفة الذى يمتاز بهذلك الطراز ، وتعد تلك القطعة دليلا آخر يعزز نسبة هذا البيت السادس الى العصر الطولونى • اما بقية القطع الجصية ذات الزخارف الهندسية والتى يتصـدرها عنصر المستقيمات المتكسرة فانها قد صنعت ، كما سلف القول ، بطريقتين الأولى بطريقة الشطف والثانية بطريقة اللصق ، وجود الطريقتين معا فى انقاض هذا البيت يجعلهما من نفس العصر الطولونى ، كذلك يمكن نسبة الدار الخامسة أيضا الى العصر الطولونى وهى الدار التى تحتـوى على بيتين من النمـوذج الثـانى من التخطيط أى من ذى الايوانات الأربعة ، والتى عثر فيها على زخارف جصـية من العناصر الهندسـية التى صنعت بطريقة اللصق (ش : ٢٨٣) •

وكل ذلك يوصلنا الى معرفة أن النموذج ذا الايوانات الاربعة قد ظهر فىالعصر الطولونى • ولـكن على الرغم من ذلك فـانه من التطرف القـول بأن جميع الدور والبيوت التى كشفها على بهجت وجابرييل ترجع الى العصر الطولونى ، وكل ما يمكن



ش : ٢٨٩ ـ القاهرة الفاطمية : بقايا القصر الفاطمى الغربى

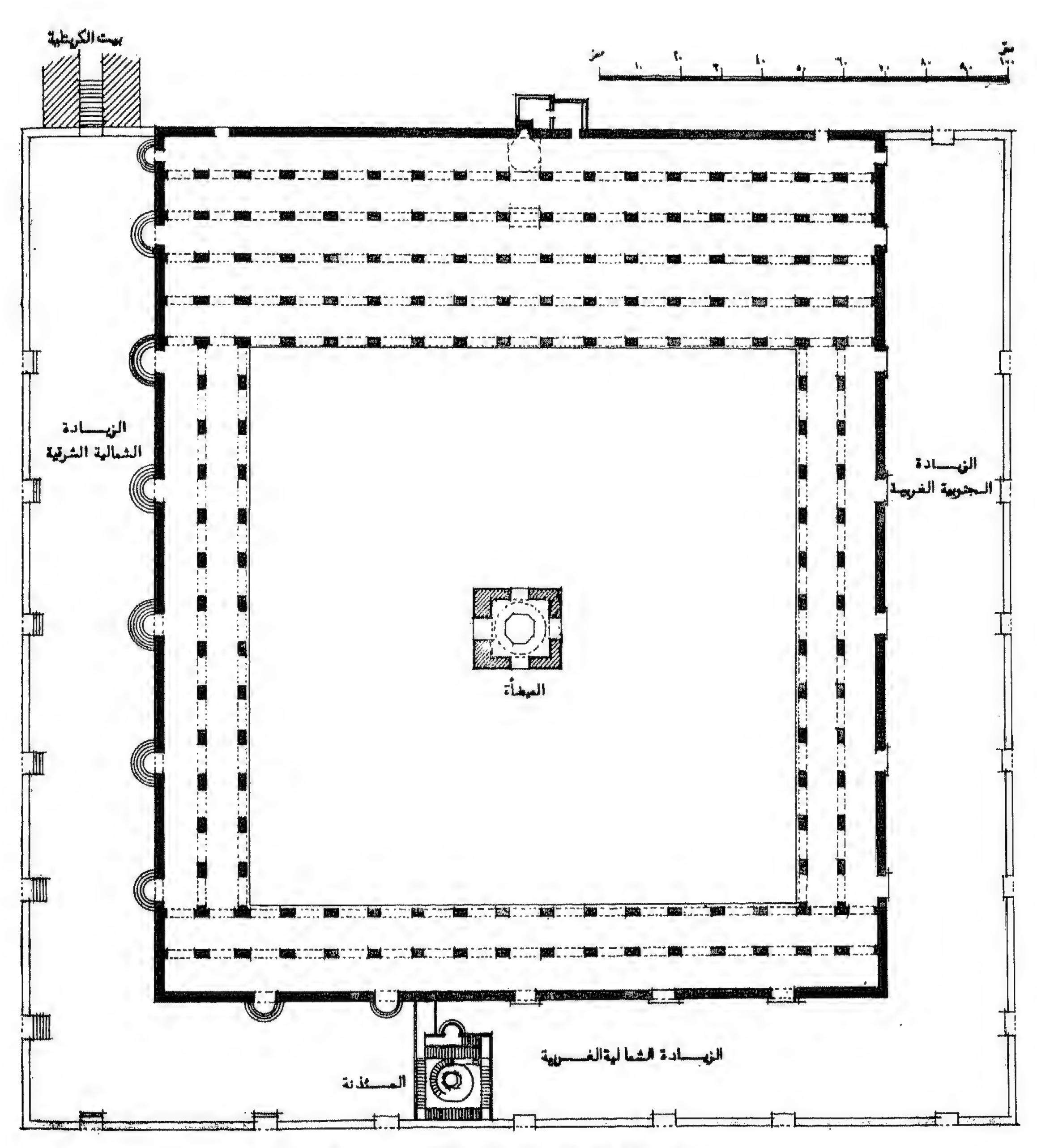
قوله هو أن بعضا من تلك الدور قد شيد فى العصر الطولونى وأن بعضا آخر قد شيد فى عصور تالية على النموذج الطولونى ذى الايونات الأربعة ، فانه لا يمكن اهمال المخلفات الأثرية الاخرى التى عثر عليها بين الانقاض ايضا وترجع الى العصر الفاطمى مثلا • وأغلب الظن ان هذا النموذج الطولونى الثانى قد ظل مستعملا لبناء الدور حتى العصر الفاطمى بدليل وجوده فى بقايا من القصر الغربى الصغير الذى بناه العزيز بالله لابنته ست الملك ، والذى عنى الأثرى ماكس هرتز بتسجيله (ش : ٢٨٩) ، وعارضه الاستاذ كريسول فى نسبة تلك البقايا الى العصر الفاطمى مرجحا نسبتها الى العصر المملوكى ، وفى رأينا ان هرتز كان محقا فى رأيه • وسنناقش ذلك فى الجزء الثانى من الكتاب فى القسم الخاص بالعصر الفاطمى •

وبثبوت وجود المسقط ذى الايونات الأربعة تتزعزع نظرية للاستاذ كريسول يقول فيها [١] ان مسقط العمائر الدينية من مدارس وخانقاوات ومساجد والذى يتكون من أربعة ايوانات وظهر فى أوائل العصر المملوكى قد تطور من التخطيط المكون من ايوانين فحسب والذى ظهر فى العصر الفاطمى وكانت تبنى عليه المساكن فى ذلك العصر ، ثم اقتبسه صلاح الدين الايوبى للمدارس السنية الذى نشط فى بنائها لمقاومة المذهب الشيعى بعد ان قضى على الخلافة الفاطمية • ويتمسك الاستاذ كريسول بشدة بهذه النظرية ولا يلقى بالا الى وجود الايوانات الاربعة فى البيوت التى كشفها على بهجت والبير جابرييل فى الفسطاط ونسبها هو الى القرن الخامس الهجرى (١١ م) بعد ان اتى برسوم تلك التخطيطات ذات الايوانات الاربعة فى كتابه عن العمارة الفاطمية [٢] ، وبذلك تصبح نظريته هذه التى ضمنها فى الجزء الثانى من نفس الكتاب فى موضوع المدارس فى العصر الايوبى ليس لها مكان فى تطور العمارة العربية الاسلامية ، لا فى مصر فحسب بل وفى العالم الاسلامى كله ، وبخاصة بعد ما ثبت آن المسقط ذا الايوانات الاربعة له أمثلة مؤكدة تعود بتاريخه الى القرن الثالث الهجرى (٩ م) ، وبذلك يسبق الامثلة الاخرى فىأقطار العالم الاسلامى فى العراق وفارس التى وجدت فى مدارسها قبل العصر الايوبى ، وكان فيها ايوانات اربعة ولكن على هيئة وبنسب معمارية مختلفة عن التكوين المعمارى فى مصر سواء فى العصر الطولونى أو فيما بعده من العصور التى وصلنا منها امثلة صريحة للعمائر التى شيدت على ذلك النظام المعمارى (ش : ١٧٠ - ١٧٢) •

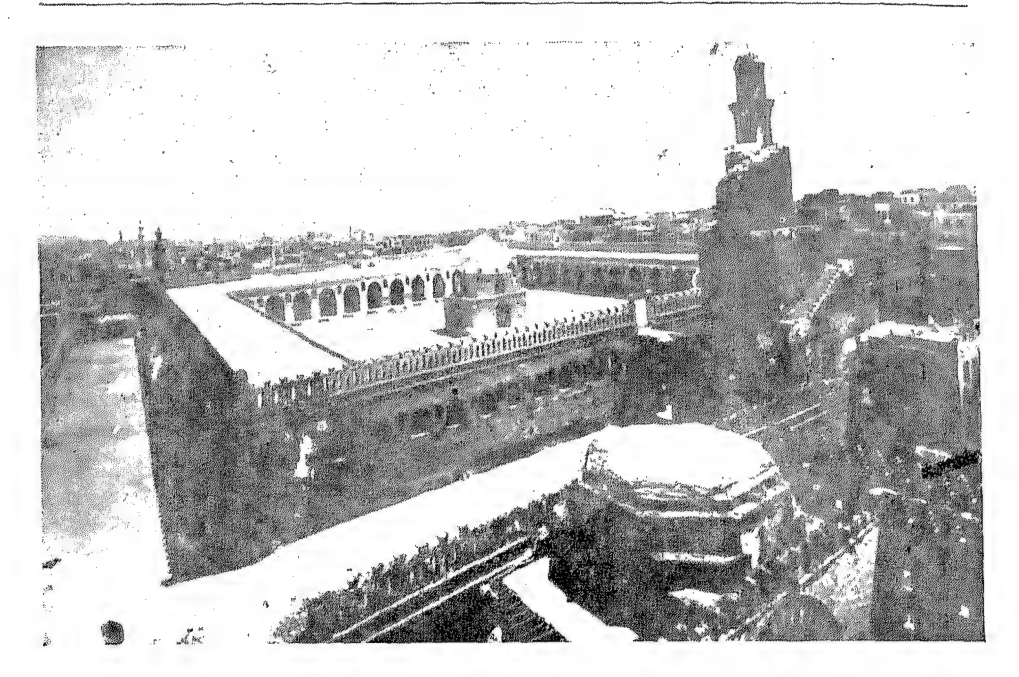
---

(١) M.A. Eg., I, pp

(٢) Ibid., pp.



ش : ٢٩٠ ـ القطائع : جامع ابن طولون (المسقط)



ش : ٢٩١ ـ القطائع : جامع ابن طولون (منظور عام)

***

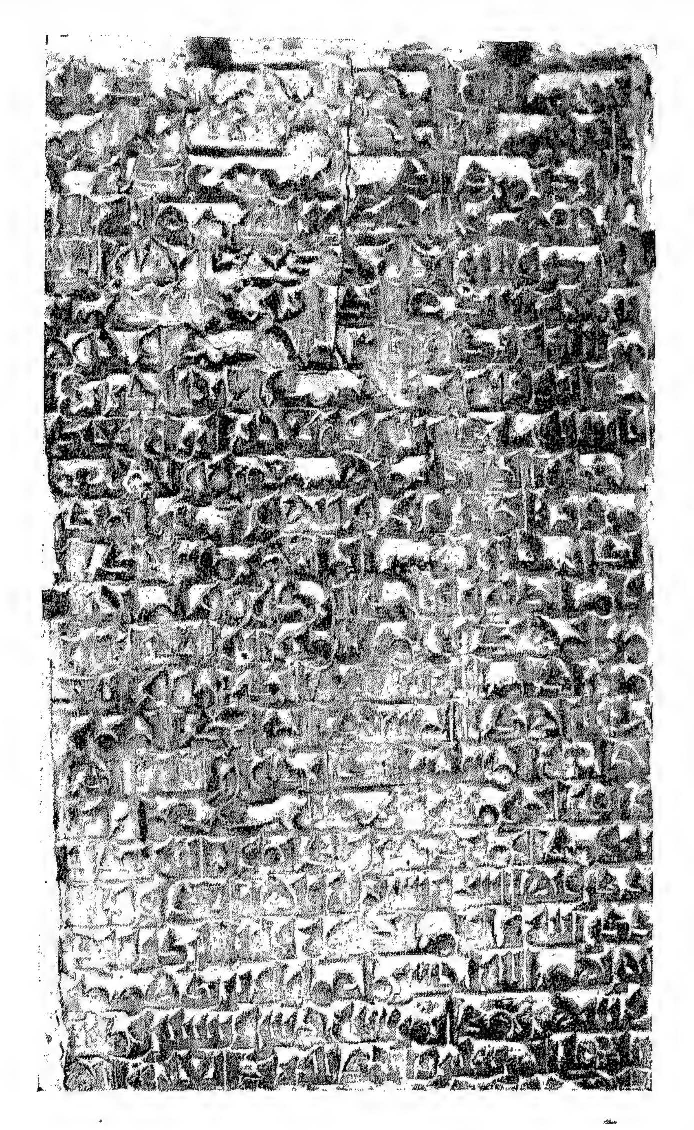
جامع أحمد بن طولون :

يتجلى تأثير التطورات التى حدثت فى سامرا على العمارة والفنون فى مصر فى الجامع الذى شيده أحمد بن طولون على تلك المساحة العظيمة ، فوق هضبة تتوسط القطائع عرفت بجبل يشكر ، نسبة الى قبيلة يشكر بن جزيل من عرب الشام الذين أسلموا والتى سكنت بالقرب منه منذ الفتح العربى • وكانت تسمى المنطقة فى جنوب الهضبة بالحمراء القصوى (ص : ٣٤٨) •

بدأ أحمد بن طولون فى بناء جامعه سنة ٢٦٣ هـ (٨٧٦ م) بعد أن شكا الناس اليه من ضيق جامع العسكر بهم • وكمل بناؤه فى سنة ٢٦٥هـ (٨٧٩م) • ويؤيد ذلك

(١) محمود عكوش : الجامع الطولونى (١٩٢٧) ، زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر (١٩٣٥) ، ص ٢٣ ، ٣٥ ـ ٥٤ ، لوحات ٦ ـ ١٢ ، ١٧ ـ ١٨ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١/ص ٣١٩ ـ ٣٢٠ ، جـ ٢/ص ٢٦٥ ـ ٢٦٩ ، ابن دقماق :

Hautecoeur et Wiet: Les Mosquées du Caire, I,pp. 208-216; II, Fig. I, Pls. 2-8; E.M.A., II, pp. 322-359, Figs. 254-257, Pls. 96-114, 122 ; Creswell : A Short Account of Early Muslim Architecture, pp. 302-317, Figs. 61-64, Pls. 66-72.



ش : ٢٩٢ ــ القطائع : جامع ابن طولون ــ لوحة النص التسجيلي لبنائه .

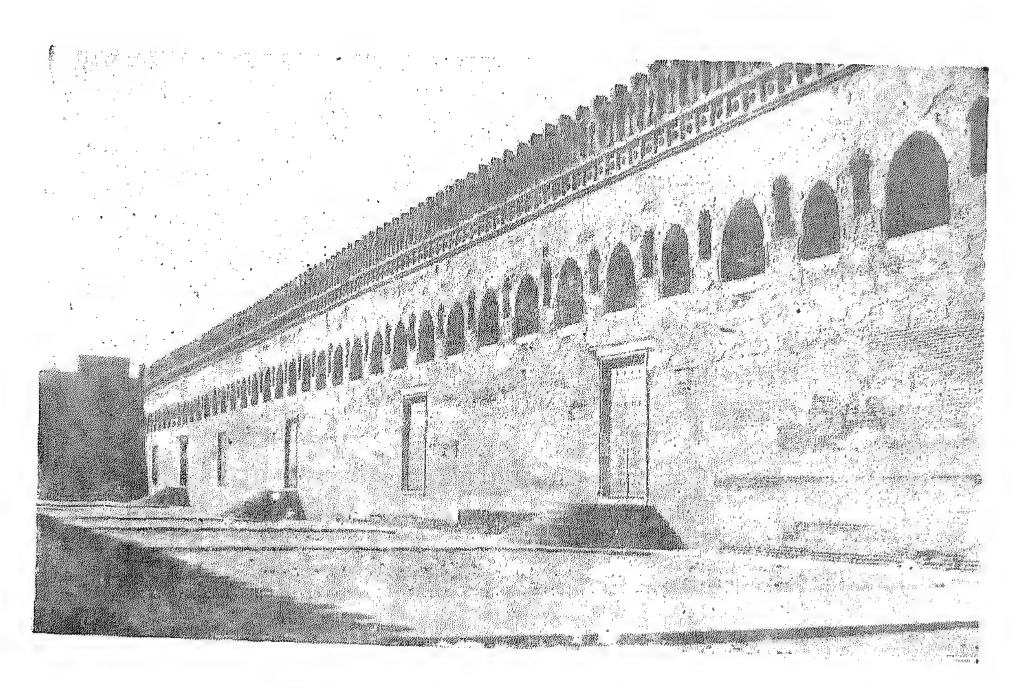
ما هو مسجل بالخط الكوفي في لوحة التأسيس المثبتة فوق احدى بدنات رواق القبلة (ش : ٢٩٢) [1] .

واختار ابن طولون تلك الهضبة التي كانت تشرف على العسكر وعلى الميدان الذي أنشأه أمام قصره ، ومن ثم فقد سمى في ذلك الحين بجامع الميدان . ويغطي الجامع مع الزيادات المكشوفة المسورة التي تحيط به من جهاته الثلاث : الشمالية

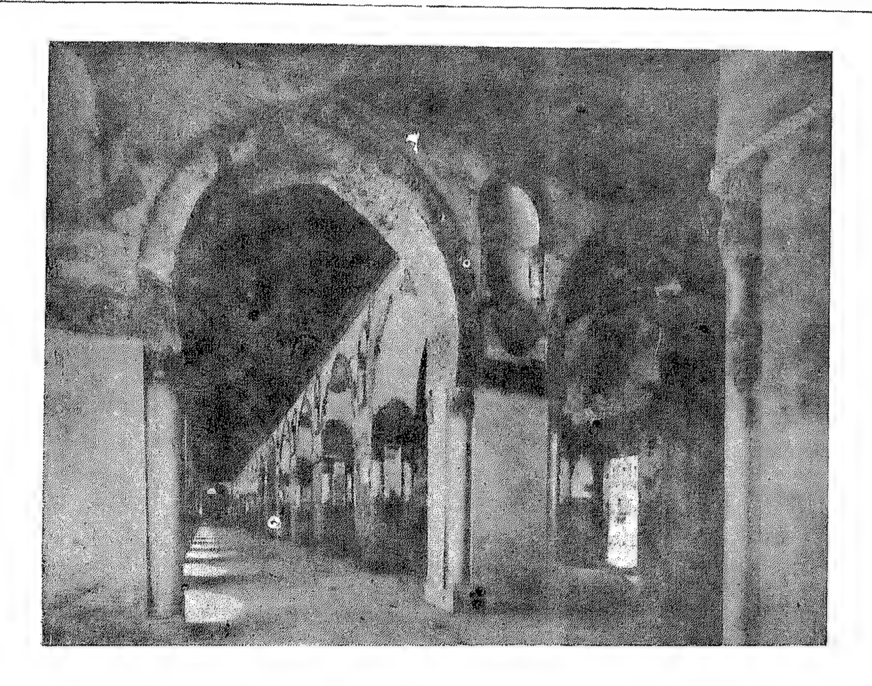
(١) يوسف احمد . جامع احمد بن طولون (٩٢٧) ، ص ٢٩ ــ ٣١ محمود عكوش ، الجامع الطولوني ، ص ٢٣ ــ ٢٤ ، لوحة ٢ زكي محمد حسن : الفن الاسلامي في مصر ، لوحة ١٠ ، E.M.A., II, p. 335 ; Répertoire, II, pp. 197-199.



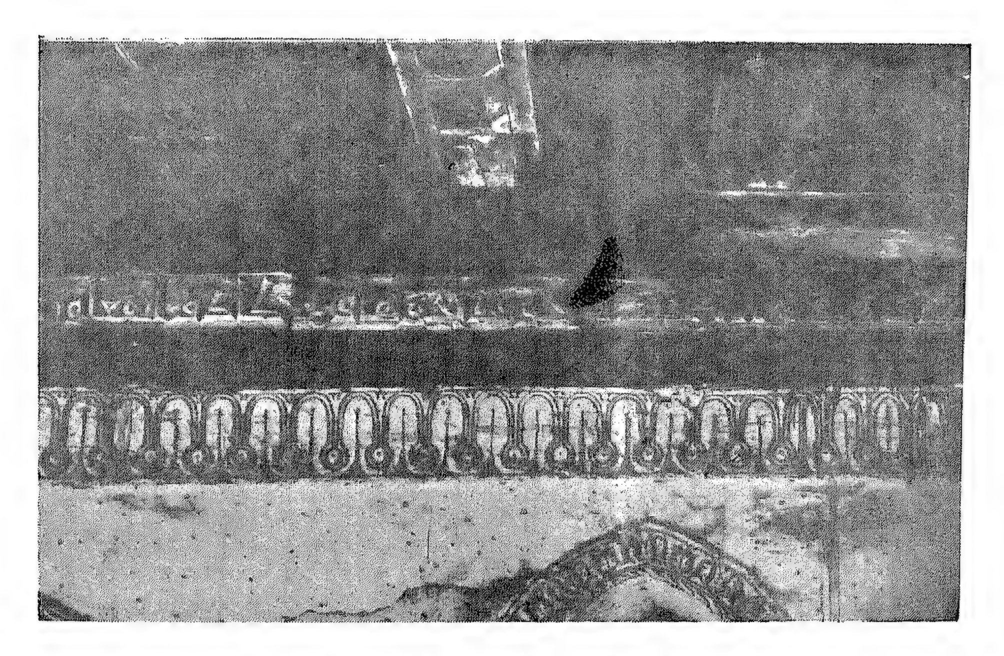
ش : ٢٩٣ ـ لوح النص التسجيلى لأعمال بدر الجمالى



ش : ٢٩٤ ـ الواجهة الشمالية الشرقية من داخل الزيادة



ش : ٢٩٥ ـ ظلة جانبية من داخل الجامع



ش : ٢٩٦ ـ السقف الخشبي (مجدد) وشريط كتابة كوفية في الخشب .

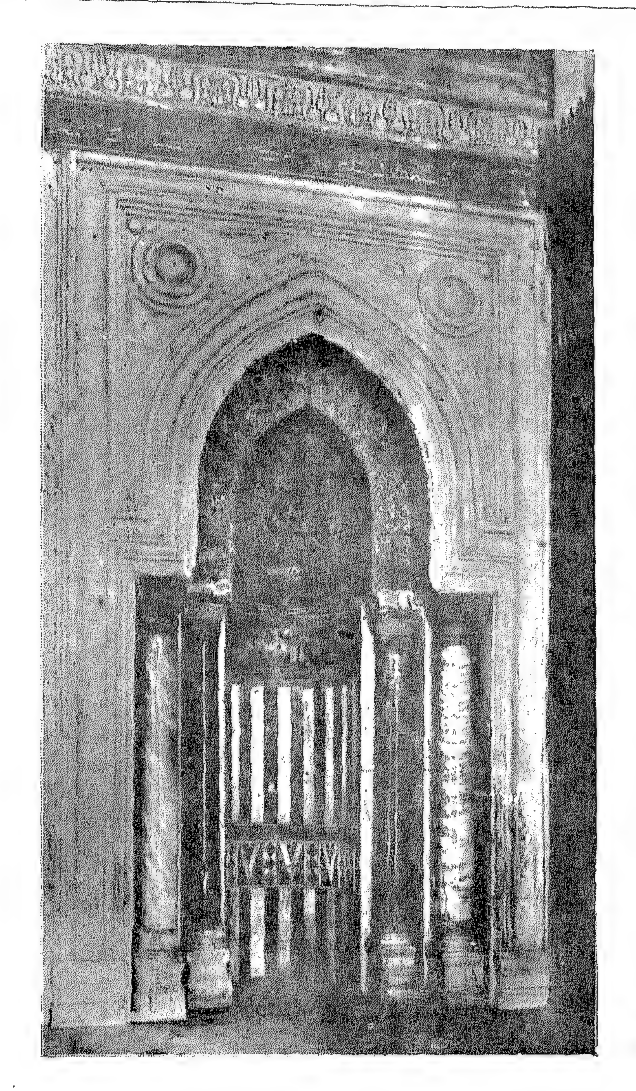


ش : ٢٩٧ ـ حنية ذات فصوص مروحية فى الواجهة الخارجية

الشرقية والشمالية الغربية والجنوبية الغربية مساحة تبلغ نحو ستة أفدنة ونصف ، وهى على هيئة مربع طول ضلعه ١٦٢ مترا . أما الجامع نفسه فهو قريب من مستطيل يبلغ طول جدار القبلة نحو ١١٨ مترا والضلع العمودى عليه نحو ١٣٨ مترا (ش : ١٦٤ و ٢٩٠) [1] . وترتفع جدرانه الى قمة شرفاته فوق سطحه نحو ١٣ مترا من منسوب أرضية الأروقة الداخلية . ويزيد ارتفاع الجدار الشمالى فى الجهة الشمالية الشرقية ، مما دعا الى عمل سلالم أمام الأبواب فى تلك الجهة فقط (ش : ٢٩٤) .

وتبع تخطيط مسجد ابن طولون النظام التقليدى المكون من الصحن المكشوف والظلات المسقوفة المحيطة به . وهو التخطيط الذى كان سائدا فى العالم العربى الاسلامى فى المشرق والمغرب منذ أن شيد الرسول مسجده بالمدينة (ص : ٦٥ ،

(1) E.M.A., II, Fig. 257.



ش : ٢٩٨ — المحراب المجوف

ش : ١ — ٤) ، وبقى مستعملا للمساجد حتى بعد ظهور المسقط ذى الايوانات فى حوالى القرن السادس الهجرى (١٢ م) ، (انظر ص : ٢٥١ ، ش : ١٧٠ — ١٧٢) •
• (١٧٢

ويتميز جامع ابن طولون بوضوح نضج كبير فى جملة نواح معمارية وزخرفية، ويتجلى هذا النضج فى حسن اختيار موقعه وتصميمه وأسلوب بنائه وطلاوة عناصره الزخرفية والمعمارية ، مما جعل له شخصية ذات طابع محلى صريح ، على الرغم من وجود تأثيرات ليست بالقليلة جاءت اليه من سامرا •

خطط جامع ابن طولون (ش : ١٦٤ ، ٢٩٠) على هيئة مربع مثل المساجد الأولى فى المدينة المنورة (ش : ٣ ، ٤) ، والبصرة والكوفة (ش : ١٦٢) ، وبغداد

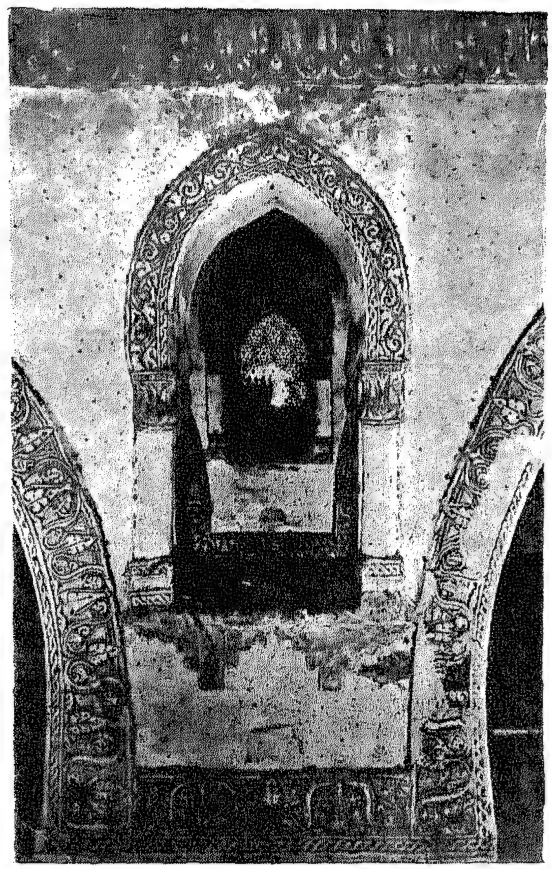


ش : ٢٩٩ — دكة المبلغ وبدنات وعقود بوائك فى ظلة القبلة

وواسط وجامع عمرو بن العاص فى شكله الأخير (ش: ٢٠٦) ، والتى اندثر معظمها، بينما خط كل من جامع سامرا الكبير وجامع أبى دلف هناك على هيئة مستطيل عظيم تبلغ مساحته أكثر من ضعف مساحة جامع ابن طولون. كذلك وزعت الأروقة فى ظلات جامع ابن طولون بطريقة تختلف عن توزيعها فى كل من جامع سامرا الكبير (ش : ١٦٣) ، وجامع أبى دلف (ش : ١٦٩) ، وتقرب كثيرا مما كانت عليه فى مساجد البصرة والكوفة وجامع المنصور فى بغداد قبل توسيعه الى ضعف ما كان عليه [١] .

يتكون جامع ابن طولون (ش : ٢٩٠) من صحن كبير مكشوف مربع يبلغ طول ضلعه نحو ٩٢ مترا وتحيط به الظلات من جوانبه الأربعة . وأكبر ظلة فيه وأعمقها هى التى جهة القبلة ، اذ تنقسم الى خمسة أروقة بواسطة خمس بائكات توازى جدار القبلة ، كل بائكة منها تتكون من ١٧ عقدا مدببا تحملها « بدنات » ، أى اكتاف بنائية مستطيلة المسقط شيدت من الآجر (ش : ٢٣٥ ، ٢٩٥ ، ٢٩٩) ، أى الطوب الأحمر أو المحروق . وتتكون نواصى البدنة منها من أعمدة قطاعها الأفقى من ثلاثة أرباع الدائرة . وخفف ثقل البناء فوق البدنات وبين العقود بعمل فتحات

(1) Sarre and Herzfeld : Archaeologische Reise im Eufrat und Tigris-Gebiet, II, Fig. 184 ; E.M.A., II, pp. 52-33, Fig. 24.

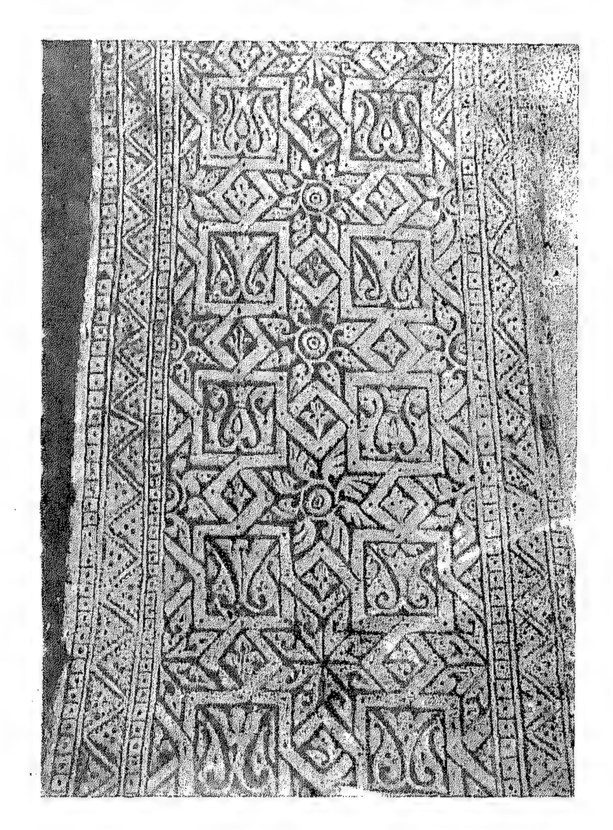


ش : ٣٠٠ ـ نافذة في أعلا بدنة

صغيرة ذوات رؤوس من عقود مدببة تساعد أيضا على اضافة بعض الضوء الى داخل أروقة ظلة القبلة العميقة (ش : ٣٠٠) • وهو نفس النظام الذى يوجد فى بائكات الظلات الأخرى ، التى تتكون كل منها من رواقين فقط (ش : ٢٩٥) •

وتوجت جميع البائكات من الوجهين ، فيما عدا الواجهة على الصحن وكذلك أوجه الجدران الداخلية ، بشريط من زخارف جصية يسير فوق قمم اطارات العقود مباشرة ، ثم يأتى فوقه ايزار أو شريط من الخشب وضع تحت السقف • ويزيد مجموع أطوال تلك الايزارات على كيلومترين ونصف • وقد كتبت عليها آيات قرآنية بخط كوفى بسيط حروفه بارزة (ش : ٢٩٦) [1] كما بقى من السقف بعض منه أخذ نموذجا لتجديد بقية السقوف التى بليت مع الزمن • وكان سقف الرواق الواحد فى كل ظلة يتكون من كمرات عرضية تحصر بينها حشوات مستطيلة تنقسم الى مجموعة من مربعات متلاصقة ذات غور قليل (ش : ٢٩٦) •

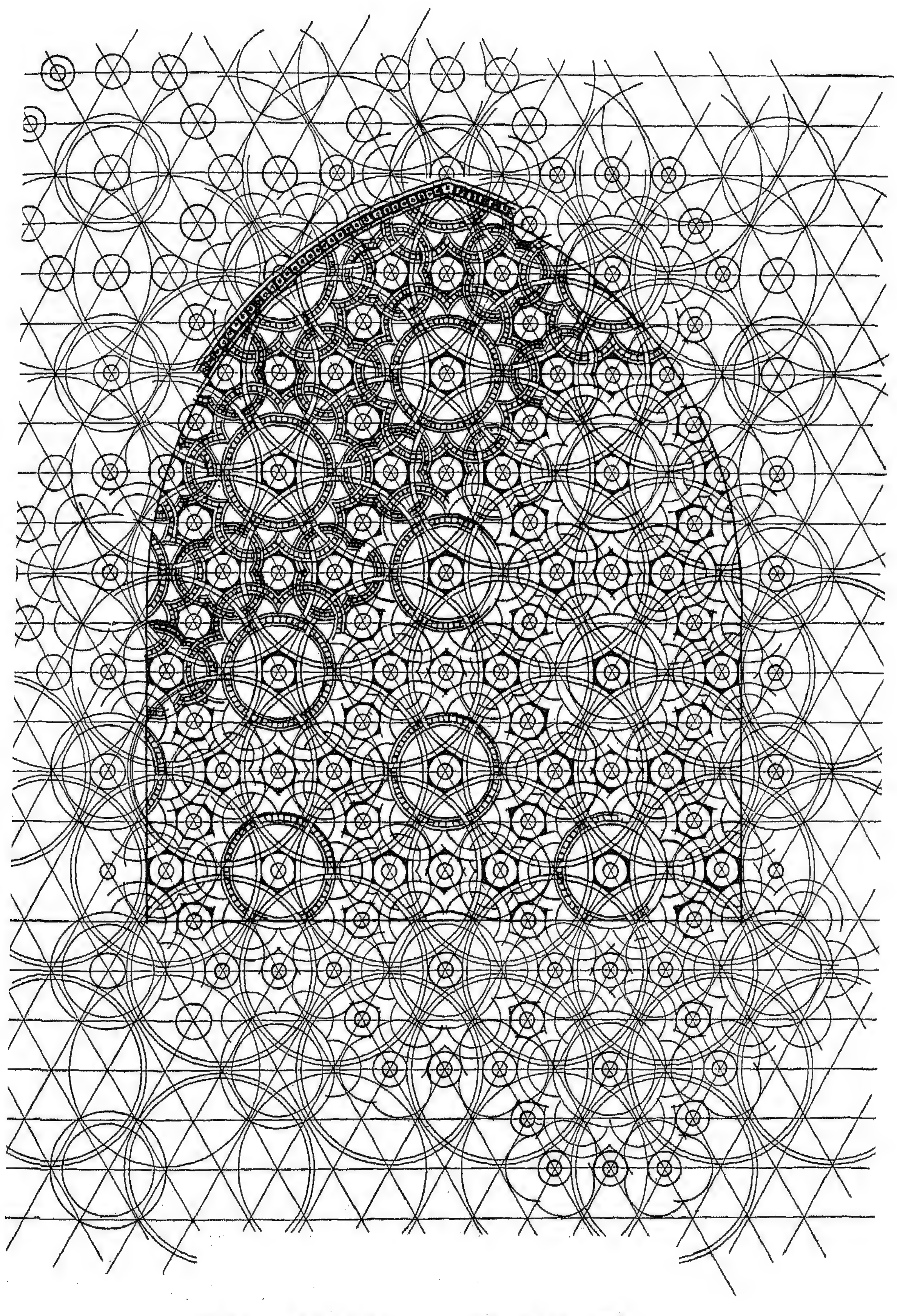
(1) E.M.A., II, Pl. 102.



ش : ٣٠١ –
باطن أحد العقود

وزينت واجهات بائكات الأروقة على الصحن (ش : ٣١١) بشريط أفقى يأتى تحت مستوى سطح المسجد مباشرة ويتكون من حشـوات مثمنـة متلاصقة غـائرة ٠ ولا يعرف ما اذا كانت تلك الواجهات قد زودت فى الأصل بشرافات ذات شكل خاص لأنها اندثرت ولم يبق لها أثر ٠ بينما زودت النهايات العليا لجدران المسجد الخارجية بأشرطة من الحشوات الهندسية ، تعلوها دروة السطح المكونة من شرافات فريدة فى نوعها ولا يوجد لها مثيل فى العالم الاسلامى ، ويسميها الناس بالعرائس (ش : ٢٩٣ ، ٢٩٤) ٠ لأنها تشبه أشكالا آدمية تجريدية تتلاصق أيديها وأرجلها ٠

وقد وضع فى النصف العلوى من تلك الجدران الخارجية صف من الشـبابيك ذات العقود المدببة (ش : ٢٩١ ، ٢٩٤ ، ٣٠٨ الخ) ، وفى نواصيها أعمدة ملتصقة قصيرة تشبه تلك التى فى حنيات الواجهات فى جامع عمرو بن العاص (ش : ٢١١ – ٢١٤) وفى مقياس الروضة (ش : ٢٢٧) وكذلك وضعت بين شـبابيك جامع ابن طولون حنيات غائرة لها طواقى مروحية من ضلوع وقنوات (ش : ٢٩٧) تقدمت فى طريق التطور عما كانت عليه حنيات واجهات عمرو بن العـاص (ش : ٢١١ – ٢١٤) ٠



ش : ٣٠٢ ـ جامع ابن طولون : شمسية أصلية (انظر ش : ٣٠٣)

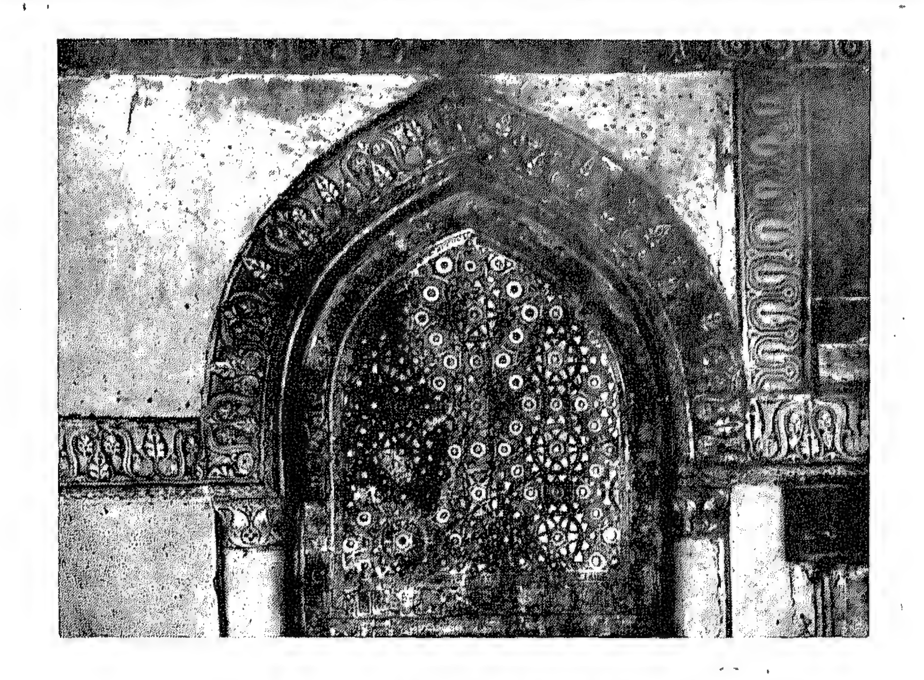
ويصل عدد الأبواب فى جدران الجامع الى ١٩ بابا ، منها أربعة تفتح على ظلة القبله من الجانبين . وخمسة أبواب تفتح على كل من الظلتين الجانبيتين ، وخمسة أخرى تفتح على الظلة المقابلة للقبلة . يضاف اليها باب بجوار المنبر يوصل الآن الى حجرة وراء المحراب ، ولكنه كان يصل فى الأصل بين الجامع وبين دار الامارة التى شيدها أحمد بن طولون ملاصقة لجدار القبلة ، وكان ينزل عند ذهابه الى صلاة الجمعة فيجدد وضوءه ويأخذ قسطا من الراحة ، ثم يخرج من ذلك الباب الى المقصورة التى خصصت له فى ظلة القبة بجوار المحراب المنبر [1] . ولم يبق أثر ما من دار امارة ابن طولون أو مقصورته .

وزودت أسوار الزيادات حول الجامع بنفس العدد من الأبواب منها ستة فى كل من الجانبين وسبعة فى السور الشمالى الغربى . هذا وقد وضعت أبواب الزيادات على محور الأبواب فى جدران الجامع نفسه .

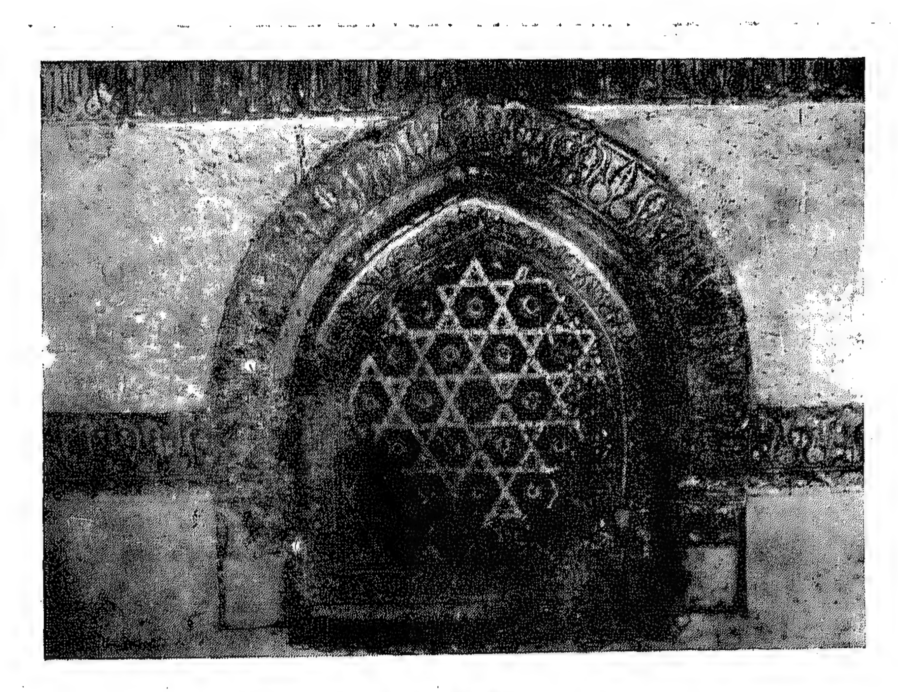
وتتميز جميع عقود البائكات فى الأروقة وشبابيك جدران الجامع بأنها من النوع المدبب ذى المركزين . ويقترب الجزء الأسفل من أقواس بعضها ــ أو رجل العقد ــ من شكل حدوة الفرس ، وتختلف بذلك عن عقود باب العامة فى قصر المعتصم وجامع ابى دلف فى سامرا . فهى من النوع ذى المراكز الأربعة ، وتسبق جامع بن طولون فى التاريخ . فلا يوجد اذن تأثير من سامرا على جامع ابن طولون من هذه الناحية .

أما طريقة بناء البائكات بحيث تحمل عقودها «بدنات» أى أكتاف بنائية بدلا من الأعمدة الاسطوانية فقد رويت عنها قصة أو أسطورة من الأساطير التى كانت تدس على المؤرخين العرب فيرددونها بغير تحقيق أو تمحيص . اذ يقول المقريزى : « قال »
« جامع السيرة الطولونية : كان أحمد بن طولون يصلى الجمعة فى المسجد القديم »
« الملاصق للشرطة ، فلما ضاق عليه بنى الجامع الجديد مما أفاء الله عليه من المال »
« الذى وجده فوق الجبل فى الموضع المعروف بتنور فرعون ، ومنه بنى العين »
« (أى قناطر المياه) ، فلما أراد بناء الجامع قدر له ثلثمائة عمود ، فقيل له ما تجدها »
« أو تنفذ الى الكنائس فى الأرياف والضياع الخراب فتحيل ذلك ، فأنكر ذلك »
« ولم يختره ، وتعذب قلبه بالفكر فى أمره وبلغ النصرانى الذى تولى له بناء العين، »
« وكان قد غضب عليه وضربه ورماه فى المطبق ، الخبر . فكتب اليه يقول أنا »
« أبنيه لك كما تحب وتختار بلا عمد الا عمودى القبلة ، فأحضره وقد طال شعره »
« حتى نزل على وجهه ، فقال له ويحك ما تقول فى بناء الجامع ، فقال أنا أصوره »
« للأمير حتى يراه عيانا بلا عمد الا عمودى القبلة ، فأمر بأن تحضر له الجلود ، »

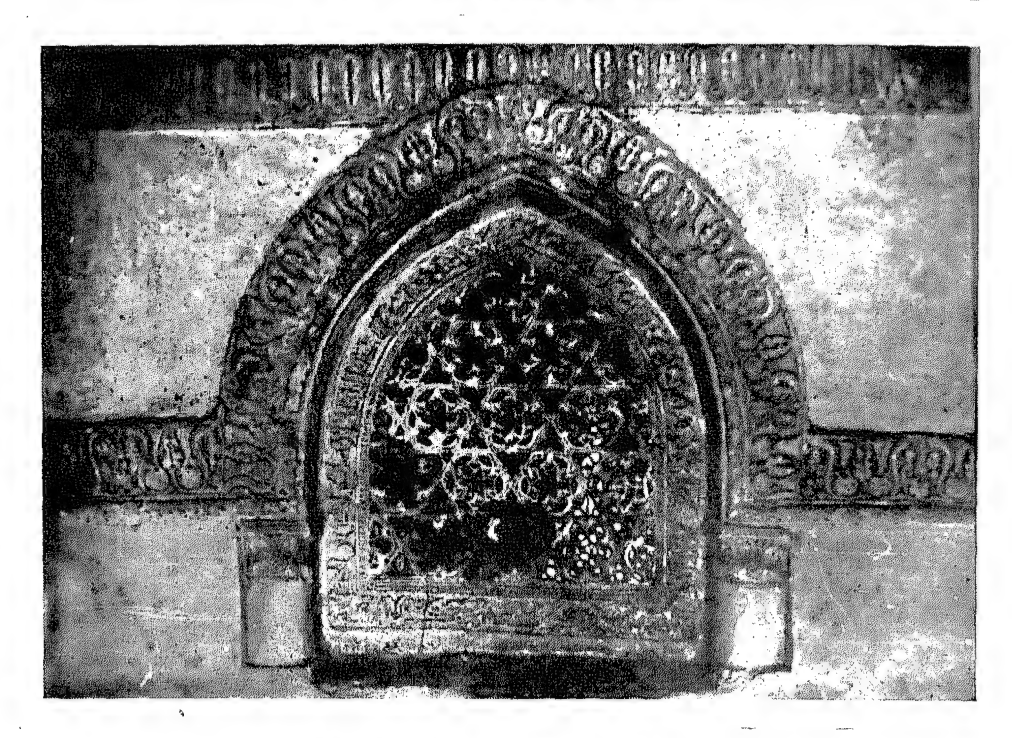
(١) المقريزى ، جـ : ٢ ، ص : ٢٦٥ .



ش : ٣.٣ ـ شمسية أصلية في جدار القبلة



ش : ٣.٤ ـ شمسية أصلية في جدار القبلة



ش : ٣٠٥ ــ شمسية أصلية فى جدار القبلة

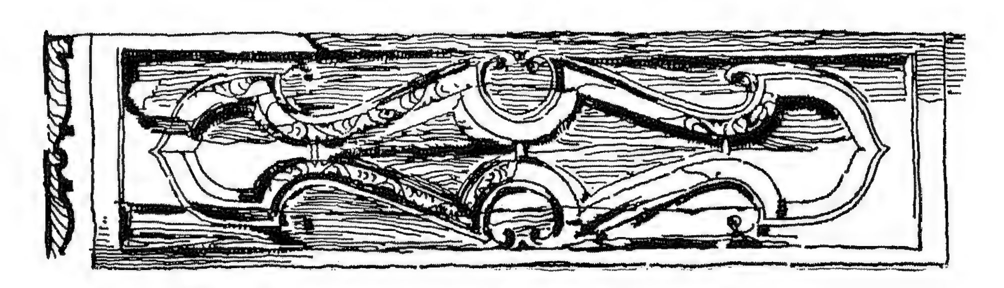
« فأحضرت وصوره له فأعجبه واستحسنه وأطلقه وخلع عليه ، وأطلق له للنفقة »
« عليه مائة ألف دينار . فقال له : أنفق وما احتجت اليه بعد ذلك أطلقناه لك . »
« فوضع النصرانى يده فى البناء فى الموضع الذى هو فيه وهو جبل يشكر ، فكان »
« ينشر منه ويعمل ويبنى الى أن فرغ من جميعه . الخ . » [١] .

ولا يداخلنا الشك فى أنها قصة قد دست على المقريزى ومن نقل عنه ، أو أنه قد نقلها بغير تبصر من مرجع حاقد على الاسلام والعرب . فهى تتضمن عدة معان منها مايتصل بالفكرة التى يروجها المؤرخون غير المسلمين بأن النصارى كانوا مضطهدين من الحكام وأولى الأمر فى العصر الاسلامى . اذ نجد قصصا أخرى تحمل نفس المعنى فى حوادث تاريخية جرت فى العصر الفاطمى والعصر المملوكى وغير ذلك من العصور . وهناك معنى آخر قريب من السابق هدف اليه من دس على المقريزى تلك القصة وهو أن النصارى كانوا يعانون من تخريب كنائسهم بقصد الاستيلاء على عمدها واستخدامها فى عمائر المسلمين ، وهى صورة ثانية للقصة التى رواها ساويرس ابن المقفع ، من اتجاه الخليفة المعتصم الى الاستيلاء على عمد الكنائس فى الاسكندرية ومريوط ــ أى مدن مصر بالذات ــ لاستخدامها فى بناء عمائر سامرا ، والتى أوضحنا مدى ما فيها من أخطاء (ص : ٤٠٥ ــ ٤٠٩) .

(١) المقريزى ، ج : ٢ ، ص : ٢٦٥ .



ش : ٣٠٦ ـ باطن أحد أعتاب الابواب فى جدار المسجد



ش : ٣٠٧ ـ قطعة خشب من سامرا

أما المعنى الثالث الذى تنضمنه قصة المقريزى فهو أن المسلمين كانوا فى حاجة الى خبرة النصارى فى النواحى الفنية والمعمارية •

ولكن يبرهن على أنه لم يكن للنصارى فضل فى ابتكار بناء البدنات بالآجر بدلا من الاعمدة ما ذكرناه من قبل من انها فكرة سبق عملها فى كل من جامع سامرا الكبير وجامع أبى دلف ولم يخترعها المهندس النصرانى ، بل هى ابتكار عراقى يرجح مجيئه الى مصر مع التأثيرات العراقية الاخرى التى تتضح فى بعض العناصر المعمارية والزخرفية فى جامع ابن طولون كما سيأتى ذكره •

كما أن هناك ملاحظة فى قصة المقريزى استرعت انتباهنا وهى أنه قبل أن يصور ذلك النصرانى شكل الجامع لأحمد بن طولون كان معروفا أن المسجد يحتاج الى ثلثمائة عمود ، وليس هناك من شك ـ اذا كانت القصة فيها شىء من الصدق ـ فى أن هذا العدد لم يأت خبط عشواء ، بل وصلوا اليه بالحساب ، عمل على أساس فكرة تخطيطية للمسجد قبل أن يضعها ذلك النصرانى بل قبل أن يصل خبر الأعمدة الرخامية اليه ، ولم يكن الأمر اذن يحتاج الى خدماته •

ثم عن لنا أن نحصى عدد البدنات التى شيدت فوجدناها ١٦٠ بدنة • ومعنى هذا أن الجامع لم يكن يحتاج لبائكاته الى أكثر من مائتى عمود كنهاية قصوى اذا تطلب الأمر ذلك ، وليس الى ثلثمائة كما ورد فى تلك الأسطورة . أما أعمدة المحراب التى قال عنها أنهما عمودان ، فالموجود حاليا أربعة أعمدة ترجع الى أيام ابن طولون• ويعد هذا المحراب أقدم المحاريب المجوفة المؤكدة التاريخ الباقية فى مصر الاسلامية (ش : ٢٩٨) [1] •

ويوضح كل ذلك مدى ما كان يصل اليه بعض المؤرخين العرب أحيانا من نية طيبة فى سرد قصص وأساطير يحيط الشك بكثير من عناصرها أحيانا ، أو بها كلها أحيانا أخرى • وسنصادف عددا منها فيما بعد ، ومنها مثلا قصة الراهب يوحنا الذى قيل انه بنى أبواب حصن القاهرة الفاطمى فى أيام بدر الجمالى ، والتى رواها أبو صالح الأرمينى • الى غير ذلك من القصص والأساطير التى يكذبها التحليل المعمارى والأسانيد التاريخية •

أما بناء الجدران الخارجية بالآجر ، فقد سبقتها جدران جامع عمرو بن العاص التى بناها قرة بن شريك فى ٩٣هـ (٧١٠م) وبقى بعض أجزاء منها فى الجدار الشمالى الشرقى • كما أننا لا نستبعد أن تكون فكرة البدنات التى رجحنا وجودها فى جامع عمرو بن العاص لمقاومة رفس العقود (ص : ٣٧٠ ـ ٣٧٣) • وهى مصدر الايحاء

(1) E.M.A., II, Fig. 257.

بعمل قوائم عقود البائكات جميعها فى جامع ابن طولون من بدنات . أى أنها فكرة محلية ولم تأت من سامرا . وذلك أسوة بالعناصر الكثيرة الأخرى التى ظهرت فى جامع ابن طولون بتأثير عناصر مشابهة وجدت قبل ذلك فى جامع عمرو بن العاص ، كما سيأتى ذكره . وعلى كل حال فإن فكرة البدنات ترجع الى أيام المنصور العباسى الذى شيد جامع الرقة كما ذكرنا من قبل (ش : ١٦٦) حيث توجد فى أركان الصحن.

وفكرة ملء الشبابيك بألواح جصية مفرغة بأشكال زخـــرفية هندسية ، والتى يوجد منها ثمانون شباكا فى جامع ابن طولون ترجع الى العصر الاسلامى المبـكر ، يوجد أقدم مثل منها فى الجامع الأموى بدمشق سنة ٩٢هـ (٧١٠م) (ش : ١٤٧ ـ ١٤٨) ولكن مادته كانت من الرخام لا من الجص . ويحتمل ان يكون من الثمـانين شباكا فى جامع ابن طولون ثلاثة فقط يمكن نسـبتها الى عصر ابن طولون (ش : ٣٠٢ ـ ٣٠٥) [١] ، أما البـاقى فينسب الى عصـور متـأخرة مثل العصر الفـاطمى والمملوكى . وهى الشبابيك التى أطلق عليها « الشمسيات » فيما بعد ، وبخاصة بعد أن أصبحت فراغاتها تملأ بقطع من الزجاج الملون فى توزيع زخرفى [٢] .

ولكن يتضح أسلوب سامرا بجلاء فى الزخارف النباتية التى اكتسبت طابعا طليا تجريديا فى تلك المدينة ، وتوجد محفورة فى ألواح خشبية تكسو بواطن أعتـــاب جامع ابن طولون . ومنها قطعة (ش : ٣٠٦) [٣] تطابق أخرى (ش : ٣٠٧) [٤] . عثر عليها فى سامرا وكأنهما من صناعة فنان واحد .

كذلك يتضح أسلوب سامرا فى الزخارف والعنـــاصر المعمارية فى جامع ابن طولون . فمنها الزخارف الجصية فى الاطارات حول عقود البائكات وفى بواطنها ، وفى تيجان الأعمـدة الملتصقة بنواصى البـدنات وفتحات النوافذ (ش : ٢٩٥ [٥] ـ ٣٠٥ الخ) [٦] ، وفى زخارف الاطار حول المحراب الرئيسى المجوف (ش : ٢٩٨) كل هذه الزخارف تتصل بصلة وثيقة بزخارف سامرا الجصـــية التى اصطلح على تقسيمها الى ثلاثة طرز كما سبق شرحه . غير أن زخارف جامع ابن طولون الجصية لا تتبع ذلك التقسيم بالضبط اذ يمتزج فيها خصائص الطرازين الثانى والثالث معا .

(١) E.M.A., I, Pl. 46

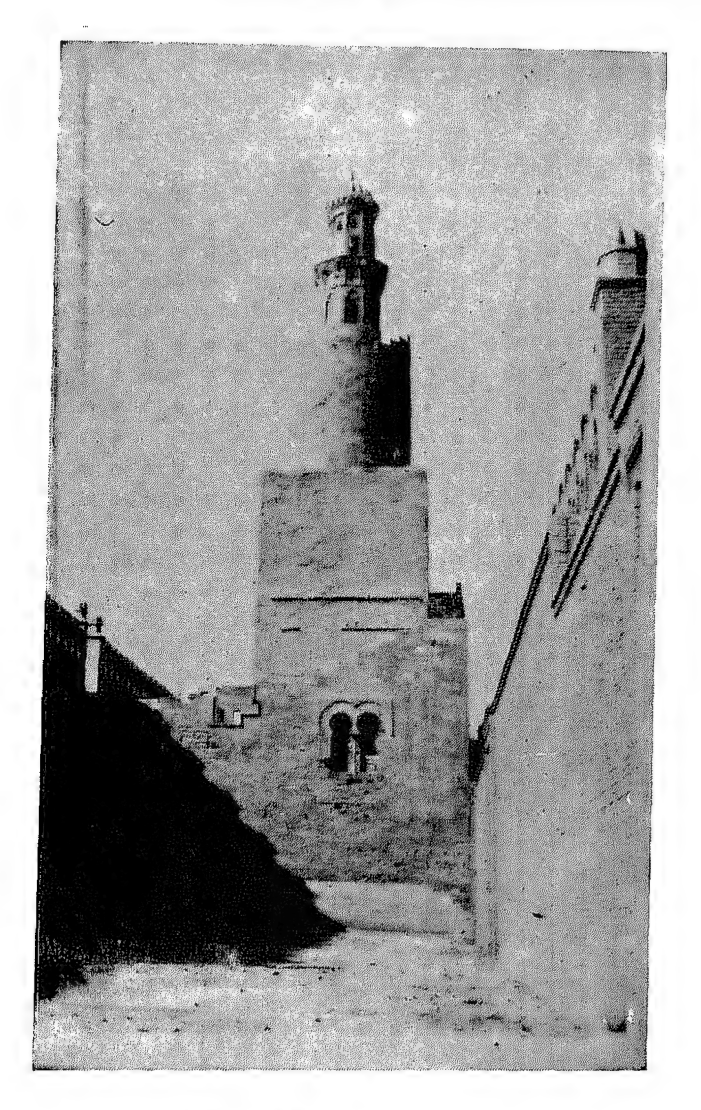
(٢) أطلق ابن جبير لفظ «شمسية» على الشبابيك الجصـــية المخرمة التى ملئت فراغاتهـا بالزجاج الملون ، وانتشرت صناعتها فى العصر الاسلامى عند وصفه للمسجد الاموى بدمشق ـ انظر رحلة ابن جبير ، ص : ٢٤٢ ومابعدها .

(٣) E.M.A., II, Pl. 114 a.

(٤) Ibid., II, Pl. 54 e.

(٥) Ibid., II, Pl. 101 b.

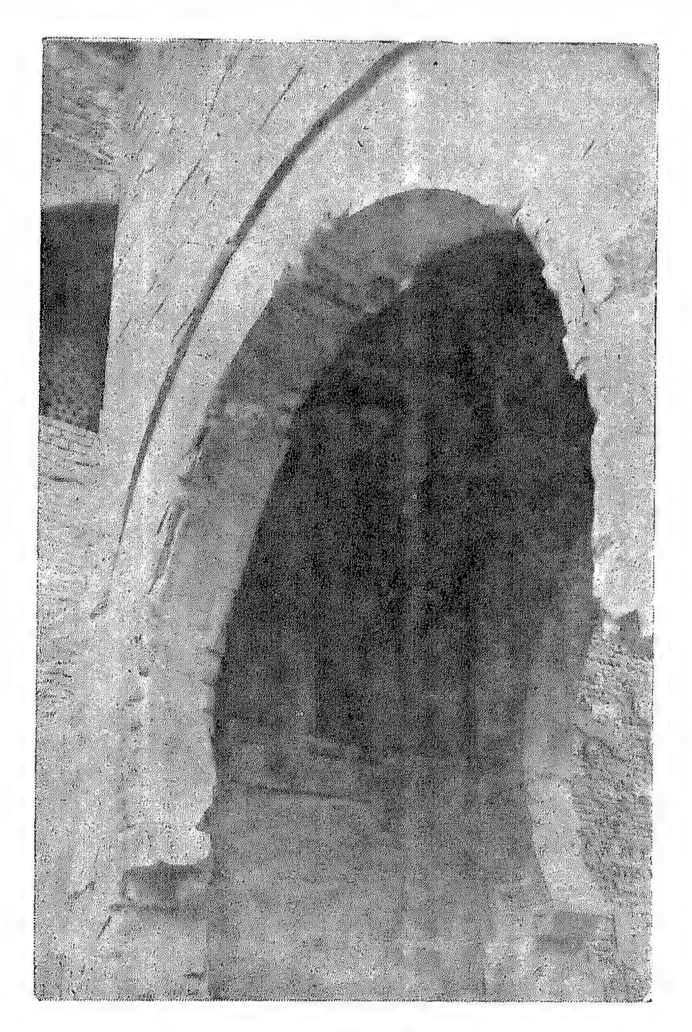
(٦) Ibid., II, Pl. 107 b.



ش : ٣٠٨ ـ جامع ابن طولون ، المئذنة

المئذنة :

وأهم ما يتجلى فيه تأثير سامرا هو تكوين المئذنة العالية التى شيدت فى الزيادة الشمالية الغربية (ش : ٢٩١ ، ٣٠٨) ، وبخاصـة فى وجـود السلم الصاعد الى أعلى وهو يلتف حول بدن المئذنة من الخارج وليس من الداخل كما هو متبع فى جميع مآذن العالم الاسلامى عدا مئذنتى الجامع الكبير فى سامرا وجامع أبى دلف فى شمال تلك المدينة . غير أن مئذنة جامع ابن طولون تختلف عنهما فى أن نحو ثلثى ارتفاع بدنها متعامد الأضلاع ، يعلوه جزء اسطوانى لا زال يلتف السلم حوله من الخارج ، بينما يرتفع البدن فى كل من ملويتى سامرا وأبى دلف مستديرا كله ابتداء من فوق



ش : ٣٠٩ ـ باطن قنطرة المئذنة ونافذة مسدودة

القاعدة المربعة القليلة الارتفاع حتى النهاية العليا • ومن عجب أن يكون الجـــزء الأسفل من مئذنة جامع ابن طولون أقرب فى الشبه الى الزيقـــورات الأشورى من ملويتى جامعى سامرا •

وفى رأينا أنه يمتزج فى مئذنة جامع ابن طولون جملة تأثيرات من أســاليب عربية اسلامية مختلفة [1] بعضها محلى وبعض وافد من الشرق وآخر من الغرب • فبالاضافة الى السلم الخارجى الذى جاءت فكرته من العراق فان البدن الضخم المتعامد الأضلاع ذو صلة وثيقة بتكوين المآذن فى الغرب العربى الاسلامى ، اذ تمتاز الواحدة

(١) أنظر مقالنا : مئذنة مسجد ابن طولون ، واى فى تكوينها المعمارى (مجلة كلية الآداب ، جامعة فؤاد الاول ، مجلد ١٤ ، ج : ١ (مايو ١٩٥٢) ص : ١٦٧ ـ ١٨٤ ، ٦ اشكال ، ١٣ لوحة .

منها ببدن ضخم عال يرتفع الى قرب القمة ، ويوضع فوقه جوسق تعلوه قبة (ش : ٤٢٥ • أضف الى ذلك أنه يوجد فى كل من أوجه قاعدة مئذنة جامع ابن طولون مجموعة من شباكين وهميين – أى مسدودين – لكل منهما عقد شكل حدوة الفرس وبينهما عمود (ش : ٣٠٨) • والشباكان وعقداهما وتاج العمود كلها عناصر معمارية كان يتميز بها المغرب العربى الاسلامى فى شمال افريقية والأندلس • هذا وقد شيدت فى نفس الوقت مع المئذنة قنطرة تصلها بسطح الجامع ، ويحمل القنطرة من الجانبين عقدان من شكل حدوة الفرس أيضا (ش : ٣٠٩) ، كما وضعت فى باطن القنطرة كوابيل من شكل مفصص لا يوجد له مثيل الا فى المغرب العربى الاسلامى فى شمال افريقية والأندلس • ومما يؤكد أن القنطرة والمئذنة قد شيدتا فى وقت متأخر عن بناء الجامع أن العقد فى الجانب الشمالى الشرقى للقنطرة قد سد أحد الشبابيك فى جدار الجامع كما هو واضح فى الصورة ، كما أن مادة بناء القنطرة والمئذنة هى الحجر المنحوت ، بينما شيدت جدران الجامع بالآجد •

ومما يعزز وجود هذا التأثير من المغرب العربى الاسلامى أنه يشاهد أيضا فى أجزاء أخرى من الجامع تم عملها فى نفس الوقت الذى شيدت فيه المئذنة والقنطرة كما سنرى بعد قليل فى سقف الحجرة وراء المحراب •

ثم يتجلى الأسلوب المعمارى المحلى فى مصر فى الجوسق المثمن الذى تنتهى به المئذنة من أعلاها • فهو يتكون من طابقين تعلوهما قبة صغيرة مضلعة تعرف فى الاصطلاح المعمارى المحلى « بالمبخرة » (ش : ٣١٠) • وكان شكل الجوسق والمبخرة فوقه هو الأسلوب السائد فى مصر منذ أواخر العصر الأيوبى وطوال الفترة المبكرة من العصر المملوكى • وهى أدلة معمارية اذا أضيفت الى أقوال المؤرخين فانها تؤكد تأريخ بناء المئذنة فى سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦م) بأمر السلطان حسام الدين لاجين الذى لجأ الى جامع ابن طولون واحتمى به من أن يقع فى أيدى منافسيه من الأمراء المتنازعين على السلطان بعد الفتنة التى قتل فيها الأشرف خليل بن قلاوون • واذ نذر لاجين أن يعمر الجامع اذ تولى السلطان ووفى بنذره ، فعمر ما كان متهدما من الجامع وما تخرب منه بفعل الزمن وسوء الاستعمال ، اذ كان قد آل أمره الى أن يصبح ملجأ للناس يقيمون به ، وبخاصة حجاج المغاربة وهم فى طريقهم الى البقاع المقدسة ، وتحدث عنهم الرحالة ابن جبير [1] •

---

(١) رحلة ابن جبير ، ص : ٢١ •



ش : ٣١٠ ـ الطرف العلوى للمئذنة

ومما لا شك فيه أن هذه المئذنة قد سبقتها مئذنة قديمة بنيت فى أيام أحمد بن طولون . فقد روى المؤرخون قصة عن ابن طولون أنه كان يلف ورقة حول أصبعه وشدها فأصبحت كالقرطاس [١] ، فطلب من المهندس أن يشيد المئذنة على نمطها ، وهى قصة أخرى من القصص الخيالية التى كان يرددها بعض المؤرخين القدماء ، غير أننا نستدل منها على أن أحمد ابن طولون قد شيد مئذنة كان تكوينها المعمارى لا يبعد عن شكل الملويتين اللتين شيدتا فى الجامعين الكبيرين فى سامرا [٢]،

(١) ابن دقماق : ج ٤/ص ١٢٤ ، المقريزى : ج ٢/ص ٢٦٧ ، أبو المحاسن : ج ٢/ص ٨ ـ ٩ .

(٢) نقل ابن دقماق عن رواية سابقة مايلى : وبناء هذا الجامع على بناء جامع سامرا وكذلك المنارة ، ج ٤/ص ١٢٣ . ونقل المقريزى عن القضاعى (توفى سنة ٤٥٤ هـ /١٠٦٢ م) نفس النص اذ قال : « وبناه على بناء جامع سامرا وكذلك المنارة » ، ج ٢/ص ٢٦٦ .

وكان يشاهدهما ابن طولون طوال مدة اقامته فى تلك المدينـــة قبل أن يحضر الى مصر • هذا وقد ذكر المؤرخون أن المئذنة القديمة التى كانت مبنية بالآجر قد تطرق اليها الضعف وتهدم جزء كبير منها فى أيام الحاكم • ومن طرائف الرحالة ناصر خسرو الفارسى ما رواه عن مئذنة جامع ابن طولون قال : « وفى أيام الحاكم بأمر » « الله ، جد هذا السلطان (المستنصر) باعه (أى المســجد) أحفاد ابن طولون » بثلاثين ألف دينار مغربى • وبعد مدة شرعوا فى هدم المئذنة بحجة أنها لم تبع • » « فأرسل لهم الحاكم قائلا : لقد بعتمونى هذا المسجد فكيف تهدمونه ؟ فأجابوا : » « نحن لم نبع المئذنة • فأعطاهم خمسة آلاف دينـار ثمنـا لها » [١] • ولكن مما هو جدير بالذكر أن المقدسى قال ان هذه المئذنة كانت مشـيدة بالحجر وأن سُلمها من الخارج [٢] • ومن المعروف ان المقدسى زار مصر فى حوالى سنة ٣٧٥ هـ (٩٨٥ م) ، وذلك ضمن البلاد التى زارها وكتب عنها • أى أنها كانت مشيدة بالحجر من قبـل أن يجدد السلطان لاجين بناءها به •

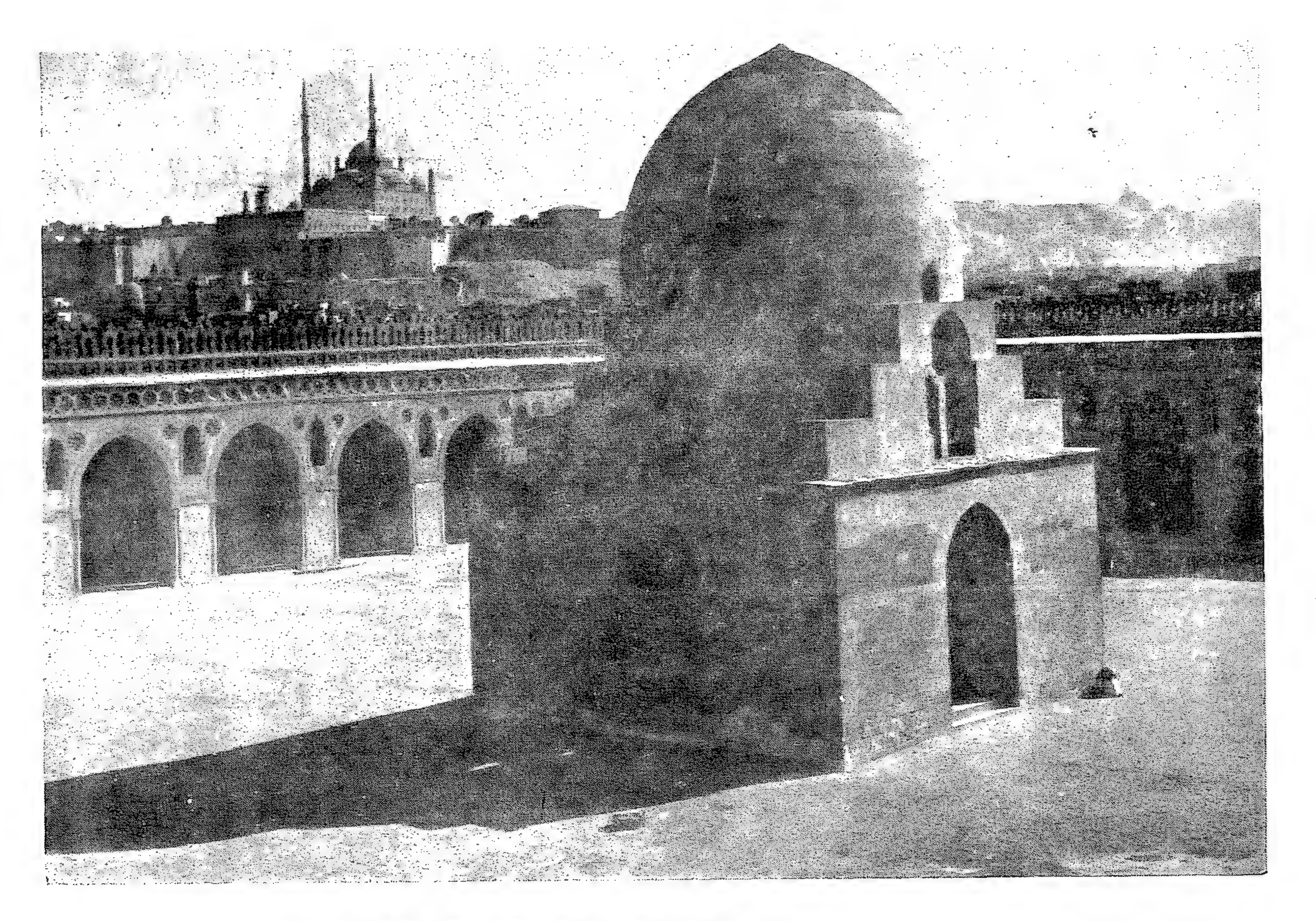
ويستنتج من أقوال المؤرخين أنه كان بأعلى المئذنة نهاية أو خوذة على شـكل سفينة صغيرة أو « عشارى » • ويروون عنها قصة بأنها كانت تدور مع الشمس ، ويعقّب المقريزى على ذلك بأنه غير صحيح والحقيقة أنها تدور مع دوران الريح ، وأن الملك الكامل الأيوبى كان يعنى بوقـــودها ليلة النصف من شـــهر شـعبان ثم أبطلها [٣] •

وتستوقف نظرنا الفترة الأخيرة لأنها تدل على وجود مئذنة أيام الملك الأيوبى ، أى قبل أن يبنى السلطان حسام الدين لاجين المئـــذنة الحالية بكل أجـزائها • فاذا استعرضنا أقوال المؤرخين مجتمعة مع التحليل المعمارى للمئـــذنة لأمكننا القول بأن هذه المئذنة قد شيدت ثلاث مرات وربما أربعة : أولهما فى أيام أحمد بن طولون ، أى مع بناء الجامع نفسه ، وكانت على الأرجح مشابهة فى تكوينها وعناصرها لمئذنتى جامع سامرا الكبير وجامع أبى دلف ، كما أنها كانت مشيدة بالآجر • ولم تعمر هذه المئذنة طويلا وأصابها الضعف والوهن قبيل الفتح الفـــاطمى وتداعت فأعيد بناؤها للمرة الثانية ولكن بالحجر هذه المرة ، وهى المئذنة التى رآها الرحالة المقـدسى فى حوالى سنة ٣٧٥هـ (٩٨٥م) أى فى أيام الخليفة العزيز بالله وبعد توليته الخلافة بعشر سنوات • وهو الخليفة الذى بدأ بناء الجامع الأنور المعروف بجامع الحاكم وســمى

(١) ناصر خسرو : ص ٥٩

(٢) المقدسى : احسن التقاسيم ـ ص ١٩٩.

(٣) المقريزى : جـ٢/٢٦٧



ش : ٣١١ – الميضاء فى وسط صحن جامع ابن طولون

باسمه لأنه هو الذى أكمله بعد وفاة والده العزيز بالله • ونحن نعلم أن جامع الأنور هذا قد شيدت له مئذنتان بالحجر فى ركنيه الشمالى والغربى ، كما شيدت جدرانه الخارجية كلها بالحجر • وكل ذلك يدعو للظن بأنه قد التبس الأمر على ناصر خسرو فى القصة التى رواها عن خبر شراء الحاكم لمئذنة جامع ابن طولون من ورثته ، وصحة الخبر أن الذى اشتراها وأعاد بناءها هو العزيز بالله وليس الحاكم •

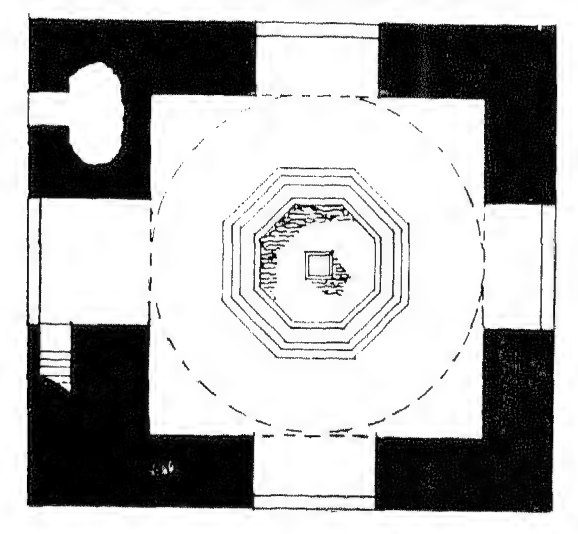
ولعل هذه المئذنة المشيدة بالحجر قد بقيت متكاملة الى عصر الكامل الأيوبى ثم تطرق الضعف اليها ، فأعيد بناؤها للمرة الثالثة أيام السلطان حسام الدين لاجين ، وهى التى لازالت باقية حتى الآن •

ومما هو جدير بالذكر أنه قد تشعب البحث وكثرت الآراء والنظريات حول تأريخ هذه المئذنة فقد رجح بعض الأثريين ومؤرخو العمارة أنها المئذنة الأصلية التى شيدت مع الجامع بينما ذهب بعض آخر الى أن الجزء الأصلى فيها هو المكون مسقطه من المربع ثم من الاسطوانة أى من الجزءين اللذين يحتويان على السلم الملتف حولهما من الخارج ، أما الجوسقان العلويان فانهما قد أضيفا فى عصر متأخر •

ومن العلماء من نسب المئذنة كلها أو الجزء العلوى منها الى العصر الفاطمى• وقد ظن فى وقت من الأوقات أن الجزء المربع ما هو الا غلاف لمئذنة قديمة مستديرة تشبه المئذنة الملوية فى سامرا ، وأن ذلك الغلاف المتعامد الأضلاع لم يحجب البدن المستدير القديم كله بل ترك جزءا منه هو الاسطوانة التى تعلو الغلاف • وقد قامت ادارة حفظ الآثار العربية بتحقيق هذه النظرية بأن نقبت فى الشباكين الجنوبين فى البدن المربع نقبا أفقيا الى عمق يكفى للكشف عن آثار جدران مستديرة فى جوف الجزء المتعامد الأضلاع فثبت أنها غير موجودة ، فاصبح من المؤكد أن الجزء المتعامد الأضلاع هو وما يعلوه من أجزاء أخرى كلها تكوّن مع بعضها كتلة موحدة مع القنطرة التى تصل المئذنة بالجامع ، وأنها قد بنيت كلها فى وقت واحد أيام السلطان لاجين • ومن ثم فقد جمع تكوينها بين الفكرة العراقية للسلم الخارجى التى شيدت عليها المئذنتان الأولى والثانية ، وبين أساليب مغربية أندلسية منتشرة فى وقت بنائها فى أواخر القرن ٧هـ (١٣م) ، كما أضيف الى تكوينها الاتجاه الجديد فى تصميم الجواسق العليا الذى كان سائدا فى مصر فى ذلك الوقت [١] •

***

(١) فريد شافعى : مئذنة مسجد ابن طولون — رأى فى تكوينها المعمارى » (مجلة لكلية الآداب — جامعة فؤاد الاول — مجلد ، ١ ، ج : ١ (مايو ١٩٥٢) ، صفحات ١٦٧ — ١٨٤ ، ٦ اشكال ، ١٣ لوحة) .



ش : ٣١٢ ـ الميضاة ، مسقط

الفوارة والميضاة :

وقيل انه كان بوسط صحن الجامع فوارة تعلوها قبة مذهبة مشبكة من جميع جوانبها تقوم على عشرة عمد ويحيط بها ستة عشر عمودا فى جوانبها وكلها من الرخام ، وفرشت أرضيتها أيضا بالرخام ، وتحت القبة قطعة رخام قطرها متران فى وسطها فوارة تفور بالماء • واحترقت تلك الفوارة فى أوائل العصر الفاطمى فى سنة ٣٧٦هـ (٩٨٦م) ولم يبق منها شىء • وأمر العزيز بالله فى سنة ٣٨٥هـ (٩٩٥م) ببناء غيرها [١] • مما يذكرنا بالفوارة التى أمر بها ذلك الخليفة نفسه لجامع عمرو بن العاص (ص : ٣٧٦) •

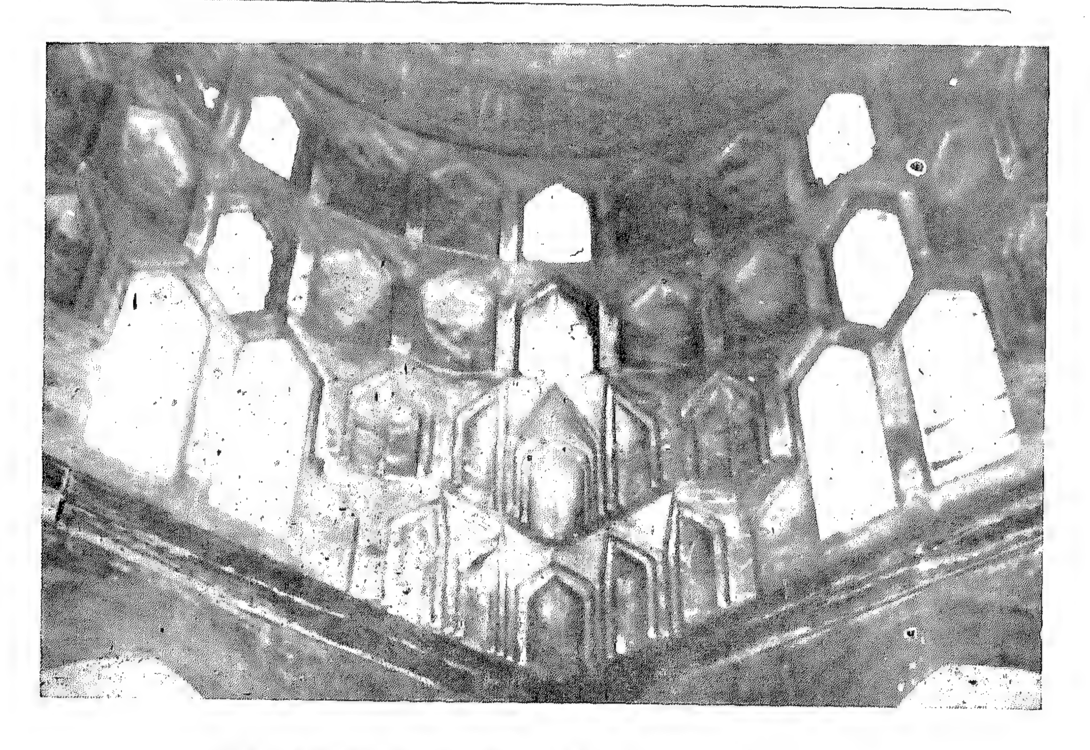
ولم تكن الفوارة فى جامع ابن طولون مستخدمة للوضوء بل كانت الميضأة القديمة تقوم فى الزيادة الشمالية الغربية بجوار المئذنة ، وذلك محافظة على جدران المسجد أن تضار من جريان الماء اذا عملت بداخله [١] •

وبجوار تلك الميضأة القديمة أمر ابن طولون باعداد ما يشبه وحدة لاسعاف المصلين على يد طبيب يحضر فيها يوم الجمعة ، وجعل فيها الأدوية والخدم [٢] •

ثم بنى حسام الدين لاجين الميضأة الحالية مكان تلك الفوارة (ش : ٣١١ ـ ٣١٣) ومسقطها على هيئة مربع يبلغ ضلعه نحو ١٤ مترا وله جدران سميكة من الحجر المنحوت• ويتوسطها من الداخل حوض مثمن يملأ بالماء للوضوء (ش : ٣١٢)• وبكل من الجدران الخارجية فتحة باب عريضة عالية لها عقد مدبب ذو مركزين •

(١) ابن دقماق ، جـ : ٤ ، ص ١٢٣ ، المقريزى ، جـ : ٢ ، ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨ •

(٢) ابن دقماق : جـ ٤/ص ١٢٣ ، المقريزى : جـ ٢/ص ٢٦٦ •



ش : ٣١٣ - جامع ابن طولون ، المقرنصات الحاملة لقبة الميضاة

ويغطى المبنى قبة قطاعها مدبب بنيت بالآجر وكسيت بالملاط من الخارج والداخل • ويبلغ ارتفاعها عن أرضية الصحن الى نهاية الخوذة النحاسية فى قمتها نحو ٣٣مترا، وفى الجزء الاسطوانى منها ، المرتكز على القاعـــدة ، ثمانية شبابيك • أما القاعدة المربعة للقبة فقد بنيت أيضا بالآجر ، وتحتوى على منطقة الانتقال التى تحول المربع الأسفل الى مثمن علوى ترتكز عليه القبة ، وذلك بعمل نواصى المربع على هيئة شطفات مدرجة من الخارج ، أما من الداخل فتتكون منطقة الانتقال من أربعة صـفوف من من المقرنصات ، وهى حنيات بعضها مجوف غائر وبعضها مسطح ، تبرز عقودها العليا ليحمل كل صف منها الذى يعلوه ، بحيث تبدأ الصفوف من المسقط المربع وتحوله الى مثمن أو مضلع منتظم كثير الأضلاع تأتى فوقه بداية دائرة القبة (ش : ٣١٣)• وكتبت آية الوضوء بالخط النسخى المملوكى حول رقبة القبة من الداخل ، ممـــا أوضح الغرض من بنائها • وتمتاز هذه الميضأة بأن أساليب بنائها وعناصرها المعمارية والزخرفية والكتابية كلها محلية خالصة ، ولم تخضع لتأثيرات من الغرب العـــربى الاسلامى مثل باقى الوحدات التى شـــيدت فى الجامع أيام السلطان حسـام الدين لاجين •

***

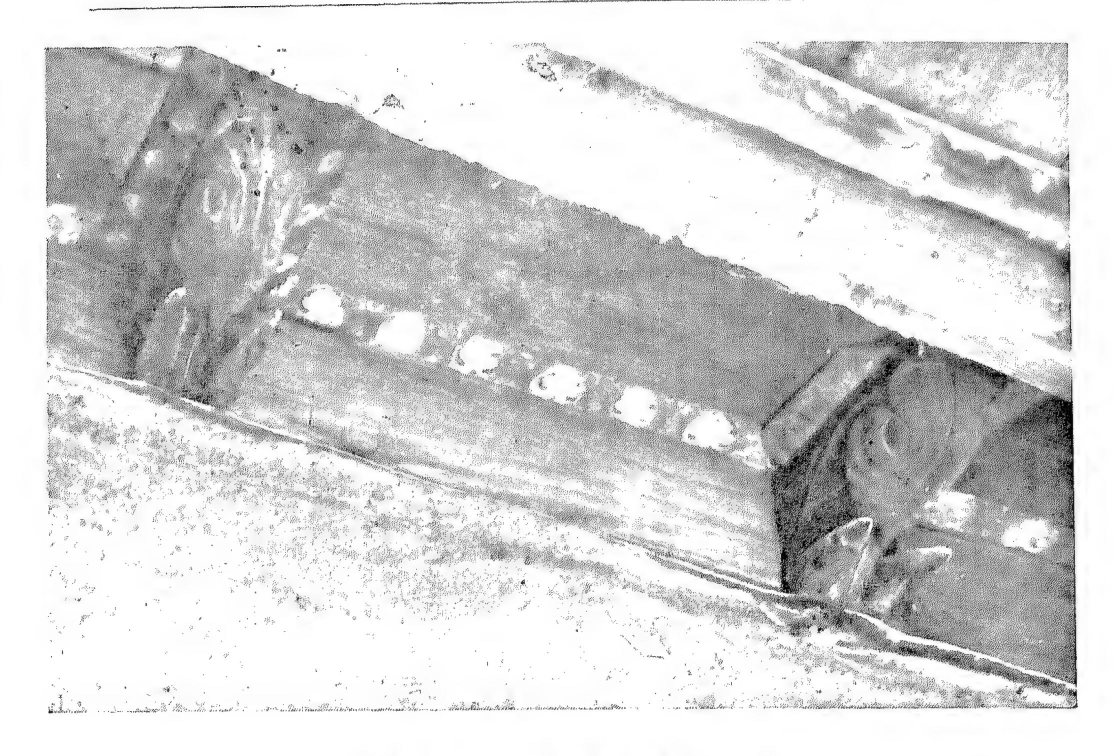


ش : ٣١٤ ـ جامع ابن طولون ، القبة فوق منطقة المحراب

القبة فوق المحراب :

شملت عمارة السلطان لاجين للجامع عمل القبة التى وضعت فوق المحراب على قاعدة مربعة من الخارج ، وبداخلها حطات من المقرنصات المكسوة بالخشب لتحويل المربع الى مثمن ترتكز عليه دائرة القبة ، ووضعت بين المقرنصات شمسيات من الجص والزجاج. وكلها من العناصر ذات الطابع المملوكى المحلى الخاص (ش : ٣١٤).

***

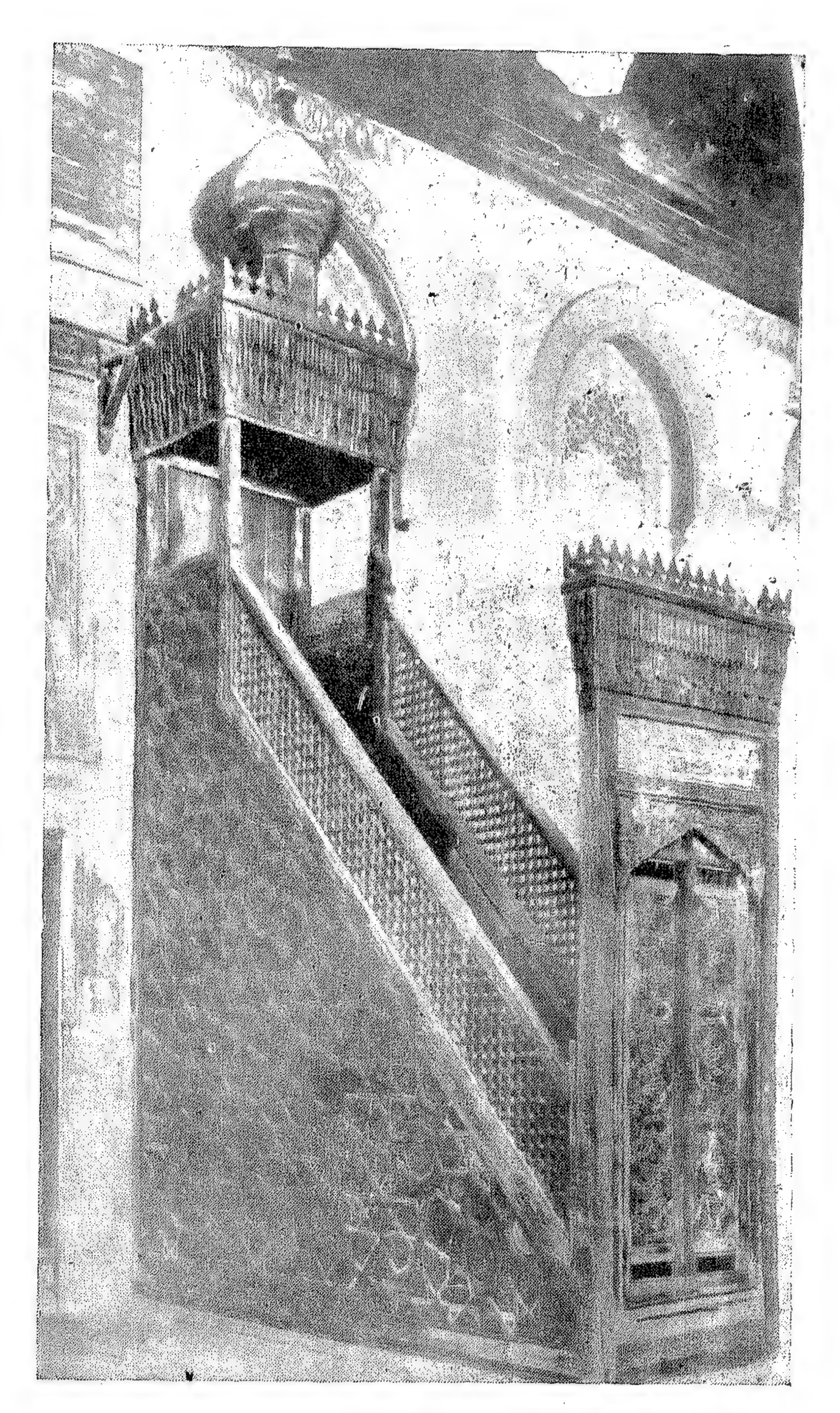


ش : ٣١٥ ــ سقف الحجرة وراء المحراب

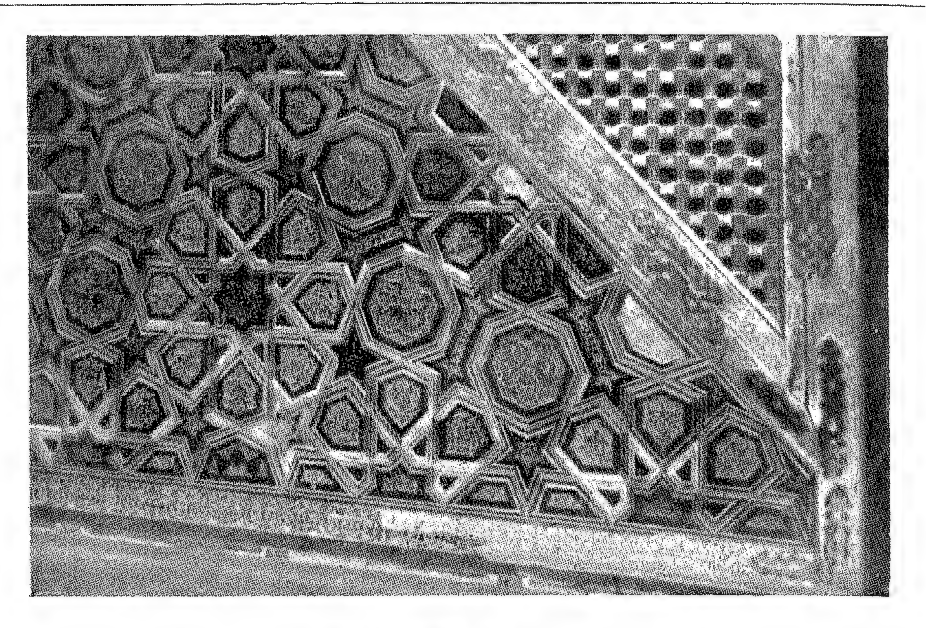
الحجرة الموجودة وراء المحراب :

يوصل الى هذه الحجرة الباب الموجود بجـوار المنبر والذى يرجح أنه كان يوصل الى دار الامارة • وهى حجرة صغيرة تتميز بأهمية خاصـة ترجع الى بقايا السقف الذى كان يغطيها وبقى منه طنف بارز تحمله كوابيل خشبية أطرافها تشبه رءوس حيوانات ذوات أنياب (ش ٣١٥) ، وهى من نوع لا يوجـد الا فى المغـرب الاسلامى والأندلس ، ولا يمكن أن يكون صانعها الا من الغرب العربى الاسـلامى فهى ترجع اذن الى أعمـال السـلطان لاجين فى سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) ، وهى تؤجد وجود التأثيرات المغربية الأندلسية التى رأيناها فى المئذنة التى شيدت ضمن أعماله •

(١) أنظر مقالنا «مئذنة مسجد ابن طولون ..» ص : ١٧٨ ، أشكال : ٤ ــ ٦ ، وانظر أيضـا مقـالنا : West Islamic Influences on Architecture in Egypt, pp. 35-39, (Bull. of the Fac. of Arts, Fouad I Univ., vol. XVI, Pt. II, Dec. 1954, pp. 1-49, with 41 figures and 17 plates).



ش : ٣١٦ ـ المنبر

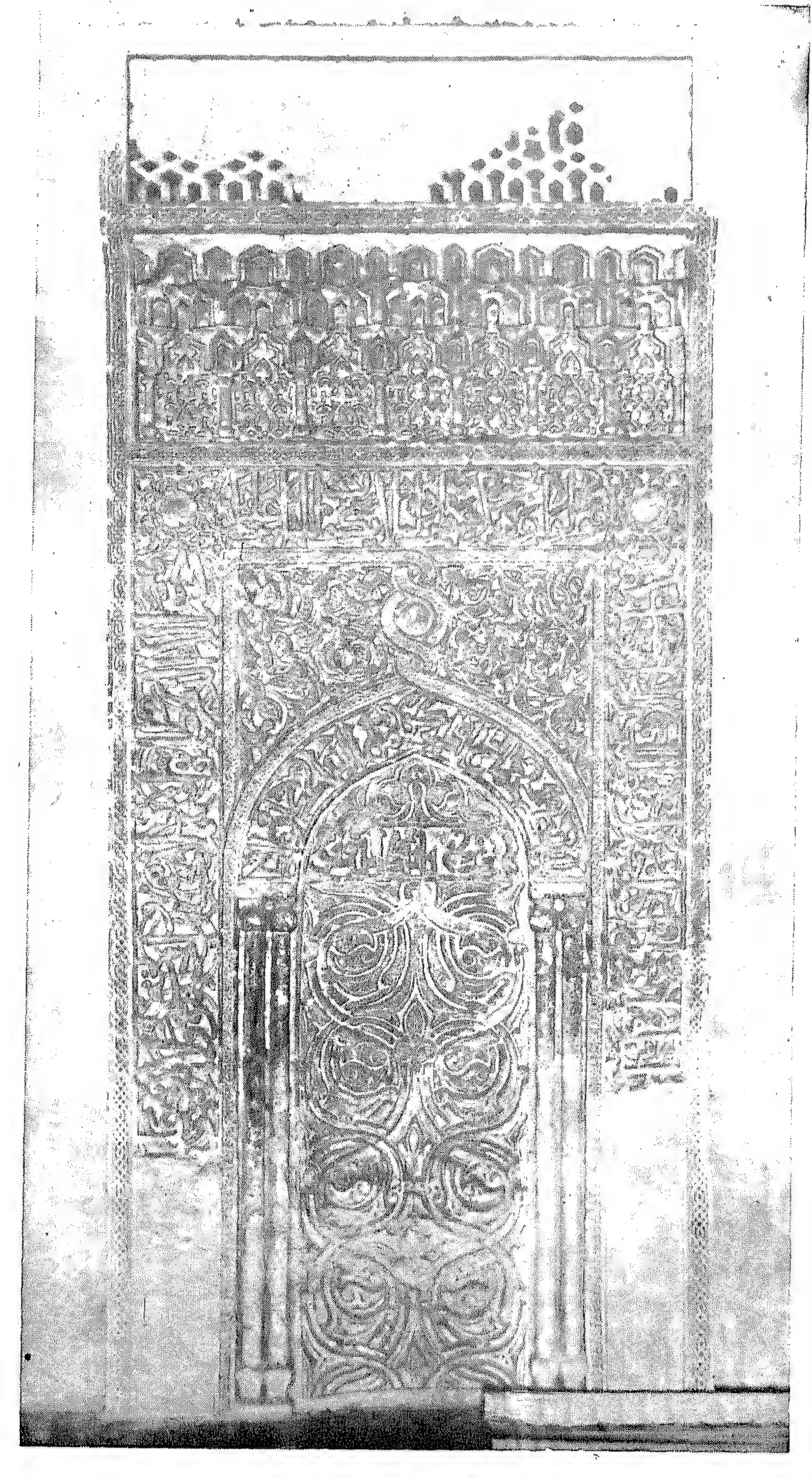


ش : ٣١٧ - تفصيل من المنبر

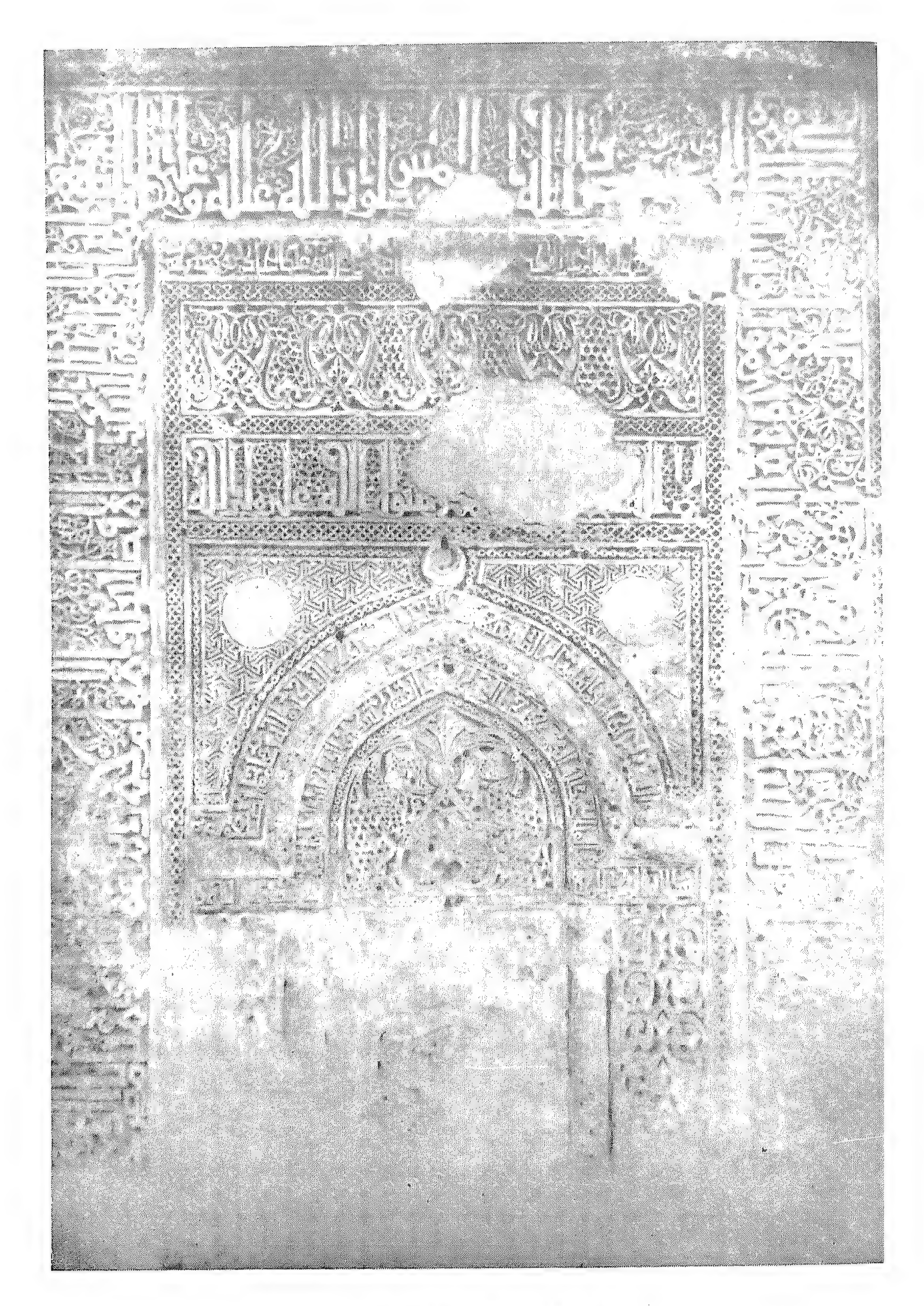
المنبر :

زوّد ابن طولون جامعه بمنبر اندثر مع الزمن بعد نقله الى الجامع الظاهرى بالمنشاة على شاطىء النيل [١] ، أما المنبر الحالى فهو من عمل السلطان لاجين فى سنة ٦٩٦هـ (١٢٩٦) كما هو مسجل فى واجهة عتب بابه (ش : ٣١٦) • وقد صنع المنبر من الخشب ، ويتبع فى تكوينه النظام المألوف من حيث بابه المكون من ضلفتين فى اطار متوج بصفوف المقرنصات تعلوها شرافات صغيرة ، ويؤدى الباب الى السلالم التى تصعد الى جلسة الامام تحت الجوسق العلوى • وللمنبر جانبان مسدودان كل منهما على هيئة مثلث يعلوه درابزين من الخشب الخرط ، وزخرف الوجه الخارجى للمثلث بحشوات هندسية صغيرة عليها زخارف نباتية دقيقة الحفر • وجمعت الحشوات مع بعضها بواسطة « قنانات » أو عصابات خشبية ذات حليات ، ويتكون من تجميعها وحدات هندسية منتظمة قوامها الطبق النجمى الذى يتميز به الفن العربى الاسلامى دون غيره من الفنون (ش : ٣١٧) ، بدأ ظهوره فى العصر الأيوبى ونضج تماما فى العصر المملوكى • وابتكر الفنانون المسلمون منه أنواعا وأشكالا لا حصر لها [٢] ، كما سنرى فى الجزء المخصص للزخارف • وقد نهبت حشوات كثيرة منه وانتشرت فى مجموعات ومتاحف أوربا ، ثم أعيد بعضها الى مكانه وجدد بعض آخر على أساس الرسوم والصور التى أمكن الحصول عليها للحشوات الأصلية •

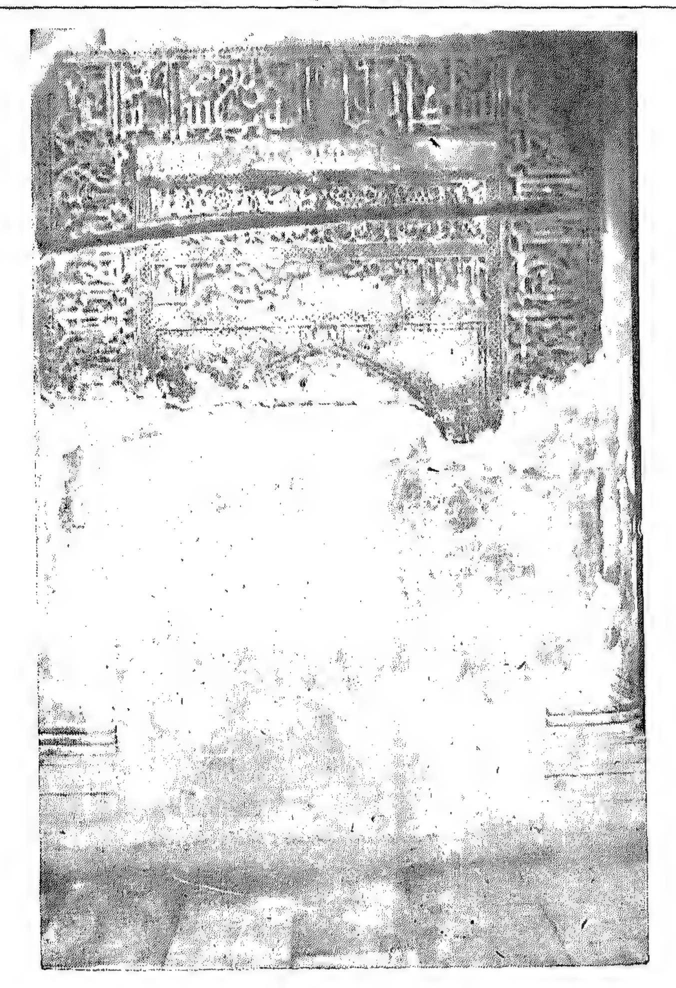
(١) ابن دقماق ، جـ : ٤ ، ص : ١٩ - ١٢٠ •
(٢) Bourgoin : Les Entrelaces.



ش : ٣١٨ ـ محراب السيدة نفيسة



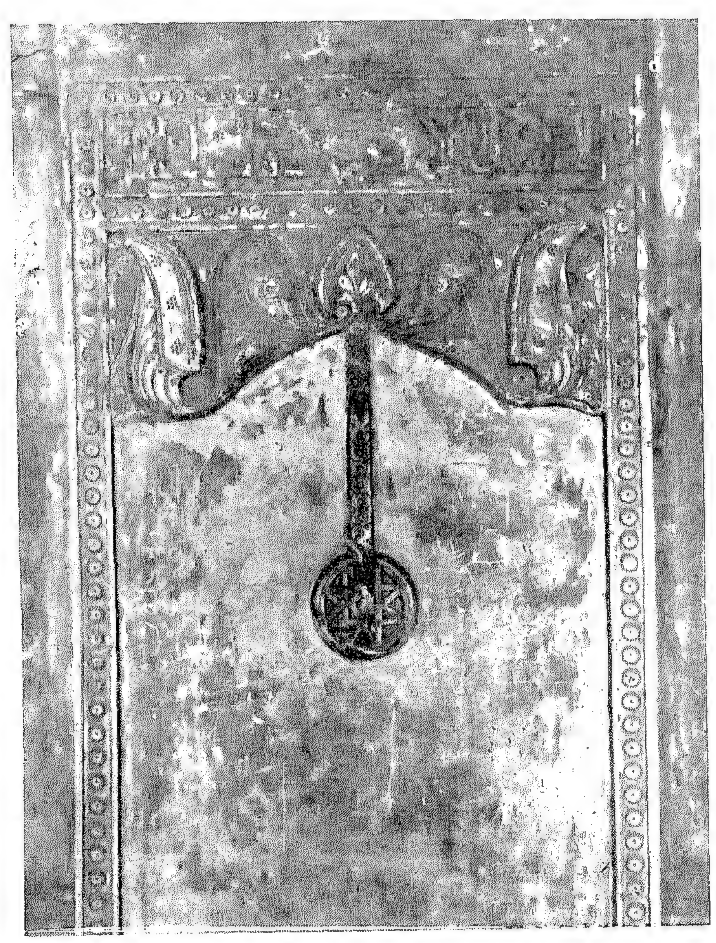
ش : ٣١٩ ـ محراب الافضل شاهنشاه



ش : ٣٢٠ ـ محراب لاجين

المحاريب :

يتميز جامع ابن طولون بكثرة المحاريب التى توجد به • اذ يبلغ عددها ستة محاريب اقدمها هو المحراب الرئيسى الذى وضع فى محور القبلة (ش : ٢٩٨) ، وهو مجوف مسقطه نصف دائرى • ولم تبق من عناصره الزخرفية الأصلية الا واجهته الجصية المحصورة داخل اطار يضم الحنية والأعمدة الأربعة على جانبيها وكوشتى العقد ، ثم الشريط الخشبى الذى يحتوى على الكتابة الكوفية البارزة ثم شريط الزخارف الجصية الذى يعلوه • ومن الواضح أن الأعمدة الأربعة ترجع الى العصر البيزنطى • ويمتاز تاجا العمودين الأماميين بأنهما من نوع أوراق الأكانثاس والآخران من نوع السلة المشبكة • أما تجويف المحراب نفسه فقد كسى بألواح الرخام والفسيفساء الرخامية ، يتوجها شريط من الفسيفساء الزجاجية يحتوى على كتابة بالخط النسخى المملوكى • وكسيت طاقية المحراب ووجه العقد من الخارج



ش : ٣٢١ ـ محراب فاطمى

بالخشب الملون بالنقوش • وكل هذه الزخارف والكسوات ترجع الى أعمال لاجين•

وينسب الى لاجين أيضا عمل المحراب الجصى المعروف بمحراب السيدة نفيسة (ش : ٣١٨) ، وهو مسطح وضع على وجه جدار القبلة على بعد نحو ٢٧ مترا الى الشرق من المحراب الرئيسى السابق ذكره • وهناك محـــراب جصى مسطح آخر ينسب الى نفس العصر (ش : ٣٢٠) ، وهو تقليد لمحراب فاطمى من عمل الأفضل شاهنشاه (ش : ٣١٩) • ووضع الاثنان على واجهتى بدنتين من بدنات البائكة الثالثة من جهة الصحن فى ظلة القبلة على جانبى محور المحراب • ووضع على واجهتى البدنتين اللتين تكتنفان دكة المبلغ محرابان مسطحان من الجص يرجعان الى العصر الفاطمى المبكر (ش : ٣٢١ ، ٣٢٢) •

(١)أنظر مقالنا An Early Fatimid Mihrab in the Mosque of Ibn Tulun, (Bull. of the Fac. of Arts, Fouad I Univ., XV, Pt. I, May 1953, pp. 67-81, with 24 figures and 2 plates)



ش : ٣٢٢ ــ محراب فاطمي

دار الامارة بجوار الجامع :

وكان ابن طولون قد بنى بالاضافة الى قصره الكبير داراً للامارة لصق جدار القبلة فى جامعه ، وفتح فيه بابا ليخرج منه الى المقصورة المحيطة بالمنطقة التى كان يصلى بها فى الجامع الى جوار المحراب ، أى التى يحتل جزءا منها الآن المنبر الذى عمله السلطان حسام الدين لاجين • ولم يبق من مقصورة ابن طولون أى أثر • وعنى ابن طولون بدار الامارة فزينها بالفرش والستور ، وكان ينزل بها اذا ذهب الى صلاة الجمعة بالجامع ، فيجلس فيها ويجدد وضوءه ويغير ثيابه [1] • وخربت هذه الدار فيما خرب من القطائع على يد محمد بن سليمان الكاتب قائد الجند العباسيين الذى قضى على الدولة الطولونية •

***

وهناك رأى للأستاذ كريسول يتصل بجامع ابن طولون وبنائه نجد فيه بعض المغالاة ، اذ يقول : « ان جامع ابن طولون من نواحى عديدة بناء أجنبى عراقى أقيم »
« على أرض مصر ، ولا بد أن يكون قد استخدم فيه عدد كبير من الصناع العراقيين »
« لعمل زخارفه فى الخشب والجص • ولا يدعو هذا للعجب ، فان ابن طولون »
« قد جاء من العراق ولا شك أنه قد تبعه ألوف من العراق عندما سمعوا أنه قد »
« تولى الحكم • غير أنه كان يوجد كثير منهم من قبل ، ولدينا دليل قاطع على ذلك »
« اذ يذكر لنا ابن الداية أنه فى نحو سنة **٢٤٧**هـ (**٨٦١**م) فر أحد أنصار المستنصر »
« (العباسى) الى مصر متخفيا فوجد عددا كبيرا من الناس من بغداد ، حتى لم يشعر »
« بأنه فى أمان من كشف أمره فى تلك المدينة » [2] •

وبجانب هذا الرأى الصواب لأنه قام على أساس خاطىء هو اعتبار الزخرفة وعناصرها هى العمارة ، بينما تتمثل أسس العمارة أولا وقبل كل شىء فى تخطيط وتصميم المسقط والكتل المعمارية • وأن هذا كله فى جامع أحمد بن طولون له طابعه المحلى المصرى الصريح كما ذكرنا من قبل • بل ان الزخارف نفسها فى الجامع قد أصابها من التحوير والتطور ما أبعدها عن مثيلاتها فى سامرا الى حد واضح • ومع كل ذلك فانه ليس يضير المهندسين والفنانين العرب فى مصر أن يشترك معهم اخوة من العراق أو الشام أو الغرب الاسلامى فى انتاج قطعة معمارية أو فنية ، فكلهم أصحاب علم وفن وصناعة •

***

(١) المقريزى : جـ ٢/ص ٢٦٩ .
(٢) E.M.A., II, p. 356.

ثم أصبح عدد المساجد الجامعة فى مصر الفسطاط ــ عاصمة الديار المصرية ــ ثلاثة جوامع بعد بناء جامع ابن طولون • فاذا علمنا أن الصلاة الجامعة فى ذلك الوقت كانت فرضا واجبا لا يتخلف عن أدائها الا المرضى والنساء والأطفال وغير المسلمين ، لأمكننا أن نصل بالتقريب الى عدد سكان العاصمة فى وقت ابن طولون ، أى فى قمة ازدهارها فى عصر الولاة قبل الفتح الفاطمى •

فمن المعروف أن الشخص عند صلاته يشغل ما يقرب من متر واحد مربع أو أقل قليلا ، وكانت مساحة جامع عمرو بن العاص نحو ١٣٠٠٠ متر مسطح (أى ١١٠ × ١٢٠ مترا) ، فاذا أضفنا اليها الزيادات التى تصل الى نصف المساحة السابقة، فتصبح الجملة نحو ٢٠٫٠٠٠ متر مسطح • واذا فرضنا أن جامع العسكر كان يساويه فى المساحة ، وأن جامع ابن طولون تصل مساحته ٢٥٫٠٠٠ متر مسطح ، واذا جمعنا المساحات كلها لأصبح المجموع نحو ٧٥٫٠٠٠ متر مسطح يتسع لنحو ٨٠٫٠٠٠ (ثمانين ألف) شخص من المصلين من الرجال والبالغين ، واذا فرضنا أن النساء والأطفال وغير القادرين على الصلاة وغير المسلمين يبلغون أكثر من ضعف ذلك العدد ، لوصلنا الى أن عدد سكان العاصمة فى ذلك الوقت كان يقرب من ٢٥٠٫٠٠٠ نسمة ، أو ربع مليون شخص كانوا يشغلون العاصمة التى كانت مساحتها تبلغ حوالى ثمانية كيلومترات مربعة •

***

والى جانب تلك المساجد الجامعة الثلاثة الكبيرة فقد اهتم الأفراد من الشعب ببناء مساجد صغيرة عديدة فى الخطط المختلفة [١] • وقد بالغ عدة مؤرخين فى عدد تلك المساجد ، فذكروا أنه يصل الى ٣٦٠٠٠ مسجد • وهو عدد غير معقول ، اذ لو فرضنا أن المسجد الواحد منها كان على هيئة قاعة تبلغ مساحتها فى المتوسط نحو ٢٠٠ متر مربع ، لبلغ مجموع مساحة هذه المساجد نحو ثمانية كيلومترات مربعة ، أى ما يعادل مساحة العاصمة كلها ، فكأن المدينة لم يكن بها سوى المساجد فحسب بغير منازل أو أسواق أو حمامات أو غير ذلك من أنواع العمائر الأخرى • غير أن هذا قد عدل فى قول آخر الى عدد معقول هو ٤٨٠ مسجدا [٢] •

***

(١) روى المقريزى هذا العدد عن القضاعى ــ الخطط : ج ١/ص ٣٣٠
(٢) المقريزى : الخطط ، ج ٢/ص ٤٠٩

قناطر مياه ابن طولون :

ترك أحمد بن طولون أثرا معماريا هاما آخر هو قناطر المياه التى تعرف الآن « بمجرى الامام » (ش : ٣٢٣ ـ ٣٢٦) • ويمكن الوصول اليها من نفس الطريق الموصل الى قرافة البساتين في الوقت الحاضر ، ذلك أن المرء اذا سار فى الشارع الموصل الى الامام الشافعي وقبل أن يصل الى نهاية الترام يدخل فى شارع الطحاوية الى اليسار ، ثم ينعطف الى اليمين فى شارع الكردى ، وبعد ما يقرب من كيلومترين تظهر له القناطر وبرج المأخذ المتصل بها على بعد نحو نصف كيلومتر [١] من هذا الشارع المؤدى الى البساتين والمعادى (ش : ٣٢٣) •

وبرج المأخذ هذا هو أكثر الأجزاء الباقية تماسكا . وشيد عند حافة صخرة بارزة من الأرض عند نقطة يخرج منها واد صغير اقتطع من الصخر ويتجه نحو السهل الخصب لقرية البساتين •

والبرج كتلة مشيدة بالآجر بداخلها بئر مفرغ مفتوح الى السماء ، وعلى جانبيه غرفتان يغطيهما قبوان (ش : ٣٢٤) • وينقسم البئر الى قسمين ، ويسحب الماء منهما بواسطة ساقيتين ترفعانه الى المجرى فوق ظهر البرج ، ثم يسير منه فى مجرى وضع فوق القناطر التى تخرج من البرج فى انحراف يبلغ ١٤٠ درجة على جانب البرج الشمالى ، وبعد نحو ١٧ مترا ينحرف اتجاه القناطر من الشمال الغربى الى الشمال بميل قليل نحو الغرب ، ثم ينحرف مرة أخرى بعد ١٢٢ مترا نحو الشمال بميل الى الشرق ، ويمتد بعد ذلك خط مستقيم نحو مئذنة شاهين أغا الخلواتى • غير أن أكثر عقود هذه القناطر قد تهدم وأصبح فى حالة خربة (ش : ٣٢٦) •

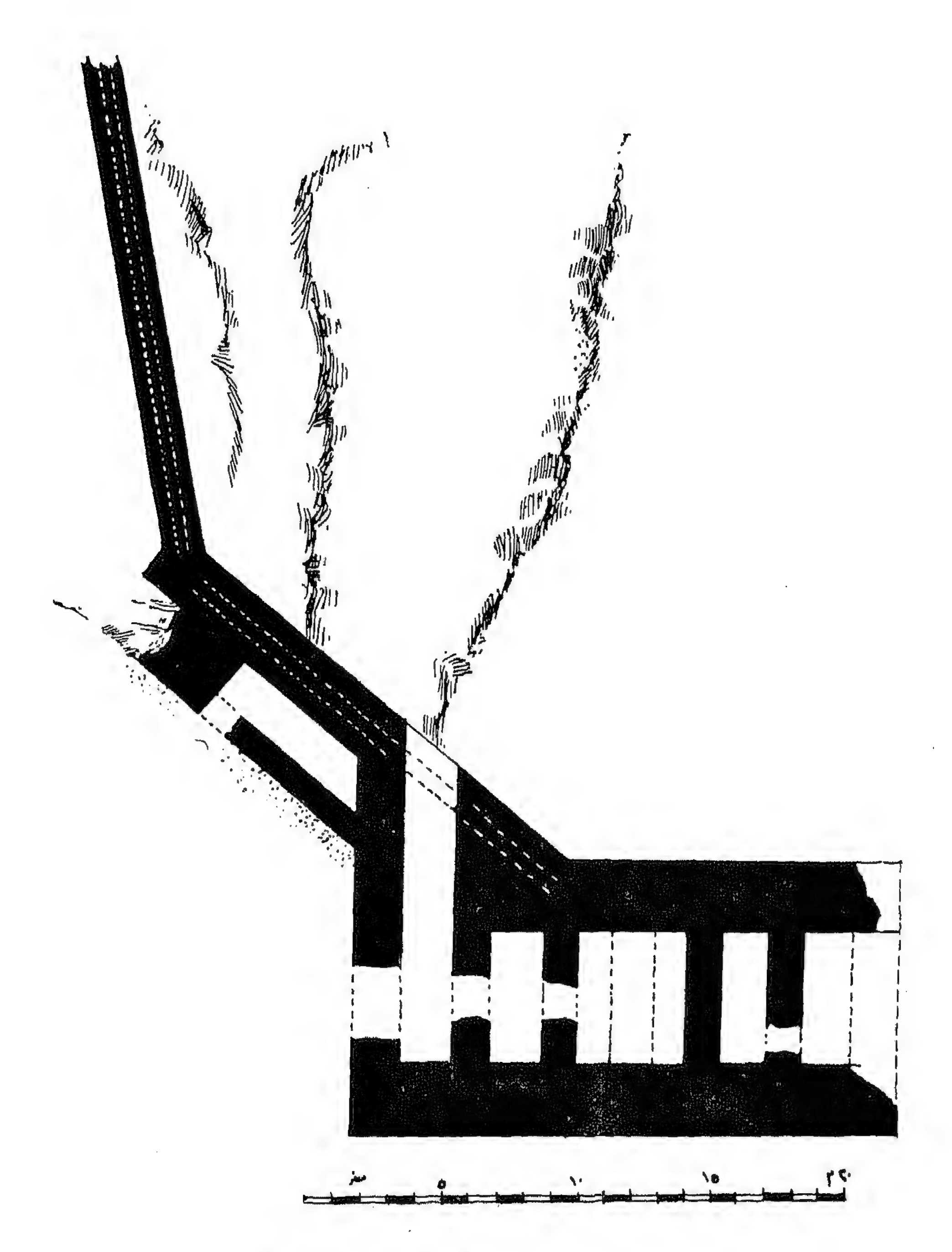
***

ويبدو أن الأمر قد التبس على المقريزى فيما يتعلق باسم من شيد القناطر ، فقد ذكر أن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب لما دفن ابنه فى سنة ٦٠٨ (١٢١١م) بجوار قبر الامام محمد بن ادريس الشافعى ، وبنى القبة على قبره ، أجرى لها الماء من بركة الحبش بقناطر متصلة ، فكان ذلك سببا فى زيادة العمران فى تلك القرافة [٢] • غير أن طريقة بناء قناطر البساتين لا تدع مجالا للشك بأنها وثيقة الاتصال بأسلوب بناء جامع ابن طولون مما يرجح نسبة القناطر الى أحمد بن

(١) زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ، ص ٦٤ ـ ٦٦ ، لوحة ١٩ ، Hautecoeur : et Wiet : Les Mosquées, I, pp. 122, 209 ; II, Pl. 3 ; E.M.A., II, pp. 329-332, Fig. 244, Pl. 94.

(٢) المقريزى ، جـ : ٢ ، ص : ١٥٢ .

مسقط ماخذ المياه



ش : ٣٢٤ ـ ماخذ مياه قناطر ابن طولون ، مسقط

طولون . أى أن المقريزى قد صدق فى جـــزء من قصته عن بنـاء ذلك الجامع أن المهندس الذى بناه كان هو نفسه الذى بنى تلك القناطر من قبل ، أى قبل سنة **٢٦٣**هـ (٨٧٦م) وهو تاريخ البدء فى بناء الجامع . أما بقية القصة الخاصة بأن المهندس كان نصرانيا فهى غير صحيحة للأسباب التى ذكرناها من قبل .

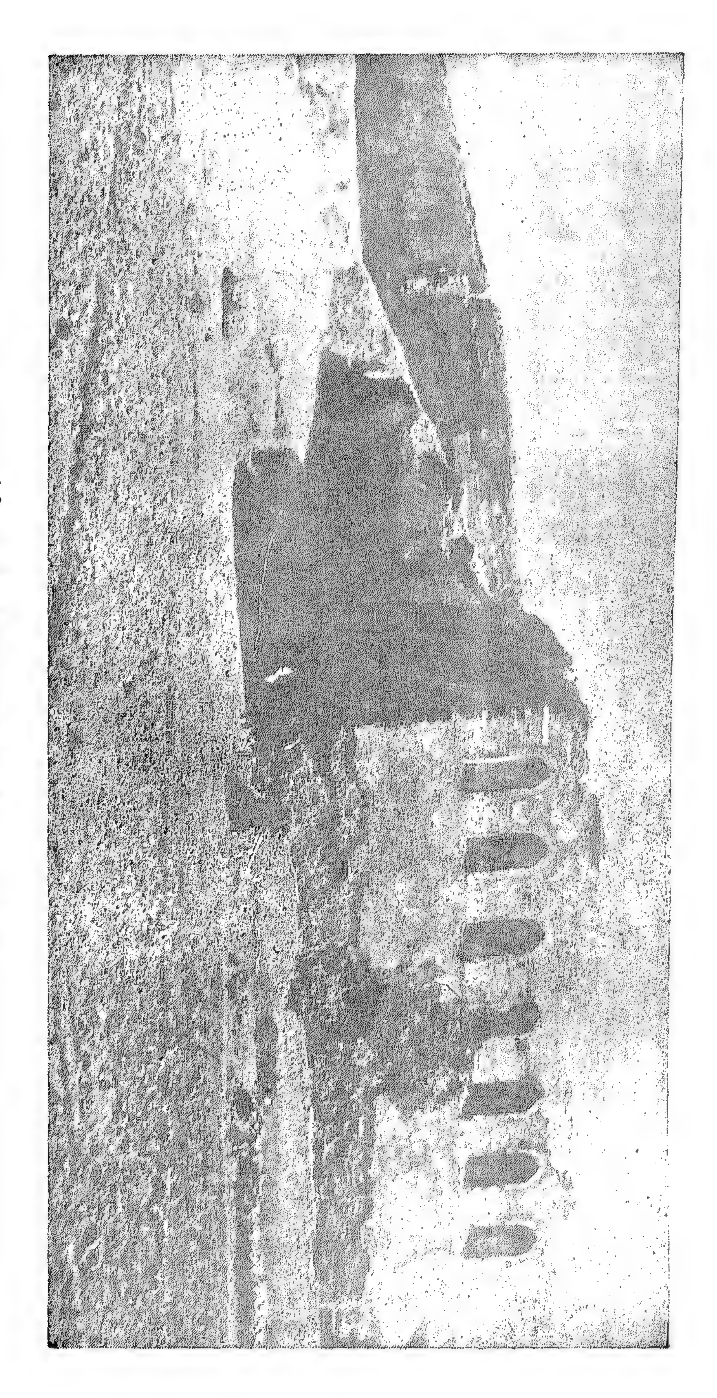
ويذكر ابن دقماق قصة عن سبب بناء تلك القناطر والبئر التى تأخذ منها ، أن أحمد بن طولون خرج ذات يوم الى تلك المنطقة وسبق من كان معه من الجند ، فوجد فى مسجد الاقدام فى تلك الجهة خيـاطا ، وشـعر ابن طولون بالعطش فطلب ماءً من الخياط فأخرج له كوزا وطلب منه أن يقتصد فى الشرب ، ولكن ابن طولون شرب أكثره ، ثم علم من الخياط أن طلبه الاقتصاد فى الشرب سببه أن الموضـــع منقطع والماء عزيز المنال . ولما عاد ابن طولون الى قصره طلب الخياط وأرسل معـه المهندسين فحفروا بئرا سميت « بالعفصة الكبرى » [1] ، وبنوا فوقهـا البرج ومدّوا القنـاطر . وكانت تلك البئر التى سـماها المقريزى بالبئر الطولونيـة [2] على الحـد الشمالى لبركة الحبش التى كانت تقع على الحدود الجنوبية لمدينة مصر الفسطاط ـ أى العاصمة ـ وكانت بركة عظيمة تمتد من النيـل حتى تلال المقطم عند منطقة بساتين الوزير القديمة والمعروفة اليوم بالبساتين (شكل : ١٩٨) .

***

ويسترعى انتباهنا ما هناك من ضعف فى قصة ابن دقماق عن سبب بناء أحمد ابن طولون لتلك القناطر ، فليس من المنطق أن ينفق ابن طولون المال الكثـير الذى تكلفه بناؤها لمجرد نقل المياه الى بقعة من الصحراء أو من القرافة لا ينتظر أن يسكنها الا النذر اليسير من الناس ، وانه لا بد من وجود سبب وحافز آخر أقوى مما ذكره ابن دقماق .

وقد دعانا ذلك الشك الى أن نتتبع موقع القناطر ومأخذ مياهها على الخـريطة المساحية ، فتبين لنا أن العلامة كازانوفا Casanova قد زحزحها عن موقعها الحقيقى، وذلك فى الخريطة التى جمع فيها نتائج بحثه وتحليله لما ذكره المؤرخون عن أحياء الفسطاط فى الدراسـة القيّمـة التى نشرها عن طبوغرافيتها (ش : **٢٠٣**) . هذا وقد صححنا موضع القنـــاطر فى الخريطة التى أعـددناها للعاصمة الكبيرة القديمة (ش : **١٩٨**) ، كما وضحنا تخطيط القناطر فى رسم تفصيلى آخر (ش : **٣٢٣**).

(١) ابن دقماق ، ج : ٤ ، ص : ٥٧ ــ ٥٨ .
(٢) المقريزى : ج ٢/ص ١٩٢ .



ص : ٢٢٥ — منظور لمأخذ المياه لقناطر مياه ابن طولون

ونتبين من ذلك أن خط سيرها لايسمح بأن تصل الى البركة عند عين الصيرة كما ظن كازانوفا ، بل يبعد عنها بمقدار كيلومترين تقريبا •

ويمكننا أن نخلص ببضع نتائج معمارية وحضارية من استعراض موقع هذه القناطر وعلاقتها بأعمال ابن طولون •

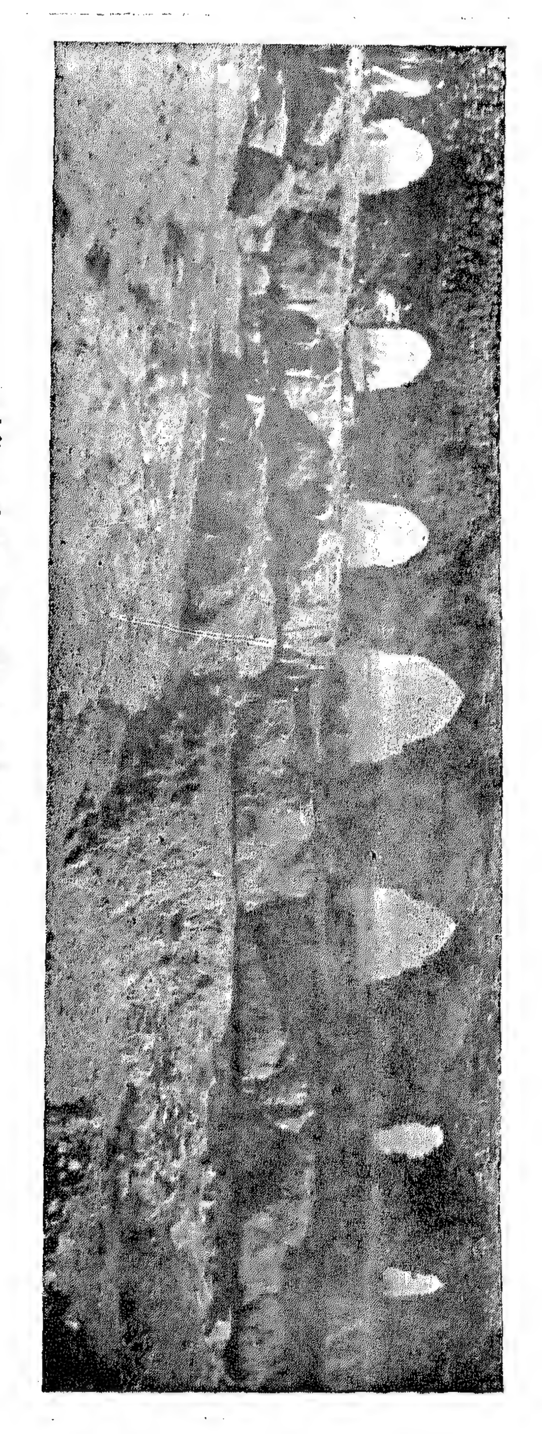
ذلك أنه يتبين لنا أن بداية القناطر أى البئر المشيدة التى كان يرفع منها الماء بواسطة ساقيتين تعيّن ـ حسب أقوال المؤرخين ـ نقطة على حدود بركة الحبش التى كانت تشغل مساحة كبيرة من الأرض فى جنوب الفسطاط من القرافة الكبرى الى شمال قرية البساتين أو بساتين الوزير • وأن الحدود الشمالية للبركة كانت تبعد نحو كيلومترين ونصف عن ضريح الامام الشافعى •

ويتضح أيضا أن بركة الحبش ظلت تستمد ماءها من النيل مباشرة فترة طويلة من الزمن وذلك عن طريق بركة (الشعبية) ثم خليج بنى وائل الذى كان يخرج من النيل جنوب قصر الشمع بنحو ٣٠٠ متر ، أى قبل أن يتفرع عند رأس جزيرة الروضة الى فرعيه المعروفين (ش : ١٩٨ ، ٢٠٣) ، وأحدهما الفرع الذى يسير بحذاء الفسطاط ، والذى يحدثنا المؤرخون عنه انه كان ينحسر شيئا فشيئا عن أرض تضم من ضفته الشرقية الى مساحة الفسطاط مناطق جديدة مع مرور الوقت ، حتى ضاق مجراه الى حد أنه كان يجف وقتا من السنة حتى يأتى موسم الفيضان التالى وهكذا •

كل ذلك جعل المناطق على شواطىء بركة الحبش تحتفظ بمياه جوفية طوال السنة ويمكن استخراجها بسهولة نسبية من آبار تحفر على قرب منها •

ولو تتبعنا تخطيط بقايا قناطر ابن طولون من عند بئر المأخذ واتجاهها نحو الشمال لوجدنا أن امتدادها يسير ليتصل بامتداد شارع سيدى عقبة حتى ميدان جامع الامام الشافعى • وقد قطع امتداد القناطر فى الوقت الحاضر التقسيم الجديد لقرافة سيدى عقبة الذى خطط منذ عهد قريب جنوب ضريح الامام الليث (ش : ٣٢٣) •

كذلك لو زدنا فى امتداد خط اتجاه القناطر على استقامة شارع سيدى عقبة من ميدان جامع الامام الشافعى نحو الشمال لوجدناه يسير مطابقا تقريبا لخط شارع الامام الشافعى الذى به الترام الآن حتى يصل الى موضع سجن مصر الذى تقرر هدمه أخيرا لتضم أرضه الى الميدان الذى يبدأ من هذا الموضع حتى ميدان صلاح الدين • وهذه المنطقة كلها هى التى كان يشغلها القصر العظيم الذى بناه أحمد بن طولون لنفسه فى شمال القطائع وسمى قصر الميدان وجعل فيه الحدائق الغناء والبساتين العامرة والملاعب



ش : ٣٢٦ – منظور للقسم من القناطر الحاملة لمجرى المياه

والساحات كما تقدم ذكره (ص : ٤٢٥ ـ ٤٢٧) • فكان القصر مترامى الأطراف ، وفاق الترف فيه حدود الخيال ، وبخاصة أيام خمارويه بن أحمد بن طولون • ولو كان الشعراء الذين نظموا القصائد الكثيرة البليغة فى وصف القصر وما به من أنواع الترف قد وهبوا دراية معمارية مثلما وهبوا من ملكة الشعر لأمكن لنا أن نترجم اشعارهم الى خطوط ورسوم ونجعل منها صورا لذلك القصر وتفاصيله ، ونقرّب الى الأذهان شيئا مما كان عليه القصر قبل أن يعيث فيه القائد محمد بن سليمان الكاتب وجنده العباسيون ، فيشيعون فيه الدمار ويشعلون فيه النيران حتى أصبح أثرا بعد عين •

ويهمنا من كل ذلك فيما يختص ببحثنا عن القناطر أن مثل ذلك القصر الكبير الذى قيل عنه انه كان يعادل القطائع اتساعا كان يسكنه بلاط أحمد بن طولون وحاشيته وجنده • وكان لا بد من تزويد هذا العدد الكبير من الناس وكذلك الحدائق والبساتين بالماء الغزير ، أو الكفى على الأقل ، بكل الطرق الممكنة التى تيسر الحصول عليه •

وأول ما يتبادر الى الذهن أن تحفر عدة آبار كافية لذلك الغرض ، غير أن هذه الطريقة لم تكن يسيرة قط بسبب عدة عوامل تجعل منها أمرا شاقا بالغ الصعوبة• ومن تلك العوامل طبيعة الأرض الصخرية فى هذه المنطقة التى تقع فى حضن تلال المقطم • ومنها العمق الكبير الذى يجب أن تصل اليه الآبار حتى تظهر المياه الجوفية• اذ ان المنطقة ترتفع عن ساحل النيل بنحو عشرين مترا ، يضاف اليها عدة أمتار هى مقدار الميل الذى تتخذه المياه الجوفية عادة على طول المسافة بين شاطىء النيل وموضع الابار • وهى تبلغ نحو كيلومترين ونصف فى هذه الحالة • ويضاف الى كل ذلك احتمال تعرض المياه الجوفية فى أثناء تسربها فى مسام الأرض فى تلك المسافة الطويلة للاختلاط بأنواع من الأملاح التى تحتوى عليها الأرض وبخاصة فى المناطق الصخرية فتصبح غير مستساغة الطعم وغير صالحة لرى الأشجار والنباتات •

وقد حدث مثل ذلك عندما حفر البئر داخل قلعة صلاح الدين يوسف بن أيوب والذى عرف من ذلك ببئر يوسف • ذلك أن الحفر بعد أن وصل الى منسوب المياه الجوفية على عمق يقرب من ثمانين مترا اتضح أن ماءها متغير المذاق وغير مستساغ • الطعم [1] مما جعل الوزير بهاء الدين قراقوش ، القائم على بناء القلعة والأسوار التى تحصن العاصمة ، يعمد الى ايصال الماء الى القلعة بمجرى للمياه فوق السور الذى

(١) المقريزى ، ج : ٢ ، ص : ٢٠٤ •

يخرج من القلعة ويسير جنوبا بغرب حتى يصل الى ساحل النيل جنوب قصر الشمع (شكل ١٩٨) • ولم يكن السلطان صلاح الدين مبتكراً عمل مجرى للمياه ومده مسافات طويلة ، فانه لا يسعنا أمام النتائج التى وصلنا اليها هنا وبعد تتبعنا لتخطيط قناطر مياه ابن طولون الا القول بأن أحمد بن طولون هو أول من بنى قناطر المياه فى مصر لايصالها الى قصره أسفل الهضبة التى قامت فوقها قلعة صلاح الدين بعده بثلاثة قرون ، وأن صلاح الدين الأيوبى قد اقتبس هذه الفكرة من ابن طولون ، ولكنه انتفع بالسور الذى كان قد بدأ فى بنائه ليحيط بالعاصمة القديمة فى أيامه ، فجعل فوقه مجرى مغطى يحمل الماء من شاطىء النيل بدلا من بركة الحبش • وعلى الرغم من أن طول هذا السور الجنوبى والمجرى فوقه يزيد عن طول مجرى ابن طولون من شاطىء بركة الحبش حتى قصر الميدان ، فان صلاح الدين قد أمن بذلك أن لا يقطع الماء عن قلعته اذا ما تهددها خطر الحرب وحصار • ولكن مما هو جدير بالذكر ان مجرى السور لم يتم الا فى عهد الكامل بن العادل أخى صلاح الدين، وذلك حتى يسكن قلعة الجبل بصفة دائمة ، وذلك بدلا من الاقامة فى منطقة حصن القاهرة والتردد من حين لآخر على القلعة ، كما كان يفعل أبوه العادل وعمه صلاح الدين من قبل •

ويبدو أن أحمد بن طولون لم يكن ينتظر خطرا أو يخشى تهديدا فى الوقت الذى شرع فيه فى بناء قناطر المياه أو كان مطمئنا الى وجود من يحمى ظهره فى بلاط الخليفة العباسى فى بغداد ، ومن ناحية أخرى فلعل نفسه لم تكن قد بدأت تحدثه بالاستقلال بمصر والانفراد بالسيطرة عليها والخروج عن طاعة الخليفة العباسى ، وهو ما حدث بعد ذلك ، فاضطر الى بناء حصن له فى جزيرة الروضة كما سيأتى ذكره •

واذن لم يكن هناك أمام مهندسى أحمد بن طولون فيما يتعلق بقناطر المياه سوى المشاكل الهندسية والاقتصادية فحسب • والحق انهم وفقوا فى حلها توفيقا كبيرا • فان اختيارهم لموضع البئر عند شاطىء بركة الحبش كان يخدم الغرضين اللذين يغلب على ظننا ان أحمد بن طولون كان يهدف اليهما من بنائه لقناطر المياه ، وهما حمل الماء الى كل من قصره المترامى الأطراف ، والى منطقة القرافة التى يوجد بها بقعة لها مكانتها الدينية الكبيرة عند الناس هى قبر الامام الشافعى الذي توفى فى سنة ٢٠٤هـ (٨٢٠م) ودفن فى مقابر أولاد عبد الحكم فى نفس المكان الذى شيد فوقه الملك الكامل بناء الضريح الحالى ، والذى قال عنه المقريزى « فلما دفن الملك الكامل » « محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب ابنه فى سنة ثمان وستمائة (١٢١١م) بجوار »

« قبر الامام محمد بن ادريس الشافعي وبنى القبة العظيمة على قبر الشافعي وأجرى » « لها الماء من بركة الحبش بقناطر متصلة منها ••• »[1]• وأغلب ظننا انه قد ابهم على المقريزى ، فما كانت هذه القناطر سوى تلك التى بناها أحمد بن طولون من قبل ، وان الوهن قد تطرق اليها مر الزمن فاصلحها الكامل واعادها الى ما كانت عليه • ولم تكن هذه أول مرة تكرم فيها تلك البقعة التى دفن فيها الامام الشافعى ، فقد شيد صلاح الدين الأيوبى فى سنة ٥٧٥هـ (١١٨٠م) مدرسة بجوار قبره سميت بالمدرسة الناصرية نسبة الى لقبه «الناصر» • وما كان صلاح الدين ليشيد مدرسة يقيم فيها المدرسون والطلبة فى تلك البقعة الا اذا كانت عامرة مأهولة تتوفر فيها سبل المعيشة نسبيا والماء أهمها • وكل ذلك يعزز رأينا فى أن قناطر ابن طولون كانت واصلة اليها وأنها كانت تقوم بوظيفتها على وجه مرض حتى زمن صلاح الدين ولعله قام باصلاحها ، ولم تدع الحاجة الى اصلاحها مرة أخرى الا بعد ذلك بنحو ثلاثين سنة فى أيام الكامل ابن أخيه •

وبالاضافة الى الفائدة المزدوجة التى يوفرها اختيار بدء القناطر من عند شاطىء بركة الحبش ، أى توفير الماء لتلك البقعة المباركة من القرافة من ناحية ، ولقصر الميدان من ناحية أخرى ، فهناك ميزة هندسية واقتصادية هامة يوفرها موقع وتخطيط القناطر ، هى فارق نحو عشرة أمتار فى الارتفاع بين منسوب الأرض عند بئر مأخذ القناطر على شاطىء بركة الحبش وبين منسوب الأرض عند شاطىء النيل • ولا يقتصر الاقتصاد فى النفقة على بناء القناطر ومأخذ المياه من ناحية ذلك الارتفاع الكبير فحسب ، بل أيضا من ناحية ما يترتب عليه من عرض القناطر نفسها ، فقد أمكن عمل العرض نحو ١٫٥٠ مترا فقط بينما تطلب ارتفاع قناطر المياه التى شيدها الناصر محمد بن قلاوون من عند فم الخليج والمعروفة بمجرى العيون أن يقرب عرضها من ثلاثة أمتار بل يزيد على ذلك فى بعض المواضع • ومما هو جدير بالذكر أن هذه القناطر بناها الناصر محمد من فم الخليج لتلتقى بسور صلاح الدين وتستمر فوقه الى القلعة لتزويدها بالماء ، ولكنه مدها أيضا من نقطة التلاقى جنوبا بشرق فى اتجاه قبة الامام الشافعى (ش : ١٩٨) ، مما يدل على أن نفس الوازع الدينى كان قائما فى جميع العصور ليدفع أصحاب السلطان الى التبرك بتلك البقعة • ولكن من الواضح أن هذا الهدف الدينى لم يكن الحافز الوحيد للاهتمام ببناء قناطر المياه فى تلك الجهات ، بل كان يشترك معه هدف آخر مدنى هام منذ أيام أحمد بن طولون•

---

(١) المقريزى ، ج : ٢ ، ص : ٤٤٤ •

وقد يتبادر الى الأذهان أن تزويد مدينة القطائع بالماء كان يتم أيضا بواسطة قناطر ابن طولون . ولكننا لسنا نظن ذلك بسبب أن منسوب الأرض حول جامع ابن طولون ينخفض بكثير عن منسوب ميدان صلاح الدين ولا يعلو الا قليلا عن شاطيء النهر مما كان يسمح بحفر الآبار في سهولة نسبية . ومن أشهر الآبار فيها بئر الوطاويط التي حفرت في العصر الفاطمي على بعد قليل من جامع ابن طولون . ولا زلت أذكر الدار الكبيرة التي كانت قريبة من الجامع وقضيت فيها شطرا من طفولتي كما ذكرت في المقدمة ، وكان بها بئر ثبت فوقه غطاء بعد انتشار توزيع المياه بواسطة الأنابيب ، كما كان بكل الدور الأخرى في المنطقة مثل تلك البئر .

***

وهكذا يتضح لنا أن دراسة البقايا الأثرية المادية يمكن أن تهدينا الى نتائج تفسر لنا نواحي حضارية لم يذكرها المؤرخون . بل تصحح لنا معلومات تاريخية ينقصها التحقيق والدقة العلمية .

***

وشيد أحمد بن طولون مارستانا بمصر بمنطقة العسكر في سنة ٢٥٩ هـ (٨٧٣ م) ، وفي رواية أخرى أنه شيده في سنة ٢٦١ هـ (٨٧٥ م) . وأنفق على بنائه ٦٠٠٠٠ دينار [١] ، ويقال انه أخذها من الكنز الذي عثر عليه في الصعيد ، وكان مقداره مليون دينار [٢] . كما سيأتي ذكره .

ويعد ما جاء ذكره المقريزي عن الأحباس في معرض الحديث عن ذلك المارستان من أقدم ما ورد صراحة عن الأوقاف في كتابات المؤرخين . اذ حبس بن طولون عليه دار الديوان ودوره في الأساكفة والقيسارية وسوق الرقيق ، وشرط في حجة الوقف أن لا يعالج في المارستان جندي ولا مملوك . وعمل فيه حمامين أحدهما للرجال والآخر للنساء ، وشرط أنه اذا جيء بالعليل تنزع ثيابه ويحفظ ما معه عند أمين المارستان ، ثم يلبس ثيابا ويفرش له ويوالى بالأدوية والأغذية والرعاية الطبية حتى يبرأ . وكان يعرف انه شفي اذا أكل فروجا (أي فرخة) ورغيفا ، فيأمر بالانصراف ، ويعطى ما له وثيابه [٣] . وكان يدخل المارستان كل من شكا علة من حمى أو كسر أو مرض في العين الى غير ذلك من الأمراض البدنية والعقلية أيضا ، فقد كان

---

(١) المقريزي : جـ ٢/ص ٢٦٧ ، ٤٠٥

(٢) ب) المقريزي : جـ ٢/ص ٢٦٦ – ٢٦٧

(٣) ابن دنماق : جـ ٢/ص ٩٩ ، المقريزي : جـ ٢/ص ٤٠٥ – ٤٠٦

فيه جزء مخصص للمجانين • مما جعل النـاس فى العصـور الاخيرة يظنون خطأ أن المارستان كان مخصصا كله للمجانين •

وكان ابن طولون يركب بنفسـه فى كل يوم جمعة ليتفقد خزائن المارسـتان وسير العمل فيه والأطباء ، وينظر فى أحوال المرضى والمحبوسين من المجـانين • ثم أمتنع عن زيارة المارستان بعد أن اعتدى عليه أحد أولئك المجانين •

ولم يكن مارستان أحمد بن طولون هو الوحيد الذى شيد بالفسطاط فى عصر الولاة ، اذ شـيد مارســتان آخـر فى سـنة ٣٤٦ هـ (٩٥٧ م) أمر بعمله كافور الأخشيدى ، وبناه الخازن الذى عمر المقيـاس بالأهراء [١] • وعمر الميضأتين اللتين خصصت أحداهما لغسل الموتى والسقاية وحمامى بوران ، وأوقف الاخشيد ذلك كله على المارســتان مع دور وحوانيت • وكان فى هذا المارسـتان من الأزيار الصينى الكبار والقدور النحاس والهواوين والطشوت وغير ذلك ما يساوى ٣٫٠٠٠ دينار • ونقل اليه أضعاف ذلك من مارستان أحمد بن طولون الذى كان يسـمى بالمارستان الأعلى ، وكان مارستان الاخشيد يسمى بالمارستان الأسفل • وخرب المارستانان وبطل استعمالهما قبل نهاية القرن ٨ هـ (١٤ م) [٢] • وليس لدينـا ما يدل على تخطيطهما سوى ما جاء فيما سبق عن الاشارة الى استعمال دار أبى زبيد مارستانا فى عصر الولاة الأمويين (ص : ٣٥٩) •

***

وبقى من العصر الطولونى أو بعده بقليل أثر معمارى يوجد فى بقعة من الصحراء فى الشمال الغربى من مدينة القاهرة فى وادى النطرون حيث شيدت أديرة للرهبـان الأقباط هى دير البراموس ودير الأنبا بشواى ودير أبى مقار ودير السريان •

اذ يوجد فى دير السريان كنيسة صغيرة عبارة عن قاعة تعرف بكنيسة العذراء ، زينت جدرانها باطارات وحشـوات مسطحة وغائرة ، وتنتشر داخلهـا وفيما حولها زخارف جصية معظمها من النوع النباتى المتطور من الطراز الثالث السامرى (ش : ٤١٥ ـ ٤١٦) • وممـا يثير الاهتمـام أن هـذه الزخارف أوثق صلة بذلك الطراز الثالث من زخارف جامع ابن طولون نفسه • وتنسب زخارف كنيسـة العذراء بدير السريان الى حوالى سنة ٣٠٢ (٩٠٤ م) •

***

(١) ابن دقماق : جـ ٤/ص ٩٩ ، المقريزى : جـ ٢/ص ٤٠٦
(٢) ابن دقماق : جـ ٤/ص ٩٩

وهكذا يمكننا القول بأن أحمد بن طولون لم يكن مؤسس أسرة الطولونيين وأول من استقل بمصر فى العصر الاسلامى فحسب ، بل انه كان أول من اكتسبت العمارة والفنون العربية فى مصر فى عهده طابعا اسلاميا خالصا من حيث الجوهر والمظهر معا . فان غرامه الكبير بالبناء قد دفع عجلة تطور العمارة دفعة قوية ، مما جعلها تكتسب ذلك الطابع الاسلامى العربى الخالص فى وقت قصير .

***

وخلفه ابنه أبو الجيش خمارويه بعد موته سنة ٢٧٠ هـ (٨٨٣ م) . واستمرت الخصومة بينه وبين الموفق الخليفة العباسى فى بغداد ثم بين ابنه احمد من بعده ، الى أن مال الاثنان للصلح بعد حروب ومنازعات استمرت عدة سنين . ثم تولى أحمد بن الموفق الخلافة باسم المعتضد سنة ٢٧٩ هـ (٨٩٢ م) وأصدر أمره بولاية خماورويه على مصر هو وولده ثلاثين سنة من الفرات الى برقة ، وجعل له الصلاة والخراج والقضاء ، على أن يدفع فى كل عام ٢٠٠٫٠٠٠ دينار عما مضى و ٣٠٠٫٠٠٠ دينار عن المستقبل . وخلع المعتضد الخلع على خمارويه وتم الاتفاق على زواج المعتضد من أسماء بنت خمارويه المعروفة بقطر الندى فى سنة ٢٨١ هـ (٨٩٤م) .

وأغلب الظن أن خمارويه قد وجد مالا كثيرا خلفه له أبوه فأتاح له الفرصة أن يتغالى مغالاة شديدة فى جهاز ابنته وكانه أراد مضاهاة الخليفة ومنافسته فى الغنى والرفاهية ، حتى قيل انه عمل لها عرشا من أربع قطع من الذهب ، وعليه قبة من ذهب مشبك فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة جوهر . ومن ذلك أيضا أنه جهزها بمائة هون من الذهب ، وألف تكة من الذهب ثمن الواحدة منها عشرة دنانير ، وغير ذلك كثير . ثم أمر أن يبنى لها على رأس كل مرحلة قصر عظيم فيما بين مصر الفسطاط وبغداد ، فاذا حان انتهاء المرحلة منها وجدت قصرا قد فرش فيه جميع ما تحتاج اليه وكأنها فى قصر أبيها . حتى قدمت بغداد سنة ٢٨٢هـ (٨٩٥م) فزفت الى المعتضد . وتوفى أبوها خمارويه فى نفس السنة [١] .

ولعل ما رواه المؤرخون من بذخ خمارويه فى قصوره وحفلاته وجهاز ابنته كان سببا فى أن يصاب بيت المال بهزة شديدة جعلت اقتصاديا تالبلاد ــ وبالتالى شئونها الأخرى ــ فى حالة اضطراب وضعف شديدين ، وظلت تعانى من تلك الحالة حتى الفتح الفاطمى .

ولم يمكث ابن خمارويه فى الحكم الا ستة أشهر ، وتولى أخوه هارون وهو

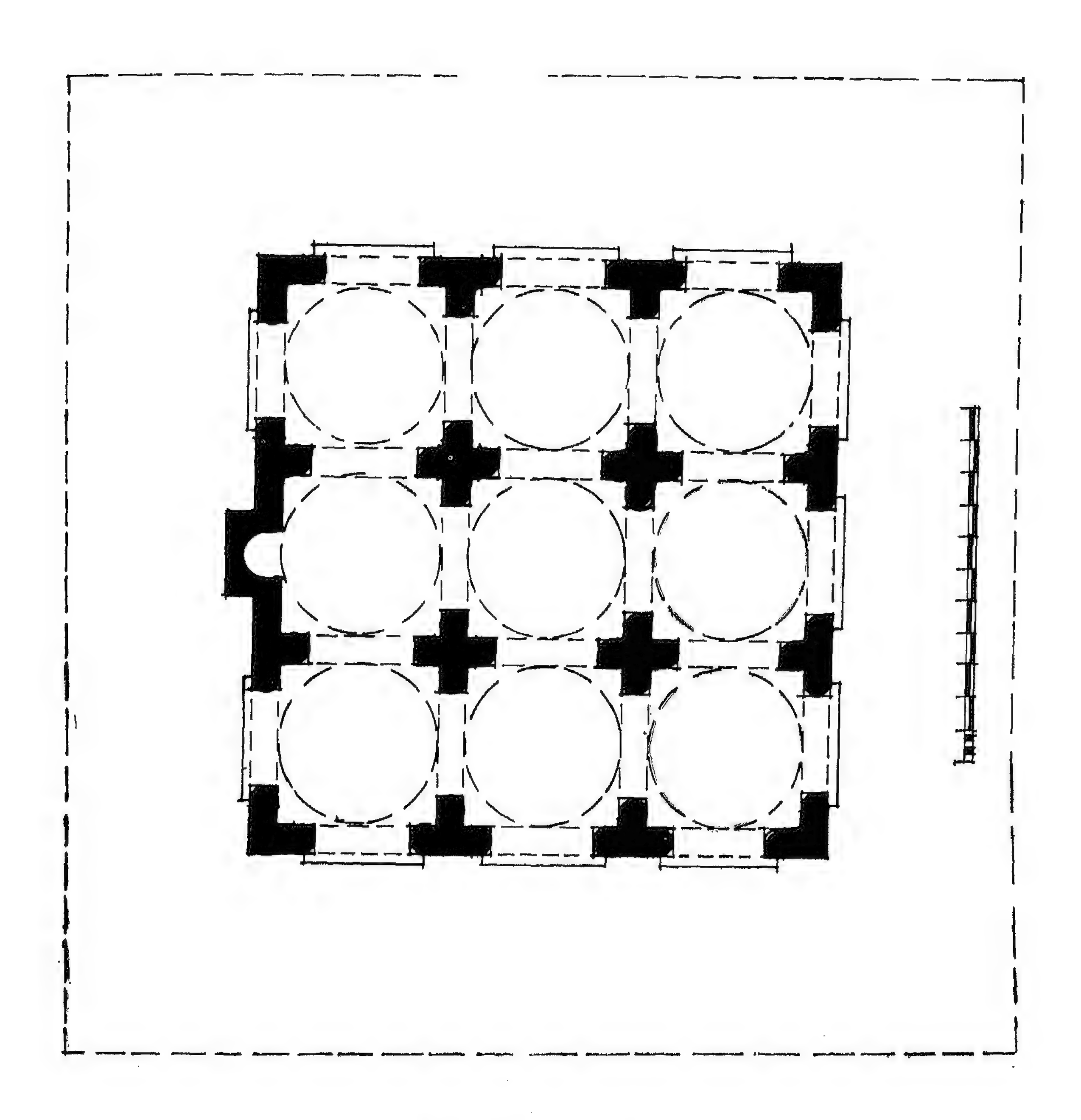
(١) المقريزى : جـ ١/ص ٣١٦ ــ ٣٢١

ابن عشرين ، ومكث نحو ثمان سنين ، تحرك فى أواخرها المكتفى الخليفة العباسى لاخضاع مصر واعادتها ولاية تحت سيطرة بغداد الكاملة . فبعث قائده محمد بن سليمان ، والتقت مراكبه بمراكب هارون وهزمه فى تنيس واستولى عليها وعلى دمياط ، وتفرق عن هارون أصحابه ، واتفق أعمامه على قتله ، وتولى أحدهم وهو شيبان بن أحمد بن طولون الحكم . ولكنه لم يمكث فيه الا اثنى عشر يوماه واستولى محمد بن سليمان على مصر بعد أن انضم اليه قواد شيبان . فدخل الفسطاط عام ٢٩٢ هـ (٩٠٥ م) ، وألقى النار فى القطائع ونهب أصحابه الفسطاط وهاجموا الدور واستباحوا النساء وذبحوا أصحاب شيبان [١] . وبذلك انتهت دولة الطولونيين على ابشع صورة كما هدمت عمائرهم وضاعت قصورهم وما كان فيها من ترف وأبهة يقصر الخيال عنها ، ولم يبق من آثارها الا القليل النادر من العمائر ، مثل بقايا قناطر أحمد بن طولون فى البساتين وجامعه على جبل يشكر - ثم بقايا منزل فى العسكر . أما آثار الفنون الزخرفية فبقيت منها قطع قليلة من الأقمشة والخزف والخشب والجص .

وأخذ الولاة من قبل الخلفاء العباسيين يتعاقبون مرة أخرى على مصر بعد انتهاء أمر الأسرة الطولونية ، ولم يكن الوالى منهم يلبث الا قليلا حتى يقتل أو يعزل ليتولى مكانه آخر أو يعود ليتقلد الحكم مرة ثانية وثالثة وهكذا . واستمر الأمر كذلك نحو ثلاثين سنة ، تقلد الحكم فيها أكثر من أحد عشر واليا كانوا قائمين على الصلاة ، ومعهم من كان قائما على الخراج والقضاء ، فكانت السلطة مجزأة بينهم . وقام بعض أنصار الطولونيين فى أول الأمر بمحاولات للعصيان ، وقامت الحروب بينهم وبين عسكر العباسيين . أضف الى ذلك ما قام به من فتن ودسائس بين الولاة وبعضهم . ثم لاح خطر الفاطميين وأحس به ولاة مصر عندما قدم اليها زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب فى سنة ٢٩٦هـ (٩٠٩م) مهزوما من أبى عبد الله الشيعى ، ثم قامت الحروب بين جند مصر والعباسيين وبين عسكر عبيد الله المهدى وانتصر فيها عسكر الفاطميين ، واستولوا على برقة وساروا الى الاسكندرية فدخلوها فى سنة ٣٠٢هـ (٩١٤م) ، ولكنهم ارتدوا ثانية الى المغرب بعد مجىء عدد كثير من جيوش العراق .

ولا شك أن تلك الحال من القلقلة وعدم الاستقرار لم تكن لتترك فرصة أو مجالا لنشاط معمارى أو فنى تقوم فيه عمائر ذات قيمة أو تنتج فيه تحف أو مصنوعات فنية فى أعداد وفيرة وعلى مستوى عال من القيمة الفنية ، كما كان يحدث فى أوقات الهدوء والرخاء . وأغلب الظن أن الانتاج فى تلك الميادين كان يسير

(١) المقريزى : جـ ١/ص ٣٢٣



ش : ٣٢٧ ـ مشهد طباطبا ، المسقط .

فى تلك الفترة بالخطوات العادية التى تتطلبها ضرورات الحياة من‌مسكن ومأكل وملبس الى غير ذلك . وهجرت القطائع وأقام الولاة بدار الامارة فى العسكر .

واستقرت الأمور قليلا بولاية محمد بن طغج الاخشيد على الصلاة والخراج معا ، ومكث فى‌ولايته نحو أحد عشر عاما ، وخلفه ابنه أنوجور فمكث أربعة عشر عاما، ثم حدث من بعده غلاء وعز وجود القمح ، وزادت هجرة المغاربة الى مصر ، وظهر القرامطة فى الشام ، وقل ماء النيل وأغار ملك النوبة على الصعيد ، واشتد اضطراب الأمور فى الديار المصرية كلها ، وبقيت مصر وقتا بغير أمير ، حتى وليها كافور مولى الاخشيد مدة سنتين ، ومن بعده أحد أبناء الاخشيد سنة واحدة ، وكان عمره احدى عشرة سنة . وانتهى الأمر بقدوم جوهر الصقلى على رأس جيوش المعز لدين الله الفاطمى ، ودخل الفسطاط فى سابع عشر من شعبان سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م) . وكان ذلك فى الوقت الذى أخذ يلوح فيه خطر القرامطة الزاحفين من الشمال الشرقى ، ولكن الفاطميين كانوا أسرع منهم [١] .

ولم يصلنا من العصر الاخشيدى الا أثر معمارى واحد هو مشهد طباطبا (ش : ٣٢٧ - ٣٢٩) [٢] .

***

وهناك مجموعات من الخشب المحفور الذى يتميز بالأسلوب الطولونى مع بعض التطور الضئيل . وكان من رأى فان برشم وكريسول نسبة محراب يعرف بمحراب يحيى الشبيه الى العصر الاخشيدى ولكننا بعد فحصه وتحليله رجحنا نسبته الى العصر الفاطمى المبكر [٣] .

***

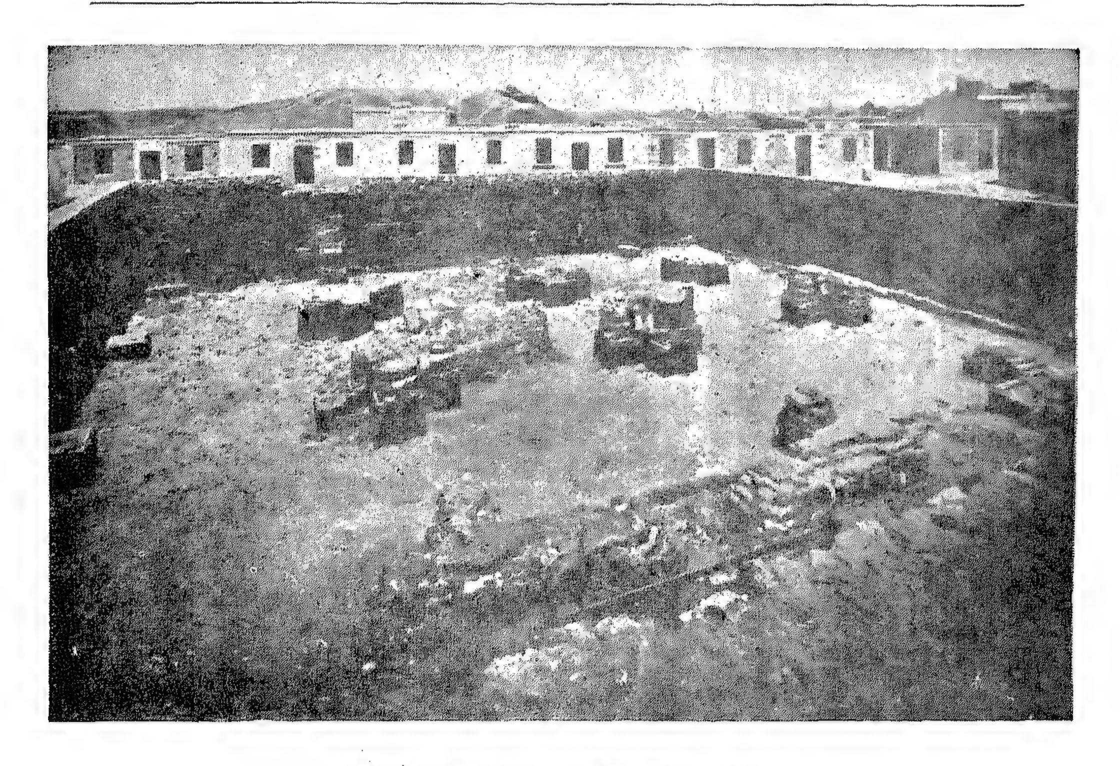
وحدثنا المؤرخون عن بعض الترف الذى كان فيه الاخشيد ومن جاء بعده . ولكنه ترف قليل لا يقاس بما كان عليه الطولونيون من قبل . ومن ذلك البستان الكافورى الذى أنشأه محمد بن طغج الاخشيد واعتنى به وجعل له أبوابا من حديد، وكان به ميدان للسباق واصطبلات الخيول ، وكان ينزل به ويقيم يتنزه فيه هناك . وتبعه فى ذلك خلفاؤه حتى عهد كافور ، فسمى لذلك بالبستان الكافورى . وبنى فى جزء منه فيما بعد القصر الصغير الغربى فى العصر الفاطمى ، وصار ما حول القصر

---

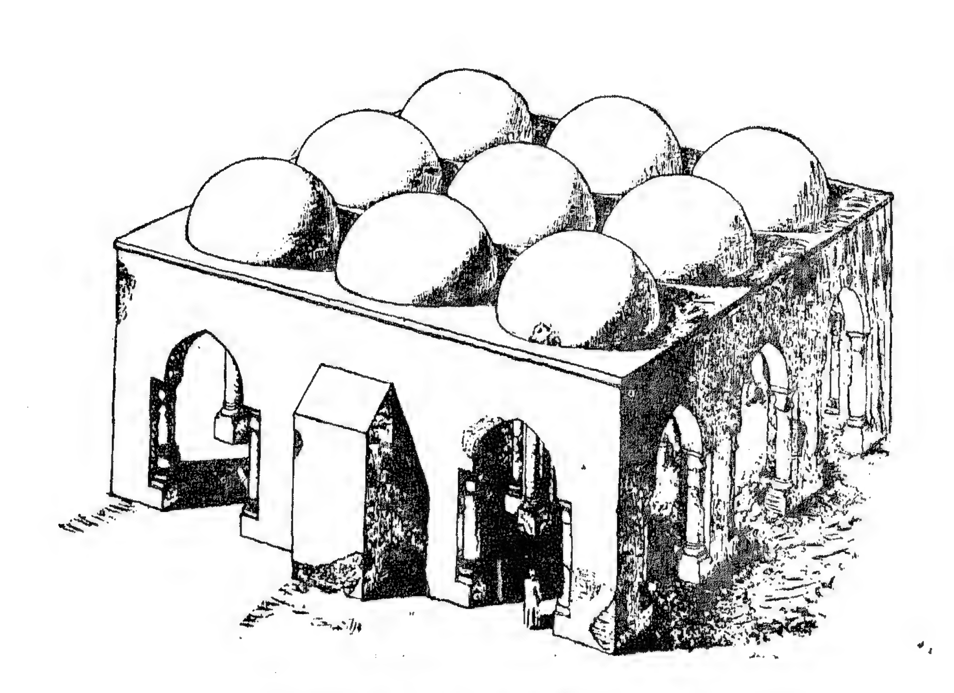
(١) المقريزى : جـ ١/ص ٣٢٧ - ٣٣٠

(٢) Creswell : The Muslim Architecture of Egypt, I, pp. 11-15, Figs. 3-6, Pl. 3 a-b.

(٣) أنظر مقالنا : زخارف وطرز سامرا ، ص : ٣٠ - ٣٢ .



ش : ٣٢٨ ــ مشهد طباطبا ، صورة الخرائب الباقية .



ش : ٣٢٩ ــ مشهد طباطبا ، منظور لحالتها الاصلية .

متنزها للخلفاء الفاطميين شيدوا فيه المناظر [١] . وكان موضعه يحده من الشمال المدرسة الكاملية المواجهة لقصر بشتاك ، ومن الجنوب شارع السكة الجديدة ، ومن الشرق شارع بين القصرين . وكان يطل على الخليج من الغرب الذى مكانه الآن شارع بورسعيد .

وعلى كل حال فان فترة الخمسة والستين عاما التى انقضت بين زوال الطولونية فى عام ٢٩٢هـ (٩٠٥م) وبين فتح الفاطميين لمصر فى سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م) يمكن اعتبارها فترة فتور أو ركود فى النشاط المعمارى والفنى فى مصر ، وحتى لو بقيت منه مخلفات فانها اما أن تكون قد ضاعت مع ما ضاع من الآثار بعوامل الخراب التى تعاقبت على منطقة الفسطاط والعسكر ، أو أنها لم يكن لها طابع يميزها عن منتجات العصر الطولونى الذى يسبقها أو عن العصر الفاطمى الذى جاء بعدها .

***

وهناك نواح هامة من عمارة مصر وحضارتها فى عصر ولاة الخلفاء العرب المسلمين لم تركز عليها الأضواء التى تستحقها من قبل . من ذلك ما يتصل بالقلاع والتحصينات التى لم يعن بذكرها فى كتب المؤرخين الا فى مواضع متناثرة أو ثانوية ، ولم تحتل أماكن بارزة كالتى شغلتها طوال العصرين الفاطمى والأيوبى ، وخاصة ما كان منها متصلا بعاصمة البلاد .

فقد سبق أن أشرنا الى أن المسلمين منذ فتحهم لمصر لم يضعوا فى حسابهم عمل مدينة الفسطاط حصينة منيعة ولم يحاولوا بناء أى حصون تحميها . ولم يكونوا فى هذا معتمدين على حصن بابليون ولم يفكروا فى اتخاذه حصنا أو مركزا للدفاع كما كان حاله أيام البيزنطيين . فاننا نستخلص من أقوال المؤرخ ابن دقماق وغيره أن قصر الشمع أو حصن بابليون قد أصبح خطة من خطط الفسطاط تكثر فيها الكنائس، مثل المعلقة والقمارية وبربارة وأبى سرجة الى غير ذلك [٢] . وكان من الطبيعى أن يكثر عدد سكان هذا الخط من المسيحيين ، بالاضافة الى المساجد ومساكن المسلمين[٣]. وفقد بذلك حصن بابليون أهميته كنقطة حربية تنتفع بها العاصمة الجديدة ، اذ أصبح بمثابة نقطة خلفية لا أمامية ، وذلك بالنسبة لشمال القطر المصرى الذى كانت تأتيه الغزوات من الشمال دائما ومن الشمال الشرقى بالذات .

وبمناسبة ذكر قصر الشمع أو قصر الروم فان لكلمة « قصر » هذه كان فيها

(١) المقريزى : جـ١/ص٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢.
(٢) ابن دقماق : جـ٤/ص١٠٧ ، جـ٥/ص٣٨ — ٣٩ .
(٣) ابن دقماق : جـ٤/ص٨١

معنى الحصن أو المكان الحصين • وكان هذا المعنى واضحا فى العصر الاموى والعصر العباسى الاول • فقد وصل الينا كثير من القصور الاموية فى الشام واخرى فى العراق من العصر العباسى المبكر ، وكلها تقريبا محاطة بالجـدران القوية المدعمة بالأبراج العظيمة ، وزودت جـدرانها وأبراجها ومداخلها بانواع البدع المعمارية للدفاع ، مثل المزاغل والسقاطات والشرافات وغيرها • ونذكر من تلك القصـور على سبيل المثال : قصر المشتى وقصر الطوبة [١] وقصر الحير الشرقى وقصر الحير الغربى وقصر المنيا وقصر حرانة ، وكلها من العصر الأموى فى الشام • ثم قصر الأخيضر من العصر العباسى بالعراق • أضف الى ذلك الحصون الصغيرة التى شـيدت فى العصر العباسى على سواحل تونس ليقيم فيها المرابطون بغـرض المراقبـة والدفاع ، والتحـذير من غارات البيزنطيين على داخل البلاد • فقد كانت تلك الحصون الصغيرة تسمى بالقصور مثل قصر هرثمة بن أعين ، وقصر لمطة وقصر النساء ، وغير ذلك من القصور التى انتشرت بعد ذلك فى عصر الأغالبة وما بعدها [٢] •

وظلت كلمة القصر تحمـل معنى الحصن أو القلعـة فى العصور التالية فى الأقطار الاسلامية كلها ، ومن ذلك فقد أطلق المؤرخون العرب لفظ القصر على حصن بابليون فسموه قصر الشمع وقصر الروم • وقد ذكر المؤرخ ابن دقماق ما يفهم منه هذا المعنى فى بعض مواضع كتابه الانتصار ، فقد جاء فيه موضع لكلام عن الواحات : « وقيل هى ثلاث واحات : الأولى تسمى الخارجة وقصبتها تسمى المدينة• ووسطى » « وفيها مدينتان احداهما وهى الكبرى وتسمى القصر والأخرى تسمى هندا ، » « وهما مسورتان •• » [٣] •

وتأتى أقدم اشارة الى تحصين الفسطاط عندما أحيطت بخندق حفره ابن جحدم عامل عبد الله بن الزبير حول المدينة فى سنة ٦٤هـ (٦٨٢م) ليحميها من جند الخليفة مروان بن الحـكم ، وذلك فى أيام الفتنـة والصراع بين ابن الزبير فى مكة وبين الأمويين فى الشام • ويقال انه قد حفره فى شهر واحد وقام على عمله ثلاثون ألف رجل • وبقى موجـودا الى أيام الكندى الذى توفى فى ٩٦١ م [٤] حيث قال عنه : « وهو الخندق الذى بمقبرة الفسـطاط اليوم » [٥] • ثم يذكره المقـريزى فيقـول

(١) Creswell : Short Account, pp. 82-84, Fig. 16.

(٢) ابراهيم شبوح : «قصر هرثمة بن أعين بالمناشير» ــ رسالة نال صاحبها بها درجـة الماجستير بدرجة الامتياز من قسم الآثار الاسلامية ــ كلية الآداب ــ جامعة القاهرة ، باشراف الاستاذ الدكتور فريد شافعى •

(٣) ابن دقماق : جـ ٥/ص ١١

(٤) Lane-Poole (S.) : History of Egypt, The Middle Ages, p. 187.

(٥) الكندى : القضاة والولاة (طبعة بيروت) ، ص ٦٥ : المقريزى ، جـ : ١ ، ص : ٣٠١ •

« (الخندق) • وهذا الخندق كان بقرافة مصر واندثر ، وعلى شفيره الغربى قبر »
« الامام الشافعى ، وكان من النيل الى الجبل • حفر مرتين : مرة فى زمن مروان »
« ابن الحكم سنة ٦٥ ، ومرة فى خلافة الأمين محمد بن هارون الرشيد ••• ثم »
« حفره القائد جوهر » [١] •

وكان بجزيرة الروضة حصن لجأ اليه الروم عند خروجهم من حصن بابليون بعد فتحه • ثم هربوا من حصن الروضة عندما حاصره العرب فخرب عمرو بن العاص أبراجا وأسوارا منه [٢] •

واستوقف نظرنا لفظ « محرس » جاء فى عدة مواضع فى كتاب ابن دقماق مثل « محرس عمار » [٣] و « محرس بنانة » [٤] ، و « محرس الحريص » [٥] ، « محرس النخل بالحمراء » [٦] ، و « محرس قسطنطين » [٧] الذى أشار اليه الكندي حين قال : « وهدم (أى على بن سليمان فى سنة ١٦٩هـ / ٧٨٥م) « كنائس محرس قسطنطين » [٨] ، و « محرس خوى بن حوى » •

ويبدو لنا أن بناء هذه المحارس كان لغرض اقامة جند فى نقط متفرقة من المدينة لحراستها ، ولم تكن حصونا أو قلاعا كبيرة • ومهما يكن من أمر فان تلك الأسماء تحمل الطابع العربى الخالص الذى يعود بتاريخ أغلبها الى الأيام المبكرة من الفتح العربى •

واستمر اطمئنان المسلمين فى العاصمة الى بعدهم عن الأخطار ولم يكن هناك ما يدعوهم الى تحصينها طوال عصر الولاة الأمويين والعباسيين حتى ولاية ابن طولون • ويبدو أنه هو نفسه لم يكن يخشى فى أول الأمر خطراً يأتيه من قبل الخلافة العباسية فى بغداد أو من أى جهة أخرى عندما شرع فى بناء قصره وميدانه فى الطرف الشمالى الشرقى من قطائعه • ذلك أنه لم يلق بالا الى اختيار موضع حصين للقصر • فان الموضع الذى بناه فيه كانت تتوفر فيه نقطتا ضعف من الوجهة الحربية• أولاهما : انه كان يقع أسفل هضبة من المقطم يمكن الاشراف منها على القصر وضربه بالمنجنيق وربما بالسهام • والثانية : عدم توفر الماء داخل القصر عند حصاره • ولذلك

---

(١) المقريزى : جـ ٢/ص ١٤٥
(٢) المقريزى : جـ ٢/ص ١٨٤
(٣) ابن دقماق : جـ ٤/ص ٢٣
(٤) ابن دقماق : جـ ٤/ ص ٢٦ ، ٣٦
(٥) ابن دقماق : جـ ٤/ص ٢٩
(٦) ابن دقماق : جـ ٤/٣٧
(٧) ابن دقماق : جـ٤/ص٢٩ ، ٣٧
(٨) الكندي : القضاة والولاة ، ص ١٥٥ (طبعة بيروت ١٩٥٩).

اتجه ابن طولون الى جزيرة الروضة ليبنى فيها حصنا له ولأتباعه وأهله وذخائره وأمواله عندما وصل النزاع بينه وبين رجال الدولة العباسية فى سامرا الى ذروته ، وخاصة مع الموفق أخى الخليفة المعتمد ، مما جعلهم يتهيئون لمحاربته والقضاء عليه أو على الأقل لاقصائه عن حكم الديار المصرية. وكانت جزيرة الروضة صالحة من وجوه كثيرة لبناء ذلك الحصن . ولعله قد بناه مكان الحصن القديم الذى قيل انه كان قائما وقت فتح عمرو بن العاص مصر ولجأ اليه المقوقس وأصحابه عندما اشتد المسلمون فى حصار بابليون وأوشكوا على النجاح فى فتحه .

شرع أحمد بن طولون فى بناء الحصن سنة ٢٦٣هـ (٨٧٧م) . وأخذ يجد فى البناء وألزم قواده وثقاته أن يقوم كل منهم بالاشراف على جزء منه ، فاهتمو وكدّوا فى البناء . وكان ابن طولون يشرف بنفسه على العمل « ويجزل العطاء للصناع « والعمال حتى كانوا يأتون للعمل مع الفجر راغبين فيه من غير ضغط ولا » « استحثاث » [١] . ولكن الحصن لم يكمل عمله لأن ابن طولون أوقف العمل فيه بمجرد أن علم بموت القائد موسى بن بغا الذى كان نصب على رأس الجيش المجهز لمحاربته ، والذى تثاقل عن المسير فترة طويلة خوفا من قوة ابن طولون ، مما أتاح الفرصة له أن يقطع فى بناء الحصن شوطا كبيرا . وأخيراً مرض ابن بغا وطال عليه المرض حتى مات [٢] .

ولم تصلنا آثار من ذلك الحصن أو أى وصف له . وكل ما نعرفه عنه أن النفقة عليه قد بلغت ٨٠٠٠٠ دينار واستغرق العمل فيه نحو عشرة أشهر ، وأن الحصن قد ظل قائما بالجزيرة حتى أكله النيل شيئا فشيئا . ولعل موضعه هو الذى احتله الحصن الذى بناه الصالح نجم الدين أيوب فى طرف الجزيرة الجنوبى بجوار المقياس واندثر هو الآخر كما سيأتى شرحه .

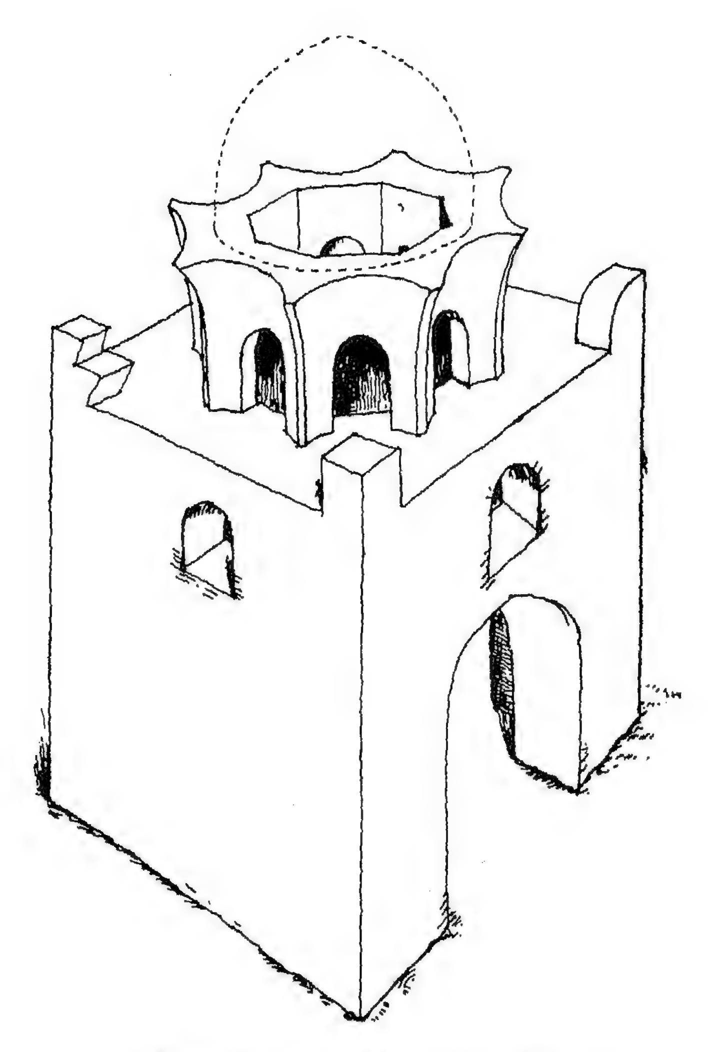
وبنى ابن طولون دارا لصناعة السفن فى جزيرة الروضة سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨م) . وقد انتفع بها بعد ذلك عندما بدأ فى بناء حصنه بالجزيرة . اذ اجتهد فى بناء المراكب الحربية بدار الصناعة ، وجعلها تطوف بالجزيرة لحراستها . وتزيد من فرص الدفاع عن الحصن وتقوى من منعته على كل من تحدثه نفسه بتهديده . ويقول المقريزى « واتخذ (ابن طولون) مائة مركب حربية سوى ما يضاف اليها » « من العلابيات والحمائم والعشاريات والسنابيك وقوارب الخدمة » [٣] .

(١) المقريزى : جـ٢/ص١٨٠ .
(٢) المقريزى : جـ٢/ص١٧٨ – ١٨١
(٣) المقريزى : جـ٢/ص١٨٠

الفصل السابع

العمارة فى الديار المصرية

فى عصر الولاة



ش : ٣٣٠ ــ أسوان ، منظور للنموذج الرئيسى للأضرحة

مشتملات الفصل السابع :

خريطتا الجبانتين فى أسوان وصور منهما ، الحج عن طريق الصعيد الأقصى ، نماذج المقابر ، الحصون فى الديار المصرية ، نماذج القبور المغطاة باقبية ، أربطة وحصون الديار المصرية ، القبر الوحيد المؤرخ فى أسوان ، حروب العرب المسلمين مع أهل النوبة ، نموذج لمقبرة مغطاة بقبة ومفتوحة الجوانب الأربعة ، حروب المسلمين مع قبائل البجة ، مقبرة مستطيلة المسقط وتغطيها قبة على مثلثات مسطحة ، غارات ملك النوبة على أسوان ، الحروب وصلتها الوثيقة بمقابر اسوان ، نموذج غير عادى لمقبرة تغطيها قبة بيضية المسقط ، دلالات اعداد وتواريخ شواهد القبور الكثيرة ، نموذج مقبرة مستطيلة وتحمل قبتها مثلثات هرمية مقلوبة ، أنواع ونماذج القبور ، مقبرة مربعة وقبتها على مثلثات كروية ، نموذج مربع وتحمل قبته حنيات مخروطية ، الحنيات المخروطية الحاملة للقباب ، تأريخ نماذج المقابر بدلالة الأركان الحاملة للقباب ، نموذج مقبرة مربعة وتحمل قبتها مقرنصات اسلامية ،

أصول الاركان الحاملة للقباب ، نموذج مستطيل يتقدمه فناء مستطيل ، رقاب القباب ، المثلثات المسطحة فى أسوان والشام ، اجتماع عدة عناصر معمارية فى مقابر أسوان ، الأركان الحاملة للقباب فى العراق ، المثلثات الهرمية فى الشام والاوجه المقعرة لرقاب القباب فى القيروان ، جوسق فى الدير الأبيض بسوهاج على نمط مقابر أسوان ، المقرنصات وبينها حنيات فى مقابر أسوان ، المقرنصات على حطتين وعقود من حليات النوافذرقاب القباب • صلة مآذن الصعيد الأقصى بالحروب، مئذنتا الطابية والمشهد البحرى بأسوان ، حنية مخروطية داخل مئذنة الطابية ، مئذنة المشهد البحرى . تفاصيل الكتابة بالأجر على مئذنة المشهد البحرى ، سلسلة من الأربطة ذات المنارات بين الصعيد الأقصى والفسطاط ، العناصر المعمارية فى مآذن الصعيد لأقصى •

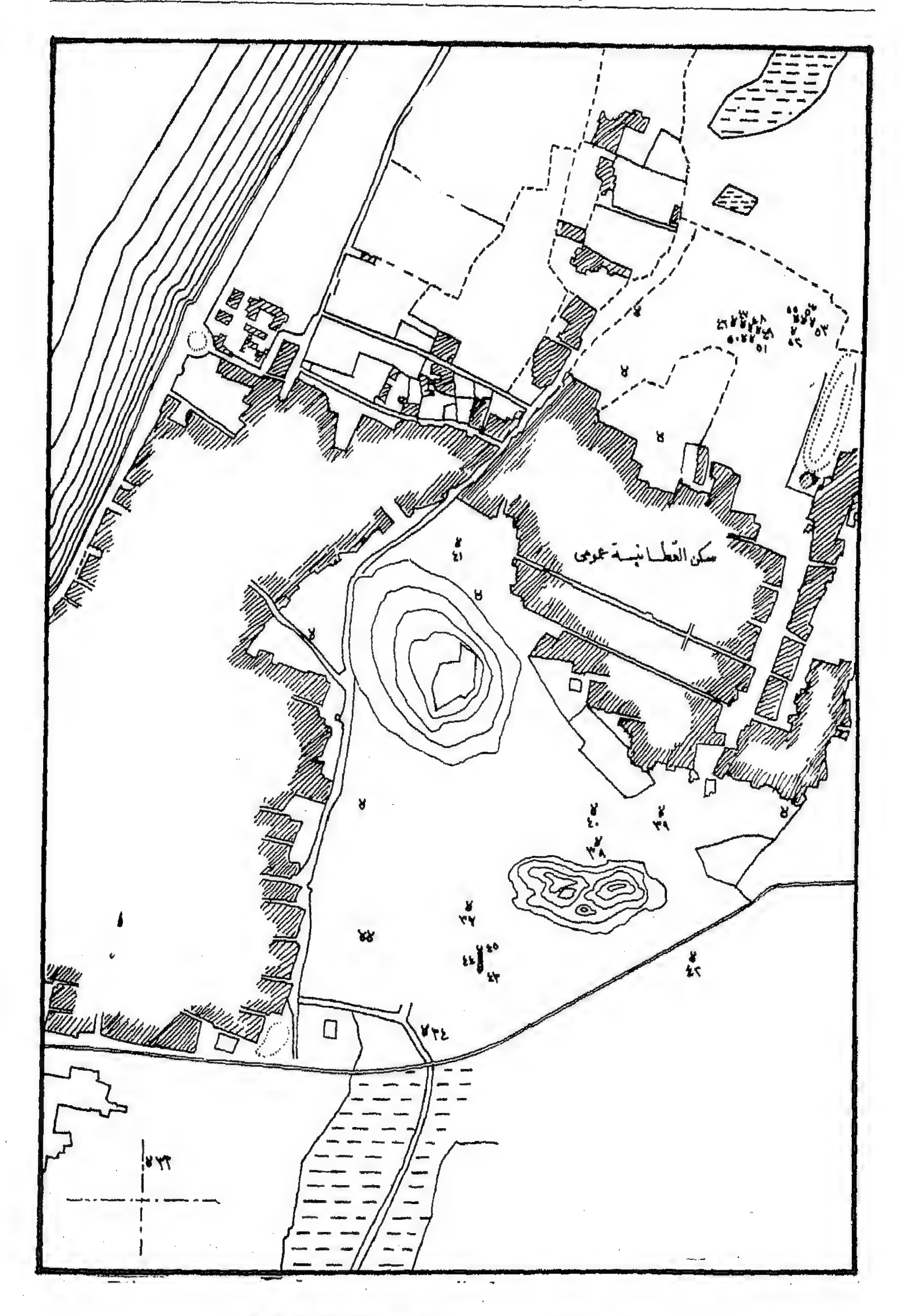
***

كان من الطبيعى أن تتركز الأضواء فيما سبق من صفحات على عاصمة الديار المصرية بوصفها الرأس المخطط والقلب النابض من الديار المصرية ، فهى البقعة التى تركزت فيها مقومات الحضارة وبالتالى فانها تضم أكثر وأهم آثار العمارة العربية التى قامت على أرض مصر والتى توالت حلقات تطورها خلال تاريخها الطويل • وهى أيضا البقعة التى كانت تجتذب الأنظار من داخل البلاد وخارجها منذ الفتح العربى ، وتجتذب معهما أقدر الكفاءات فى النواحى الحضارية والفنية المختلفة بوصفها مقر ممثلى الخلفاء وما يتبعهم من أجهزة الدولة التى تقوم على سياسة البلاد وتسيطر على مقدماتها الاقتصادية وتتجمع فيها مراكز الثروات والتجارة •

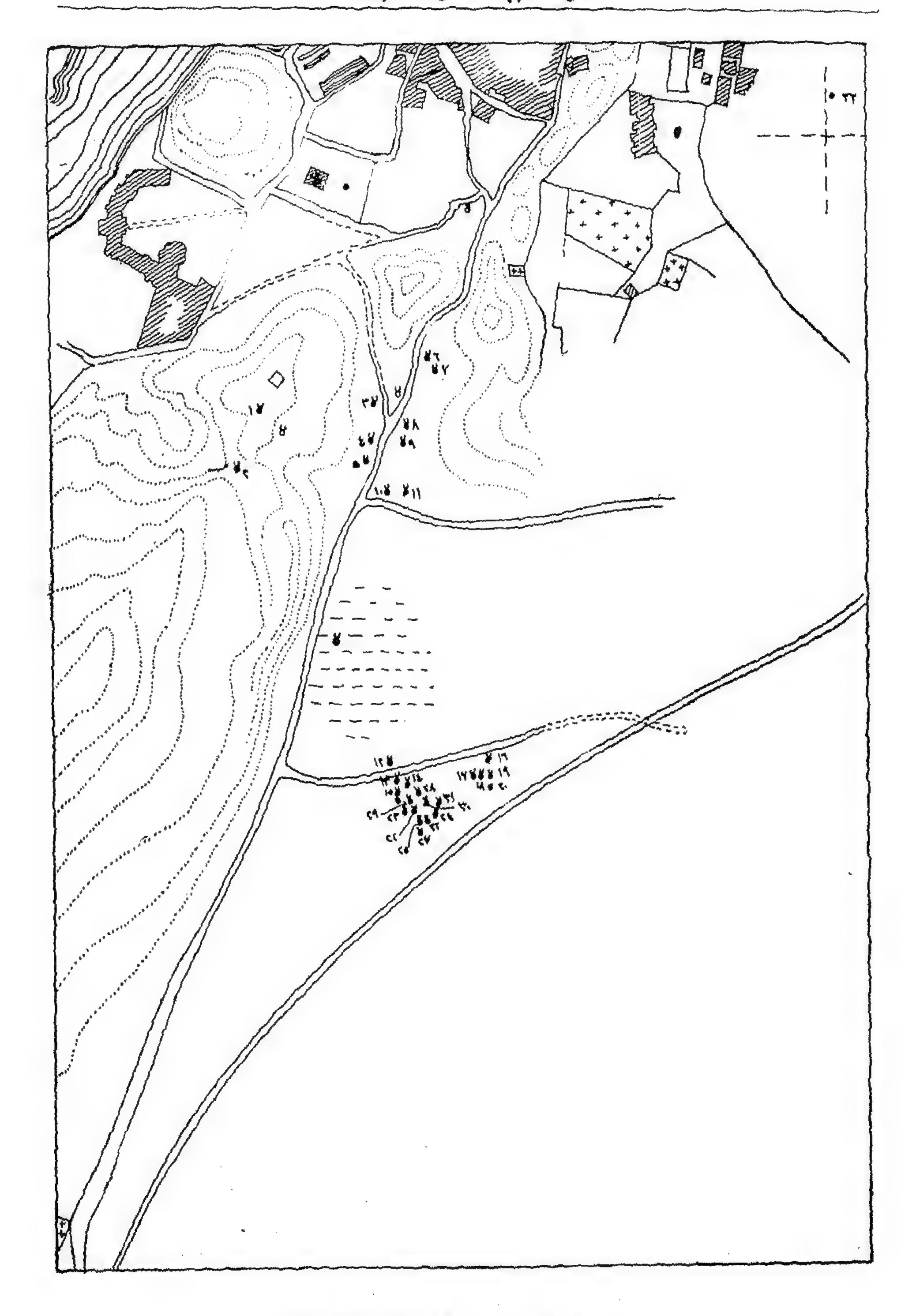
كل ذلك جعل باقى أنحاء البلاد تتوارى أهميتها وتقل فيها الثروات ويندر فيها وجود الشخصيات الكبيرة الهامة القوية النفوذ • ومن ثم فان النشاط المعمارى لم يكن يحظى بالعناية التى تساعد على حفظ آثاره بما يوضح حلقات الحضارة فيها ، وتتضاءل بذلك فرص العثور على آثار توضح مراحلها •

وعلى الرغم من احتمال أن تكون بعض العناية قد زيدت عند بناء أنواع خاصة من العمائر مثل الدينية والدفاعية فى تلك المناطق الأخرى فانه لم يصلنا شىء حتى الآن فى الوجه البحرى كله مثلا ، وذلك على الرغم من وجود بقاع فيه تردد ذكرها كثيرا لارتباطها بوقائع تاريخية وحضارية حدثت فى البلاد منذ أيام الفتح العربى ، وبخاصة لما تعرضت له تلك الأيام وما تبعها فى أثناء المعارك التى دارت فيها أو حولها، وعندما كانت تمر بها الحملات والجماعات من الناس •

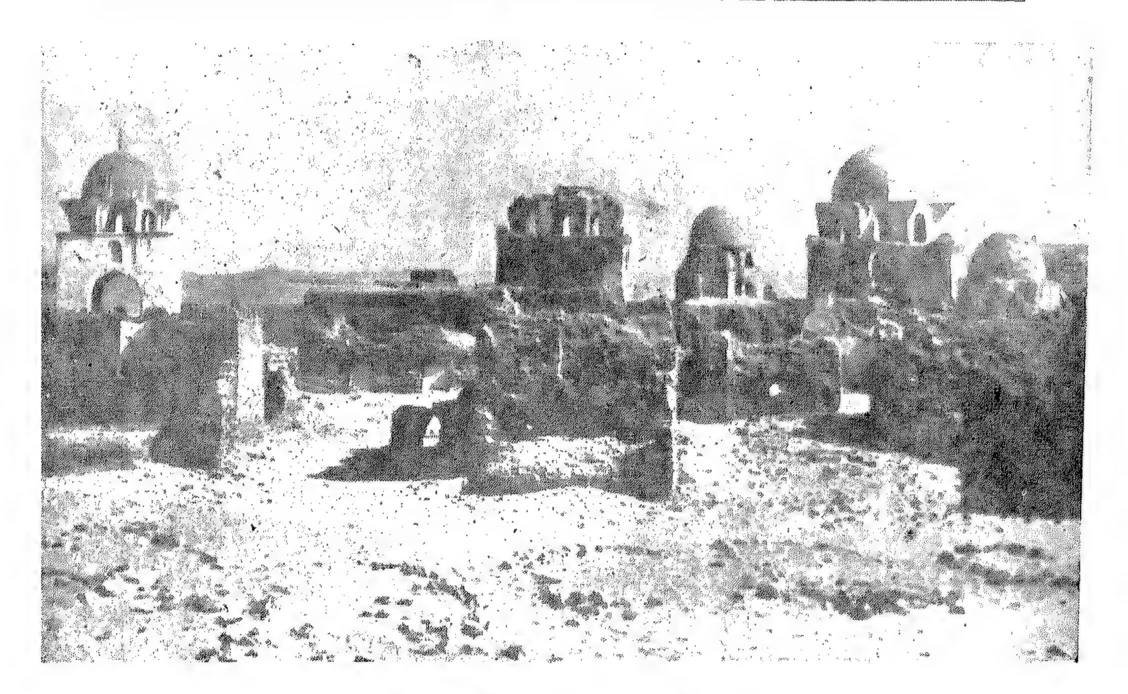
وينطبق هذا القول أيضا على الوجه القبلى من جنوب العاصمة حتى مدينة قوص التى كانت بمثابة مركز له أهمية خاصة حتى عرفت بعاصمة الصعيد الأقصى ،



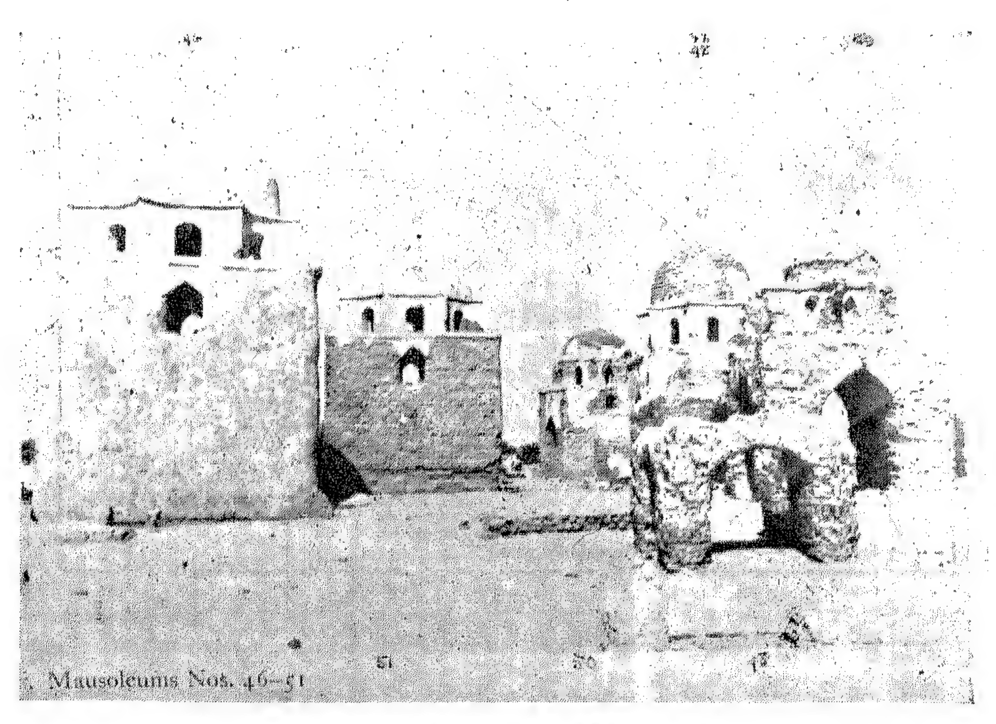
ش : ٣٣١ ـ اسوان ، خريطة الجبانة البحرية



ش : ٣٣٢ أسوان ، خريطة الجبانة القبلية



ش : ٣٣٣ ــ اسوان : منظر عام للمقابر



ش : ٣٣٤ ــ اسوان : منظر عام للمقابر

ذلك أنها كانت تقع عند رأس الزاوية التى ينكسر عندها الطريق الرئيسى الذى يتبعه القادمون من الغرب الاسلامى ومن شمال مصر وهم متجهون الى الأراضى المقدسة فى الحجاز ، فكانوا يسيرون مع مجرى النيل حتى قوص ثم ينعطفون جهة الشرق ضاربين فى الصحراء حتى ميناء عيذاب على بحر القلزم أو البحر الأحمر ، ثم يعبرونه الى جدة ومنها الى مكة والمدينة •

وكان يظن حتى الآن انه لم يبق شىء من الآثار المعمارية العربية القديمة فى الصعيد يمكن نسبته الى العصر الاسلامى المبكر فى مصر • غير اننا وجدنا من الممكن اذا اتبعنا فى حرص وأناة منهج تحليل وقائع التاريخ ممتزجا بتحليل معمارى دقيق للآثار الباقية فى المنطقة جنوبى قوص حتى أسوان فاننا قد نصل الى تأريخ بعض بقايا العمائر الدينية من مساجد ومقابر الى أواخر حكم ولاة العباسيين وما جاء بعده من حكم ابن طولون • أى الى تاريخ يسبق ما كانت تؤرخ به حتى الآن بنحو قرنين من الزمان كما سيأتى شرحه وتفصيله •

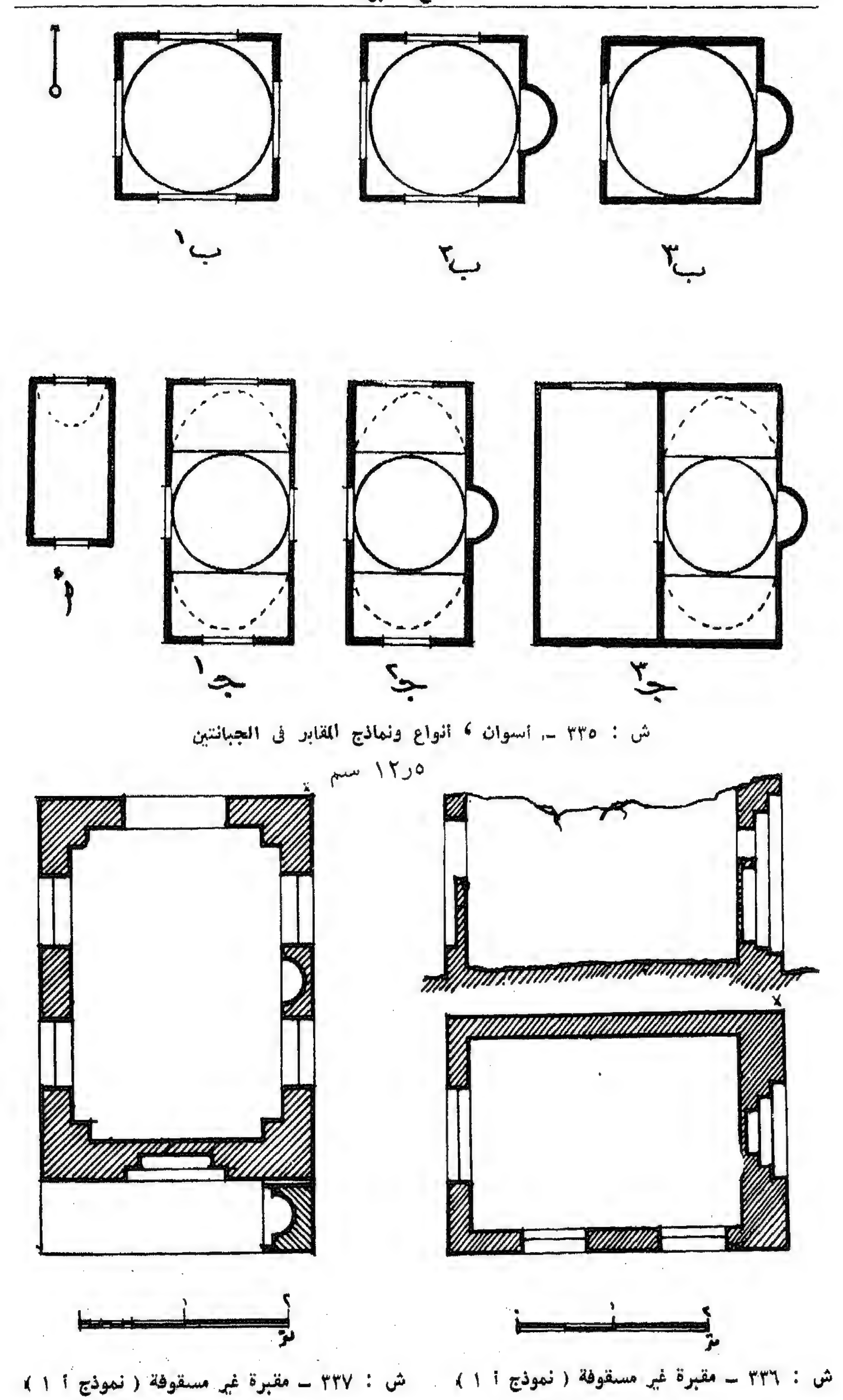
ويغلب على ظننا أن العامل الرئيسي الذى ساعد كثيرا على بقاء هذه الآثار القديمة التى يزيد عمرها عن نحو الف ومائة سنة هو الجفاف الشديد الذى يمتاز به مناخ تلك المنطقة ، والذى كان يحفظ آثار العمائر القديمة حتى ولو كانت مشيدة بأضعف أنواع مواد البناء وهو اللبن ، وهو أكثر المواد استعمالا فى العصر الاسلامى هناك ، فما كانت مالية الدولة والأفراد تسمح لهم باستخدام الحجر والتأنق فيه كما كان يحدث أيام الفراعنة القدماء •

***

ومن أهم ما وصلنا عن بقاع الديار المصرية ذكر الحصون والقلاع التى كانت منتشرة على حدودها فى الشمال والجنوب •

من ذلك أنها كانت تنتشر فى المواضع الهامة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وكان كثير منها يرجع الى ما قبل الفتح الاسلامى • وتأتى حصون الاسكندرية فى مقدمتها حيث كانت القاعدة الأولى لأسطول الروم على شواطىء مستعمراتها فى البحر الأبيض • ولم يطمئن العرب المسلمون على فتحهم لمصر الا بعد أن استولوا عليها • واستمرت طوال العصور التالية موضع عناية الولاة والخلفاء والسلاطين ، يدعمون من تحصيناتها ويزيدون عليها •

ويأتى حصن دمياط فى المرتبة التالية للاسكندرية • فقد هاجمه الروم فى عام ٩٠هـ (٧٠٩م) ثم فى أيام هشام بن عبد الملك فى سنة ١٢١هـ (٧٣٩م) • ومرة فى



ش : ٣٣٥ ـ أسوان ، أنواع ونماذج المقابر فى الجبانتين

ش : ٣٣٦ ـ مقبرة غير مسقوفة (نموذج أ ١)

ش : ٣٣٧ ـ مقبرة غير مسقوفة (نموذج أ ١)

أعوام بضـــع ومائتين (٨ م) منتهزين فرصـــة الفتن التى قامت بين الأمين والمأمون وملكوها سنة ٢٣٨هـ (٨٥٢م) ، فأمر المتوكل بتجـــديد حصونها فى ســـنة ٢٣٩هـ (٨٥٣م) . وهاجموها بعد ذلك فى سنة ٣٥٣ هـ (٩٦٥م) بعد موت كافور الأخشيد ، واستمرت عرضة لهجمات الروم أيام الفاطميين ، والى نهاية العصر الأيوبى .

وذكر المؤرخون بعضا آخر من الحصون مثل حصن تنيس . كما كانت مدينة بلبيس حصينة مسورة يقيم بها « والى الحرب » . وكان يتردد ذكر هذه المدينة مع الحروب والفتوح والغارات التى كانت تتعرض لها الديار المصرية منذ فتح العرب لها على أيدى عمرو بن العاص وأصحابه .

وذكر ابن زولاق ـ المتوفى فى سنة ٣٨٥هـ (٩٩٥م) ـ عددا من الحصـــون وســماها « رباطات » وقصـد بها النقـاط الحصينة على شواطىء البحر أو داخل البلاد التى تقوم اما بالدفاع عن البلاد فى المواضع الهامة منها أو تقوم بوظيفة نقط مراقبة متقدمة لمدن حصينة يرسل اليها منها التحذيرات والانذارات بالخطر . وقيـل لكل ثغر يدفع أهله عمن وراءهم رباط . غير أن لفظ الرباط قد استخدم فيما بعد لنوع من العمائر الدينية سيأتى ذكره .

ومما قاله ابن زولاق « ذكر ما بمصر من الرباطات والثغور : من ذلك رباط »
« البرلس ، ورباط رشيد ، ورباط الاسكندرية ، ورباط ذات الحمام ، ورباط »
« البحيرة ، ورباط أخنا ، ورباط دمياط ، ورباط الفرما ، ورباط الواردة ، ورباط »
« العريش ، ورباط بئر اسحاق » [1] .

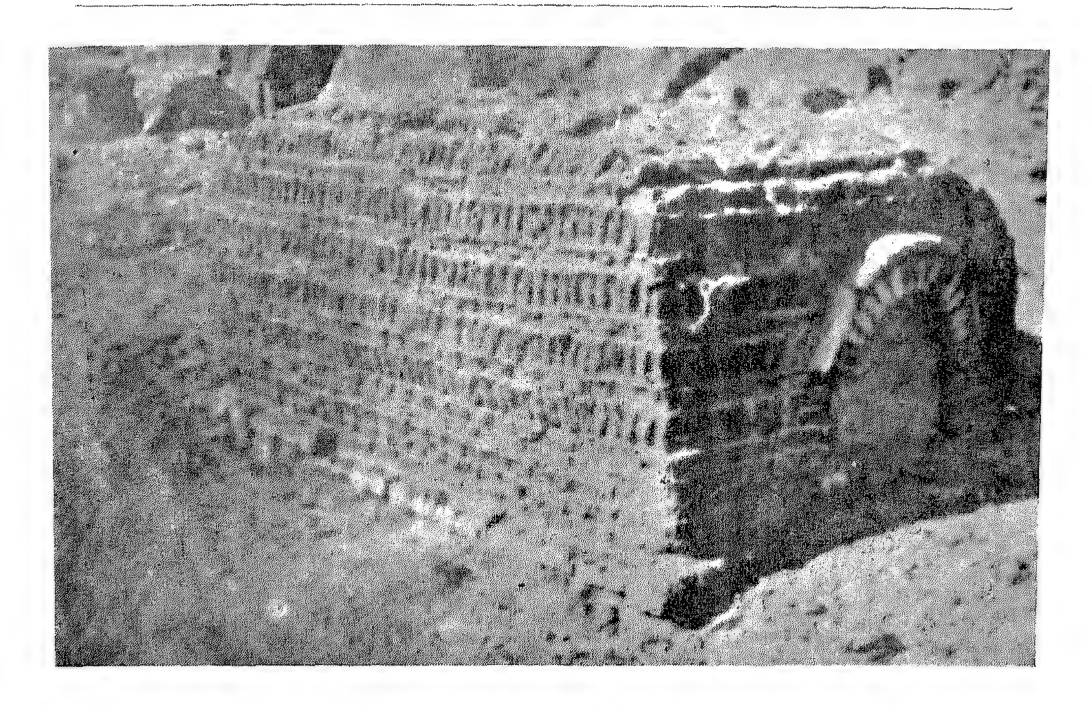
وجاء أقدم ذكر للرباطات والمرابطة فى رسالة لليعقوبى جاء فيها « وبنى (أى »
« هارون الرشيد) ثمانية ثغور مثل طرسوس وغيرها . وبنى دورا للمرابطين . »
« فتشبه أهله وأصحابه وكتابه به . فبنى قائده هرثمـــة بن أعين بثغـــر أرمينية »
« وبالمنستير وفى مواضع أخرى » [2] .

وأشار المقدسى الى رباطات عمواس من فلسطين فقال « ولهذه القصبة رباطات »
« على البحر يقع بها النفير ، وتقلع اليها شلنديات الروم وشوانيها .. وقد ضـج »
« بالنفير لما تراءت مراكبهم ، فان كان ليلا أوقدت منارة ذلك الرباط ، واذا كان »
« نهارا دخَّنوا ، ومن كل رباط الى القصـــبة عدة منائر شاهقة ، وقد رتب فيها »

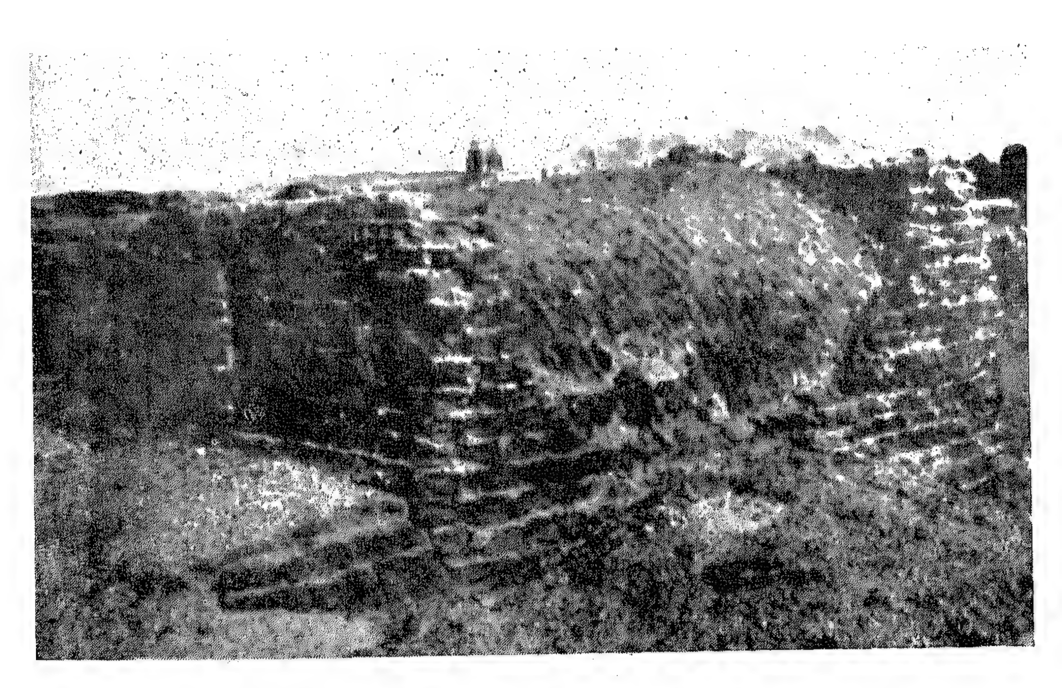
---

(١) ابن زولاق : ذكر مصر واخبارها (مخطوط رقم ٣٠٨١ بمكتبة أياصوفيا من رسالة ابراهيم شبوح ، ص ١٣٤)

(٢) اليعقوبى : مشاكلة النـــاس ، ص : ٢٤ ؛ ابن الاثير : الكامل ، ج : ٦ ؛ ص ، ١٤٩ :ابن ناجى ، ج : ١ ، ص : ٤ : (من رسالة ابراهيم شـــبوح لدرجة الماجستير تحت اشراف الدكتـــور فريد شافعى وعنوانها : قصر هرثمة بن أعين بالمناستير ، ص : ٦١) .



ش : ٣٣٨ ـ قبر مغطى بقبو (نموذج أ ٢)



ش : ٣٣٩ ـ قبر مغطى بقبو (نموذج أ ٢)

« أقوام ، فتوقد المنارة التى للرباط ثم التى تليها ثم الأخرى فلا يكون ساعة الا »
« وقد أنفر بالقصبة وضرب الطبل على المنارة ، ونودى الى ذلك الرباط وخرج »
« الناس بالسلاح والقوة » (١) .

ويدعم هاتان الروايتان ما ذكره المقريزى من أنه « لما ولى ابراهيم بن أحمد »
« ابن الأغلب افريقية فى سنة **٢٦١هـ (٨٧٥م)** حسنت سيرته ، فكانت القوافل »
« والتجار تسير فى الطرق وهى آمنة . وبنى الحصون والمحارس على ساحل »
« البحر حتى كانت توقد النار من مدينة سبتة الى الاسكندرية ، فيصل الخبر منها »
« الى الاسكندرية فى ليلة واحدة وبينهما مسيرة أشهر » (٢) . وذكر مؤرخون آخرون روايات أخرى مشابهة لهذا المعنى (٣) .

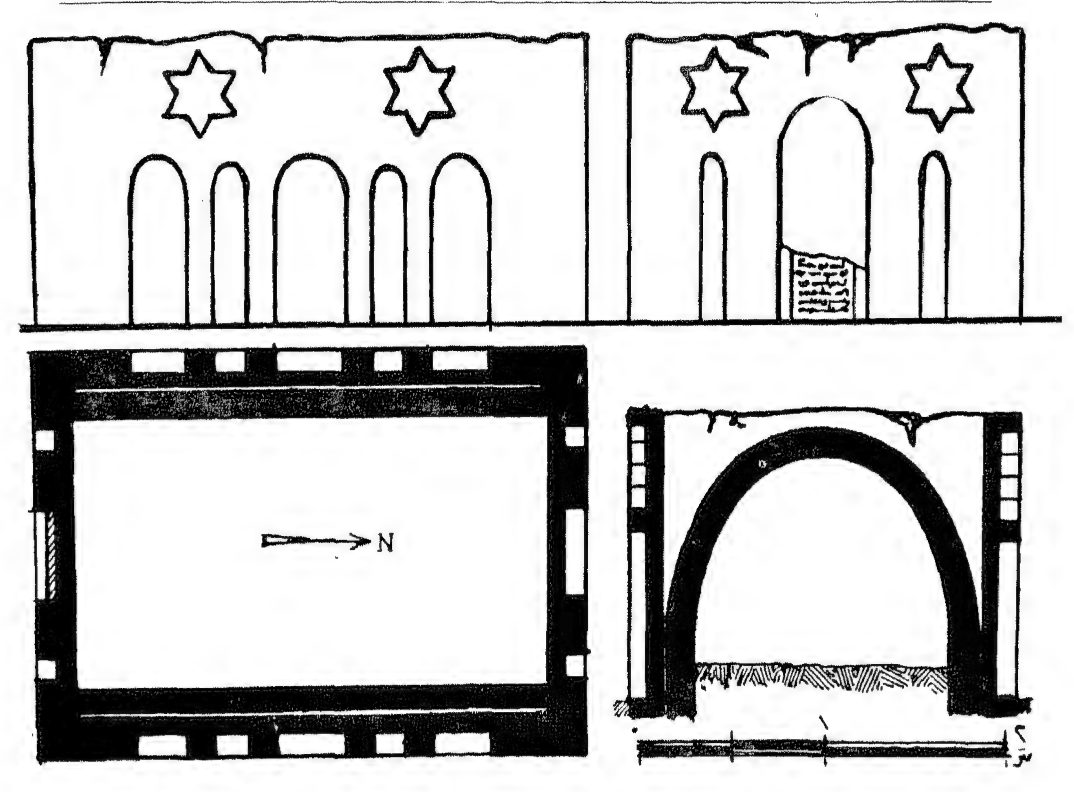
ونخلص من كل ذلك الى أنه قد ظهر فى العصر العربى الاسلامى ومنذ أيام الرشيد وربما قبل ذلك نظام عمل محارس أو نقطة حربية أو حصون يقيم فيها الجند للدفاع عن أقطار العالم الاسلامى . وكانت تزود هذه الحصون بأبراج أو منارات عالية على مسافات تسمح أن يرى الواحد منها الآخر ، ويمكن ارسال اشارات التحذير من رباط الى حصن بواسطة النار أو الدخان ، وتصبح بذلك الحصون كلها متصلة ببعضها وبالحصون الرئيسية وبتجمعات الجيوش داخل البلاد . وكان يطلق على نقط الحراسة التى تتكون منها تلك السلسلة اسم « الربط » جمع « رباط » .

وبدأ ذلك النظام فى العالم العربى الاسلامى فى المشرق ثم انتشر فى مصر وافريقية والمغرب الاسلامى . ولم يكن متبعا على الشواطىء فحسب ، بل اتبع فى المناطق الداخلية ، كما حدث فى صعيد مصر والمنطقة الممتدة من مدينة قوص حتى حدود مصر الجنوبية على بلاد النوبة .

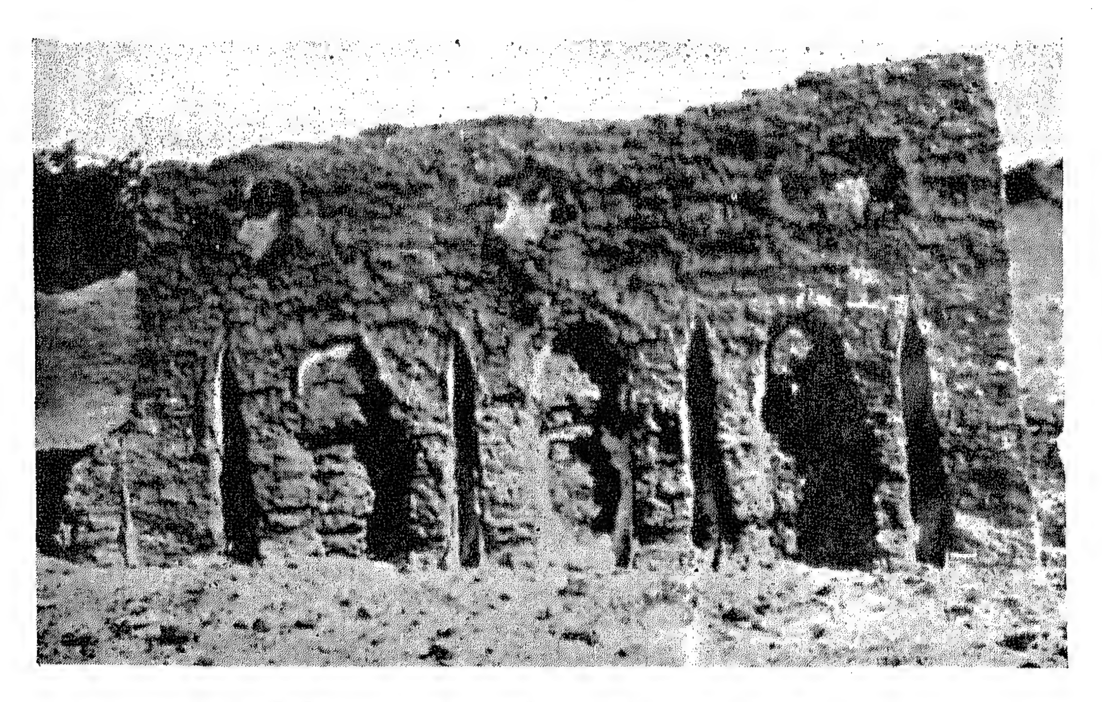
فقد أشار المؤرخون الى وجود حصون على حدود مصر الجنوبية . منها ما جاء ذكره فى نهاية رواية ابن زولاق التى أشرنا اليها من قبل . فبعد أن انتهى من سرد أسماء «الرباطات» على ثغور البحر الأبيض الشمالية قال « ومايضاف الى هذه الثغور »
« ورباط الحرس من جهة الحبش والبجة وما يقرب منهم ، ورباط أسوان على »
« النوبة ، ورباط الواحات على البربر والسودان » . ثم أشار ابن حوقل الى رباط على النوبة ، والى أن هذا الثغر ، أى أسوان ، كان هادئا لهدنة بين البجاة

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسم ، ص : ١٧٧ (شبوح ، ص : ١٤١) .
(٢) المقريزى ، جـ : ١ ، ص : ١٧٤ .
(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ : ٧ ، ص : ١٩٦ ؛ ابن خلدون : العبر ، جـ : ٤ ؛ ص ٢٠٣ : القلقشندى معالم الاناقة جـ ١ ، ص ٢٦٠ (شبوح ، ص ١٤١) .
(٤) ابن زولاق : المرجع السابق ، ص : ٢٤ .



ش : ٣٤٠ ـ القبر المؤرخ فى الوحيد ـ ٤١١ هـ/١٠٢١ م ـ (نموذج أ ٣)



ش : ٣٤١ ـ واجهة القبر المؤرخ الوحيد ٤٤١ هـ / ١٠٢١ م ـ (نموذج أ ٣)

والمسلمين . وكان البجاة يؤدون لعمال مصر خمس المعادن التى تستخرج من أرضهم ، ثم نقضوا ذلك فى أيام المتوكل وعاثوا فى صعيد مصر بالغارات والنهب فحاربهم محمد بن عبد الله القمى من قبل المتوكل وأخمد حركتهم (١) .

وتدل تلك الاشارات التى كررها المؤرخون على أن أسوان والمنطقة التى فى شمالها حتى مدينة قوص قد بدت أهميتها منذ اللحظات الأولى من دخول العرب مصر ، ومن بداية العصر الاسلامى فيها . واهتم المؤرخون والجغرافيون من العرب وغيرهم بذكر حلقات من تاريخها . ولكن أهميتها لم تأت بسبب قربها من الحدود الجنوبية للديار المصرية فحسب ، بل زاد من أهميتها عامل ميل العرب الى السفر عن طريق البر الى الحجاز والاقلال بقدر الامكان من السفر بطريق البحر ، ومن ثم أخذ العرب بعد الفتح الاسلامى يتخذون تلك المنطقة معبرا الى ساحل بحر القلزم أى البحر الأحمر ، ومنه الى الحجاز ، اذ يقول المقريزى : « كان يسلك من أسوان الى ميناء عيذاب على بحر القلزم ، ومنها الى الحجاز واليمن والهند » (٢) . ويروى عن المسعودى أنه كتب يقول : « ومدينة أسوان يسكنها خلق من عرب قحطان ونزار ابن ربيعة ومضر وخلق كثير من قريش وأكثرهم من الحجاز » (٣) .

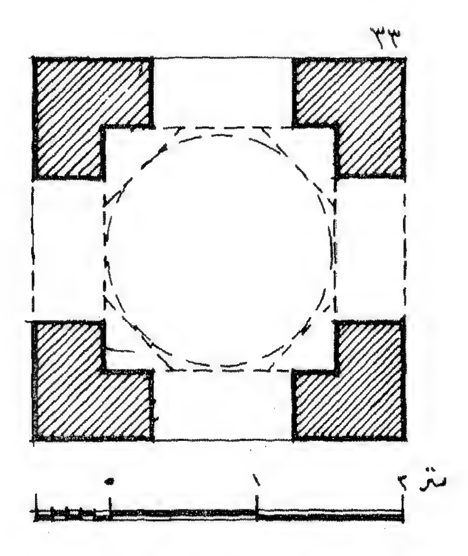
وكانت أسوان من ناحية أخرى بمثابة الجبهة الجنوبية للديار المصرية ، وكانت تواجه من الجنوب بلاد النوبة التى امتدت فى ذلك الوقت الى دنقلة فى السودان . وكان ملك النوبة يغير على أسوا نوالصعيد الأقصى بين الحين والآخر ، ثم يسود السلام بينه وبين المسلمين وتقوم الهدنة (٤) .

وبدأ الاحتكاك مع النوبة منذ أول الفتح العربى . اذ بعث عمرو بن العاص بقائد من قواده هو عبد الله بن أبى سرح بعد فتح مصر الى النوبة فى سنة ٢١ هـ (٦٤٢ م) ، فحصرهم بمدينة دنقلة ورماهم بالمنجنيق ، ولم تكن النوبة تعرفه ، وخسفت بهم كنيستهم « فبهرهم ذلك وطلب ملكهم الصلح (٥) » .

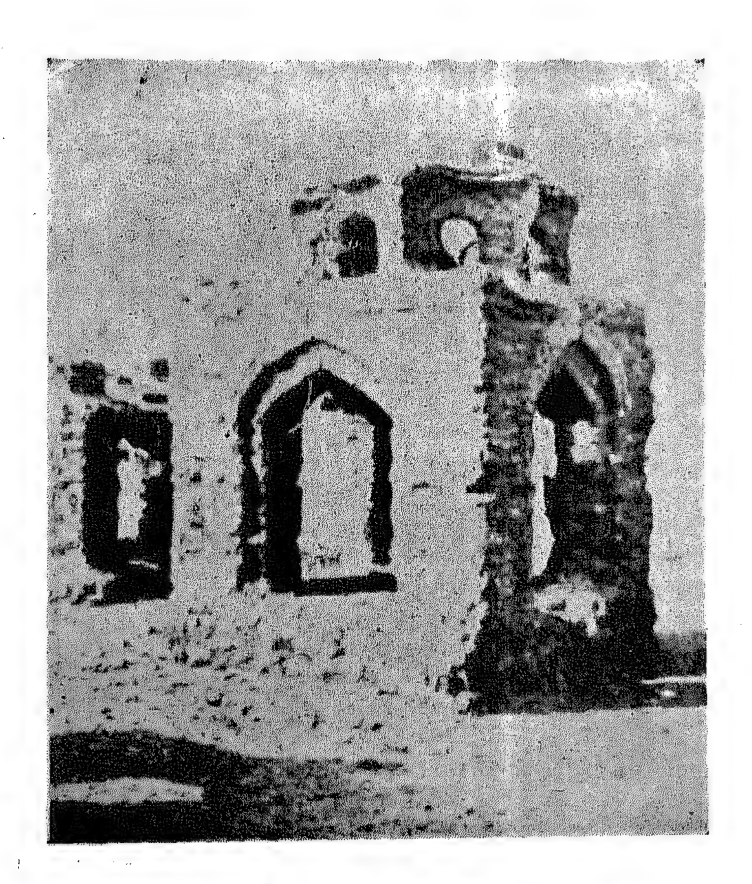
كل ذلك كان داعيا لأن يتخذ المسلمون حيطتهم بتشييد القلاع والحصون على حدود مصر الجنوبية ، فجعلوا حصنا لهم بجزيرة تعرف « ببلاق » بينها وبين أسوان

---

(١) ابن حوقل : صورة الارض ، ص : ١٤١ ، ابن الاثير : الكامل ، ج : ، ص ٥٠ ، ٥١ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج : ٢ ، ص : ٢٩٥ (شبوح ، ص ٢ ١٣٧) .
(٢) المقريزى ، ج : ١ ، ص : ١٩٧ .
(٣) المرجع السابق ، ص : ١٩٧ — ١٩٨ .
(٤) المرجع السابق ، ص : ١٩٢ .
(٥) المرجع السابق ، ص : ٢٠٠ .



ش ٣٤٢ ـ مقبرة (رقم ٣٣) مربعة المسقط مفتوحة الجوانب الاربعة (رقم ٣٣)



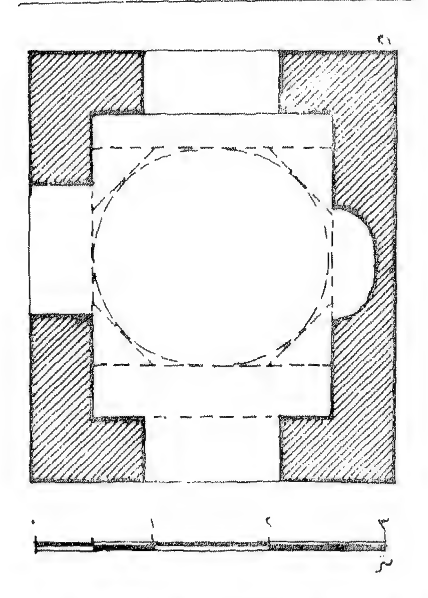
ش : ٣٤٣ ـ مقبرة مغطاة بقبة علي مثلثات مسطحة (رقم ٣٣)

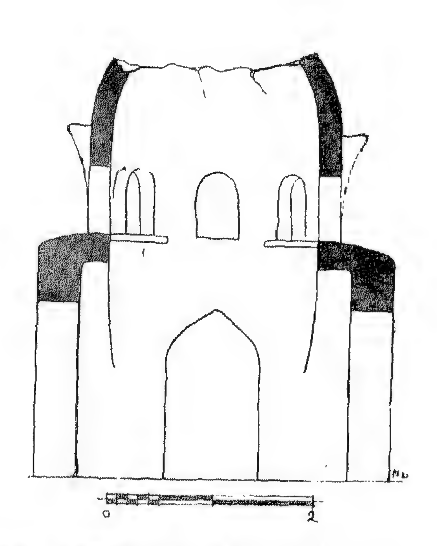
أربعة أميال ، وبينها وبين حصن « القصر » أول قرى النوبة ميل واحد [1] . ويقابلها فى جهة الجنادل قلعة أبريم وقلعة أخرى بعدها فى أرض النوبة [2] . وكانت « بلاق » حصنا جليلا للمسلمين قرب الجنادل وفيها أناس كثيرون ، وبها نخل عظيم وجامع به منبر ، وكانت تنتهى عندها سفن النوبة وسفن المسلمين [1] .

وبالاضافة الى ذلك كانت أسوان تواجه من جهة الشرق القبائل التى كانت تعرف « بالبجة » وكانوا بدواً ينتشرون فيما بين النيل وساحل البحر الأحمر ، ومن عند مدينة قوص ومدينة عيذاب على بحر القلزم الى أول بلاد الحبشة فى الجنوب . وكانت المنطقة من جهة أسوان وقوص غنية بالزمرد حيث كان يعثر عليه فى مغاور عميقة يدخل اليها بالمصابيح . وأسلم من البجة قوم وكثر المسلمون الذين يستخرجون معهم الزمرد ، فخالطوهم وتزوجوا منهم . وأسلم كثير من رؤساء البجة اسلاما ضعيفا ، ثم كثر أذاهم للمسلمين . وكان ولاة أسوان من العباسيين قد شكوا الى المأمون فأرسل اليهم بالقائد عبد الله بن الجهم على رأس جيش من المسلمين ، وقامت المعارك بينهم ثم وقعت الهدنة سنة ٢١٦ هـ (٨٣١ م) [3] . ولكنها لم تدم طويلا ، اذ عاد البجة الى غزو ريف مصر فى أيام المتوكل العباسى ، فحاربهم قائده وقتل كبيرهم، فسافر وابن أخيه وخليفته الى سامرا فى عام ٢٤١ هـ (٨٥٥ م) طالبا الصلح [4] . وهدأت الحال من جهتهم . ثم ظهر الذهب فى بلادهم وكثر المسلمون الطالبون للزمرد والذهب فى أرض البجة وزاد فيها العمران .

وفى مرة تالية وقعت بين المسلمين وأهل النوبة حروب انتهت بانتصار المسلمين بقيادة أبى عبد الرحمن العمرى فى سنة ٢٥٥ هـ (٨٦٩ م) ومعه جماعات من ربيعة وجهينة وغيرهم من العرب ، ثم انضموا الى من كان ببلاد البجة [5] . واستمرت المعارك تقوم بين الحين والآخر هناك أثناء ولاية أحمد بن طولون مما اضطره الى أن يذهب بنفسه ، كما يستنتج من القصة التى رواها المقريزى عن عثور ابن طولون على المعارك تقوم بين الحين والآخر هناك أثناء ولاية أحمد بن طولون مما اضطره الى أن كنز فى الصعيد عندما ذهب اليه اذ يقول : « فلما أمعن فى الصحراء ساخت فى » « الأرض فرس بعض غلمانه وهو رمل ، فسقط الغلام فى الرمل فاذا بضيق » « ففتح ، فأصيب فيه من المال ما كان مقداره ألف ألف دينار [6] .. » . ويبدو أن

(١) المقريزى ، جـ : ١ ، ص : ١٩٩ .
(٢) المرجع السابق ، ص : ١٩١ .
(٣) المرجع السابق ، جـ : ١ ، ص : ٩٢ ــ ١٩٦ .
(٤) المرجع السابق ، جـ : ١ ، ص : ١٩٦ .
(٥) المقريزى ، جـ : ١ ، ص : ١٩٦ .
(٦) المقريزى ، جـ : ٢ ، ص : ٢٦٩ .





ش : ٣٤٤ ، ٣٤٥ ـ مقبرة مفتوحة من ثلاثة جوانب ، وتحمل قبتها مثلثات مسطحة (رقم ٢١)



ش : ٣٤٦ ـ مقبرة مغطاة بقبة على مثلثات مسطحة (رقم ٢٧)

ذلك قد حدث قبل أن يبنى المارستان بالعسكر فى سنة ٢٥٩ هـ (٨٧٣ م) ، وفى رواية أخرى أنه شيده فى سنة ٢٦١ هـ (٨٧٥ م) [١] ، لأنه أنفق على بناء المارستان نحو ٦٠٠٠٠ دينار يقال أنه أخذها من ذلك الكنز [٢] .

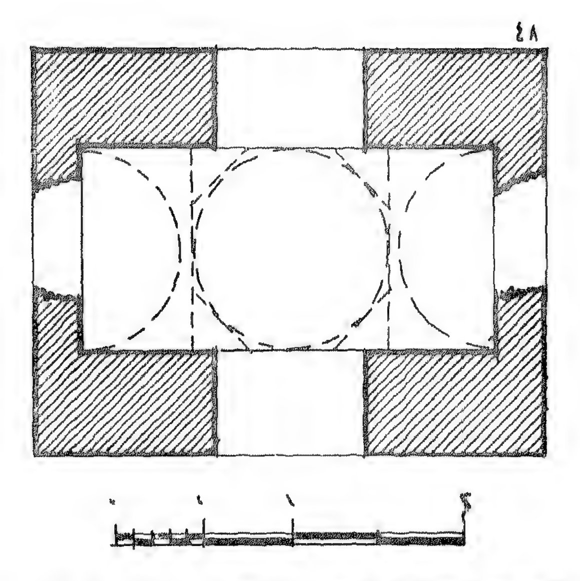
ويروى الكندى قصة أخرى عن الفتن التى أثارها عرب من أشياع العلويين فى صعيد مصر ، فيقول : « وخرج ابن الصوفى العلوى بصعيد مصر سنة ٢٥٣ »
« (٨٦٧ م) فدخل اسنا سنة ٢٥٥ هـ (٨٦٩ م) فنهبها وقتل أهلها فبعث اليه »
« أحمد بن طولون بابن ارذاذ فى جيشه فواقعه بهو سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) »
« فانهزم ابن أرذاذ وجرح وظفر به ابن الصوفى . فعقد ابن طولون لبهم »
« ابن الحسين على جيش وضم اليه ابن عجيف فخرجا الى الصعيد سنة ٢٥٦ »
« (٨٧٠ م) . فالتقوا بناحية أخميم ... فانهزم ابن الصوفى ... ومضى الى الواح »
« (أى الواحات) ... ثم خرج الى الأشمونين سنة ٢٥٩ (٨٧٣ م) . فبعث »
« اليه بأبى مغيث فى خمسمائة ، فوجد ابن الصوفى قد سار الى أسوان لمحاربة »
« أبى عبد الله العمرى فظفر به العمرى وبجميع جيشه فقتل منهم مقتلة عظيمة . »
« ورجع ابن الصوفى الى أسوان فقطع لأهلها ٣٠٠٠٠٠ نخلة وظهر فساده بها .. »
« واضطرب أمر ابن الصوفى مع أصحابه فتركهم ومضى الى عيذاب وركب البحر »
« الى مكة فأقام بها .. » [٣] .

ولم تهدأ غارات ملك النوبة على أسوان بعد زمن الطولونيين ، بينما هدأت قبائل البجة عندما قوى بينهم الاسلام . وسكن جماعة من المسلمين فى المناطق التى كان يستخرج منها معدن الذهب والزمرد ، فمنهم خلق من العرب من ربيعة بن نزار . ويقول المسعودى : « وصاحب المعدن فى وقتنا هذا وهو سنة ٣٣٢ هـ (٩٤٤ م) »
« بشر بن مروان ... » [٤] .

وأغار ملك النوبة على أسوان فى احدى المرات وقتل جمعا من المسلمين ، فخرج اليه القائد محمد بن عبد الله الخازن على عسكر مصر من قبل أنوجور ابن الأخشيد فى سنة ٣٤٥ هـ (٩٥٦ م) . وأوقع بملك النوبة وهزمه وطارده حتى فتح قلعة أبريم وسبى أهلها [٥] .

---

(١) ابن دقماق : جـ ٤/ص ٩٩
(٢) المقريزى : جـ ٢/ص ٢٦٧
(٣) الكندى : ص ٢١٣ - ٢١٤ ، على مبارك : الخطط الجديدة - جـ ٨/ص ٦٠ ، (عن المقريزى) ، المقريزى : جـ ١/ص ٣١٩
(٤) المقريزى : جـ ١ ص ١٩٧
(٥) المقريزى : جـ ١/ص ١٩٨



ش : ٣٤٧ ــ مقبرة مستطيلة المسقط ومفتوحة من الجوانب الاربعة (رقم ٤٨)
مغطاة بقبة على مثلثات مسطحة .



ش : ٣٤٨ ــ المقبرة اليمنى رقم ٤٨ ، واليسرى رقم ٤٧ .

واستمرت أسوان مركزا عسكريا للدفاع عن حدود مصر الجنوبية تقيم بها حامية قوية من الجند المستعدين بالأسلحة لحفظ الثغر من هجوم النوبة والسودان ثم أهمل ذلك عند ما زالت الدولة الفاطمية ، فسار اليها ملك النوبة فى ١٠٠٠٠ مقاتل ونزل فى جزيرة اسوان وأسر من كان فيها من المسلمين . ويبدو أن أسوان كانت مسورة بسور هدمته قبيلة هوارة فى الحرب سنة ٨١٥ هـ (١٤١٢ م) وقتلوا كثيرا من الناس ، وسبوا من كان هناك من النساء والأولاد .

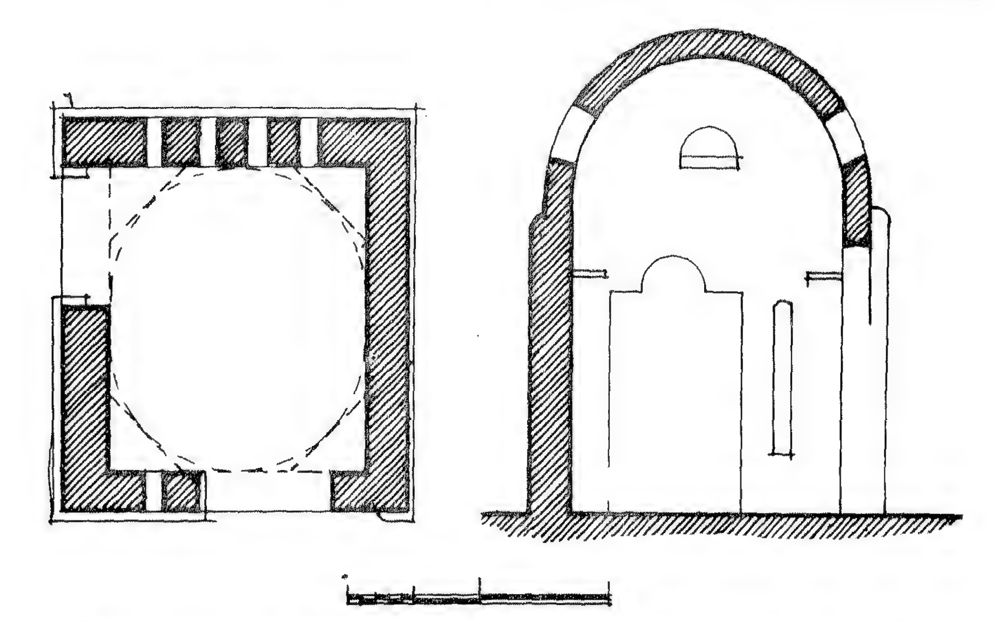
ويمكن أن نربط بين الأحداث التى وقعت فى عصور الولاة فى منطقة أسوان والصعيد الأقصى من حيث القلاقل والفتن والغارات والحروب وبين الظاهرة التى استوقفت نظرنا من قبل ، وهى كثرة عدد شواهد القبور التى جمعت من مقابر أسوان عندما حدث ذلك السيل المدمر فى المنطقة سنة ١٨٨٦ م والذى تسببت عنه الكارثة المعمارية والأثرية التى أشرنا اليها من قبل (ص : ٣١٣) والتى تمت على أيدى موظفى الآثار من الانجليز والفرنسيين عندما جمعوا شواهد القبور من الجبانات سواء كان موضوعا على قبر مسه السيل أو لم يمسسه ، ثم كدسوا الشواهد فوق بعضها بغير أن يعنوا بتعيين الأماكن التى كان بها كل واحد منها كما تقضى بذلك أبسط قواعد علم الآثار والمبادىء الأولى منه . وقد ترتب على ذلك أن قطعت الصلة بين الشواهد وما عليها من تواريخ وبين القبور سواء التى ضاعت أو التى ظلت قائمة . ومن ثم أغلق علينا الطريق المختصر والمؤكد للوصول الى نتائج محققة فى تأريخها ، وبالتالى فى تتبع تطور تكوينها المعمارى وعناصرها ، ثم فيما كان يمكن أن يقوم على أساس ذلك من الأبحاث الأخرى التى تتصل بتاريخ العمارة الاسلامية فى عصورها المبكرة لا فى مصر فحسب بل وفى سائر أقطار الدولة العربية .

وقد أصبح موضوع تاريخ مقابر أسوان وعمارتها يعتمد كل الاعتماد على التحليل المعمارى والدراسات المقارنة من ناحية تخطيط نماذجها المختلفة وتكوين الكتل الرئيسية فيها ، ثم من حيث عناصرها وتفاصيلها . وقد تناول هذا الموضوع العالم مونيريه دى فيليار فخصص له مجلدا قائما بذاته ، ثم تناوله الأستاذ كريسول فى أحد فصول الجزء الأول من كتابه عن العمارة الاسلامية فى مصر [٢] . واعتمد فى عدة مواضع منه على بحث مونيريه ، وخالفه فى مواضع أخرى . ولكننا نرى أن

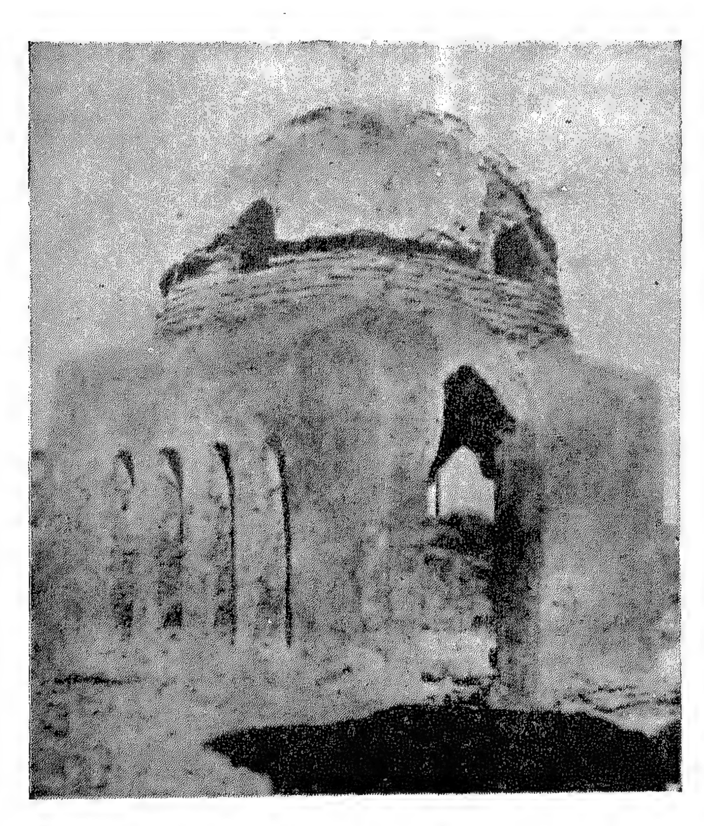
---

(١) المقريزى : جـ ١/ص ١٩٨ .

(٢) Monneret Di Villiard (Ugo) : La Necropoli musulmana di Aswan, 1930 ; Creswell : The Muslim Architecture of Egypt, vol. I, pp. 131-145.



ش : ٣٤٩ ، ٣٥٠ ـ مقبرة (رقم ٦) ذات مسقط من نموذج خاص تغطيها قبة بيضاوية المسقط على مثلثات مسطحة



ش : ٣٥١ ـ المقبرة ـ رقم (٦) تغطيها قبة بيضاوية المسقط على مثلثات مسطحه

الأمر لم ينته بعد ، وأن المجال لا يزال مفتوحا لندلى بوجهات نظر أخرى يمكن اضافتها الى ما سبق •

ونبدأ مساهمتنا فى هذا الموضوع باستعراض أعداد وتواريخ شواهد القبور التى جمعت وجاء مونيريه بحصر لها ، ثم نضيف اليها الأعداد الأخرى التى جمعتها مصلحة الآثار وأودعتها فى أحد المعابد الفرعونية ووعدت منذ ثمان سنوات بنشر نصوصها ولا زلنا فى انتظار تنفيذ الوعد •

ونورد فيما يلى أعداد الشواهد مرتبة حسب تاريخها كالآتى :

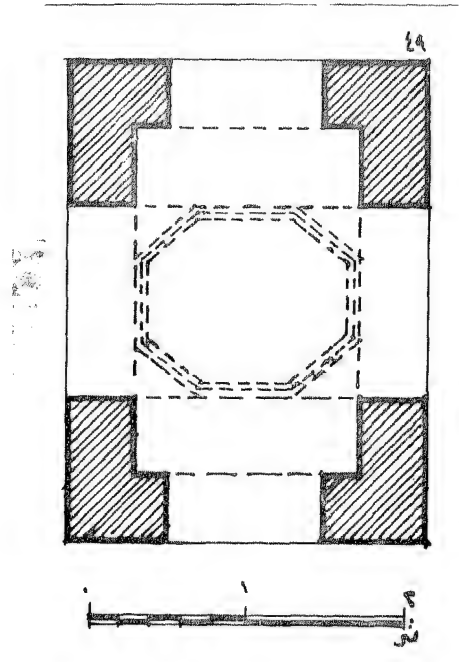
مونيريه + الآثار = المجموع

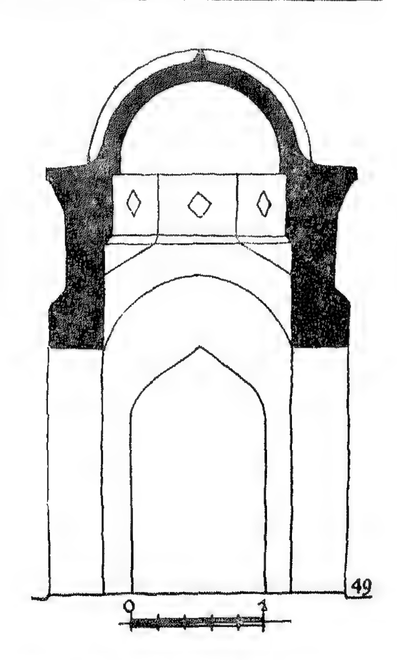
مونيريه		الآثار		المجموع	
١٢	+	–	=	١٢	شاهدا مؤرخا فى القرن ٢هـ (٨م)
٤٩٦	+	٤٥	=	٥٤١	شاهدا مؤرخا فى القرن ٣هـ (٩م)
٥١	+	٦٣	=	١١٤	شاهدا مؤرخا فى القرن ٤هـ (١٠م)
٣٨	+	٢٩	=	٦٧	شاهدا مؤرخا فى القرن ٥هـ (١١م)
٣	+	٣	=	٦	شواهد مؤرخة فى القرن ٦هـ (١٢م)
٦٠٠	+	١٤٠	=	٧٤٠	شاهدا المجموع

هذا الى جانب مجموعة من نحو **٨٣** شاهدا غير مؤرخ ، ولكن يبدو من طراز الخط الكوفى ومن النصوص المكتوبة عليها أن ما يمكن نسبته من هذه المجموعة الى القرن الثالث الهجرى (٩م) لا يقل عن مثل النسبة المبينة فى السطور السابقة •

ونجد اذن أن نحو ثلاثة أرباع مجموع الشواهد يقع تاريخها فى القرن الثالث الهجرى (٩م) • وهو أمر يتفق تماما مع منطق الأحداث والقلاقل السياسية والمعارك الحربية التى وقعت فى منطقة أسوان وعند الحدود الجنوبية للديار المصرية • أو بمعنى آخر فان النشاط المعمارى فى بناء القبور والمقابر والأضرحة فى تلك المنطقة قد بلغ ذروته فى الفترة العباسية التى سبقت مجيء أحمد بن طولون بوقت ليس بالطويل ، ثم استغرقت فترة من حكمه • ويضاف الى ذلك القبور المتواضعة بدون شواهد •

كما يستوقف نظرنا أن مجموع الشواهد التى تؤرخ قبل القرن الخامس الهجرى (١١م) يبلغ نحو **٦٦٧** شاهدا ، بينما عدد ما هو مؤرخ منها فى هذا القرن لا يزيد على **٦٧** شاهدا ، ولا يزيد عن ستة شواهد فى القرن التالى • أى أن ما يقرب من تسعة أعشار العدد كله يأتى تاريخه قبل القرن الخامس الهجرى (١١م) •





ش : ٣٥٢ ، ٣٥٣ ـ قطاع ومسقط مقبرة (رقم ٤٩) مستطيلة المسقط مفتوحة من الجوانب الاربعة



ش : ٣٥٤ ـ المقبرة رقم (٤٩) تغطيها قبة بيضية على مثلثات هرمية .

ومهما يكن من أمر فمن البديهى أن لا تكون تلك الشواهد التى يقرب مجموعها من ألف شاهد قد جاءت كلها من مقابر شيد فوقها بنيان مرتفع فوق سطح الأرض ، بل كان بعضها موضوعا عند رأس قبر يختفى كله أو بعضه تحت سطح الأرض ، اذ شاهدنا فى زياراتنا لتلك القرافات قبورا كثيرة مشيدة بالآجر يرتفع جزء قليل منها فوق الأرض ، والقبر منها كأنه صندوق طويل لا يتسع لأكثر من جثة واحدة ، له جدران جانبية قصيرة الارتفاع ، غطى بسقف من قبو قطاعه قوس من دائرة ، ويتضح من طريقة بنائه أن جداريه الطويلين وسقفه قد شيدت أولا ثم شيد الجداران القصيران بعد ادخال الجثة فى القبر • ومن المحتمل أن يكون هناك نوع آخر أو أكثر من القبور تحت الأرض ، قد يكون منها نوع اللحد أو غيره • ولكننا لانستبعد أن عددا من هذه القبور المدفونة فى الأرض كان محاطا فى أول أمره بجدران أو كان عليه بناء من أحد الأنواع والنماذج التى بقيت أمثلة منها قائمة فى مكانها ولكنه لم يسلم مثلها من تدمير السيل ، فأتى عليه وسوى به الأرض ضمن ما اكتسحه أمامه •

ومن ناحية أخرى فان المقابر التى بقيت قائمة متماسكة كلها أو بعضها حتى قبل سنة ١٩٣٠ قد بلغ عددها نحو ٨٠ مقبرة متناثرة فى الجبانتين الرئيسيتين فى مدينة أسوان • (ش : ٣٣١ – ٣٣٤) [١] • وتوجد احدى الجبانتين فى شمال المدينة والثانية فى جنوبها • أما فى أيامنا هذه فقد اقتضت يد التعمير واتساع المدينة وفتح الشوارع الى هدم الكثير منها ولم يبق الا نماذج لها فى بقاع متفرقة •

وقد جعل مونيريه أرقاما لعدد ٥٥ من المقابر فقط ، ثم نسبها جميعها الى ما بين القرن الخامس الهجرى (١١م) والقرن السابع (١٣م) ، وذلك على أساس التحليل المعمارى والموازنات • ولكن الأستاذ كريسول ضيق فترة التاريخ الى قرن واحد هو الخامس الهجرى (١١م) • كما خالف مونيريه فى ترتيبه التاريخى لتطور الأنواع المختلفة للمقابر ولكنه لم يعارضه فى تقسيمه لتلك النماذج •

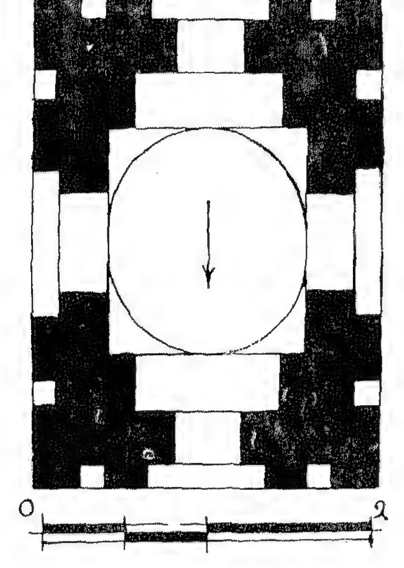
وقسّم مونيريه أشكال الأبنية التى بقيت قائمة فوق القبور الى ثلاثة أنواع ورتبها حسب تسلسلها التاريخى فى مراحل التطور كما ارتآه (ش : ٣٣٥) [٢] •

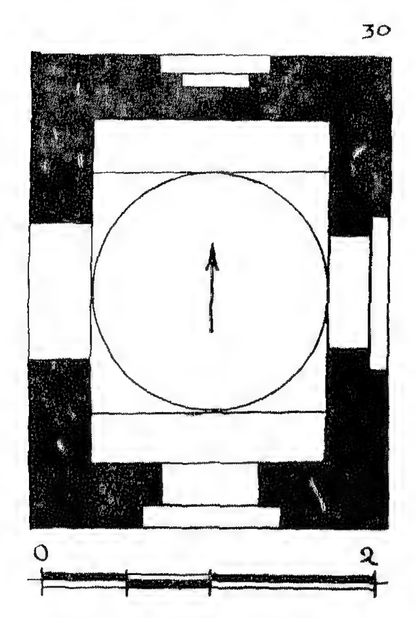
وأول نوع منها وأقدمها فى رأيه هو المستطيل المكشوف أو المغطى بقبو (ش : ٣٣٥/أ) وثانيها المستطيل الذى يتوسطه مربع مغطى بقبة (ش : ٣٣٥ حـ ١ – حـ ٣) وثالثها المربع المغطى بقبة (ش : ٣٣٥/ ب ١ – ب ٣) •

---

(١) Monneret, pp. X-XI.

(٢) Ibid., Fig. 36.

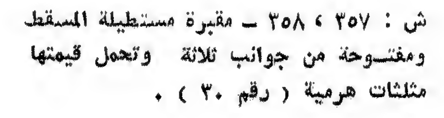




ش : ٣٥٥ ، ٣٥٦ ـ مقبرة مستطيلة المسقط ومفتوحة الجوانب الاربعة وتحمل قبتها مثلثات هرمية وتزين واجهاتها دخلات رفيعة (رقم ٢٨) .







ش : ٣٥٧ ، ٣٥٨ ـ مقبرة مستطيلة المسقط ومفتوحة من جوانب ثلاثة وتحمل قبتها مثلثات هرمية (رقم ٣٠) .

وخالفه كريسول في ترتيب النوعين الثاني والثالث فجعل كلا منهما مكان الآخر ، وهو الترتيب الذي سنسير عليه في الشرح التالي لها ولمميزاتها ولما ينقسم اليه كل نوع من الثلاثة من نماذج ، مع بعض التعديل في هذا التقسيم بما يتفق مع وجهة نظرنا من ناحية التكوين المعماري • على أن نوضح رأينا في الترتيب التاريخي للتطور بعد الشرح •

أما النوع الأول ـ (ش : ٣٣٥/أ) ـ ويتكون من مستطيل مقفل من الجوانب الأربعة فانه ينقسم الى ثلاثة نماذج عدّلنا من ترتيب مونيريه لها كالآتي :

(أ ١) نموذج غير مسقوف ـ (ش : ٣٣٦) [1] • وهو على هيئة مستطيل صغير من أربعة جدران بغير باب وتحيط بقبر أو أكثر بداخلها • وكل قبر مشيد تحت الأرض ولا يتسع الا لجثة واحدة • وأبعاد المستطيل المخصص لقبر واحد من الخارج نحو ٤ × ٣ أمتار ، ولا يزيد ارتفاع الجدران عن مترين • ودعمت بعض المقابر بأكتاف في الأركان الداخلية (ش : ٣٣٧) [2] ، وزيد في بعضها أكتاف في منتصف الوجه الداخلي للجدران الطويلة • وغالبا ما توجد في أعلى الجدران طاقات صغيرة نافذة يطل منها على داخل المستطيل • وفي بعض المقابر يوجد محراب صغير مسقطه نصف دائرة وضع في منتصف الجدار الشرقي من الداخل (ش : ٣٣٧) • ومن البديهي أنه وضع كرمز وبركة وحسب • ولكن أغلب المقابر من هذا النموذج وغيره قد زودت بمحراب خارجي (ش : ٣٣٧) أمامه مصطبة للصلاة توازي الجدار الجنوبي الذي يوجد به دائما حشوة غائرة في الوجه الخارجي لوضع شاهد القبر فيها ، أي جهة رأس الميت • وقد توجد حشوتان أو ثلاث توضع فيها الشواهد اذا اتسع المستطيل لأكثر من قبر • ولا توجد غير هذه الحشوات والطاقات في واجهات هذا النوع من المقابر •

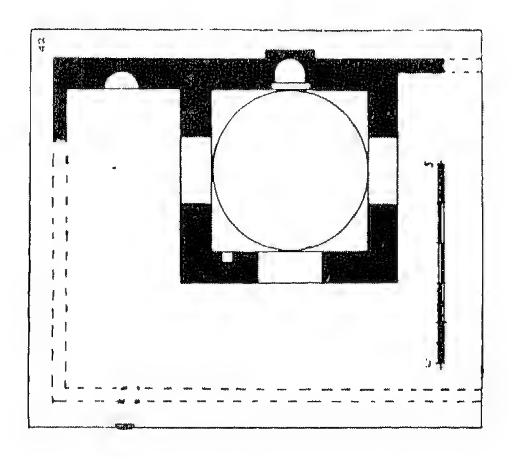
(أ ٢) نموذج مستطيل يغطيه قبو طولي سد طرفه الجنوبي بجدار تركت فيه دخلة غائرة لوضع الشاهد ، وترك في طرفه الشمالي فتحة لادخال الجثة ثم أقفلت بعدها • وقد يترك انحناء القبو ظاهرا ، أو يحاط بالبناء ليصبح كتلة منشورية على هيئة مصطبة (ش : ٣٣٨ ، ٣٣٩) [3] •

---

(١) Monneret, Fig. 27.

(٢) Ibid., Fig. 29.

(٣) Ibid., Pl. VII/A.



ش : ٣٥٩ ـ مقبرة مربعة مربعة المسقط ومفتوحة من ثلاثة جوانب (رقم ٤٢)



ش : ٣٦٠ ـ المقبرة رقم ٤٢ تحمل قبتها مثلثات كروية .

ونفضل اعتبار هذا النموذج هو الثانى لا الثالث فى رأى مونيريه وكريسول ، فهو فى رأينا حلقة الوصل بين النموذج السابق وبين النموذج التالى .

(أ٣) نموذج مستطيل زخرفت جدرانه بحشوات غائرة عريضة وضيقة بالتبادل (ش : ٣٤٠ [١] ـ ٣٤١) وهو اما أن يترك بغير سقف أو يغطى بقبو طولى يرتفع بارتفاع الجدران الخارجية . وهذا النموذج فى رأينا يجمع بين النموذجين أ١ ، أ٢ مع اضافة الحشوات الزخرفية .

أما النوع الثانى (ش : ٣٣٥/ب١ ـ ب٣) فى رأى كريسول والثالث فى رأى مونيريه فان مسقطه مربع تغطيه قبة . وهو ينقسم الى ثلاثة نماذج رئيسية .

ـ نموذج ب١ ، وهو مفتوح من جوانبه الأربعة ، (ش ٣٤٢[٢] ، ٣٦٦ [٣]) .

ـ نموذج ب٢ ، سد جانب من الأربعة ووضع فيه فى بعض الأمثلة محراب ، (ش : ٣٥٩ [٤] ٣٧٠ [٥] ٣٧٤ [٦] ٣٧٦ [٧] .

ـ نموذج ب ٣ ، كالسابق ولكن سد جانبان منه ولم يبق له الا فتحة واحدة وضعت فى أغلب الأحيان فى الجدار المقابل للمحراب .

غير أنه توجد بعض الأمثلة من هذا النوع المربع أو القريب منه لا تنطبق عليها مميزات النماذج الثلاثة السابقة . منها ما له فتحتان فى جدارين متجاورين أو متقابلين (ش : ٣٦٨) [٨] . ومنها ما كان فى أول بنائه لا فتحات فيه (ش : ٣٦٢) [٩]، اذ ان الفتحة الصغيرة فى وسط دخلة الواجهة الشرقية لم تكن بابا فى الأصل ولم يقصد بها أن تؤدى وظيفة باب للمقبرة عند أول بنائها فعرضها لا يزيد عن ٥٥ سم ولم يوضع فوقها عتب أو عقد . وكل ذلك يدل على أن جدار الدخلة الذى سد بعد أن تم دفن المتوفى فى قبره داخل المقبرة قد شقت فيه تلك الفتحة فى عصر تال .

---

(١) Monneret, Fig. 33.

(٢) Ibid., Pl. VIII/A and C.

(٣) Ibid., Fig. 55, Pl. XIX/D ; M.A.Eg., , Fig. 66, Pl. 44 a.

(٤) Monneret, Fig. 5, Pl. A and B ; M.A.Eg., I, Fig. 66.

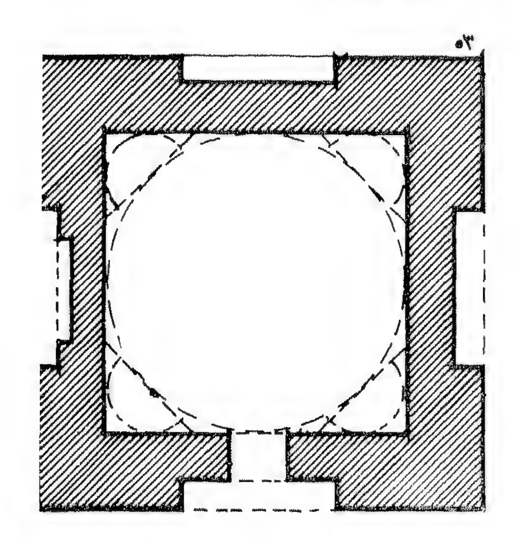
(٥) Monneret, Fig. 12, Pl. XX/C ; M.A.Eg., I, Pl. 42 b.

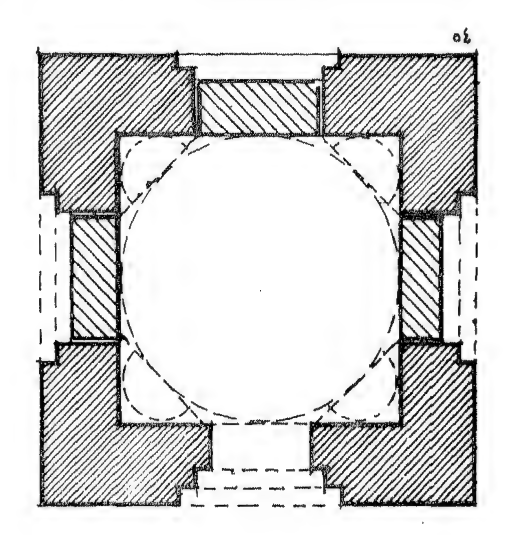
(٦) Monneret, Fig. XV/C ; M.A.Eg., I, Fig. 67, Pl. 41/a, b.

(٧) Monneret, Fig. 57, Pl. XV/A ; M.A.Eg., I, Fig. 67, Pl 41/d

(٨) M.A.Eg., I, Fig. 68, Pl. 43/a

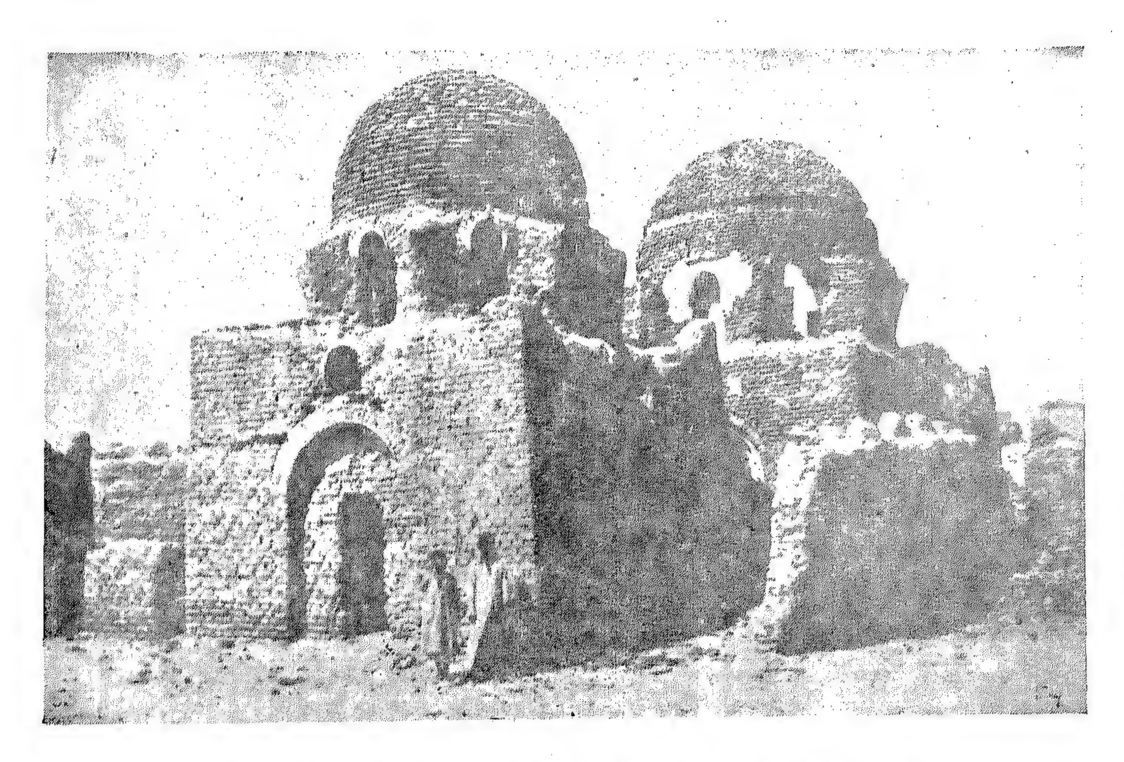
(٩) M.A.Eg., I, Fig. 68, 43/a.





ش ٣٦١ مقبرة مربعة المسقط كانت مفتوحة من الجوانب الاربعة

ش ٣٦٢ مقبرة مربعة المسقط مسدودة الجوانب (رقم ٥٣) .



ش : ٣٦٣ ــ المقبرتان ٥٤ ، ٥٣ تفطيها قبتان على مقرنصات مخروطية .
(أنظر شكل : ٣٦٣ ، ٣٦٤)

ومن النماذج غير العادية لهذا النـوع مقبرة (ش : ٣٤٩ ـ ٣٥١) [١] يزيد مسقطها قليلا عن المربع ولذلك غطيت بقبة بيضاوية المسقط فتحت فيها أربع نوافذ نصف دائرية ، وليس لها رقبة بل وضعت القبة مباشرة فوق منطقة الانتقال المكونة من بلاطة مسطحة مثلثة • أما لجدران فقد سد الجدار الغربي على غـير المألوف ، وزود كل من الجدارين الشمالى والشرقى بفتحة باب فى طرف من الجدار • أما الجدار الجنوبى فقد وضعت فيه أربعة شقوق ضيقة رأسية طويلة •

أما النوع الثالث (ش : ٣٣٥ ، جا ـ ح٣) فهو مستطيل المسقط يتوسطه مربع تعلوه قبة • ثم غطى كل من الجـزءين البـاقيين على جانبى المربع بقبو • وهذا النوع الثالث يتبع الثانى من حيث نماذجه الفرعية الى حد ما كالآتى :

ـ نموذج جـ ١ : وهو مفتوح من جوانبه الأربعة (ش : ٣٤٧ [٢] ، ٣٥٢ [٣] ، ٣٥٥ [٤]) •

ـ نموذج جـ٢ : سد فيه جانب من الجوانب الأربعة (ش : ٣٥٧ [٥]) ووضع فى بعض أمثلته محراب (ش ٣٤٤ [٦]) •

ـ نموذج جـ٣ : بقى فيه باب واحد مقـابل جـدار القبلة ، وبذلك أصبح من الممكن وضع فناء مكشوف يتقدمه (ش : ٣٧٨ ـ ٣٧٩ [٧]) •

وكما حدث فى النـوع الثانى فانه يوجد من النـوع الثالثما لا ينطبق عليه مميزات نماذجه الثـلاثة تماما • فمنه أمثلة لكل منها فتحتـان فى جانبين متقابلين • ولكن مما يستوقف النظر أن عددا من المقابر من النوع الأخير ومن نموذجية الأول والثانى قد زخرفت جدرانه بحشوات غائرة ضيقة (ش : ٣٥٥ ، ٣٥٦) تمت بصلة الشبـه لما يوجد فى مقابر النموذج الثالث من النوع الأول كما شرحناه من قبـل (ش : ٣٤٠ ـ ٣٤٢) •

ومهما يكن من أمر فاننا نجـد نقاط ضعف فى محاولات تأريخ هذه الأنواع بنماذجها ثم فى ترتيبها فى خطوات التطور حسب التسلسل التاريخى الذى ارتآه كل من مونيريه وكريسول • ونلخص تلك النقاط فيما يلى :

(١) Monneret, Figs. 23, 24, Pl. XII/C.
(٢) Ibid., Fig. 53, Pl. XX/B.
(٣) Ibid., Figs. 54, 65, Pl. XXI/A.
(٤) Ibid., Fig. 48, Pl. XVIII/C.
(٥) Ibid., Fig. 49, Pl. XIX/A.
(٦) Ibid., Figs. 46, 64.
(٧) Ibid., Fig. 41, Pl. XII/A.



ش : ٣٦٤ ـ الحنية الركنية ذات الشكل المخروطى فى مقبرة رقم ٥٣ .



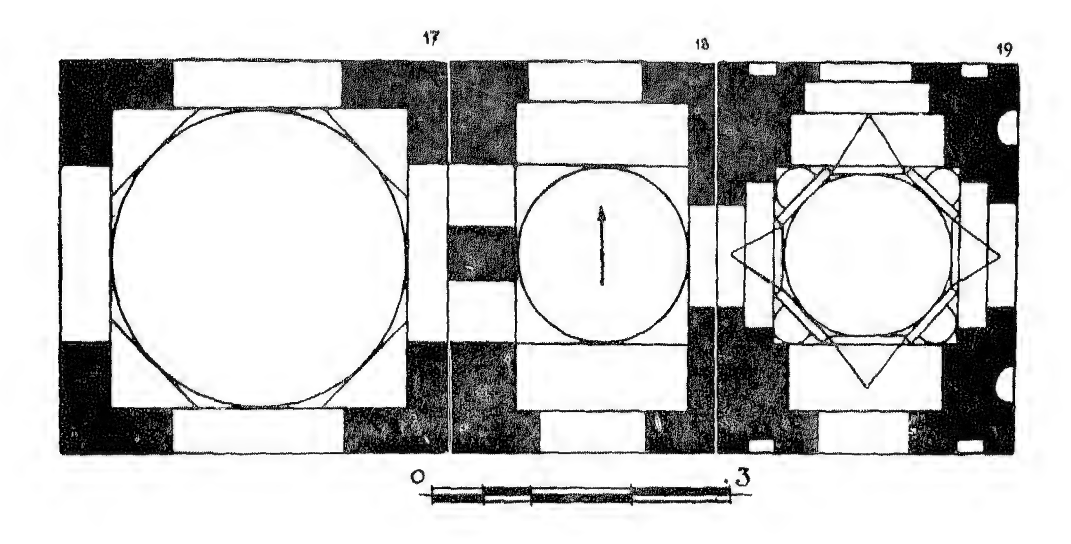
ش : ٣٦٥ ـ الحنية الحاملة للقبة فى المقبرة رقم ٥٤

أولا : ان المقابر التى كانت بها الشـــواهد الـ ٦٥٥ والتى يرجع تاريخها الى ما قبل القرن الخامس الهجرى (١١م) لا بد أن عددها كان لا يقل عن المئات • وليس من المعقول أن يكون السيل قد انتقى هذه المئات من المقابر جميعها بالذات ليدمرها عن آخرها ، بينما لم يدمر شيئا أبدا من بين المقابر التى كان بها شواهد مؤرخة فى القرن الخامس (١١م)• بل الأكثر من هذا أن السيل قد ترك ٨٠ مقبرة قائمة نسبت كلها الى هذا القرن وما بعده ، مع أن الشواهد التى تقع تواريخها بعد القرن الرابع الهجرى (١٠ م) لا يتجاوز عددها ٧٣ شاهدا ، وقد بقى أغلب تلك المقابر سليما كاملا بعناصره ، والقليل منها ينقصه القباب أو أجزاء منها أو من جدرانه • وكان من الواجب اذن أن لا نغفل هذه الحقيقة الهامة وأن لا تنسب هذه المقابر كلها جزافا الى القرن الخامس الهجرى ، وأن يؤخذ فى الاعتبار هذه الموازنات الاحصائية •

ثانيا : أن تلك المحــاولات لم يدخلها احتمــال بأن تكون جميع تلك الأنواع بنماذجها قد ظهرت فى قرون سابقة على القرن الخامس الهجرى (١١م) وأن يكون استعمالها قد امتد حتى هذا القرن مع قليل أو كثير من التطور لا يعرف مداه ، بل واستمرت تستعمل فى أزمان تالية • ولذلك فانه لم يكن من الحكمة الاعتماد على مثل واحد (ش : ٣٤٠ ــ ٣٤٢) مؤرخ فى سنة ٤١١ هـ (١٠٢١م) ليتخذ كنقطة البداية فى سلسلة تاريخ بقية المقابر الثمانين بأنواعها الرئيسية ونماذجها المختلفة التى يصل عددها الى نحو عشر نماذج ، وبخاصة فى ضوء النقطة الثالثة التالية وهى :

ثالثا : أنه لم يؤخذ أيضا فى الحسبان مكانة المتوفى الاجتماعية أو وظيفته فى أثناء حياته وقبيل وفاته ومبلغ ثروته ثم قدر عائلته ومستواها الاجتماعى والاقتصادى• وكلها عوامل كانت لا شـك تؤثر تأثيرا كبيرا على اختيار نوع ونموذج المقبرة التى تشيد له وعلى هيئتها وحجمها وعناصرها • فمن المنطق أنه اذا كان المتوفى شخصا متواضع المكانة دفن فى قبر بسيط مختف تحت ظهر الأرض أو مسنم قليلا فوقها مع وضع شاهده عند رأسه وأحيانا بدونه • واذا زادت مكانتـه أحيط القبر بالجـدران البسيطة الأوجه ووضع الشاهد فى حشوة فى الجدار عند رأسه • ثم يتدرج التطور مع ازدياد مكانته فتوضع فى الجدران الحشوات الزخرفية وتشـيد الأقبيـة فى بعض الأحيان • أو ينتقى له نموذج أكثر فخامة فى الحجم والهيئة والأناقة ، أى يشيد له أحد نماذج الأنواع المربعة أو المستطيلة التى ترتفع فوقها قبة • وهكذا تسير خطوات التطور لا بتأثير الزمن فحسب بل أيضا بتأثير العوامل الاجتماعية والاقتصادية •

وعلى ضوء الملاحظات السابقة نجد أنه بفرض التسليم بأن عددا ليس بالقليل من بين الثمانين مقبرة الباقية يمكن أن يعود الى ما قبل القـــرن الخامس الهجرى



ش : ٣٦٦ ـ ثلاث مقابر من ثلاثة نماذج ٦ منها رقم ١٧ ذات مسقط مربع مفتوحة الجوانب كلهاالبسرى



ش : ٣٦٧ ـ حنية نصف مخروطية تحمل قبة المقبرة رقم ١٧

(۱۱م) بل فى رأينا أن العدد الأكبر من المجموعة يرجع بالذات الى القرن الثالث (۹م) الذى يأتى منه نحو ٥٤١ شاهدا أى ثلاثة أرباع الشواهد • وأن عدداً آخر تمكن نسبته الى القرن الرابع (۱۰م) الذى يأتى منه نحو ١١٤ شاهدا ، أى ما يقرب من ضعف عدد الشواهد المؤرخة فى القرن الخامس الهجرى الذى لا يكاد يصل الى عشر واحد من مجموع الشواهد كلها •

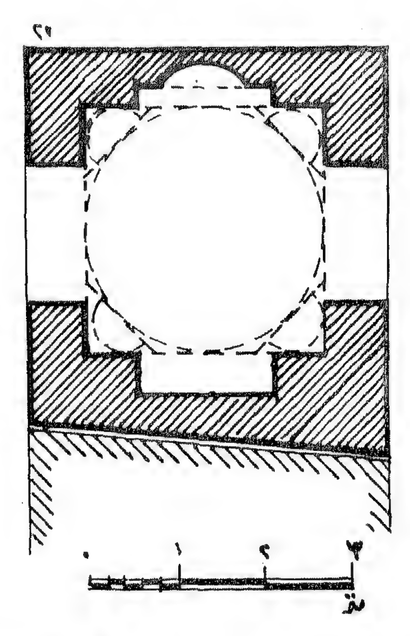
وكل ذلك يضعف من الآراء التى تتعلق بتاريخ تلك المجموعة من المقابر الباقية وبترتيبها فى سلسلة من حلقات التطور تتوالى الواحدة منها بعد الأخرى ، واعتمد أصحابها كل الاعتماد فى ذلك على أنواع ونماذج تلك المقابر من حيث مسقطها فحسب •

ونجد من الأصوب أن يكون الأساس فى التاريخ والتسلسل فى التطور معتمدا على العناصر المعمارية والتفاصيل من أنواع ونماذج مناطق الانتقال وما يقوم عليها من رقاب وقباب وأشكال العقود والمحاريب الى غير ذلك ، فهى عناصر يجب أن يكون لها المقام الأول فى الموضوع من حيث أن تطوراتها كانت أكثر تأثرا بالعامل الزمنى منها بالعوامل الاجتماعية والمادية التى كان يخضع لها تطور المساقط الى حد كبير •

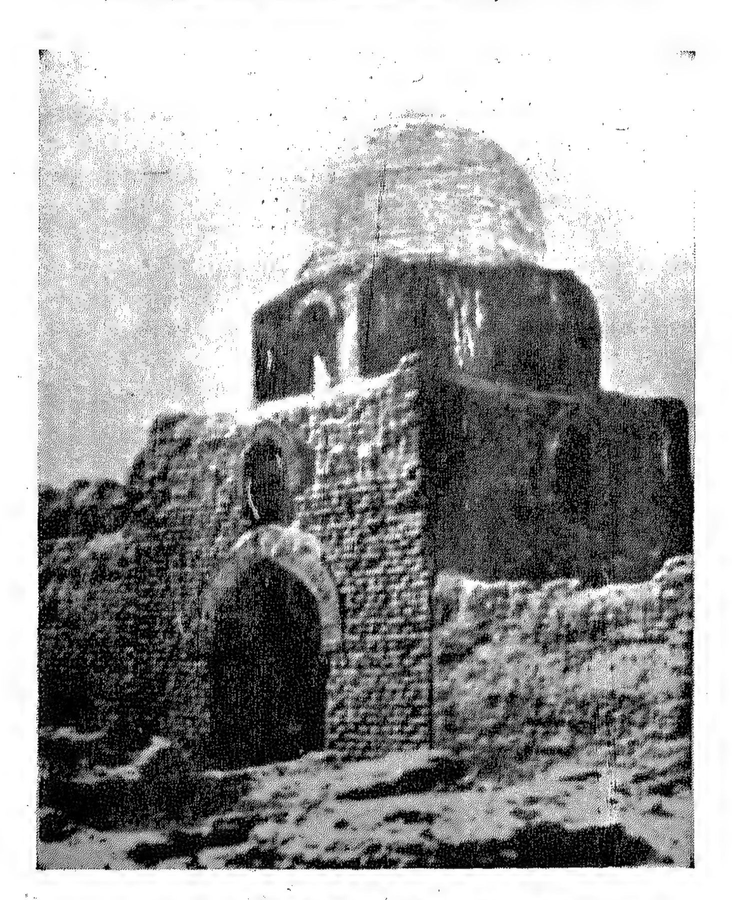
وسينصب اهتمامنا هنا على الأجزاء العليا من المقابر من الأنواع ذات القباب وما يتبعها من العناصر المعمارية الأخرى مثل الرقاب ومناطق الانتقال ، أما النوع المكشوف أو المغطى بالأقبية فلا مناص لنا من الاعتراف بأن عناصره المعمارية لا تساعد بأى حال على تتبع تطوره أو تعيين أى تاريخ له ، وكل ما يمكننا قوله عن هذا النوع بنماذجه المختلفة أنه من المحتمل أن يكون قد بدأ ظهوره منذ أوائل العصر الاسلامى فى تلك البقاع واستمر الى العصر الفاطمى بل والى ما بعده • ولذلك فان أمره يختلف عن الأنواع ذات القباب التى يوجد بها من العناصر ما يساعد على تكوين فكرة عن تتابع التطور الى درجة لا بأس بها •

ونبدأ تحليلنا للمقابر ذات القباب بتقسيمها الى مجموعتين على أساس أنواع ونماذج مناطق الانتقال الركنية التى تحول الأطراف العليا للشكل المربع الى أشكال مثمنة أو دائرية لترتكز عليها الرقاب أو قواعد القباب ، ففى رأينا أن مناطق الانتقال هذه تأتى فى المقام الأول بين العناصر التى تساعد على الوصول الى تتبع تطورها وتاريخها •

فالمجموعة الأولى منها تشمل النماذج البسيطة مثل الأركان المكونة من بلاطة مسطحة مثلثة (ش : ٣٤٢ ـ ٣٤٨) ، أو من مثلث هرمى مقلوب (ش : ٣٥٢ ـ ٣٥٣) أو من مثلث كروى (ش : ٣٦٠) أو من حنية من النوع نصف المخروطى



ش : ٣٦٨ ـ مقبرة مربعة المسقط مفتوحة من الجانبين رقم ٢٠



ش : ٣٦٩ ـ المقبرة رقم ٢٠ تغطيها قبة على مقرنصات

ش : ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٧) أو من مقرنصة اسلامية (ش : ٣٧٠ ـ ٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٣٧٧ الخ) • وتمتاز هذه المجموعة من النماذج بوجود شباك بين كل ركنين ، يبدو واضحا من داخل البناء وخارجه •

وتهمنا هذه المجموعة لأنها تشمل عناصر ظهرت منذ العصر الاسلامى المبكر ، وبقيت أمثلة صريحة منها بين العمائر الاسلامية فى مختلف الأقطار ، ويوجد أشباه لبعض منها فى عصور ما قبل الاسلام •

أما المجموعة الثانية فتشمل نماذج الأركان المركبة ، أى التى انتقلت من مرحلة البساطة الى مرحلة أكثر تعقيدا وتطورا بعد زمن ليس بالقليل منذ أول العصر الاسلامى ، ولذلك فيغلب على ظننا أنها لا ترجع الى ما قبل لعصر الفاطمى ، ونرجو أن نعود الى الحديث عنها فى المجلد الثانى من كتابنا هذا • ونكتفى هنا بأن نذكر من هذه المجموعة الثانية نموذجين رئيسيين أولهما منطقة الانتقال المكونة من حنيات ركنية بين كل منها حنية أخرى وضعت فى محور ضلع المربع (ش : ٣٩٠ ـ ٣٩٢) [١] ويتميز هذا النموذج بأن جميع الحنيات سواء ما وضع منها فى الأركان أو فى الأضلاع تبدو واضحة من خارج البناء (ش : ٣٩٢) على عكس نماذج المجموعة الأولى كلها التى تختفى داخل كتلة البناء • وهذا النموذج المركب تختص به منطقة الصعيد الأقصى دون سائر أنحاء مصر كلها ، بل وسائر أقطار العالم الاسلامى جميعه•

والنموذج الثانى هو الأركان المكونة من حطتين من المقرنصات (ش : ٣٩٣ ـ ٣٩٤) [٢] • وتوجد أمثلة عديدة له فى عمائر فاطمية فى القاهرة مثل ضريح الشيخ يونس وأضرحة الجعفرى وعاتكة ورقية وغيرها [٣] • كما توجد أمثلة قليلة تمت له بصلة الشبه فى أنحاء أخرى من العالم الاسلامى •

أما المجموعة الأولى فمنها نموذج البلاطة الأفقية المثلثة التى يتميز بعضها بحافة مستقيمة يتحول بها المربع الى مثمن تقوم عليه رقبة مثمنة (ش : ٣٤٣ [٤] ، ٣٤٨ [٥] ، ٣٨٠) ، ويتميز بعض آخر بحافة مقوسة يتحول بها المربع الى دائرة تقوم عليها رقبة مستديرة (ش : ٣٤٥ ، ٣٥٠ ، ٣٨٢) •

---

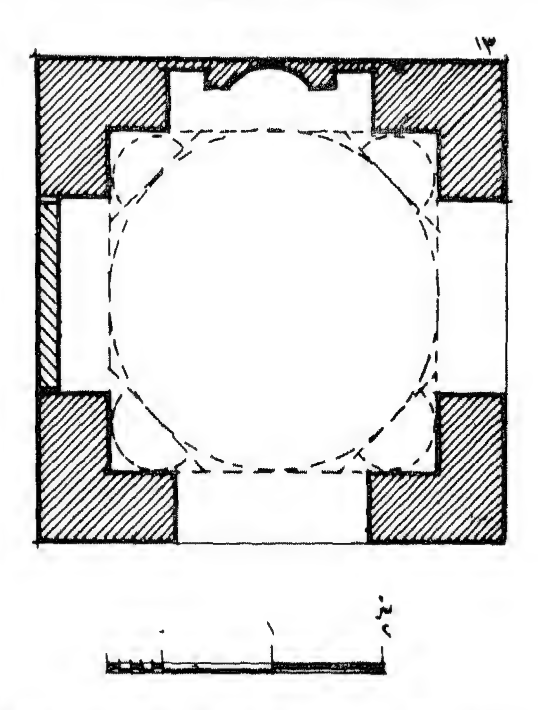
(١) Monneret, Fig. II, Pls. XI/B, C, XII/B ; M.A.Eg., I, Fig. 70.

(٢) Monneret. Figs. 63, 72, 73, Pl. X/C ; M.A.Eg., I, Pls. 78/f, 110/d.

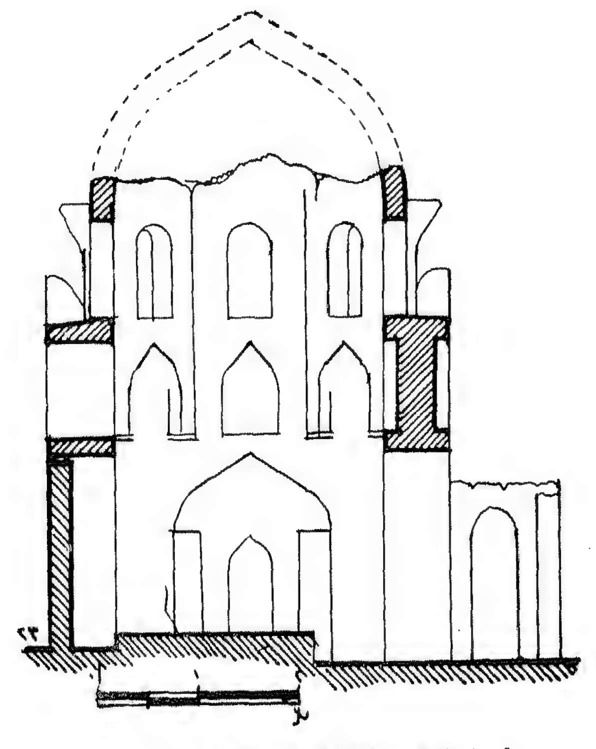
(٣) M.A.Eg., I, Pls. 80/b, 111/a, b, d, 112/a, e, e, 113/a, 114/a.

(٤) Monneret, Pl. XVIII/C.

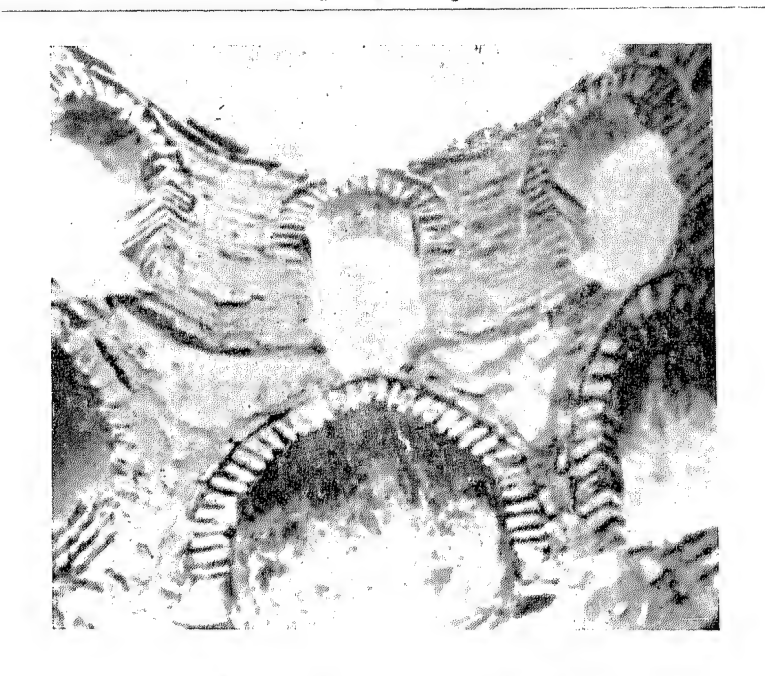
(٥) Ibid., Fig. 53, Pl. XX/B.



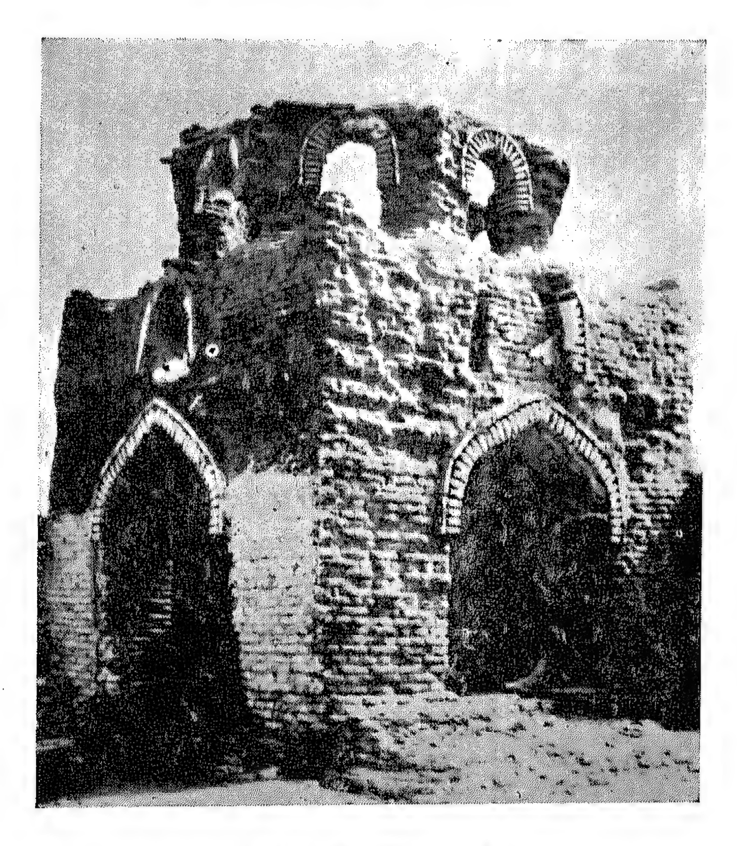
ش : ٣٧٠ ـ مقبرة ذات مسقط مفتوحة الجوانب الثلاثة (رقم ٢٣)



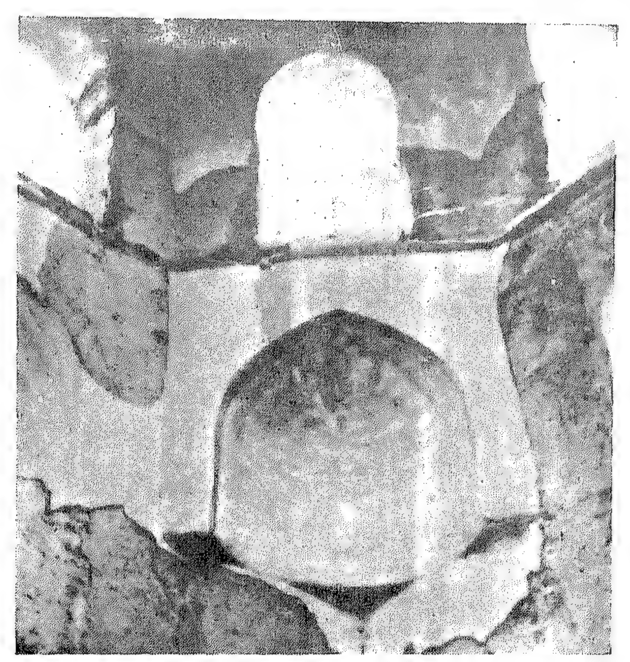
ش : ٣٧١ ـ قطاع فى المقبرة رقم ٢٣ .



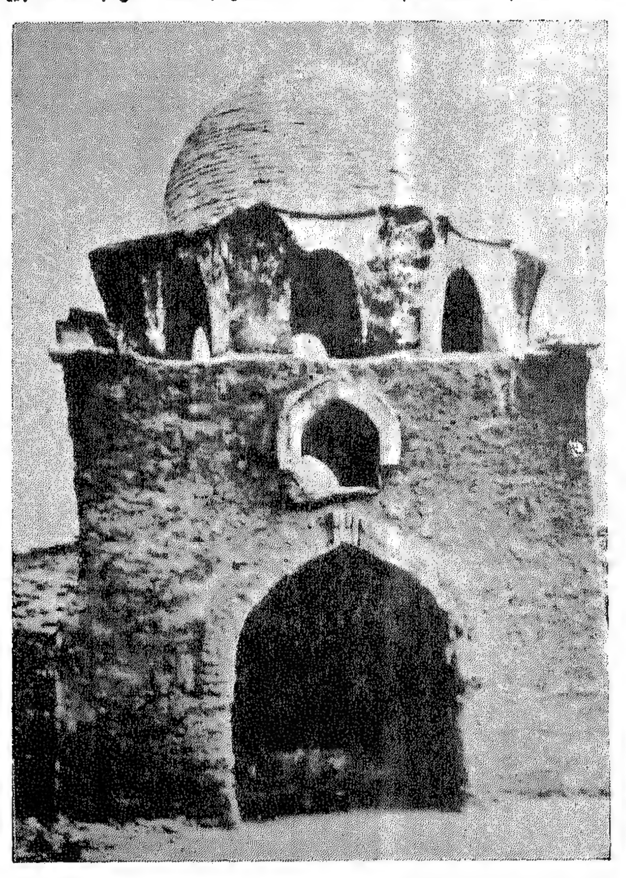
ش : ٣٧٢ ـ المقرنصات الحاملة لقبة المقبرة رقم ٢٣ .



ش : ٣٧٣ ـ واجهة المقبرة رقم ٢٣ .



ش : ٣٧٤ – المقرنصات فى المقبرة رقم ١٤ .
مسقطها بالضبط مثل رقم ٢٣ (٣٧٠) ولكن بدون المحراب الخارجى .



ش : ٣٧٥ – واجهة المقبرة رقم ١٤ .

وتوجد أمثلة فيها بعض الشبه بفكرة البلاطة ذات الحافة المستقيمة فى مقبرة رومانية فى ام الزيتون بحوران وهى تتكون من مجاديل أو كمرات حجرية (ش : ٣٨١) [1] • كما يوجد مثل آخر للبلاطة ذات الحافة المستديرة فى مقبرة رومانية فى عمان (ش : ٣٨٣) [2] • ويختلف المثل الاخير عن الظاهرة الموجودة فى أسوان بأنه يتكون من كوابيل من الحجر وضعت بجانب بعضها ونحتت أطرافها الخارجية لتتكون منها حافة مستديرة تتلقى دائرة القبة كما هو واضح فى الرسم •

أما الأمثلة ذات الصلة المباشرة بهذه الظاهرة فتوجد فى كثير من وحدات قصر الأخيضر ، ومنها القبة فى دهليز المدخل الرئيسى (ش : ٣٨٥) [3] ، ومنها الحشوات الزخرفية فى الجدران حول الفناء الكبير الذى يتوسط القصر (ش : ١١٢) •

ويوجد لنموذج المثلث الهرمى المقلوب (ش : ٣٥٢ ، ٣٥٣) شبيه فى مدينة اللاذقية ينسب الى العصر الرومانى (ش : ٣٨٦ ـ ٣٨٧) [4] ، ولكنه مشيد بالحجر المنحوت •

وينتشر استعمال المثلث الكروى (ش : ٣٦٠) فى مقابر أسوان ، وقد تكلمنا عن تطوره قبل الاسـلام من قبـل (ص : ١٣٩ ، ش : ٨٤ ـ ٨٧) وتمتـاز الأمثلة الموجودة فى أسوان بأنها قد شيدت كلها باللبن أو الآجر ، الأمر الذى لم يحدث من قبل العصر الاسلامى ، اذ كانت المثلثات الكروية تبنى بالحجر •

ثم نجد فى مقابر أسوان نموذجين للحنيات الركنية • أحدهما النوع الذى يشبه نصف مخروط مجوف وضع قطاعه المثلث أفقيا بحيث تنصف محوره زاوية المربع ، وبحيث تنطبق حافتـا المثلث على ضلعى الزاوية (ش : ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٧) وهو النوع الذى أشرنا من قبل الى أنه يرجح ظهوره فى العمارة الساسانية (ص : ١٦٩) (ش : ١٠٨ ـ ١١٠) • ويوجد أقدم مثل له فى العصر الاسلامى فى قصر الأخيضر فى بادية العراق (ش : ٣٨٤) [5] والذى يؤرخ فى حوالى سنة ١٦٣ هـ (٧٨٠ م) • ويتكون هذا المثل العراقى من نحو ثلاثة عقود يبدأ أولها من الخارج كبيرا وتتوالى العقود الأخرى بعده بداخل بعضها مدرجة بحيث يقل قطر الواحد منها كلما قرب من قمة المخروط ، ثم يستقيم سطح المخروط ويصبح أملس غير مدرج • ويذكرنا الجـزء المدرج من هذه الحنيـة بمثـل ينسب الى العصر السـاسانى فى القرن الرابع الميلادى ، ولكنه مدرج كله ، اذ يتكون من عدة عقود حتى زاوية المربع ، وهو يوجد

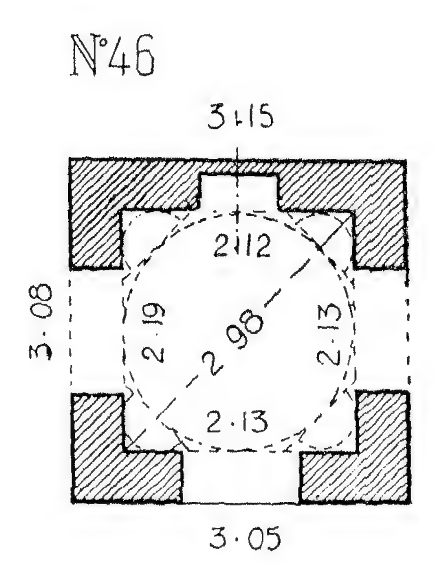
(١) E.M.A., I, Fig.

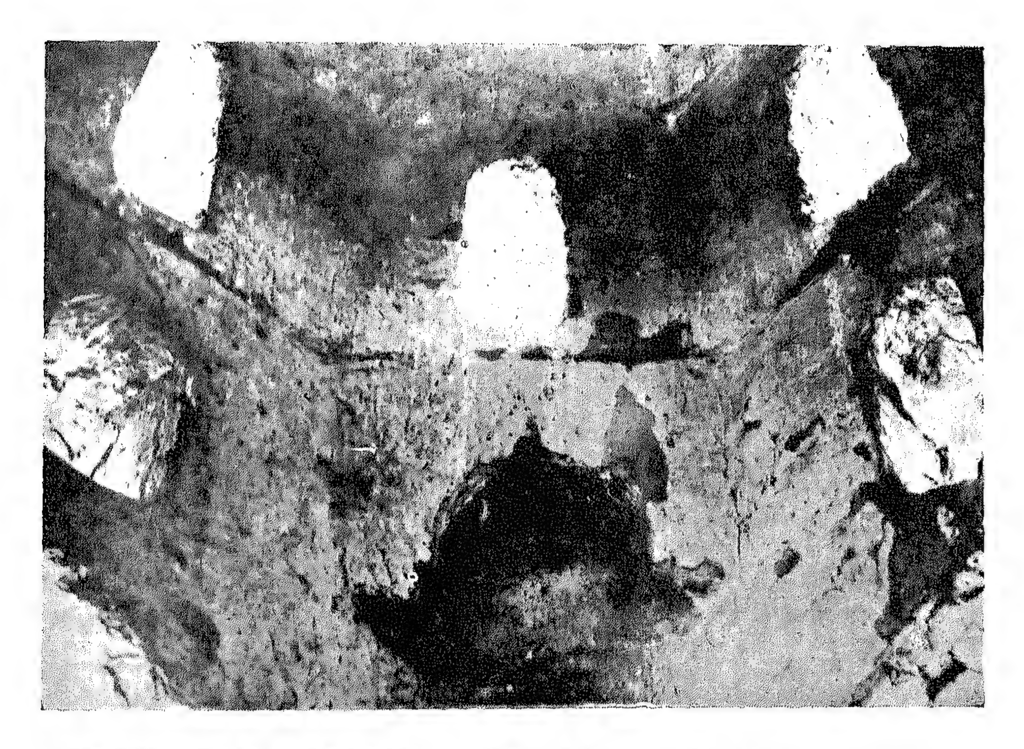
(٢) Ibid., I, Fig.

(٣) Ibid., I, Fig.

(٤) Ibid., II, Fig.

(٥) Ibid., II, Fig.





ش: ٣٧٦ ، ٣٧٧ ـ مقبرة مربعة المسقط مفتوحة من ثلاث جوانب وتغطيها قبة على مقرنصات ركنية رقم٤٦

فى أثر معمارى نحتت قاعاته وكل جدرانه وما يغطيها من قباب وما يتبعها من حنيات ركنيه فى الصخر فى موضع يسمى « باميان » على بعد نحو ٨٠ كيلومترا من مدينة كابول عاصمة أفغانستان [١] .

غير أن حنيات أسوان المخروطية تتميز بأن كلا منها قد شـيدت بقوالب من الآجر على هيئة بلاطات صغيرة مربعة رصت بجانب بعضها فى جنازير متتالية (ش : ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٧) ، ويقل قطر الجنزير منها كلما قرب من قمة نصف المخروط التى تقع عند زاوية المربع . هذا ويتميز السطح المخروطى للحنيـات الركنيـة فى أسوان بأنه مستو مثل الحنيات فى قصرى سارفسـتان وفيروزاباد ، أى أنه غير مدرج مثل الحنيـات التى أشرنا اليها وتوجـد في باميـان وقصر الأخيضر . ولـكن ممـا هو جدير بالملاحظة أن طريقة رص الجنازير الآجر فى حنيات أسوان التى وصفناها جعلت الحنية منها تمت بصلة شبه كبيرة بطاقية من قطعة كروية توجت بها احـدى الحشوات الغائرة التى زينت بها جدران الفناء الأوسط الرئيسى فى قصر الأخيضر (ش : ١١٢) .

وأخيرا نصل الى العنصر الاسلامى الصميم وهو حنية المقرنصة (ش : ٣٦٩ ـ ٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٣٧٧ الخ) ، وهو النموذج الثانى للحنيات الركنيـة . وكل ما لدينا عنه من معلومات حتى الآن لا تدع مجالا لأى شك فى أن أقدم مثل صريح ناضج له فى العـالم يوجـد فى باب العـامة (ش : ٩١ ، ٢٣٣) وهو المدخل الرئيسى لقصر الجوسق الخاقانى الذى بناه الخليفة المعتصم سنة ٢٢١ هـ (٨٣٦ م) فى سامرا (صفحة ٤٠٢ ، ش : ٢٣٢) . غير أن هناك مثلا نعـده فى نظرنا مرحلة تمهيدية لتلك المرحلة النهائية الناضجة ويوجد فى قصر الأخيضر (ش : ٢٤١) ، وهو أوضح النمـاذج المختلفة التى توجد فى ذلك القصر فهو على هيئة طاقية من نصف قبة مدببة ، وهى الطاقية التى تتوج المقرنصة الاسلامية فى باب العامة والتى انتشرت بعد ذلك فى العالم الاسلامى ، وتكثر أمثلتها فى مقابر أسوان .

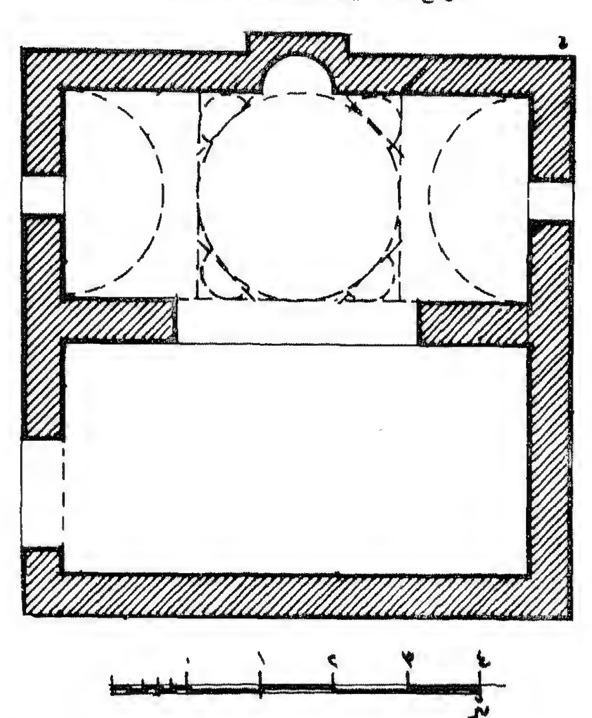
ومن الملاحظ أن نموذج البلاطة المستديرة الحافة ونمـوذج المثلث الكروى ونموذج الحنية المخروطية يحول عادة كل منهم المربع الذى يبدأ منه الى دائرة ترتفع فوقها رقبة اسطوانية مستديرة السطح الداخلى تلتحم مع دائرة القبـة التى تعلوها (ش : ٣٤٥ [١] ، ٣٥٠ ، ٣٦٠ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٧ .

أما النماذج الأخرى مثل البلاطة المستقيمة الحافة والمثلث الهرمى والمقرنصة

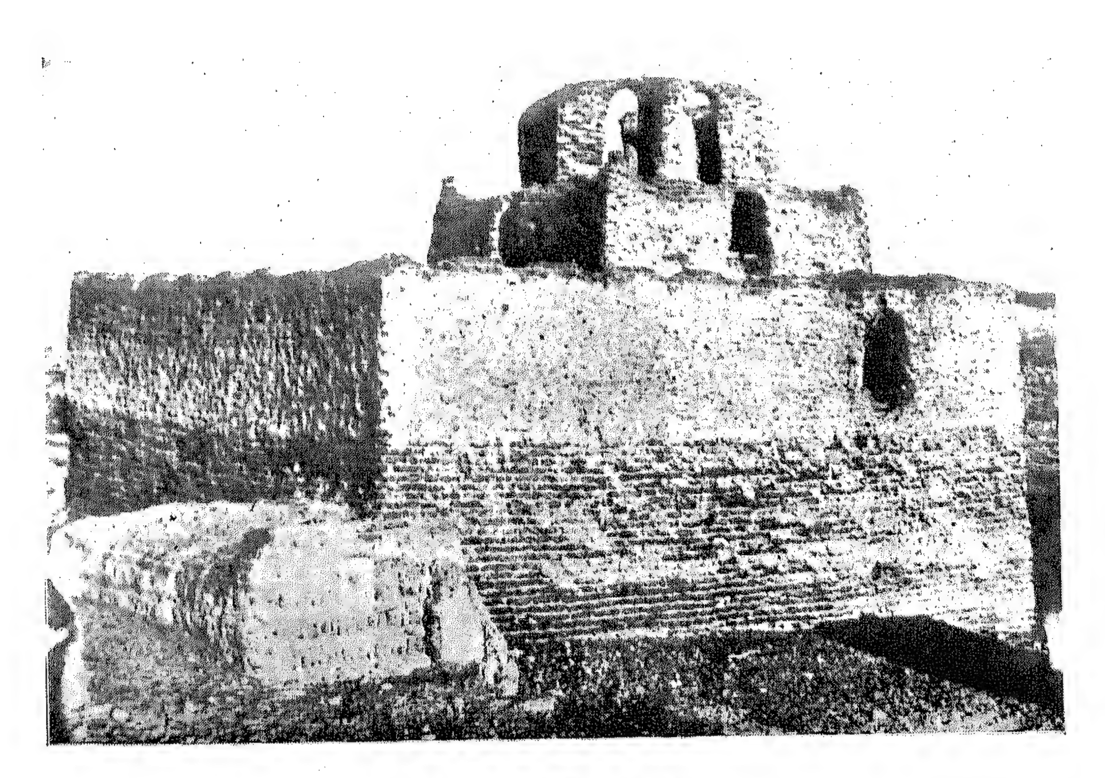
---

(1) M.A.Eg., I, Fig. 68, Pl. 42/c, d.

نموذج مستطيل يتقدمه فناء مستطيل



ش : ٣٧٨ ـ مقبرة ذات مسقط مستطيل يتقدمه فناء مستطيل (رقم ٤)



ش : ٣٧٩ ـ واجهة المقبرة رقم ٤ .

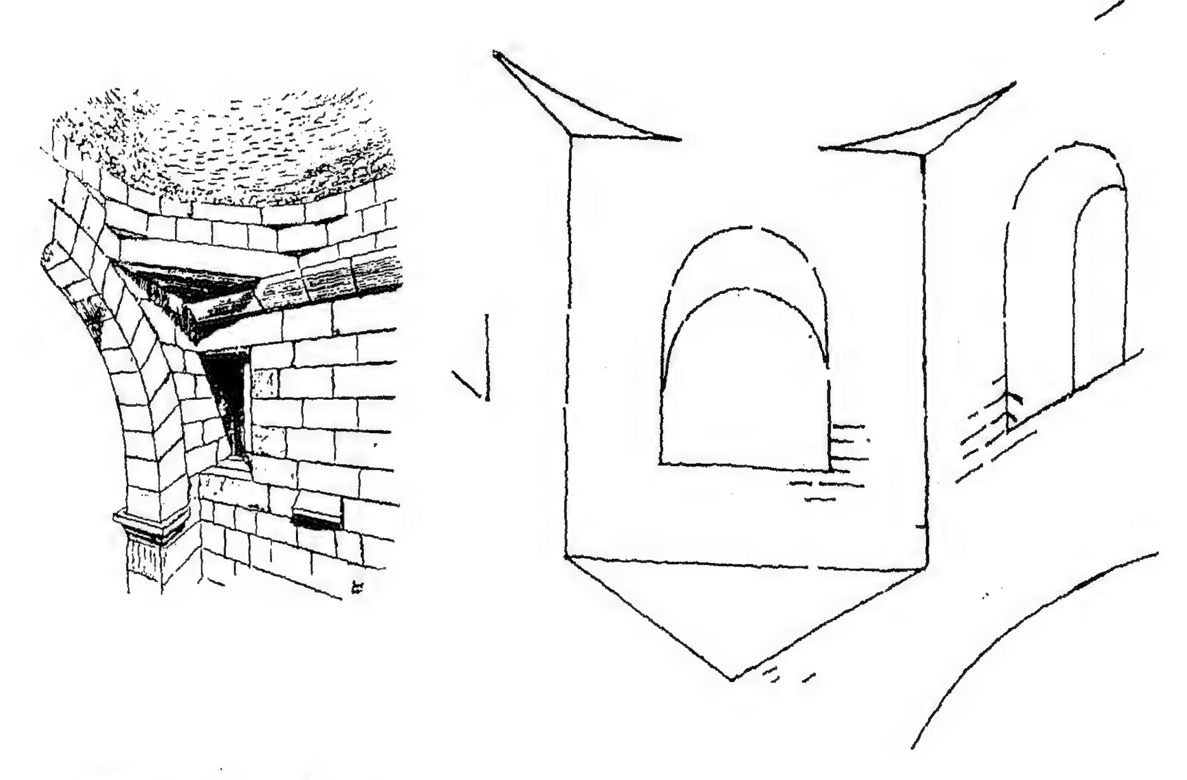
الاسلامية فانها تحول المربع الى مثمن ترتفع فوقه رقبة سطحها الداخلى يتكون من ثمانية اضلاع (ش : ٣٤٦ ، ٣٥٣ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٣٧٧ الخ ٠٠) .

هذا ولم نعرف ما الذى يقصده الأستاذ كريسول بما أطلقه على أحد أشكال الأركان من اصطلاح Domi cal Vault (ش : ٣٦٠) ، فهو شكل يبدو لنا أحد أمثلة المثلثات الكروية ، ولعل بعض الغرابة فى أسلوب بنائه بقوالب الطوب هى التى جعلته مترددا فى اعتباره مثلثا كرويا فأطلق عليه ذلك الوصف .

ومن الملاحظ كذلك أن جميع نماذج مناطق الانتقال السابقة تختفى كل منها داخل الأطراف العليا لكتلة بناء المقبرة ، والتى تتكون من شبه مكعب اذا كان مسقطها مربعا ، أو من منشور اذا كان المسقط مستطيلا ، وفى الحالتين فان ارتفاع الكتلة يقرب من طول ضلع المربع الذى تعلو القبة . وتبدو الكتلة منها من الخارج وكأنها قاعدة وضعت فوقها الرقبة ثم تعلوها القبة (ش : ٣٤٣ ، ٣٤٨ ، ٣٥١ ، ٣٥٤ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٦٣ ، ٣٦٩ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ الخ ...) . وفى جميع الأحوال تقريبا وضعت بين أركان منطقة الانتقال شبابيك صغيرة تظهر فى الواجهات فى منتصف الأطراف العليا للمكعب ، وأحيانا كانت تسد النافذة الشرقية ليوضع فيها شاهد القبر. وهناك من البقايا ما يدل على أنه كانت توضع شرافة واحدة فوق كل ناصية من نواصى كتلة المقبرة . والشرافة الركنية اما أن تكون على هيئة كرسى مربع المسقط ورأسى الأوجه ، أو أن يكون كل من وجهيها الظاهرين على شكل ربع دائرة أو مسنن أحيانا (ش : ٣٣٠) .

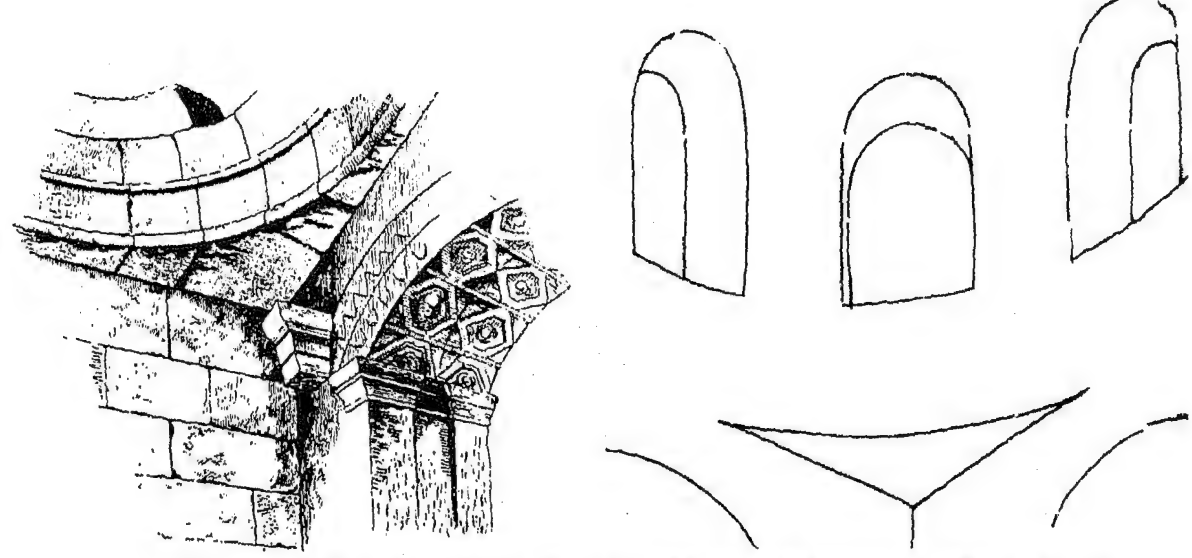
وباستثناء بعض الأمثلة القليلة النادرة فان رقاب القباب فى منطقة الصعيد الأقصى وبالذات فى أسوان ، وبخاصة تلك التى يوجد بها النماذج البسيطة من مناطق الانتقال، تتميز بمظهر غريب لا يوجد فى أى مكان آخر فى القطر المصرى ، بل ولا فى سائر العالم الاسلامى . ويتسبب فى هذه الغرابة وجود ظاهرتين ، أولاهما أن كل وجه من الأوجه الثمانية للرقبة ليس مسطحا كما هو المألوف فى الرقاب بل هو مقعر فى مسقطه . أما الظاهرة الثانية فهى أن كل حافة من حافات تقابل الأوجه الثمانية ببعضها لا ترتفع رأسية كما هو مألوف أيضا ، بل هى عبارة عن خط مقوس يبرز طرفه العلوى عن طرفه الأسفل ، مما يجعل الحافات تشبه القرون (ش : ٣٤٣ ، ٣٤٨ ، ٣٥٤ الخ ...) .

وليس هناك الا مثل واحد فى العالم الاسلامى كله بل فى العالم أجمع يوجد به ظاهرة الأوجه المقعرة هو الرقبة المثمنة لقبة جامع القيروان (ش : ٣٨٨) ، والتى تنسب الى عمل ابراهيم بن الأغلب فى سنة ٢٤٨ هـ (٨٦٣ م) . أما الحافات التى على



ش : ٣٨١ ـ حوران : ركن مسطح مستقيم الحافة .

ش : ٣٨٠ ـ اسوان ، ركن مسطح مستقيم الحافة .



ش : ٣٨٢ ـ اسوان : ركن مسطح مستدير الحافة   ش : ٣٨٣ ـ عمان : ركن مسطح مستدير الحافة

هيئة القرون فهى ظاهرة فريدة تختص بها منطقة الصعيد الأقصى دون سائر العالم . ولا شك أنها خاصية محلية فى تلك المنطقة .

غير أنه توجد بضعة أمثلة نادرة فى مقابر أسوان تخرج رقاب قبابها على ذلك الشكل السائد هناك من الأوجه المقعرة والحافات كالقرون .

فمنها ما هو ذو أوجه مقعرة ولكن الحافات التى تتقابل عندها ترتفع رأسية بغير انحناء أو بروز فى أعلاها (ش : ٣٣٤ ـ الى اليسار) . ويستوقف نظرنا المثل فى (ش : ٣٥٦) بالذات لما فيه من شذوذ من ناحية ثالثة هى عدم وجود نافذة فى كل ضلع من الثمانية كما هو متبع فى سائر الرقاب ، بل توجد نافذة فى ضلع ولا توجد فى كل من الضلعين على جانبيه .

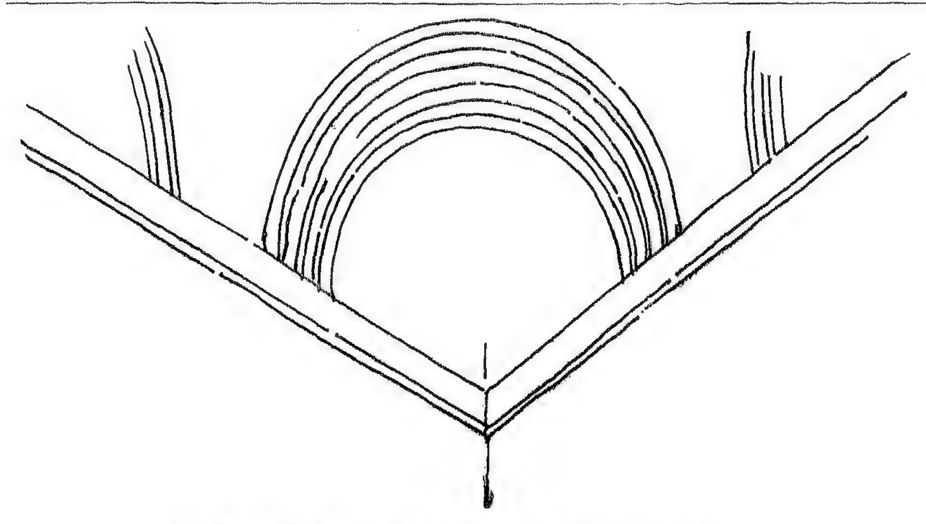
ويوجد مثل نادر فى نوعه فى أسوان اذ يخلو من وجود رقبة تحت القبة (ش : ٣٤٨ ـ الى اليمين) . فهو يتميز بوجود منطقة الانتقال داخل كتلة بنائية تخرج على التقليد السائد فى أسوان فتظهر فى الواجهة على هيئة قاعدة مربعة المسقط قليلة الارتفاع وضعت فوقها قبة ضحلة الى درجة غير عادية ، وكذلك الحال فى مقبرة أخرى (ش : ٣٥١) .

وتمتاز جميع نوافذ رقاب القباب بأن عقودها من النوع نصف الدائرى ، فيما عدا مثل واحد عملت نوافذه على هيئة طاقات صغيرة معينة الشكل (ش : ٣٥٢ ، ٣٥٤) . أما النوافذ ذوات الرؤوس أو الجوانب من حليات (ش : ٣٩٥ ، ٣٩٦) [١] فيبدو لنا انها قد انتقلت الى مرحلة من التطور تجعلنا ننسبها الى ما بعد عصر الولاة ، حيث توجد لها أشباه فى الفترة الأخيرة من العصر الفاطمى فى القاهرة فى مقبرة الشيخ يونس وضريح السيدة رقية .

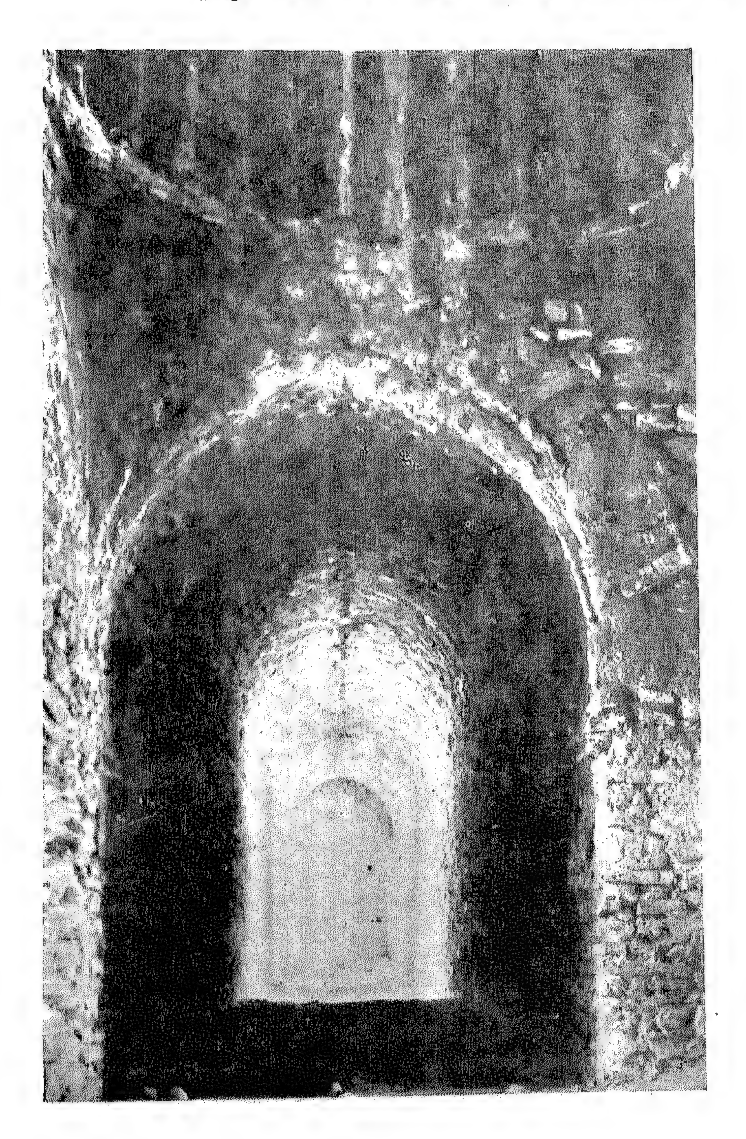
ونصل مما سبق من تحليل الى أنه قد اجتمع فى مقابر أسوان عدة عناصر وتقاليد معمارية منها ما هو محلى ومنها ما يمت بصلة الشبه أو القرابة لبعض مما يوجد فى أقطار اسلامية فى الشرق وأخرى فى الغرب . ومن تلك العناصر ما يحتمل تطوره من سوابق فى عصور ما قبل الاسلام ثم نضج فى العصر الاسلامى ، ومنها ما ظهر وتم نضجه فى العصر الاسلامى المبكر .

وتهمنا المعانى الحضارية التى يمكن استخلاصها من اجتماع تلك العناصر والأساليب فى جهات الصعيد الأقصى دون سائر بقاع مصر . ذلك أن ما يرجع منها

(١) Monneret, Fig. 47, Pl. XVII/A, B.



ش : ٣٨٤ ــ العراق ، قصر الاخيضر ، حنية نصف مخروطية



ش : ٣٨٥ ــ العراق
قصر الأخيضر ، بلاطة
مستديرة الحافات

الى أصول عراقية وشامية لا يمكن تفسير وجوده الا بأنه قد جاء به قوم وفدوا من تلك الجهات ، ونرجح أن يكون هؤلاء من بين أفراد الجيوش التى كان يرسلها الولاة للدفاع عن حدود مصر الجنوبية ضد غارات أهل النوبة ولمقاومة الفتن التى كانت تشعلها بعض القبائل فى المنطقة ، وقد ساعد على ظهور تلك العناصر فى هذه البقاع ما كانت تسفر عنه المعارك فيها من أعداد كثيرة من القتلى .

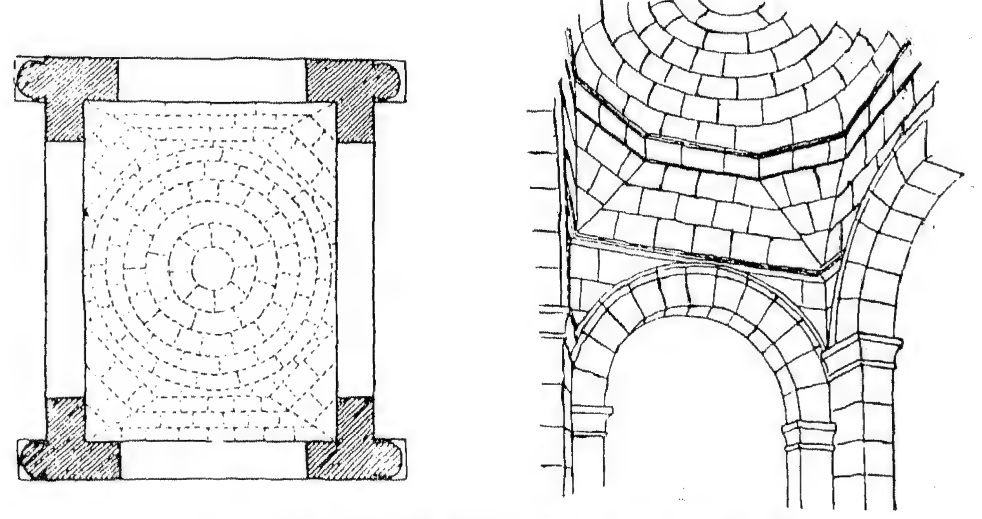
ويؤيد ذلك ما وجد فى مناطق النوبة من مقابر مشابهة وأشرنا اليها من قبل (ش : ٢٠١ ، ٢٠٢) والتى أصبحت الجبانات فيها الآن لا أثر لها ، وذلك بعد أن ذابت جدرانها وقبابها المشيدة باللبن بفعل المياه وراء السد العالى ، دون أن تحظى بأية عناية لتسجيلها على المنهج العلمى الذى اتبع فى تسجيل الآثار الفرعونية هناك .

أما ما يحتمل أن يكون أصله من الغرب الاسلامى فأغلب ظننا أنه قد جاء مع فنانين كانوا ضمن أفواج الحجاج الافريقيين والأندلسيين التى كانت تفد الى شمال القطر المصرى برا وبحرا من الغرب وتسير الى الجنوب فى النيل أو على البر ثم تعبر الصحراء الى شاطىء بحر القلزم ــ أى البحر الأحمر ــ عند ميناء عيذاب ، ومنها الى الحجاز ، ثم مات حاج منهم فبنوا له مقبرة تحمل بعض السمات من الغرب الاسلامى.

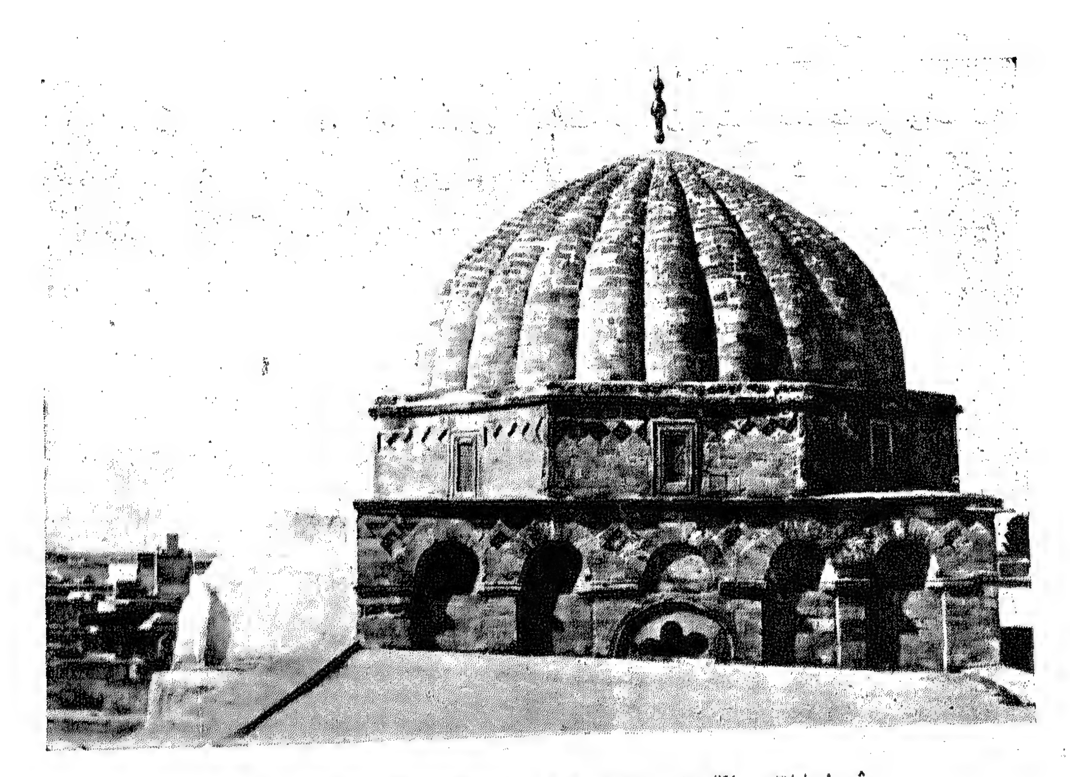
وهكذا تسببت الظروف الحضارية المختلفة فى أن تجتمع عدة عناصر وأساليب وفدت من خارج القطر مع أخرى محلية فى المنطقة لتنتج معا تلك المجموعة الكبيرة من المقابر ، والتى لا يمكن الشك فى أنها قليل من كثير كان قائما هناك ثم قضى عليه ذلك السيل المدمر .

ويتبين لنا على ضوء ما سبق من أدلة وحيثيات معمارية وحضارية أن من المقابر الباقية التى يصل مجموعها الى ٨٠ مقبرة توجد مجموعة كبيرة يقرب عددها من ثلاثين مقبرة على الأقل يمكن أن يقع تاريخها فى فترة عصر الولاة وتسبق القرن الخامس الهجرى (١١ م) ، وهو القرن الذى كانت المقابر كلها تنسب اليه أو الى ما بعده . وهذه المجموعة هى التى يوجد بها نموذج أو آخر من نماذج مناطق الانتقال البسيطة من بلاطات مسطحة ومثلثات هرمية أو كروية وحنيات نصف مخروطية أو مقرنصات .

وأغلب المقابر فى هذه المجموعة تحمل أرقاما وضعها لها مونيريه (ش : ٣٣١ ، ٣٣٢) ، وبعض آخر لا يحمل أرقاما . ونذكر من المقابر التى تحمل أرقاما ما يأتى:



ش : ٣٨٦ ، ٣٨٧ ــ اللاذقية ، اركان من مثلثات هرمية مقلوبة



ش : ٣٨٨ ــ القيروان ، القبة فوق مربع المحارب فى المسجد الجامع .

رقم ٤ (ش : ٣٧٨ – ٣٧٩) ، ٦ (ش : ٣٤٩ – ٣٥١) ، ٨ – ١٠ [١] ، ١٢ ، ١٣ [٢] ، ١٤ (ش : ٣٧٤ – ٣٧٥) ، ٢٠ (ش : ٣٦٨ – ٣٦٩) ، ٢١ (ش : ٣٤٤ – ٣٤٥) ، ٢٣ (ش : ٣٧١ – ٣٧٢) ، ٢٧ (ش : ٣٤٦) ٢٨ (ش : ٣٥٥ – ٣٥٦) ، ٣٠ (٣٥٧ – ٣٥٨) ، ٣١ مكـــرر [٣] ، ٣٣ (ش : ٣٤٢ – ٣٤٣) ٣٧ [٤] ، ٤٢ (ش : ٣٥٩ – ٣٦٠) ، ٤٦ (ش : ٣٣٤ ، ٣٧٦ – ٣٧٧) ، ٤٩ (ش: ٣٣٤ ، ٣٥٢ – ٣٥٤) ، ٥٠ (ش : ٣٣٣) ، ٥١ (ش : ٣٣٤) [٥] ، ٥٣ (ش : ٣٦٣ – ٣٦٥) ، ٥٤ (ش : ٣٦١ ، ٣٦٣ ، ٣٦٥) •

ومن التى لا تحمل أرقاما أربع مقابر •

ولكن نجد من الواجب أن ننبه الى أن بعضا مما ذكرناه يحتمل أن يكون قد شيد فى العصر الفاطمى الذى استمر فيه استخدام بعض من نماذج منطقة الانتقال البسيطة الذى ذكرناها • غير أننا لا يمكننا تعيين ما ينسب الى العصر الفاطمى منها الا اذا كانت هناك أدلة تساعد على ذلك • ونضرب لذلك مثلا بالمقبرة رقم ١٧ (ش : ٣٦٦ – ٣٦٧) اذ تتكون منطقة الانتقال من حنيات ركنية من النمـــوذج نصف المخروطى (ش : ٣٨٤) • وهى احدى ثلاث مقابر شيدت الواحدة منها ملتصقة بما سبقتها • ومن المرجح أن أقدمها هى ذات المسقط المستطيل رقم ١٩ ، بدليل أن سمك جدارها الملتصق بالمقبرة الثانية رقم ١٨ قد شيد مساويا لسمك الجدار المقابل له • بينما استغل سمك جدار الأولى ليعمل الجدار الملتصق به فى المقبرة الثانية أقل من سمك جدارها المقابل • ثم حدث نفس الشيء فى جدار المقبرة الثالثة المربعة الملاصق للثانية اذ جعل أقل من المقابر له • ولما كنا نميل الى نسبة المقبرة الأولى الى العصر الفاطمى بسبب منطقة انتقالها المركبة من حنيات فى الأركان وحنيات بينها فى الأضلاع كما ذكرنا من قبل ، فيتبع ذلك أن تكون الثانية قد شيدت بعدها وتليها الثالثة •

كذلك نجد من المهم أن نشير الى دير للأقباط به أثر معمارى اسلامى الطراز على هيئة جوسق ننسبه الى عصر الولاة ، ويوجد فى الدير الأبيض بسوهاج ، (ش : ٣٨٩) [٦] ، وذلك فى ضوء ما يظهر منه فى واجهتـه • فبناء الجوسق يبدو مربعا فى

---

(١) Ibid., No. 8 : Figs. 42, 66, Pl. XIV/A, No. 9 : Fig. 43, Pl. XIV/B, No. 10 : Fig. 56 ; M.A.Eg., I, Fig. 66, Pl. 40/6.

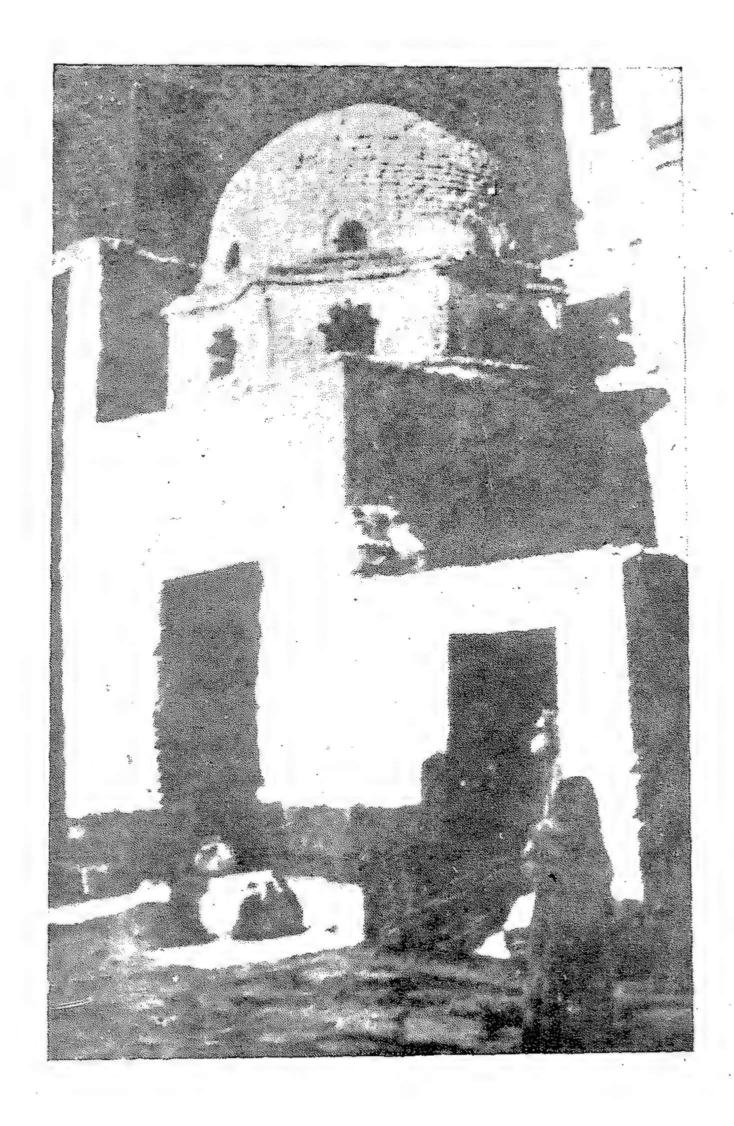
(٢) Monneret, Pl. XV/C ; M.A.Eg., I, Fig. 67, Pl. 40/e, f.

(٣) Monneret, Fig. 67.

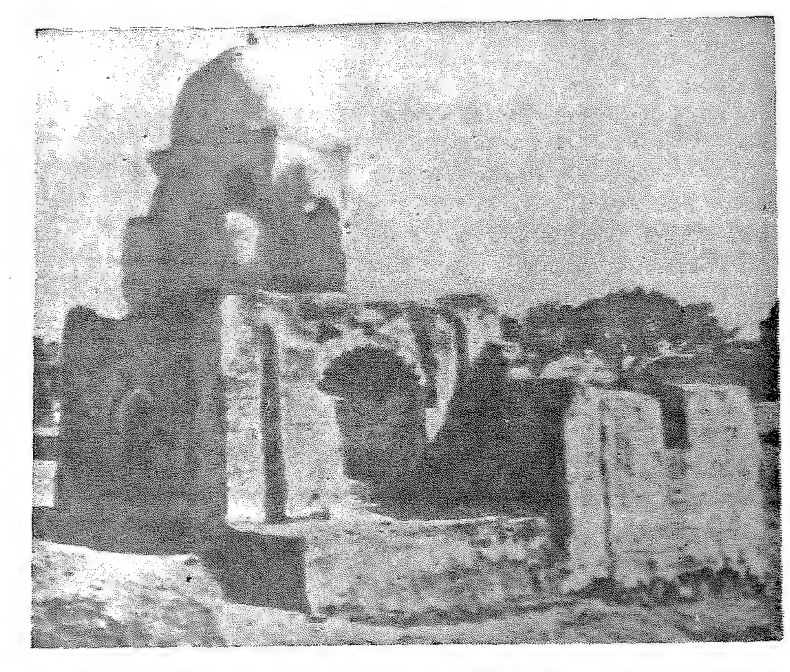
(٤) Ibid., Fig. 52.

(٥) M.A.Eg., I, Pl. 42/c.

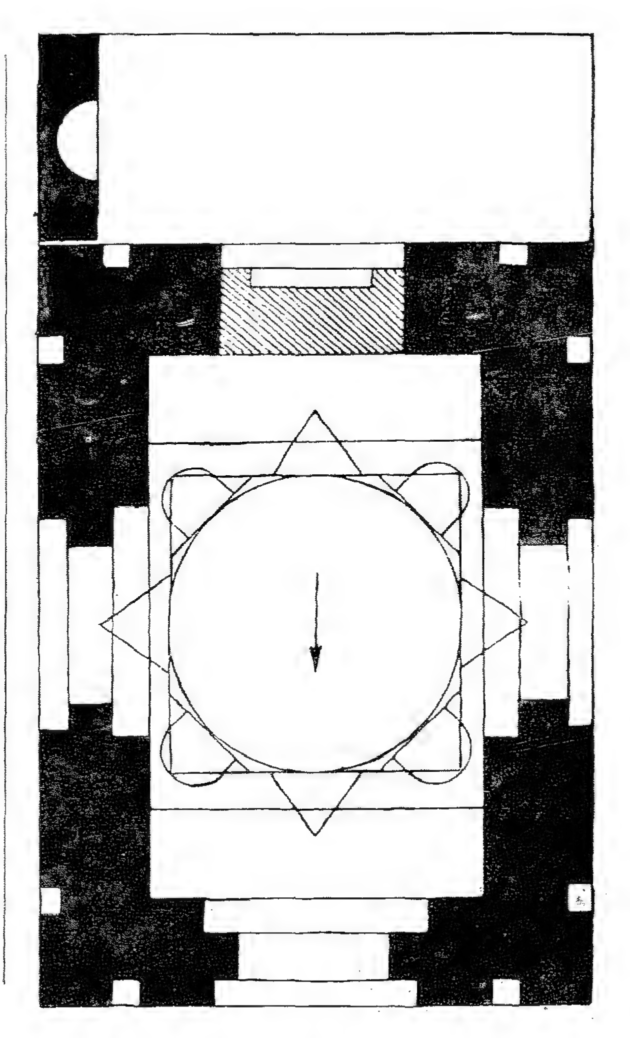
(٦) Monneret, Pl., XIII/C



ش : ٣٨٩ ـ سوهاج ،
جوسق فى الدير الابيض .



ش: ٣٩٠ ـ اسوان، مقبرة (رقم٥) تغطيها قبة على مقرنصات ركنية وبينها حنيات (منظر خارجى)

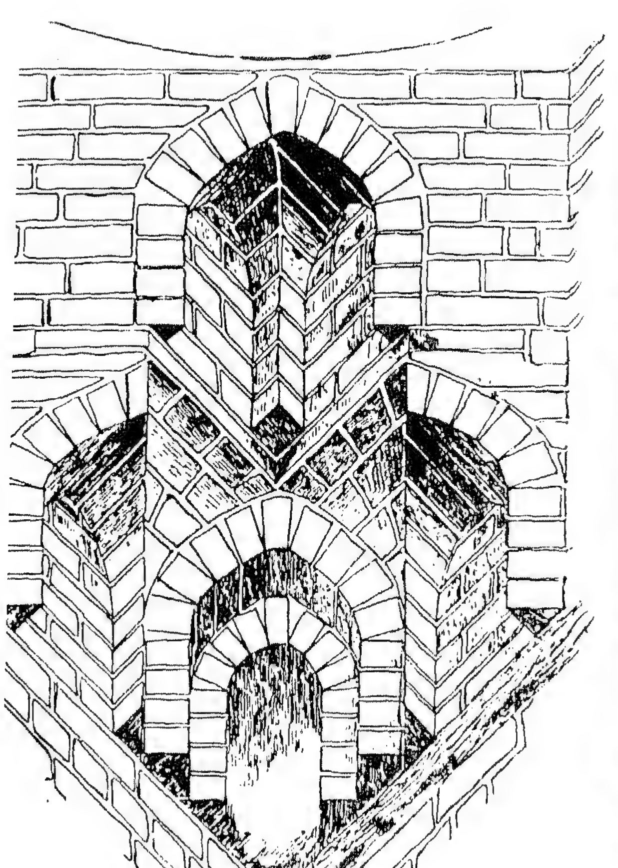
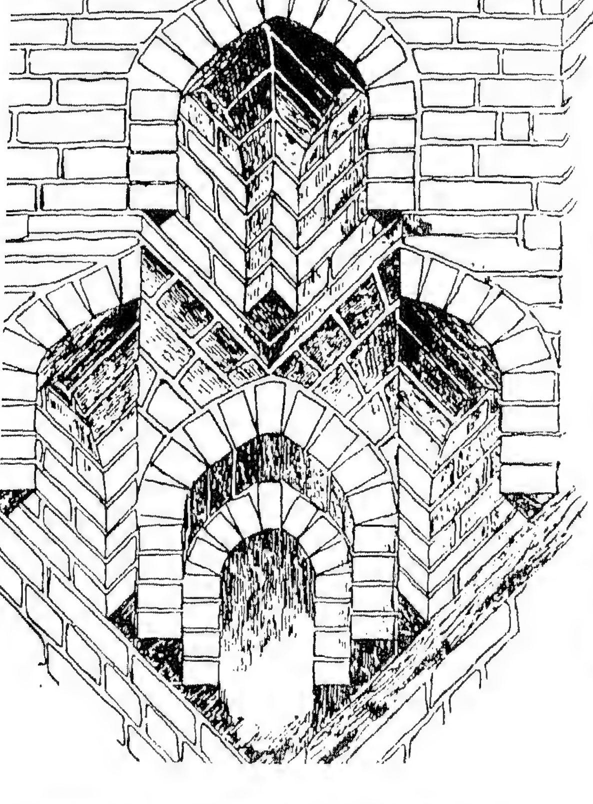


ش : ٣٩١ – مقبرة مستطيلة المسقط وتغطيها
قبة على مقرنصات بينها حنيات

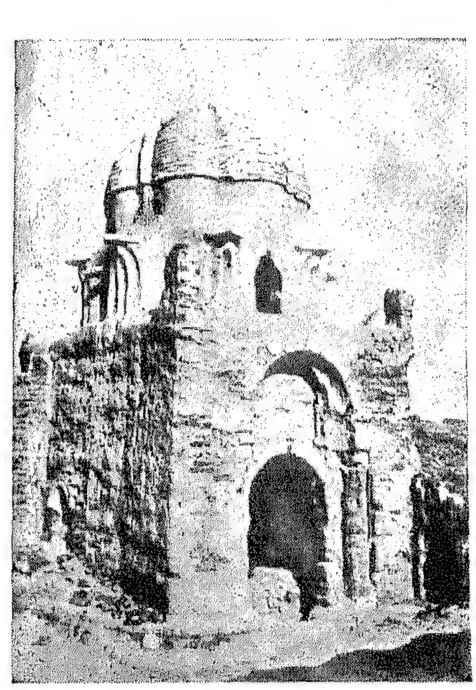


ش : ٣٩٢ – المقرنصات الركنية وبينها حنايا
(منظور داخلى) ؛ رقم ٥)

ش : ٣٩٤ ـ اسوان ، مقرنصات على حطتين .
(ضريح السبعة وسبعين ولى)

ش : ٣٩٣ ـ مقرنصات على حطتين (القاهرة الفاطمية)



ش : ٣٩٥ ـ أسوان ، نوافذ ذات عقود من حليات
فى رقبة القبة (مقبرة ٢٤)



ش : ٣٩٦ ـ اسوان ، منظور داخل للعقود ذات
الحليات والمقرنصات الركنية . (مقبرة ٢٤) .

مسقطه ، ولعله كانت فى كل من أضلاعه فتحة كبيرة ذات عقد نصف دائرى ، فكأنه أحد أمثلة النموذج ب١ (ش : ٣٣٥) وغطى البناء بقبة مدببة القطاع وضعت فوق رقبة مثمنة ذات أوجه مقعرة تتقابل فى حافات تبرز أطرافها العليا الى الخارج قليلا كالقرون • وتتميز النوافذ فى أضلاعها بأنها متوجة بعقود ذات فصوص وثيقة الصلة بفصوص عقود الحنيات بين شبابيك الجدران الخارجية فى جامع ابن طولون (ش : ٢٩٧) • وكذلك تتميز القبة بثمانية شبابيك فتحت فيها عند قاعدتها • أما منطقة الانتقال فلا نرى منها شيئا يهدينا الى نوع الأركان ، ولكن يغلب على ظننا أنها لا تخرج على أن تكون أحد النماذج البسيطة غير المركبة التى ذكرناها ، وكانت مستخدمة فى مقابر أسوان • ولذا فاننا نؤرخ الجوسق فى أواخر القرن الثالث الهجرى (٩م) أو فى القرن الرابع (١٠م) •

★★★

وبالاضافة الى العلاقة بين الأحداث التاريخية التى وقعت بمنطقة الصعيد الأقصى من قوص الى أسوان وبين شواهد القبور والمدافن فى مدينة أسوان ، فان هناك علاقة وثيقة بينها وبين المحارس والحصون التى ذكرها المؤرخون والتى نرجح أن تكون بقايا منها لا زالت موجودة حتى وقتنا هذا •

وتتمثل تلك البقايا فيما يوجد فى مدينة أسوان وفى جنوبها من مآذن أو منارات المساجد ، ظل بعضها قائما واختفى البعض الآخر • ومن الأجزاء الباقية منها : مئذنة المشهد البحرى (ش : ٣٩٨) [١] وتوجد على شاطىء النيل الى الجنوب قليلا من بلدة الشلال • ويغمر الماء أيام التخزين وراء خزان أسوان جزءا من قاعدة المئذنة والمسجد الذى ألحقت به • والى الجنوب أيضا كان يقوم مسجد آخر ، يسمى بالمشهد القبلى ، شيدت فى ناصية من جدار قبلته مئذنة بقيت قائمة [٢] ، بينما تخربت جدران المسجد بفعل مياه التخزين أيضا • وبقيت المئذنتان محتفظتين بكل أجزائهما من القاعدة السفلى الى الجوسق العلوى فى كل منهما •

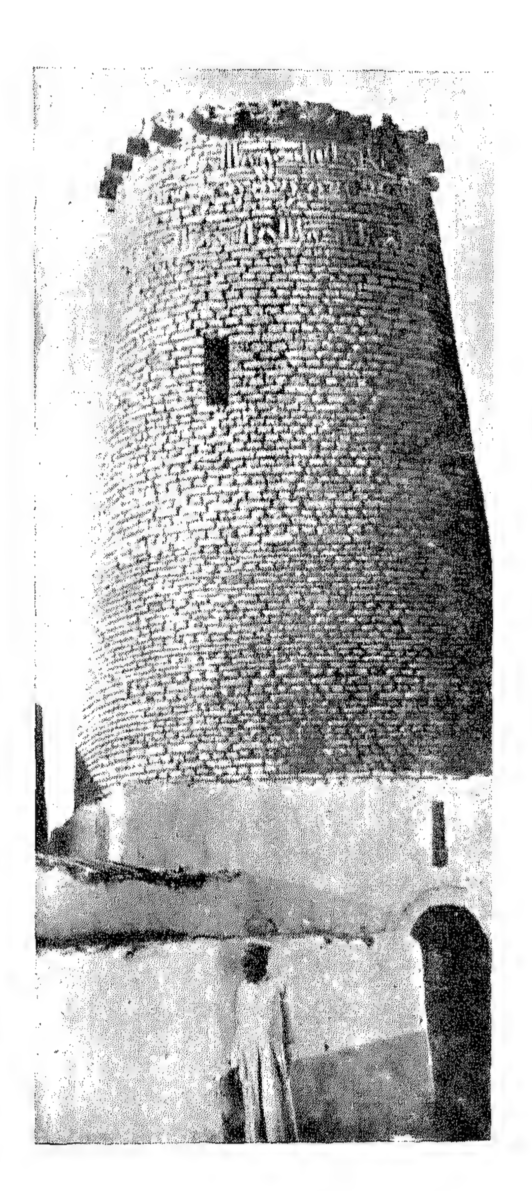
وفى مدينة أسوان فوق ربوة عالية على مسافة من فندق كتراكت تقوم مئذنة تسمى بمئذنة الطابية • غير أن الجوسق قد تهدم ولم يبق له أثر ، وبقيت القاعدة والبدن المخروطى الناقص (ش : ٣٩٧) [٣] •

---

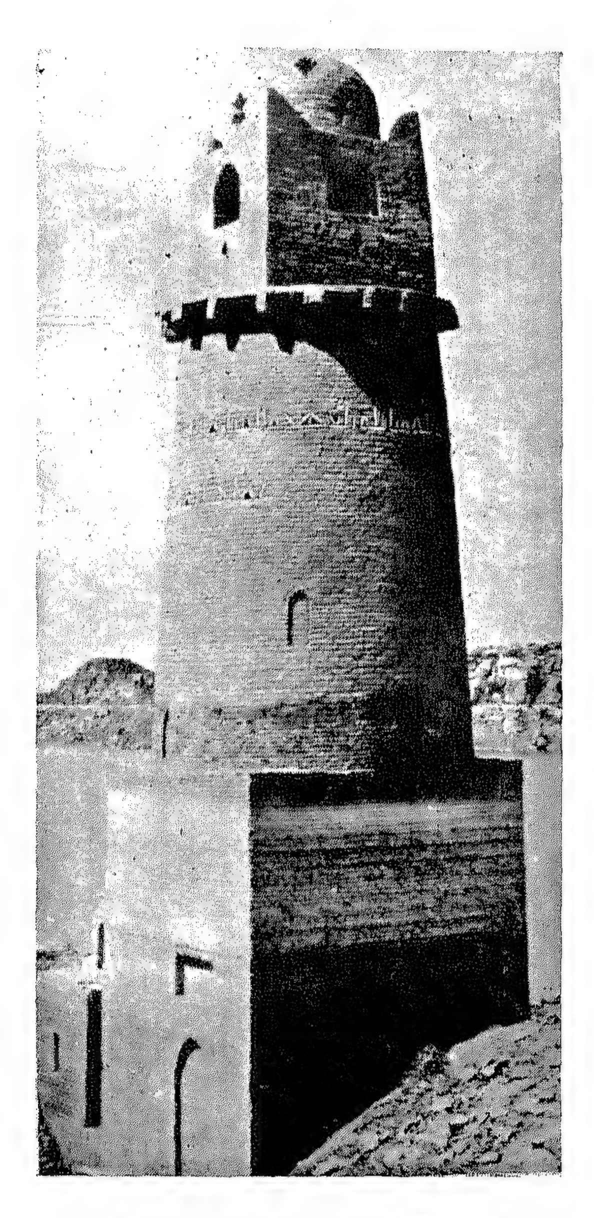
(١) M.A. Eg., I., pp. 147-148, Pl. 122 b.

(٢) Ibid., pp. 148-150, Fig. 73, Pl. 122 c.

(٣) Ibid., pp. 152-153, Fig. 77, Pl. 122 a.



ش : ٣٩٧ : اسوان ، مئذنة الطابية



ش : ٣٩٨ — اسوان مئذنة المشهد البحرى



ش ٣٩٩ ــ ايوان ، مئذنة الطابية المقرنصة الركنية فى الجزء العلوى من القاعدة المربعة

وبقيت من مسجد مدينة أسنا القديم مئذنته كاملة بجميع أجزائها [١] ، كما بقيت مئذنة مسجد أبى الحجاج بمدينة الأقصر [٢] .

وقد نسبت تلك المجموعة من المآذن والمساجد التى كانت تتبعها الى فترة وجود القائد بدر الجمالى فى تلك المنطقة عندما ذهب اليها ليطارد فلول العصاة الذين خرجوا على المستنصر وأحدثوا الفتن فى البلاد أثناء الشدة العظمى وبعدها . ونسب الى بدر المستنصرى أنه بنى تلك المساجد ومآذنها تخليدا لذكرى وجوده هناك وانتصاراته [٣] . غير أنه قد ظهر رأى آخر لم ينشر بعد [٤] بأن هذه المآذن الخمس وما بقى من المساجد التى تتبعها ، لا تجب نسبتها كلها الى عصر بدر المستنصرى ، بل انها تنقسم الى مجموعتين : احداهما ، وتشمل المشهد البحرى ومئذنته ومئذنة الطابية ، يرجح تأريخها فى عصر المتوكل العباسى ، أى الى العصر الذى حدث فيه أكثر حلقات

(١) M.A.Eg., I, pp. 146-147, Fig. 72, Pl. 123 b.

(٢) Ibid., pp., Fig., Pl.

(٣) Ibid., p. 155 ; Hassan M. El-Hawwary : Trois minarets fatimides, (B.I.E., XVII, pp. 141, 153, Pl. XV).

(٤) ابراهيم شبوح ، مخطوط رسالة الماجستير (ص : ١٢٣ ــ ١٣٨) .



ش : ٤٠٠ ـ اسوان ، مئذنة المشهد البحرى ، تفصيل الجزء العلوى من المئذنة

الاحتكاكات بين العرب المسلمين وبين النوبة والبجة ، كما سبق ذكره . أما المجموعة الأخرى والتى تشمل مسجد ومئذنة المشهد القبلى ومسجد ومئذنة مدينة اسنا ، وأخيرا مئذنة أبى الحجاج بمدينة الاقصر ، فهى التى يمكن نسبتها الى عمل بدر المستنصر ، وفى التاريخ الذى أشار اليه أصحاب الرأى الأول الذين لم يشيروا الى تلك المآذن الا على أنها قد شيدت لغرض دينى فحسب ، ولم يتنبهوا الى احتمال قيامها بوظيفة حربية .

والحق أن هذه المآذن أو المنارات ، سواء منها ما كان ينسب الى العصر العباسى أو الى العصر الفاطمى ، قد اختيرت مواقعها بحيث تجعلها صالحة تماما لأداء مهمة





ش : ٤٠١ ، ٤٠٢ ـ اسوان ، مئذنة المشهد البحرى ـ تفصيل الكتابة بالآجر

مزدوجة : فكانت تستخدم للآذان للصلاة ، كما كانت تصلح للرقابة والتحـــذير بالاشارات •

وهذه الوظيفة الأخيرة هي ما أشرنا من قبل الى أنها قد شيدت من أجلها منارات الأربطة التى أقيمت على ساحل البحر الأبيض فيما بين الاسكندرية وافريقية ، مثـل منار الاسكندرية ومنارات رباط سوسة ورباط قصر هرثمة ، وغيرها من الأربطـة التى بقى بعضها فى تونس واندثر البعض الآخر •

وأغلب ظننا أن المآذن والمنارات التى بقيت في مدن الصعيد الأقصى كانت ضمن سلسلة عديدة الحلقات تصل ما بين حدود مصر الجنوبية ومدينـة قوص التى كانت قاعدة والى الصعيد • ولعلها كانت تصل الى أبعد من ذلك فى الشمال • وكانت تلك المآذن يعاد بناؤها من جديد كلما أصابها الخراب أو وهن بناؤها •

يعتمد صاحب الرأى القائل بأن اثنتين من تلك المآذن تعود الى العصر العباسى على أدلة تاريخية ومعمارية وكتابية ، أكثرها وجاهة فى رأينا هو الدليل الذى يتصل بالكتابة شبه الكوفية ، وأضعفها ما اعتمد فيه على أدلة معمارية •

ذلك أن كلا من مئـذنة الطابية (ش : ٣٩٧) ، ومئذنة المشـهد البحرى أو « البـاب » (ش : ٣٩٨ ، ٤٠٠ ــ ٤٠٢) تتميز بوجـود شريط من الآجـر وضع بطريقة يقصد منها تكوين نص كتابى يشبه الكتابة الكوفية • غير أن النص المكتوب على منارة الطابية لا تزال مستعصية قراءته على الأثريين ، بينما تمكن المرحوم حسن الهوارى من قراءة كتابة مئذنة المشهد البحرى (ش : ٤٠٠ ــ ٤٠٢) ونصها كالآتى:

« بسم الله وبالله رفع هذه المنارة عبيد محمد بن أحمد بن سلمة طلبا لثواب الله ورحمته ورضوانه » • « عمل حاتم البنا وولده » [1] • وتوجد هذه الطريقة فى الكتابة بالآجر على الجزء الأيمن من مدخل القصر بالرقة ، وينسب بناؤه الى المعتصم الخليفة العباسى • كما توجد فى الجامع المعلق بالقيروان الذى يرجح بناؤه قبل سـنة ٢٩٦ هـ (٩٠٩ م) ، وهو تاريخ سقوط دولة الأغالبة وقيام دولة الفاطميين • وكذلك فى كنيسة المسيح بطليطلة التى تؤرخ فى سنة ٣٧٠ هـ (٩٨٠ م) ، وكانت مسجداً أيام المسلمين [2] •

---

(1) épertoire, VI, p. 217, No. 2755.

(2) Marçais : Manuel d Art Musulman, I, p 268, Fig. 149 ; Gomez Moreno (M.) : Ars Hispaniae, III, pp. 201?207, Fig. 26.

وعلى أساس التشابه فى التكوين المعمارى للجواسق العليا فاننا نجد تشابها بين الجوسق العلوى فى كل من مئذنة المشهد القبلى جنوبى أسوان ، وما يوجد فى أعلى مئذنة جامع اسنا التى يعين تاريخ بنائها لوح مسجل عليه بالخط الكوفى نص يذكر تاريخ ٤٦٩هـ (١٠٧٧م) ، واسم بدر الجمالى واسم قائده • ولا يزال هذا اللوح مثبتا فى جدار القبلة من جامع اسنا [١] الذى رمم وأعيد بناؤه جملة مرات • ويبدو بناؤه الحالى حديث العهد ، وسيأتى حديث مفصل عن هاتين المئذنتين ومئذنة مسجد أبى الحجاج فى الاقصر فى الجزء الثانى من الكتاب •

ومن الملاحظ أن هناك عناصر معمارية مشتركة بين مئذنتى الطابية والمشهد البحرى وبين المدافن الموجودة فى قرافات مدينة أسوان ، ويستوقف نظرنا بوجه خاص وجود المخروط الركنى (ش : **٣٩٩**) من النموذج الساسانى داخل مئذنة الطابية ، ووضع فى الأركان العليا من القاعدة عند بداية التحول الى البدن المخروطى ولم يتنبه الى وجوده أحد من قبل بسبب الظلام الحالك• وهذا المخروط الركنى يوجد فى عدد من المدافن التى سبقت الاشارة اليها (ش : **٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٧**) •

***

وهناك صلة أخرى تربط مئذنة المشهد البحرى بمقابر أسوان هى تصميم الجوسق العلوى فى المئذنة • فهو يبدو كأنه أحد أمثلة نموذج المقابر المربعة المسقط والذى توجد فتحة فى كل من جدرانه الأربعة ، ولكن وضعت قبته فوق الكتلة المكعبة مباشرة بغير الرقبة التقليدية فى المقابر • ولعل هذا هو الاختلاف العضوى الوحيد . اما من ناحية التفاصيل فان الأطراف العليا لنواصى الجوسق قد وضع فوق كل منها شرافة يبدو كل من وجهيها على هيئة ربع دائرة (ش : **٤٠٠**) • غير أن جوسق المئذنة يتميز بوجود طاقات صغيرة ذات أشكال هندسية تركت مفرغة بين قوالب الآجر ، وذلك تحت كل نافذة من نوافذ الجدران ، كما تركت طاقات مشابهة فى القبة التى تعلو الجوسق •

وكذلك يتضح من المسقطين اللذين نشرهما مونيريه لأجزاء من مسجد المشهد البحرى أن به بعض الوحدات المربعة أو القريبة من المربعة غطيت بقباب كانت منطقة الانتقال فيها من نوع البلاطة المسطحة المثلثة [٢] •

***

(١) Répertoire, vol. 7, p. 203.

(٢) Monneret, Figs. 74-76.

هذا جانب من حضـــارة منطقة الصعيد الأقصى فى عصر الولاة ، من الفتـح الاسلامى حتى قبل قيام الدولة الفاطمية ، وهو جانب تحكيه وتعكس صورا منه البقايا الأثرية والمعمارية التى لا تزال موجودة هناك ، شرحناها فى ايجاز وتبسيط ، ونرجو أن نعود اليها عند الحديث عن العصر الفاطمى لنزيد من التعمق فى شرحها وتحليلها واستخلاص النتائج المعمارية منها وما يترتب عليها من مظاهر حضارية .

الفصل الثامن

عناصر العمارة العربية
في العصر الإسلامي المبكر



مشتملات الفصل الثامن :

المحراب ، تخبط المستشرقين فى مناقشة أصل المحراب ، النتائج المفتعلة التى يسببها عدم الدراية باللغة العربية بالاضافة الى روح التحامل ، النتائج والنظريات المفتعلة لأصل المحراب ، الرد على النظريات والمناقشات المفتعلة لأصل المحراب ، المحراب المسطح في المغارة تحت الصخرة فى القدس ، النظريات والمناقشات المفتعلة لأصل كلمة محراب ، تحقيق أصل كلمة محراب ، محراب من الحجر فى قصر المشتى ، المحراب أصله عربى اسلامى وكان موجودا أيام الرسول ، أقدم المحاريب فى قصور الطوبة والمسجد الأموى بدمشق ، المحاريب المجوفة في الشام ومصر ، محراب جامع

القيروان ، المحاريب فى العراق ، المحاريب فى مصر ، المحاريب الاسلامية فى كنائس مصر ، المحاريب المسطحة فى الشام ، المحاريب المسطحة فى مصر .

المنبر ، النظريات والمناقشات المفتعلة لأصل المنبر ، منبر اسلامى من الحجر فى دير بسقارة ، الرد على النظريات والمناقشات المفتعلة عن أصل المنبر ، منبر جامع القيروان ، صناعة منبر القيروان عراقية .

المئذنة : أصل المئذنة ابراج العصور العتيقة ، مئذنة القيروان ، المآذن الأولى مشابهة لمئذنة القيروان ، منارة السور المحيطة بمدينة سوسه ، منارة السور ومنارة الرباط فى سوسه ، منارة مجضة فى بادية العراق ، مآذن الصعيد الأقصى ، المقصورة أصلها اسلامى صميم ، بيت المال والفوارة .

***

ألقينا نظرة عامة سريعة فى صفحات سابقة على وحدات وعناصر معمارية وزخرفية يحتمل أن تكون قد انتقلت الى العمارة العربية الاسلامية من طرز العمارة السابقة . ورأينا أن الاحتمال فى نسبتها الى تلك الطرز يقوى الى حد ما فى بعضها ويضعف فى بعض آخر ، وقد تتعادل القوة والضعف أحيانا . يضاف الى ذلك كله تلك الشكوك التى تحوم حول بعض العمائر المبكرة من حيث نسبتها كلها أو بعض أجزائها الى تاريخ يسبق الاسلام أو يأتى بعده .

ونجد من ناحية أخرى أن العمارة العربية الاسلامية قد أصبحت لها وحدات وعناصر معمارية وزخرفية خاصة بها وتعد من أهم مميزاتها وتتضح بها ذاتيتها . وهى بذلك تستحق تنويها بها ودراسة أكثر تفصيلا لأصلها وتطوراتها فى العصر المبكر الذى خصصنا له هذا المجلد ، سيما وأن بعضا منها قد شملت دراسته المحاولات المعروفة لارجاع أسس العمارة والحضارة العربية الاسلامية الى عمل شعوب غير عربية وغير اسلامية . وهى محاولات تتسم فى معظمها بالضعف والافتقار الى التدعيم بالأسانيد المنطقية والعلمية ، ويشوبها الهوى والبعد عن الحيدة المفروضة فى الأبحاث العلمية ، وبخاصة فيما يختص بالاستشهاد ببعض روايات المراجع العربية القديمة واغفال بعض آخر جاء فى تلك المراجع نفسها أو فى غيرها . وفى أحيان أخرى يتسبب عدم فهم بعض تلك الروايات فى تفسيرها وتأويلها الى معان غير التى قصدها الكتاب العرب القدماء ، وذلك بسبب عدم تمكن المستشرقين من اللغة العربية .

وكل ذلك يتضح جليا فى مناقشة أصول ثلاثة من أهم عناصر العمارة العربية الاسلامية هى : المحراب ، والمنبر ، والمئذنة ، كما سنشرحه فيما يلى : ـ

المحراب :

يكشف لنا موضوع المحراب ونشأته في فجر الاسلام ومناقشة أصله عن مثـل من أوضح الأمثلة التى يتجلى فيها مقدار ما فى روايات المؤرخين والكتاب العـرب القدماء من نقاط ضعف وثغرات ، كما تتجلى فيها الطرق الغريبة التى يتناول بها بعض علماء الآثار والحضارة العربية من الغـــربيين لبعض الروايات التى جاءت فى تلك المراجع القديمة ، وكيف أنهم قد تبعوا أسلوبا غير سليم فى استخلاص النتائج منها ، وذلك من ناحية تفسيرها واقتباس ما يلائم منها نظرياتهم التى يؤمنون بها ، ويحاولون بها اثباتها وتأكيدها ، ولو كان ذلك على حساب المناهج السليمة للبحث العلمى .

من ذلك ما حدث فى موضوع المحراب عندما نوقش ضمن بحث يدور حـول مسجد الرسول بالمدينة واعادة بنـائه بأمر الوليد بن عبـد الملك وفى ولاية عمر بن عبد العـزيز على الحجـاز . ويتطلب ذلك أن نأتى بترجمـة حرفية لما كتبه الأستاذ كريسول فى هذا البحث وما يتضمنه من روايات العرب القدماء ، ومن آرائه ونظرياته وآراء غيره من العلماء الغربيين ، ولعلنا سنطيل قليلا فى هذا الموضوع ، وعذرنا فى ذلك أننا وجدناه أصلح ما يمكن لنستعرض فيه أوجه النقد لأسلوب الرواية التاريخية العربية ، وان نفند من جهة أخرى طرق البحث غير السليمة التى تبعها بعض العلماء الغربيين .

وفيما يلى نص الترجمة : [1]

« عمارة مسجد المدينة : ٨٨ ــ ٩٠هـ (٧٠٧ ــ ٧٠٩م) ــ يقول البلاذرى »
« انه فى ذلك الوقت كتب الخليفة الوليد الى عمر بن عبـــد العزيز ، عامله على »
« المدينة يأمره بهدم المسجد وبنائه ، وبعث اليه فى نفس الوقت بمال وفسيفساء »
« ورخام وثمانين صانعا من الروم والقبط من أهل الشام ومصر . وولى القيام بأمره »
« والنفقة عليه صالح بن كيسان . ويقول ان ذلك قد حدث فى سنة ٨٧ ، ويقال »
« فى سنة ٨٨ [2] . ويقول اليعقوبى أيضـا ان الوليد قد أمر عمر بن عبد العزيز »
« أن يهدم الجامع . وهدمت البيوت المجـــاورة له كما هدمت حجرات زوجات »
« النبى ، وهكذا ضم مكانها الى المسجد الجديد . ثم يضيف الى ذلك أن ملك »
« الروم أرسل ١٠٠٫٠٠٠ مثقـال من الذهب ، ومائة عامل ، وأربعين حملا من »

(1) E.M.A., I, pp. 97-99.

(2) البلاذرى : فتوح البلدان ــ ص : ٢١ ، ياقوت الحموى : معجم البلدان ــ جـ : ٤ ، ص : ٤٦٦ ، (جـ : ١ ، ص : ١٧ هامش : ٨) .

« الفسيفساء ، وأن العمل قد كمل فى سنة ٩٠ هـ [١] ، ولا يذكر الدينورى سوى »
« الأربعين حملا من الفسيفساء [٢] • غير أن الطبرى كان اكثر تفصيلا ، اذ يقول : »
« ان الهدم قد بدأ فى صفر سنة ٨٨ (١١ يناير ــ ٨ فبراير ٧٠٧) • وأعلم الوليد »
« ملك الروم بأنه قد أصدر أمره بهدم المسجد وطلب مساهمته • فأرسل اليه الأخير »
« المساعدة الموضحة آنفا • ويضيف الطبرى رواية تستوقف النظر هى أنه قد »
« أمر ، بالاضافة الى ذلك ، بالبحث عن الفسيفساء فى الأماكن المتخربة وارسالها »
« الى الوليد الذى بعث بها الى عمر بن عبد العزيز [٣] • ويشير المقدسى أيضا الى »
« نقل الصناع قائلا (وكتب الوليد الى ملك الروم انا نريد أن نعمر مسجد نبينا »
« الأعظم فأعنى فيه بصناع وفسيفساء) ، وبناء على ذلك فانه بعث اليه بأحمال وبضعة »
« وعشرين صانعا ، كان من بينهم عشرة بلغت مرتباتهم وحدهم ١٨٠ر٠٠٠ »
« دينار [٤] • ويذكر ابن بطوطة طلب الوليد للمساعدة ويقول ان ٨٠ر٠٠٠ »
« مثقال من الذهب قد أرسلت » [٥] •

« ويقول السمهودى (١٤٨٨) نقلا عن الواقدى (المتوفى سنة ٨٢٣) : ونقل »
« الينا عبد الله ابن يزيد ما يأتى : قام القبط ببناء الجزء الأمامى (المقدم أى ظلة »
« القبلة) وعمل الروم فى الجزء الخارجى عن الجزء المغطى (السقف) ، وهو »
« الجوانب والجدار الخلفى (مؤخر) المسجد • » [٦] •

« وسنرى أنه قد ذكرت روايات مشابهة عن ارسال صناع من ملك الروم »
« وتتصل بالمسجد الجامع فى دمشق ، وهى روايات تسير وهى تتزايد وتمتد »
« من قرن الى قرن • وقد كشف جهد الآنسة فان برشم تماما عن مدى الثقة التى »
« يمكن منحها لتلك الروايات ، وعن أية حقائق فنية تكمن فيها ، ولذا فاننا نوجه »
« عناية القارىء الى دراستها التحليلية لتلك الروايات (الفصل الخامس) » •

---

(١) اليعقوبى : تاريخ ــ ج ٢/ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، الطبرى : ج ٢/ص ٣٣٩ ، ابن سعيد المغربى : (كريسول : ص ٩٧ ــ هـ : ٩)
(٢) الدينورى : كتاب الأخبار الطوال ــ ص ٣٣٩ ــ (كريسول : ص ٩٨ ــ هـ : ٢) •
(٣) الطبرى : تاريخ ــ ج ٢/ص ١١٩٤ (كريسول : ص ٩٨ ــ هـ : ٣)
(٤) المقدسى : أحسن التقاسيم ــ ص ٨١ (كريسول : ص ٩٨ ــ هـ : ٤)
(٥) ابن بطوطة : رحلة ج ١/ص ٢٧١ (كريسول : ص ٩٨ ــ هـ : ٥)
(٦) السمهودى : خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى ، المعروف «بالخلاصة» ــ ص ١٤٠ (ط • بولاق) ــ (كريسول ص ٩٨ ــ هـ : ٦)

« ويقول المقدسى ان المسجد قد شيد بالحجر النحيت • وأضيفت ستة أعمدة »
« من الشرق جهة الغـرب (أى فى الجانب الغـربى) ، وأضاف [١] جهة الشـام »
« أربعة عشر عمودا ، منها عشرة تواجه الصحن وأربعة تتبع الاروقة [٢] • وعلى »
« ذلك فان الصحن كان يحف به أحد عشر عقدا من الشرق الى الغرب ، وجانبان »
« من رواقين ، أى أن مجموع العقود من الشرق الى الغرب هو **١٥** عقدا • ويأتى »
« الطبرى بالأبعاد النهائية على أنها ٢٠٠ × ٢٠٠ ذراع [٣] » •

« ويقـول ابن بطوطة ان الرخـام والتك [٤] قد استخدما ، وأن أربع مآذن »
« قد شيدت فى أركان المسجد الأربعة » [٥] •

« وقد أحدثت فى هذا الوقت بدعة غاية فى الأهمية ، ذلك أن ابن دقماق [٦] »
« والمقريزى قد ذكرا لنا نقلا عن الواقدى (توفى فى ٨٢٣) أن أول من عمـل »
« محرابا على هيئة حنية (أى مجوف) هو عمر بن عبد العزيز عندما أعاد بنـاء »
« مسجد الرسول (بالمدينة) [٧] • وهذه الفقرة كانت معـروفة ويتردد ذكرها »
« كثيرا [٨] • ولسوء الحظ أن النص الذى ورد فى المقريزى لا يوجد فيما يعرف »
« اليوم عن الواقدى ، ولذلك فانه لا يمكن التحقق منه ، ولكن بالنسبة لأهمية هذه »
« المسألة فانه لمما يدعو الى الارتياح أن يوجد نفس الخبر فى كتاب ابن بطوطة »
« **(١٣٢٦)** [٩] ، وفى ترجمة فاتييه Vattier لكتاب مرتضى ، وهو مرجع أسبق »
« فى التاريخ ، اذ كتب بعد فترة قصيرة من موت السلطان الكامل ـ أى حوالى »
« **١٢٤٠** [١٠] • بل يمكن أن نرجع فى تتبعه الى القرن الثانى عشر ، اذ ينقل ابن »

---

(١) يقصد عمر بن العزيز
(٢) المقدسى : ص ٨١ (كريسول : ص ٩٨/هـ : ٧)
(٣) الطبرى : جـ ٢/ص ١١٩٣ ، ابن الاثير ـ جـ ٤/ص ٤٢٢ ، أبو المحاسن ـ جـ١/ص ٢٣٩ (كريسـول : ص : ٩٨/هـ : ٨)
(٤) التك : هو نوع من الخشب يمتاز بالصلابة والقوة
(٥) ابن بطوطة : جـ ٢/ص ٢٧١ (كريسول : ص ٩٨/هـ : ٩)
(٦) ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الامصار جـ ٤/ص ٦٢ (كريسول ـ ص ٩٨/هـ : ١٠) .
(٧) المقريزى : الخطط ـ جـ ٢/ص ٢٤٧ (كريسول : ص ٩٨/ : ١١)
(٨) Caetani : Annali, V, p. 569 ; Bell (B.) : Ukhaidir, p. 147 ; Rivoira : Moslem
(١٠) ترجمة Vattier ـ ص ٢٦٥ . وهو يذكر عمر بن عبد العزيز على أنه كان أول
(كريسول ص ٩٨/هـ : ١٣) chitecture, p. 85 ; Richmond : Moslem Architecture, p. 11.
(٩) ابن بطوطة : جـ ١/ص ٢٧٢ (كريسول ـ ص ١٩٨ هـ : ١٢)
من أحدث تلك البدعة ، ولكنه أغفل ذكر الموضع . وجاء ذكر ذلك أيضا فى كتاب أبى المحاسن : جـ ١/ص ٧٦ وكذلك فى كتاب السيوطى ـ جـ ٢/ص ١٣٥ (كريسول ـ ص : ٩٨ ١٤)

« شاكر (توفى ١٣٦٢) عن ابن عساكر [١] (توفى ١١٧٦) ما يدل على أن خالد »
« ابن الوليد بعد أن فتح دمشق صلى فيما هو معروف الآن بالمسجد الجمع ، وأن »
« صحابة الرسول وضعوا أنفسهم فى الجزء المعروف بمحراب صحابة الرسول ، »
« مع أنهم لم يكونوا قد خرقوا الجدار بعد لعمل محراب مجوف • ويوجد الآن »
« فى المسجد الجامع محراب فى وسط النصف الشرقى ينطبق عليه ذلك الوصف• »

وأخيرا نصل الى الخلاصة التى يهدف اليها الأستاذ كريسول عن أصل المحراب فيقول :

« أصل المحراب المجوف : »

« يبدو لى أن فقرة السمهودى السالفة الذكر ذات أهمية أساسية فى حل هذه »
« المعضلة • فانه لما كان من المسلم به ...... (كذا ؟) أن الجزء الذى كان فيه »
« المحراب هو الذى شيده القبط فان ذلك يجعل الأصل قبطيا ـ وبالتالى مسيحيا ، »
« وهو رأى يؤكده جملة كتّاب ، فقد روى لامنس Lammens فقرة من كتابات »
« السيوطى هى : (فى أول القرن الثانى كان عمله (أى المحراب) ـ محـرما »
« فى الحديث ، اذ كان من شأن الكنائس وكان وضعه فى المساجد علامة على قرب »
« يوم القيامة) [٢] • وأشار بكر Becker الى أن مؤلفا آخر وصل فى كتابته »
« الى القرن الرابع عشر ، قد تحدث بنفس الروح ، فقال ان المحراب هــو أقل »
« الأجزاء قدسية فى المسجد ، فيجب على الامام أن يتحاشى الوقوف بداخله [٣] • »

« والآن ولما كان الجزء الوحيد فى الكنيسة القبطية الذى له هيئة حنية هـو »
« الهيكل ، ثم اذا أخذنا أمثلة قليلة قديمة ، مثلما يوجد فى دير الأب هرميا فى »
« سقارة (ش : ٤١٣ ، ٤١٤) [٤] فان الشـبه بمحـراب مبكر يجتذب النظر الى »
« درجة لا يمكننا بعدها أن نتردد فى قبـــول الروايتين اللتين جاء بهمـا الكاتبان »
« العربيان وسبقت الاشارة اليهما ، وأن تنتهى الى أنه كان بدعة ذات أصل مسيحى، »
« اقتبسها الاسلام على مضض Reluctance [٥] » •

---

(١) In Quatremère : Sultans Mamlouks, II, Appendice, p. 263.

(٢) يعد لا منس هذا من أشد المستشرقين تحاملا على العرب والمسلمين • وقد أخذ رأيه هذا عن المحراب من مخطوط لاعمال السيوطى يوجد فى مكتبة لاللى بالقسطنطينية ـ ورقة ٣٧١٠ أ . انظر (كريسول جـ ١/ص ٩٩/هـ : ١) Revista degli Studi Orientali, IV, p. 246, n. 1.

(٣) نقل بكر هذا عن ابن الحاج : المدخل ـ جـ ٢/ص : ٧٦ ، ويقول فييت Wiet ان ابن الحاج هذا قد توفى في سنة ١٣٣٧ ـ أنظر : Der Islam, III, p. 393 (كريسول ص : ٩٩/هـ : ٢)

(٤) E.M.A., I, p. 83, Figs. 54-55.

(٥) Ibid., I, p. 99 ; Bell (G.) : Ukhaidir, p. 147.

وأول ما يستلفت نظـــرنا فى الفقرات التى جاءت من المـــراجع العربية تلك الاختلافات الواضحة والتباين بين أقوال المؤرخين فيما يتعلق بتواريخ البناء واكماله، ومن ناحية أخرى فيما يتعلق بمقدار الذهب الذى قيل ان ملك الروم قد أرسله الى الوليد • فقد قدره بعض المؤرخين ، مثل اليعقوبى ، بمائة ألف مثقال من الذهب ، بينما ذكره بعض آخر مثل ابن بطوطة على انه ثمانين ألف ألفا فقط • ولم يشر الأستاذ كريسول الى السمهودى ـ وهو المؤرخ الذى استشهد ببعض أقــواله فى الفقرات السابقة وجعل لها أهمية خطيرة ـ وما ذكره خاصا بهـــذا الموضوع • فقـــد ذكر السمهودى فى احدى روايتين أن مقدار الذهب كان ثمانين ألف دينار ، وفى رواية ثانية ان مقداره كان أربعين ألف مثقال من الذهب فقط [١] • وكل هذه الاختلافات والفروق الكبيرة لا شك تدعو الباحث الى الحرص والحذر فى تناول الأرقام التى وردت فى كتب المؤرخين القــدماء ، لا فى هــذا الموضــوع فحسب ، بل وفى جميع الموضوعات والأقوال الأخرى التى جاءت بهذا الصدد •

واذا وضعنا هذا جانبا على اعتبار أن تلك الفروق والاختلافات ليست بذات خطر كبير ، فان الأمر يصبح ذا أهمية خاصة بالنسبة لعدد العمــال الذين قيل أنهم عملوا فى عمارة المسجد النبوى • فقد ذكر البلاذرى أنهم كانوا ثمانين عاملا وأن الوليد هو الذى أرسلهم ، ثم قيل بعد ذلك أن ملك الروم قد بعثهم الى الوليد بن عبد الملك • وقدرهم اليعقوبى بمائة عامل • ويذكر المقدسى أنهم كانوا بضعة وعشرين عاملا • ونقف هنا لنشير الى أن الأستاذ كريسول قد أغفـــل ثلاث روايات للسمهودى ذى المكانة الخاصــة عنده ، كرر فى الأولى منهــا رقم المقدسى [٢] فقال : « ••• فبعث » « اليه بأحمال من الفسيفساء وبضعة وعشرين عاملا • » ثم استطرد الى الرواية الثانية » فقال : « •• وقال بعضهم بعشرة عمال وقال بعثت اليك بعشرة يعدلون مائة •• » وفى الثالثة قال : « •• وليحيى عن قدامة بن موسى فبعث اليه بأربعين من الروم » « وبأربعين من القبط •• » [٣] •

والفروق والاختلافات هذه المرة لا يمكن وضعها جانبا • فان مايمكن استخلاصه من عدد العمال الذين اشتركوا فى عمارة مسجد المدينة تختلف نتائجه المعمارية الى حد كبير مع كثرة العدد أو قلته • ذلك أن مائة أو ثمــانين عاملا يعملون فى مسجد

---

(١) السمهودى : الخلاصة ــ ص : ١٤٠

(٢) المقدسى : ص : ٨١

(٣) المقدسى : ص : ٨١

مساحته نحو ١٠٠ × ١٠٠ متر ويبلغ الجزء المغطى المشيد منه نحو ٥٦٠٠ متر مربع كان من الممكن أن يساهم فيه أولئك العمال فى البناء والزخرفة معا وفى غير ذلك من الاعمال • اما اذا كان عددهم بضعة وعشرين او عشرة فقط فان عملهم لا يكاد يتجاوز الزخرفة والتزويق بالفسيفساء أو بغيرها حتى ولو كانوا يعادلون مائة على حد قول السمهودى • أما البناء نفسه فكان من عمل آخرين من العمال والصناع المحليين فى منطقة الحجاز بوجه عام وفى منطقة المدينة بخاصة • وفى الحالة الأخيرة يصبح من غير المحتمل أبدا أن يكون «الققبط» قد ساهموا بالبناء وبالتالى لم يعملوا القبلة على هيئة محراب مجوف ، أو على شكل هيكل الكنيسة • كما ذكر فى الفقرات المترجمة السابقة التى نجد فيها مثلا واضحا على ما يمكن أن يسببه عدم التمكن من اللغة العربية من تحريف فى المعانى وبالتالى مقدار ما يمكن به أن ينبنى عليه من نتائج خاطئة •

نرى هذا المثل فىالكلمات التى ترجمت عن حديث المقدسى وهى: «••• وبناء » « على ذلك فانه بعث اليه بأحمال وبضعة وعشرين صانعا ، كان من بينهم عشرة » « تبلغ مرتباتهم ٠٠٠ر١٨٠ دينار » • ولو عقل من قام بالترجمة للأستاذ كريسول معنى ذلك لوجد أن أجر الواحد فى مدى السنتين اللتين استغرقهما البناء هو ١٨٠٠٠ دينار أو ٩٠٠٠ دينار سنويا • وهو مرتب لا نظن أحداً من رجال دولة البيزنطيين أو دولة المسلمين كان يمكن أن يحصل عليه فى تلك الأيام ، اللهم الا اذا كان أميرا أو حاكما لولاية أو قطر من الأقطار • والعجيب فى الموضوع أن المقدسى لم يقل تلك الكلمات ولم يقصد ذلك المعنى أبداً ، فان نص ما قاله حرفيا [2] هو : « ••• فبعث اليه بأحمال وبضعة وعشرين صانعا فيهم عشرة يعدلون مائة ، وثمانين ألف دينار •• » وقد ظن المترجم أن العشرة صناع يعدلون أى يساوون ٠٠٠ر١٨٠ دينار • مما جعل الأستاذ كريسول يظن ذلك المبلغ مرتبا لهم ، بينما المعنى الذى يفهمه أى قارىء عربى هو أنه كان من بين أولئك الصناع عشرة يمكنهم أن يقوموا بعمل مائة صانع ، وأن ملك الروم بعث بهؤلاء الصناع وفى نفس الوقت بعث بثمانين ألف دينار • وهو معنى بعيد كل البعد عما ظنه الأستاذ كريسول • ويجعل من تلك العشرة ملحة طريفة ، سببها عدم وجود علامة فصل (،) بين كلمة (مائة) وبين كلمة (ثمانين •••) •

ونضيف الى ما سبق نقطة ضعف أخرى ، وهى توضح التضارب فى تناول ماقيل عن عمارة المسجد النبوى وما يتصل بها من محاولة لافتراض الأماكن التى قيل ان

القبط والروم قد عملوا بها • اذ يذكر السمهودى ـ صاحب الخبر الهام الخطير فى رأى الأستاذ كريسول والذى يتصل بأصل المحراب ـ أن القبط قاموا ببناء مقـــدم الجامع ـ أى ما نسميه بظلة القبلة ـ وهو الجزء المسقوف ، بينما عمل الروم فى الجزء الخارج عنه ، ونص روايته هو : « وقال الواقدى حدثنى عبدالله بن يزيد قال : كان عمل القبط مقدم الجامع وكانت الروم تعملماخرج من السقف جوانبه ومؤخره » [1]•

ويفهم من ذلك ان مقدم الجامع ـ أو ظلة القبلة ـ كان هو الجزء المسقوف فقط • وهو ما يتعارض تماما مع الوصف الذى ورد فى كتاب المقدسى والذى رجح الأستاذ كريسول صحته وانتهى منه الى أن المسجد الذى بناه عمر بن عبد العزيز كان له أربع ظلات تحيط بالصحن من جوانبه الأربعة ، ثم أتى بمسقط تخيلى له على هـذا الأساس ، وفيه تتكون ظلة القبلة من خمسة أروقة ، وكل ظلة من الظلات الجانبية من رواقين [2] • أو بمعنى آخر فان شطرا هاما أساسيا من رواية السمهودى ـ وذلك حسب النتائج التى وصل اليها الأستاذ كريسول نفسه ـ لا يمكن وصفه بأنه صحيح، أو على الأقل بأنه دقيق يعول عليه ، خاصةوأن الســمهودى هو الوحيــد الذى روى هذا الخبر عن الواقدى ، والذى لا يوجد فى أى مما وصلنا من مؤلفاته المخطوطة أو المنشورة حتى الآن • ومع كل ذلك فقد أخذ الأستاذ كريسول قول السمهودى هذا أساسا ليبنى عليه قوله : « ولما كان من المسلم به أن الجزء الذى كان فيه المحراب هو الذى شيده القبط •• » أى أن هذا الموضوع قد أصبح حقيقة مفروغا منها •

ونخلص مما سبق الى أن جميع الأخبار تقريبا التى تتصل بعدد العمال قد تعددت بشأنها أكثر من رواية فى المراجع المختلفة ، بل وأحيانا فى المرجع الواحد • وكل ذلك لا شك يدعو الباحث الى الحرص والحذر الشديدين فى الاستشهاد بروايات المؤرخين فى جملتها وتفاصيلها ، وأن يدقّق كثيرا فى تحليلها ، ولا يأخذ منها الا ما يرجح فيه المنطق والتعقل ، و لاتبدو عليه ملامح الأساطير والقصص والمبالغات • وليس من الصواب أن لا يذكر من عدة روايات سوى رواية واحدة لها معنى خاص يتفق مع هدف معين ، ويترك ما لا يتفق مع ذلك الهدف • وكذلك ليس من المنهج العلمى أن تفسر فقرة أو يؤوّل خبر بحيث تتركز الأنظار على معنى واحد من عدة معان ويهمل الباقى ، وأن يبنى فوق هذا المعنى آراء ونظريات لا تقوى على الصمود أمام أقل نقد ، فهى أوهى من خيط العنكبوت •

---

(١) السمهودى : ص : ١٤٠

(٢) الطبعة الثانية من كتابه «العمارة الاسلامية المبكرة» ـ الجزء الاول ـوهو تحت الطبع الآن •

هذا من ناحية التضارب في عدد العمال ، وهناك تضارب آخر يتجلى بصورة أكثر وضوحا في تعدد الروايات التى كتبها المؤرخون عن الجزء الذى يتصل مباشرة بخبر أول محراب مجوف حدث في المساجد ، وأن الذى أحدثه هو عمر بن عبد العزيز عندما بنى المسجد النبوى بالمدينة • وقد استشهد الأستاذ كريسول بما جاء فى مراجع قديمة مثل ابن دقماق والمقريزى اللذين قال انهما روياه عن الواقدى ، ومثل ابن بطوطة وفى كتاب مرتضى ، وفى كتب السيوطى وأبى المحاسن •

وقد دعانا ما رأيناه فى طريقة المناقشة والمنهج اللذين وردا فيما أتينا بترجمته السابقة وفى غيره الى أن نعرض هنا النص الأصلى لما كتبه أولئك المؤرخون وهو : « وقيل انه لم يكن للمسجد الذى بناه عمرو محراب مجوف وانما قرة بن شريك » « جعل المحراب المجوف ، وأول من أحدث ذلك عمر بن عبد العزيز وهو يومئذ » « عامل الوليد بن عبد الملك •• [1] » أما المقريزى فقد ذكر أربع روايات لبناء المجوف لاول مرة فقال : [2] « وقال ابن لهيعة : سمعت أشياخنا يقولون لم يكن » « لمسجد عمرو بن العاص محراب مجوف • ولا ادرى بناه مسلمه (ابن مخلد) (١) » « أو بناه عبد العزيز (بن مروان) (٢) • واول من جعل المحراب قرة بن شريك•» « وقال الواقدى حدثنا محمد بن هلال قال اول من احدث المحراب المجوف عمر » « ابن عبد العزيز ليالى بنى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم (٣) • وذكر عمر » « ابن شبية ان عثمان بن مظعون تفل فى القبله فاصبح مكتئبا فقالت له امراته مالى » « أراك مكتئبا ، قال لا شىء الا أنى تفلت فى القبله وانا اصلى • فعمدت الى » « القبلة فغسلتها ثم عملت خلوقا فخلّقتها • فكانت أول من خلّق القبلة (٤) • » أى أن المقريزى لم يذكر رواية واحدة فقط عن أول من عمل محرابا نقلها عن الواقدى كما قال كريسول ، بل ذكر أربع روايات • اولاها تجعل أول ظهور المحراب المجوف فى جامع عمرو بن العاص بالفسطاط فى سنة ٥٣هـ (٦٧٣م) فى عمارة مسلمة بن مخلد • وثانيتها : فى عمارة عبد العزيز بن مروان لجامع عمرو أيضا سنة ٧٩هـ (٦٩٨م) • وثالثتها عمارة عمر بن عبد العزيز للمسجد النبوى فى المدينة فى سنة ٩٠هـ (٧٠٨م) • أما الرابعة التى جاء فيها أن أول من عمل المحراب المجوف امرأة عثمان بن مظعون فهى رواية بعيدة عن أن تؤخذ مأخذ الجد ، ولا تخرج عن أن تكون أسطورة خرافية ساذجة • غير أنها ذات فائدة من ناحية هامة

(١) ابن دقماق : ج ٤/ص : ٦٢
(٢) الخطط : ج ٢/ص : ٢٤٧

أخرى هى أنها تفسر بما لا يدع مجالا للشك أن لفظ « القبلة » كان من الألفاظ التى أطلقها المؤرخون على المحراب •

ولكن قبل أن نترك أقوال المقريزى نود أن ننبه الى أنه قد روى عن الواقدى خبراً لا نجده بين ما وصل الينا من مؤلفات الواقدى ، كما اعترف بذلك الأستاذ كريسول نفسه •

أما اذا رجعنا الى ابن بطوطة الذى استشهد به كريسول ليؤكد خبر عمل عمر ابن عبد العزيز لأول محراب فى الاسلام بأيدى القبط فاننا نجده يحدثنا عن ثلاث روايات لعمل المحراب فى مسجد المدينة لا يستدل من أية واحدة منها عما اذا كان مجوفا أو غيره • فقد قال : [1] « ثم زاد فيه (أى فى المسجد النبوى) عثمان بن عفان) ••• وصنع له محرابا (١) ، وقيل ان مروان (بن الحكم) هو أول من بنى المحراب (٢) ، وقيل عمر بن عبد العزيز فى خلافة الوليد (٣) ••• وجعل عمر للمسجد محرابا ، ويقال هو أول من أحدث المحراب • فما كان اذا للأستاذ كريسول أن يغفل تماما احتمال عمل المحراب فى المسجد النبوى بالمدينة فى خلافة عثمان ابن عفان ، أو فى خلافة مروان بن الحكم فى سنة ٦٥ هـ (٦٨٤ م) ، كما جاء فى أقوال ابن بطوطة ، وأن لا يأخذ سوى احتمال عمله فى ولاية عمر بن عبد العزيز فحسب ، كما أنه من ناحية أخرى قد اعتمد على قول مؤرخ وحيد متأخر هو السمهودى الذى سبقه ابن بطوطة بنحو قرن وربع القرن •

أما المؤرخ مرتضى فلم يذكر سوى أن عمر بن عبد العزيز هو أول من أحدث تلك البدعة دون ذكر المكان كما سبق القول • ولكن أبو المحاسن والسيوطى ذكرا الخبر متصلا ببناء عمر للمسجد النبوى •

ونترك مؤقتا استخلاص النتائج من العرض والتحليل السابقين لنلقى نظرة على ملاحظتين استرعتا انتباهنا فى روايات المؤرخين العرب تتصلان بحضارة العرب والمسلمين فى العصر المبكر ، ولم تنالا ما تستحقانه من تمعن وفحص وتحقيق • والملاحظة الأولى تتعلق بقصة طلب الوليد بن عبد الملك المساعدة من ملك الروم فى عمارة مسجد الرسول محمد نبى المسلمين • والملاحظة الثانية تتعلق بالمعنى الذى كان يقصده المؤرخون العرب بلفظى «الروم» و «القبط» •

فاذا فحصنا الملاحظة الأولى فى ضوء ما سبق من شرح لنقاط الضعف فى روايات

---

(١) ابن بطوطه جـ ١/ص : ٩٣

المؤرخين القدماء لوجدنا أن أقدم من ذكر القصة هو اليعقوبى الذى يؤرخ كتابه فى نحو سنة ٢٥٢هـ (٨٧٤ م) ، أى بعد ثمان سنوات فقط من البلاذرى الذى سبق أن ذكر خبر ما أرسله الوليد الى عمر بن عبد العزيز من ذهب وفسيفساء وصناع ، دون أية اشارة الى قصة ملك الروم وطلب مساعدته. وهى السنوات الثمانية التى زاد فيها مقدار الذهب ٤٠٠٠٫٢٠ مثقال ، وزاد عدد العمال ٢٠ صانعا ، ثم ظهرت فيها قصة ملك الروم ، ثم أخذ يتردد ذكرها بعد ذلك . ولكن مما هو جدير بالتأمل أن القصة تضمنت خبر المساعدة التى أرسلها ملك الروم لبناء المسجد النبوى على أنها كانت تلبية لطلب من الوليد صيغ فى قالب ودى دون ما تهديد أو وعيد . بينما بدأت تتردد بعد ذلك بما يقرب من ثلاثة قرون قصة مشابهة تتصل ببناء الوليد لمسجده الجامع بدمشق غير انها تتضمن هذه المرة وعيدا وتهديدا منه لملك الروم ان تقاعس عن ارسال عمال قدرهم ابن عساكر المؤرخ بمائتى عامل وقدرهم ابن جبير بعدد ضخم هو ١٢٠٠٠ [1] صانع . ويتوالى ذكر هذه القصة ويتردد فيها عدد الصناع بين ٢٠٠ و ١٢٠٠٠ [2] صانع .

ومما هو جدير بالذكر أن الباحثة مارجريت فان برشم قد أعدت بحثا عظيم القيمة عن فسيفساء قبة الصخرة والجامع الأموى بدمشق وبذلت فيه جهدا عظيما من ناحية التحليل التاريخى والتحليل الفنى المقارن على أساس علمى سليم . ونشر هذا البحث فى نفس المجلد الذى وضعه الأستاذ كريسول عن العمارة الاسلامية المبكرة وجاءت فيه الفقرات المجحفة التى أشرنا اليها .

وعلى الرغم من أن الباحثة قد كونت رأيا مؤسسا [3] على الدراسة العميقة وصلت فيه الى أن الفنانين والصناع الذين قاموا بعمل فسيفساء قبة الصخرة وجامع دمشق كانوا من أهل الشام ، وأنهم كانوا أصحاب مدرسة خاصة بهم تتميز عن المدارس البيزنطية ، أى الرومية ، والرومانية السابقة والمعاصرة ، وذلك من ناحية التكوينات الزخرفية والأسلوب التكنى ، على الرغم من ذلك كله فانها قد ترددت فى تأكيد رأيها هذا بسبب ما ذكره المؤرخون من اشتراك صناع فى عمل ذلك من قبل ملك الروم ، أى كانوا بيزنطيين أو من سكان الدولة البيزنطية . وفى رأينا أن ترددها هذا هو تحرج من مخالفة الاتجاه الذى يرمى الى نسبة المهارات الفنية فى العصر الاسلامى الى عصور سابقة ، والى أنها انتقلت منها الى العصر الاسلامى على

(١) رحلة ابن جبير ، ص : ٢٤١ .
(٢) E.M.A., I, pp. 158-167.
(٣) Ibid., I, pp. 227-228.

أيدى أجناس غير عربية وأفراد غير مسلمين • وكنا نود لو أن الباحثة قد استمرت الى النهاية فى منهجها المتزن العميق ، ولا تقيم وزنا الا للأدلة والحجج العلمية ، وهى الأصدق ولا شك ، وألا تتحرج من توضيح كل ما يمكن الوصول اليه فى خلاصة بحثها ، وبخاصة ما يتصل بقصة ملك الروم واشتراك صناعه فى عمارة قبة الصخرة والمسجد النبوى بالمدينة والمسجد الأموى بدمشق • وهى قصة تبدو فى غاية الضعف والاهتزاز أمام الدلائل المادية التى وصلت اليها الباحثة ، بالاضافة الى التضارب والغموض وملامح الأساطير التى تبدو واضحة فى روايات أولئك المؤرخين ولمستها الباحثة بنفسها وأشارت اليها [1] •

ونتنهى مما سبق الى أن الوليد — ومن قبله عبد الملك بن مروان — كان لديه عدد كثير من الفنانين والصناع من أهل الشام ، وكانت لهم مدرستهم الخاصة ، وهم الذين قاموا بعمل الفسيفساء فى قبة الصخرة من قبل ثم فى جامع دمشق بعد ذلك ، ولم يكن الوليد والحالة هذه فى حاجة الى المئات والالوف منهم يطلبهم من ملك الروم بالتهديد والوعيد أو بغيرهما • والارجح اذن ان الوليد قد ارسل بعضا مما لديه من أولئك الصناع الشاميين الى المدينة ليسهموا فى بناء المسجد النبوى ، وان قصة ملك الروم لا تعدو أن تكون اسطورة نسرها وتناقلها المؤرخون العرب بغير ترو او تحقيق •

ثم نصل الى الملاحظة الثانية التى سبقت الأشارة اليها : وهى الخاصة بالمعنى الذى كان يقصده المؤرخون العرب بلفظى «الروم» و «القبط» ، وذلك لصلتها الوثيقة بموضوع أصل المحراب من ناحية ، وبالحضارة العربية الاسلامية من ناحية أخرى •

اذ يبدو أن علماء التاريخ والآثار والفنون الاسلامية من الغربيين قد آمنوا بغير مناقشة بأن من سماهم المؤرخون العرب بالروم هم اما الاغريق او البيزنطيون أو مسيحيو الشام ، وأن من أطلقوا عليهم لفظ القبط هم المسيحيون من المصريين • وهو أمر ما كان ليصح أن يؤخذ به بتلك البساطة •

ذلك أننا لو تمعنا فى فقرات وردت فى كتب بعض المؤرخين العرب لوجدنا ما يدل على أن كلمة الروم كانت تطلق فعلا على سكان آسيا الصغرى والقسطنطينية، وكذلك على أهل الشام وشمال غرب العراق الذين كان أغلبهم من الجنس العربى ، وكانوا كلهم يدينون فى ذلك الوقت بالمسيحية • ولكننا نجد أيضا أنهم قد بقوا

(1) E.M.A., I, pp. 98, 99, 156, etc.

(٢) ابن دقماق : ج ٤/ص : ٤ — ٥

يسمون بالروم حتى بعد الفتوح الاسلامية ، وبعد أن اعتنق أغلب أولئك العـــرب وغيرهم دين الاسلام • وهو أمر توضحه فى جلاء فقرات صريحة لا تحتاج لجهد فى نفسيرها جاءت فى كتب المؤرخين ، ومنهم ابن دقماق على سبيل المثال حيث يقول عند ذكـر خطط الفســـطاط القديمـة [١] : « ثم خـطط الحمـراوات الثـلاث • »
« وانما قيل لهم الحمراوات لنزول الروم بهم • وهى خطط بلى بن عمرو بن »
« الحاف بن قضاعة وبنى بحر ، وبنى سلامان ، ويشكر من لخم ، وهذيل بن »
« مدركة بن الياس بن مضر ، وبنى نبه ، وبنى الأزرق ، وهم من الروم • وبنى »
« روبيل ، وكان يهوديا فأسلم • وكانوا ممن سار مع عمرو بن العاص من الشام »
« الى مصر من عجم الشام ممن كان رغب فى الاسلام من قبل اليرموك ومن أهل »
« قيسارية وغيرهم •• » •

ويذكر المقريزى فقرة مشابهة ولكن فى تفصيل أكثر اذ يقول[١] : « (خطط »
« الحمراوات الثلاث ؟)• قال الكندى وكانت الحمراء على ثلاثة : بنو نبه ، وروبيل، »
« والازرق • وكانوا ممن سار مع عمرو بن العاص من الشام الى مصر من عجم »
« الشام ممن كان رغب فى الاسلام من قبل اليرموك ومن أهل قيسارية وغيرهم • »
« وقال القضاعى وانما قيل الحمراء لنزول الروم بها • وهى خطط بلى بن عمر »
« ابن الحاف بن قضاعة ، وبهم ، وعدوان ، وبعض الأزد ، وهم ثراد ، وبنى بحر، »
« وبنى سلامان ، ويشكر بن لخم ، وهذيل بن مدركة بن الياس بن مضر ، وبنى »
« الأزرق ، وهم من الروم ، وبنى روبيل وكان يهوديا فأسلم • »

وواضح من هذا أن الروم هنا هم أهل الشام الذين أسلموا ولكنهم مع ذلك بقوا يسمون بالروم • واذن فقد ظل ذلك اللفظ يطلقه المؤرخون العرب فى العصر الاسلامى على كل من النصارى والمسلمين على السواء من أهل الشام وعلى المسيحيين وأهل آسيا الصغرى التى تقلصت داخل حدودها الدولة البيزنطية التى كان يسميها المؤرخون العرب أيضا دولة الروم •

واذن هناك احتمال بل ترجيح قوى بأن الروم الذين أرسلهم الوليد الى عمر ابن عبد العزيز كانوا من أهل الشام ، وأن عددا منهم ليس بالقليل ـ ان لم يكن جميعهم ـ كان مسلما ، وبخاصة بعد أن مر على فتح الشام والعراق نحو سبعين سنة، وضحت فيها شخصية الدولة العربية ، وقوى نفوذ الدين الاسلامى •

أما لفظ «قبط» فانه أيضا ليس يعنى المسيحيين من أهل مصر وحسب • فان

(١) ابن دقماق ، ج : ٤ ، ص : ٤ ـ ٥ .
(٢) الخطط : ج ١/ص : ٢٩٨

كثيرا من المؤرخين والكتاب العرب أطلقوا اللفظ على سكان مصر بصفة عامة وبغير أن يخصصوا المسيحيين به [1] كما يتضح فى كتاب « النهاية فى غريب الحديث » لابن الأثير [2] ، وفى نهاية الأرب للنوبرى [3] ، وفى النهاية والاشراف للمسعودى [4] ، وفى تاريخ مختصر الدول لابن العبرى [5] . وقد عرّف صاحب معجم تاج العروس وغيره القبط بأنهم أهل مصر وهم بنكها أى أصلها وخالصها [6]. وفى معجم تاج اللغة للجوهرى [7] ، وفى القاموس المحيط ، ولم يأت فيها مايحدد [8] أن القبط هم نصارى مصر فحسب .

وتحدثت المراجع القديمة عن الشهور القبطية وعن الاهرامات على أنها قبور ملوك القبط وأكابرهم ، وعن لغتهم وكتابتهم وعقائدهم قبل ظهور النصرانية فيهم [9]. ويذكر المقريزى : .. « وقال مروان القصاص : صاهر الى القبط من الأنبياء ثلاثة : « ابراهيم خليل الرحمن عليه السلام تسرّى هاجر ، ويوسف تزوج بنت صاحب » « عين شمس ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم تسرّى مارية » [10] . وقال فى موضع آخر : « وقيل ان الروم لم تكتب وانما ظفرت بكتب معالم كنوز من ملك قبلها من » « اليونانيين والكلدانيين والقبط [11] » . ويضيق المقام عن سرد كثير مما يستدل منه على أن لفظ القبط كان يطلق على أهل مصر من قبل المسيحية وحتى بعد اسلامهم .

ويحدثنا التاريخ عن شخصيات تاريخية اعتنقت الاسلام وبقيت صفتها القبطية لم تتغير [12] . مثل مارية القبطية زوجة الرسول وأم ولده . ومن الصحابة ورواة الحديث : جبير بن عبد الله القبطى مولى بنى فهر ، وأبو رافع القبطى مولى رسول الله ، وعبيد القبطى ، وعبد اللطيف القبطى [13] .

---

(١) رسالة ابراهيم شبوح : مخطوط ــ ص ٤٣/هـ : ١١٣

(٢) جـ ٢/ص ٢٢٤ عن المرجع السابق

(٣) جـ ١/ص ١٩ عن المرجع السابق

(٤) ص ١٩ عن المرجع السابق

(٥) ص ٦٢ عن المرجع السابق

(٦) جـ ٥/ص ٢٠٠ عن المرجع السابق

(٧) جـ ١/ص ٥٦١ عن المرجع السابق

(٨) جـ ٢/ص ٣٧٨ عن المرجع السابق

(٩) المسعودى : التنبيه والاشراف ــ ص ١٩ ، ٤٩ ، النويرى : نهاية الادب ــ ج ١/ص ٤٠ ــ ٤١ ، ٤٦ ، الاستبصار ــ ص ٦٩ و ٧٤ ، ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ــ ص ١٣٥ (عن رسالة ابراهيم شبوح)

(١٠) الخطط : جـ ١/ص : ٢٥

(١١) الخطط : جـ ١/ص : ٤٠

(١٢) رسالة ابراهيم شبوح : مخطوط ــ ص ٤٤/ : ١١٣

(١٣) ابن القيسرانى : الانساب المتفقة ــ ص ١١٨ ، تاج العروس جـ ٥/ص ٢٠١ ، تاريخ اليعقوبى ــ جـ ٢/ص : ٩٦ (عن رسالة شبوح)

ونصل من كل ما سبق من تحليل ومناقشة لأقوال المؤرخين العرب والعلماء الغربيين الى خلاصة للمعلومات التى لدينا عن المحراب المجوف نوجزها فى النقاط التالية : ـ

أولا : أن هناك ما لا يقل عن خمس روايات تنسب عمل المحراب الأول الى خمسة تواريخ مختلفة : أولها وأقدمها ٢٤هـ (٦٤٤م) عند بناء عثمان بن عفان المسجد النبوى بالمدينة . والثانى سنة ٥٣ هـ (٦٧٣ م) أثناء عمارة جامع عمرو بن العاص بالفسطاط فى ولاية مسلمة بن مخلد . والثالث سنة ٦٥ هـ (٦٨٤م) ، فى المسجد النبوى فى خلافة مروان بن الحكم . والرابع سنة ٧٩هـ (٦٩٨م) عند عمارة جامع عمرو بن العاص أيام الوالى عبدالعزيز بن مروان. وأخيرا التاريخ الخامس وهو سنة ٩٠هـ (٧٠٨م) الذى كملت فيه عمارة المسجد النبوى أيام ولاية عمر بن عبد العزيز . وسنرى أن المحراب المجوف الذى بالوجه الداخلى للضلع الجنوبى من المثمن الخارجى لقبة الصخرة يمكن ان يرجع تاريخه الى سنة ٧٢هـ (٦٩١م) ، أى الى أيام عبد الملك بن مروان . وسيأتى ذكره بالتفصيل فيما بعد .

ثانيا : أن الوليد لم يكن فى حاجة الى صناع يطلبهم من ملك الروم فقد كانت عنده الكفاية من أهل الشام . وأن أقصى ما يحتمل أن يكون ملك الروم قد أرسل للوليد بمناسبة بناء المسجد النبوى كميات من الفسيفساء لتزويق الجدران ، حيث كان الاقبال كبيرا على استخدامها أيام عبد الملك بن مروان فى قبة الصخرة التى بناها ، ثم ما اتجه اليه الوليد بعد ذلك من بناء الجامع الكبير بدمشق .

ثالثا : أنه اذا صدقت الرواية باشتراك روم الشام وقبط مصر فى بناء المسجد النبوى أيام ولاية عمر بن عبد العزيز على المدينة فان الاغلبية العظمى من هؤلاء كانت تدين بالاسلام . وعلى ذلك وعلى فرض أن المحراب المجوف قد ظهر لأول مرة فى هذه المناسبة ـ وهو فرض من خمسة فروض كما رأينا ـ فان ظهوره ليس من الضرورى أن يكون تحت تأثير مسيحى ، وذلك أن الخبر الذى يروى عمل القبط فى مقدم الجامع لا يحتمل أبدا أن ينتزع منه ذلك المعنى وبذلك الأسلوب الضعيف الذى اتبع فى تفسيره ، ثم يؤخذ على على أنه حقيقة Fact تقوم عليها تلك النظرية أو النتيجة التى وضعت فى قالب حاسم لا يحتمل الشك .

واذا ما انتقلنا الى مناقشة أصل المحراب ونشأته بصفة عامة ، فاننا لا نجد أحدا من العلماء الغربيين قد عنى بالبحث عما اذا كان لمسجد رسول الله الأول محراب ، وعما كان عليه شكله ان كان قد وجد • ولا عذر لهم فى أن الكتاب العرب القدماء قد فات أكثرهم أن يذكروا شيئا عنه أو عن غيره • ولسنا ندعى أننا قد وصلنا الى معلومات كثيرة عن هذا الموضوع ، فلم نعثر الا على القليل فيه ، ولكنه مع ذلك قد يساعد على تكوين فكرة عنه ، وسنتناول ما وصلنا اليه فى حرص شديد بقصد القاء أضواء جديدة على الموضوع بقدر الامكان •

جاء ذكر محراب للرسول فى كتاب « مسالك الابصار فى ممالك الأمصار » الذى يؤرخ فى حوالى سنة ٧٤٠ هـ (١٣٤٠ م) وألفه ابن فضل الله العمرى ، وقال فيه عن المسجد النبوى [١] : « قال السهيلى : بنى مسجد رسول الله (ص) وسقف » « بالجريد ، وجعلت قبلته من اللبن • ويقال : بل من حجارة منضودة بعضها على » « بعض ، وحيطانه باللبن ، وجعلت عمده من جذوع النخل » ••• ثم قال : « قال » « الحافظ أبو عبد الله الذهبى كانت هذه القبلة فى شمالى المسجد لأنه (ص) صلى » « ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا الى بيت المقدس ، فلما حولت القبلة بقى » « حائط القبلة الأولى مكان أهل الصفة » ••• ثم قال عن مسجد قباء [٢] : « وذكر » « ابن أبى خيثمة أن رسول الله (ص) حين أسسه ، كان هو أول من وضع حجرا » « فى قبلته ، ثم جاء أبو بكر بحجر فوضعه ، ثم جاء عمر فوضعه الى جنب حجر » « أبى بكر • ثم أخذ الناس فى البنيان • » وفى هذا احتمال كبير بأن لفظ القبلة هنا يعنى المحراب لا جدار القبلة فحسب كما يظن لأول وهلة •

أما السمهودى ــ صاحب الحظوة فى موضوع بناء القبط لمقدم الجامع والذى أهمل حديثه فى محراب الرسول ــ فانه فى حديثه عن خطوات بناء المسجد النبوى على الأرض التى وقع عليها الاختيار قال : [٣] « فأمر النبى (ص) بالنخل فقطع ، » « وبقبور المشركين فنشبت • فصفُّوا النخل قبلة له وجعلوا عضادتيه من حجارة •• »، والعضادة تعنى جانب فجوة أو تجويف ، مما يعزز الظن بأن المقصود بذلك هو محراب مجوف •

واذن فيمكن القول بأنه قد وجد نوع من المحاريب أو علامة لتعيين اتجاه القبلة

(١) ج ١/ص : ١٢٤
(٢) ج ١/ص : ١٠٧
(٣) الخلاصة : ص : ١٠٧

منذ السنة الثانية من الهجرة ، أى منذ أن استقر الاتجاه فى الصلاة نحو الكعبة ، بل لعل ذلك قد وجد منذ اللحظة الأولى التى وضع فيها أساس المسجد النبوى فى المدينة، وأن الرسول الكريم قد وضع المحراب بنفسه فى مسجد قباء خارج المدينة ، وهو المسجد الذى أقام الرسول الصلاة فى موضعه وهو فى طريقه مهاجرا الى المدينة .

كذلك يمكن أن نستنتج من الوصف السابق أن المحرابين اللذين عملا فى حياة الرسول فى مسجد المدينة وفى مسجد قباء كان كل منهما على هيئة بسيطة . وأغلب ظننا أن وجه المحراب منهما كان يرتد عن وجه جدار القبلة ، أى كان على هيئة «مجوفة» أو « مخلّقة » ــ على حد قول المؤرخين القدماء ــ وجاء هذا التجويف نتيجة لبناء الجدار باللبن الذى يتطلب أن يكون سمك الجدار كبيرا ، بعكس المحراب الذى كان مشيدا بالحجر وهو لذلك يسمح ببناء جدار أقل فى السمك من المشيد باللبن . وهكذا يتكون التجويف من الفرق بين السمكين . ولا نستبعد أن يكون شكله قريبا من محراب قصر الأخيضر فى العراق ، كما سيأتى شرحه فيما بعد (ص : ٦١٥ ، ش ٤٠٩) .

ومن المرجح فى رأينا أن هذا التجويف قد تطور مع الزمن وأخذ يزداد عمقه فى كل مرة كان يهدم فيها المسجد النبوى ويزاد فى مساحته ، وبخاصة من الجهة التى يوجد بها جدار القبلة ، الى أن اتخذ شكلا مجوفا صريحا فى عمارة عثمان سنة ٢٤هـ (٦٤٤م) ، وذلك حسب أقوال ابن بطوطة ، أى فى الوقت الذى رجحنا أن يكون عثمان قد جعل الظلات تحيط بجوانب الصحن الأربعة كما حدث فى الحرم المكى (أعلاه ص : ٦٦ ــ ٦٨) أو من جهات ثلاث . وتركت الجهة الشرقية على حالها [١] .

ثم يستوقف نظرنا أن علماء من أمثال كريسول ولاماس وجرترود بل Gertrude Bell صاحبة الرأى بأن « الاسلام قد اقتبس المحراب » على مضض reluctance نجدهم قد تبعوا منهجا علميا ينطبق عليه تماما المثل العربى المعروف « عمل من الحبة قبة » . وكانت هذه الحبة هى قول المقريزى وابن دقماق نقلا عن الواقدى ــ بأن أول من عمل محرابا مجوفا هو عمر بن عبد العزيز . ومن عجب أنهم لم يحاولوا مناقشة معنى كلمة « مجوف » بل أخذوها قضية مسلما بها بأنها

(١) الخلاصة : ص ١٣٥

لا يمكن أن تعنى شيئا آخر سوى المجوف نصف الدائرى (ش : ٤٠٤) [١] ، وذلك لكى يصلوا الى تأكيد الخبر الآخر الذى يقول بأن القبط هم أول من شيد محـراب المسجد وأنه كان على هيئة هيكل الكنيسة ، أو العكس ، أى أنه اذا كان المحـراب مجوفا على هيئة نصف دائرة فلا بد أن يكون من شيده قبطا • كل ذلك ولم يتطرق اليهم ذرة من الشك فى أن تكون كلمة « تجويف » تعنى أيضا أن يكون مســقطه مستطيلا أو مربعا مثل المحراب الموجود فى قصر الأخيضر ببـادية العراق (ش : ٤٠٩) ، والذى يؤرخ فى سـنة ١٦١ هـ (٧٧٨م) [٢] وانه لما يدعو للتسـاؤل عن هذا النوع من المحاريب اذ لم يكن يسمى بمجوف فبماذا يسمى اذن ؟ • هـذا من ناحية ، ومن ناحية أخـرى فانهم لم يحاولوا توضيح العـامل الملح الذى يضطر المسـلمين الى اقتبـاس تلك البدعة « على مضض » ، والمانع الذى منعهم من الاستغناء عنها ، وأن يتجنبوا بكل بساطة ذلك الحرج الذى لا تدعو اليه أية ضرورة •

أما رأى السيوطى الذى أشار اليه لامانس فقد جاء فى جزء من مقالة ضـمن مقالات أخرى رجعنا اليها فوجدنا ما يأتى : [٣] « هذا جـزء سـميته اعلام الأريب « بحدوث بدعة المحاريب ، لأن قوما خفى عليهم كون المحراب فى المسجد بدعة، » « وظنوا أنه كان فى مسجد النبى (ص) فى زمنه • ولم يكن فى زمانه قط محراب » « ولا فى زمان الخلفاء الأربعة فمن بعدهم الى آخر المائة الأولى • وانما حدث فى » « أول المائة الثانية مع ورود الحديث بالنهى عن اتخاذه ، وانه من شأن الكنائس ، » « وأن اتخاذه فى المساجد من أشراط الساعة • قال البيهقى فى السنن الكبرى » « (باب) فى كيفية بناء المساجد • أخبرنا أبو النصر •• الخ عن عبد الله بن عمرو » « (ض) قال رسول الله (ص) : اتقوا هذه المذابح • يعنى المحاريب » (والمعنى هنا « هو تفسير البيهقى أو السـيوطى) • ويستمر حديث السـيوطى شارحا كراهة الصحابة للصلاة فى المحراب ذاكرا فى سياقه لفظا آخر للمحراب هو الطاق ، اذ قال: « وقال البزار فى مسنده حديثا •• عن عبد الله بن مسعود ، أنه كره الصلاة فى » « المحراب ، وقال انما كانت للكنائس فلا تشبهوا بأهل الكتاب ، يعنى أنه كره » « الصلاة فى الطاق • وقال ابن أبى شـيبة فى المصنف حدثنـا اسرايل (يهودى » « الأصل ؟ عن موسى الجهنى قال : قال رسـول الله (ص) : لا تزال هـذه الأمة »

(١) E.M.A., I, Fig. 438.

(٢) Ibid., II, Fig. 64, Pl. 120 e.

(٣) توجد المخطوطة التى رجع اليها لامانس فى مكتبة لاللى بالقسطنطينية وقد تفضل السيد فؤاد السيد مشكورا بارشادى الى مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية بها نفس المقالة (رقم ورقة ب)

« أو أمتي بخير ما لم يتخذوا فى مساجدهم مذابح كمذابح النصارى • هذا مرسل »
« صحيح ••• بمقتضاه أخرج ابن أبى شيبة عن أبى ذر قال : من أشراط الساعة »
« أن تتخذ المذابح فى المساجد ••• وعن أبى الجعد قال : كان أصحاب محمد »
« (ص) يقولون ان من أشراط الساعة أن تتخذ المذابح فى المساجد • يعنى »
« الطاقات • »

وأول ما نلاحظه في القول الذى نسب الى السيوطى أن الحديث روى عن الرسول فى صيغه المتعددة التى صيغ فيها لم يذكر فيها المحراب بل ذكر لفظ « المذابح » فحسب • ولا نظن أن معنى هذا الحديث ـ اذا صح ـ يحتاج الى جهد لتوضيح الهدف المقصود منه • فهو صريح كل الصراحة في النهى عن التشبه بما كان النصارى يتبعونه فى كنائسهم من تخصيص مكان مرتفع عن بقية الكنيسة وفى صدرها فى الحنية الكبيرة التى كانت تسمى الشرقية ، وهو المكان الذى توضع فيه مائدة عليها القرابين والخبز المقدس والأيقونات وغير ذلك من رموز المسيحية ، وهو المكان الذى كان ولا يزال يعرف بالمذبح Alter •

ونلاحظ كذلك أن لاماسن وغيره ممن فسروا لفظ « المذبح » « بالمحراب » قد غمض عليهم الفارق بين معنى كل منهم ، أى بين الوظيفة التى يؤديها المذبح فى الكنيسة التى شرحناها وبين وظيفة المحراب فى المسجد التى لا يتجاوز أن تكون مجرد علامة لتعيين جدار القبلة التى يجب أن يتجه اليها المسلمون فى صلاتهم ، ولا يتسع الا لشخص واحد هو الذى يؤم المصلين ويقف فيه فى حالات استثنائية ، أى عند ازدحام الجامع بالمصلين فى الصلوات الجامعة مثل الجمعة والأعياد ، أما فى الأحوال العادية فان الامام لا يقف أبدا داخل المحراب ، بل يقف دائما بعيدا عنه بقدر ما يتسع المكان ، فليس هناك من داع لأن ينحشر أو يحصر نفسه داخل التجويف •

ويتبادر الى ذهننا كثير من الشك فى هذه الأقوال التى تنسب الى السيوطى فى هذه المقالة ، وبخاصة عند موازنتها بما جاء فى كتابه « حسن المحاضرة » عن المحراب المجوف فى جامع المدينة وفى جامع عمرو بن العاص اذ قال [1] : « ولم يكن »
« للمسجد الذى بناه عمرو محراب مجوف وانما قرة بن شريك جعل المحراب »
« المجوف • وأول من أحدث ذلك عمر بن عبد العزيز ، وهو ويمئذ عامل الوليد »
« على المدينة حين هدم المسجد النبوى وزاد فيه » • اذ تتضمن هذه الفقرة معنى أنه

(1) حسن المحاضرة : ج ٢/ص : ١٤٢

كانت توجد من قبل محاريب غير مجوفة ، ثم من ناحية أخرى تعنى أن المحــراب المجوف قد وجد فى المائة الأولى ، مما يتعارض مع ما جاء فى مقالته أنه لم يحــدث الا فى أول المائة الثــانية • والأهم من ذلك أن ما جاء فيها من أنه لم يكن فى زمنه ــ (أى النبى) ــ قط محراب يناقض تماما ما جاء فى كتاب مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى عن المحراب الذى جعله الرسول فى مسجده بالمدينة وفى مسجد قباء ، مع أن السيوطى متأخر عن العمــرى اذ أشار الى كتاب العمــرى فى مستهل كتابه « حسن المحاضرة » على أنه من ضمن المراجع التى اعتمد عليها فى كتابه ، والتى كان منها كتب المقريزى وابن دقماق وابن المتوج وغيرهم [1] • وقد أشرنا من قبل الى الروايات الثلاثة التى ذكرها المقريزى عن أول من عمل محرابا مجوفا فى جامع عمرو بن العاص الى زمن قــرة بن شريك فى ٩٣ هـ (٧١٢ م) ، والى الروايتين اللتين ذكرهما أيضا عن أول من عمل المحراب المجوف فى المسجد النبوى بالمدينة •

ونضيف الى ما سبق أن الوعيد بأن تقوم الساعة ويحل يوم القيامة اذا عملت المحاريب قد جاء فى المقال المنسوب الى السيوطى ، والذى يمكن أن يكون معاصرا فى تأريخه لكتاب « حسن المحاضرة » ، أى فى نهاية القرن التاسع الهجرى (١٥م) • أو بمعنى آخر فانه قد مر زمن يبلغ نحو ثمانية قرون بعد أول المائة الثانية التى يقول ان المحراب قد حدث فيها • ومع ذلك لم تقم القيــامة حتى وفاة السيوطى بل حتى وقتنا هذا •

كذلك لا نظن أن عالما ومؤرخا مثل السيوطى يمكن أن يكتب هذا المقال بغير أن يكون قد اطلع على معاجم اللغة العربية مثل « القاموس المحيط » و « المصباح المنير » و « لسان العرب » وغيرها ، وما تضمنته من تفسير للفظ المحراب ، ولم يأت فى أى منها اشارة الى النهى عن اتخاذ المحاريب والوعيد بقيام الساعة ، أو أنها من شــأن الكنــائس • وقد جمع صاحب تاج العروس [2] هذه التفاسير فى معجمــه ، ونورد فيما يلى بعضا منها ، وهو : « (والمحراب الغرفة) والموضع العالى •• (وصدر البيت » « وأكرم مواضعه)•• » (وهل أتاك نبأ الخصم اذ تسوروا المحراب) »• وقال المحراب » « أرفع بيت فى الدار وأرفع مكان فى المسجد • قال والمحراب هنا كالغرفة •• وقال » « أبو عبيدة ، المحراب أشرف الأماكن • وفى المصباح : هو أشرف المجالس• وقال » « الأزهرى : المحراب عند العامة (مقام الامام من المسجد) •• وفى لسان العرب : »

(١) حسن المحاضرة : جـ ١/ص : ٢
(٢) تاج العروس : جـ ١/ص ٢٠٦ ــ ٢٠٧

« المحاريب صدور المجالس ومنه محراب المسجد . والمحراب القبلة ، ومحراب »
« المسجد أيضا صدره وأشرف موضع فيه .. وقوله تعالى (فخرج على قومه من »
« المحراب) ، قالوا من المسجد.. وقال أبو عبيدة : المحراب سيد المجالس ومقدمها »
« وأشرفها . قال وكذلك هو من المساجد ... الخ . » .

ومما يضعف أيضا من نسبة المقال المنسوب الى السيوطى أنه لو كان المحراب مكروها من أئمة المسلمين حقيقة وأن الحديث النبوى كان يتضمن معنى هذه الكراهية لما أقدم عمر بن عبد العزيز على عمله بالمسجد النبوى ، وكان عمر معروفا بتقواه وبتشدده فى التمسك بتعاليم القرآن وسنن الرسول وتقاليد الاسلام .

كل ذلك يجعل مقالة « اعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب » محاطة بالشك الكبير ، لا من حيث صحة الروايات والآراء التى تضمنته فحسب ، بل من حيث نسبتها الى جلال الدين السيوطى نفسه ، ويجعل الاستشهاد بما جاء فيها نافلة من القول .

ومما هو جدير بالذكر أن لامانس الذى نبّه الاستاذ كريسول الى تلك الفقرة من مقالة السيوطى لم يفهمها بمعناها التى وردت به وهو « ... وانما حدث فى المائة »
« الثانيه مع ورود الحديث بالنهى عن اتخاذه .. الخ » بل حرفها الى معنى يفهم منه أنه لم يحرم عمل المحراب فى الحديث النبوى الا فى أول المائة الثانية أو بمعنى آخر ان الحديث الذى يحرم المحراب لم يقله الرسول الا بعد موته بنحو تسعين سنة . وهو مثال لقدرة تفهم المستشرقين للغة العربية ومعانيها ومعيار لما يمكن أن تمنح آراؤهم من ثقة . وهى سقطة لا يتردى فيها الا من سار وهو غافل عن الحق .

ويتجلى هذا التحريف بشكل صارخ فيما استشهد به بكر Becker من كتاب ابن الحاج عن كراهية عمل المحراب . وهو مثل جديد لما يمكن أن تحرف اليه المعانى نتيجة لعدم فهم اللغة العربية ومعانيها على الوجه الصحيح ، هذا بالاضافة الى عامل التحامل ، مما أوقع تلك الفئة من العلماء الغربيين فى عثرات ما كان ليصح لهم أن يقعوا فيها .

ذلك أن النص الذى استشهد به بكر ووجده فى كتاب المدخل لابن الحاج ، قد فهم منه « أن المحراب هو أقل الأجزاء قدسية فى المسجد ، فيجب على »
« الامام أن يتحاشى الوقوف بداخله . » ومن عجب أننا وجدنا النص يعنى شيئا بعيدا كل البعد عما فهمه بِكَر منه وما استند عليه كريسول فى تأكيد رأيه عن أصل

المحراب ، اذ يقول ابن الحاج عن المحراب [1] : « (فصل) ... وينبغى له أن »
« يغير ما أحدثوه من الزخرفة فى المحراب وغيره ، فان ذلك من البدع ، وهو من »
« أشراط الساعة . (ومن الطرطوشى) . قال ابن القاسم : وسمعت مالكا يذكر »
« مسجد المدينة وما عمل من التزويق فى قبلته ، فقال « كره الناس ذلك حين »
« فعله لأنه يشغلهم بالنظر اليه . (وسئل مالك) عن المساجد هل يكره أن يكتب »
« فى قبلتها بالصبغ (لعله يقصد الصباغة أى الرسم بالألوان) مثل آية الكرسى »
« وقل هو الله أحد والمعوذتين ونحوهما ، فقال : أكره أن يكتب فى قبلة المسجد »
« شىء من القرآن والتزويق . وقال ان ذلك يشغل المصلى . انتهى » .

ولا نظننا بحاجة الى شرح معنى نص ابن الحاج ، فهو صريح كل الصراحة فى أنه توضيح لكراهية الامام مالك وعلماء الدين لتزويق المحراب وزخرفته ، أو حتى الكتابة عليه ولو كانت آيات من القرآن . ولا يتضمن النص آية اشارة الى المحراب نفسه من حيث قدسيته أو وظيفته أو كراهية وقوف الامام بداخله .

ومن ناحية أخرى نجد أن الرأى الذى انتهى اليه الأستاذ كريسول ـ على الرغم من العثرات الكثيرة التى وقع فيها هو وغيره للوصول اليه ـ بأن القبط هم أول من ادخل المحراب ذا القطاع الافقى من نصف دائرة قد تسلط عليه الى درجة أنه أغفل تماما المحراب المجوف من نفس القطاع والذى يوجد فى الضلع الجنوبى من المثمن الخارجى لقبة الصخرة (ش : ٨) ، مع أنه هو نفسه ينسب جدار هذا المثمن الى أول بناء قام به عبد الملك بن مروان لقبة الصخرة ، أى الى سنة ٧٢هـ (٦٩١م) . ولا يمكن أن يكون هذا المحراب قد تاه عن نظره ، وهو الذى زار قبة الصخرة عشرات المرات وقرأ عنها المراجع التى يصل عددها الى نحو ٥٠٠ مرجع . ومع ذلك فقد صمت صمتا تاما عن أن يشير الى ذلك المحراب ولو من بعيد . كذلك فانه قد عنى بتصوير كل ركن وتفصيل وزخرف فى المبنى ولم يحظ ذلك المحراب بلفتة منه . الأمر الذى يجعلنا نظن اما أنه تحاشى ذكره حتى لا يسلم بوجود ذلك المحراب فى قبة الصخرة منذ أول بنائها ، فينسب الفضل فى عمل المحراب المجوف الى أهل الشام من العرب ومن غيرهم وليس الى القبط . أو لعله قد ظن المحراب قد شيد بعد تاريخ أول بنائه ، وهو أمر بعيد الاحتمال من الناحية البنائية ، لأن ذلك كان يتطلب شق الجدار كله الذى يصل سمكه نحو ١٫٣٠ فقط عند هذا الموضع

(١) المدخل : جـ ٢/ص ٧٩ ـ ٨٠ .
(٢) E.M.A., I, pp. 53-67.

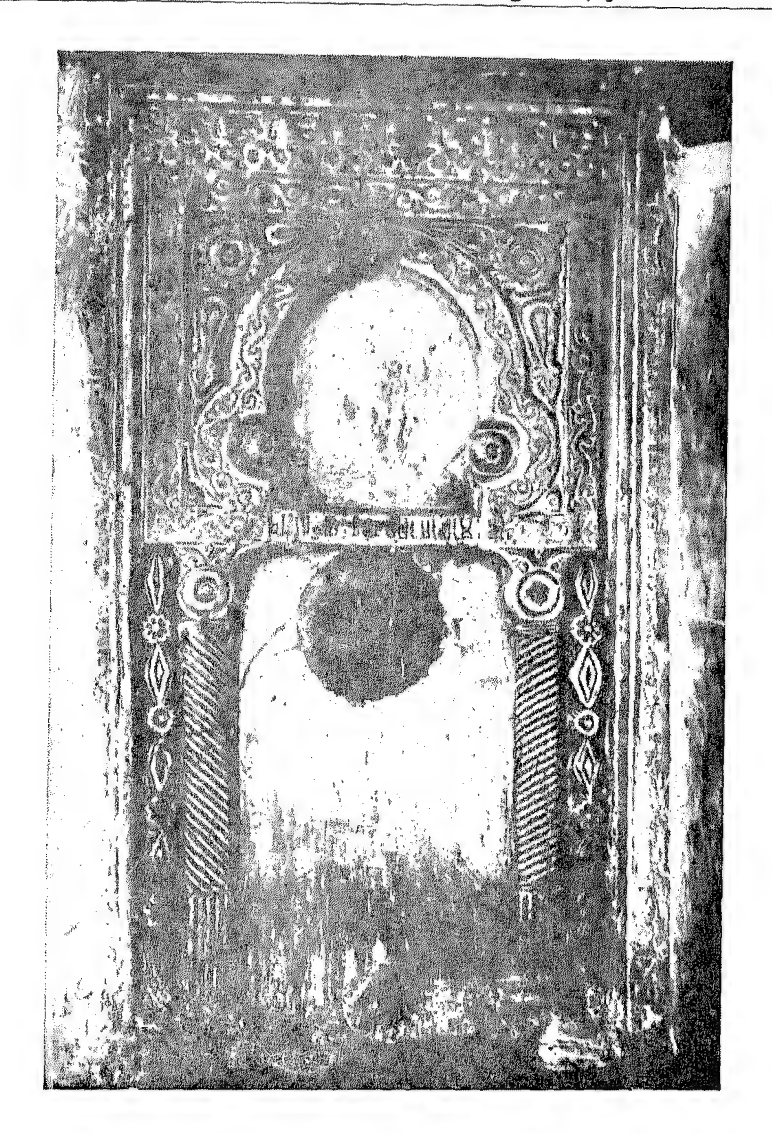
واعادة بنائه بعد وضع المحراب فيه ، لأن السمك المحصور بين وجه المحراب من الداخل ووجه الجدار من الخارج لا يتجاوز ٤٠ سنتيمترا . اما ان يكون المحراب قد نحت فى الجدار بعد بنائه بعمق نحو متر فامر مستبعد . لان ذلك كان يتطلب تفريغ الجدار الى عمق أكبر حتى يمكن اعادة بناء استدارة التجويف فى احكام ودقة ، مما يتطلب هدم هذا الجزء من الجدار كما سبق القول . والذى لا شك فيه أن هذا المحراب كان موجودا قبل سنة ٧٤٠هـ (١٣٤٠م) وهى السنة التى كتب فيها ابن فضل العمرى كتابه « مسالك الابصار » . ذلك أنه أشار اليه بقوله : « والمحراب الذى يصلى به أمام « الصخرة عن يمين الداخل من الباب القبلى داخل الدرابزين الخشب المقدم » « الذكر ، وتجاه المحراب باب مغارة الصخرة الشريفة .. وبباطن المغارة المذكورة » « محرابان على اليمين واليسار ، كل محراب على عمودى رخام لطاف .. » . ويدل ذلك على أن المحراب لم يحدث فى العصر العثمانى عندما جددت عمارة قبة الصخرة وزينت جدرانها بألواح الرخام والبلاطات الخزفية المزخرفة .

ومهما يكن من أمر فانه لو كان قد حدث خرق فى الجدار بعد بنائه أول مرة لتخليق هذا المحراب المجوف لوضح ذلك عند كشف وجه الجدار الخارجى فى أثناء أعمال الترميم التى حدثت فى المبنى منذ خمس سنوات ــ وكان الأستاذ كريسول وغيره يتتبعون تلك الأعمال خطوة بخطوة ، ولكان قد أشار الى ذلك فى الطبعة الثانية من الجزء الأول من كتابه عن العمارة الاسلامية المبكرة التى أضاف اليها الكثير عن قبة الصخرة وعن غيرها . فليس هناك مجال اذن للشك فى أن ذلك التجويف قد حدث مع البناء الأول فى سنة ٧٢هـ (٦٩١م) .

ويزيد من عجبنا أن الأستاذ كريسول ، فى الوقت الذى أغفل ذكر أى شىء عن ذلك المحراب المجوف فى الضلع الجنوبى من المثمن الخارجى لقبة الصخرة ، والذى يبدو واضحا لجميع الزوار ، فانه قد اهتم بالمحراب المسطح المختفى فى الكهف تحت الصخرة نفسها (ش : ٤٠٣) [٢] والذى يقول عنه « انه لم يكتب عنه سوى مؤلف ألمانى واحد ، فمن المنتظر أن لا ينتبه الى وجوده أحد من الزوار بسبب الضوء الخافت الذى يسود المكان » . ومع كل هذا فانه قد اهتم بدراسة ذلك المحراب المسطح الصغير من حيث تكوينه وزخارفه وانتهى من ذلك الى ترجيح نسبته الى تاريخ بناء قبة الصخرة أيام الخليفة عبد الملك بن مروان ، أى فى سنة ٧٢هـ (٦٩١م) .

(١) مسالك الابصار ــ ج ١/ص : ١٢٤ ، ١٢٧ .

(٢) E.M.A., I, p. 70; II, Pl. 120a.



ش : ٤٠٣ ـ قبة الصخرة ، المحراب المسطح فى المغارة تحت الصخرة

ومن ثم فقد عدّه أقدم محراب موجود من العصر الاسلامى ، وقد وصل الى هذا التأريخ وهو مطمئن الى أنه مجرد محراب مسطح وليس مجوفا • ومرة أخرى نلاحظ أنه فاته أن ابن العمرى شاهد محرابين لا محرابا واحدا فى المغارة تحت الصخرة كما سبق القول •

غير أننا نجد الأستاذ كريسول لم يوفق أيضا فى تأريخ هذا المحراب ، ذلك لأن أسلوب الزخارف النباتية فى الاطار المحيط بعقد الحشوة المسطحة والذى يستمر فى الاطار المستطيل الذى يحتوى على ذلك العقد ، هذا الأسلوب فى نظرنا قريب جدا من الطراز الثانى الذى ظهر فى مدينة سامرا (صفحات ٤١٦ ـ ٤٢١) • واذا

أضفنا الى ذلك تلك الشرافات العليا المسننة التى تتوجه ، والأقراص التى يتكون منها الشريط أسفل الشرافات ، ثم شكل تاج العمود فى كل من جانبى الحشوة المسطحة، كل ذلك يؤدى بنا الى تأريخه فى أوائل العصر العباسى ، وعلى الأرجح فى أيام المأمون الذى اهتم بقبة الصخرة وأزال اسم عبد الملك بن مروان ووضع اسمه بدلا منه ، ولكنه غفل التاريخ الذى كتب بجوار عبد الملك فبقى كما هو **٧٢** هـ (**٦٩١م**) [١] .

وهناك ملاحظة هامة نضيفها الى ما سبق عن الرأى القائل بعمل أول محراب مجوف على أيدى القبط هى أنه لو كان لهم فضل فى ذلك حقيقة لكان جامع عمرو ابن العاص أول مسجد زود بمحراب مجوف . فليس من المنطق السليم أن يقوم الأقباط وهم سكان مصر بعمل محراب مجوف فى مسجد المدينة التى تبعد آلاف الأميال عن موطنهم وأن يحدث ذلك بعد نحو سبعين عاما من فتح العرب لمصر . مع أن الأقرب الى العقل أن أولئك الأقباط ـ الذين يقول عنهم عدد من العلماء الغربيين أنهم كانوا هم وحدهم الذين يقومون بالبناء وغيره من الحرف فى العصور المبكرة من الاسلام ـ كان من المنتظر أن يقوموا بعمل أول محراب فى الاسلام فى بلادهم فى جامع عمرو بن العاص عندما شيد أول مرة فى سنة **٢١**هـ (**٦٤١م**) أو عندما أعيد بناؤه فى سنة **٥٣**هـ (**٦٧٣م**) أو فى سنة **٧٨**هـ (**٦٩٨م**) . أو بمعنى آخر كانت هناك ثلاث فرص لأن يشيدوا محرابا مجوفا فى مصر قبل أن يشيدوه فى مسجد المدينة فى سنة **٨٨**هـ (**٧٠٧م**) . وقد ذكر المقريزى فعلا ما يدل على احتمال عمله فى فرصتين منهما كما سبق القول . وليس هناك معنى لاستبعاد فرص عمله فى مصر بحيث لم يجد الأقباط فرصة لتنفيذ فكرة المحراب المجوف الا فى المسجد النبوى فى المدينة . وهو ما يوضح لنا مرة أخرى مقدار ما فى ذلك الرأى من ضعف كبير.

ويثير اهتمامنا بهذا الموضوع من ناحية أخرى أنه بينما لم تتطرق الى ذهن الأستاذ كريسول ذرة من الشك فى أقوال السمهودى والواقدى والمقريزى وابن دقماق وغيرهم فيما يؤكد نظريته عن عمل المحراب المجوف على أيدى القبط ، فانه قد وصل فى شكوكه الى حد تكذيب ما رواه مؤرخو الغرب العربى الاسلامى من أن المحراب القديم لمسجد القيروان الذى عمل عند أول بنائه أيام الوالى عقبة بن نافع فى سنة **٥٠**هـ (**٦٧٠م**) لا يزال يوجد خلف ألواح الرخام ذات الزخارف المفرغة التى كسى بها المحراب الحالى [١] . وهو على هيئة مجوف من ذات المسقط نصف الدائرى .

---

(١) البكرى : وصف افريقية / ص ٥٩ ـ ٦٠. E.M.A., II, p. 308, Pls. 83 a, 87 b-c, 121 b.

وقد شارك كريسول في هذا المستشرق مارسيه [1] الذي تخصص في العمارة العربية في الغرب الاسلامي • وكل ذلك حتى لا يحرم القبط من فضل عمل أول محاريب المساجد الاسلامية ، بالاضافة الى فضل الايحاء بشكل المنبر كما سيأتي الكلام عنه في الفقرات الخاصة بالمنبر •

***

وأخيرا نأتي الى مناقشة أصل لفظ « محراب » ، فنجدها تسير مرة أخرى على نفس المنهج المعهود كالآتي :

« تأتي كلمة محراب في الشعر العربي المبكر ، وكان لها في ذلك الوقت »
« دلالة دنيوية وتعني ، في رأي نولدكه Nöldeke ، بناء لملك أو لأمير • ولكن »
« يبدو أن رودوكانس Rhodokanis ، عندما أعد عرضا لكتاب نولدكه ، قد نجح »
« في حصر معناها لتعبر عن جزء خاص من ذلك البناء ، هو : حنية العرش »
« (كالموجود في قصير عمرو مثلا) • واذا كان هذا صحيحا فيمكننا بسهولة أن »
« نفهم كيف حدث اقتباسها للدخلة الغائرة التي تشبه الهيكل والتي نقلها القبط »
« الى المدينة » •

والحق أن التضارب في منهج البحث هذا مع غيره قد أوقعنا في حيرة من ناحية المعنى المقصود من تلك الفقرة • ذلك أن المثل الموجود في قصير عمره هو حنية مجوفة متعامدة الاضلاع وليست مستديرة مثل محاريب الهياكل القبطية • كذلك يبدو أن تفسير رودو كانس بان كلمة محراب تطلق على حنيه العرش في بناء ملكي قد نال استحسانا لاتفاقه مع المعنى الذي تدور حوله مناقشة موضوع اخر يتصل بالمنبر واصله ، والذي ينسب فيه الى الرسول وخلفائه والولاة المسلمين الشعور بالتعلى وحب التفاخر ، ومحاوله التاثير على السفراء والناس باظهار العظمة بالجلوس على المنبر كانه عرش والامساك بالعصا كانها صولجان (بعده صفحات ٦٢٦ – ٦٣١) •

أضف الى ذلك كله انه على الرغم من كل هذه المحاولات والشروح والتفسيرات التي أتى بها الاستاذ كريسول من هنا وهناك ليبني عليها استنتاجاته ، فقد اغفل تماما هو وغيره من المستشرقين ما جاء في معاجم اللغه العربيه من شروح لمعنى المحراب والتي اشرنا اليها من قبل (ص : ٦٠٢ – ٦٠٣) • كما اغفل الايات الكريمه التي جاء فيها ذكر المحراب ، ولم يحاول أن يتفهمها وأن يستخلص منها ما يتصل بمعنى المحراب ، مع أنه كان يشير الى بعض الآيات القرآنية في دراساته ويأتي بترجمة لها

(1) Marçais : Manuel d'Art Musulman, vol. I, pp. 22.

(2) E.M.A., I, pp. 99.

عندما تعرض لتغيير لقبلة مثلا [1] ، ثم انه كثيرا ما يستشهد بالاحاديث النبوية ، وبخاصة اذا كان منها نفع له ويساعده على اثبات نظرياته وآرائه .

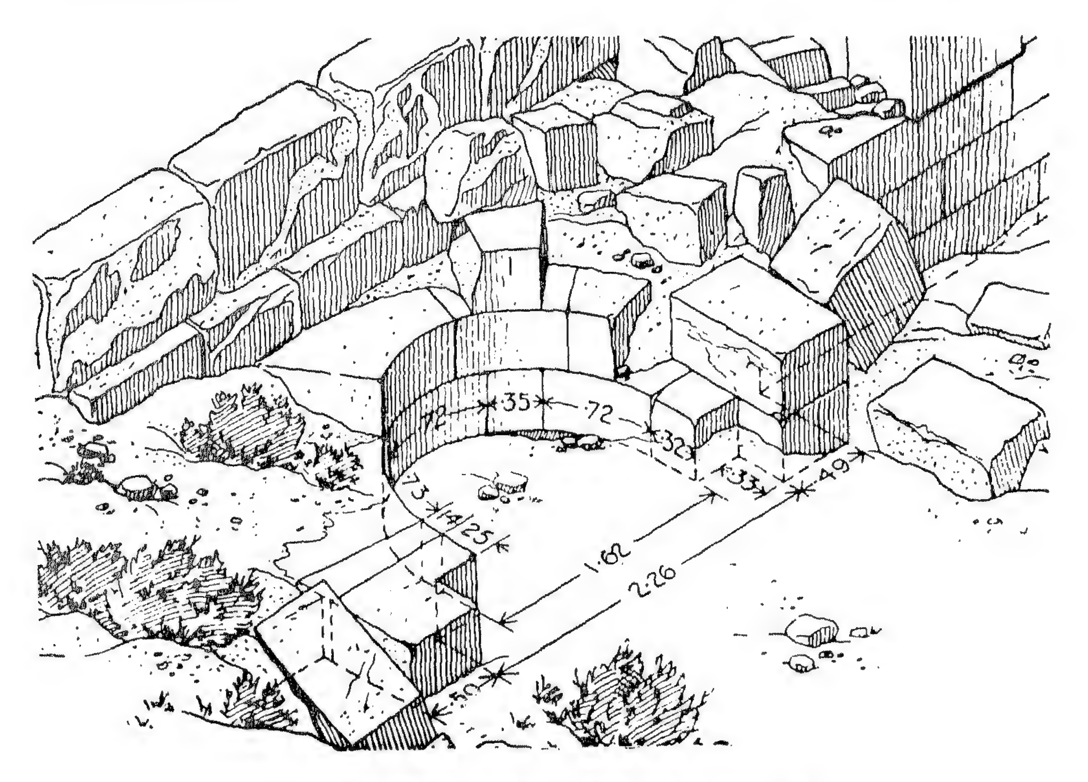
فقد جاء ذكر كلمة المحراب فى آيتين واضحتى المعنى والدلالة . الأولى فى سورة «مريم» وتمهد لها آيات تسبقها ، اذ يقول الله تعالى « كهيعص (١) ، ذكر »
« رحمت ربك عبده زكريا (٢) ، اذ نادى ربه نداءً خفيا (٣) ، قال رب انى وهن »
« العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا (٤) ، وانى خفت »
« الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا (٥) ، يرثنى ويرث »
« من آل يعقوب واجعله رب رضياً (٦) ، يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى »
« لم نجعل له من قبل سميا (٧) ، قال رب أنّى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً »
« وقد بلغت من الكبر عتيا (٨) ، قال كذلك قال ربك هو علىّ هين وقد خلقتك من قبل »
« ولم تك شيئا (٩) ، قال رب اجعل لى آية قال آيتك الا تكلم الناس ثلاث ليال »
« سويا (١٠) ، فخرج على قومه من المحراب فاوحى اليهم أن سبحوا بكرة »
« وعشيا (١١) » .

ويتضح من تلك الآيات معنى المحراب ودلالته ، فقد كان زكريا يناجى ربه وهو فى المحراب الذى خرج منه الى قومه ويدعوهم الى الايمان ، أى كان فى مكان مقدس معد للتعبد والاتصال بالله ، ولم يكن زكريا ملكا او أميرا ، أو كان جالسا فى حنية لعرش يعتليه وهو يناجى ربه ويبتهل اليه أن يهبه وليا .

ونجد فى آيات أخرى معنى صريح جليا ، اذ يقول تعالى فى سورة آل عمران « اذ قالت امرأة عمران رب انى نذرت لك ما فى بطنى محرّرا فتقبل منى »
« انك أنت السميع العليم (٣٥) ، فلما وضعتها قالت رب انى وضعتها انثى والله »
« أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وانى سميتها مريم وانى أعيذها بك »
« وذريتها من الشيطان الرجيم (٣٦) ، فتقبلها ربها بقبول حسن وانبتها نباتا حسنا »
« وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم »
« أنّى لك هذا قالت هو من عند الله يرزق من يشاء بغير حساب (٣٧) ، هنالك دعا »
« زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء (٣٨) فنادته »
« الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله »
« وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين (٣٩) » .

ولا نظن نلدكه وروكانس وكريسول كانوا على غير علم بتلك الآيات ، فهناك

(1) E.M.A., I, pp. 8-9



ش : ٤٠٤ ــ قصر المشتى ، المحراب المجوف (منظور)



ش : ٤٠٥ ــ قصر المشتى ، المحراب المجوف (صورة)

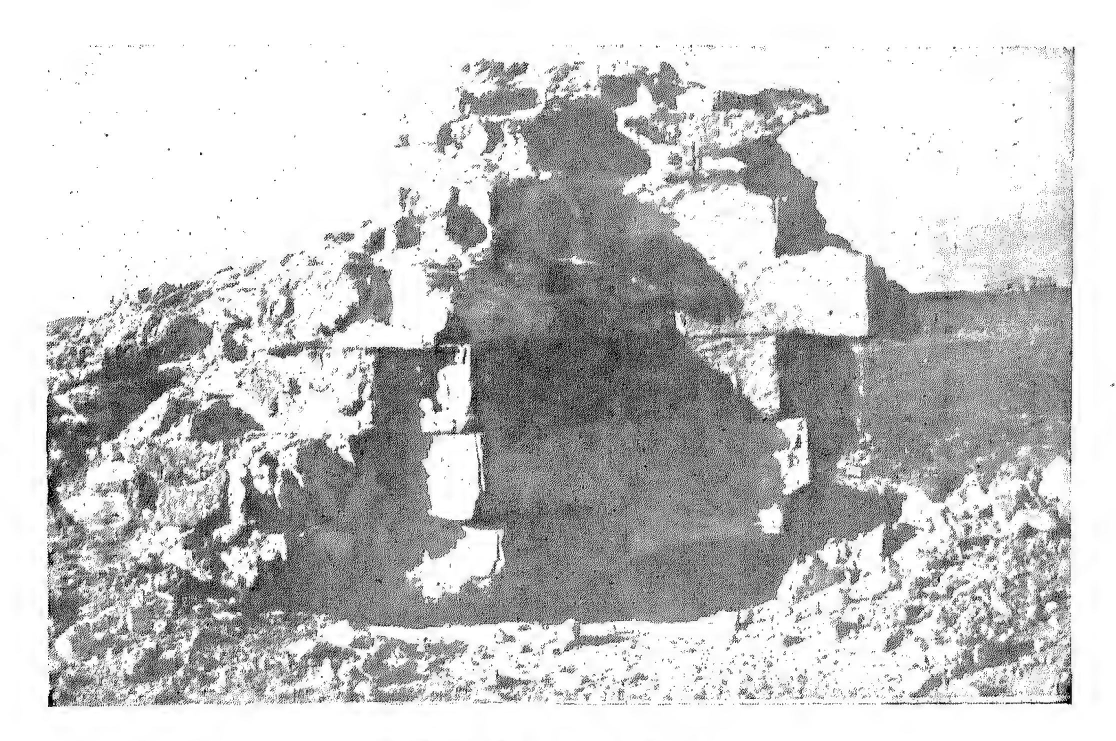
أكثر من ترجمة للقرآن باللغات الأوربية المختلفة . ولو ألقوا بالا الى تلك الآيات لما وقعوا فى خطأ الاقتصار على الشعر والنثر . فان للقرآن قيم عظيمة فى عدة نواح من أهمها الناحية اللغوية . ولا يدعو الأمر أمام وضـــوح معنى المحـراب فى تلك الآيات أن يستعان بالقواميس وغيرها فى البحث عن أصلها وعن معناها . فقد أطلقت كلمة «المحراب» فى تلك الآيات على حجرة أو صومعة يؤدى فيها المتعبد شعائر الصلاة ومناجاة الله والتقرب اليه . من ثم فقد اقتبست بالنسبة للمســاجد كعـلامة تعين اتجاه أقدس مكان عند المسلمين يتجهون اليه فى صلاتهم ، وسواء كانت هذه العـلامة على هيئة رسم مسطح أو غائر أو بارز ، فهو مجرد رمز يعين اتجاه بيت الله الحرام وهو الكعبة .

***

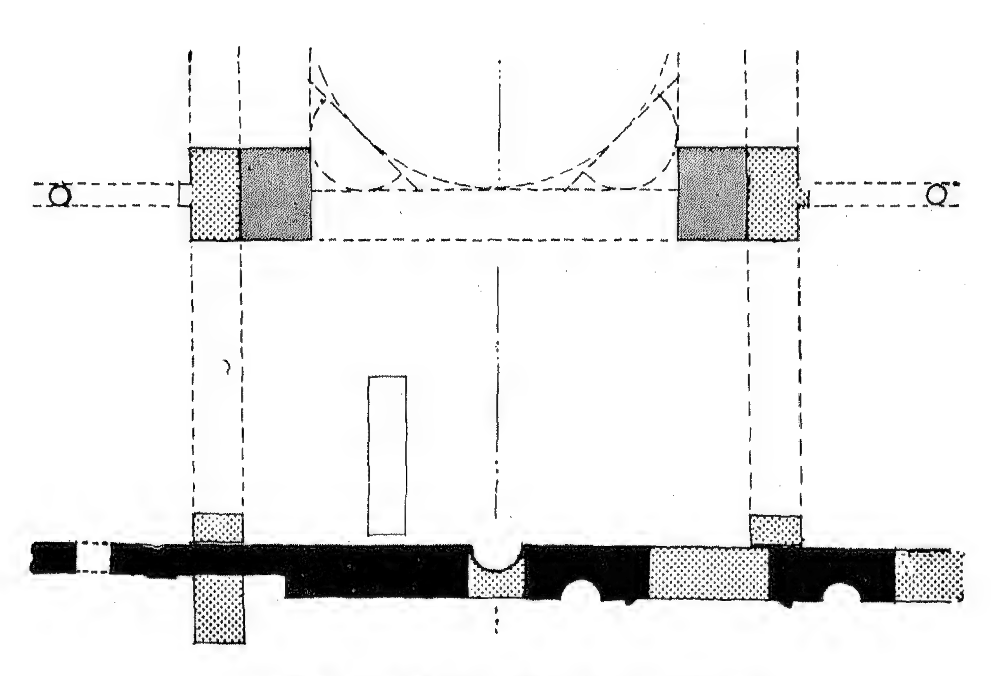
ونخلص من كل ما سبق أنه كان فى أيام الرسول الكريم محراب بمسجده فى المدينة وفى مسجده بقباء وذلك منذ السنة الثانية من الهجرة على الأقل والتى نزلت فيها الآية الكريمة بالأمر باتخاذ الكعبة قبلة للصلاة ، وأغلب ظننا أنها كانت على هيئة علامة فى جدار القبلة تتميز بالبساطة ، وأن هذه الهيئة المبسطة قد انتقلت الى طور أو أطوار جديدة فى العراق والشام ومصر وأقطار شمال افريقية عندما زاد التأنق فى أساليب بناء المساجد فى المـــدن والأمصار الاسلامية منـــذ منتصف القرن الأول الهجرى ، وحدث ذلك فى الكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان وغيرها . ولسـنا نجد حجة يمكن أن تنفى وجود المحاريب المجوفة على أى شكل من الأشكال منـذ ذلك الوقت المبكر . واننا نرجح أن يكون أقدم محراب مجوف على هيئة حنية ذات مسقط نصف دائرى لا يزال قائما الى الآن هو الموجود فى الضلع الجنوبى من المثمن الخارجى لقبة الصخرة فى القدس ، ويليه فى التاريخ المحراب الأوســط فى الجامع الأموى بدمشق ، والذى ملئت به احدى فتحات الباب الرئيسى فى الجدار الجنوبى للمعبد الرومانى القديم (ش : ٤٠٧) [1] .

كذلك لا يجب أن يغيب عن الأذهان أن الحنايا المجوفة لهياكل الكنائس لم تكن ابتكارا قبطيا أو مسيحيا أو بيزنطيا بل هى عناصر وثنية أسرف الرومان فى عملها فى عمائرهم من معابد وحمامات ومساكن الى غير ذلك (ش : ٣٢ ، ٣٣ الخ ..) . ولا زالت توجد أمثلة كثيرة لها فى العمائر الرومانية الوثنية فى الشام . ولم يكن الأقباط ينفردون وحدهم دون جميع الناس بمعرفة هذا النوع من الحنايا بحيث لا يمكن

(1) E.M.A., I, Figs. 57, 60



ش : ٤٠٦ ــ قصر الطوبة ، المحراب المجوف



ش : ٤٠٧ ــ دمشق ، المحراب المجوف في الجامع الاموى

لغيرهم أن يقوم بعمل المحراب المجوف فى مسجد الرسول بالمدينـــة أيام الوليد بن عبد الملك وفى ولاية عمر بن عبد العزيز سنة ٨٨هـ (٧٠٧م) ● ويثبت خطأ نسبة ذلك النموذج من المحراب المجوف الى الأقباط أن محاريب جميع المساجد الصغيرة والمساجد الجامعة فى الشام ومصر وغرب العالم الاسلامى كله قد تبعت ذلك النموذج الذى رأيناه فى قبة الصخرة والمسجد الأموى بدمشق ، ونرى أمثلة فى جامع قصير الحلابات ومسجد خان الزبيب ومسجد أم الوليد وتؤرخ فيما بين سـنة ٧٢٥ ، ٨٣٠ م [١] ، ومحراب المسجد الصـغير فى كل من قصر المشتى (ش : ١٧٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ [٢] وقصر الطوبة (ش : ١٧٤ ، ٤٠٦) [٣] ،ويرجح وجـوده فى مسـجد قصر الحـير الشرقى [٤] ، ومحراب مسجد حران [٥] ، وتنسب كلها الى العصر الأموى ● ثم نجده بعد ذلك فى العصر العباسى فى تلك البقاع ●

ومن حيث أقدم أمثلة المحاريب المجوفة الباقية فى مصر فان أول مايتبادر الى الذهن أن المحاريب الثلاثة التى توجد فى جدار القبلة فى جامع عمرو بن العـاص يمكن نسبتها الى سنة ٢١٢هـ (٨٢٧م) أى الى عصر عبد الله بن طاهر (ش : ٣٠٦) ● غير أننا لا نملك دليلا حاسما يؤكد هذا الظن ● ذلك بسبب ما تعاقب على هذا الجدار وعلى غيره من الجدران من أعمال ترميم وتدعيم فى عصور مختلفة ●

أما المحراب المجوف فى جامع ابن طولون (ش : ٢٩٨) فهو أقدم مثل فى مصر مؤكد التاريخ ، وذلك من ناحية جداره المجوف وعقد واجهته وما حولها من زخارف جصية ● فكلها تعود الى عصر أحمد ابن طولون ، ما عدا كسوة طاقيته التى من الخشب والتى زخرفت بالألوان فهى من أعمال السـلطان لاجين وكذلك الشريط المزخرف بالفسيفساء والكسوة من الحشوات والأشرطة الرخاميـة التى تغطى سـطح تجويفـه المحراب ●

ولا تزال بقايا المحراب فى مشـهد طباطبا ظاهرة فوق سـطح الأرض توضح مسقطه الأفقى ، وهو على شكل تجويف نصف دائرى (ش : ٣٢٧ ـ ٣٢٩) ●

وبقى من المحاريب المجوفة من النموذج نصف الدائرى فى الغرب الاسـلامى عدة أمثلة تؤرخ فى العصر العباسى ● منها : محراب الجامع فى الطابق العلوى فى

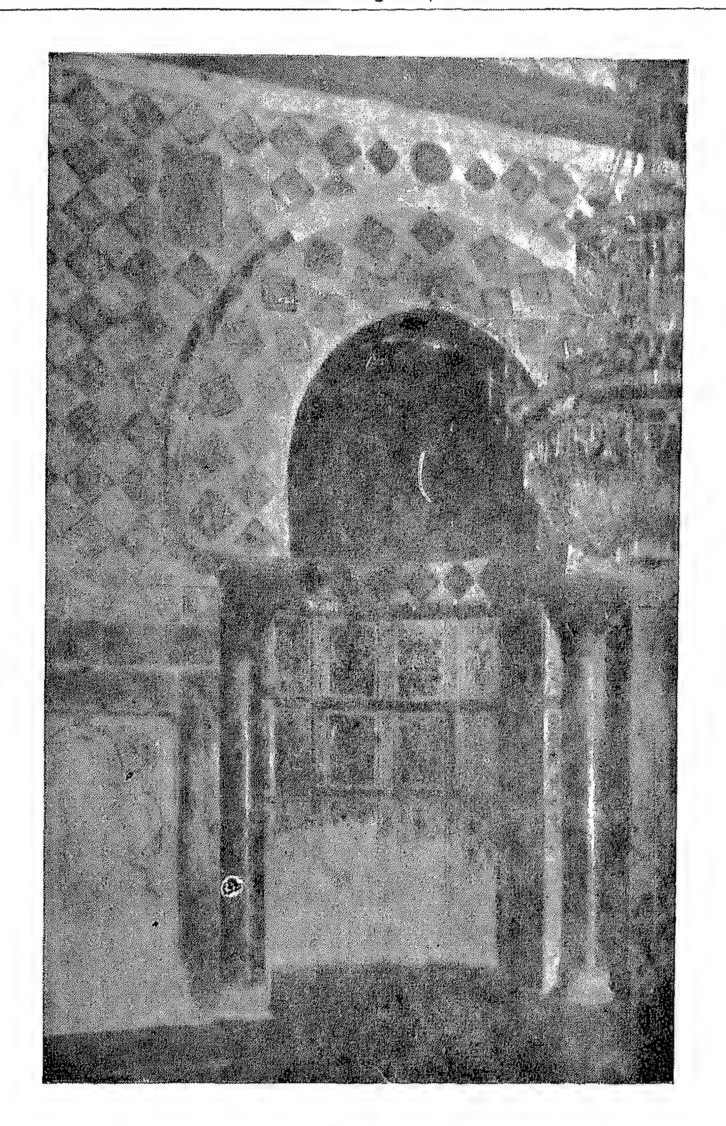
(١) E.M.A., I, pp. 284-88, Figs. 331, 333, 337.

(٢) Ibid., I, p. 355, Figs., 430, 436, 438 ; II, Pl. 120 b.

(٣) Ibid., I, Fiig. 461 ; II, Pl. 120 c.

(٤) Ibid., I, pp. 337-39, Fig. 411.

(٥) Ibid., I, pp. 406-409, Fig. 490.



ش : ٤٠٨ ـ القيروان ، محراب المسجد الجامع

رباط سوسة الذى يؤرخ فى سـنة ٢٠٦ هـ (٨٢١م) [١] ، ومحـراب جامع القيروان (ش : ٤٠٨) ويؤرخ اما فى سنة ٢٢١ هـ (٨٣٦م) أو فى سنة ٢٤٨هـ (٨٦٢م) [٢] ، ومحراب بوفتاتا ويؤرخ بين سنتى ٢٢٣ ، ٢٢٦ هـ (٨٣٨ ، ٨٤١ م) [٣] ، ومحراب جامع الزيتونة فى تونس ويؤرخ فى سنة ٢٥٠ هـ (٨٦٤م) [٤] .

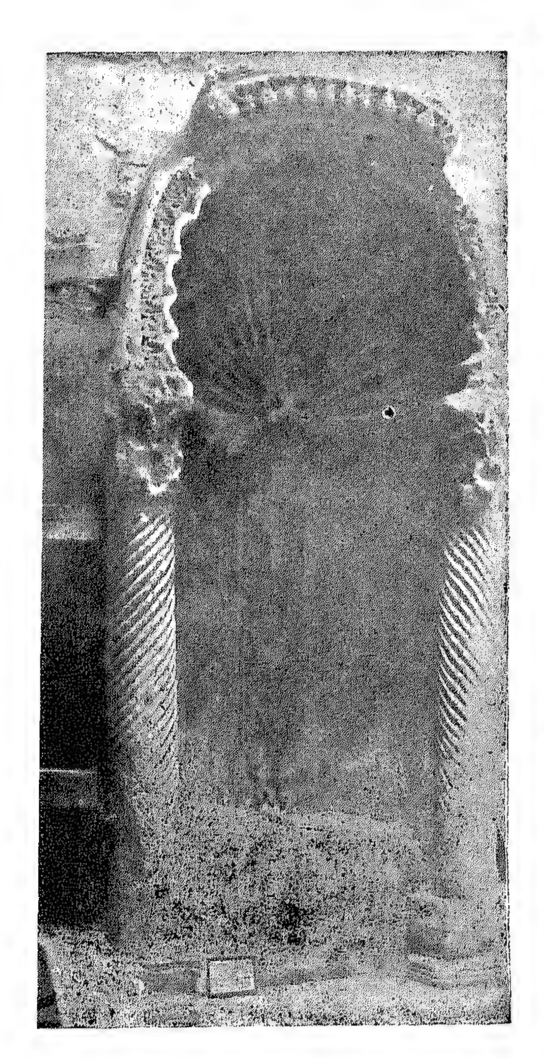
أما فى شرق العالم الاسلامى ، أى فى العراق وفارس ، فان معظم المحاريب قد

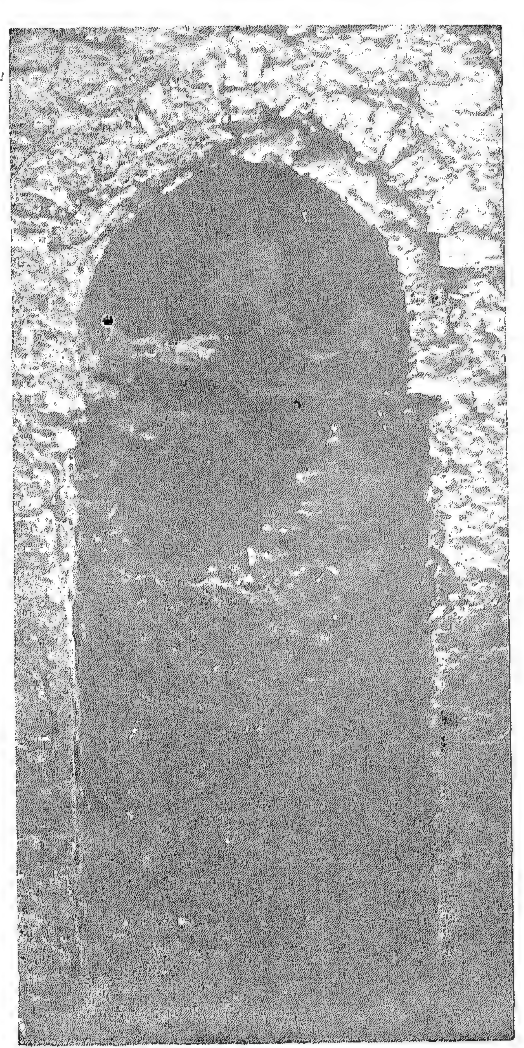
(١) E.M.A., II, pp. 168-170, Fig. 156, Pl. 120 f.

(٢) Ibid., II., p. 308, Figs. 175, 180, 235, Pls. 83 a, 87 b-c, 88 a-b, 121 b.

(٣) Ibid., II., pp. 246-248, Figs. 195-196, Pl. 121 a.

(٤) Ibid., II, pp. 321-325, Fig. 243.





ش : ٤٠٩ ــ محراب مسجد قصر الاخيضر ش : ٤١٠ ــ محراب جامع المنصور فى بغداد القديمة

تبعت نموذجا مجوفا آخر ذا مسقط من أضلاع متعامدة ، أى أنه تجويف قائم الزوايا، وذلك طوال العصر العباسى الأول • ومن أمثلة ذلك النموذج محراب مسجد قصر الأخيضر (ش : ٤٠٩) [١] ، ومحراب أقدم مسجد باق على أرض فارس ويعرف باسم « تاريك خانة » ، وينسب الى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) [٢] ، وكذلك محراب جامع سامرا الكبير (ش : ١٦٣) ومحراب جامع أبى دلف (ش : ١٦٩) ، ومحراب المسجد الملحق بقصر الجوســـــق الخـاقانى فى

(١) E.M.A., II, Fig. 64, Pl. 120 e.

(٢) Ibid., II, pp. 98-100, Fig. 81.

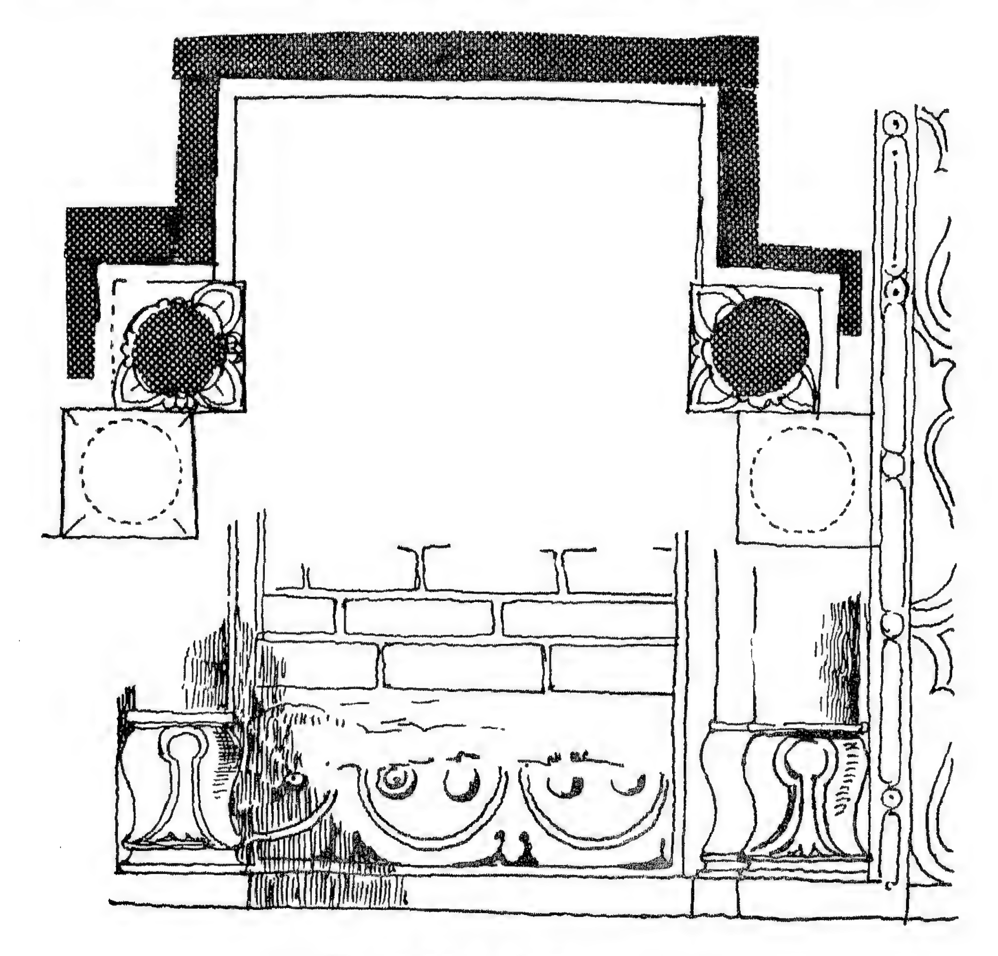


ش : ٤١١ ـ محراب فى الجوسق الخاقانى

سامرا (ش : ٤١٢)[1] . ومحـراب عثر عليـه فى سـامرا منذ عهـد ليس بالبعيد (ش : ٤١١)[2] .

ومما يكن من أمر ، فمن حيث فكرة عمل المحراب المجوف فى المساجد ، سواء كان مسقطه متعامد الجوانب ، كما كان فى مساجد العراق ، أو كان نصف دائرى أو منحنيا كما فى سائر مساجد العالم الاسلامى ، فان حجم حنيته كان صغيرا لا يسمح بوقوف أكثر من شخص واحد هو الخليفة أو الوالى أو من يُعين من قبلهم لامامة المسلمين فى الصلاة ، ولم يكن من الضرورى أن يقف داخل تجويف المحراب . وكل ذلك يعزز استبعاد أن يكون مصدر المحراب المجوف المنحنى هو هياكل الكنائس أو شرقياتها ، فهى دائما على هيئة حنيات كثيرة تتسع الواحدة منها للمذبح وللرهبان

(1) E.M.A., II, p. 238, Fig. 191, Pl. 57 b.



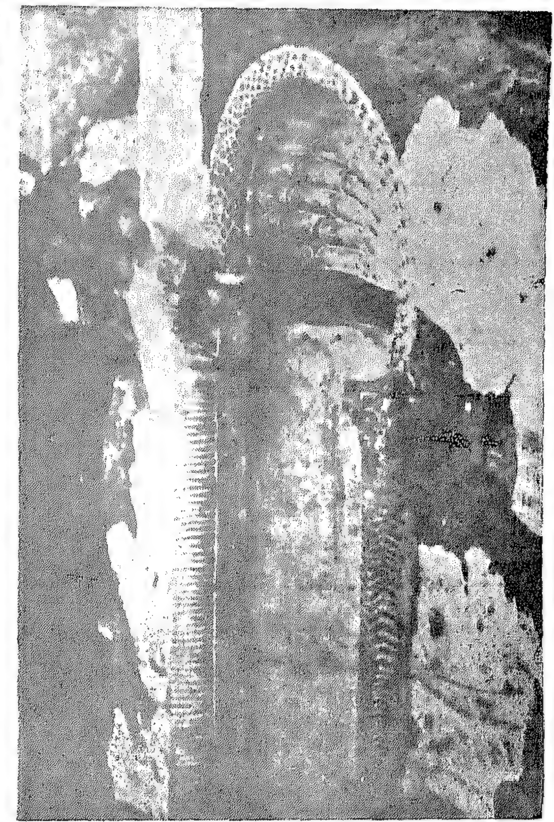
٤١٢ ـ سامرا ، محراب فى الجوسق الخاقانى

والقسيسين ومساعديهم الذين يقومون بأداء مراسيم الصلاة حول المذبح وداخل الحنية • فليس الغرض اذن من المحراب أن يؤدى فى المسجد وظيفة كالتى يؤديها الهيكل فى الكنيسة ، فلا معنى لكراهيته اذن •

ولذا فيغلب على ظننا أن مصدر اقتباس المحراب المجوف هو الحنيات الرومانية الصغيرة التى كانت بمثابة زخارف جدارية (ش : ٣٢ ، ٣٣ الخ •••) ، واستخدمها المسيحيون فى عمائرهم وكنائسهم لنفس الغرض الزخرفى ، أما الحنيات الكبيرة فقد اقتبسوها لشكل الهيكل • وتوجد حنيتان صغيرتان من النوع الزخرفى (: ٤١٣ ، ٤١٤) [1] بقيتا من دير الأب هرميا فى سقارة ، والذى ينسب الى القرن السادس الميلادى على غير أساس تاريخى أو معمارى أو زخرفى • ذلك أن تفاصيل الحنيتين وزخارفهما تسمح بامتداد تأريخهما الى القرن الثامن أو حتى التاسع الميلادى ، أى

(1) E.M.A., I, p. 99, Figs. 54, 55.



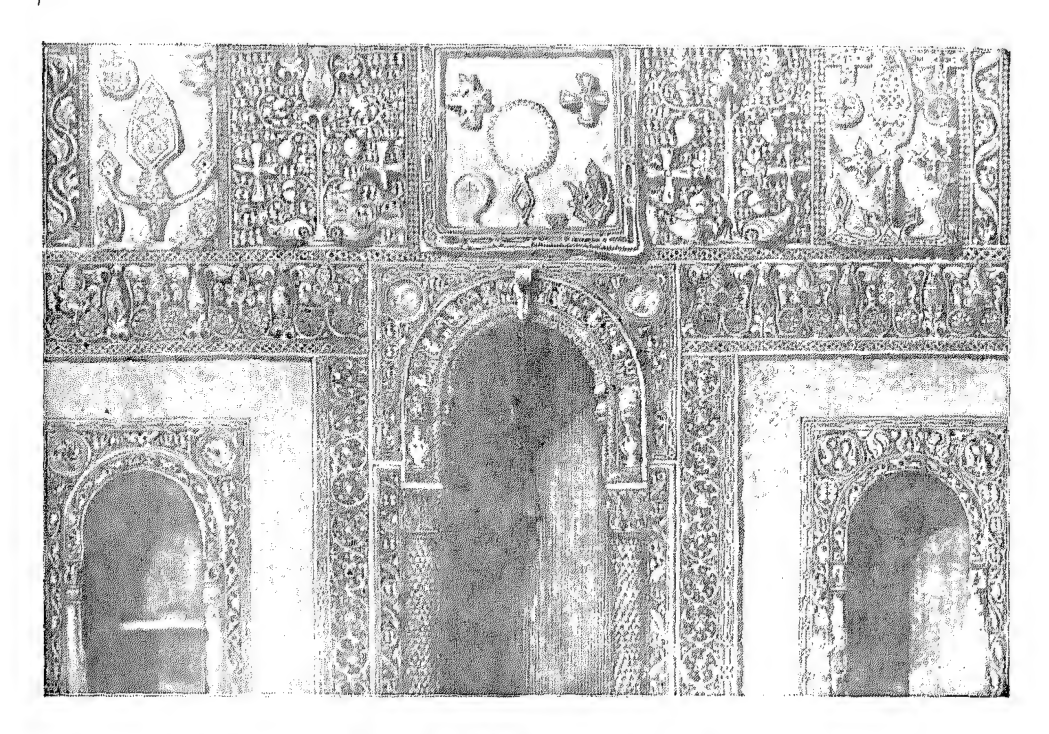


ش : ٤١٣ ، ٤١٤ — سقارة ، حنيتان فى دير الاب هرميا

يمكن نسبتهما الى العصر الأموى وحتى أوائل العباسى قبل أن يأتى أحمد بن طولون الى مصر ، وما صحب ذلك من ظهور أساليب سامرا الزخرفية الجديدة .

ويساعدنا على الميل الى ذلك الظن أنه قد عثر فى جامع الخاصكى ببغداد على محراب من قطعة واحدة من الرخام وبه مميزات معمارية وزخرفية تشبه الى حد كبير ما يوجد فى الحنيتين السابقتين ، مع أنه يقال عن ذلك المحراب الذى عثر عليه فى جامع الخاصكى (ش ٤١٠) (١) أنه كان فى الأصل قد عمل لجامع المنصور الذى بناه ملاصقا لقصره فى وسط مدينة بغداد المدورة . وهو ظن لا يزال فى حاجة الى أدلة أكثر قوة مما ذكرت لكى تجعل من الظن ترجيحا . كذلك لا يستبعد أن يكون المحراب قد صنع بالشام ونقل الى بغداد ، وذلك لأن نوع الرخام الذى عمل منه لا يوجد ما يشبهه فى أرض العراق ، ولأن زخارفه تمت بصلة كبيرة للزخارف الهلينستية الأموية التى كانت سائدة فى منطقة الشام .

(١) E.M.A., II, pp. 35-38, Fig. 26, Pls. I a-e, 120 d.

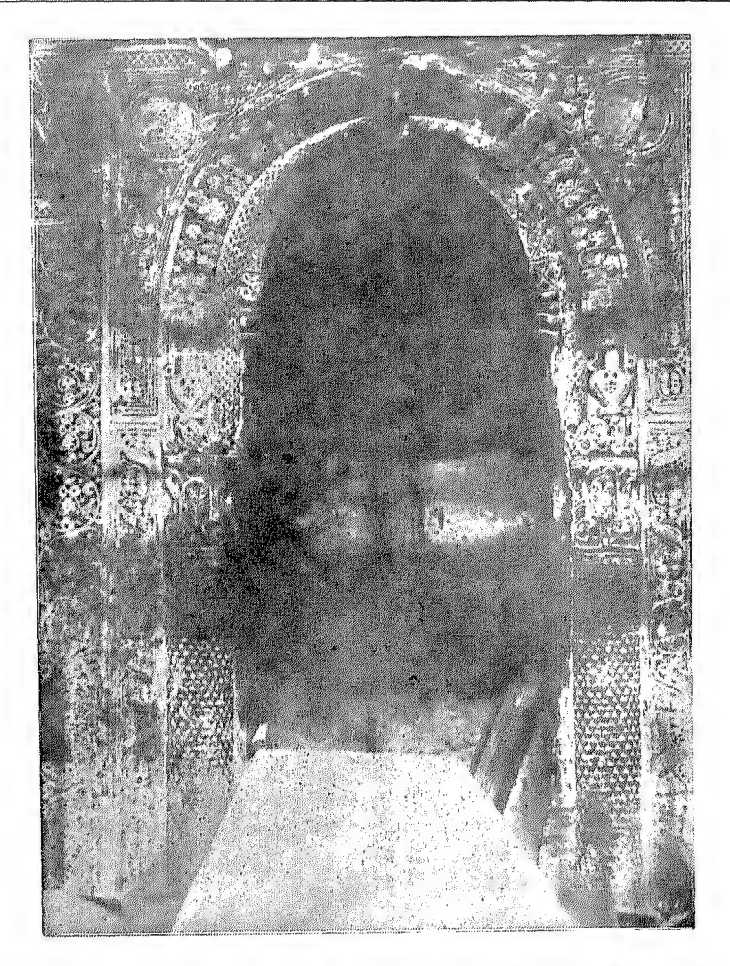


ش : ٤١٥ ـ وادى النطرون ، محراب مجوف فى كنيسة العذراء بدير السريان

ومما هو جدير بالذكر أن جدران كنيسة العذراء بدير السريان بوادى النطرون قد زخرفت بحنيات مجوفة على نظام المحاريب الاسلامية • غير أن معظمها قد أصابه تشويه أضاع كثيرا من جمالها ورشاقتها • ويتميز الجدار الشرقى بوجه خاص بوجود محراب كبير فى وسطه تكتنفه من الجانبين حنيتان صغيرتان (ش : ٤١٥ ، ٤١٦) [١] • وعلى الرغم من أن ذلك المحراب الأوسط هو أكبر الحنيات فى جدران هذه الكنيسة الصغيرة فانه لا يمكن أن يدخل فى عداد الهياكل المسيحية ، بل انه فى حجمه وتكوينه وزخرفته ما هو الا محراب من محاريب المساجد ، ولا نعتقد أن يكون من قام بعمله هو والحنيات الأخرى فى بقية الجدران وما يعلوها ويحيط بها من زخارف جصية ذات الطابع السامرى فنانا غير مسلم كما ذكرنا من قبل •

***

(١) Monneret de Villard : Les Eglises du Monastère des Syriens au Wadi en-Natrun, Figs. 1, 4, 5, 18, 19.

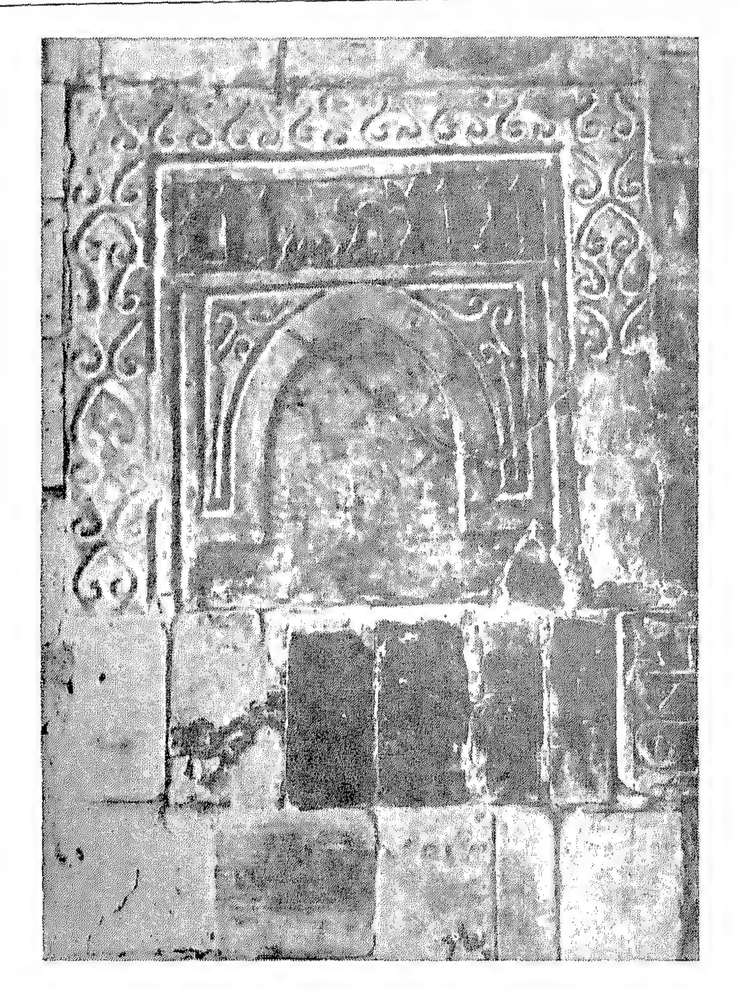


ش : ٤١٦ ـ وادى النطرون ، تفصيل محراب بكنيسة العذراء بدير السريان

ويصحب عمل المحاريب فى المساجد انتشار ظاهرة معمارية جديدة منذ العصر الاسلامى المبكر ، وهى عمل زاوية غائرة فى نواصى المحاريب لوضع عمود فيها • وهى تعد من أهم المبتكرات والظواهر التى تتصل بالمحاريب الاسلامية ويمكن أن نسميها بالنواصى المخلقة • ويوجد أقدم مثل منها فى محراب قبة الصخرة فى الجدار الجنوبى الذى أشرنا اليه من قبل (ش : ٨) • ويليه محراب المسجد الأموى بدمشق (ش : ٤٠٧) ، ومن بعده محراب قصر المشتى (ش : ٤٠٤ ، ٤٠٥) •

ويبدو أن محاريب جامع عمرو بن العاص الثلاثة التى كانت فى جدار القبلة كان لكل منها عمودان ، وذلك تبعا لأقوال ابن دقماق [١] ، ذلك أنه أضاف الى عدد أساطين المسجد ستة أعمدة لتلك المحاريب الثلاثة •

(١) ابن دقماق : الانتصار ـ ج ٤/ص : ٦٠



ش : ٤١٧ ــ دمشق ، محراب مسطح فى الجامع الأموى

ومن الأمثلة الباقية لهذه الظاهرة من العصر العباسى فى الغرب الاسلامى أعمدة النواصى فى محراب المسجد فى الطريق العلوى من رباط سوسة وفى محراب جامع يوفتاتا فى سوسة وفى محراب جامع القيروان (ش : ٤٠٨) ، وفى محراب جامع الزيتونة فى تونس ، وهى المحاريب التى أشرنا اليها من قبل .

ومما يستوقف النظر أن هذه الظاهرة قد انتقلت الى مرحلة ناضجة فى سامرا مثل غيرها من الظواهر المعمارية . ذلك أن المحراب قد أصبح تحفّ به من جهتيه عدة نواص مخلّقة منها عمود مثل محراب جامع سامرا الكبير (ش : ١٦٣) ، ومحراب جامع أبى دلف (ش : ١٦٩) ، ومحراب المسجد الملحق بقصر الجوسق الخاقانى (ش : ٤١٢) .

***

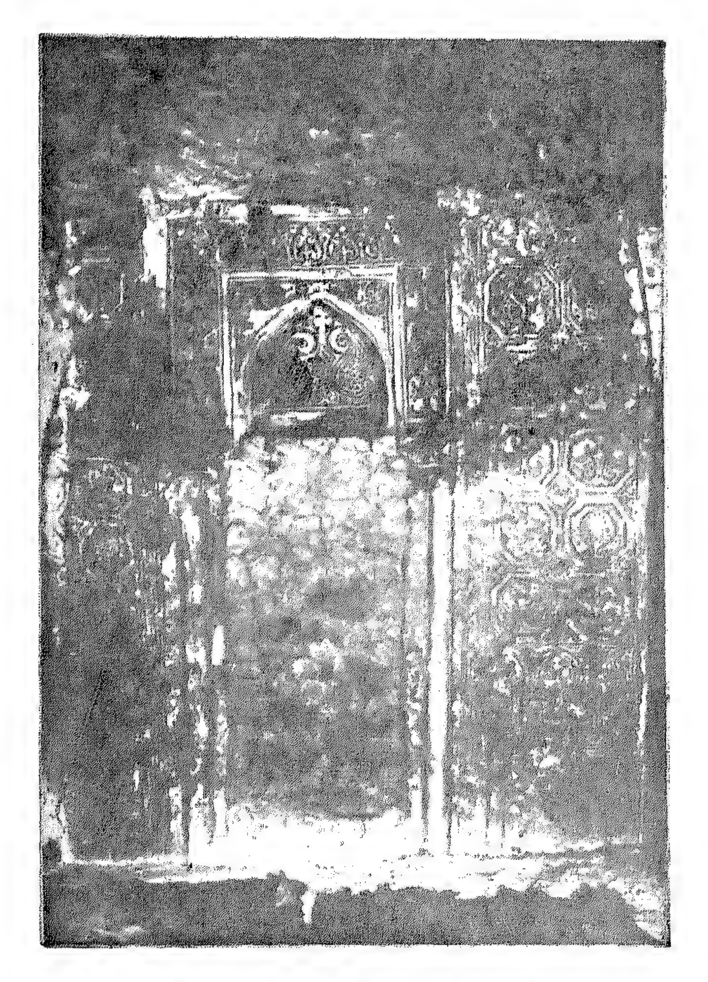


ش : ٤١٨ ـ العسكر ، محراب مسطح فى البيت الطولونى الاول

هذا ونضيف الى نموذجى المحراب المجوف السابقين نموذجا ثالثا هو المحراب المسطح الذى رأينا منه المثل الموجود فى الكهف تحت الصخرة فى القدس والذى كان يظن أنه يعود الى التاريخ الذى شيدت فيه قبة الصخرة ، وقلنا انه فى رأينا يرجع الى عصر المأمون الخليفة العباسى (أعلاه صفحة ٦٠٦) . وهو على كل حال يعد فى رأينا أقدم مثل باق لهذا النموذج المسطح من المحاريب (ش : ٤٠٣) .

ويوجد منه عدة أمثلة تنسب الى العصر العباسى الأول فى العراق : منها محراب « مكان عبد العزيز » فى « الغَرّاء » فى منطقة جبل سنجار (ش : ٤١٩) [1] . ويوجد مثل آخر لعل المقصود به أن يكون حشوة زخرفية من الجص تكسو جدار منزل من بيوت سامرا ، عملت على هيئة محراب يكتنفه عمودان مسطحان (ش :

(1) Ibid., II, Pl. 74 c.



٤١٩ ـ القراء : المحراب فى مكان عبد العزيز

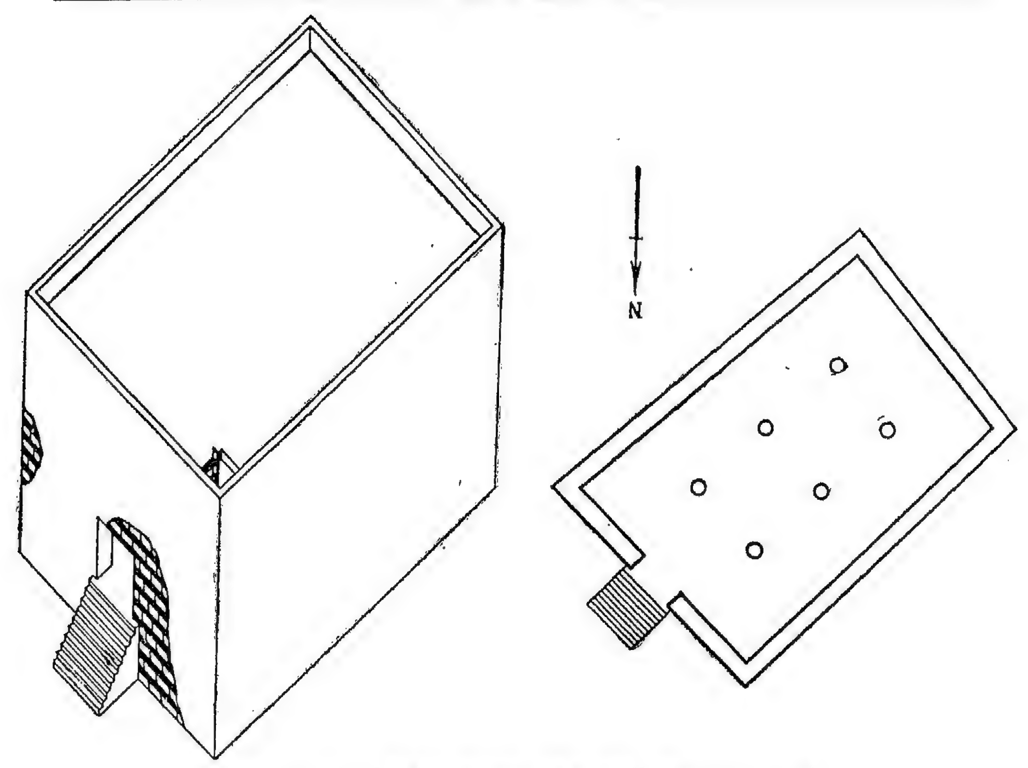
٢٥٠) [١] . كما يوجد مثل آخر من هذا القبيـل فى البيت الطولونى الذى اكتشف فى العسكر (ش : ٤١٨) . بل اقتبس لبعض شـواهد القبـور فى مصر [٢] . كما ينسب الى ابن طولون المحراب المسطح الذى يزين الوجه الشمالى لبدنة من بدنات الظلة الغربية لجامع دمشق (ش : ٤١٧) [٣] .

وانتشر عمل المحاريب المسطحة من الجص فى جامع ابن طولون ، اذ يوجد منها نحو خمسة محاريب منها ثلاثة تنسب الى العصر الفاطمى ، واثنان ينسبان الى العصر المملوكى (أعلاه ص : ٤٩٤) . وكان يظن أن بعض تلك المحاريب تعود الى

(١) E.M.A., II, Pl. 123 d.

(٢) Stèles funéraires, II, Pl. XXVI (No. 2953).

(٣) E.M.A., II, p. 356, Pl. 123 c.



ش : ٤٢٠ ـ مكة المكرمة منظور ومسقط الكعبة فى شباب الرسول

وقت بناء جامع ابن طولون ، ورجحنا نسبتها الى العصر الفاطمى المبكر • وبقيت لهذا النموذج فى مصر أمثلة كثيرة أغلبها من العصر الفاطمى •

ومهما يكن من أمر فإننا سنظل نكرر القول بأن اقتباس أو ادخال عناصر وتفاصيل معمارية أو زخرفية فى العمارة والفنون العربية الاسلامية لا يضير العرب والمسلمين لأنها لا تعدو أن تكون قشورا سطحية لا تنال من جوهر التخطيطات والتصميمات التى فرضها الدين الاسلامى منذ اللحظات الأولى من وجوده •

***

المنبر :

أما مناقشة أصل المنبر وتطويره فى فجر الاسلام وفى الفترات المبكرة منه فقد تجاوزت الحدود من ناحية التناقض والاهتزاز والتفكك فى منهج البحث •

يتضح ذلك كله فى فقرات تتضمن خلاصة لما قيل عن أصله وفى بحث آخر يتصل اتصالا يبدو غير مباشر وهو فى الحقيقة مرتبط به بأكثر من رباط ، مما يجعلنا نتناوله بالحديث كتمهيد لمناقشة أصل المنبر •

يدور هذا البحث الآخر حول بناء الكعبة فى سنة ٦٠٨ من الميلاد على أيدى عرب الجاهلية فى شباب الرسول عندما كان عمره نحو خمسة وثلاثين عاما ، أى قبل

هجرته الى المدينة بنحو أربعة عشر عاما • واشترك عليه السلام بنفسه فى وضع الحجر الأسود فى مكانه من جدار الكعبة [1] •

ويتضمن البحث تصـــوير شكل الكعبة بعد أن كمل بناؤها فى ذلك الوقت (ش : ٤٢٠) [2] وجاء الاعتمـاد كله فى ذلك على وصف المؤرخ الأزرقى الذى توفى فى سـنة ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) [3] وعلى غـيره من المؤرخين الذين تناقلوا قصـة بنائها من واحد الى آخر ، أو أستقوها من أقوال الرواة •

تروى تلك الأقوال أسطورة جنوح سفينة رومية على سـاحل البحر عند ميناء الشعيبية ، وكانت ميناء لمدينة مكة فى ذلك الزمن قبل وجود جدة • وكانت السفينة محملة بالخشب ، فاشـتراه عرب قريش ليبنوا به الكعبة ، وعهدوا بالبنـاء الى نجار يدعى « باقوم » ، قال عنه الازرقى انه كان روميا ، وانه بنى الكعبة بمدماك من الحجر ومدماك من الخشب [4] • ولكن الاستاذ كريسـول بذل جهـدا كبيرا فى اثبـات أن أسلوب البناء هذا حبشى صميم ، وأن النجار كان أيضا حبشيا وليس روميا •

ومما يضعف من قيمة ذلك البحث ما اشتمل عليه من تشكك فى صحة وصف المؤرخ الأزرقى للنجار «باقوم» بأنه كان روميا مما دعا الى الاستعانة بعلماء اللغـة الحبشية من المستشرقين لاثبات أنه كان حبشيا بناء على اسمه ، وهو منطق ضعيف ، فلعل الاسم كان موروثا أو مشابها لاسم حبشى وسمى به أحد سكان الحجاز • أضف الى ذلك أنه لم تتطرق ذرة من الشك الى بقية قصة الأزرقى التى تتصل بأسلوب بناء الكعبة ، بل أخذت قضية مسلما بها لا تحتمل الشك أو المناقشة • وليس من الانصاف أن يتشكك الباحث فى قسم من رواية اذا ما أضعف رأيا له ويؤمن بصدق بقيتهـا اذا ما اتفقت مع الغرض الذى يهدف اليه ويعززه • ومن الواضح أن الغرض من ذلك هو تأكيد وجود الفراغ المعمارى فى بلاد الحجاز زمن الجاهلية وفى فجر الاسلام (أعلاه صفحات ٣٩ ــ ٤٤) • وحتى لو فرضنا صحة تلك الرواية فان ذلك لا ينهض دليلا على أن سائر عمائر مكة وبلاد الحجاز الأخرى كانت تشيد كلها أو بعضها تبعا لتقاليد وأساليب معمارية أجنبية عن تلك البلاد • كذلك لم يكن أهل مكة فى حاجة

---

(1) Creswell : The Ka'ba in A.D. 608, (In Archaeologia, vol. XCIV (1951), pp. 97-102, with 3 figures and 1 plate.

(2) Ibid., Fig. 1.

(3) الأزرقى (ابو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقى) : اخبار مكة وما جاء فيها من الآثار (جزءان) ــ تحقيق : رشدى الصالح ملحس ، طبعة المطبعة الماجدية سنة ١٣٥٢ هـ /١٩٣٣م ــ ج ١/ص : ٩٩ ــ ١١١

(4) الأزرقى : ج /ص : ١٠٤

الى انتظار وترقب جنوح مركب محملة بالخشب لكي يشيدوا به أقدس عمارة عندهم. فقد كان في خشب مدينة الطائف ما يكفي لذلك كما ذكرنا من قبل (أعلاه ص : ٥٥)، اذ كانت تلك المدينة عامرة بالمباني ، وجاء ذكر ذلك في نفس الدراسة عن الكعبة ، وأنه كان لها سور يحميها ويحصنها ، وكان بها دار لها برج للدفاع [١] .

كل ذلك لا يجعل من الضروري أن يكون أسلوب البناء هذا حبشيا ، بل لعله كان معروفا في تلك البلاد من قبل ، أو كان معروفا في اليمن وانتقل الى وسط شبه الجزيرة كما انتقل الى الحبشة مع العلاقات السياسية والتجارية والحربية التي كانت تقوم بين جونب شبه الجزيرة وبين بلاد الحبشة. وليس من الضروري أبدا أن يكون العكس هو الصحيح ، فلعل الحفائر في المواضع الأثرية في اليمن تكشف عن سبقها الى استعمال ذلك الأسلوب قبل الحبشة .

ومهما يكن من أمر فان هناك دليلا آخر على ضعف رواية الأزرقي ، وبالتالي يضعف من خلاصة تلك الدراسة عن الكعبة وعن أصل المنبر . ذلك أن اسم «باقوم» قد جاء ذكره في موضع آخر على أنه هو النجار الذي صنع المنبر الأول في مسجد الرسول بالمدينة ، وأنه كان روميا أو قبطيا ، وجاء ذلك في نبذة تضمنت دراسة لأصل المنبر ، وتسير على نفس المنهج المتناقض المهتز ، ونورد ترجمة حرفية لها فيما يلي [٢] :

« المنبر : يقال أن محمداً كان يلقى خطبه وهو يتكىء على جذع نخلة مثبت »
« بالأرض ، ولكن في السنة السابعة من الهجرة (٦٢٨/٩م) حسب أقوال الطبري [٣] »
« أو في السنة الثامنة أو التاسعة من الهجرة حسب أقوال آخرين ، عمل له منبر »
« من خشب الأثل Teak جيء به من «وادي الغابة» . ويقال انه قد صنعه نجار »
« رومي يدعى (باقوم) أو (باقول) . وكان المنبر كرسيا من ثلاث درجات ، »
« كان محمد يجلس على الدرجة الثالثة (يقصد العليا) ويضع قدميه على الثانية . »
« وكان أبو بكر يجلس على الدرجة الثانية ، وعندما تولى عمر كان يجلس على »
« الدرجة الأولى واضعا قدميه على الأرض » [٤] .

---

(١) E.M.A., I p. 7, n. 10 ; Lammens : Taif à la veille de l'hégire, (Mélanges de l'Université St. Joseph, Beyrouth, VIII, pp. 183-185) ; Kowalski's Remarks in Der Diwan des Kais ibn al-Hatim, pp. XV-XX.

(٢) E.M.A., I, pp. 9-10.

(٣) الطبري : جـ ١/ص : ١٥٩١

(٤) E.M.A., I, p. 9, n. 4.

« والمنبر الذى نقابله الآن لأول مرة فى الاسلام كان موضوع بحث واع »
« قام به بِكَر Becker [1] ونأتى بملخص له فيما يلى : يشير بِكَر الى ان »
« محمداً لم يتخذ منبراً الا عندما أصبح رجلا عظيما يستقبل السفارات بصفة »
« مستمرة من جميع الجهات . وكان أبو بكر خليفته يتلقى فروض الطاعة فى »
« احتفال كامل وهو جالس على منبر . وحذا حذوه الخلفاء من بعده عند حصولهم »
« على البيعة مباشرة . وسار الولاة على نفس المنوال ، فكانوا يرتقون المنبر عند »
« حصولهم على منصب جديد فى أحد الأقطار التى فتحت . وكان يقال عند تعيين »
« أحد الولاة فى منصبه الجديدة . « انه اتخذ مجلسه على المنبر فى مكان كذا .. »
« ولم يكن له أن يمارس سلطته قبل ذلك » [2] . ويقول الفرزدق الشاعر الأموى :
« ومن ورث العودين والخاتم الذى له الملك والأرض الفضاء رحيبها »

« ويخلص بكر من ذلك الى أن المنبر ـ الذى رأينا أنه كان له درجتان فى »
« أول الأمر ـ كانت تنقصه الدلالة الدينية فى الأيام المبكرة من الاسلام ، وكان »
« مجرد موضع يجلس عليه النبى وخلفاؤه فى الاجتماعات والمواسم ، ولذلك فانه »
« كان نوعا من عرش مرتفع يستخدمه رأس الجماعة المؤقت » [3] .

« ويعود المنبر الى أيام الجاهلية ولم يكن فى الأصل سوى الكرسى القديم »
« للوالى العربى Magistrate [4] الذى تحول الى كرسى الحاكم فى الأيام »
« المبكرة من الاسلام ، ويرجع ذلك جزئيا الى تأثير الفكرة الشرقية القديمة »
« للعرش . واستخدمه محمد وخلفاؤه لجميع الأغراض العامة » [5] .

« ومن الواضح أن عمر بن الخطاب لما نهى عمرا عن أن يتخذ منبرا فى »
« الفسطاط كان للمنبر ذلك المعنى القديم الذى يتمثل فى أنه العرش المقدس »
« لخليفة رسول الله » .

ولا نظن أن هناك مثلا لعدم التوفيق فى منطق البحث أكثر من هذا الذى قيل عن المنبر . فبينما يشير كريسول الى بساطة الرسول وبعده عن التعاظم باستناده على

---

(١) السمهودى : الخلاصة /ص: ١٢٠ ، الدياربكر : ج ٢/ص:٧٥ ، اسطر ٢٢ ـ ٣٢ .
Lammens : Fatima et les Filles de Mahomet, pp. 66-67 ; Caetani : Annali, II, pp. 213-14 ; E.M.A., I, p. 9, ft, n. 6.

(٢) Becker : Die Kanzel im Kultus des alten Islam, (In Orientalische Studien Theodor Nöldeke, I, pp. 331-51); Mielck : Zur Geschichte des Kanzel im Islam, (in Der Islam, XIII, pp. 109-112) ; Arnold : The Caliphate, pp. 35-38.

(٣) E.M.A., I, p. 9, ft. n. 7 ; Becker, (Loc. Cit., p. 342 ; Lammens : Ziad ibn Abihi, (In Revista degli Studi Orientali, IV, pp. 31, 33, 36; Horovitz, in Der Islam, XVI, pp. 258-9.

(٤) E.M.A., I, p. 10, ft. n. I ; Becker, loc. cit., p. 337.

(٥) الأغانى : ج ٣/ص:٢ . Schwally, in the Z.D.M.G., LII, p. 147.

جذع شجرة ، اذا به يعد ما كتبه بكر عن المنبر « بحثا واعيا » ، وهو الذى يتضمن أن محمدا قد داخلت العظمة نفسه فاتخذ منبرا ليشعر السفراء بعظمته • كما نسب الى أبى بكر والخلفاء من بعده ميلهم الى الظهور بمظاهر العظمة أيضا • وهى صفة كانت بعيدة كل البعد عن أن يوصف بها الرسول وخلفاؤه والعرب المسلمون بوجه عام قبل تأسيس الدولة الأموية • ومن عجب أن ينسب الى عرب الجاهلية معرفتهم بكراسى العرش ، الأمر الذى يدل على الميل الى العظمة والأبهة وما يتبع ذلك من دراية بمظاهر الترف والتأنق ، وهذا ما لا يتفق مع ما ذهب اليه كريسول من قبل من وجود فراغ معمارى ، ويتبعه بطبيعة الحال فراغ فنى وعدم دراية بالفنون فى تلك المناطق أيام الجاهلية • كذلك لا ندرى كيف نوفق بين القول بوجود العروش عند العرب وبين ما قاله لامنس (ص : ٣٩) من أن أغنى أصحاب الأموال من قريش كانوا يعيشون فى مساكن فقيرة •• وأن العرب لم يكونوا ينطقون بكلمة قصر •

ومن الملاحظات الهامة التى استوقفت نظرنا ولم تسترع انتباه أولئك العلماء الغربيين ما ورد فى الفقرات السابقة من أن منبر الرسول قد صنع من خشب محلى جىء به من « وادى الغابة » ، مما يدل على وجود مناطق بها غابات وأشجار فى قلب منطقة الحجاز ، ويضعف من قصة السفينة الرومية التى كانت محملة بالخشب وجنحت عند الشعيبة ، وكانت أساسا لنظرية بناء الكعبة على أسلوب حبشى ، ويجعل تلك القصة من قبيل الأساطير التى ابتكرتها مخيلة المؤرخين من غير المسلمين ، وأخذها عنهم المؤرخون العرب المسلمون بغير تمعن فى معناها ، أو لعلها دست عليهم •

ومن أهم ما نلاحظه فى دراسة الكعبة أن «باقوم» الرومى الذى صنع المنبر لم يحظ الا باشارة بسيطة فى الهامش وليس فى صلب البحث نفسه ، فقد جاء فى الهامش [1] : « هناك مؤرخون آخرون يؤكدون أن ذلك « الاغريقى » كان هو » « الرجل الذى وضع سقفا فوق الكعبة فى أثناء اعادة بناء قريش لها ، وأن المنبر » « قد صنعه نجار محلى » • وأغفل الأستاذ كريسول ذكر أسماء أولئك المؤرخين ولم يشر الى مراجعتهم التى « أكدت » ذلك ، مع أنه معروف بحرصه الشديد على ذكر المراجع الكثيرة عن الموضوع الواحد الى درجة الاسراف •

ولعله لو عنى بذكر ذلك لاتضح الخلط والتناقض بين روايات المؤرخين عن باقوم صانع المنبر ، وباقوم بانى الكعبة كلها ، وباقوم واضع سقف الكعبة فقط ، ولاتضح الضعف فى رواية الأزرقى عن بناء باقوم للكعبة من أولها الى آخرها ، ولاهتزت النظرية القائلة بأن أسلوب بنائها كان حبشيا وعلى يد حبشى ، وأن العرب

(1) E.M.A., I, p. 343

ما كانوا أكثر من متفرجين ، حيث لم تكن لديهم بالبناء والعمارة دراية أو خبرة •

هذا وقد أوقع بِكَر نفسه وأوقع من تبعه فى مأزق غير كريم باقحام الفرزدق فى موضوع المنبر والاستشهاد ببيت من شعره للتدليل على أن الوالى الجديد كان يمارس سلطته بعد تعيينه عندما يرتقى المنبر كأنه عرش ويمسك بالعصا على أنها صولجان • مع أن ذلك البيت من الشعر قد ورد ضمن قصيدة يمدح بها الفرزدق الخليفة هشام بن عبد الملك بوصفه من آل مروان الذين ورثوا خلافة المسلمين وامارة المؤمنين عن رسول الله (ص) • ولا يعنى البيت شيئا أبدا مما قصده بِكَر ، بدليل ما جاء قبل البيت وبعده من أبيات هى [1] :

رأيت بنى مروان يرفع ملكهم	ملوك شباب كالأسود وشيبها
بهم جمع الله الصلاة فأصبحت	قد اجتمعت بعد اختلاف شعوبها
ومن ورث العودين والخاتم الذى	له الملك والأرض الفضاء وحيبها
وكان لهم حبل قد استكربوا به [2]	عواقى دلو كان فاض ذَنوبها
على الأرض من ينهز بها من ملوكهم	يفُض كالفرات الجون عفوا قليها

ولا ندرى أهو ضعف فى معرفة اللغة العربية الذى أوقع بِكَر أو هو الهوى الذى جعله مشدودا نحو هدف منشود لا يحيد عنه ولا ينظر يمنة أو يسرة أو تحت الاقدام ، وجمد نظره على ذلك البيت من الشعر دون غيره من الأبيات •

ونخلص مما سبق الى أن حقيقة بناء الكعبة وصناعة أول منبر للرسول الكريم فى المدينة لا تزال غامضة كل الغموض ولا تزال فى حاجة شديدة الى دراسات وأبحاث أخرى تقوم على أسس سليمة ومنطق علمى ثابت غير مهتز وحيدة تامة • فان كل ما قيل عن ذلك حتى الآن لا يعدو أن يكون ضربا فى مجاهل البحث ودوران داخل حلقة مفرغة [3] •

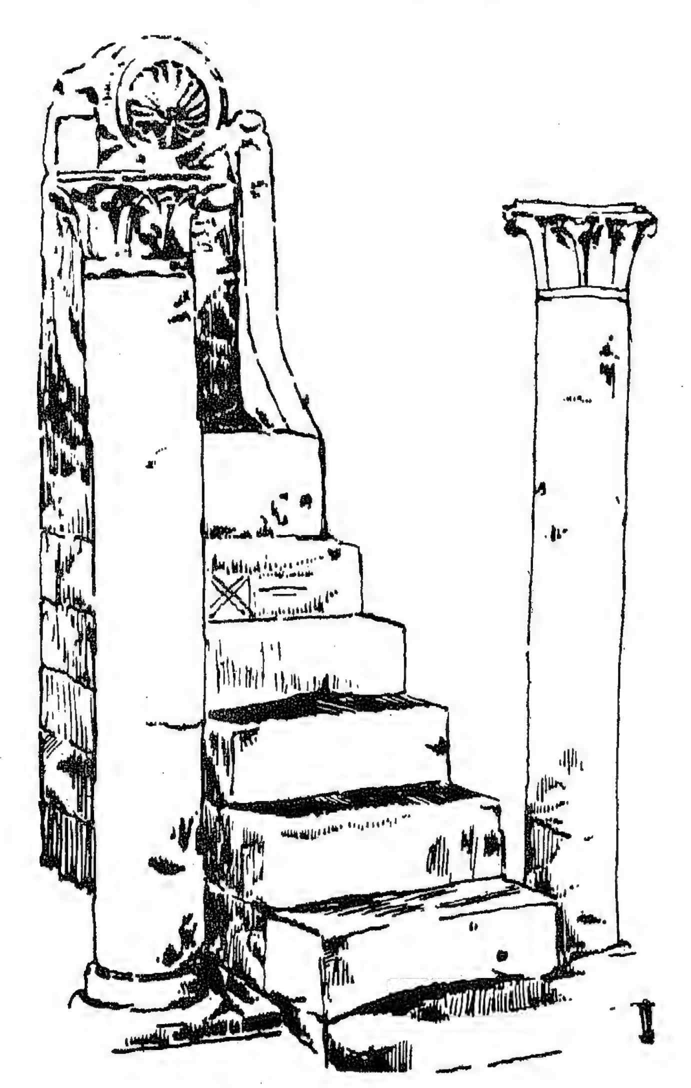
ثم تتكرر تلك الأخطاء وذلك الضعف مرة أخرى فيما دار من بحث حول أول منبر وضع فى جامع عمرو بن العاص ، وما حدث فيه من اعتماد كبير على ما ذكره كل من ابن دقماق والمقريزى عنه • فقد روى كل منهما نصا متطابقا فى جملته وألفاظه

---

(1) عبد الله اسماعيل الصاوى : شرح ديوان الفرزدق ـ ج ١/ص ٦٣ (مطبعة الصاوى ـ ١٩٣٦ م) •

(2) استكربوا اى استوثقوا

(3) قامت السيدة نعمت ابو بكر الامينة بمتحف الفن الاسلامى باعداد رسالة للماجستير عن المنبر تحت اشرافنا ، وهذا مادعانا الى عدم التوسع فى كتابنا هذا مثلما فعلنا فى الحديث عن المحراب. ونأمل أن تنشر الرسالة لتتداول بين المهتمين بالآثار الاسلامية بعد أن نالت عليها درجة الماجستير .



ش : ٤٢١ ـ سقارة ، منبر اسلامى من الحجر بدير الاب هرميا

بمناسبة عمارة قرة بن شريك للجامع ، فقالا [١] « ونصب المنبر الجديد فى سنة ٩٤ »
« ونزع المنبر الذى كان فى المسجد ، وذكر أن عمرو بن العاص كان جعله فيه »
« فلعله بعد فاة عمر بن الخطاب ، وقيل هو منبر عبد العزيز بن مروان ، وذكر »
« أنه حمل اليه من بعض كنائس مصر ، وقيل ان زكريا بن مرقنى ملك النوبة »
« أهداه الى عبد الله بن سعد بن أبى سرج [٢] ، وبعث معه نجاره حتى ركّبه ، »

(١) ابن دقماق : جـ ٤/ص ، المقريزى : جـ /ص :

(٢) كان ابن أبى سرح واليا على مصر فى الفترة مابين سنتى ٢٥ ، ٣٥ هـ (٦٤٦ و ٦٥٥م) .
انظر معجم الانساب : جـ ١/ص ٣٨ .

« واسم هذا النجار بقطر من أهل دندرة ، فلم يزل هذا المنبر في المسجد حتى »
« زاد فيه قرة بن شريك فنصب منبرا سواه على ما تقدم شرحه . ولم يكن يخطب »
« في القرى الا على العصى الى أن ولّى عبد الملك بن مروان موسى بن نصير »
« اللخمى مصر من قبل مروان بن محمد ، فأمر باتخاذ المنابر في القرى وذلك في »
« سنة ١٣٢ ، وذكر أنه لا يعرف منبر أقدم منه يعنى منبر قرة بن شريك بعد منبر »
« رسول الله ... » .

ونلاحظ أن اتفاق النص في حرفيته في كل من المرجعين يوضح أنه قد نقل من مرجع سابق جمعت فيه عدة روايات من مصادر مختلفة بغير تحقيق أو تمحيص وما يتصل بأصل منبر جامع عمرو بن العاص ، منها :

(أ) أن عمروا هو الذى زوده به ورفعه عندما أمره عمر بن الخطاب بذلك، وأنه ربما أعاده بعد موت عمر بن الخطاب .

(ب) أن عبد العزيز بن مروان هو الذى أمر بعمل ذلك المنبر وليس عمرو بن العاص .

(جـ) أنه نزع من احدى كنائس مصر وحمل اليه .

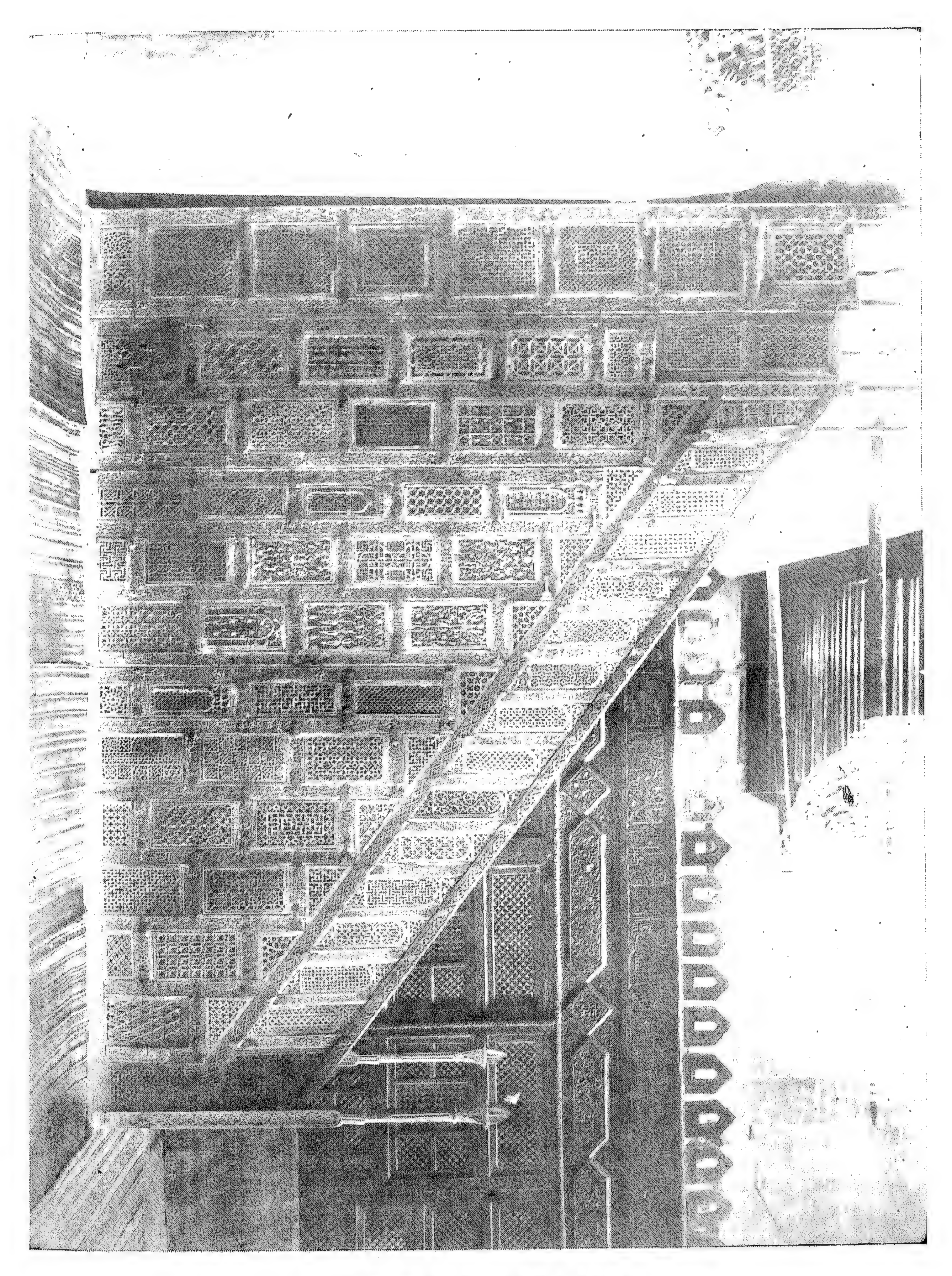
(د) أنه هدية من ملك النوبة ، وركبه في الجامع نجار من مدينة دندرة يسمى « بقطر » .

(هـ) وأخيرا يتضمن قولا ينسخ جميع ما سبق هو أن قرة بن شريك كان أول من زود مسجد عمرو بن العاص بمنبر يعد الثانى بعد منبر مسجد الرسول بالمدينة .

ويتضح في تلك الأقوال تضارب عجيب يجعل أصل المنابر في مصر أيضا قضية غامضة أخرى تترك الفرصة للحدس والتخمين ولمحاولة الوصول الى اثبات أن أصل المنبر الاسلامى قد أتى من المنبر المسيحى الذى عثر عليه في أحد الأديرة في سقارة (ش : ٤٢١) [1] . وأرخه كويبل Quibell [2] في القرن السادس الميلادى. وهو تاريخ ليس له أى سند معمارى أو زخرفى أو تسجيلى . وكل ما فيه من العناصر يجعل من الممكن أن يؤرخ أيضا في القرن السابع أو الثامن أو التاسع ، والأرجح لدينا أنه نسب الى ذلك التاريخ بالذات حتى يسبق الفتح الاسلامى بقرن من الزمان،

(1) E.M.A., I, pp. 31-32, Fig. 7.

(٢) نلاحظ فى كل ماقاله كويبل عن هذا المنبر ظنونا وتخمينات لاتقوم على أى أساس تاريخى أو معمارى . أنظر Quibell : Excavations at Saqqara, (1908-9, 10), p. 7, Pl. XIV.



ش ٤٢٢ ـ القيروان ، منبر المسجد الجامع

ولكى يصبح من الممكن القول بأنه السابقة التى أخذ منها منبر عمرو بن العاص أو غيره • وهى طريقة بحث غير سليمة • ذلك ان الاستشهاد بمثل واحد مشكوك فى تأريخه الى أقصى حد يجعل تلك النظرية غير ذات قيمة البتة • ولو كانت الكنائس فى مصر فى العصر السابق للفتح العربى قد زودت بالمنابر وبقيت منها أمثلة صريحة المعالم والتأريخ لساعدت كثيرا على اثبات تلك النظرية وتدعيمها • أضف الى ذلك أن ذكر اسم بقطر النجار الذى أوفده ملك النوبة لتركيب المنبر يترك مجالا للظن بأنه لم يكن فى الصناع المحليين حول الفسطاط الكفاية لذلك العمل ، وأنهم لم يكونوا يعلمون شيئا عن المنابر وعن صناعتها •

والأرجح لدينا أن خبر منبر عمرو بن العاص صحيح ، وأنه كان يتبع فى شكله النموذج الذى عمل لمنبر الرسول وكان مكونا من ثلاث درجات • والأرجح لدينا أيضا أن منبر الدير فى سقارة هو اقتباس من المنبر الاسلامى وليس العكس صحيح• كما تذكرنا قصة بقطر النجار الذى جاء من دندرة مع منبر ملك النوبة بالأسطورة التى رويت عن منبر الرسول وما جاء فيها من ذكر باقوم النجار الرومى أو الحبشى الذى قام بعمله والتى أشرنا اليها من قبل (صفحات : ٦٢٨ ــ ٦٢٩) • مما لا يجعل لأمثال تلك القصص قيمة حقيقية يعتمد عليها ، بل هى أساطير كان يتناقلها المؤرخون العرب بغير روية الواحد عن الآخر ، وقد يصل الأمر الى أصل مدسوس من مؤرخ مسيحى أو يهودى ، وبذلك تتاح الفرصة لأن يستعان بها فى اثبات الرأى الذى يقول بنشأة العمارة والفنون العربية الاسلامية بفضل الفنانين من غير المسلمين ومن غير العرب •

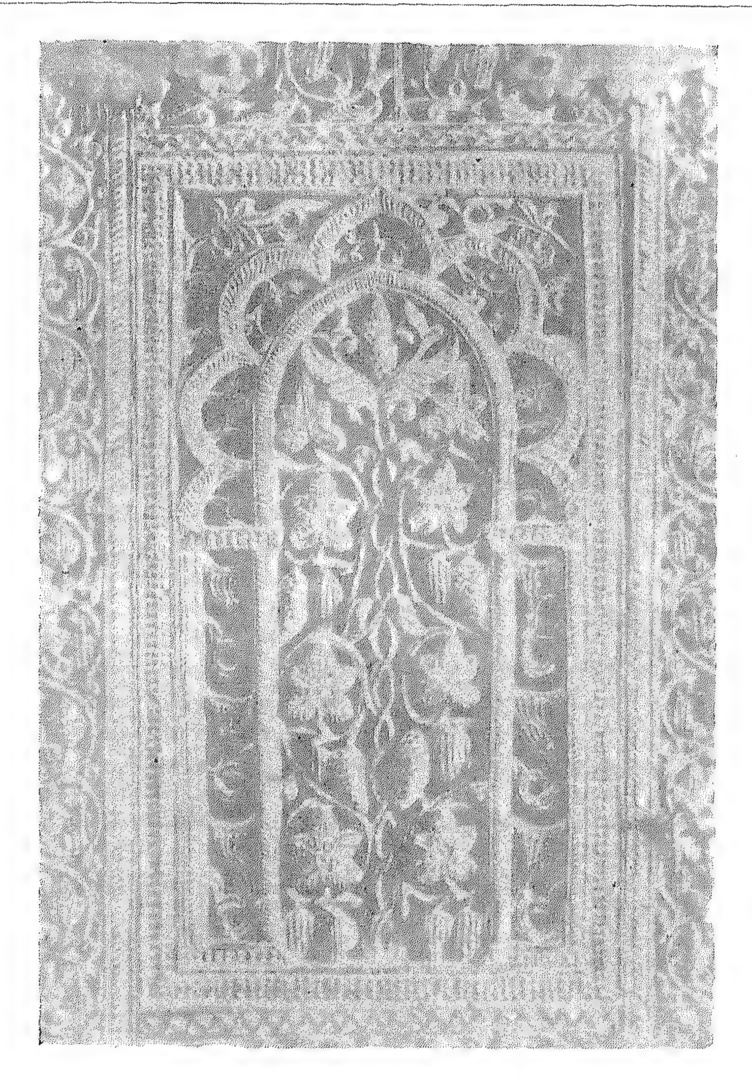
وبمناسبة الحديث عن المنابر نشير الى أقدم منبر باق حتى الآن فى العالم العربى وهو منبر جامع القيروان (ش ٤٢٢ ، ٤٢٣) [١] ، والذى لا يزال فى حالة جيدة على الرغم من أن تأريخه يعود الى أكثر من أحد عشر قرنا ، اذ يؤرخ فيما بين سنتى ٢٤٢ ، ٢٤٩ هجرية (٨٥٦ ــ ٨٦٣ م) • ويُرى أن أبا ابراهيم أحمد الأغلبى قد أمر باحضاره من بغداد ، حسب ما ذكره المؤرخ ابن ناجى [٢] • وقد ظهرت صحة هذا القول عند العثور على ألواح خشبية أصلها من منبر آخر فى جبانة بقرب مدينة بغداد ، وألواح أخرى فى مدينة تكريت [٣] ، وعلى هذه الألواح زخارف وعناصر

---

(١) E.M.A., II, pp. 317-19, Pls. 89-90.

(٢) ابن ناجى : معالم الايمان ــ ج ٢/ص ٩٨

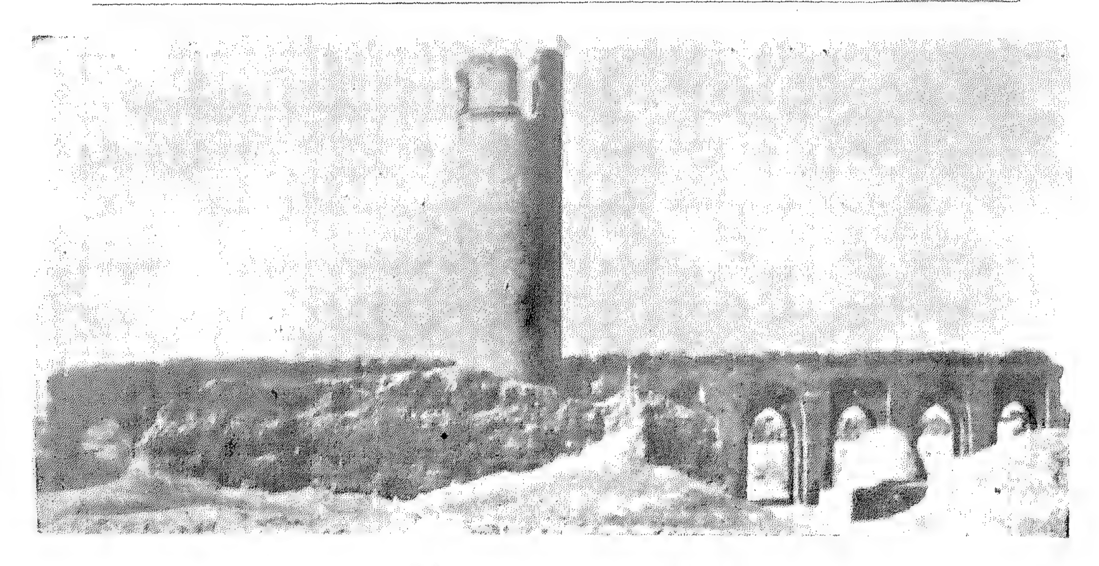
(٣) أنظر مقالنا : الاخشاب المزخرفة فى الطراز الاموى (مجلة كلية الآداب ــ جامعة القاهرة، مجلد ١٤ ــ ج ٢/ص ٧٢ ــ ٧٩ ، لوحات ٤ ، ٥) ; Dimand : (In Ars Islamica, IV), Fig. 4 ; Pauty : (In B.I.F.A.O.), XXX, pp. 777 and 81, Pl. IV.



ش : ٤٢٣ ـ القيروان : تفصيل من المنبر

محفورة من نفس أسلوب الزخارف والعناصر المحفورة فى الألواح التى يتكون منها منبر جامع القيروان . وكأن الجميع قد صنعوا فى مصنع واحـــد وبأيدى فنانين من مدرسة واحدة أخرجوا لنا تحفا خشبية من أجمل أمثلة التصميم والحفر على الخشب فى العصر العربى الاسلامى . ويستوقف نظرنا أن هذه التحف قد سلمت من أن يربط المستشرقون وعلماء الفنون الغربيـــون كعادتهم بين صناعتهـا وبين فنانين من الفرس أو الروم أو القبط . ولم يجدوا مناصا من الاعتراف بأن صناعة هذا المنبر وزخرفته قد تجاوزت فى نضوجها كل التقاليد الزاهرة [١] ، مع ذلك فانهم قد أغفلوا أن هذا النضج لا يمكن أن يكون قد أتى عفوا أو فجأة ، بل هو نتيجة لعدة مراحل

(1) E.M.A., II, pp. 318-19.



٤٢٤ ـ الرقة ، مئذنة المسجد الجامع

من التطور سبقته ومهدت له ، وهى مراحل تمت فى العصر الاسلامى وعلى أيدى العرب فى فترة تزيد على قرنين •

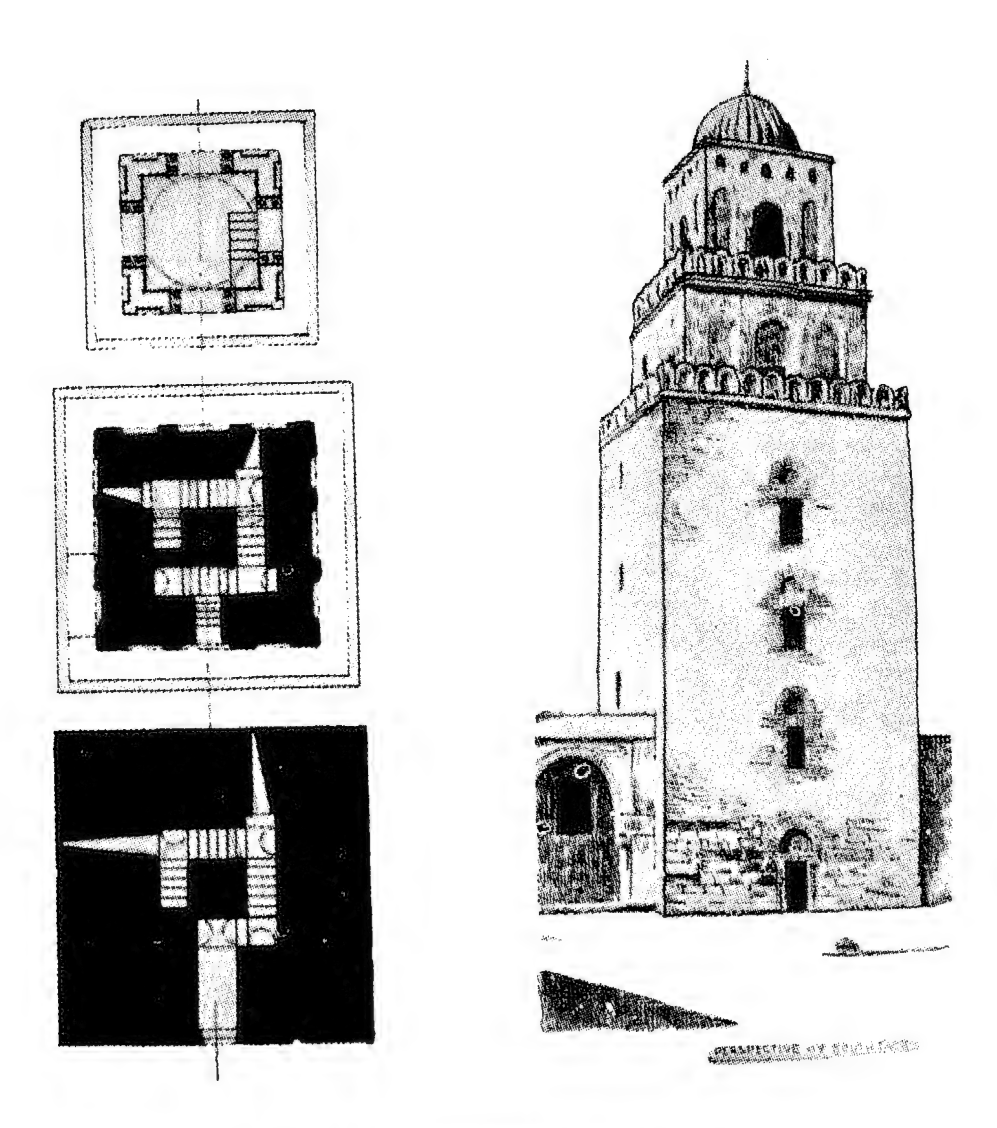
***

المئذنة :

لقد سار العلماء الغربيون حتى وقتنا هذا ـ وتبعهم فى ذلك العرب المحدثون فى منهج البحث عن أصل المآذن وعن حلقات تطوراتها الأولى على نفس الأسلوب الذى سارت عليه دراسة المحراب والمنبر وغيرهما من عناصر العمارة الاسلامية فى عصرها المبكر ، وهو الأسلوب الذى يهدف الى اسناد اشتقاقها الى مصادر غير عربية وغير اسلامية •

ويبدأ هذا المنهج كالعادة بتلمس روايات ذكرها مؤرخون من العرب القدماء وتشير من قريب أو بعيد الى موضوع البحث • فتركز العناية ويبذل الاهتمام بابراز ما كان من تلك الأخبار ذو نفع فى الوصول الى الهدف المعهود ، فيوضع فوق الشك والريبة ، ويؤخذ قضية لا تحتمل المناقشة ، حتى يرتفع فوقها البحث الذى يوصل الى ذلك الهدف • أماما لا يتفق أو يتعارض معه فانه اما ان يغفل ذكره أو يدمغ بطابع الشك وعدم الصحة ، كما رأينا من قبل وسنرى فيما بعد •

يتجلى كل ذلك فى ما جاء فى كتاب فتوح البلدان للمؤرخ البلاذرى المتوفى فى سنة ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) عن مئذنة جامع البصرة ، وهو يعد أقدم ما ذكر عن مآذن المساجد ، اذ رَوَى أن زياد بن أبيه والى العراق من قبل معاوية بن أبى سفيان قد بنى



ش : ٤٢٥ ـ ٤٢٨ ـ مئذنة القيروان ، منظور ومساقط

« منارة » بالحجر لجامع البصرة فى سنة ٤٥ هـ (٦٦٥ م) ، وذلك عندما هدم الجامع الأول وأعاد بناءه من جديد [١] . غير أن هذا الخبر قد أحيط بهالة من الشك على أساس أن البلاذرى هو المؤرخ الوحيد الذى روى هذا الخبر [٢] . أما الرواية التى نالت رضا وايمانا بصدقها فتلك التى جاءت بعد نحو أربعة قرون ونصف فى كتب ابن دقماق والمقريزى نقلا عن غيرهم من المؤرخين عن بناء المآذن فى أيام مسلمة ابن مخلد ، الذى تولى حكم مصر فترة طويلة بين عامى ٤٧ ، ٦٢ هـ (٦٦٧ — ٦٨١م)، وتقع فى زمن ثلاثة من الخلافاء الأمويين هم : معاوية الأول ويزيد الأول ومعاوية الثانى ، اذ يذكر ابن دقماق أن ذلك الوالى قد قام فى سنة ٥٣ هـ (٦٧٢م) ببناء أربع صوامع فى أركان جامع عمرو بن العاص بالفسطاط ، وذلك بناء على أمر الخليفة معاوية بن أبى سفيان . كما « أمر ببناء المنار فى جميع المساجد خلا مسجد تجيب » « وخولان ... وأمر مسلمة بأن يكتب اسمه على المنار ، وأمر مؤذنى الجامع أن » « يؤذنوا الفجر اذ مضى نصف الليل ، فاذا فرغوا من آذانهم اذن كل مؤذن » « فى الفسطاط فى وقت واحد ، فكان لآذانهم دوى شديد . وأمر مسلمة » « ألا يضرب بناقوس عند آذان الفجر » . وروى المقريزى خبرا فى نفس هذا المعنى ، وزاده ايضاحا بأن تلك الصوامع قد شيدت لغرض الأذان [٣] .

ولقد قامت على هذه الرواية نظرية تقول بأن هذه الصوامع الأربع ما هى الا اقتباس من الصوامع فى أركان المعبد الرومانى فى دمشق ، الذى أصبح مسجدا جامعا عظيما شيده الوليد بن عبد الملك فيما بعد فى سنة ٩٦ هـ (٧١٥ م) . وكان جزء منه يستعمل للصلاة أيام الخليفة معاوية بن أبى سفيان والذى أمر مسلمة أن يبنى الصوامع لجامع عمرو. ولم تقف تلك النظرية عند هذا الحد بل وصلت الى افتراض أن صوامع المعبد الرومانى فى دمشق أصبحت هى المآذن الأولى فى العالم الاسلامى ، وذلك بناء على رواية المؤرخ ابن الفقيه الذى ألف كتابه فى حوالى سنة ٢٩١ هـ (٩٠٣م) [٤] ، اذ يقول ان المآذن التى بجامع دمشق كانت فى الأصل أبراجا للمراقبة أيام الروم ، وأن الوليد بن عبد الملك قد تركها على حالتها عندما شيد منطقة المعبد كلها جامعا . وذكر المسعودى نفس هذا المعنى فى كتابه « مروج الذهب » الذى ألفه حوالى سنة ٣٣٢ هـ (٩٤٣ م) [٥] . مع أن هذا المعنى فى رأينا يتضمن احتمالا كبيرا بأن تلك

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان /ص : ٣٤٣

(٢) E.M.A., I, p. 35.

(٣) ابن دقماق — جـ ٤/ص : ٦٢ — ٦٣ ، المقريزى : جـ ٢/ص : ٢٤٨

(٤) E.M.A., I, p. 104, ft. n. 4 ; Le Strange : Translation, p. 234.

(٥) المسعودى : جـ ٤/ص : ٩٠ — ٩١ ، ١٠٨

الصوامع التى لم تكن تعلو الا قليلا عن سطح الجامع (ش ٤٢٩) [١] • فلم تكن تصلح المدعوة للصلاة فى عاصمة كبيرة مثل دمشق ولكنها تركت على حالتها لأنها كانت تصلح لأن تكون بمثابة قواعد رفعت فوقها منارات عالية أو مآذن روعى فى تكوينها المعمارى – أو تكوين الجزء العلوى منها على الأقل – أن يتاح للمؤذن أن يصعد الى شرفة عالية يدور فيها وينادى منها للصلاة [٢] • وأغلب ظننا أن تلك المنارات أو المآذن الأولى التى كانت تعلو الصومعتين قد تهدمتا بفعل الزلازل التى كثيرا ما حدثت وتسببت فى هدم المآذن بكامل ارتفاعها أو بهدم بعض أطرافها العليا • وحدث ذلك لعدد كبير من المآذن فى أغلب الأقطار • ويدعم هذا الظن أن المئذنتين الحاليتين فى مسجد دمشق واللتين ترتفعان فوق الصومعتين الرومانيتين القديمتين فى الناصيتين الجنوبية والشرقية والجنوبية الغربية ، قد شيدتا فى العصور الوسطى ، ثم أعيد بناء الأطراف العليا فى عصور تالية بعد سقوطها بفعل الزلازل (ش : ٤٢٩) •

ويمكننا أن نرجح فى اطمئنان يقرب من الثقة بأن كلمة « صومعة » التى كانت تطلق على أركان المعبد المرتفعة أصبح معناها فى العصر الاسلامى يشمل كلا من تلك الأبراج الركنية القليلة الارتفاع وما شيد فوقها من المنارات أو المآذن الاسلامية • ومن الملاحظ أن استعمال لفظ الصومعة للمنارات قد استمر وقتا طويلا فى أقطار الغرب الاسلامى [٣] •

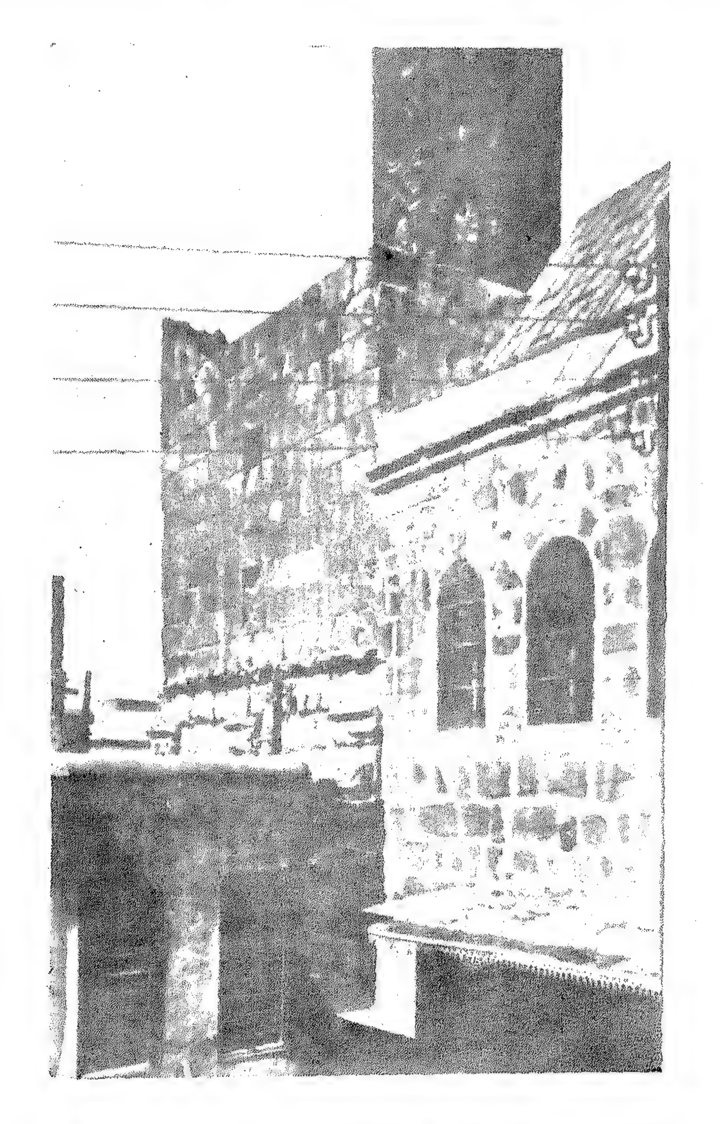
كذلك لسنا نجد داعيا للتشكك فى رواية البلاذرى عن بناء زياد بن أبيه منارة جامع البصرة ، وبخاصة أن تاريخ البناء يتفق مع أمر معاوية بن أبى سفيان لمسلمة ابن مخلد بناء « الصوامع » لجامع عمرو بن العاص فى الفسطاط • فهناك احتمال كبير بأن أمر معاوية ببناء الصوامع أو المنارات كان عاما فى أقطار الدولة العربية • فالفرق فى التاريخ بين بناء منارة جامع البصرة وبناء « صوامع » جامع عمرو لا يزيد على ثمانية أعوام ، فقد شيدت منارة جامع البصرة فى سنة **٤٥** هـ ، وصوامع جامع عمرو فى سنة **٥٣** هـ ، أى فى أثناء حكم معاوية بن أبى سفيان ، وليس من المنطق أن يأمر الخليفة بتعميم بناء المآذن فى قطر واحد من الدولة العربية دون بقية الأقطار •

---

(١) E.M.A., I, Pls. 33 b ; 34 c.

(٢) حدث نفس الشئ فى أيام السلطان المؤيد شيخ عندما استخدم برجى باب زويلة (أو بوابة المتولى) كقاعدتين شيدت فوقهما مئذنتا جامع المؤيد (١٤١٥ – ١٤٢٠ م) الملاصق للبوابة .

(٣) E.M.A., I, pp. 36-38.



٤٢٩ ــ دمشق ، الصومعة فى الركن الجنوبى الغربى فى الجامع الاموى

ومن ناحية أخرى فان التشكك فى صحة رواية البلاذرى على أســاس أنه المؤرخ الوحيد الذى ذكرها نعده منطقا غير موفق • وذلك لأننا نضع دائما فى المقام الأول الكتاب ذا التاريخ الأقدم ، يليه ما يأتى بعــده حسب التسلسل التــاريخى • ولا معنى اذن أن نخرج على هذا القاعدة فى حالة مثل هذه ثم نتشدد فى التمسك بها فى غيرها • فمن الخطأ أن يتشكك المرء فى رواية البلاذرى الذى توفى قبل منتصف القرن الثالث الهجرى (٩ م) ثم يؤمن بأقوال ابن دقمــاق الذى توفى فى نهــاية القرن الثامن الهجرى (١٤ م) ، والمقــريزى الذى توفى بعده بحــوالى **٣٥** ســنة •

هذا بالاضافة الى أن الاثنين قد عاصرا بعضهما فترة من الوقت ، وأنهما فيما يتضح من كتاباتهما قد نقلا فى أكثر من موضع عن مرجع واحد ، اذ جاءت نفس الألفاظ فى بعض الأحيان فى كل مرجع من المرجعين بغير تغيير أو تبديل • وصادفنا مثلا لذلك فى النص الخاص بمنبر جامع عمرو بن العاص (صفحة ٦٢٩ ـ ٦٣٣) ، وأغلب الظن أنهما كانا ينقلان أكثر أخبارهما من مؤرخين سابقين مثل ابن عبد الحكم صاحب كتاب « فتوح مصر » ، وهو أقدم من روى خبر صوامع جامع عمرو ، وتوفى فى سنة ٢٥٧ هـ (٨٧١ م) [١] ، أى بعد البلاذرى بقليل ، كما نقلا عن ابن المتوج الذى سبق ابن دقماق نحو نصف قرن •

ولم يقتصر الأمر على نسبة مآذن عمرو بن العاص الى أصل شامى رومانى بل امتد الى نسبة مآذن الغرب الاسلامى كله الى نفس الأصل ، ولذلك فان كلمة « صوامع » كانت تطلق عليها ضمن الكلمات التى كانت تطلق على مآذن تلك الأقطار ، والتى تتميز بمسقطها المربع مثل الأبراج والمآذن التى تعود الى ما قبل القرن السابع الهجرى (١٣ م) فى مناطق الشام •

واتخذت مئذنة جامع القيروان كأقدم مثل باق يتضح فيه تأثير الأبراج والصوامع السابقة عن الاسلام • وتنسب المئذنة (ش : ٤٢٥ ـ ٤٢٨) الى عمل الوالى بشر بن صفوان فيما بين سنتى ١٠٥ ، ١٠٩ هـ (٧٢٤ ، ٧٢٩ م) ، على أساس الأدلة التاريخية أو الى سنة ٢٢١ هـ (٨٣٦ م) ، على أساس الأدلة المعمارية [٢] • وهى فى الحالة الأولى تعد أقدم مثل باق للمآذن ، وفى الحالة الثانية تعد ثانى الأمثلة الباقية اذ تسبقها منارة قصر الحير الشرقى فى منطقة الشام التى تؤرخ فى حوالى سنة ١١٠ هـ (٧٣٠ م) ، (ش : ٤٣١) •

ومهما يكن من أمر فاننا نجد مئذنة جامع القيروان تتميز بخصائص عربية اسلامية ناضجة من ناحية التكوين المعمارى وأسلوب البناء ، وليس فيها شىء يمكن نسبته الى طراز معين سابق على الاسلام الا عنصر واحد هو العقد شكل حدوة الفرس • وتلك الخصائص العربية الاسلامية الواضحة تقلب نظرية اقتباس المآذن من مصادر سابقة على الاسلام رأسا على عقب • ذلك أنه ليس هناك أية صلة بين التكوين المعمارى لمئذنة القيروان وتفاصيلها وبين « الصوامع القديمة » فى المعبد الرومانى فى دمشق فى أركانه ولا غيرها من الابراج السابقة فى التاريخ •

---

(١) ص ١٣١/أسطر ٥ ـ ٦ (نشر (Torrey))
(٢) E.M.A., I, pp. 325-29, Figs. 398-99, Pl. 53 d.

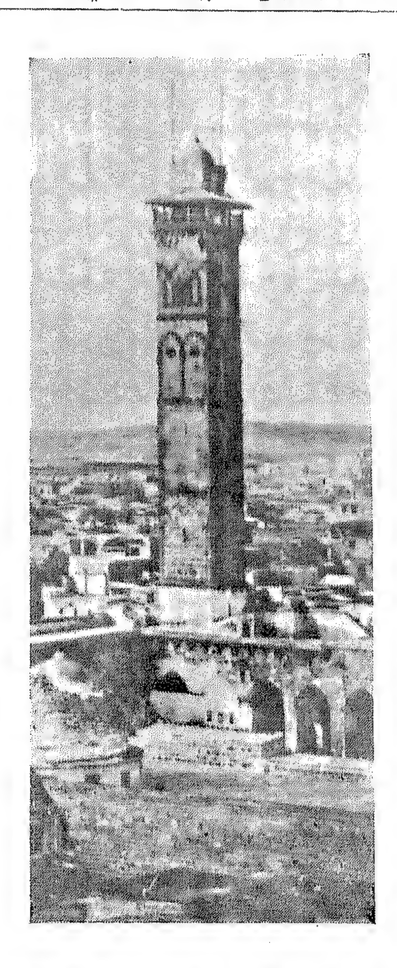
أما أن تكون مئذنة القيروان ومآذن الشام قد تأثرت بأبراج الكنائس فهو قول لا يقوم على أساس سليم • ذلك أن المنارات أو المآذن المبكرة فى العالم الاسلامى التى يرجح نسبتها الى ما يعاصر فترة حكم الولاة فى مصر ، أى من ٢١ هـ الى ٣٥٨ هـ (٦٤٢ ـ ٩٦٩) ، هذه المنارات أو المآذن ترتفع من مستوى الأرض فى تكوين معمارى مترابط يكاد يكون منفصلا عن المسجد فلا يتصل به فى بعض الأحيان ، أو يتصل به بواسطة الجدران الخارجية فى أحيان أخرى • هذا بينما كان يعد برج الكنيسة عضوا جوهريا ضمن وحدات التكوين المعمارى كله ، وضمن الكتلة المعمارية العامة •

ومن ناحية أخرى فان فكرة عمل أبراج عالية مربعة أو مستديرة فى مسقطها ليست من ابتكار الرومان أو البيزنطيين أو الشام أو أى قطر أو عصر آخر بالذات ، فهى عنصر معمارى معروف منذ عصور سحيقة • ومن ثم فان الاختلاف بين الأبراج فى الطرز المختلفة ينحصر فى التفاصيل والزخارف وأشكال الأطراف العليا التى تنتهى بها الأبراج • وليس من شك فى أن الأذان أو الدعوة للصلاة عند المسلمين يتطلب شكلا خاصا للنهاية العليا لأى نوع من الأبراج المربعة التى تستخدم لهذا الغرض • وهو يختلف بداهة عن أى شكل آخر يتطلبه وضع النواقيس فى الكنائس أو غرض المراقبة فحسب •

ويتمثل ذلك الشكل الخاص للأجزاء العليا للمآذن فى مئذنة القيروان (ش : ٤٢٥ ـ ٤٢٨) • فقد انتهت القاعدة المربعة المرتفعة بشرفة تدور حول أضلاعها الأربعة وحدثت نتيجة لعمل ضلع الطابق العلوى أقل من ضلع القاعدة ، وهى الشرفة التى تتيح للمؤذن أن يتحرك فيها لكى يدعو المسلمين منها الى اقامة الصلاة ، وتعلوها شرفة أخرى تلتف حول الجوسق العلوى المغطى بالقبة ذات الضلوع ، ونتجت هذه الشرفة الثانية أيضا من عمل ضلع الجوسق أقل من ضلع الطابق أسفله • وهناك رأى بأن هذا الجوسق قد أعيد بناؤه فى عصر تال بعد تاريخ بناء المئذنة [1] ، وهو فرض يحتاج لأدلة أكثر قوة تدعمه • وهو فى رأينا اما أن يكون معاصراً للمئذنة كلها ، أو أعيد بناؤه على نموذج الجوسق الأول الذى شيد مع المئذنة •

ومهما يكن من أمر فأغلب ظننا أن جميع مآذن العالم الاسلامى كله فى العصر المبكر كانت تتبع تكوينا معماريا مشتركا ومشابها لمئذنة القيروان أو قريبا منها • وينحصر الاختلاف فى النسب المعمارية للقواعد العلية أو أبدانها ، وذلك من ناحية

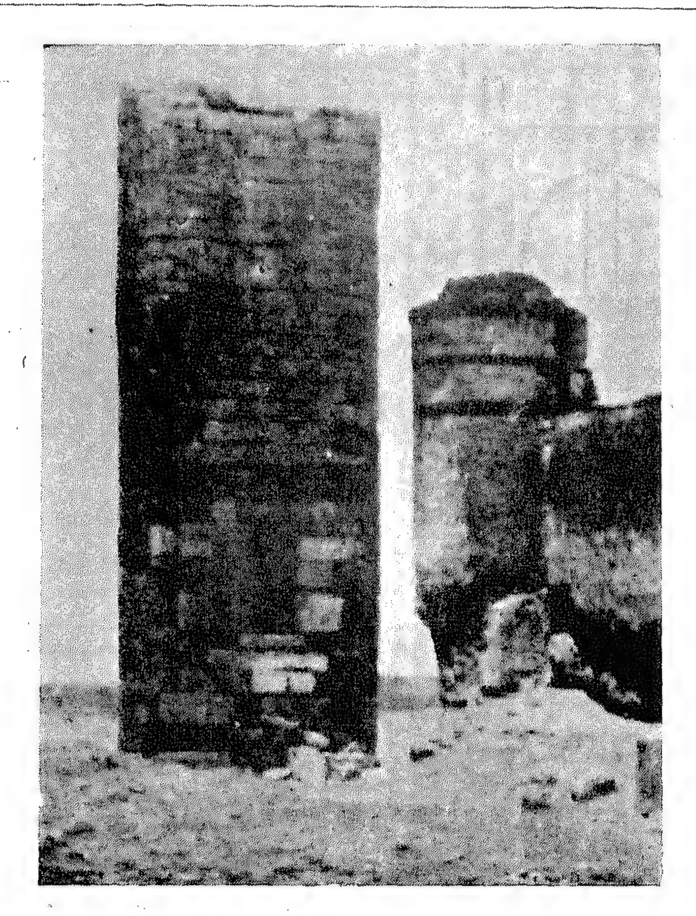
(1) E.M.A., I, p. 328.



ش ٤٣٠ ـ حلب ، مئذنة المسجد الاموى

طول ضلعها ان كانت مربعة المسقط ، أو قطرها ان كانت مستديرة بالنسبة لارتفاعها ، ومن ناحية عمل جوسق واحد فوقها مباشرة أو يأتى فوقها طابق وسيط ، أو بمعنى آخر عمل شرفة واحدة أو شرفتين • وأغلب ظننا أيضا أنه فى جميع الحالات والنماذج كان الجوسق العلوى يغطى بقبة تتبع الأسلوب المحلى السائد فى المنطقة أو الاقليم • وغالبا ما كانت الشرفات تغطى بمظلة من الخشب وذلك فى الأقطار التى تكثر فيها الأمطار حتى تحميها منها وتمنع ماء المطر من التسرب الى السلم الحلزونى داخلها • وكانت تشبه فى ذلك الأمثلة الباقية فى الشام والعراق وفارس • نذكر منها على سبيل المثال مئذنة المسجد الجامع فى حلب وتؤرخ فى سنة ٤٨٢ هـ (١٠٩٠ م) [١] (ش : ٤٣٠) •

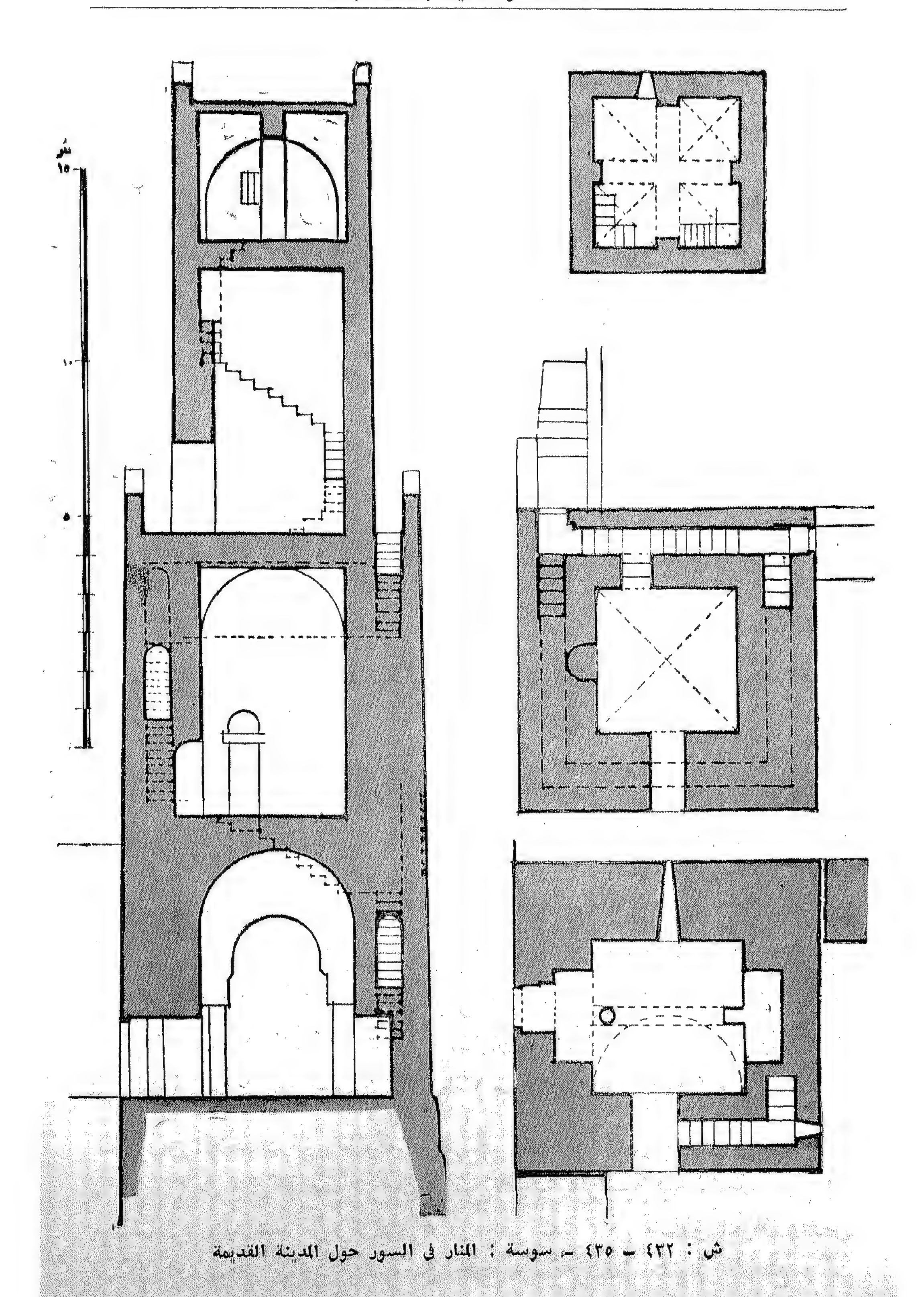
(١) Dussaud, etc... La Syrie Méridionale, Pl. 37 D/I.



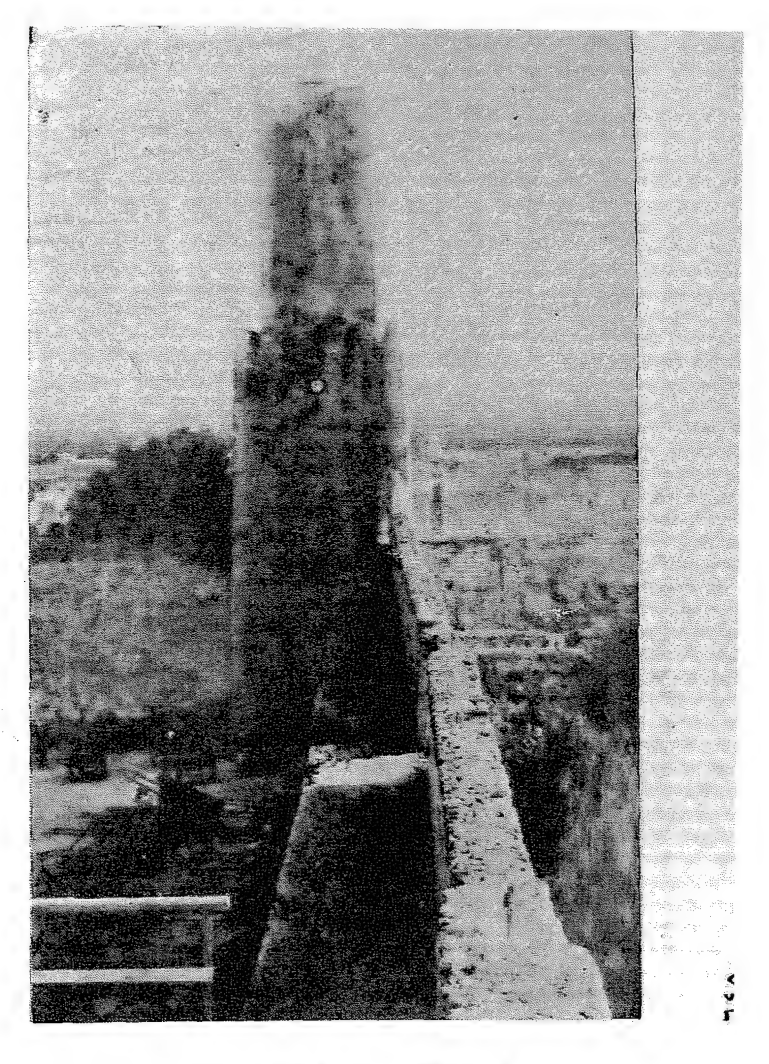
ش : ٤٣١ ـ بادية الشام ، منار قصر الحير الشرقى

وبديهى أن تنقصنا الحلقات الأولى للأطراف العليا للمآذن المبكرة لما كانت تتعرض له من تدمير بسبب الزلازل غالبا ، أو بسبب حرائق تصيبها نتيجة للنيران التى كانت تشعل فى بعضها بغرض هداية السفن على شواطىء البحار والأنهار أو لارسال الاشارات للتحذير والتنبيه بالنيران ليلا وبالدخان نهارا فى المآذن والأبراج التى كانت تستخدم أيضا لذلك الغرض وخاصة فى المواقع التى تمتاز بميزات عسكرية ، ومن ثم فقد كانت تعرف « بالمنارات » عند المؤرخين القدماء . وقد أشرنا الى ذلك فى حديثنا عن الحصون والأربطة (صفحات ٥٢٩ ـ ٥٣١) .

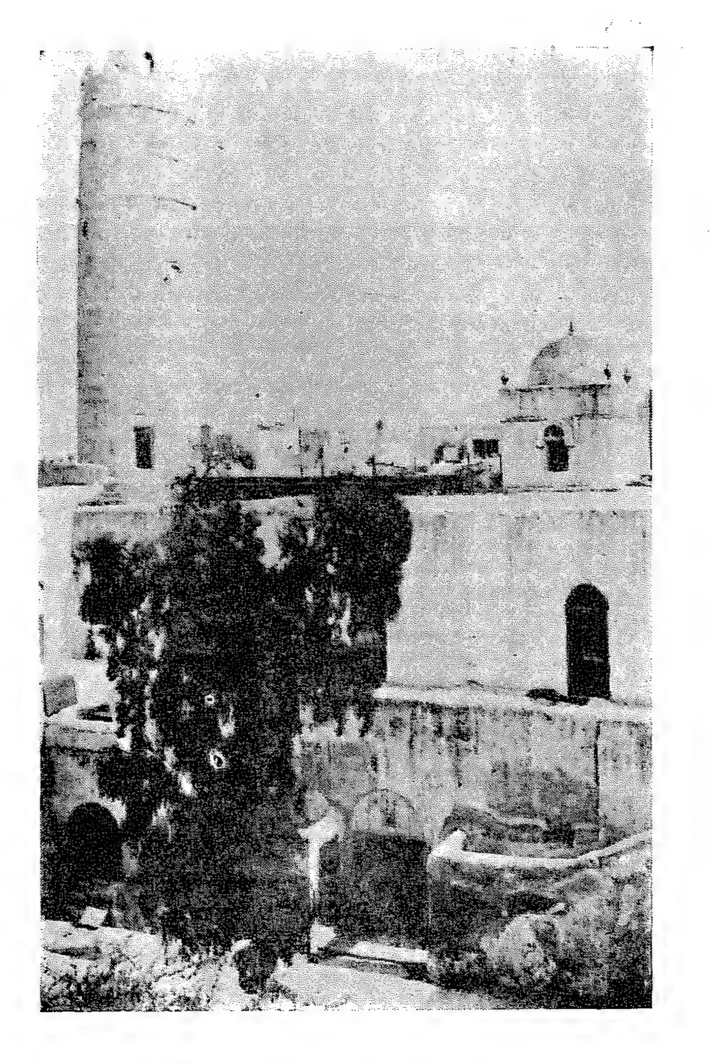
ومن الملاحظات التى تستوقف النظر أن مآذن الشام حتى القرن السابع الهجرى (١٣ م) بل والى ما بعده ، كانت تخضع الأجزاء الرئيسية فيها للشكل المربع فى مسقطها ، بينما يتبع الجزء الرئيسى ، أى بدن المئذنة ، فى مناطق العراق وفارس للشكل الاسطوانى ، وكان يوضع فوق قاعدة مربعة المسقط متفاوتة الارتفاع ولكن



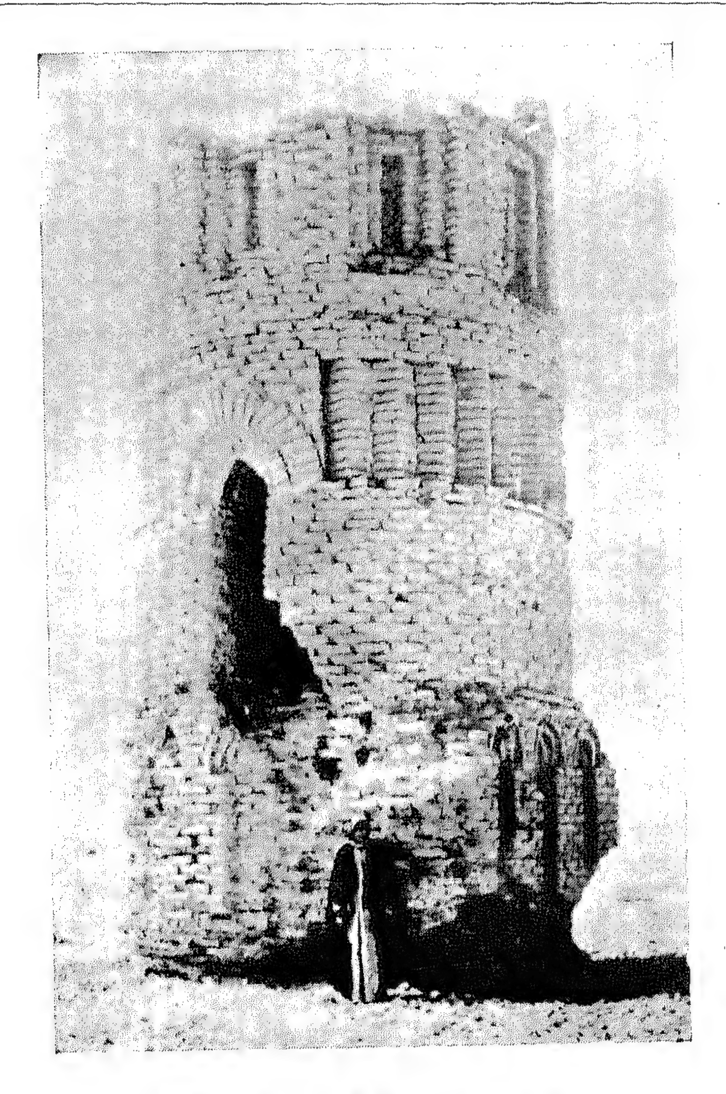
ش : ٤٣٢ ـ ٤٣٥ ـ سوسة : المنار في السور حول المدينة القديمة



ش : ٤٣٦ – سوسة ، منار السور



ش : ٤٣٧ – سوسة ، منار الرباط



ش : ٤٣٨ ـ بادية العراق ، منارة مجصة

لا يزيد ارتفاعها عن ارتفاع البدن الاسطواني • وأحيانا كان يبدأ البدن من فوق السطح العلوي للجامع •

وأقدم مثل للمنارات الاسلامية في الشام هو منارة قصر الحير الشرقي (ش : ٤٣١) [1] ، وتؤرخ في حوالي سنة ١١٠ هـ (٧٢٩ م) ، وهي على هيئة برج مربع المسقط ، يتوسط الفضاء بين المنطقتين الصغرى والكبرى للقصر • وينقص المنارة ـ كما هي العادة ـ الجزء العلوي منها ، اذ تهدم ولم يبق له أثر ، ولكن يبدو أن الهدف الأساسي من بنائها هو المراقبة أكثر من أن يكون للأذان •

(1) E.M.A., I, p. 339, Fig. 403, Pl. 54 a, b.

أما أقدم مثل فى العراق فهى منارة « مُجضة » (ش ٤٣٨ [٢]) ، وتؤرخ مع قصر الأخيضر فى حوالى سنة ١٦١ هـ (٧٨٠ م) • وهى على هيئة بدن اسطوانى يرتكز فوق قاعدة مربعة المسقط • وشيدت بالآجر وينقصها أيضا الجزء العلوى •

ويبدو انها شيدت فى وسط الصحراء لتكون علامة يهتدى بها من يقصد قصر الأخيضر الذى شيد بعيدا عن العمران وعلى مسافة نحو ثمانين كيلومترا الى الشمال الغربى من الكوفة اذ يحجب القصر شريط من التلال الصخرية • ولكننا نضيف الى ذلك ترجيحا بأنها كانت تؤدى وظيفة أخرى هى المراقبة والانذار بأى خطر يتهدد صاحب القصر الذى شيده حصنا منعزلا لما كان يحيط به من أخطار ومؤامرات سياسية تهدد حياته [١] •

وبقى فى مصر فى أقصى الصعيد منارتان فى أسوان يرجح نسبتها الى القرن الثالث الهجرى (٩ م) ، وهما : مئذنة المشهد البحرى قرب الشلال (ش : ٣٩٨) ، ومئذنة الطابية على ربوة عالية جنوب فندق كتراكت (ش : ٣٩٧) • وقد تحدثنا عنهما قبل الآن (صفحات ٥٧٣ ـ ٥٧٩)، وشرحنا مايتصل بتأريخها من مناقشات وآراء•

وتشترك المئذنتان فى مميزات عامة فى تكوينها المعمارى ، وتختلف فى التفاصيل والعناصر • ولكنها تتميز فى مجموعها بطابع خاص بها يختلف عن أى طابع آخر للمآذن الأخرى فى مصر أو فى غيرها من الأقطار ، وسواء سبقتها أو عاصرتها أو جاءت بعدها فى التاريخ •

تشترك تلك المآذن فى وجود قاعدة مسقطها مربع أو قريب منه • ويتفاوت ارتفاع هذه القاعدة بالنسبة لضلعها فى كل مئذنة عنه فى الأخرى • فقاعدة مئذنة الطابية تقترب من أن تكون على هيئة مكعب ، ولكنها تزيد عنه قليلا فى مئذنة المشهد البحرى •

ويرتفع بدن كل مئذنة فوق تلك القاعدة مباشرة ، ويضيق ذلك البدن كلما ارتفع ، أى يتخذ شكلا مخروطيا قليل الميل ، كما أنه يميل الى الانتفاخ قليلا عند الوسط مثل الأعمدة الاغريقية والرومانية ، وهى خاصية تتصل بخداع النظر تسمى بالانجليزية Entasis • ويتراوح ارتفاع البدن بالنسبة للقطر فى كل مئذنة ففيه شىء من البدانة فى مئذنة الطابية ، ويميل الى النحافة فى مئذنة المشهد البحرى • ويبدو أن بدن المآذن فى كل حالة كان ينتهى فى أعلاه بشرفة للمؤذن بارزة تحملها كوابيل أو كمرات من الخشب ، وضاع سياجها فى المئذنتين •

(١) Ibid., II, p. 94, Fig. 80, Pl. 22 e.

(٢) E.M.A., II, pp. 94-98.

واختفت النهاية العليا لمئذنة الطابية وبقيت فى مئذنة المشهد البحرى ، وتتكون هذه النهاية من جوسق يقرب من شكل المكعب ، ووضعت قبة صغيرة فوقه ، ويغلب عليها الشكل نصف الكروى .

أما التفاصيل والزخارف فهى قليلة . فنرى القبة الصغيرة فى مئذنة المشهد البحرى قد رصعت بكوى صغيرة نافذة تكونت من عمل فراغات بين قوالب الآجر (ش : ٣٩٨ ، ٤٠٠) .

ويغلب على ظننا أن الأطراف العليا لنواصى قواعد المآذن كان يوضع فوقها شرّافة واحدة لكل ناصية ، اختفت فى كل من مئذنتى الطابية والمشهد البحرى . ويرجح هذا الظن أن هذه الشرافات لا تزال قائمة فوق جوسق مئذنة المشهد البحرى (ش : ٤٠٠) ، وأنها منتشرة فوق المقابر فى أسوان ، وأمثلتها عديدة (ش : ٣٩٠ الخ ..)

ولم يبق من عصر الولاة فى مصر أية أمثلة أخرى . اذ تعود أقدم المآذن الباقية فى القاهرة الى العصر الفاطمى المبكر وتبدأ حلقاتها بمئذنتى جامع الحاكم بأمر الله اللتين تختفيان داخل الأغلفة اما النهايتان العلويتان فهما من عمل الأمير بيبرس الجاشنكير فى عام ٧٠٣ هـ (١٣٠٣ م) ، وذلك بعد أن تهدمت النهايتان الأصليتان وتصدعت المئذنتان من جراء زلزال شديد حدث فى السنة السابقة [١] .

أما مئذنة جامع ابن طولون فقد تكلمنا عنها من قبل (صفحات ٤٧٩ ــ ٤٨٥) ، وشرحنا ما أحاط بها من تطورات حتى أعيد بناؤها من جديد فى سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) .

وشيدت المنارات فى أقطار العالم الاسلامى الغربى ليؤدى معظمها وظيفتى الآذان والمراقبة وخاصة فى المساجد والأربطة على سواحل البحر أو القريبة منها . وشيد بعضها على النموذج المربع المسقط مثل منارة مدينة سوسة (ش : ٤٣٢ ــ ٤٣٥) [٢] التى تؤرخ فى حوالى سنة ٢٤٥ هـ (٨٦٠م) . وشيد بعض الآخر على النموذج الاسطوانى مثل منار رباط سوسة (ش : ٤٢٧) الذى يؤرخ فى سنة ٢٠٦ هـ (٨٢١ م) [٣] .

ولسنا نجد مجالا للشك فى أن المئذنة أو المنارة عنصر اسلامى تطلب عمله

(١) Creswell : M.A.Eg., I, pp. 85 etc..., Figs. 32-44, Pls. 23-32.

(٢) E.M.A., II, pp. 273-76, Fig. 217, 220, Pl. 69 d.

(٣) Ibid., II, p. 170, Figs. 155, 166, Pl. 35 b.

الدين الجديد وحتمته تقاليده وفرض شكلا خاصا فى تصميمه ، ولا فضل فى ابتكاره الا للعرب والمسلمين ، وليس لغيرهم يد فيه .

***

(ج) المقصورة :

وفيما يتصل بالمقصورة ، يقول ابن خلدون فى مقدمته : « فأما البيت المقصورة » « من المسجد لصلاة السلطان ، فيتخذ سياجا على المحراب فيحوزه وما يليه . فأول » « من اتخذها معاوية بن أبى سفيان حين طعنه الخارجى ، والقصة معروفة ، أو قيل » « أول من اتخذها مروان بن الحكم حين طعنه اليمانى . ثم اتخذها الخلفاء من » « بعدهما سنّة فى تمييز السلطان عن الناس فى الصلاة ... » [١] .

ويؤيد هذا الاتجاه أن اثنين من الخلفاء الراشدين قد اغتيلا فى المسجد ، مما جعل خليفة مثل معاوية يتخذ مثل ذلك الاحتياط للمحافظة على حياته فى سنة ٤٤هـ (٦٦٤م) . وأصبحت المقصورة من ذلك الوقت عنصرا من العناصر الضرورية فى الجامع . ومن المحتمل أن يكون قرة بن شريك قد زوّد جامع عمرو بن العاص بمقصورة عندما أعاد بناءه [٢] .

ويقال ان عثمان بن عفان قد أضاف مقصورة الى مسجد الرسول بالمدينة ، بناها باللبن ، وكان فيها كوى ـ أى فتحات ـ ينظر الناس منها الى الامام ، وأن عمر بن عبد العزيز لما جدد بناء مسجد المدينة بأمر الوليد بن عبد الملك عملها مرة أخرى ولكن من خشب الساج [٣] .

ويروى المؤرخ الدينورى أن المهدى العباسى ، الذى تولى الخلافة من سنة ١٥٨ الى سنة ١٦٩ هـ (٧٧٥ ـ ٧٨٥ م) ، قد أمر بأن تزود جميع المساجد الجامعة بالمقاصير [٤] ، بينما يذكر كل من ابن دقماق والمقريزى رواية أخرى يتعارض معناها مع ما ذكره الدينورى ، فقد روى الاثنان أن ذلك الخليفة قد أمر فى سنة ١٦١ هـ (٧٧٨م) أن تنزع جميع المقاصير من المساجد ، وأنها أعيدت بعد ذلك [٥].

---

(١) ابن خلدون : المقدمة، /ص : ١٨٨

(٢) المقريزى : الخطط ـ ج ٢/ص : ٢٥٠

(٣) السمهودى : الخلاصة ـ ص : ١٣٦

(٤) Quoted by Guest in the J.R.A.S., 1920, p. 632.

(٥) ابن دقماق : ج ٤/ص ٦٨ ، المقريزى : ج ٢/ص : ٢٥١

(٦) E.M.A., I, p. 33, ft. n. 6 ; Rivoira : Moslem Architecture, p. 365 ; Gomez-Moreno : Ars Hispaniae, III, Figs. 142, 145, 146, 153, 156, 159, 161,

ولم يقتصر استخدام المقاصير لصلاة الخليفة أو الوالى أو الحاكم بل ان المؤذنين أصبحوا يؤذنون داخل مقصورة جامع عمرو بن العاص الى أن أبطل الخليفة المعتصم العباسى ذلك ، وأمر بأن يؤذنوا خارجها •

ويوجد مربع يتقدم المحراب الذى جعله الحكم الثانى فى جامع قرطبة ويؤرخ فى القرن ١٠ ، هو المربع المحاط بالأعمدة التى تحمل عقودا مفصصة متشابكة ، وهناك من يميل الى اعتباره مقصورة • غير أننا لا نجد فى مجموعة الأعمدة والعقود التى تحملها ما يرجح هذا الظن •



ش : ٤٣٩ ـ دمشق ، بيت المال فى صحن الجامع الأموى

ومرة أخرى فان أقدم مثل صريح باق حتى الآن لمقصورة من الخشب صنعت بأسلوب العشرينات ، نجده أيضا فى جامع القيروان • وتحمل المقصورة اسم المعز بن باديس ، وتؤرخ فيما بينى سنتى ٤٠٦ ، ٤٤٠ هـ (١٠٦١ – ١٠٤٣ م) [١] •

وهكذا نجد فى المقصورة عنصرا ثانيا من العناصر التى ابتكرها العرب المسلمون بغير نزاع •

***

بيت المال والفوارة :

يبدو أن أول بناء لبيت المال أقيم على أرض مصر كان بجامع عمرو بن العاص، شيده أسامة بن زيد التنوخى متولى خراج مصر من قبل الخليفة سليمان بن عبد الملك وكان ذلك فى سنة ٩٧ هـ (٧١٥/٧١٦م) [٢] •

وقد روى الأستاذ كريسول خبرا خاصا ببيت المال هـذا اذ قال [٣] : « وبعد » « سنوات قليلة (٩٧هـ – ٧١٥/٧١٦م) شيدت حجرة فى مكان ما تحت الأروقة » « لبيت المال (أو الخزينة) ، ولكن لم نعـــرف بمكانها • وكان يدخل اليها من » « السطح بباب خفى Trap door » • ونسب الأستاذ كريسول مصادر الخبر الى المقريزى ، والى أبى المحاسن ، والى جلال الدين السيوطى [٤] •

وحاولنا أن نعثر على ذلك الخبر فى المراجع المذكورة ، فلم نجد فيها ســوى الشطر الخاص ببناء بيت المال على يدى أسامة بن زيد فحسب ، أما بقيته كما ذكرها الأستاذ كريسول فلم نجد لها أثرا فى تلك المراجع ولا فى غيرها • ويستوقف نظرنا هذا الخبر لأنه لو ثبتت صحته لكان للمرحوم الأثرى محمود أحمد العذر فى افتراض وجود بيت المال داخل ظلة المقابلة لظلة القبلة وذلك بناء على ما فهمه من ابن دقماق، وهى فكرة سبق أن أشرنا الى غرابتها والى بعدها عن أن تتفق مع أصول التصـــميم المعمارى لمســاقط المســاجد الجامعــة (صفحة ٣٧٣ – هامش ٢) • ولا زلنا نستبعد ذلك •

ويرجح لدينا احتمال أن بيت المال الذى بناه أســـامة بن زيد كان مكانه فى الصحن المكشوف بجامع عمرو ، وأنه كان يشبه بيت المال الموجود فى صحن الجامع الأموى بدمشق (ش : ٤٣٩) ، ويعاصر بناء الجامع نفســه الذى شــيده الوليد بن

(١) Saladin (H.) : La Mosquée de Sidi Okba à Kairouan, Pls. XXI-XXV ; Kuhnel : Maurische Kunst, Pl. 295.

(٢) ابن دقماق : جـ ٤/ص ٦٤ – ٦٥ ، المقريزى : جـ ٢/ص : ٢٤٩

(٣) E.M.A., I, p. 100.

(٤) المقريزى : جـ ٢/ص ٢٤٩ ، النجوم الزاهرة : جـ ١/ص : ٨٠ ، حسن المحاضرة : جـ ٢/ص : ١٣٦

عبد الملك في سنة ٩٦هـ (٧١٤م) . ويتكون بيت المال من حجرة مثمنة المسقط تعلوها قبة نصف دائرية وترتفع الحجرة عن أرضية الصحن فوق ثمانية أعمدة أسطوانية حتى لا يمكن الوصول اليها الا بواسطة سلم متحرك يوضع عند بابها الوحيد عندما يتطلب الأمر الدخول اليها لأخذ بعض ما فيها من مال أو اضافة بعض آخر اليه . وكل ذلك حرصا على مال المسلمين ، اذ أن وضعه وسط الصحن يجعل كل من يريد الدخول اليه ظاهرا أمام الناس الذين لا ينقطعون عن ارتياد الجامع من الفجر الى المساء . وفكرة رفعه عاليا عن وجه الأرض فوق الأعمدة يزيد من فرص الحرص عليه والكشف عمن يحاول الوصول اليه . ولكن على الرغم من كل تلك الحيطة يقال ان قوما من العلويين جاءوا الى مصر نجحوا فى نهب بيت المال الذى فى صحن جامع عمرو فى عام ١٤٥ (٧٦٢ م) ، ثم اختلفوا فى قسمته فانكشفوا . كذلك حدث أن نفذ لص الى بيت المال هذا فى امارة أحمد بن طولون وسرق منه بدرتى دانير فظفر به ابن طولون ثم عفا عنه [١] .

وفى سنة ٣٧٨هـ (٩٨٨م) أمر العزيز بالله الفاطمى أن تعمل الفوارة تحت قبة بيت المال [٢] ، أى تحت الحجرة العالية . وهى أول فوارة عملت بجامع عمرو بن العاص . غير أن ماءها قد تسبب فى بعض أضرار لحقت بجدران الجامع ، فأبطل جريانه من النيل فى أيام الظاهر بيبرس ، ثم أعيد جريانه اليها من البئر بزقاق الأقفال فى أيام السلطان المنصور قلاوون [٣] .

وتسبق الفوارة التى كان شيدها أحمد بن طولون فى وسط صحن جامعه بالقطائع فوارة جامع عمرو فى التاريخ . وقد أشرنا من قبل (ص : ٢٣٩) الى أن فوارة ابن طولون كانت تعلوها قبة مذهبة مشبكة من جميع جوانبها ، وتقوم على عشرة عمد ، ويحيط بها ستة عشر عمودا فى جوانبها وكلها من الرخام ، كما فرشت أرضيتها أيضا بالرخام ، ووضع حوض على هيئة « قصعة » من قطعة واحدة من الرخام قطرها متران ، وفى وسطها فوارة تفور بالماء . ثم احترقت وأعيد عملها سنة ٣٨٥هـ (٩٩٥م) بأمر العزيز بالله الفاطمى [٤] ، مثلما حدث فى فوارة جامع عمرو بن العاص .

وهكذا نجد لدينا عنصرا آخر أوجدته الحضارة العربية الاسلامية ويضاف الى مجموعة العناصر التى ابتكرها الفنانون العرب المسلمون .

---

(١) المقريزى : الخطط ـ جـ ٢/ص : ٢٦٧ ـ ٢٦٨

(٢) المقريزى : الخطط ـ جـ ٢/ص : ٢٥٢

(٣) ابن دقماق : جـ ٤/ص : ١٢٣ ، المقريزى : جـ ٢/ص : ٢٦٧ ـ ٢٦٨

(٤) القلقشندى : صبح الاعشى ـ جـ ٣/ص : ٣٣٥ ، المقريزى : الخطط ـ جـ ١/ص :

خاتمة المجلد الأول

نصل مما سبق من حديث فى فصول الكتاب الى بضع ملاحظات ونتائج خاصة بنشأة وتطور العمارة العربية ، وبصلتها بالحضارة فى العالم العربى الاسلامى بوجه عام ، وفى مصر العربية الاسلامية بوجه خاص .

فقد رأينا أن القول بوجود فراغ حضارى فى منطقة الحجاز ، وبعدم دراية تلك المنطقة بالعمارة قبيل الاسلام وفى عصره المبكر ، رأينا أنه ما هو الا افتراض لا يقوم على أى أساس ، وأن الجهد الذى بذل فى سبيل تأكيد هذا الفرض قد ذهب هباء ، وأن البراهين التى سيقت قد افتعلت أو انتزعت من لا شىء . وذلك بسبب بسيط واضح لا يحتاج الى شرح أو تأكيد هو : أن منطقة الحجاز لم تقم فيها حتى الآن أية محاولات للبحث عن آثار ومخلفات الحضارات والعمارة هناك ، ولم تقم لذلك أية دراسات علمية يعتمد عليها فى تكوين نظريات وآراء سليمة عن العمارة والحضارة هناك منذ عصور الجاهلية حتى وقتنا هذا . ولذلك فان الاستشهاد بعدم وجود مخلفات معمارية فى تلك البقاع دليل واه لا يعتد به بل هو ليس بدليل على الاطلاق . ذلك أننا رأينا أن المنطق المعروف عن تطور البشر ، سواء كانوا متجمعين مع بعضهم فى أعداد كبيرة أو صغيرة ، يعارض تماما تلك النظريات والآراء . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فانه يبدو أن معنى العمارة لم يكن واضحا تماما خلال تلك المناقشات لمن أقدم عليها وتجرأ على أن يقحم نفسه فيها .

أضف الى ذلك أننا قد استعرضنا الأخبار المتناثرة عن الأقوام الذين كانوا يسكنون الحجاز فى ضوء الظروف الجغرافية والجيولوجية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها مما كان يسود تلك البقاع ، كما استعرضنا علاقاتهم ببعضهم وبغيرهم من الأقوام فى البقاع المحيطة بهم . ثم وصلنا من ذلك كله الى أنه كان هناك من غير شك نوع أو أنواع من الحضارة ومن العمارة ، لها خصائص ومميزات لسنا نملك حتى الآن من الأدلة ما يساعدنا على معرفة مستوياتها وقيمها . ولكن على الرغم من ذلك فان هذا الغموض لا ينبغى أن يؤخذ دليلا على انعدامها ، وذلك للأسباب التى ذكرناها . ولا نظن أن هناك ذرة من الشك فى أنه لو أجريت حفائر فى تلك البقاع التى كانت مأهولة فى وقت من الأوقات لكشفت عن مخلفات توضح تلك القيم والمستويات . والى أن يحين هذا الوقت فانه ليس من منهج البحث العلمى السليم محاولة وضع نظريات عنها ، سواء بالحط من قدرها أو بالارتفاع به .

ولكن الذى لا يمكن اغفاله أو غض النظر عنه أن عرب الحجاز الذين ولد النبى محمد بين ظهرانيهم ثم نزل الوحى عليه وهو فى وسطهم ونبع الاسلام بينهم

وفاض عليهم وآمن به جماعة بعد أخـرى ، أولئك العرب قد أصبحوا قوة جبارة جارفة ، خرجت منطلقة من تلك البقاع لتسـود وتفرض اللغـة العـربية والدين الاسلامى بتعاليمه وتقاليده ، ويقوم على أساسها مجتمع واضح المعالم وحضارة وعمارة محددة الخصائص • وقد حدث كل ذلك فى بضع سنين ، أى فى وقت يعد قصـيرا غاية القصر اذا قسناه بالفترات والقرون الطويلة التى استغرقتها الحضارات المعروفة لتصل الى معالم واضحة • ولا بد اذن أن يكون أولئك العـرب الذين تدفقـوا من الحجاز على العالم الاسلامى قد فرضوا شخصيتهم وطرق تفكيرهم على الاتجـاهات الفنية والمعمارية لتلك الحضارة الناشـئة ، فكانوا اذن على أقل تقـدير بمثـابة الرأس التى تخطط ثم توجه وتقود الأيدى التى أسند اليها القيام بتنفيذ مقتضيات ومطـالب الحضارة الجديدة ، سواء كان أصحاب تلك الأيدى من جنس عربى أو من أى جنس آخر ، وعلى دين الاسلام أو على أى دين من الأديان السماوية أو غيرها • ولكننـا نعود الى القول بأننا لا نملك ما يهدينا الى مدى ما نقله أولئك العرب من موطنهـم الأصلى ومن مهبط الوحى من الملامح والخصائص الحضارية الى دولتهم التى كونوها الأصـلى ومن مهبط الوحى من الملامح والخصائص الحضارية الى دولتهم التى كونوها ذلك •

وليس معنى هذا أنه ينبغى الاقلال من أثر الأقوام المختلفة الجنسيات الذين دخلت أقطارهم ضمن الدولة العربية ، ولكن كذلك لا تنبغى المبالغة فى ذلك الأثر الى ذلك الحد من التطرف الذى وصل اليه بعض العلماء الغربيين الباحثين فى العمارة والفنون والحضارة •

ذلك أننا رأينـا (ص ١٨٣ ــ ٢٢٧) أنه لم يدخـل فى نسيج ثوب العمـارة العربية الاسلامية فى العصور المبكرة سوى تفاصيل وزخارف فحسب • أى مجرد ظواهر سطحية لا تدخل فى صلب العمارة وجوهرها الحقيقى ، وهما اللذان يتمثلان فى التخطيطات الشاملة والتكوينات المعمارية التى كانت عربية اسلامية ما فى ذلك شك أو ابهام • ورأينا أنه لا قيمة البتـة لوجـود مثلين فقط من التخطيطات ، يبدو فى أحدهما ــ وهو قبة الصخرة ــ تأثير مسيحى ، ويبدو فى الآخر ــ وهو استدارة مدينة بغداد ــ تأثير بعيد يأتى من العصر الفارثى فى العراق ، أى من نحو ثمانية قرون • وهما مثلان يذوبان تماما وسط آلاف الأمثلة العربية الاسـلامية الخالصة فى الشرق والغرب ، وعلى طول حقبة من الزمن تصل الى ثلاثة عشر قرنا • فلا يعدو ذلك التأثير اذن أن يكون مثله كمثل ذرة فى محيط ، أو كمثل شرارة ضئيلة خبت فور لمعانها •

ورأينا كذلك أن محاولات تأكيد أثر غير المسلمين وغير العرب على العمارة العربية الاسلامية كانت تقوم أحيانا على بعض أقوال وروايات المؤرخين القدماء ، وذلك بانتزاع وافتعال المعانى التى تخدم ذلك الهدف . ولم توفق تلك المحاولات فى أغلب الأحيان ؛ اذ تسبب عدم التعمق فى اللغة العربية من ناحية ، وتسلط روح التحامل من ناحية أخرى ، فى الوقوع فى عثرات مؤسفة فى كثير من الأحيان ، وطريفة فى بعضها . كذلك يتطلب المنهج المحايد السليم تناول كل الأقوال والروايات التى وردت فى كتب المؤرخين العرب عن الموضوع الواحد بالفحص والتحليل فى حرص شديد ، وبخاصة أمام تعدد الروايات فى كل مرجع ، وأمام الضعف وملامح الأساطير التى تبدو فى بعضها ، وبذلك بدلا من ذكر قول يخدم هدفا معينا ثم اغفال ما لا يتفق معه . وما كان يصح تلمس خبر رواه المؤرخون العرب ويتصل بعمل قام به أو اشترك فيه غير العرب وغير المسلمين ليحاط بهالة من التعظيم والاكبار وينفخ فيه الى حد الانفجار ، بينما يحطم ما لا يقول بغير ذلك أو يستهان به أو يغفل تماما . مع أن معظم ما جاء فى تلك الروايات لو فحص فى أناة وحرص وحياد فى ضوء التحليل العلمى والأدلة المادية الواقعية المجسمة لاتضح أنه مدسوس على المؤرخين العرب ، كما رأينا فى عدة مواضع سابقة .

وقد رأينا كذلك أنه لم يذكر شىء عن تأثير عرب العراق وعرب الشام فى نشأة وتطوير العمارة والحضاة العربية الاسلامية . بل انه لا يذكر العراق فى أية مناسبة الا على انه منطقة نفوذ فارسية بل وكتابع لفارس ، وأن الشام منطقة كانت خاضعة تماما لنفوذ العمارة والحضارة فى العصر الرومانى ومن بعدها بسبب ما انبثق عنها فى العصر البيزنطى . وفى هذا كثير من الأجحاف بحق أهالى المنطقتين ، فمما لا شك فيه أن أهالى الشام قد طبعوا العمارة الرومانية بطابع عربى محلى صريح يتضح فى الآثار المعلومة الباقية فى منطقة البطراء (Petra) ، وفى تدمر وبعلبك وغير ذلك ؛ ثم انه كان لأهل الشام أيضا فضل كبير فى نشأة وتطوير العمارة البيزنطية نفسها .

ومن جهة أخرى فان فى العراق آثاراً معمارية هامة توضح بجلاء أنه كان يحتل المركز القيادى فى حضارات ذلك القسم الشرقى منذ العصور الأشورية والكلدية والسلوقية والفارثية والساسانية ، وتوضح كذلك أن فارس كانت تابعة للعراق فى جميع مراحل حضاراتها فى كل العصور فيما عدا فترة قرنين من الزمن أيام الأخامينيين الذين قامت حضارتهم على أسس من التقاليد الأشورية من بلاد العراق . وأنه ما كادت تزول دولة الأخامينيين حتى عادت فارس تابعة للعراق كما كانت ، وعاد

العراق الى احتلال مركزه القيادى مرة أخرى ، وذلك منذ فتح الاسكندر حتى الفتح العربى الذى جعل منها قطعة من الدولة العربية لا تختلف عن أى جزء آخر منها الا فى بقايا لغتها الأصلية الى جانب اللغة العربية ، وكان لعلمائها جولات وابحاث قيمة فى الدراسات العربية من دينيةولغوية وغيرها ، مما يجعلها جديرة بأن تسمى بفارس العربية منذ ذلك الحين ٠

ومهما يكن من أمر فان أولئك الأقوام ـ الذين بولغ فى مقدار ما ساهموا به فى نشأة وتطور العمارة والحضارة العربية الاسلامية ـ كان كثير منهم ، ان لم يكن معظمهم ، عربيا من قبائل تنتشر فى مناطق الشام والعراق ٠ وليس من شك فى أنهم أخذوا يعتنقون الاسلام جماعة بعد أخرى ، ويسبقهم فى ذلك من كان يقيم منهم بالمدن والعواصم لاتصالهم المباشر بالعرب المسلمين النازحين من الحجاز ٠ وهكذا حيث كان يسرى الدين الاسلامى وعقائده بين أقطار الدولة الناشئة كانت تسرى معه الدماء العربية وتتغلغل بين أهلها ٠ فيزيد الاسلام من قوة الترابط بينهم من ناحية وتزيد صلات الرحم من تلك القوة من نواح أخرى ٠ ومن ثم فقد اشترك الجميع فى الارتفاع بصرح الحضارة العربية الاسلامية التى وضحت معالمها منذ اللحظات الأولى ، وانطبعت صورها وسماتها على العمارة وتقاليدها ، مع غلبة الطابع العربى الذى كان أساسا متينا لها والذى تأصلت جذوره فى تلك البقاع ، فأخذ يطغى على أى طابع آخر ويذوّب أية خصائص غير عربية وغير اسلامية ٠

ولذلك كله فانه لا يمكن أن يتكامل الحديث عن العمارة والحضارة فى قطر من أقطار الدولة العربية الاسلامية الا على أنه جزء من تلك الدولة وبخاصة فى العصور المبكرة حيث كانت نشأتها وتطوراتها فى المراحل الأولى تتشابه فى جميع الأقطار التى جمعت بينها الروابط السياسية والدينية والاجتماعية واللغوية ٠ واستمرت تلك الروابط تجمع بينها ويساعدها على ذلك انتشار وتغلغل الجنس العربى وما كان يسرى من دماء عربية فى عروق الأغلبية من الأهالى فى كل قطر من الأقطار ، سواء كان ذلك بسبب الأعداد الكبيرة من العرب الذين تتابعوا عليه مع الفتوح وأخذت تتزايد بعدها ، أو كان بسبب ماحدث من امتزاج هؤلاء العرب بالأهالى الأصليين من الأجناس الأخرى بالتزاوج والمصاهرة ، وبخاصة بعد أن اعتنق جميع أولئك الأهالى الأصليين الدين الاسلامى فى أغلب أنحاء الدولة العربية فى الشرق والغرب ، ولم يبق الا أقليات ضئيلة من الناس فى بعض الأقطار الأخرى لم يعتنقوا الاسلام وبقوا على دينهم فلم تمتزج دماؤهم فيها بالدماء العربية ، ولكنهم على الرغم من ذلك فقد غلبت عليهم التقاليد العربية والطابع العربى فى جميع نواحى حياتهم ، فيما عدا ناحية طقوس دينهم

الذى بقوا عليه ، واندمجوا فى المجتمعات العربية كأفراد ولا يختلفون عن العرب فى شىء الا فيما يتصل بتلك الطقوس ، فكانت لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات ، وكانت بنائهم هى نفس البيئات • وقد تجلى كل ذلك بوضوح كبير فى طراز العمارة وأنواع العمائر ، اذ سادت تقاليد العمارة العربية الاسـلامية واختفى ما عداها من تقاليد الا فى العمائر الدينية المسيحية ، التى لم تسلم بدورها من الخضوع للتقاليد العربية الاسلامية فى ناحية أو فى أخرى •

***

والحديث عن العمارة والحضارة العربية فى مصر الاسلامية فى عصر الولاة الذى خصصنا له هذا الكتاب لم يكن ليستقيم بدوره الا بعرض عام للظروف والعوامل التى أحاطت بنشـأتها فى منطقة شرق العـالم العربى كله ، وهى المنطقة التى انبثقت منها مراحلها الأولى وسبقت غيرها فى وضوح ملامحها فيها •

وقد رأينا فى هذا العرض أن العمارة العـربية الاسـلامية قد بدأت منذ أول مراحلها جلية الخصائص والمميزات ، فان جوهرها لم يتأثر بأى تأثير غير عربى أو غير اسلامى ، وذلك من ناحية تخطيط أنواع العمائر من مساجد ومساكن وغيرها ومنذ اللحظات الأولى من الهجرة النبوية • فقد خطط الرسـول مسجد على نظام لا يشـبه أى نظام سابق ، ولم يمض ربع قرن حتى تكامل شكل المسجد الاسلامى واتضحت عناصره فأصبح بذلك النموذج الرئيسى للمسجد فى جميع الأقطار والعصـور العربية الاسلامية فى الشرق والغرب • الى أن تطرق تأثير بيزنطى صريح الى تخطيط المساجد منذ فتح العثمـانيين للقسطنطينيـة ، وهو أمر لم يحـدث فى بدء تكوين العمـارة الاسلامية •

وكذلك يتضح جوهر العمارة العربية الاسـلامية فى تخطيط القصـور الأولى فى الشام والعراق وفى توزيع الوحدات داخل التخطيط العام ، بل وفى تخطيط تلك الوحدات ، وذلك على الرغم من تأثر تلك الوحدات بسوابق فى الشام أو العراق •

أما مصر الاسـلامية فى الفترات المبكرة بعد الفتح العـربى ، فبالاضافة الى أن مركزها الجغرافى الممتاز قد جعلها بمثابة حلقة الوصل بين الشرق والغرب ، فان دورها فى نشأة وتطور الحضارة العربية الاسلامية كان من الأدوار الرئيسية البارزة ، اذ لم يقتصر أمرها على ربط أقطار الدولة ببعضها أو تيسير انتقال التيارات الحضارية عبرها بين الشرق والغرب أو بالعكس وحسب ، بل انها تبوأت الى جانب الشام والعراق مكانا قياديا واضحا فى تطوير تلك الحضارة من النواحى الدينية والثقافية والاجتماعية

بل والسياسة • وأصبحت هى الأخرى مركزا من المراكز التى يتدفق منها على غيرها تيارات من تلك النواحى الحضارية ، لها قوتها وخطلها • ورأينا من الاسانيد التاريخية ما يكفى لتوضيح دور مصر هذا •

غير أننا لا نملك من الأدلة المادية وليس لدينا من المخلفات الأثرية ما يوضح لنا حلقات مراحل التكوين والتطور التى سارت فيها العمارة العربية فى مصر الاسلامية فترة تبلغ نحو قرنين من الزمن من بعد الفتح العربى • وليس يكفينا فى الاهتداء الى بعض تلك الحلقات الأولى ما وصل الينا من أخبار وروايات جاءت فى مراجع المؤرخين العرب القدماء • ذلك أن تلك الروايات ـ سواء ما كان منها يتعلق بالعالم العربى عامة أو بمصر خاصة ـ كان الحديث فيها عن العمارة وتفاصيلها ليس دقيقا أو واضحا تماما فى بعض الأحيان ، ومبهما فى أحيان أخرى ، وذلك بسبب عدم دراية أولئك المؤرخين بالعمارة وتفاصيلها ومصطلحاتها وأسلوب التعبير عنها بدرجة كافية • وهذا كله لا يساعد على الانتفاع بها كثيرا فى تصور ما كانت عليه أنواع التخطيطات للعمائر المختلفة وعناصرها وزخارفها وبخاصـة أمام ضياعها وأندثارها ، وهـذا الى جانب ما يوجد فى تلك المراجع من تضارب واختلاف وتعدد فى الروايات عن الموضوع الواحد كما رأينا فى عدة أمثلة من قبـل • ولكل تلك الأسباب فاننا نسـتعين بالآثار المعمارية العربية الباقية فى كل من الشام والعراق من تلك الفترة لنتصور ما كانت عليه أنواع العمائر المبكرة فى مصر وصفاتها العامة ، مع تلمس ما يساعدنا على ذلك فى المراجع العربية القديمة على قلة ما ذكر فيها وعدم وضوحه كما سبق القول ، ومع الحرص الشديد عند الاستعانة بما جاء فى تلك المراجع للأسباب التى أبديناها •

وكل ما يمكن قوله عن العمارة العربية فى مصر الاسـلامية فى فترة القـرنين الأولين أن تخطيط أول مدينة عربية أقيمت على أرض مصر الاسلامية وهى الفسطاط كان لا يخضع لنظام هندسى منتظم وضع لها لتنشأ وتتسع على أساسه فى الفضاء الذى وقع عليه اختيار الفاتحين العرب الى الشمال من حصن بابليون الذى أصبح بعد الفتح خطة أو حيا من أحيائها تقوم فيه أنواع العمائر المختلفة وترتفع فيه المساجد والكنائس جنبا الى جنب وهو الفضاء الذى كان يبدأ من شاطىء النيل فى ذلك الوقت ، والذى شيد عنده جامع عمرو بن العاص • وهذا التخطيط غير المنتظم للمدينة يتضح جليا فى جزء من البقعة التى كشفت عنها الحفائر •

وكان تخطيط أول مسجد شيده عمرو بن العاص وأصحابه ساذجا ومساحته صغيرة • ولا ندرى بالضبط اذا كان قد تبع تخطيط مسجد الرسول بالمدينة ، وذلك من حيث وجود صحن مكشوف يتوسطه ومن حيث وضع ظلة فى جانب منه أو أكثر ،

أو كانت تلك المساحة الصغيرة ظلة واحدة فحسب كما كان الأمر فى مسجدى البصرة والكوفة الأولين •

وأغلب الظن أن منازل المسلمين من العرب وغير العرب ، الذين جاءوا مع عمرو بن العاص ومن بعده وأقاموا فى خطط الفسطاط التى أقطعت لهم ، كان تخطيطها يحتوى على وحدات تشبه فى ناحية أو أخرى ما كان فى دور المسلمين فى الشام والعراق • وأن بعض التخطيطات التى كشفت عنها الحفائر فى منطقة الفسطاط وثبتت نسبتها الى العصر الطولونى لا نستبعد أبدا أن تكون قد ظلت تحتفظ ببعض بقايا التخطيطات وأنواع الوحدات التى كانت مستعملة فى عصر الولاة ، وبخاصة ولاة العباسيين ، وانها ظلت كذلك حتى العصر الفاطمى •

وتعطينا أقوال المؤرخين فكرة مقربة عما كان بالفسطاط من أنواع العمائر الأخرى من المبانى العامة مثل المارستانات ودور الشرطة والمحارس ، والقيساريات ـ أى الأسواق المقفلة ـ والأسواق العامة ، والمخابز ومصانع السكر والصابون والنسيج والمعادن وغير ذلك من أنواع الصناعات ، وعن وسائل الحصول على الماء للعمائر اما من النيل بحمله على الدواب أو نقله على قناطر أو بحفر الآبار ، وعن النشاط التجارى فى العاصمة حيث كانت مركزا ذا صيت ذائع للتجارة ، ترد اليها بضائع الدنيا وتصدر الى العالم مصنوعاتها ومنتجاتها المحلية وغير المحلية •

ويأتى القرن الثالث الهجرى (٩م) بما يعوضنا الى حد ما عما افتقدناه فى القرنين السابقين • فقد بقيت آثار معمارية لا نقول عنها أنها كثيرة كافية كما نطمع دائما ، ولكنها على كل حال تملأ فجوات ليست بالقليلة فى معلوماتنا عن العمارة العربية فى مصر الاسلامية وعن تطوراتها لا فى هذا القرن وما بعده فحسب ، بل ربما وضحت شيئا من التطورات الماضية فى القرنين السابقين • ويكاد ينحصر فى هذا القرن الثالث كل ما وصلنا من آثار العمارة العربية فى جميع أنحاء مصر فى عصر الولاة باستثناء أثر واحد ينسب الى العصر الاخشيدى ، أى فى النصف الأول من القرن التالى •

فلقد وصل الينا من مستهل القرن الثالث الهجرى (٩م) ما يعد أقدم أثر معمارى لا يزال قائما على أرض مصر العربية هو بقايا جامع عمرو بن العاص التى تنسب الى سنة ٢١٢هـ (٨٢٧م) • وتتمثل تلك البقايا فى بعض الجدران الخارجية للمساجد ، ومن هذه البقايا ومن بقايا الشبابيك فيها وبقايا عقود البائكات القديمة بالاضافة الى ما أجرى من حفائر للكشف عن أساسات البائكات ، يمكن بذلك مجتمعا مع بعض المعلومات التى ذكرها بعض المؤرخين الاهتداء الى التخطيط الأصلى الذى شيد عليه المسجد فى ذلك التاريخ ، وذلك بعد أعمال متتالية من الهدم والبناء والتوسيع والتعمير

تصل الى أكثر من عشر مرات فى تواريخ مختلفة خلال القرنين الأولين • وتوضح تلك البقايا خصائص معمارية محلية لمصر العربية تميزها عن الخصائص فى البلاد الاسلامية الأخرى ولكنها فى الوقت نفسه لم تخرجها عن الاطار العربى الاسلامى الذى يضمها كلها داخله ، ولم يبعدها عن بقية تلك الأقطار فى الشرق والغرب وخاصة من ناحية التخطيط والوحدات الرئيسية •

وتتجلى تلك الخصائص مرة أخرى فى ثانى أثر معمارى قائم هو مقياس النيل بجزيرة الروضة والذى يعد مفخرة للمهندسين والصناع العرب فى مصر الاسلامية وذلك من حيث التصميم وأسلوب التنفيذ ودقته والعناصر والتفاصيل الزخرفية •

وتتجلى تلك الخصائص أكثر ما تتجلى فى الجامع الذى بناه أحمد بن طولون والذى قيل خطأ عنه أنه قطعة معمارية عراقية قامت على أرض مصر • ذلك أن تخطيطه الذى تبع النموذج الرئيسى الذى انبثق من المسجد النبوى بالمدينة يختلف كثيرا بشكله المربع وفى توزيع الأروقة داخل الظلات عن الشكل المستطيل الذى شيد عليه كل من جامع سامرا الكبير وجامع أبى دلف فى العراق ونظام توزيع الأروقة داخل ظلات كل منها • كما يختلف جامع ابن طولون فى كثير من تفاصيله وعناصره عما يقابلها فى المسجدين العراقيين مثل أشكال العقود والشرافات وفتحات الشبابيك الى غير ذلك • وجامع ابن طولون أقرب كثيرا من ناحية التخطيط والتفاصيل المعمارية الى جامع عمرو بن العاص منه الى مسجد سامرا ، بل ان الزخارف الجصية التى تزين الجدران والبائكات التى تمت بصلة القرابة لزخارف سامرا قد تطرق اليها تطور واضح جعل لها ملامح خاصة جلية • ولعل المئذنة التى شيدت فى أيام ابن طولون كانت لها شخصيتها المختلفة أيضا برغم صلتها بملويتى سامرا ، وهى الصلة التى غمضت علينا بسبب اندثار المئذنة الأولى • ومهما يكن من أمر فان أوجه الشبه والقرابة بين التفاصيل والزخارف لا يصح كما قلنا أن تؤخذ على أنها هى العمارة •

وقد رأينا أن كنيسة العذراء فى دير السريان بوادى النطرون هى التى يمكن أن توصف بأنها قطعة معمارية عراقية بمحرابها الاسلامى الخالص الذى وضع فى جدارها الشرقى وبزخارفها الجصية التى تزين جدرانها والتى تمت بصلة قرابة وشبه قوى بزخارف سامرا أكثر مما يوجد فى جامع ابن طولون •

وامتاز عصر أحمد بن طولون بنشاط معمارى كبير • اذ امتدت رقعة العاصمة (الفسطاط) مرة ثانية بعد أن تضاعفت مساحتها من قبل بعد انتهاء حكم الأمويين وقيام دولة العباسيين ، وأضاف أول وال عباسى حيا جديدا ، أو مدينة جديدة ، كما كان

يحلو للمؤرخين القدماء اطلاقه على العسكر • ثم صارت العاصمة ثلاثة أضعاف ما كانت عليه فسطاط الامويين باضافة قطائع ابن طولون فى نفس الاتجاه الشمالى الشرقى الذى حدثت فيه العسكر وشيد فى نهايتها عند سفح جبل المقطم قصرا منيفا وملعبا وحدائق غناء ، فكان أول من تولى أمور مصر واتجه الى الأبهة والتغالى فى أسباب الرفاهية •

واهتم ابن طولون ببناء مارستان للمرضى ، كما اهتم بايصال الماء الى المناطق البعيدة جهة القرافات عند سفح المقطم ، وذلك عن طريق بناء قناطر المياه التى بناها مبتدئة من عند بركة الحبش فى جنوب الفسطاط والتى رجحنا أنها كانت تمتد الى قصره العظيم عند القلعة •

ونتج عن نزعة ابن طولون الى الاستقلال بمصر والخروج على طاعة الخليفة العباسى أن نشأت حالة تهديد بالحرب من الجيوش العباسية ، مما دعا ابن طولون الى بناء حصن له بجزيرة الروضة سار فيه شوطا ليس بالقليل ، ثم أوقف العمل فيه بمجرد أن علم بموت قائد الجيش الذى كلف بالزحف على مصر • ويوضح لنا الاتجاه الى بناء هذا الحصن حقيقة حضارية هامة هى أن العاصمة لم تكن محصنة منذ أول نشأتها ، مما يدل على حالة الاستقرار والأمن التى كانت تسود داخلية البلاد • وعلى أن الوفاق قد قام منذ أول لحظات الفتح بين العرب والقبط على عكس ما كان قائما من كراهية بين الحكام البيزنطيين وبين نصارى مصر مما دعا البيزنطيين الى بناء الحصون داخل البلاد ، وكان منها حصن بابليون الذى فتح المسلمون أبوابه وجعلوه خطة أى حيا من أحياء العاصمة الفسطاط •

ويبدو أن عصر ابن طولون والفترة التى سبقته قد قامت فيها أحداث كانت تهدد البلاد على حدودها الجنوبية عند أسوان من جهة النوبة ، فكانت المعارك تتوالى بين سكان تلك المناطق من العرب والمسلمين من ناحية وبين أهالى النوبة وبعض القبائل غير العربية التى كانت تسكن منطقة أسوان وما بينها وبين البحر الأحمر من ناحية أخرى• وانعكست هذه القلاقل على النشاط فى منطقة الصعيد الأقصى ، ووصلت الينا مخلفات معمارية توضح بعضا من حلقات تلك القلاقل • منها ما شيد ليترقب التهديد بالحرب ، وكان على هيئة أربطة أو حصون صغيرة بها مسجد صغير له مئذنة هى فى حقيقة الأمر برج للمراقبة والانذار • وشيدت فى مناطق متباعدة ولكنها مع ذلك تتيح الفرصة لأن يرى بعضها البعض ، بحيث ينتقل الانذار بالاشارات من مئذنة الى أخرى فى سلسلة متصلة الحلقات حتى يصل الى قاعدة والى الصعيد التى كانت تقوم غالبا فى مدينة قوص •

أما المخلفات المعمارية الأخرى فقد شيدت نتيجة لتلك الحروب والمعارك وهى

مقابر وأضرحة اندثر كثير منها بفعل العوامل الجغرافية وبقى القليل قائما لا نعلم تاريخه الا على أساس التحليل المعمارى والموازنات فحسب • أما شواهد القبور التى كانت بها ويصل عددها الى نحو ألف شاهد فقد انتزعت من أمكنتها التى كانت هذه الشواهد تؤرخها تأريخا لا شك فيه ، وجمعت فى المخازن بغير أن تعين الأمكنة التى كانت بها ، وبذلك ضاعت الأدلة الحاسمة التى كانت تساعد على تتبع تطور الأعداد الكبيرة من العمائر وما تحتوى عليه من عناصر معمارية هامة • ولكن على الرغم من أن ما حدث يعد كارثة أثرية معمارية ، فانه يمكننا استنتاج بعض المعلومات الحضارية من تلك المخلفات منها : أن الجنس العربى قد انتشر انتشارا واسعا فى جميع أنحاء الديار المصرية بدليل الأسماء العربية التى سجلت على معظم شواهد القبور التى عثر عليها • ومنها أنه كان من بين من قام ببناء تلك الأضرحة والقبور عرب من العراق ومن فارس ومن الشام ومن شمال افريقية ، وذلك بدليل الظواهر المعمارية المختلفة التى امتزجت بعضها ببعض فى تلك العمائر •

وأخيرا رأينا أن محاولات نسبة أسس العمارة الاسلامية العربية الى غير العرب وغير المسلمين قد باء معظمها بالفشل ومنها ما شمل عناصر معمارية تعد من أبرز سمات العمارة الدينية مثل المحراب والمنبر والمئذنة والمقصورة والفوارة • ورأينا أن هذه العناصر قد أوجدتها مطالب الدين الاسلامى وطبعتها منذ اللحظات الأولى بملامح عربية اسلامية صريحة • أما العناصر الزخرفية فكان عدد منها ــ والحق يقال ــ قد اقتبس فى العصور المبكرة من الطرز السابقة ، ولكن هذا العدد لم يؤخذ ولم يوضع مع غيره كما هو ، بل وضع مختلطا بعناصر من طرز أخرى فى تكوينات تخضع لأذواق واتجاهات تمتاز بطابع جديد واضح هو الطابع العربى الاسلامى الذى أسرع بهذه العناصر فى طريق التطور بتغيير ملامحها حتى انتهى بها فى وقت قصير اما الى عناصر ذات ملامح جديدة ، أو نبذها بعد فترة وجيزة ، أو ضياعها وسط عناصر جديدة كل الجدة •

***

هذا ما وسعنا كتابته عن العمارة العربية الاسلامية وما تعكسه من سمات بارزة للحضارة فى العصر المبكر وبخاصة فى مصر فى فترة ثلاثة قرون ونصف تبدأ بالفتح العربى فى سنة ٢١هـ (٦٤١م) وتنتهى عند الفتح الفاطمى سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م) • ونرجو أن يكون فى العمر فسحة وفى الصحة بقية كى نخرج الكتاب الثانى عن نفس الموضوع فى فترة ثلاثة قرون تبدأ من الفتح الفاطمى حتى نهاية الدولة الأيوبية • والأمر بيده تعالى من قبل ومن بعد •

المراجع العربية

(ترتيب هجائى)

ابراهيم شبوح : « قصر هرثمة بن أعين بالمناستير » ـ مخطوط رسـالة للماجستير من كلية الآداب جامعة القاهرة باشراف الدكتور فريد شافعى .

الأثير (ابن) : الـكامل فى التاريخ .

اياس (ابن) : تاريخ .

أحمد تيمور : التصوير عند العرب ، (اخراج وتعليق الدكتـور زكى محمـد حسن) القاهرة ١٩٤٢

البكرى : وصف افريقية .

بطوطة (ابن) : رحلة . بولاق ١٩٣٣

الجبرتى : عجائب الآثار

جبير (ابن) : رحـلة .

جواد على :

الحاج (ابن) : المدخل

حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى .

حسن الباشا : التصوير الاسلامى .

حسن الباشا : الفنون الاسلامية على الآثار العربية ، ٣ أجزاء

حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ، جزءان ، لق. مع القاهرة ١٩٤٦

حسن عبد الوهاب : الرسومات الهندسية للعمارة الاسلامية ، (مجلة سومر عدد : ٢٤ ص : ٧٦ ـ ٨٧) بغداد ١٩٥٨

حسن الهوارى : أثر الفن الاسلامى فى الحضارة العالمية ، (مجلة الهندسة جزء : ١٤ ، ص : ٧٨ ـ ٩٠) القاهرة

حسين مؤنس : فى « تاريخ الحضارة المصرية » جزء : ٢ ، ص : ٣٤١ وما بعـدها . القاهرة

حوقل (ابن) : صورة الأرض ـ ليدن ـ ١٩٣٨

خلدون (ابن) : المقدمة (المطبعة البهية) القاهرة

خلدون (ابن) : العبر .

دقماق (ابن) : الانتصار لواسطة عقـــد الامصار ، (بولاق « مصر المحميـــة ») ١٣٠٩ هـ / ١٨٩٢ م

الدينورى : كتاب الأخبار الطوال .

رضاكحالة : معجم قبائل العرب .

زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ـ القاهرة ١٩٣٥

زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ـ القاهرة ١٩٣٧

زكى محمد حسن : تراث الاسلام (ترجمة) .

زكى محمد حسن : فنون الاسلام .

زكى محمد حسن : أطلس الفنون الاسلامية .

سعد (ابن) : طبقات .

سليم عادل عبد الحق : اعادة تشييد جناح قصر الحير الغربى فى متحف دمشق (مجلة الحوليات السورية ، ١٩٥١ ، ص ٦٠ ـ ٥٦٥)

السمهودى : خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى (ط. بولاق)

سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب .

السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة .

السيوطى : أعلام الاريب بحدوث بدعة المحاريب (مخطوط بدار الكتب المصرية . ورقات ١١٨ ـ ١٢٠)

صالح أبو الارمينى : كنائس وأديرة مصر (طبعة وترجمة ايفتس)

الطبرى : تاريخ .

عباس حلمى : « تطور المسكن المصرى الاسلامى من الفتح العربى الى الفتح العثمانى » (مخطوط رسالة للدكتوراه باشراف الدكتور فريد شافعى ، نالت تقدير جيد جدا) ـ القاهرة ١٩٦٨

عبد الحكم (ابن) : فتوح مصر وأخبارها ، (نشر ماسيه) ـ القاهرة ١٩١٤

عبد الحكم (ابن) : فتوح مصر والمغرب (نشر تورى) ـ ليدن ١٩٢٠

عبد الرحمن فهمى : مجموعة النقود العربية وعلم النميات ، جزء ١ (فجر السكة العربية) ـ القاهرة ١٩٦٥

على بهجت والبير جابرييل : حفريات الفسطاط (ترجمة عن الأصل الفرنسى لعلى بهجت ومحمود عكوش) ـ القاهرة ١٩٢٨

على مبارك : الخطط الجديدة التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة القاهرة ١٨٩٠

فضل الله (ابن) العمرى : مسالك الأبصار وممالك الأمصار ٠

الفقيه (ابن) : مختصر كتاب البلدان ٠

القلقشندى : معالم الأناقة ٠

القلقشندى : صبح الأعشى ٠

الكندى : ولاة مصر ـ بيروت ١٩٥٩

المحاسن (أبو) : النجوم الزاهرة ـ القاهرة ١٩٢٩

محمود الحديدى : بيت الكريتلية ٠

محمود عكوش : الجامع الطولونى ـ القاهرة ١٩٢٢

مديرية الآثار القديمة ببغداد : حفريات سامرا ، ج ١ : الريازة والزخارف ، ج ٢ : الآثار المنقولة ـ بغداد ١٩٤٤

المسعودى : التنبيه والاشراف ٠

المسعودى : مروج الذهب ٠

المقدسى : أحسن التقاسيم ٠

المقريزى : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار

المنذر (أبو) هشام الكلبى : كتاب الأصنام (تحقيق أحمد زكى) القاهرة ١٩٢٤

ناجى (ابن) : معالم الايمان ٠

ناصر خسرو : سفر نامه (ترجمة يحيى الخشاب) القاهرة ١٩٤٥

النويرى : نهاية الارب ٠

هشام (ابن) : سيرة النبى صلى الله عليه وسلم (نشر محيى الدين عبد الحميد) القاهرة ١٩٣٧

الواقدى : تاريخ فتوح مصر ٠

ياقوت الحموى : معجم البلدان ٠

يحيى الخشاب : (أنظر ناصر خسرو) ٠

اليعقوبى : كتاب البلدان ٠

المراجع الأجنبية

(ترتيب هجائي)

Aly Bahgat : Fouilles d'Al Foustat, 1921.
Gabriel (A.) :
Aly Bahgat : (Syria, vol. IX, p. 62 ff.).
Arnold (Th.) : Painting in Islam, 1928.
Arnold (Th.)
Christie : The Legacy of Islam, 1931.
Briggs :
Baltrusaitis (J.) : Sasanian stucco, (Survey of Persian Art, vol. I, pp. 601-30), 1938.
Bayet (C.) : L'art byzantin, 1904.
Becker : Die Kanzel in Kultus des Islam, (Orientalische Studien Theodor Nöldeke).
Bell (G.) : Palace and Mosque at Ukhaidir, 1914.
Bell (G.) : Amurath to Amurath, 1911.
Berchem (marg. van) : The Mosaics of the Dome of the Rock, (in Creswell's : Early Moslem Architecture, vol. I, pp. 149-252), 1932.
Bourgoin (J.) : Précis de l'art arabe, 1892.
Bourgoin (J.) :
Breasted : A History of Egypt.
Briggs (M.) : Mohammadan Architecture in Egypt and Palestine, 1924.
Budge : By Nile and Tigris, 1920.
Butler (A.) : The Ancient Coptic Churches of Egypt, 1884.
Caetani (L.) : Annali dell'Islam, 1905-26.
Casanova (P.) : Essai de reconstruction topographique de la ville d'al Foustat ou Misr, 1913-19.
Creswell (K.A.C.) : Early Muslim Architecture, vol. I, Umayyad, 1932 ; vol. II, Umayyad Spain, Abbasid and Tulunid, 1940.
Idem : The Muslim Architecture of Egypt, vol. I, Fatimid, 1951 ; vol. II, Ayyubid and Early Mamluk, 1960.
Idem. : A Short Account of E.M.A., 1958.
Dalton : East Christian Art, 1925.
Idem. : Christian Ivory Carvings.
D'Espouy : Fragments d'architecture antique, 1933.
Devonshire (E.L.) : Quelques influences islamiques sur les arts de l'Europe, 1935.
Diehl (Ch.) : Manuel d'art byzantin, 1910.
Diez (E.) : Die Kunst des Islamischen Völker, 1917.
Dimand (M.) : Some Aspects of Umayyad and Early Abbasid Ornament, (Ars Islamica, IV, pp. 293-337), 1937.
Erdmann : Das Datum des Taqi Bustan, (Ars Isl., vol. IV), 1937.
Esquié : Traité élémentaire d'architecture.
Ettinghausen (R.) : The Bevelled Style in the Post Samarra Period, (Archaeologia Orientalia in Memorium Ernest Herzfeld, pp. 72-83), 1952.
Farid Shafei : West Islamic Influences on the Architecture of Egypt,

(Bull. of the Faculty of Arts, Cairo Univ., vol. XVI, Pt. II, 1954, pp. 1-19, with 41 figs. and 17 pls.), 1954.
Idem. : An Early Fatimid Mihrab in the Mosque of Ibn Tulun, (Loc. cit., vol. XV, Pt. I, pp. 67-81, with 24 figs. and 2 pls.), 1953.
Idem. : Simple Calyx Ornament in Islamic Art, (A Study in Arabesque), 1956.
Ferguson : History of Architecture, 3rd ed.
Fletcher (B.) : A History of Architecture on the Comparative Method, 17th ed., 1961.
Flury (S.) : Samarra und die Ornamente von Ibn Tulun, (Der Islam, vol. IV, pp. 421-432, 1 pl. and 8 illustrations), 1913.
Idem. : Die Gipsornamente der Der as-Surjani, (Loc. cit., vol. VI, pp. 71-87), 1916.
Gardner : Principles of Greek Art, 1933.
Glück (H.) : Die Kunst des Islam, 1915.
Diez (E.) :
Goodyear : Grammar of the Lotus.
Hamilton (R.W.) : Khirbet al-Mifjar, 1959.
Hamilton (J.A.) : Byzantine Architecture and Decoration, 1933.
Hamlin : History of Ornament, 1916.
Hasan Mohammad Al-Hawary : Une maison d'époque Tulunide, (B.I.E., t. XV, fasc. I, pp. 79-87, with 10 pls.), 1932/33.
Idem. : Trois minarets fatimides à la frontière nubienne, (Loc. cit., vol. XVII, pp. 141-145, with 4 plates), 1935.
Hautecoeur (L.) :
Wiet (G.) : Les Mosquées du Caire, 1932.
Herzfeld (E.) : Die Genesis des Islamischen Kunst und das Mscatta Problem, (Der Islam, I, pp. 27-63, with 4 pls., and 19 figs., pp. 105-144, 1 pl. and 4 figs.), 1910.
Idem. : Arabesque, (article in the Encycl. of Islam, vol. I, pp. 363-67), 1910.
Idem. : Der Wandschmuck der Bauten von Samarra und seine Ornamentik, 1923.
Idem. : Die Malereien von Samarra, 1927.
Idem. : Geschichte der Stadt Samarra, 1948.
Hoag (J.) : L'architecture islamique, 1962.
Hobson (R.L.) : A Guide Book of the Islamic Pottery of the Near East, 1932.
Kowalski : Der Diwan des Kais ibn al-Hatim.
Kühnel (E.) : Maurische Kunst, 1924.
Idem. : Die Arabesque, 1940.
Lammens : Taïf à la veille de l'hégire, (Mélange de l'Université St.-Joseph, Beirouth, vol. VIII, pp. 183 ff. and in Syria, vol. I, pp. 88 ff.).
Idem. : Ziad ibn Abihi, (Revista degli Studi Orientali, vol. IV).
Lane-Poole (St.) : The Art of the Saracens in Egypt, 1886.
Idem. : A History of Egypt in the Middle Ages, 4th edition, 1925.

Le Strange : Baghdad during the Abbasid Caliphate.
Lethaby : Architecture.
Marçais (G.) : Coupoles et plafonds de la Grande Mosquée de Kairawan, 1926.
Idem. : Manuel d'art musulman, 1926/7.
Idem. : Les échanges artistiques entre l'Egypte et les pays musulmans occidentaux, (Hesperis, vol. XIX, pp. 95-106, with 9 figs.), 1934.
Mayer (L.A.) : Mamluk playing Cards, (B.I.F.A.O.), 1939.
Musée Arabe : Répertoire chronologique d'épigraphies arabes, depuis 1931.
Musée Arabe : Stèles funéraires, vols. I-X, 1932-42.
Orbeli Trève : Orfévrerie sasanide, objets en or, argent et bronze, (Musée de l'Hermitage), 1935.
Pauty (Ed.) : Bois sculpés d'églises coptes, (époque fatimide), 1930.
Idem. : Sur une porte en bois sculpté provenant de Baghdad, (B.I.F.A.O., t. XXX, pp. 71-81, with 6 plates), 1930.
Pope (A.U.), ed. : A Survey of Persian Art, 6 vols., 1938.
Prisse d'Avennes : L'art arabe, après les monuments du Caire, I vol., texte, 3 vols., atlas, 1877.
Idem. : La décoration arabe.
Pyrce : L'art byzantin.
Tyler :
Quibell : Excavations at Saqqara, 1908-9.
Ricard (P.) : Pour comprendre l'art musulman dans l'Afrique du Nord et en Espagne, 1924.
Rice (T.) : Byzantine Art, 1954.
Richmond (E.T.) : Moslem Architecture, 1926.
Riegle (A.) : Stilfragen, 1935.
Rivoira (G.T.) : Moslem Architecture, 1918.
Saladin (H.) : La Mosquée de Sidi Okba à Kairouan, 1899.
Sarre (F.) : Die Kunst des Alten Persien.
Sarre (F. :
Herzfeld (E.), Sarre (F.), Herzfeld (E.) : Archaeologische Reise im Euphrat-und Tigris Gebiet, 4 vols., 1911/20.
Schlumberger (D.) : Les fouilles de Qasr al-Hair el-Gharbi, 1936-38, (Syria, vol. XX, pp. 195-238, Pls. XXVII-XXXIX and 2 ills., pp. 324-373, Pls. XLIV-XLVII and 18 ills., 1939.
Seaby (A.) : Art in the Life of Mankind, 4 vols., 1931.
Speltz and Spiers : The Styles of Ornament, 1910.
Springer (A.) : Kunstgeschichte.
Torresbalbas : Intercambios artisticos entre Egypto y el Occidente Musulman, (Al-Andalus, vol. III, pp. 411-21), 1935.
Villard (M. de) : Les églises du Monastère de Syriens au Wadi en-Natrun, 1928.
Idem. : La Necropoli Musulmana di Aswan, 1930.
White (Ev.) : The Monasteries of Wadi-Natrun, 1932.
Wörmann : Geschichts der Kunst.

فهرس الأعلام

(ترتيب هجائي)

(ا)

(ت)

(ح)

(خ)

(ذ)

(ر)

(س)

(ش)

(غ)

(ق)

(ن)

(هـ)

(ى)

المطبعة الثقافية

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٠/٥٤٨٥